الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

غزوة أُحُد (٢)

الدروس والعبر

في

غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

موسوعة شاملة لأحداث ودروس الغزوات والسرايا النبوية

غزوة أُحُد (٢)

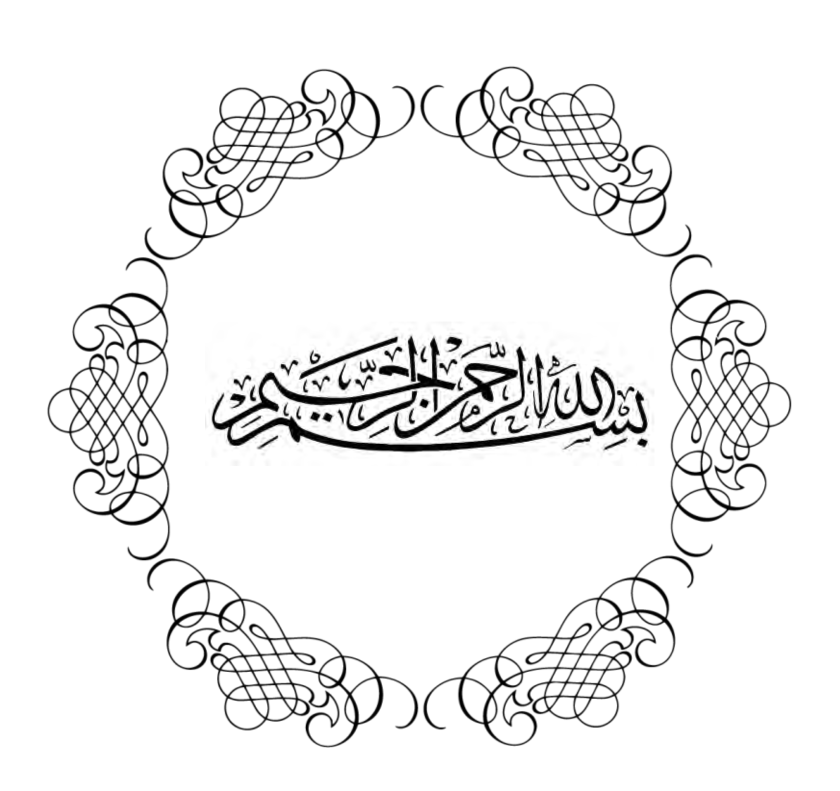
الباب الرابع: السرايا بين أحُد والأحزاب

الباب الخامس: الغزوات بين أحُد والأحزاب



غريب محمود قاسم

من علماء الأزهر الشريف


بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع

السرايا بين أحُد والأحزاب

تمهيد

الفصل الأول: سرية أبي سلمة رضي الله عنه إلى قَطَن (بني أسد): الخميس أول المحرم ٤ هـ /١٣ يونيه (حزيران) ٦٢٥م / ١٩ بؤنة ٣٤١ قبطي

الفصل الثاني: سرية عبد الله بن أُنَيْس الجُهَني رضي الله عنه لقتل خالد بن سفيان الهُذَلي الذي كان يحشد لرسول الله ﷺ: الاثنين ٥ المحرم سنة ٤ هـ / ١٧ يونيه (حزيران) ٦٢٥ م / ٢٣ بؤنة ٣٤١ قبطي

الفصل الثالث: سرية يوم الرجيع: صفر ٤ هـ / يوليه (تموز) ٦٢٥ م / أبيب ٣٤١ قبطي

الفصل الرابع: سرية بئر معونة (خيانة وقتل القراء السبعين): صفر ٤ هـ / يوليه (تموز) ٦٢٥ م / أبيب ٣٤١ قبطي

الفصل الخامس: سرية عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه لقتل أبي سفيان على أثر مقتل خبيب رضي الله عنه: ربيع الأول ٤ هـ / أغسطس (آب) ٦٢٥ م / مسرى ٣٤١ قبطي



تمهيـد

الموقف العام بعد غزوة أحد:

يقول الشيخ عرجون: «كانت غزوة أحد بأحداثها وأزماتها وشدائدها درسًا أفاد منها المجتمع المسلم كثيرًا من العبر في تصاريف الحياة وتقلباتها.

لقد فتحت محنة أحد أمام المجتمع المسلم الطريق، ليتعرف موقف المتربصين به دون إقدام على محاربته لما أصابهم من الدهش المذهل حين سمعوا دوي نصر بدر الذي ملأ قلوبهم رهبًا ورعبًا وهلعًا.

وكانت أخبار هؤلاء وهؤلاء ترد متوالية على رسول الله ﷺ، فيأخذ لكل حدث أهبته، وتتابعت البعوث والسرايا المستكشفة تجوب مواقع الأحداث، وكانت محنة (أُحُد) صيقلًا أذاب صدأ هزيمتها عن صدور أصحاب رسول الله ﷺ، فجعلت منهم بطولات فدائية لا ترهب الموت، وجعلت منهم قيادات سياسية تحسن الرأي وتحكم الفكرة، وجعلت منهم قيادات عسكرية تدير المعارك القتالية بتفكير مجرب يعرف المخارج من أزمات المضايق، ويعرف المداخل التي يؤخذ منها العدو.

ومن ثم تتابعت البعوث والسرايا والغزوات، ووقف أصحاب رسول الله ﷺ متأهبين لكل حادث ونازلة، لا ينامون ولا ينيمون، ولا يغفلون عن بادرة يحسون نبأتها إلا أسرعوا إليها خفافًا وثقالًا يخوضون لججها، ويقتحمون سعير أوارها بنفوس رضية سمحة بالفداء وحب الشهادة.

ولم يكد يمضي يوم منذ محنة (أحد) دون أن يكون فيه بعث فدائي محارب أو سرية ترهب وترعب، أو إعداد لغزوة تقاتل فيها كتائب الإسلام فتنتصر. [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٩-٢٠**].

يقول د/ فيض الله: «لقد استطاع الرسول ﷺ أن يخفف مرارة الانكسار الذي لحق بالمسلمين في أحد، واستطاع أيضًا أن يسترد ـ ولو إلى حَدٍّ ما ـ هيبة المسلمين ومركزهم في المدينة، بعد الذي عاينه من شماتة اليهود، واستهزاء المنافقين، وذلك في غزوة حمراء الأسد.

ومع ذلك، فإن انتصار المشركين في أحد، أطمع الخصوم الألداء، من الأعراب والمشركين، وساد الشعور بإمكان مناوشتهم والتغلب عليهم، فما أقواس النصر التي ارتفعت لهم في بدر إلا من قبيل المصادفة، وقد حطمتها موقعة أحد.

ومن ثَمَّ اتجهت أنظار كثيرين من الأعراب إلى غزو المدينة ذاتها، ومقاومة المسلمين ـ في كلب ـ حيث كانوا، واستئصال شأفتهم، وكسر شوكتهم. [**صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٤٤**].

الأثر السيئ بعد معركة أحد:

يقول أ/ باشميل: «إنه بالرغم من الهزة العنيفة التي تعرض لها المسلمون بعد انتكاستهم العسكرية في معركة أحد، فإنهم ظلوا مسيطرين على الموقف سيطرة تامة.

لا سيما بعد الحركات العسكرية الناجحة التي قام بها جيش المدينة ـ بعد معركة أحد.

إن أهم الأحداث السياسية للمسلمين بعد معركة أحد، هي أن مركزهم في منطقة يثرب خاصة والجزيرة العربية عامة، قد تأثر تأثرًا ملموسًا كنتيجة لانتكاستهم العسكرية الموجعة في موقعة أحد.

فقد انخفضت نسبة هيبتهم في نفوس القبائل العربية الباقية على الوثنية، وفي نفوس اليهود والمنافقين الذين كانوا قد امتلأت نفوسهم رُعبًا وفزعًا من المسلمين بعد انتصارهم الساحق في معركة بدر الكبرى الشهيرة.

ولم تخفَ على المسلمين هذه الحقيقة المرة، فصار المسلمون يبذلون قصارى جهدهم عسكريًّا وسياسيًّا؛ ليثبتوا عمليًّا لهؤلاء الأعداء بأنهم مخطؤون جدًّا، إذ يظنون أن المسلمين ـ بعد معركة أُحُد ـ من الضعف بحيث يقدرون على النيل منهم.

وليثبتوا لهم أنهم ـ أي المسلمون ـ قادرون على سحق كل من تحدثه نفسه بالاعتداء عليهم، قاموا بحركات عسكرية سريعة ناجحة أنزلوا فيها بالأعداء ضربات زلزلت معنوياتهم زلزالًا شديدًا، وجعلتهم يصححون مفاهيمهم الخاطئة عن مدى قوة المسلمين العسكرية وترابطهم السياسي والمعنوي، وخاصة المعسكر القرشي واليهودي الذين شهدوا (قبل غيرهم) أول حركة عسكرية بارعة رائعة ناجحة قام بها المسلمون في حمراء الأسد؛ ليثبتوا للأعداء أن وجودهم العسكري والسياسي والعقائدي لا يزال على ما كان عليه من القوة والمتانة، وأن أحداث الانتكاسة في موقعة أحد لم يكن لها أي تأثير على هذا الوجود.

وهكذا نجح النبي ﷺ في هذه الحملة العسكرية السريعة (حملة حمراء الأسد) نجاحًا باهرًا فسجل نصرًا عسكريًّا سريعًا عظيمًا، ظفر المسلمون على أثره بنصرٍ سياسي أعظم في المحيط اليثربي خاصة، وفي الجزيرة العربية عامة، حيث صحح هذا النصر النظرة الخاطئة التي كان اليهود والمنافقون ينظرونها إلى الجيش الإسلامي بعد انتكاسته في معركة أحد.

فقد تأكد لدى اليهود والمنافقين في المدينة، خاصة بعد نجاح المسلمين في حملة حمراء الأسد أن هؤلاء المسلمين هم من القوة والصلابة بحيث يستحيل على أية قوة ـ وخاصة في يثرب ـ القيام ضدهم بأي عمل عسكري مهما كان نوعه.

وهذا عكس ما كان يعتقد هؤلاء الأعداء؛ ولهذا فإنهم أصيبوا بالدهشة والذهول عندما بلغهم أن جيش مكة ـ الذي ظنوه انتصر على المسلمين في أُحُد ـ قد نكل عن المعركة وفر هاربًا أمام جيش المدينة الذي اعتقدوا أنه قد تحطم عند سفوح جبل أحد، رأوا هذا الجيش يعود إلى المدينة مرفوع الرأس، ولسان حاله يقول لهؤلاء اليهود المتربصين: **مِنَ الأصلح لكم أن تلتزموا الهدوء، فإن أية حركة تأتي من ناحيتكم فإن مصيرها لن يكون إلا السحق الكامل.**

وفعلًا، فإن اليهود وأنصارهم السريين (المنافقين) قد أعادوا النظر في مخططهم ولم يتسرعوا في تنفيذ هذا المخطط فالتزموا الهدوء، والسبب المباشر في ذلك كله هو نجاح النبي ﷺ في حملة حمراء الأسد الجريئة تلك الحملة التي أعادت للجيش الإسلامي هيبته وجعلته يعود سيدًا للموقف في يثرب كما كان دون منازع، بالرغم من الخسائر الباهظة التي تعرض لها ـ في الرجال ـ في معركة أحد.

الحركات العسكرية ضد الأعراب:

وبينما كان الرسول ﷺ يوطد دعائم الأمن والاستقرار في منطقة يثرب، كانت قبائل العرب الأخرى في منطقة الحجاز ونجد ترسم مخططاتها وتشرع في تجمعاتها للإغارة على المدينة وضرب المسلمين فيها، مغتنمين فرصة أثر الضربة الموجعة التي نزلت بالمسلمين في معركة أحد، والتي ظنها هؤلاء الأعراب ضربة قاتلة.

فقد طمع هؤلاء الأعراب الوثنيون في المسلمين، وأخذ كل منهم يفكر في ضربهم ويُعد العدة للإغارة عليهم وانتهاب أموالهم ونسائهم وذراريهم. [**غزوة الأحزاب لباشميل ١٧-٢١**].

ويقول د/ الدقس: «بعد ما حل بالمسلمين في أُحد انتقض على الإسلام كثير ممن هادنه أو داهنه، وبرغم مظهر البأس الذي أبداه الرسول القائد ﷺ ورجاله في مطاردة المشركين حتى (حمراء الأسد)، فإن هزيمة أُحد كانت أبعد غوراً مما يظنون.

فقد جرَّأت عليهم أعراب البادية، وفتحت لهم أبواب الأمل في الإغارة على المدينة، وانتهاب خيراتها.

كما أن اليهود عالنوا بسخريتهم، وتركوا وساوس الغش تلح عليهم، وتكدّر سيرتهم مع المسلمين.

ومن أصعب الأمور قيادة الأمم عقب الهزائم الكبيرة، وقياد الدعوات بعد الانكسارات الخطيرة، وإن كان الرجال يستسهلون الصعب، ويصابرون الأيام حتى يجتازوا الأزمات.

لقد طمعت القبائل العربية المحيطة بالمدينة بالمسلمين، واستخفت بدولتهم، واستهانت بقوتهم، فقد ظنوا أنها لا تقوى على الدفاع عن نفسها من جراء ما أصابها، فاتفقت أعراب الجزيرة من الخارج مع يهود المدينة من الداخل على تقويض دعائم الدولة الإسلامية، واستئصال شأفة المسلمين، وكان أول المغيرين

بنو أسد، ولكن القيادة الإسلامية الساهرة كانت لهم بالمرصاد، فقد أعلمت العيون التي بثها الرسول القائد ﷺ في أنحاء الجزيرة أن طليحة وسلمة ابني خويلد قد ساروا في قومهما، ومن أطاعهما من العرب في حرب رسول الله ﷺ، فدعا ﷺ قائده الهمام (أبا سلمة رضي الله عنه وهو من خير القادة)، في أول شهر المحرم من عام أربع للهجرة وعقد له لواءً، وبعث معه مائة وخمسين رجلًا من المهاجرين والأنصار، وقال: «سِرْ حَتَّى تَرِدَ أَرْضَ بني أَسَدِ بنِ خُزَيْمَةَ، فَأَغِرْ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ تَلاقَى عَلَيْكَ جُمُوعُهُمْ»، فسار أبو سلمة إليهم، وأغار على أنعامهم، ففروا من وجهه فأخذها، ولم يلق كيداً، وعاد سالماً غانماً.

وأعلمت العيون رسول الله ﷺ أن خالد بن سفيان الهذلي طمع في الإغارة على الدولة الإسلامية، وهو يجمع رجاله لغزو المدينة، فأرسل إليه رسول الله ﷺ عبدَ الله بن أنيس رضي الله عنه، فقتله.

وقد طمعت هذيل في الدولة الإسلامية، وغدرت ببعثة النبي ﷺ إلى عضل والقارة في السنة الرابعة، وكانوا ستة نفر من خيار القراء.

كما طمعت بنو سليم في الدولة الإسلامية، حيث عَدَتْ على سبعين من خيار الصحابة (القراء) الذين بعثهم النبي ﷺ إلى أهل نجد للدعوة والتعليم، وهكذا ليل المحن الطويل على الدولة الإسلامية، وهي تفقد هذه الأعداد الكبيرة في خلال عام واحد، سبعون في غزوة أُحد، وسبعون من خيرة القراء في (بئر معونة)، وقبلها عشرة (في الرجيع)... إلخ، فكانت محنة قاسية، وابتلاءً عظيمًا، يزلزل الراسيات، ولكن قوة الإيمان، وعزائم الرجال، أقوى وأصلب من الجبال، فقد صبر رسول الله ﷺ وصابر، وتجلد أصحابه رضي الله عنهم وتدرعوا بالصبر، وتجرعوا كؤوس الآلام والأحزان، وتظاهروا بالقوة، وتحصنوا بالشجاعة النادرة، ومغالبة الأهوال، ونجح الرسول القائد ﷺ ورجال دولته في تغييب تلك المصائب، وتفويت الفرصة على الأعداء المتربصين من الداخل والخارج.

لقد كانت العيون الساهرة، والأسود الكاسرة تعمل ليل نهار لحماية الدولة، فما تخبر العيون رسول الله ﷺ بتحرك أو مجرد نية التحرك من الأعداء إلا والأسود انقضت على الأعداء، وباغتتهم في عقر دارهم، فكانت خطة القيادة الإسلامية، الحذر والمراقبة والرصد لأخبار الأعداء، والانطلاق السريع، ومباغتة العدو قبل أن يتم استعداده، والقضاء عليه في عقر داره.

لقد بذلت القيادة والدولة الإسلامية جهودًا مضنية في المحافظة على سلامة الدولة، واستمرار الدعوة، ومحاولة استعادة هيبة المسلمين، وتوطيد ما اضطرب من مكانتهم؛ ولذلك كانت تلك المرحلة التي أعقبت (أُحد) مرحلة صراع دموي رهيب بين المسلمين من جانب، وأعداء هذا الدين (من المشركين واليهود والمنافقين) من الجانب الآخر، فالمشركون سال لعابهم، وتحلب ريقهم، وظنوها فرصة

سانحة للإجهاز على ما تبقى من المسلمين بعد (أُحد)، فأراد كل عدو أن يقوم بدورٍ مَا يُحسب له في المستقبل، ويسجله التاريخ، والمسلمون يعملون بكل طاقاتهم لمحو آثار أُحد إلى الأبد، وإعادة بناء الثقة بقوة المسلمين التي اكتسبوها في بدر والسرايا والغزوات الأخرى، ويحاولون إعادة الهيبة والمكانة التي كانت للدولة الإسلامية.

ونتج عن هذا الصراع العنيف الخسائر البشرية الكثيرة في جانب المسلمين، إذ توالت عليهم المحن والابتلاءات، ولكن هذه البأساء والضراء لم تفقدهم صلتهم بربهم، واطمئنانهم إلى غدهم، وثقتهم بموعود الله، فظلوا صابرين مصابرين، مرابطين، مجاهدين بأموالهم وأنفسهم لا تزلزلهم المحن، بل تدفعهم إلى بذل المزيد؛ لتعويض المفقود.

لقد نجحت الخطة الإسلامية التي رسمتها القيادة العليا في تأديب الأعراب الغادرين الطامعين في الدولة الإسلامية، وألقت في قلوبهم الرعب، بتلك الغزوات الناجحات التي أرسلها رسول الله ﷺ تجوس فيافي نجد، وقفار الجزيرة، ووهادها، فما يكاد يسمع أولئك الأعراب بمقدم جيش رسول الله ﷺ حتى يولوا هاربين متمنعين في رؤوس الجبال تاركين أنعامهم وديارهم غنيمة للمسلمين، وحتى امتدت تلك الرهبة إلى قلوب القرشيين أنفسهم، فقد جربوا مرارة اللقاء مع المسلمين في «بدر»، ولم ينخدعوا بذلك النصر الهزيل في أُحد، بعد ما رأوا من قوة المسلمين في حمراء الأسد، فتخاذلوا عن لقاء الجيش الإسلامي (بدر الآخرة) حسب الموعد المضروب بينهما، فما كادوا يقتربون من مكان الموعد حتى بدا لهم الرجوع، بعدما سمعوا من نفرة الجيش الإسلامي، وحسن استعداده وحماسه، وتأهبه الشديد للقتال، وترقبه لوصول القرشيين منذ ثمانية أيام، فقد أعلن قائد الجيش المكي عن هزيمته النفسية، وانسحابه المخزي قبل اللقاء إذ صاح أبو سفيان بقومه (قائده): **يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا.**

وهكذا تتم للدولة الإسلامية استعادة هيبتها وتوطيد أركانها، وفرض احترامها على جنوب الجزيرة، وانتقل زمام المفاجأة إلى المسلمين بعد أن نكصت قريش عن مواجهتهم في (بدر الآخرة).

وهكذا، أثبتت السياسة النبوية الحكيمة قدرتها على مواجهة الأحداث، وتصريف الكروب، وتحويل ريح المسلمين التي ذهبت في (أُحُد) إلى ريح عاصفة تلاحق الطامعين، وترهب المتربصين، وتبث الرعب في قلوب أعداء الدولة والدين في الداخل والخارج، فاستعادت الدولة هيبتها، وفرضت سلطانها على الجزيرة من شمالها إلى جنوبها، وبهذه الغزوات الحاسمة، وهذه الخطط الحازمة، نجحت الدولة الإسلامية في بسط الأمن في ربوع الجزيرة العربية، وتحويل الكفة لصالح الدين والدولة، وتخفيف المتاعب

والمشكلات الداخلية والخارجية، التي توالت، وأحاطت بالمسلمين من كل جانب، فسكت المنافقون، واستكان اليهود، ولاذ الأعراب بالفرار إلى أعالي الجبال، وتخاذلت قريش عن مهاجمة الدولة الإسلامية، بعد تلك الإقدامات والانتصارات التي حققتها القيادة النبوية، وكل هذا فتح الطريق واسعًا أمام نشر الدعوة داخل المدينة وخارجها». [دولة الرسول في المدينة ﷺ من التكوين إلى التمكين للدقس ص ٥٤٥-٥٤٨].

عدد الحملات العسكرية بين أُحُد والأحزاب:

يقول أ/ باشميل: «لقد كانت الحملات العسكرية التي حدثت ما بين معركتي (أُحُد والأحزاب) عشر حملات، كان المسلمون هم البادئين فيها بالهجوم.

ولما كان الأعراب ـ وخاصة أعراب نجد ـ هم أول المفكرين في الإغارة على المسلمين في المدينة وأكثر الناس جرأة، وأسرع إلى التجمع لتنفيذ ما كانوا يفكرون فيه، فإن أكثر الحملات العسكرية التي جردتها المدينة قد وجهت ضد هؤلاء الأعراب.

فقد كانوا هدفًا لست من هذه الحملات العسكرية التي قاد النبي ﷺ بعضها بنفسه.

بينما لم يتعرض اليهود ـ قبل غزوة الأحزاب وبني قريظة ـ إلا لحملة عسكرية واحدة، وهي الحملة التي قام بها المسلمون ضد يهود بني النضير في ضواحي المدينة.

ولعل مما ساعد القيادة في المدينة على ضرب هؤلاء الأعراب والتنكيل بهم في ديارهم ووضع حد لأطماعهم بطريقة حاسمة، هو أنهم لم يكونوا عند تفكيرهم في الإغارة على المدينة جبهة واحدة؛ لأن باعث تفكيرهم للإغارة على المسلمين لم يكن باعثًا عقائديًّا أو سياسيًّا جاء نتيجة مخطط مدروس، وإنما كان باعث ذلك التفكير هو الرغبة في السلب والنهب والسبي فحسب، ثم العودة إلى ديارهم، كما هي العادة المتبعة لديهم في حروبهم منذ عشرات القرون.

فلم يكن هدفهم من الإغارة على المدينة احتلالها والتخلص من المسلمين نهائيًّا كما هو الحال عند اليهود ومشركي مكة الذين كانوا يحاربون المسلمين وفق مخططات عقائدية وسياسية، كما حدث في غزوة الأحزاب التي خطط لها اليهود وحملوا بعض أعراب نجد على الاشتراك فيها عن طريق إغرائهم بالمال.

ولهذا فقد تمكن المسلمون ـ قبل معركة الأحزاب ـ من ضرب هذه القبائل وتشتيتها في مكان تجمعها، كل قبيلة على انفراد في عشر حملات عسكرية قام بها الجيش الإسلامي. [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٢-٢٣].

نشاط الاستخبارات النبوية:

ولم تكن الاستخبارات النبوية العسكرية غافلة عن هذا التفكير والتحرك، فقد كان المسلمون يتوقعون أن يقوم الأعراب بتحركات عسكرية سريعة ضد المسلمين، بعد الذي نزل بهم في أحد.

ولذلك فقد نشطت استخبارات المدينة نشاطًا واسعًا في مجال مراقبة هؤلاء الأعراب لتكون على علم مُسبق بأية حركة يعتزم الأعراب القيام بها ضد المدينة، فتنقل هذه الاستخبارات كل ما يجِدُّ بهذا الصدد إلى القيادة العليا في المدينة أولًا بأول.

فصارت القيادة في المدينة على علم تام بأية حركة يعتزم أحد من هؤلاء الأعراب القيام بها ضد المسلمين، وقد ساعد نشاط استخبارات المدينة القيادة فيها على التيقظ والتحرك بسرعة لضرب أية قبيلة تنوي الهجوم على المدينة، وذلك قبل أن تُتم هذه القبيلة الحشد والتجهيز.

فقد سارع النبي ﷺ إلى القيام بعدة تحركات عسكرية هجومية حاسمة وسريعة، قادها بسرعة خاطفة إلى منازل هؤلاء الأعراب، فوضع بها حدًّا لأطماعهم، وألقى بها عليهم دروسًا عملية قاسية، جعلتهم يصححون مفاهيمهم الخاطئة عن مدى قوة المسلمين العسكرية التي ظنوها قد انهارت نتيجة ما أصابهم في ملحمة أحد. **[غزوة الأحزاب لباشميل ٢١-٢٢]**.

ويقول د/ بريك: «لقد كان على المسلمين في المدينة أن يواجهوا أعداءهم المتربصين في كل ناحية من نواحي الجزيرة العربية، فمن قريش الموتورين، مرورًا باليهود الخائنين، إلى الأعراب الطامعين في خيرات المدينة، ولكن عين النبي ﷺ لم تكن تغفل عنهم ولو للحظة حيث كان يرصد تحركاتهم، وسكناتهم، ويتحسس أخبارهم عن طريق شبكة منظمة من العيون والجواسيس المبثوثين في مناطق الأعداء، والتي ساهمت بشكل كبير وفعال في وضع النبي ﷺ في الصورة دائمًا، فكان باستمرار يسبق الأحداث، ويفاجئ أعداءه بمبادرة عجيبة تقضي على مخططاتهم العدوانية في مهدها.

[السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ١٥٤].

الفصل الأول
سرية أبي سلمة رضي الله عنه إلى قَطَن [١] (بني أسد)
الخميس أول المحرم ٤ هـ /١٣ يونيه (حزيران) ٦٢٥م / ١٩ بؤنة ٣٤١ قبطي
المبحث الأول
عرض سرية أبي سلمة رضي الله عنه إلى قَطَن (بني أسد)

كانت أول حملة عسكرية تأديبية قام بها جيش المدينة ضد الأعراب هي دورية القتال التي بعث بها الرسول ﷺ لضرب قبيلة بني أسد في منطقة نجد.

ففي هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ، أي في السنة الرابعة الهجرية، كانت سرية أبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه إلى أبي طُلَيْحَةَ الأسدي، فانتهى إلى ماء يقال له: قَطَن.

قال الصالحي: **وَسَبَبُهَا**: أَنَّ رَجُلًا مِنْ طَيِّئٍ اسْمُهُ **الوَلِيدُ بنُ زُهَيْرِ بنِ طَرِيفٍ الطَّائِيُّ** قَدِمَ المَدِينَةَ زَائِرًا ابْنَةَ أَخِيهِ زَيْنَبَ الطَّائِيَّةَ، وَكَانَتْ تَحْتَ **طُلَيْبِ بنِ عُمَيْرِ بنِ وَهْبٍ القُرَشِيِّ العَبْدِيِّ**، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ طُلَيْحَةَ، وَسَلَمَةَ ابْنَيْ خُوَيْلِدٍ تَرَكَهُمَا قَدْ سَارَا فِي قَوْمِهِمَا، وَمَنْ أَطَاعَهُمَا بِدَعْوَتِهِمَا إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُرِيدُونَ أَنْ يَدْنُوا لِلمَدِينَةِ، وَقَالُوا: **نَسِيرُ إِلَى مُحَمَّدٍ فِي عُقْرِ دَارِهِ وَنُصِيبُ مِنْ أَطْرَافِهِ، فَإِنَّ لَهُمْ سَرْحًا** (المال السائم) **يَرْعَى جَوَانِبَ المَدِينَةِ، وَنَخْرُجُ عَلَى مُتُونِ الخَيْلِ، فَقَدْ أَرْبَعْنَا خَيْلَنَا** (أي رعاها في الربيع)، **وَنَخْرُجُ عَلَى النَّجَائِبِ المَخْبُورَةِ** (أي المجربة)، **فَإِنْ أَصَبْنَا نَهْبًا لَمْ نُدْرَكْ، وَإِنْ لاقَيْنَا جَمْعَهُمْ كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا لِلحَرْبِ عُدَّتَهَا، مَعَنَا خَيْلٌ، وَلا خَيْلَ مَعَهُمْ، وَمَعَنَا نَجَائِبُ أَمْثَالُ الخَيْلِ، وَالقَوْمُ مَنْكُوبُونَ قَدْ أَوْقَعَتْ بِهِمْ قُرَيْشٌ حَدِيثًا، فَهُمْ لا يَسْتَبِلُّونَ دَهْرًا، وَلا يَثُوبُ لَهُمْ جَمْعٌ.**

فَقَامَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: **قَيْسُ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عُمَيْرٍ**، فَقَالَ: **يَا قَوْمِ وَاللهِ مَا هَذَا بِرَأْيٍ! مَا لَنَا قِبَلَهُمْ وِتْرٌ** (الجناية التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أو نهب أو سبي)، **وَمَا هُمْ نُهْبَةٌ لِمُنْتَهِبٍ** (النهب: الغارة والسلب والغنيمة)، **إِنَّ دَارَنَا لَبَعِيدَةٌ مِنْ يَثْرِبَ، وَمَا لَنَا جَمْعٌ كَجَمْعِ قُرَيْشٍ، مَكَثَتْ قُرَيْشٌ دَهْرًا تَسِيرُ فِي العَرَبِ تَسْتَنْصِرُهَا، وَلَهُمْ وِتْرٌ يَطْلُبُونَهُ، ثُمَّ سَارُوا وَقَدْ امْتَطُوا الإِبِلَ وَقَادُوا الخَيْلَ وَحَمَلُوا السِّلاحَ مَعَ العَدَدِ الكَثِيرِ - ثَلاثَةِ آلافِ مُقَاتِلٍ سِوَى أَتْبَاعِهِمْ - وَإِنَّمَا جَهْدُكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا فِي ثَلاثِمِائَةِ رَجُلٍ إِنْ كَمُلُوا، فَتُغَرِّرُونَ بِأَنْفُسِكُمْ وَتَخْرُجُونَ مِنْ بَلَدِكُمْ، وَلا آمَنُ أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ عَلَيْكُمْ، فَعَصَوْهُ.**

---

(١) **قطن**: هو جبل بناحية فيد، وهي فلاة في الأرض بين أسد وطيئ، به ماء لبني أسد بن خزيمة. وقال البلادي: قَطَنٌ: جَبَلٌ مَا زَالَ مَعْرُوفًا عَلَى الضَّفَّةِ الْيُسْرَى لِوَادِي الرُّمَّةِ، يَمُرُّ بِهِ الطَّرِيقُ مِنْ المَدِينَةِ إِلَى الْقَصِيمِ، وَيُرَى قَطَنٌ مِنْ الطَّرِيقِ عَنْ قُرْبٍ، عَلَى قُرَابَةِ (٣٣٠) كَيْلًا مِنْ المَدِينَةِ. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ص٢٥٥.

فلما بلغ ذلك رَسُولَ الله ﷺ دعَا أَبَا سَلَمَةَ ﷺ وَقَالَ: «**أُخْرُجْ فِي هَذِهِ السَّرِيَّةِ فَقَدْ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَيْهَا**»، وَعَقَدَ لَهُ لِوَاءً، وَقَالَ: «**سِرْ حَتَّى تَرِدَ أَرْضَ بني أَسَدِ بنِ خُزَيْمَةَ، فَأَغِرْ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ تَلاقَى عَلَيْكَ جُمُوعُهُمْ**»، وَأَوْصَاهُ بِتَقْوَى الله وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

فَخَرَجَ مَعَهُ فِي تِلْكَ السَّرِيَّةِ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ مِنْهُمْ: أَبُو سَبْرَةَ بْنُ أَبِي رُهْمٍ وَهُوَ أَخُو أَبِي سَلَمَةَ لأُمِّهِ ـ أُمُّهُ بَرَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ـ، وَعَبْدُ الله بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَعَبْدُ الله بْنُ مَخْرَمَةَ الْعَامِرِيُّ.

وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ: مُعَتِّبُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ حَمْرَاءَ الْخُزَاعِيُّ حَلِيفٌ فِيهِمْ، وَأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الأَرْقَمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

وَمِنْ بَنِي فِهْرٍ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَسُهَيْلُ بْنُ بَيْضَاءَ.

وَمِنْ الأَنْصَارِ: أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، وَأَبُو نَائِلَةَ، وَأَبُو عَبْسٍ، وَقَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَنَضْرُ بْنُ الْحَارِثِ الظَّفَرِيُّ، وَأَبُو قَتَادَةَ، وَأَبُو عَيَّاشٍ الزُّرَقِيُّ، وَعَبْدُ الله بْنُ زَيْدٍ، وَخُبَيْبُ بْنُ يِسَافٍ، وَمَنْ لَمْ يُسَمَّ لَنَا.

فَخَرَجَ أَبُو سَلَمَةَ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ، وَخَرَجَ مَعَهُ الطَّائِيُّ دَلِيلًا، وَكَانَ خِرِّيتًا [(١)]، فَأَغَذُّوا (أَسْرَعُوا) السَّيْرَ، وَنَكَبَ (عَدَلَ) بِهِمْ عَنْ سَنَنِ (**السنن**: جهة الطريق ونهجه) الطَّرِيقِ وَعَارَضَ الطَّرِيقَ، وَسَارَ بِهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا، فَسَبَقُوا الأَخْبَارَ وَانْتَهَوْا إِلَى أَدْنَى قَطَنٍ ـ مَاءٌ مِنْ مِيَاهِ بَنِي أَسَدٍ، هُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جَمْعُهُمْ ـ فَيَجِدُونَ سَرْحًا فَأَغَارُوا عَلَى سَرْحِهِمْ فَضَمُّوهُ وَأَخَذُوا رِعَاءً لَهُمْ، مَمَالِيكَ ثَلاثَةٍ، وَأَفْلَتَ سَائِرُهُمْ، فَجَاؤُوا جَمْعَهُمْ فَخَبَّرُوهُمْ الْخَبَرَ وَحَذَّرُوهُمْ جَمْعَ أَبِي سَلَمَةَ، وَكَثَّرُوهُ عِنْدَهُمْ فَتَفَرَّقَ الْجَمْعُ فِي كُلِّ وَجْهٍ.

وَوَرَدَ أَبُو سَلَمَةَ ﷺ الْمَاءَ فَيَجِدُ الْجَمْعَ قَدْ تَفَرَّقَ، فَعَسْكَرَ وَفَرَّقَ أَصْحَابَهُ فِي طَلَبِ النَّعَمِ وَالشَّاءِ، فَجَعَلَهُمْ ثَلاثَ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ أَقَامَتْ مَعَهُ، وَفِرْقَتَانِ أَغَارَتَا فِي نَاحِيَتَيْنِ شَتَّى، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِمَا أَلَّا يُمْعِنُوا فِي طَلَبٍ، وَأَلَّا يَبِيتُوا إِلَّا عِنْدَهُ إِنْ سَلِمُوا، وَأَمَرَهُمْ أَلَّا يَفْتَرِقُوا، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى كُلِّ فِرْقَةٍ عَامِلًا مِنْهُمْ، فَآبُوا إِلَيْهِ جَمِيعًا سَالِمِينَ، قَدْ أَصَابُوا إِبِلًا وَشَاءً، وَلَمْ يَلقَوْا أَحَدًا، فَانْحَدَرَ أَبُو سَلَمَةَ ﷺ بِذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى الْمَدِينَةِ رَاجِعًا، وَرَجَعَ مَعَهُ الطَّائِيُّ، فَلَمَّا سَارُوا لَيْلَةً قَالَ أَبُو سَلَمَةَ ﷺ: **اقْتَسِمُوا غَنَائِمَكُمْ**، فَأَعْطَى أَبُو سَلَمَةُ ﷺ الطَّائِيَّ الدَّلِيلَ رِضَاهُ مِنْ الْمَغْنَمِ، ثُمَّ أَخَرَجَ صَفِيًّا لِرَسُولِ الله ﷺ عَبْدًا، ثُمَّ أَخْرَجَ الْخُمُسَ، ثُمَّ قَسَمَ مَا بَقِيَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَعَرَفُوا سُهْمَانَهُمْ، فَأَصَابَ كُلُّ إِنْسَانٍ سَبْعَةُ أَبْعِرَةٍ، ثُمَّ أَقْبَلُوا بِالنَّعَمِ وَالشَّاءِ يَسُوقُونَهَا حَتَّى دَخَلُوا الْمَدِينَةَ وَلَمْ يَلقَوْا كَيْدًا.

وَذَكَرَ أَبُو عُمَرَ وَأَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّ مَسْعُودَ بْنِ عُرْوَةَ ﷺ قُتِلَ فِي هَذِهِ السَّرِيَّةِ.

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/ ٥٤-٥٥].

---

(١) **الخريت**: الماهر الذي يهتدي لأخرات المفازة، وهي طرقها الخفية ومضايقها، وقيل: إنه يهتدي لمثل خرت الإبرة من الطريق. النهاية لابن الأثير ١/ ٢٨٦.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٦١٣.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ١/ ٣٤٠-٣٤٦، الطبقات الكبير (الكبرى) لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٤٦، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٣/ ٣١٩-٣٢٢، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٢٢٩، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٤٣، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٥/ ٤٩٥—٤٩٧، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ١٨١، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٥٤-٥٦، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٥٥-١٥٦.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٣٩٨، السيرة النبوية لرزق الله ٤٠٩، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ١٧٥-١٧٦.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: غزوة الأحزاب لباشميل ٢٣-٢٦، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٦٢-٦٤.

هـ ـ كتب أخرى: قادة النبي ﷺ لخطاب ٢١٢-٢١٦، فرسان من عصر النبوة لجمعة ٤٣٥-٤٤٧.

خرائط سرية أبي سلمة ﷺ إلى قَطَن (بني أسد)

(١)

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ص ١٢٥.

(٢)

غزوات السنة الرابعة من الهجرة المباركة

من سرايا السنة الرابعة من الهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٦٩.

(٣)

السرايا والغزوات
بين أحد والخندق

حدائق الأنوار لبحرق ٥٣٩.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سرية أبي سلمة ﷺ إلى قَطَن (بني أسد)

١ ـ لا يأس من رحمة الله:

يقول أ/ فتح الباب: «كان الموقف الذي اتخذه الرسول ﷺ في غزوة أحد هو الاستمرار في حشد جميع الجهود وتعبئتها ورفض اليأس: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]، ونفى أن تكون النكسة ظلامًا حالكًا يحرم المسلمين القدرة على رؤية هدفهم المقدس وتحديد طريقهم لبلوغه، فهذا هو نور الله يملأ الكون ويأخذ بيد المؤمنين به إلى الطريق المستقيمة، وها هو الأفق يتنفس كل يوم عن صبح جديد يغمر الوجود بإشراقه، وشجاعة المؤمن لا تعرف الوهن ولا التخاذل، شجاعة تصمد أمام الحادثات وتجابه المصاعب والتحديات.

ولقد كانت نكسة أُحد قاسية وكادت تضطرب لها حيلة المسلمين اضطراب السفينة في بحر متلاطم الأمواج، مالت بمن فيها، ولكنها لم تغرق، فلقد صمد القائد المبعوث من عند الله في موقعه، فأعاد السفينة إلى توازنها وإلى النفوس طمأنينتها وسكينتها، ونهض الربان والركاب ـ في تكاتف وتساند ـ يصلحون من سفينتهم ما فسد منها ويعيدون إليها قوتها.

وكان ذلك الموقف هو السبيل إلى إزالة الآثار النفسية التي تركتها تلك المحنة والقضاء على هول الكارثة وعلى الإحساس بالضياع والحيرة والقلق، وإعادة تماسك المجتمع الإسلامي والتحام وحداته بلا نفور ولا شذوذ، ودعم قواه المادية والمعنوية التي كانت الصدمة قد هزتها، وكاشف النبي ﷺ رجاله بمسؤولياتهم، وصارحهم بما ينبغي أن يلتزموا من إقدام يتحلى به جنود الله فلا يعرف الخوف أو الفزع إلى قلوبهم سبيلًا». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٩٢-٩٣].

٢ ـ فزع المشركين:

يقول أ/ فتح الباب: «حقق الأبطال أمل القائد العظيم فيهم، فارتفعوا إلى مستوى المسؤولية التي حَمَّلهم أمانتها، فكان خروجهم لمطاردة جيش العدو العائد من أُحد في طريقه إلى مكة، ولـمَّا يمض غير يوم وليلة على المعركة، وكان فزع أبي سفيان وعجزه عن مواجهة المسلمين الذين اجترأوا على مطاردته، لا ترهبهم قوة رجاله، ولا يخذلهم ما أصابهم من هزيمة.

وكان لا مفر من المضي حتى آخر الشوط في طريق المقاومة والتصدي لعصبة الضلال، واسترداد مكانة الجبهة المؤمنة، والقضاء على كل مَنْ تسول له نفسه التعرض لها، ولم يمض غير شهرين على عودة

النبي ﷺ إلى المدينة حتى بلغه أن بني أسد يزمعون الانقضاض على المسلمين ممنين أنفسهم أنهم بالغون منهم ما بلغته قريش في أحد، طامعين في استلاب بعض أموالهم، متطلعين إلى نصر خاطف يرفعون به منزلتهم بين القبائل». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٩٣].

٣ ـ معرفة صورة المسلمين في البيئة العربية بعد أُحُد:

يقول د/ الغضبان: «من خلال النقاش في القيادة العليا لبني أسد حول موضوع التحرك لمواجهة المسلمين تتضح صورة المسلمين في البيئة العربية بعد أحد، فقد انقسمت قيادة بني أسد إلى رأيين في موضوع المواجهة مع المسلمين:

الرأي الأول يقول: «**القَوْمُ مَنْكُوبُونَ، قَدْ أَوْقَعَتْ بِهِمْ قُرَيْشٌ حَدِيثًا، فَهُمْ لا يَسْتَبِلُّونَ دَهْرًا، وَلا يَثُوبُ لَهُمْ جَمْعٌ**».

والرأي الثاني يقول: «**مَا هُمْ نُهْبَةٌ لِمُنْتَهِبٍ، إِنَّ دَارَنَا لَبَعِيدَةٌ مِنْ يَثْرِبَ، وَمَا لَنَا جَمْعٌ كَجَمْعِ قُرَيْشٍ، مَكَثَتْ قُرَيْشٌ دَهْرًا تَسِيرُ فِي العَرَبِ تَسْتَنْصِرُهَا، وَلَهُمْ وِتْرٌ يَطْلُبُونَهُ، ثُمَّ سَارُوا وَقَدْ امْتَطُوا الإِبِلَ وَقَادُوا الخَيْلَ وَحَمَلُوا السِّلاحَ مَعَ العَدَدِ الكَثِيرِ ـ ثَلاثَةِ آلافِ مُقَاتِلٍ سِوَى أَتْبَاعِهِمْ ـ وَإِنَّمَا جَهْدُكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا فِي ثَلاثِمِائَةِ رَجُلٍ إِنْ كَمُلُوا، فَتُغَرِّرُونَ بِأَنْفُسِكُمْ وَتَخْرُجُونَ مِنْ بَلَدِكُمْ، وَلا آمَنُ أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ عَلَيْكُمْ**».

والرأيان متفاوتان في الحكم على قوة المسلمين، لكن بني أسد حين رجح عندهم الرأي الأول في المواجهة ليس من قبيل الحرب الشاملة بين القوتين، فهذا لم يكن طليحة يحلم به، لكن من باب حرب العصابات في النَّيْل من أطراف المدينة، أو استلاب النَّعم والشاء عندهم، كما فعل أبو سفيان ابن حرب بعد بدر حين غزا ظاهر المدينة وأخذ بعض نعمها وقتل راعيها». [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٣٦].

٤ ـ تسخير الله تعالى لأوليائه المؤمنين:

يقول د/ الحميدي: «إن مجيء ذلك الرجل الطائي الوليد بن زهير بن طريف وإخباره طُليب بن عمير ﷺ بخبر بني أسد فيه عبرة، حيث قَدَّر الله قدومه إلى المدينة في الوقت المناسب، ونزوله على ذلك الصحابي وإخباره بالخبر، وهذا من تسخير الله تعالى لأوليائه المؤمنين». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢١].

٥ ـ الوعي الفكري عند أفراد الصف:

يقول د/ الحميدي: «موقف لذلك الصحابي طليب بن عمير ﷺ حيث أسرع بإخبار النبي ﷺ بخبر بني أسد، وهذا دليل على أن الصحابة ﷺ كانوا يعيشون مع قضايا أمتهم ويبذلون جهدهم في حل تلك القضايا، وهذا من الوعي الفكري عند الصحابة ﷺ في واقعهم وواقع أعدائهم».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢١].

٦ ـ اغتنام الفرص:

يقول د/ الغضبان: «تطالعنا سرعة المبادرة العجيبة التي نشهدها لدى سيد القادة ﷺ في التحرك السريع الخاطف والاستفادة من خبر الطائي الذي نقل الخبر، ومعرفته بأرض بني أسد جيران طيئ، وبين طيئ وأسد ثارات سابقة وأيام ملاحم قديمة ـ يريد الطائي من خلالها أن يثأر لقبيلته بالمسلمين؛ ولذلك اختار ﷺ نخبة منتقاة من صفه، وجعل أميرها أبا سلمة بن عبد الأسد ﷺ؛ لتضرب العدو في مواقعه قبل أن يتحرك، وتُجهز عليه وهو يعد الخطة للهجوم على المسلمين». [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٣٦].

٧ ـ فراسة القيادة في اختيار ذوي الكفاءات:

يقول د/ الغضبان: «اختار رسول الله ﷺ أبا سلمة ﷺ لهذه المهمة الضخمة، ولهذه المواجهة الخطيرة مع قائد من أكبر القادة العرب المشهورين آنذاك: طليحة بن خويلد الأسدي، ولما تندمل جراح أبي سلمة ﷺ بعدُ، فكم هي ثقة النبي ﷺ بأبي سلمة ابن عمته ﷺ.

ولعل من أهم أسباب اختياره لذلك: هو هذه القرابة القريبة، فقد كان ﷺ يعد لمثل هذه المهمات: عمَّه حمزة ﷺ الذي افتقده في أُحد، وابن عمته عبد الله بن جحش ﷺ الذي افتقده أيضًا في أُحد، وابن عمه عبيدة بن الحارث ﷺ الذي افتقده في بدر أيضًا.

وعامل آخر من عوامل اختيار أبي سلمة بن عبد الأسد ﷺ يبرز في هذا الجانب: هو أنه شريف بني مخزوم وسليلهم، وخالد بن الوليد المخزومي، هو الذي قاد الهجوم المضاد في أُحُد، وقلب موازين المعركة، وأوقع المحنة في المسلمين، وانتشر اسمه علمًا ضخمًا عسكريًّا من أعلام القيادات في الأرض العربية، فليكن الذي يقود الهجوم على بني أسد مخزوميًّا كذلك، ومن قبيلة خالد بن الوليد، ويعرف العرب جميعًا أن بني مخزوم في قريش هم قادة المواجهة ضد الإسلام، ولا ينسون على رأسهم الوليد بن المغيرة وحيد قريش، وعمرو بن هشام فرعون هذه الأمة، فبروز أبي سلمة ﷺ في الصف الإسلامي، دَفْعٌ لكل من يراود الإسلام قلبه من أبناء القبائل العربية أن يسارع إلى الانضمام إلى الصف الإسلامي، ولو كانت قبيلته تحمل المواجهة ضد الإسلام، كما هو حال أبي سلمة المخزومي ﷺ، فهو المنهج التربوي النبوي في الاصطفاء، حيث تكون كل العوامل مدروسة، ويتم الترجيح والتغليب بينها في حسن اختيار القائد من صاحب البصيرة النافذة، ومن النظرة الواحدة للمصطفى ﷺ إمام المربين في الوجود».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٣٤-٢٣٥].

ويقول ل/ خطاب: «أما سمات قيادته: فتحمُّل المشاق، والكتمان الشديد، وتطبيق المباغتة الكاملة بالزمان.

وبالرغم من أنه قاد سرية واحدة من سرايا النبي ﷺ لمرة واحدة فقط، ثم انتهت حياته وذهب إلى جوار الله، إلا أن أفراد سريته كانوا من أبرز المسلمين ومن قادة النبي ﷺ في حياته، وقادة الفتح الإسلامي بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، مما يدل على قوَّة شخصيته وتميزه في سماته القياديَّة.

ولم يكن أبو سَلَمَة ﷺ قائدًا متميزًا من قادة النبي ﷺ فحسب، بل كان إداريًّا متميزًا ـ أيضًا ـ من إداريي النبي ﷺ الذين كان يستخلفهم على المدينة المنورة حين كان يغادرها للجهاد.

لقد كان أبو سَلَمَة ﷺ إنسانًا مثاليًّا وإداريًّا متميزًا وقائدًا فذًّا.

يذكر التاريخ لأبي سَلَمَة ﷺ، أنه كان من أوائل المسلمين الأولين، الذين اعتنقوا الإسلام ودافعوا عن الإسلام والمسلمين، وأنه كان أول منْ هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين الأولين، وأنه من أوائل من هاجر إلى المدينة المنورة من المهاجرين، وأنه تحمَّل أذى قُرَيْش والمشركين صابرًا محتسبًا، وما أصاب آل بيت في الإسلام ما أصاب آل أبي سَلَمَة في سبيل الدين الحنيف، وأنه كان قائدًا لامعًا، وإداريًّا حازمًا، وإنسانًا عظيمًا.

ويذكر له: أنه ختم حياته بالشهادة، فكان من أقدم لبنات صرح الإسلام منذ كان الإسلام».

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٢١٩-٢٢٠].

ويقول الشيخ الغزالي: «لم يَلقَ أبو سلمة ﷺ عناء في تشتيت أعدائه واستياق نعمهم أمامه، حتى عاد إلى المدينة مظفرًا.

وأبو سلمة ﷺ يُعد من خيرة القادة الذين صحبوا رسول الله ﷺ وسبقوا إلى الإيمان والجهاد معه، وقد عاد من هذه الغزاة مجهودًا، إذ نغر عليه جرحه الذي أصابه في «أحد»، فلم يلبث حتى مات ﷺ».

[فقه السيرة للغزالي ٢٨٤].

ويقول د/ الغضبان: «ونشير في هذه السرية إلى اشتراك أعظم قيادات المهاجرين والأنصار تحت لواء أبي سلمة ﷺ.

فعلى رأس جنوده من المهاجرين اثنان من العشرة المبشرين بالجنة: سعد بن أبي وقاص ﷺ، وأبو عبيدة بن الجراح ﷺ، وبقية الخيار من أهل بدر.

فالسيد الثاني والثالث في الأوس بعد سعد بن معاذ ﷺ وهما: أسيد بن حضير ﷺ، وعَبَّاد بن بشر ﷺ، كانا من جنود أبي سلمة ﷺ في هذه السرية، إضافة إلى سادات الخزرج المشاركين فيها.

ونستطيع القول: إن خيرة الطاقات والخبرات المسلمة العسكرية والحربية انضمت تحت لواء أبي سلمة ﷺ لتواجه خيرة الطاقات والخبرات العسكرية والحربية عند بني أسد تحت لواء طليحة ابن خويلد الأسدي». **[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٣٥-٢٣٦]**.

٨ ـ الاعتناء بوضع خطة القتال:

يقول أ/ فتح الباب: «حين علم النبي ﷺ بخبر بني أسد ما لبث أن دعا إلى الجهاد، فجند من رجاله مائة وخمسين، وعقد لواء السرية لأبي سلمة بن عبد الأسد ﷺ، فارتضاه فخورًا بها أُولي من ثقة، وأعد نفسه للمضي فيما نُدب له رغم جرح أصابه في أحد، ولم يلتئم إلا ظاهرًا مما أدى إلى وفاته بعد انتهاء هذه السرية نتيجة ما بذل من جهد، وكان تحت إمرته رجال من صفوة الصحابة منهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأسيد بن حضير ﷺ، وحدد لهم النبي ﷺ خطة القتال، وكانت تقوم على المباغتة ضمانًا للنصر، فلا سير إلا في جنح الظلام، فإذا بزغ الفجر استخفوا عن الأنظار، ولا مسلك إلا السبل التي يندر ارتيادها.

ونجحت خطة القائد المعلم الأعظم ﷺ، وكانت المباغتة ضربة ليلية مميتة لبني أسد، فما استطاعوا لها دفعًا، وحميت نفوس المسلمين فأعملوا سيوفهم في رقاب عدوهم الذي أُخذ على غِرَّة، وهوجم قبل أن يكمل استعداده، هنالك تفرق شمل بني أسد وقد استبد بهم الزعر من هول ما حاق بهم، فولوا على أعقابهم مدبرين، وَجَدَّ في أثرهم بعض جنود أبي سلمة ﷺ حتى اختفوا عن العيون تاركين قتلاهم وجرحاهم وأموالهم، وكان من أثر انتصار هذه السرية أن ازدادت هيبة المسلمين ودعمت سطوتهم في المدينة، وبُهت المنافقون والمشركون». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب٩٣-٩٤].

٩ ـ الهجوم خير وسيلة للدفاع:

يقول ل/ خطاب: «وقد كان هدف النبي ﷺ من هذه السرية، هو تشتيت حشود بني أسد، وتفريق شملهم، وتحطيم معنوياتهم، حتى لا يهاجموا المسلمين في المدينة، والهجوم أنجع وسائل الدفاع كما هو معلوم، فحقق أبو سَلَمَة ﷺ هدف النبي ﷺ تحقيقًا كاملًا، وعاد إلى المدينة على رأس سريته سالـمًا غانمًا».

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٢١٦].

ويقول د/ الحميدي: «إن اهتمام النبي ﷺ بإرسال تلك السرية على بني أسد ليباغتهم قبل أن يجتمعوا ويكون لهم جيش كبير، في هذا دليل على الدقة في التخطيط الحربي، وقد حصل ما أراده النبي ﷺ حيث أدركهم أبو سلمة ﷺ قبل أن يجتمعوا، فذُهلوا من وصول المسلمين إليهم وهم يظنون أن وقعة أحد قد قضت عليهم، فأصيبوا بالرعب من المسلمين وعدلوا عن عزمهم على غزو المدينة.

وبنو أسد لم يستفيدوا من درس غزوة حمراء الأسد التي أراد بها الرسول ﷺ إرهاب أعدائه جميعًا وإظهار المسلمين بمظهر القوة، فجاءت هذه السرية لتُلَقِّن بني أسد درسًا لن ينسوه، أما بقية الأعداء وعلى رأسهم أهل مكة فإنهم قد وعوا الدرس جيدًا، فلم يتجرؤوا على غزو المدينة».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢١-٢٢].

١٠ـ توجيه الضربة الأولى للعدو:

ويقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ يعلم مدى الأثر النفسي البليغ على العدو حين يباغته بضربة قوية تزلزل أركانه، وتهدم بنيانه، وتربك أفراده، فتنهار الروح المعنوية في القتال، ومن هول الصدمة العنيفة القوية المفاجئة تجعله إما أن يستسلم دون قتال، أو يولي الأدبار، أو يطلب الصلح والأمان.

ومن دراستنا لسيرة الرسول ﷺ في غزواته وسراياه وبعوثه نجد أنه ﷺ كان حريصًا على توجيه الضربة القوية لعدوه حتى يحقق النصر عليه، وحتى يقيم المعركة على أرض عدوه لا على أرض المسلمين، فإن لهذه الحالة أثرًا على نفسية المقاتل ونفسية الشعب الذي يرى ما حل بمقاتليه حين وجهت لهم الضربة الأولى». [**المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ١٥١**].

١١ـ الهجوم فجرًا:

ويقول ل/ خطاب: «استطاعت سرية أبي سلمة ﷺ بهجوم فَجْرِي على بني (أسد)، فكان هذا الهجوم مباغتة كاملة أثرت على معنوياتهم، وأجبرتهم على الفرار.

إن الهجوم فجرًا يؤمِّن المباغتة؛ لأن العدو يكون بين نائم لا يفيد في القتال أو مستيقظ غير متهيئ له، وهؤلاء جميعًا غير متهيئين للقتال، ولا جدوى منهم للنهوض بأعباء الحرب.

ولكن الهجوم فجرًا يحتاج إلى قوة مدربة تستطيع معرفة أهدافها، فلا يصطدم بعضها ببعض، فيؤدي ذلك إلى خسائر في الأرواح دون مبرر، مما يدل على تدريب المسلمين تدريبًا متميزًا على فنون القتال.

كما يحتاج الهجوم فجرًا إلى قيادة مسيطرة وإلى ضبط شديد لتنفيذ الأوامر.

إن نجاح المسلمين بهذا الهجوم معناه وصولهم إلى درجة عالية في التدريب والضبط، وهما أهم عناصر الجيش القوي الرصين». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٧**].

١٢ ـ الفدائية العظيمة للصحابة رضوان الله عليهم:

يقول د/ الحميدي: «خروج هذه السرية إلى أرض بعيدة من المدينة وإقدام أصحابها على غزو قوم في بلادهم يعتبر نوعًا من الفدائية، وقد ضمَّت عددًا من وجوه المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين اشتهروا بالشجاعة والإقدام، وإذا تذكرنا أن بلاد بني أسد مجاورة لقبيلة غطفان الكبيرة القوية، فإن مجرد الإقدام على غزو تلك القبيلة في عقر دارها يعتبر مغامرة جريئة.

إن الذي يشارك في مثل هذا الخروج لا يؤمل في أن يعود سالمًا غانمًا، وإنما الذي يغلب على ظنه أن يَظفر بالشهادة؛ ولهذا الهدف النبيل كان الصحابة ﷺ يسارعون في الخروج إلى الجهاد، ويُغلِّبون جانب الدخول في مواطن الهلاك والخطر، كما مر علينا في تحمسهم للخروج إلى الأعداء يوم أحد؛ ولهذا

فإن الناظر في هذه السرية الذي يريد أن يقدر مواقف أصحابها لا ينبغي له أن ينظر إلى نهايتها ونتائجها، وإنما ينبغي له أن ينظر إلى احتمال أن يكون بنو أسد قد علموا بالمسلمين منذ خروجهم من المدينة فسارعوا في جمع الجموع لهم بالمستوى الذي كانوا يريدون به غزو المدينة، ثم يقدر جسامة الموقف وعظم الخطر على المسلمين الذين سيواجهون ـ وهم مشاة ـ أضعافهم من الأعداء الذين يملكون الخيل، فعند ذلك تظهر للمتأمل عظمة المسلمين وبطولتهم الخارقة». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢٢-٢٣].

١٣ ـ الرصد الحربي والدقة في التوقيت:

يقول د/ الحميدي: «في هذا السرية مثلٌ من تفوق المسلمين في الرصد الحربي والدقة في التوقيت، حيث استطاع أصحاب هذه السرية أن يصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أي شيء رغم بُعد المسافة، ولقد كان هذا هو أهم عوامل نجاح المسلمين في هذه السرية.

إن مجرد شعور الأعداء بمقدرة المسلمين على الاستخفاء والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة تجعلهم يمتلؤون رعبًا منهم ويتوقعون منهم الإغارة في أي وقت، وهذا الشعور يحملهم على الاعتراف بقوة المسلمين ومسالمتهم». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢٣].

١٤ ـ أهمية الكتمان والسِّرِّيَّة في تحقيق النصر:

يقول أ/ باشميل: «ولما كان الكتمان من لوازم هذه الدورية صار القائد أبو سلمة ﷺ يسير برجاله ليلًا وبأقصى سرعة، ويكمن بهم نهارًا، وكان يسلك برجاله طريقًا غير مطروق حتى وصل إلى منازل بني أسد.

وكان القصد من هذا هو إخفاء خبر هذه الحملة بحيث لا يعلم بها أحدٌ، حتى تصل إلى ديار بني أسد.

ولقد نجحت هذه الحملة فعلًا في تحقيق أهدافها حيث تمكن رجالها من مباغتة بني أسد في ديارهم وأَخْذِهم على حين غِرة قبل أن يستكملوا تحشيدهم، حيث فاجأتهم قوات المسلمين فجرًا وأخذت في تطويق منازلهم وهم على غير أهبة، فأخذتهم الدهشة فلم يستطيعوا الثبات، بل ولوا الأدبار دون أية مقاومة». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٥].

١٥ ـ المرونة في تنفيذ المهام بما يحقق أهداف الجماعة:

يقول د/ الغضبان: «وكان أبو سلمة ﷺ عند مستوى ثقة قيادته به، فهو لم يكتف أن يرد قَطَن ماء بني أسد ويعسكر حيث كان الجمع وتفرق، ويعود ظافرًا إلى المدينة، فقد اقتضى وجوده في أعماق البادية أن يغامر في ملاحقة العدو داخل أرضه، والرجال العظام هم الذين يفكرون بهذا المستوى،

فالجندي الكفء هو الذي ينفذ الأوامر الحرفية الملقاة عليه من قائده، أما القائد الفذ فهو الذي يدرس الموقف بصفته القيادية، ويضع الخطة المناسبة حسب مقتضيات الظروف، ويسعى إلى تحقيق هدف عسكري معين وراء هذه الخطة وهذا التحرك، فطبيعة الأوامر الصادرة له من قيادته النبوية تجعل مهمته قد انتهت من خلال تفرق جمع بني أسد.

كان الأمر النبوي الأول: «**اُخْرُجْ فِي هَذِهِ السَّرِيَّةِ فَقَدْ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَيْهَا**».

وكان الأمر النبوي الثاني: «**سِرْ حَتَّى تَرِدَ أَرْضَ بني أَسَدٍ بنِ خُزَيْمَةَ، فَأَغِرْ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ تَلاقَى عَلَيْكَ جُمُوعُهُمْ**».

وكان التوجيه النبوي الثالث: **أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.**

فإذن هي قيادة تفويضية مطلقة ضمن الهدف العام، وهو يقدِّر حدود تنفيذ هذا الهدف، ورأى أبو سلمة ﷺ أن هذا الأمر غير كاف بتفرق الجمع قبل لقاء المسلمين.

إنه الانتقال من الخطة الدفاعية إلى الخطة الهجومية، ففي مفهوم الحرب العربية، لم يحقق أبو سلمة ﷺ من هدفه شيئًا، ولابد من النيل من العدو بأي شكل حتى يذوق طعم قوة المسلمين، ويتجرع غصص الهزيمة أمامهم، فماذا فعل ﷺ؟ وما هي خطته؟

فَرَّقَ أَصْحَابَهُ فِي طَلَبِ النَّعَمِ وَالشَّاءِ، فَجَعَلَهُمْ ثَلاثَ فِرَقٍ:

- فِرْقَةٌ أَقَامَتْ مَعَهُ.
- وَفِرْقَتَانِ أَغَارَتَا فِي نَاحِيَتَيْنِ شَتَّى.

وكانت الأوامر الموجهة للفرقتين المغيرتين محددة:

١ـ أَوْعَزَ إِلَيْهِمَا أَلَّا يُمْعِنُوا فِي طَلَبٍ.

٢ ـ أَلاَّ يَبِيتُوا إِلَّا عِنْدَهُ إِنْ سَلِمُوا.

٣ ـ أَلَّا يَفْتَرِقُوا.

ونُفِّذت الخطة كاملة، فآبوا إليه جميعًا سالمين، قد أصابوا إبلًا وشاء، ولم يَلْقوا أحدًا.

فليس الهدف مواجهة العدو، إنما الهدف الإغارة على نعمه وشائه، وبث الذعر والخوف في صَفِّه، وقد تحقق الهدف.

وبدلًا من أن تتناقل الركبان آثار هجوم بني أسد على المدينة، فتسارع القبائل الأخرى للغزو والإغارة عليها، راحت تتناقل وصول المسلمين إلى أعماق البادية، ومضارب بني أسد **حوالي ثلاثمائة**

وعشرين كيلًا بعيدًا عن المدينة باتجاه القصيم، والعودة بالغنم والشاء منها دون أن ينال المسلمين سوء أو مكروه، فتقلب تفكير قيادات القبائل كله في هذا المجال». [**التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٣٦-٢٣٨**].

١٦ ـ جواز القتال في الأشهر الحرم:

حيث إن السرية خرجت في شهر محرم وهو من الأشهر الحرم كما عرفنا، وقد سبق تفصيل جواز القتال في الأشهر الحرم في سرية عبد الله بن جحش ﷺ إلى نخلة ٢ هـ.

١٧ ـ مشروعية التعرض لأموال الحربيين والاستيلاء عليها:

دل ما توصلت إليه السرية من الإغارة على أموال العدو، والسيطرة على بعضها على مشروعية ذلك، وهذا ما سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

١٨ ـ إنزال الرعب في قلوب الأعداء المتربصين بالدولة الإسلامية في المدينة:

لقد كان لنجاح هذه السرية أكبر الأثر في نفوس القبائل المجاورة التي كانت تُحَدِّث نفسها بالإغارة على المدينة؛ لأن قبيلة بني أسد تُعتبر من أقوى القبائل النجدية وأشدها شكيمة، فكان نجاح المسلمين في ضرب هذه القبيلة وتشتيت جموعها بتلك السرعة بمثابة إنذار حاسم لِمَنْ تحدِّثه نفسه بالقيام بما اعتزمت هذه القبيلة القيام به من عدوان.

الفصل الثاني
سرية عبد الله بن أُنَيْس الجُهَني ﷺ
لقتل خالد بن سفيان الهُذَلي الذي كان يحشد لرسول الله ﷺ
الاثنين ٥ المحرم سنة ٤ هـ / ١٧ يونيه (حزيران) ٦٢٥ م / ٢٣ بؤنة ٣٤١ قبطي
المبحث الأول
عرض سرية عبد الله بن أُنَيْس الجُهَني ﷺ

أولاً: عرض السرية من كتب السنة والسيرة:

نقلت الاستخبارات الإسلامية أن رجلًا من أشداء الأعراب وشياطينهم يُدعى خالد بن سفيان بن نبيح الهُذَلي يحشد الجموع ـ وبنشاط كبير وملحوظ ـ لحرب المسلمين، فأرسل إليه النبي ﷺ عبد الله بن أنيس ﷺ ليقضي عليه، فخرج في اليوم الخامس من شهر المحرم سنة ٤ هـ.

قال ابن سعد: «ثُمَّ سَرِيَّةُ عَبدِ الله بنِ أُنَيسٍ ﷺ إِلَى سُفيانَ بن خالِد بن نُبَيحٍ الهُذَلي بِعُرَنَةَ، خَرَجَ مِنَ المَدينَة يَومَ الاِثنَين لِخَمسٍ خَلَونَ مِنَ المُحَرَّم، عَلَى رَأس خَمسَةٍ وثَلاثِينَ شَهرًا مِن مُهاجَر رَسُولِ الله ﷺ». [الطبقات الكبير ٢/ ٤٧ رقم ١٦٤٩].

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أُنَيْسٍ ﷺ قَالَ: دَعَانِي رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ خَالِدَ بْنَ سُفْيَانَ بْنِ نُبَيْحٍ الْهُذَلِي يَجْمَعُ لِي النَّاسَ لِيَغْزُوَنِي، وَهُوَ بِعُرَنَةَ** (١)**، فَأْتِهِ [اذْهَبْ]فَاقْتُلْهُ**».

قَالَ: **قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، انْعَتْهُ لِي حَتَّى أَعْرِفَهُ**، قَالَ: «**إِذَا رَأَيْتَهُ وَجَدْتَ لَهُ إِقْشَعْرِيرَةً**» (قال السندي: «إِقْشَعْرِيرَة» المشهور قُشَعْرِيرَة، بلا ألف، وهي قيام الشعر على الجلد، وهي الرِّعدة، كما في اللسان وغيره. هامش المسند لأحمد ٢٥/ ٤٤٣].

قَالَ: فَخَرَجْتُ مُتَوَشِّحًا بِسَيْفِي، حَتَّى وَقَعْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ بِعُرَنَةَ مَعَ ظُعُنٍ (النساء في الهوادج) [في ظَهْرٍ] (في جِمال للنساء) يَرْتَادُ (يطلب) لَهُنَّ مَنْزِلًا، وَحِينَ كَانَ وَقْتُ العَصْرِ (أي وصلتُ إليه، أو وقعتُ عليه، ففيه تقديرٌ تركه اعتمادًا على السابق)، فَلَـمَّا رَأَيْتُهُ وَجَدْتُ مَا وَصَفَ لِي رَسُولُ الله ﷺ مِنْ الإِقْشَعْرِيرَةِ، فَأَقْبَلْتُ

---

(١) **عُرَنَة**: هو الوادي الفحل الذي يخترق أرض المغمس، فيمر بطرف عرفة من الغرب عند مسجد نمرة، ثم يجتمع مع وادي نعمان غير بعيد من عَرَفة موقف الحجيج، ثم يأخذ الواديان اسم عرنة، فيمر جنوب مكة على حدود الحرم، ثم يُغرب حتى يفيض في البحر جنوب جدة على قرابة ثلاثين كيلو مترًا، وهو من الأودية الفحول ذات السيول الجارفة، زراعته قليلة، فيه زرائع على الضخ الآلي، وبطن عرنة هو بطن الوادي الذي فيه مسجد عرفة. قال ابن المواز: حائط مسجد عرفة القبلي على حد عرنة، ولو سقط ما سقط إلا فيها. السرايا والبعوث لبريك ١٥٦، معجم ما استعجم للبكري ٤/ ١١٩١، ومعجم معالم السيرة للبلادي ٢٠٥.

نَحْوَهُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُحَاوَلَةٌ (المُحَاوَلَة: طلب الشيء بحيلة) تَشْغَلُنِي عَنْ الصَّلاةِ [مَا إِنْ أُؤَخِّرِ الصَّلَاةَ]، فَصَلَّيْتُ وَأَنَا أَمْشِي نَحْوَهُ أُومِئُ بِرَأْسِي الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَلَـمَّا انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ [دَنَوْتُ مِنْهُ] قَالَ [لِي]: مَنِ الرَّجُلُ؟ قُلْتُ: **رَجُلٌ مِنْ العَرَبِ سَمِعَ بِكَ وَبِجَمْعِكَ [بَلَغَنِي أَنَّكَ تَجْمَعُ] لِهَذَا الرَّجُلِ، فَجَاءَكَ [فَجِئْتُكَ] لِهَذَا**، قَالَ: **أَجَل أَنَا فِي ذَلِكَ [إِنِّي لَفِي ذَاكَ]**، قَالَ: فَمَشَيْتُ مَعَهُ شَيْئًا، [سَاعَةً] حَتَّى إِذَا أَمْكَنَنِي حَمَلتُ عَلَيْهِ السَّيْفَ حَتَّى قَتَلْتُهُ [عَلَوْتُهُ بِسَيْفِي حَتَّى بَرَدَ (كناية عن موته)]، ثُمَّ خَرَجْتُ، وَتَرَكْتُ ظَعَائِنَهُ مُكِبَّاتٍ (أي ساقطات باكيات، اسم فاعل من أكب بتشديد الباء) عَلَيْهِ.

فَلَـمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَرَآنِي، فَقَالَ: «**أَفْلَحَ الوَجْهُ**»، قَالَ: قُلْتُ: **قَتَلْتُهُ يَا رَسُولَ الله**، قَالَ: «**صَدَقْتَ**»، قَالَ: ثُمَّ قَامَ مَعِي رَسُولُ الله ﷺ فَدَخَلَ فِي بَيْتِهِ فَأَعْطَانِي عَصًا، فَقَالَ: «**أَمْسِكْ هَذِهِ عِنْدَكَ يَا عَبْدَ الله بْنَ أُنَيْسٍ**»، قَالَ: فَخَرَجْتُ بِهَا عَلَى النَّاسِ، فَقَالُوا: مَا هَذِهِ العَصَا؟ قَالَ: قُلتُ: أَعْطَانِيهَا رَسُولُ الله ﷺ وَأَمَرَنِي أَنْ أَمْسِكَهَا، قَالُوا: أَوَلا تَرْجِعُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَتَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلتُ: **يَا رَسُولَ الله، لِمَ أَعْطَيْتَنِي هَذِهِ العَصَا**؟ قَالَ: «**آيَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِنَّ أَقَلَّ النَّاسِ المُتَخَصِّرُونَ** (المُتَخَصِّرُ: من يمسك العصا بيده، وقد يتكئ عليها، قيل: المراد ها هنا هم الذين يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحة يتكؤون عليها) **يَوْمَئِذٍ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، فَقَرَنَهَا عَبْدُ الله بِسَيْفِهِ، فَلَمْ تَزَل مَعَهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ أَمَرَ بِهَا فَصُبَّتْ مَعَهُ فِي كَفَنِهِ، ثُمَّ دُفِنَا جَمِيعًا». [مسند أحمد ٢٥/ ٤٤٠-٤٤٤ رقم ١٦٠٤٧، ١٦٠٤٨، وصحيح ابن حبان ١٦/ ١١٤ رقم ٧١٦٠، وأبو داود في الصلاة (١٢٤٩)، وحسن الحافظ في الفتح إسناد أبي داود. فتح الباري ٧/ ٤٤٠ كتاب المغازي باب غزوة الرجيع. ومجمع الزوائد ٦/ ٣٠١ كتاب المغازي والسير رقم ١٠٣٤٤، وقال الهيثمي: روى أبو داود بعضه، ورواه أحمد وأبو يعلى [مسند أبي يعلى ٢/ ٢٠١ رقم ٩٠٥] بنحوه، وفيه راو لم يسم وهو ابن عبد الله بن أنيس، وبقية رجاله ثقات. وقال الشيخ الصوياني: فالسند حسن والحديث صحيح. السيرة النبوية ٢/ ٢٩٠، وصحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٣٨ رقم ٣٩٤].

وعَنْ مُحَمَّدِ بن كَعْبٍ القُرَظِيِّ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ الله بن أُنَيسٍ ﷺ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا: «**مَنْ لِي مِنْ خَالِدِ بن نُبَيح رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ بِعُرَنَةَ؟**»، قَالَ عَبْدُ الله: فَقُلتُ: **أَنَا يَا رَسُولَ الله، انْعَتْهُ لِي**، فَقَالَ: «**لَوْ رَأَيْتَهُ هِبْتَهُ**»، فَقُلْتُ: **وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، مَا هِبْتُ شَيْئًا قَطُّ**، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَقِيتُهُ بِجِبَالِ عُرَنَةَ قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ، فَلَقِيتُهُ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَعَرِفْتُ حِينَ رُعِبْتُ مِنْهُ الَّذِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: مَنِ الرَّجُلُ، فَقُلْتُ: **بَاغِي حَاجَةٍ، فَهَل مِنْ مَبِيتٍ**؟ قَالَ: **نَعَمْ، فَالحَقْ بِي**، قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهِ، فَصَلَّيْتُ العَصْرَ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، وَأَشْفَقْتُ أَنْ يَرَانِي، ثُمَّ لَحِقْتُهُ فَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ، ثُمَّ غَشِيتُ الجَبَلَ، وَكَمُنْتُ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ النَّاسُ خَرَجْتُ، حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ المَدِينَةَ فَأَخْبَرْتُهُ الخَبَرَ.

وقَالَ مُحَمَّدُ بن كَعْبٍ: فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ مُخَصَّرَةً، فَقَالَ: «**تَخَصَّرْ بِهَذِهِ حَتَّى تَلْقَانِي بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَقَلُّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ المُتَخَصِّرُونَ**».

وقَالَ مُحَمَّدُ بن كَعْبٍ: فَلَـمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ الله بن أُنَيْسٍ ﷺ أَمَرَ بِهَا، فَوُضِعَتْ عَلَى بَطْنِهِ، وَكُفِّنَ عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ مَعَهُ. [مجمع الزوائد ٦/ ٣٠٢ كتاب المغازي والسير (١٠٣٤٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٣/ ١٣٥ رقم ٣٣٥]، ورجاله ثقات].

وفي رواية كُتَّاب السيرة بعض الإضافات حيث يقول الواقدي: قَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُنَيْسٍ ﷺ: خَرَجْتُ مِنْ المَدِينَةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ لِخَمْسٍ خَلَوْنَ مِنْ المُحَرَّمِ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ شَهْرًا، فَغِبْتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَقَدِمْتُ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَبْعٍ بَقِينَ مِنْ المُحَرَّمِ.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ أَنَّ خَالد بْنَ سُفْيَانَ بْنِ نُبَيْحٍ الهُذَلِيَّ، ثُمَّ اللِّحْيَانِيَّ، وَكَانَ نَزَلَ عُرَنَةَ وَمَا حَوْلَهَا فِي نَاسٍ مِنْ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ، فَجَمَعَ الجُمُوعَ لِرَسُولِ الله ﷺ وَضَوَى إِلَيْهِ بَشَرٌ كَثِيرٌ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ.

فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَبْدَ الله بْنَ أُنَيْسٍ ﷺ، فَبَعَثَهُ سَرِيَّةً وَحْدَهُ إِلَيْهِ لِيَقْتُلَهُ، وَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**انْتَسِبْ إِلَى خُزَاعَةَ**»، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُنَيْسٍ ﷺ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَعْرِفُهُ، فَصِفْهُ لِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ هِبْتَهُ وَفَرِقْتَ مِنْهُ، وَذَكَرْتَ الشَّيْطَانَ**»، وَكُنْتُ لا أَهَابُ الرِّجَالَ، فَقُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله! مَا فَرِقْتُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بَلَى، آيَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَنْ تَجِدَ لَهُ قُشَعْرِيرَةً إِذَا رَأَيْتَهُ**».

وَاسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ أَقُولَ، فَقَالَ: «**قُلْ مَا بَدَا لَكَ**»، قَالَ: فَأَخَذْتُ سَيْفِي لَمْ أَزِدْ عَلَيْهِ، وَخَرَجْتُ أَعْتَزِي (أنتمي) إِلَى خُزَاعَةَ، فَأَخَذْتُ عَلَى الطَّرِيقِ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى قُدَيْدٍ، فَأَجِدُ بِهَا خُزَاعَةَ كَثِيرًا، فَعَرَضُوا عَلَيَّ الحُمْلانَ وَالصَّحَابَةَ، فَلَمْ أُرِدْ ذَلِكَ، وَخَرَجْتُ حَتَّى أَتَيْتُ بَطْنَ سَرِفَ، ثُمَّ عَدَلتُ حَتَّى خَرَجْتُ عَلَى عُرَنَةَ، وَجَعَلْتُ أُخْبِرُ مَنْ لَقِيت أَنِّي أُرِيدُ خَالد بْنَ سُفْيَانَ ؛ لأَكُونَ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِبَطْنِ عُرَنَةَ لَقِيتُهُ يَمْشِي، وَوَرَاءَهُ الأَحَابِيشُ وَمَنْ اسْتَجْلَبَ وَضَوَى إِلَيْهِ.

فَلَـمَّا رَأَيْتُهُ هِبْتُهُ، وَعَرَفْتُهُ بِالنَّعْتِ الَّذِي نَعَتَ لِي رَسُولُ الله ﷺ، وَرَأَيْتَنِي أَقْطُرُ (أي أتصبب عرقًا)، فَقُلْتُ: **صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ!** وَقَدْ دَخَلتُ فِي وَقْتِ العَصْرِ حِينَ رَأَيْتُهُ، فَصَلَّيْتُ وَأَنَا أَمْشِي أُومِئُ إِيمَاءً بِرَأْسِي، فَلَـمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ قَالَ: **مَنِ الرَّجُلُ؟** فَقُلْتُ: **رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ، سَمِعْتُ بِجَمْعِكَ لِـمُحَمَّدٍ، فَجِئْتُكَ لأَكُونَ مَعَكَ**، قَالَ: **أَجَل إِنِّي لَفِي الجَمْعِ لَهُ**.

فَمَشَيْتُ مَعَهُ وَحَدَّثْتُهُ فَاسْتَحْلَى حَدِيثِي، وَأَنْشَدْتُهُ شِعْرًا، وَقُلْتُ: **عَجَبًا لِمَا أَحْدَثَ مُحَمَّدٌ مِنْ هَذَا الدِّينِ المُحْدَثِ، فَارَقَ الآبَاءَ وَسَفَّهَ أَحْلامَهُمْ**، قَالَ: **لَمْ يَلْقَ مُحَمَّدٌ أَحَدًا يُشْبِهُنِي**، قَالَ: وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصًا يَهُدُّ

الأَرْضَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى خِبَائِهِ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِلَى مَنَازِلَ قَرِيبَةٍ مِنْهُ، وَهُمْ مُطِيفُونَ بِهِ، فَقَالَ: **هَلُمَّ يَا أَخَا خُزَاعَةَ**، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَقَالَ لِجَارِيَتِهِ: احْلُبِي، فَحَلَبَتْ، ثُمَّ نَاوَلَتْنِي، فَمَصَصْتُ، ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَيْهِ، فَعَبَّ كَمَا يَعُبُّ الجَمَلُ، حَتَّى غَابَ أَنْفُهُ فِي الرَّغْوَةِ، ثُمَّ قَالَ: اجْلِسْ، فَجَلَسْتُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا هَدَأَ النَّاسُ وَنَامُوا وَهَدَأَ اغْتَرَرْتُهُ (أي أخذته في غفلة) فَقَتَلْتُهُ، وَأَخَذْتُ رَأْسَهُ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ وَتَرَكْتُ نِسَاءَهُ يَبْكِينَ عَلَيْهِ، وَكَانَ النَّجَاءُ مِنِّي، حَتَّى صَعِدْتُ فِي جَبَلٍ، فَدَخَلتُ غَارًا.

وَأَقْبَلَ الطَّلَبُ مِنْ الخَيْلِ، وَالرِّجَالِ تَوَزَّعُ فِي كُلِّ وَجْهٍ، وَأَنَا مُخْتَفٍ فِي غَارِ الجَبَلِ، وَضَرَبَتْ العَنْكَبُوتُ عَلَى الغَارِ، وَأَقْبَلَ رَجُلٌ وَمَعَهُ إِدَاوَةٌ (إناء صغير من جلد يُتخذ للماء) ضَخْمَةٌ، وَنَعْلاهُ فِي يَدِهِ، وَكُنْتُ حَافِيًا، وَكَانَ أَهَمُّ أَمْرِي عِنْدِي العَطَشَ، كُنْتُ أَذْكُرُ تِهَامَةَ وَحَرَّهَا، فَوَضَعَ إِدَاوَتَهُ وَنَعْلَهُ وَجَلَسَ يَبُولُ عَلَى بَابِ الغَارِ، ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ: لَيْسَ فِي الغَارِ أَحَدٌ.

فَانْصَرَفُوا رَاجِعِينَ، وَخَرَجْتُ إِلَى الإِدَاوَةِ، فَشَرِبْتُ مِنْهَا، وَأَخَذْتُ النَّعْلَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، فَكُنْتُ أَسِيرُ اللَّيْلَ، وَأَتَوَارَى النَّهَارَ، حَتَّى جِئْتُ المَدِينَةَ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي المَسْجِدِ، فَلَمَّا رَآنِي، قَالَ: «**أَفْلَحَ الوَجْهُ**»، قُلْتُ: أَفْلَحَ وَجْهُكَ يَا رَسُولَ الله، فَوَضَعْتُ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، فَدَفَعَ إِلَيَّ عَصًا، فَقَالَ: «**تَخَصَّرْ بِهَذِهِ فِي الجَنَّةِ، فَإِنَّ المُتَخَصِّرِينَ فِي الجَنَّةِ قَلِيلٌ**».

فَكَانَتْ عِنْدَ عَبْدِ الله بْنِ أُنَيْسٍ ﷺ حَتَّى إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ أَوْصَى أَهْلَهُ أَنْ يُدْرِجُوهَا فِي كَفَنِهِ.

وَكَانَ قَتْلُهُ فِي المُحَرَّمِ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ شَهْرًا. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٣١-٥٣٣**].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُنَيْسٍ ﷺ فِي ذَلِكَ:

تَرَكْتُ ابْنَ ثَوْرٍ كَالحُوَارِ وَحَوْلَهُ ... نَوَائِحُ تَفْرِي كُلَّ جَيْبٍ مُقَدَّدِ (١)

تَنَاوَلْتُهُ وَالظُّعْنُ خَلْفِي وَخَلْفَهُ ... بِأَبْيَضَ مِنْ مَاءِ الحَدِيدِ مُهَنَّدِ (٢)

عَجُومٍ لِهَامِ الدَّارِعِينَ كَأَنَّهُ ... شِهَابٌ غَضًى مِنْ مُلهَبٍ مُتَوَقِّدِ (٣)

أَقُولُ لَهُ وَالسَّيْفُ يَعْجُمُ رَأْسَهُ ... أَنَا ابْنُ أُنَيْسٍ فَارِسًا غَيْرَ قُعْدُدِ (٤)

أَنَا ابْنُ الَّذِي لَمْ يُنْزِلِ الدَّهْرُ قِدْرَهُ ... رَحِيبُ فِنَاءِ الدَّارِ غَيْرُ مُزَنَّدِ (٥)

---

(١) **الحوار**: ولد الناقة إذا كان صغيرًا. **تفري**: تقطع.

(٢) **الأبيض**: السيف. **المهند**: المنسوب إلى الهند.

(٣) **عجوم**: عضوض، يُقال: عجمه، إذا عضه. **الهام**: الرؤوس. **الشهاب**: القطعة من النار. **الغضى**: شجر يشتد التهاب النار فيه.

(٤) **القعدد**: اللئيم.

(٥) **لم ينزل الدهر قِدره**: القدر هو الإناء الذي يُطبخ فيه، ويعني هنا كرمه وجوده. **رحيب**: متسع. **المزند**: الضيق البخيل.

وَقُلْتُ لَهُ خُذْهَا بِضَـرْبَةِ مَاجِـدٍ حَنِيـفٍ عَـلَى دِيـنِ النَّبِـيِّ مُحَمَّـدِ [(١)]

وَكُنْـتُ إِذَا هَـمَّ النَّبِـيُّ بِكَـافِرٍ سَـبَقْتُ إِلَيْـهِ بِاللِّسَـانِ وَبِاليَـدِ

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٢١].

ثانيًا: العرض الأدبي للسرية [(٢)]:

خالد بن سفيان يجمع لغزو المدينة:

خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي، ثم اللحياني، زعيم من زعماء المشركين، شديد العداوة لرسول الله ﷺ، لم يكتف بكفره بالله وعبادته الأصنام، وتكذيبه للنبي ﷺ، وكراهيته له، وهذه كلها جرائم كبيرة، لم يكتف بها، وإنما صار يتصل بالقبائل الكافرة حول مكة والطائف، ويُهيجها على حرب رسول الله ﷺ، ويقنع زعماءها ورجالها بالاشتراك معه في جيش كبير كثير العدد، يتوجه به إلى المدينة، للقضاء على الإسلام والمسلمين، وقتل رسول الله ﷺ.

وكان خالد بن سفيان مقيمًا في منطقة (نخلة) ـ بين مكة والطائف ـ يتصل من هناك بالقبائل المختلفة، ويدعو من استجاب له منهم إلى الالتحاق بجيشه، والانضمام إلى معسكره.

وكان ينوي أن (يُجيِّش) عدة آلاف من رجال القبائل، ثم يتوجه بهم إلى غزو المدينة، والقضاء على المسلمين...

وعلم رسول الله ﷺ بما يفعله خالد بن سفيان الهذلي، وأنه على وشك التوجه إلى المدينة بما معه من آلاف القبائل العربية الكافرة لتنفيذ ما يريد!

فهل ينتظر رسول الله ﷺ هذه الجموع، حتى تأتي إلى المدينة ويحاربهم على مشارفها، أم يفاجئهم مفاجأة حكيمة مذهلة؟ يفرق بها جمعهم قبل أن يتحركوا؟!

كان رسول الله ﷺ حكيمًا، يتمتع ببعد النظر وحسن التصرف، وكان يفاجئ أعداءه الكفار مفاجآت مذهلة، يضعف بها قوتهم، ويفل بها جموعهم، ويحطم بها معنوياتهم، فلا يقفون أمامه!!

وسيرته الجهادية العملية مليئة بالأمثلة والشواهد والنماذج، التي تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها!

الرسول ﷺ يكلف عبد الله بن أنيس ﷺ بقتله:

قرر رسول الله ﷺ أن يكلف أحد رجاله الأشداء؛ ليقوم وحده بعملية جهادية خاصة، يقتل خالد الهذلي في معسكره، وسط جنوده، لتتفرق الجموع الملتفة حوله!

---

(١) **الماجد**: الشريف. **الحنيف** (هنا): الذي مال عن دين الشرك إلى دين الإسلام.

(٢) صور من جهاد الصحابة ﷺ للخالدي ١٠٣-١١٧ بتصرف يسير.

إنها عملية خاصة هامة، وهي خطيرة ودقيقة، لا يصلح لها أي رجل شجاع من أصحابه، وكل أصحابه شجعان! إنها تحتاج إلى رجل يتصف بشجاعة نادرة ذات مستوى عال، لا يهاب العدو، ولا يخشى الرجال؛ لأنه سيسير وحده، ليس معه أخ ولا صديق، وسيدخل معسكر الكفار، الذي يعج بآلاف الرجال، وسيتولى قتل زعيمهم وسطهم!

إن رسول الله ﷺ يعلم مواهب وقدرات وكفاءات أصحابه، ويضع الرجل المناسب منهم في مكانه المناسب، ويكلف الصحابي الأكفأ والأقدر على القيام بالمطلوب.

اختار رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس ﵁ للقيام بهذه المهمة الجهادية العظيمة.

هو: عبد الله بن أنيس الجهني الخزرجي الأنصاري، كان من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل الهجرة، وشهد بيعة العقبة، وحضر المعارك والمشاهد مع رسول الله ﷺ.

وقد اشترك في عملية جهادية عظيمة، فكان أحد أفراد المجموعة الخزرجية المجاهدة، التي قتلت عدو الله (أبا رافع) ـ سلام بن أبي الحقيق ـ اليهودي في خيبر، وكان أمير تلك المجموعة عبد الله بن عتيك ﵁.

أراد رسول الله ﷺ أن يقوم عبد الله بن أنيس ﵁ بالعملية الجهادية وحده؛ لأنها لا تحتاج إلى جيش، ولا إلى مجموعة صغيرة، إنما تحتاج إلى رجل واحد، يجتاز مواقع جيش الكفار، ليصل إلى قائدهم ابن نبيح الهذلي، فيقوم بقتله.

ولابد أن يتمتع هذا المجاهد بصفات خاصة، من الشجاعة والجرأة، وهدوء الأعصاب، وحسن التصرف، والذكاء والفطنة، وهذه صفات متوفرة في عبد الله بن أنيس ﵁.

دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس ﵁، وأخبره أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع جموع القبائل الكافرة ليغزو المدينة، ويقضي على الإسلام والمسلمين، ومعسكره موجود في منطقة مكة، يتحرك منه متصلًا بالقبائل الكافرة، يعدهم ويمنيهم، ومن استجاب له يلتحق بمعسكره ويقيم معه، وقد جمع آلافًا من رجال القبائل، وهو على وشك التوجه إلى المدينة.

قال ابن أنيس ﵁ لرسول الله ﷺ: **أين هو؟**

فأخبره رسول الله ﷺ أن معسكره في (عُرَنة) في منطقة (نخلة)، وعرنة اسم الوادي المحازي لعرفات، ونخلة اسم لتلك المنطقة الواقعة بين عرفات ومكة، على طريق الطائف.

الرسول ﷺ يذكر لابن أنيس ﵁ علامة عجيبة للهذلي، قال ابن أنيس ﵁: يا رسول الله! إني لا أعرف خالد بن سفيان الهذلي؛ لأني ما رأيته أو قابلته أو التقيت به من قبل، فصفه لي يا رسول الله حتى أعرفه!

فأخبره رسول الله ﷺ أن لابن نبيح الهذلي هيبة، وأن شخصيته كبيرة مؤثرة طاغية، وأنه عندما يراه عبد الله بن أنيس فسوف يهابه ويفرق منه ويخاف!

قال له رسول الله ﷺ: «**إنك إذا رأيته هبته، وفرقت منه، وذكرت الشيطان**».

إن ابن نبيح الهذلي شيطان من شياطين الإنس، وهو يُذكِّر بالشيطان، فمن رآه فإنه يتذكر الشيطان، والشيطان يلقي في نفسه المهابة والخوف منه، ولهذا يخاف الإنسان منه ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

استغرب عبد الله بن أنيس ﷺ مما يسمع من رسول الله ﷺ، فلماذا يخاف من ابن نبيح؟ إنه شجاع رابط الجأش، لم يسبق أن خاف من الرجال.

ولهذا قال لرسول الله ﷺ: **يا رسول الله، إنني ما فرقت من شيء قط! وما خفت من أحد، وأنا لا أهاب الرجال!**

وصدق ابن أنيس فيما قال عن نفسه، وإن الرسول ﷺ يعرف هذه الصفات فيه؛ ولهذا كلفه باغتيال ابن نبيح الهذلي! وهي صفات سامية عالية، لا تكون إلا في عظماء الرجال!

ومع اتصاف ابن أنيس ﷺ بهذه الصفات العالية، وتمتعه بهذا المستوى من الشجاعة، إلا أنه سيهاب ابن نبيح ويفرق منه عندما يقابله! جزم له رسول الله ﷺ بهذا.

ولذلك قال له ﷺ: «**بلى، ستفرق منه! وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته أصابتك قشعريرة ورعدة من الخوف**»!

أي أنه عندما يرى خالد بن نبيح فسوف يشعر بالخوف والفرق يدب في كيانه، ويحس برعدة في مفاصله، وقشعريرة تغشاه، يشعر بهذا وهو البطل الشجاع الذي لم يسبق له أن خاف من أحد، أو هاب أحدًا! فإذا كان هو سيشعر بهذا وهو من هو، فكيف سيكون غيره.

لقد كان الرسول ﷺ حكيمًا في تكليفه هو بهذه المهمة الجهادية!

وهي علامة عجيبة، يتعرف من خلالها ابن أنيس على خالد بن سفيان، إنه لن يخاف ولن يفرق إلا منه؛ ولهذا عندما يقابل رجلًا جبارًا شيطانًا، فيشعر بالرعدة والقشعريرة في كيانه، فليعلم أنه أمام مطلوبه!

الرسول ﷺ يأمر ابن أنيس ﷺ أن ينتسب لخزاعة:

وأراد عبد الله بن أنيس ﷺ أن يأخذ من رسول الله ﷺ إذنًا بأن يقول لابن نبيح بعض الكلام ليصل إليه، فقال له: **يا رسول الله! إنني لابد أن أقول شيئًا!** فقال له رسول الله ﷺ: «**قل ما بدا لك!**».

أي أنه لابد أن يقول بعض الكلام عن رسول الله ﷺ؛ ليطمئن إليه ابن نبيح ويأنس به، ويكون هذا تمهيدًا للتخلص منه، فأجاز له رسول الله ﷺ ذلك؛ لأن الحرب خدعة!

ثم أمر رسول الله ﷺ ابن أنيس ﷺ أن ينتسب إلى قبيلة خزاعة!

إن ابن أنيس أنصاري خزرجي، ولو انتسب إلى الأنصار فسوف يكتشف أمره، ويفشل في تحقيق مهمته، فلابد أن ينتسب إلى قبيلة أخرى!!

اختار له ﷺ أن ينتسب إلى قبيلة خزاعة! فلماذا؟

إن خزاعة قبيلة عربية كبيرة، تقيم في تلك المنطقة الواسعة، على الطريق إلى مكة، وكان خالد بن سفيان يتصل بزعمائها لينضم أفرادها إلى جيشه، وهي قبيلة كبيرة يصعب حصر أفرادها، فإذا قال ابن أنيس: أنا خزاعي، فيصعب التأكد من ذلك؛ لأن بطون خزاعة عديدة، فمن أي بطن هو؟

وبما أن مهمته الجهادية لا تحتاج إلى سلاح كثير؛ لأنها محصورة في قتل الشيطان ابن نبيح، فلم يأخذ معه إلا السيف فقط.

في مطلع شهر المحرم من السنة الرابعة من الهجرة، حمل عبد الله بن أنيس ﷺ سيفه، وغادر المدينة وحده، متوجهًا إلى منطقة نخلة، لتنفيذ مهمته.

وكان كلما رأى قبيلة، ينتسب إلى خزاعة، ويقول: أنا رجل خزاعي.

ابن أنيس ﷺ يصل معسكر الهذلي:

ومر على منطقة (قديد) ووجد فيها تجمعًا كبيرًا لخزاعة، فانتسب إلى خزاعة، فرحبوا به باعتباره واحدًا من قبيلتهم، وأخبرهم أنه متوجه إلى مكة، فعرضوا عليه أن يزودوه بالظهر - فرس أو جمل - ليقطع به المسافة إلى منطقة مكة، فأبى، وعرضوا عليه أن يرافقه أفراد منهم ليأنس بهم في الطريق، فأخبرهم أنه لا يحتاج إلى ذلك.

واصل عبد الله بن أنيس ﷺ سيره وحيدًا، وكلما قابل قبيلة أو مجموعة يخبرهم أنه ذاهب إلى خالد بن سفيان الهذلي للالتحاق بجيشه المتوجه إلى حرب المسلمين في المدينة!

وأخيرًا وصل ابن أنيس ﷺ إلى منطقة (عرنة) التي حددها له رسول الله ﷺ وهي مقر قيادة الهذلي.

ولما وصل (عرنة) وجد فيها معسكر الهذلي كبيرًا، يضم الكثير من أفراد القبائل الذين انضموا إليه، ويعدون بالمئات، وهم متفرقون في المنطقة، ينتظرون انضمام الآخرين إليهم، ليتوجهوا إلى غزو المدينة!

ودهش ابن أنيس ﷺ من الجموع الكثيرة التي يراها، وأدرك خطورة خالد بن سفيان على الإسلام والمسلمين، وأنه إن وصل بهذه الجموع إلى المدينة، فستكون المعركة عنيفة! وأدرك حكمة النبي ﷺ في تكليفه بقتل قائد هذه الجموع!

تجول عبد الله بن أنيس ﷺ في معسكر ابن نبيح يبحث عنه، وكان قد وصل المعسكر بعد أن صلى صلاة الظهر.

ونظر إلى رجل يمشي من بعيد، ومعه مجموعة من النساء، يريد أن يختار لهن موضعًا مناسبًا ينزلن فيه.

ابن أنيس ﷺ يَفْرَق من الهذلي:

ولما نظر إلى ذلك الرجل هابه وخاف منه وأحس بالقشعريرة والرعدة تسري في عروقه، وتذكر ما قاله له رسول الله ﷺ! إذن هو الآن أمام خالد بن سفيان، وهذه العلامة التي ذكرها رسول الله ﷺ قد تحققت.

فقال ابن أنيس في نفسه: صدق رسول الله ﷺ فها هو ما أخبرني عنه يتحقق في كياني!

كان الخوف الذي أصابه عَرَضًا زال سريعًا، والقشعريرة قصيرة لم تستمر إلا لحظة سريعة فزالت الرعدة والقشعريرة فورًا، ونتج عنها (عرق) غزير، صار يقطر من جسمه!

وخروج العرق من جسمه بعد خوفه وقشعريرته علامة على تجاوزه هذا الخطر، واسترداده لهدوئه ورباطة جأشه، وعودة شجاعته له، لقد تداركته رحمة الله، فأزال الله عنه الخوف والفرق العرضي، وأحل محله الطمأنينة واليقين، وهدوء الأعصاب وسكينة النفس، وهذه أمور ضرورية لبطل مجاهد، مقبل على عمل كبير!

ابن أنيس ﷺ يصلي العصر ماشيًا نحو الهذلي:

رأى ابن أنيس ﷺ خصمه بعد دخول وقت العصر، وهو على وضوء، وخشي أن تفوته صلاة العصر إذا التقى به، وحصلت مصاولة ومجاولة بينه وبينه! فماذا سيفعل؟

هل يؤخر الصلاة إلى ما بعد اجتماعه؟ وكيف سيصلي؟ إنه سيُقدم نفسه له باعتباره كافرًا منضمًا إلى جيشه لغزو المسلمين! فكيف يصلي أمامه صلاة المسلمين؟

هل يصلي الآن قبل أن يلتحق به؟ وكيف؟ لو أنه وقف واستقبل القبلة، وصلى صلاة عادية بقيام وركوع وسجود، فسيراه جنود الهذلي، ويلقون القبض عليه باعتباره مسلمًا عينًا لرسول ﷺ.

هل يترك الصلاة؟ باعتباره مكلفًا بمهمة جهادية؟ لا يجوز له ذلك؛ لأن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا!

هداه الله إلى تصرف رائع: يتوجه إلى خالد بن سفيان الذي كان بعيدًا عنه قليلًا، وفي أثناء سيره إليه يدخل في الصلاة، ينوي صلاة العصر، ويكبر تكبيرة الإحرام، وهو يمشي، فإذا أراد الركوع أو السجود أومأ برأسه إيماء، وأحناه قليلًا وهو يمشي!

ما أجمل هذه الصلاة التي يؤديها هذا المجاهد! يصلي وهو يمشي، ويركع ويسجد وهو يمشي، ينظر أثناء صلاته إلى (هدفه)وقلبه مشغول بذكر الله، وكيانه متصل بالله، على هذه الصورة العالية من الاتصال!

قال عبد الله بن أنيس ﷺ عن هذا المشهد من القصة: «... ثُمَّ عَدَلْتُ حَتَّى خَرَجْتُ عَلَى عُرَنَةَ، وَجَعَلْتُ أُخْبِرُ مَنْ لَقِيت أَنِّي أُرِيدُ خَالِدَ بْنَ سُفْيَانَ ؛ لأَكُونَ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِبَطْنِ عُرَنَةَ لَقِيتُهُ يَمْشِي، وَوَرَاءَهُ الأَحَابِيشُ وَمَنْ اسْتَجْلَبَ وَضَوَى إِلَيْهِ، ومَعَهُ ظُعُنٍ (النساء في الهوادج) يَرْتَادُ (يطلب) لَهُنَّ مَنْزِلًا، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ هِبْتُهُ، وَجَدْتُ مَا وَصَفَ لِي رَسُولُ الله ﷺ مِنْ قُشَعْرِيرَةٍ، وَرَأَيْتنِي أَقْطُرُ **عرَقًا!**، فَقُلْتُ: **صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ!** وَقَدْ دَخَلْتُ فِي وَقْتِ العَصْرِ حِينَ رَأَيْتُهُ، وَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُحَاوَلَةٌ (**المُحَاوَلَة**: طلب الشيء بحيلة) تَشْغَلُنِي عَنْ الصَّلَاةِ، فَصَلَّيْتُ وَأَنَا أَمْشِي نَحْوَهُ أُومِئُ بِرَأْسِي الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَا!».

ابن أنيس ﷺ مع الهذلي:

ولما فرغ ابن أنيس ﷺ من صلاته، توجه نحو (الهدف)، ودنا من خصمه.

قال له خالد بن سفيان: **من أنت؟**

قال له: **أنا رجل من خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد، واستعدادك لقتاله، فجئت إليك؛ لأكون جنديًا معك!**

قال خالد: **أجل، أنا أجمع الجموع لغزو المدينة، وقتال محمد!**

بقي على ابن أنيس ﷺ أن يتقرب إلى ابن نبيح، وأن يحادثه ويكلمه، ليأنس الأخير إليه، ويثق به، ليتمكن منه بعد ذلك.

مشى معه مسافة، وابن نبيح يتجول وسط معسكره، بين مضارب جنوده، وابن أنيس يحادثه ويسليه، وينشده الأشعار المختلفة، ويقص عليه القصص المسلية، ويسمعه الأقوال الحكيمة.

أنس ابن نبيح إلى ابن أنيس ﷺ، وأعجب به وبكلامه، واستمر ابن أنيس ﷺ يحدثه، إلى أن قال له: **يا ابن نبيح، عجبًا لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث، فارق الآباء، وسفه أحلامهم!**

فرد عليه ابن نبيح قائلًا: **لقد حارب رجال كثيرون محمدًا، ولم ينتصروا عليه، وأنا صممت على حربه وقتاله والقضاء عليه! وأنا الذي سأقضي عليه، وأريح الناس منه!**

واستمرا يسيران، حتى ابتعدا عن رجاله، وانتهى ابن نبيح إلى خيمته، وهي بعيدة عن أصحابه.

دخل خيمته، ودخل ابن أنيس ﷺ معه، فقال له: هلم يا أخا خزاعة!

فجلس بجانبه، وحادثه وانبسط ابن نبيح معه، وتصرف على سجيته، ولاطفه وأكرمه، وبعد فترة من جلوسهما معًا أمر ابن نبيح جاريته أن تحلب له، ولما حلبت وناولته الحليب دفعه إلى ابن أنيس ﷺ فشرب منه قليلًا، ثم أعاده إلى ابن نبيح، فعب منه كما يعب الجمل، وشرب حتى ارتوى.

وغابت الشمس وهما جالسان يتحدثان، وحل الظلام، ومرت ساعات الليل، وهما يسمران، ونام الناس في الخيام الأخرى.

ابن أنيس ﷺ يقتل الهذلي في خيمته:

وبدأ النعاس يدب إلى خالد بن سفيان، وعبد الله بن أنيس ﷺ يرقبه، نعس الرجل واستأذن محدثه لينام، ونام الزعيم الذي يجمع الجموع للقضاء على رسول الله ﷺ، نام وهو يمني نفسه بذلك، ولعله كان يحلم بهذا!! وما دري هذا العدو المغرور أن الله له بالمرصاد، وأن الله سيسخر جنديًا من جنوده ليهلكه ويقضي عليه بعد قليل! وأن هذا الجندي الرباني قريب منه، وجالس بجانبه!

نظر عبد الله بن أنيس ﷺ إلى خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي، فوجده نائمًا يغط في نومه، ونظر إلى نسائه القريبات منه فوجدهن نائمات، ونظر إلى جنوده ورجاله في الخيام فوجدهم نائمين.

نام جنود الباطل جميعًا، وبقي جندي الحق متيقظًا؛ لينفذ حكم الله في زعيم البغي والعدوان، وينصر دين الله.

وبعدما اطمأن إلى الأمر، استل سيفه، وأهوى به على خالد بن سفيان، وما هي إلا ضربة أو ضربتان حتى قضى عليه، وخمدت أنفاسه، وزهقت روحه.

حَزَّ رأسه بالسيف، وفصله عن جسمه، وحمله بيده، وتهيأ للخروج من الخيمة!

وبينما كان يهم بالخروج أحست إحدى نساء ابن نبيح بالحركة، فاستيقظت، ونظرت إلى الزعيم، فإذا به جسم بدون رأس، جثة هامدة، فصاحت، واستيقظت النساء على صيحتها، وصرن يصرخن ويولولن، ويبكين رجلهن القتيل.

وسمع الرجال الصراخ والعويل، واستيقظوا، ودبت الحركة في معسكر الكفار، وفوجؤوا بقائدهم قتيلًا، جثة بلا رأس!

وتوزعوا في المناطق المجاورة للمعسكر يبحثون عن القاتل الذي حمل الرأس معه!

ابن أنيس ﷺ مختبئ في غار في الجبل:

أما عبد الله بن أنيس ﷺ فإنه هرب سريعًا لما شعر بحركة النساء، وكان يجري حافيًا! لأنه من سرعته لم يتمكن من لبس حذائه، وكان معسكر ابن نبيح في سفح جبل.

ارتقى ابن أنيس الجبل، ووجد فيه غارًا، فدخل الغار، ودعا الله مخلصًا، وطلب منه أن يحميه في الغار، وأن يعمي عنه عيون الكافرين!

صعد الرجال المشاة والرجال الخيالة على خيولهم الجبل، يبحثون ويفتشون عن القاتل، وتوجه رجال آخرون إلى مناطق أخرى قريبة من المعسكر يفتشون!

وبينما كان ابن أنيس ﷺ في الغار جاء رجل من المشركين يبحث ويفتش، ووقف على باب الغار ولكن الله أعمى بصره، فلم ينظر داخل الغار! ولو نظر داخله لوجد ابن أنيس ﷺ فيه! ولكن الله حمى هذا الجندي الرباني المجاهد!

كان مع الرجل الكافر (إداوة) ضخمة، مملوءة بالماء، ومعه نعلان يحملهما بيديه ويمشي حافيًا!.

نظر ابن أنيس ﷺ إلى (إداوة) الماء والنعلين، فطمع فيهما! لأنه كان قد عطش عطشًا شديدًا، بسبب جريه وصعوده الجبل، وهو بحاجة ماسة إلى شربة ماء، وهو حافي القدمين، وسفره طويل إلى المدينة، وبحاجة إلى النعلين، فتمنى لو يستطيع أن يشرب من الإداوة! وأن يأخذ النعلين.

ويسَّر الله له ذلك، فأقبل الرجل نحو الغار وسط الظلام، وقال لأصحابه: ليس في الغار أحد، ثم شعر بالحاجة إلى قضاء الحاجة! فوضع الإداوة والحذاء جانبه وجلس يبول على باب الغار!

استغل ابن أنيس ﷺ قضاء الرجل للحاجة، وأخذ الإداوة وشرب ما فيها، ولبس الحذاء، وخرج من الغار تحت جنح الظلام.

وكتب الله له النجاة، فأنجاه من جموع الجنود، الذين انطلقوا يفتشون عليه في كل مكان، فحمد الله على ما أنعم به عليه من النجاح في تحقيق مهمته، وقتل زعيم معسكر الكفار المحاربين، ونجاته من بين جموعهم الباحثة عنه!

أما معسكر الكفار فقد انفض بعد مقتل قائدهم خالد بن سفيان الهذلي، فإنهم كانوا متجمعين من قبائل شتى، لا يجمعهم إلا الهذلي، فقد كان شخصية قيادية تجميعية، اجتمعت عليه القبائل، والتف حوله الجنود.

وقد كان رسول الله ﷺ حكيمًا عندما وجه الضربة إلى رأس هذا الجيش، وكلف ابن أنيس ﷺ بقتل الهذلي.

فما أن رأى رجالُ القبائل المجمَّعة في الصباح قائدهم قتيلًا، جثة بلا رأس، حتى تفرقوا، وعاد كل منهم إلى قبيلته.

وبذلك انفض ذلك الجمع الكافر، وأزال الله عن المسلمين الخطر، وكفاهم شر القتال، ورد الذين كفروا بغيظهم، لم ينالوا خيرًا.

ابن أنيس ﷺ يصل المدينة سالمًا وبشرى الرسول ﷺ له:

وأما عبد الله بن أنيس ﷺ فقد عاد إلى المدينة بعد نجاح مهمته الجهادية، وكان حذرًا في عودته، حريصًا على أن لا يراه أحد من المشركين؛ لأنه كان يحمل رأس خالد بن سفيان معه!.. لذلك كان يسير بالليل حيث لا يراه أحد، ويكمن في النهار، متواريًا عن عيون المشركين، حتى لا يراه أحد!

واصلَ عبد الله بن أنيس ﷺ سيره على هذه الصورة الحذرة، واجتاز تجمعات المشركين بين مكة والمدينة، بشجاعة وفطنة وحذر، وكتب الله له النجاة، ووصل المدينة سالمًا مفلحًا.

توجه إلى المسجد، فوجد رسول الله ﷺ في المسجد، فسلَّم عليه، فرد رسول الله ﷺ.

ثم بشَّره رسول الله ﷺ بما يسُرُّه، فقال له: «**أفلح الوجه**».

فقال ابن أنيس ﷺ: **ووجهك المفلح يا رسول الله!**

وهذه البشرى من الرسول ﷺ لابن أنيس ﷺ بشرى عظيمة، ملأته سرورًا وطمأنينة وسعادة، وهذه معان جليلة، لا تقف أمامها المشقات التي مرت به أثناء أداء مهمته الجهادية! لقد تضاءل ما مر به من سير وتعب وإرهاق، ومن جوع وعطش، ومن خوف وقشعريرة وفرَق، ومن جهد وسهر، وتفكير وحذر، إنها مشقات كثيرة، لكنها هينة أمام النتيجة: أن يكون مفلحًا.

إنها ضريبة الفلاح، والطريق الحتمية إليه، لا بد أن يقطفها، وأن يتحملها، وأن يصبر عليها، ويجاهد نفسه عليها، ويستعلي بهمته عليها؛ ليصل إلى غايته، وهي أن يفلح وجهه، ويكون رجلًا مفلحًا من المفلحين!

ولهذا سارع رسول الله ﷺ بتبشيره بالفلاح، جائزة ومكافأة له!

بعد ذلك أخبر ابن أنيس ﷺ رسولَ الله ﷺ، فقال: لقد قتلت خالد بن سفيان الهذلي يا رسول الله!

فقال له رسول الله ﷺ: «**صدقت**»!

فأخرج رأس الهذلي، ووضعه أمام رسول الله ﷺ، فكبر رسول الله ﷺ، وشكر الله على فضله، بأن خلصه من عدوه، الذي كان يجمع الجموع لغزوه وأراحه من شره!

ابن أنيس ﷺ يؤرخ للعملية الجهادية شعرًا:

وجلس عبد الله بن أنيس ﷺ مع أصحابه في المدينة، وأخبرهم بتفاصيل مهمته الجهادية الجليلة، منذ أن خرج من المدينة إلى أن عاد إليها، متحدثًا بنعمة الله.

وكان ابن أنيس ﷺ شاعرًا، فسجل خلاصة عمليته الجهادية، وأثبتها في أبيات من الشعر، تناقلها الرواة من بعده، وأثبتها الإخباريون والمؤرخون كما سبق بيانه.

الرسول ﷺ يخص ابن أنيس ﷺ بوسام عجيب:

ولما قدَّم عبد الله بن أنيس ﷺ تقريره عن تفاصيل عمليته الجهادية إلى رسول الله ﷺ، أخذ رسول الله ﷺ بيده، وأدخله بيته، وتناول من بيته عصا، ثم ناوله إياها، وقال له: «**امسك هذه العصا عندك يا عبد الله بن أنيس**».

أمسكَ ابن أنيس ﷺ بالعصا، وهو لا يعرف المراد بها، ولماذا أعطاه إياها ﷺ، وخرج بها على الناس.

ولما رآه الصحابة يحملها قالوا له: ما هذه العصا؟

قال ابن أنيس ﷺ: لا أدري، لقد أعطانيها رسول الله ﷺ، وأمرني أن أمسكها عندي!

قالوا له: أفلا ترجع إلى رسول ﷺ فتسأله: لم أعطاك العصا؟ فرجع إلى رسول الله ﷺ فسأله: يا رسول الله! لماذا أعطيتني هذه العصا؟

فقال له ﷺ: «**احتفظ بهذه العصا؛ لتتخصر بها في الجنة، فإن المتخصرين في الجنة قليل، وهي آية وعلامة بيني وبينك يوم القيامة**»!

وهذه مزية لعبد الله بن أنيس ﷺ ميَّزه بها رسول الله ﷺ؛ لأنه قام بعملية جهادية عظيمة، قضى فيها على عدو من أقوى الأعداء وأشدهم عداوة.

إنه يأتي يوم القيامة يتخصر بهذه العصا، ويمشي متوكئًا عليها، لا لحاجته إليها، ولكنها علامة مميزة له، يُعرف بها من بين باقي المسلمين، فإذا رآه رسول الله ﷺ عرفه فأكرمه.

وعندما يدخل الجنة، يدخلها ومعه تلك العصا، يتوكأ عليها؛ لتكون وسامًا مميزًا له!

وقد احتفظ عبد الله بن أنيس ﷺ بتلك العصا، وقرنها بسيفه، ولم تزل معه طيلة حياته، ولما حضرته الوفاة أمر أن تُضم العصا إلى كفنه!! فضُمت معه في كفنه، ودفنت معه! رضي الله عنه وأرضاه.ا.هـ.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧ هـ) ٦/ ٣٠٠-٣٠٣، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٦١٤ -٦١٥.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٤٠٩-٤١١، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦١٩-٦٢١ (ذكرها بدون تحديد تاريخ في فصل بعنوان: ذكر جملة السرايا والبعوث)، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٣١-٥٣٣ (ذكرها بعد غزوة بني قريظة)، الطبقات الكبير (الكبرى) لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٤٧-٤٨، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٥٠-٥٥٥، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٤٠-٤٣ (بعد غزوة بني قريظة)، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٧-

٤١٩، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٤٦-٣٤٧، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٤٣-٢٤٤، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ١٣٦-١٣٩ (بعد غزوة بني قريظة)، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٥٦-٢٥٧ (بعد غزوة بني قريظة)، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٥٧ -٦٢، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٥٦-١٥٧.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/ ٣٩٨، صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٣٨، السيرة النبوية لرزق الله ٤٠٩، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ١٧٦-١٨٠.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: غزوة الأحزاب لباشميل ٢٦ -٢٩، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٦٤ -٦٩، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ١٥٣-١٦٢، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٨٣-٩٦.

هـ ـ كتب أخرى: قادة النبي ﷺ لخطاب ١٨٧-١٩٥، صور من جهاد الصحابة ﷺ للخالدي ١٠٣-١١٨، فرسان من عصر النبوة لجمعة ٧٢٤-٧٣٩، رجال مبشرون بالجنة لجمعة ٤٦٥-٤٨٥.

خرائط سرية عبد الله بن أُنَيْس ﷺ لقتل خالد الهذلي

سـرية
عبد الله بن أُنَيس
(عُرَنـة)
المحرم ٣ هـ

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ص ١٢٦.

ويُنظر خرائط سرية أبي سلمة ﷺ إلى قطن.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سرية عبد الله بن أُنَيْس ﷺ لقتل خالد الهذلي

١ ـ دقة الرصد الحربي وسرعة اتخاذ القرار:

يقول أ/ فتح الباب: «أقام النبي ﷺ في المدينة بعد عودته الظافرة من غزوة حمراء الأسد، وعودة سرية أبي سلمة بن عبد الأسد ﷺ بعد نجاحها في أداء العملية العسكرية التي أنيطت بها، وقد اجتمع المسلمون حوله يتشاورون في أمرهم مع المشركين في الخارج والمنافقين في الداخل، وكان ﷺ على يقين من ائتمار القبائل المجاورة بالمسلمين برغم ما حققوه من نصر في هذه الغزوة وتلك السرية، فظل ملتزمًا موقف الحذر والترقب، مادًّا بصره عبر الصحراء التي تفصل بين يثرب وما حولها من مواطن الأعراب المتحالفين مع قريش، مشعلًا في حنايا رجاله الروح العسكرية كي يظلوا دائمًا على أهبة الخروج للمعارك ولا يخلدوا إلى دعة السلم ورفاهية الحياة ما دام العدو متربصًا بهم، منتهزًا فرصة غفلة منهم عنه لينقض عليهم.

وفي مقدمة التدابير التي كان يتخذها النبي ﷺ لاتقاء هجوم المشركين بعث طلائع ثورية من أصحابه للاستكشاف، وتقصي أخبار الأعداء، والوقوف على تحركاتهم واستعدادهم، وكان يختار لهذه المهمة مَنْ يتوسم فيهم القدرة على أدائها وتكامل العناصر اللازمة لها من قوة وبصيرة وخبرة، ومَنْ يأنس فيهم الروح الفدائية التي تستهين بالصعاب وتعمل تحت شعار النصر أو الشهادة».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٩٥-٩٦].

ويقول أ/ الشامي: «اتسعت رقعة العداء للرسول ﷺ، وبدأ الشرك ـ والكفر كله ملة واحدة ـ يؤازر أهله بعضهم بعضًا، ولم تعد قريش وحدها في ميدان المعركة، بل أصبح لها من يناصرها ويعاضدها.

إن سرعة اتخاذ القرار التي سلكها الرسول الكريم ﷺ إزاء ما كان يُهيأ له، فوتت على المشركين ما فكروا فيه، فبنو أسد وهم يهيؤون أنفسهم لم يشعروا إلا وخيل رسول الله ﷺ قد دهمتهم، وكان القضاء على خالد بن سفيان قضاء على سبب الجريمة والمخطط لها». [من معين السيرة للشامي ٢٧٩].

ويقول د/ الحميدي: فهذا «موقف للرسول ﷺ في دقة الرصد الحربي والحزم في مواجهة الفتن وقوة الإدراك في سياسة الأمور، وإعداد الحلول المناسبة للمشكلات والأزمات في وقتها الملائم لها، فقد رأينا رسول الله ﷺ في هذا الخبر قد تنبه لتحركات عدو خطير بدأ يجمع الناس حوله لغزو المسلمين، فلم يُمهله حتى يكثر جمعه ويشتد ساعده، بل فكر في القضاء على الفتنة وهي في أيامها الأولى بالقضاء على مصدرها وأساسها، فوجه للقضاء عليها سهمًا من سهامه الصائبة الذين رباهم على يديه ورفعهم الله بدعوته إلى الآفاق العليا.

وهكذا يجب على مَنْ ولاه الله أمرًا من أمور الأمة أن يكون حازمًا في قطع مادة الفتنة وهي لا تزال في مهدها؛ لأنها والحال هذه لا تكلف الأمة تضحيات كبيرة، بخلاف ما إذا استفحل أمرها فإن خطرها يكون كبيرًا والقضاء عليها يكلف الأمة جهودًا كبيرة وخسائر فادحة».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢٦].

٢ ـ الهدف المشترك بين سريتي أبي سلمة وابن أنيس رضي الله عنهما:

يقول د/ الغضبان: «في الشهر نفسه الذي تم فيه اختيار أبي سلمة بن عبد الأسد ﷺ لمواجهة أسد في أرضهم وباديتهم، وبعد خمسة أيام فقط يتم اختيار عبد الله بن أنيس ﷺ لقتل خالد بن سفيان الهذلي على مشارف مكة، والهدف من السريتين واحد، إذ إن كليهما لضرب تجمعات العدو قبل تحركها، وتفريقها في مهدها، وإذا كان الهدف واحدًا من السريتين، لكن خطة تحقيق الهدف اختلفت اختلافًا جذريًّا لكليهما كذلك، فبينما اقتضى إنهاء جموع بني أسد سرية تحمل نخبة من أكبر القياديين والفدائيين قوامها مائة وخمسون رجلًا، اقتضى إنهاء جموع هذيل، والأحابيش معهما سرية قوامها بطل واحد فقط، هو: عبد الله بن أنيس ﷺ، وفي الوقت الذي حدد فيه ﷺ مهمة السرية الأولى بالإغارة على ديار بني أسد، وتفتيت جموعهم والظفر بنعمهم وشائهم، حدد فيه ﷺ مهمة عبد الله بن أنيس ﷺ بقتل خالد بن سفيان الهذلي فقط، وكلتا الخطتين تحققان الهدف المذكور آنفًا من تفريق تجمعات العدو، وبث الرعب في صفوفه».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٤٠].

٣ ـ أهمية وجود رجال المخابرات الأكفاء:

يقول أ/ فتح الباب: «ومن هذه الطلائع التي عرفت بالحنكة والمقدرة في أعمال الاستخبارات الحربية عبد الله بن أنيس ﷺ، فكان أن وقع عليه اختيار النبي ﷺ للتجسس على خالد بن سفيان بن نُبيح الهذلي، وكان زعيمًا لبني لحيان إحدى بطون قبيلة هذيل، حين بلغه أنه يستعد لغزو المدينة على رأس بعض المشركين، وبادر عبد الله ﷺ إلى الذهاب إلى نخلة أو عرنة حيث كان يقيم خالد، وهناك التقى الرجلان، فقال الذي في نفسه مرض يسأل عبد الله: مَنِ الرجل؟ فأجابه: أنا رجل من العرب سمع بك وبجمعك لمحمد فجاءك لذلك.

وهي إجابة تدل على دهاء رجل المخابرات الحق وقدرته على تضليل العدو، حتى يفضي إليه بسره، ويكشف عن طويته، الأمر الذي تحقق إذ لم ينكر خالد فعلته، فاستدرجه ابن أنيس ﷺ بعيدًا عن نسوة كان يهيئ لهن مكانًا يقمن فيه، ثم وثب عليه وأعمل سيفه في عنقه، وتركه صريعًا لقاء ما بيت من مكيدة للمسلمين، وعاد عبد الله ﷺ إلى المدينة حيث أنبأ النبي ﷺ بالواقعة». [القيم الخلقية لفتح الباب ٩٦].

٤ ـ وأد الفتنة في مكمنها:

يقول ل/ خطاب: «وهكذا استطاع عبد الله ﷺ وحده، ببطولته الفذة، وإقدامه النادر أن يقضي على فتنة الهذلي التي كان يُعدها ويستعد لها، وينهي خططه في حرب الإسلام والمسلمين.

وبهذا تغدى عبد الله ﷺ بالهذلي قبل أن يتعشى الهذلي بالمسلمين، فيجمع لهم الجموع ويخوض ضدهم الحروب ويكبدهم الخسائر بالأرواح والأموال». [قادة النبي ﷺ لخطاب ١٩٠].

ويقول أ/ حوى: «في كثير من الأحيان يكون قتل إنسان وأدًا لفتنة أو إنهاء لحرب أو قضاء على فكرة، وكثيرًا ما تحيا أمم وشعوب وقبائل برجال، وأنت في صراعك مع أعدائك قد تخفف الكثير عن أمتك ودعوتك إذا استطعت أن تقضي على رجل، ورسول الله ﷺ في هذا الشأن لا يُجارى، مع ملاحظة أن ضرباته كلها كانت عادلة ومع محاربين، فهو ﷺ أبعد الناس عن غدر بمعاهد، وأبعد الناس عن اعتداء على مواطن غير مدين شرعًا، فها هو ﷺ لم يمس المنافقين على معرفته بهم، وعلى شدة ما فعلوه به ﷺ، كما أنه لم ينكث عهدًا مع أحد، ولكن المحاربين كان له معهم شأن آخر، وخاصة أولئكم الذين بقتلهم يُجْهَضُ تحرك عسكري، كما فعل بكعب بن الأشرف، وكما فعل بخالد بن سفيان، وكما سيفعل بآخرين ممن سيأتي الحديث عنهم». [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦١٥].

٥ ـ على القيادة اختيار ذوي الكفاءات في تنفيذ المهام:

لقد كان رسول الله ﷺ أعرف البشر بشياطين الفجور في البشر، كما كان أعلم الناس بأصحابه وموازينهم في البطولة، وإقدامهم على الموت في سبيل إعلاء كلمة الله استجابة لرسول الله ﷺ إذا دعاهم لما يحييهم حياة أبدية خالدة. [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٤٥].

لقد كان لدى النبي ﷺ حسن اختيار لذوي الكفاءات حيث كان يختار لكل مهمة من يناسبها، فيختار للقيادة مَنْ يجمع بين سداد الرأي وحسن التصرف والشجاعة، ويختار للدعوة والتعليم مَنْ يجمع بين غزارة العلم ودماثة الخلق والمهارة في اجتذاب الناس، ويختار للوفادة على الملوك والأمراء مَنْ يجمع بين حسن المظهر وفصاحة اللسان وسرعة البديهة، وفي الأعمال الفدائية يختار مَنْ يجمع بين الشجاعة الفائقة وقوة القلب والمقدرة على التحكم في المشاعر.

إن تخير رسول الله ﷺ هذا الصحابي المغوار لهذه المهمة البالغة الصعوبة يعطي دلالة واضحة على معرفته ﷺ الشديدة برجاله، حيث كان يكِل لكل منهم المهمة التي تناسب وضعه وإمكانياته، يعني الرجل المناسب في المهمة المناسبة، وهو عمل قائم على التخطيط السليم، والدقة في الاختيار، وكون رسول الله ﷺ يختار لهذه السرايا بعض رجاله لا يعني بالضرورة أن بقية الصحابة لا يصلحون لهذه المهمات، فهم جميعًا كانوا لا يهابون الموت، بل يتحرقون دائمًا للشهادة في سبيل الله، ولكن المواقف

الحساسة التي تمر بها مثل هذه السرايا تتطلب رجالًا فيهم صفات مميزة كعبد الله بن أُنيس، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عتيك، ومحمد بن مسلمة، وعمرو بن أمية وغيرهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

وهكذا يختار النبي ﷺ لهذه المهمة عبد الله بن أنيس ﷺ لكونه عالي الشجاعة قوي القلب، وابن أنيس ﷺ يعتبر من شجعان العرب، ومما يدل على قوة قلبه قوله: «**وكنت لا أهاب الرجال**»، وقوله: «**ما فرقت من شيء قط**»، أي أنه لم يكن يشعر بالخوف من أي إنسان إذا قابله ولو كان في غاية الشجاعة والقوة، ولا من أي حيوان وإن كان في غاية الوحشية؛ فلذلك اختاره النبي ﷺ وجعل علامة خالد الهذلي التي يعرفه بها أنه إذا رآه وجد في نفسه قشعريرة منه، يعني من الخوف، وهذا يعني أنه لم يكن يجد ذلك في نفسه من أحد قبله، وإلا لما حصلت له هذه العلامة.

كما أن عبد الله بن أنيس ﷺ كان يتمتع بالمقدرة على التحكم في مشاعره، فهو حينما رأى خالد الهذلي بدا عليه الخوف، والخوف يظهر في اصفرار الوجه، وحينما همَّ بالفتك به لابد أن يكون قد ارتفعت عنده نسبة الغضب إلى حد كبير، والغضب عادة يظهر في اسوداد الوجه، وكلما همَّ الإنسان في الدخول في أمر عظيم ظهر ذلك على تقاسيم وجهه، لكن ابن أنيس ﷺ استطاع كتمان مشاعره، وظهر لذلك الرجل وكأنه لم يشعر نحوه بأي خوف، ثم أقدم على قتله وكأنه لم يظهر عليه شيء من الغضب، وبذلك استطاع أن يلبِّس عليه أمره، وأن يَظهر أمامه بمظهر الرجل الناصح الذي يريد أن يكون تابعًا له ينفذ له أوامره، وبهذه المقدرة الفائقة من ابن أنيس ﷺ على كتمان مشاعره وثق به خالد الهذلي فأمنه ولم يحترز منه.

[**السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ١٥٦، التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢٧-٢٨**].

وأيضًا من أهم أسباب هذا الاختيار هو أن عبد الله بن أنيس ﷺ يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه (جُهَيْنَة). [**غزوة الأحزاب لباشميل ٢٧**].

ويقول د/ الغضبان: «إن ابن أنيس ﷺ لا يحمل تاريخًا عريقًا من الحرب والجهاد والخبرة القتالية، ولا ندري إن كان برز في حرب بعاث أو شارك فيها لكن عظمة القيادة النبوية هي التي تفرست فيه هذه القدرة العظيمة على مثل هذه المهمة، وعلى منهج الخط التربوي الموازي من خلال اختيار الطاقات، لا من خلال بروزها، وكما اختار ﷺ أبا سلمة المهاجر ﷺ، اختار ابن أنيس الأنصاري ﷺ لمهمة مكافئة.

وكانت الفراسة النبوية في ابن أنيس ﷺ، وقدرته الفائقة لهذه المهمة درسًا لكل القادة في الأرض في حسن اختيار الطاقات والكفاءات للمسؤوليات المناسبة». [**التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٤١، ٢٤٥**].

ويقول ل/ خطاب: «أما سمات قيادته التي تبدو واضحة للعيان، فهي: الشجاعة الخارقة، والإقدام النادر، «**وكنت لا أهاب الرجال**»، كما قال عن نفسه، ويكفي دلالة على ذلك اندفاعه إلى مشارف مكة وقتل الهذلي بين قومه وأنصاره وحشده، دون أن يكون معه أحد من الناس، بل كان وحده ليس معه غير سيفه.

كما أنه قتل غير الهذلي من أعداء النبي ﷺ والمسلمين، فكان هو الذي يتولى قتل أولئك الأعداء من بين رجال سريته، وإذا كان أفراد السرية من المختارين شجاعة وإقدامًا، فعبد الله ﷺ أشجع المختارين من بين المهاجرين والأنصار والمسلمين كافة في حينه، ومن أكثرهم إقدامًا ومغامرة ورجولة.

لقد كان عبد الله ﷺ قائدًا بطلًا.

يذكر التاريخ لابن أنيس ﷺ أنه كان من المسلمين الأولين السابقين إلى الإسلام، وأنه كان مهاجريًّا أنصاريًّا عقْبيًّا، وأنه أكثر المسلمين قتلًا لأعداء النبي ﷺ والمسلمين والدين الحنيف، وأنه جاهد تحت لواء الرسول القائد ﷺ، وتحت ألوية قادة الفتح الإسلامي العظيم، وأنه كان بطل الأبطال، ورجل الرجال وقمة الفدائيين والمجاهدين الصادقين». [**قادة النبي ﷺ لخطاب ١٩٣-١٩٤**].

٦ ـ الوقوف على حقيقة المهمة لحسن تنفيذها:

يقول د/ الغضبان: «اختار النبي ﷺ ابن أنيس ﷺ دون مقدمات، ودون تمهيد مسبق، وذكر له كل ما يحتاجه لتنفيذ مهمته، حدد له مكانها بنخلة أو بعرنة، وحدد له أسبابها، وهو جمْع خالد بن سفيان الهذلي الجموع لحرب محمد ﷺ، وحدد له هدفها، وهو قتل خالد الهذلي.

ويقف الجندي العظيم والعبقري القائد أمام هذه المهمة، يسأل سؤالًا واحدًا فقط، هو الذي يحتاجه لمهمته، كيف يقتله وهو لا يعرفه، لحكمة عظيمة أجَّل ﷺ الإجابة على هذا السؤال، وكان من الممكن أن يتابع حديثه بقوله: «**وآية ما بينك وبينه...**» لكنه وقف ﷺ قاصدًا يؤجل هذه المعلومة المهمة.

قال ابن أنيس: صفه لي يا رسول الله؛ حتى أعرفه، فقال: «**آية ما بينك وما بينه، أنك إذا رأيته هبته، وفرقت منه، ووجدت لَه قشعريرة وذكرت الشيطان**».

فالعنصر النفسي هو الذي اختاره ﷺ علامة له، ولم يصف له صفاته الجسدية أو المعنوية، إنما كان الوصف أعماق عبد الله بن أنيس ﷺ وأغواره في مهمة أول ما تحتاج إلى نفس شجاعة مقدامة، ورباطة جأش عالية تنفذ داخل أرض العدو، وليست مهمة تجسس وانتهى الأمر، بل مهمته قتل القيادة العليا عنده.

وهنا يرد الحديث عن عظمة هذا الاصطفاء النبوي لهذا الطراز الرفيع من الرجال، فعبد الله بن أنيس ﷺ يعلم نفسه من هي، ويعلم أنه لا يهاب الرجال، ويعلم أنه لا يخاف شيئًا قط، لكن كيف عرفها رسول الله ﷺ فيه، فهو معدن النبوة أشرف المعادن في الوجود، وأعلاها وأغلاها، فهو خيار الله من خلقه جميعًا.

ولكن عظمة التربية من جهة أخرى هي التي تعنينا في هذا المقام، فرسول الله ﷺ يريد أن يطامن من اعتداد ابن أنيس ﷺ وثقته، ويريد أن ينزله إلى أرض الواقع في ملاقاة خالد بن سفيان: «**إذا رأيته هبته،**

وفرقت منه، ووجدت له قشعريرة...»، فليس هيبة وانتهى الأمر، كما يهاب المرء من الإقدام على أمر جديد لا يعرف أبعاده، أو هيبة الوهلة الأولى ثم تزول هذه الهيبة، لكن فرقت منه، أي خفت، وكيف ذلك وهو لا يخاف شيئًا قط؟ وليس خوفًا عاديًّا فقط، بل وجدتَ له قشعريرة، إنه الخوف الذي يصل لحد الرعب والفزع، فرسول الله ﷺ يتحدث عن صفات هي أبعد ما تكون عن نفس عبد الله بن أنيس ﷺ ولأول وهلة، استفطم ابن أنيس ﷺ هذا الوصف لشخصه، مع أنه يعد لمهمة ضخمة تتناسب مع شجاعته وكفاءته، ويقول للمصطفى ﷺ: يا رسول الله، ما فرقت من شيء قط، ويعود ﷺ ليؤكد له المعنى نفسه، ولكنه لا ينفي شجاعته، ولا ينفي بطولته، ولا ينفي إقدامه، ولو لم يكن كذلك ما وقع الاختيار عليه، ولكنه التوجيه الرباني والتوجيه النبوي الذي يمضي دائمًا في توازن عجيب بين تفجير الطاقات ودفع الإبداع من جهة، وبين كسر العجب، وتحطيم الغرور، والاعتداد بالطاقات من جهة ثانية». **[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٤٢-٢٤٣]**.

٧ ـ حكم صلاة الطالب:

يقول د/ بريك: «قال الخطابي في معالم السنن: واختلفوا في صلاة الطالب، فقال عوام أهل العلم: إذا كان مطلوبًا كان له أن يصلي إيماءً، وإذا كان طالبًا نزل إن كان راكبًا وصلى بالأرض راكعًا وساجدًا. وكذلك قال ابن المنذر.

أما الشافعي فشرط شرطًا لم يشترطه غيره، قال: إذا قلَّ الطالبون عن المطلوبين، وانقطع الطالبون عن أصحابهم فيخافون عودة المطلوبين عليهم، فإذا كان هكذا كان لهم أن يصلوا يومؤون إيماءً.

قال الخطابي: وبعض هذه المعاني موجودة في قصة عبد الله بن أنيس ﷺ.

وما نقله ابن المنذر متعقب بكلام الأوزاعي، فإنه قيده بخوف الفوت، ولم يستثن طالبًا من مطلوب، وبه قال ابن حبيب من المالكية.

وقال بدر العيني في عمدة القاري: ومذاهب الفقهاء في هذا الباب، فعند أبي حنيفة: إذا كان الرجل مطلوبًا فلا بأس بصلاته سائرًا، وإن كان طالبًا فلا.

وقال مالك وجماعة من أصحابه: هما سواء كل واحد منهما يصلي على دابته.

وقال الأوزاعي والشافعي في آخرين كقول أبي حنيفة، وهو قول عطاء والحسن والثوري وأحمد وأبي ثور.

وعن الشافعي: إن خاف الطالب فوت المطلوب أومأ وإلا فلا. **[معالم السنن للخطابي ٢/ ٤٢-٤٤، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري ٦/ ٢٦٣، وفتح الباري لابن حجر ٢/ ٤٣٦-٤٣٧]. [السرايا والبعوث لبريك ١٦٠]**.

ويقول الشيخ أبو زهرة: «أُجيز الإيماء بالصلاة للضرورة وفي حال المنازلة إذا خيف فوات الصلاة؛ إذ إن النبي ﷺ قد أقر ما صنع ابن أنيس ﷺ في عبادته في الصلاة، وأقر بما قام به من جهاد».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٠٨-٨٠٩].

٨ ـ جواز الاجتهاد في زمن النبي ﷺ:

يجوز الاجتهاد في زمن النبي ﷺ، فعبد الله بن أُنيس ﷺ أداه اجتهاده أن يصلي هذه الصلاة، ولم ينكر عليه ﷺ، مما يدل على جواز الصلاة عند شدة الخوف بالإيماء.

وهذا الاستدلال صحيح لا شك فيه؛ لأن عبد الله بن أُنيس ﷺ فعل ذلك في حياة النبي ﷺ، وذلك زمن الوحي، ومُحال أن النبي ﷺ لم يطلع عليه.

وفعل الصحابي أيضًا حجة ما لم يعارضه حديث مرفوع، كذا في الغاية.

[عون المعبود للعظيم آبادي ٤/ ١٢٩]. [السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ١٦١].

٩ ـ الاجتهاد في التطبيقات المماثلة:

يقول الشيخ حوى: «لقد صلى عبد الله بن أنيس ﷺ هذه الصلاة لأنه لو صلى الصلاة العادية لكشف أمره وحيل بينه وبين تنفيذ المهمة التي كلفه بها رسول الله ﷺ، إذ يأخذ العدو منه حذره، فتفوت عليه المفاجأة، وفي ذلك محل تأمل للذين يفتون في عصرنا للبحث عن تطبيقات مماثلة قد يضطر إليها المسلمون في صراعهم الحالي في عالم معقد». [الأساس في السنة وفقهها - العبادات ٣/ ١٤١٥].

١٠ ـ متى يكون القتل بطريق الغدر أو الغيلة؟:

يقول الشيخ أبو زهرة: «إن هذا التوجيه في هذه السرية يتعلق برجل أراد أن يجمع الناس من عرفة ليغزوا النبي ﷺ في المدينة، وهو خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي، وقد تأكد النبي ﷺ أنه قد اعتزم الشر، وأراد القتال، والنبي ﷺ كان يعمل على حسم الشر قبل وقوعه، فإذا كان رجل يجمع ويحرض، وأخذ ينفذ ما شرع فيه يستأصله النبي ﷺ قبل أن ينفذ شره؛ لأن الحذر يوجب ذلك، ولأنه إن يتركه جمع الجموع، وكان القتل في الجمع أكثر عددًا من قتل واحد؛ ولذلك كان يؤثر النبي ﷺ قتل رجل على حرب مع رجال لحماية الأنفس من المحاربين ولو كانوا مشركين؛ فعسى أن يخرج الله تعالى الكفر من قلوبهم، ويستبدل به الإيمان.

وإن ذلك لا يعد القتل فيه بطريق الغدر أو الغيلة؛ لأنه انتدب للقتال، فيجب أن يتوقع أن ينزل به مثل ما يدبر؛ ولأن قتله نجاة لكثيرين، والضرر القليل محتمل في سبيل دفع ضرر أكبر، وأن هذا يدل على أنه بعد أُحد كانت نفوس تحاول التمرد على حكم الواقع تزعم أنها تستطيع القضاء على المسلمين».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٠٨-٨٠٩].

«إن هذا النوع من الاغتيال لم يكن باجتهاد فردي، لم يقم به أحد من أصحابه حماسًا وتطوعًا، وهم قادرون على أكثر من ذلك، إنها دماء لا يجوز الخوض فيها دون الرجوع إلى النبي ﷺ ـ الإمام ـ النص، وإلا فإنها ضرب من التهور غير المبرر». [السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٢٨٩-٢٩٠].

١١ ـ معرفة الأسباب المعينة على تنفيذ المهام:

يقول د/ الشرباصي: «إن العمل الفدائي لا يفلح ولا ينجح إلا إذا نهض على دعامتين هما: الإيمان الديني العميق، والنضال الثابت الرشيد؛ لأن الفدائي يحمل روحه على راحته، ويمضي بها نحو غايته، فإما نصر وإما شهادة، والمنية لديه أخف من الدنية؛ ولذلك كان شعار العمل الفدائي المعاصر: **إنا فدائيون، نفي ولا نهون**، وكأنهم في هذا الشعار قد لمحوا قبسًا من نور الله جل جلاله الذي يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران].

ولو رجعنا إلى صفحات الفدائيين في تاريخ الإسلام لوجدناهم قدوة في ثبات العقيدة وتوطد الإيمان، ولوجدناهم أمثلة للإقدام والثبات في الميدان.

ولم يكن هذا العمل الفدائي المتواصل من عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قائمًا على قوة العضلات، وجراءة القلب، وقوة العزم، وصلابة الإرادة، وعمق الخبرة بالقتال والنضال، فحسب، بل كان قائمًا مع ذلك أو قبل ذلك على الإيمان الديني الوطيد، وعلى وضوح الرؤية الشاملة لمبادئ الإسلام وتعاليمه، وعلى التعمق في فهم الدين الحنيف». [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ١٦٥، ١٦٩].

ويقول د/ الحميدي: «وفي هذه السرية إشارة إلى الجهد الكبير الذي بذله هذا الصحابي الجليل عبد الله بن أنيس رضي الله عنه في تنفيذ أمر النبي ﷺ حيث قطع وحده مسافات شاسعة، وبالغ في الاستخفاء حتى لا ينكشف أمره، ثم تحيَّن الفرصة المناسبة للقضاء على عدوه حتى قضى عليه وأراح المسلمين من شره وبلائه.

وإذا أردنا أن نتصور عظمة الجهد الذي بذله فلنتصور مشاعره وهو مقدم على أداء تلك المهمة، حيث تكتنفه مشاعر الفرح في حال نجاحه والكآبة والحزن في حال إخفاقه، ثم لنتصور أسوأ الاحتمالات التي سيلقاها مثل أن يواجه خصمه وهو في عصبة من قومه، ثم يكتشف خصمه مراده فماذا يكون موقفه آنذاك؟

إنه وأمثاله من الأطهار الذين تخرجوا في مدرسة النبوة لا يهتمون لأنفسهم إطلاقًا، بل أسمى أمانيهم أن يفوزوا بالشهادة، ولكنه يهتم لموضوع الإخفاق في أداء مهمته، حيث إنه لو استشهد واكتشف عدوه مهمته فإن ذلك سيزيد في إيغار صدره على المسلمين وإغرائه بهم، وهذا يعني أن ابن أنيس رضي الله عنه سيبذل كل طاقته في سبيل نجاح مهمته». [**التاريخ الإسلامي للحميدي/ ٢٨**].

ويقول د/ الغضبان: «ولا يكفي لمثل هذه المهمة الشجاعة الفائقة فقط، ولا يكفي لها القدم الراسخة في الفقه فقط، فلابد لها من الإضافة إلى ذلك: اللباقة، وحسن الحديث، والقدرة على التأثير على الخصم، حتى يتمكن الفدائي من الوصول إلى المواقع الأولى للعدو، وإلا لو فقد العنصر الثالث؛ لبقي في مؤخرة القوم، وحيل بينه وبين الوصول إلى قيادة العدو، بَله أن يؤثر عليه بسحر حديثه وحلاوة منطقه.

«**فمشيت معه وحدثته، فاستحلى حديثي وأنشدته، وقلت: عجبًا لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث، فارق الآباء وسفه أحلامهم، قال: لم يلق محمد أحدًا يشبهني ولا يحسن قتاله**».

فقد ارتفع في ذهن خالد بن سفيان إلى مستواه في الشجاعة والذكاء والعبقرية، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه من طلب الخلوة مع هذا الخزاعي اللبيب الأريب، والشجاع الفذ».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٤٣-٢٤٤].

١٢ ـ من دلائل نبوته ﷺ:

يقول د/ بريك: «كما ظهر في هذا الخبر دليل من دلائل نبوته ﷺ، فهو قد وصف خالد بن سفيان الهذلي لعبد الله بن أنيس ﷺ وصفًا دقيقًا دون أن يراه، حتى إن ابن أنيس ﷺ عندما رد على رسول الله ﷺ متعجبًا كما وقع في رواية الواقدي: «قُلتُ: **يَا رَسُولَ الله، مَا فَرِقْتُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بَلَى، آيَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَنْ تَجِدَ لَهُ قُشَعْرِيرَةً إِذَا رَأَيْته**».

وفعلًا وجده على الصفة التي ذكَرَ رسول الله ﷺ، يقول عبد الله ﷺ: «**فَلَـمَّا رَأَيْتُهُ هِبْتُهُ**، وفَرِقْتُ مِنْهُ، فَرَأَيْتُنِي أَقْطُرُ (عرقًا)، فَقُلتُ: **صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ**». [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤١].

[السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ١٦١].

١٣ـ إلهام الإيمان الصادق:

«قال ابن أُنيس ﷺ وهو يحدثه ليرضي غروره: «**عجبًا لما أحدث محمد من هذا الدين المُحْدث، فارق الآباء وسفه أحلامهم**».

وهذه كلمات سامية عظيمة، سُداها ولُحمتها من الحق الصريح البين، فهي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لأنها إلهام الإيمان الصادق، واليقين الراسخ، وتنزيل السكينة على قلب كل مؤمن موطَّد دعائم الإيمان وآيات الإخلاص المستنير بنور الهداية، وهي صريحة في مبانيها، بيِّنة في معانيها، واضحة في حقائقها، ليس فيها من معاريض الكلام ولحنه وتورياته شيء، ولكن جهول هُذيل وجَوَّاظ لحيان بن نُبيح لم يعقل منها إلا كما تعقل الحُمُر من أسفار الهداية والإيمان والمعرفة بالحق والعلم بالله تعالى ورسالاته إلى خلقه، وهي تحملها على ظهورها الدَّبرة، فابتلعها كما سمعها على ما فيها من حميم يهرأ أمعاءه، ويرسله إلى هاوية الفناء والعذاب المقيم، وكلها حق وهدى ونور؛ لأن محمدًا رسول الله ﷺ

أحدث دينًا هو الإسلام دين الحق الذي أرسله الله به ليخرج الناس من ظلمات الشــرك والوثنيـة إلى نـور التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وهو دين سَفَّه عقول فجَّار الطغاة من عبدة الحجارة والأوثان.

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٤٧، وقادة النبي ﷺ لخطاب ٧٣١].

١٤ ـ الإبداع [(١)]:

يقول ل/ خطاب: «الإبداع هنا، معناه: سرعة الخاطر في إعطاء القرار الحازم الصحيح في المواقف الحرجة، مع تحمل مسؤولية ذلك القرار مهما تكن النتائج.

وقد كان عمل عبد الله بن أُنيس ﷺ في قتله خالد بن سفيان الهذلي الذي حشد بني لحيان لمهاجمة المدينة إبداعًا متميزًا أدى إلى تشتيت قبيلته، وبذلك قام عبد الله بن أنيس ﷺ وحده مقام قوة كبيرة كان عليها أن تتحرك لمهاجمة بني لحيان، فتبذل جهودًا ووقتًا ومالًا في معركة غير معروفة النتائج.

إن مزية الإبداع من أعظم مزايا القائد القدير». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٧-٢١٩].

١٥ـ كشف عن معالم منهج الرسالة في سرية عبد الله بن أنيس ﷺ:

يقول الشيخ عرجون: «وفي سرية عبد الله بن أنيس ﷺ آيات بينات من جوانب منهج رسالة الإسـلام التي ينبغي أن تحتذى في حياة المجتمع المسـلم طريقًـا للجهـاد في سـبيل إعـلاء كلمـة الله، وإعـزاز الأمـة الإسلامية في أوطانها المتفرقة، وتفرُّقها المذل.

وقد نثرنا بعض هذه الآيات في عرضنا لأحداث القصـة، لنـذكِّر بـما ينبغـي أن يكـون عليـه المجتمـع المسلم في الدفاع عن كيانه ودينه، وعزته وكرامته، وخصائصه التي كسبها من التربية النبوية لـه فأصـبحت في تاريخه معلمًا تميزه عن سائر الأمم الضالة المتكالبة عليه تريد أن تلتهمه للقضاء على رسالته رسالة الهـدى والنور والحق، ولتكون عقبات في طريق دعوته إلى إقامة موازين العدل والتـآخي والـتراحم، حتـى تنفـرد ديمقراطيتهم الملحدة الداعرة بالسلطان في الأرض.

فالرسول ﷺ رأى تجمعات الشرك والوثنية تتكاتف لتقف في وجه مسيرة الدعوة إلى الله، وسـمع ﷺ عن تجمعات الفجور والكفر حول خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي ثم اللحياني لمهاجمـة المجتمـع المسـلم في عقر داره، فندب عبد الله بن أنيس الأنصاري ثم الجهني ﷺ وحـده ليقضــي عـلى تجمعـات هـذا الفـاجر الخبيث بالقضاء عليه قبل أن يتعاظم خَطبه ويتفاقم خطـره؛ لأن الـذين تجمعـوا حولـه كـانوا شراذم مـن صـعاليك العـرب وفُتـاكهم، لا يحـزمهم إلا ربـاط الفجـور، وسـفك الـدماء ونهـب الأمـوال، وهتـك الأعراض، وسوء الأخلاق، وأخبث المقاصد والأغراض.

فاستجاب عبد الله بن أنيس ﷺ لدعاء رسول الله ﷺ لما ندب إليه، وأسرع إلى الصدع بأمره وهـو يعلم أنه يخرج فلا يدري هل يحالفه النجح فيما ندب إليه، أم يصادفه الموت فيتخطفه وهو في مسيره.

---

(١) الإبداع: سَبْق العدو بالعمل لإرغامه على تبديل الخطة التي اتخذها وإرغامه للانقياد إلى رغائبك.

وهذا ما يجب أن يكون عليه كل مسلم في حياته، ومن ثم أقبل النصر على المسلمين في سحائب المحن تمطرهم بلاءً وتمحيصًا، فيزدادون على الحياة الجادة إقبالًا يطلبون الموت في مظان الجهاد لنصرة الحق.

وقد كانت شجاعة عبد الله بن أنيس ﷺ الفدائية نسيج وحدها، وكان تصرفه مع هذا الفاجر الخبيث تصرف البطل المؤمن الذي لا يهزه فجور أفجر الفاجرين في مظهرهم ومخبرهم، وكان ﷺ قوي القلب، ثبت الجنان، راسخ اليقين، عظيم الإيمان.

فقد لقي فاجر هذيل، وخبيث لحيان، فلم يأخذه الفزع ولم يروعه الرعب، فماشاه وتحدث إليه، وعرفه بنعت رسول الله ﷺ له، فلم يَفرق منه (إلا برهة)، حتى دخل معه خباءه وأصحابه حوله لا يردون له إشارة، ولا يرجعون إليه همسًا.

ولم يتلبث ابن أنيس ﷺ إلا بقدر أن يسدل الليل ثوب ظلماته على الحياة ويسكن هرج الفجار إلى هدأة النوم، وحينئذ يرى ابن أنيس ﷺ أن فرصته تناديه وأن سيفه يدعوه، وهو أنيسه الوحيد في غربته الفدائية، فيقتل هذا الفاجر الخبيث ويحتز رأسه ويحملها معه في أوبته إلى رسول الله ﷺ، ويقضي على تجميعه وجموعه.

ويستقبل النبي ﷺ صاحبه البطل عبد الله بن أنيس ﷺ استقبال نموذج أعده ﷺ بتربيته البطولية ليكون أسوة في حياة أمته». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٥٠-٥١**].

١٦ ـ تقديم المكافآت والحوافز للقائمين بالمهام العظام:

يقول د/ الحميدي: «إن كل عامل يقدِّم أعمالًا كبيرة أو صغيرة فإنه ينتظر جزاءها، فأهل الدنيا يحصلون على جزائهم بالمكافآت المادية أو المعنوية، لكن الصحابة ﷺ وسائر المتقين لا ينتظرون جزاء في الدنيا، ولو حصلوا على شيء من ذلك فإنه لا يُعتبر عندهم شيئًا كبيرًا، وإنما ينتظرون جزاءهم في الآخرة.

ولهذا كانت مكافأة هذا البطل العظيم التي غبطه عليها الصحابة هي تلك العصا التي ستكون علامة بينه وبين النبي ﷺ يوم القيامة، وهذا يعني أن ذكره سيرتفع في الآخرة.

وهكذا كافأه النبي ﷺ هذا الجزاء العظيم الذي تهون أمامه الدنيا بأسرها، وهل أعظم جزاءً من أن يعده النبي ﷺ بملاقاته يوم القيامة؟! وهل كانت أماني الصحابة التي كانوا حولها يدندنون إلا أن يكونوا مع النبي ﷺ في الجنة؟!». [**التاريخ الإسلامي للحميدي٦/ ٢٨-٢٩**].

«وكان الوسام الخالد الذي أهداه رسول الله ﷺ لجنديه العظيم من أرفع الأوسمة في الأرض؛ لأنه أخذ إجازة الخلود في الجنة.

لقد كانت البشارة في الجنة ثمنًا لهذه المهمة الكبرى، وكانت العصا التي ترافقه في الجنة علامة بينه وبين رسول الله ﷺ في دار الخلود، ومن أجل هذا لم ينس أبدًا أن يأخذها معه إلى الدار الآخرة».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٤٥].

«وهكذا لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء مادية دنيوية كما يتمناه الكثير ممن يقوم بالمهمات الصعبة في جيوش العالم قديمًا وحديثًا، بل كانت أسمى من ذلك وأعظم، فهي وسام شرف أخروي قليل مَنْ يناله». [السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ١٥٩-١٦٠].

١٧ ـ حديث المخصرة:

وقد استحسن البعض المخصرة والتخصر لأجل هذا الحديث.

قال الجاحظ: ومما يدلك على استحسانهم شأن المخصرة حديث عبد الله بن أنيس ﷺ ذي المخصرة، وهو صاحب ليلة الجهني، وكان النبي ﷺ أعطاه مخصرة، وقال: تلقاني في الجنة.

[البيان والتبيين للجاحظ ٣/ ١١-١٢].

١٨ ـ جواز حمل الرؤوس إلى الولاة:

سبق تفصيله في دروس غزوة بدر الكبرى (المرحلة الثالثة).

١٩ ـ جواز القتال في الأشهر الحرم:

سبق تفصيله في دروس سرية عبد الله بن جحش ﷺ إلى نخلة ٢ هـ.

٢٠ ـ انهيار عزائم الأعداء المتربصين بالدولة الإسلامية في المدينة:

يقول أ/ باشميل: «بهذا العمل وفر الفدائي الجُهني على المسلمين مشقة القيام بحملة عسكرية كاملة لتأديب تلك القبائل، فقد انهارت عزائم قبائل هُذيل بقتل قائدها وزعيمها، وتفرقت جموعها المحتشدة؛ لأنها رأت أن لا فائدة من غزو المسلمين.

وهكذا قام الفدائي البطل عبد الله بن أُنيس ﷺ مقام جيش بأكمله». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٩].

٢١ ـ ثأر هذيل لمقتل خالد بن سفيان:

لقد ثارت هذيل لمقتل صاحبها، فأعانت على أصحاب رسول الله ﷺ في حادثة الرجيع، وكل عملية عسكرية لها عقابيلها، والعبرة بالمحصلة النهائية لأي عملية على المستوى المرحلي أو المستقبلي، لقد كان إجهاض التحرك العسكري الذي يقوده خالد بن سفيان الهذلي أهم بكثير من أية عملية ثأرية.

[الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٦١٤-٦١٥].

الفصل الثالث

سرية يوم الرَّجِيعِ [١]

صفر ٤ هـ / يوليه (تموز) ٦٢٥ م / أبيب ٣٤١ قبطي

المبحث الأول

عرض سرية يوم الرَّجِيعِ

قال الواقدي: فِي صَفَرٍ عَلَى رَأْسِ سِتَّةٍ وَثَلاثِينَ شَهْرًا... بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَ الرَّجِيعِ عُيُونًا إِلَى مَكَّةَ لِيُخْبِرُوهُ خَبَرَ قُرَيْشٍ، فَسَلَكُوا عَلَى النَّجْدِيَّةِ حَتَّى كَانُوا بِالرَّجِيعِ فَاعْتَرَضَتْ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ.

[المغازي للواقدي ١/ ٣٥٤].

أولاً: عرض السرية في كتب السنة:

روى الطبراني في المعجم الكبير عَنْ مُحَمَّدِ بن إِسْحَاقَ، حَدَّثَنِي عَاصِمُ بن عُمَرَ بن قَتَادَةَ، قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بَعْدَ أُحُدٍ نَفَرٌ مِنْ **عَضَلٍ وَالقَارَةِ** [٢]، فَقَالُوا: **يَا رَسُولَ الله، إِنَّ فِينَا إِسْلامًا فَابْعَثْ مَعَنَا نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِكَ يُفَقِّهُونَا فِي الدِّينِ، وَيُقْرِؤُونَا القُرْآنَ، وَيُعَلِّمُونَنَا شَرَائِعَ الإِسْلامِ**، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ نَفَرًا سِتَّةً مِنْ أَصْحَابِهِ: مَرْثَدَ بن أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيَّ حَلِيفَ حَمْزَةَ بن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَذَكَرَ القِصَّةَ.

قَالَ: وَأَمَّا مَرْثَدُ بن أَبِي مَرْثَدٍ، وَخَالِدُ بن البُكَيْرِ، وَعَاصِمُ بن ثَابِتٍ، فَقَالُوا: **وَالله لا نَقْبَلُ مِنْ مُشْرِكٍ عَهْدًا، وَلا عَقْدًا أَبَدًا**، فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَتَلُوهُمْ. **[مجمع الزوائد ٦/ ٢٩٥ كتاب المغازي والسير (١٠٣٣٨)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٠/ ٣٢٧ رقم ٧٧٥]، ورجاله ثقات].**

وروى الطبراني في المعجم الكبير كذلك عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: كَانَ مِنْ شَأْنِ خُبَيْبِ بنِ عَبْدِ الله الأَنْصَارِيِّ، ثُمَّ مِنْ بني عَمْرِو بنِ عَوْفٍ، وَعَاصِمِ بنِ ثَابِتِ بن الأَقْلَحِ بنِ عَمْرِو بنِ عَوْفٍ، وَزَيْدِ بنِ

---

(١) **الرَّجِيع**: بِفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِ الجِيم: هُوَ فِي الأَصْلِ اِسْم لِلرَّوْثِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِاسْتِحَالَتِهِ، وَالْمُرَاد هُنَا اِسْمُ مَوْضِع مِنْ بِلَادِ هُذَيْلٍ كَانَتْ الوَقْعَةُ بِقُرْبٍ مِنْهُ فَسُمِّيَتْ بِهِ. فتح الباري لابن حجر ٧/ ٤٣٨.

وقال البلادي: الرَّجِيعُ: مَاءٌ يُعْرَفُ الْيَوْمَ بِاسْمِ «الْوَطِيَّةِ» يَقَعُ شَمَالَ مَكَّةَ عَلَى قَرَابَةِ سَبْعِينَ كَيْلًا، قُبَيْلَ عُسْفَانَ إِلَى الْيَمِينِ، فِي طَرَفِ شَامِيَّةِ ابْنُ حَمَّادِي مِنْ الشَّمَالِ، بِسَفْحِ حَرَّةِ بَنِي جَابِرٍ الْجَنُوبِيِّ. وَشَامِيَّةُ ابْنُ حَمَّادِي هِيَ: أَسْفَلُ الْهَدَّةِ، وَالْهَدَّةُ: وَادٍ يَمُرُّ شَمَالَ مَكَّةَ، وَعَلَى يَمِينِ الجَادَّةِ إِلَى عُسْفَانَ، وَيُدْفَعُ سَيْلُهُ فِي الْبَحْرِ عَلَى ذَهْبَانَ. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ص ١٣٨.

(٢) **عَضَل**: بطن من بني الهول بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ينسبون إلى عضل بن الديش بن محكم.

القَارَة: بطن من الهول أيضًا ينسبون إلى الديش المذكور، وقال ابن دريد: القارة أكمة سوداء فيها حجارة كأنهم نزلوا عندها فسموا بها، ويضرب بهم المثل في إصابة الرمي. الأساس في السنة وفقهها ـ السيرة النبوية ٢/ ٦١٦.

الدَّثِنَةِ [(١)] الأَنْصَارِيِّ مِنْ بَنِي بَيَاضَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَهُمْ عُيُونًا بِمَكَّةَ لِيُخْبِرُوهُ خَبَرَ قُرَيْشٍ، فَسَلَكُوا عَلَى النَّجْدِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالرَّجِيعِ مِنْ نَجْدٍ، اعْتَرَضَتْ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ [(٢)] مِنْ هُذَيْلٍ، فَأَمَّا عَاصِمُ بنُ ثَابِتٍ فَضَارَبَ بِسَيْفِهِ حَتَّى قُتِلَ، وَأَمَّا خُبَيْبٌ وَزَيْدُ بنُ الدَّثِنَةِ فَأُصْعِدَا فِي الجَبَلِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْهُمَا القَوْمُ حَتَّى جَعَلُوا لَهُمَا العُهُودَ وَالمَوَاثِيقَ، فَنَزَلا إِلَيْهِمْ فَأَوْثَقُوهُمَا رِبَاطًا ثُمَّ أَقْبَلُوا بِهِمَا إِلَى مَكَّةَ فَبَاعُوهُمَا مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَمَّا خُبَيْبٌ ﷺ فَاشْتَرَاهُ عُقْبَةُ بنُ الحَارِثِ بنِ نَوْفَلٍ أَخُو حُسَيْنِ بنِ الحَارِثِ، وَشَرَكَهُ فِي ابْتِيَاعِهِ مَعَهُ أَبُو إِهَابِ بنُ عَزِيزِ بنِ قَيْسِ بنِ سُوَيْدِ بنِ رَبِيعَةَ بنِ عَدَسِ بنِ عَبْدِ الله بنِ دَارِمٍ، وَكَانَ قَيْسُ بنُ سُوَيْدِ بنِ رَبِيعَةَ أَخَا عَامِرِ بنِ نَوْفَلٍ لأُمِّهِ، أُمُّهُمَا بِنْتُ نَهْشَلٍ التَّمِيمِيَّةُ، وَعِكْرِمَةُ بنُ أَبِي جَهْلٍ وَالأَخْنَسُ بنُ شُرْنُونَ بنِ عِلاجِ بنِ غُبْرَةَ الثَّقَفِيُّ وَعُبَيْدَةُ بنُ حَكِيمٍ السُّلَمِيُّ، ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ، وَأُمَيَّةُ بنُ عُتْبَةَ بنِ هَمَّامِ بنِ حَنْظَلَةَ مِنْ بني دَارِمٍ، وَبَنِي الحَضْرَمِيِّ وَسَعْيَةُ بنُ عَبْدِ الله بنِ أَبِي قَيْسٍ مِنْ بني عَامِرِ بنِ لُؤَيٍّ، وَصَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ بنِ خَلَفِ بنِ وَهْبٍ الجُمَحِيُّ، فَدَفَعُوهُ إِلَى عُقْبَةَ بنِ الحَارِثِ، فَسَجَنَهُ عِنْدَهُ فِي دَارٍ، فَمَكَثَ عِنْدَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ مِنَ آلِ عُقْبَةَ بنِ الحَارِثِ بنِ عَامِرٍ تَفْتَحُ عَنْهُ وَتُطْعِمُهُ، فَقَالَ لَهَا: **إِذَا أَرَادَ القَوْمُ قَتْلِي فَآذِنِينِي قَبْلَ ذَلِكَ**، فَلَـمَّا أَرَادُوا قَتْلَهُ أَخْبَرَتْهُ، فَقَالَ لَهَا: **ابْغِينِي حَدِيدَةً أَسْتَدِفُّ بِهَا**، أَيْ أَحْلِقُ عَانَتِي، فَدَخَلَ ابْنُ المَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ تَنْجِدُهُ وَالمُوسَى فِي يَدِهِ، فَأَخَذَ بِيَدِ الغُلامِ، فَقَالَ: **هَلْ أَمْكَنَ اللهُ مِنْكُمْ**؟ فَقَالَتْ: **مَا هَذَا ظَنِّي بِكَ**، ثُمَّ نَاوَلَهَا المُوسَى، فَقَالَ: **إِنَّمَا كُنْتُ مَازِحًا**.

وَخَرَجَ بِهِ القَوْمُ الَّذِينَ شَرَكُوا فِيهِ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ، وَخَرَجُوا مَعَهُمْ بِخَشَبَةٍ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالتَّنْعِيمِ نَصَبُوا تِلْكَ الخَشَبَةَ، فَصَلَبُوهُ عَلَيْهَا، وَكَانَ الَّذِي وَلِي قَتْلَهُ عُقْبَةُ بنُ الحَارِثِ، وَكَانَ أَبُو حُسَيْنٍ صَغِيرًا، وَكَانَ مَعَ القَوْمِ، وَإِنَّمَا قَتَلُوهُ بِالحَارِثِ بنِ عَامِرٍ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا، وَقَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ ﷺ عِنْدَ قَتْلِهِ: **أَطْلِقُونِي مِنَ الرِّبَاطِ حَتَّى أَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ**، فَأَطْلَقُوهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَقَالَ: **لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي جَزِعٌ مِنَ المَوْتِ لَطَوَّلْتُهُمَا، فَلِذَلِكَ خَفَّفْتُهُمَا**، وَقَالَ: **اللَّهُمَّ إِنِّي لا أَنْظُرُ إِلَّا فِي**

---

(١) ضبط في المواهب «الدِّثِنَّة»: بفتح الدال وكسر الثاء مع فتح النون المشددة، وزاد البرهان: وقد تسكن الثاء، وضبطه صاحب القاموس بكسر الثاء مع فتح النون المخففة. طبقات ابن سعد ٢/ ٥٢ هامش ١.

وفي القاموس المحيط: دثن الطائر تدثينًا، طار وأسرع السقوط في مواضع متقاربة، وفي الشجر اتخذ عِشًّا، والدثنة الماء القليل وبكسر الثاء والد زيد الصحابي. ينظر أيضًا: الاشتقاق لابن دريد ص ٤٦١. سبل الهدى والرشاد ٦/ ٨٠ هامش ١.

(٢) لحيان (بكسر اللام وقيل بفتحها): ابن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر.

وَجْهِ عَدُوٍّ، **اللَّهُمَّ إِنِّي لا أَجِدُ رَسُولًا إِلَى رَسُولِكَ، فَبَلِّغْهُ عَنِّي السَّلامَ**، فَجَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ ذَلِكَ.

وَقَالَ خُبَيْبٌ رضي الله عنه وَهُمْ يَرْفَعُونَهُ عَلَى الخَشَبَةِ: **اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا**، وَقَتَلَ خُبَيْب بنَ عَدِيٍّ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَمَّا وَضَعُوا فِيهِ السِّلاحَ وَهُوَ مَصْلُوبٌ نَادُوهُ ونَاشَدُوهُ: **أَتُحِبُّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟** فَقَالَ: **لا وَاللهِ العَظِيمِ مَا أَحَبُّ أَنْ يُفَدِّيَنِي بِشَوْكَةٍ يُشَاكُهَا فِي قَدَمِهِ**، فَضَحِكُوا.

وَقَالَ خُبَيْبٌ حِينَ رَفَعُوهُ عَلَى الخَشَبَةِ:

لَقَدْ جَمَّعَ الأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا ... قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ

وَأَمَّا زَيْدُ بنُ الدَّثِنَةِ رضي الله عنه فَاشْتَرَاهُ صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ بن خَلَفٍ، فَقَتَلَهُ بِأَبِيهِ أُمَيَّةَ بنُ خَلَفٍ، قَتَلَهُ نِسْطَاسُ مَوْلَى بني جُمَحَ، وَقُتِلا بِالتَّنْعِيمِ، فَدَفَنَ عَمْرُو بن أُمَيَّةَ خُبَيْبًا، وَقَالَ حَسَّانُ بن ثَابِتٍ فِي شَأْنِ خُبَيْبٍ:

لَيْتَ خُبَيْبًا لَمْ تَخُنْهُ دَمَامَةٌ ... وَلَيْتَ خُبَيْبًا كَانَ بِالقَوْمِ عَالِمًا

شَرَاكَ زُهَيْرُ بن الأَغَرِّ وَجَامَعٌ ... وَكَانَا قَدِيمًا يَرْكَبَانِ المَحَارِمَا

أَجَرْتُمْ فَلَمَّا أَنْ أَجَرْتُمْ غَدَرْتُمُ ... وَكُنْتُمْ بِأَكْنَافِ الرَّجِيعِ اللَّهَازِمَا

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٩٥-٢٩٨ كتاب المغازي والسير (١٠٣٣٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٥/ ٢٥٩ رقم ٥٢٨٤]، وفيه: ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف. وسيأتي الشعر كاملًا وشرحه فيما قيل من الشعر في سرية الرجيع].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ الله [النَّبِيُّ] ﷺ عَشَرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ، فَانطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَأَةِ وَهْوَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ: **بَنُو لِحْيَانَ**، فَنَفَرُوا لَهُمْ [فَتَبِعُوهُمْ] قَرِيبًا [بِقَرِيبٍ] مِنْ مِائَتَيْ رَجُلٍ، كُلُّهُمْ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى [أَتَوْا مَنْزِلًا نَزَلُوهُ] وَجَدُوا مَأْكَلَهُمْ تَمْرًا تَزَوَّدُوهُ مِنَ المَدِينَةِ، فَقَالُوا: **هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ**، فَاقْتَصُّوا [فَتَبِعُوا] آثَارَهُمْ [حَتَّى لَحِقُوهُمْ]، فَلَمَّا رَآهُمْ [انْتَهَى] [حَسَّ بِهِمْ] عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَؤُوا إِلَى فَدْفَدٍ [قَرْدَدٍ] (هو الموضع المرتفع، الرابية المرتفعة)، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ، فَقَالُوا لَهُمْ: **انْزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ، وَلَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ، وَلاَ نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا**.

قَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ أَمِيرُ السَّرِيَّةِ رضي الله عنه: **[أَيُّهَا الْقَوْمُ] أَمَّا أَنَا فَوَاللهِ لَا أَنْزِلُ الْيَوْمَ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ**.

فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ، فَقَتَلُوا عَاصِمًا ﷺ فِي سَبْعَةٍ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، مِنْهُمْ خُبَيْبٌ الأَنْصَارِيُّ وَ[زَيْدٍ] بْنُ دَثِنَةَ [الدَّثِنَةِ]، وَرَجُلٌ آخَرُ، [فَأَعْطَوْهُمُ العَهْدَ وَالمِيثَاقَ، فَلَـمَّا أَعْطَوْهُمُ العَهْدَ وَالمِيثَاقَ نَزَلُوا إِلَيْهِمْ]، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَأَوْثَقُوهُمْ، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ [الَّذِي مَعَهُمَا]: **هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ، وَاللهِ لَا أَصْحَبُكُمْ، إِنَّ فِي هَؤُلَاءِ لأُسْوَةً**، يُرِيدُ الْقَتْلَى، [فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ]، فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ (أي: مارسوه، وأراد به: أنهم خدعوه ليتبعهم، فأبى) عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَأَبَى، فَقَتَلُوهُ.

فَانْطَلَقُوا [فَانْطُلِقَ] بِخُبَيْبٍ وَ[زَيْدٍ] ابْنِ دَثِنَةَ [الدَّثِنَةِ]، حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ.

فَابْتَاعَ خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ [فَمَكَثَ] خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا، فَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عِيَاضٍ أَنَّ بِنْتَ الْحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا [أَجْمَعُوا قَتْلَهُ] اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسًى يَسْتَحِدُّ بِهَا (أي: يحلق عانته)، فَأَعَارَتْهُ، فَأَخَذَ ابْنًا لِي وَأَنَا غَافِلَةٌ [فَغَفَلْتُ عَنْ صَبِيٍّ لِي فَدَرَجَ إِلَيْهِ] حِينَ [حَتَّى] أَتَاهُ، قَالَتْ فَوَجَدْتُهُ [مُخْلِيًا] مُجْلِسَهُ [فَوَضَعَهُ] عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ، [فَلَـمَّا رَأَيْتُهُ] فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فِي وَجْهِي، فَقَالَ: **تَخْشَيْنَ [أَتَخْشَيْنَ] أَنْ أَقْتُلَهُ؟! مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَلِكَ [ذَاكَ إِنْ شَاءَ اللهُ]**.

[وَكَانَتْ تَقُولُ:] **وَاللهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ [رَأَيْتُهُ] يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ** (العنقود، وهو اسم لكل ما يقطف) **عِنَبٍ فِي يَدِهِ، وَإِنَّهُ لَـمُوثَقٌ فِي الحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا**.

فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ، قَالَ لَـهُمْ خُبَيْبٌ ذَرُونِي: **[دَعُونِي] أَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ**، فَتَرَكُوهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: **لَوْلاَ أَنْ تَظُنُّوا [تَحْسِبُوا] أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ [مِنْ المَوْتِ] لَطَوَّلْتُهَا [لَزِدْتُ]**.

فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ هُوَ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ** (بقطع همزة، أي: أهلكهم بحيث لا يبقى منهم واحد) **عَدَدًا، [وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا** (بفتحتين، أي: متفرقين)، **وَلاَ تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا]**»، ثُمَّ قَالَ [البحر الطويل]:

وَلَسْتُ [مَا] أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ للهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ (١)

فَقَتَلَهُ [أَبُو سِرْوَعَةَ][عُقْبَةُ] بْنُ الْحَارِثِ، فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا (قتل الصبر: هو أن يقتل بأي أنواع القتل كان، من غير أن يكون في حرب ولا قتال).

---

(١) **وذلك في ذات الإله**، أي: القتل في وجهه تعالى وطلب رضاه وثوابه. **الأوصال**: جمع وصل، وهو العضو. **شِلْو**: الجسد. **ممزَّع**: مقطَّع مفرق.

فَاسْتَجَابَ اللهُ لِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ يَوْمَ أُصِيبَ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ وَمَا أُصِيبُوا.

وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ لِيُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ [مِنْ جَسَدِهِ] يُعْرَفُ [يَعْرِفُونَهُ]، وَكَانَ [عَاصِمٌ] قَدْ قَتَلَ رَجُلاً مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَبُعِثَ [فَبَعَثَ اللهُ] عَلَى عَاصِمٍ مِثْلُ الظُّلَّةِ (السحابة) مِنَ الدَّبْرِ (ذكور النحل، أو الزنابير)، فَحَمَتْهُ مِنْ رَسُولِهِمْ [رُسُلِهِمْ]، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَقْطَعَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا [فَلَمْ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ]. [البخاري في الجهاد والسير (٣٠٤٥)، وفي المغازي (٤٠٨٦، ٤٠٨٧، ٣٩٨٩)، وفي التوحيد (٧٤٠٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٠، ٢٦٦١)، وفي الجنائز (٣١١٢)، ومصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٥٣ رقم ٩٧٣٠، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ ١٣/ ٣٠٧، ٤٥٩ رقم ٧٩٢٨، ٨٠٩٦، وأبو داود الطيالسي ٢/ ١٠١ رقم ٢٣٤٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٣٢٣-٣٢٥، والطبري في تاريخه ٢/ ٥٣٨-٥٤٢].

وقد خالف محمدُ بن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة بن الزبير هذه الرواية في بعض ذلك، ولنذكر كلام ابن إسحاق ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف، والذي سيأتي في الدروس المستفادة التوفيق بينهما.

ثانيًا: عرض السرية في كتب السيرة:

طَلَبَتْ عَضَلُ وَالقَارَةُ نَفَرًا مِنْ المسْلِمِينَ لِيُعَلِّمُوهُمْ فَأَوْفَدَ الرّسُولُ ﷺ سِتَّةً:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَمَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فِي رِجَالٍ مِمَّنْ لَمْ أُسَمِّ، وَكُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي بِبَعْضِ الْحَدِيثِ، وَبَعْضُ الْقَوْمِ كَانَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ، وَقَدْ جَمَعْتُ الَّذِي حَدَّثُونِي، قَالُوا: لَـمَّا قُتِلَ سُفْيَانُ بْنُ خَالِدِ بْنِ نُبَيْحٍ الْهُذَلِيُّ مَشَتْ بَنُو لِحْيَانَ إِلَى عَضَلٍ وَالْقَارَةِ، فَجَعَلُوا لَهُمْ فَرَائِضَ عَلَى أَنْ يَقْدَمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيُكَلِّمُوهُ، فَيُخْرِجَ إِلَيْهِمْ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَدْعُونَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَنَقْتُلَ مَنْ قَتَلَ صَاحِبَنَا وَنَخْرُجَ بِسَائِرِهِمْ إِلَى قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ فَنُصِيبَ بِهِمْ ثَمَنًا، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا لِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُؤْتَوْا بِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، يُمَثِّلُونَ بِهِ وَيَقْتُلُونَهُ بِمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ بِبَدْرٍ.

فَقَدِمَ سَبْعَةُ نَفَرٍ مِنْ عَضَلٍ وَالْقَارَةِ ـ وَهُمَا حَيَّانِ إِلَى خُزَيْمَةَ (١) ـ مُقِرِّينَ بِالْإِسْلَامِ، فَقَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: **إِنَّ فِينَا إِسْلَامًا فَاشِيًا، فَابْعَثْ مَعَنَا نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِك يُقْرِؤُونَنَا الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهُونَنَا فِي الإِسْلَامِ.**

فَبَعَثَ مَعَهُمْ سَبْعَةَ نَفَرٍ: **مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيُّ، وَخَالِدُ بْنُ أَبِي الْبُكَيْرِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ طَارِقٍ الْبَلَوِيُّ حَلِيفٌ فِي بَنِي ظَفَرٍ، وَأَخَاهُ لِأُمِّهِ مُعَتِّبُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَلِيفٌ فِي بَنِي ظَفَرٍ، وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ بِلْحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ، وَزَيْدُ بنُ الدَّثِنَةِ مِنْ بَنِي بَيَاضَةَ، وَعَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الْأَقْلَحِ.**

(١) قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: عَضَلٌ وَالْقَارَّةُ، مِنْ الْهَوْنِ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ، وَيُقَالُ: الْهُونُ، بِضَمِّ الْهَاءِ. سيرة ابن هشام ٢/ ١٦٩.

وَيُقَالُ: كَانُوا عَشْرَةً، وَأَمِيرُهُمْ مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ، وَيُقَالُ: أَمِيرُهُمْ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الْأَقْلَحِ. [المغازي للواقدي ١/ ٣٥٤-٣٥٥].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ [وما بين المعكوفتين زيادات من المغازي للواقدي]: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بَعْدَ أُحُدٍ رَهْطٌ مِنْ عَضَلٍ وَالقَارَّةِ، فَقَالُوا: **يَا رَسُولَ الله! إِنَّ فِينَا إِسْلَامًا، فَابْعَثْ مَعَنَا نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِكَ يُفَقِّهُونَنَا فِي الدِّينِ وَيُقْرِؤُونَنَا القُرْآنَ وَيُعَلِّمُونَنَا شَرَائِعَ الإِسْلَامِ**، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ نَفَرًا سِتَّةً مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُمْ:

مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيُّ، حَلِيفُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ.

وَخَالِدُ بْنُ البُكَيْرِ اللَّيْثِيُّ، حَلِيفُ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ.

وَعَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الأَقْلَحِ، أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الأَوْسِ.

وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ، أَخُو بَنِي جَحْجَبَى بْنِ كُلفَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ.

وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ بْنِ مُعَاوِيَةَ أَخُو بَنِي بَيَاضَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ زُرَيْقِ بْنِ عَبْدِ حَارِثَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ غَضْبِ بْنِ جُشَمِ بْنِ الخَزْرَجِ.

وَعَبْدُ الله بْنُ طَارِقٍ حَلِيفُ بَنِي ظَفَرِ بْنِ الخَزْرَجِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَالِكِ بْنِ الأَوْسِ. [قال ابن كثير: هكذا قال ابن إسحاق أنهم كانوا ستة، وكذا ذكر موسى بن عقبة وسماهم كما قال ابن إسحاق، وعند البخاري أنهم كانوا عشرة، وعنده أن كبيرهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح. فالله أعلم].

غَدْرُ عَضَلٍ وَالقَارَةِ بِالنَّفَرِ السِّتَّةِ:

وَأَمَّرَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى القَوْمِ مَرْثَدَ بْنَ أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيَّ، فَخَرَجَ مَعَ القَوْمِ حَتَّى إِذَا كَانُوا عَلَى الرَّجِيعِ، مَاءٍ لِهُذَيْلٍ بِنَاحِيَةِ الحِجَازِ [يُقَالُ لَهُ الرَّجِيعُ قَرِيبٌ مِنْ الْهَدَّةِ]، عَلَى صُدُورِ الهَدْأَةِ (عَلَى سَبْعَةِ أَمْيَالٍ مِنْ عُسْفَانَ) غَدَرُوا بِهِمْ، فَاسْتَصْرَخُوا عَلَيْهِمْ هُذَيْلًا [خَرَجَ النَّفَرُ فَاسْتَصْرَخُوا عَلَيْهِمْ أَصْحَابَهُمْ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ اللِّحْيَانِيُّونَ]، فَلَمْ يَرُعْ القَوْمَ [فَلَمْ يُرَعْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ] وَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ إِلَّا الرِّجَالُ بِأَيْدِيهِمْ السُّيُوفُ قَدْ غَشُوهُمْ [مِائَةُ رَامٍ وَفِي أَيْدِيهِمْ السُّيُوفُ]، فَأَخَذُوا أَسْيَافَهُمْ لِيُقَاتِلُوهُمْ، فَقَالُوا لَهُمْ: **إِنَّا وَالله مَا نُرِيدُ قَتْلَكُمْ، وَلَكِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُصِيبَ بِكُمْ شَيْئًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَلَكُمْ عَهْدُ الله وَمِيثَاقُهُ أَلا نَقْتُلَكُمْ**.

مَقْتَلُ مَرْثَدٍ وَابْنِ البُكَيْرِ وَعَاصِمٍ رضي الله عنهم:

فَأَمَّا مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ، وَخَالِدُ بْنُ البُكَيْرِ، وَعَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ، [وَمُعَتِّبُ بْنُ عُبَيْدٍ] رضي الله عنهم فَقَالُوا: **وَالله لَا نَقْبَلُ مِنْ مُشْرِكٍ عَهْدًا وَلَا عَقْدًا أَبَدًا**، فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه:

مَـا عِلَّتِـي وَأَنَـا جَلَـدٌ نَابِـلُ وَالقَوْسُ فِيهَـا وَتَـرٌ عُنَابِـلُ (١)

تَزَلُّ عَـنْ صَـفْحَتِهَا المعَابِـلُ الموْتُ حَـقٌّ وَالحَيَـاةُ بَاطِـلُ (٢)

وَكُـلُّ مَـا حَـمَّ الإِلَـهُ نَـازِلٌ بِـالمرْءِ وَالمَـرْءُ إِلَيْـهِ آئِـلُ (٣)

إِنْ لَمْ أُقَاتِلكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ (٤)

وَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا:

أَبُـو سُـلَيْمَانَ وَرِيـشُ المقْعَـدِ وَضَالَةٌ مِثْـلَ الجَحِـيمِ الموقَـدِ (٥)

إِذَا النَّوَاجِي افْتُرِشْتِ لَمْ أُرْعَدْ وَمُجْنَأٌ مِـنْ جَلَـدٍ ثَـوْرٍ أَجْـرَدِ (٦)

وَمُؤْمِنٌ بِمَا عَلَى مُحَمَّدِ

وَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابت ﷺ أَيْضًا:

أَبُو سُلَيْمَانَ وَمِثْلِي رَامَى وَكَانَ قَوْمِي مَعْشَرًا كِرَامَـا (٧)

وَكَانَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ يُكَنَّى: أَبَا سُلَيْمَانَ.

ثُمَّ قَاتَلَ القَوْمَ حَتَّى قُتِلَ وَقُتِلَ صَاحِبَاهُ.

[قَالَ: فَرَمَاهُمْ بِالنَّبْلِ حَتَّى فَنِيَتْ نَبْلُهُ، ثُمَّ طَاعَنَهُمْ بِالرُّمْحِ حَتَّى كُسِرَ رُمْحُهُ، وَبَقِيَ السَّيْفُ فَقَالَ: **اللهُمَّ حَمَيْتَ دِينَكَ أَوَّلَ نَهَارِي فَاحْمِ لِي لَـحْمِي آخِرَهُ!**

وَكَانُوا يُجَرِّدُونَ كُلَّ مَنْ قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِهِ.

قَالَ: فَكُسِرَ غِمْدُ سَيْفِهِ ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، وَقَدْ جَرَحَ رَجُلَيْنِ وَقَتَلَ وَاحِدًا.

ثُمَّ شَرَعُوا فِيهِ الْأَسِنَّةَ حَتَّى قَتَلُوهُ].

---

(١) **النابل**: صاحب النبل، ويروى (بازل) وهو القوي. **عُنابل**: غليظ شديد.

وروايته في الواقدي: **مَا عِلَّتِي وَأَنَا جَلْدٌ نَابِلُ النَّبْلُ وَالْقَوْسُ لَهَا بَلَابِلُ**

بلابل: جمع بلبلة وبلبال، وهو شدة الهم.

(٢) **المعابل**: جمع معبلة، وهو نصل عريض طويل.

(٣) **حم الإله**: قدره. **آئل**: صائر.

(٤) **هَابِلُ**: ثَاكِلٌ، أي فاقدة، يقال: هبلته أمه إذا فقدته. قَالَ الْوَاقِدِيُّ: مَا رَأَيْتُ مِنْ أَصْحَابِنَا أَحَدًا يَدْفَعُهُ.

(٥) **المقعد**: رجل كان يريش النبل. **الضالة**: شجر تصنع منه القسي والسهام، والجمع ضال، ويعني بالضالة (هنا): القوس.

(٦) **النواجي**: الإبل السريعة، ويروى (النواحي) بالحاء المهملة. **افترشت**: عمرت. **المجنأ**: الترس لا حديد فيه. **الأجرد**: الأملس.

(٧) وروايته في الواقدي: **أَنَا أَبُو سُلَيْمَانَ وَمِثْلِي رَامَى وَرِثْت مَجْدًا مَعْشَرًا كِرَامًا**

أَصَبْتُ مَرْثَدًا وَخَالِدًا قِيَامًا

حَدِيثُ حِمَايَةِ الدَّبْرِ لِعَاصِمٍ ﷺ:

فَلـَمَّا قُتِلَ عَاصِمٌ ﷺ أَرَادَتْ هُذَيْلٌ أَخْذَ رَأْسِهِ لِيَبِيعُوهُ مِنْ سُلَافَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ شُهَيْدٍ [الشَّهِيدِ، قَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَبَنُوهَا أَرْبَعَةٌ، قَدْ كَانَ عَاصِمٌ قَتَلَ مِنْهُمْ اثْنَيْنِ، الْحَارِثُ، وَمُسَافِعًا]، وَكَانَتْ قَدْ نَذَرَتْ حِينَ أَصَابَ (أي عاصم) ابْنَيْهَا يَوْمَ أُحُدٍ: **لَئِنْ قَدَرَتْ عَلَى رَأْسِ عَاصِمٍ لَتَشْرَبَنَّ فِي قِحْفِهِ** (القحف: العظم الذي فوق الدماغ) **الْخَمْرَ**، [وَجَعَلَتْ لِمَنْ جَاءَ بِرَأْسِ عَاصِمٍ مِائَةَ نَاقَةٍ، قَدْ عَلِمَتْ ذَلِكَ الْعَرَبُ، وَعَلِمَتْهُ بَنُو لِحْيَانَ، فَأَرَادُوا أَنْ يَحْتَزُّوا رَأْسَ عَاصِمٍ لِيَذْهَبُوا بِهِ إِلَى سُلَافَةَ بِنْتِ سَعْدٍ لِيَأْخُذُوا مِنْهَا مِائَةَ نَاقَةٍ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ الدَّبْرَ فَحَمَتْهُ، فَلَمْ يَدْنُ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا لَدَغَتْ وَجْهَهُ، وَجَاءَ مِنْهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ لَا طَاقَةَ لِأَحَدٍ بِهِ]، فَمَنَعَتْهُ الدَّبْرُ، فَلـَمَّا حَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ الدَّبْرُ قَالُوا: دَعُوهُ يُمْسِي فَتَذْهَبُ عَنْهُ فَنَأْخُذُهُ، فَبَعَثَ اللهُ الْوَادِيَ [فَلَمَّا جَاءَ اللَّيْلُ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِ سَيْلًا ـ وَكُنَّا مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ سَحَابًا فِي وَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ]، فَاحْتَمَلَ عَاصِمًا، فَذَهَبَ بِهِ [فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ]، وَقَدْ كَانَ عَاصِمٌ قَدْ أَعْطَى اللهَ عَهْدًا أَنْ لَا يَمَسَّهُ مُشْرِكٌ وَلَا يَمَسُّ مُشْرِكًا أَبَدًا، تَنَجُّسًا، فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ الدَّبْرَ مَنَعَتْهُ: **يَحْفَظُ اللهُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ، كَانَ عَاصِمٌ نَذَرَ أَنْ لَا يَمَسَّهُ مُشْرِكٌ، وَلَا يَمَسُّ مُشْرِكًا أَبَدًا فِي حَيَاتِهِ، فَمَنَعَهُ اللهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، كَمَا امْتَنَعَ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ.**

[وَقَاتَلَ مُعَتِّبُ بْنُ عُبَيْدٍ حَتَّى جُرِحَ فِيهِمْ، ثُمَّ خَلَصُوا إِلَيْهِ فَقَتَلُوهُ].

مَقْتَلُ ابْنِ طَارِقٍ وَبَيْعُ خُبَيْبٍ وَابْنِ الدَّثِنَةِ ﷺ:

وَأَمَّا زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ طَارِقٍ، فَلَانُوا وَرَقُّوا وَرَغِبُوا فِي الْحَيَاةِ، فَأَعْطَوْا بِأَيْدِيهِمْ، فَأَسَرُوهُمْ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ، لِيَبِيعُوهُمْ بِهَا [وَهُمْ مُوثَقُونَ بِأَوْتَارِ قِسِيِّهِمْ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ طَارِقٍ: **هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ! وَاللهِ لَا أُصَاحِبُكُمْ، إِنَّ لِي فِي هَؤُلَاءِ لَأُسْوَةً** ـ يَعْنِي الْقَتْلَى، فَعَالَجُوهُ فَأَبَى، وَنَزَعَ يَدَهُ مِنْ رِبَاطِهِ ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ، فَانْحَازُوا عَنْهُ فَجَعَلَ يَشُدُّ فِيهِمْ وَيَنْفَرِجُونَ عَنْهُ]، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالظَّهْرَانِ [بِمَرِّ الظَّهْرَانِ] انْتَزَعَ عَبْدُ اللهِ بْنُ طَارِقٍ يَدَهُ مِنْ الْقِرَانِ، ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُ الْقَوْمُ، فَرَمَوْهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى قَتَلُوهُ، فَقَبْرُهُ ﷺ بِالظَّهْرَانِ.

وَأَمَّا خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ ﷺ فَقَدِمُوا بِهِمَا مَكَّةَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَبَاعُوهَا مِنْ قُرَيْشٍ بِأَسِيرَيْنِ مِنْ هُذَيْلٍ كَانَا بِمَكَّةَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَابْتَاعَ خُبَيْبًا ﷺ حُجَيْرُ بْنُ أَبِي إِهَابٍ التَّمِيمِيُّ، حَلِيفُ بَنِي نَوْفَلٍ، لِعُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ، وَكَانَ أَبُو إِهَابٍ أَخَا الْحَارِثِ بْنِ عَامِرٍ لِأُمِّهِ لِقَتْلِهِ بِأَبِيهِ.

[فَأَمَّا خُبَيْبٌ فَابْتَاعَهُ حُجَيْرُ بْنُ أَبِي إِهَابٍ بِثَمَانِينَ مِثْقَالِ ذَهَبٍ، وَيُقَالُ: اشْتَرَاهُ بِخَمْسِينَ فَرِيضَةً (البعير المأخوذ في الزكاة، سمى فريضة لأنه فرض واجب على رب المال، ثم اتسع فيه حتى سمى البعير فريضة في غير الزكاة)، وَيُقَالُ: اشْتَرَتْهُ ابْنَةُ الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ بِمِائَةٍ مِنْ الْإِبِلِ.

وَكَانَ حُجَيْرُ إِنَّمَا اشْتَرَاهُ لِابْنِ أَخِيهِ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَامِرٍ لِيَقْتُلَهُ بِأَبِيهِ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ].

مَقْتَلُ ابْنِ الدَّثِنَةِ ﷺ وَمَثَلٌ مِنْ وَفَائِهِ لِلرَّسُولِ ﷺ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَمَّا زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ ﷺ فَابْتَاعَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ [بِخَمْسِينَ فَرِيضَةً] لِيَقْتُلَهُ بِأَبِيهِ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَبَعَثَ بِهِ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ مَعَ مَوْلًى لَهُ، يُقَالُ لَهُ: نِسْطَاسُ، إِلَى التَّنْعِيمِ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ.

[وَيُقَالُ إِنَّهُ شَرِكَ فِيهِ أُنَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَدَخَلَ بِهِمَا فِي شَهْرٍ حَرَامٍ، فِي ذِي الْقَعْدَةِ].

وَاجْتَمَعَ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ قَدِمَ لِيُقْتَلَ: **أَنْشُدُكَ اللهَ يَا زَيْدُ! أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الآنَ فِي مَكَانِكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنَّكَ فِي أَهْلِكَ؟** قَالَ: **وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ، وَأَنَا جَالِسٌ فِي أَهْلِي.**

قَالَ: يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ: **مَا رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا**، ثُمَّ قَتَلَهُ نِسْطَاسُ، يَرْحَمُهُ اللهُ.

[قَالُوا: وَكَانَ زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ عِنْدَ آلِ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ مَحْبُوسًا فِي حَدِيدٍ، وَكَانَ يَتَهَجَّدُ بِاللَّيْلِ وَيَصُومُ النَّهَارَ، وَلَا يَأْكُلُ شَيْئًا مِمَّا أُتِيَ بِهِ مِنْ الذَّبَائِحِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى صَفْوَانَ، وَكَانُوا قَدْ أَحْسَنُوا إِسَارَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ صَفْوَانُ: **فَمَا الَّذِي تَأْكُلُ مِنْ الطَّعَامِ؟** قَالَ: **لَسْتُ آكُلُ مِمَّا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَكِنِّي أَشْرَبُ اللَّبَنَ**، وَكَانَ يَصُومُ، فَأَمَرَ لَهُ صَفْوَانُ بِعُسٍّ مِنْ لَبَنٍ عِنْدَ فِطْرِهِ فَيَشْرَبُ مِنْهُ حَتَّى يَكُونَ بِمِثْلِهَا مِنْ الْقَابِلَةِ.

فَلَمَّا خَرَجَ بِهِ وَبِخُبَيْبٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ الْتَقَيَا، وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِئَامٌ (جماعة) مِنْ النَّاسِ، فَالْتَزَمَ كُلٌّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَأَوْصَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا أَصَابَهُ، ثُمَّ افْتَرَقَا.

وَكَانَ الَّذِي وَلِيَ قَتْلَ زَيْدٍ ﷺ نِسْطَاسٌ غُلَامُ صَفْوَانَ، خَرَجَ بِهِ إِلَى التَّنْعِيمِ فَرَفَعُوا لَهُ جِذْعًا، فَقَالَ: **أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ!** فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ حَمَلُوهُ عَلَى الْخَشَبَةِ، ثُمَّ جَعَلُوا يَقُولُونَ لِزَيْدٍ: **ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ الْمُحْدَثِ وَاتَّبِعْ دِينَنَا، وَنُرْسِلَكَ!** قَالَ: **لَا وَاللهِ، لَا أُفَارِقُ دِينِي أَبَدًا!** قَالُوا: **أَيَسُرُّكَ أَنّ مُحَمَّدًا فِي أَيْدِينَا مَكَانَكَ وَأَنْتَ فِي بَيْتِكَ؟** قَالَ: **مَا يَسُرُّنِي أَنّ مُحَمَّدًا أُشِيكَ بِشَوْكَةٍ وَأَنِّي فِي بَيْتِي!** قَالَ: يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: **لَا، مَا رَأَيْنَا أَصْحَابَ رَجُلٍ قَطُّ أَشَدَّ لَهُ حُبًّا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ بِمُحَمَّدٍ**].

مَقْتَلُ خُبَيْبٍ ﷺ وَحَدِيثُ دَعْوَتِهِ:

وَأَمَّا خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ ﷺ، فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ أَبِي نَجِيحٍ، أَنَّهُ حُدِّثَ عَنْ مَاوِيَّةَ، مَوْلَاةِ حُجَيْرِ بْنِ أَبِي إِهَابٍ، وَكَانَتْ قَدْ أَسْلَمَتْ، قَالَتْ: **كَانَ خُبَيْبٌ عِنْدِي، حُبِسَ فِي بَيْتِي، فَلَقَدْ اطَّلَعْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا [مِنْ صِيرِ** (شق) **الْبَابِ وَإِنَّهُ لَفِي الحَدِيدِ]، وَإِنَّ فِي يَدِهِ لَقِطْفًا مِنْ عِنَبٍ مِثْلَ رَأْسِ الرَّجُلِ يَأْكُلُ مِنْهُ، وَمَا أَعْلَمُ فِي أَرْضِ الله عِنَبًا يُؤْكَلُ [وَمَا هُوَ إِلَّا رِزْقٌ رَزَقَهُ اللهُ]**.

[وَكَانَ خُبَيْبٌ يَتَهَجَّدُ بِالقُرْآنِ، وَكَانَ يَسْمَعُهُ النِّسَاءُ فَيَبْكِينَ وَيُرَقَّقْنَ عَلَيْهِ.

قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا خُبَيْبُ، هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: **لَا، إِلَّا أَنْ تَسْقِيَنِي الْعَذْبَ، وَلَا تُطْعِمِينِي مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَتُخْبِرِينِي إِذَا أَرَادُوا قَتْلِي**، قَالَتْ: فَلَمَّا انْسَلَخَتْ الْأَشْهُرُ الحُرُمُ، وَأَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَوَ الله مَا رَأَيْتُهُ اكْتَرَثَ لِذَلِكَ، وَقَالَ: **ابْعَثِي لِي بِحَدِيدَةٍ أَسْتَصْلِحْ بِهَا**، قَالَتْ: فَبَعَثْتُ إِلَيْهِ مُوسَى مَعَ ابْنَيْ أَبِي حُسَيْنٍ، فَلَمَّا وَلَّى الْغُلَامُ قُلْتُ: **أَدْرَكَ وَالله الرَّجُلُ ثَأْرَهُ، أَيُّ شَيْءٍ صَنَعْتُ؟ بَعَثْتُ هَذَا الْغُلَامَ بِهَذِهِ الحَدِيدَةِ، فَيَقْتُلُهُ وَيَقُولُ: «رَجُلٌ بِرَجُلٍ»**.

فَلَمَّا أَتَاهُ ابْنِي بِالْحَدِيدَةِ تَنَاوَلَهَا مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ مُمَازِحًا لَهُ: **وَأَبِيكَ إِنَّكَ لَجَرِيءٌ! أَمَا خَشِيَتْ أُمُّكَ غَدْرِي حِيْنَ بَعَثَتْ مَعَكَ بِحَدِيدَةٍ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ قَتْلِي؟**

قَالَتْ مَاوِيَّةُ: وَأَنَا أَسْمَعُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: **يَا خُبَيْبُ، إِنَّمَا أَمَّنْتُكَ بِأَمَانِ الله وَأَعْطَيْتُكَ بِإِلَهِكَ، وَلَمْ أُعْطِكَ لِتَقْتُلَ ابْنِي**، فَقَالَ خُبَيْبٌ: **مَا كُنْتُ لِأَقْتُلَهُ، وَمَا نَسْتَحِلُّ فِي دِينِنَا الْغَدْرَ**، ثُمَّ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُمْ مُخْرِجُوهُ فَقَاتِلُوهُ بِالْغَدَاةِ].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي نَجِيحٍ جَمِيعًا أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ لِي حِينَ حَضَرَهُ القَتْلُ: **ابْعَثِي إِلَيَّ بِحَدِيدَةٍ أَتَطَهَّرُ بِهَا لِلقَتْلِ**، قَالَتْ: فَأَعْطَيْتُ غُلَامًا مِنْ الحَيِّ الموسَى، فَقُلْتُ: ادْخُل بِهَا عَلَى هَذَا الرَّجُلِ البَيْتَ، قَالَتْ: فَوَالله مَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَلَّى الغُلَامُ بِهَا إِلَيْهِ فَقُلتُ: **مَاذَا صَنَعْتُ! أَصَابَ وَالله الرَّجُلُ ثَأْرَهُ بِقَتْلِ هَذَا الغُلَامِ، فَيَكُونُ رَجُلًا بِرَجُلٍ**، فَلَمَّا نَاوَلَهُ الحَدِيدَةَ أَخَذَهَا مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: **لَعَمْرُكَ، مَا خَافَتْ أُمُّكَ غَدْرِي حِينَ بَعَثَتْكَ بِهَذِهِ الحَدِيدَةِ إِلَيَّ!** ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: إِنَّ الغُلَامَ ابْنُهَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: قَالَ عَاصِمٌ: ثُمَّ خَرَجُوا بِخُبَيْبٍ، [وَخَرَجَ مَعَهُ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ وَالْعَبِيدُ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ، إِمَّا مَوْتُورٌ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَشَافَى بِالنَّظَرِ مِنْ وِتْرِهِ، وَإِمَّا غَيْرُ مَوْتُورٍ فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ]، حَتَّى إِذَا جَاؤُوا بِهِ إِلَى التَّنْعِيمِ (هو عند طرف حرم مكة من جهة المدينة على ثلاثة أميال، وقيل أربعة، من مكة) لِيَصْلُبُوهُ [فَأَمَرُوا بِخَشَبَةٍ طَوِيلَةٍ فَحَفَرَ لَهَا، فَلَمَّا انْتَهَوْا بِخُبَيْبٍ إِلَى

خَشَبَتِهِ] قَالَ لَهُمْ: **إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَدَعُونِي حَتَّى أَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ فَافْعَلُوا [هَلْ أَنْتُمْ تَارِكِيَّ فَأُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ؟]**، قَالُوا: **دُونَكَ فَارْكَعْ**، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ أَتَمَّهُمَا وَأَحْسَنَهُمَا [مِنْ غَيْرِ أَنْ يُطَوِّلَ فِيهِمَا]، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى القَوْمِ، فَقَالَ: **أَمَا وَاللهِ لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّمَا طَوَّلْتُ جَزَعًا مِنَ القَتْلِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الصَّلَاةِ.**

قَالَ: فَكَانَ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ رضي الله عنه أَوَّلَ مَنْ سَنَّ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ القَتْلِ لِلْمُسْلِمِينَ.

[فَحَدَّثَنِي مَعْمَرٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ أُسَيْدِ بْنِ الْعَلَاءِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: **أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ القَتْلِ خُبَيْبُ**].

قَالَ: ثُمَّ رَفَعُوهُ عَلَى خَشَبَةٍ، فَلَمَّا أَوْثَقُوهُ قَالَ: **اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ بَلَّغْنَا رِسَالَةَ رَسُولِكَ، فَبَلِّغْهُ الغَدَاةَ مَا يُصْنَعُ بِنَا**، ثُمَّ قَالَ: **اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا** (أي: أهلِكهم واستأصلهم بحيث لا يبقى من عددهم أحد)، **وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا** (يُروى بكسر الباء جمع بِدة وهي الحصة والنصيب، أي اقتلهم حصصًا مقسمة لكل واحد حصته ونصيبه، ويُروى بالفتح: أي متفرقين في القتل واحدًا بعد واحد، من التبديد)، **وَلَا تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا** (لا تترك منهم فردًا)، ثُمَّ قَتَلُوهُ، رَحِمَهُ اللهُ.

فَكَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ يَقُولُ: حَضَرْتُهُ يَوْمَئِذٍ فِيمَنْ حَضَرَهُ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُلْقِينِي إِلَى الأَرْضِ فَرَقًا مِنْ دَعْوَةِ خُبَيْبٍ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا دُعِيَ عَلَيْهِ فَاضْطَجَعَ لِجَنْبِهِ زَالَتْ عَنْهُ [فَسَقَطْتُ عَلَى عَجْبِ ذَنَبِي، فَلَمْ أَزَلْ أَشْتَكِي السَّقْطَةَ زَمَانًا.

وَقَالَ حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى: لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَدْخَلْتُ إِصْبَعِي فِي أُذُنِي وَعَدَوْتُ هَرَبًا فَرَقًا أَنْ أَسْمَعَ دُعَاءَهُ.

وَقَالَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَتَوَارَى بِالشَّجَرِ فَرَقًا مِنْ دَعْوَةِ خُبَيْبٍ.

فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ يَزِيدَ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْت جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ يَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَئِذٍ أَتَسَتَّرُ بِالرِّجَالِ فَرَقًا مِنْ أَنْ أُشْرِفَ لِدَعْوَتِهِ.

وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ بَرْصَاءَ: وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ تُغَادِرَ دَعْوَةُ خُبَيْبٍ مِنْهُمْ أَحَدًا.

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَخْنَسِيِّ، قَالَ: اسْتَعْمَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه سَعِيدَ بْنَ عَامِرِ بْنِ حِذْيَمٍ الْجُمَحِيَّ عَلَى حِمْصَ، وَكَانَتْ تُصِيبُهُ، غَشْيَةٌ وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَيْ أَصْحَابِهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَسَأَلَهُ فِي قَدْمَةٍ قَدِمَ عَلَيْهِ مِنْ حِمْصَ فَقَالَ: **يَا سَعِيدُ، مَا الَّذِي يُصِيبُكَ؟ أَبِكَ جُنَّةٌ؟** قَالَ: **لَا وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنِّي كُنْتُ فِيمَنْ حَضَرَ خُبَيْبًا حِينَ قُتِلَ، وَسَمِعْتُ دَعْوَتَهُ، فَوَاللهِ مَا خَطَرَتْ عَلَى قَلْبِي وَأَنَا فِي مَجْلِسٍ إِلَّا غُشِيَ عَلَيَّ**، قَالَ: فَزَادَتْهُ عِنْدَ عُمَرَ خَيْرًا].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا، قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﵁ اسْتَعْمَلَ **سَعِيدَ بْنَ عَامِرِ بْنِ حِذْيَمٍ الجُمَحِيَّ** عَلَى بَعْضِ الشَّامِ، فَكَانَتْ تُصِيبُهُ غَشْيَةٌ وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَيْ القَوْمِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، وَقِيلَ: **إِنَّ الرَّجُلَ مُصَابٌ**، فَسَأَلَهُ عُمَرُ ﵁ فِي قَدْمَةٍ قَدِمَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: **يَا سَعِيدُ! مَا هَذَا الَّذِي يُصِيبُكَ؟** فَقَالَ: **وَاللهِ يَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَ! مَا بِي مِنْ بَأْسٍ وَلَكِنِّي كُنْتُ فِيمَنْ حَضَرَ خُبَيْبَ بْنَ عَدِيٍّ حِينَ قُتِلَ، وَسَمِعْتُ دَعْوَتَهُ، فَوَاللهِ مَا خَطَرَتْ عَلَى قَلْبِي وَأَنَا فِي مَجْلِسٍ قَطُّ إِلَّا غُشِيَ عَلَيَّ**، فَزَادَتْهُ عِنْدَ عُمَرَ خَيْرًا.

[السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٧٣].

[وَحَدَّثَنِي قُدَامَةُ بْنُ مُوسَى، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُمَّانَةَ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ نَوْفَلِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الدِّيلِيِّ، قَالَ: **حَضَرْتُ يَوْمَئِذٍ دَعْوَةَ خُبَيْبٍ، فَمَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا مِمَّنْ حَضَرَ يَنْفَلِتُ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَلَقَدْ كُنْتُ قَائِمًا فَأَخْلَدْتُ إِلَى الْأَرْضِ فَرَقًا مِنْ دَعْوَتِهِ، وَلَقَدْ مَكَثَتْ قُرَيْشٌ شَهْرًا أَوْ أَكْثَرَ وَمَا لَهَا حَدِيثٌ فِي أَنْدِيَتِهَا إِلَّا دَعْوَةَ خُبَيْبٍ.**

قَالُوا: فَلَمَّا صَلَّى الرَّكْعَتَيْنِ حَمَلُوهُ إِلَى الخَشَبَةِ، ثُمَّ وَجَّهُوهُ إِلَى المَدِينَةِ وَأَوْثَقُوهُ رِبَاطًا، ثُمَّ قَالُوا: **ارْجِعْ عَنْ الإِسْلَامِ، نُخْلِ سَبِيلَك!** قَالَ: **لَا وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي رَجَعْتُ عَنْ الْإِسْلَامِ وَأَنَّ لِي مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا!** قَالُوا: **فَتُحِبُّ أَنّ مُحَمَّدًا فِي مَكَانِكَ وَأَنْتَ جَالِسٌ فِي بَيْتِكَ؟** قَالَ: **وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ يُشَاكَ مُحَمَّدٌ بِشَوْكَةٍ وَأَنَا جَالِسٌ فِي بَيْتِي**، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: **ارْجِعْ يَا خُبَيْبُ!** قال: **لَا أَرْجِعُ أَبَدًا!** قَالُوا: **أَمَا وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، لَئِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَنَقْتُلَنَّكَ!** فَقَالَ: **إِنَّ قَتْلِي فِي اللهِ لَقَلِيلٌ!** فَلَمَّا أَبَى عَلَيْهِمْ، وَقَدْ جَعَلُوا وَجْهَهُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ، قَالَ: **أَمَّا صَرْفُكُمْ وَجْهِي عَنْ الْقِبْلَةِ، فَإِنّ اللهَ يَقُولُ:** ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، ثُمَّ قَالَ: **اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَرَى إِلَّا وَجْهَ عَدُوٍّ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا أَحَدٌ يُبَلِّغُ رَسُولَكَ السَّلَامَ عَنِّي، فَبَلِّغْهُ أَنْتَ عَنِّي السَّلَامَ!**

فَحَدَّثَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ، فَأَخَذَتْهُ غَمْيَةٌ (غشية) كَمَا كَانَ يَأْخُذُهُ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، قَالَ: ثُمَّ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ: «**وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُنِي مِنْ خُبَيْبٍ السَّلَامَ**».

قَالَ: ثُمَّ دَعَوْا أَبْنَاءً مِنْ أَبْنَاءِ مَنْ قُتِلَ بِبَدْرٍ فَوَجَدُوهُمْ أَرْبَعِينَ غُلَامًا، فَأَعْطَوْا كُلَّ غُلَامٍ رُمْحًا، ثُمَّ قَالُوا: **هَذَا الَّذِي قَتَلَ آبَاءَكُمْ**، فَطَعَنُوهُ بِرِمَاحِهِمْ طَعْنًا خَفِيفًا، فَاضْطَرَبَ عَلَى الْخَشَبَةِ فَانْقَلَبَ، فَصَارَ وَجْهُهُ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ وَجْهِي نَحْوَ قِبْلَتِهِ الَّتِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ وَلِنَبِيِّهِ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ! وَكَانَ الَّذِينَ أَجْلَبُوا عَلَى قَتْلِ خُبَيْبٍ: عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَسَعِيدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، وَالْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ، وَعُبَيْدَةُ بْنُ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ الْأَوْقَصِ السُّلَمِيُّ]. [السيرة لابن هشام ٣/ ١٦٩-١٧٣، والمغازي للواقدي ١/ ٣٥٥-٣٦١].

قال ابن كثير: وَفِي مَغَازِي مُوسَى بنِ عُقْبَةَ [أخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٢٦ عن موسى بن عقبة] أن خُبَيْبًا وَزَيْدَ بنَ الدَّثِنَةِ رضي الله عنهما قُتِلا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُمِعَ يَوْمَ قُتِلا وَهُوَ يَقُولُ: «**وَعَلَيْكُمَا، أَوْ عَلَيْكَ السَّلامُ، خُبَيْبُ قَتَلَتْهُ قُرَيْشٌ**».

وَذَكَرَ مُوسَى بنُ عُقْبَةَ أَنَّهُمْ لـمَّا صَلَبُوا زَيْدَ بنَ الدَّثِنَةِ رضي الله عنه رَمَوْهُ بِالنَّبْلِ لِيَفْتِنُوهُ عَنْ دِينِهِ، فَمَا زَادَهُ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا.

وَذَكَرَ عُرْوَةُ وَمُوسَى بنُ عُقْبَةَ [أخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٢٦ -٣٢٧ عن عروة وموسى بن عقبة] أَنَّهُمْ لـمَّا رَفَعُوا خُبَيْبًا رضي الله عنه عَلَى الخَشَبَةِ نَادَوْهُ يُنَاشِدُونَهُ: **أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟** قَالَ: **لا وَالله العَظِيمِ، مَا أُحِبُّ أَنْ يَفْدِيَنِي بِشَوْكَةٍ يُشَاكُّهَا فِي قَدَمِهِ**، فَضَحِكُوا مِنْهُ.

قَالَ مُوسَى بنُ عُقْبَةَ [أخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٢٧ عن موسى بن عقبة]: زَعَمُوا أَنَّ عَمْرَو بنَ أُمَيَّةَ دَفَنَ خُبَيْبًا. [البداية والنهاية ٥/ ٥٠٩].

وروى ابن سعد بسنده قَالَ: قَالَ مَوْهِبُ مَوْلَى الحَارِثِ بنِ عَامِرٍ: قَالَ لِي خُبَيْبُ وَكَانُوا جَعَلُوهُ عِنْدِي: **يَا مَوْهِبُ! أَطْلُبُ إِلَيْكَ ثَلاثًا: أَنْ تَسْقِيَنِي العَذْبَ** (الماء الطيب، والعَذْبُ من الطَّعامِ والشَّرابِ: كل مُسْتَساغٍ)، **وَأَنْ تُجَنِّبَنِي مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَأَنْ تُؤْذِنِّي إِذَا أَرَادُوا قَتْلِي**. [طبقات ابن سعد ٢/ ٥٣].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ عَبَّادٍ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الحَارِثِ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **مَا أَنَا وَالله قَتَلْتُ خُبَيْبًا؛ لأَنِّي كُنْتُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ أَبَا مَيْسَرَةَ، أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، أَخَذَ الحَرْبَةَ فَجَعَلَهَا فِي يَدِي، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي وَبِالحَرْبَةِ ثُمَّ طَعَنَهُ بِهَا حَتَّى قَتَلَهُ**.

[وَكَانَ عُقْبَةُ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَامِرٍ مِمَّنْ حَضَرَ، وَكَانَ يَقُولُ: **وَالله مَا أَنَا قَتَلْتُ خُبَيْبًا إِنْ كُنْتُ يَوْمَئِذٍ لَغُلامًا صَغِيرًا، وَلَكِنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو مَيْسَرَةَ مِنْ عَوْفِ بْنِ السَّبَّاقِ أَخَذَ بِيَدِي فَوَضَعَهَا عَلَى الحَرْبَةِ، ثُمَّ أَمْسَكَ بِيَدِي ثُمَّ جَعَلَ يَطْعَنُ بِيَدِهِ حَتَّى قَتَلَهُ**، فَلَمَّا طَعَنَهُ بِالْحَرْبَةِ أَفْلَتَ، فَصَاحُوا: يَا أَبَا سِرْوَعَةَ، بِئْسَ مَا طَعَنَهُ أَبُو مَيْسَرَةَ! فَطَعَنَهُ أَبُو سِرْوَعَةَ حَتَّى أَخَرَجَهَا مِنْ ظَهْرِهِ، فَمَكَثَ سَاعَةً يُوَحِّدُ اللهَ وَيَشْهَدُ أَنَّ مُحَمّدًا رَسُولُ الله.

يَقُولُ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ: **لَوْ تَرَكَ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ عَلَى حَالٍ لَتَرَكَهُ عَلَى هَذِهِ الحَالِ، مَا رَأَيْنَا قَطُّ وَالِدًا يَجِدُ بِوَلَدِهِ مَا يَجِدُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ بِمُحَمَّدٍ ﷺ**].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَقَامَ خُبَيْبٌ رضي الله عنه فِي أَيْدِيهِمْ حَتَّى انْقَضَتْ الأَشْهُرُ الحُرُمُ، ثُمَّ قَتَلُوهُ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٧٤، والمغازي للواقدي ١/ ٣٦٢، وقال الشيخ الصوياني عن سند ابن إسحاق: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٢٩٥].

بَلِيعُ الأَرْضِ:

عَنْ عَمْرِو بنِ أُمَيَّةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ [كَانَ] بَعَثَهُ وَحْدَهُ عَيْنًا إِلَى قُرَيْشٍ.

قَالَ: جِئْتُ إِلَى خَشَبَةِ خُبَيْبٍ، وَأَنَا أَتَخَوَّفُ الْعُيُونَ، فَرَقِيتُ فِيهَا، فَحَلَلْتُ خُبَيْبًا [فَأَطْلَقْتُهُ]، فَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ [بِالأَرْضِ]، فَانْتَبَذْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ [قَلِيلًا]، ثُمَّ الْتَفَتُّ، فَلَمْ أَرَ خُبَيْبًا، وَلَكَأَنَّمَا [فَكَأَنَّمَا] ابْتَلَعَتْهُ الْأَرْضُ، فَلَمْ يُرَ [يُذْكَرْ] لِخُبَيْبٍ أَثَرٌ [رِمَّةٌ] حَتَّى السَّاعَةِ.

[مسند أحمد ٢٨/ ٤٨٩ رقم ١٧٢٥٢، ٣٧/ ١٤٦ رقم ٢٢٤٧٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف. مجمع الزوائد الرائد ٥/ ٥٧٩ رقم ٩٦٣٧، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني [المعجم الكبير ١/ ٢٩٢ رقم ٨٥٦، ٤/ ٢٢٣ رقم ٤١٩٣]، وفيه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، وهو ضعيف. دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٣١-٣٣٢].

مَا نَزَلَ فِي سَرِيَّةِ الرَّجِيعِ مِنَ القُرْآنِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مِمَّا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي تِلْكَ السَّرِيَّةِ، كَمَا حَدَّثَنِي مَوْلًى لِآلِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، أَوْ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: لَـمَّا أُصِيبَتْ السَّرِيَّةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا مَرْثَدٌ وَعَاصِمٌ بِالرَّجِيعِ، قَالَ رِجَالٌ مِنْ المنَافِقِينَ: **يَا وَيْحَ هَؤُلَاءِ المفْتُونِينَ الَّذِينَ هَلَكُوا (هَكَذَا)، لَا هُمْ قَعَدُوا فِي أَهْلِيهِمْ، وَلَا هُمْ أَدَّوْا رِسَالَةَ صَاحِبِهِمْ!** فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ المنَافِقِينَ، وَمَا أَصَابَ أُولَئِكَ النَّفَرُ مِنْ الخَيْرِ بِالَّذِي أَصَابَهُمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ: لِمَا يُظْهِرُ مِنْ الإِسْلَامِ بِلِسَانِهِ ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِمَا يَقُولُ بِلِسَانِهِ ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾[البقرة] أَيْ ذُو جِدَالٍ إِذَا كَلَّمَكَ وَرَاجَعَكَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أَيْ: خَرَجَ مِنْ عِنْدِك، ﴿ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة] أَيْ: لَا يُحِبُّ عَمَلَهُ وَلَا يَرْضَاهُ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[البقرة] أَيْ: قَدْ شَرَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْ الله بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَالقِيَامِ بِحَقِّهِ حَتَّى هَلَكُوا عَلَى ذَلِكَ، يَعْنِي تِلْكَ السَّرِيَّةَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٧٥].

مَنْ اجْتَمَعُوا لِقَتْلِ خُبَيْبٍ ﷺ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ الَّذِينَ أَجْلَبُوا (اجتمعوا وصاحوا) عَلَى خُبَيْبٍ فِي قَتْلِهِ حِينَ قُتِلَ مِنْ قُرَيْشٍ: عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَسَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي قَيْسِ بْنِ عَبْدِ وُدٍّ، وَالأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ الثَّقَفِيُّ،

حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ، وَعُبَيْدَةُ بْنُ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ الأَوْقَصِ السَّلَمِيُّ، حَلِيفُ بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ أَبِي عُتْبَةَ وَبَنُو الحَضْرَمِيِّ. [السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٧٩].

ما قيل من الشعر في سرية الرجيع وشهدائها:

شِعْرُ خُبَيْبٍ ﷺ حِينَ أُرِيدَ صَلْبُهُ [السيرة لابن هشام ٣/ ١٧٦، البداية والنهاية ٥/ ٥١٢]:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مِمَّا قِيلَ فِي ذَلِكَ مِنَ الشِّعْرِ قَوْلُ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ ﷺ، حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ القَوْمَ قَدْ اجْتَمَعُوا لِصَلبِهِ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَعْضُ أَهْلِ العِلمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُهَا لَهُ.

لَقَدْ جَمَّعَ الأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا ... قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ [(١)]

وَكُلُّهُمْ مُبْدِي العَدَاوَةَ جَاهِدٌ ... عَلَيَّ لِأَنِّي فِي وِثَاقٍ بِمَضْيَعِ [(٢)]

وَقَدْ جَمَّعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ ... وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مُمَنَّعِ

إِلَى اللهِ أَشْكُو غُرْبَتِي ثُمَّ كُرْبَتِي ... وَمَا أَرْصَدَ الأَحْزَابُ لِي عِنْدَ مَصْرَعِي [(٣)]

فَذَا العَرْشِ صَبِّرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي ... فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي [(٤)]

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ [(٥)]

وَقَدْ خَيَّرُونِي الكُفْرَ وَالمَوْتُ دُونَهُ ... وَقَدْ هَمَلَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ [(٦)]

وَمَا بِي حِذَارُ المَوْتِ، إِنِّي لَمَيِّتٌ ... وَلَكِنْ حِذَارِي جَحْمُ نَارٍ مُلَفَّعِ [(٧)]

فَوَاللهِ مَا أَرْجُو إِذَا مِتُّ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرَعِي [(٨)]

فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلعَدُوِّ تَخَشُّعًا ... وَلَا جَزَعًا إِنِّي إِلَى اللهِ مَرْجِعِي [(٩)]

---

(١) **ألبوا**: جمعوا، يُقال: ألبت القوم على فلان: إذا جمعتهم عليه وحضضتهم.

(٢) في رواية (مضيع).

(٣) **أرصد**: أعد.

(٤) **بضعوا**: قطعوا. **ياس**: لغة في يئس.

(٥) **الشلو**: البقية. **الممزع**: المقطع.

(٦) **هملت**: سال دمعها.

(٧) **الجحم**: الملتهب المتقد، ومنه سميت الجحيم. **ملفع**: مشتمل عام، يُقال: تلفع بالثوب، إذا اشتمل به.

(٨) **أرجو**: أي أخاف، وهي لغة. وفي رواية الطبراني في الكبير:

لَعَمْرِي مَا أَحْفَلُ إِذَا مِتُّ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ للهِ مَضْجَعِي

(٩) **التخشع**: التذلل.

شِعْرُ حَسَّان ﵁ فِي بُكَاءِ خُبَيْبٍ ﵁ (١): وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﵁ يَبْكِي خُبَيْبًا ﵁:

مَا بَالُ عَيْنِكِ لَا تَرْقَا مَدَامِعُهَا ... سَحًّا عَلَى الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ القَلِقِ (٢)

عَلَى خُبَيْبٍ فَتَى الفِتْيَانِ قَدْ عَلِمُوا ... لَا فَشِلٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَلَا نَزِقِ (٣)

فَاذْهَبْ خُبَيْبُ جَزَاكَ اللهُ طَيِّبَةً ... وَجَنَّةُ الخُلْدِ عِنْدَ الحُورِ فِي الرُّفُقِ (٤)

مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ ... حِينَ المَلَائِكَةِ الأَبْرَارِ فِي الأُفُقِ

فِيمَ قَتَلْتُمْ شَهِيدَ اللهِ فِي رَجُلٍ ... طَاغٍ قَدْ أَوْعَثَ فِي البُلْدَانِ وَالرُّفَقِ (٥)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُرْوَى: «الطُّرُقِ». وَتَرَكْنَا مَا بَقِيَ مِنْهَا، لِأَنَّهُ أَقْذَعَ فِيهَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﵁ أَيْضًا يَبْكِي خُبَيْبًا ﵁:

يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ مُنْسَكِبِ ... وَابْكِي خُبَيْبًا مَعَ الفِتْيَانِ لَمْ يَؤُبْ (٦)

صَقْرًا تَوَسَّطَ فِي الأَنْصَارِ مَنْصِبُهُ ... سَمْحَ السَّجِيَّةِ مَحْضًا غَيْرَ مُؤْتَشِبِ (٧)

قَدْ هَاجَ عَيْنِي عَلَى عِلَّاتِ عَبْرَتِهَا ... إِذْ قِيلَ نُصَّ إِلَى جِذْعٍ مِنَ الخَشَبِ (٨)

يَأَيُّهَا الرَّاكِبُ الغَادِي لِطَيَّتِهِ ... أَبْلِغْ لَدَيْكَ وَعِيدًا لَيْسَ بِالكَذِبِ (٩)

بَنِي كُهَيْبَةَ أَنَّ الحَرْبَ قَدْ لَقِحَتْ ... مَحْلُوبُهَا الصَّابُ إِذْ تُمْرَى لِمُحْتَلِبِ (١٠)

فِيهَا أُسُودُ بَنِي النَّجَّارِ تَقْدُمُهُمْ ... شُهْبُ الأَسِنَّةِ فِي مُعْصَوْصَبٍ لَجِبِ (١١)

---

(١) السيرة لابن هشام ٣/ ١٧٧ -١٨٣، البداية والنهاية ٥/ ٥١٣.

(٢) **القلق**: المتحرك الساقط.

(٣) **الفشل**: الجنان الضعيف القوة. **النزق**: السيء الخلق، ورواية الشطر الأول من هذا البيت في الديوان: **عَلَى خُبَيْبٍ وَفِي الرَّحْمَنِ مَصْرَعُهُ**

(٤) **الرُّفُق** (بضم الراء والفاء): جمع رفيق.

(٥) **أوعث**: اشتد فساده. **الرَّفق** (بفتح الفاء): جمع رفقة (بضم الراء وكسرها).

(٦) **منسكب**: سائل. **لم يؤب**: لم يرجع.

(٧) **السجية**: الطبيعة، وفي الديوان: (حلو السجية). **المحض**: الخالص، وأراد به هنا: خلوص نسبه. **والمؤتشب**: المختلط.

(٨) **العلات**: المشقات. **نُص**: رفع (بالبناء للمجهول فيهما)، مأخوذ من النص في السير وهو أرفعه.

(٩) **الطية**: ما انطوت عليه نيتك.

(١٠) قال السهيلي: وكهيبة كأنه اسم علم لأمهم، وهذا كما يُقال: بني ضوطري، وبني الغبراء، وبني درزة، وهذا كله اسم لمن يسب، وعبارة عن السفلة من الناس. **كهيبة**: من الكهبة، وهي الغبرة، وهذا كما قالوا: (بني غبراء). **لقحت**: ازداد شرها. **محلوبها**: لبنها. **الصاب**: العلقم. **وتمرى**: تمسح.

(١١) **المصوصب**: الجيش الكثير. **اللجب**: الكثير الأصوات.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَهَذِهِ القَصِيدَةُ مِثْلُ الَّتِي قَبْلَهَا، وَبَعْضُ أَهْلِ العِلمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُهُمَا لِحَسَّانٍ، وَقَدْ تَرَكْنَا أَشْيَاءَ قَالَهَا حَسَّانٌ فِي أَمْرِ خُبَيْبٍ لِمَا ذَكَرْتُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا:

لَوْ كَانَ فِي الدَّارِ قَرِمٌ مَاجِدٌ بَطِلٌ ... أَلْوَى مِنَ القَوْمِ صَقْرٌ خَالُهُ أَنَسُ [١]

إِذَنْ وَجَدْتَ خُبَيْبًا مَجْلِسًا فَسِحًا ... وَلَمْ يُشَدَّ عَلَيْكَ السِّجْنُ وَالحَرَسُ [٢]

وَلَمْ تَسُقْكَ إِلَى التَّنْعِيمِ زِعْنِفَةٌ ... مِنَ القَبَائِلِ مِنْهُمْ مَنْ نَفَتْ عُدَسُ [٣]

دَلَّوْكَ غَدْرًا وَهُمْ فِيهَا أُولُو خُلُفٍ ... وَأَنْتَ ضَيْمٌ لَهَا فِي الدَّارِ مُحْتَبَسُ [٤]

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَنَسٌ الأَصَمُّ السُّلَمِيُّ: خَالُ مُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ.

وَقَوْلَهُ مِنْ «نَفَتْ عُدَسُ» يَعْنِي: حُجَيْرَ بْنَ أَبِي إِهَابٍ، وَيُقَالُ: الأَعْشَى بْنُ زُرَارَةَ بْنِ النَّبَّاشِ الأَسَدِيُّ، وَكَانَ حَلِيفًا لِبَنِي نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ.

شِعْرُ حَسَّانٍ ﷺ فِي هِجَاءِ هُذَيْلٍ لِقَتْلِهِمْ خُبَيْبًا ﷺ:

وَقَالَ حَسَّانٌ ﷺ أَيْضًا يَهْجُو هُذَيْلًا [٥] فِيمَا صَنَعُوا بِخُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ ﷺ:

أَبْلِغْ بَنِي عَمْرٍو بِأَنَّ أَخَاهُمْ ... شَرَاهُ امْرُؤٌ قَدْ كَانَ لِلغَدْرِ لَازِمَا [٦]

شَرَاهُ زُهَيْرُ بْنُ الأَغَرِّ وَجَامِعٌ ... وَكَانَا جَمِيعًا يَرْكَبَانِ المَحَارِمَا [٧]

---

(١) **القرم**: السيد، وأصله الفحل من الإبل. **الماجد**: الشريف. **ألوى**: أي شديد الخصومة، ورواية البيت في الديوان، وعند الواقدي: **لَوْ كَانَ فِي الدَّارِ قَوْمٌ ذُو مُحَافَظَةٍ ... حَامِي الحَقِيقَةِ ماضٍ خَالُهُ أَنَسُ**

(٢) روايته عند الواقدي: **إِذَنْ حَلَلْت خُبَيْبًا مَنْزِلًا فُسُحًا ... وَلَمْ يُشَدَّ عَلَيْكَ الْكَبْلُ وَالحَرَسُ**

الكبل: القيد الضخم.

(٣) **الزعنفة**: الذين ينتمون إلى القبائل ويكونون أتباعًا لهم. **عدس**: قبيلة من لقيم، ورواية هذا الشطر الأخير في الديوان: **مِنْ المعاشر مِمَّنْ قَدْ نَفَتْ عُدَسُ**

(٤) **دلوك**: أي غروك. **الخلف** (بضمتين): الخلف (بضم فسكون)، وضمت لامه في الشعر إتباعًا للخاء. **الضيم**: الذل، والمراد (ذو ضيم)، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، ولم يُذكر هذا البيت في الديوان، وذكر مكانه:

صَبرًا خُبَيبُ فَإِنَّ القَتلَ مَكْرُمَةٌ ... إِلى جِنانِ نَعيمٍ يَرجُعُ النَفَسُ

(٥) هجا حسان ﷺ هذيلًا؛ لأنهم إخوة القارة والمشاركون لهم في الغدر بخبيب وأصحابه، وهذيل وخزيمة أبناء مدركة بن إلياس، وعضل والقارة من بني خزيمة.

(٦) **شراه**: باعه، وهو من الأضداد.

(٧) «شَرَاهُ» في رواية الطبراني: «شَرَاكَ».

أَجَرْتُمْ فَلَـمَّا أَنْ أَجَـرْتُمْ غَـدَرْتُمْ وَكُنْــتُمْ بِأَكْنَــافِ الرَّجِيــعِ لَهَاذِمَــا (١)
فَلَيْــتَ خُبَيْبًــا لَمْ تَخُنْــهُ أَمَانَــةٌ وَلَيْــتَ خُبَيْبًــا كَــانَ بِــالقَوْمِ عَالِمَــا (٢)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: زُهَيْرُ بْنُ الأَغَرِّ وَجَامِعٌ الهُذَلِيَّانِ اللَّذَانِ بَاعَا خُبَيْبًا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا [البداية والنهاية ٥/ ٥١٣]:

إنْ سَرَّكَ الغَدْرُ صِرْفًا لَا مِزَاجَ لَهُ فَأْتِ الرَّجِيعَ فَسَل عَنْ دَارِ لِحْيَانَ
قَوْمٌ تَوَاصَوْا بِأَكْلِ الجَـارِ بَيْـنَهُمْ فَالكَلْبُ وَالقِرْدُ وَالإِنْسَانُ مِثْلَانِ
لَوْ يَنْطِقُ التَّيْسُ يَوْمًا قَامَ يَخْطُبُهُمْ وَكَـانَ ذَا شَرَفٍ فِـيهِمْ وَذَا شَـانِ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا يَهْجُو هُذَيْلًا:

سَالَتْ هُذَيْلٌ رَسُولَ الله فَاحِشَـةً ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَـالَتْ وَلَمْ تُصِـبْ (٣)
سَالُوا رَسُولَهُمْ مَا لَيْسَ مُعْطِيَهُمْ حَتَّـى المَـمَاتِ وَكَـانُوا سُـبَّةَ العَـرَبِ
وَلَـنْ تَـرَى لِهُـذَيْلٍ دَاعِيًـا أَبَـدًا يَـدْعُو لِمَكْرُمَـةٍ عَـنْ مَنْـزِلِ الحَـرْبِ (٤)
لَقَدْ أَرَادُوا خِلَالَ الفُحْشِ وَيْحَهُمْ وَأَنْ يُحِلُّـوا حَرَامًـا كَـانَ فِي الكُتُـبِ (٥)

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا يَهْجُو هُذَيْلًا [البداية والنهاية ٥/ ٥١٤]:

لَعَمْرِي لَقَدْ شَانَتْ هُذَيْلَ بْنَ مُدْرِكٍ أَحَادِيثُ كَانَـتْ فِي خُبَيْـبٍ وَعَاصِـمِ (٦)
أَحَادِيــثُ لِحْيَــانٍ صَــلَوْا بِقَبِيحِهَــا وَلِحْيَــانُ جَرَّامُــونَ شَرَّ الجَــرَائِمِ (٧)

---

(١) **لهاذمًا** (بالذال المعجمة): جمع لهذم، وهو القاطع من السيوف. (وبالزاي): الضعفاء والفقراء، وأصل اللهمزتين: مضغتان تكونان في الحنك، واحدتها: لهزمة، والجمع: لهازم، فشبههم بها لحقارتها.

(٢) «أَمَانَةٌ» في رواية الطبراني: «دَمَامَةٌ».

(٣) قال أبو ذر: «سالت. أراد: سألت، ثم خفف الهمزة، وقد يقال: سال يسال (بغير همز) وهي لغة. ويشير حسان إلى ما سألت هذيل رسول الله ﷺ حين أرادوا الإسلام أن يحل لهم الزنا، فهو يعيرهم ذلك».

وقال السهيلي: «وقوله سالت هذيل، ليس على تسهيل الهمزة في سألت، ولكنها لغة، بدليل قولهم: تسايل القول، ولو كان تسهيلًا لكانت الهمزة بين بين ولم يستقم وزن الشعر بها لأنها كالمتحركة، وقد تقلب ألفًا ساكنة كما قالوا: المنساة، ولكنه شيء لا يقاس عليه، وإذا كانت سال لغة في سأل يلزم أن يكون المضارع يسيل، ولكن قد حكى يونس: سلت تسال، مثل خفت تخاف، وهو عنده من ذوات الواو. وقال الزجاج: الرجلان يتسايلان. وقال النحاس والمبرد: يتساولان، وهو مثل ما حكى يونس».

(٤) **الحرب**: السلب، يقال: حرب الرجل، إذا سلب (بالبناء للمجهول فيهما).

(٥) **الخلال**: الخصال.

(٦) **شانت**: عابت.

(٧) **وصلوا بقبيحها**: أي أصابهم شرها. **جرامون**: كاسبون.

أَنَاسٌ هُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ فِي صَمِيمِهِمْ ... بِمَنْزِلَةِ الزَّمْعَانِ دُبْرَ القَوَادِمِ [١]

هُمْ غَدَرُوا يَوْمَ الرَّجِيعِ وَأَسْلَمَتْ ... أَمَانَتُهُمْ ذَا عِفَّةٍ وَمَكَارِمِ

رَسُولَ رَسُولِ الله غَدْرًا وَلَمْ تَكُنْ ... هُذَيْلٌ تَوَقَّى مُنْكَرَاتِ المَحَارِمِ

فَسَوْفَ يَرَوْنَ النَّصْرَ يَوْمًا عَلَيْهِمْ ... بِقَتْلِ الَّذِي تَحْمِيهِ دُونَ الحَرَائِمِ [٢]

أَبَابِيلُ دَبْرٍ شُمَّسٍ دُونَ لَحْمِهِ ... حَمَتْ لَحْمَ شَهَّادٍ عِظَامَ المَلَاحِمِ [٣]

لَعَلَّ هُذَيْلًا أَنْ يَرَوْا بِمَصَابِّهِ ... مَصَارِعَ قَتْلَى أَوْ مَقَامًا لِمَاتَمِ [٤]

وَنُوقِعَ فِيهِمْ وَقْعَةً ذَاتَ صَوْلَةٍ ... يُوَافِي بِهَا الرُّكْبَانُ أَهْلَ المَوَاسِمِ [٥]

بِأَمْرِ رَسُولِ الله إِنَّ رَسُولَهُ ... رَأَى رَأْيَ ذِي حَزْمٍ بِلِحْيَانَ عَالِمِ

قُبَيِّلَةٌ لَيْسَ الوَفَاءُ يُهِمُّهُمْ ... وَإِنْ ظُلِمُوا لَمْ يَدْفَعُوا كَفَّ ظَالِمِ

إِذَا النَّاسُ حَلُّوا بِالفَضَاءِ رَأَيْتَهُمْ ... بِمَجْرَى مَسِيلِ المَاءِ بَيْنَ المَخَارِمِ [٦]

مَحَلُّهُمْ دَارُ البَوَارِ وَرَأْيُهُمْ ... إِذَا نَابَهُمْ أَمْرٌ كَرَأْيِ البَهَائِمِ [٧]

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﵁ يَهْجُو هُذَيْلًا:

لَحَى اللهُ لِحْيَانًا فَلَيْسَتْ دِمَاؤُهُمْ ... لَنَا مِنْ قَتِيلَيْ غَدْرَةٍ بِوَفَاءِ [٨]

هُمُو قَتَلُوا يَوْمَ الرَّجِيعِ ابْنَ حُرَّةٍ ... أَخَا ثِقَةٍ فِي وُدِّهِ وَصَفَاءِ

فَلَوْ قُتِلُوا يَوْمَ الرَّجِيعِ بِأَسْرِهِمْ ... بِذِي الدَّبْرِ مَا كَانُوا لَهُ بِكِفَاءِ [٩]

قَتِيلٌ حَمَتْهُ الدَّبْرُ بَيْنَ بُيُوتِهِمْ ... لَدَى أَهْلِ كُفْرٍ ظَاهِرٍ وَجَفَاءِ

---

(١) **صميم القوم**: خالصهم في النسب. **الزمعان**: جمع زمع، وهو الشَّعْر الذي يكون فوق الرسغ من الدابة وغيرها. **دبر**: خلف. **القوادم** (هنا): الأيدي؛ لأنها تقدم الأرجل.

(٢) **تحميه**، يعني عاصم بن الأقلح الذي حمته النحل. **دون الحرائم**: أي دون أن يحبسه أحد من الكفار.

(٣) **الأبابيل**: الجماعات، يقال: إن واحدها، إبيل. **الدبر**: الزنانير، ويقال للنحل أيضًا: دبر. شمس: مدافعة. **الملاحم**: جمع ملحمة، وهي الحرب.

(٤) **المأتم**: جماعة النساء يجتمعن في الخير والشر، وأراد به هنا أنهن يجتمعن في مناحته، وقد سهل همزة «المأتم» لأن القافية هنا موسومة بالألف.

(٥) **الصولة**: الشدة.

(٦) **المخارم**: مسايل الماء التي يجري فيها السيل.

(٧) **البوار**: الهلاك.

(٨) **لحى**: أضعف وبالغ في أخذهم، وهو من قولهم: لحوت العمود، إذا قشرته.

(٩) يريد «بذي الدبر»: عاصمًا ﵁.

فَقَدْ قَتَلَـتْ لِحْيَـانُ أَكْـرَمَ مِـنْهُمْ ... وَبَـاعُوا خُبَيْبًـا وَيْلَهُـمْ بِلَفَـاءِ [(١)]

فَـأُفٍّ لِلِحْيَـانٍ عَـلَى كُـلِّ حَالَـةٍ ... عَلَى ذِكْـرِهِمْ فِي الـذِّكْرِ كُـلَّ عَفَـاءِ [(٢)]

قُبَيِّلَـةٌ بِـاللُّؤْمِ وَالغَـدْرِ تَغْـتَرِي ... فَلَـمْ تُمْـسِ يَخْفَـى لُؤْمُهَـا بِخَفَـاءِ [(٣)]

فَلَوْ قُتِلُوا لَمْ تُـوفِ مِنْـهُ دِمَـاؤُهُمْ ... بَـلَى إِنَّ قَتْـلَ القَاتِلِيـهِ شِـفَائِي

فَإِلَّا أَمُـتْ أَذْعَـرُ هُـذَيْلًا بِغَـارَةٍ ... كَغَـادِي الجَهَـامِ المُغْتَـدِي بِإِفَـاءِ [(٤)]

بِـأَمْرِ رَسُـولِ اللهِ وَالأَمْـرُ أَمْـرُهُ ... يَبِيـتُ لِلِحْيَـانَ الخَنَـا بِفَنَـاءِ

يُصَـبِّحُ قَوْمًـا بِـالرَّجِيعِ كَـأَنَّهُمْ ... جِـدَاءُ شِـتَاءٍ بِـتْنَ غَـيْرَ دِفَـاءِ [(٥)]

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا يَهْجُو هُذَيْلًا:

فَلَا وَاللهِ مَـا تَـدْرِي هُـذَيْلٌ ... أَصَافٍ مَـاءُ زَمْـزَمَ أَمْ مَشُـوبُ [(٦)]

وَلَا لَهُمْ إِذَا اعْتَمَرُوا وَحَجُّوا ... مِنْ الحِجْرَيْنِ وَالمَسْعَى نَصِيبُ [(٧)]

وَلَكِـنَّ الرَّجِيـعَ لَهُـمْ مَحَـلٌّ ... بِـهِ اللُّـؤْمُ المُبَـيَّنُ وَالعُيُـوبُ

كَأَنَّهُمْ لَدَى الكَنَّـاتِ أُصْـلًا ... تُيُـوسٌ بِالحِجَـازِ لَهَـا نَبِيـبُ [(٨)]

هُـمْ غَـرَوْا بِـذِمَّتِهِمْ خُبَيْبًـا ... فَبِـئْسَ العَهْـدُ عَهْـدُهُمْ الكَـذُوبُ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: آخِرُهَا بَيْتًا عَنْ أَبِي زَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ.

---

(١) **اللفاء**: الشيء الحقير اليسير، ومنه قولهم: قنع من الوفاء باللفاء.

(٢) **العفاء**: الدروس والتغير.

(٣) **تغتري**: يغري بعضها بعضًا.

(٤) **أذعر**: أفزع. **الغادي**: المبكر. **الجهام**: السحاب الرقيق. **الإفاء** (هنا): الغنيمة.

(٥) **الجداء**: جمع جدى.

(٦) **المشوب**: العكر المختلط بغيره.

(٧) يعني بالحجرين: حجر الكعبة، فثناه مع ما يليله، ومن رواه «الحجرين» بالتحريك، أراد الحجر الأسود، والحجر الذي فيه مقام إبراهيم ﷺ. **المسعى**: حيث يسعى بين الصفا والمروة.

(٨) **الكنات**: جمع كنة، وهو شيء يلصق بالبيت يكن به. **أصل** (بضمتين وسكن تخفيفًا) جمع أصيل، وهو العشي. **النبيب**: الصوت. وقد أسقط الديوان هذا البيت وأثبت بدله:

تَجُوزُهُمْ وَتَدْفَعُهُمْ عَلَيَّ ... فَقَدْ عَاشُوا وَلَيْسَ لَـهُمْ قُلُوبُ

وقال في التعليق عليه: علي بن مسعود الغساني، وحضن بني عبد مناف بن كنانة فنسبوا إليه.

شِعْرُ حَسَّانَ رضي الله عنه فِي بُكَاءِ خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ رضي الله عنهم:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه يَبْكِي خُبَيْبًا وَأَصْحَابَهُ رضي الله عنهم [**البداية والنهاية ٥/ ٥١٥**]:

صَلَّى الإِلَهُ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأُكْرِمُوا وَأُثِيبُوا (١)

رَأْسُ السَّرِيَّةِ مَرْثَدٌ وَأَمِيرُهُمْ وَابْنُ البُكَيْرِ إِمَامُهُمْ وَخُبَيْبُ

وَابْنٌ لِطَارِقَ وَابْنُ دَثْنَةَ مِنْهُمْ وَافَاهُ ثَمَّ حِمَامُهُ المَكْتُوبُ (٢)

وَالعَاصِمُ المَقْتُولُ عِنْدَ رَجِيعِهِمْ كَسَبَ المَعَالِيَ إِنَّهُ لَكَسُوبُ

مَنَعَ المَقَادَةَ أَنْ يَنَالُوا ظَهْرَهُ حَتَّى يُجَالِدَ إِنَّهُ لَنَجِيبُ (٣)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُرْوَى: حَتَّى يُجَدَّلَ إِنَّهُ لَنُجِيبُ (٤).

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَأَكْثَرُ أَهْلِ العِلمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُهَا لِحَسَّانٍ. [**السيرة النبوية لابن هشام ١٧٣-١٨٣**].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٨/ ٢٥٥-٢٦٠، مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧هـ) ٦/ ٢٩٥-٢٩٨، جمع الفوائد للمغربي (١٠٩٤هـ) ص ١٠١٧، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٤٣٧-٤٤٥، المطالب العالية لابن حجر (٨٥٢هـ) ١٧/ ٤٢٣، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٦١٦، ٦٢٣.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٤١٢-٤١٩، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٣/ ١٦٩-١٨٣، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ١/ ٣٥٤-٣٦٣، الطبقات (الكبرى) لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٥١-٥٣، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٣٨-٥٤٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٣/ ٣٢٣-٣٣٢، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ١٣٤-١٤١، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٢٣٠-٢٣٥، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٤٤-٢٤٦، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٥/ ٤٩٨-٥١٦، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ١٨٤-١٨٧، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٦٣-٩٠، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٥٧ -١٦٦.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٣٩٨-٤٠٠، صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٣٩، السيرة النبوية لرزق الله ٤١٠-٤١٣، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ١٨٠ – ١٨٦.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: غزوة الأحزاب لباشميل ٣٧-٤٦، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٧٠ – ٧٨، القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٩٧-١٠٣، غزوة الخندق لأبي خليل ١٥-٢٧، مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٢٢-٢٨، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٢٥-٢٣٦، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ٩٧-١٢٤.

هـ ـ كتب أخرى: قادة النبي ﷺ لخطاب ٢٣٤-٢٣٨.

---

(١) **أثيبوا**: من الثواب.

(٢) **الحمام**: الموت.

(٣) **المقادة**: الانقياد والمذلة. **يجالد**: يضارب بالسيف.

(٤) **يجدل**: يقع بالأرض، واسم الأرض: الجدالة.

خرائط سرية يوم الرجيع

(١)

سـريـة الرَّجيـع

سرية مرثد بن أبي مرثد الغنوي

(غـدر عضـل والقـارة من الهَوْن بن خزيمة بن مدركة)

صفر ٣ هـ

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ص ١٢٧.



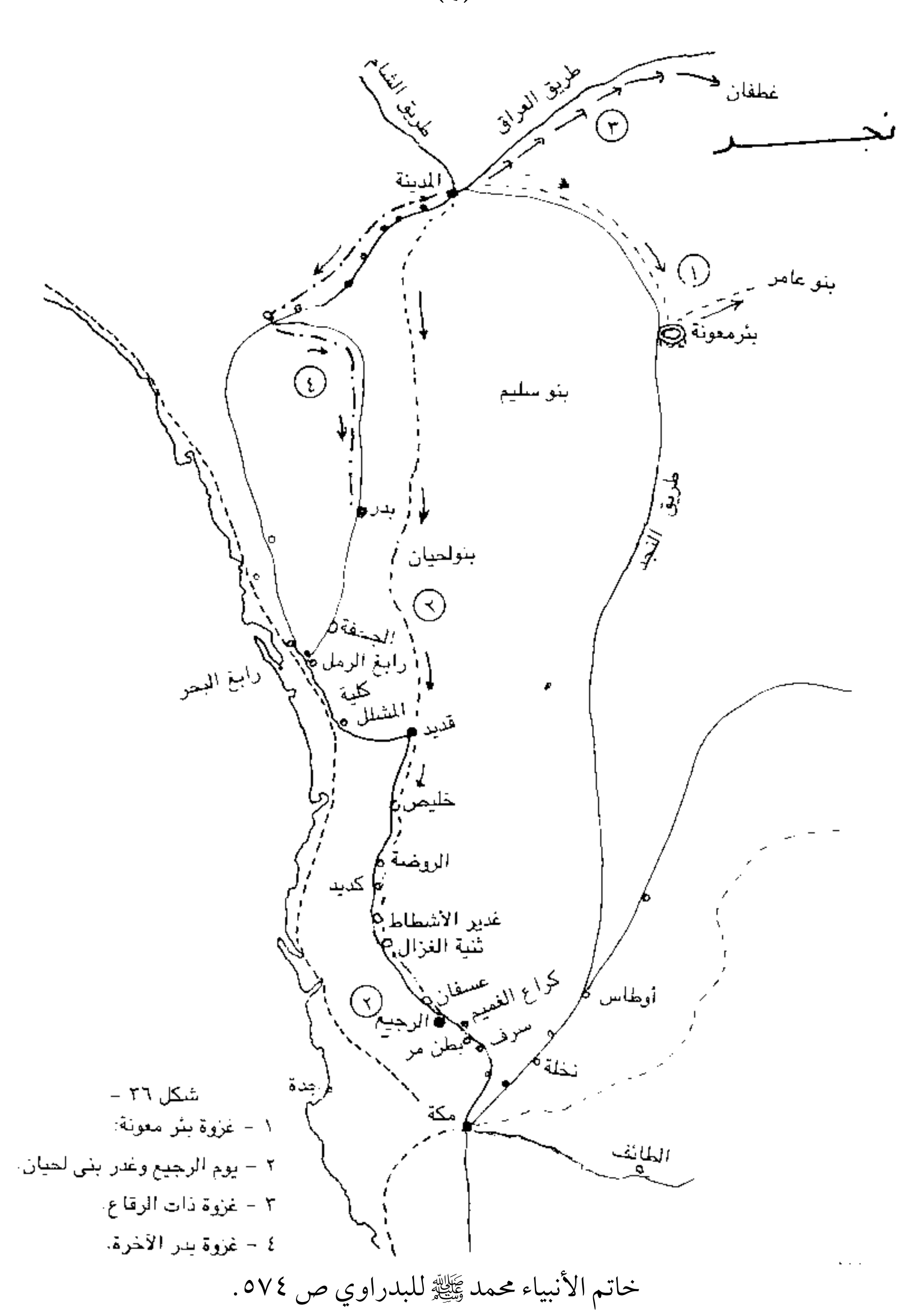
(٢)

حدائق الأنوار لبحرق ص ٥٣٩.

(٣)

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٦٩.

(٤)



خاتم الأنبياء محمد ﷺ للبدراوي ص ٥٧٤.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من سرية يوم الرجيع

١ ـ سعي الأعداء الدائم للقضاء على المسلمين:

يقول م/ أبو راس: «الحق والباطل في صراع دائم ما دامت السماوات والأرض، وأهل الحق لا يمكن أن يجمعهم مع أهل الباطل جامع، كما أن أهل الباطل لا يمكن أن يدعوا أهل الحق يعيشون بأمن وسلام إِنْ هُمْ ـ أي أهل الباطل ـ استطاعوا أن ينغصوا على أهل الحق معيشتهم، والباطل لا يتعامل مع الإسلام والمسلمين من منطلق المنطق والاحترام المتبادل، وإعطاء الحريات للجميع، ولكنه كان وما يزال وسيبقى يتعامل مع الحق وأهله بميزان القوة والضعف.

فإن كان أهل الحق أقوياء خنس الباطل وترقب، أما إذا ما تسرب الضعف إلى أهل الحق فإن الباطل يكشر عن أسباب عداوته وبغضائه لينشب أسنانه وما يمتلكه من وسائل قاتلة في جسد الأمة الإسلامية، دون أن تردعه عهود ومواثيق وذمم، وقَّع عليها أيام كان الحق قويًّا.

وهذه الفعلة المنكرة تتكرر مع المسلمين على مر الزمن في حال قوتهم وضعفهم، فعلى الرغم مما أبداه المسلمون من تجلد وبأس في مطاردة فلول المشركين في أعقاب غزوة أحد، وعلى الرغم من مكوث المسلمين في «**حمراء الأسد**» أيامًا متعاقبة ينتظرون فيها قريشًا لمعاودة الحرب، على الرغم من هذا كله إلا إن اليهود في داخل المدينة ـ مع من لف لفهم من المنافقين والأعراب المحيطين بمدينة رسول الله ﷺ ـ لم يتوانوا عن إظهار شماتتهم بالذي حدث، فأعلنوا عداوتهم لهذه الدعوة المباركة بعد أن كانوا يحاولون سترها بزائف الكلام، في الحين الذي أخذ فيه أعراب البادية بالتحرك نحو المدينة المنورة ظنًّا منهم أنها أصبحت نهبًا لكل طامع، يبحث عن الثراء السريع.

أولًا: هؤلاء المتحركون لغزو المدينة بنو أسد، في الحين الذي حاول فيه (خالد بن سفيان الهذلي) أن يحشد الجموع لحرب المسلمين.

ولم يقعد رسول الله ﷺ يضيع الوقت وينتظر الأحداث ـ ذلك أن الأحداث لا تنتظر أحدًا.. وأن الهجوم ـ مهما تكن الأحوال ـ خير وسيلة للدفاع لإرغام الأعداء على التراجع إلى جحورهم التي انطلقوا منها.

لم يبدد الرسول ﷺ وقته، ولكن سرعان ما بعث أبا سلمة ﭬ على رأس مائة وخمسين رجلًا ليبغتهم في منازلهم قبل أن يقوموا بما خططوا له، واستطاع أبو سلمة ﭬ أن يشتت أعداءه، ليكسر شوكتهم، ولينزع من أنفسهم ما علق بها من مطامع في مدينة المصطفى ﷺ، وأرسل ﷺ عبد الله بن أُنيس ﭬ ليقتل خالد بن سفيان الهذلي قبل أن يتمكن من إتمام ما نشط له لكسر شوكة الإسلام والمسلمين.

ولكن الباطل لا يمل، وحِيَلَه لا تتوقف، وأساليبه لا تتجمد عند أسلوب واحد، فالهدف الكبير عندهم قتل المسلمين وبأي وسيلة كانت، إذ أنه لا حُرمة عندهم لدم المسلمين، الأمر الذي تفتق في ذهن أكابر مجرمي قبائل عضل والقارة، بإرسال وفد إلى رسول الله ﷺ يدَّعون أنهم وصلهم نبأ الإسلام، وأنهم يريدون من النبي ﷺ أن يرسل معهم رهطًا من الدعاة يعلمونهم الإسلام ويقرؤون عليهم القرآن، فأرسل ﷺ وفدًا من خيرة الصحابة يرأسهم «عاصم بن ثابت ﷺ»، فانطلق الجميع، وجرى ما رأيناه في أحدث السرية». [**تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢١٦-٢١٧**].

٢ ـ أهمية سرية الرجيع:

يقول الشيخ عرجون: «إن بعث الرجيع انطوى على أحداث ووقائع جعلته مندرجًا في إطار منهجنا في البحث؛ لما اشتمل عليه من معالم كانت أشبه ما تكون بالدروس التربوية العملية التي تلقاها المجتمع المسلم في غزوة (أحد).

ولما كان فيها من بطولات فدائية كشفت عنها الشدائد والمحن، وأقامت بفدائيتها منائر اليقين الإيماني، وجعلت كلمة الكفر في عهوده هي السفلى، فداست عليها بأقدامها ولم تعطها شيئًا من الثقة بها وبمن يبذلها مزلقة للغدر، والخيانة، وهي ترى الموت يحفها من جميع جوانبها.

ولما ظهر في أبطال هذا البعث من قوة الحب الإيماني لرسول الله ﷺ عند الذين كانت رقابهم تحت شفرات السيوف، وهم ينظرون إلى الموت يهرول إليهم ليتخطَّفهم، فلا يرضون أن يفديهم رسول الله ﷺ بشوكة يشاكها، وهو ﷺ في مكانه بين أصحابه آمنًا معززًا موقرًا، وينجون بأنفسهم من الموت».

[**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٥**].

٣ ـ مهمة السرية:

في التوفيق بين روايتي البخاري وابن إسحاق لمهمة السرية يقول الشيخ عرجون: «ذكر البخاري سرية (الرجيع) في حديث أبي هريرة ﷺ على أنها كانت عينًا لرسول الله ﷺ بعثها إلى مكة لتأتي بأخبار قريش، وهذا أمر معقول تقتضيه متابعته السياسية للوقوف على ما يجري في صفوف أعداء المجتمع المسلم من تدبير وحركة؛ لأن سرية (الرجيع) كانت قليلة عدد الرجال مما يناسب أن تكون عينًا لمعرفة الأخبار، ويُسْر التخفي للإحاطة بشيء من الأسرار، وكانت بُعَيد (أحد) التي جرى فيها على المجتمع المسلم ما جرى من شدائد الأحداث والمحن، وكانت آثارها وعواقبها لا تزال تقلق المجتمع المسلم المتحفز إلى مفاجآت العدو، وتجعل رسول الله ﷺ شديد الحرص على معرفة ما يدور في محافل قريش وتفكيرها وتدبيرها، ولا سيما بعد الذي وقع في (حمراء الأسد) من التآمر القرشي بزعامة أبي سفيان بن حرب، وعزمهم على الرجوع إلى المدينة ليفرغوا ممن بقي من أبطال كتائب الإسلام، وما كان من موقف الوفاء

والنبل الذي وقفه معبد الخزاعي مثبطًا ومخذلًا أولئك المتحمسين للرجوع إلى مهاجمة المجتمع المسلم في عقر داره في المدينة المنورة، إذ قال لقريش وهي تستعد للرجوع بأن محمدًا ﷺ وأصحابه قد جمعوا لهم جموعًا لا طاقة لهم بلقائهم، وهم متحرقون غيظًا عليهم، يريدون قتالهم وهم في الطريق إليهم، وكأنهم بمقدمة الخيل تحمل الأبطال إليهم قد أظلتهم، ففزعوا ورعبوا، وداخلهم الفشل، وعزموا على السير إلى مكة فرارًا أن ينزل بهم ما أنبأهم به معبد الخزاعي من مفاجأة القتال.

فكان من الحزم السياسي وحكمة التدبير، وبعث اليقظة الحازمة أن لا يترك رسول الله ﷺ أمر قريش وتدبيرها دون أن يعمل على التعرف عليه والإحاطة به، ليكون أصحابه على بصيرة من أمرهم.

أما ابن إسحاق فقد جعل سبب هذه السرية استجابة رسول الله ﷺ لنفر من عضل والقارة قَدِموا على رسول الله ﷺ وذكروا له أن فيهم إسلامًا وهم يريدون أن يبعث معهم نفرًا من أهل العلم في أصحابه؛ لتعليمهم شرائع الإسلام، فبعث معهم ﷺ ستة نفر من أصحابه ليقوموا بهذه المهمة التي هي إحدى دعائم الدعوة إلى الله تعالى.

وهذا ـ عند التأمل ـ ليس اختلافًا ولا تفاوتًا يوجب الموازنة بين سياقي الغزوة عند البخاري وابن إسحاق، لاحتمال التوافق بالتوفيق بين الروايتين، وذلك بحمل السبب الأول لبعث السرية على إرادة التعرف لأخبار قريش وتدبيرها؛ ليتخذ رسول الله ﷺ أهبته واستعداده لما عسى أن تكون قريش قد دبرته وائتمرت به من مكر سيء يكيدون به المجتمع المسلم.

ثم قُبيل أن تأخذ البعثة طريقها إلى مهمتها في التعرف على أخبار المشركين وهم في بلدهم يأتمرون حضر نفر من عضل والقارة ليطلبوا من رسول الله ﷺ بعث نفر من أصحابه يفقهونهم في الدين، فرأى رسول الله ﷺ أن فرصة إجابتهم إلى طلبتهم تتحقق بهذه السرية المرسلة إلى مكة عينًا لتعرف أخبار المشركين فيها.

ولا تنافي مطلقًا بين مهمتي البعثة: مهمة تعرف أخبار الأعداء من قريش في مكة، ومهمة التفقيه في الدين، وحينئذ فلا اختلاف ولا تفاوت في سياقي البخاري وابن إسحاق لقصة (الرجيع).

وقد ذكر الزرقاني في شرح المواهب نحو هذا، فقال: ويجمع ـ أي بين السياقين ـ بأنه لما أراد بعثهم عيونًا وافق مجيء النفر في طلب من يفقههم في الدين، فبعثهم في الأمرين».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٣٩-٤١].

ويقول د/ الحميدي: «يمكن الجمع بين الروايتين باحتمال: أن النبي ﷺ قد بعث أفراد تلك السرية للمهمتين معًا، وأن إحدى المهمتين علنية، وهي المهمة الدعوية التي ذكرها عاصم بن عمر في رواية ابن إسحاق، والأخرى سِرِّيَّة وهي مهمة التجسس على الأعداء في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، فذكر عاصم

عن أشياخه من الأنصار المهمة المعلنة، ووعى أبو هريرة ﷺ المهمة السرية عمن أخبره من الصحابة حيث لم يهاجر إلى المدينة إلا في العام السابع فحُدِّث بها، ولعله رأى هو أو مَنْ حدَّثه أنها المهمة الأساسية فاكتفى بذكرها، ويكون مَنْ أخبر عاصم بن عمر بن قتادة بالمهمة العلنية لم يعلم بالمهمة السرية والله أعلم».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٣٦].

٤ ـ قتل ابن نبيح كان سببًا في محنة الرجيع في رواية الواقدي:

يقول الشيخ عرجون: «أما المنحى الآخر في سبب سرية الرجيع ـ الذي أثارها وأشعل أوارها حتى انتهت بها انتهت إليه من الغدر الخؤون والخيانة الغادرة مما أدَّى إلى قتل جميع رجالها العشرة وقائدهم عاصم بن ثابت ـ فيرجع إلى ما ذكره الواقدي متصلًا بقتل خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي ثم اللحياني الذي قتله عبد الله بن أنيس ﷺ لتجميعه الجموع لمهاجمة المجتمع المسلم وإشعال الحرب على رسول الله ﷺ.

فهذا المنحى يدل صراحة على أن بني لحيان مشوا إلى عضل والقارة وهما بطنان من هذيل فأغروهم على خيانة الله ورسوله والمسلمين من أجل قطيع من الإبل قدَّموه لهم ثمنًا لخيانتهم وغدرهم.

وقبلت عضل والقارة أن يقوم نفرهم الذين قَدِموا على رسول الله ﷺ فحدَّثوه الكذب والبهتان، وزعموا له ﷺ أن فيهم إسلامًا وهم منطوون على أحط ضروب الغدر، وأسفل دناءات الخيانة، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعث معهم نفرًا من أصحابه يعلمونهم الدين وشرائع الإسلام، وقد استأجرهم بنو لحيان ـ قوم ابن نبيح الخبيث الفاجر ـ بأبخس وأحط ما يستأجر به مرضى القلوب وضعاف النفوس للقيام بأحط خيانة تشمئز منها المروءة العربية فضلًا عن مكارم الدين وأخلاقه؛ لأن هؤلاء القوم تجردوا من كل إنسانية من أجل سقط من فتات متعفن تتلمظ إليه النفوس المريضة بالتعبد لرغائب الشهوات الوضيعة». **[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٤٨-٤٩].**

ويقول د/ الغضبان: «ولابد من الإشارة إلى أن هذا الغدر مرفوض في البيئة العربية بين قبيلتين ليس بينهما حرب ولا ثارات، وليس بين عضل والقارة وبين المسلمين ثارات أو دماء أو حرب.

فهي خيانة لا تألفها البيئة العربية آنذاك، وكان غدر هؤلاء المرافقين أنهم: استصرخوا عليهم هذيلًا في ديارهم حسب المؤامرة المبيتة بين الفريقين؛ ليأخذوا ثأرهم بمقتل خالد بن سفيان».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٥١].

ويقول أ/ حوى: «لقد ثأرت هذيل لمقتل صاحبها، فأعانت على أصحاب رسول الله ﷺ في حادثة الرجيع، وكل عملية عسكرية لها عقابيلها، والعبرة بالمحصلة النهائية لأي عملية على المستوى المرحلي أو المستقبلي، لقد كان إجهاض التحرك العسكري الذي كان يقوده خالد بن سفيان الهذلي أهم بكثير من أية عملية ثأرية». **[الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦١٤- ٦١٥].**

٥ ـ أهمية الترتيب والتدبير عند القائد:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا إِلَى بَنِي لَحْيَانَ مِنْ هُذَيْلٍ، فَقَالَ: «**لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا**». [مسلم في الإمارة (١٨٩٦)، وأحمد (١١٣١٩، ١١٤٧٩، ١١٨٨٥)، والمصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٤٢٦-٤٢٧ كتاب الغزوات (٣٨٠١٨)، والسنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٤٠].

وفي روايةٍ لَهُ: «**لِيَخْرُجَ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ رَجُلٌ**»، ثُمَّ قَالَ لِلقَاعِدِ: «**أَيُّكُمْ خَلَفَ الخَارِجَ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ بِخَيْرٍ كَانَ لَهُ مِثْلُ نِصْفِ أَجْرِ الخَارِجِ**». [أبو داود في الجهاد (٢٥١٠)، وقال الألباني: صحيح].

يقول أ/ حوى: «هذا مظهر من مظاهر الترتيب والتدبير في حياة الرسول ﷺ، وهو القدوة، وبمثل هذا أدار الأمور عن أقرب طريق، وههنا نجد صورتين، صورة التخيير في الجهاد عندما يكون في الأمر سعة، وصورة كفالة الخارج في أهله من شخص بعينه، ومن هنا نعرف أن من خرج مجاهدًا لا ينبغي أن يُضَيَّع أهله». [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٢٢].

٦ ـ عدد رجال السرية:

يقول الشيخ عرجون: «ذكر البخاري رحمه الله أن سرية (الرجيع) كانوا عشرة رجال، موافقًا لابن سعد على ذلك، وجرى ابن إسحاق على أنهم كانوا ستة نفر، وهذا ليس اختلافًا ولا تفاوتًا لاحتمال أن يكون رجال السرية الأصليين ستة نفر، والأربعة المكملون للعشرة كانوا أتباعًا لهم فلم يذكرهم ابن إسحاق، واكتفى البخاري بذكر عدد من كانوا في السرية إجمالًا.

وقد أشار إلى هذا الحافظ ابن حجر فقال بعد أن ذكر في رجال السرية معتب بن عبيد ومغيث بن عوف، كما ذكره موسى بن عقبة: فلعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعًا فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٤١].

٧ ـ معرفة ما كانت عليه الفدائية الإسلامية:

يقول د/ الحميدي: «إن خروج هذه السرية بهذا العدد القليل إلى تلك المسافة البعيدة يُعتبر مغامرة جريئة وتضحية كبيرة.

وقد كانت مهمتهم التجسس على الأعداء، كما جاء في رواية البخاري، وذلك لما تنامَى إلى أسماع النبي ﷺ وأصحابه من أخبار بعض القبائل التي تتحدث بغزو المدينة، ومن ذلك ما سبق في خبر بني «أسد»، وخالد بن سفيان الهذلي، فكان لابد من المغامرة بعدد محدود من المسلمين ليوافوا رسول الله ﷺ ومستشاريه بأخبار الأعداء قبل أن يتجمعوا ويصعب القضاء عليهم». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٣٥].

٨ ـ أمير السرية:

يقول الشيخ عرجون: «ذكر البخاري أن السرية كانت تحت إمرة عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري، أما ابن إسحاق فجعل أمير السرية مرثد بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنهما.

وهذا الاختلاف في أمير السرية يحتمل أن أحد الأميرين المسمَّيَين كان أمير حرب، والآخر كان أمير تفقيه في الدين على حسب معرفتهما وتربيتهما في هذه المعرفة؛ ولذلك لما أبى عاصم رضي الله عنه أن ينزل على عهد الكفار وذمتهم قاتلتهم حتى فني نبله، فقتلوه، وقتلوا معه سبعة من أصحابه.

وفي رواية أن عاصمًا رضي الله عنه نثر كنانته، وفيها سبعة أسهم، فقتل بكل سهم رجلًا من عظماء المشركين، ثم طاعنهم حتى انكسر رمحه، ثم سل سيفه، وقال: **اللهم إني حميت دينك صدر النهار فاحمِ لحمي آخره،** وقُتل عاصم رضي الله عنه في السبعة من رجال السرية، وفي هذا دلالة على أن عاصمًا رضي الله عنه كان أمير حرب السرية إذا حوربت، وأن مرثدًا رضي الله عنه كان أمير التفقيه في الدين وتعليم الجاهلين».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٤١-٤٢].

٩ ـ المشركون يطلبون ثأرهم:

يقول أ/ فتح الباب: «سكتت بنو لحيان على مصرع زعيمها خالد بن سفيان حينًا ريثما تتهيأ لها فرصة الأخذ بالثأر، وظلت تجتاحها الرغبة في الانتقام، وقد واتتها تلك الفرصة حين قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني الهون بن مدركة، وكانوا يجاورون بني لحيان، فذكروا له أنهم قد أسلموا ورغبوا أن يبعث معهم نفرًا من المسلمين يعلمونهم القرآن ويفقهونهم في الدين، فبعث النبي ﷺ معهم سبعة رجال هم: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت الأقلح، وخبيب بن عدي وهما من بني عمرو بن عوف، وزيد بن الدَّثِنَّةِ، وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر، ومعتب بن عبيد أخو عبد الله لأمه، وأمر عليهم مرثد بن بي مرثد.

وهكذا سارت هذه الصفوة المؤمنة مغتربة عن ديارها متكبدة عناء الرحلة استجابة لما أمر به رسول الله ﷺ، تبغي هداية الناس وتعليمهم شرائع الإسلام، لا تطلب منهم جزاء ولا شكورًا، ولكن حسبها رضا الله ورضا الرسول ﷺ والمؤمنين، وكفاها فخرًا أنها ندبت للوفاء برسالة دينية سامية».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٩٧].

١٠ ـ أهمية الحس الأمني لدى الجنود:

قال الحافظ في الفتح: «قَوْلُهُ: «فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى أَتَوْا مَنْزِلًا نَزَلُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ نَوَى تَمْرٍ»، فِي رِوَايَةِ أَبِي مَعْشَرٍ فِي مَغَازِيهِ: «فَنَزَلُوا بِالرَّجِيعِ سَحَرًا، فَأَكَلُوا تَمْرَ عَجْوَةٍ فَسَقَطَتْ نَوَاةٌ بِالأَرْضِ، وَكَانُوا يَسِيرُونَ اللَّيْلَ وَيَكْمُنُونَ النَّهَارَ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ هُذَيْلٍ تَرْعَى غَنَمًا فَرَأَتِ النَّوَاةَ، فَأَنْكَرَتْ صِغَرَهَا، وَقَالَتْ: هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ، فَصَاحَتْ فِي قَوْمِهَا أُتِيتُمْ، فَجَاؤُوا فِي طَلَبِهِمْ فَوَجَدُوهُمْ قَدْ كَمَنُوا فِي الْجَبَلِ».

[فتح الباري ٧/ ٤٤٠].

يقول أ/ حوى: «رواية أبي معشر تدل على أنهم كانوا يحتاطون ألا يتركوا أثرًا بما في ذلك نوى تمرهم الذي يأكلونه، وهذا يفيد أنهم كانوا في أعلى درجات الحس الأمني، وعلى كل الأحوال فإن من أدب

المسلم أن يرهف حسه الأمني دائمًا حتى تكون تصرفاته على غاية من الحكمة، فلا يكون إهماله سببًا في تدمير نفسه أو تدمير جماعة من المسلمين، فضلًا عن أن يكون إهماله سببًا في تدمير جماعة المسلمين».
[الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٢٠].

١١ ـ بيان ما عليه الأعداء من الغدر والخيانة ومواجهتهم:

يقول أ/ فتح الباب: «لما بلغ القوم رجال بني الهون مع أصحاب رسول الله ﷺ ماء لقبيلة هذيل قبيلة بني لحيان بالحجاز بناحية تدعى الرجيع غدروا بهم، إذ استصرخوا عليهم رجال هذيل الذين فاجأوهم بسيوفهم من كل جانب، فأحيط بأصحاب النبي ﷺ حين أُخذوا على حين غرة، فاستلوا سيوفهم واعتزموا أن يقاتلوا حتى آخر رمق، وقد أيقنوا أنهم لا محالة هالكون في موقعة غير متكافئة في العدد والعدة والمكان، موقعة لا تُجدي فيها شجاعة سبعة من الرجال وثب عليهم فجأة أضعاف عددهم من الأعداء في عقر دارهم، غير مراعين حرمة الضيف ولا شرف العهد، سبعة من الرجال المسالمين نزلوا في ساحتهم يبتغون لهم الخير والصلاح والخروج من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الحق والرشاد، فقوبلوا بخسة لا تصدر إلا عن نفوس تنضح بالعفونة وقلوب يأكلها الحقد والضغينة». [القيم الخلقية لفتح الباب ٩٨].

ويقول د/ الشرباصي: «إن أخس ما في أعدائنا من أهل الشرك والكفر والبغي هو الغدر والخيانة، مع المكر السيء الوضيع، والاحتيال الحقير المهين، الذي لا يقيم أي وزن للوعد أو العهد أو الشرف أو مكارم الأخلاق.

وهذه الرذائل المُسِفَّة المؤسفة كانت في أعدائنا بالأمس، وهي في أعدائنا اليوم، وستصاحبهم في الغد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ ﴾[البقرة].

ولقد لقي رسول الله ﷺ، ومعه صحابته وأتباعه ما لقوا من غدر المشركين ولؤم اليهود، ولكن الله ﷻ زان هؤلاء الأتباع الأخيار بفضيلتي الوفاء والفداء، فجعلهم يصرون على الحق، ويثبتون على كلمة الصدق، مستجيبين لقول ربهم عز من قائل في ختام سورة آل عمران: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠ ﴾[آل عمران]». [موسوعة الفداء للشرباصي ٢/ ٢٥٤].

ويقول أيضًا: «إذا كان الإسلام العظيم قد علمنا أن الحرب خدعة، وأنها تقوم على المحاورة والمخاتلة، فإنه في الوقت نفسه قد حذرنا مكر أعدائنا وغدرهم، وحذَّرنا الاغترار بما قد يعطونه من عهود ووعود، أو يبدونه من تظاهر بالضعف أو المسألة، فإن قلوبهم منطوية على الغل والحقد؛ ولذلك قال القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ ﴾[النساء]، وقال: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾[النساء: ١٠٢].

وإذا كنا قد جنينا المر في حاضرنا من انخداعنا بمكر أعدائنا، فإن أجدادنا العظام قد تعرضوا لمواقف خيانة الأعداء ومكرهم، وابتلاهم ربهم في ذلك المجال ابتلاء ممحصًا مؤدبًا، كما شهدنا في غزوة أحد وغزوة حنين.

ولكن أسلافنا ـ رضوان الله عليهم ـ قابلوا تلك المواقف بالصبر والاحتمال، ثم بالتدبر والاعتبار، ثم بالحيطة والحذر بعد ذلك، فكانت التجارب المريرة تأديبًا لهم وتهذيبًا، وتعليمًا وتقويمًا، ولعل الأخلاف يتابعون الأسلاف في ذلك، فلا يقبلون لأنفسهم أبدًا أن يلدغوا من جحر واحد مرتين، فقد قال سيد الأنام ﷺ: «**لا يُلدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**».

[**رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير رقم ٧٧٧٩**].

وهذا نموذج من نماذج السيرة العطرة يرينا كيف وقع بعض الصحابة في شَرَك الخيانة والغدر من بعض المشركين، ولكنهم كانوا رجالًا أبطالًا، حتى في أشد المواقف عنتًا وضيقًا، وقدموا من التضحية والفداء ما يغطي على تبعة الانخداع، وما يعد نبراسًا ساطعًا أمام المناضلين».

[**موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ٥٨٤**].

١٢ ـ رفض الاستسلام:

يقول د/ الشرباصي: «ما كان للهوان والذل أن يجتمعا مع الإيمان أبدًا، وقد فصَل ربنا الأعلى في هذه القضية منذ القدم، فقال في محكم تنزيله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران].

وهؤلاء هم أسلافنا الذين رباهم إمامنا وقائدنا رسول الله ﷺ، قد علمونا أن المؤمن المجاهد يرحب بالمنية ولا يقبل الدنية، ويصافح أسنة الرماح والسيوف والسهام، ولا يقبل موالاة أعدائه من الكفرة اللئام». [**موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ٣٦٤**].

ويقول أ/ فتح الباب: «لما وجد الهذليون أن المسلمين يرفضون الاستسلام وقد شرعوا أسلحتهم للدفاع عن أنفسهم حتى الموت طلبوا منهم أن يضعوا سيوفهم وأعطوهم كلمة الأمان، وأخبروهم أنهم لا يرغبون في قتلهم، وإنما يريدون أن يساوموا عليهم قريشًا، وكان قولهم في ذلك: «**إنا والله ما نريد قتالكم، إنما نريد أن نصيب بكم ثمنًا من أهل مكة، ولكم العهد والميثاق ألا نقتلكم**»، بمعنى أنهم يزعمون بيعهم إلى قريش.

غير أن رجال رسول الله ﷺ ـ من حُفاظ القرآن ومعلمي شرائعه ـ رفضوا هذا العرض، وإن كانوا يعلمون أن هذا الرفض سيكلفهم أعناقهم.

ففي مثل هذا الموقف ترخص الحياة وتصغر كل مباهج الدنيا، فلا مساومة على العزة، ولا بديل للكرامة، ولقد عرفوا نعمة الإسلام وذاقوا حلاوة الإيمان والحرية، وأدركوا أن الاستشهاد في سبيل الدفاع عن مبادئ الحق بغية المؤمن، وأن مقتلهم جميعًا لأهون من تسليمهم أسرى أذلاء إلى أعدائهم في مكة، فقال أربعة منهم هم: عاصم ومرثد وخالد ومعتب: **والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا،** وقاتلوا حتى قُتلوا وصعدت أرواحهم النورانية إلى السماء تعانق أرواح إخوان لهم سبقوا إلى ساحة الخلود مفتدين بدمائهم الذكية رسالة النور والخير والعدالة، فاتحين للبشرية من بعدهم سبيل المثل العليا والنضال دفاعًا عن قدسيتها، مقدمين أروع المثل لتضحية العلماء المؤمنين بأرواحهم في سبيل نشر علمهم». [**القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٩٨-٩٩**].

ويقول د/ الحميدي: «وهذا موقف جليل لعاصم بن ثابت رضي الله عنه وجماعته رضي الله عنهم حيث أبوْا أن يستسلموا وأن ينزلوا على ذمة الكفار، وتصدوا لقتال مائة من الرماة، وقُتل بنبال العدو سبعة من العشرة فيهم أميرهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه، وبقي ثلاثة هم خبيب بن عدي، وزيد بن الدَّثِنَّةِ، وعبد الله بن طارق رضي الله عنهم، فاختاروا الاستسلام بعد قتل أصحابهم، ثم حاول المقاومة بعد ذلك عبد الله بن طارق رضي الله عنه فقتلوه، وبقي خبيب وزيد رضي الله عنهما، وكان بقاؤهما خيرًا للمسلمين حيث سطَّرا في الأيام الأخيرة من حياتهما مواقف عالية في الصبر على الأذى واحتساب الأجر عند الله ـ تعالى ـ وإظهار عزة الإسلام».

[**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٣٦**].

١٣ ـ وقوع الكرامات للصالحين:

يقول أ/ فتح الباب: «وكان الشهيد عاصم بن ثابت رضي الله عنه قد قَتل في معركة أحد أخوين مشركين من بني عبد الدار فنذرت أمهما سلافة بنت سعد بن شهيد إن أمكنها الله من رأس عاصم لتشربن الخمر في جمجمته، ولئن كانت هند قد شفت حقدها من سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في تلك المعركة بعد مصرعه برمح من وحشي، وكان من عبيد الأحباش في قريش إذ لاكت كبد البطل الخالد انتقامًا لمقتل أبيها وأخيها بسيفه في بدر، فإن سلافة لم تشف غليلها من عاصم، وذلك أن بني هذيل أرادوا أن يأخذوا رأسه ليبيعوها لها فحمله سيل عرم فلم يصلوا إلى جثته ولا عرفوا مسقط رأسه».

[**القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٩٩-١٠٠**].

ويقول ابن سيد الناس في كتابه «المقامات العلية في الكرامات الجلية»: «أعطى الله عهدًا أن لا يمس مشركًا».

وَعِنَايَةُ الرَّحْمَنِ تَعْصِمُ عَاصَمًا ... عن أن يُنَال براحه أو أصْبع

بالسيل بعد الدَّبْر من أعدائه في مصرعٍ أكرِمْ به من مَصْرَع

[المقامات العلية في الكرامات الجلية، لابن سيد الناس ص ٧٢ نقلًا عن فرسان النهار للعفاني ٣/ ٣١٨].

ويقول د/ الحميدي: «في أشعار عاصم بن ثابت ﷺ، التي ذكرها ابن إسحاق في روايته تظهر عزة الإسلام والقوة في تحدي أهل الباطل.

وما جرى له من حماية الدبابير ومنعها المشركين من الدنو من جثته، ثم مجيء السيل وحمل جسده ودفنه عبرة عظيمة، حيث كان هذا الصحابي نذر أن لا يمس جسده مشرك تنجُّسًا، وجاء في رواية الواقدي: أنه بعد أن قاتل القوم قال: **اللهم حميت دينك أول النهار فاحم لي لحمي آخره.**

فقد أكرم الله ﷻ هذا الولي الصالح فاستجاب دعاءه فلم يعبث المشركون بجسده، ولم تتمكن سلافة بنت سعد شُهيد من شفاء غيظها منه بشرب الخمر في قحف رأسه.

ولقد كانت هذه الكرامة آية أظهرها الله ـ تعالى ـ لأولئك الأعراب، حيث عجزوا عن الوصول إلى جسد عاصم ﷺ مرتين، ولئن قالوا: بأن الدبابير جاءت صُدفة، فكيف يقولون في السيل الذي جاء وما في السماء قطعة سحاب؟! وكيف يجتمع الأمران على سبيل الصدفة؟!

لقد كان فيما جرى لهم من عاصم ﷺ عبرة، لو اعتبروا بها لقادتهم إلى الإسلام، ولكفَّروا عن ذنبهم الكبير بإطلاق الأسرى الثلاثة واتخاذهم أئمة هدى يتعلمون الإسلام منهم، ولكنهم أصحاب هوى، والدين الذي يخضعون له هو مصالحهم الدنيوية، فقد قاموا بذلك العمل الشنيع من أجل أن يستأسر لهم أفراد السرية ثم يبيعونهم من قريش، ولقد حرصوا على أخذ رأس عاصم ﷺ لضخامة الجُعل الذي جعلته سلافة لمن يأتي لها برأسه، كما جاء في رواية الواقدي أنها جعلت لمن جاء برأس عاصم ﷺ مائة ناقة، وكان عاصم ﷺ قتل ابنيها الحارث ومسافعًا كما جاء في رواية الواقدي وكما سبق في غزوة أحد.

وهكذا تضيع الفضيلة وتُفقد الكرامة حينما تسيطر النظرة المادية على تفكير الإنسان، وإذا خلا قلبه من الإيمان بالله ـ تعالى ـ الذي يسمو بفكره نحو الحياة الآخرة فإن تفكيره يكون مقصورًا على الحياة الدنيا، من أجلها يحب ويبغض، ومن أجلها يوالي ويعادي، ويقسو قلبه ويتجبر ويتحجر حينما يغلب غيره ويكون في موطن القوة، ويضعف ويستخذي حينما يُغْلب ويكون تحت رحمة غيره».

[التاريخ الإسلامي للحميدي٦/ ٣٧-٣٨].

١٤ـ بين المعجزة والكرامة:

يقول د/ البوطي: «دلَّ ما ذكرناه من أمر خبيب ﷺ أيام كان أسيرًا في مكة أن كل ما أمكن أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، مع فارق أساسي لا بد منه، وهو أن معجزة النبي تكون مقرونة بالتحدي ودعوة النبي، أما كرامة الأولياء والصالحين فتأتي عفوًا دون أن تقترن بأي نوع من التحدي.

وهذا ما جرى عليه جمهور أهل السنة والجماعة، ولا أدل عليه من هذا الذي أكرم الله به خبيبًا ﷺ قبل القتل، وهو ثابت كما رأيت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره». [فقه السيرة للبوطي ٢٠١].

ويقول د/ فيض الله: «ولا شك أن هذا ـ كما قالت بنت الحارث ـ إكرام من الله لعبده الذي أُسر في أداء رسالته وإحسان منه، وتبشير له بمنزلته عنده، ومقامه المهيَّأ له في الدرجات الزُّلفَى يوم القيامة، إنه لإكرام عظيم، أن يأتيه رزقه عنبًا، ولا عنب في مكة، والأسير موثوق بقيود من حديد، مثَقَّلٌ بالأغلال.

ومن الحكمة واللطف أن يكرم الله عبده المجاهد في سبيله، بعد أن أُسر، وهو يرتقب الموت صابرًا محتسبًا؛ لأن في هذا الإكرام تثبيتًا لفؤاده، وتخفيفًا لأزمته وشدته، ودفعًا لدواعي الفتنة أن تتسرب إليه، فيحبط عمله، ويكون من الخاسرين.

وكرامات الأولياء ثابتة؛ وأهل التوحيد يَنُصُّون على أن كل ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون مثله كرامة لولي، سوى القرآن.

ولا فارق بين المعجزة وبين الكرامة إلا في التحدي ـ كما تقرر عندهم ـ.

وأهل الأصول يعتبرون كرامات الأولياء، من ضروب الرُّخص؛ لأن الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، وهذا من باب العزيمة؛ وتجيء الخوارق بعد ذلك أحوالًا واستثناءات، تجري على يد الولي، لا لِحَظٍّ في نفسه، بل لمعنى شرعي، وتجري من نفسها ولا يُجْريها من قِبَل نفسه.

وقد عقد الإمام الشاطبي ﷺ في آخر الجزء الأول من الموافقات فصلًا خاصًّا ممتعًا شيقًا لابتناء الكرامات على الرخص، وقرر أن من شرط الرخص ألا يقصدها ولا يتسبب فيها لينال تخفيفها، والأمر كذلك في الكرامات؛ لأن مخالفة هذا الشرط مخالفة لقصد الشرع.

وسرد ألوانًا من الكرامات التي حصلت لبعض الأولياء، وعقَّب على بعضها بمحاورة جرت بين أبي تراب النخشي، وبين أبي العباس الشرقي، إذ قال الأول للآخر: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يُكرم الله بها عباده؟ فقال الآخر: ما رأيت أحدًا إلا وهو يؤمن بها، فقال أبو تراب: من لا يؤمن بها فقد كفر؛ إنما سألتك من طريق الأحوال، فقال الآخر: ما أعرف لهم قولًا فيه، فقال الأول وهو أبو تراب: بل قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حال السكون إليها، فأما من لم يقترح ذلك ولم يساكنها، فتلك مرتبة الرَّبَّانيين.

وختم الإمام الشاطبي الحديث في هذا بقوله: «وهذا كله يدلك على ما تقدم، من كونها من حكم الرخصة، لا من حُكم العزيمة، فليُتَفَطَّن لهذا المعنى فيها، فإنه أصل ينبني عليه فيها مسائل: منها: أنها من جملة الأحكام المعارضة للقوم، والأحوال من حيث هي أحوال لا تُطْلب بالقصد، ولا تعد من المقامات،

ولا هي معدودة في النهايات، ولا هي دليل على أن صاحبها بالغ مبلغ التربية والهداية، والانتصاب للإفادة، كما أن الغنائم في الجهاد، لا تعد من مقاصد الجهاد الأصلية، ولا هي دليل على بلوغ النهاية».

وقصة خبيب ﷺ هذه التي علقنا عليها هذا التعليق، خير ما يصور نظرة أهل العلم ـ والإمام الشاطبي في المقدمة ـ إلى الكرامة.

وقد ثبتت كرامات الأولياء في صحاح الأحاديث، منها قصة الثلاثة الذين آواهم المطر إلى الغار، فاحتموا فيه، فسقطت الصخرة فسدت عليهم باب الغار، فدعوا الله بصالح أعمالهم، حتى تزحزحت، وانفتح لهم الباب فخرجوا.

ومنها قصة جريج الراهب، والغلام الرضيع الممهد الذي اتُّهم به أنه أبوه، فسأله جريج: من أبوك؟ فقال: أبي الراعي.

في الحديث الصحيح الطريف الذي ورد فيه أنه لم يتكلم في المهد إلا عيسى ﷺ، وشاهد يوسف ﷺ، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون. [رواه الحاكم].

والذي حدث لخبيب ﷺ ومن قبله لجريج وأصحاب الغار، كان من قبيل الكرامات، وما كان خبيب وجريج وأصحاب الغار إلا من الأولياء المتقين، الجديرين بإكرام الله، وهم في أحلك المحن، وأحوج ما يكونون إلى تثبيت اليقين، وبث البشرى من رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[يونس].

وبعد ورود النصوص الشرعية الثابتة، في الصحيحين وغيرهما، لا يُتصور من المؤمن السوي، أن يحاول أو يماري في ثبوت الكرامات؛ فهذا تأويل مَنْ كَفَّر منكرها». [صور وعبر لفيض الله ١٥٥-١٥٨].

وأخيرًا يقول ابن حجر: «قَوْلُهُ: (وَمَا كَانَ إِلَّا رِزْقٌ رَزَقَهُ اللهُ) فِي رِوَايَةِ اِبْنِ سَعْدٍ «**رَزَقَهُ اللهُ خُبَيْبًا**»، وَفِي رِوَايَةِ شُعَيْبٍ وَثَابِتٍ «تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنْ اللهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا».

قَالَ اِبْنُ بَطَّالٍ: هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اللهُ جَعَلَهُ آيَةً عَلَى الكُفَّارِ وَبُرْهَانًا لِنَبِيِّهِ لِتَصْحِيحِ رِسَالَتِهِ.

قَالَ: فَأَمَّا مَنْ يَدَّعِي وُقُوعَ ذَلِكَ لَهُ اليَوْمَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ الْمُسْلِمِينَ فَلَا وَجهَ لَهُ، إِذْ الْمُسْلِمُونَ قَدْ دَخَلُوا فِي الدِّينِ وَأَيْقَنُوا بِالنُّبُوَّةِ، فَأَيُّ مَعْنًى لِإِظْهَارِ الآيَةِ عِنْدَهُمْ؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي تَجْوِيزِ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَقُولَ جَاهِلٌ إِذَا جَازَ ظُهُورُ هَذِهِ الآيَاتِ عَلَى يَدِ غَيْرِ نَبِيٍّ فَكَيْفَ نُصَدِّقُهَا مِنْ نَبِيٍّ وَالفَرْضُ أَنَّ غَيْرَهُ يَأْتِي بِهَا لَكَانَ فِي إِنْكَارِ ذَلِكَ قَطْعًا لِلذَّرِيعَةِ،... إِلَى أَنْ قَالَ: إِلَّا أَنَّ وُقُوعَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَخْرِقُ عَادَةً وَلَا يَقْلِبُ عَيْنًا،

مِثْلَ أَنْ يُكَرِّمَ اللهُ عَبْدًا بِإِجَابَةِ دَعْوَةٍ فِي الحِينِ، وَنَحْو ذَلِكَ مِمَّا يَظْهَرُ فِيهِ فَضْلُ الفَاضِلِ وَكَرَامَةُ الوَلِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ حِمَايَةُ الله تَعَالَى عَاصِمًا لِئَلَّا يَنْتَهِكَ عَدُوُّهُ حُرْمَتَهُ. اِنْتَهَى.

وَالحَاصِلُ أَنَّ اِبْنَ بَطَّالٍ تَوَسَّطَ بَيْنَ مَنْ يُثْبِتُ الكَرَامَةَ وَمَنْ يَنْفِيهَا، فَجَعَلَ الَّذِي يُثْبِتُ مَا قَدْ تَجْرِي بِهِ العَادَةُ لِآحَادِ النَّاسِ أَحْيَانًا، وَالْمُمْتَنِعُ مَا يَقْلِبُ الأَعْيَانَ مَثَلًا، وَالمَشْهُورُ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ إِثْبَاتُ الكَرَامَاتِ مُطْلَقًا، لَكِنْ اِسْتَثْنَى بَعْضُ المُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ - كَأَبِي القَاسِمِ القُشَيْرِيِّ - مَا وَقَعَ بِهِ التَّحَدِّي لِبَعْضِ الأَنْبِيَاءِ فَقَالَ: وَلَا يَصِلُونَ إِلَى مِثْلِ إِيجَادِ وَلَدٍ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَنَحْو ذَلِكَ.

وَهَذَا أَعْدَلُ المَذَاهِبِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ إِجَابَةَ الدَّعْوَةِ فِي الحَالِ وَتَكْثِيرَ الطَّعَامِ وَالمَاءِ وَالمُكَاشَفَةَ بِمَا يَغِيبُ عَنْ العَيْنِ وَالإِخْبَارَ بِمَا سَيَأْتِي وَنَحْو ذَلِكَ قَدْ كَثُرَ جِدًّا حَتَّى صَارَ وُقُوعُ ذَلِكَ مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَى الصَّلَاحِ كَالعَادَةِ، فَانْحَصَرَ الخَارِقُ الآنَ فِيمَا قَالَهُ القُشَيْرِيُّ، وَتَعَيَّنَ تَقْيِيدُ قَوْلِ مَنْ أَطْلَقَ أَنَّ كُلَّ مُعْجِزَةٍ وُجِدَتْ لِنَبِيٍّ يَجُوزُ أَنْ تَقَعَ كَرَامَةً لِوَلِيٍّ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ الَّذِي اِسْتَقَرَّ عِنْدَ العَامَّةِ أَنَّ خَرْقَ العَادَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله تَعَالَى، وَهُوَ غَلَطٌ مِمَّنْ يَقُولُهُ، فَإِنَّ الخَارِقَ قَدْ يَظْهَرُ عَلَى يَدِ المُبْطِلِ مِنْ سَاحِرٍ وَكَاهِنٍ وَرَاهِبٍ، فَيَحْتَاجُ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى وِلَايَةِ أَوْلِيَاءِ الله تَعَالَى إِلَى فَارِقٍ، وَأَوْلَى مَا ذَكَرُوهُ أَنْ يُخْتَبَرَ حَالُ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِالأَوَامِرِ الشَّرْعِيَّةِ وَالنَّوَاهِي كَانَ ذَلِكَ عَلَامَةَ وِلَايَتِهِ، وَمَنْ لَا فَلَا، وَبِالله التَّوْفِيقُ».

[فتح الباري ٧/ ٤٤٣].

١٥ ـ الإسلام والتغيير العظيم في حياة الأفراد:

يقول د/ الشرباصي: «ما أعجب ما صنع الإسلام العظيم بالأوائل من المسلمين.

لكأنما قد خلقهم ربهم خلقًا جديدًا، بعد أن طهَّر حواسهم، وزكَّى نفوسهم، وقوَّم عقولهم، وعدَّل ميولهم، وأقامهم على الصراط المستقيم.

كانوا صرعى آثام ورذائل، فحلَّاهم بالمكارم والفضائل، وكانوا يطلبون اللذة عن طريق الجنس والخمر، فسما بهم إلى متعة الإيمان وروعة اليقين، وكانوا يتقاتلون على أتفه الأسباب، فأبدلهم بذلك شرف الجهاد في سبيل رب الأرباب، وبذلك صاروا خير أمة أخرجت للناس ـ كما قال القرآن المجيد ـ يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله، ولا يخضعون لأحد سواه.

وبذلك علَّموا أبناء الحياة كيف يترفعون عن سفاسف الأمور وحقائرها، وكيف يهيمون بالمعالي والمحامد، تحت ظلال القرآن الحكيم الذي قال فيه رب العزة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

وهذا واحد من مدرسة محمد ﷺ مرثد بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه، كان في جاهليته شابًّا منطلقًا مع هواه، يخادن المرأة، ويعرف طريق المتعة الحرام، فلما أشرق بنور الإيمان قلبه اعتدل واستقام، فكان مثلًا طيبًا لشباب الإسلام الذين قال القرآن الكريم في إخوة لهم من قبل: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾[الكهف]». [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ٢/ ٢٧٠-٢٧١].

ويقول ل/ خطاب: «وقد صدق مرثد رضي الله عنه ما عاهد الله عليه، فمضى شهيدًا في معركة غير متكافئة، تكاثر فيها عليه وعلى رجاله المشركون المتفوقون على أفراد سريته عَدَدًا وعُدَدًا، فقاتل حتى استشهد مُقبلًا غير مُدبر؛ لأنه يدافع عن عقيدته، فلا يبالي أن يُقتل أو يَقتل، ولكن يبالي أن يُلحق بعقيدته العار، فما قصر في إقدامه مدافعًا عن الإسلام والمسلمين، ففاز بالشهادة وربحت تجارته.

استشهد مرثد رضي الله عنه في ريعان الشباب، ولا نستطيع أن نتبين من سمات قيادته إلا أنه كان قائدًا من قادة العقيدة، داعيًا في قيادته، وقائدًا في دعوته، قوي البدن، يتحمل المشاق، ويصبر على المصاعب، يتحلى بالضبط المتين، والطاعة المطلقة، شجاعًا مقدامًا، لا يخشى الموت، ويُقَدِّم حياته فداءً لعقيدته».

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٢٣٨، ٢٤٠].

١٦- كرامة لِمَرْثَدِ بن أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيِّ رضي الله عنه زميل النبي ﷺ في البعير يوم بدر:

قال الشيخ الصوياني: «رجل شديد البأس، قويُّ البنية، جسور لا يهاب الموت، يعشق الشهادة، كان ﷺ يبعثه إلى أعماق قريش، يتغلغل فيها، لا ليقتل، بل لينقذ، ليخلص بعض أولئك المستضعفين في مكة الذي أبقاهم ذووهم في مكة، وقهروهم ومنعوهم من الهجرة، فكانت تلك المهمات.

وكان لمرثد رضي الله عنه صديقة في مكة، ينزل عليها سرًّا، كان يحبها وتحبه وتحفظ سره وعلاقته بها، اسمها: (عناق)، لكن أمرًا حدث في المدينة أثار غضب تلك الحسناء، فخانت مرثد ونادت قريشًا لكي يحاصروه ويقبضوا عليه، فماذا حدث لمرثد بن أبي مرثد رضي الله عنه.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ، [وَكَانَ رَجُلًا شَدِيدًا]، وَكَانَ رَجُلًا يَحْمِلُ الأَسْرَى مِنْ مَكَّةَ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمُ المَدِينَةَ، قَالَ: وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقٌ وَكَانَتْ صَدِيقَةً لَهُ، وَإِنَّهُ كَانَ وَعَدَ رَجُلًا مِنْ أُسَارَى مَكَّةَ يَحْمِلُهُ، قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى ظِلِّ حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، قَالَ: فَجَاءَتْ عَنَاقٌ فَأَبْصَرَتْ سَوَادَ ظِلِّي بِجَنْبِ الحَائِطِ فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيَّ عَرَفَتْ، فَقَالَتْ: [مَنْ هَذَا] مَرْثَدٌ؟ فَقُلْتُ: مَرْثَدٌ، فَقَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا [يَا مَرْثَدُ]، هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ [انْطَلِقِ اللَّيْلَةَ فَبِتْ عِنْدَنَا فِي الرَّحْلِ]، قَالَ: قُلْتُ: يَا عَنَاقُ حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا، قَالَتْ: يَا أَهْلَ الخِيَامِ، هَذَا

الرَّجُلُ [الدُّلْدُلُ] يَحْمِلُ أُسَرَاءَكُمْ [مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ]، قَالَ: فَتبِعَنِي ثَمَانِيَةٌ، وَسَلَكْتُ الخَنْدَمَةَ (جبل عند أحد مداخل مكة)، فَانْتَهَيْتُ إِلَى كَهْفٍ أَوْ غَارٍ فَدَخَلْتُ، فَجَاؤُوا حَتَّى قَامُوا عَلَى رَأْسِي، فَبَالُوا فَظَلَّ [فَطَارَ] بَوْلُهُمْ عَلَى رَأْسِي، وَعَمَّاهُمُ اللهُ عَنِّي، قَالَ: ثُمَّ رَجَعُوا وَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَحَمَلْتُهُ، وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الإِذْخِرِ [الْأَرَاكِ]، فَفَكَكْتُ عَنْهُ أَكْبُلَهُ [كَبْلَهُ]، فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَيُعْيِينِي حَتَّى قَدِمْتُ المَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْكِحُ عَنَاقًا؟ فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا مَرْثَدُ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، فَلَا تَنْكِحْهَا**» [فَدَعَانِي، فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ: «لَا تَنْكِحْهَا»]. [**النسائي في النكاح (٣٢٢٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٧٧)، واللفظ له والزوائد للنسائي، وقال الشيخ الألباني: حسن الإسناد**].

لأنها تحترف الزنا وتصرُّ عليه، أما إذا تابت الزانية وتاب الزاني، وباب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة، فيجوز عند ذلك، أما إذا لم يتوبوا فهم أمراض متنقلة، تنخر الأجساد والمجتمعات.

إذًا فهناك رجال يمكن الاعتماد عليهم للقيام بمهام خطيرة ودقيقة، والنبي ﷺ لم يتردد في بثهم هنا وهناك، فالمدينة في خطر، والدعوة إلى التوحيد تحتاج إلى دولة قوية وذكية لنشرها، كان لمرثد دور، وكان لعبد الله بن أنيس دور آخر، وللذين داخل المدينة أدوار يؤدونها تحت قيادة هذا النبي الحكيم ﷺ».

[**السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٢٩٠-٢٩٣**].

١٧ ـ المسلم إذا خشي الأسر له أن يقاتل أو يستأسر:

الاستئسار: تسليم الجندي نفسه للأسر. [**ينظر: آثار الحرب ـ د/ وهبة الزحيلي ص٤٣٩**].

يقول د/ العيساوي: «إذا طُوِّق الجنود من قبل العدو وعلموا أن لا طاقة لهم به ولا نجاة لهم إلا بأسر فهل لهم الدفاع عن أنفسهم حتى الموت أو تسليم أنفسهم للعدو؟

والقاعدة العامة: أنه لا يجوز الاستسلام لكافر، ولكن يجيز الإسلام لمثل هؤلاء الجنود في تلك الحالة، إما أن يدافعوا عن أنفسهم حتى الموت، وإما أن يسلموا أنفسهم للعدو إذا لم يمكنهم الهرب بشرط أن يعلموا أنهم بعد الأسر لا يُقتلون. [**آثار الحرب للزحيلي ص٤٣٩**].

وعلى ذلك نص الفقهاء، فقال الشافعية: إن جوز المكلف الأسر والقتل فله أن يدفع عن نفسه وأن يستسلم؛ لأن المكافحة حينئذ استعجال للقتل، والأسر يحتمل الخلاص، هذا إن علم أنه إن امتنع من الاستسلام قُتل، وإلا امتنع عليه الاستسلام.

[**ينظر: مغني المحتاج للشربيني ٤/ ١٢٩، تحفة المحتاج بشرح المنهاج لابن حجر الهيثمي ٨/ ٢٧**].

وقال الحنابلة: وإذا خشي المسلم فالأولى له أن يُقاتِل حتى يُقتل، ولا يسلم نفسه للأسر؛ لأنه يفوز بثواب الدرجة الرفيعة، ويسلم من تحكم الكفار عليه بالتعذيب والاستخدام والفتنة، وإن استأسر جاز.
[المغني لابن قدامة ٨/ ٤٥٨، وكشاف القناع على متن الإقناع للبهوتي ٣/ ٣٦].

وقال المالكية: حمل رجل أحاط به العدو على جيشه خوف الأسر خفيف.

وقال ابن رشد: وله أن يستأسر اتفاقًا. [التاج والإكليل للمواق ٣/ ٣٥٧].

وعن الحسن قال: لا بأس أن يستأسر الرجل إذا خاف أن يُغلب.[شرح صحيح البخاري للعيني ٤/ ٢٩٤].

والدليل على جواز الاستئسار عمومًا حادثة سرية الرجيع.

فقد استدل بها المحدثون على أنه يجوز لمن لم يقدر على المدافعة ولا أمكنه الهرب أن يستأسر، بدليل صنيع الثلاثة الذين نزلوا على عهد هذيل وميثاقها.
[نيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٨٢، آثار الحرب للزحيلي ص٤٤٢].

وترجم البخاري على هذا الحديث «باب: هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر؟».
[البخاري بشرح الكرماني ١٣/ ٤٣، باب ٢٨٣٨].

ووجه الاستدلال بذلك أنه لم يُنقل أن النبي ﷺ أنكر ما وقع من الثلاثة المذكورين من الدخول تحت أسر الكفار، ولم ينكر ما وقع من السبعة المقتولين لإصرارهم على الامتناع من الأسر.
[آثار الحرب للزحيلي ص٤٤٣].

ولو كان ما وقع من إحدى الطائفتين غير جائز لأخبر ﷺ أصحابه بعدم جوازه وأنكره، فدلَّ تركُ الإنكار على أنه يجوز لمن لا طاقة له بعدو أن يمتنع من الأسر، وأن يستأسر[نيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٨٢]، فمن قُتل منهم أخذ بالعزيمة، ومن استأسر أخذ بالرخصة، وكلهم محمود غير مذموم ولا ملوم، فدل ذلك على جواز الدفاع حتى الموت، أو طلب اعتبارهم أسرى حرب. [آثار الحرب للزحيلي ص٤٤٣].
[فقه السرايا للعيساوي ١٢٢-١٢٤].

١٨ ـ للأسير قبول الأمان:

يقول د/ البوطي: «يُستدل مما سبق أن للأسير في يد العدو أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكِّن من نفسه ولو قُتل، ترفعًا عن أن يجري عليه حكم كافر، كما فعل عاصم رضي الله عنه.

فإن أراد الترخص، فله أن يستأمن، مترقبًا الفرصة مؤملًا الخلاص كما فعل خبيب وزيد رضي الله عنهما.

ولكن لو قَدر الأسير على الهرب لزمه ذلك في الأصح، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم؛ لأن الأسير في يد الكفار مقهور مهان، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه من هوان الأسر ورقه».
[فقه السيرة للبوطي ٢٠٠].

ويقول أ/ حوى: «إن من حق المسلم ألا يستأسر للسلطة الكافرة سواء كانت كافرة كفرًا أصليًّا أو عارضًا إذا كان الطلب بظلم، بل من حق المسلم ألا يستأسر وأن يقاتل إذا كان الطلب من ظالم بظلم، وهذا الذي فعله الحسين رضي الله عنه.

وهذا يفتح أمام الحركات الإسلامية بابًا واسعًا في التعامل مع الأحداث، فمن حق أبناء هذه الحركة أن يستأسروا إذا طلبوا مظلومين، ومن حقهم أن يقاتلوا حتى الموت ما دام الطالب لا يطلبهم بعدل، وما دامت السلطة غير إسلامية». [**الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٢٢**].

١٩ـ مَنْ هو قاتل الحارث بن عامر؟:

قال الصالحي: «وقع في الصحيح في حديث: (وَكَانَ خُبَيْبٌ رضي الله عنه هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ [بن عامر] يَوْمَ بَدْرٍ). [**البخاري في المغازي (٤٠٨٦)**].

واعتمد على ذلك البخاري، فذكر خبيب بن عدي رضي الله عنه فيمن شهد بدرًا.

[**البخاري في المغازي باب تسمية من سمي من أهل بدر تعليقًا**].

قال في الفتح: وهو اعتماد متجه.

وتعقب الحافظ أبو محمد الدمياطي، وتبعه في العيون [**عيون الأثر ١/ ٤٢٦**] بأن أهل المغازي لم يذكر أحد منهم أن خبيب بن عدي رضي الله عنه ممن شهد بدرًا ولا قتل الحارث بن عامر، إنما ذكروا أن الذي قتل الحارث بن عامر ببدر هو خبيب بن إساف، وهو غير خبيب بن عدي وهو خزرجي، وخبيب بن عدي أوسي.

قال الحافظ: (ويلزم من الذي قال ذلك رد هذا الحديث الصحيح، فلو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث بن عامر، ما كان لاعتناء آل الحارث بن عامر بأسر خبيب معنى، ولا بقتله مع التصريح في الحديث الصحيح أنهم قتلوه به، ولكن يحتمل أن يكونوا قتلوا خبيب بن عدي لكون خبيب بن إساف ـ بهمزة مكسورة وقد تبدل تحتية وبسين مهملة ـ قتل الحارث بن عامر، على عادتهم في الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض، ويحتمل أن يكون خبيب بن عدي شرك في قتل الحارث. والعلم عند الله).

[**سبل الهدى والرشاد لصالحي ٦/ ٧٥**].

ويطيل الشيخ عرجون النفس في رد قول ابن حجر تحت عنوان «**ذِكر خبيب بن عدي** رضي الله عنه **فيمن شهد بدرًا لم يعرفه أحد من أهل المغازي**» فيقول: «في بحث سرية (الرجيع) إشكال غير مدفوع إلا بتعسف التأويل المتعصب للأسانيد، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في (الفتح) وهو يتكلم على قول أبي هريرة رضي الله عنه في حديثه عند البخاري: وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، واعتمد البخاري على ذلك، فذكر

خبيب بن عدي فيمن شهد بدرًا، وهو اعتماد متجه، لكن تعقبه الدمياطي ـ شرف الدين، عبد المؤمن بن خلف، أحد الأعلام الأفذاذ في القرن السابع ـ فقال: إن أهل المغازي لم يذكر أحد منهم أن خبيب بن عدي ﷺ شهد بدرًا، ولا هو قتل الحارث بن عامر، وإنما ذكروا أن الذي قتل الحارث بن عامر ببدر هو خبيب بن إساف هو غير خبيب بن عدي، وخبيب بن إساف أنصاري خزرجي، وخبيب بن عدي أنصاري أوسي.

قال ابن حجر يجيب عن هذا الاعتراض القوي الذي لم ينكره أحد من الباحثين في القديم ولا في الحديث: قلت ـ أي ابن حجر ـ يلزم من كلام الذي قال ذلك رد هذا الحديث الصحيح ـ وما في ذلك؟ وصحة الحديث هنا ترتبط بصحة السند، وقد عارضها إجماع أولي الشأن من علماء المغازي بأن متن هذا الحديث غير صحيح تاريخيًّا، وقاعدتهم المتفق عليها أن صحة السند لا تستلزم صحة المتن، فرد الحديث الصحيح سندًا لما عارضه من ضعف أو وهم في المتن لا يهدم شيئًا استقام بناؤه.

ثم قال ابن حجر مشيِّدًا لكلامه: فلو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث بن عامر ما كان لاعتناء بني الحارث بن عامر بأسر خبيب معنى، ولا بقتله مع التصريح في الحديث الصحيح ـ سندًا ـ أنهم قتلوه به.

ثم نكص الحافظ على عقبيه متراجعًا بما يهدم إجابته، فقال: لكن يحتمل أنهم قتلوه ـ أي خبيب بن عدي ـ لكون خبيث بن إساف قتل الحارث على عادتهم في الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض، ويحتمل أن يكون خبيب بن عدي شرك في قتل الحارث.

مناقشة ابن حجر في انتصاره لصحة السند مع ضعف المتن:

هذا كلام ابن حجر، أما النظر فيه فمن وجوه:

أولًا: إن صحة البخاري الذي اعتمد عليه في ذكر خبيب بن عدي ﷺ فيمن شهد بدرًا لا تتلاقى مع كلام الدمياطي الذي جزم بأن أهل المغازي لم يذكر أحد منهم أن خبيب بن عدي ﷺ شهد بدرًا، وهذا حكاية عن ثقة إمام لإجماع أهل هذا الشأن بأن خبيب بن عدي ﷺ لم يذكره أحد من أهل المغازي فيمن شهد بدرًا، وهذا لا ينافي صحة هذا الحديث سندًا، والحديث ليس فيه نص على خبيب بن عدي، بل ذكر خبيب غير منسوب، فاحتمال أنه خبيب بن إساف قائم لم يُدفع، فلا وجه لاعتماد البخاري على هذا النص الخالي من نسبة خبيب لعد خبيب بن عدي فيمن شهد بدرًا، وحينئذ فلا وجه مطلقًا لقول الحافظ ابن حجر: وهو اعتماد متجه، ومن المعروف عند أهل الحديث أن صحة السند لا يلزمها صحة المتن، فالحديث صحيح سندًا ولا دلالة في متنه على ما اعتمد عليه البخاري، فلعل متن الحديث دخله الوهم ففسر بما لا دلالة له عليه، ولا سيما مع اتحاد الاسم، وأما أسر خبيب بن عدي فلما قيل إنه هو الذي قتل

الحارث بن عامر، والنص لا يمنع منه، ولكن كلام الدمياطي صريح في رد هـذا التفسـير، لا في رد صـحة الحديث سندًا ـ إذ لم يتعرض الدمياطي لذلك قط.

ثانيًا: إن قول الحافظ ابن حجر: فلو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث بن عامر ما كان لاعتناء أبناء الحارث بن عامر بأسر خبيب معنى ولا بقتله.

هذا فرض لا وزن له في الرد على اعتراض الدمياطي؛ لأن أبناء الحـارث بـن عـامر جـاءتهم هـذيل بخبيب بن عدي أسيرًا، وكان أبوهم الحارث بن عامر قد قتله المسلمون في بدر، وشاع عـلى الألسـنة أن الذي قتله خبيب الأنصاري، والأنصار كان فيهم رجلان كلاهما يسمى خبيبًا، وأحدهما هو الذي قتـل الحارث قطعًا، فهل من المعقول المتعارف في عادات العرب وأعرافهم الجاهلية في أخذ الثأر أن لا يعتنـي أبناء الحارث بن عامر بخبيب هذا الذي جاءتهم به هذيل أسيرًا؟ ثم يجادلون في أنه هو الذي قتل أبـاهم أو آخر مسمى باسمه، ثم يردون هذا الذي أصبح في أيديهم يأخذون بـه ثـأرهم مـن المسـلمين، سـواء أكان هو الذي قتل أباهم أو سَمِيَّه وهما أنصاريان، هـذا بعيـد جـدًّا عـن المتعـارف في عـادات العـرب وأخذهم الثأر حيث أمكنهم من القبيلة.

على أن هذا الوجه في كلام ابن حجر للرد على اعتراض الدمياطي بعيد جدًّا عـن سَـمْت الكـلام الذي كان محوره صحة الحديث واعتماد البخاري في ذكره خبيب بن عدي ﷺ فيمن شهد بدرًا.

ويؤكد هذا من قولنا قول ابن حجر نفسه: لكن يحتمل أن يكون قتلهم لخبيـب بـن عـدي لكـون خبيب بن إساف قتل الحارث بن عامر على عادتهم في الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض، أي أنهم قتلوا خبيب بن عدي بخبيب بن إساف الذي قتل أباهم الحارث بن عامر، والخبيبان أنصاريان يسـد أحدهما في أخذ الثأر عن صاحبه، فقتلوا من تمكنوا من قتله على عادة الجاهلية.

ومما بَعُد جدًّا عن مَهْيع الكلام وسننه وفارق معالم البحث قـول ابـن حجـر: ويحتمـل أن يكـون خبيب بن عدي شَرَكَ في قتل الحارث بن عـامر؛ لأن هـذا الاحـتمال لا يـدخل في صـميم الكـلام ولا في حواشيه، ولا يتعلق بأهدابه وشواشـيه، ولا نـدري كيـف سـاغ للحـافظ ابـن حجـر ذكـره؟ إن القضـية الأصلية في اعتراض الدمياطي هي أن خبيب بن عدي لم يشهد بدرًا بإجماع أهل المغـازي، فكيـف تتحقـق مشاركته في قتل الحارث بن عامر الذي قُتل في بدر بإجماع مؤرخي السيرة والمغازي؟ والمشـاركة في قتلـه لا تثبت إلا إذا ثبت بنص تاريخي صحيح أن خبيب بن عدي ﷺ شهد بدرًا، وهذا هو موضع النزاع».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٥٣-٥٦].

٢٠ ـ تعظيم سنة النبي ﷺ:

يقول أ/ فريد: «وفي الحديث تعظيم الصحابة لسنة النبي ﷺ، وكيف أن خُبيبًا ﵁ مع أنه في أسر المشركين، ويعلم أنه سيُقتل بين عشية أو ضحاها، ومع ذلك كان حريصًا على سنة الاستحداد، واستعار الموسى لذلك، وفى هذا واعظ لمن يستهين بكثير من السنن، بل وكثير من الواجبات بحجة أن لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظروف التي تمر بها الأمة، وفى الواقع لا منافاة بين تعظيم السنة والدخول في شرائع الإسلام كافة، والسعي لإقامة شرع الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠]، وقال ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ⑦﴾ [محمد ﷺ].

ونصر الله ﷻ هو نصر دينه والعمل بشرعه، والله المستعان. **[وقفات تربوية مع السيرة النبوية لفريد ٢١٦]**.

٢١ ـ سنة الاستحداد:

يقول د/ القرشي: «استدل العلماء من فعل خُبيب ﵁ من الاستحداد، واستعارة الموسى لذلك، على استيثار الاستحداد لمن أُسِرَ ولم يُقتَل، والتنظيف لمن يصنع بعد القتل لئلا يطلع منه على قبح عورة.

[عمدة القاري ١٤/ ٤٠٧].

والاستحداد من سنن الفطرة، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ: «**الْفِطْرَةُ خَمْسٌ أَوْ خَمْسٌ مِنْ الْفِطْرَةِ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ**».

[البخاري في اللباس (٥٨٨٩)، وفي الاستئذان (٦٢٩٧)، ومسلم في الطهارة (٢٥٧)].

قال الإمام أحمد: والاستحداد، حَلقُ العَانَةِ (الشعر النابت في أسفل البطن حول ذكر الرجل، وقبل المرأة، وفوقهما. القاموس الفقهي ٢٦٨، معجم لغة الفقهاء ٣٠٢، نيل الأوطار ١/ ٣٤٧)، وهو مستحب؛ لأنه من الفطرة، ويفحش بتركه، فاستحبت إزالته، وبأي شيء أزاله صاحبه فلا بأس لأن المقصود إزالته. [المغنى ١/ ١٠٠].

قال الإمام النووي: وقد ثبت عن أنس ﵁ قال: «وُقِّتَ لَنَا فِي قَصِّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفِ الْإِبِطِ، وَحَلْقِ الْعَانَةِ أَنْ لَا نَتْرُكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً». **[مسلم في الطهارة (٢٥٨)]**.

ومعنى الحديث أنهم لا يؤخرون فعل هذه الأشياء، فإن أخروها فلا يأخرونها أكثر من أربعين ليلة، وليس معناه الأذن في التأخير أربعين مطلقًا، وقد نص الشافعي والأصحاب رحمهم الله: على أنه يستحب تقليم الأظافر والأخذ من هذه الشعور يوم الجمعة، والله أعلم. **[المنهاج شرح مسلم ص٢٦٩، المجموع ١/ ٣٣٩]**.

[مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٢١-١٢٢].

٢٢ ـ الترفع عن الأخلاق الذميمة:

يقول د/ الحميدي: «جرى لخبيب بن عدي ﷺ وهو في محبسه مواقف وعبر، فمن ذلك خبره مع بُنيٍّ المرأة التي كان محبوسًا عندها حينما فزعت لما رأته معه والموسى بيده فقال: «**أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟! مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكِ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، وجاء في رواية الواقدي: «**مَا كُنْتُ لِأَقْتُلَهُ، وَمَا نَسْتَحِلُّ فِي دِينِنَا الْغَدْرَ**».

وهذا مثل من عظمة الصحابة ﷺ حيث يطبقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم وإن كانوا قد ظلموهم، وهذا دليل على وعيهم وكمال إيمانهم». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٣٨**].

٢٣ ـ إغاظة الأعداء بالتجمل بالصبر على غدرهم:

يقول د/ الحميدي: «ومن ذلك تجمُّل خبيب ﷺ بالصبر وعدم إشفاقه من القتل، وفي ذلك تقول ماوية مولاة بني عبد مناف التي كان محبوسًا عندها: «فَقُلْتُ لَهُ: يَا خُبَيْبُ، هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: **لَا، إِلَّا أَنْ تَسْقِيَنِي الْعَذْبَ، وَلَا تُطْعِمِينِي مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَتُخْبِرِينِي إِذَا أَرَادُوا قَتْلِي**، قَالَتْ: فَلَمَّا انْسَلَخَتْ الْأَشْهُرُ الحُرُمُ، وَأَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَوَ اللهِ مَا رَأَيْتُهُ اكْتَرَثَ لِذَلِكَ»، ذكره الواقدي في روايته، وذكر أن ماوية هذه قد أسلمت فيما بعد وحسن إسلامها.

ومن جلَده وصبره طلبه أن يدعوه يركع ركعتين، فكان أول مَنْ سَنَّ الركعتين عند القتل، وكذلك ما أنشده من الشعر السابق ذكره.

ولا شك أن هذا الجَلَد القوي والصبر الجميل يغيظ الأعداء؛ ويُضعف من مفعول كيدهم.

وهذا موقف يُذكر له ﷺ حيث كانت الصلاة هي آخر عمل قدمه قبل موته.

وجاء في رواية الواقدي أنهم ساوموه ليرجع عن دينه فأبى عليهم، وفي ذلك يقول فيما يرويه عن شيوخه: قَالُوا: فَلَمَّا صَلَّى الرَّكْعَتَيْنِ حَمَلُوهُ إِلَى الْخَشَبَةِ، ثُمَّ وَجَّهُوهُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَوْثَقُوهُ رِبَاطًا، ثُمَّ قَالُوا: **ارْجِعْ عَنْ الْإِسْلَامِ، نُخْلِ سَبِيلَك!** قَالَ: **لَا وَاَللهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي رَجَعْت عَنْ الْإِسْلَامِ وَأَنَّ لِي مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا!**
[**المغازي للواقدي ١/ ٣٦٠**].

وهذا مشهد من مشاهد الإيمان والفداء، حيث تعلو النفس الزكية عن الاستجابة لرغبات الأجسام، فتضرب الأمثلة الحية للموازين العادلة والمفاهيم العالية، فما في الأرض جميعًا من متاع لا يساوي شيئًا في جانب الهداية إلى الصراط المستقيم، والبقاء على قيد الحياة مطلب رخيص إذا قورن بالثبات على الإيمان والاستشهاد في سبيله، وقد جاء هذا المعنى في كلام خبيب كما في رواية الواقدي «فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: **ارْجِعْ يَا خُبَيْبُ!** قال: **لَا أَرْجِعُ أَبَدًا!** قَالُوا: **أَمَا وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، لَئِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَنَقْتُلَنَّكَ!** فَقَالَ: **إِنَّ قَتْلِي فِي اللهِ لَقَلِيلٌ!**».

وجاء في إحدى روايات البخاري: أن خبيبًا ﷺ لما قُتل مكث ساعة يوحد الله ويشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ، ثم ذكر الراوي قول الأخنس بن شريق: **لو تُرك ذكر محمد على حال لتركه على هذه الحال، وما رأينا قط والدًا يَجدُ بولد ما يجد أصحاب محمد بمحمد ﷺ**.

ومن ذلك ما أكرمه الله ـ تعالى ـ به من العنب الذي وصل إليه وهو موثق ولم يكن بمكة آنذاك شيء من العنب، وهذه الكرامة ساقها الله ـ تعالى ـ إليه ليثبته ولتعظم طمأنينته بأن الله ـ تعالى ـ معه وأنه قد رضي عنه، فإن شاء جل وعلا له الحياة فسينالها رغم ما هو فيه من حبس وقيود، وإن شاء أن يتخذه شهيدًا فهذا غاية ما يتمناه المؤمن الصادق.

ولقد كان في إشاعة هذا الخبر بين المشركين آية تهديهم إلى الإيمان بهذا الدين الذي كان سببًا في ظهور تلك الكرامة الخارقة للعادة على يد خبيب ﷺ، ولكنهم لم يكونوا متجردين من الهوى، ومن كان منهم قد تأثر بهذا العبرة وأمثالها فإنه لا يستطيع أن يظهر مشاعره خشيةً من زعماء الكفار».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٣٨–٤٠].

٢٤ ـ وداع الحياة بالأعمال الصالحة:

يقول د/ فيض الله: «قد ذكرنا في قصة خبيب ﷺ أنه صلى ركعتين قبل أن يُصْلَب، فأتَمَّهما وأحسنهما، ولولا أنه خشي أن يظن المشركون أنه طوَّل جزعًا من الموت، لاستكثر من الصلاة.

ولم يُنْكَر عليه ذلك، فربما يكون أول من صلى قبل أن يقتل.

وإن الاتجاه إلى الله في مثل هذه الساعات الرهيبة، والوقوف بين يديه، في هيئة المناجاة، ومظهر العبودية السامي، في رضًا عميق، وتسليم مطلق، وخشوع تام، يجلبهما الثناء الجميل، والركوع والسجود، له مضمونه ودلالته الكافية، على تغلغل الإيمان في قلب الأسير، ورسوخ اليقين في ضميره.

ولا شك أن أفضل الأعمال الصلاة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**». [مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (٩١٦٥). وقد أورده الهيثمي في المجمع رقم ٢٧٧١ بلفظ: عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ إِذَا كَانَ سَاجِدًا». وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والبزار، وفيه مروان بن سالم، وهو ضعيف منكر الحديث].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ**».

[أورده الهيثمي في المجمع رقم ٣٥٠٥، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد المنعم بن بشير وهو ضعيف].

ولا أدل على تفاني العبد في مولاه ـ بعد الجهاد ـ من الصلاة؛ فليُقبِل الأسير المقتول على ربه نقيًّا مصلِّيًا، فما في الدنيا ـ بالنسبة إلى حاله ـ موقف يفرغ فيه الطاعة والعبودية لله، مثل الصلاة.

إنها راحة النفس، وراحة الحياة، وقرة العين، وأنس المؤمن بربه، فلا ضَيْر على خبيب ﷺ أن جعل آخر عهده بالدنيا، وقد دنا من الموت، أو دنا منه الموت، أن يصلي ركعتين، يودع فيهما كل ما يحمل بين جنبيه، من يقين وإيمان، وانقياد وإذعان، ورضا وتسليم لأمر رب العالمين». [صور وعبر لفيض الله ١٥٨-١٥٩].

٢٥ ـ سنة الركعتين عند القتل:

قال الصالحي: «قال أبو هريرة ﷺ كما في الصحيح: «**فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ القَتْلِ هُوَ**»، وجزم بذلك خلائق لا يحصون، وقدمه في الإشارة [لمغلطاي] ثم قال: وقيل أسامة بن زيد ﷺ حين أراد المكري الغدر به، قلت: كذا في نسختين من الإشارة: أسامة، وصوابه زيد بن حارثة والد أسامة ﷺ كما في الروض». [سبل الهدى والرشاد ٦/ ٧٦].

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: «كَانَ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ ﷺ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ القَتْلِ لِلمُسْلِمِينَ.

وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا سُنَّةٌ جَارِيَةٌ، وَكَذَلِكَ فَعَلَهُمَا حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ الأَدْبَرِ حِينَ قَتَلَهُ مُعَاوِيَةُ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ وَذَلِكَ أَنَّ زِيَادًا كَتَبَ مِنْ البَصْرَةِ إِلَى مُعَاوِيَةَ يَذْكُرُ أَنَّ حُجْرًا وَأَصْحَابَهُ قَدْ خَرَجُوا عَلَى السُّلطَانِ، وَشَقُّوا عَصَا المُسْلِمِينَ، وَوَجَّهَ مَعَ الكِتَابِ صَكًّا فِيهِ شَهَادَةُ سَبْعِينَ رَجُلًا فِيهِمْ الحَسَنُ بْنُ أَبِي الحَسَنِ البَصْرِيُّ، وَابْنُ سِيرِينَ، وَالرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ عِلْيَةِ التَّابِعِينَ ذَكَرَهُمْ الطَّبَرِيُّ [تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٩ وما بعدها] يَشْهَدُونَ بِمَا قَالَ زِيَادٌ مِنْ خُرُوجِ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ عَلَيْهِ، وَكَانَ حُجْرُ شَدِيدَ الإِنْكَارِ لِلظُّلمِ غَلِيظًا عَلَى الأُمَرَاءِ، وَأَنْكَرَ عَلَى زِيَادٍ أُمُورًا مِنْ الظُّلمِ فَخَرَجَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ الخُرُوجَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَـمَّا حُمِلَ حُجْرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ فِي خَمْسَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ لَهُ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: أَوَأَنَا لِلمُؤْمِنَيْنِ أَمِيرٌ؟ ثُمَّ أَمَرَ بِقَتْلِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ صَلَّى حُجْرُ الرَّكْعَتَيْنِ، ثُمَّ لَقِيَ مُعَاوِيَةُ عَائِشَةَ بِالمَدِينَةِ فَقَالَتْ: **أَمَا اتَّقَيْتَ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي حُجْر بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ؟** فَقَالَ: **أَوْ أَنَا قَتَلتُهُمْ! إِنَّمَا قَتَلَهُمْ مَنْ شَهِدَ عَلَيْهِمْ**، فَلَـمَّا أَكْثَرْت عَلَيْهِ قَالَ لَهَا: **دَعِينِي وَحُجْرًا فَإِنِّي مُلَاقِيهِ غَدًا عَلَى الجَادَّةِ**، قَالَتْ: **فَأَيْنَ عَزَبَ عَنْكَ حِلمُ أَبِي سُفْيَانَ؟** فَقَالَ: **حِينَ غَابَ عَنِّي مِثْلُكِ مِنْ قَوْمِي**.

لِمَ صَارَتْ صَلاةُ خُبَيْبٍ ﷺ سُنَّةً؟: وَإِنَّمَا صَارَ فِعْلُ خُبَيْبٍ سُنَّةً حَسَنَةً، وَالسُّنَّةُ إِنَّمَا هِيَ أَقْوَالٌ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالٌ وَإِقْرَارٌ؛ لِأَنَّهُ فَعَلَهَا فِي حَيَاتِهِ ﷺ فَاسْتَحْسَنَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ، وَاسْتَحْسَنَهُ المُسْلِمُونَ، مَعَ أَنَّ الصَّلَاةَ خَيْرُ مَا خُتِمَ بِهِ عَمَلُ العَبْدِ.

وَقَدْ صَلَّى هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ أَيْضًا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ ﷺ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ ابْنِ طَاهِرِ بْنِ ظَاهِرٍ الإِشْبِيلِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الغَسَّانِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عُمَرَ العُمَرِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الوَارِثِ بْنُ سُفْيَانَ بْنِ جَبْرُونٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ قَاسِمُ بْنُ أَصْبَغَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ، أَخْبَرَنَا ابْنُ مَعِينٍ أَخْبَرَنَا، قَالَ: أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُكَيْرٍ المِصْرِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ اكْتَرَى مِنْ رَجُلٍ بَغْلًا مِنْ الطَّائِفِ اشْتَرَطَ عَلَيْهِ الكَرِيُّ أَنْ يُنْزِلَهُ حَيْثُ شَاءَ، قَالَ: فَمَالَ بِهِ إِلَى خَرِبَةٍ، فَقَالَ لَهُ: انْزِل، فَنَزَلَ فَإِذَا فِي الخَرِبَةِ قَتْلَى كَثِيرَةٌ، قَالَ: فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ، قَالَ: دَعْنِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، قَالَ: صَلِّ، فَقَدْ صَلَّى قَبْلَكَ هَؤُلَاءِ، فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ صَلَاتُهُمْ شَيْئًا، قَالَ: فَلَمَّا صَلَّيْتُ أَتَانِي لِيَقْتُلَنِي، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، قَالَ: فَسَمِعَ صَوْتًا: لَا تَقْتُلْهُ، قَالَ: فَهَابَ ذَلِكَ فَخَرَجَ يَطْلُبُ أَحَدًا، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَرَجَعَ إِلَيَّ، فَنَادَيْتُ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثلاثًا، فَإِذَا أَنَا بِفَارِسٍ بِيَدِهِ حَرْبَةُ حَدِيدٍ فِي رَأْسِهَا شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ فَطَعَنَهُ بِهَا، فَأَنْفَذَهُ مِنْ ظَهْرِهِ فَوَقَعَ مَيِّتًا، ثُمَّ قَالَ: لَمَّا دَعَوْتَ المَرَّةَ الأُولَى: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، كُنْتُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَلَمَّا دَعَوْتَ المَرَّةَ الثَّانِيَةَ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ كُنْتُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا دَعَوْت المَرَّةَ الثَّالِثَةَ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَتَيْتُكَ. [**الروض الأنف للسهيلي ٦/ ١٩٠-١٩٣**].

قال الصالحي: «فهذا كما ترى غير متصل فلا يقاوم ما في الصحيح». [**سبل الهدى والرشاد ٦/ ٧٦**].

وقال الشيخ الوكيل: لا شك في أنها أسطورة. [**الروض الأنف للسهيلي ٦/ ١٩٣ هامش ١**].

٢٦ - إثبات الذات لله ﷻ:

يقول الصالحي: «قول سيدنا خبيب ﷺ: «**وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ**» إلى آخره.

قال أبو القاسم الراغب: «الذات تأنيث ذو وهي كلمة يتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع، وتضاف إلى الظاهر دون المضمر، وتثنى وتجمع، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافًا، وقد يسبقها لفظ الذات لعين الشيء، واستعملوها مفردة ومضافة وأدخلوا عليها الألف واللام وأجروها مجرى النفس والخاصة، فقالوا ذاته ونفسه وخاصته وليس ذلك من كلام العرب».

[**المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ١٨٢-١٨٣ ط مصطفى الحلبي ١٩٦١م**].

وقال القاضي: ذات الشيء نفسُه وحقيقته.

وقد استعمل أهل الكلام (الذات) بالألف واللام وغلطهم أكثر النحاة وجوزه بعضهم؛ لأنها ترد بمعنى النفس وحقيقة الشيء، وجاء في الشعر لكنه شاذ.

وقال ابن برهان ـ بفتح الباء الموحدة ـ: «إطلاق المتكلمين الذات في حق الله تعالى من جهلهم؛ لأن ذات تأنيث ذو، وهو جلت عظمته لا يصح له إلحاق تأنيث؛ ولهذا امتنع أن يُقال علَّامة وإن كان أعلم العالمين».

قال: «وقولهم الصفات الذاتية جهل منهم أيضًا؛ لأن النسب إلى ذات دَوْر».

وقال التاج الكندي في الرد على الخطيب ابن نباتة في قوله: كنه ذاته، ذات بمعنى صاحبة تأنيث ذو، وليس لها في اللغة مدلول غير ذلك، وإطلاق المتكلمين وغيرهم الذات بمعنى النفس خطأ عند المحققين.

وتعقب بأن الممتنع استعمالها بمعنى صاحبة، أما إذا قطعت عن هذا المعنى واستعملت بمعنى الاسمية فلا محذور كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران] أي بنفس الصدور.

وقد حكى المطرزي رحمه الله أن كلَّ ذاتٍ شيءٌ وكلَّ شيءٍ ذاتٌ.

وقال الإمام النووي رحمه الله في تهذيبه: «مراد الفقهاء بالذات الحقيقية»، وهذا اصطلاح المتكلمين وقد أنكره بعض الأدباء عليهم، وقال: إنه لا يُعرف في لغة العرب ذات بمعنى الحقيقة «وإنما ذات بمعنى صاحبة»، وهذا الإنكار منكر، بل الذي قاله الفقهاء والمتكلمون صحيح، فقد قال الإمام أبو الحسن الواحدي (في أول سورة الأنفال) في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال:١]، قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب: معنى ذات بينكم: أي الحالة التي بينكم، فالتأنيث عنده للحالة (وهو قول الكوفيين).

وقال الزجاج: معنى ذات بينكم: حقيقة وصلكم، والمراد بالبين الوصل، فالتقدير: فأصلحوا حقيقة وصلكم.

قال الواحدي: فذات عنده بمعنى النفس (كما يقال ذات الشيء ونفسه). انتهى.

[تهذيب الأسماء واللغات للنووي ق١ من تهذيب اللغات ص ١١٣].

وعلى جواز ذلك مشى الإمام البخاري، فقال في كتاب التوحيد من صحيحه: «باب ما يُذكر في الذات والنعوت». **[كتاب التوحيد باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله ﷻ رقم ٧٤٠٢].**

فاستعملها على نحو ما تقدم من أن المراد بها نفس الشيء وحقيقته على طريقة المتكلمين في حق الله تعالى، ففرَّق بين النعوت والذات، واستدل البخاري على ذلك بقول خبيب السابق.

وتعقبه السبكي رحمه الله بأن خبيبًا رضي الله عنه لم يرد بالذات الحقيقة التي هي مراد البخاري، وإنما مراده: في سبيل الله أو في طاعته.

قال الكرماني: وقد يجاب بأن غرضه إطلاق الذات في الجملة، قال في الفتح: والاعتراض أقوى من الجواب.

واستدل غيره بقوله ﷺ: «**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ** عليه السلام **إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ الله** عز وجل...». [البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٨)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧١)].

وفي رواية: «**كل ذلك في ذات الله تعالى**».

وبحديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «**لا يفقه كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله تعالى**». رواه برجال ثقات إلا أن فيه انقطاعًا.

يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وَإِنَّ أَخَا الأَحْقَافِ إِذْ قَامَ فِيهِمْ ... يُجَاهِدُ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَيَعْدِلُ (١)

ونعقب بما تعقب به البخاري بأن المراد بالذات هنا الطاعة، أو بمعنى حق، أو من أجل، فهي كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر:٥٦].

وأصرح من ذلك كله حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله**». [ذكره العجلوني في كشف الخفا ١/ ٣٧١، وعزاه للأصبهاني في ترغيبه وأبي نعيم، وكنز العمال للمتقي الهندي ٣/ ١٠٦ رقم ٥٧٠٤، وقال السيوطي: رواه أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ٣٩٦ عند تعليقه على الحديث رقم ١٧٨٨، وضعيف الجامع الصغير رقم ٢٤٧٢].

فإن الطاعة وما ذكر معها لا تأتي هنا.

قال في الفتح: «فالذي يظهر جواز إطلاق ذات لا بالمعنى الذي أحدثه المتكلمون، ولكنه غير مردود إذا عُرِف أن المراد به النفس لثبوت لفظ النفس في الكتاب العزيز».

قلت: حديث ابن عباس رضي الله عنهما صريح بما ذهب إليه المتكلمون.

قال محققا سبل الهدى في الطبعة المصرية: «أوضح الفيومي في المصباح مادة ذات بقوله: إن دلت على الوصفية كتبت بالتاء؛ لأنها اسم، والاسم لا تلحقه الهاء الفارقة بين المذكر والمؤنث ... وقد تجعل اسمًا مستقلًّا فيعبر بها عن الأجسام فيقال: ذات الشيء أي حقيقته وماهيته.

وأما قولهم: في ذات الله، فهو مثل قولهم: في جنب الله ولوجه الله.

وأنكر بعضهم أن يكون ذلك في الكلام القدير؛ ولأجل ذلك قال ابن برهان: قول المتكلمين ذات الله جهل؛ لأن أسماءه لا تلحقها تاء التأنيث.. قال: وقولهم الصفات الذاتية خطأ أيضًا، فإن النسبة إلى ذات

---

(١) رواية الديوان ص ٣٢٠: **وَإِنَّ أَخَا الأَحْقَافِ إِذْ يَعْذِلُونَهُ ... يَقُومُ بِدِينِ اللهِ فِيهِمْ فَيَعْدِلُ**

ذوي؛ لأن النسبة ترد الاسم إلى أصله، وما قاله ابن برهان فيما إذا كانت بمعنى الصاحبة والوصف مسلم، والكلام فيما إذا قطعت عن هذا المعنى واستعملت في غيره بمعنى الاسمية نحو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾[آل عمران]، والمعنى: عليم بنفس الصدور أي ببواطنها وخفياتها، وقد صار استعمالها بمعنى نفس الشيء عرفًا مشهورًا حتى قال الناس: ذات متميزة وذات محدثة، ونسبوا إليها على لفظها من غير تغيير، فقالوا: عيب ذاتي بمعنى جبل وخلق.

وقال النابغة:

مَجَلَّتُهُمْ ذَاتُ الإِلَهِ وَدِينُهُمْ   قَوِيمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ العَوَاقِبِ

المجلة بالجيم الصحيفة، أي: كتابهم عبودية نفس الإله، وقالوا: الحجة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران وغيرها] ذات الشيء نفسه... وقال أيضًا في سورة السجدة، ونفس الشيء وذاته وعينه هؤلاء وصف له، وقال المهدوي في التفسير: النفس في اللغة على معان نفس الحيوان وذات الشيء الذي يخبر عنه، فجعل ذات الشيء ونفس الشيء مترادفين.

وإذا نقل هذا فالكلمة عربية ولا التفات إلى من أنكر كونها من العربية فإنها في القرآن وهو أفصح الكلام العربي.

ومما جاء في شرح هذه المادة في كليات أبي البقاء (بولاق سنة ١٢٨١هـ ص١٨٦: ١٨٧): الذات هو ما يصلح أن يعلم ويخبر عنه، فنقول عن مؤنث ذو، بمعنى الصاحب لأن المعنى القائم بنفسه بالنسبة إلى ما يقوم به يستحق الصاحبية والمالكية، ولمكان النقل لم يعبروا أن التاء للتأنيث عوضًا عن اللام المحذوفة فأجروها مجرى الأسماء المستقلة فقالوا: ذات قديم وذات محدث.

وقيل: التاء فيه كالتاء في الوقت والموت فلا معنى لتوهم التأنيث.

وقد يطلق الذات ويراد به الحقيقة، وقد يطلق ويراد به ما قام بذاته، وقد يطلق ويراد به المستقل بالمفهومية، ويقابله الصفة بمعنى غير مستقل بالمفهومية، وقد يستعمل استعمال النفس والشيء فيجوز تأنيثه وتذكيره، وقد يطلق الذات ويراد به الرضا، وعليه حديث: «**إن من أعظم الناس أجرًا الوزير الصالح من أمير يتبعه في ذات الله**»، والمراد منه طلب رضوان الله، وكذا حديث أن إبراهيم لم يكذب إلا في ثلاث ثنتين في ذات الله، أي في طلب مرضاته... انظر أيضًا: مادة ذات في كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١/ ٥٧١: ٥٧٣ طبعة استانبول سنة ١٣١٧هـ)». [سبل الهدى والرشاد ٦/ ٧٩-٨٠ هامش ٣].

ويقول ابن تيمية: «في قول خبيب ﷺ: «**وذلك في ذات الإله**» إثبات الذات لله ﷻ على وجه يليق بجلاله من غير تشبيه بخلقه، فهو سبحانه ليس كمثله شيء، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ في

معرض إثباته الأسماء والصفات لله ﷻ وبعد سرد الأدلة على ذلك: «.. إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في أسماء الرب ـ تعالى ـ وصفاته، فإن في ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفضيل» إلى أن قال: «وأما من زاغ وحاد عن سبيلهم ـ أي: سبيل السلف الصالح ـ من الكفار والمشركين والذين أوتوا الكتاب، ومن دخل في هؤلاء من الصابئة والمتفلسفة والجهمية والقرامطة والباطنية ونحوهم فإنهم على ضد ذلك لا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل، فقولهم يستلزم غاية التعطيل، وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات، والجمادات، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات». [مجموعة الفتاوى (٣/ ١٠) بتحقيق عامر الجزار، وأنور الباز، ط٢٠، دار الوفاء بالمنصورة، مصر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م].

ويقول أيضًا: «فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل سائر الصفات». [المصدر السابق ٣/ ٢١].

ويقول أيضًا: «ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصف به رسوله، فيعطلوا أسماءه الحسنى، وصفاته العليا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويلحدوا في أسماء الله وآياته». [المصدر السابق ٥/ ٢٠].

٢٧ ـ مدى حب الصحابة ﭫ لرسول الله ﷺ:

يقول د/ الشرباصي: «بماذا أجاب زيد على سؤال أبي سفيان: **أَنْشُدُكَ اللهَ يَا زَيْدُ! أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الآنَ فِي مَكَانِكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنَّكَ فِي أَهْلِكَ؟**

هل فكر في النجاة والسلامة؟ هل سارع إلى باب الخلاص بعد أن أصابه ما أصابه؟

هل تردد أو تلجلج في النطق بما يليق به أن يقوله ويؤكده في هذا المجال؟ لا والذي برأ النسم، وأوجد من العدم، بل أقام زيد ﭬ الدليل على أنه من أولئك الأصحاب الأخيار الذين كانوا يفدون رسول الله ﷺ بأنفسهم وآبائهم وأمهاتهم؛ لأن الحق ﷻ يقول في سورة الأحزاب: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾[الأحزاب: ٦].

ولأن الرسول الصادق المصدوق ﷺ يقول: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**». [البخاري في الإيمان (١٤، ١٥)، ومسلم في الإيمان (٤٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٣، ٥٠١٤، ٥٠١٥)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧)، وأحمد عن أنس ﭬ (١٢٤٠٣، ١٣٤٩٩)].

ولذلك رفع زيد ﭬ صوته يعلن به جوابه لأبي سفيان ، قَالَ: **وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ، وَأَنَا جَالِسٌ فِي أَهْلِي.**

فازداد أبو سفيان تعجبًا، وقال مقرًّا على الرغم منه بالحق الساطع: **مَا رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا**. [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ٢/ ٢٥٨].

ويقول د/ البوطي: «إذا تأملنا في جواب زيد بن الدَّثِنَةِ ﷺ هذا علمنا مدى المحبة التي كانت تنطوي عليها أفئدة الصحابة لرسولهم ﷺ، ولا ريب أن هذه المحبة من أهم الأسباب التي حببت إلى قلوبهم كل تضحية وبذل في سبيل دين الله تعالى والدفاع عن رسوله، ومهما بلغ المسلم في إيمانه، فإنه بدون هذه المحبة لرسول الله ﷺ يعتبر ناقص الإيمان، وإنها لحقيقة صرح بها رسول الله ﷺ إذ قال: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**». [فقه السيرة للبوطي ٢٠١].

ويقول د/ الحميدي: وفي جوابه «تعبير بليغ عن حب الصحابة الشديد لرسول الله ﷺ الذي يصل إلى فدائه بأنفسهم فضلًا عن أموالهم، ولقد جاء في روية للواقدي مثل ذلك عن خبيب بن عدي ﷺ.

ولقد اعترف بذلك زعماء الكفار في ذلك العصر في هذا الخبر عن أبي سفيان، وفي خبر خبيب صدر عن الأخنس بن شريق، وصدور هذا الاعتراف من الزعماء يدل على شهرة ذلك إلى الحد الذي لا يستطيعون إخفاءه.

وإذا نظرنا إلى حب الصحابة لرسول الله ﷺ باعتباره زعيمًا لتجمع ديني، كما يراه الكفار المعاصرون له الذين لا يؤمنون بكونه رسولًا، فإن ذلك يبعث فيهم الإحباط واليأس من إمكانية القضاء عليه وعلى تجمعه لاستحالة وجود أهم عناصر الفشل والانهزام وهو ضعف الثقة بين الزعيم وجنوده، كما أن اعتراف زعماء الكفار بعدم وجود زعيم يحبه جنوده كحب المسلمين لرسول الله ﷺ يجب أن يقودهم إلى التفكير المتأمل في هذا الموضوع، لمعرفة سبب انفراد النبي ﷺ من بين الزعماء بهذه الميزة العظيمة، وبالتالي فإن ذلك يفرض عليهم الإيمان بكونه رسولًا من عند الله ﷻ؛ لأن هذه هي الخصوصية الوحيدة البارزة، وكونه ﷺ يتمتع بأعلى المواهب الإنسانية إنما هو من لوازم الرسالة، ولم يكن النبي ﷺ ينسب لنفسه أي تفوق في تلك المواهب، وإنما كان الشيء الوحيد الذي يدعو إليه هو الإيمان بكونه مرسلًا من الله ﷻ، ولكن الكفار كانوا في سبات عميق وحُجُب كثيفة من اتباع هوى النفوس وتقديس ميراث الآباء والأجداد والاعتزاز بالمجد الدنيوي، فلم يُعْمِلوا أفكارهم في المقارنة بين المقدمات والنتائج، فكانوا يطلقون المقدمات التي تُلزمهم بنتائجها، ولكنهم لا يبحثون في أسباب تلك المقدمات ولا يلزمون أنفسَهم بنتائجها. [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٤١-٤٢].

ويقول د/ فيض الله: «إن زيد بن الدَّثِنَةِ ﷺ يقرر في جوابه على أبي سفيان أنه لا يُؤْثِرُ ـ في موقفه هذا الحَرِج ـ أن ينتقل إلى أهله سالـمًا ناجيًا من الموت المحتم، إذا كان في ذلك ما يمسُّ شخص الرسول ﷺ

بأيسر مكروه؛ وإنه ليُؤْثِر حياة الرسول ﷺ على حياته، مهما يكن في الأمر، فلا خير في حب دون موت في سبيله.

ولهذا عقَّب أبو سفيان ـ زعيم المشركين بعد أبي جهل ـ على هذا الكلام الصادق النفيس، بقوله: **مَا رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا.**

حب المال يحمل على النَّصَب في سبيله، وحب العلم يبعث على السفر والسهر على تحصيله؛ وحب الحياة والسلطان والمعالي يحمل النفس على التطامن والإذلال، وحب السكن والاستقرار يحمل على بذل المال والغوالي؛ وحب الله ورسوله يحمل على التضحية بالمال والنفس جميعًا وبكل شيء، في سبيل الدين والشرع، ومرضاة الله ورسوله.

عن عَبْدِ الله بْنِ هِشَامٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه: **يَا رَسُولَ الله لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلا مِنْ نَفْسِي**، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، [حم: لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ]**»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: **فَإِنَّهُ الآنَ وَالله لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي**، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الآنَ يَا عُمَرُ**».

[البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٢)، وأحمد عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه (١٨٠٤٧)].

ولا يكون الحبيب أحب من النفس، إلا إذا تطوع بها المحب في سبيله، وضحَّى بها من أجله؛ وليس وراء النفس مطلب لحبيب، ومن ضحى بنفسه لم يبخل بشيء، فليس فوقهما زيادة لمستزيد.

وقد جاء في الحديث الشريف: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**».

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

[البخاري في الإيمان (١٦، ٢١)، ومسلم في الإيمان (٤٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٨٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣)، والدارمي في الرقاق (٢٧٤١)، وأحمد عن أنس رضي الله عنه (١٢٣٥٤، ١٢٧٣٩، ١٢٩٩٤، ١٣١٨٠، ١٣٥٠٠، ١٣٥٤٧، ١٣٦٥٦)]. [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٥٤-١٥٥].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ يَوْمٌ وَلا يَرَانِي، ثُمَّ لأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَمِثْلِهِمْ مَعَهُمْ**».

[مسلم في الفضائل (٢٣٦٤)، «قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: المَعْنَى فِيهِ عِنْدِي لأَنْ يَرَانِي مَعَهُمْ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَهُوَ عِنْدِي مُقَدَّمٌ وَمُؤَخَّرٌ»، وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه (٢٧٣٥٨، ٩٥٠٥، ١٠١٧٣)].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: «**لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ ﷺ لَمْ يَقُومُوا لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ**». [الترمذي في الأدب (٢٧٥٤)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وصححه الشيخ الألباني].

ويقول م/ أبو راس: «لقد تجلى في مواقف شهداء هذه السرية ذلك الحب العاصف الذي كان في نفوس الصحابة لرسولهم محمد ﷺ، يعلنون حبهم لقائدهم، لمعلمهم الخير والرشاد، لا في مواطن الأمن والسلامة والدعة والهدوء فحسب ولكن وهم يواجهون الموت.

ترى ما الذي زرع هذا الحب في قلوب هؤلاء الرجال لهذا القائد، لم يوزع مالًا لشراء الذمم! ولم يبث جواسيسًا لعد الأنفاس! ولم يقرِّب المتملقين، ولم يبعد المخلصين! لا وحاشا لرسول الله ﷺ ذلك، ولكنه المبعوث رحمة للعالمين، القائد الحاني، القائد العادل، الذي ما ميز يومًا من الأيام نفسه عن عامة إخوانه ولا خاصتهم، بل كان كأحدهم يجوع إذا جاع أصحابه ويعرى إذا عروا، ويمشي إذا مشوا، ولا يرتاح إلا بعد أن يطمئن على جميع أفراد رعيته، فكان نتيجة هذا كله حبًّا حقيقيًّا لا حبًّا مزيفًا كاذبًا يزول بزوال مؤثراته وأسبابه». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢١٨-٢١٩].

٢٨ ـ التسليم لقضاء الله والتضحية في سبيله:

يقول م/ أبو راس: «وإن كان موقف زيد ﷺ سلط الضوء على حب أصحاب المصطفى ﷺ لقائدهم، فلقد جاء موقف خبيب ﷺ ليسلط الضوء على حب أصحاب المصطفى ﷺ لربهم الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وعلى استعداد أصحاب المصطفى ﷺ للتضحية، وبنفس راضية مطمئنة بكل غال ورخيص في سبيل الحق.

لم يسلب القتل عقل «خبيب ﷺ»، ولم يخرجه الموقف الرهيب عن صوابه، ولكنه أقبل على القتلة بهدوء المسلم، وبتسليم المسلم لأمر الله ﷻ.

إن موقف «زيد» و «خبيب» ليفضح مواقف المسلمين في هذه الأيام الذين يستكثرون أية تضحية في سبيل الله مهما كانت يسيرة.

مسلمو هذه الأيام ـ إلا من رحم الله ـ الذين يفضلون استمرار الحياة ـ أي حياة ـ على الموت العزيز الشريف في جنب الله ﷻ وفي سبيله، مسلمو هذه الأيام الذين يفضلون الموت على الفراش الوثير ـ لفرط جبنهم ـ وإن كان في هذا الموت الذلة والمسكنة ـ مسلمو هذه الأيام باتوا يعبدون الله على حرف، فإن أصابهم خير رضوا، وإن أصابهم غير ذلك سخطوا على الله وعلى رسوله وعلى الإسلام وعلى الدعاة إلى الإسلام الذين أقنعوهم بالسير في ركاب الدعوة!

إن الحب الحقيقي لرسول الله ﷺ لا يتجلى فقط في حلقات الذكر...، ولكنه يتجلى في منافحة المغرضين الجبناء الذين يقدحون به ﷺ وبسيرته.

إن الحب الحقيقي لله ﷻ لا يتجلى في أيام السعة والهدوء، بقدر ما يتجلى في التسليم لقضاء الله وقدره، وفي الركض إلى الله ﷻ بغير زاد إلا بزاد التقى والرشاد، فهل يخرج المسلمون من النظرية إلى التطبيق؟!».

[**تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢١٩-٢٢٠**].

٢٩ ـ أثر مشهد مقتل خبيب ﷺ في نفوس الذين شهدوه:

لقد كان لمقتل خبيب بهذه الصورة أثره الشديد في نفوس الذين شهدوه، ويصور هذا الأثر ما رواه ابْنُ إِسْحَاقَ والواقدي فيما كان من **سَعِيدِ بْنِ عَامِرِ بْنِ حِذْيَم الْجُمَحِيِّ** ﷺ بعد إسلامه.

وقال ابن كثير: وَقَدْ قَالَ الأُمَوِيُّ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَبَلَغَنَا أَنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ نَسِيجِ وَحْدِهِ** (يريد رجلًا لا عيب فيه، وأصله أن الثوب النفيس لا يُنسج على منواله غيرُه) **فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ**». [**البداية والنهاية ٥/ ٥١٠**].

٣٠ ـ هل أُجيبت فيهم دعوة خبيب ﷺ:

قال في الروض: «فَإِنْ قِيلَ: فَهَل أُجِيبَتْ فِيهِمْ دَعْوَةُ خُبَيْبٍ ﷺ، وَالدَّعْوَةُ عَلَى تِلْكَ الحَالِ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ العَبْدِ مُسْتَجَابَةٌ؟

قُلنَا: أَصَابَتْ مِنْهُمْ مَنْ سُبِقَ فِي عِلمِ اللهِ أَنْ يَمُوتَ كَافِرًا، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ فَلَمْ يَعْنِهِ خُبَيْبٌ ﷺ وَلَا قَصَدَهُ بِدُعَائِهِ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ كَافِرًا بَعْدَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ فَإِنَّمَا قُتِلُوا بَدَدًا غَيْرَ مُعَسْكِرِينَ وَلَا مُجْتَمِعِينَ كَاجْتِمَاعِهِمْ فِي أُحُد، وَقَبْلَ ذَلِكَ فِي بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ الخَنْدَقُ بَعْدَ قِصَّةِ خُبَيْبٍ ﷺ فَقَدْ قُتِلَ مِنْهُمْ آحَادٌ فِيهَا مُتَبَدِّدُونَ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ جَمْعٌ وَلَا مُعَسْكَرٌ غَزَوْا فِيهِ، فَنَفَذَتْ الدَّعْوَةُ عَلَى صُورَتِهَا، وَفِيمَنْ أَرَادَ خُبَيْبٌ ﷺ وَحَاشَا لَهُ أَنْ يَكْرَهَ إِيمَانَهُمْ وَإِسْلَامَهُمْ». [**الروض الأنف للسهيلي ٦/ ١٩٨**].

٣١ ـ خبيب بن عدي ﷺ ودرس الفداء الذي ليس له نظير:

يقول أ/ خالد: «أفسحوا الطريق لهذا البطل يا رجال، وتعالوا من كل صوب ومن كل مكان، تعالوا، خفافًا وثقالًا، تعالوا مسرعين، وخاشعين، وأقبلوا، لتُلَقَّنُوا في الفداء درسًا ليس له نظير!

تقولون: أوكل هذا الذي قصصت علينا من قبل لم تكن دروسًا في الفداء ليس لها نظير؟

أجل كانت دروسًا، وكانت في روعتها تجلُّ عن المثيل وعن النظير.

ولكنكم الآن أمام أستاذ جديد في فن التضحية.

أستاذ لو فاتكم مشهده، فقد فاتكم خير كثير، جدُّ كثير.

إلينا يا أصحاب العقائد في كل أمة وبلد، إلينا يا عشاق السموِّ من كل عصر وأَمَد.

وأنتم أيضًا يا من أثقلكم الغرور، وظننتم بالأديان والإيمان ظنَّ السَّوء.

تعالوا بغروركم..! تعالوا وانظروا أية عزة، وأية منعة، وأي ثبات، وأي مضاء، وأي فداء، وأي ولاء.

وبكلمة واحدة، أية عظمة خارقة وباهرة يفيئها الإيمان بالحق على ذويه المخلصين!

أترون هذا الجثمان المصلوب؟

إنه موضوع درسنا اليوم، يا كلَّ بني الإنسان!

هذا الجثمان المصلوب أمامكم هو الموضوع، وهو الدرس، وهو الأستاذ.

اسمه خبيب بن عديٍّ ﷺ.

احفظوا هذا الاسم الجليل جيِّدًا، احفظوه وانشدوه، فإنه شرف لكل إنسان، من كل دين، ومن كل مذهب، ومن كل جنس، وفي كل زمان!

إنه من أوس المدينة وأنصارها، تردد على رسول الله ﷺ مذ هاجر إليهم، وآمن بالله رب العالمين.

كان عذب الروح، شفاف النفس، وثيق الإيمان، ريَّان الضمير.

كان كما وصفه حسَّان بن ثابت ﷺ:

صَقْرًا تَوَسَّطَ فِي الأَنْصَارِ مَنْصِبُهُ   سَمْحَ السَّجِيَّةَ مَحْضًا غَيْرَ مُؤْتَشِبِ (١)

ولما رفعت غزوة بدر أعلامها، كان هناك جنديًّا باسلًا، ومقاتلًا مقدامًا.

وكان من بين المشركين الذين وقعوا في طريقه إبَّان المعركة فصرعهم بسيفه الحارثُ بن عمرو بن نوفل. [سبق مناقشة حضور خبيب بن عدي ﷺ غزوة بدر الكبرى].

وبعد انتهاء المعركة، وعودة البقايا المهزومة من قريش إلى مكة عرف بنو الحارث مصرع أبيهم، وحفظوا جيدًا اسم المسلم الذي صرعه في المعركة: خبيب بن عديٍّ!

وعاد المسلمون من بدر إلى المدينة، يثابرون على بناء مجتمعهم الجديد.

وكان خبيب عابدًا، وناسكًا، يحمل بين جنبيه طبيعة الناسكين، وشوق العابدين.

هناك أقبل على العبادة بروح عاشق.. يقوم الليل، ويصوم النهار، ويقدِّس لله رب العالمين.

وجاءت سرية الرجيع وما كان فيها، وحين أسر خبيب وزيد ﷺ، وقادهما الرماة البغاة إلى مكة، حيث باعوهما لمشركيها.

---

(١) **السجية**: الطبيعة، وفي الديوان: (**حُلْوَ السَّجِيَّةِ**). **المحض**: الخالص، وأراد به هنا: خلوص نسبه. **والمؤتشب**: المختلط.

ودوَّى في الآذان اسم خبيب.

وتذكَّر بنو الحارث بن عامر قتيل بدر، تذكَّروا ذلك الاسم جيِّدًا، وحرَّك في صدورهم الأحقاد.

وسارعوا إلى شرائه، ونافسهم على ذلك بغية الانتقام منه أكثر أهل مكة ممن فقدوا في معركة بدر آباءهم وزعماءهم.

وأخيرًا تواصوا عليه جميعًا وأخذوا يعدُّون لمصير يشفي أحقادهم، ليس منه وحده، بل ومن جميع المسلمين!

أسلم خبيب ﷺ قلبه، وأمره، ومصيره لله رب العالمين.

وأقبل على نسكه ثابت النفس، رابط الجأش، معه من سكينة الله التي أفاءها عليه ما يذيب الصخر، ويلاشي الهول.

كان الله معه، وكان هو مع الله.

كانت يد الله عليه، يكاد يجد برد أناملها في صدره!

وحمل المشركون إلى خبيب ﷺ نبأ مصرع زميله وأخيه زيد ﷺ.

ظانين أنهم بهذا يسحقون أعصابه، ويذيقونه ضعف المهات وما كانوا يعلمون أن الله الرحيم قد استضافه، وأنزل عليه سكينته ورحمته.

وراحوا يساومونه على إيمانه، ويلوحون له بالنجاة إذا ما هو كفر بمحمد، ومن قبل بربه الذي آمن به، لكنهم كانوا كمن يحاول اقتناص الشمس برمية نبل!

أجل، كان إيمان خبيب ﷺ كالشمس قوة، وبعدًا، ونارًا، ونورًا.

كان يضيء كل من التمس منه الضوء، ويُدفئ كل من التمس منه الدفء، أما الذي يقترب منه ويتحدَّاه فإنه يحرقه ويسحقه.

وإذ يئسوا مما يرجون، قادوا البطل إلى مصيره، وخرجوا به إلى مكان يسمى التنعيم حيث يكون هناك مصرعه.

وما إن بلغوه حتى استأذنهم خبيب في أن يصلي ركعتين، وأذنوا له ظانين أنه قد يجري مع نفسه حديثًا ينتهي باستسلامه وإعلان الكفران بالله وبرسوله وبدينه.

وصلى خبيب ﷺ ركعتين في خشوع، وسلام، وإخبات.

تدفقت في روحه حلاوة الإيمان، فودَّ لو يظل يصلي، ويصلي، ويصلي.

ولكنه التفت صوب قاتليه وقال لهم: «**والله لولا تحسبوا أن بي جزعًا من الموت، لازددت صلاة**»!

ثم شهر ذراعه نحو السماء وقال: «**اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا**».

ثم تصفح وجوههم في عزم وراح ينشد:

مَـا أُبَـالِي حِـينَ أُقْتَـلُ مُسْـلِمًا ... عَـلَى أَيِّ شِـقٍّ كَـانَ لله مَصْـرَعِي

وَذَلِـكَ فِي ذَاتِ الإِلَـهِ وَإِنْ يَشَـأْ ... يُبَـارِكْ عَـلَى أَوْصَـالِ شِـلْوٍ مُمَـزَّعِ

ولعله لأول مرة في تاريخ العرب يصلبون رجلًا ثم يقتلونه فوق الصليب.

ولقد أعدُّوا من جذوع النخل صليبًا كبيرًا أثبتوا فوقه خبيبًا ﷺ، وشدُّوا فوق أطرافه وثاقه، واحتشد المشركون في شماتة ظاهرة، ووقف الرماة يشحذون رماحهم.

وجرت هذه الوحشية كلها في بطء مقصود أمام البطل المصلوب!

لم يغمض عينيه، ولم تزايل السكينة العجيبة المضيئة وجهه.

وبدأت الرماح تنوشه، والسيوف تنهش لحمه.

وهنا اقترب منه أحد زعماء قريش وقال له: **أتحب أن محمدًا مكانك، وأنت سليم معافى في أهلك؟**

وهنا لا غير انتفض خبيب كالإعصار وصاح، في قاتليه: **والله ما أحبُّ أني في أهلي وولدي، معي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة.**

نفس الكلمات العظيمة التي قالها صاحبه زيد ﷺ وهم يهمُّون بقتله..! نفس الكلمات الباهرة الصادعة التي قالها زيد بالأمس، ويقولها خبيب اليوم، مما جعل أبا سفيان، وكان لم يسلم بعد، يضرب كفًّا بكف ويقول مشدوها: **والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كما يحب أصحاب محمد محمدًا!**

كانت كلمات خبيب ﷺ هذه إيذانًا للرماح وللسيوف بأن تبلغ من جسد البطل غايتها، فتناوشته في جنون ووحشية.

وقريبًا من المشهد كانت تحوم طيور وصقور، كأنها تنتظر فراغ الجزارين وانصرافهم حتى تقترب هي فتنال من الجثمان وجبة شهيَّة.

ولكنها سرعان ما تنادت وتجمَّعت، وتدانت مناقيرها كأنها تتهامس وتتبادل الحديث والنجوى.

وفجأة طارت تشق الفضاء، وتمضي بعيدًا.. بعيدًا.

لكأنها شمَّت بحاستها وبغريزتها عبير رجل صالح أوَّاب يفوح من الجثمان المصلوب، فخجلت أن تقترب منه أو تناله بسوء!

مضت جماعة الطير إلى رحاب الفضاء متعففة منصفة.

وعادت جماعة المشركين إلى أوكارها الحاقدة في مكة باغية عادية.

وبقي الجثمان الشهيد تحرسه فرقة من القرشيين حملة الرماح والسيوف!

كان خبيب ﷺ عندما رفعوه إلى جذوع النخل التي صنعوا منها صليبًا، قـد يمَّـم وجهـه شـطر السـماء وابتهل إلى ربه العظيم قائلًا: **اللهم إنا قد بلَّغنا رسالة رسولك فبلِّغه الغداة ما يصنع بنا.**

واستجاب الله دعاءه.

فبينما الرسول ﷺ في المدينة إذ غمره إحساس وثيق بأن أصحابه في محنة.

وتراءى له جثمان أحدهم معلقًا.

ومن فوره دعا المقداد بن عمرو، والزبير بن العوَّام، فركبا فرسيهما، ومضيا يقطعان الأرض وثبًا.

وجمعهما الله بالمكان المنشود، وأنزلا جثمان صاحبهما خبيب ﷺ، حيث كانت بقعة طـاهرة مـن الأرض في انتظاره لتضمَّه تحت ثراها الرطيب.

ولا يعرف أحد حتى اليوم أين قبر خبيب ﷺ.

ولعل ذلك أحرى به وأجدر، حتى يظل مكانه في ذاكرة التاريخ، وفي ضمير الحيـاة، بطـلًا، فـوق الصليب!». [رجال حول الرسول ﷺ لخالد ٣٧٠-٣٧٧].

٣٢ ـ فضح المستشرقين:

وكذلك استشهد خبيب ﷺ كما استشهد زيد ﷺ في سبيل بارئه وسبيل دينه ونبيه.

وكذلك ارتفع إلى السماء هذان الروحان الطاهران، وكان في استطاعة صاحبهما أن يستنقذهما من القتل إن رضيا الردة عن دينهما، لكنهما في يقينهما بالله وبالروح وبيوم البعث، يوم تُجزى كل نفس بما كسبت ولا تزر وازرة وزر أخرى، رأيا الموت، وهو غاية كل حي، خير ما يكون غاية للحياة في سبيل العقيدة وفي سبيل الإيمان بالحق، ولكنهما آمنا بأن دمهما الزكي الطهور الذي أُريق على أرض مكة سيدعو إليها إخوانهم المسلمين يدخلونها فاتحين يحطمون أصنامها، ويطهرونها من رجس الوثنية والشرك، ويردون فيها إلى الكعبة بيت الله ما يجب لبيت الله من تقديس وتنزه عن أن يُذكر فيه اسم غير اسم الله.

لا يقف المستشرقون من هذا الحادث وقوفهم عند أسيري (بدر) اللذين قتلهما المسلمون، ولا يحاولون أن يستنكروا هذا الغدر برجلين بريئين لم يؤخذا في حرب وإنما أخذا خداعًا، وسارا بأمر الرسول ﷺ ليعلما من غدروا بهما ومن أسلموهما إلى قريش بعد أن قتلوا زملاءهم غيلة وبغيًا.

وهم لا يستنكرون ما صنعت قريش بالرجلين الأعزلين، مع أن ما صنعته بهما شر مثل للجبن وللعدوان الدنيء.

وكنا نحب من المستشرقين الذين أسرفوا في القول من أجل أسيري بدر اللذين قُتلا أن نسمع لهم كلمة في قتل الأسيرين المؤمنين على فرق ما بين الموقفين، وفي قتل من قُتل غدرًا وغيلة في سريتي الرجيع وبئر معونة، ولكن الأمر كما قيل:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلَيْلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمُسَاوِيَا

ولقد كانت أولى مبادئ الإنصاف تقتضي المستشرقين، الذين أنكروا ما فعل المسلمون بأسيري بدر، أن يكونوا أشد استنكارًا لغدر قريش وغدر الذين أسلموا إليها الرجلين لقتلهما، بعد أن قتلوا الأربعة الرجال الذين جاؤوا وإياهم إجابة لطلبهم ليدلوهم على الحق ويفقهوهم في الدين.

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣١٧، السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤١-٢٤٢].

٣٣ ـ سمو التربية المنهجية تظهر في مواقف الأبطال:

يقول الشيخ عرجون: «ومن يتأمل موقف أبطال سرية (الرجيع) وما أبدوا من صبر صبور وشجاعة خارقة، وجلد على عظائم الأمور، ومقابلة لشدائد المحن بالرضا والتسليم، وتطلب للموت في ميادين العزة والكرامة، والترفع عن دنيات الحياة تطلبًا للحياة من سمو وتقدم للتضحية بأرواحهم، وهي أعز وأغلى ما يملكون، وإقدام على الاستشهاد برؤوس مرفوعة لا تطأطئ لغير عزة الله وجبروته ـ يتجلى له موقف الانحطاط الذي تمثل في الغدر والخيانة التي تسربلها الهذليون واللحيانيون، كما يتجلى له سمو التربية التي ربى عليها النبي ﷺ مجتمعه المسلم تطبيقًا لمنهج رسالته الخالدة.

وقد كانت هذه التربية ممثلة بآثارها العملية في مواقف أبطال سرية (الرجيع) الذي رسخ إيمانهم بالله تعالى، فكانوا في أشد مواقف الأزمات والتضحية أثبت من الأطواد الشامخات، كما ظهر ذلك في مواقف عاصم بن ثابت ﷺ أمير السرية في رواية البخاري، ومَنْ قُتل معه من أقرانه في البطولة وثبات الإيمان.

وكما ظهر في مواقف خبيب وزيد بن الدَّثِنَةِ ﭭ، وهما يُرفعان على خشبة الصلب ليقتلا على أبشع صورة وهم يرون الموت يمشي إليهم في رماح ونبل الغادرين من خائني هذيل ولحيان، ثم في موقف خبيب ﭬ وهو محبوس في بيت ماوية مولاة حجير بن أبي إهاب وهي تحدِّث عنه بعد إسلامها فتقول: ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب، طلب مني حين أجمعوا على قتله حديدة يتطهر بها استعدادًا للموت، فغفلتُ عن ابن لي صغير، فدرج الطفل إلى خبيب، والموسى في يده، فخشيت أن يقتله، ففزعت فزعة عرفها خبيب، فقال: **أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟! مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكِ إِنْ شَاءَ اللهُ**، وفي رواية: «**ما كُنْتُ لِأَغْدِرَ**»، وهي رواية تعبر عن سمو التربية في المنهج الإسلامي؛ لأنها تبين أن الغدر أقبح القبح، يستوي فيه الأعداء والأولياء؛ لأنه خصلة ذميمة منحطة لا تصدر إلا عن نفس جانبتها بدائه الفضائل الإنسانية.

ثم كما ظهر في موقف زيد بن الدَّثِنَةِ وخبيب ﭭ، وقد سألهما فُجَّار الشرك والوثنية ـ ساعة رفعهما إلى خشبة الصلب ليقتلوهما على هذه الصورة الشنيعة البشعة تشفِّيًا لأحقادهم فيهما وهما في قبضة أيديهم لا يخافون فرارهما من القتل: **ننشدكما الله أتحبان أن محمدًا في مكانكما نضرب عنقه وأنكما في أهلكما؟** فقال زيد بن الدَّثِنَةِ وخبيب ﭭ بلسان ينطق بقوة الحب الإيماني لرسول الله ﷺ تعبيرًا عما ملأ قلبيهما من إجلال لرسول الله ﷺ وحبه حبًّا فوق حبهما نفسيهما اللتين بين جنبيهما: ـ **والله ما نحب أن يفدينا محمد ﷺ بشوكة تؤذيه وهو في مكانه، وأنَّا بين أهلينا.**

فقال أبو سفيان بن حرب وكان قائد القوم وزعيمهم: **مَا رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا.**

أجل إنها مواقف لا تجود بمثلها الحياة، ولا يعرفها البشر في تاريخ المجتمع البشري كله؛ لأنها مواقف تسامى فيها الإيمان في سموه ورسوخه تساميًا أملاه المنهج التربوي الذي ربى عليه محمد ﷺ مجتمعه المسلم، وجُعل شريعة في هذا المنهج قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده ونفسه التي بين جنبيه**»، فقال عمر بن الخطاب ﷺ وهو يسمع التعبير عن هذا المنهج: **لأنت يا رسول الله أحب إلي إلا من نفسي،** فقال رسول الله ﷺ: «**لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال عمر: **لأنت أحب إلي من نفسي،** فقال رسول الله ﷺ: «**الآن يا عمر**»، يعني إنك الآن كمل إيمانك إذ رقيت إلى ذروة الحب الإيماني.

إنها مواقف نور الإيمان وصفائه أمام ظلمات الكفر وكدورته وتسفله ووضاعته وأحقاده وضغائنه، ومواقف البطولة المسلمة أمام فجور الشرك والوثنية، ومواقف حب الموت شهادة في سبيل الله لإعلاء كلمته أمام مهانة الاستعباد الكفور للشهوات، ومواقف الهداية أمام حالك الظلمات.

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٥١-٥٣].

٣٤ ـ معاني الإيمان والتمسك بالعقيدة:

يقول أ/ الشامي: «إن هذه الحادثة بمقدار ما تحمل من معاني الغدر واللؤم، كما قال حسان ﷺ:

إنْ سَرَّكَ الغَدْرُ صِرْفًا لَا مِزَاجَ لَهُ ... فَأْتِ الرَّجِيعَ فَسَلْ عَنْ دَارِ لِحْيَانَ [(١)]

بمقدار ما تحمل من معاني الإيمان والتمسك بالعقيدة، والموت في سبيلها، إضافة إلى الوفاء لتعاليم العقيدة، ونحاول بإيجاز أن نثبت بعض ذلك:

إن غزوة أُحُد لم تشف ما في صدور قريش من آثار بدر، بل إنها أضافت إليها جراحًا جديدة، وما نَذْرُ سلافة إلا التعبير عن ذلك.

---

(١) **لحيان** (بكسر اللام وقيل بفتحها): ابن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر.

ولا شك أن الكثير من العرب كان يعلم ذلك، وهذا سبب من أسباب الغدر الذي حصل بغية الكسب المادي والتقرب من قريش.

كان بود هُذيل أن تقوم بما قامت به عضل والقارة، وهي التي حرضتها على ذلك، ولكن الذي منعها أن خديعة رسول الله ﷺ ليست بالأمر الهين، ولو ذهب وفد منها لتنبه ﷺ للغدر المبيت، ذلك أنها كانت على وشك أن تغزوه بقيادة خالد بن سفيان الذي قضى عليه ﷺ قبل أن يتم مشروعه؛ ولذا دفعت غيرها ثم ساعدت على ذلك كما رأينا.

ومن المضحكات ذلك التمسك بالقيم الذي التزمت به قريش، فهي لم تقتل زيدًا وخُبيبًا رضي الله عنهما في أرض الحرم، بل خرجت بهما إلى الحل، كما أنها انتظرت بهما حتى مضت الأشهر الحرم، أما الغدر الذي ارتكبته، وأما البعد عن المفاهيم التي كان يهتم بها كل ذي رجولة، فكل هذا وُضع جانبًا، ففي غزوة الخندق رأينا عمرو بن وُدٍّ نزل عن فرسه ليبارز عليًّا رضي الله عنه، ولم ير من الرجولة أن يقاتله وهو عليها بينما كان علي رضي الله عنه راجلًا على قدميه، أما قريش فقد قَبِلَتْ على نفسها أن تقتل هذين الرجلين وهما خلو من كل شيء إلا إيمانهما.

إن زيدًا وخُبيبًا رضي الله عنهما وقد استأسرا، لم يكونا يظنان تلك العاقبة، ذلك أنه كان لقريش أسرى عند رسول الله ﷺ أكثر من مرة، وأذن لهم ﷺ أن يفتدوا أسراهم، وكان أكبر الظن عند الشهيدين أن قريشًا ستغالي في طلب الفداء، ولا شك بأن المسلمين سيرخصون ما غلا في فدائهما، وهذا هو العرف القائم، ولكن قريشًا خرجت على الأعراف والقيم.

على أن موقفهما لا يقل عن موقف أصحابهما بطولة وشرفًا وقوة، ولقد كان لذلك الموقف أثره في نفوس من حضره، حتى أن طاغية القوم أبا سفيان ألقى بنفسه وبابنه معاوية إلى الأرض فَرَقًا من دعوة خبيب رضي الله عنه؛ لأنهم كانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه».

[من معين السيرة للشامي ٢٨١-٢٨٢].

٣٥ ـ لابد للدعوة من تضحيات:

يقول د/ الحميدي: «في هذه السرية بُذلت دماء زكية في سبيل الله تعالى، وبعضها قُتل أصحابها صبرًا وعلى مشهد يضم جمعًا كبيرًا من الناس، وهذه الدماء الزكية تُعتبر من أهم الأسباب التي تُغَذِّي الدعوة الإسلامية وتدفع بها إلى الأمام؛ لأن الذين يحضرون هذه المشاهد أو تُروى لهم يعلمون أن وراءها هدفًا كبيرًا ساميًا هو نُصرة الإسلام، وبالتالي يعلمون بأن هذا الدين الذي يحمل أتباعه على بذل النفوس

طواعية وبشوق بالغ من أجله، والصبر الطويل الجميل على الأذى في سبيله، يعلمون أنه الدين الحق الذي يجب الإيمان به واتباعه.

ولا شك أن هذا الحادث الجلل قد ترك أثرًا واضحًا على مفكري قريش، حيث دفعهم إلى الميل نحو الإسلام والتعاطف مع المسلمين، إضافة إلى الأحداث الأخرى المشابهة مما عجل دخولهم في الإسلام سريعًا بعد فتح مكة المكرمة». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٤٢**].

٣٦ ـ الأخذ بالعزيمة:

يقول د/ أبو شهبة: «وإن لنا لوقفة ترينا كيف يستهين الإيمان بالكثرة حينما قاتل بضعة نفر غرباء عن ديارهم مائتي رجل في عقر دارهم، وكيف يسمو الإيمان عن الضعف والاستخذاء والترخص ويأبى إلا العزيمة، فقد كان يمكن لزيد وخبيب رضي الله عنهما أن يُظهرا كلمة الكفر، أو أن ينالا من النبي ﷺ وقلبهما مطمئن بالإيمان؛ ليكون سببًا في نجاتهما من القتل والصلب، ولكن أولي العزائم الثابتة، والعقائد الصادقة، يأبون إلا أن يموتوا أبطالًا كما عاشوا أبطالًا». [**السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤١**].

٣٧ ـ القيم الروحية والتغيير:

ويقول أ/ فتح الباب: «ويمثل هذا الموقف من خبيب وزيد رضي الله عنهما حين أرادوا قتلهما أسمى القيم الروحية التي بثها الإسلام في قلوب أبنائه، فجعلهم روادًا للبشرية كلها ومصابيح الهداية في تاريخها، كما يمثل التغيير الجذري الذي أحدثه في نفوسهم ومجتمعهم، فنقلهم من ظلمات الغواية والضلال إلى أنوار اليقين، ومن العبودية إلى التحرر، ومن الحرص على المال والجاه والمتعة إلى التضحية في سبيل المبدأ.

ويتبدى ذلك التغير بينًا إذا عقدنا مقارنة بين موقف المشركين في هذا الحادث وموقف المسلمين، فالأولون يمثلون الغدر والخسة والعدوان، على حين يمثل المؤمنون الإيمان القوي والشجاعة الخارقة.

فالموت لديهم حفاظًا على الشرف والكرامة ودفاعًا عن العقيدة أحب من الحياة على ضيم وخسف، ولقد سقط بعضهم قتيلًا في معركة الصراع بين الحق والباطل تطهيرًا للأرض من رجس الأشرار وتحريرًا للإنسان من استغلال الإنسان، ولولا تلك الدماء الزكية التي روت الجزيرة العربية لما ازدهرت شجرة الحق والحرية والمعرفة بها، ثم ترعرعت حتى أخرجت واحدة من أعظم الحضارات في تاريخ الإنسانية».

[**القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٠٢-١٠٣**].

٣٨ ـ الإسلام ينتزع الغدر والأحقاد، ويحل محلها الوفاء والمسالمة:

يقول د/ البوطي: «وفي مقابل غدر الوثنية، وخيانتها بالدعاة المسلمين، نقف على الصورة الرائعة لعكس هذه الطبيعة تمامًا لدى أولئك الدعاة الذين راحوا ضحية تلك الخيانة.

فقد رأينا كيف حُبس خبيب ﷺ أسيرًا في بيت بني الحارث في انتظار ساعة قتله، وكان قد استعار شفرة ليصلح بها شأنه ويتطهر استعدادًا للموت، وفي البيت طفل صغير راح يدرج نحوه في غفلة من أمه، ولقد كانت هذه اللحظة في حساب من يتعلق بالحياة ويفكر في الانتقام فرصة رائعة لمساومة أو غدر في مقابل غدر، ولقد كان هذا هو حساب أهل البيت كلهم، فما أن انتبهت أم الطفل إلى انصرافه نحو خبيب ﷺ حتى هبت مذعورة لتخلصه من براثن موت مؤكد!

ولكنها وقفت مندهشة عندما رأت طفلها وقد أجلسه خبيب ﷺ في حجره يلاطفه كأنه أب شفوق! ونظر إليها وقد ألمَّ بها في نفسها من الخوف، وقال لها في هدوء المؤمن الحليم: **أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟! مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكَ إِنْ شَاءَ اللهُ.**

فانظر إلى معجزة التربية الإسلامية للإنسان! خبيب هذا، وأولئك المشركون الحاقدون الذين راحوا يصنعون له الموت ظلمًا وعدوانًا، أنبتتهم أرض واحدة وأظلتهم تقاليد وطبائع واحدة، لكن خبيبًا اعتنق الإسلام فصاغه، وآمن بمحمد ﷺ فرباه، فخرج إنسانًا آخر، وأولئك عكفوا على ضلالتهم، فحبستهم ضلالتهم في طبائعهم المتوحشة الغادرة، فما أعظم ما يفعله الإسلام في الطبيعة الإنسانية من تغيير وتحويل». [فقه السيرة للبوطي ٢٠٠، وفقه السرايا للعيساوي ١٢٠].

ويقول د/ فيض الله: «موقف رائع مثالي حقًّا، الأسير ينتظر الموت الذي حُددت له ساعته، فلم يبال كثيرًا بفراق الدنيا، وأقبل في نفسٍ تفيض بالإيمان والبِشْر على مصيره المحتوم؛ أخذ الموسي ليصلح بها بعض شأنه، وليقبل على ربه في سَمْت جميل، ومظهر حسن، فلما دلف إليه الصغير، ابن عدوه الذي سيقتله ثأرًا لأبيه عمّا قليل، أخذ يداعبه، ويربت عليه، ويتَلَطَّف به، وكان في الإمكان أن يغدر به، وبيده الموسي، أو أن يساوم في قتله، وينتزع العفو من أهله انتزاعًا، إنقاذًا لنفسه؛ ولهذا فزعت أم الوليد من غدر الأسير.

لكن الأسير المسلم، الـمُنَشَّأ في مدرسة النبوة، أشار في كلامه، إلى أن هذا ما يفعله في هذا المقام المادِّيون الهابطون، الذين ما تَمَرَّسُوا بأحكام الدين، ولا تأدَّبوا بآدابه، ولا ارتفعوا إلى قمته؛ أما هو، ذلك الأسير المسلم، الذي سيكرمه الله بالشهادة في سبيله، فليس من شأنه أن يغدر بطفل بريء وادع، ولا أن يمسه بأي سوء؛ لأنه يفهم جيدًا ذلك المبدأ الإسلامي العظيم، الذي يقرره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

انظر كيف أشار إلى ذلك بقوله: «**مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكَ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، ويشير هذا الأسلوب في البيان العربي إلى أن هذا الفعل غير وارد ولا مُتَصَوَّر ولا هو في الحسبان، في هذا الظرف الحاسم، الذي قد يتعلق

فيه الاستثناء، لموقع الضرورة، وإنقاذ المهج، لكن المبدأ الأصلي، الوفاء، والكف عن البُرَءَاءَ، لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة.

وقارن بين التزام خبيب ﷺ بمبادئ الإسلام في أحلك الظروف، وبين غدر حلفاء هذيل وموالي عامر بن الطفيل، الذين خضعوا للشرك وضلالات الوثنية، فاستباحوا لأنفسهم الغدر بالأبرياء، وقَتْل الوادعين من الدعاة الأمناء، وكلهم عرب نبتوا في الجزيرة؛ ثم احكم وأنت منصف في حكمك بأنه لا شيء مثل الإسلام، يستل الأحقاد، ويزرع السلم والوفاء في موضعها». [صور وعبر لفيض الله ١٥٣-١٥٤].

ولو أن خبيبًا ﷺ المأسور لِيُقتل بعد أن غدروا به قَتَلَ الغلام ثأرًا من أهله لما كان أمرًا مستنكرًا، فهو مظلوم انتصر لنفسه، ولكنه الخلق الإسلامي الأصيل، والقلب المؤمن، والضمير الحي تترفع بصاحبها عن الغدر والغيلة حتى ولو كان على سبيل المجازاة، وأن يؤخذ الغلام بجريرة أهله، وإن هذه المعاني الشريفة لتستشفها في قولة خبيب ﷺ للجارية: **أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟! مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكِ إِنْ شَاءَ اللهُ.**

[السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤١].

٣٩ ـ تحري الحلال من المطعم والمشرب:

يقول د/ الغضبان: «لقد طغت أخبار خبيب وزيد على أخبار عاصم وصحبه، فهما رسولان حيان داخل مكة، وهما يمثلان رسول الله ﷺ، وهذه أول مواجهة حية بين أسيرين من المدينة وبين قيادات قريش.

لقد أرسل رسول الله ﷺ هذه السرية من القيادات العالية عنده، وهو مطمئن كل الاطمئنان إليها، وعلى قدرتها على تمثيله، وتمثيل هذه الدعوة، وقدرتها على مواجهة الأحداث الكبار بالحكمة البالغة، ولئن اختلف الموقفان ابتداء، بين من استجاب للعهد ونزل عليه، وبين من رفضه، ولكن كلا الفريقين مثَّل الصورة العالية المشرِّفة لهذا الدين، ولم تكن الدعوة من خلال الكلام كما كان مقررًا لهم، بل كانت الدعوة من خلال السلوك والممارسة، فخبيب وزيد ـ رضوان الله عليهما ـ رغم أن كل واحد منهما قد أُسر في مكان منعزلًا عن الآخر، لكنهما برزا نموذجين خالدين كأنما يصدران عن مشكاة واحدة.

زيد ﷺ يرفض أن يأكل مما يذبح على النُّصب «**ولا يأكل شيئًا مما أُتي به من الذبائح...**»، ويجد صفوان بن أمية حرجًا في ضيفه الأسير «فشق ذلك على صفوان وكانوا قد أحسنوا إساره، فأرسل إليه صفوان: فما الذي تأكل من الطعام؟ قال: **لست آكل مما ذُبح لغير الله، ولكني أشرب اللبن**»، لقد كان خارجًا عن سلطان بطنه، وكانت التربية النبوية قد صاغته تلك الصياغة العالية، فهو يمثل شريعة الله في هذه الأرض، ومن شريعة الله ألا يأكل مما لم يُذكر اسم الله، أو ذُكر عليه غير اسم الله، وإذا خبيب ﷺ

يقف الموقف نفسه، ويتعرض للمحنة نفسها، فيرتفع نفس الارتفاع، ويسمو السمو نفسه، وذلك حين تأثرت النساء به فقلن له: يا خبيب، هل لك من حاجة؟ قال: **لا، إلا أن تسقيني العَذْب، ولا تطعميني ما ذُبح على النصب، وتخبريني إذا أرادوا قتلي**». [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٥٧-٢٥٨].

٤٠ ـ الدعوة إلى الله داخل المحنة:

يقول د/ الغضبان: «وهما يقفان الموقف نفسه بصفتهما دعاة إلى الله ﷻ وسط هذا الوحل من الشرك، فهم في الليل صافين أقدامهم بين يدي ربهم ﷻ، يناجونه ويتضرعون إليه، ويصومون نهارهم قربى إلى الله، إنهما نموذجان حيان للإنسان المسلم الداعية «**وكان خبيب يتهجد بالقرآن، وكان يسمعه النساء فيبكين ويرفقن عليه...**»، «**وكان زيد بن الدَّثِنَةِ عند آل صفوان بن أمية محبوسًا في حديد، وكان يتهجد بالليل ويصوم بالنهار**».

لقد كان زيد وخبيب رضي الله عنهما هما حديث قريش، وحديث نسائها وأطفالها، فهما طراز لا مثيل عندهم، وقد فرضا احترامهما رغم العداوة والحقد، وكانت فرصة طيبة، ومناسبة ثمينة ليحقق الأسيران هدفهما في الدعوة إلى الله، وذلك بانتظار انصرام الأشهر الحرم، ليُقتلا خارج الأشهر، وخارج الحرم، وأن تدع مسلمًا داعية قائدًا وسط بيت من الشرك ـ حتى ولو كان أسيرًا ـ مثل هذا الأمر: كفيل أن يغزو قلوب هذا البيت، ويكون الحديث عنه ملء أفئدة رجاله ونسائه وأطفاله «**وكان يسمعه النساء فيبكين ويرفقن عليه..**».

ويلتقي الأخوان الحبيبان يوم خروجهما للقتل، مثل يتيمين في المدينة فتتعانق أرواحهما قبل تعانق أجسادهما، وإذا هما روح واحدة، يوصي كل واحد منهما أخاه بالصبر والثبات على الدين أمام جموع مكة الحاشدة، والتي خرجت لتحقق ثأرها من محمد ﷺ.

وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة، فلم يتخلف أحد، إما موتور فهو يريد أن يتشافى بالنظر من وتره، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله.

وأمام هذه الحشود الجامعة تتجسد بين يدينا من جديد قصة أصحاب الأخدود في حزب محمد ﷺ، وإذا الغلام المؤمن يكبر ليكون الرجل المؤمن، وتأتي قصة كتابة تاريخ هذا الدين بالدم الزكي، والدعوة إلى الله بالشهادة في سبيله، وتأتي مغريات الدنيا، فإما الموت والصلب، وإما الحياة الرغيدة الهنيئة، لهذين البطلين القِرمين.

ويقف العظيمان الموقف نفسه وهما يُخرجان مخبوء قلبيهما ومكنون صدريهما نحو قائدهما الحبيب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ علاقة الحب والتفاني في الحب.

وأنطق الحق أبا سفيان بن حرب ـ قائد الشرك آنذاك ـ كلمة مضت مثلًا في التاريخ وهزت كيان مكة كله، وغزت قلوب المحتشدين شيبهم وشبابهم ونسائهم.

لقد سطَّر هذان العظيمان بدمهما أنصع صفحات التاريخ الإسلامي، وأعظم دعوة إلى الله ﷺ لهذا الدين، فهذا الطراز الرفيع من الرجال هو الذي تحاربه قريش، فكيف ينتصرون عليه؟

ولئن مضى زيد رضي الله عنه صامتًا إلى ربه فقد مضى خبيب رضي الله عنه وأضاف سُنَّة لكل مسلم في الأرض، «**فلما انتهوا بخبيب إلى خشبته قال: هل أنتم تاركي فأصلي ركعتين؟ قالوا: نعم، فركع ركعتين أتمهما من غير أن يطول فيهما...**».

وشاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن تظهر كرامة خبيب رضي الله عنه خاصة، كما حدثتنا ماوية التي غزا قلبها رضي الله عنها.

وظهرت الكرامة الأكبر أمام الحشد كله: «فاضطرب على الخشبة فانقلب فصار وجهه إلى الكعبة، فقال: «**الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيه وللمؤمنين**».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٥٨-٢٦٠].

٤١ ـ هشاشة الباطل رغم انتفاضه:

يقول د/ الغضبان: «ورغم كل مظاهر الحقد والعداوة في قتل خبيب رضي الله عنه، والذي يربون عليه أولادهم، فقد تزلزل الأخنس بن شريق أمام ذكر خبيب رضي الله عنه لحبيبه المصطفى ﷺ وهو يُقتل، فقال: «**لو تَرَك ذكر محمد على حال لتركه على هذه الحال، ما رأينا قط والدًا يجد** (من الوجد وهو زيادة الحب) **بولده ما يجد أصحاب محمد بمحمد ﷺ**».

ورغم كل مظاهر الحقد هذه، فقد تكشف ضعف المجتمع الجاهلي كله، أمام دعوة خبيب رضي الله عنه وهو على خشبته، تلك الدعوة التي صعقت قادة مكة، كما وصفها من حضر تلك الدعوة.

إنهم في حقيقة أمرهم يعرفون مقام خبيب رضي الله عنه عند الله، ويعرفون أنه على الحق الأملق، ولا أدل على ذلك من خشيتهم من دعوته، وإن ثباته، وتحديه، وصلاته، وسلوكه، قد غزاهم في قلوبهم جميعًا، فكانت خيوط النور الأولى التي تسللت إلى قلوبهم من خلاله، وما منهم من أحد إلا أكرمه الله بالإسلام بعد ذلك.

أما المأفونون من المنافقين الذين يتحركون في الظلام فراحوا يتهامسون بينهم بالنقد والتشفي، ويتمسحون في الحرص على الإسلام وأهله، فنزل القرآن عليهم كالصواعق ليفضحهم، ويفضح ملمسهم الناعم النجس: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ

ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة].

ومضت سرية الرجيع رمزًا من رموز هذه الأمة، وسجلًا من سجلات صمودها، ومضى خبيب رضي الله عنه خاصة علمًا على الصبر، والثبات والتضحية، حتى لينشد المسلمون فيه الأشعار وخاصة: ملك البيان في عهد النبوة حسان بن ثابت رضي الله عنه». [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٦١-٢٦٢].

٤٢ ـ غلظة طبع الجاهليين:

يقول أ/ فتح الباب: «وتدل هذه الواقعة على مدى ما بلغته قريش في جاهليتها من غِلظة الطبع وبشاعة الجرم، يستوي في ذلك رجالها ونساؤها.

فامرأة مثل هند أو سلافة لا تجد سبيلًا للتنفس عن حقدها الكظيم غير أحط وسائل الثأر وأبشعها، فإذا لوحظ أن الشهيدين حمزة وعاصمًا رضي الله عنهما قد قَتلا بعض المشركين في معركة جماعية متكافئة، تبين مدى مخالفة قريش حين مثلت بجثث أعدائها المحاربين لأبسط مبادئ الحرب كما عرفها الإنسان من قديم، دلالة على فساد المجتمع الجاهلي وحتمية العمل على تغييره للخلاص من شروره وآثامه، وإنشاء مجتمع جديد يقوم على القيم الروحية والمبادئ الإنسانية السامية». [القيم الخلقية لفتح الباب ١٠٠].

٤٣ ـ حقد الكفر على أهل التوحيد:

يقول م/ أبو راس: «لقد ظهر جليًّا في هذه السرية حقدُ الكفر ـ على اختلاف مشاربه ـ على أهل التوحيد أيًّا كانوا دون النظر إلى روابط اللغة والتاريخ والنسب!

إذ إن الأمر الأساسي والأولي الذي يحرك الإنسان أيًّا كان هذا الإنسان إنما هو عقيدته التي يؤمن بها والتي يتحرك في سبيلها.

وهذا هو الأمر الذي حاول شياطين الإنس والجن أن يزحزحوا المسلمين عنه إذ لم تعد العقيدة الإسلامية هي التي تحرك المسلمين أو ترسم لهم مبادئهم وأهدافهم ومنطلقاتهم لهذه الأهداف، وذلك بعد أن استورد عصبة من بني جلدتنا ـ الذين تربوا على أيدي الشرق والغرب ـ مبادئ منحرفة لا هدف لها إلا تفتيت المسلمين ليلتفوا حول عصبيات مهزوزة هزيلة، فأصبحت القوميات والوطنيات هي المسيطرة عليهم، المحركة لهم.. الأمر الذي أدى إلى ضياعهم وذهاب ريحهم».

[تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢١٧-٢١٨].

٤٤ ـ تمحيص المؤمنين:

يقول د/ البوطي: «قد يتساءل البعض: فما الحكمة في تمكين يد الغدر من هؤلاء الفتية المؤمنين الذين لم يخرجوا إلا استجابة لأمر الله ورسوله؟ وهلَّا مكنهم الله من أعدائهم ليتغلبوا عليهم؟

والجواب هو كما ذكرناه أكثر من مرة من أن الله تعالى تَعَبَّد عباده بتحقيق أمرين اثنين: إقامة المجتمع المسلم، والسعي إلى ذلك في طريق شائكة غير معبدة، والحكمة من ذلك أن تتحقق عبودية الإنسان لله تعالى، وأن يُمَحَّصَ الصادقون عن المنافقين، وأن يتخذ الله منهم شهداء، وأن يتجلى المعنى التنفيذي للمبايعة التي جرت بين الله وعباده المؤمنين والتي صرح بها قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[التوبة].

وأي معنى كان يبقى للتوقيع على صك هذه المعاهدة، لو أن كل ما جاء في مضمونها وَهْمٌ لا يتحقق؟!

بل وأي قيمة تبقى حينئذ لهذا التوقيع حتى يحرز به صاحبه الجنة والسعادة الأبدية الخالدة.

والمشكلة في أساسها إنما تطوف في رأس من قَدَّر هذه الحياة العاجلة أكثر من قدرها الحقيقي وأولاها أكثر مما تستحق من الاهتمام، وضعف تعلقه في المقابل بالحياة الآخرة وشأنها، وتلك هي آية عدم الإيمان بالله تعالى أو ضعفه في النفس، ومثل هؤلاء الناس لا يُنتظر منهم أن يغامروا بروح ولا مال، أما المؤمنون حقًّا فالمشكلة غير متصورَّة لديهم من أساسها، فلذة الحياة الدنيا في يقينهم، أقل شأنًا من أن تحبس المسلم عن أداء أصغر طاعة يتقرب بها إلى خالقه، وما التضحية بالروح في يقينهم إلا الانطلاقة من سجن الدنيا إلى نعيم الآخرة، وأَنْعِم بها من غاية هي كل أمل المسلم في حياته التي يعيشها، وهذا الشعور يتجلى بأوضح صورة في الأبيات التي قالها خبيب رضي الله عنه عند مقتله، خاصة في آخر بيت منها وهو يقول:

فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلعَدُوِّ تَخَشُّعًا وَلَا جَزَعًا إِنِّي إِلَى اللهِ مَرْجِعِي[1]

[**فقه السيرة للبوطي ٢٠١-٢٠٢**].

٤٥ ـ دلالات يوم الرجيع:

يقول الشيخ أبو زهرة: «إن يوم الرجيع يدل على أمور ثلاثة:

أولها: ما كان من تحريض قريش من غدر وخيانة واستخدام أخس أنواع الخيانة.

وثانيها: أن قريشًا لم يشتفوا لثاراتهم من بدر، وأنهم أنهوا الحرب في أُحد غير مختارين، وإلا لبقوا حتى يأخذوا بكل ثاراتهم، وأنه قد جدت لهم في أُحد ثارات أخرى.

وثالثها: أن العرب بسبب الدعاية التي قامت بها قريش من إشاعة أن جموع محمد ﷺ قد هُزمت، قد وجد فيهم من يعمل لحسابها، ويرجو رضاها، ولم يكن شيء من ذلك بين بدر وأُحد، ولكنه كان بعد أُحد لإشاعة الهزيمة الكاذبة والله أعلم». [**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٤٢**].

---

(١) **التخشع**: التذلل.

٤٦ ـ فوائد ذكرها الإمام ابن حجر:

قال ابن حجر:

(١) وَفِي الحَدِيثِ أَنَّ لِلأَسِيرِ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنْ قَبُولِ الأَمَانِ وَلَا يُمَكِّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَلَوْ قُتِلَ، أَنَفَةً مِنْ أَنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ حُكْمُ كَافِرٍ، وَهَذَا إِذَا أَرَادَ الأَخْذَ بِالشِّدَّةِ، فَإِنْ أَرَادَ الأَخْذَ بِالرُّخْصَةِ لَهُ أَنْ يَسْتَأْمِنَ.

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: لَا بَأْسَ بِذَلِكَ. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: أَكْرَهُ ذَلِكَ.

(٢) وَفِيهِ الوَفَاءُ لِلمُشْرِكِينَ بِالعَهْدِ، وَالتَّوَرُّعُ عَنْ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ، وَالتَّلَطُّفُ بِمَنْ أُرِيدَ قَتْلُهُ، وَإِثْبَاتُ كَرَامَةِ الأَوْلِيَاءِ، وَالدُّعَاءُ عَلَى المُشْرِكِينَ بِالتَّعْمِيمِ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَ القَتْلِ.

(٣) وَفِيهِ إِنْشَاءُ الشِّعْرِ وَإِنْشَادُهُ عِنْدَ القَتْلِ، وَدَلَالَةٌ عَلَى قُوَّةِ يَقِينِ خُبَيْبٍ رضي الله عنه وَشِدَّتِهِ فِي دِينِهِ.

(٤) وَفِيهِ أَنَّ اللهَ يَبْتَلِي عَبْدَهُ المُسْلِمَ بِمَا شَاءَ كَمَا سَبَقَ فِي عِلمِهِ لِيُثِيبَهُ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ.

(٥) وَفِيهِ اِسْتِجَابَةُ دُعَاءِ المُسْلِمِ وَإِكْرَامُهُ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَإِنَّمَا اِسْتَجَابَ اللهُ لَهُ فِي حِمَايَةِ لَحْمِهِ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْ قَتْلِهِ؛ لِمَا أَرَادَ مِنْ إِكْرَامِهِ بِالشَّهَادَةِ، وَمِنْ كَرَامَتِهِ حِمَايَتُهُ مِنْ هَتْكِ حُرْمَتِهِ بِقَطْعِ لَحْمِهِ.

(٦) وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مُشْرِكُو قُرَيْش مِنْ تَعْظِيمِ الحَرَمِ وَالأَشْهُرِ الحُرُمِ. [فتح الباري ٧/ ٤٤٤-٤٤٥].

الفصل الرابع
سرية بئر معونة (خيانة وقتل القراء السبعين)
صفر ٤ هـ / يوليه (تموز) ٦٢٥ م / أبيب ٣٤١ قبطي

المبحث الأول
عرض سرية بئر معونة (خيانة وقتل القراء السبعين)

القُرَّاء من أصحاب الرسول ﷺ:

عَنْ ثَابِتٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ فَكَتَبَ كِتَابًا بَيْنَ أَهْلِهِ، فَقَالَ: اشْهَدُوا يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، قَالَ ثَابِتٌ: فَكَأَنِّي كَرِهْتُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، لَوْ سَمَّيْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، قَالَ: وَمَا بَأْسُ ذَلِكَ أَنْ أَقُلْ لَكُمْ: قُرَّاءُ، أَفَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنْ إِخْوَانِكُمْ الَّذِينَ كُنَّا نُسَمِّيهِمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْقُرَّاءَ، فَذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعِينَ، فَكَانُوا إِذَا جَنَّهُمْ اللَّيْلُ انْطَلَقُوا إِلَى مُعَلِّمٍ لَهُمْ بِالمَدِينَةِ، فَيَدْرُسُونَ اللَّيْلَ حَتَّى يُصْبِحُوا، فَإِذَا أَصْبَحُوا فَمَنْ كَانَتْ لَهُ قُوَّةٌ اسْتَعْذَبَ مِنْ المَاءِ، وَأَصَابَ مِنْ الحَطَبِ، وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ سَعَةٌ اجْتَمَعُوا فَاشْتَرَوْا الشَّاةَ وَأَصْلَحُوهَا، فَيُصْبِحُ ذَلِكَ مُعَلَّقًا بِحُجَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أُصِيبَ خُبَيْبٌ ﷺ بَعَثَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَفِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ، فَقَالَ حَرَامٌ لِأَمِيرِهِمْ: **دَعْنِي فَلْأُخْبِرْ هَؤُلَاءِ أَنَّا لَسْنَا إِيَّاهُمْ نُرِيدُ؛ حَتَّى يُخْلُوا وَجْهَنَا**، وَقَالَ عَفَّانُ: فَيُخْلُونَ وَجْهَنَا، فَقَالَ لَهُمْ حَرَامٌ: **إِنَّا لَسْنَا إِيَّاكُمْ نُرِيدُ، فَخَلُّوا وَجْهَنَا**، فَاسْتَقْبَلَهُ رَجُلٌ بِالرُّمْحِ فَأَنْفَذَهُ مِنْهُ، فَلَمَّا وَجَدَ الرُّمْحَ فِي جَوْفِهِ قَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**، قَالَ: فَانْطَوَوْا عَلَيْهِمْ، فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ، فَقَالَ أَنَسٌ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَجَدَ عَلَى شَيْءٍ قَطُّ وَجْدَهُ عَلَيْهِمْ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْغَدَاةِ رَفَعَ يَدَيْهِ فَدَعَا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَبُو طَلْحَةَ يَقُولُ لِي: هَلْ لَكَ فِي قَاتِلِ حَرَامٍ؟ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: مَا لَهُ فَعَلَ اللهُ بِهِ وَفَعَلَ؟ قَالَ: مَهْلًا، فَإِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ، وَقَالَ عَفَّانُ: رَفَعَ يَدَيْهِ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَقَالَ أَبُو النَّضْرِ: رَفَعَ يَدَيْهِ.

[مسند أحمد ١٩/ ٣٩٣-٣٩٥ رقم ١٢٤٠٢، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

سبب خروج القراء من أصحاب رسول الله ﷺ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رِعْلًا وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ اسْتَمَدُّوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى عَدُوٍّ، فَأَمَدَّهُمْ بِسَبْعِينَ مِنْ الأَنْصَارِ كُنَّا نُسَمِّيهِمْ الْقُرَّاءَ فِي زَمَانِهِمْ، كَانُوا يَحْتَطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، حَتَّى كَانُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قَتَلُوهُمْ وَغَدَرُوا بِهِمْ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو فِي الصُّبْحِ عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: فَقَرَأْنَا فِيهِمْ قُرْآنًا، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ رُفِعَ: «**بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا**».

[البخاري في المغازي (٤٠٩٠)].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ أَتَاهُ رِعْلٌ وَذَكْوَانُ وَعُصَيَّةُ وَبَنُو لِحْيَانَ، فزعَمُوا [فَأَخْبَرُوهُ] أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا، وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَمَدَّهُمُ النَّبِيُّ [رَسُولُ الله] ﷺ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ [فِي زَمَانِهِمْ]، [كَانُوا] يَحْطِبُونَ [يَحْتَطِبُونَ] بِالنَّهَارِ، وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، فَانْطَلَقُوا بِهِمْ حَتَّى بَلَغُوا [إِذَا أَتَوْا] بِئْرَ مَعُونَةَ غَدَرُوا بِهِمْ، وَقَتَلُوهُمْ، فَقَنَتَ [رَسُولُ الله ﷺ] شَهْرًا [فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ] يَدْعُو عَلَى [هَذِهِ الأَحْيَاءِ:] رِعْلٍ وَذَكْوَانَ [وَعُصَيَّةَ] وَبَنِي لِحْيَانَ.

قَالَ قَتَادَةُ: وَحَدَّثَنَا أَنَسٌ أَنَّهُمْ قَرَأُوا بِهِمْ قُرْآنًا: «**أَلاَ بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا بِأَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا**»، ثُمَّ [نُسِخَ أَوْ] رُفِعَ ذَلِكَ بَعْدُ.

[وَقَالَ ابْنُ جَعْفَرٍ: ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ أَوْ رُفِعَ].

[البخاري في الجهاد (٣٠٦٤)، ومسند أحمد ١٩/ ١١٩ رقم ١٢٠٦٤، ٢١/ ٢٥٣ رقم ١٣٦٨٣].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَنْ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمْ الْقُرَّاءُ، فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ، وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيؤُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ، فَبَعَثَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضُوا [فَتَفَرَّقُوا] لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ، فَقَالُوا: **اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا**، قَالَ: وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ ﷺ مِنْ خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ، فَقَالَ حَرَامٌ ﷺ: «**فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**»، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا** [لِرَبِّهِمْ]: **اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا**». [مسلم في الإمارة (٦٧٧)، ومسند أحمد ٢١/ ٣٤١ رقم ١٣٨٥٤].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: **بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْعِينَ رَجُلًا لِحَاجَةٍ يُقَالُ لَهُمْ الْقُرَّاءُ، فَعَرَضَ لَهُمْ حَيَّانِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ رِعْلٌ وَذَكْوَانُ عِنْدَ بِئْرٍ يُقَالُ لَهَا بِئْرُ مَعُونَةَ، فَقَالَ الْقَوْمُ: وَالله مَا إِيَّاكُمْ أَرَدْنَا، إِنَّمَا نَحْنُ مُجْتَازُونَ فِي حَاجَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَتَلُوهُمْ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ شَهْرًا فِي صَلَاةِ الْغَدَاةِ، وَذَلِكَ بَدْءُ الْقُنُوتِ وَمَا كُنَّا نَقْنُتُ.**

قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: وَسَأَلَ رَجُلٌ أَنَسًا ﷺ عَنْ الْقُنُوتِ: أَبَعْدَ الرُّكُوعِ أَوْ عِنْدَ فَرَاغٍ مِنْ الْقِرَاءَةِ؟ قَالَ: لَا، بَل عِنْدَ فَرَاغٍ مِنْ الْقِرَاءَةِ. [البخاري في المغازي (٤٠٨٨)].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَانَ شَبَابٌ [فِتْيَةٌ بِالْمَدِينَةِ] مِنَ الْأَنْصَارِ سَبْعِينَ رَجُلًا يُسَمَّوْنَ [يُقَالُ لَهُمُ] الْقُرَّاءَ.

قَالَ: كَانُوا يَكُونُونَ فِي المَسْجِدِ فَإِذَا أَمْسَوْا انْتَحَوْا نَاحِيَةً مِنَ المَدِينَةِ، فَيَتَدَارَسُونَ وَيُصَلُّونَ يَحْسِبُ أَهْلُوهُمْ أَنَّهُمْ فِي المَسْجِدِ، وَيَحْسِبُ أَهْلُ المَسْجِدِ أَنَّهُمْ عِنْدَ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى إِذَا كَانُوا فِي وَجْهِ الصُّبْحِ اسْتَعْذَبُوا مِنَ المَاءِ، وَاحْتَطَبُوا مِنَ الحَطَبِ، فَجَاؤُوا بِهِ فَأَسْنَدُوهُ إِلَى حُجْرَةِ رَسُولِ الله ﷺ، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ جَمِيعًا، فَأُصِيبُوا يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَتَلَتِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا فِي صَلَاةِ الْغَدَاةِ.

[مسند أحمد ٢١/ ١٢٦-١٢٧ رقم ١٣٤٦٢، ١٣٤٦٣، ١٣٤٦٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح، وأخرجه البيهقي في السنن ٢/ ١٩٩، وفي الدلائل ٣/ ٣٥٠].

عامر بن الطفيل ومساومة الرسول ﷺ:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ [حَرَامًا] خَالَهُ أَخٌ لِأُمِّ سُلَيْمٍ فِي سَبْعِينَ رَاكِبًا [رَجُلًا] [إِلَى بَنِي عَامِرٍ]، وَكَانَ رَئِيسَ المُشْرِكِينَ [يَوْمَئِذٍ] عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، [وَكَانَ هُوَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: اخْتَرْ مِنِّي ثَلَاثَ خِصَالٍ:]، خَيَّرَ بَيْنَ ثَلَاثِ خِصَالٍ، فَقَالَ: **يَكُونُ لَكَ أَهْلُ السَّهْلِ وَلِي أَهْلُ المَدَرِ [الْوَبَرِ]، أَوْ أَكُونُ خَلِيفَتَكَ، أَوْ أَغْزُوكَ بِأَهْلِ غَطَفَانَ بِأَلفٍ وَأَلفٍ [أَلْفِ أَشْقَرَ وَأَلْفِ شَقْرَاءَ]**، فَطُعِنَ عَامِرٌ فِي بَيْتِ أُمِّ فُلَانٍ [امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي فُلَانٍ]، فَقَالَ: **غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَكْرِ [الْبَعِيرِ] فِي بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ آلِ [بَنِي] فُلَانٍ، ائْتُونِي بِفَرَسِي**، [فَأُتِيَ بِهِ فَرَكِبَهُ]، فَمَاتَ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ.

فَانْطَلَقَ حَرَامٌ أَخُو أُمِّ سُلَيْمٍ وَهُوَ رَجُلٌ أَعْرَجُ، وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي فُلَانٍ [وَرَجُلَانِ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ [تفرد عبد الصمد عن همام فقال: من بني أمية، وقال غيره عنه: من بني فلان، ولم يشتهر عند أهل السير أنه كان في هذه السرية أحد من بني أمية. مسند أحمد ٢٠/ ٤٢٠]، وَرَجُلٌ أَعْرَجُ، فَقَالَ لَهُمْ] قَالَ: **[أَتَقَدَّمُكُمْ] كُونَا قَرِيبًا حَتَّى آتِيَهُمْ، فَإِنْ آمَنُونِي كُنْتُمْ [وَإِلَّا كُنْتُمْ [مِنِّي] قَرِيبًا]، وَإِنْ قَتَلُونِي أَتَيْتُمْ [أَعْلَمْتُمْ] أَصْحَابَكُمْ**.

[قَالَ: فَأَتَاهُمْ حَرَامٌ]، فَقَالَ: **أَتُؤْمِنُونِي أُبَلِّغْ رِسَالَةَ رَسُولِ الله ﷺ** [إِلَيْكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ،]، [فَتَقَدَّمَ فَأَمَّنُوهُ]، فَجَعَلَ [فَبَيْنَمَا هُوَ] يُحَدِّثُهُمْ [عَنْ رَسُولِ الله ﷺ]، وَأَوْمَؤُوا إِلَى رَجُلٍ فَأَتَاهُ مِنْ خَلفِهِ فَطَعَنَهُ.

قَالَ هَمَّامٌ: أَحْسِبُهُ حَتَّى أَنْفَذَهُ بِالرُّمْحِ، قَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ! فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**، فَلُحِقَ الرَّجُلُ فَقُتِلُوا كُلُّهُمْ غَيْرَ الأَعْرَجِ [ثُمَّ مَالُوا عَلَى بَقِيَّةِ أَصْحَابِهِ فَقَتَلُوهُمْ، إِلَّا رَجُلًا أَعْرَجَ مِنْهُمْ]، كَانَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ [كَانَ قَدْ صَعِدَ الجَبَلَ ـ قَالَ هَمَّامٌ: فَأُرَاهُ قَدْ ذَكَرَ مَعَ الْأَعْرَجِ آخَرَ مَعَهُ عَلَى الجَبَلِ ـ قَالَ: وَحَدَّثَنَا أَنَسٌ، أَنَّ: جِبْرِيلَ عليه السلام أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ قَدْ لَقُوا رَبَّهُمْ، فَرَضِيَ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ].

[قَالَ أَنَسٌ:] فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْنَا [وَكَانَ مِمَّا يُقْرَأُ] [كَانُوا يَقْرَؤُونَ]، ثُمَّ كَانَ مِنَ المَنْسُوخِ: «**[أَنْ بَلِّغُوا قَوْمَنَا،] إِنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا**».

فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ ثَلَاثِينَ [أَرْبَعِينَ] صَبَاحًا: عَلَى رِعْلٍ، وَذَكْوَانَ، وَبَنِي لَحْيَانَ، وَعُصَيَّةَ الَّذِينَ عَصَوْا اللهَ ﷻ وَرَسُولَهُ ﷺ [أَوْ عَصَوْا الرَّحْمَنَ]. [البخاري في المغازي (٤٠٩١)، وفي الجهاد والسير (٢٨٠١)، ومسند أحمد ٢٠/ ٤٢٠ رقم ١٣١٩٥، ٢١/ ٤٥٧ رقم ١٤٠٧٤].

وَعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ ﷺ: أَنَّ عَامِرَ بن الطُّفَيْلِ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ المَدِينَةَ، فَرَاجَعَ النَّبِيَّ ﷺ وَارْتَفَعَ صَوْتُهُ، وَثَابِتُ بن قَيْسٍ ﷺ قَائِمٌ بِسَيْفِهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا عَامِرُ، غُضَّ مِنْ صَوْتِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: وَمَا أَنْتَ وَذَاكَ؟ فَقَالَ ثَابِتٌ: أَمَا وَالَّذِي أَكْرَمَهُ، لَوْلَا أَنْ يَكْرَهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَضَرَبْتُ بِهَذَا السَّيْفِ رَأْسَكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرٌ وَهُوَ جَالِسٌ وَثَابِتٌ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: أَمَا وَاللهِ يَا ثَابِتُ، لَئِنْ عُرِضَتْ نَفْسُكَ لِي لَتُوَلِّيَنَّ عَنِّي، فَقَالَ ثَابِتٌ: أَمَا وَاللهِ يَا عَامِرُ، لَئِنْ عُرِضَتْ نَفْسُكَ لِلِسَانِي لَتَكْرَهَنَّ حَيَاتِي، فَعَطَسَ ابْنُ أَخٍ لِعَامِرٍ، فَحَمِدَ اللهَ، فَشَمَّتَهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ عَطَسَ عَامِرٌ، فَلَمْ يَحْمَدِ اللهَ، فَلَمْ يُشَمِّتْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ عَامِرٌ: شَمَّتَّ هَذَا الصَّبِيَّ وَتَرَكْتَنِي؟ قَالَ: «**إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللهَ**»، فَقَالَ: فَمَحْلُوفَةٌ، لأَمْلأَنَّهَا عَلَيْكَ خَيْلًا وَرِجَالًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَكْفِينِيكَ اللهُ وَابْنَا قِيلَةَ**»، ثُمَّ خَرَجَ عَامِرٌ، فَجَمَعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ بني سُلَيْمٍ أَبْطُنٌ ثَلاثَةٌ، هُمُ الَّذِينَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو عَلَيْهِمْ: عُصَيَّةُ وَذَكْوَانُ وَرِعْلٌ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عَلَيْهِمْ فِي صَلاةِ الصُّبْحِ: «**اللَّهُمَّ العَنْ لِحْيَانًا وَرِعْلًا وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ، اللهُ أَكْبَرُ**»، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ سَبْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، فَلَـمَّا سَمِعَ أَنَّ عَامِرًا قَدْ جَمَعَ لَهُ، بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَشْرَةً فِيهِمْ: عَمْرو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ، وسَائِرُهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ وَأَمِيرُهُمُ الْمُنْذِرُ بن عَمْرٍو، فَمَضَوْا حَتَّى نَزَلُوا بِئْرَ مَعُونَةَ، فَأَقْبَلَ، حَتَّى هَجَمَ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلا عَمْرُو بن أُمَيَّةَ، كَانَ فِي الرِّكَابِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ يومَ قُتِلُوا خَبَرَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**قَدْ قُتِلَ أَصْحَابُكُمْ فَرُؤوا رَأْيَكُمْ**»، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَامِرِ بنِ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِي عَامِرًا**»، فَكَفَاهُ اللهُ إِيَّاهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى نَزَلَ بِفِنَائِهِ، فَرَمَاهُ اللهُ بِالذَّبْحَةِ فِي حَلقِهِ فِي بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ سَلُولٍ، وَأَقْبَلَ يَنْزُو وَهُوَ يَقُولُ: يَا لِعَامِرٍ مِنْ غُدَّةٍ كَغُدَّةِ الجَمَلِ، فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ، يَرْغَبُ أَنْ يَمُوتَ فِي بَيْتِهَا، فَلَمْ يَزَل كَذَلِكَ حَتَّى مَاتَ فِي بَيْتِهَا، وَكَانَ زَيْدُ بن قَيْسٍ أَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ فَاحْتَرَقَ فَمَاتَ، وَرَجَعَ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ. [مجمع الزائد ٦/ ١٨٢-١٨٣ كتاب المغازي والسير (١٠١٢٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٦/ ١٢٦ رقم ٥٧٢٤]، وفيه عبد المهيمن بن عباس، وهو ضعيف].

جوار ملاعب الأسنة:

عَنْ كَعْبِ بن مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ مُلاعِبُ الأَسِنَّةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِهَدِيَّةٍ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الإِسْلامَ، فَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَإِنِّي لا أَقْبَلُ هَدِيَّةَ مُشْرِكٍ**».

قَالَ: فَابْعَثْ إِلَى أَهْلِ نَجْدٍ مَنْ شِئْتَ، فَأَنَا لَهُمْ جَارٌ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ بِقَوْمٍ فِيهِمُ الْمُنْذِرُ بن عَمْرٍو، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُقَالُ لَهُ: الْمُعْنِقُ، أَعْنَقَ عِنْدَ المَوْتِ، فَاسْتَجَاشَ عَلَيْهِمْ عَامِرُ بن الطُّفَيْلِ بني عَامِرٍ، فَأَبَوْا أَنْ يُطِيعُوهُ، وَأَبَوْا أَنْ يَخْفِرُوا مُلاعِبَ الأَسِنَّةِ، فَاسْتَجَاشَ عَلَيْهِمْ بني سُلَيْمٍ فَأَطَاعُوهُ، فَاتَّبَعَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ، فَأَدْرَكُوهُمْ بِبِئْرِ مَعُونَةَ، فَقَتَلُوهُمْ إِلا عَمْرَو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ. **[مجمع الزائد ٦/ ١٨٤ كتاب المغازي والسير (١٠١٢٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني (المعجم الكبير ١٩/ ٧٠-٧١ رقم ١٣٨، ١٣٩)، ورجاله رجال الصحيح].**

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن كَعْبِ بن مَالِكٍ، وَغَيْرِهِ، أَنَّ عَامِرَ بن مَالِكِ بن جَعْفَرٍ، الَّذِي يُدْعَى مُلاعِبَ الأَسِنَّةِ، قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُشْرِكٌ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ الإِسْلامَ، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي لا أَقْبَلُ هَدِيَّةَ مُشْرِكٍ**».

فَقَالَ عَامِرُ بن مَالِكٍ: ابْعَثْ يَا رَسُولَ الله، مَنْ شِئْتَ مِنْ رُسُلِكَ، فَأَنَا لَهُمْ جَارٌ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ رَهْطًا فِيهِمُ الْمُنْذِرُ بن عَمْرٍو السَّاعِدِيُّ ـ يُقَالُ لَهُ: أَعْنَقَ لِيَمُوتَ ـ عَيْنًا فِي أَهْلِ نَجْدٍ، فَسَمِعَ بِهِمْ عَامِرُ بن الطُّفَيْلِ فَاسْتَنْفَرَ لَهُمْ بني سُلَيْمٍ، فَنَفَرُوا مَعَهُ، فَقَتَلُوهُمْ بِبِئْرِ مَعُونَةَ غَيْرَ عَمْرِو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ، أَخَذَهُ عَامِرُ بن الطُّفَيْلِ، فَأَرْسَلَهُ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَكَانَ فِيهِمْ عَامِرُ بن فُهَيْرَةَ، فَزَعَمَ لِي عُرْوَةُ أَنَّهُ قُتِلَ يَوْمَئِذٍ فَلَمْ يُوجَدْ جَسَدُهُ حِينَ دَفَنُوهُ، يَقُولُ عُرْوَةُ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ المَلائِكَةَ هِيَ دَفَنَتْهُ، فَقَالَ حَسَّانٌ: يُحَرِّضُ عَلَى عَامِرِ بن الطُّفَيْلِ:

بَنِي أُمِّ البَنِينَ أَلَمْ يَرُعْكُمْ ... وَأَنْتُمْ مِنْ ذَوَائِبِ أَهْلِ نَجْدِ
تَهَكُّمُ عَامِرٍ بِأَبِي بَرَاءٍ ... لِيُخْفِرَهُ وَمَا خَطَأٌ كَعَمْدِ

فَطَعَنَ رَبِيعَةُ بن عَامِرِ بن مَالِكٍ عَامِرَ بن الطُّفَيْلِ ـ فِي خَفْرَتِهِ عَامِرَ بن مَالِكٍ ـ فِي فَخِذِهِ طَعْنَةً فَقَدَّهُ».

[مجمع الزائد ٦/ ١٨٤-١٨٥ كتاب المغازي والسير (١٠١٣٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٩/ ٧١-٧٢ رقم ١٤٠]، ورجاله رجال الصحيح].

وعَنْ مُحَمَّدِ بن إِسْحَاقَ، قَالَ: أَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْدَ أُحُدٍ بَقِيَّةَ شَوَّالٍ، وَذَا القَعْدَةِ، وَذَا الحِجَّةِ وَوَلِيَ تِلكَ الحَجَّةَ الْمُشْرِكُونَ، وَالْمُحَرَّمَ، ثُمَّ بَعَثَ أَصْحَابَ بِئْرِ مَعُونَةَ فِي صَفَرٍ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ أُحُدٍ.

فَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِمْ كَمَا حَدَّثَنِي أَبِي إِسْحَاقُ بن يَسَارٍ، عَنِ الْمُغِيرَةِ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن الحَارِثِ بن هِشَامٍ، وَعَبْدُ الله بن أَبِي بَكْرِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَمْرُو بنِ حَزْمٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالُوا: قَدِمَ أَبُو بَرَاءٍ عَامِرُ بن مَالِكِ بنِ جَعْفَرٍ مُلاعِبُ الأَسِنَّةِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ المَدِينَةَ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الإِسْلامَ وَدَعَاهُ إِلَيْهِ فَلَمْ يُسْلِمْ وَلَمْ يبعُدْ مِنَ الإِسْلامِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، لَوْ بَعَثْتَ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَى أَهْلِ نَجْدٍ فَدَعَوْهُمْ إِلَى الإِيمَانِ، رَجَوْتُ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ، فَابْعَثْهُمْ فَلْيَدْعُوا النَّاسَ إِلَى أَمْرِكَ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ الْمُنْذِرَ بن عَمْرٍو أَخَا

بني سَاعِدَةَ بن كَعْبِ بن الخَزْرَجِ المُعْنِقَ لِيَمُوتَ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ مِنْ خِيَارِهِمْ مِنْهُمُ الحَارِثُ بن الصِّمَّةِ، وَحَرَامُ بن مِلحَانَ أَخُو بَنِي عَدِيِّ بن النَّجَّارِ، وَعُرْوَةُ بن أَسْمَاءَ بن الصَّلتِ السُّلَمِيُّ، وَنَافِعُ بن بُدَيْلِ بن وَرْقَاءَ الخُزَاعِيُّ، وَعَامِرُ بن فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ، وَرِجَالٌ مُسَمَّوْنَ مِنْ خِيَارِ المُسْلِمِينَ، فَسَارُوا حَتَّى نَزَلُوا بِئْرَ مَعُونَةَ وَهِيَ بَيْنَ أَرْضِ بني عَامِرٍ، وَحَرَّةِ بَنِي سُلَيْمٍ، كِلا البَلَدَيْنِ مِنْهَا قَرِيبٌ، وَهِيَ مِنْ سُلَيْمٍ أَقْرَبُ، فَلَـمَّا نَزَلُوهَا بَعَثُوا حَرَامَ بن مِلحَانَ بِكِتَابِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى عَامِرِ بن الطُّفَيْلِ، فَلَـمَّا أَتَاهُمْ لَمْ يَنْظُرْ فِي كِتَابِهِ إِلَى أَنْ عَدَا عَلَى الرَّجُلِ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ اسْتَصْرَخَ عَلَيْهِمْ بَنِي عَامِرٍ، فَأَبَوْا أَنْ يُجِيبُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ، وَقَالُوا: لَنْ نَخْفِرَ أَبَا بَرَاءٍ، وَقَدْ عَقَدَ لَهُمْ عَقْدًا وَجِوَارًا، فَاسْتَصْرَخَ عَلَيْهِمْ قَبَائِلَ بَنِي سُلَيْمٍ: عُصَيَّةَ، وَرِعْلًا وذَكْوَانًا، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ فَخَرَجُوا حَتَّى غَشُوا القَوْمَ، فَأَحَاطُوا بِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ، فَلَـمَّا رَأَوْهُمْ أَخَذُوا أَسْيَافَهُمْ ثُمَّ قَاتَلُوهُمْ حَتَّى قُتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ، إِلا كَعْبَ بن زَيْدٍ أَخَا بَنِي دِينَارِ بنِ النَّجَّارِ، فَإِنَّهُمْ تَرَكُوهُ فِيهِ رَمَقٌ، فَارْتُثَّ مِنْ بَيْنِ القَتْلَى فَعَاشَ حَتَّى قُتِلَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، فَكَانَ فِي سَرْحِ القَوْمِ عَمْرُو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَحَدُ بَنِي عَمْرِو بن عَوْفٍ، فَلَمْ يُنَبِّئْهُمَا بِمُصَابِ إِخْوَتِهِمَا إِلا الطَّيْرُ تَحُومُ عَلَى العَسْكَرِ، فَقَالا: وَالله إِنَّ لِهَذِهِ الطَّيْرِ لَشَأْنًا، فَأَقْبَلا لِيَنْظُرَا، فَإِذَا القَوْمُ فِي دِمَائِهِمْ، فَإِذَا الخَيْلُ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ وَاقِفَةٌ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ لِعَمْرِو بن أُمَيَّةَ: مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى أَنْ نَلحَقَ بِرَسُولِ الله ﷺ فَنُخْبِرَهُ الخَبَرَ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: لَكِنِّي مَا كُنْتُ أَرْغَبُ بنفْسِي عَنْ مَوْطِنٍ قُتِلَ فِيهِ المُنْذِرُ بن عَمْرٍو، وَمَا كُنْتُ لَتُخْبِرَنِي عَنْهُ الرِّجَالُ، ثُمَّ قَاتَلَ القَوْمَ حَتَّى قُتِلَ، وَأُخِذَ عَمْرُو بن أُمَيَّةَ أَسِيرًا، فَلَـمَّا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مِنْ مُضَرَ أَطْلَقَهُ عَامِرُ بن الطُّفَيْلِ وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ، وَأَعْتَقَهُ عَنْ رَقَبَةٍ زَعَمَ أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى أُمِّهِ، فَخَرَجَ عَمْرُو بن أُمَيَّةَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالقَرْقَرَةِ مِنْ صَدْرِ قَنَاةٍ أَقْبَلَ رَجُلانِ مِنْ بني عَامِرٍ حَتَّى نَزَلا مَعَهُ فِي ظِلٍّ هُوَ فِيهِ، وَكَانَ لِلعَامِرِيَّيْنِ عَقْدٌ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَجِوَارٌ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِ عَمْرُو بن أُمَيَّةَ وَقَدْ سَأَلَهُمَا حِينَ نَزَلا: مِمَّنْ أَنْتُمَا؟ قَالا: مِنْ بني عَامِرٍ، فَأَمْهَلَهُمَا حَتَّى إِذَا نَامَا عَدَا عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُمَا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ أَصَابَ بِهِمَا ثَأْرَهُ مِنْ بني عَامِرٍ لِـمَا أَصَابُوا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، فَلَـمَّا قَدِمَ عَمْرُو بن أُمَيَّةَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَخْبَرَهُ الخَبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«لَئِنْ قَتَلتَ قَتِيلَيْنِ لأَدِيَنَّهُمَا»**، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«هَذَا عَمَلُ أَبِي بَرَاءٍ، قَدْ كُنْتُ لَهَا كَارِهًا مُتَخَوِّفًا»** فَبَلَغَ أَبَا بَرَاءٍ فَشَقَّ عَلَيْهِ إِخْفَارُ عَامِرٍ إِيَّاهُ، وَمَا أُصِيبَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَبَبِهِ وَجِوَارِهِ، وَقَالَ حَسَّانُ بن ثَابِتٍ يُحَرِّضُ بني أَبِي بَرَاءٍ عَلَى عَامِرِ بن الطُّفَيْلِ:

بَنِي أُمِّ البَنِينَ أَلَم يَرُعْكُمْ ... وَأَنْتُمْ مِنْ ذَوَائِبِ أَهْلِ نَجْدِ
تَهَكُّمُ عَامِرٍ بِأَبِي بَرَاءٍ ... لِيُخْفِرَهُ وَمَا خَطَأٌ كَعَمْدِ

أَلَا أَبْلِغْ رَبِيعَةَ ذَا المَسَاعِي ... فَمَا أَحْدَثْتَ فِي الحَدَثَانِ بَعْدِي[(١)]

أَبُوكَ أَبُو الحُرُوبِ أَبُو بَرَاءٍ ... وَخَالُكَ مَاجِدٌ حَكَمُ بْنُ سَعْدِ

فَحَمَلَ رَبِيعَةُ بن عَامِرٍ عَلَى عَامِرِ بن الطُّفَيْلِ، فَطَعَنَهُ بِالرُّمْحِ، فَوَقَعَ فِي فَخِذِهِ وَأَشْوَاهُ وَوَقَعَ عَنْ فَرَسِهِ، فَقَالَ: هَذَا عَمَلُ أَبِي بَرَاءٍ، فَإِنْ أَمُتْ فَدَمِي لِعَمِّي، فَلا يُتْبَعَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَعِشْ فَسَأَرَى رَأْيِي فِيمَا أَتَى إِلَيَّ. [مجمع الزائد ٦/ ١٨٦ - ١٨٨ كتاب المغازي والسير (١٠١٣٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٠/ ٣٥٦-٣٥٨ رقم ٨٤١]، ورجاله ثقات إلى ابن إسحاق].

وعَنْ عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ، قَالَ: ثُمَّ غَزْوَةُ الْمُنْذِرِ بن عَمْرٍو أَخِي بَنِي سَاعِدَةَ إِلَى بِئْرِ مَعُونَةَ، وَبَعَثَ مَعَهُمُ الْمُطَّلِبَ السُّلَمِيَّ لِيَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ، فَبَعَثَ أَعْدَاءُ الله إِلَى عَامِرِ بن الطُّفَيْلِ يَسْتَمِدُّونَهُ فَأَمَدَّهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقُتِلَ الْمُنْذِرُ بن عَمْرٍو وَأَصْحَابُهُ، إلا عُمْرو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ، فَإِنَّهُمْ أَسَرُوهُ فَاسْتَحْيَوْهُ حَتَّى قَدِمُوا بِهِ مَكَّةَ فَهُوَ دَفَنَ خُبَيْبَ بنَ عَدِيٍّ، وَعَرَضَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى عُرْوَةَ بن الصَّلتِ يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ أَنْ يُؤَمِّنُوهُ فَأَبَى، فَقَتَلُوهُ، فَذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ حِينَ أَحَاطَ بِهِمُ العَدُوُّ: **اللَّهُمَّ إِنَّا لا نَجِدُ مَنْ يُبَلِّغُ عَنَّا رَسُولَكَ غَيْرَكَ، اللَّهُمَّ فَاقْرَأْ عَلَيْهِ مِنَّا السَّلامَ وَأَخْبِرْهُ خَبَرَنَا.**

[مجمع الزائد ٦/ ١٨٥-١٨٦ كتاب المغازي والسير (١٠١٣١)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٠/ ٣٥٥-٣٥٦ رقم ٨٤٠]، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن إذا توبع عليه].

إخبار النبي ﷺ عن مقتل الشهداء:

قَالَ عَبْدُ الله بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الشَّهَادَاتِ، أَنْ تَقُولَ قُتِلَ فُلانٌ شَهِيدًا، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً (أنفة وغيرة)، ويُقَاتِلُ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، ويُقَاتِلُ وَهُوَ جَرِيءُ الصَّدْرِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكُمْ عَلَى مَا تَشْهَدُونَ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً ذَاتَ يَوْمٍ، فَلَمْ يَلبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى قَامَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **«إِنَّ إِخْوَانَكُمْ لَقُوا الْمُشْرِكِينَ فَاقْتَطَعُوهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: رَبَّنَا بَلِّغْ قَوْمَنَا أَنَّا قَدْ رَضِينَا وَرَضِيَ عَنَّا رَبُّنَا، فَأَنَا رَسُولُهُمْ إِلَيْكُمْ إِنَّهُمْ قَدْ رَضُوا وَرَضِيَ عَنْهُمْ رَبُّهُمْ»**.

[الحاكم في المستدرك كتاب الجهاد (٢٥٨١)، وقال الذهبي: هذا حديث صحيح الإسناد إن سلم من الإرسال فقد اختلف مشايخنا في سماع أبي عبيدة من أبيه، وله شاهد موقوف على شرط الشيخين. كنز العمال ١٠/ ٣٨٢ رقم ٢٩٨٩٨].

وفي لفظ: عَنْ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالشَّهَادَاتِ، فَإِنْ كُنْتُمْ لا بُدَّ فَاعِلِينَ فَاشْهَدُوا لِسَرِيَّةٍ بَعَثَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ فَأُصِيبُوا، فنَزَلَ فِيهِمْ: **«أَنْ بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا»**. [مجمع الزائد ٦/ ١٨٨-١٨٩ كتاب المغازي والسير (١٠١٣٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٠/ ١٨٩ رقم ١٠٢٩٤]، وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط].

---

(١) **المساعي**: السعي في طلب المجد والمكارم.

فيمن استشهد يوم بئر معونة:

عَنْ عُرْوَةَ فِي تَسْمِيَةِ مَنِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولُ الله ﷺ: أَوْسُ بنُ مُعَاذِ بنِ أَوْسِ الأَنْصَارِيُّ، وَالحَكَمُ بنُ كَيْسَانَ المَخْزُومِيُّ، وَالحَارِثُ بنُ الصِّمَّةِ الأَنْصَارِيُّ، وَسَهْلُ بنُ عَامِرِ بن سَعْدِ بنِ عَمْرِو بن ثَقِيفٍ الأَنْصَارِيُّ، وَمِنْ قُرَيْش ثُمَّ مِنْ بَنِي تَيم بن مُرَّةَ: عَامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ. [مجمع الزائد ٦/ ١٨٨ كتاب المغازي والسير (١٠١٣٣)، وقال الهيثمي: وفي إسناده ابن لهيعة وحديثه حسن إذا توبع وفيه ضعف].

وَعَنْ ابنِ شِهَابٍ فِي تَسْمِيَةِ مَنِ اسْتُشْهِدَ من المسلمين يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ: الحَارِثُ بن الصِّمَّةِ الأَنْصَارِيُّ.

[مجمع الزائد ٦/ ١٨٨ كتاب المغازي والسير (١٠١٣٤)، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح].

وَعَنْ مُحَمَّدِ بنِ إِسْحَاقَ فِي تَسْمِيَةِ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ: نَافِعُ بن بُدَيْلِ بن وَرْقَاءَ الخُزَاعِيُّ. [مجمع الزائد ٦/ ١٨٨ كتاب المغازي والسير (١٠١٣٥)، ولم يذكر فيه الهيثمي شيئًا].

فزت ورب الكعبة:

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: لـَمَّا طُعِنَ حَرَامُ بْنُ مِلحَانَ ﷺ ـ وَكَانَ خَالَهُ ـ يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ قَالَ بِالدَّمِ هَكَذَا فَنَضَحَهُ عَلَى وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: **فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**. [البخاري في المغازي (٤٠٩٢)].

عامر بن فهيرة ﷺ: الشهيد دفين الملائكة:

وَعَنْ عُرْوَةَ قَالَ: لـَمَّا قُتِلَ الَّذِينَ بِبِئْرِ مَعُونَةَ وَأُسِرَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، قَالَ لَهُ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ: **مَنْ هَذَا؟** فَأَشَارَ إِلَى قَتِيلٍ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ: **هَذَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ**، فَقَالَ: **لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدَ مَا قُتِلَ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَرْضِ، ثُمَّ وُضِعَ**، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ خَبَرُهُمْ فَنَعَاهُمْ، فَقَالَ: **إِنَّ أَصْحَابَكُمْ قَدْ أُصِيبُوا، وَإِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ فَقَالُوا: رَبَّنَا أَخْبِرْ عَنَّا إِخْوَانَنَا بِمَا رَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا**، فَأَخْبَرَهُمْ عَنْهُمْ، وَأُصِيبَ يَوْمَئِذٍ فِيهِمْ عُرْوَةُ بْنُ أَسْمَاءَ بْنِ الصَّلْتِ، فَسُمِّيَ عُرْوَةُ بِهِ، وَمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو سُمِّيَ بِهِ مُنْذِرًا. [البخاري في المغازي (٤٠٩٣)].

وَجْدُ رسول الله ﷺ عليهم:

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ، فَأُصِيبُوا، فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ عَلَى شَيْءٍ مَا وَجَدَ عَلَيْهِمْ، فَقَنَتَ شَهْرًا فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ وَيَقُولُ: «**إِنَّ عُصَيَّةَ عَصَوُا اللهَ وَرَسُولَهُ**».

[البخاري في الدعوات (٦٣٩٤)].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: **قَنَتَ رَسُولُ الله ﷺ شَهْرًا حِينَ قُتِلَ الْقُرَّاءُ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ حَزِنَ حُزْنًا قَطُّ أَشَدَّ مِنْهُ**. [البخاري في الجنائز (١٣٠٠)].

وعَنْ عَاصِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا ﷺ يَقُولُ: **مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَجَدَ عَلَى سَرِيَّةٍ مَا وَجَدَ عَلَى السَّبْعِينَ الَّذِينَ أُصِيبُوا يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ، كَانُوا يُدْعَوْنَ الْقُرَّاءَ فَمَكَثَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى قَتَلَتِهِمْ**.

[مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٧)، ومسند أحمد ١٩/ ١٤١ رقم ١٢٠٨٨].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: **مَا وَجَدَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى سَرِيَّةٍ مَا وَجَدَ عَلَيْهِمْ كَانُوا يُسَمَّوْنَ القُرَّاءَ، قَالَ سُفْيَانُ: نَزَلَ فِيهِمْ: «بَلِّغُوا قَوْمَنَا عَنَّا أَنَّا قَدْ رَضِينَا وَرَضِيَ عَنَّا»، قِيلَ لِسُفْيَانَ: فِيمَنْ نَزَلَتْ؟ قَالَ: فِي أَهْلِ بِئْرِ مَعُونَةَ.** [مسند أحمد ١٩/ ١٤١ رقم ١٢٠٨٧، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: **مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَجَدَ عَلَى شَيْءٍ قَطُّ مَا وَجَدَ عَلَى أَصْحَابِ بِئْرِ مَعُونَةَ، أَصْحَابِ سَرِيَّةِ الْمُنْذِرِ بْنِ عَمْرٍو، فَمَكَثَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى الَّذِينَ أَصَابُوهُمْ فِي قُنُوتِ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ، وَذَكْوَانَ، وَعُصَيَّةَ، وَلِحْيَانَ، وَهُمْ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ.**

[مسند أحمد ٢٠/ ٣٣٠ رقم ١٣٠٢٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

الدعاء على قتلة شهداء بئر معونة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رِعْلًا وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ اسْتَمَدُّوا رَسُولَ الله ﷺ عَلَى عَدُوٍّ، فَأَمَدَّهُمْ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ كُنَّا نُسَمِّيهِمْ القُرَّاءَ فِي زَمَانِهِمْ، كَانُوا يَحْتَطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، حَتَّى كَانُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قَتَلُوهُمْ وَغَدَرُوا بِهِمْ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو فِي الصُّبْحِ عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: فَقَرَأْنَا فِيهِمْ قُرْآنًا، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ رُفِعَ: «**بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا**».

وَعَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ حَدَّثَهُ أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ قَنَتَ شَهْرًا فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَدْعُو عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لِحْيَانَ.

زَادَ خَلِيفَةُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ حَدَّثَنَا أَنَسٌ ﷺ أَنَّ أُولَئِكَ السَّبْعِينَ مِنْ الأَنْصَارِ قُتِلُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ، قُرْآنًا: كِتَابًا نَحْوَهُ. [**البخاري في المغازي (٤٠٩٠)**].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَنَتَ النَّبِيُّ ﷺ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ. [**البخاري في الوتر (١٠٠٣)**].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَنَتَ رَسُولُ الله ﷺ شَهْرًا حِينَ قُتِلَ الْقُرَّاءُ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ حَزِنَ حُزْنًا قَطُّ أَشَدَّ مِنْهُ. [**البخاري في الجنائز (١٣٠٠)**].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: دَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا أَصْحَابَ بِئْرِ مَعُونَةَ ثَلَاثِينَ غَدَاةً [صَبَاحًا]، [حِينَ يَدْعُو] عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ [وَلِحْيَانَ، وَبَنِي عُصَيَّةَ] وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: أُنْزِلَ [فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ] فِي الَّذِينَ قُتِلُوا بِبِئْرِ [أَصْحَابِ بِئْرِ] مَعُونَةَ قُرْآنٌ قَرَأْنَاهُ، ثُمَّ [حَتَّى] نُسِخَ بَعْدُ: «**بَلِّغُوا [عَنَّا] قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا، فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ**».

[**البخاري في الجهاد (٢٨١٤)، وفي المغازي (٤٠٩٥)، ومسند أحمد ٢٠/ ٤٥٧، ٤٦٢ رقم ١٣٢٥٥، ١٣٢٦٥**].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَنَتَ شَهْرًا [بَعْدَ الرُّكُوعِ] يَلعَنُ [يَدْعُو عَلَى] رِعْلًا وَذَكْوَانَ، وَ[قَالَ:] «عُصَيَّةَ عَصَوْا [عَصَتْ] اللهَ وَرَسُولَهُ»**.

[مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٧)، وبنحوه النسائي في التطبيق (١٠٧٠، ١٠٧٧)، ومسند أحمد (١٢١٥٢، ١٣٩٥١، ١٣٩٥٢، ١٣١٢٠، ١٣٦٠١، ١٣٦٤١، ١٣٧٢٤، ١٣٧٢٥)].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: **قَنَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهْرًا بَعْدَ الرُّكُوعِ يَدْعُو عَلَى أَحْيَاءٍ مِنَ الْعَرَبِ [مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ][ثُمَّ تَرَكَهُ]**. [البخاري في المغازي (٤٠٨٩)، وفي الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٤١)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٧)، وأبو داود في الصلاة (١٤٤٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، والسنة فيها (١١٨٤)، والدارمي في الصلاة (١٦٣٧) تح الداراني، ومسند أحمد رقم ١٢١٥٠، ١٢٧٠٥، ١٢٩٩٠، ١٣٢٧٤، ١٣٧٥٢].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَنَتَ شَهْرًا فِي الصُّبْحِ، يَدْعُو عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ: عُصَيَّةَ، وَذَكْوَانَ، وَرِعْلٍ ـ وَلِحْيَانَ ـ. [مسند أحمد ٢٠/ ٩٤ رقم ١٢٦٥٥، ٢١/ ٤١٢ رقم ١٤٠٠٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَنَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهْرًا مُتَتَابِعًا فِي الظُّهْرِ، وَالْعَصْرِ، وَالْمَغْرِبِ، وَالْعِشَاءِ، وَالصُّبْحِ، فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ، إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، مِنَ الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ [الْآخِرَةِ]، يَدْعُو عَلَيْهِمْ، عَلَى حَيٍّ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، عَلَى رِعْلٍ، وَذَكْوَانَ، وَعُصَيَّةَ، وَيُؤَمِّنُ مَنْ خَلْفَهُ، أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلامِ، فَقَتَلُوهُمْ.

قَالَ عَفَّانُ فِي حَدِيثِهِ: قَالَ: وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هَذَا كَانَ مِفْتَاحَ الْقُنُوتِ. [مسند أحمد ٤/ ٤٧٥ رقم ٢٧٤٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح، وأبو داود في الصلاة (١٤٤٣)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وقَالَ عَاصِمٌ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ عَنِ الْقُنُوتِ [فِي الصَّلَاةِ]، فَقَالَ: قَدْ كَانَ الْقُنُوتُ [فَقَالَ: نَعَمْ]، قُلْتُ: [كَانَ] قَبْلَ الرُّكُوعِ أَوْ بَعْدَهُ؟ قَالَ: قَبْلَهُ، قَالَ [قُلْتُ]: فَإِنَّ فُلَانًا أَخْبَرَنِي عَنْكَ [يَزْعُمُ] أَنَّكَ قُلْتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، فَقَالَ: كَذَبَ، إِنَّمَا قَنَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ الرُّكُوعِ شَهْرًا ـ أُرَاهُ ـ [يَدْعُو عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ]، كَانَ بَعَثَ قَوْمًا [نَاسًا] يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ، زُهَاءَ سَبْعِينَ رَجُلاً إِلَى قَوْمٍ [نَاسٍ] مِنَ الْمُشْرِكِينَ دُونَ أُولَئِكَ، [فَعَرَضَ لَهُمْ هَؤُلَاءِ فَقَتَلُوهُمْ]، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ [قِبَلَهُمْ]، فَقَنَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ [بَعْدَ الرُّكُوعِ] شَهْرًا يَدْعُو عَلَيْهِمْ [فَمَا رَأَيْتُهُ وَجَدَ عَلَى أَحَدٍ مَا وَجَدَ عَلَيْهِمْ]. [البخاري في الوتر (١٠٠٢)، وفي المغازي (٤٠٩٦)، وفي الجزية (٣١٧٠)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٧)].

عَنْ مُحَمَّدٍ [ابْنِ سِيرِينَ] قَالَ: سُئِلَ أَنَسٌ ﷺ: أَقَنَتَ النَّبِيُّ ﷺ فِي [صَلَاةِ] الصُّبْحِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَوَقَنَتَ قَبْلَ الرُّكُوعِ [، أَوْ بَعْدَ الرُّكُوعِ؟]، قَالَ بَعْدَ الرُّكُوعِ يَسِيرًا. [البخاري في الوتر (١٠٠١)، وأبو داود في الصلاة (١٤٤٤)، والنسائي في التطبيق (١٠٧٠)، والدارمي في الصلاة (١٦٤٠)].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: سُئِلَ عَنِ الْقُنُوتِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، فَقَالَ: **كُنَّا نَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوعِ وَبَعْدَهُ**.

[ابن ماجه في إقامة الصلاة، والسنة فيها (١١٨٣)، ومسند أحمد ١٩/ ١٦٩ رقم ١٢١١٧، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

وعَنْ مُحَمَّدٍ [ابْنِ سِيرِينَ] قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺعَنِ الْقُنُوتِ، فَقَالَ: **قَنَتَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْدَ الرُّكُوعِ**. [ابن ماجه في إقامة الصلاة، والسنة فيها (١١٨٤)، ومسند أحمد ١٩/ ١٦٩ رقم ١٢١١٧، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنَ سِيرِينَ، قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، هَلْ قَنَتَ عُمَرُ؟ قَالَ: **نَعَمْ، وَمَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ عُمَرَ، رَسُولُ الله ﷺ، بَعْدَ الرُّكُوعِ**. [مسند أحمد ٢٠/ ١٢٦، ٤١٤ رقم ١٢٦٩٨، ١٣١٨٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعَيف لضعف محبوب بن الحسن، وسيأتي برقم ١٣٩٥٢ نفيُ قنوت عمر، من طريق شعبة، عن مروان الأصفر، عن أنس، وإسناده صحيح. وينظر (١٢١١٧)].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: إِنَّمَا قَنَتَ رَسُولُ الله ﷺ شَهْرًا يَدْعُو بَعْدَ الرُّكُوعِ [فِي صَلَاةِ الْغَدَاةِ].

[مسند أحمد ٢٠/ ٢٢٠، ٢٥٦ رقم ١٢٨٤٩، ١٢٩١١، ٢١/ ١٢، ١١٠، ٤١٣، رقم ١٣٢٨٠، ١٣٤٣١، ١٣٦٠٢، ١٤٠٠٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَنَتَ رَسُولُ الله ﷺ عِشْرِينَ يَوْمًا.

[مسند أحمد ٢٠/ ٤٠٠ رقم ١٣١٥٨، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن، وهذا الحديث من غرائب أبي بكر بن عياش، فالمحفوظ عن أنس من غير ما طريق عنه في قنوت النبي ﷺ أنه كان شهراً، وهو ما خرَّجه صاحبا الصحيح، ولم يخرِّجا غيره، لكن تابعه في أن قنوته ﷺ كان أقل من شهر عبيدةُ بن حميد، عن حميد الطويل فيما يأتي برقم (١٣٤٦٢) ففيه: خمسة عشر يوماً، وعبيدة لا بأس به، ووثقه غير واحد، فلعل الوهم ممَّن فوقهما، والله تعالى أعلم].

وعَنْ خُفَافِ بْنِ إِيمَاءٍ الغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِي صَلَاةٍ: «**اللَّهُمَّ العَنْ بَنِي لِحْيَانَ وَرِعْلًا وَذَكْوَانَ، وَعُصَيَّةَ عَصَوْا اللهَ وَرَسُولَهُ، غِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ**».

[مسلم في فضائل الصحابة ﷺ (٢٥١٧)].

وقَالَ خُفَافُ بْنُ إِيمَاءٍ ﷺ: رَكَعَ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**غِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ، وَعُصَيَّةُ عَصَتْ اللهَ وَرَسُولَهُ، اللَّهُمَّ العَنْ بَنِي لِحْيَانَ، وَالعَنْ رِعْلًا وَذَكْوَانَ**»، ثُمَّ وَقَعَ سَاجِدًا.

قَالَ خُفَافٌ: فَجُعِلَتْ لَعْنَةُ الكَفَرَةِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ. [مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٩)، ومسند أحمد عن إيماء بن رحضة ﷺ ٢٧/ ١٠٥-١٠٦ رقم ١٦٥٧١].

وعَنْ خُفَافِ بْنِ إِيمَاءَ بْنِ رَحَضَةَ الْغِفَارِيِّ ﷺ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ الصُّبْحَ وَنَحْنُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ قَالَ: «**لَعَنَ اللهُ لِحْيَانًا، وَرِعْلًا، وَذَكْوَانَ، وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ، أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ، وَغِفَارٌ غَفَرَ اللهُ لَـهَا**».

ثُمَّ وَقَعَ رَسُولُ الله ﷺ سَاجِدًا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَرَأَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي أَنَا لَسْتُ قُلْتُهُ، وَلَكِنَّ اللهَ ﷻ قَالَهُ**». [مسند أحمد ٢٧/ ١٠٣ رقم ١٦٥٧٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح].

ما قيل من الشعر في سرية بئر معونة وشهدائها:

شِعْرُ حَسَّانَ ﷺ فِي تَحْرِيضِ بَنِي أَبِي بَرَاءٍ عَلَى عَامِرٍ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ يُحَرِّضُ بَنِي أَبِي بَرَاءٍ عَلَى عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ:

بَنِي أُمِّ البَنِينَ أَلَمْ يَرُعْكُمْ ... وَأَنْتُمْ مِنْ ذَوَائِبِ أَهْلِ نَجْدِ

تَهَكُّمُ عَامِرٍ بِأَبِي بَرَاءٍ ... لِيُخْفِرَهُ وَمَا خَطَأٌ كَعَمْدِ

أَلَا أَبْلِغْ رَبِيعَةَ ذَا المَسَاعِي ... فَمَا أَحْدَثْتَ فِي الحَدَثَانِ بَعْدِي [(١)]

أَبُوكَ أَبُو الحُرُوبِ أَبُو بَرَاءٍ ... وَخَالُكَ مَاجِدٌ حَكَمُ بْنُ سَعْدِ

مَقْتَلُ ابْنِ وَرْقَاءَ وَرِثَاءُ ابْنِ رَوَاحَةَ ﷺ لَهُ:

وَقَالَ أَنَسُ بْنُ عَبَّاسٍ السُّلَمِيُّ، وَكَانَ خَالَ طُعَيْمَةَ بْنَ عَدِيِّ بْنِ نَوْفَلٍ، وَقَتَلَ يَوْمَئِذٍ نَافِعَ بْنَ بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيَّ:

تَرَكْتُ ابْنَ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيَّ ثَاوِيًا ... بِمُعْتَرَكٍ تَسْفِي عَلَيْهِ الأَعَاصِرُ [(٢)]

ذَكَرْتُ أَبَا الرَّيَّانِ لَمَّا رَأَيْتُهُ ... وَأَيْقَنْتُ أَنِّي عِنْدَ ذَلِكَ ثَائِرُ [(٣)]

وَأَبُو الرَّيَّانِ: طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ يَبْكِي نَافِعَ بْنَ بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ:

رَحِمَ اللهُ نَافِعَ بْنَ بُدَيْلٍ ... رَحْمَةَ المُبْتَغِي ثَوَابَ الجِهَادِ

صَابِرٌ صَادِقٌ وَفِيٌّ إِذَا مَا ... أَكْثَرَ القَوْمُ قَالَ قَوْلَ السَّدَادِ

شِعْرُ حَسَّانَ ﷺ فِي بُكَاءِ قَتْلَى بِئْرِ مَعُونَةَ:

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ يَبْكِي قَتْلَى بِئْرِ مَعُونَةَ، وَيَخُصُّ المُنْذِرَ بْنَ عَمْرٍو ﷺ:

عَلَى قَتْلَى مَعُونَةَ فَاسْتَهِلِّي ... بِدَمْعِ العَيْنِ سَحًّا غَيْرَ نَزْرِ [(٤)]

عَلَى خَيْلِ الرَّسُولِ غَدَاةَ لَاقَوْا ... مَنَايَاهُمْ وَلَاقَتْهُمْ بِقَدْرِ

أَصَابَهُمُ الفَنَاءُ بِعَقْدِ قَوْمٍ ... تُخُوِّنَ عَقْدُ حَبْلِهِمْ بِغَدْرِ [(٥)]

---

(١) **المساعي**: السعي في طلب المجد والمكارم.

(٢) **المعترك**: الموضع الضيق في الحرب. **تسفي**: تأتي إليه بالتراب. **الأعاصر**: الرياح التي يلتفت معها الغبار.

(٣) **ثائر**: آخذ بثأري.

(٤) **استهلي**: أسبلي دمعك. **السح**: الصب. **النزر**: القليل.

(٥) **تخون**: تنقص (بالبناء للمجهول فيهما).

فَيَا لَهْفِي لِمُنْذِرٍ إِذْ تَوَلَّى ... وَأَعْنَقَ فِي مَنِيَّتِهِ بِصَبْرِ [(١)]

وَكَائِنْ قَدْ أُصِيبَ غَدَاةَ ذَاكُمْ ... مِنْ أَبْيَضَ مَاجِدٍ مِنْ سِرِّ عَمْرِو [(٢)]

شِعْرُ كَعْبٍ ﷺ فِي يَوْمِ بِئْرِ مَعُونَةَ:

وَأَنْشَدَنِي لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ فِي يَوْمِ بِئْرِ مَعُونَةَ، يُعَيِّرُ بَنِي جَعْفَرِ بْنِ كِلَابٍ:

تَرَكْتُمْ جَارَكُمْ لِبَنِي سُلَيْمٍ ... مَخَافَةَ حَرْبِهِمْ عَجْزًا وَهُونَا [(٣)]

فَلَوْ حَبْلًا تَنَاوَلَ مِنْ عُقَيْلٍ ... لَمَدَّ بِحَبْلِهَا حَبْلًا مَتِينَا [(٤)]

أَوْ القُرَطَاءُ مَا إِنْ أَسْلَمُوهُ ... وَقِدْمًا مَا وَفَوْا إِذْ لَا تَفُونَا

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: القُرَطَاءُ قَبِيلَةٌ مِنْ هَوَازِنَ، وَيُرْوَى «مِنْ نُفَيْلٍ» مَكَانَ «مِنْ عُقَيْلٍ»، وَهُوَ الصَّحِيحُ لِأَنَّ القُرَطَاءَ مِنْ نُفَيْلٍ قَرِيبٌ [(٥)].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٨/ ٢٦٠-٢٦٤، مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧ هـ) ٦/ ١٨٢-١٨٩، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٤٣٧-٤٤٥، جمع الفوائد للمغربي (١٠٩٤هـ) ص ١٠١٧، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٦١٦ + ٦٢٣.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٤٢٠-٤٢٦، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٣/ ١٨٣-١٨٩، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ١/ ٣٤٦-٣٥٣، الطبقات الكبير (الكبرى) لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٤٨-٥١، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٤٥-٥٥٠، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٣/ ٣٣٨-٣٥٣، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ١٤٢-١٤٥، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٢٣٥ -٢٤١، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٤٦- ٢٤٨، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٥/ ٥٢٤-٥٣٢، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ١٨٤١-١٨٤، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٩١-١١١، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٦٦-١٧٠.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٠٠-٤٠١، صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٤٠-٢٤٢، السيرة النبوية لرزق الله ٤١٣-٤١٧، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ١٨٧-١٩٣.

---

(١) **أعنق**: أسرع. والعنق بفتحين: ضرب من السير سريع.

(٢) **سر القوم**: خيرهم وخالصهم.

(٣) **الهون**: الهوان، والهون لغة الحجازيين.

(٤) يعني «بالحبل»: العهد والذمة.

(٥) قال أبو ذر: «القرطاء»: بطون من العرب من بني كلاب، وهم: قراط (بالضم) وقريط (بالتصغير) وقريط (بفتح فكسر). ويسمون القروط أيضًا.

د ـ **كتب الغزوات والسرايا:** غزوة الأحزاب لباشميل ٢٩-٣٧، غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦-١٩، غزوة الخندق لأبي خليل ٢٨-٣٢، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٧٩ – ٨٣، القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٠٤-١١٠، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ٢٣٧-٢٤٥.

هـ ـ **كتب أخرى:** المدرسة العسكرية النبوية لأبي فارس ١٢٣، قادة النبي ﷺ لخطاب ٢٢١-٢٣١، فرسان من عصر النبوة لجمعة ٣٨٠.

خرائط سرية بئر معونة (خيانة وقتل القراء السبعين)

(١)

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ص ١٢٨.

(٢)

غزوات السنة الرابعة من الهجرة المباركة

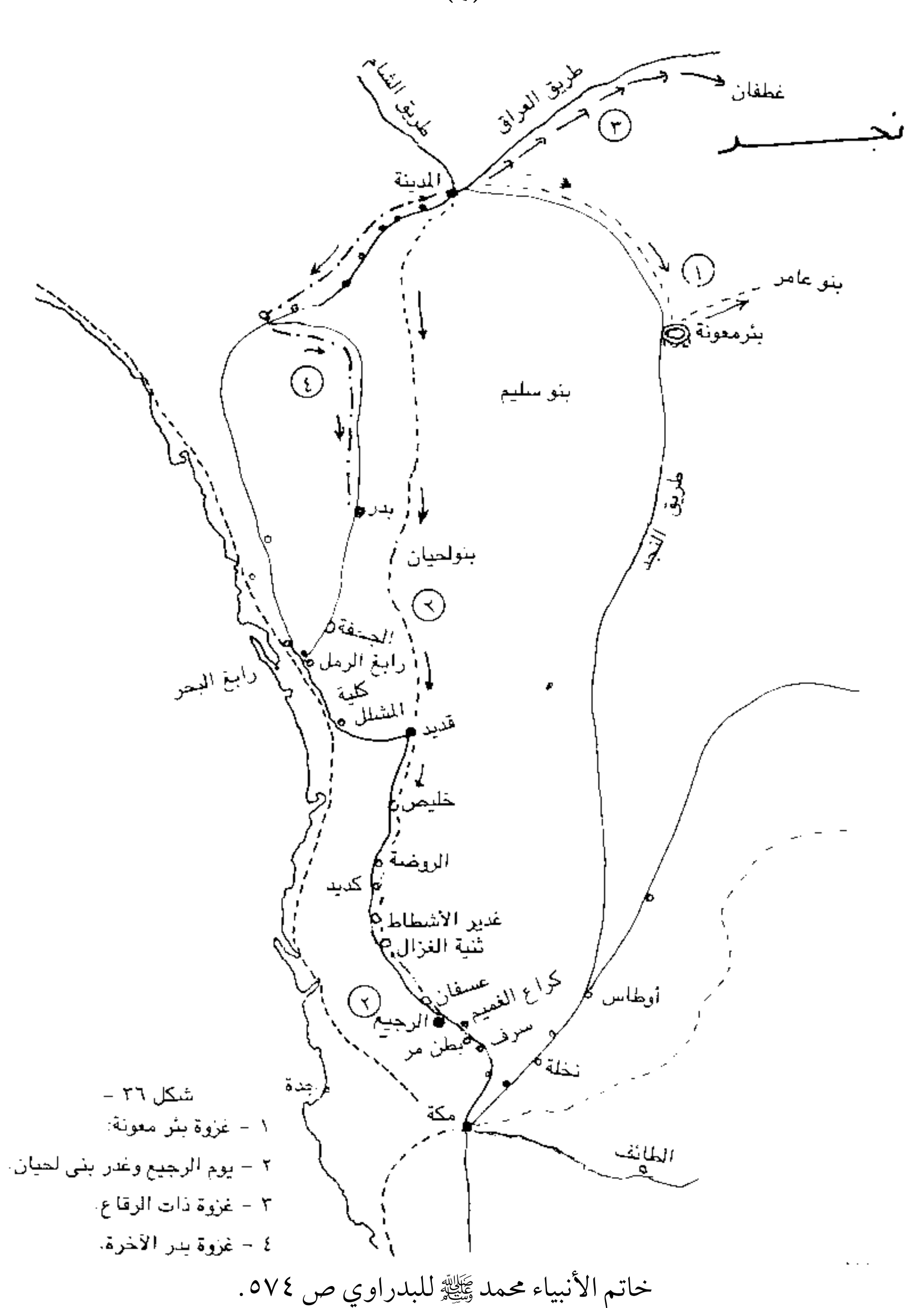
من سرايا السنة الرابعة من الهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٦٩.

(٣)

حدائق الأنوار لبحرق ص ٥٣٩.

(٤)



خاتم الأنبياء محمد ﷺ للبدراوي ص ٥٧٤.

المبحث الثاني

الدروس والعبر من سرية بئر معونة (خيانة وقتل القراء السبعين)

١ ـ لا وقف لمسيرة الدعوة:

يقول الشيخ الغزالي: «حزن المسلمون لفقدانهم عاصمًا وصحبه ﭫ، ولمصرع أسيرَيهم على هذا النحو الفاجع، فقد خسروا فريقًا من الدعاة الأكفاء الشجعان يحتاج إليهم الإسلام في هذه الفترة من تاريخه، ثم إن اصطياد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجسًا وقلقًا؛ إذ إن ذلك المسلك دل على مبلغ طماعية العرب في أهل الإيمان واستهتارهم بأرواحهم وجرأتهم على النيل منهم، دون تخوف أو محاذرة قصاص!

ومع أن هذه الواقعة توجب على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أي وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة؛ إلا أن ضرورة بث الدعوة ـ مهما فدحت الخسائر ـ جعلت النبي ﷺ ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمر لابد منه، كالتاجر الذي يتحمل المغارم الثقيلة حينًا من الدهر؛ لأن الانسحاب من السوق ـ بغية تجنبها ـ قضاء عليه، فهو يبقى متجملًا حتى تهب الريح من جديد رخاء تعوِّض ما فقد؛ وذلك سر استجابة الرسول ﷺ لأبي براء عامر بن مالك الملقَّب بملاعب الأسنَّة حين عرض عليه أن يرسل وفدًا من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد.

وقد أبدى النبيُّ ﷺ خشيته من أن يصاب رجاله بسوء، وسط قبائل ضارية لا يؤمن ذمامها، فقال أبو براء: أنا لهم جار!». [فقه السيرة للغزالي ٢٨٦-٢٨٧].

ويقول أ/ فتح الباب: «لم تكن مأساة يوم الرجيع لتصد رسول الله ﷺ عن إيفاد بعوثه إلى القبائل التي تطلب تعليمها شرائع الدين، فتلك مهمة دينية سامية لا ينبغي أن يقف في سبيلها خوف أو تردد، ولابد من نشر الإسلام في الجزيرة العربية مهما كانت التضحيات، وإذا كانت الغزوات جهادًا في سبيل الله يؤجر عليه أصحابه أحياء أو أمواتًا فإن التوعية بالعقيدة لا تقل عنه مثوبة عند الله؛ لأن العلم ركن أساسي من أركان الدولة الإسلامية، ومن ثم فإن الاضطلاع برسالته جهاد أي جهاد، وإن مواجهة مسؤوليات الدعوة في أوقات السلم وأوقات الحرب لأمر حتمي لا بديل له.

ولقد بكى المسلمون شهداء يوم الرجيع الذين استشهدوا في سبيل الدعوة الخالدة، وراحوا ضحايا الغدر والخديعة، ورأى رسول الله ﷺ أنه لا مناص من المضي قدمًا في إرسال مبعوثيه لهداية الناس، فذلك هدف رئيس لا يمكن العدول عنه، ولا ينبغي أن يقف في سبيله حائل، أما الوسيلة فيمكن تعديلها بما يكفل تحقيق ذلك الهدف دون خسارة تصيب المسلمين، وهذا التعديل هو الدرس المستخلص من يوم

الرجيع، فليكن الحذر عاصمًا من سوء العاقبة، وليتحقق الرسول ﷺ من صدق مَنْ يلجأ إليه من الأعراب ملتمسًا منه بعث بعض أصحابه للتعليم والترشيد، ذلك أحرى أن يحقق نجاح الرسالة، وأن يعصم في الوقت نفسه دماء المسلمين ويحفظ هيبتهم بين القبائل». [**القيم الخلقية لفتح الباب ١٠٤-١٠٥**].

٢ ـ أهمية معرفة الداعية لمداخل النفوس البشرية:

يقول الشيخ عرجون: «والنبي ﷺ آتاه الله من الحكمة وحسن التأتي للأمور وتدبيرها ما لم يؤته أحدًا غيره، فهو ﷺ أعلم بمداخل النفوس التي تحتف به والتي تفد إليه، والأمور الشعورية والنفسية لها عند الزعماء الذين يعيشون في البوادي شأن عظيم يدركه النبي ﷺ إدراكًا يجعل منه علاجًا لمرض نفوسهم، ففي الوقت الذي يرد هدية أبي براء، ويقول له ما يشعره نفسيًّا أنه يرد هديته لأنه لا يقبل مصافاة المشركين المحاربين له بقبول هداياهم ـ يجيبه إلى طلبه فيرسل له العسل ليستشفى به.

وهذه أمور لها أثرها في العواطف والمشاعر، وكان النبي ﷺ قد دعا أبا براء إلى الإسلام فلم يسلم، ولكنه لم يبعد، ووقف موقفًا أطمع النبي ﷺ في إسلامه وإسلام قومه بقوله: **يا محمد إني أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا.**

فموقف النبي ﷺ مع أبي براء كان موقفًا تمليه الحكمة السياسية في أسلوب تبليغ دعوته ونشر رسالته بما اشتمل عليه هذا الموقف الكريم من ضروب مكارم الأخلاق، والتولج إلى مداخل النفوس البشرية، ولا سيما عند صنف من الناس بما يلائم طبائعهم بالرضا والنظر فيما يدعوهم إلى الدخول فيه.

وفي ظل هذا الرجاء عرض ﷺ الإسلام على أبي براء فلم يقدم ولم يحجم، ولعله إنما تلبث بنفسه عن الدخول في الإسلام قبل قومه مع إدراكه شرف هذا الدين وحسنه ليتحقق رجاؤه في قومه إذا وفد إليهم وحدثهم عن النبي ﷺ ومكارم أخلاقه، وعن دينه ودعوته إلى الله وتوحيده، ولهذا طلب إلى النبي ﷺ أن يبعث معه نفرًا من أصحابه إلى قومه، يدعونهم إلى ما يدعو إليه رسول الله ﷺ، روى ابن سعد: أن أبا براء قال لرسول الله ﷺ: **يا محمد، لو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك لرجوت أن يجيبوا دعوتك ويتبعوك**، فقال ﷺ: «**إني أخاف عليهم أهل نجد**»، فقال أبو براء: **أنا لهم جار أن يعرض لهم أحد**، فبعث النبي ﷺ سبعين من الأنصار شببة، يُسمون القراء، وأمَّر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي رضي الله عنه». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٦٠-٦١**].

ويقول د/ أبو شهبة: «وقد يقول قائل: كيف يوافق النبي ﷺ على إيفاد هاتين السريتين مع أناس ليسوا بمسلمين، وفي جوار رجل لم يدخل الإسلام، مع احتمال أن يكون هذا استدراجًا للمسلمين ومكيدة للإيقاع بهم، وقد كان النبي ﷺ من رجاحة العقل وبُعد النظر، والمواهب السياسية بالمنزلة التي لا تدفع؟ وللجواب عن ذلك نقول:

(١) إن حفظ الجوار كان من خيرة فضائل العرب والخلق المتأصل فيهم، فاحتمال الغدر بهم مستبعد، ولا سيما أن القراء كانوا في جوار رجل له منزلته في بني عامر، وهو أبو براء؛ ولذلك لم يقبل بنو عامر أن يخفروه في جواره، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بني سُليم.

(٢) إن إيفاد هاتين السريتين لم يكن إلا حلقة من حلقات الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى هذا الدين، والسهر على نشره بشتى الوسائل، أليس غاية ما يحتمل أن يموتوا شهداء؟ وهذا ما كان يرجوه كل مسلم آنئذ، وصدق الله: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾[التوبة:٥٢]، إما النصر والغنيمة، أو الموت والشهادة». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤٢].

ويقول د/ الغضبان: «ومن خلال هذا الإيضاح ندلف إلى سرية بئر معونة، فأبو البراء عامر بن مالك سيد بني عامر وسيد أهل الوبر هو الذي قَدِم المدينة، كما روى ابن إسحاق يريد أن يفتح صفحة مع رسول الله ﷺ بعيدة عن المواجهة والحرب، وكان قد تقدمت به السن وحنكته التجارب، وأدرك مدى القوة والنفوذ لمحمد ﷺ في المدينة وهو أشبه ما يكون بشيخ بني عامر الذي صاح عندما سمع بخبر محمد ﷺ: يا بني عامر، هل لها من تلاف، هل لذناباها من مطلب، والذي نفسي بيده ما تقوَّلها إسماعيلي قط، فأين رأيكم كان عنكم.

ولعل أثر هذا الموقف حدا بأبي البراء ملاعب الأسنة أن يمضي بنفسه إلى محمد ﷺ ويختبر دعوته وقوته.

وكان ذلك المدخل عن بني عامر في غاية الأهمية لندرك سر حرص رسول الله ﷺ على هداية بني عامر، وهذا سيدهم هو الذي يطلب الدعاة لقومه، فدخول بني عامر بن صعصعة في الإسلام يعتبر من أكبر الأحداث في الأرض العربية، ويعتبر نقطة تحول كبرى في تاريخ الإسلام خاصة بعد محنة أُحد، ولكن خشية رسول الله ﷺ من مجاهيل الأعراب والبادية وغدر الأعراب لم يخفها أمام سيد بني عامر، فكان جواب أبي البراء حاسمًا: لا تخف إني لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد.

ومن يجرؤ على أن يخفر ذمة أبي البراء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وقانون الإجارة في قبائل العرب قانون يدين به العرب جميعًا، ولعل من مصلحة الإسلام ألا يعلن أبو البراء إسلامه أو أن يسلم؛ لأن القانون يُخرق آنذاك ولا يُعتد به، وكما تقول الرواية: **فلم يسلم ولم يبعد وقال: يا محمد، إني أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا وقومي خلفي**، إن صورة أبي طالب سيد بني هاشم ـ تتجسد من جديد ـ الذي تبنى دعوة رسول الله ﷺ ووراءه الحزب الهاشمي مستعد للموت عن آخر فرد فيه لحماية المصطفى ﷺ، إن الذي أراده رسول الله ﷺ من بني عامر في منى قبل سبع سنين، إنه الآن يتحقق على يد سيد بني عامر».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٦٨-٢٦٩].

٣ ـ بَيَانُ حُكْمِ قَبُولِ هَدَايَا الكُفَّارِ:

ورد في عرض السرية: «عَنْ كَعْبِ بن مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ مُلاعِبُ الأَسِنَّةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِهَدِيَّةٍ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الإِسْلامَ، فَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَإِنِّي لا أَقْبَلُ هَدِيَّةَ مُشْرِكٍ**».

وقد ناقش الإمام الطحاوي هذه المسألة بقوله: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله بْنُ عُبَيْدِ بْنِ عِمْرَانَ الأُرْدُنِيُّ أَبُو أَيُّوبَ بِطَبَرِيَّةَ، قَالَ: ثَنَا خَلَفُ بْنُ هِشَامٍ الْمُقْرِئُ الْبَزَّارُ، قَالَ: ثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي التَّيَّاحِ، عَنْ الحَسَنِ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ ﷺ قَالَ: وَكَانَ حَرَمِيَّ رَسُولِ الله ﷺ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً فَرَدَّهَا، وَقَالَ: «**إِنَّا لَا نَقْبَلُ زَبْدَ الـمُشْرِكِينَ**».

وَحَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله بْنُ عُبَيْدٍ قَالَ: ثَنَا خَلَفُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: ثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: سَأَلْتُ الحَسَنَ: مَا زَبْدُ الـمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: رِفْدُهُمْ.

وَحَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي دَاوُدَ قَالَ: ثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ أَبِي الحَجَّاجِ قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: ثَنَا أَبُو التَّيَّاحِ قَالَ: حَدَّثَنِي الحَسَنُ أَنَّ عِيَاضَ بْنَ حِمَارٍ، وَكَانَ حَرَمِيَّ رَسُولِ الله ﷺ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَلَـمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ أَتَاهُ بِنَاقَةٍ يُهْدِيهَا إِلَيْهِ، فَلَـمَّا رَآهَا قَالَ: «**يَا عِيَاضُ مَا هَذِهِ؟**» قَالَ: أَهْدَيْتُهَا لَكَ، قَالَ: «**قُدْهَا**» فَقَادَهَا، قَالَ: «**رُدَّهَا**» فَرَدَّهَا، قَالَ: «**يَا عِيَاضُ هَلْ أَسْلَمْتَ بَعْدُ؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: فَلَمْ يَقْبَلهَا، وَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْنَا زَبْدَ الْمُشْرِكِينَ**».

قَالَ: وَالعَرَبُ تُسَمِّي الهَدِيَّةَ الزَّبْدَ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الحَرَمِيُّ: يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الحَرَمِ، وَيَكُونُ الصَّدِيقَ أَيْضًا يُقَالُ لَهُ حَرَمِيٌّ.

وَحَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ الحَسَنِ بْنِ عَبْدِ الله البَغْدَادِيُّ المَعْرُوفُ بِالصَّقَلِّيِّ قَالَ: ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ المَكِّيُّ قَالَ: ثَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ بَشِيرِ بْنِ الْمُهَاجِرِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «أَهْدَى أَمِيرُ القِبْطِ لِرَسُولِ الله ﷺ جَارِيَتَيْنِ أُخْتَيْنِ قِبْطِيَّتَيْنِ وَبَغْلَةً، فَأَمَّا البَغْلَةُ فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَرْكَبُهَا، وَأَمَّا إِحْدَى الجَارِيَتَيْنِ فَتَسَرَّاهَا فَوَلَدَتْ لَهُ إِبْرَاهِيمَ، وَأَمَّا الأُخْرَى فَأَعْطَاهَا حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ ﷺ.

حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى قَالَ: نَا عَبْدُ الله بْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدٍ القَارِي «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُقَوْقِسِ صَاحِبِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ ـ يَعْنِي بِكِتَابِهِ مَعَهُ إِلَيْهِ ـ فَقَبِلَ كِتَابَهُ وَأَكْرَمَ حَاطِبًا، وَأَحْسَنَ نُزُلَهُ، ثُمَّ سَرَّحَهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَأَهْدَى لَهُ مَعَ حَاطِبٍ كُسْوَةً وَبَغْلَةً بِسَرْجِهَا وَجَارِيَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا أُمُّ إِبْرَاهِيمَ، وَأَمَّا الأُخْرَى فَوَهَبَهَا لِجَهْمِ بْنِ قَيْسٍ العَبْدَرِيِّ، فَهِيَ أُمُّ زَكَرِيَّا بْنِ جَهْمٍ الَّذِي كَانَ خَلِيفَةً لِعَمْرِو بْنِ العَاصِ عَلَى مِصْرَ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ، وَإِنَّمَا أَدْخَلنَا هَذَا الحَدِيثَ فِي هَذَا البَابِ لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدٍ القَارِيَّ مِمَّنْ وُلِدَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَيُقَالُ: إِنَّهُ قَدْ رَآهُ فَدَخَلَ بِذَلِكَ فِي صَحَابَتِهِ ﷺ.

فَسَأَلَ سَائِلٌ عَنْ الوَجْهِ الَّذِي بِهِ رَدَّ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ عِيَاضٍ هَدِيَّتَهُ (وكذلك رد هدية أبي البراء ملاعب الأسنة)، وَعَنْ الوَجْهِ الَّذِي بِهِ قَبِلَ مِنْ الْمُقَوْقِسِ هَدِيَّتَهُ، وَكِلَاهُمَا كَافِرٌ.

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ ـ بِتَوْفِيقِ الله ﷻ وَعَوْنِهِ ـ أَنَّ كُفْرَ عِيَاضٍ كَانَ كُفْرَ شِرْكٍ بِالله ﷻ وَجُحُودٍ لِلبَعْثِ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ، وَكُفْرَ الْمُقَوْقِسِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُقِرًّا بِالبَعْثِ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ، وَمُؤْمِنًا بِنَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ الله تَعَالَى وَهُوَ عِيسَى ﷺ.

وَكَانَ عِيَاضٌ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مَطْلُوبِينَ بِالزَّوَالِ عَنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَبِتَرْكِهِ إِلَى ضِدِّهِ وَهُوَ التَّصْدِيقُ بِرَسُولِ الله ﷺ، وَالإِيمَانُ بِهِ.

وَكَانَ الْمُقَوْقِسُ وَمَنْ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَطْلُوبِينَ بِالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِ الله ﷺ، وَالإِيمَانِ بِهِ، وَالثُّبُوتِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ دِينِ عِيسَى ﷺ.

وَكَانَ عِيَاضٌ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ غَيْرَ مَأْكُولَةٍ ذَبَائِحُهُمْ وَلَا مَنْكُوحَةٍ نِسَاؤُهُمْ، وَكَانَ الْمُقَوْقِسُ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مَأْكُولَةً ذَبَائِحُهُمْ وَمَنْكُوحَةً نِسَاؤُهُمْ.

فَكَانَ الفَرِيقَانِ، وَإِنْ كَانُوا جَمِيعًا مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ يَخْتَلِفُ كُفْرُهُمْ وَتَتَبَايَنُ أَحْكَامُهُمْ، وَكَانَ كُلُّ شِرْكٍ بِالله ﷻ كُفْرًا، وَلَيْسَ كُلُّ كُفْرٍ بِالله ﷻ شِرْكًا، وَكَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ لَا يُجَادِلَ أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فَدَخَلَ فِي ذَلِكَ الـمُقَوْقِسُ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى ﷺ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ كُتُبَ الله تَعَالَى الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى أَنْبِيَائِهِ ـ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ ـ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَقَبِلَ هَدِيَّةَ مَنْ أَمَرَ رَبُّهُ ﷻ أَنْ لَا يُجَادِلَهُ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ الأَحْسَنَ قَبُولُ هَدِيَّتِهِ مِنْهُ، وَرَدَّ هَدَايَا الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ؛ وَلِأَنَّ رَبَّهُ ﷻ أَمَرَهُ بِمُنَابَذَتِهِمْ وَبِقِتَالِهِمْ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله ﷻ، وَفَصَلَ بَيْنَهُمْ ﷻ فِي كِتَابِهِ، فَخَالَفَ بَيْنَ أَسْمَائِهِمْ وَبَيْنَ مَا نَسَبَهُمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ وَهُمْ اليَهُودُ، ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ وَهُمْ أُمَّةٌ بَيْنَ اليَهُودِ، ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ مِنْهُمْ الْمُقَوْقِسُ، ﴿ وَٱلۡمَجُوسَ ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُو العَجَمِ الَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِبَعْثٍ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابٍ مِنْ كُتُبِ الله ﷻ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى أَنْبِيَائِهِ، وَهُمْ فِي العَجَمِ كَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ فِي العَرَبِ إِلَّا فِيمَا يُخَالِفُونَهُمْ فِيهِ مِنْ أَخْذِ الجِزْيَةِ مِنْهُمْ، ﴿ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ ﴾ [الحج:١٧] وَهُمْ عَبَدَةُ الأَوْثَانِ مِنْ العَرَبِ الَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِبَعْثٍ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابٍ مِنْ كُتُبِ الله ﷻ، وَكَذَلِكَ كَانَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي خُطْبَتِهِ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ مِنْ تَفْرِيقِهِ بَيْنَ هَذَيْنِ الفَرِيقَيْنِ فِي الأَسْمَاءِ، وَفِي الأَحْكَامِ.

كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى قَالَ: أَنْبَأَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ القَاسِمِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ: شَهِدْتُ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حَجَّةِ الوَدَاعِ فَقَالَ قَوْلًا كَثِيرًا حَسَنًا جَمِيلًا، وَكَانَ فِيهَا: «**مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَهُ مِثْلُ الَّذِي لَنَا، وَعَلَيْهِ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَا، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَلَهُ أَجْرُهُ، وَلَهُ مِثْلُ الَّذِي لَنَا، وَعَلَيْهِ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَا**».

فَكَانَ فِيمَا تَلَوْنَا مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ، وَفِيمَا رَوَيْنَا مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى تَبَايُنِ الفَرِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَا فِي الكُفْرِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، وَفِي مُنَابَذَةِ أَهْلِ الشِّرْكِ مِنْهُمَا، وَفِي أَنْ لَا يُجَادَلَ أَهْلُ الكِتَابِ مِنْهُمْ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَفِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى اتِّسَاعِ قَبُولِهِ هَدَايَاهُمْ مِنْهُمْ، فَقَبِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَدِيَّةَ مَنْ قَبِلَ هَدِيَّتَهُ مِنْهُمْ لِذَلِكَ، وَرَدَّ هَدِيَّةَ مَنْ رَدَّ هَدِيَّتَهُ عَلَيْهِ مِنَ الفَرِيقِ الآخَرِ.

[تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٦/ ١٩٤-١٩٨].

٤ ـ لا إكراه في الدين:

يقول د/ أبو فارس: «لقد عرض الرسول ﷺ على أبي براء عامر بن مالك المشهور بملاعب الأسنة قبيل حادثة بئر معونة الإسلام عليه فأبى، فلم يغضب منه، ولم يقتله، بل ظل بينهما معاملة واتصال وتعاون، وهو الذي أشار على رسول الله ﷺ أن يرسل رهطًا من المسلمين إلى أهل نجد يدعونهم إلى الإسلام ويرشدونهم إلى الخير، فأخذ الرسول ﷺ رأيه بعد أن استعد أبو براء أن يجيرهم».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٦].

٥ ـ أهمية التعاقدات والتحالفات والمعاهدات حسب حاجة المسلمين:

يقول أ/ حوى: «نلاحظ أن التعاقدات والتحالفات والمعاهدات كانت جزءًا لا يتجزأ من سياسة الرسول ﷺ وحركته الدائبة، وقد حققت له مصالح، وكانت أحيانًا سببًا في مآس، والمسلم مكلف أن يجتهد في الموقع الذي هو فيه، وليس عليه أن يعرف الغيب، والحذر والاحتياط مطلوبان».

[الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٢٥].

٦ ـ الاستفادة من قوانين وأعراف المجتمع في تبليغ الدعوة:

يقول أ/ حوى: «ومن أهم ما يؤخذ من حادثة بئر معونة أنه إذا فُتح لنا باب الدعوة إلى الله سِلمًا فعلينا أن نلجه، وأن نرسل الوفود والبعوث لذلك، وهذا يفتح أمامنا آفاقًا واسعة في العمل الإسلامي على الأرض الإسلامية أو خارجها، فحيثما أُعطينا حرية الدعوة إلى الله فعلينا أن ندعو مستفيدين من الأعراف والقوانين، ويسعنا في هذه الحالة أن ننصح وأن نعمل من خلال القانون للتغيير الإسلامي الشامل، ولكن الاكتفاء بهذا القدر من العمل منوط بالفتوى من أهلها». **[الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٣٢].**

٧ ـ الدعاة والعلماء في مقدمة صفوف المجاهدين:

يقول د/ الغضبان: «ولأهمية الأمر وخطورته اختار له رسول الله ﷺ قرة عينه من أصحابه، واختار سبعين منهم لهذه المهمة الخطيرة.

إنهم من خيار هذه الأمة ومن الجيل الجديد الذي تربى بالقرآن، وبرحيق النبوة، فرَّغ نفسه لطاعة الله ورسوله ﷺ، فليلهم علم وعبادة، إنهم أحلاس الليل ورهبانه، يتعلمون القرآن ويصلون به، وبه يناجون ربهم ـ جل شأنه ـ وفي النهار تكفلوا بمسؤولية الضيافة النبوية، مسؤولية الدولة في إطعام الفقراء، فيستعذبون الماء، ويحتطبون ويشترون الطعام لله، ولمرضاته، لا يؤويهم سقف، ولا يطمئنون لأهل، فنهارهم جد وجهد وكفاح؛ ليسدوا ثغرة الدولة وحاجتها لإخوانهم الفقراء وأهل الصفة، وليلهم جلساء الله ـ تعالى ـ مع كتابه وعبادته.

هذه هي سمة الجيل الجديد الذي يربيه ﷺ ويدخره للدعوة، ويعده لحمل الإسلام إلى كل صقع، فلما لمحت بارقة بني عامر، وحاجتهم إلى الدعاة، كان هذا المدخور عنده، وكان هذا الكنز بين يديه، فوجههم جميعًا للدعوة إلى الله في الصحراء المترامية الأطراف، وقد تمرسوا بالعمل والكفاح، وتمرسوا حياة الخشونة والعمل، فهم يحتطبون ويبيعون، ويستعذبون الماء، وهم الجيل المثقف الذي عمَّر قلبَه القرآنُ، وعاش فيه وله، مع الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ أضاف إليهم عددًا من الشخصيات القيادية؛ لتكون معهم في هذه المهمة الضخمة الدعوية.

إننا أمام خط تربوي جديد في المنهج التربوي للسنة النبوية، هذا الخط هو: تربية الدعاة على الجهاد وعلى الكفاح وإرسالهم في مهمات دعوية خالصة؛ ليتمثل بهم الإسلام، ويكوِّنون القدوة الحية المتحركة في المجتمع، وقد رأينا الطراز الرفيع لسرية الرجيع، وها نحن نرى هذا الطراز الرفيع كذلك».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٦٩-٢٧٠].

٨ ـ اختلاف واسع بين روايتي الصحيحين وابن إسحاق في عدد سرية القراء:

يقول الشيخ عرجون: «وهذا العدد في تقدير رجال السرية (بسبعين) هو رواية الصحيحين، قال السهيلي: وهو الصحيح، وذهب ابن عقبة وابن إسحاق إلى أنهم كانوا أربعين رجلًا، وهذا فارق كبير جدًّا لا يعدل عن رواية الصحيحين إليه، وقد ازداد بُعدًا من زعم أنهم كانوا ثلاثين.

وقد حاول ابن حجر على عادته أن يوفق بين هذه الروايات المتباعدة في تقدير عدد سرية القراء، فزعم أنه يمكن أن يكون الأربعون كانوا رؤساءً، وبقية العدد أتباعًا.

ضعف كلام ابن حجر في الجمع بين الروايتين: وهذا كلام ـ كما يرى ـ ضعيف واهن لا يدفع اعتراضًا ولا يحل إشكالًا، لأن سرية القراء وهم من صفوة أصحاب رسول الله ﷺ بما وصفوا به من نعوت الإخلاص ورسوخ اليقين والزهد في الدنيا وطرحها وراء ظهورهم، واشتغالهم بخدمة الفقراء والمساكين من إخوتهم المنقطعين لعبادة الله، كل ذلك وغيره لا يجعل سبيلًا إلى تقسيم سريتهم إلى رؤساء وأتباع، وما كان يليق بالحافظ ابن حجر أن يعدل عن الأخذ بظاهر رواية الصحيحين إلى وضع روايات أصحاب المغازي معها في ميزان، ثم يُعَنِّي نفسه بمثل هذه التأويلات المتعسفة.

والفرق بين عدد رجال السرية في الصحيحين، وروايات أصحاب السير والمغازي كبير جدًّا ولاسيما في رواية من زعم أنهم كانوا ثلاثين رجلًا، وإن كان ابن حجر قد وَهَّم هذا القول، ولكنه هدم بيده ما شيده بفكره، فنقل الدفاع عن هذا القول المتهاوي عن صاحب (الغرر) أن رواية القليل لا تنافي رواية الكثير، وهو من باب مفهوم العدد.

ويؤكد ما اخترنا في سبب بعث هذه السرية حديث أنس ﷺ عند البخاري من طريق قتادة، قال: **إن رعلًا وذكوان، وعصية وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ**، وقد اختلف أهل العلم في تفسير المقصود من هذا الاستمداد، وأحسن ما قيل فيه ما قاله ابن حجر: ولا مانع أن يستمدوه ﷺ في الظاهر للدعاء للإسلام، وقصدهم الغدر وهذا أقرب الاحتمالات، ويدل عليه ما قدمناه من الأسباب التي احتفت بالقصة وربطها بقصة أهل (الرجيع) وقتلهم غدرًا للأخذ بثأر فاجر هذيل خالد بن سفيان بن نبيح ـ لعنه الله ـ بسيف البطل الفدائي عبد الله بن أنيس الأنصاري ﷺ، وعلى هذا الاحتمال اعتمد القسطلاني في مواهبه في سياق كلام ابن إسحاق». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٦١-٦٢**].

٩ ـ فراسة القيادة في اختيار ذوي الكفاءات:

يقول ل/ خطاب: «لقد كان المُنْذر بن عمرو ﷺ من رجالات قومه، وحسبه أن النبي ﷺ اختاره لهم نقيبًا؛ لأنه كان أتقاهم ومن رؤسائهم.

ولم يكن وحده من آل بيته متميِّزًا بالتقوى، فقد كانت أخته: مندوس بنت عمرو، وهي أم سلمة بن مخلَّد، وأُخته سَلمى بنت عمرو من المبايعات رسول الله ﷺ، وكانت أمه من المبايعات ـ أيضًا ـ فهو من بيت تقوى انتشر الإسلام فيه مبكرًا، وأثرُ المنذر ﷺ في هذا البيت ظاهر العيان.

وفي المُنْذر ﷺ قال النبي ﷺ: «**أَعْنَقَ لِيَمُوتَ**» أي: مشى للموت، وهو يعرفه.

وكان المُنْذر ﷺ يكتب في الجاهلية، يوم كان الذين يكتبون قليلين، فهو من علماء المسلمين الأولين، وكانت الكتابة في العرب قليلًا.

ولا نعلم سنة مولده، والأغلب أنه استشهد وهو في ريعان الشباب.

أما سمات المُنْذر رضي الله عنه القيادية: فهو قائد من قادة العقيدة، اختاره النبي ﷺ نقيبًا يدعو إلى الله، فعاش نقيبًا واستشهد نقيبًا، وكان في سريته نقيبًا، يضرب لهم في نفسه أروع الأمثال في: البذل، والتضحية، والفداء.

ولعل قولة أحد رجاله: «**ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المُنْذر بن عمرو**» خير دليل على تعلق رجاله به وتعلقه بهم؛ لأنه أعلمهم بالدين وأتقاهم وأصبرهم وأكثرهم شجاعة وإقدامًا، فأعنق ليموت، كما وصفه النبي ﷺ؛ لأنه أسرع إلى الموت مقْبلًا غير مدْبر، فرحًا بلقاءِ الله، طالبًا الشهادة، وقع على الموت، ولم يقع الموت عليه، فسقط شهيدًا ولم يسقط السيف من يده.

لقد كان المُنْذر رضي الله عنه أحد اللبنات القوية المتينة التي شُيِّد عليها صرح الإسلام القوي المتين.

وليس كالشهداء من أجل عقيدتهم لبنات تشيد عليها صروح العقيدة التي لا يمكن أن تُقْهر أبدًا.

ويذكر التاريخ: أن المُنْذر رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام من بني الخزرج الأنصار.

ويذكر له: أنه كان نقيب قومه من بني ساعدة الخزرج، اختاره النبي ﷺ ليقود ركب الدعوة في قومه بخاصة وفي الأنصار بعامة بالمدينة المنورة.

ويذكر له: أنه بايع النبي ﷺ في بيعة العقبة الثانية قبل هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، فكان من الذين مهدوا لهجرة النبي ﷺ والمسلمين من مكة إلى المدينة.

ويذكر له: أنه نال شرف صحبة النبي ﷺ، وشرف الجهاد تحت لوائه، فشهد: بدرًا مجاهدًا، وشهد أحدًا قائدًا مرؤوسًا.

ويذكر له: أنه قائد سرية الدُّعاة من الشباب القُرّاء، الذين استُشهدوا في سبيل الله.

ويذكر له: أنه تهيَّأت له في بئر معونة فرصة الحياة، فآثر الموت على الحياة، وما عند الله على ما عند الناس.

رضي الله عن الصحابي الجليل، العَقْبِي النقيب، البدري الشهيد، القارئ الفقيه، المُعْنِق ليموت، المنذر بن عمرو السَّاعِدِي الخزرجي الأنصاري». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٢٢٩-٢٣١].

١٠ ـ لابد للدعوة من تضحيات:

يقول د/ فيض الله: «رأينا كيف غدر حلفاء هذيل بالنَّفَر الستة من القُرَّاء، الذين أرسلهم النبي ﷺ معلِّمين ومفقِّهين في غزوة الرجيع، وكيف غدر عامر بن الطفيل، ومن والاه، بالسبعين من القرَّاء، الذين استنفروا للدعوة إلى الله، والتفقيه في دين الله، في مجزرة رهيبة دنيئة.

وقد تركت هذه الغزيات، في نفس الرسول ﷺ آثارًا غائرةً، بعيدة الأعماق، حتى إنه لبث شهرًا، يقنت في صلاة الفجر، داعيًا على قبائل سليم، التي عصت الله ورسولَه.

لكن ذلك لم يَفُتَّ في عضد المسلمين، ولا فتَّر من حَمِيَّتِهم في الدعوة إلى الله، ولا كسَّر من همتهم في الانطلاق الماضي في سبيل الله، وخدمة دينه.

ولـمَّا قُتِل أصحاب عضل الستة، وجَّه من بعدهم إلى عامر في جهات نجد أكثر من عشرة أضعافهم، فلاقوا حتفهم إلا واحدًا منهم، ومع ذلك الحزن العميق، الذي وَرَّثَته هذه الأحداث الغادرة في نفوس المسلمين، فقد استمر إرسال السرايا، وإيفاد القُرَّاء، إلى الجهات النائية عن المدينة؛ لأن مصلحة الدعوة فوق الأنفس والدماء؛ بل إن الدعوة لا يُكتب لها النصر، إذا لم تُبذَل في سبيلها الأرواح، ولا شيء يُمَكِّن للدعوة في الأرض، مثل الصلابة في مواجهة الأحداث والأزمات، واسترخاص التضحيات من أجلها.

إن الدعوات بدون قُوَى أو تضحيات، يوشك أن تكون بمثابة فلسفات وأَخْيِلَة، تَلُفُّها الكتب، وترويها الأساطير، ثم تطويها الدَّهارير [(١)].

إن هذه الغزيَّات بَصَّرتنا بالمسؤولية الضخمة عن دين الله، والدعوة إليه، ووضعت نَصبَ أعيننا نماذج من التضحيات الفارعة الباسقة، من الأصحاب القرَّاء في خير القرون، من أجل عقيدتهم ودينهم ومرضاة ربهم، فليس لنا أن نستغلي ثمن نجاح الدعوة في تلك العهود، وقد استرخصوه واستعذبوه، وقال قائلهم ـ والسهم في مقتله: «**فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**».

إن للسعادة ثمنًا، وإن للراحة والطمأنينة ثمنًا، وإن للمجد والسلطان ثمنًا، وثمن هذه الدعوة: دمٌ زكيٌّ يُهراق في سبيل الله من أجل تحقيق شرع الله ونظامه، وتثبيت معالم دينه على وجه البسيطة.

والدعوة إلى الله، أسنى مطالب المسلم، وأسمى أهداف الإنسانية، لو تجردت من أهوائها ومصالحها ورواسب الموروث، فهي أغلى من الرجال، وأثمن من الدماء، وأسمى ما في الوجود، وإنه لا يبقى في الوجود إلا واجب الوجود الحق ﷻ، وكل ما سواه، دنيا وبهتان وبطلان، فليُسخَّر كل ما سواه في ذاته، وتحقيق شرعه ونظامه، وتثبيت معالم دينه». [**صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٥١-١٥٢**].

---

(١) **الدَّهارِيرُ**: أَوَّلُ الدَّهْرِ في الزمان الماضي ولا واحد له،... وقولهم دَهْرٌ دَهارِيرٌ أَي: شديد، كقولهم: لَيْلَةٌ لَيْلاءُ... وواحدُ الدَّهارِيرَ دَهْرٌ على غير قياس، كما قالوا: ذَكَرٌ ومَذاكِيرُ.... وكأَنَّ دَهارِير جمعُ دُهْرُورٍ أَو دَهْرار... ودُهُورٌ دَهارِير مختلفة على المبالغة... قال الأَزهري: الدَّهارير جمع الدُّهُورِ أَراد أَن الدهر ذو حالين من بُؤْسٍ ونُعْمٍ، وقال الزمخشري: الدهارير تصاريف الدهر ونوائبه مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعباديد... لسان العرب لابن منظور ٩/ ١٤٤٠ ط دار المعارف.

ويقول م/ أبو راس: «على الأمة الإسلامية أفرادًا وجماعات أن تعلم أن حجم تضحياتها وهي تقوم بدورها الصحيح تجاه دينها الإسلامي الحنيف أقل بكثير منها وهي خانعة واجمة مستخزية.

وعلى الأمة الإسلامية إن أرادت عزة، إن أرادت مجدًا وسؤددًا، أن تتبادى وتتسابق نحو العلا الذي لن يحققه إلا الموت الشريف، الموت في سبيل الله ﷻ.

وعلى الأمة الإسلامية أن تعي معنى الأخوة الإسلامية، فالأخوة الإسلامية ليست شدًّا على الأيدي، وعناقًا وضغطًا للصدور وكلمات نظرية «إني أحبك في الله»، ولكن الأخوة لها طعم آخر إلى جانب هذه المظاهر.

«**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**». [البخاري في الإيمان (١٣)].

«**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ**». [البخاري في الصلاة (٤٨١)، وفي المظالم والغصب (٢٤٤٦)، وفي الأدب (٦٠٢٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٠)، وأحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (١٩١٢٧، ١٩١٢٨، ١٩١٦٨)].

وقوله ﷺ: «**مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ**». [مجمع الزوائد ٨/ ٣٠٥ في البر والصلة (١٣٥٥٤)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١/ ٢٥٩ رقم ٧٥١]، والبزار [بلفظ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانَ وَجَارُهُ طَاوٍ». [مسند البزار ١٤/ ٢٦ رقم ٧٤٢٩]، وإسناد البزار حسن].

وقوله ﷺ: «**لَيْسَ بِالْمُؤْمِنِ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانًا [بِالَّذِي يَشْبَعُ]، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ**».

[مجمع الزوائد ٨ / ٣٠٦ في البر والصلة (١٣٥٥٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٢/ ١٥٤ رقم ١٢٧٤١]، وأبو يعلى [مسند أبي يعلى الموصلي ٥/ ٩٢ رقم ٢٦٩٩ ، وقال الشيخ أسد: إسناده حسن]، ورجاله ثقات].

فأين أين الأمة الإسلامية من هذه المعاني والمفاهيم، وشعوب من الأمة الإسلامية تُباد في الشرق والغرب فلا يتململ أحد، ولا يتحرك لنجدتهم أحد، ولا يأبه لاستغاثتهم أحد.

فإن كانت أمتنا الإسلامية شعوبًا وحركات وجماعات وأفرادًا إن كانوا يريدون النصر والمجد والسؤدد فعليهم ألا يستكثروا في سبيل الله تضحية، وأن لا تقفهم التضحيات ـ وإن عظمت ـ عن المضي قدمًا على الخط الإسلامي الحر المستقيم المتميز! وإن خارت نفوسهم وضعفت هممهم فكانوا دون مستوى هذه التضحيات فعليهم أن لا يقزِّموا الإسلام ليتناسب مع قاماتهم القزمة، وعليهم أن يسلموا الراية ناصعة سليمة من كل انحراف بالدعوة ومفاهيم الدعوة إلى الله ﷻ، وعليهم أن يكون مفهوم الشهادة في سبيل الله واضحًا في نفوسهم كل الوضوح، وعليهم أن يخترقوا حاجز الخوف من الموت؟ فلقد سأل «هرقل» قائد ضباط جنده عن سر انتصار المسلمين، فقال أحدهم ـ وقد أحجم الجميع عن الإجابة: «**يا سيدي، إنهم رجال ولكن ليسوا كالرجال. يا سيدي، إنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار، ما**

منهم من رجل إلا ويحب أن يموت قبل صاحبه، وما منا من رجل إلا ويحب أن يموت صاحبه قبله»، فما كان من هرقل إلا أن قال: **لئن صدقتني ليملكن موضع قدمي هاتين**، وما هي إلا أيام قليلة حتى وقف هرقل يقول لدمشق: **وداعًا يا دمشق لا لقاء بعده.**

نعم، فعندما تقول الشعوب الإسلامية: **لا نخشى سجنًا، لا نخشى تجويعًا، لا نخشى تشريدًا، لا نخشى قتلًا، ولكن سجننا خلوة، تجويعنا صوم، تشريدنا سياحة، تقتيلنا شهادة، عندها ينهزم الطاغوت والكفر أمام جحافل الإيمان**». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٢٣-٢٢٤].

١١ ـ ألا تقعدنا المحن عن مواصلة الدعوة:

يقول أ/ فتح الباب: «وكذلك استقر عزم الرسول ﷺ على الاستمرار في إرسال الدعاة مع توخي الحيطة الكافية لتأمينهم، وذلك درس يجدر بنا الاستفادة منه، وعبرة يحسن أن نستلهمها في علاج المشكلات المماثلة، فلا ينبغي أن تقهرنا المحن مهما ادلهمت ظلماتها فنقعد باكين محسورين، ونفتح بذلك للعدو بابًا ينفذ منه إلى تحقيق مآربه الآثمة وهي تخريب الجبهة الداخلية وخفض الروح المعنوية في صفوفها، بل لابد أن نطوي صفحتها بعد أن نستخلص منها التجربة التي تقينا الوقوع في الخطأ الذي تمخضت عنه المحنة، ولنكفكف عن عَبرات الحزن وآلام الماضي، ونتهيأ لاستقبال فجر يوم جديد بلا أسى ولا ندم، فليس الألم بِمُجْدٍ في استعادة ما فات، وليست الحياة انتصارًا كلها، ولابد لليل أن ينجلي وللسحب أن تنقشع ثم يعود للصفو.

وطريق الجهاد دائمًا محفوف بالمخاطر والعبرة بالنصر الأخير، وإن الشهداء لملاقو ربهم في عليين، فلنقف دون عقيدتنا مجاهدين، فالحياة عقيدة وجهاد». [القيم الخلقية لفتح الباب ١٠٥-١٠٦].

١٢ ـ عدم الجري وراء الدعايات المغرضة بالصف المسلم:

يقول ل/ خطاب: «حاول المشركون والمنافقون أن ينالوا بدعاياتهم الضارة من معنويات المسلمين بعد أن عجزوا عن أن ينالوا منهم في ساحات القتال.

لقد حاول المشركون أن يؤثروا في معنويات المسلمين، كي لا يطمئنوا إلى إرسال دعاتهم خارج المدينة المنورة، وبذلك يجعلون الدعوة تنحصر في محيط ضيق لا يتسع لآمالها القريبة والبعيدة.

غدر بنو عضل والقارة بمعاونة هذيل بستة من الدعاة في (الرَّجِيع)، وكان بنو عضل والقارة هم الذين طلبوا من الرسول ﷺ إرسال قسم من دعاته إليهم ليعلموهم الإسلام.

وغدر عامر بن الطفيل من بني عامر مع قسم من الأعراب بأربعين داعيًا من دعاة الإسلام في (بئر معونة) بنجد وقضى عليهم إلا رجلًا واحدًا عاد إلى المدينة المنورة يحمل أخبار الشهداء.

فهل أثرت هذه الخسائر في معنويات المسلمين وفي ما هم عليه من صبر وإيمان؟

إن استشهاد الدُّعاة لم يؤثر في معنويات المسلمين؛ لأنهم استمروا على إرسال دعاتهم وخرجوا لأخذ ثارات هؤلاء الدعاة، حتى لا يعود المشركون إلى الغدر بالمسلمين مرة أخرى.

وحاول المنافقون التأثير في معنويات المسلمين بأسلوب آخر، هو أسلوب اختلاق الأخبار الكاذبة، فاختلقوا حديث الإفك بعد غزوة بني المصطلق.

ولم يؤثر هذا الأسلوب أيضًا في معنويات المسلمين؛ فلم يبق أمام المشركين ويهود والمنافقين إلا أن يحشدوا كل قواتهم في صعيد واحد لمحاولة القضاء على المسلمين ماديًّا ومعنويًّا، كما سنرى ذلك في غزوة الخندق». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٩-٢٢١**].

١٣ ـ عدم معرفة النبي ﷺ للغيب:

يقول أ/ فريد: «إن حادثتي بئر معونة والرجيع وغيرهما تدل على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، كما دلت على ذلك أدلة أخرى منها قوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف].

فالله ﷻ وحده عالم الغيب، والرسل والملائكة لا يعلمون عن الغيب إلا ما علمهم ربهم ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ ... لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن]». [**وقفات تربوية مع السيرة النبوية لفريد ص ٢١٩**].

١٤ ـ خداع النبي ﷺ دليل بشريته:

يقول الشيخ أبو زهرة: «إن هذه ثاني غدرة برسل النبي ﷺ مبلغين ليغدر بهم، وكانت الأولى في يوم الرجيع، وهذه في بئر معونة، فهل كان خداع النبي ﷺ، وهو قائد الأمة سهلًا بهذا الشكل؟!

فنقول: لم يكن الخداع بعيدًا عن رسول الله ﷺ وهو بشر كسائر البشر، يحتاط وكفاه، وقد فرض الله ـ سبحانه ـ أن المؤمن يُخدع، والكريم المخلص يخدع، والخب اللئيم الذي يفرض الشر لا يسهل خدعه كالكريم الطيب الذي يفرض في الناس الخير، وقد قال ﷻ في ذلك: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾ [الأنفال].

ففرض أن النبي ﷺ قد يخدع من الخب الغادر اللئيم.

وأن الرجل المؤمن الحكيم، وقد أوتي محمد ﷺ الحكمة وعلمها الناس، يخدع من ناحية ما يريد وما هيئ له.

وقد أحب النبي ﷺ تبليغ رسالة ربه وهداية العرب إلى الوحدانية، وعبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، وذلك عمله الذي بعثه الله تعالى له، وما كان قتاله إلا دفاعًا، فالقتال لحماية الدعوة من الاعتداء، ولم يكن هدفًا مقصودًا لذاته، فإذا جاء من يسهل له الدعوة استجاب، والحر الأبي لا يفرض الغدر ابتداء، ولكن يفرض الغدر حتمًا إذا كان الأمر من غادر.

وفي الحق أن النبي ﷺ خُدع في المرة الأولى لأنه رسول يريد تبليغ أمر ربه، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[المائدة: ٦٧]، فما كان له ﷺ أن يتردد في إجابة مَنْ دعوه ليعلمهم الإسلام وليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

هذا في يوم الرجيع أما يوم بئر معونة، فما كان مخدوعًا بل كان يقظًا، وخشي على من أرسلهم من خشونة أهل نجد وجفوتهم، وأنهم أعراب غلاظ، وما وافق حتى عقد عهدًا بالجوار، وكان مكتوبًا بدليل أنه قدَّمه رسولُ النبي ﷺ إلى عامر بن الطفيل فمزقه بسيفه، وبدليل أن بني عامر رفضوا أن يصرخوا ابن الطفيل إذ استصرخهم حفظًا للجوار.

ولكن الغدر والخيانة جعلاه يستصرخ بغيرهم كما أصرخوه، وكان ما كان من قتل الأطهار العباد الزهاد الذين يحتطبون بالنهار، ويقومون بالليل.

ولقد أدرك النبي ﷺ غدر الغادرين، وربما ظن بقلبه الطاهر الرباني أنه لم يكن حريصًا في إرسالهم، فقنت ثلاثين يومًا استغفارًا لربه، فما كان غير حريص، ولا مخدوعًا في هذا.

وإنه مهما يكن الأمر في هذا، فإنه من المؤكد أن مسارعة عامر بن الطفيل لهذا الغدر، ما كان إلا لإشاعة أن المؤمنين هُزموا في أُحُد، فتكشفت قلوب الغادرين والمدهنين لقريش، الذين ظنوا فيهم القوة والله ولي المؤمنين». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٤٦-٧٤٧].

ويعلق أ/ الشامي على هذا التحليل بقوله: «وذِكْرُ يوم بئر معونة بعد يوم الرجيع في بعض كتب السيرة يوهم أن حادثة القراء في يوم بئر معونة إنما تمت بعد وصول خبر أصحاب الرجيع إلى رسول الله ﷺ، ثم أرسل سبعين من أصحابه، وليس الأمر كذلك، فإرسال الرجال في كلا الحادثتين وقع متتابعًا، ووصول خبرهما كان في وقت واحد، وما كان رسول الله ﷺ ليخدع في المرة الثانية لو بلغه الأمر عن أصحابه الأوائل.

وعلى هذا فلا حاجة لما فعله بعض الكتاب من التبرير لذلك والتماس الأعذار».

[من معين السيرة للشامي ٢٨٤].

١٥ ـ تمايز بعض الأفراد داخل الصف المسلم:

يقول د/ الغضبان: «إنها النماذج الفردية كل فرد بعينه رباه رسول الله ﷺ، لم يخضع أحد منهم لرابطة دم كما رأينا من عروة بن الصلت، أو يأخذ بريق الدنيا والحياة بقلبه، كما رأينا المنذر بن عمرو والحارث بن الصمة، ولم يتراجع أو ينكل واحد من السبعين إذ أفضوا جميعًا شهداء، رفعوا راية الإسلام بدمائهم الذكية، وعرف العرب أنهم يقاتلون قومًا لا عهد لهم بقتالهم، فلا يعرفون الفرار أو يعرفون الجبن أو يعرفون الخوف، بل رأوا ما أذهل قلوبهم، ورأوهم يهتفون حين يشرع الرمح فيهم، وحين تقطر الدماء من أجسادهم يقولون: **فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**، وهؤلاء المقاتلون وهم يرون هذه النماذج، لا شك أن الإيمان يغزو قلوبهم فيقاومونه، ثم يغزوهم فيقاومونه أمام ضغط القرابة، وضغط قيم القبيلة إلى أن يأتي الوقت الذي يهزم هذه القيم، فيستجيبون لداعي الهدى، وينضمون إلى ركب الإيمان».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٧٥].

١٦ ـ استعداد الدعاة دائمًا لتحمل التبعات:

يقول د/ الشرباصي: «إن المجاهد المؤمن الصادق يضع نفسه وحسه «تحت الطلب» لخدمة عقيدته ومبدئه، فهو مستعد دائمًا لحمل التبعات ومواجهة الأزمات، وهو يقذف بروحه في أتون المعركة بلا خوف من سطوة عدو، أو مكر مخادع، أو خيانة لئيم، فالله الكبير موجود، والحق ظاهر واضح، والنهاية بفضل الله مضمونة مأمونة: فإما عزة بنصر، وإما نعيم بشهادة، والله ولي الصابرين.

لقد تعرض أصحاب رسول الله ﷺ لأشد ألوان المكر والغدر والخداع، فما ضعفوا ولا استكانوا، بل استخفوا بالشدائد واستهانوا، وأدوا واجباتهم بقدر طاقتهم، ومضوا إلى ربهم كرامًا عظامًا، مخلفين وراءهم أروع السير وأخلد الذكريات». [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ٣١٨].

ويقول أ/ فتح الباب: «ومما يجدر بالذكر ذلك الموقف البطولي الذي سجله بعض الرواة للمنذر بن عمرو رضي الله عنه قائد جماعة المسلمين إذ عرض عليه ابن الطفيل وعصبته أن يتركوه قائلين: إن شئت آمناك، فأبى وقاتلهم حتى قتل.

وفي هذا الشهيد العظيم قال رسول الله ﷺ «**أعنق ليموت**» يعني أنه تقدم على الموت وهو يعرفه، وذلك الموقف الذي روي عن المنذر بن محمد بن عقبة وكان يصحب المسلمين مع عمرو ابن أمية الصخري ـ وكانا قد عهد إليهما بالقيام على مطيهم التي تركوها ترعى حراسة إبلهم ـ شاهدا طيرًا تحوم على موضع الصحراء، فقالوا: والله إن لهذه الطير لشأنًا، وسارا يستطلعان الأمر، فإذا أصحابهم في

دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال المنذر لعمرو: ما ترى؟ فقال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال المنذر: ما كنت لأرغب عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل حتى قتل».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٠٧-١٠٨].

١٧ ـ تأثر أفراد الصف بالقائد القدوة:

يقول د/ أبو فارس: «إن حادثة بئر معونة تبرز الموقف البطولي للقائد والجنود، إن هؤلاء العلماء حفظة القرآن، الذين يتلونه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، حين أحاط بهم الأعراب، وغدروا بهم، وقد شرعوا رماحهم، وامتشقوا سيوفهم ماذا فعلوا؟ إنهم لم يستسلموا للغادرين ولم يترددوا في قتالهم، وظلوا يقاتلونهم حتى آخر جندي منهم.

ولقد ظل قائد المسلمين المنذر بن عمرو ﷺ يقاتل حتى سقط جنوده صرعى أمامه، وعرض عليه الأعراب أن يستسلم لهم، فأبى وأصر على قتالهم واستمر يقاتلهم حتى استشهد، فلما بلغ الرسول ﷺ صنيعه هذا قال ﷺ: «**أعنق للموت**».

إن موقف القائد وجنوده يدل على بطولة نادرة إذ هي معركة غير متكافئة في العدد والعدة والسلاح، وهذا الموقف يعطي درسًا للجبناء المتخاذلين في حروبهم مع أعدائهم، وهم ليسوا قلة في عددهم أو عدتهم كأولئك النفر من الصحابة.

هذا الدرس يتلخص في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢]، إما النصر وإما الشهادة:

فَإِمَّا حَيَاةٌ تَسُرُّ الصَّدِيقَ وَإِمَّا مَمَاتٌ يَغِيظُ العِدَا

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٧-٣٨].

١٨ ـ اتساع الصدر في الأمور الخلافية:

يقول د/ أبو فارس: «لقد علم عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد الجلاح بالمجزرة الرهيبة ببئر معونة عن طريق الطير التي كانت تحوم فوق القتلى، وكأن هذه الطير قد جزعت من هذه المأساة، وأرادت أن تنقل غدر الإنسان بأخيه الإنسان، حين يعيش بلا مبدأ نظيف أو عقيدة نظيفة ربانية سمحة.

تشاور المنذر وعمر فنتج عن التشاور رأيان تُرجما إلى موقفين:

الموقف الأول: وصاحبه المنذر بن محمد ﷺ، فقد رأى أن يقاتل حتى ينال شرف الشهادة، أو أسوة بإخوانه وقائدهم المنذر بن عمرو ﷺ.

الموقف الثاني: وصاحبه عمرو بن أمية الضمري ﷺ، فقد رأى أن لا فائدة من القتال وأن يلحق برسول الله ﷺ ويخبره بما حدث لأصحابه ببئر معونة.

وقد التزم كل منها الموقف الذي اختار، فاستشهد المنذر ﷺ، ولحق عمرو بن أمية ﷺ برسول الله ﷺ، ولم تنقل لنا كتب السيرة التي اطلعنا عليها أن الرسول ﷺ أنكر موقفًا واحدًا منهما.

يؤخذ من هذا أنه قد تختلف الاجتهادات، وتُبنى عليها المواقف المختلفة، لكن هذا حدث عند عدم وجود أمير يفصل في النزاع والخلاف، حيث يتبنى رأى الأكثرية، ولو كان هناك أمير لاستمع إلى الآراء وأخذ برأي الأغلبية وألزم الجمع به سواء كان بالقتال أو بغيره، فتأمل».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٨-٣٩].

ويقول ل/ خطاب: «لقد كان قرار عمرو بن أمية الضمري ﷺ بالرجوع إلى النبي ﷺ ليخبره بما حدث في بئر معونة لسرية المسلمين قرارًا حكيمًا وصائبًا، فما كان الرجل جبانًا، بل كان شجاعًا معروفًا بشجاعته، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا تجاه حشود القبائل الغادرة، والمتورطة في قتل سرية المسلمين، وكل ما يمكن أن يحدث هو استشهاده الحتمي في قتال غير متكافئ.

وكان قرار المنذر بن محمد الأنصاري ﷺ في الإصرار على الاستشهاد قرارًا شجاعًا بطوليًّا، فما كان له أن يعود إلى مستقره في المدينة، وهو يرى جثث إخوانه قتلى تملأ ساحة المعركة.

لقد كان قرار عمرو بن أمية الضمري ﷺ قرار العقل، وقرار المنذر بن محمد الأنصاري ﷺ قرار العاطفة، وكان لكلٍّ من القرارين ما يسوِّغه حينذاك، وقد اجتهدا، وللمجتهد أجره على كل حال».

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٣٤٨-٢٤٩].

١٩ ـ تكريم الشهداء:

يقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام يكرم الشهداء بكرامات كثيرة، فهم أحياء وليسوا موتى كبقية الناس، وشهداء بئر معونة أكرمهم الله بكرامة لم تكن لمن قبلهم ولا لمن بعدهم، فقد دعوا الله ﷻ أن يبلغ المسلمين ما حدث لهم من حسن العاقبة، فأنزل الله في ذلك قرآنًا ثم نسخ وهو قوله تعالى: «**بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا**». **[البخاري بفتح الباري ٨/ ٣٩٤]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس٣٩]**.

٢٠ ـ الأمة الإسلامية مستهدفة:

تنطوي كل من حادثتي الرجيع وبئر معونة على دلالة واضحة على مدى ما كانت تفيض به أفئدة المشركين من غل وحقد على المؤمنين، حتى إنهم ارتضوا لأنفسهم أحط مظاهر الخيانة والغدر ابتغاء إطفاء غليل أحقادهم على المسلمين، حيث وجدت الوثنية العربية فرصتها للانتقام في أعقاب هزيمتها في أُحد،

وراحت توجه للمسلمين الضربات الغادرة كلما تمكنت منها، متجاوزة في ذلك أعرافها وقيمها الجاهلية التي درجت عليها مئات السنين. [دراسة في السيرة لخليل ١٧٠، وفقه السيرة للبوطي ١٧٣].

ويقول الشيخ الغزالي: «إن اصطياد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجسًا وقلقًا، إذ إن ذلك المسلك دل على مبلغ طمع المشركين في أهل الإيمان واستهتارهم بأرواحهم وجرأتهم على النيل منهم، دون تخوف أو محاذرة قصاص.

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظًا، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب، بل الذي أحرج مشاعرهم في هذه الحادثة أنها كشفت عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غل كامن على الإسلام وأهله، غلٍّ عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء، وأباح لكل غادر أن يلحق الأذى بالمؤمنين متى شاء وكيف شاء».

[فقه السيرة للغزالي ٢٨٧، ٢٨٨-٢٨٩].

ويقول م/ أبو راس: «وهكذا يعيد الشرك الكرة ولكن على أيد مختلفة ليثبتوا ـ لكل من له قلب ـ أنهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، وليؤكدوا أن الدم المسلم عندهم هو أرخص عليهم من أي رخيص، وأهون عليهم من الهوان نفسه.

وهذا الموقف لم يقفه أعراب البادية المتوحشون، لينتهي الغدر مع انتهائهم، ولكن يقفه اليوم المتحضرون المتقدمون، الذين اخترقوا الأجواء وحطوا على القمر وبلغوا من العلوم الظاهرة ما بلغوا، أما سمعتم بالشركة «الطبية» السويسرية التي جربت بعض عقاقيرها على أطفال الأمة الإسلامية التي أصبحت كالأيتام على موائد اللئام، هذه العقاقير التي لا تجرب إلا على الفئران والحيوانات جربوها على أطفال مصر عام ١٩٧٤م، لا تعجبوا إذ أن للفئران وسائر الحيوانات جمعيات تدافع عنهم، أما المسلمون في عهد الذل والضعف والهوان فما هم إلا كقطيع من الغنم يسلمه الراعي إلى قاتليه بعد أن يقبض الثمن!

أو ما سمعتم بالمتعصبين من طائفة السيخ في الهند يجمعون مسلمي إحدى قرى البنجاب في إحدى ساحات القرية ليسكبوا عليهم «الكاز» ليحرقوهم أحياء.

لاتعجبوا.. فلم العجب وقد حُرِّق علماء مسلمون على أيدي زعيم يدَّعي الإسلام في العاصمة مقاديشو تزلفًا إلى الاتحاد السوفياتي بعدما لفظه الغرب!

أو ما سمعتم بالصليبيين في الفلبين يحرقون قرى إسلامية بأكملها ليتلذذوا بصيحات أخواتنا المسلمات هناك.

لا تعجبوا فلقد عملت راجمات الصواريخ بإحدى الدول العربية ما هو أكثر من هذا عندما هدمت عام ١٩٨٢م مدينة بكاملها.

والأمثلة كثيرة لا تُحصى، ولكن شعوبنا الإسلامية من المحيط إلى المحيط لا تعي الدرس لعدم قدرتها على الربط بين الأحداث، ولعدم قدرتها على وعي الدوافع والمنطلقات التي ينطلق منها هؤلاء؛ ولعدم وقوفهم على الطريقة المثلى لردع كلِّ مَنْ تُسول له نفسه في الاعتداء على فرد من أبناء الإمة الإسلامية الممتدة من المحيط إلى المحيط! هذا إن كانت ـ بالأصل ـ تريد الوقوف.

إن على الشعوب الإسلامية ـ على اختلاف ألوانها وألستنها وقومياتها ـ أن تعي أنها مستهدفة وإنه إن لم يكن اليوم فالغد، وإن لم تكن هذه السنة فالتي تليها، أو التي تليها.

وعلى الشعوب الإسلامية أن تعي أن ملة الكفر ـ على اختلاف سبله ونظرياته وفلسفاته ومنطلقاته ـ لا يرقبون في الأمة الإسلامية أو أحد من أبنائها إلًّا ولا ذمة، وأنهم يبغضونهم لا لشيء إلا لأنهم مسلمون موحدون، وإنهم ـ أي اليهود والنصارى والوثنيين ـ لن يرضوا عن المسلمين ما داموا يعلنون أنهم مسلمون ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة: ١٢٠].

وعليهم أن يعلموا أنه حتى غير الملتزمين بالإسلام وبتعاليم الإسلام مستهدفون من قِبل الشرك وأهله، فالبغي والطغيان لن يسأل وهو يُقدم على قتل المسلمين إن كان ملتزمًا أو غير ملتزم، وقد وصل البغي الصليبي في لبنان أن أفراد الكتائب كانوا يوقفون السيارات العابرة لبيروت الشرقية أو في المناطق التي كانوا يسيطرون عليها ويطلبون من الركاب الكشف عن عوراتهم فمن وجدوه مختونًا قتلوه في الحال!». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٢٢-٢٢٣].

٢١ ـ حرمة دم المعاهد المسالم:

يقول الشيخ عرجون: «تأسف النبي ﷺ أن عمرو بن أمية ﵁ أخبر النبي ﷺ أنه قتل رجلين من بني عامر في طريق عودته وسلبهما ما كان معهما من متاع، وكان هذان الرجلان معهما عهد من رسول ﷺ وجوار لم يعلمه عمرو بن أمية ﵁ فقتلهما بعد أن استنسبهما فعرف أنهما من بني عامر، قوم عدو الله الفاجر عامر بن الطفيل، وهو يرى أنه قد أصاب بقتلهما ثأرًا من بني عامر، فأنكر عليه النبي ﷺ ذلك، وقال له: «**بئس ما صنعت، قد كان لهما مني جوار وأمان لأدينهما**». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٥٧-٥٨].

٢٢ ـ مقام المسلم في دار الكفر أو الحرب:

يقول د/ البوطي: «كنا قد قلنا في القسم الأول من هذا الكتاب أنه لا يجوز للمسلم المقام في دار الكفر أو الحرب إن لم يمكنه إظهار دينه، ويسن له ذلك إن أمكنه إظهار دينه، والذي يدل عليه هذا المشهد من سيرته ﷺ أنه يستثنى من ذلك ما إذا كان المقام للمسلم في دار الكفر ابتغاء القيام بواجب الدعوة

الإسلامية هناك، فذلك من أنواع الجهاد الذي تتعلق مسؤوليته بالمسلمين كلهم على أساس فرض الكفاية الذي إن قام به البعض قيامًا تامًّا سقطت المسؤولية عن الباقين، وإلا اشتركوا كلهم في المأثم».
[فقه السيرة للبوطي ١٩٩-٢٠٠].

٢٣ ـ طريق الابتلاء والصفقة الرابحة:

سبق نصه تحت عنوان: (تمحيص المؤمنين) في الدروس المستفادة من سرية الرجيع.

٢٤ ـ مسؤولية المسلمين جميعًا عن الدعوة إلى الإسلام:

يقول د/ البوطي: «يدل كل من حادثة الرجيع وبئر معونة على اشتراك المسلمين كلهم في مسؤولية الدعوة إلى الإسلام وتبصير الناس بحقيقته وأحكامه، فليس أمر الدعوة موكولًا إلى الأنبياء والرسل وحدهم، أو إلى خلفائهم العلماء دون غيرهم.

وإنك لتستشعر مدى أهمية القيام بواجب الدعوة، من إرسال النبي ﷺ أولئك القراء الذين بلغت عدتهم سبعين شابًّا من خيرة صحابته ﷺ، ولما يمض أمد بعيد على مقتل أولئك النفر الستة الذين كان قد بعثهم في ذلك السبيل نفسه... ولقد استشعر الخوف عليهم، وذكر ذلك لعامر بن مالك عندما اقترح عليه إرسال وفد لدعوة الناس إلى الدين، ولكنه كان يرى أن القيام بأعباء التبليغ أهم من كل شيء، ولئن لم يمكن تحمل مسؤولية الدعوة والنهوض بها إلا بمثل هذه المغامرة وقبول ما قد ينتج عنها، فلتكن المغامرة، وليكن ما أراد الله تعالى في سبيل القيام بأمره وتبليغ دعوته». [فقه السيرة للبوطي ١٩٩].

ويقول الشيخ القرني: «إن هذه الحوادث تدلل على حرص النبي ﷺ على تبليغ رسالة ربه وانتهاز الفرص الممكنة لذلك، ولقد نظر النبي ﷺ إلى ظواهر القوم وترك سرائرهم إلى الله، والدعوة لابد أن تبلغ على الرغم مما يعترضها من صعوبات وما تحتاج إليه من تضحيات، ولئن استراب النبي ﷺ بمن جاءه يطلب الهداية فلم يرسل معهم من يعلمهم بناء على ما ظنه فيهم من سوء النية ليوشكن ذلك أن يصبح تشريعًا يعمل به الناس بعده ويترتب على ذلك شر مستطير وقد يفوت به خير كثير، والنبي ﷺ هو صاحب هذه الكلمة المستنيرة: «**أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر**» (١)، ومع ذلك لم يفته أن يستوثق لأصحابه، ولكن هناك ما هو أعظم من الاستيثاق وهو القضاء والقدر، فهما يغلبان كل تدبير واحتياط، وقد احتاط النبي ﷺ جهده، ولكن الله أراد لهؤلاء الشهادة، وأراد لهم أن يضربوا المثل العليا في

---

(١) قال الإمام السخاوي: «حديث: أمرت أن أحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، اشتهر بين الأصوليين والفقهاء، ولا وجود له في كتب الحديث المشهورة، ولا الأجزاء المنثورة، وجزم العراقي بأنه لا أصل له، وكذا أنكره المزي وغيره». المقاصد الحسنة للسخاوي ١/ ٥١ حرف الهمزة.

التضحية والفداء، وأن يكونوا علامات بارزة على الطريق يضيؤون للناس طريق الجهاد لمن يجيء بعدهم، وليبينوا للناس أن كلمة الإسلام يجب على المسلمين أن يحملوها عبر الآفاق مهما كلفهم ذلك من ثمن.

إن على المسلمين أن ينظروا إلى تاريخهم المشرق فيدركوا كم بذل الأوائل في سبيل نشر الدعوة حتى وصلت إلينا فأخذناها سهلة ميسورة دون أن نكلف أنفسنا عناء المحافظة عليها، إنها ثروة رائعة صيغت بالدماء والتضحيات والعرق والسهر والدموع، ونحن الآن نبددها دون وازع من ضمير أو دين، ودون خجل أو حياء». [هدي السيرة للقرني ١٥٩].

٢٥ ـ مسؤولية الشباب في حمل رسالة الإسلام:

يقول ل/ خطاب: «لقد كان أكثر أفراد هذه السرية شَبَبَة (الشبان، واحدهم شاب. ينظر: النهاية ٢/ ٢٠١) يسمُّون القُرَّاء، كانوا إذا أمسوا أتوا ناحية من المدينة، فتدارسوا وصلُّوا، حتى إذا جاء الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب، فجاؤوا به إلى حُجَر رسول الله ﷺ، وكان أهلوهم يظنُّون أنهم في المسجد، وكان أهل المسجد يظنون أنهم في أهليهم، فبعثهم رسول الله ﷺ في تلك السرية، فخرجوا فأُصيبوا في بئر معونة.

والقراء هم علماء الأمة، الذين نذروا أنفسهم للعلم والعمل به، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعمل الخير، وكان على رأسهم أعلمهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ: المنذر بن عمرو رضي الله عنه.

وقد قُتِل أصحاب المنذر، فعرض عليه المشركون أن يؤمِّنوه، ولكنَّه قاتلهم حتى قُتل، فذلك قول رسول الله ﷺ فيه: «**أعنَق ليموت**»، فلقب: «**الـمُعْنِق ليموت**».

لقد كانت سرية بئر معونة ملحمة من ملاحم المجاهدين في الله الذين يعتبرون الشهادة أمنية من أغلى أمانيهم، فحين طَعن المشرك جبارُ بن سُلمى حَرامَ بن ملحان رضي الله عنه سمعه القاتل يقول: «**فُزْتُ والله**» فأعلن حينذاك القاتل إسلامه؛ لأنه رأى تضحية لا يمكن أن تكون إلا لله وحدَه».

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٢٢٧-٢٢٨].

ويقول د/ عمارة: «من حق الشباب اليوم أن يمدوا أيديهم إلى ما في الحياة من صور المتاع الحسن، ولا تثريب عليهم إذا هم تقلبوا في البلاد سياحة تجدد نشاطهم، تجديدًا يعينهم على أداء دورهم في دنياهم.

فالطبيعة من حولنا مأدبة حافلة بأطايب الطعام، ولا بأس على العين أن ترى، ولا على القلب أن يخفق، ولا على الأعصاب أن تحس، في غير معصية الله تعالى، ذلك شيء مهم في حياة الشباب، وأهم منه أن تعود بهم ذاكرتهم إلى تاريخهم المجيد عودة يعمق بها اعتزازهم بأنفسهم، وتفتح أبصارهم على ما في تراثهم من مواقف مشرفة، قام بها شباب أمثالهم، فكانوا شاهد صدق على ما في شبابنا من طاقة تمكنه من

الصعود إلى أعلى، فلا تقف به همته عند الخضرة، والماء، لكنها تجعل منه سلاحًا من أسلحة القدر، يُعلِّم الناس فن الحياة.

وفيما رأيناه من شباب بئر معونة واحد من هذه المواقف.

فانظر ماذا ترى؟

إنهم نموذج من شباب هذه الأمة، قد استعلى بإيمانه فوق لهو الحياة ولعبها، فكان سهر الليالي في مدارسة العلم، والتعلق بالمسجد ذكرًا وصلاة متعته وزاده، ولئن كانت الخضرة والماء بعض مآربه، فإنه ولكي تبقى الحياة مخضرة لابد من تضحية ودماء تجري؛ لتظل الأرض مخضرة، تنبت من كل زوج بهيج.

لابد من معاني الكفاح، والإيثار، والجد والوحدة، حتى إذا دعا إلى البذل داع، كان هناك من هذه المعاني رصيد تنطلق به القافلة إلى أمام، وإلا فلو جلس كل إنسان مستغرقًا في متعته، لما وجدت الدنيا يدًا تستنبت الخضرة، ولا آلة تجري الماء، فماذا في المشهد من معان تستلفت النظر.

كانوا سبعين شابًّا، أعني في مرحلة الاعتزاز بالرأي، وتحكيم المزاج، لكنهم كانوا (رجالًا) توحدت كلمتهم حول منهج معين، وطريق مرسوم، بلا خوف، إن مبادئ الإسلام واضحة في أذهانهم وضوحًا يؤدي بهم إلى الالتفاف حولها، والعمل من أجلها، نظرية سليمة قابلة للتطبيق في دنيا الواقع على نحو تتحول به الفكر إلى حياة نابضة بالحركة، فعلام الاختلاف إذن وقد ذهبت دواعيه؟

ليس هنا مزاج شخصي يتحكم، بل الكل جماعة واحدة، إلى هدف واحدة، ولعل وحدة الكلمة أقرب إلى تحرير النفس مما لو كان هناك فكر سديد لا يجد الجماعة التي تتحمل مسؤوليته أسوة بهؤلاء السبعين من الرجال.

لقد انتصرت إسرائيل علينا، وربما خذل المسلمون أنفسهم حين لم يرتفعوا إلى مستوى إيمانهم بالله ﷻ.

أما هؤلاء الشباب فكانوا بمسلكهم الرائع صورة عملية تتجسد بها المفاهيم، وتستقر بها المبادئ.

فكانوا في السلم طُلاب علم يقترب به الإنسان من خالقه سبحانه.

وفي الحرب صاروا جندًا يدوخ الله بهم الباطل، وعلى أساس من العلم والعمل قامت حياتهم:

علم يتدارسونه فيربطهم بالحياة، وتصح به صلتهم بالله تعالى، وبالمجتمع الذي يعيشون فيه، فيردون إليه الجميل في صورة ذلك الماء العذب، وهذا الحطب الجزل، يقدمونه إلى رسول الله ﷺ، أي أن تحصيل العلم لم يلههم عن أداء واجبهم هكذا تطوعًا، ولو كان ذلك الواجب قربة ماء يحملونها، أو حزمة حطب يجلبونها.

ولم تكن منهم أنفة من عمل كهذا، وربما تعافه بعض النفوس المترفة.

وإنها لزكاة ترمز إلى شرف العمل مهما كان نوعه، وهو نموذج مفقود في صفوف شبابنا الذين يجيدون فقط فن النقد والتجريح، بينما هم يأكلون مما عملت أيدي غيرهم.

إنهم فقط ينقدون، وما أسهل النقد، ثم هم لا يعملون، فما أصعب العمل.

إن العلم في الإسلام ـ كما يفهم من موقف هؤلاء الشباب ـ يمهد السبيل إلى تربية النفس التي تنشط به إلى عمل الخير، ويتم ذلك كله في سرية تامة، فلا يعلم أهلوهم، ولا أصحابهم في المسجد بما يفعلون، فليس هناك شعارات براقة تزحم الأفق، بلا عمل، بيد أنه العمل في صمت ابتغاء رضوان الله تعالى طبق خط مرسوم، ووقت مقسوم بين العبادة والعمل.

فإذا علمنا أن هذا الشباب من (الأنصار) من أهل المدينة وممن يساكنون اليهود، أدركنا في نفس الوقت بُعدًا آخر من أبعاد هذه الوثبة المباركة، لقد تحالف بنو قينقاع مع الأوس، وتحالف بنو قريظة وبنو النضير مع الخزرج، فكانت الأوس تقترض من بني قينقاع، والخزرج تقترض من حلفائها، وكان لهذا الحصار الاقتصادي المضروب آثاره فيما زينه اليهود من رزائيل، وما بثوه من مكر ودهاء عكروا به صفو الطبيعة العربية، فإذا نجح هذا الشباب في مدارسة العلم، ثم في تتويجه بالعمل، وإذا وصلوا بالعمل إلى كسر هذا الحصار المضروب، ورد الكيد اليهودي إلى نحور أعدائهم، ثم الاحتفاظ بالولاء للدين ومحبة رسول الله ﷺ، إذا استطاع هذا الشباب أن يثبت وجوده في دوامة المكر اليهودي، فإن ذلك دليل على ما في شبابنا من إمكانات ما زالت صالحة لاستئناف الدور في عصرنا الحاضر، وعودًا على بدء نبني كما كانت أوائلنا تبني.

لقد كانوا ـ بمسلكهم العملي ـ بنجوة من تأثير اليهود المتربصين بهم باعتبارهم قوة الغد، وقادة المستقبل، وكان تقلبهم بين المسجد والبيت دليلًا على روحهم الجادة التي لا يتسع وقتها للجلوس في ساحات اللهو، ومواطن العبث، وهو نفسه المسلك الذي رشحهم للقيام بدعوة الناس إلى الإسلام.

وفي لحظة غدر استشهدوا، فحزن عليهم الرسول ﷺ وفاء لهم؛ وتقديرًا لدورهم، ولموقفهم الصامد في لحظة الموت، لقد كانوا يزرعون الحياة، بينما الموت يحصدهم حصدًا، لقد دعوا إلى الله بدمائهم وأرواحهم يبذلونها، قبل أن يدعوا إليه بكلامهم وأناشيدهم.

وهذا هو جبار بن المسلمي وكان واحدًا ممن قتلوا هذا الشباب ذَكَرَ أَنَّهُ لَـمَّا طَعَنَهُ (أي حرام بن ملحان ﷺ) قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **فُزْتُ وَالله**، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا قَوْلُهُ: فُزْتُ؟ قَالَ: فَأَتَيْتُ الضَّحَّاكَ بْنَ سُفْيَانَ الكِلابِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ وَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِهِ: فُزْتُ، فَقَالَ: الجَنَّةَ.

قَالَ: وَعَرَضَ عَلَيَّ الإِسْلامَ، قَالَ: فَأَسْلَمْتُ، وَدَعَانِي إِلَى الإِسْلامِ مَا رَأَيْتُ مِنْ مَقْتَلِ عَامِرِ بْنِ فُهَيْرَةَ مِنْ رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ عُلُوًّا. [المغازي للواقدي ١/ ٣٤٩].

إن معنى جديدًا للنجاح يبرز الآن، وليس هو الحصول على رتبة أو درجة علمية، ولكنه النجاح الساحق في ساحة الاستشهاد حين ترخص الروح في سبيل الله. [تأملات في السيرة النبوية لعمارة ١٩٥-١٩٨].

٢٦ ـ الحرص على الفوز بالشهادة في سبيل الله:

يقول د/ الصلابي: «**فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**» [البخاري في المغازي (٤٠٩١)] صاحب الكلمة حرام بن ملحان ﷺ، فعندما اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صدره، وأصبح يتلقى الدم بيديه، ويمسح به وجهه ورأسه ويقول: «**فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**»، إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجرًا يتأثر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الذين لا تصفر وجوههم فزعًا من الموت، وإنما يعلوها البِشر والسرور، وتغشاها السكينة والطمأنينة. [ينظر: التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٠].

وهذا المنظر البديع الرائع الذي لا يتصوره العقل البشري المجرد عن الإيمان جعل جبار بن المسلمي وهو الذي طعن حرام بن ملحان ﷺ يتساءل عن قول حرام: **فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**، وهذا جبار يحدثنا بنفسه فيقول: إن مما دعاني إلى الإسلام، أني طعنت رجلًا منهم يومئذ برمح بين كتفيه فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: **فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**، فقلت في نفسي: ما فاز؟ ألست قد قتلت الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة، فقلت: فاز لعمر الله، فكان سببًا لإسلامه. [ينظر: السيرة النبوية للندوي ص٢٤٣، ٢٤٤، وابن هشام ٣/ ٢٠٧].

وهذا الموقف الخارق للعادة يدعونا للتساؤل: هل يتعرض الشهيد لألم الموت؟

وتأتينا الإجابة الشافية من رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى في قوله: «**مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ**». [الترمذي (١٦٦٨)، وقال: هذا حديث صحيح غريب، والنسائي (٣١٦١)، وابن ماجه (٢٨٠٢). وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح].

فللشهيد منزلة خاصة عند الله، فجزاء الثمن الباهظ الذي يدفعه وهو روحه رخيصة في سبيل الله ﷻ لم يبخسه أعدل العادلين حقه فكافأه مكافأة بست جوائز كل واحدة منها تعدل الدنيا بمن فيها، فَعَنْ الِمقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنْ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، [وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ]، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنْ الحُورِ**

العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ». [الترمذي (١٦٦٣)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب). وقال الشيخ الألباني: صحيح، وابن ماجه (٢٧٩٩). وينظر: مبحث (الشهيد وأحكامه) من المرحلة الثالثة من غزوة أحد].

هذا بالإضافة إلى الوسام المميز المشرف الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ جَرِيحٌ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ جُرْحُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَدْمِي، لَوْنُهُ لَوْنُ الدَّمِ، وَرِيحُهُ رِيحُ المِسْكِ**...». [مجمع الزوائد ٦/ ١٧٢، كتاب المغازي والسير (١٠١٠٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح].

كما أن حياة الشهداء لا تنتهي بمجرد موتهم، بل هم أحياء يرزقون ويتنعمون عند ربهم.

[ينظر: السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة النبوية لبريك ص٢٤٥].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

[السيرة للصلابي ٢/ ١٨٩-١٩٠].

٢٧ ـ الداعية الصادق يجعل الله موته دعوة في سبيله:

يقول د/ الشرباصي: «لقد كانت شهادة المجاهد البطل حَرَامِ بنِ مِلحَانَ رضي الله عنه سببًا في إسلام قاتله، فقد طعنه رجل يُسمى «جبار بن سلمى الكلابي»، فقال حَرَامُ بن مِلحَانَ رضي الله عنه حينما أصابته الضربة القاتلة: **اللهُ أكبرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**.

واستمع «جبار» القاتل إلى العبارة التي رددها حرام الشهيد رضي الله عنه، فلم يفهم معناها.

لماذا قال: الله أكبر؟

وأين الفوز الذي فاز به؟ ألم يذق الموت ويترك الحياة إلى التراب؟

وذهب الرجل يسأل، فقيل له: إن حرامًا يقصد بقوله هذا أن الله قد أكرمه حينما رزقه نعمة الشهادة في سبيله، وأنه سيفوز بنعيم الجنة في الدار الآخرة.

وانبهر «جبار» من هذا اليقين المسيطر، وهذا الإيمان السابغ، وأخذ يفكر ويفكر، وكأن حرامًا رضي الله عنه يطل عليه دائمًا من عالم الخلد، ويشير إليه بأصابع نورانية، ويقول له بصوت فيه روعة السماء وهيبة الآخرة: **يا جبار، أقلع عن كفرك وعنادك إن الباب مفتوح أمامك، فادخل دين الله ـ تبارك وتعالى ـ تكن من الفائزين**.

وشرح الله صدر «جبار» للإسلام، فاهتدى وأعلن إسلامه، وقال فيما قال عن سبب هذا الإسلام: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلًا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: **الله أكبر، فزت ورب الكعبة**، فقلت في نفسي: ما فاز؟ ألست قد قتلت الرجل؟**!** حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: إنه يعني الشهادة، فانشرح صدري للإسلام، وقلت: صدق الله، فاز والله**!**

وهكذا كان استشهاد حرام ﷺ ـ وهو في سن الأربعين ـ خيرًا له ولغيره، ففاز بالنعيم الأبدي عند الله جزاء شهادته، وكان سببًا في اهتداء أحد الكافرين إلى صراط الله ﷻ، «**فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**». [أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن سهل بن سعد ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير: ١٥١١]. [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ٥٥٥-٥٥٦].

ويقول د/ أبو فارس: «وهذا درس للدعاة يجدر بهم أن يدرسوه ويستفيدوا منه ويطبقوه، أن عليهم أن يغذوا دعوتهم بدمائهم، وليعلموا أن كلماتهم تكون ألفاظًا جامدة لا حياة فيها ولا روح إلا إذا غذوها بالإخلاص والتضحية والفداء والقدوة الحسنة، إن عليهم أن يكونوا صادقين مع الله فيصدقهم الناس، ويؤمن الناس بدعوتهم، ويزداد أتباعهم إيمانًا بصدقهم وصدق ما يدعون إليه».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس٣٩].

٢٨ ـ حب الشهادة:

يقول د/ أبو فارس: «إن المسلم لا يهاب الموت، بل يستعذب الردى إن كان في سبيل الله، ذلك لأنه عقد الصفقة مع الله على أن يبذل ماله ونفسه لقاء ما عند الله من النعيم المقيم.

وها هو ذا ابن ملحان ﷺ في بئر معونة لما طعن بالرمح فخرج من شقه الآخر أخذ الدم يلطخ به وجهه ويقول: **فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**، يكرر ذلك مرارًا، ويقف نفس الموقف في نفس الحادثة عامر بن فهيرة ﷺ حينما طعن.

إن على الدعاة إلى الله في كل زمان ومكين أن يربوا أنفسهم وأبناءهم وإخوانهم وأزواجهم وأقرباءهم على حب الجهاد والاستشهاد، ويتقدمون الناس في الملمات، فيقتدي بهم الناس، ويعبؤون أنفسهم ويربونها على الجهاد والبذل والتضحية». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٧].

٢٩ ـ وقوع الكرامات لعباد الله الصالحين:

يقول أ/ المصري: «وفي القصة كرامة ظاهرة لعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ﷺ والكرامة هي الخارقة الرحمانية التي يسوقها الله ﷻ على يد ولي من أوليائه، ومَنْ أولى بذلك من الصحابة الكرام الذين كانت آيات صدقهم ظاهرة وعلامات إيمانهم وجهادهم باهرة.

وهكذا فالجزاء من جنس العمل، فلقد كان عامر ﷺ يرفع الطعام إلى النبي ﷺ فرُفع إلى السماء، ولقد كان عامر ﷺ يدفن سر النبي ﷺ ويُخفي آثاره فتولت الملائكة دفنه، والجزاء من جنس العمل.

وهكذا يكون العمل لدين الله.

فمهما كان العمل صغيرًا أو كبيرًا فما عليك إلا أن تجتهد لخدمة هذا الدين، فهذا عامر ﷺ كان يذهب بالغنم إلى الحبيب ﷺ وأبي بكر ﷺ ليشربا اللبن، ومع ذلك لم يقل: إن هذا العمل صغير أو ضئيل؛ لأنه

يعلم، بل يوقن أن الجدار العظيم لهذا الدين يحتاج إلى كل السواعد، فهذا يأتي بالماء وذلك يحمل اللبنة على كتفه، وآخر يبني ويشيد، وبذلك تتكامل سواعد الأمة.

وعلى قدر النية والإخلاص يكون الأجر من الله والنجاح في القيام بهذا العمل.

ومن هنا فعلى كل مسلم أن يقدم من خلال عمله ومكانته كل ما يستطيع من خلاله أن يبني به لبنة في جدار الإسلام.

عَنْ أَنَسٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَا عَلَيْكُمْ أَلَا تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ، فَإِنَّ العَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ البُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**». [صحيح: (أحمد والترمذي والحاكم) عن أنس ﵁ ـ صحيح الجامع الصغير للألباني رقم ٣٠٥]. [أصحاب الرسول ﷺ للمصري ٢/ ٣٨٧-٣٨٨].

٣٠ ـ وقفات البطولة الفدائية:

يقول أ/ فتح الباب: «إن وقفات البطولة الفدائية التي تجلت يوم بئر معونة لآيات وشواهد خالدة على قوة إيمان جنود النبي ﷺ طليعة علماء الإسلام، وثقتهم بالله ورسوله والمؤمنين، وصلابة إرادتهم في أداء الرسالة أو الموت دونها، تلك القيم الروحية الرفيعة التي مثلها الإسلام في نفوسهم فجرت فيها مجرى الدماء، ولا غرو أن تصدر هذه الآيات عنهم، فهم أصحاب العلم الأعظم في تاريخ البشرية، وهم آباء الطلائع الإسلامية المجاهدة التي نشرت في العالم عقيدة الطهارة والإيمان والتضحية».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٠٩-١١٠].

إن هؤلاء السابقين المستضعفين في الأرض لم يمنعهم فقرهم ولا قلتهم أن يجاهدوا ويقودوا، فينتصروا ويسودوا، وإن هؤلاء الأوائل قد ضربوا الأمثلة للمظلومين أو المهضومين؛ كي يتجمعوا ويجاهدوا فيستردوا المسلوب، ويستعيدوا المغصوب: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]. [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ٥٥٧].

٣١ ـ الوفاء بالعهد:

وقع عمرو بن أمية الضمري ﵁ أسيرًا في بئر معونة، ولما علم عامر بن الطفيل أنه من مضر أطلقه، وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، فلما خرج عمرو ﵁ قاصدًا المدينة نزل في طريقه في ظل والتقى برجلين من بني عامر، وكان معهم عقد من رسول الله ﷺ وجوار، لم يعلم به عمرو بن أمية ﵁، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما، حتى ناما، ثم عدا عليهما

فقتلهما وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدم عمرو بن أمية ﵁ على رسول الله، فأخبره الخبر، قال رسول الله ﷺ: «**لقد قتلت قتيلين لأدينَّهما**».

وهذا موقف رفيع، فقد ودى ﷺ ذينك الرجلين العامريين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ﵁ لكونهما يحملان عقدًا منه ﷺ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما، وهذا يمثل منتهى القمة في الوفاء بالعهود.

قد كان بإمكان النبي ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أمية ﵁ جزءًا من الانتقام الذي ينبغي أن يواجِه به المجرمين المعتدين، ولكن ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين من قومهم؟

إن التوجيهات الإسلامية الرفيعة دفعت بالمسلمين ونبيهم ﷺ إلى الرقي الأخلاقي الذي لا نظير له في دنيا الناس. [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٠، والسيرة النبوية للصلابي ٢/ ١٩٠-١٩١**].

٣٢ ـ مشروعية دية قتل الخطأ:

يقول د/ أبو فارس: «وأخذ هذا من قول الرسول ﷺ لعمرو بن أمية ﵁ حينما قتل رجلين من بني عامر ظانًّا أنهما كافران: لأدينهما، أي لأدفع ديتهما.

وكذلك أخذ من دفع النبي ﷺ دية هشام بن صبابة الذي قُتل خطأ لأخيه مقيس بن صبابة في غزوة بني المصطلق كما سيأتي». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٦**].

٣٣ ـ معايير النصر والهزيمة:

يقول د/ الحميدي: «أحداث هذه السرية والسرية التي قبلها ونتائجهما تختلف عن أحداث ونتائج الغزوات والسرايا السابقة، فقد ألفنا في كل الغزوات والسرايا أن نرى انتصارات المسلمين الظاهرة مع ما يصيبهم من قتل أو جراح، ولكننا في هاتين السريتين رأينا استئصالًا كاملًا للمسلمين.

والحقيقة أن معايير الانتصار والانهزام لا تخضع لحجم الخسائر المادية التي من ضمنها وقوع الضحايا، وإنما تخضع لمدى الثبات على المبادئ التي قامت الحروب من أجلها أو التراجع في هذا الأمر، ومن ذلك معرفة مدى الحماس في تمثيل هذه المبادئ أو الفتور في تمثيلها، وشدة التلاحم بين القائد وجنوده أو ضعف ذلك، ومدى التماسك بين أفراد الجماعة قوة أو ضعفًا، إضافة إلى مقدار التضحية بالنفس والمال من أجل خدمة المبادئ.

وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين في العهد النبوي نجد أن الصحابة ﵃ كانوا في ثبات دائم على المبادئ السامية التي من أجلها قطعوا الوشائج مع الأقارب والأصدقاء والحلفاء الذين لم يدخلوا في الإسلام، ونجد أن الانتصار المادي لا يبطرهم ولا يطغيهم، وأن الإصابات المادية لا تضعفهم ولا تحطم معنوياتهم، وأن حماسهم في الدفاع عن الإسلام ثابت على قوته، وأن طاعتهم لقائدهم ﷺ تعتبر مضرب الأمثال،

حتى اعترف بذلك الأعداء أنفسهم، وأن سلوكهم الاجتماعي في قمة التفوق الأخلاقي حيث يُؤثر بعضهم بعضًا بأمور الحياة الدنيا، وأن أسمى أمانيهم أن ينالوا الشهادة في سبيل الله تعالى.

وهذا يعني أنهم في انتصار دائم وإن واجهوا الخسائر المادية في بعض لقاءاتهم مع أعدائهم.

نعم، لو أن أفراد هاتين السريتين ألقَوا بأنفسهم لأعدائهم وتخلوا عن دينهم الذي من أجله خرجوا لكان ذلك هزيمة واضحة لدولة الإسلام، وانتكاسة كبرى للدعوة الإسلامية، ولكن أنَّى يكون ذلك وهم يتغنون بالشهادة ويقول الواحد منهم إذا قُتل: «**فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**».

إن أعظم انتصار لدعوة الإسلام أن يجود أفرادها بدمائهم الزكية من أجلها.

إن الإسلام دين عظيم، ولا يُفدى العظيم إلا بالعظيم، ولا أعظم من أن يجود الإنسان بدمه فداء لدينه.

فلذلك كان استشهاد هؤلاء العظماء نصرًا عظيمًا للإسلام.

إن بعض النفوس تظل في شك من مصداقية هذه الدعوة ومدى ثباتها أمام الأعاصير العاتية، حتى ترى قَسَمات الفرح بادية على وجوه أفرادها وهم يواجهون الموت في سبيلها.

وإن المشهد العالي مثَّله حرام بن ملحان ﵁ وقد اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صدره وأصبح يتلقى الدم بيديه ويمسح وجهه ورأسه، ويقول: «**فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**».

إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجرًا يتأثر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الذين لا تَصْفَرُّ وجوههم فزعًا من الموت، وإنما يعلوها البِشْرُ والسرور، وتغشاها السكينة والطمأنينة، ولقد كان لبعض هذه المشاهد أثر في إسلام بعض مرتكبي هذه الجريمة فيما بعد، كما جاء في أخبار هذه السرية».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٤٨-٥٠].

٣٤ ـ أهمية الإعلام الإسلامي في المعركة:

يقول د/ الصلابي: «كان حسان ﵁ من رجالات المؤسسة الإعلامية الإسلامية، فكان يشن الحرب النفسية على الأعداء، وكان بجانبه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ﵄، فلم يتركوا حدثًا من أحداث السيرة إلا قالوا فيه شعرًا، وكل قصيدة للكافرين يردون عليها بقصائد، وقد علمنا ما أحدثه شعر حسان ﵁ في طرد كعب بن الأشرف اليهودي، وكان ﷺ يتعهد شعراء الدولة الإسلامية ويشجعهم على خوض هذا الباب من الجهاد، فعلى المسلمين المعاصرين قادة وزعماء وعلماء وفقهاء وجماعات أن يرعوا شعراءهم ويشجعوهم لخوص هذا الجهاد العظيم. **[ينظر: الأساس في السنة–السيرة النبوية لحوى ٢/ ٦٥٦]**.

ولما بلغ حسان ﵁ خبر أصحاب بئر معونة نظم أبياتًا تناقلتها الركبان يحث فيها ربيعة بن عامر ملاعب الأسنة ويحرضه بعامر بن الطفيل بإخفاره ذمة أبي براء، فلما بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشعر،

وكان الشعر عندهم أوجع من رشق النبل، وقطع السيوف للرقاب، وطعن النحور بالرماح، قام ربيعة بأخذ ثأر أبيه فضرب عامر بن الطفيل ضربة أشواه بها ـ أي لم تصب منه مقتلًا ـ فوثب عليه قومه، وقالوا لعامر: اقتص، فقال: قد عفوت، وإن عشت فسأرى رأيي فيما أتى إليَّ.

[السيرة النبوية للصلابي ٢/ ١٩١-١٩٢].

٣٥ ـ مشروعية القنوت جهرًا في الصلوات الخمس عند النوازل (١):

يقول د/ العيساوي: «دل على ما ورد في سرية بئر معونة على مشروعية القنوت (٢) في الصلوات الخمس عند النوازل، حيث قنت رسول الله ﷺ شهرًا يدعو على الذين قتلوا القراء بعد الركوع.

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا أَصْحَابَ بِئْرِ مَعُونَةَ ثَلَاثِينَ صَبَاحًا، يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَلِحْيَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: أَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي الَّذِينَ قُتِلُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قُرْآنًا قَرَأْنَاهُ حَتَّى نُسِخَ بَعْدُ: ﴿ أَنْ بَلِّغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ ﴾.

[البخاري في المغازي (٤٠٩٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٩٧) واللفظ له].

وفي رواية: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا أَصْحَابَ بِئْرِ مَعُونَةَ ثَلَاثِينَ غَدَاةً، عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: أُنْزِلَ فِي الَّذِينَ قُتِلُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قُرْآنٌ قَرَأْنَاهُ ثُمَّ نُسِخَ بَعْدُ: ﴿بَلِّغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ﴾. **[البخاري في الجهاد (٢٨١٤)].**

وقد ورد في المغني: «فإن نزلت بالمسلمين نازلة فللإمام أن يقنت في صلاة الصبح» نص عليه أحمد.

[المغني لابن قدامة ١/ ٤٤٨].

---

(١) فصَّل الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق ﵀ أقوال العلماء في القنوت وأحكامه في رسالة بعنوان: القنوت بين الشرعة والبدعة ـ هدية مجلة الأزهر ١٤٠٨هـ ـ ٤٨ ص، وقد أعيد نشرها في المجلد الثالث من مجموعة فتاواه ص ٦٧-١٠٨.

(٢) **القنوت:** لفظ مشترك بين الطاعة، والقيام، والخشوع، والسكوت، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾[الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[الأحزاب: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾[البقرة].

وقال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصلاة طول القنوت**». أخرجه مسلم في صلاة الليل. ينظر: دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٥٠، حاشية رقم ٢٠.

واستدل بالحديث الذي ذكرناه من أن النبي ﷺ قنت شهرًا يدعو على حي من أحياء العرب ثم تركه.

وقد ترجم له الشوكاني في نيل الأوطار: «باب: القنوت في المكتوبة عند النوازل وتركه في غيرها».

[نيل الأوطار للشوكاني ٢/ ٣٩٣].

وقال: «والحق ما ذهب إليه من قال إن القنوت مختص بالنوازل، وأنه ينبغي عند نزول النازلة أن لا تخص به صلاة دون صلاة». **[نيل الأوطار للشوكاني ٢/ ٣٩٦].**

وقال: «إنما قنت عند النوازل للدعاء لقوم وللدعاء على آخرين ثم تركه لما قدم من دعا لهم من الأسر، وأسلم من دعا عليهم، وجاؤوا تائبين، وكان قنوته لعارض، فلما زال ترك القنوت».

[نيل الأوطار للشوكاني ٢/ ٣٩٦].

والقنوت في النوازل فيه ثلاثة أقوال:

الأول: إن نزلت نازلة كعدو، وقحط، قنتوا في جميع الفرائض، وإلا فلا، وهو رأي الجمهور، وهو الصحيح. **[البخاري بشرح الكرماني ٥/ ١٥٣].**

الثاني: يقنتون في الحالين، وهو مذهب سعيد بن المسيب. **[فقه سعيد بن المسيب ـ د/ هاشم جميل ١/ ٢٥٢].**

الثالث: لا يقنتون فيهما، وهو رأي جماعة من أهل العلم. **[البخاري بشرح الكرماني ٥/ ١٥٣].**

وأما القنوت في صلاة الفجر، فقد اختلف العلماء في مشروعيته في الركعة الثانية في صلاة الفجر على آراء:

الأول: أنه مستحب سواء نزلت بالمسلمين نازلة أم لا. نقله العيني وغيره. **[عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ٧/ ٢٣، ونصب الراية للزيلعي ٢/ ١٣٣، وتحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للمباركفوري ١/ ٣١٠، والروض النضير شرح مجموعة الفقه الكبير للصنعاني ٢/ ١٣٣، وفقه سعيد بن المسيب ـ د/ هاشم جميل ١/ ٢٥٠].**

وهو رواية عن الخلفاء الأربعة وابن عباس، والثوري، وإليه ذهب مالك، والشافعي.

[عمدة القاري للعيني ٧/ ٢٣، ونصب الراية للزيلعي ٢/ ١٣٣، وتحفة الأحوذي ١/ ٣١٠].

والحجة لهم ما روي عن الربيع بن أنس، قال: إن النبي ﷺ قنت شهرًا يدعو على قاتلي أصحابه ببئر معونة ثم تركه، فأما في الصبح فلم يزل يقنت حتى مات. رواه الدارقطني والبيهقي.

وفي رواية لهما عن الربيع، قال: كنت جالسًا عند أنس، فقيل له: إنما قنت رسول الله ﷺ شهرًا، فقال: ما زال يقنت في صلاة الغداة حتى مات». **[سنن الدارقطني ١/ ١٧٨، السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢١٠].**

الثاني: عدم مشروعية القنوت في صلاة الصبح. نسبه الترمذي إلى أكثر أهل العلم، وهو رواية عن الخلفاء الأربعة، وإليه ذهب أبو حنيفة وأحمد. **[المغني لابن قدامة ١/ ٧٨٧، والهداية للمرغياني ١/ ٤٥].**

والحجة لهم ما روي عن أنس: أن النبي ﷺ مكث شهرًا يدعو على أحياء من أحياء العرب ثم تركه. رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه. **[مسلم بشرح النووي ٥/ ١٨٠، وسنن النسائي ٢/ ٢٠٤، وابن ماجه ١/ ١٩٤].**

واعترض: بأن المراد من الترك هنا ترك الدعاء على هـذه الأحيـاء بخصوصـها لا تـرك القنـوت، بدليل الأحاديث السابقة عنه. [فقه سعيد بن المسيب ـ د/ هاشم جميل ١/ ٢٥٢].

وما روي عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَةِ، إِنَّكَ قَدْ صَلَّيْتَ خَلْفَ رَسُـولِ الله ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، هَاهُنَا بِالكُوفَةِ نَحْوًا مِنْ خَمْسِ سِنِينَ، أَكَانُوا يَقْنُتُـونَ؟، قَالَ: أَيْ بُنَيَّ مُحْدَثٌ؟ [الترمذي في الصلاة (٤٠٢)]، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالعَمَلُ عَلَيْهِ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ العِلْمِ» وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «إِنْ قَنَتَ فِي الفَجْرِ فَحَسَنٌ، وَإِنْ لَمْ يَقْنُتْ فَحَسَنٌ»، وَاخْتَارَ أَنْ لَا يَقْنُتَ «وَلَمْ يَرَ ابْنُ الْمُبَارَكِ القُنُوتَ فِي الفَجْرِ». وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٤١)، وقال الشيخ الألباني:صحيح].

وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «صَلَّيْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ عُمَرَ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ عُثْمَانَ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَـلَّيْتُ خَلْـفَ عَلِيٍّ فَلَمْ يَقْنُتْ»، ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّهَا بِدْعَةٌ. [النسائي في الصلاة (١٠٨٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

واعترض: بأن هذا ناف، وحديث أنس مثبت، والمثبت مقدم على النافي.

[نيل الأوطار للشوكاني ٢/ ٣٩٤]. [فقه السرايا للعيساوي ١٢٤-١٢٨].

٣٦ ـ الموت المهين للطغاة:

يقول أ/ الصوياني: «واستجاب الله ﷻ لدعاء نبيه ﷺ، فقد دعا ﷺ على عامر بن الطفيل فقال: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِي عَامِرًا**»، فأصيب الطاغية بمرض عضال، وصفه ﷺ بقوله: «**غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَعِيرِ**»، وسماه ﷺ بـ «**الطاعون**» [1]، وهو وصف دقيق للطاعون الدبلي الذي يتميز (بارتفاع درجة الحرارة، وتضخم العقد الليمفوية في منطقة الإرب وتحت الإبط، وكذا تضخم الطحال) [2]، وهو ما أُصيب به عامر بن الطفيل حتى أصبح حبيسًا في بيت امرأة من قومه.

---

(١) عن مُعَاذَةَ بِنْتِ عَبْدِ الله الْعَدَوِيَّةُ، قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ ﵂، فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَفْنَى أُمَّتِي إِلَّا بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هَذَا الطَّعْنُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الطَّاعُونُ؟ قَالَ: «**غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ، الْمُقِيمُ بِهَا كَالشَّهِيدِ، وَالْفَارُّ مِنْهَا كَالْفَارِّ مِنَ الزَّحْفِ**». مسند أحمد ٤٢/ ٥٣ رقم ٢٥١١٨، ٤٣/ ٢٥٦ رقم ٢٦١٨٢، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده جيد.

(٢) يقول د/ قلعجي: «من المعروف ان الطاعون على أنواع أهمها:

١- الطاعون الدبلي: ويتميز بارتفاع درجة الحرارة، وتضخم العقد الليمفية في منطقة الإرب، وما تحت الإبط، وكذا تضخم الطحال. ٢- الطاعون الرئوي القاتل. ٣- الطاعون الدموي: ويتميز بالطفح على سطح الجلد، وراجع الطب النبوي ص ١٤٧ من تحقيقنا للطبعة الخامسة.

وفي أثر عن عائشة ﵂ أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦: ١٤٥) أنها قالت لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**الطَّعْنُ قَدْ عَرَفْنَاهُ فَمَا الطاعون؟ قال: غدة كغدة البعير يخرج في المراقّ والإبط**». دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٤٦.

أصيب عامر بن الطفيل وتلاشت أحلامه بالتملك على أهل المدن في الجزيرة العربية، أو خلافة النبي ﷺ، وأما تلك الجيوش التي هدد النبي ﷺ بها، فقد تحولت إلى آلام تحبسه في بيت امرأة قد ولى عنه الناس ونفروا منه خشية العدوى، ففقد صوابه، وصرخ بمن بقي حوله فقال: «**غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَعِيرِ فِي بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي فُلَانٍ، ائْتُونِي بِفَرَسِي، فَأُتِيَ بِهِ فَرَكِبَهُ فَمَاتَ وَهُوَ عَلَى ظَهْرِهِ**».

هلك ذلك الطاغية الجبار العنيد كالمجنون بعد أن تطاير الناس من حوله متقززين خوفًا على أنفسهم من العدوى». [**السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٣٠٢-٣٠٣**].

ويقول أ/ حوى: «وقد ابتلى الله ﷻ عامر بن الطفيل بما يشبه السرطان أو الجدري، ومات في بيت امرأة من بني سلول، وهي قبيلة مزدراة، فكان ذلك أبلغ في الإهانة». [**الأساس في السنة لحوى ٢/ ٣٢٢**].

٣٧ ـ ملاحظات على سرية بئر معونة:

يقول الشيخ أبو زهرة: «ونلاحظ في هذه القصة بعض أمور:

أولها: أن أبا براء ما كان مسلمًا، وربما له ميل إلى الإسلام ولكنه زعيم في قومه، ويريد أن يكون مع قومه، فلا يكرههم حتى لا ينفروا ولكن يريد الدعوة إليهم، حتى إذا استأنس بإسلامهم أعلن إسلامه واكتفى بأن جعل الدعاة إلى جواره.

ثانيها: أن الغادر عامر بن الطفيل كان يعمل لحساب الشرك أو لحساب مكة، وما كان ليفعل لولا أنه وجد في قريش قوة، وهي ما أشاعوها من هزيمة محمد ﷺ.

وثالثًا: أن النبي ﷺ قد أرسل إليهم مبلغين حفظة عبادًا يحتطبون نهارًا، ويقومون ليلًا، ولم يرسل معهم أبطال حرب كالزبير وسعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب، وإن كان هؤلاء في عبادتهم وزهادتهم لا يقلون عن الأولين؛ لأنهم أُسُود فوارس بالنهار قوام بالليل».

[**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٤٦**].

الفصل الخامس

سرية عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه

لقتل أبي سفيان على أثر مقتل خبيب رضي الله عنه

ربيع الأول ٤ هـ / أغسطس (آب) ٦٢٥ م / مسرى ٣٤١ قبطي

المبحث الأول

عرض سرية عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه لقتل أبي سفيان

أولاً: عرض السرية في كتب السنة والسيرة:

قال الإمام البيهقي في دلائل النبوة: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَافِظُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنُ بُطَّة الأَصْبَهَانِي، قَالَ: حَدَّثَنَا الحَسَنُ بنُ الجَهْمِ، قَالَ: حَدَّثَنَا الحُسَيْنُ بنُ الفَرَجِ، قَالَ: حَدَّثَنَا الوَاقِدِي، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بنُ جَعْفَرَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الله بنُ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ جَعْفَرَ ابنِ عَمْرِو بنِ أَمَيَّةَ الضَّمَرِيِّ، قَالَ: وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الله بنُ جَعْفَرَ، عَنْ عَبْدِ الوَاحِدَ بنِ أَبِي عَوْنٍ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ قَالَ: كَانَ أَبُو سُفْيَانَ بنُ حَرْبٍ قَدْ قَالَ لِنَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ: **مَا أَحَدٌ يَغْتَالُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّهُ يَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ، فَنُدْرِكُ ثَأْرَنَا**، فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ مَنْزِلَهُ، وَقَالَ لَهُ: **إِنْ أَنْتَ قَوَّيْتَنِي [وَفَّيْتَنِي] خَرَجْتُ إِلَيْهِ حَتَّى أَغْتَالَهُ، فَإِنِّي هَادٍ بِالطَّرِيقِ خِرِّيتُ**[1]، **وَمَعِي خَنْجَرٌ مِثْلُ خَافِيَةِ النِّسْرِ**، قَالَ: **أَنْتَ صَاحِبُنَا**، فَأَعْطَاهُ بَعِيرًا وَنَفَقَةً، وَقَالَ: **اطْوِ أَمْرَكَ، فَإِنِّي لا آمَنُ أَنْ يَسْمَعَ هَذَا أَحَدٌ فَيُنِمَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ**.

قَالَ العَرَبِيُّ: **لا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ**، فَخَرَجَ لَيْلًا عَلَى رَاحِلَتِهِ (**الراحلة**: البَعيرُ القوي على الأسفار والأحمال، ويَقَعُ على الذكر والأنثى) فَسَارَ خَمْسًا، وَصَبَّحَ ظَهْرَ الحَرَّةِ صُبْحَ سَادِسِهِ [الحَيَّ يَوْمَ سَادِسِهِ]، ثُمَّ أَقْبَلَ يَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى أَتَى المُصَلَّى، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: قَدْ تَوَجَّهَ إِلَى بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَخَرَجَ يَقُودُ رَاحِلَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَعَقَلَ رَاحِلَتَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَؤُمُّ رَسُولَ الله ﷺ، فَوَجَدَهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يُحَدِّثُ فِي مَسْجِدِهِمْ، فَدَخَلَ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ لأَصْحَابِهِ: «**إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يُرِيدُ غَدْرًا، وَاللهُ حَائِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُ**»، فَوَقَفَ فَقَالَ: **أَيُّكُمْ ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟** فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ**»، فَذَهَبَ يَنْحَنِي عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، كَأَنَّهُ يُسَارُّهُ، فَجَبَذَهُ (**الجبذ**: الشد والجذب بقوة) أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ رضي الله عنه، وَقَالَ لَهُ: تَنَحَّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وجَبَذَ [وَجَذَبَ] بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ (ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن)، فَإِذَا الخِنْجَرُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَذَا غَادِرٌ**»، وَسُقِطَ فِي يَدَيْ العَرَبِي [فَأُسْقِطَ فِي يَدَيْ الأَعْرَابِي] وَقَالَ:

---

(١) **الخِرِّيت**: الماهر الذي يهتدي لأخرات المَفاوز، وهي طرقها الخفية ومضايقها... وإنما سُمي خريتًا لشَقِّه المفاوز. لسان العرب لابن منظور ٢/ ١١٢٤ مادة خرت ط دار المعارف.

دَمِي دَمِي يَا مُحَمَّدُ، وَأَخَذَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ ﷺ يُلَبِّبُ [يُلَبِّبُهُ]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اصْدُقْنِي: مَا أَنْتَ؟ وَمَا أَقْدَمَكَ؟ فَإِنْ صَدَقْتَنِي نَفَعَكَ الصِّدْقُ، وَإِنْ كَذَبْتَنِي فَقَدِ أُطْلِعْتُ عَلَى مَا هَمَمْتُ بِهِ**»، قَالَ العَرَبِي: **فَأَنَا آمِنٌ**؟ قَالَ: «**فَأَنْتَ آمِنٌ**»، فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِ أَبِي سُفْيَانَ وَمَا جَعَلَ لَهُ، فَأَمَرَ بِهِ فَحُبِسَ عِنْدَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ ﷺ، ثُمَّ دَعَا بِهِ [صَارًا] مِنَ الغَدِ فَقَالَ: «**قَدْ أَمَّنْتُكَ، فَاذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ، أَوْ خَيْرٌ لَكَ مِنْ ذَلِكَ؟**»، قَالَ: **وَمَا هُوَ؟** قَالَ: «**أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهَ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ**»، قَالَ: **فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهَ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، وَاللهِ يَا مُحَمَّدُ، مَا كُنْتُ أَفْرَقُ الرِّجَالَ، فَمَا هُوَ إِلا أَنْ رَأَيْتُكَ فَذَهَبَ عَقْلِي، وَضَعُفَتْ نَفْسِي، ثُمَّ اطَّلَعْتَ عَلَى مَا هَمَمْتُ بِهِ مِمَّا سَبَقْتُ بِهِ الرُّكْبَانَ، وَلَمْ يَعْلَمْهُ [يَطَّلِعْ عَلَيْهِ] أَحَدٌ، فَعَرَفْتُ أَنَّكَ مَمْنُوعٌ، وَأَنَّكَ عَلَى حَقٍّ، وَأَنَّ حِزْبَ أَبِي سُفْيَانَ حِزْبُ الشَّيْطَانَ**، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَبَسَّمُ، وَأَقَامَ أَيَّامًا ثُمَّ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، فَلَمْ يُسْمَعْ لَهُ بِذِكْرٍ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ وَلِسَلَمَةَ بنِ أَسْلَمَ بنِ حَرِيشٍ ﷺ: «**اخْرُجَا حَتَّى تَأْتِيَا أَبَا سُفْيَانَ بنَ حَرْبٍ، فَإِنْ أَصَبْتُمَا مِنْهُ غِرَّةً فَاقْتُلاهُ**».

قَالَ عَمْرُو: فَخَرَجْتُ أَنَا وَصَاحِبِي حَتَّى أَتَيْنَا بَطْنَ يَأْجِجَ فَقَيَّدْنَا بَعِيرَنَا، فَقَالَ لِي صَاحِبِي: **يَا عَمْرُو، هَل لَكَ فِي أَنْ نَأْتِيَ مَكَّةَ وَنَطُوفَ بِالبَيْتِ سَبْعًا، وَنُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ؟** فَقُلتُ: **إِنِّي أَعْرَفُ بِمَكَّةَ مِنَ الفَرَسِ الأَبْلَقِ، وَإِنَّهُمْ إِنْ رَأَوْنِي عَرَفُونِي، وَأَنَا أَعْرِفُ أَهْلَ مَكَّةَ، إِنَّهُمْ إِذَا أَمْسَوْا انْفَجَعُوا بِأَفْنِيَتِهِمْ** (الفناء: الساحة في الدار أو بجانبها) [**أَنَا أَعْلَمُ بِأَهْلِ مَكَّةَ مِنْكَ، إِنَّهُمْ إِذَا أَظْلَمُوا رَشُّوا أَفْنِيَتَهُمْ ثُمَّ جَلَسُوا بِهَا**]، فَأَبَى أَنْ يُطِيعَنِي، [فَانْطَلَقْنَا] فَأَتَيْنَا مَكَّةَ فَطُفْنَا سَبْعًا بِالبَيْتِ، وَصَلَّيْنَا رَكْعَتَيْنِ، فَلَـمَّا خَرَجْتُ لَقِيَنِي مُعَاوِيَةُ ابنُ أَبِي سُفْيَانَ فَعَرَفَنِي، وَقَالَ: **عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ! وَاحُزْنَاهُ!** [فَنَذِرَ بِنَا أَهْلَ مَكَّةَ] فَأَخْبَرَ أَبَاهُ، فَنِيدَ بِنَا أَهْلُ مَكَّةَ فَقَالُوا: **مَا جَاءَ عَمْرُو فِي خَيْرٍ**، وَكَانَ عَمْرُو رَجُلًا فَاتِكًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَحَشَدَ أَهْلُ مَكَّةَ وَتَجَمَّعُوا، وَهَرَبُ عَمْرُو وَسَلَمَةُ، وَخَرَجُوا فِي طَلَبِهِمَا، وَاشْتَدُّوا فِي الجَبَلِ.

قَالَ عَمْرُو: فَدَخَلْتُ غَارًا [فِي غَارٍ] فَتَغَيَّبْتُ عَنْهُمْ، حَتَّى أَصْبَحْتُ، وَبَاتُوا يَطْلُبُونَنَا فِي الجَبَلِ، وَعَمَّى اللهُ عَلَيْهِمْ طَرِيقَ المَدِينَةِ أَنْ يَهْتَدُوا [لَهُ] لِرَاحِلَتِنَا، فَلَـمَّا كَانَ الغَدُ ضَحْوَةً [ضَحْوَةُ الغَدِ] أَقْبَلَ عُثْمَانُ بنُ مَالِكٍ بنِ عُبَيْدِ اللهِ التَّيْمِيُّ يَخْتَلِي لِفَرَسِهِ (يجمع لها الخلي، وهو الربيع، ويسمى خلي لأنه يُختلى، أي يُقطع) حَشِيشًا، فَقُلْتُ لِسَلَمَةَ بنِ أَسْلَمَ: إِنْ أَبْصَرَنَا أَشْعَرَ بِنَا أَهْلَ مَكَّةَ، وَقَدْ أَقْصَرُوا [انْفَضُّوا] عَنَّا، فَلَمْ يَزَلْ يَدْنُو مِنْ بَابِ الغَارِ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَيْنَا، وَخَرَجْتُ فَطَعَنْتُهُ طَعْنَةً تَحْتَ الثَّدْيِ بِخِنْجَرِي، فَسَقَطَ وَصَاحَ، وَأَسْمَعَ أَهْلَ مَكَّةَ، [فَاجْتَمَعَ أَهْلُ مَكَّةَ] فَأَقْبَلُوا بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، وَدَخَلْتُ الغَارَ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: لا تَحَرَّكُ [تَتَحَرَّكْ]، وَأَقْبَلُوا حَتَّى أَتَوْا عُثْمَانَ بنَ مَالِكٍ، فَقَالُوا: مَنْ قَتَلَكَ؟ قَالَ: عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ**

يَأْتِ بِعَمْرُو خَبَرٌ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِمَكَانِنَا، [فَإِنَّهُ] كَانَ بِآخِرِ رَمَقٍ (**الرمق**: بقية الروح وآخر النفس) وَمَاتَ، وَشُغِلُوا عَنْ طَلَبِنَا بِصَاحِبِهِمْ يَحْمِلُونَهُ، فَمَكَثْنَا لَيْلَتَيْنِ فِي مَكَانِنَا [حَتَّى سَكَنَ عَنَّا الطَّلَبُ] ثُمَّ خَرَجْنَا [إِلَى التَّنْعِيمِ]، فَقَالَ صَاحِبِي: **يَا عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ! هَل لَكَ فِي خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ نُنْزِلُهُ؟** فَقُلْتُ لَهُ: **أَيْنَ هُوَ؟** قَالَ: **هُوَ ذَاكَ مَصْلُوبٌ حَوْلَهُ الحَرَسُ**، فَقُلْتُ: **أَمْهِلنِي وَتَنَحَّ عَنِّي، فَإِنْ خَشِيتُ شَيْئًا فَانْجُ إِلَى بَعِيرِكَ فَاقْعُدْ عَلَيْهِ، وَأْتِ رَسُولَ الله ﷺ فَأَخْبِرْهُ الخَبَرَ، وَدَعْنِي فَإِنِّي عَالِمٌ بِالمَدِينَةِ**، ثُمَّ اشْتَدَدْتُ [اسْتَدَرْتُ] عَلَيْهِ حَتَّى حَلَلْتُهُ [وَجَدْتُهُ]، فَحَمَلْتُهُ عَلَى ظَهْرِي، فَمَا مَشَيْتُ بِهِ إِلا عِشْرِينَ ذِرَاعًا حَتَّى اسْتَيْقَظُوا، فَخَرَجُوا فِي طَلَبِ أَثَرِي، فَطَرَحْتُ الخَشَبَةَ، فَمَا أَنْسَى وَقْعَهَا دَبْ [وَجِيبَهَا]، يَعْنِي صَوْتَهَا، ثُمَّ أَهَلْتُ عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ بِرِجْلِي، فَأَخَذْتُ بِهِمْ طَرِيقَ الصَّفْرَاءِ [(١)]، فَأَعْيَوْا فَرَجَعُوا، وَكُنْتُ لا أُدْرَكُ [أَدْرِي] مَعَ بَقَاءِ نَفَسٍ [نَفْسِي]، فَانْطَلَقَ صَاحِبِي إِلَى البَعِيرِ فَرَكِبَهُ، وَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، وَأَقْبَلْتُ حَتَّى أَشْرَفْتُ عَلَى الغَلِيلِ، غَلِيلِ ضَجْنَانَ [(٢)]، فَدَخَلْتُ فِي غَارٍ فِيهِ مَعِي قَوْسٌ [قَوْسِي] وَأَسْهُمٌ [أَسْهُمِي] وَخِنْجَرٌ [خِنْجَرِي]، فَبَيْنَا [فَبَيْنَمَا] أَنَا فِيهِ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي بَكْرٍ مِنْ بَنِي الدَّئِلِ [مِنْ بَنِي الدَّيلِ بنِ بَكْرٍ]، أَعْوَرُ طَوِيلٌ، يَسُوقُ غَنَمًا وَمَعْزَى، فَدَخَلَ عَلَيَّ الغَارَ، فَقَالَ: مَنِ الرَّجُلُ؟ فَقُلْتُ: مِنْ بَنِي بَكْرٍ، فَقَالَ: وَأَنَا مِنْ بَكْرٍ، ثُمَّ اتكأ فَرَفَعَ عَقِيرَتَهُ (صوته) يَتَغَنَّى يَقُولُ:

فَلَسْتُ بِمُسْلِمٍ مَا دُمْتُ حَيًّا وَلَسْتُ أَدِينُ دِينَ المُسْلِمِينَا

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَالله إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَقْتُلَكَ، فَلَمَّا نَامَ قُمْتُ إِلَيْهِ، فَقَتَلْتُهُ شَرَّ قِتْلَةٍ قَتَلْتُهَا أَحَدًا قَطُّ، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى هَبَطْتُ، فَلَمَّا أَسْهَلْتُ فِي الطَّرِيقِ إِذَا رَجُلانِ بَعَثَتْهُمَا قُرَيْشٌ يَتَجَسَّسَانِ الأَخْبَارَ، فَقُلْتُ: اسْتَأْسِرَا، فَأَبَى أَحَدُهُمَا، فَرَمَيْتُهُ فَقَتَلْتُهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الآخَرُ اسْتَأْسَرَ، فَشَدَدْتُهُ وِثَاقًا (**الوثاق**: ما يُشد به كالحبل ونحوه)، ثُمَّ أَقْبَلْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمْتُ المَدِينَةَ رَآنِي [أَتَى] صِبْيَانُ [الأَنْصَارِ] وَهُمْ يَلْعَبُونَ، وَسَمِعُوا أَشْيَاخَهُمْ يَقُولُونَ: هَذَا عَمْرٌو، فَاشْتَدَّ الصِّبْيَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، وَأَتَيْتُهُ بِالرَّجُلِ قَدْ رَبَطْتُ إِبْهَامَيْهِ بِوَتَرِ قَوْسِي، فَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَضْحَكُ، ثُمَّ دَعَا لِي بِخَيْرٍ.

---

(١) **الصفراء**: وادي الصفراء: من ناحية المدينة، وهو واد كثير النخل والزرع والخير في طريق الحاج، وسلكه رسول الله ﷺ غير مرة، وبينه وبين بدر مرحلة. معجم البلدان ٣/ ٤١٢.

(٢) **الغليل**: منابت الطلح. **وضجنان**: اسم جبل بناحية تهامة، قال الواقدي: بين ضجنان ومكة خمسة وعشرون ميلًا... ولضجنان حديث في حديث الإسراء، حيث قالت له قريش: ما آية صدقك؟ قال: لما أقبلت راجعًا حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير فلان، فوجدت القوم ولهم إناء فيه ماء فشربت ما فيه... وذكر القصة. معجم البلدان ٣/ ٤٥٣، وتعرف اليوم بحرة المحسنية. معجم المعالم الجغرافية ص ١٨٣.

وَكَانَ قُدُومُ سَلَمَةَ قَبْلَ قُدُومِ عَمْرٍو بِثَلاثَةِ أَيَّامٍ». [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٣٣-٣٣٧، ونقله الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٥١٧-٥٢٣ باختلاف يسير أثبته بين معكوفتين، وسيأتي بقية تخريجه من رواية ابن إسحاق].

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: «وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنْ عَمْرًا ﷺ لَـمَّا أَهْبَطَ خُبَيْبًا ﷺ لَمْ يَرَ لَهُ رِمَّةً وَلا جَسَدًا، فَلَعَلَّهُ دُفِنَ مَكَانَ سُقُوطِهِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَهَذِهِ السَّرِيَّةُ إِنَّمَا اسْتَدَرَكَهَا ابنُ هِشَامٍ عَلَى ابنِ إِسْحَاقٍ وَسَاقَهَا بِنَحْوٍ مِنْ سِيَاقِ الوَاقِدِيِّ لَهَا، لَكِنْ عِنْدَهُ أَنَّ رَفِيقَ عَمْرِو بنِ أُمَيَّةَ فِي هَذِهِ السَّرِيَّةِ جَبَّارُ بنُ صَخْرٍ. فَاللهُ أَعْلَمُ، وَللهِ الحَمْدُ».

[البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٥٢٣].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَمِمَّا لَمْ يَذْكُرْهُ ابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ بُعُوثِ رَسُولِ الله ﷺ وَسَرَايَاهُ [1]: بَعْثَ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ، بَعَثَهُ رَسُولُ الله ﷺ فِيمَا حَدَّثَنِي مَنْ أَثِقُ بِهِ مِنْ أَهْلِ العِلمِ بَعْدَ مَقْتَلِ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقْتُلَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَبَعَثَ مَعَهُ جَبَّارَ بْنَ صَخْرٍ الأَنْصَارِيَّ ﷺ، فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا مَكَّةَ، وَحَبَسَا جَمَلَيْهِمَا بِشِعْبِ (الطريق الخفي بين جبلين) مِنْ شِعَابِ يَأْجَجَ [2]، ثُمّ دَخَلَا مَكَّةَ

---

(١) قال السهيلي: وَذَكَرَ الشَّيْخُ الحَافِظُ أَبُو بَحْرٍ سُفْيَانُ بنُ العَاصِي ﷺ فِي هَذَا المَوْضِعِ، قَالَ: نَقَلتُ مِنْ حَاشِيَةِ نُسْخَةٍ مِنْ كِتَابِ السِّيَرِ مَنْسُوبَةً بِسَمَاعِ أَبِي سَعِيدٍ عَبْدِ الرَّحِيمِ بنِ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ وَأَخَوَيْهِ مُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ ابْنَيْ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ مَا هَذَا نَصُّهُ: وَجَدْتُ بِخَطِّ أَخِي قَوْلَ ابنِ هِشَامٍ: هَذَا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، هُوَ غَلَطٌ مِنْهُ، قَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ فِيمَا حَدَّثَ أَسَدٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَالقَائِلُ فِي الحَاشِيَةِ (وَجَدْتُ بِخَطِّ أَخِي) هُوَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ. [الروض الأنف للسهيلي ٧/ ٥٣١-٥٣٢ تح الوكيل].

قلت: وأخرجه الطبري في تاريخه ٢/ ٥٤٢-٥٤٥ من طريق محمد بن إسحاق، عن جعفر بن الفضل بن الحس بن عمرو بن أمية الضمري، عن أبيه عن جده ـ يعني عمرو بن أمية ـ بنحوه، وذَكَرَ قدومه المدينةَ من طريق محمد بن إسحاق، عن سليمان بن وردان، عن أبيه، عن عمرو بن أمية.

وكذلك ذكره ابن حجر في المطالب العالية ١٧/ ٤١٧-٤٢٣ رقم ٤٢٨٥ عن إسحاق بن راهويه، عن يحيى بن آدم، عن ابن أبي زائدة، عن ابن إسحاق، وكذلك عن إسحاق بن راهويه، عن وهب بن جرير، عن أبيه، عن ابن إسحاق. وخرَّج المحقق رواياته، ثم حكم عليه بقوله: «الحديث بهذا الإسناد فيه راويان مبهمان، وعليه فالحديث بهذا الإسناد ضعيف، وبقية المتابعات ضعيفة أيضًا».

وأيضًا جمع د/ بريك طرق رواياته، ثم قال: «لكن مدار رواياتهم على إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، قال عنه الهيثمي، وابن حجر: (ضعيف)، ينظر: الهيثمي، مجمع ٥/ ٣٢١، وابن حجر، تقريب ٨٨، إذًا: فالخبر لا تخلو طرقه من الضعف، ولكنها تتعاضد فيما بينها لتكسبه نوعًا من القوة مما يجعلنا نستأنس لقبوله تاريخيًّا. والله تعالى أعلم». السرايا والبعوث لبريك ١٦٨-١٦٩.

(٢) **يَأْجَجَ**: واد من أودية مكة، شمال عمرة التنعيم، ووادي التنعيم يصب في يأجج، يقطعه الطريق إلى المدينة المنورة على عشرة أكيال من المسجد الحرام، يعرف اليوم باسم (ياج). ينظر: معجم البلدان ٥/ ٤٢٤، معجم المعالم الجغرافية ص ٣٣٧.

لَيْلًا، فَقَالَ جَبَّارٌ لِعَمْرٍو: لَوْ أَنَّا طُفْنَا بِالبَيْتِ وَصَلَّيْنَا رَكْعَتَيْنِ؟ فَقَالَ عَمْرٌو: إِنَّ القَوْمَ إِذَا تَعَشَّوْا جَلَسُوا بِأَفْنِيَتِهِمْ، فَقَالَ: كَلّا، إِنْ شَاءَ اللهُ، فَقَالَ عَمْرٌو: فَطُفْنَا بِالبَيْتِ وَصَلَّيْنَا، ثُمَّ خَرَجْنَا نُرِيدُ أَبَا سُفْيَانَ، فَوَاللهِ إِنَّا لَنَمْشِي بِمَكَّةَ إِذْ نَظَرَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَعَرَفَنِي، فَقَالَ: **عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ، وَاللهِ إِنْ قَدِمَهَا إِلَّا لِشَرٍّ**، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: النَّجَاءَ، فَخَرَجْنَا نَشْتَدُّ، حَتَّى أَصْعَدْنَا فِي جَبَلٍ، وَخَرَجُوا فِي طَلَبِنَا، حَتَّى إِذَا عَلَوْنَا الجَبَلَ يَئِسُوا مِنَّا، فَرَجَعْنَا، فَدَخَلنَا كَهْفًا فِي الجَبَلِ، فَبِتْنَا فِيهِ، وَقَدْ أَخَذْنَا حِجَارَةً فَرَضَمْنَاهَا دُونَنَا (جعلنا بعض الحجارة فوق بعض؛ لتكون حاجزًا بيننا وبين من يطلبنا)، فَلَـمَّا أَصْبَحْنَا غَدَا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَقُودُ فَرَسًا لَهُ وَيُخْلِي عَلَيْهَا (يجمع لها الخلي، وهو الربيع، ويسمى خلي لأنه يُختلى، أي يُقطع)، فَغَشِيَنَا وَنَحْنُ فِي الغَارِ، فَقُلْتُ: إِنْ رَآنَا صَاحَ بِنَا، فَأُخِذْنَا فَقُتِلْنَا.

قَالَ: وَمَعِي خَنْجَرٌ قَدْ أَعْدَدْتُهُ لِأَبِي سُفْيَانَ، فَأَخْرُجُ إِلَيْهِ فَأَضْرِبُهُ عَلَى ثَدْيِهِ ضَرْبَةً، وَصَاحَ صَيْحَةً أَسْمَعَ أَهْلَ مَكَّةَ، وَأَرْجِعُ فَأَدْخُلُ مَكَانِي، وَجَاءَهُ النَّاسُ يَشْتَدُّونَ وَهُوَ بِآخِرِ رَمَقٍ، فَقَالُوا: مَنْ ضَرَبَكَ؟ فَقَالَ: عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ، وَغَلَبَهُ المَوْتُ، فَمَاتَ مَكَانَهُ، وَلَمْ يُدَلِّل عَلَى مَكَانِنَا، فَاحْتَمَلُوهُ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي، لـمَّا أَمْسَيْنَا: النَّجَاءَ، فَخَرَجْنَا لَيْلًا مِنْ مَكَّةَ نُرِيدُ المَدِينَةَ، فَمَرَرْنَا بِالحَرَسِ وَهُمْ يَحْرُسُونَ جِيفَةَ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: **وَاللهِ مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ أَشْبَهَ بِمِشْيَةِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ، لَوْلَا أَنَّهُ بِالمَدِينَةِ لَقُلْتُ هُوَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ.**

قَالَ: فَلَـمَّا حَاذَى الخَشَبَةَ شَدَّ عَلَيْهَا، فَأَخَذَهَا فَاحْتَمَلَهَا، وَخَرَجَا شَدًّا، وَخَرَجُوا وَرَاءَهُ حَتَّى أَتَى جُرُفًا بِمَهْبِطِ مَسِيلِ يَأْجَجَ، فَرَمَى بِالخَشَبَةِ فِي الجُرْفِ، فَغَيَّبَهُ اللهُ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ.

قَالَ: وَقُلْتُ لِصَاحِبِي: النَّجَاءَ النَّجَاءَ حَتَّى تَأْتِيَ بَعِيرَكَ، فَتَقْعُدَ عَلَيْهِ، فَإِنِّي سَأَشْغَلُ عَنْكَ القَوْمَ، وَكَانَ الأَنْصَارِيُّ لَا رَجِلَةَ لَهُ (ليس له قوة بالمشي على رجليه، يُقال: فلان ذو رجلة، إذا كان يقوى على المشي).

قَالَ: وَمَضَيْتُ حَتَّى أَخْرُجَ عَلَى ضَجْنَانَ، ثُمّ أَوَيْتُ إِلَى جَبَلٍ فَأَدْخُلُ كَهْفًا، فَبَيْنَا أَنَا فِيهِ إِذْ دَخَلَ عَلَيَّ شَيْخٌ مِنْ بَنِي الدِّيلِ أَعْوَرُ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ، فَقَالَ: مَنْ الرَّجُلُ؟ فَقُلْتُ: مِنْ بَنِي بَكْرٍ، فَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: مِنْ بَنِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ: مَرْحَبًا، فَاضْطَجَعَ، ثُمَّ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ فَقَالَ:

وَلَسْتُ بِمُسْلِمٍ مَا دُمْتُ حَيًّـا وَلَا دَانٍ لِدِينِ المُسْـلِمِينَا

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: سَتَعْلَمُ، فَأَمْهَلْتُهُ، حَتَّى إِذَا نَامَ أَخَذْتُ قَوْسِي، فَجَعَلْتُ سِيَتَهَا (طرفها) فِي عَيْنِهِ الصَّحِيحَةِ، ثُمَّ تَحَامَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغَتْ العَظْمَ، ثُمَّ خَرَجْتُ النَّجَاءَ، حَتَّى جِئْتُ العَرْجَ (اسم منزل بطريق مكة، أو واد بالحجاز)، ثُمَّ سَلَكْتُ رَكُوبَةً (ثنية بين مكة والمدينة)، حَتَّى إِذَا هَبَطْتُ النَّقِيعَ (موضع ببلاد مزينة على ليلتين من المدينة) إِذَا رَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ المُشْرِكِينَ كَانَتْ قُرَيْشٌ بَعَثَتْهُمَا عَيْنًا إِلَى المَدِينَةِ يَنْظُرَانِ وَيَتَحَسَّسَانِ، فَقُلْتُ: اسْتَأْسِرَا، فَأَبَيَا، فَأَرْمِي أَحَدَهُمَا بِسَهْمٍ فَأَقْتُلُهُ، وَاسْتَأْسَرَ الآخَرُ، فَأُوثِقُهُ رِبَاطًا، وَقَدِمْتُ بِهِ المَدِينَةَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٣-٦٣٥].

ثانيًا: العرض الأدبي للسرية [(١)]:

بين بني هاشم وبني عبد شمس:

كانت لقريش مكانة مرموقة بين قبائل العرب.

وكان لبني عبد مناف مكانتهم الرفيعة في قبائل قريش.

وكان لبني هاشم المكانة السامية في بني عبد مناف.

هذه هي المعادلة القبلية التي كانت سائدة عندما أرسل الله رسوله بالدين الحنيف؛ لذا فقد وقف أبو سفيان بن حرب من الدين الجديد في بداية أمره موقفين متباينين:

كان يشعر بالاعتزاز بهذا الحدث الذي أكد منزلة بني عبد مناف بين قبائل قريش، وكان في الوقت نفسه يشعر بالحسد والغيرة لأن هذا الشرف العظيم الذي حازه بنو عبد مناف كان من نصيب أبناء عمه من بني هاشم ولم يكن من نصيب ذويه من بني عبد شمس.

يبين هذا الشعور ما دار بين أبي سفيان وأبي جهل بن هشام من حديث عندما مر بهما رسول الله ﷺ ـ وهما جالسان في فناء الكعبة ـ فقد قال أبو جهل مشيرًا إلى رسول الله: هذا نبيكم يا بني عبد مناف!

قال أبو سفيان وقد امتلأ أوداجه حمية وفخرًا: وتعجب أن يكون منا نبي؟ فالنبي يكون فيمن أقل منا وأذل!

واستطاع أبو جهل أن يتجاوز هذه الغضبة من أبي سفيان وأن يعمل على كبتها ودفنها عندما استدرك قائلًا: ولكن الرسول ليس من بني عبد شمس يا أبا سفيان!

وتنفس أبو سفيان بحرقة، وقال والأسى يملأ نفسه: نعم يا أبا الحكم، لقد كنتُ أرجو أن يكون من بني عبد شمس.

قال أبو جهل بلؤم وخبث: لا أظنك يا أبا سفيان، وأنت سيد في قريش، ترضى أن تتبع رجلًا يتيمًا من بني هاشم، ماذا يقول القرشيون عنك إذا رأوك تسير في إثر محمد وتتبع خطوه؟

قال أبو سفيان: إن محمدًا فينا لكريم الخلق، وسيط النسب، ما جربنا عليه كذبًا قط.

قال أبو جهل، وهو يواصل شد أبي سفيان عن طريق محمد: وهل ترضى لنفسك أن تكون تابعًا يا أبا سفيان؟ إنك لم تزل فينا سيدًا مطاعًا، ولم تزل بنو عبد شمس في قريش صاحبة القيادة والحرب، فهل تعمل بنفسك على نزع هذه المكرمة من أسرتك لتضيفها إلى مكارم بني هاشم؟ إنك لأنت العاقل فينا، ولا أظنك تنقاد لفتى من بني هاشم.

---

(١) والله يعصمك من الناس للجدع ١٠٠-١١٨، وصور من جهاد الصحابة ﷺ للخالدي ١٣٩-١٥٤.

قال أبو سفيان، وقد وقع في شباك أبي جهل: إن النبوة شرف ما بعده شرف، ولا أرضى أن يجوز هذا الشرف بنو هاشم دوننا.

قال أبو جهل: صدقت يا أبا سفيان، لن ترضى بنو عبد شمس أن تكون النبوة في بني هاشم، ولن يرضى قومي من بني مخزوم ذلك، لقد ذهب بنو هاشم بجل مكارم قريش فرضينا، أما هذه فلا نرض بها أبدًا.

قال أبو سفيان: نعم، لن نرضى بهذا أبدًا.

وأسرع أبو جهل فاستغل غضبة أبي سفيان وقال: وما موقفك إذن من الدين الجديد؟

فيرد أبو سفيان بحزم: المعارضة والعداء والصد والمقاومة ما حييت.

قال أبو جهل، وهو يحاول أن يخفي ما انتابه من فرح شديد وسعادة غامرة: هذا هو العقل الراجح يا أبا سفيان، هذا ما كنتُ أرجو أن أسمعه من سيد بني عبد شمس، نعم لن يلقي محمد منا إلا ما يكره، ولن يجد بنو هاشم منا إلا ما يسوؤهم.

قيادة أبي سفيان لقريش:

كان أبو سفيان سيد بني عبد شمس، وكان لبني عبد شمس في قريش القيادة الحربية، فكان موقع أبي سفيان في المجتمع القرشي موقعًا هامًّا، فكان محط أنظار سادة قريش وشبابهم.

ولكن هذه القيادة الحربية ما كانت لتشغل أبا سفيان عن شيء آخر له في حياته وحياة قريش أهمية كبرى، ذلك الشيء الهام هو التجارة، واكتساب المال، وما يتبع ذلك من تنقل في شتى البلدان، وتعرُّف على مختلف المجتمعات خارج جزيرة العرب.

فأبو سفيان تاجر يحرص على تجارته الحرص كله، فهي مصدر هذا الثراء العريض الذي يرفل فيه، وهي بالإضافة إلى نسبه العريق، سبب لما يتمتع به من احترام المجتمع القرشي وتقدير القبائل المحيطة بمكة والمتعاملة معها.

وأبو سفيان لا يترك ماله للآخرين يتاجرون له به، ويقدمون له أرباحه وهو جالس في مكة لا يغادرها، كما يفعل كثير من سادة قريش ومن أثريائها، بل يباشر تجارته بنفسه، ويشرف أيضًا على تجارة قريش في كثير من حملاتها التجارية التي اشتهرت بها حتى ذكرها الله في القرآن الكريم وامتن بها على قريش، فقال جل من قائل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش].

وأبو سفيان بعد هذا وذاك رجل محب لقريش، حريص على وحدتها وألفتها، يتبدى ذلك كثيرًا في تصرفاته في الأحداث التي كانت تحدث في مكة بين قبائل قريش نفسها، وبينها وبين قبائل أخرى، ففي كل هذه الأحداث كان موقف أبي سفيان موقف المحب لقريش، الحريص على سلامتها، والمضحي بكل شيء في سبيل ألفتها ووحدتها.

لهذه الأسباب كلها لم يُظهر أبو سفيان عداوة شديدة لمحمد ﷺ، أو مقاومة ظاهرة للدعوة الإسلامية الناشئة في مكة، ولولا ما كان يمارسه عليه زعماء مكة من ضغوط لما شارك حتى في هذه الوفود التي كانت تفد علي أبي طالب تطالبه بأن يكف محمدًا ﷺ عن عيب آلهتهم وآبائهم وعاداتهم.

ولم نسمع عن أبي سفيان أنه وقف مواقف كالتي وقفها أبو جهل وأضرابه من سادة قريش في إيذاء الرسول ﷺ والذين آمنوا معه، حتى وقعت معركة بدر وأُصيب فيها من سادة قريش وفيهم ابنه حنظلة ووالد زوجه هند: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

لقد بقي أبو سفيان يتخذ جانب الملاينة حتى قبيل معركة بدر، فقد أرسل إلى أشراف قريش من الذين يتولون قيادة الجيش الخارج لحماية قافلته التجارية أن يرجعوا عن قتال المسلمين متخذًا من نجاة القافلة ذريعة لصدهم عن الحرب، وكفهم عن القتال، يدفعه إلى هذا الموقف حدبه على قريش وحبه لها وخوفه أن يلتقي الطرفان فيقتل بعضهم بعضًا، وفي جيش المسلمين كثير من أبناء قريش الذين أسلموا.

إذن فقد غيرت نتائج المعركة في بدر من موقف أبي سفيان، وأشعلت في قلبه نار الحقد والبغضاء بعد أن رأى ما آلت إليه مكة التي لم تدع الحرب بيتًا فيها إلا وفيه من بدر مصائب أحزان.

لقد وجد أبو سفيان نفسه بعد بدر سيد قريش بلا منازع، وألقت إليه قريش مقاليد السياسة والحرب، وأوكلت إليه مهمة الأخذ بثأر من أُصيب في بدر.

أسرع أبو سفيان فحزم أمره على الانتقام، فأعد لهذه الأمر عدته من المال والرجال والسلاح، وما إن حال الحول ودار العام حتى كان أبو سفيان يتجه بجيش قريش من مكة إلى المدينة، فالتقى الطرفان في أُحُد، ونال أبو سفيان وجيشه من المسلمين فقتلوا أعدادًا تقارب ما قُتل منهم يوم بدر.

الموقف بعد غزوة أُحُد:

في الفترة الواقعة بين غزوة أُحد وغزوة الأحزاب، تصاعدت المواجهة بين المسلمين وبين قريش، ووقعت حوادث كثيرة من حوادث المواجهة بين المسلمين والمشركين، و(شكَّل) فيها رسول الله ﷺ كثيرًا من السرايا والمجموعات الجهادية؛ لتقوم بعمليات جهادية جريئة ضد الكفار!

في مطلع السنة الرابعة تمكن الصحابي عبد الله بن أنيس ﷺ من قتل الزعيم الكافر خالد بن سفيان الهذلي، بالقرب من مكة؛ لأنه كان يعد جيشًا كبيرًا لغزو المدينة، وبذلك تفرق جيشه! وكان الهذلي حليفًا لزعيم مكة أبي سفيان، وبذلك خسر أبو سفيان حليفًا قويًّا له.

إن أبا سفيان زعيم مكة يخسر أمام رسول الله ﷺ الموقع تلو الآخر، والجولة تلو الأخرى! لأن الله مع رسوله ﷺ، بالتوفيق والنصر والتأييد!

أبو سفيان يرسل رجلاً لاغتيال الرسول ﷺ:

وعلى الرغم مما بدا للناس من أن أبا سفيان قد أدرك ثأره في أُحُد إلا أن أبا سفيان نفسه لم يرض عن هذه النتيجة كل الرضا، فقد قُتل في أُحُد من المشركين عدد كبير، ولم يُهزم المسلمون كما أراد هزيمة تامة، ولم يزل رسول الله ﷺ ورؤوس أصحابه على قيد الحياة يواصلون الطريق للقضاء على زعامة قريش الوثنية، ويعملون لذلك آناء الليل وأطراف النهار.

لهذا وقف أبو سفيان في أُحُد يوعد المسلمين بلقاء آخر من العام المقبل، وأعلن ذلك على الملأ حتى يسمعه جميع الناس.

هذا ما أعلنه أبو سفيان، أما ما أسره في نفسه، ولم يُطلع عليه أحدًا من الناس، فهو قراره بقتل محمد ﷺ غيلة؛ ذلك لأنه رأى أن المسلمين لا ينتهي أمرهم، إلا بموت محمد ﷺ قبل أن يستفحل أمره، وتمتد دعوته، وينتشر دينه.

هذا ما شغل أبا سفيان وهو عائد من معركة أُحُد، وهذا ما عمل له منذ اللحظة الأولى التي وصل فيها إلى مكة، فقد أخذ يبحث عن رجل جلد صلب يقوم بهذه المهمة، ويكفي بذلك قريشًا شر القتال الذي لا تنقضي معركة من معاركه إلا وتنتقص من قريش رجالًا ومالًا، وتعمل على ضعضعة مركز قريش ومكانتها بين قبائل العرب.

لم يعد أبو سفيان قادرًا على أن يطرد من تفكيره فكرة اغتيال الرسول ﷺ، فهي تلح عليه في يقظته وفي منامه، وتتابعه في ذهابه إلى مجالس قريش وفي إيابه منها، لقد أصبحت هذه الفكرة شغله الشاغل وهمه الأكبر؛ لأنها في ظنه واعتقاده المخرج الوحيد من هذه الحروب التي أكلت شباب قريش وأفنت شيوخها؛ لذا فقد قرر أن ينفذ فكرته ويريح أعصابه، فوقف في مجلس من مجالس قريش في فناء الكعبة وقال: يا معشر قريش، يا حلفاء قريش ومواليها، أيها الناس، لقد شَغَلَنا محمد عن كل شيء حتى عن أنفسنا وأهلينا، فهل لهذا الأمر من مخرج تقترحونه وتتعاهدون على تنفيذه؟

قال الحاضرون بلسان واحد: ليس لها يا أبا سفيان إلا الحرب، لقد أصبنا منهم يوم أُحُد وكدنا أن نفنيهم ونقتل محمدًا، وإنا لنرى أن معركة أخرى كمعركة أُحُد كفيلة بأن تنهي أمر محمد وتقضي على أصحابه.

قال أبو سفيان: وأنَّى لكم أيها الناس معركة كمعركة أُحُد؟ لقد كانت معركة أُحُد فلتة، وما أظن أنكم ستصيبون مثلها من محمد وأصحابه، وما أظنهم إلا وقد حنقوا عليكم وتعاهدوا على الانتقام منكم، وإني أرى أن نجرب طريقًا آخر غير الحرب، وأن نجعل الحرب آخر ما نلجأ إليه.

قال سيد من السادات: لا مهادنة مع الذين قتلوا آباءنا وأبناءنا!

قال أبو سفيان: ليس طريق المهادنة أردت، إنما أردت طريقًا يجنبنا الحرب وينصرنا على المسلمين.

قالوا: أنت يا أبا سفيان سيدنا وقائدنا، وقد قلدناك أمورنا، وأسلمنا لك قيادنا فانظر ماذا ترى، وستجدنا لك طائعين ولأمرك منفذين.

قال أبو سفيان: أرى أن نرسل إلى محمد من يقتله غيلة، فإن محمدًا يمشي في الأسواق، فإذا قتلناه انكسرت قلوب أصحابه وأصابهم الوهن ودخلتهم الهزيمة وذهبت ريحهم.

قالوا له: سنعمل على تحقيق ذلك، ونبحث عن رجل ماهر ذكي خبير بذلك.

بحثوا عن رجل خبير بالاغتيالات، وأتوا به إلى أبي سفيان!

دخل الرجل على أبي سفيان في منزله، وحرص على أن لا يراه أحد، واجتمع به اجتماعًا سريًّا مغلقًا، وتحدثا في اغتيال رسول الله ﷺ.

قال الرجل لأبي سفيان: أنا مستعد لاغتيال محمد، وأقدر على ذلك، وعلى معرفة تامة بالطريق والكيفية وحسن التخطيط، وعندي خنجر حاد، خاص بالاغتيال، أستطيع إخفاءه في ملابسي، دون أن يراه أو يشعر به أحد! فإن كنتَ يا أبا سفيان عازمًا على ذلك، فما عليك إلا أن تكلفني به! وأنا له!

قال له أبو سفيان: أنت صاحبنا، وأنا أكلفك بذلك!

واتفقا في تلك الجلسة السرية المغلقة على ذلك، وأعطى أبو سفيان الرجل بعيرًا ونفقة ومالًا مقابل ذلك، وقبل أن يخرج من بيته أوصاه أبو سفيان قائلًا: عليك بالمزيد من الحذر، وأَخْفِ أمرك عن الناس، ولا تخبر به أحدًا، حتى لو كان من أقرب الناس إليك! فإن علم أحد بذلك، فقد يشيعه ويصل إلى محمد أو أحد أصحابه!

قال له الأعرابي: لن يعلم بذلك أحد غيري وغيرك!

وانصرف الأعرابي لإعداد أمره وتهيئة شأنه، وانصرف أبو سفيان إلى منزله وقد اطمأنت نفسه إلى ما وصل إليه، فقد وجد رجلًا من غير قريش يستعد لقتل محمد ﷺ نظير دريهمات وبعير، إنها مهمة لا تكلفه شيئًا، وهي تجنبه أشياء، تجنبه التضحية برجل من قريش، وهو الحريص على سلامة رجالها، وتجنبه الحرب الضروس الثائرة بين قريش والمسلمين، إذا ما أتم الأعرابي مهمته وفتك بمحمد ﷺ.

ودخل أبو سفيان داره هادئ الخواطر، منشرح النفس، فأثار ذلك في زوجه هند الدهشة والاستغراب، فلما سألته عن سبب ذلك، وهو الذي أقسم الأيمان المغلظة على الانتقام، فهجر من أجل ذلك الكلمة الحلوة والبسمة المشرقة، فقال لها وهو يحاول أن يعيد إلى نفسه ما كانت عليه من تجهم وضيق: ليس هناك من جديد أخبرك به، وليس هناك من سبب يدعو إلى الانشراح، وما رأيت يا هند، إلا سرابًا ولا أحسست إلا وهمًا، وكيف تهدأ لي نفس وقد قَتل محمد الولد وابن العم؟ وكيف يطمئن لي قلب ومحمد لا يزال في المدينة يعد لحربنا واستئصالنا؟!

وسكتت هند، وسكت أبو سفيان، وإن كان خياله لا يزال مع ذلك الأعرابي الذي انطلق ببعيره يطوي الصحراء ليصل إلى المدينة ليقتل محمدًا ﷺ، إن أبا سفيان يتابع ذلك الأعرابي خطوة خطوة، ويعد معه أميال الصحراء، ويطوي معه أبعادها، وينتظر على أحر من جمر الغضا ذلك الخبر الذي يحسب أنه آتية عما قليل؛ ليقلب حزنه سرورًا ويحيل اضطرابه استقرارًا.

لقد خرج الأعرابي من بيت أبي سفيان، وجهز خنجره الخاص، وركب بعيره الذي أعطاه إياه أبو سفيان، وتوجه نحو المدينة!

خمس ليال قضاها الأعرابي، صنيعة أبي سفيان، وهو يحث بعيره ليصل المدينة وليسبق الأخبار، فهو حريص الحرص كله على أن لا يصل شيء مما دار بينه وبين أبي سفيان، أو مما دار بين أبي سفيان وبين قريش من تآمر على قتل الرسول ﷺ، فوصل المدينة كأسرع ما يمكن أن يصلها رجل مُجِد في سيره مُبالغ في ذلك الجِد، فوصل المدينة صباح اليوم السادس من مغادرته مكة، فكان أول ما عمله أن سأل عن رسول الله ﷺ، على أنه رجلٌ أعرابي جاء ليسلم ويتعلم أمور الإسلام!

فقيل له: إنك تجده يحدث أصحابه في مسجده.

فشل عملية اغتيال رسول الله ﷺ:

دخل الأعرابي المسجد النبوي، فلم يجد فيه رسولَ الله ﷺ، ولما سأل عنه قيل له: قد توجه رسول الله ﷺ إلى بني عبد الأشهل يزورهم.

خرج الأعرابي المسلح بالخنجر الخفي يخفيه داخل ملابسه إلى دار بني عبد الأشهل، فوجد رسول الله ﷺ في مسجدهم يحدثهم!

عقل الأعرابي راحلتَه وتوجه نحو المسجد، فرأى جمعًا من الصحابة يجلسون في حلقة تحفهم السكينة ويخيم على مجلسهم الوقار، يلتفتون بكل مشاعرهم وبكامل انتباههم إلى ما يقوله رسول الله ﷺ، وتبدو عليهم جميعًا لهفة غامرة وشوق شديد لحفظ ما يلقي عليهم من علوم الدنيا والآخرة.

ورآه رسول الله ﷺ مقبلًا من بعيد، فأوحى الله إليه بهذا الرجل ومهمته الخسيسة، وما جرى بينه وبين أبي سفيان!

لذلك قال رسول الله ﷺ لأصحابه قبل أن يصل الأعرابي: **إن هذا الرجل يريد غدرًا، والله حائل بينه وبين ما يريد!**

وتنبه الصحابة ﷺ لما قاله رسول الله ﷺ، والتفتوا نحو باب المسجد، وكلهم أخذ حذره حتى لا يُصاب الرسول ﷺ بأذى، وتابعوا خطوات الأعرابي خطوة بخطوة حتى وصل إليهم، ووقف على حلقتهم وقال: **أيكم ابن عبد المطلب؟**

فقال له رسول الله ﷺ: **أنا ابن عبد المطلب!**

وشعر الأعرابي برهبة وهو يحدث الرسول ﷺ، فقد هابه رغم أنه لا يهاب الرجال، وارتعد منه وهو الذي لم يكن يرتعد لأشد المواقف هولًا وأكثرها رعبًا، وداخَلَه من الجزع و الخوف ما لم يحدث أن داخَلَه مثله قط، حتى إنه فكر في النكوص عما انتواه، ولكنه ذمم نفسه وعاد فصمم على متابعة مهمته وتنفيذ غدره، فانحنى على رسول الله ﷺ كأنه يريد أن يسر له بشيء، وهدفه هو أن يتمكن منه، ليستل خنجره بسرعة ويقتله به!

لكنه يفعل ذلك أمام مشهد من الصحابة المنتبهين، وهذا من سذاجته وغفلته! فالصحابة عرفوا هدفه الخبيث، وزادت درجة انتباههم ويقظتهم.

ولذلك ما أن انحنى على الرسول ﷺ، وقبل أن يمد يده إلى خنجره، حتى انتفض أسيد بن حضير ﷺ وقفز من مجلسه وجبذ الأعرابي من ثيابه جبذة شديدة قوية عنيفة، وقال له بلهجة حازمة آمرة: تنح عن رسول الله ﷺ، ثم دفعه بشدة، وهزه بعنف، وسحبه من (داخلة) إزاره، فحُلَّت عقدةُ الإزار! ولما حُلَّت عقدةُ الإزار ظهر سلاحُه الخفي، الذي أعده لاغتيال رسول الله ﷺ! ظهر خنجره الذي كان يزهو ويفاخر به، قبل أن يتمكن من استعماله!

وسقط الخنجر الذي كان يخفيه تحت ثيابه، فاضطرب الأعرابي، وندَّت عن الحاضرين أصوات الاستنكار والتوعد.

عند ذلك قال الرسول ﷺ لأصحابه مرة ثانية ليسمع هو قوله: **هذا رجل غادر!**

والتفت أسيد ﷺ إلى رسول الله ﷺ وقال: **صدقت يا رسول الله، إن هذا الرجل لغادر.**

وأُسقط في يد الأعرابي، والتفت يمنة ويسرة لعله يجد مخرجًا أو مهربًا، ولكنه وجد الصحابة يحيطون به، وأسيد بن حضير ﷺ يقيد يديه، فأدرك أنه قد أُخذ، وأن الهرب لم يعد مستطاعًا ولا ممكنًا، فداخله رعب شديد وفزع قاتل، وأخذ يصرخ بأعلى صوته: **دمي.. دمي!**

أي: أرجو منك أن لا تسفك دمي، مع أني أستحق القتل، لكني طامع في عفوك!

ألقى الصحابةُ القبض عليه، وصادروا سلاحه الفتاك، وبذلك حمى الله رسوله ﷺ، وعصمه من أعدائه، فمكروا ومكر الله، والله خير الماكرين!

أُسقط في يد الأعرابي، فها هي مؤامرته لاغتيال رسول الله ﷺ قد فشلت وأُحبطت، وها هو مقبوض عليه بين أيدي المسلمين!

وصار أسيد بن حضير ﷺ يلببه بثيابه، ويشده منها، ويحاسبه حسابًا شديدًا؛ ليملأه خوفًا ورعبًا، ويعترف بما عنده!

رسول الله ﷺ يعفو عن الأعرابي ويعرض عليه الإسلام:

قال رسول الله ﷺ للأعرابي: **اصدقني، ما أنت؟ وما أقدمك؟ فإن صدقتني فقد نفعك الصدق! وإن كذبتني هلكت، فإن الله قد أطلعني على ما هممت به!**

إذن الرسول ﷺ على علم بكل ما جرى بينه وبين أبي سفيان! مع أن ما جرى بينهما كان سريًّا، في بيت أبي سفيان في مكة، ولم يعلم به أحد من البشر! فمن أدرى محمدًا به وهو في المدينة؟ إنه الله! وهذا معناه أن محمدًا هو رسول الله ﷺ.

قال الأعرابي لرسول الله ﷺ: **أقول وأنا آمن؟**

قال رسول الله ﷺ: **قل وأنت آمن!**

فأخبره الأعرابي بتفاصيل القصة، منذ أن التقى بأبي سفيان في منزله واتفقا على تفاصيل العملية، إلى أن جاء المدينة! والصحابة يستمعون ويعجبون.

قال أحدهم: ألم نعد أبا سفيان أن نلقاه في بدر من العام المقبل؟ أجبن عن لقائنا فلجأ إلى الغدر؟

قال آخر: إن الكفر ضلال وظلام، وهؤلاء الكفار لا يرقبون فينا إلًّا ولا ذمة، فلا تعجبوا، يا إخوة الإسلام، إذا ما غدروا وكرروا الغدر، بل إنني أتوقع أن يحاولوا الفتك برسول الله ﷺ، ويكرروا المحاولة مرة ومرة ومرة، لقد أعماهم كفرهم وأضلهم شركهم فلم يعودوا يأبهون لعقد عقدوه أو عهد أعطوه، وسيبقى الكفر هكذا ما تعاقب الليل والنهار.

قال آخر: صدقت يا أخي فيما قلت، سيحاول الكفار، ولكنهم لن يستطيعوا أن ينالوا الرسول ﷺ بشر لأن الله وعده بأن يحفظه من الناس، فليُجمع الكفار أمرهم ويكيدوا كيدهم، فسوف يرد الله كيدهم إلى نحورهم وينقلبوا خاسرين.

وأمر رسول الله ﷺ أسيد بن حضير ﷺ أن يحبس الأعرابي عنده ليلته هذه، وأن يأتي به إلى المسجد إذا أصبح.

ومر الليل بساعاته الطوال، والأعرابي مقيد بقيده، يقبع في ركن من أركان بيت أسيد ﷺ، وأسيد ﷺ يقوم الليل ويقرأ القرآن، وتابع الأعرابي أسيدًا في تلاوته، فوقعت آيات القرآن في قلبه موقعًا، فقد سمع كلامًا ما سمع مثله قط، فعرف أن ما سمعه هو ما كانت قريش تقول عنه بأنه سحر يفرق الأسرة والقبيلة، ويقول عنه المسلمون بأنه كلام الله الذي يهدي الناس إلى سواء السبيل ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

فَعَلَتْ هذه الآيات فِعْلَها في قلب الأعرابي، فقد شعر بالطمأنينة والسكينة، وود لو استمع إلى مزيد من هذه الآيات، لقد بدأ ليله بساعات طوال، ولكنها بدأت تقصر وتتناهى في القصر مع انسجامه بالتلاوة التي يسمع من أسيد ﷺ حتى إن السويعات الأخيرة من الليل مرت كلحظة خاطفة.

ونادى منادي الفجر، فقام أسيد ﷺ إلى أسيره فاصطحبه معه إلى المسجد ليمثُل بين يدي رسول الله ﷺ.

وتصارعت الأفكار في ذهن الأعرابي، وهو متجه إلى المسجد، يقول الرجل لنفسه: لقد أَمَّنَنِي محمدٌ، وقد سمعت أعداءه في مكة يصفونه بالأمانة والصدق والوفاء، فلا أظنه يرجع عن أمانه لي، لقد رأيت في وجهه وسمعت من حديثه ما حببه إلى نفسي، ولكن عليَّ أن انتظر حتى أمثُل أمامه لأرى ما هو فاعل بي.

وقف الأعرابي أمام رسول الله ﷺ، فالتفت إليه الرسول ﷺ وقال له: **قد أمنتك فاذهب حيث شئت.**

قال الرجل: سأشكر لك صنيعك ما حييت، أنا حر في الذهاب حيث أشاء؟

لقد عامل رسول الله ﷺ هذا الأعرابي الغادر بأخلاقه النبوية العالية، فمع أنه جاء لقتله إلا أنه عفا عنه.

وقبل أن يغادر الأعرابي مجلس رسول الله ﷺ عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، وقال له: **ما رأيك فيما هو خير لك من ذلك؟**

قال الأعرابي: **وما هو؟**

قال ﷺ: **أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله!**

فأعلن الأعرابي إسلامه أمام رسول الله ﷺ.

ثم صارحه بأمر عجيب، فقال له: يا رسول الله ﷺ، أنا رجل شجاع جريء، لا أخاف الرجال ولا أهابهم، مهما كانوا، إلا أنت يا رسول الله ﷺ، فلا أدري ما حصل لي لما رأيتك! فو الله ما أن رأيتك حتى ذهب عقلي، وضعفت نفسي، وامتلأتُ منك خوفًا ورهبة! وقد أخبرك الله بما عزمت أنا عليه، مما لم يعلمه أحد، غيري أنا وأبو سفيان، فعلمتُ أنك معصوم ممنوع، وأن الله يحميك ويحفظك! وهذا معناه أنك على حق، وأن حزب أبي سفيان حزبُ الشيطان، على باطل!

فجعل رسول الله ﷺ يبتسم مما قاله الأعرابي المسلم، وابتسم الصحابة لما سمعوا.

وأقام الأعرابي في المدينة أيامًا يتعلم مبادئ الدين، وينهل من الكتاب الكريم، ثم استأذن وانصرف إلى أهله وقد فاز بالحسنى.

لم يعد الأعرابي إلى أبي سفيان، ولكن الركبان القادمين من المدينة، حملوا إليه قصة الأعرابي وإسلامه، فعرف المآل الذي آلت إليه مؤامراته، ورد الله كيده إلى نحره، ولما علم أبو سفيان بذلك ازداد إحباطًا وحسرة، وصار يفكر في طريقة أخرى يواجه بها رسول الله ﷺ! فعاد إلى قريش وهو مغيظ محنق، ولجَّ في الخصومة وبالغ في العداء وأخذ يحشد الحشود لحرب الإسلام وأهله.

الرسول ﷺ يكلف الضمري والأنصاري بمحاولة اغتيال أبي سفيان:

وهذه التصرفات والمؤامرات من أبي سفيان ضد رسول الله ﷺ، جعلت للرسول ﷺ الحق في الرد على أبي سفيان بالمثل، إنه في حالة حرب معه، ودمُ أبي سفيان وغيره من كفار قريش هَدْر.

لذلك فكَّر رسول الله ﷺ في (اغتيال) أبي سفيان زعيم مكة! وهو على صواب فيما فكَّر فيه، وفيما عزم عليه!

كلف رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه للقيام بهذه المهمة الخطيرة الدقيقة.

وعمر بن أمية الضمري رضي الله عنه بطل من كبار الأبطال، مشهور بالشجاعة والقوة والفطنة، وبُعد النظر وحسن التخطيط وسرعة الحركة، وقد كان مع المشركين محاربًا للمسلمين في غزوتي بدر وأحد، ثم أسلم بعد غزوة أحد، وأقام مع رسول الله ﷺ، وعرف له رسول الله ﷺ هذه المواهب والكفاءات، فكان يكلفه بالمهمات الدقيقة الصعبة.

دعا رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم بن حريش الأنصاري رضي الله عنهما، وقال لهما: **اخرجا، حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب، فإن أصبتُما منه غِرَّة فاقتلاه!**

أي: عليهما أن يذهبا إلى مكة، وأن يبذلا جهدهما في اغتيال أبي سفيان، فإن عجزا عن ذلك فلا شيء عليهما.

والملاحظ أن رسول الله ﷺ لم يكلفهما باغتيال أبي سفيان تكليفًا مطلقًا، وإنما تكليف مشروط بقدرتهما على ذلك: **فإن أصبتما منه غرة فاقتلاه!**

وكأن هذا الشرط إشارةٌ إلى أنهما قد لا يتمكنان من ذلك!

استعد عمرو بن أمية وصاحبه لهذه المهمة الخطيرة الدقيقة، وكان عمرو يملك سلاحًا قويًّا خفيفًا، وهو خنجر صغير، لكنه حاد جدًّا، يمكنه أن يخفيه بين ملابسه بدون أن يراه أحد، أو أن يشعر به أحد!

وهذا يذكِّرنا بخنجر الأعرابي الصغير الذي جاء ليغتال به رسول الله ﷺ، لكن الله فضحه وكشف أمره!

ركب عمرو وسلمة بن أسلم بعيرهما، وتوجها نحو مكة؛ لتنفيذ تلك العملية الجهادية!

الضمري والأنصاري رضي الله عنهما في مكة:

وصلا إلى منطقة على مشارف مكة، تسمى (بطن يَأْجَجْ) على بعد ثمانية أميال من مكة! وعقلا البعير هناك، في منطقة خاصة في فناء شِعب هناك؛ ليكون بعيدًا عن أهل مكة، وليعودا إليه عند انتهاء عمليتهما الجهادية! ولو ذهبا بالبعير إلى مكة، وأناخاه فيها فسينكشف أمرهما حتمًا!

وقبل أن يغادرا (بطن يَأْجَجْ) أوصى عمرو أخاه سلمة قائلًا: سننطلق الآن إلى دار أبي سفيان، وسأقوم أنا بمجاولة ومصاولة أبي سفيان لقتله، وأنت تقوم بالمراقبة والمساعدة، فإن حصل شيء لم يكن بالحسبان، فعليك أن تنجو بنفسك، وتأتي إلى هنا، وتركب البعير، وتذهب إلى رسول الله ﷺ وتخبره.

ولا تنتظرني! ولا تخف علي، فإني رجل عالم بكل مكان في هذه المنطقة، وسأنجو بإذن الله من الأعداء، كما أنني نجيب الساق، سريع العدو.

وتوجَّها نحو دار أبي سفيان في مكة! وجهَّز عمرو بن أمية خنجره الخفي الصغير، وأحكم وضعه تحت ملابسه.

ولما غابت الشمس وحلَّ الظلام كان المجاهدان أمام الكعبة، في طريقهما إلى دار أبي سفيان!

وعندما وقعت عينا سلمة بن أسلم الأنصاري ﷺ على الكعبة، لم يملك نفسه، وهاجت عاطفته للوصول إليها، والطواف بها.

إنه ما رأى الكعبة منذ سنوات عديدة، وإنه يحبها حبًّا عظيمًا، فهي أول بيت وُضع في الأرض لعبادة الله، وهي التي بناها إبراهيم ﷺ، وهي التي توارث العرب تقديسها وتعظيمها والطواف بها والحج إليها قرونًا عديدة!

وكان في السنوات السابقة عاجزًا عن الوصول إليها؛ لأن قريشًا تمنع أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك!

والآن ها هو أمام الكعبة، يُمتع عينيه بالنظر إليها، وعلى بُعد مئات الأمتار منها! فهل يمر بجانبها ولا يأتيها ليطوف بها ويصلي عندها؟

أَنْسَته عاطفته الجياشة مهمته الجهادية التي قَدِم من أجلها، وأنها تتطلب مزيدًا من الحذر والانتباه والسرية والتخفي: إنهما قادمان لقتل زعيم مكة!

الأنصاري يلح على الضمري البدء بالطواف:

لذلك عرض سلمة على عمرو عرضًا عاطفيًّا! فقال له: **ما رأيك يا عمرو أن نأتي الكعبة أولًا، فنطوف بها سبعة أشواط، ثم نصلي عندها ركعتين؟**

فوجئ عمرو بهذا العرض العاطفي من سلمة؛ لأنه إن وافقه عليه وأخذ به فسوف يُفشل ما قدما من أجله! لذلك قال له: أنت لا يعرفك أهل مكة! أما أنا فإني أَعرَف بمكة من الفرس الأبلق، وإذا رآني أهل مكة، فإنهم سيعرفونني، ثم إنني أعرف عادة أهل مكة، إنهم ينتظرون حلول الظلام ليسمروا بالليل، حيث يرشون أفنية بيوتهم بالماء، ويفرشونها، ثم يجلسون أمام بيوتهم يسمرون.

فإذا قطعنا بيوتهم وتوجهنا نحو الكعبة للطواف، رآنا القرشيون الجالسون أمام بيوتهم، وإذا رأوني عرفوني! وبذلك نفشل في تحقيق ما قَدِمنا إليه! وأرى أنه لا داعي لأن نطوف بالكعبة، وعلينا التوجه إلى منزل أبي سفيان لقتله، تنفيذًا لما كلفنا به رسول الله ﷺ!

كان كلام عمرو بن أمية منطقيًّا مقبولًا، وليس عاطفيًّا حماسيًّا! ولكن أخاه سلمة لم يستمع له، وأصر على الذهاب إلى الكعبة أولًا!

لم يشأ عمرو بن أمية ﷺ أن ينازع أخاه ويخالفه؛ لأنه يعلم أن هذا يحرمه الإسلام، ولذلك اضطر إلى موافقته، مع علمه بخطأ كلامه وفعله!

وتحوَّل المجاهدان نحو الكعبة ليطوفا بها أولًا، ثم يقوما بقتل أبي سفيان بعد ذلك!

وَصَلا الكعبة بأمان، وطافا بها سبعة أشواط، ثم صليا بجانبها ركعتين، وذكرا الله وحمداه، وبذلك حقق الأنصاري رغبته، واستمتع بما كان يرجوه ويحرك عواطفه ومشاعره.

ثم غادرا البيت الحرام، متوجهين إلى دار أبي سفيان لتنفيذ عمليتهما الجهادية!

انكشاف أمرهما وفشل العملية:

مرَّا على مجموعة من القرشيين جالسين بفناء أحد البيوت، فيهم معاوية بن أبي سفيان، ونظر معاوية إلى الرجلين، فعرف عمرو بن أمية، وكان به سابق معرفة!

صاح معاوية قائلًا: مَنْ؟ **عمرو بن أمية الضمري! والله ما جئتَ بخير أبدًا!**

وسمع القوم الجالسون كلام معاوية، وهم يعرفون عمرو بن أمية بقوته وفتكه، فقد كان فاتكًا خطيرًا في الجاهلية، الكل يحذره ويخشاه، ويتوقع منه السوء والأذى! فهبوا قائمين للقبض على عمرو وصاحبه.

وهكذا وقع ما كان يخشاه عمرو بن أمية، فها هم أهل مكة يعرفونه، ويكتشفون أمره، وها هم يتوجهون نحوه للقبض عليه، كل هذا بسبب العاطفة الجياشة التي هاجت في قلب أخيه، ودفعته إلى الطواف بالكعبة!

قال عمرو لسلمة: **هلم أنج بنفسك، فهذا والله الذي كنت أحذر، ولا سبيل لنا للوصول إلى أبي سفيان، فقد كُشف أمرنا.**

الضمري والأنصاري مختفيان في الغار:

هرب عمرو وسلمة، وجريا راكضين مسرعين، وغادرا مكة، ونجحا في الإفلات من القرشيين المطاردين لهما، وصعدا في الجبل.

يَعرف عمرو بن أمية غارًا حصينًا في الجبل، فتوجه هو وأخوه إليه في تلك الليلة المظلمة، واختفيا داخله! ووضع عمرو حجارة على باب الغار لئلا يراهم المشركون.

علم أبو سفيان من ابنه معاوية أن عمرو بن أمية الضمري في مكة، وهو يعلم عمرو بن أمية فاتكًا خطيرًا، ولذلك لم يأت مكة لخير، وإنما جاء لأمر ما! لا يعرف أبو سفيان ما هو؟

استنفر أبو سفيان أهل مكة، وطلب منهم أن يفتشوا عن عمرو وصاحبه في كل مكان! بحثوا عنهما في طرقات مكة، وتوجه فريق إلى الجبل يفتش عنهما.

ومضى الليل وطلع الفجر وهم يفتشون في الجبل، فلم يصلوا إلى الغار.

وأعمى الله أبصارهم عن طريق المدينة، فلم يسيروا فيه باحثين مفتشين، ولو فعلوا ذلك لرأوا البعير المربوط في (بطن يَأْجَجْ) بطريق المدينة.

همس عمرو في أذن أخيه وهما مختفيان في الغار: سنبقى هنا في الغار حتى يسكن الطلب، ويتوقف القرشيون عن البحث والتفتيش، إنهم سيبقون مستنفرين جادين في البحث طيلة هذه الليلة، وطيلة نهار الغد، وسيخف ذلك عند مساء الغد.

أمضيا ليلتهما وصباح يومهما في الغار ذاكرين لله، طالبين منه حمايتهما وحفظهما.

الضمري ﷺ يقتل أحد المشركين على باب الغار:

وفي ضحى الغد كان القرشيون ما زالوا جادين في البحث عنهما، ونظر عمرو من بعيد فرأى أحد القرشيين يتجول قريبًا من الغار، رأى (عثمان بن مالك التَّيمي) يقود فرسًا له، ويجمع لها العشب من الجبل ـ وكان الوقت ربيعًا ـ ويشارك في البحث عن المجاهدَيْن.

فقال عمرو لسلمة: هذا ابن مالك يبحث عنا، وهو قادم إلى الغار، ووالله لو رآنا لنادى أهل مكة وأتوا ليقبضوا علينا، وسأقتله قبل أن يرانا.

انتظر عمرو عثمانَ بن مالك حتى وقف قريبًا من الغار، وأوشك أن يدخل الغار، فانقض عليه عمرو مسرعًا، وأخرج خنجره الحاد الصغير، وطعنه طعنة واحدة قوية تحت ثديه، واخترقت الضربة القوية صدره إلى قلبه.

صاح ابن مالك صيحة قوية، وسقط على الأرض مغشيًّا عليه.

سمع القرشيون الذين يفتشون في الجبل صيحته، فأقبلوا عليه ينقذونه، ودخل عمرو الغار مسرعًا، وقال لسلمة: لا تتحرك فها هم قادمون.

وصل القرشيون إلى عثمانَ بن مالك، فوجدوه في آخر رمق، وسألوه: ويحك من ضربك؟ فأجاب بصعوبة شديدة: عمرو بن أمية.

فقال أبو سفيان معلقًا: قد علمنا أنه ما جاء عمرو لخير، وإنما جاء لشر.

وحاولوا أن يستوضحوا منه عن مكان عمرو، ولكنه كان عاجزًا عن الكلام، وما هي إلا لحظة حتى مات، وتجمعوا عليه، وشُغلوا به.

كل هذا وهم على باب الغار، وعمرو وسلمة ينظران إليهم، لكن الله أعمى أبصارهم فلم ينظروا إلى الغار، ولو نظر أحدهم تحت قدميه وانحنى قليلًا لرآهما داخله.

حمل القرشيون قتيلهم عثمانَ بن مالك، ونزلوا عن الجبل متوجهين إلى مكة، وحمد عمرو وسلمة الله على سلامتهما، ومكثا في الغار مختفيين يومين كاملين، حتى توقف بحث القرشيين عنهما.

الضمري والأنصاري أمام جثة خبيب بن عدي ﷺ:

وبعد ثلاثة أيام قضياها في الغار، وشعرا بتوقف قريش عن التفتيش عليهما خرجا من الجبل، وتوجها إلى (بطن يَأْجَجْ) حيث ربطا البعير هناك، ليركباه ويعودا إلى المدينة.

وفي طريقهما إلى (يَأْجَجْ) مرَّا على منطقة (التنعيم)، وهي أول منطقة الحِلِّ، والحد الفاصل بين الحِلِّ والحرم.

وكانت قريش قد صلبت في (التنعيم) الصحابي الشهيد (خبيب بن عدي ﷺ)، عندما غَدر به وبإخوانه بنو سليم (على ماء الرجيع) واستشهد معظم إخوانه، وأخذوه أسيرًا، وباعوه إلى قريش في مكة.

وبعد ما حُبس في مكة عدة شهور قرر أبو سفيان قتله صبرًا في منطقة التنعيم، ولما مات مصلوبًا على الخشبة أبقته قريش مصلوبًا عليها، ووضعت عليه حراسًا، يحرسون الجثة المصلوبة، لئلا يتمكن رجال رسول الله ﷺ من أخذها.

فلما مر عمرو وسلمة ﷺ بمنطقة التنعيم، شاهدا خبيب بن عدي ﷺ مصلوبًا على الخشبة، وشاهدا مجموعة من المشركين، بعيدًا عن الجثة يحرسونها.

قال سلمة لعمرو: **ما رأيك في أن ننزل خبيبًا عن خشبته، وأن نأخذ جثته معنا إلى المدينة؟**

قال له: نعم.

خشي عمرو بن أمية على أخيه سلمة بن أسلم؛ لأنه لم يكن في مستواه، خفة وسرعة وعدوًا ولياقة بدنية؛ لذلك قال له: سأتولى أنا وحدي أخذ جثة خبيب، وأنت اذهب الآن إلى البعير في (يَأْجَجْ)، واركبه، واذهب مسرعًا إلى المدينة، وأخبر الرسول ﷺ، ولا تخف علي، ولا تنتظرني، فإني عالم بالطريق، خبير بما فيها!

توجه سلمة بن أسلم إلى البعير، وركبه، وتوجه نحو المدينة، وسلم من مطاردة المشركين.

الضمري ﷺ يعجز عن أخذ جثة خبيب بن عدي ﷺ:

أما عمرو بن أمية ﷺ فقد نظر إلى جثة خبيب على الصليب، ونظر إلى حُرَّاسه من المشركين، ولما غافلهم توجه نحو الجثة، وحل عنها الحبال بخفة، ثم أنزلها عن الخشبة، وحملها على ظهره، وسار مسرعًا!

وهذه حركة من عمرو بن أمية في غاية الجرأة والشجاعة، إنه مُطارَدٌ من قِبَل أهل مكة، لم يتوقف الطلب عنه، وهو يتحرك في وسط أعداء يبحثون عنه، ولم ينج بنفسه عدوًا وجريًا، وإنما أضاف إلى ذلك مشكلة جديدة: يحمل على ظهره جثة أخيه الشهيد خبيب بن عدي، ومجموعة من الحراس المشركين يحرسونها، **هكذا فلتكن الجرأة!**

سار عمرو نحو أربعين ذراعًا وهو يحمل جثة خبيب على ظهره، فانتبه الحراس المشركون، لاحظوه يفر بجثة خبيب التي يحرسونها، فلحقوا به.

علم عمرو أنه لن ينجو منهم إن لم يتخلص من الجثة، فكيف سيجري وهو حامل لها، لو بقيت على ظهره فسيلقون القبض عليه؛ لذلك لابد من التخلص منها.

أنزل الجثة عن ظهره بسرعة، وحفر لها برجله بسرعة، ووضعها في الحفرة الصغيرة، وأهال عليه التراب، ودفنها بسرعة، وولى هاربًا.

لحقه الحراس المشركون، ولكنه كان أسرع منهم، فلم يدركوه، وهكذا كتب الله له النجاة منهم.

توجه عمرو بن أمية نحو المدينة، وكان يسير بحذر شديد؛ لأن المشركين أرسلوا العيون يبحثون عنه.

سلك طريق (وادي الصفراء) وهو واد زراعي، فيه نخل وزرع، بين مكة والمدينة، ثم توجه نحو جبل (ضَجْنان) على الطريق ليستريح في مغاراته.

الضمري ﵁ يقتل أحد المشركين المعادين:

دخل في غار في الجبل، ووضع خنجره وقوسه وسهامه، واضطجع فيه ليستريح، فما استراح منذ أن هبط من الجبل في مكة.

وبينما هو مضطجع في الغار أقبل رجل من بعيد، من (بني الديل بن بكر) يسوق غنمًا له، ويريد أن يستريح في الغار.

دخل الغار، فوجد عمرو بن أمية داخله. فسأله: من الرجل؟

أجابه عمرو: أنا من بني بكر.

فقال له: وأنا من بني بكر، من بني الديل منهم.

وبعدما جلسا قليلًا تكلم الرجل، فإذا به عدو للمسلمين، شديد العداوة لهم، وهو لا يدري أن محدثه مسلم، فشتم المسلمين وهددهم وتوعدهم.

ثم رفع عقيرته، وتغنى قائلًا:

فَلَسْتُ بِمُسْلِمٍ مَا دُمْتُ حَيًّا   وَلَسْتُ أَدِينُ دِينَ الْمُسْلِمِينَا

فغضب عمرو منه، ووقف على مقدار عداوته؛ ولذلك قرر قتله، وقال في نفسه: والله إني لأرجو أن أقتلك!

وما هي إلا فترة قصيرة حتى نام الرجل في الغار، فقام إليه عمرو بن أمية فقتله بسبب عداوته للمسلمين، وشتمه لرسول الله ﷺ.

ثم نزل عمرو بن أمية من الجبل، وتابع سيره نحو المدينة.

الضمري ﵁ أمام الجاسوسين على مشارف المدينة:

ووصل سلمة بن أسلم المدينة قبل عمرو بن أمية؛ لأنه كان راكبًا بعيره، وأخبر رسول الله ﷺ بتفاصيل ما جرى لهما، وعجزهما عن اغتيال أبي سفيان، وأنه ترك عمرو بن أمية الضمري في منطقة التنعيم.

أما عمرو فقد قطع الوديان والشعاب والجبال، حتى صار على مشارف المدينة.

وهناك رأى رجلين من المشركين القرشيين، بعثتهما قريش يتحسسان الأخبار، ويتجسسان على المسلمين، لما رآهما عرفهما، وعرف مهمتهما التجسسية، فتعامل معهما بحس (أمني) عال، دالٍّ على يقظته وحيويته وفطنته.

صاح فيهما قائلًا: **استسلما واستأسرا، خير لكما، وإلا قتلتكما.**

نظرا إليه، وعرفاه، فقد كان عمرو بن أمية معروفًا في مكة، لكنهما استخفا به، فكيف يستسلمان له وهما اثنان وهو بمفرده؟

لهذا استهانا به قائلين: أنحن نستسلم لك؟ إننا أقوى منك.

وعند ذلك رمى أحدَهما بسهم واحد، فأصابه في مقتل، وخر صريعًا، ولما رأى الآخر مقتل صاحبه استسلم.

أوثق عمرو أسيره الجاسوس القرشي، وأتى به يسوقه إلى رسول الله ﷺ.

الرسول ﷺ يعجب بعمل الضمري ﷺ ويثني عليه:

وبعد ثلاثة أيام من وصول سلمة بن أسلم، وصل عمرو بن أمية المدينة، ودخلها مع أسيره الجاسوس بطريقة طريفة: لقد ربط إبهامي الأسير بوتر قوسه، وساقه أمامه بطريقة مذلة مضحكة.

ولما رآه مجموعة من الأنصار قالوا: هذا والله عمرو بن أمية الضمري عاد سالمًا إلى المدينة، وحمدوا الله على سلامته، ولما سمع الصبيان قولهم، أسرعوا إلى رسول الله ﷺ، يبشرونه بسلامة عمرو بن أمية.

وأقبل عمرو على رسول الله ﷺ، وهو يسوق أمامه الجاسوس القرشي، على صورة مضحكة، فلما رآه الرسول ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، وكان ضحكُه إعجابًا بما فعله عمرو.

وأخبر عمرو بن أمية رسول الله ﷺ بتفاصيل الأحداث، منذ أن غادر المدينة، إلى حين العودة لها، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ - كتب السنة: مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧ هـ) ٦/ ٢٩٥-٢٩٨، المطالب العالية لابن حجر (٨٥٢هـ) ١٧/ ٤١٧-٤٢٣، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٤٣٧- ٤٤٥، جمع الفوائد للمغربي (١٠٩٤هـ) ص ١٠١٧، الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦١٦، ٦٢٣.

ب - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٤١٢-٤١٩، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦٣٣-٦٣٥، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٩٠-٩١، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٤٢-٥٤٥، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٣ / ٣٣٣ –

٣٣٧، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ١٣٤-١٤١، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٥/ ٥١٧-٥٢٣، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٩٤-٢٠١، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٣/ ١٥٧ -١٦٦.

ج ـ **كتب الغزوات والسرايا:** السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١٠٨-١١٠، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ١٦٣-١٧٠.

د ـ **كتب أخرى:** والله يعصمك من الناس للجدع ١٠٠-١١٨، صور من جهاد الصحابة ﭬ للخالدي ١٣٩-١٥٤، قادة النبي ﷺ لخطاب ٢٣٤-٢٣٨.

خرائط سرية عمرو بن أمية الضمري ﷺ لقتل أبي سفيان

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٩.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سرية عمرو بن أمية الضمري ﷺ لقتل أبي سفيان

١ ـ إثبات صدق نبوته ﷺ:

حيث أوحى الله ﷻ إلى رسوله ﷺ بما دبره أبو سفيان وتآمر عليه مع هذه الأعرابي.

٢ ـ حرص الطغاة على اغتيال قادة الدعوة:

يقول أ/ حوى: «ولم يكن خصومه ﷺ غافلين كذلك عن محاولتهم قتله ﷺ، ولكن الله ﷻ سَلَّم، ففي حوادث سنة أربع من الهجرة ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أكثر من محاولة اغتيال، فقد ذكر محاولة دفع إليها أبو سفيان، وكلَّف رسول الله ﷺ على أثر اكتشافها عمرو بن أمية الضمري وآخر باغتيال أبي سفيان، ولم ينجحا، كما ذكر ابن كثير محاولة غورث بن الحارث اغتياله ﷺ أثناء قفوله من غزو نجد التي حاول فيها تأديب مَنْ قتلوا أصحابه يوم الرجيع». [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦١٥].

٣ ـ عدم تساهل القيادة في أمنها:

يقول أ/ حوى: «لقد كان رسول الله ﷺ معصومًا أن يُسلط عليه أحد فيقتله، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولقد رأينا أنه قبل نزول هذه الآية كان يجب أن يُحرس؛ ولذلك فلا عليه ﷺ ألا يحتاط كثيرًا في أمر نفسه، ولكن هذا لا يعني أن تتساهل قيادات المسلمين في أمنها، فذلك من التفريط الخطير، كيف والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢﴾ [النساء]. [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦١٥].

٤ ـ اختيار ذوي الكفاءات في تنفيذ المهام:

لقد كان رسول الله ﷺ أعرف البشر بشياطين الفجور في البشر، كما كان أعلم الناس بأصحابه وموازينهم في البطولة، وإقدامهم على الموت في سبيل إعلاء كلمة الله استجابة لرسول الله ﷺ إذا دعاهم لما يحييهم حياة أبدية خالدة. [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٤٥].

ويقول ل/ خطاب: «لقد كان عمرو من أجواد العرب وشخصياتهم المعروفة، وكان شخصية مرموقة قبل الإسلام وبعده، وقد خدم الإسلام والمسلمين خدمات عظيمة جدًّا لا تُنسى.

لقد كان عمرو من رجال العرب نجدةً وجرأةً وأحد أبطالهم، وكان شجاعًا، وكان سريع الحركة، يتملَّص بسرعة إذا حاق به الخطر، فيعجز خصمه عن اللِّحاق به.

وكان حاضر البديهة؛ لأنَّ مجابهة المواقف المتغيرة السريعة والنجاح في التملُّص من أخطارها، دليل على حضور البديهة والذكاء.

وكان عاقلًا متزنًا؛ لذلك كان من مهماته التي نهض بها السفارة إلى النجاشي داعيًا وخاطبًا ومفاوضًا.

ومن المهمات التي أنجزها، يبدو أنه كان من المجاهدين الفدائيين المغاوير.

وربما تبدو مهمة استنفاد جثَّة خُبَيْب ﷺ بعد صلبه من قريش مهمة سهلة أو لا أثر لها ولا تأثير ولا قيمة.

والواقع خلاف ذلك، فقد كانت الجثة محروسة حراسة قوية، فاستطاع خطفها من بين حراسها المتربصين، كما أن خطفها رَفَع معنويات المسلمين من جهة، وأدى إلى انهيار معنويات قريش من جهة أخرى.

فقد كان النبيُّ ﷺ لا يتخلى عن أصحابه أحياء وأمواتًا، وهذا مما يرفع معنوياتهم في السِّلم والحرب.

وكان خطف الجثة ضربة شديدة على معنويات قريش؛ لأنهم أيقنوا أن المسلمين يستطيعون تحقيق مآربهم حتى في عقر دار قريش على رغم اليقظة والحراسة، فأصبحوا غير آمنين على أنفسهم.

تلك هي أبرز سمات قيادة عمرو ﷺ، تبدو واضحة للعيان من دراسة سيرته العطرة.

ويذكر التاريخ لعمرو ﷺ، أنه كان من أبطال العرب وشجعانهم قبل الإسلام وبعد الإسلام.

وأنه وظَّف شجاعته وإقدامه لخدمة أهداف النبي ﷺ وخدمة الإسلام والمسلمين.

وأنه كان مجاهدًا صادقًا وقائدًا متميزًا وسفيرًا لامعًا، وأنه نال شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٣٦٨-٣٧٠].

٥ ـ اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ١ هـ.

٦ ـ الفدائية العظيمة:

وقد ظهر ذلك على طول السَّرية من خروجها حتى عادا إلى المدينة المنورة.

٧ ـ العمليات الفدائية:

سبق تفصيله في سرية عبد الله بن جحش ﷺ إلى نخلة ٢ هـ.

٨ ـ فكرة الاغتيال السياسي:

سبق تفصيله في سرية قتل كعب بن الأشرف اليهودي ٣ هـ.

٩ ـ القتل بطريق الغدر أو الغيلة:

سبق تفصيله في سرية ابن أنيس ﷺ إلى خالد الهذلي ٤ هـ.

١٠ ـ تحمل أفراد الصف للصعاب:

سبق تفصيله في سرية سعد ﷺ إلى الخرار ١ هـ.

١١ ـ أهمية الكتمان في العمليات العسكرية:

يقول ل/ خطاب: «لم يحقق عمرو بن أمية الضمري ﷺ هدفه كما ينبغي؛ لأن صاحبه الذي كان معه أصر على الطواف حول الكعبة والصلاة بالبيت، فانكشف أمره؛ لأنه كان معروفًا للغاية، فضيَّع الكتمان الضروري لمثل هذه العملية، ولكنه نجح بالفتك بغير أبي سفيان من المشركين: من المتعصبين على الإسلام، وعيون قريش وأرصادهم، ومن غيرهم من أعداء المسلمين». [**قادة النبي ﷺ لخطاب ٣٥٣**].

١٢ ـ جواز قتل الكافر المعادي وهو نائم:

وهذا قد أخذناه من قتل عمرو بن أمية ﷺ للكافر الذي أعلن كفره ومعاداته للإسلام والمسلمين، وسيأتي أيضًا من طريقة تنفيذ أعضاء سرية عبد الله بن عتيك وأصحابه ﷺ لأمر الرسول ﷺ في قتل أبي رافع اليهودي، فقد قاموا بقتله وهو نائم في فراشه، وأقرهم الرسول ﷺ ولم ينكر عليهم.

الباب الخامس

الغزوات بين أحُد والأحزاب

الفصل الأول: غزوة بني النضير: ربيع الأول ٤ هـ/ أغسطس (آب) ٦٢٥م/ مسرى ٣٤١ قبطي

الفصل الثاني: غزوة ذات الرقاع (غزوة نجد): جمادى الأولى ٤هـ/ أكتوبر (تشرين أول) ٦٢٥م/ بابه ٣٤٢ قبطي

الفصل الثالث: غزوة بدر الموعد، أو الآخرة، أو الثانية، أو الصغرى: الجمعة هلال ذي القعدة ٤هـ/٤ أبريل (نيسان) ٦٢٥م/ ٩ برمودة ٣٤١ قبطي

الفصل الرابع: غَزْوَةُ دُومَةِ الجَنْدَلِ: الأحد ٢٥ ربيع الأول ٥هـ/ ٢٤ أغسطس ٦٢٦ م/ مسرى ٣٤٢ قبطي

الفصل الخامس: غزوة بني المصطلق (المريسيع): السبت الثاني من شعبان ٥هـ/ ٢٨ ديسمبر ٦٢٦م/ ١ طوبة ٣٤٣ قبطي

الفصل السادس: حديث الإفك

الفصل الأول

غزوة بني النضير (١)

ربيع الأول ٤هـ/ أغسطس (آب) ٦٢٥ م / مسرى ٣٤١ قبطي

المبحث الأول

عرض غزوة بني النضير

تمهيد: اليهود ودولة الإسلام في المدينة:

لليهود في تاريخ الإسلام وفي سيرة النبي الكريم ﷺ وافر الذكر، وليس كل ذكر ذكرًا، فمن الذكر ما يبقى عبقًا متألقًا بالنور، ومن الذكر ما يكون أسود مظلمًا، يتوارى منه أهله خجلًا، ولو لم يكن لليهود من هذا الذكر الأسود إلا ما سطره القرآن في آياته لكفى الناس أن يتقوهم ويحذروهم، فمن القرآن ما فيه مزدجر، يبلغ بالناس مشارف الحكمة، يأخذون منها لأنفسهم أحسنها، وكله نافع حسن.

[السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٤٠٦].

كان هؤلاء اليهود يتحينون الفرص للتخلص من المسلمين منذ أن تمركزوا في المدينة، وقد ظلت أعمال هؤلاء اليهود العدوانية مقتصرة على الدس والوقيعة والتحريض لتفريق كلمة المسلمين وتفكيك وحدتهم والتشكيك في صدق نبوة محمد ﷺ. **[غزوة الأحزاب لباشميل ٤٧]**.

لقد كان لغزوة بدر أثر كبير على نفوس المشركين والمنافقين واليهود في المدينة وخارجها، والقبائل العربية والأعراب الذين مردوا على النفاق وألِفوا سلب الأموال ونهبها، إذ كانت النتيجة مذهلة للجميع. **[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٥٣]**.

وكان يهود بني قنيقاع أول من حوَّل النزاع بين اليهود والمسلمين من نزاع مدني إلى نزاع مسلح، فحاصرهم المسلمون في حصونهم ثم استنزلوهم وتم إجلاؤهم من المدينة. **[غزوة الأحزاب لباشميل ٤٧]**.

وكان لإخراج يهود بني قنيقاع من المدينة وتطهيرها من رجسهم، مدحورين صاغرين أثر كبير على نفوس المنافقين في المدينة واليهود والأعراب المجاورين للمدينة. **[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٥٤]**.

ولم يشترك يهود بني النضير في معركة بني قينقاع حربيًّا، وإن كانت عواطفهم معهم، وقد بقي يهود بني النضير (كبني قريظة) على عهدهم مع المسلمين، ولم يقوموا بأي عمل عسكري ضد المسلمين، وخاصة بعد أن رأوا العبرة في يهود بني قينقاع الذين كانت نتيجة حملهم السلاح في وجه المسلمين هو استسلامهم ثم إجلاؤهم عن المدينة في السنة الثانية من الهجرة. **[غزوة الأحزاب لباشميل ٤٧]**.

---

(١) **النَّضِير**: حي من يهود دخلوا في العرب وهم على نسبهم إلى هارون نبي الله تعالى عليه السلام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله تعالى قد كتب عليهم هذا الجلاء. سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٧٠.

ظلت حالة الخوف والفزع والجزع والاضطراب والقلق تلازمهم حتى حدثت غزوة أُحُد، ونال المسلمين ما نالهم من الآلام والقتل، إذ استشهد فيها سبعون من خيار المسلمين وأبطالهم، ولم تكن لهم الغلبة الواضحة كغزوة بدر الكبرى، فأطمع ذلك اليهود، وجرَّأهم وغيرهم على إعلان العداء لرسول الله ﷺ والمسلمين، وإظهار الشماتة فيه، فقالوا: «**مَا مُحَمَّدٌ إلا طَالِبُ مُلْكٍ! مَا أُصِيبَ هَكَذَا نَبِيٌّ قَطُّ! أُصِيبَ فِي بَدَنِهِ، وَأُصِيبَ فِي أَصْحَابِهِ!!**»، وَجَعَلَ الْمُنَافِقُونَ يُخَذِّلُونَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَصْحَابَهُ، وَيَأْمُرُونَهُمْ بِالتَّفَرُّقِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَجَعَلَ الـمُنَافِقُونَ يَقُولُونَ لأَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ: **لَوْ كَانَ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ عِنْدَنَا مَا قُتِلَ**، حَتَّى سَمِعَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ ذَلِكَ فِي أَمَاكِنَ، فَمَشَى إِلَى رَسُولِ الله ﷺ لِيَسْتَأْذِنَهُ فِي قَتْلِ مَنْ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ مِنَ اليَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا عُمَرُ، إِنَّ اللهَ مُظْهِرٌ دِينَهُ وَمُعِزٌّ نَبِيَّهُ، وَلِلْيَهُودِ ذِمَّةٌ فَلا أَقْتُلُهُمْ**». [**المغازي للواقدي ١/ ٣١٧-٣١٨، وإمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ١٧٧**].

وزاد هؤلاء الحاقدين حقدًا ـ وفي مقدمتهم يهود بني النضير ـ ما حدث للمسلمين في ماء الرجيع وبئر معونة. [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٥٤-١٥٥**].

تاريخ الغزوة:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: اصْطَبَحَ [صَبَّحَ] نَاسٌ [أُنَاسٌ] الْخَمْرَ يَوْمَ [غَدَاةَ] أُحُدٍ، ثُمَّ قُتِلُوا شُهَدَاءَ [فَقُتِلُوا مِنْ يَوْمِهِمْ جَمِيعًا شُهَدَاءَ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا].

[**البخاري في الجهاد (٢٨١٥)، وفي المغازي (٤٠٤٤)، وفي التفسير (٤٦١٨)**].

قال ابن كثير: «تَنْبِيهٌ: ذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ وَالْبُخَارِيُّ قَبْلَهُ خَبَرَ بَنِي النَّضِيرِ قَبْلَ وَقْعَةِ أُحُدٍ، وَالصَّوَابُ إِيرَادُهَا بَعْدَ ذَلِكَ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْمَغَازِي.

وَبُرْهَانُهُ: أَنَّ الْخَمْرَ حُرِّمَتْ لَيَالِيَ حِصَارِ بَنِي النَّضِيرِ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ اصْطَبَحَ الْخَمْرَ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْخَمْرَ كَانَتْ إِذْ ذَاكَ حَلاَلًا، وَإِنَّمَا حُرِّمَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَتَبَيَّنَ مَا قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّ قِصَّةَ بَنِي النَّضِيرِ بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ. وَاللهُ أَعْلَمُ». [**السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٦**].

وقال ابن كثير: «وَحَكَى الْبُخَارِيُّ [1] عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتْ بَنُو النَّضِيرِ بَعْدَ بَدْرٍ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ قَبْلَ أُحُدٍ.

(١) البخاري في المغازي باب حديث بني النضير....معلقًا. وقال ابن حجر: «وَصَلَهُ عَبْد الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ عَنْ مَعْمَر عَنْ الزُّهْرِيِّ أَتَمَّ مِنْ هَذَا، وَلَفْظُهُ عَنْ الزُّهْرِيِّ وَهُوَ فِي حَدِيثِهِ عَنْ عُرْوَة: ثُمَّ كَانَتْ غَزْوَة بَنِي النَّضِيرِ، وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ الْيَهُود عَلَى رَأْسِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ وَقْعَة بَدْرٍ، وَكَانَتْ مَنَازِلهمْ وَنَخْلُهمْ بِنَاحِيَةِ الـمَدِينَة، حَاصَرَهُمْ رَسُول الله ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الجَلاءِ، وَعَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا أَقَلَّتْ الإِبِل مِنْ الأَمْتِعَةِ وَالأَمْوَالِ لا الحَلْقَةَ ـ يَعْنِي السِّلاحُ ـ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾، وَقَاتَلَهُمْ حَتَّى صَالَحَهُمْ عَلَى الجَلاءِ فَأَجْلاهُمْ إِلَى الشَّام، وَكَانُوا مِنْ سِبْطٍ لَمْ يُصِبْهُمْ جَلاءٌ فِيمَا خَلا، وَكَانَ اللهُ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمْ الجَلاءَ، وَلَوْلا ذَلِكَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالقَتْلِ وَالسِّبَاءِ. فتح الباري ٧/ ٣٨٤.

وَقَدْ أَسْنَدَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، عَنِ اللَّيْثِ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ بِهِ. [ذكره المصنف بهذا الإسناد معزوًّا لابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ٨٥، سورة الحشر آية ٣، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٨٧ لابن أبي حاتم وغيره].

وَهَكَذَا رَوَى حَنْبَلُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ هِلَالِ بْنِ الْعَلَاءِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ الرَّقِّيِّ، عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ مَازِنٍ الْيَمَانِيِّ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، فَذَكَرَ غَزْوَةَ بَدْرٍ فِي سَابِعَ عَشَرَ رَمَضَانَ سنة ثِنْتَيْنِ.

قَالَ: ثُمَّ غَزَا بَنِي النَّضِيرِ، ثُمَّ غَزَا أُحُدًا فِي شَوَّالٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ، ثُمَّ قَاتَلَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ.

وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ [دلائل النبوة ٣/ ٣٥٤]: وَقَدْ كَانَ الزُّهْرِيُّ يَقُولُ: هِيَ قَبْلَ أُحُدٍ.

قَالَ: وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهَا بَعْدَهَا، وَبَعْدَ بِئْرِ مَعُونَةَ أَيْضًا.

قُلْتُ: هَكَذَا ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ كَمَا تَقَدَّمَ(في مقتل كعب بن الأشرف)، فَإِنَّهُ بَعْدَ ذِكْرِهِ بِئْر مَعُونَة، وَرُجُوع عَمْرو بْن أُمَيَّةَ ﷺ، وَقَتْلَهُ ذَيْنِكَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِعَهْدِهِمَا الَّذِي مَعْهُمَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ قَتَلْتَ رَجُلَيْنِ لَأَدِيَنَّهُمَا**». [السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٤٥].

ولم يجزم الحافظ ابن حجر برأي قاطع في الأمر، رغم رجحان الدليل الصحيح عنده وعلق التسليم برأي ابن إسحاق بثبوت تعلق الغزوة بقصة العامريين القتيلين.

ويبدو أن استفاضة الروايات على ضعفها في تأييد قول ابن إسحاق هو السبب في عدم جزم الحافظ، وهو مسلك مع الروايات التاريخية يتسم بالمرونة في تطبيق قواعد مصطلح الحديث، وبمراعاة التخصص واحترام أقوال أصحاب المغازي». [السيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/ ٣٠٦].

قال ابن حجر معلقًا على رواية الزهري: «فَهَذَا أَقْوَى مِمَّا ذَكَرَ اِبْن إِسْحَاق مِنْ أَنَّ سَبَبَ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ طَلَبُهُ ﷺ أَنْ يُعِينُوهُ فِي دِيَةِ الرَّجُلَيْنِ، لَكِنْ وَافَقَ اِبْن إِسْحَاق جُلُّ أَهْلِ الْمَغَازِي، فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ سَبَبَ إِجْلَاءِ بَنِي النَّضِيرِ مَا ذُكِرَ مِنْ هَمِّهِمْ بِالْغَدْرِ بِهِ ﷺ، وَهُوَ إِنَّمَا وَقَعَ عِنْدَمَا جَاءَ إِلَيْهِمْ لِيَسْتَعِينَ بِهِمْ فِي دِيَةِ قَتِيلَيْ عَمْرو بْن أُمَيَّةَ ﷺ، تَعَيَّنَ مَا قَالَ اِبْنُ إِسْحَاقَ؛ لِأَنَّ بِئْر مَعُونَة كَانَتْ بَعْدَ أُحُدٍ بِالِاتِّفَاقِ». [فتح الباري ٧/ ٣٨٥].

ويرى المحققون من المؤرخين أن غزوة بني النضير كانت بعد أحد في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، وقد رد ابن القيم على من زعم أن غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر بقوله: «وَزَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ، أَنَّ غَزْوَةَ بَنِي النَّضِيرِ كَانَتْ بَعْدَ بَدْرٍ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَهَذَا وَهْمٌ مِنْهُ أَوْ غَلَطٌ عَلَيْهِ، بَلِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهَا كَانَتْ بَعْدَ أُحُدٍ، وَالَّتِي كَانَتْ بَعْدَ بَدْرٍ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ هِيَ غَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاعٍ، وَقُرَيْظَةُ بَعْدَ الْخَنْدَقِ،

وَخَيْبَرُ بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَكَانَ لَهُ ﷺ مَعَ الْيَهُودِ أَرْبَعُ غَزَوَاتٍ، أَوَّلُهَا: غَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاعٍ بَعْدَ بَدْرٍ، وَالثَّانِيَةُ: بَنِي النَّضِيرِ بَعْدَ أُحُدٍ، وَالثَّالِثَةُ: قُرَيْظَةُ بَعْدَ الْخَنْدَقِ، وَالرَّابِعَةُ: خَيْبَرُ بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٢٣].

وقد ذهب ابن حزم هذا المذهب قبل ابن القيم، والله أعلم. [جوامع السير ص ١٨١].

وقال ابن العربي: واختار البخاري أنها قبل أُحُد، والصحيح أنها بعد ذلك.

[أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ٢٠٦].

يقول د/ آل عابد: «والذي تطمئن إليه النفس ما ذهب إليه ابن كثير وابن القيم وغيرهما من أن غزوة بني النضير كانت بعد أُحد؛ لأن إباحة شرب الخمر في غزوة أُحد، وتحريمه خلال غزوة بني النضير يؤيد ذلك؛ ولأن الثقات من العلماء كابن كثير وابن القيم عندما رتبوا الغزوات وضعوا غزوة بني النضير بعد غزوة أُحد». [حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ١/ ٢٥٤].

أسباب الغزوة:

تذكر كتب السنة والسيرة أكثر من رواية حول الأسباب التي حملت النبي ﷺ على غزوة بني النضير وإجلائهم، وكلها تؤكد على غدر بني النضير وخيانتهم وحقدهم، وعدم وفائهم بالعهود والعقود، ومن أهمها:

١ـ نَقْض بني النضير عهودهم التي تحتم عليهم ألا يؤووا عدوًّا للمسلمين، ولم يكتفوا بهذا النقض، بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السويق [غزوة السويق كانت بعد بدر ٢هـ، وقد سبق الحديث عنها بالتفصيل في مجموعة غزوة بدر الكبرى]، التي تتلخص أحداثها في أن أبا سفيان بن حرب حاول بعد هزيمة المشركين في غزوة بدر بشهرين أن ينتقم من المسلمين،، فسار إلى المدينة في مائتي راكب حتى وصل إلى ديار بني النضير تحت جنح الظلام، فطرق باب سيدهم (سلام بن مشكم)، فاستقبله (سلام) استقبالًا حسنًا، وسقاه خمرًا، وعرَّفه أخبار المسلمين، وبعد أن تدارس معه أصلح الطرق لإيذاء المسلمين والإفلات من عقوباتهم، هجم برجاله على ناحية يُقال لها (العريض)، فأحرقوا بيتين ونخيلًا بها وقتلوا رجلًا من الأنصار، وحليفًا له في حرث لهما، ثم انكفؤوا هاربين إلى مكة، وشعر المسلمون بما حدث، فانطلقوا في أثرهم، وأحس أبو سفيان، ومن معه بالطلب، فأسرعوا في الهرب، وألقوا الزاد الذي معهم ـ وكان أغلبه من السويق ـ لكي لا يثقلهم في فرارهم، وعاد المسلمون إلى المدينة بعد أن أمعن أبو سفيان ومن معه في الفرار. [بنو إسرائيل في القرآن والسنة لطنطاوي ٢٧٨-٢٧٩].

وأيضًا مَا ذَكَرَهُ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي المَغَازِي قَالَ: كَانَتْ النَّضِيرُ قَدْ دَسُّوا إِلَى قُرَيْشٍ وَحَضُّوهُمْ عَلَى قِتَال رَسُول الله ﷺ، وَدَلُّوهُمْ عَلَى العَوْرَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوًا مِمَّا سَيَأْتِي عَنِ ابْنِ إِسْحَاق مِنْ مَجِيء النَّبِيِّ ﷺ فِي قِصَّةِ الرَّجُلَيْنِ. [**فتح الباري لابن حجر ٧/ ٣٨٦**].

٢ ـ رفض يهود بني النضير في غزوة أحد أن يعينوا المسلمين بسلاحهم، أو بأموالهم، قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: أَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شُرَيْحٍ أَنَّهُ سَمِعَ الحَارِثَ بْنَ يَزِيدَ الحَضْرَمِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الحَارِثِ الأَنْصَارِيِّ عَنْ بَعْضِ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: لَـمَّا بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ جَمْعُ أَبِي سُفْيَانَ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَانْطَلَقَ إِلَى اليَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّضِيرِ فَوَجَدَ مِنْهُمْ نَفَرًا عِنْدَ مَنْزِلِهِمْ، فَرَحَّبُوا، فَقَالَ: **إِنَّا جِئْنَاكُمْ لِـخَيْرٍ، إِنَّا أَهْلُ الكِتَابِ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ الكِتَابِ، وَإِنَّ لِأَهْلِ الكِتَابِ عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ النَّصْرَ، وَإِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْنَا بِجَمْعٍ مِنْ النَّاسِ، فَإِمَّا قَاتَلْتُمْ مَعَنَا أَوْ أَعَرْتُمُونَا سِلَاحًا**. [**تحفة الأخيار بترتيب مشكل الآثار للطحاوي ٥/ ٤٦٠-٤٦١، وقال المحقق: رجاله ثقات**].

وقبل المعركة أخذوا يصرفون الناس عن الخروج فقالوا لابن أُبي: «**إنك قد نصحتَ محمدًا ﷺ بعدم الخروج، وأشرت عليه برأي من مضى من آبائك، فكان رأيه مع رأيك، ثم أبى أن يقبله، وأطاع الغلمان الذين معه**»، وصادف حديثهم هوى في نفسه، فانخذل عن الاشتراك في غزوة أحد.

٣ ـ رأى النبي ﷺ بحسن سياسته أن مبدأ الوقاية الذي استخدمه ضد القبائل المشركة الغادرة بعد أُحد، يجب أن يطبق ـ أيضًا ـ على بني النضير بعد أن آذوا المسلمين بأقوالهم وأعمالهم، وإلا فستتعرض المدينة للفتن الداخلية، ويتعرض سلطان المسلمين فيها للضعف والاضطراب.

٤ ـ شعر النبي ﷺ أن بني النضير يتربصون به الدوائر، بعد نكبة الرجيع وبئر معونة، وأن هذه النكبة ذكرتهم بانتصار قريش في أحد، وأنستهم فوز المسلمين في بدر وغيرها، فأراد الرسول ﷺ أن يستدرجهم؛ لتتضح له نياتهم، فذهب إليهم في عدد من الصحابة لكي يطلب معاونتهم في دية القتيلين اللذين قتلهما (عمرو بن أمية ﷺ) خطأً غداة مرجعه من بئر معونة. [**بنو إسرائيل لطنطاوي ٢٧٩**].

٥ ـ محاولة اغتيال النبي ﷺ: وقد تعددت هذه المحاولات من اليهود، منها ما جاء في سنن أبي داود عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَتَبُوا إِلَى ابْنِ أُبَيٍّ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مَعَهُ الأَوْثَانَ مِنْ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ بِالمَدِينَةِ، قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ: «**إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا، وَإِنَّا نُقْسِمُ بِالله لَتُقَاتِلُنَّهُ، أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ، أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ، وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ**».

فَلَـمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ اجْتَمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَـمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَهُمْ، فَقَالَ ﷺ: «**لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمُ المَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ، تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ**».

فَلَـمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ تَفَرَّقُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَكَتَبَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ إِلَى اليَهُودِ: «**إِنَّكُمْ أَهْلُ الحَلقَةِ (السلاح) وَالحُصُونِ وَإِنَّكُمْ لَتُقَاتِلُنَّ صَاحِبَنَا أَوْ لَنَفْعَلَنَّ كَذَا وَكَذَا، وَلا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَدَمِ نِسَائِكُمْ شَيْءٌ ـ وَهِيَ الخَلاخِيلُ ـ**»، فَلَـمَّا بَلَغَ كِتَابُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ أَجْمَعَتْ بَنُو النَّضِيرِ بِالغَدْرِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ: **اخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلاثِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ، وَلْيَخْرُجْ مِنَّا ثَلاثُونَ حَبْرًا حَتَّى نَلْتَقِيَ بِمَكَانِ المَنْصَفِ فَيَسْمَعُوا مِنْكَ، فَإِنْ صَدَّقُوكَ وَآمَنُوا بِكَ آمَنَّا بِكَ**، فَقَصَّ خَبَرَهُمْ.

فَلَـمَّا كَانَ الغَدُ غَدَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ بِالكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: **إِنَّكُمْ وَالله لا تَأْمَنُونَ عِنْدِي إِلَّا بِعَهْدٍ تُعَاهِدُونِي عَلَيْهِ**، فَأَبَوْا أَنْ يُعْطُوهُ عَهْدًا، فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ غَدَا الغَدُ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ بِالكَتَائِبِ وَتَرَكَ بَنِي النَّضِيرِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يُعَاهِدُوهُ فَعَاهَدُوهُ، فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ، وَغَدَا عَلَى بَنِي النَّضِيرِ بِالكَتَائِبِ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الجَلاءِ، فَجَلَتْ بَنُو النَّضِيرِ، وَاحْتَمَلُوا مَا أَقَلَّتْ الإِبِلُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ وَأَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ وَخَشَبِهَا، فَكَانَ نَخْلُ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهَا وَخَصَّهُ بِهَا، فَقَالَ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[الحشر: ٦].

يَقُولُ: بِغَيْرِ قِتَالٍ، فَأَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَهَا لِلمُهَاجِرِينَ وَقَسَمَهَا بَيْنَهُمْ، وَقَسَمَ مِنْهَا لِرَجُلَيْنِ مِنْ الأَنْصَارِ، وَكَانَا ذَوِي حَاجَةٍ، لَمْ يَقْسِمْ لأَحَدٍ مِنْ الأَنْصَارِ غَيْرِهِمَا، وَبَقِيَ مِنْهَا صَدَقَةُ رَسُولِ الله ﷺ الَّتِي فِي أَيْدِي بَنِي فَاطِمَةَ رضي الله عنها». [أبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٠٤)، وصححه الشيخ الألباني، والبيهقي في الدلائل ٣/ ١٧٨ - ١٧٩، وعبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٥٨-٣٥٨٩ رقم ٩٧٣٣، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر].

وَرَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْه قِصَّةَ بَنِي النَّضِيرِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ إِلَى مَعْمَرَ عَنْ الزُّهْرِيِّ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كَتَبَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى عَبْدِ الله بْن أُبَيٍّ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ قَبْلَ بَدْرٍ يُهَدِّدُونَهُمْ بِإِيوَائِهِمْ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ أَنْ يَغْزُوهُمْ بِجَمِيعِ العَرَبِ، فَهَمَّ ابْنُ أُبَيٍّ وَمَنْ مَعَهُ بِقِتَالِ المُسْلِمِينَ، فَأَتَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا كَادَكُمْ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا كَادَتْكُمْ قُرَيْشٌ، يُرِيدُونَ أَنْ تُلْقُوا بَأْسَكُمْ بَيْنَكُمْ**»، فَلَـمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ عَرَفُوا الحَقَّ فَتَفَرَّقُوا.

فَلَـمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ كَتَبَتْ كُفَّارُ قُرَيْش بَعْدهَا إِلَى اليَهُود: **إِنَّكُمْ أَهْلُ الحَلقَةِ وَالحُصُونِ، يَتَهَدَّدُونَهُمْ**، فَأَجْمَعَ بَنُو النَّضِيرِ عَلَى الغَدْرِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: **اُخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِكَ وَيَلقَاكَ ثَلاثَةٌ مِنْ**

عُلَمَائِنَا، فَإِنْ آمَنُوا بِكَ اتَّبَعْنَاكَ، ففعَلَ ﷺ، فاشْتَمَلَ اليَهُودُ الثَّلَاثَةُ عَلَى الخَنَاجِرِ، فَأَرْسَلَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى أَخٍ لَهَا مِنْ الأَنْصَارِ مُسْلِمٍ تُخْبِرُهُ بِأَمْرِ بَنِي النَّضِيرِ، فَأَخْبَرَ أَخُوهَا النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمْ، فَرَجَعَ، وَصَبَّحَهُمْ بِالكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ يَوْمَهُ، ثُمَّ غَدَا عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَحَاصَرَهُمْ، فَعَاهَدُوهُ فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الجَلَاءِ، وَعَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا أَقَلَّتْ الإِبِلُ إِلَّا السِّلَاحَ، فَاحْتَمَلُوا حَتَّى أَبْوَابَ بُيُوتِهِمْ، فَكَانُوا يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ فَيَهْدِمُونَهَا، وَيَحْمِلُونَ مَا يُوَافِقُهُمْ مِنْ خَشَبِهَا، وَكَانَ جَلَاؤُهُمْ ذَلِكَ أَوَّلَ حَشْرِ النَّاسِ إِلَى الشَّامِ.

وَكَذَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ بْن حُمَيْدٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ». [فتح الباري ٧/ ٣٨٥].

وعن محاولة أخرى قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ القَتِيلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ اللَّذَيْنِ قتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، لِلجِوَارِ الَّذِي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ عَقَدَ لَهُمَا، وَكَانَ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَيْنَ بَنِي عَامِرٍ عَقْدٌ وَحِلْفٌ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ القَتِيلَيْنِ قَالُوا: **نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ نُعِينُكَ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ، مِمَّا اسْتَعَنْتَ بِنَا عَلَيْهِ**، ثُمَّ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: **إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ ـ وَرَسُولُ الله ﷺ إِلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ قَاعِدٌ ـ فَمَنْ رَجُلٌ يَعْلُو عَلَى هَذَا البَيْتِ فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحَنَا مِنْهُ؟**، فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشِ بْنِ كَعْبٍ ـ أَحَدُهُمْ ـ فَقَالَ: **أَنَا لِذَلِكَ**، فَصَعِدَ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ صَخْرَةً كَمَا قَالَ، وَرَسُولُ الله ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ، رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٠، المغازي للواقدي١/ ٣٦٣-٣٦٤].

وَفِي رِوَايَةٍ: «فَقَالَ حَيِيُّ بنُ أَخْطَبَ: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ جَاءَكُمْ مُحَمَّدٌ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لَا يَبْلُغُونَ عَشْرَةً** ـ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَالزُّبَيْرُ، وَطَلْحَةُ، وَسَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، وَأُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ، وَسَعْدُ بنُ عُبَادَةَ ـ **فَاطْرَحُوا عَلَيْهِ حِجَارَةً مِنْ فَوْقِ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ تَحْتَهُ فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَجِدُوهُ أَخْلَى مِنْهُ السَّاعَةَ، فَإِنَّهُ إِنْ قُتِلَ تَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، فَلَحِقَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ بِحَرَمِهِمْ، وَبَقِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، فَمَا كُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصْنَعُوا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ فَمِنَ الآنَ**».[سبل الهدى للصالحي ٤/ ٤٥٢-٤٥٣].

انْكِشَافُ نِيَّتِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ وَاسْتِعْدَادُهُ لِحَرْبِهِمْ:

فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ الخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا أَرَادَ القَوْمُ، فَقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى المَدِينَةِ، فَلَمَّا اسْتَلْبَثَ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابُهُ (أي استأخره أصحابه) قَامُوا فِي طَلَبِهِ، فَلَقُوا رَجُلًا مُقْبِلًا مِنَ المَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ: «**رَأَيْتُهُ دَاخِلًا المَدِينَةَ**»، فَأَقْبَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُمُ الخَبَرَ، بِمَا كَانَتْ اليَهُودُ أَرَادَتْ مِنَ الغَدْرِ بِهِ، وَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالتَّهَيُّؤِ لِحَرْبِهِمْ وَالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٠، المغازي للواقدي١/ ٣٦٣-٣٦٤].

وزاد الواقدي: «قَالَ سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ: يَا قَوْمِ أَطِيعُونِي هَذِهِ المَرَّةَ، وَخَالِفُونِي الدَّهْرَ، وَاللهِ إِنْ فَعَلْتُمْ لَيُخْبَرَنَّ بِأَنَّا قَدْ غَدَرْنَا بِهِ، وَإِنَّ هَذَا نَقْضُ العَهْدِ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَلا تَفْعَلُوا، أَلا فَوَاللهِ لَوْ فَعَلْتُمْ الَّذِي تُرِيدُونَ لَيَقُومَنَّ بِهَذَا الدِّينِ مِنْهُمْ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ يَسْتَأْصِلُ اليَهُودَ وَيُظْهِرُ دِينَهُ».

[المغازي للواقدي١/ ٣٦٥].

وَأخرج عبد بن حميد: عَن عِكْرِمَة أَن رَسُولَ الله ﷺ غَدَا يَوْمًا إِلَى النَّضِير لِيَسْأَلَهُمْ كَيفَ الدِّيَةُ فِيهِمْ، فَلَمَّا لَمْ يرَوْا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ كَثِيرَ أحدٍ أَبْرَمُوا بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوهُ، وَيَأْخُذُوا أَصْحَابَهُ أُسَارَى لِيَذْهَبُوا بِهِمْ إِلَى مَكَّةَ وَيَبِيعُوهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ.

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ جَاءَ مِنْ الْيَهُودِ مِنْ المَدِينَةِ، فَلَمَّا رَأَى أَصْحَابَهُ يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِ النَّبِي ﷺ قَالَ لَهُمْ: مَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَن نَقْتُلَ مُحَمَّدًا وَنَأْخُذَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: وَأَيْنَ مُحَمَّدٌ؟ قَالُوا: هَذَا مُحَمَّدٌ قَرِيبٌ، فَقَالَ لَهُمْ صَاحِبُهُمْ: وَالله لَقَدْ تَرَكْتُ مُحَمَّدًا دَاخِلَ المَدِينَةِ، فَأُسْقِطَ بِأَيْدِيهِمْ.

[الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٨/ ٩٥-٩٦، سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٥٣].

وحين تيقن اليهود بنجاة الرسول ﷺ: «قَالَ لَهُمْ كِنَانَةُ بْنُ صُوَيْرَاءَ: هَلْ تَدْرُونَ لِمَ قَامَ مُحَمَّدٌ؟ قَالُوا: لا وَاللهِ مَا نَدْرِي، وَمَا تَدْرِي أَنْتَ! قَالَ: بَلَى وَالتَّوْرَاةِ، إِنِّي لأَدْرِي، قَدْ أُخْبِرَ مُحَمَّدٌ مَا هَمَمْتُمْ بِهِ مِنْ الغَدْرِ، فَلا تَخْدَعُوا أَنْفُسَكُمْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ، وَمَا قَامَ إِلَّا أَنَّهُ أُخْبِرَ بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ، وَإِنَّهُ لآخِرُ الأَنْبِيَاءِ، كُنْتُمْ تَطْمَعُونَ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَنِي هَارُونَ، فَجَعَلَهُ اللهُ حَيْثُ شَاءَ، وَإِنَّ كُتُبَنَا وَالَّذِي دَرَسْنَا فِي التَّوْرَاةِ التِي لَمْ تُغَيَّرْ، وَلَمْ تُبَدَّلْ إِنَّ مَوْلِدَهُ بِمَكَّةَ، وَدَارَ هِجْرَتِهِ يَثْرِبُ، وَصِفَتُهُ بِعَيْنِهَا مَا تُخَالِفُ حَرْفًا مِمَّا فِي كِتَابِنَا، وَمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَوْلَى مِنْ مُحَارَبَتِهِ إِيَّاكُمْ، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ ظَاعِنِينَ (راحلين) يَتَضَاغَى (يتباكى ويتصايح) صِبْيَانُكُمْ، قَدْ تَرَكْتُمْ دُورَكُمْ خُلُوفًا (أي: غُيبًا لم يبق منهم أحد) وَأَمْوَالَكُمْ، وَإِنَّمَا هِيَ شَرَفُكُمْ، فَأَطِيعُونِي فِي خُصْلَتَيْنِ وَالثَّالِثَةُ لا خَيْرَ فِيهَا، قَالُوا: مَا هُمَا؟ قَالَ: تُسْلِمُونَ وَتَدْخُلُونَ مَعَ مُحَمَّدٍ، فَتَأْمَنُونَ عَلَى أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ، وَتَكُونُونَ مِنْ عِلِيَةِ أَصْحَابِهِ (أشرافهم)، وَتَبْقَى بِأَيْدِيكُمْ أَمْوَالُكُمْ، وَلا تُخْرَجُونَ مِنْ دِيَارِكُمْ، قَالُوا: لا نُفَارِقُ التَّوْرَاةَ وَعَهْدَ مُوسَى، قَالَ: فَإِنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَيْكُمْ اُخْرُجُوا مِنْ بَلَدِي، فَقُولُوا: نَعَمْ، فَإِنَّهُ لا يَسْتَحِلُّ لَكُمْ دَمًا وَلا مَالًا، وَتَبْقَى أَمْوَالُكُمْ إِنْ شِئْتُمْ بِعْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَمْسَكْتُمْ.

قَالُوا: أَمَّا هَذَا فَنَعَمْ، قَالَ: أَمَا وَاللهِ إِنَّ الأُخْرَى خَيْرُهُنَّ لِي، قَالَ: أَمَا وَاللهِ لَوْلا أَنِّي أَفْضَحُكُمْ لأَسْلَمْتُ، وَلَكِنْ وَاللهِ لا تُعَيَّرُ شَعْثَاءُ بِإِسْلامِي أَبَدًا حَتَّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكُمْ ـ وَابْنَتُهُ شَعْثَاءُ التِي كَانَ حَسَّانُ ﷺ يَنْسِبُ [يُشَبِّبُ] بِهَا.

فَقَالَ سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ: **قَدْ كُنْتُ لِمَا صَنَعْتُمْ كَارِهًا، وَهُوَ مُرْسِلٌ إِلَيْنَا أَنْ أُخْرُجُوا مِنْ دَارِي، فَلا تُعَقِّبْ يَا حُيَيُّ كَلامَهُ، وَأَنْعِمْ لَهُ** (قال له نعم) **بِالْخُرُوجِ فَاخْرُجْ مِنْ بِلادِهِ**، قَالَ: **أَفْعَلُ، أَنَا أَخْرُجُ!**».

[المغازي للواقدي١/ ٣٦٥-٣٦٦].

لم تكن مؤامرة بني النضير، التي أفشلها الله ﷻ تستهدف شخص النبي ﷺ فحسب، بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة والدعوة الإسلامية برمتها؛ لذا صمم محمد ﷺ على محاربة بني النضير، الذين نقضوا العهد والمواثيق معه، وأمر أصحابه بالتهيؤ لقتالهم والسير إليهم.

[ينظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة ص١٩٠].

وقد ذكَّر القرآن الكريم المؤمنين بهذه النعمة الجليلة وكيف نجى الله نبيه ﷺ من مكر يهود بني النضير، قَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي المَغَازِي: وَفِي ذَلِكَ نَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [المائدة]. [فتح الباري ٧/ ٣٨٦].

وقد أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها: أخرج الطبري عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ، قَالَ: جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ بَنِي النَّضِيرَ يَسْتَعِينُهُمْ فِي عَقْلٍ أَصَابَهُ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ ﭫ، فَقَالَ: «**أَعِينُونِي فِي عَقْلٍ أَصَابَنِي**»، فَقَالُوا: **نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَأْتِيَنَا وَتَسْأَلَنَا حَاجَةً، اجْلِسْ حَتَّى نُطْعِمَكَ وَنُعْطِيَكَ الَّذِي تَسْأَلُنَا**، فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَنْتَظِرُونَهُ، وَجَاءَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَهُوَ رَأْسُ الْقَوْمِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ مَا قَالَ، فَقَالَ حُيَيٌّ لأَصْحَابِهِ: **لَا تَرَوْنَهُ أَقْرَبَ مِنْهُ الْآنَ، اطْرَحُوا عَلَيْهِ حِجَارَةً فَاقْتُلُوهُ وَلَا تَرَوْنَ شَرًّا أَبَدًا**، فَجَاؤُوا إِلَى رَحًى لَهُمْ عَظِيمَةٍ لِيَطْرَحُوهَا عَلَيْهِ، فَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهَا أَيْدِيَهُمْ، حَتَّى جَاءَهُ جِبْرِيلُ ﵇ فَأَقَامَهُ مِنْ ثَمَّ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [المائدة]، فَأَخْبَرَ اللهُ ـ عَزَّ ذِكْرُهُ ـ نَبِيَّهُ ﷺ مَا أَرَادُوا بِهِ. [تفسير الطبري ٨/ ٢٢٩].

وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسارٍ، وَمُجَاهِدٌ وعكرِمَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ [(١)]: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ بَنِي النَّضِيرِ، حِينَ أَرَادُوا أَنْ يُلْقُوا عَلَى رَأْسِ رَسُولِ الله ﷺ الرَّحَى، لَـمَّا جَاءَهُمْ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ العامريين، وَوَكَّلُوا عَمْرَو بْنَ جَحَّاشِ بْنِ كَعْبٍ بِذَلِكَ، وَأَمَرُوهُ إِنْ جَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَ الْجِدَارِ وَاجْتَمَعُوا عِنْدَهُ أَنْ يُلْقِيَ تِلْكَ الرَّحَى مِنْ فَوْقِهِ، فَأَطْلَعَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ عَلَى مَا تَمَالَؤُوا عَلَيْهِ، فَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الآيَةَ. [تفسير ابن كثير ٥/ ١٢٩].

---

(١) يقول د/ العمري: «هذه الآثار فيها ضعف ويمكن أن تعتضد لتصبح بمجموعها صالحة للاحتجاج بها». السيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/ ٣٠٦.

وقد رجَّح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النضير من كيد وسوء للنبي ﷺ وأصحابه فقال: «وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصِّحَّةِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: عَنَى اللهُ بِالنِّعْمَةِ الَّتِي ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نِعْمَتَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ فِي اسْتِنْقَاذِهِ نَبِيَّهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ، مِمَّا كَانَتْ يَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ هَمَّتْ بِهِ مِنْ قَتْلِهِ وَقَتْلِ مَنْ مَعَهُ، يَوْمَ سَارَ إِلَيْهِمْ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فِي الدِّيَةِ الَّتِي كَانَ تَحَمَّلَهَا عَنْ قَتِيلَيْ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ ﷺ.

وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلَى بِالصِّحَّةِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ عَقِبَ ذِكْرِ ذَلِكَ بِرَمْيِ الْيَهُودِ بِصَنَائِعِهَا وَقَبِيحِ أَفْعَالِهَا وَخِيَانَتِهَا رَبَّهَا وَأَنْبِيَاءَهَا». [تفسير الطبري ٨/ ٢٣٣].

وقال د/ آل عابد: «ونحن نوافق ابن جرير في ترجيحه لما رجحه، إلا أننا لا نمنع أن تكون الآية الكريمة نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعة، فقد تعددت الحوادث والمنزل واحد، كما قال العلماء.

ومعنى الآية الكريمة: أي اذكروا نعمة الله عليكم، التي من أكبر مظاهرها كفه عنكم أيدي اليهود الذين هموا أن يمدوا أيديهم بالسوء إلى نبيكم، وشارفوا أن ينفذوا مؤامرتهم الخبيثة، ولكن الله أحبط مكرهم ونجى نبيكم ﷺ من شرورهم.

ثم أمر ـ سبحانه ـ بتقواه والتوكل عليه فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: اتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ في رعاية حقوق نعمته، ولا تخلوا بشكرها، فقد أراكم قدرته، وتوكلوا عليه وحده، فقد أراكم عنايته بكم، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون».

[حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ١/ ٢٥١، ٢٥٢].

إنذار اليهود بالجلاء عن المدينة:

وقد اعتبر النبي ﷺ ما اعتزم اليهود القيام به من الفتك به غدرًا في ديارهم نقضًا للعهد الذي بينه وبينهم فقرر إجلاءهم من منطقة يثرب اتقاء لشرهم وتخلصًا من مؤامراتهم ودسائسهم.

فقد وجه إليهم إنذارًا بالجلاء عن المدينة، وقد حمل هذا الإنذار إليهم مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الأنصاري ﷺ الذي استدعاه النبي ﷺ وقال له: «**اذْهَبْ إِلَى يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ، فَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ أَنْ اُخْرُجُوا مِنْ بَلَدِهِ، فَلا تُسَاكِنُونِي بِهَا وَقَدْ هَمَمْتُمْ بِما هَمَمْتُمْ بِهِ مِنَ الْغَدْرِ بِي، وَقَدْ أَجَّلْتُكُمْ عَشْرًا، فَمَنْ رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ**». [المغازي للواقدي ١/ ٣٦٦، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٥٤].

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ قَالَ: **إِنَّ رَسُولَ اللهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ بِرِسَالَةٍ، وَلَسْتُ أَذْكُرُهَا لَكُمْ حَتَّى أُعَرِّفَكُمْ شَيْئًا تَعْرِفُونَهُ.**

قَالَ: **أَنْشُدُكُمْ بِالتَّوْرَاةِ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي جِئْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَبَيْنَكُمْ التَّوْرَاةُ، فَقُلْتُمْ لِي فِي مَجْلِسِكُمْ هَذَا: يَا ابْنَ مَسْلَمَةَ أَنْ شِئْتَ أَنْ نُغَدِّيَكَ غَدَّيْنَاكَ، وَإِنْ شِئْتَ أنْ نُهَوِّدَكَ هَوَّدْنَاكَ، فَقُلْتُ لَكُمْ: غَدُّونِي وَلا تُهَوِّدُونِي، فَإِنِّي وَاللهِ لا أَتَهَوَّدُ أَبَدًا، فَغَدَّيْتُمُونِي فِي صَحْفَةٍ** (إناء من آنية الطعام، والجمع صِحَاف) **لَكُمْ، وَاللهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهَا كَأَنَّهَا جَزْعَةٌ** (الْقَلِيل من الشَّيْء)، **فَقُلْتُمْ لِي: مَا يَمْنَعُكَ مِنْ دِينِنَا إِلَّا أَنَّهُ دِينُ يَهُودَ، كَأَنَّكَ تُرِيدُ الحَنِيفِيَّةَ التِي سَمِعْتَ بِهَا، أَمَا إِنَّ أَبَا عَامِرٍ قَدْ سَخِطَهَا وَلَيْسَ عَلَيْهَا، أَتَاكُمْ صَاحِبُهَا الضَّحُوكُ القَتَّالُ، فِي عَيْنَيْهِ حُمْرَةٌ، يَأْتِي مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ، يَرْكَبُ البَعِيرَ، وَيَلْبَسُ الشَّمْلَةَ، وَيَجْتَزِئُ** (يكتفي) **بِالكِسْرَةِ، سَيْفُهُ عَلَى عَاتِقِهِ** (أي: يجعله بعلاقته عليه، لا كما يفعل الترك وغيرهم)، **لَيْسَتْ مَعَهُ آيَةٌ هُوَ يَنْطِقُ بِالحِكْمَةِ، كَأَنَّهُ وَشِيجَتُكُمْ** (الوشيجة: الرحم المشتبكة) **هَذِهِ، وَاللهِ لَيَكُونَنَّ بِقَرْيَتِكُمْ هَذِهِ سَلَبٌ وَقَتْلٌ وَمَثْلٌ**.

قَالُوا: **اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَدْ قُلْنَاهُ لَك، وَلَكِنْ لَيْسَ بِهِ**.

قَالَ: **قَدْ فَرَغْتُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ يَقُولُ لَكُمْ: قَدْ نَقَضْتُمْ العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتُ لَكُمْ بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ مِنْ الغَدْرِ بِي**، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا كَانُوا ارْتَأَوْا مِنْ الرَّأْيِ، وَظُهُورِ عَمْرِو بْنِ جَحَّاشٍ عَلَى البَيْتِ يَطْرَحُ الصَّخْرَةَ، فَأَسْكَتُوا، فَلَمْ يَقُولُوا حَرْفًا.

وَيَقُولُ: **أُخْرُجُوا مِنْ بَلَدِي، فَقَدْ أَجَّلْتُكُمْ عَشْرًا فَمَنْ رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ**.

قَالُوا: **يَا مُحَمَّدُ مَا كُنَّا نَرَى أَنْ يَأْتِيَ بِهَذَا رَجُلٌ مِنَ الأَوْسِ**.

قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ: **تَغَيَّرَتِ القُلُوبُ، وَمَحَا الإِسْلامُ العُهُودَ**.

فَمَكَثُوا عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا يَتَجَهَّزُونَ، وَأَرْسَلُوا إِلَى ظَهْرٍ لَهُمْ بِذِي الجَدْرِ تُجْلَبُ، وَتَكَارَوْا مِنْ نَاسٍ مِنْ أَشْجَعَ إِبِلًا، وَأَخَذُوا فِي الجَهَازِ. [المغازي للواقدي ١/ ٣٦٦-٣٦٧].

لقد أسقط في أيدي اليهود، ولم يرو التاريخ أنهم تنصلوا من مسؤولية ما هموا به من الغدر بالنبي ﷺ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي المَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ**»، فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمِدْرَاسِ (هو البيت الذي يدرسون فيه)، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَنَادَاهُمْ: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**»، فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَلِكَ أُرِيدُ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**»، قَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «**ذَاكُمْ أُرِيدُ**»، ثُمَّ قَالَهَا الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «**اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ للهِ وَلِرَسُولِهِ، وَإِنِّي أُرِيدُ إِخْرَاجَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ، وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ للهِ وَرَسُولِهِ**».

[البخاري في الجزية (٣١٦٧)، وفي الإكراه (٦٩٤٤)، وفي الاعتصام بالكتاب (٧٣٤٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٥)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٠٣)، ومسند أحمد ١٥/ ٥١٢ رقم ٩٨٢٦].

وعود المنافقين ورفض اليهود للإنذار:

ولقد انهار اليهود أمام هذا الإنذار الشديد فلم يروا بُدًّا من الرحيل فأخذوا يتجهزون لذلك، فأرسلوا إلى ظهر لهم (ناقلات من الإبل) في مسارحها، واستأجروا إبلًا من قبيلة أشجع استعدادًا لمغادرة المدينة تحت وطأة الإنذار الشديد الذي تلقوه من القائد الأعلى النبي ﷺ.

ولكن زعماء النفاق في المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي، أرسلوا إلى هؤلاء اليهود يشجعونهم على البقاء، ويطلبون منهم رفض الإنذار النبوي والاستعداد لحرب المسلمين إذا ما أصروا على إجلائهم بالقوة، وأكد لهم هؤلاء المنافقون مساندتهم عسكريًّا إذا ما شن المسلمون عليهم الحرب.

قال الواقدي: «فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولُ ابْنِ أُبَيٍّ، أَتَاهُمْ سُوَيْدٌ وَدَاعِسٌ، فَقَالا: يَقُولُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: **لا تَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَأَقِيمُوا فِي حُصُونِكُمْ، فَإِنَّ مَعِي أَلْفَيْنِ مِنْ قَوْمِي وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ، يَدْخُلُونَ مَعَكُمْ حِصْنَكُمْ، فَيَمُوتُونَ مِنْ آخِرِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُوصَلَ إِلَيْكُمْ، وَتَمُدُّكُمْ قُرَيْظَةُ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَخْذُلُوكُمْ، وَيَمُدُّكُمْ حُلَفَاؤُكُمْ مِنْ غَطَفَانَ.**

وَأَرْسَلَ ابْنُ أُبَيٍّ إِلَى كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ يُكَلِّمُهُ أَنْ يَمُدَّ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: **لا يَنْقُضُ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ رَجُلٌ وَاحِدٌ الْعَهْدَ.**

فَيَئِسَ ابْنُ أُبَيٍّ مِنْ قُرَيْظَةَ، وَأَرَادَ أَنْ يُلْحِمَ الأَمْرَ (يجعله يشتد) فِيمَا بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَزَلْ يُرْسِلُ إِلَى حُيَيٍّ حَتَّى قَالَ حُيَيٌّ: **أَنَا أُرْسِلُ إِلَى مُحَمَّدٍ أُعْلِمُهُ أَنَّا لا نَخْرُجُ مِنْ دَارِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَلْيَصْنَعْ مَا بَدَا لَهُ.**

وَطَمِعَ حُيَيٌّ فِيمَا قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ، وَقَالَ حُيَيٌّ: **نَرُمُّ** (نصلح) **حُصُونَنَا، ثُمَّ نُدْخِلُ مَاشِيَتَنَا، وَنُدْرِبُ** (ندخل الدرب) **أَزِقَّتَنَا، وَنَنْقُلُ الْحِجَارَةَ إِلَى حُصُونِنَا، وَعِنْدَنَا مِنَ الطَّعَامِ مَا يَكْفِينَا سَنَةً، وَمَاؤُنَا وَاتِنٌ** (إذا دام ولم ينقطع) **فِي حُصُونِنَا لا نَخَافُ قَطْعَهُ، فَتَرَى مُحَمَّدًا يَحْصُرُنَا سَنَةً؟ لا نَرَى هَذَا.**

قَالَ سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ: **مَنَّتْكَ نَفْسُكَ وَاللهِ يَا حُيَيُّ الْبَاطِلَ، إِنِّي وَاللهِ لَوْلا أَنْ يُسَفَّهَ رَأْيُكَ، أَوْ يُزْرَى بِكَ لاعْتَزَلْتُكَ بِمَنْ أَطَاعَنِي مِنَ الْيَهُودِ، فلا تَفْعَلْ يَا حُيَيُّ، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ، وَنَعْلَمُ مَعَكَ أَنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ، وَإِنَّ صِفَتَهُ عِنْدَنَا، فَإِنْ لَمْ نَتَّبِعْهُ وَحَسَدْنَاهُ حَيْثُ خَرَجَتِ النُّبُوَّةُ مِنْ بَنِي هَارُونَ، فَتَعَالَ فَنَقْبَلَ مَا أَعْطَانَا مِنَ الأَمْنِ وَنَخْرُجَ مِنْ بِلادِهِ، فَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّكَ خَالَفْتَنِي فِي الْغَدْرِ بِهِ، فَإِذَا كَانَ أَوَانُ الثَّمَرِ جِئْنَا أَوْ جَاءَ مَنْ جَاءَ مِنَّا إِلَى ثَمَرِهِ فَبَاعَ أَوْ صَنَعَ مَا بَدَا لَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَكَأَنَّا لَمْ نَخْرُجْ مِنْ بِلادِنَا إِذَا كَانَتْ أَمْوَالُنَا بِأَيْدِينَا؛ إِنَّا إِنَّمَا شَرُفْنَا عَلَى قَوْمِنَا بِأَمْوَالِنَا وَفِعَالِنَا، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَمْوَالُنَا مِنْ أَيْدِينَا كُنَّا كَغَيْرِنَا مِنَ الْيَهُودِ فِي الذِّلَّةِ وَالإِعْدَامِ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا إِنْ سَارَ إِلَيْنَا فَحَصَرَنَا فِي هَذِهِ الصَّيَاصِي يَوْمًا وَاحِدًا، ثُمَّ عَرَضْنَا عَلَيْهِ مَا أَرْسَلَ بِهِ إِلَيْنَا، لَمْ يَقْبَلْهُ وَأَبَى عَلَيْنَا.**

قَالَ حُيَيٌّ: **إِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَحْصُرُنَا إِلَّا إِنْ أَصَابَ مِنَّا نُهْزَةً** (الفرصة، وهي النوبة)، **وَإِلا انْصَرَفَ، وَقَدْ وَعَدَنِي ابْنُ أُبَيٍّ مَا قَدْ رَأَيْتَ.**

فَقَالَ سَلَّامٌ: **لَيْسَ قَوْلُ ابْنِ أُبَيٍّ بِشَيْءٍ، إِنَّمَا يُرِيدُ ابْنُ أُبَيٍّ أَنْ يُوَرِّطَكَ** (الوَرْطة: الهلاك والأمر الشاق) **فِي الهَلَكَةِ حَتَّى تُحَارِبَ مُحَمَّدًا، ثُمَّ يَجْلِسُ فِي بَيْتِهِ وَيَتْرُكُكَ، قَدْ أَرَادَ مِنْ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ النَّصْرَ فَأَبَى كَعْبٌ**، وَقَالَ: **لا يَنْقُضُ العَهْدَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَأَنَا حَيٌّ، وَإِلَّا فَإِنَّ ابْنَ أُبَيٍّ قَدْ وَعَدَ حُلَفَاءَهُ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ مِثْلَ مَا وَعَدَكَ حَتَّى حَارَبُوا وَنَقَضُوا العَهْدَ وَحَصَرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي صَيَاصِيهِمْ، وَانْتَظَرُوا نُصْرَةَ ابْنِ أُبَيٍّ، فَجَلَسَ فِي بَيْتِهِ، وَسَارَ مُحَمَّدٌ إِلَيْهِمْ فَحَصَرَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَابْنُ أُبَيٍّ لا يَنْصُرُ حُلَفَاءَهُ، وَمَنْ كَانَ يَمْنَعُهُ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَنَحْنُ لَمْ نَزَلْ نَضْرِبُهُ بِسُيُوفِنَا مَعَ الأَوْسِ فِي حَرْبِهِمْ كُلِّهَا، إِلَى أَنْ تَقَطَّعَتْ حَرْبُهُمْ فَقَدِمَ مُحَمَّدٌ فَحَجَزَ بَيْنَهُمْ، وَابْنُ أُبَيٍّ لا يَهُودِيٌّ عَلَى دِينِ يَهُودَ، وَلا عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ، وَلا هُوَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، فَكَيْفَ تَقْبَلُ مِنْهُ قَوْلًا قَالَهُ؟** قَالَ حُيَيٌّ: **تَأْبَى نَفْسِي إِلَّا عَدَاوَةَ مُحَمَّدٍ وَإِلَّا قِتَالَهُ.**

قَالَ سَلَّامٌ: **فَهُوَ وَاللهِ جَلاؤُنَا مِنْ أَرْضِنَا، وَذَهَابُ أَمْوَالِنَا، وَذَهَابُ شَرَفِنَا، أَوْ سِبَاءُ ذَرَارِيِّنَا مَعَ قَتْلِ مُقَاتِلِينَا.**

فَأَبَى حُيَيٌّ إِلَّا مُحَارَبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ سَارُوكُ بْنُ أَبِي الحُقَيْقِ ـ وَكَانَ ضَعِيفًا عِنْدَهُمْ فِي عَقْلِهِ كَأَنَّ بِهِ جِنَّةٌ ـ: **يَا حُيَيُّ، أَنْتَ رَجُلٌ مَشْؤُومٌ تُهْلِكُ بَنِي النَّضِيرِ!**

فَغَضِبَ حُيَيٌّ، وَقَالَ: **كُلُّ بَنِي النَّضِيرِ قَدْ كَلَّمَنِي حَتَّى هَذَا المَجْنُونُ.**

فَضَرَبَهُ إِخْوَتُهُ، وَقَالُوا لِحُيَيٍّ: **أَمْرُنَا لأَمْرِكَ تَبَعٌ، لَنْ نُخَالِفَكَ.**

فَأَرْسَلَ حُيَيٌّ أَخَاهُ جُدَيَّ بْنَ أَخْطَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: **إِنَّا لا نَبْرَحُ مِنْ دَارِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَاصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعٌ**، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ ابْنَ أُبَيٍّ فَيُخْبِرَهُ بِرِسَالَتِهِ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَيَأْمُرُهُ بِتَعْجِيلِ مَا وَعَدَ مِنَ النَّصْرِ.

فَذَهَبَ جُدَيُّ بْنُ أَخْطَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالَّذِي أَرْسَلَهُ حُيَيٌّ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ فَأَخْبَرَهُ، فَأَظْهَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ التَّكْبِيرَ، وَكَبَّرَ المُسْلِمُونَ لِتَكْبِيرِهِ، وَقَالَ: «**حَارَبَتْ اليَهُودُ**»، وَخَرَجَ جُدَيٌّ حَتَّى دَخَلَ عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَيْتِهِ مَعَ نَفَرٍ مِنْ حُلَفَائِهِ، وَقَدْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِالمَسِيرِ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ، فَيَدْخُلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ عَلَى عَبْدِ اللهِ أَبِيهِ وَعَلَى النَّفَرِ مَعَهُ، وَعِنْدَهُ جُدَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، فَلَبِسَ دِرْعَهُ وَأَخَذَ سَيْفَهُ فَخَرَجَ يَعْدُو، فَقَالَ جُدَيٌّ: لَـمَّا رَأَيْتَ ابْنَ أُبَيٍّ جَالِسًا فِي نَاحِيَةِ البَيْتِ وَابْنُهُ عَلَيْهِ السِّلاحُ يَئِسْتُ مِنْ نَصْرِهِ، فَخَرَجْتُ أَعْدُو إِلَى حُيَيٍّ، فَقَالَ: مَا وَرَاءَكَ؟ قُلْتُ: الشَّرُّ! سَاعَةَ أَخْبَرْتُ مُحَمَّدًا بِمَا أَرْسَلْتَ بِهِ إِلَيْهِ أَظْهَرَ التَّكْبِيرَ، وَقَالَ: «**حَارَبَتْ اليَهُودُ**»، فَقَالَ: هَذِهِ مَكِيدَةٌ مِنْهُ، قَالَ: وَجِئْتُ ابْنَ أُبَيٍّ فَأَعْلَمْتُهُ، وَنَادَى مُنَادِي مُحَمَّدٍ بِالمَسِيرِ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ.

قَالَ: وَمَا رَدَّ عَلَيْكَ ابْنُ أُبَيٍّ؟ فَقَالَ جُدَيٌّ: لَمْ أَرَ عِنْدَهُ خَيْرًا، قَالَ: أَنَا أُرْسِلُ إِلَى حُلَفَائِي فَيَدْخُلُونَ مَعَكُمْ. [المغازي للواقدي ١/ ٣٦٨ -٣٧٠، تاريخ الطبري ٢/ ٥٥٣].

ضرب الحصار على بني النضير:

ولما بلغ النبي ﷺ رفْض اليهود إنذاره لم ير بدًّا من ضرب الحصار عليهم فأعلن التعبئة وأصدر أوامره بالزحف على معاقلهم.

وقد تحركت القوات الإسلامية من المدينة بقيادة النبي ﷺ نفسه وضربت الحصار على حصون بني النضير وقلاعه التي اعتصموا بها.

قال الواقدي: «وَسَارَ رَسُولُ الله ﷺ في أَصْحَابِهِ فَصَلَّى العَصْرَ بِفَضَاءِ بَنِي النَّضِيرِ، فَلَمَّا رَأَوْا رَسُولَ الله ﷺ وَأَصْحَابَهُ قَامُوا عَلَى جُدُرِ حُصُونِهِمْ مَعَهُمْ النَّبْلُ وَالحِجَارَةُ، وَاعْتَزَلَتْهُمْ قُرَيْظَةُ فَلَمْ تُعِنْهُمْ بِسِلاحٍ وَلا رِجَالٍ وَلَمْ يَقْرَبُوهُمْ، وَجَعَلُوا يَرْمُونَ ذَلِكَ اليَوْمَ بِالنَّبْلِ وَالحِجَارَةِ حَتَّى أَظْلَمُوا، وَجَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ يَقْدِمُونَ مَنْ كَانَ تَخَلَّفَ فِي حَاجَتِهِ، حَتَّى تَتَامُّوا عِنْدَ صَلاةِ العِشَاءِ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ العِشَاءَ رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ الدِّرْعُ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَ عَلِيًّا رضي الله عنه عَلَى العَسْكَرِ، وَيُقَالُ: أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه.

وَبَاتَ المُسْلِمُونَ يُحَاصِرُونَهُمْ، يُكَبِّرُونَ حَتَّى أَصْبَحُوا، ثُمَّ أَذَّنَ بِلالٌ رضي الله عنه بِالمَدِينَةِ، فَغَدَا رَسُولُ الله ﷺ فِي أَصْحَابِهِ الذِينَ كَانُوا مَعَهُ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ بِفَضَاءِ بَنِي خَطْمَةَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى المَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ؛ وَحُمِلَتْ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمٍ. [**القبة من الخيام**: بيت صغير مستدير، وهو من بيوت العرب. **والأديم**: الجلد، وهي بفتح الهمزة والدال: جلد مدبوغ. شرح المواهب ٣/ ٩٣].

وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، قَالَ: كَانَتْ القُبَّةُ مِنْ غَرَبٍ (ضرب من الشجر) عَلَيْهَا مُسُوحٌ، أَرْسَلَ بِهَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه، فَأَمَرَ بِلالًا رضي الله عنه فَضَرَبَهَا فِي مَوْضِعِ المَسْجِدِ الصَّغِيرِ الَّذِي بِفَضَاءِ بَنِي خَطْمَةَ، وَدَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ القُبَّةَ، وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ اليَهُودِ يُقَالُ لَهُ: عَزْوَكُ، وَكَانَ أَعْسَرَ رَامِيًا، فَرَمَى فَبَلَغَ نَبْلُهُ قُبَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَ بِقُبَّتِهِ فَحُوِّلَتْ إِلَى مَسْجِدِ الفَضِيخِ، وَتَبَاعَدَتْ مِنَ النَّبْلِ.

وَأَمْسَوْا فَلَمْ يَقْرَبْهُمْ ابْنُ أُبَيٍّ وَلا أَحَدٌ مِنْ حُلَفَائِهِ، وَجَلَسَ فِي بَيْتِهِ، وَيَئِسَتْ بَنُو النَّضِيرِ مِنْ نَصْرِهِ، وَجَعَلَ سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ وَكِنَانَةُ بْنُ صُوَيْرَاءَ يَقُولانِ لِحُيَيٍّ: **أَيْنَ نَصْرُ ابْنِ أُبَيٍّ كَمَا زَعَمْتَ؟** قَالَ حُيَيٌّ: **فَمَا أَصْنَعُ؟ هِيَ مَلْحَمَةٌ كُتِبَتْ عَلَيْنَا**». [المغازي للواقدي ١/ ٣٧٠-٣٧٢].

وقد كانت قلاع وحصون بني النضير على غاية من المناعة والتحصين، وقد استفاد منها اليهود استفادة كبيرة في المقاومة.

ولما رأى القائد الأعلى النبي ﷺ شدة مقاومة اليهود واستفادتهم من مناعة هذه الحصون لجأ النبي ﷺ إلى وسيلة أضعف بها حماسة اليهود في المقاومة كإجراء من إجراءات الحرب.

[غزوة الأحزاب لباشميل ٥٣-٥٤].

عملية إحراق نخيل اليهود:

لقد كان اليهود ـ منذ عُرفوا ـ مشهورين بعبادة المادة والحرص الشديد على اقتناء الأموال، وكانوا يملكون من بساتين المدينة ونخيلها أحسنها.

وكما هي ظروف الحرب استولى المسلمون ـ أثناء عملية الحصار ـ على هذه البساتين والنخيل، وكان بوسع المسلمين أن يكتفوا بهذا الاستيلاء الذي به ـ كما هي قاعدة الحرب المتبعة ـ أصبحت هذه البساتين والنخيل من أملاك المسلمين، إذ في وسع المسلمين بعد هذا الاستيلاء أن يستمروا في محاصرة اليهود ويمنعوهم من الانتفاع بثمار هذه البساتين والنخيل.

ولكن المسلمين ـ وعلى رأسهم القائد الأعلى النبي ﷺ ـ على ما يظهر كانوا يعرفون طمع اليهود وحبهم المفرط للمال؛ لذلك فقد أمر النبي ﷺ بالقيام بعملية أزعج بها اليهود المحاصرين حيث أمر بالبدء في قطع نخيلهم وتحريقها. **[الأحزاب لباشميل ٥٤].**

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: حَرَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ، وَهِيَ البُوَيْرَةُ (اسم لنخل بني النضير)، فَنَزَلَتْ: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر] [(١)].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ، وَهِيَ البُوَيْرَةُ، وَلَـهَا يَقُولُ حَسَّانُ رضي الله عنه:

---

(١) البخاري في المغازي (٤٠٣١)، وفي التفسير (٤٨٨٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٦١٥)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٣٠٢)، وفي الجهاد والسير (١٥٥٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٤)، وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما (٦٠١٨ و٦٢١٥)، السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٣. السنن الكبرى للنسائي ٦/ ١٨١، ٤٨٣. دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٨٤، وقال الترمذي: وَفِي البَابِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ العِلمِ إِلَى هَذَا وَلَمْ يَرَوْا بَأْسًا بِقَطْعِ الأَشْجَارِ وَتَخْرِيبِ الحُصُونِ، وَكَرِهَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُ الأَوْزَاعِيِّ، قَالَ الأَوْزَاعِيُّ: وَنَهَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه أَنْ يَقْطَعَ شَجَرًا مُثْمِرًا أَوْ يُخَرِّبَ عَامِرًا، وَعَمِلَ بِذَلِكَ المُسْلِمُونَ بَعْدَهُ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: لَا بَأْسَ بِالتَّحْرِيقِ فِي أَرْضِ العَدُوِّ وَقَطْعِ الأَشْجَارِ وَالثِّمَارِ، وقَالَ أَحْمَدُ: وَقَدْ تَكُونُ فِي مَوَاضِعَ لَا يَجِدُونَ مِنْهُ بُدًّا، فَأَمَّا بِالعَبَثِ فَلَا تُحَرَّقْ، وقَالَ إِسْحَقُ: التَّحْرِيقُ سُنَّةٌ إِذَا كَانَ أَنْكَى فِيهِمْ. وبدون ذكر الآية رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٢١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٦)، والدارمي في السير (٢٤٦٠)، ومسند أحمد (٤٥٣٢، ٥١٣٦، ٥٥٢٠، ٥٥٨٢، ٦٠٥٤، ٦٢٥١).

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

[البخاري في المزارعة (٢٣٢٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٥)].

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، قَالَ: وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

قَالَ: فَأَجَابَهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ:

أَدَامَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ وَحَرَّقَ فِي طَرَائِقِهَا السَّعِيرُ
سَتَعْلَمُ أَيُّنَا مِنْهَا بِنُزْهٍ وَتَعْلَمُ أَيَّ أَرْضَيْنَا تَضِيرُ

[البخاري في المغازي (٤٠٣٢)].(١)

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللهِ عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ قَالَ: اللِّينَةُ النَّخْلَةُ ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ قَالَ: اسْتَنْزَلُوهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ، قَالَ: وَأُمِرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ فَحَكَّ فِي صُدُورِهِمْ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا وَتَرَكْنَا بَعْضًا، فَلَنَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ لَنَا فِيمَا قَطَعْنَا مِنْ أَجْرٍ، وَهَلْ عَلَيْنَا فِيمَا تَرَكْنَا مِنْ وِزْرٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ الآيَةَ. [الترمذي في تفسير القرآن (٣٣٠٣)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَرَوَى

---

(١) قال الصالحي: «قال الحافظ: ونسبة هذه الأبيات لحسان بن ثابت رضي الله عنه وجوابها لأبي سفيان بن الحارث هو المشهور كما في الصحيح، ونقل أبو الفتح عن أبي عمرو الشيباني أن الذي قال «وهان على سراة بني لؤي» هو أبو سفيان بن الحارث، وإنما قال: «عز» بدل «هان» وأن الذي أجابه بقوله: «أدام الله ذلك من صنيع» البيتين هو حسان، قال: وهو أشبه من الرواية التي وقعت في البخاري.

قال الحافظ ولم يذكر مستندًا للترجيح: والذي يظهر أن الذي في الصحيح أصح، وذلك أن قريشًا كانوا يظاهرون كل من عادى رسول الله ﷺ، ويعدونهم النصر والمساعدة، فلما وقع لبني النضير من الخذلان ما وقع قال حسان الأبيات المذكورة، توبيخًا لقريش، وهم بنو لؤي كيف خذلوا أصحابهم. وقد ذكر ابن إسحاق أن حسان قال ذلك في غزوة بني قريظة، وإنما ذكر بني النضير استطرادًا، وستأتي الأبيات بكمالها في غزوة بني قريظة.

وفي جواب أبي سفيان بن الحارث في قوله «وتعلم أي أرضينا تضير» ما يرجح ما وقع في الصحيح؛ لأن أرض بني النضير تجاور أرض الأنصار، فإذا خربت أضرت بها جاورها بخلاف أرض قريش، فإنها بعيدة منها بعدًا شديدًا، فلا نبالي بخرابها، فكأن أبا سفيان يقول: تخريب أرض بني النضير وتحريقها إنما يضر أرض من جاورها، وأرضكم التي تجاورها، فهي التي تتضرر لا أرضنا، ولا يتهيأ مثل هذا في عكسه إلا بتكلف.

وكان من أنكر استبعد أن يدعو أبو سفيان بن الحارث على أرض الكفرة مثله بالتحريق في قوله: «أدام الله ذلك من صنيع» والجواب عنه أن اسم الكفر وإن جمعهم لكن العداوة الدينية كانت قائمة بينهم؛ لما بين أهل الكتاب وعبدة الأوثان من التباين، وأيضًا فقوله: «وحرق في نواحيها السعير» يريد بنواحيها المدينة، فيرجع ذلك الدعاء على المسلمين أيضًا». سبل الهدى والرشاد ٤/ ٤٧١-٤٧٢.

بَعْضُهُمْ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ مُرْسَلًا، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدَّثَنِي بِذَلِكَ عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مُعَاوِيَةَ عَنْ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلًا. قَالَ أَبُو عِيسَى: سَمِعَ مِنِّي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَعِيلَ هَذَا الحَدِيثَ].

وَكَانَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ يَحْمِلُ التَّمْرَ إِلَى المُسْلِمِينَ، فَأَقَامُوا فِي حِصْنِهِمْ وَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّخْلِ فَقُطِعَتْ وَحُرِقَتْ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى قَطْعِهَا رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ أَبَا لَيْلَى المَازِنِيَّ، وَعَبْدَ الله بْنَ سَلَّامٍ ﵄، فَكَانَ أَبُو لَيْلَى يَقْطَعُ العَجْوَةَ، وَكَانَ عَبْدُ الله بْنُ سَلَّامٍ يَقْطَعُ اللَّوْنَ [١]، فَقِيلَ لَهُمَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ أَبُو لَيْلَى: كَانَتْ العَجْوَةُ أَحْرَقَ لَهُمْ، وَقَالَ ابْنُ سَلَّامٍ: قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ اللهَ سَيُغْنِمُهُ أَمْوَالَهُمْ، وَكَانَتْ العَجْوَةُ خَيْرَ أَمْوَالِهِمْ، فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ رِضَاءً بِمَا صَنَعْنَا جَمِيعًا، ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أَلْوَانِ النَّخْلِ لِلَّذِى فَعَلَ ابْنُ سَلَّامٍ، ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾، يَعْنِى العَجْوَةَ، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وَقَطَعَ أَبُو لَيْلَى العَجْوَةَ، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾، يَعْنِى بَنِي النَّضِيرِ رِضَاءً مِنْ الله بِمَا صَنَعَ الفَرِيقَانِ جَمِيعًا، فَلَمَّا قُطِعَتْ العَجْوَةُ شَقَّ النِّسَاءُ الجُيُوبَ، وَضَرَبْنَ الخُدُودَ، وَدَعَوْنَ بِالوَيْلِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا لَـهُنَّ؟**» فَقِيلَ: يَجْزَعْنَ عَلَى قَطْعِ العَجْوَةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ مِثْلَ العَجْوَةِ جُزِعَ عَلَيْهِ**»، ثُمّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**العَجْوَةُ وَالعَتِيقُ ـ الفَحْلُ الَّذِي يُؤَبَّرُ بِهِ النَّخْلُ ـ مِنْ الجَنَّةِ، وَالعَجْوَةُ شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ**».

فَلَمَّا صِحْنَ صَاحَ بِهِنَّ أَبُو رَافِعٍ سَلَّامٌ: **إِنْ قُطِعَتْ العَجْوَةُ هَا هُنَا، فَإِنَّ لَنَا بِخَيْبَرٍ عَجْوَةً**، قَالَتْ عَجُوزٌ مِنْهُنَّ: **خَيْبَرٌ! يُصْنَعُ بِهَا مِثْلُ هَذَا**، فَقَالَ أَبُو رَافِعٍ: **فَضَّ اللهُ فَاكِ! إِنَّ حُلَفَائِي بِخَيْبَرٍ لَعَشَرَةُ آلافِ مُقَاتِلٍ**، فَبَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ قَوْلُهُ فَتَبَسَّمَ. [**المغازي للواقدي ١/ ٣٧٢-٣٧٣**].

عدم جدية إحراق النخيل:

ولم يكن المسلمون ـ على ما يظهر ـ جادين في قطع النخيل وإحراقه وإنما يقصدون إزعاج اليهود الذين لا يفزعهم شيء مثل ضياع المال.

يدلنا على ذلك أن النبي ﷺ ـ كما ثبت في كتب السيرة ـ لم يأمر بالشروع في إتلاف إلا أردأ أنواع نخيل اليهود الذي لا يقتاتون منه، وهو نوع (اللينة) وهو نوع يخالف نوع العجوة والبرني الذي كان الغذاء الرئيس لأهل المدينة.

فإن (اللينة) من النخل إنما كان ثمرها ـ على ما يظهر ـ في الغالب علفًا للجمال وغيرها، قال السهيلي ـ عند تعليقه على قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ الآية: اللينة (بكسر اللام) ألوان التمر ما عدا العجوة

---

(١) **اللون**: نوع من النخل، وقيل: هو الدقل، وقيل: النخل كله ما خلا البرني والعجوة، ويسميه أهل المدينة الألوان، واحدته لينة، وأصله لونة فقلب الواو ياء. النهاية لابن الأثير ٤/ ٧٠.

والبرني، ثم قال: ففي هذه الآية أن النبي ﷺ لم يحرق من نخلهم (أي اليهود) إلا ما ليس بقوت للناس، وكانوا يقتاتون العجوة. ا. هـ.

ولقد نجحت خطة الإزعاج هذه التي اتبعها النبي ﷺ، إذ لم يكد يرى هؤلاء اليهود الدخان يتصاعد من جذوع نخيلهم وفروع هذه النخيل تتساقط من جراء القطع حتى سادهم الذعر واجتاحتهم موجة من الارتباك خوفًا على نخيلهم، وشرعوا يفاوضون في التسليم.

مع أنهم لو فكروا قليلًا لتبين لهم أن هذا النخيل لم يعد من ممتلكاتهم بعد أن استولى عليه الجيش الإسلامي المحاصِر الذي ما قام بالحصار إلا لإجبارهم على الجلاء من المدينة، فلو أدرك اليهود هذا لما ارتاعوا ولما ارتبكوا لمجرد البدء في عملية الحرق والقطع التي قام بها الجيش الإسلامي، ولما أثر ذلك على مقاومتهم بتلك السرعة، ولكنهم اليهود الذين لا يقدسون شيئًا مثل المال.

[غزوة الأحزاب لباشميل ٥٤-٥٥].

احتجاج اليهود على حرق النخيل:

وقد احتج اليهود على عملية القطع والحرق احتجاجًا شديدًا، فرفض احتجاجهم، ولم لا يرفض؟ أليست هي الحرب، كما أن بعض المسلمين تحرجوا عندما صدرت الأوامر النبوية بالشروع في القطع والحرق، قال السهيلي: ووقع في نفوس بعض المسلمين من هذا (أي الأمر بالقطع والحرق) شيء فأنزل الله تعالى مؤيدًا رسوله ﷺ في هذه العملية قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾[الحشر]. [غزوة الأحزاب لباشميل ٥٦].

وَجَزِعُوا عَلَى قَطْعِ العَجْوَةِ فَجَعَلَ سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ يَقُولُ: **يَا حُيَيُّ، العَذْقُ خَيْرٌ مِنْ العَجْوَةِ، يُغْرَسُ فَلا يُطْعِمُ ثَلاثِينَ سَنَةً يُقْطَعُ!** فَأَرْسَلَ حُيَيٌّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ: **يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ كُنْتَ تَنْهَى عَنْ الفَسَادِ! لِمَ تَقْطَعُ النَّخْلَ؟ نَحْنُ نُعْطِيكَ الَّذِي سَأَلْتَ، وَنَخْرُجُ مِنْ بِلَادِكَ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا أَقْبَلُهُ اليَوْمَ، وَلَكِنْ اُخْرُجُوا مِنْهَا وَلَكُمْ مَا حَمَلَتِ الإِبِلُ إِلَّا الـحَلقَةُ** (السلاح كله، أو خاص بالدروع)».

فَقَالَ سَلَّامٌ: **اقْبَلْ وَيْحَكَ، قَبْلَ أَنْ تَقْبَلَ شَرًّا مِنْ هَذَا**، فَقَالَ حُيَيٌّ: **مَا يَكُونُ شَرًّا مِنْ هَذَا؟** قَالَ سَلَّامٌ: **يَسْبِي الذُّرِّيَّةَ وَيَقْتُلُ الْمُقَاتِلَةَ مَعَ الأَمْوَالِ، فَالأَمْوَالُ اليَوْمَ أَهْوَنُ عَلَيْنَا إِذَا لَحِمَنَا هَذَا الأَمْرَ مِنْ القَتْلِ وَالسِّبَاءِ**، فَأَبَى حُيَيٌّ أَنْ يَقْبَلَ يَوْمًا، أَوْ يَوْمَيْنِ. [المغازي للواقدي ١/ ٣٧٣].

نجاح المناورة وتشديد الحصار على اليهود:

وهكذا نجحت المناورة التي قام بها الجيش الإسلامي والتي بدأت بقطع وحرق الرديء من نخيل اليهود، فقد جزع اليهود جزعًا شديدًا، وتأكد لديهم أن النبي ﷺ لن يتركهم حتى يرحلوا عن المدينة، أو

يبيدهم بعدما اتضح له منهم من خيانة للعهد ونقض للمعاهدة بتدبيرهم المؤامرة الخبيثة التي كانت تستهدف حياته الكريمة بالذات فشرعوا في المفاوضة.

وقد انتظر اليهود (عبثًا) مسارعة المنافقين وحلفائهم من غطفان لنجدتهم كما وعدهم بذلك رأس النفاق عبد الله بن أبي، ولكن بدون جدوى.

فقد خذلهم عبد الله بن أبي وجلس في بيته بعد أن ورطهم.

أما غطفان فبالطبع لم يأت منهم أحد، فاستحكمت حلقات الورطة على بني النضير بعد أن يئسوا من نجدة المنافقين لهم، فأسقط في أيديهم، وقذف الله الرعب في قلوبهم.

وشدد المسلمون الحصار وقاوم اليهود وصاروا يرمون المسلمين من حصونهم بالنبال والحجارة، وقد ضرب النبي ﷺ خيمته في مقر قيادته حول الحصون، فركز رماة بني النضير نبالهم على خيمة النبي ﷺ إلا أن أكثر هذه النبال لم يصل. [**الأحزاب لباشميل ٥٦-٥٧**].

قتلى اليهود في الحصار:

استدعى اليهود أحد رماتهم المشهورين ويُدعى عَزْوَك، وكان أعسر راميًا شديدَ النزع يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره، فطلبوا منه أن يجعل خيمة الرسول ﷺ هدفًا لنباله ففعل، وأخذت نبال هذا اليهودي تتساقط على خيمة النبي القائد ﷺ، وعند ذلك أمر النبي ﷺ بنقل مقر قيادته إلى مكان يكون في مأمن من نبال هذا اليهودي الرامي.

«وَلَزِمَ رَسُولُ الله ﷺ الدِّرْعَ، وَبَاتَ وَظَلَّ مُحَاصِرَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةً مِنْ اللَّيَالِي فُقِدَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام حَيْنَ قَرُبَ العِشَاءُ، فَقَالَ النَّاسُ: **مَا نَرَى عَلِيًّا يَا رَسُولَ الله!** قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**دَعُوهُ فَإِنَّهُ فِي بَعْضِ شَأْنِكُمْ!**»، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ بِرَأْسِ عَزْوَكَ، فَطَرَحَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنِّي كَمَنْتُ لِهَذَا الخَبِيثِ فَرَأَيْتُ رَجُلًا شُجَاعًا، فَقُلْتُ: مَا أَجْرَأَهُ أَنْ يَخْرُجَ إِذَا أَمْسَيْنَا يَطْلُبُ مِنَّا غِرَّةً، فَأَقْبَلَ مُصْلِتًا سَيْفَهُ فِي نَفَرٍ مِنْ اليَهُودِ، فَشَدَدْتُ عَلَيْهِ فَقَتَلْتُهُ، وَأَجْلَى أَصْحَابَهُ وَلَمْ يَبْرَحُوا قَرِيبًا، فَإِنْ بَعَثْتَ مَعِيَ نَفَرًا رَجَوْتُ أَنْ أَظْفَرَ بِهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَبَا دُجَانَةَ وَسَهْلَ ابْنَ حُنَيْفٍ فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَدْرَكُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا حِصْنَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ وَأَتَوْا بِرُؤُوسِهِمْ، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِرُؤُوسِهِمْ فَطُرِحَتْ فِي بَعْضِ بِئَارِ بَنِي خَطْمَةَ». [**المغازي للواقدي ١/ ٣٧٠-٣٧٢**].

اتفاقية الجلاء:

وحاصرهم رسول الله ﷺ، قال محمد بن عمر وابن سعد، والبلاذري، وأبو معشر، وابن حبان: خمسة عشر يومًا، وقال ابن إسحاق وأبو عمرو: ست ليال، وقال سليمان التيمي: قريبًا من عشرين ليلة، وقال ابن الكلاع: ثلاث وعشرين ليلة، وعن عائشة: خمس وعشرين حتى أجلاهم.

[**سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٦٠-٤٦١**].

قال الزرقاني: «وجمع شيخنا بأن حصار الستة كان وهم مصرون على الحرب؛ طمعًا فيما منَّاهم به المنافقون، وما زاد إلى الخمسة عشر كانوا آخذين في أسباب الخروج، وفيما بعد خرجوا في أوقات مختلفة، فكان آخر خروجهم خمسة وعشرين». [شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢/ ٥١١].

لم يستمر اليهود في المقاومة طويلًا، فقد خارت قواهم إذ لم يمض على ضرب الحصار عليهم أكثر من أيام معدودة حتى بعثوا بمندوبهم إلى النبي ﷺ للتفاوض بشأن تنفيذ ما طلبه منهم في إنذاره من الجلاء عن المدينة.

وقَبِل النبي ﷺ التفاوض، وقابل وفد اليهود في مقر قيادته فكانت نهاية هذه المفاوضة اتفاقية الجلاء التي تتضمن ما يلي:

١ـ أن يجلو يهود بني النضير عن منطقة يثرب جلاء تامًّا إلى أي مكان يشاؤون.

٢ ـ أن يسلم اليهود للمسلمين كل ما يمتلكون من سلاح بكافة أنواعه، ويكونوا ساعة جلائهم من يثرب مجردين من السلاح تمامًا.

٣ ـ لليهود أن يحملوا من أموالهم ما يقدرون على حمله (ما عدا السلاح) مهما كانت قيمة أو نوع هذا المال.

٤ ـ بعد الذي يقدر اليهود على حمله من المال يكون كل ما تبقى من أموالهم المنقولة وغير المنقولة فيئًا للمسلمين وملكًا من أملاكهم.

٥ ـ على القيادة الإسلامية في المدينة أن تضمن ليهود بني النضير سلامة أرواحهم ما داموا داخل المنطقة الخاضعة لسلطان المسلمين. [غزوة الأحزاب لباشميل ٥٨].

كيف تم إجلاء بني النضير:

ونتيجة لاتفاقية الجلاء هذه، شرع يهود بني النضير في الجلاء عن المدينة.

«وَوَلِيَ إِخْرَاجَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ، فَقَالُوا: إِنَّ لَنَا دُيُونًا عَلَى النَّاسِ إِلَى آجَالٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تَعَجَّلُوا، وَضَعُوا**»، فَكَانَ لأَبِي رَافِعٍ سَلَّامُ بْنُ أَبِي الحُقَيْقِ عَلَى أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ عِشْرُونَ وَمِائَةُ دِينَارٍ إِلَى سَنَةٍ، فَصَالَحَهُ عَلَى أَخْذِ رَأْسِ مَالِهِ ثَمَانِينَ دِينَارًا، وَأَبْطَلَ مَا فَضَلَ». [المغازي للواقدي ١/ ٣٧٤].

وصاروا يحملون على الإبل كل ما يقدرون على حمله، حتى إن أحدهم صار يعمد إلى عتبة باب داره فيخلعها ثم يضعها على ظهر البعير فينطلق.

وكان يهود بني النضير من أكثر أهل المدينة ثراء، وقد أوقروا ستمائة بعير من الأموال التي قدروا على حملها، وكانوا بالطبع يتخيرون في النقل ما خف حمله وغلا ثمنه، فحملوا معهم كميات هائلة من الذهب والفضة، حتى إن سلام بن أبي الحقيق وحده ـ كما يقول صاحب السيرة الحلبية ـ حمل معه جلد ثور مملوءًا ذهبًا وفضة، وكان عند خروجه مخاطبًا المسلمين في حنق يشبه التهديد: **هَذَا مِمَّا نَعُدُّهُ لِخَفْضِ الأَرْضِ وَرَفْعِهَا، فَإِنْ يَكُنْ النَّخْلُ قَدْ تَرَكْنَاهَا فَإِنَّا نَقْدَمُ عَلَى نَخْلٍ بِخَيْبَرٍ** [(١)].

وكان اليهود عند مغادرتهم المدينة يعمدون إلى سُقف بيوتهم وعمدها وجدرانها فينقضونها لئلا يستفيد منها المسلمون. [غزوة الأحزاب لباشميل ٥٨-٥٩].

عن مقاتل بن حيان، قول الله ﷻ: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: كان النبي ﷺ يقاتلهم، فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها؛ ليتسع المكان للقتال، وكانت اليهود إذا غُلبوا على درب أو دار نقبوها من أدبارها ثم حصنوها ودرَّبوها، يقول الله ﷻ: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢﴾[الحشر].

وقوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾ يعني باللينة النخلة، وهي أعجب إلى اليهود من الوصيف، يقال لثمرها اللون، فقالت اليهود عند قطع النبي ﷺ نخلهم، وعقْر شجرهم: يا محمد، زعمت أنك تريد الإصلاح، أفمن الإصلاح عقر الشجر وقطع النخل والفساد؟ فشق ذلك على النبي ﷺ، ووجد المسلمون من قولهم في أنفسهم من قطعهم النخل خشية أن يكون فسادًا، فقال بعضهم لبعض: لا تقطعوا، فإنه مما أفاء الله علينا، فقال الذين يقطعونها: نغيظهم بقطعها، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ يعني: النخل، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وما تركتم ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ فبإذن الله، فطابت نفس النبي ﷺ وأنفس المؤمنين، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾ يعني: أهل النضير، فكان قطع النخل وعقر الشجر خزيًا لهم، ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ حَاصَرَهُمْ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ، فَأَعْطَوْهُ مَا أَرَادَ مِنْهُمْ فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يَحْقِنَ لَهُمْ دِمَاءَهُمْ، وَأَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، وَأَنْ يُسَيِّرَهُمْ إِلَى أَذْرِعَاتِ الشَّامِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرًا وَسِقَاءً، وَالْجَلَاءُ: إِخْرَاجُهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى.
[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٥٩].

---

(١) وهذا القول يدل بوضوح على أن اليهود كانوا منذ أقدم العصور يستغلون ثراءهم الواسع لإثارة القلاقل وإشعال الحروب، ويحاولون الوصول دائمًا إلى أغراضهم عن طريق سيطرتهم المالية كما هو مشاهد منهم اليوم حيث يعبثون عن طريق الذهب بكثير من ساسة العالم فيسخرونهم في سبيل أطماعهم السياسية.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: حَارَبَتْ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ، فَأَجْلَى بَنِي النَّضِيرِ وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ، حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةُ [بَعْدَ ذَلِكَ]، فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ، وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَأَجْلَى يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ: بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ، وَكُلَّ يَهُودِ الـمَدِينَةِ [وَكُلَّ يَهُودِيٍّ كَانَ بِالْمَدِينَةِ]. [البخاري في المغازي (٤٠٢٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٦)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٠٥)، ومسند أحمد رقم (٦٣٦٧)].

مظاهرة اليهود عند الجلاء:

وقد أظهر يهود بني النضير التجلد عند جلائهم، فخرجوا من المدينة في شبه مظاهرة، غادروها في طوابير، قد أركبوا النساء على الهودج في أبهى زينة، عليهن الديباج والحرير وقطف الخز الأخضر والأحمر وحلي الذهب والفضة، تصحبهم فرق الموسيقى من القيان يضربن بالدفوف ويعزفن بالمزامير.

[غزوة الأحزاب لباشميل ٥٩-٦٠].

قال الواقدي: «وَحَمَلُوا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ، فَخَرَجُوا عَلَى بَلحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، ثُمَّ عَلَى الْجَبَلِيَّةِ، ثُمَّ عَلَى الجِسْرِ حَتَّى مَرُّوا بِالْمُصَلَّى، ثُمَّ شَقُّوا سُوقَ الْمَدِينَةِ، وَالنِّسَاءُ فِي الْهَوَادِجِ (من مراكب النساء) عَلَيْهِنَّ الحَرِيرُ وَالدِّيبَاجُ وَقُطُفُ (قُطُف وقطائف جمع قطيفة: دثار له خمل) الخَزِّ الخُضْرُ وَالحُمْرُ، وَقَدْ صَفَّ لَهُمْ النَّاسُ فَجَعَلُوا يَمُرُّونَ قِطَارًا فِي أَثَرِ قِطَارٍ، فَحُمِلُوا عَلَى سِتِّمَائَةِ بَعِيرٍ، يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَؤُلاءِ فِي قَوْمِهِمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي الْمُغِيرَةِ فِي قُرَيْشٍ**».

وَمَرُّوا يَضْرِبُونَ بِالدُّفُوفِ وَيُزَمِّرُونَ بِالْمَزَامِيرِ، وَعَلَى النِّسَاءِ الْمُعَصْفَرَاتُ وَحُلِيُّ الذَّهَبِ؛ مُظْهِرِينَ ذَلِكَ تَجَلُّدًا.

قَالَ: يَقُولُ جُبَارُ بْنُ صَخْرٍ: مَا رَأَيْتُ زُهَاءَهُمْ لِقَوْمٍ زَالُوا مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ.

وَنَادَى أَبُو رَافِعٍ سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَرَفَعَ مَسْكَ (الجلد، والجمع مسوك) الجَمَلِ وَقَالَ: **هَذَا مِمَّا نَعُدُّهُ لِخَفْضِ الأَرْضِ وَرَفْعِهَا، فَإِنْ يَكُنْ النَّخْلُ قَدْ تَرَكْنَاهَا فَإِنَّا نَقْدَمُ عَلَى نَخْلٍ بِخَيْبَرٍ**.

فَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ رَبِيحِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: لَقَدْ مَرَّ يَوْمَئِذٍ نِسَاءٌ مِنْ نِسَائِهِمْ فِي تِلْكَ الْهَوَادِجِ قَدْ سَفَرْنَ عَنْ الْوُجُوهِ لَعَلِّي لَمْ أَرَ مِثْلَ جَمَالِهِنَّ لِنِسَاءٍ قَطُّ، لَقَدْ رَأَيْتُ الشَّقْرَاءَ بِنْتَ كِنَانَةَ يَوْمَئِذٍ كَأَنَّهَا لُؤْلُؤَةُ غَوَّاصٍ، وَالرَّوَاعَ بِنْتَ عُمَيْرٍ مِثْلَ الشَّمْسِ البَازِغَةِ فِي أَيْدِيهِنَّ أَسْوِرَةُ الذَّهَبِ وَالدُّرُّ فِي رِقَابِهِنَّ». [المغازي للواقدي ١/ ٣٧٥-٣٧٦].

لا إكراه في الدين ونموذج لحرية العقيدة:

وقد جلا مع يهود بني النضير بعض أولاد الأنصار الذين اعتنقوا اليهودية، فقد كانت المرأة من الأنصار قبل الإسلام إذا لم يعش لها ولد تجعل على نفسها عهدًا إن عاش لها ولد تهوده، ولما أخذ يهود بني

النضير في الجلاء وأخذ أبناء الأنصار يجلون معهم بحكم اتباعهم لدينهم ـ حاول الأنصار منع أولادهم من الجلاء قائلين: لا ندع أبناءنا يخرجون مع اليهود، ولكن النبي ﷺ ـ عملًا بحرية العقيدة ـ لم يمكن الأنصار مما أرادوا، ما دام أن أبناءهم قد دخلوا في اليهودية قبل الإسلام، وجلوا مع بني النضير بمحض اختيارهم، وقد اتخذ النبي ﷺ هذا القرار ونفذه بعد أن أنزل الله عليه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] كما يقول ابن برهان الدين في السيرة الحلبية. [غزوة الأحزاب لباشميل ٥٠].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلَاتًا فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، قَالَ أَبُو دَاوُد: الْمِقْلَاتُ الَّتِي لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ.

[أبو داود في الجهاد (٢٦٨٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وجهة اليهود بعد الجلاء:

وقد اتجه اليهود عند الجلاء بعضهم إلى أذرعات الشام وبعضهم إلى خيبر وهم الأكثرية، وكان من الذين نزلوا خيبر من أكابرهم حُيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، وقد دانت خيبر لهؤلاء الزعماء الذين اتخذوا منها فيما بعد قاعدة للتآمر على المسلمين كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

[غزوة الأحزاب لباشميل ٦٠-٦١].

عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَتْ غَزْوَةُ بَنِي النَّضِيرِ وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَأْسِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ [(١)]، وَكَانَ مَنْزِلُهُمْ وَنَخْلُهُمْ بِنَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ، وَعَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا أَقَلَّتِ الْإِبِلُ مِنَ الْأَمْتِعَةِ وَالْأَمْوَالِ إِلَّا الْحَلْقَةَ، يَعْنِي السِّلَاحَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ [الحشر: ٢] فَقَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى صَالَحَهُمْ عَلَى الْجَلَاءِ، فَأَجْلَاهُمْ إِلَى الشَّامِ، وَكَانُوا مِنْ سِبْطٍ لَمْ يُصِبْهُمْ جَلَاءٌ فِيمَا خَلَا، وَكَانَ اللهُ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ [الحشر: ٢] فَكَانَ جَلَاؤُهُمْ ذَلِكَ أَوَّلَ حَشْرٍ فِي الدُّنْيَا إِلَى الشَّامِ.

[المستدرك على الصحيحين ٢/ ٥٢٥ رقم ٣٧٩٧، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ العلي: والحديث صحيح إلا أنه ليس على شرط الشيخين؛ لأنهما لم يخرجا لزيد بن المبارك ومحمد بن ثور وكلاهما ثقة. صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٤٤].

---

(١) قال الشيخ العلي: «والناظر في حديث عائشة رضي الله عنها يرى أنه مؤيد للرأي القائل أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر كما قال الزهري رحمه الله، وهو في سند حديث عائشة رضي الله عنها، فالجواب عنه ما قال ابن القيم رحمه الله في ذلك من الخطأ في النقل عن الزهري، أو هو وهم من الزهري رحمه الله والله أعلم». صحيح السيرة النبوية ص ٢٤٤.

مَنْ أسلم من يهود بني النضير:

وقد أسلم من يهود بني النضير رجلان هما يامين بن عمير [(١)] (ابن عم عمرو بن جحاش الذي أوكلت إليه مهمة القيام باغتيال النبي ﷺ)، وأبو سعد بن وهب [(٢)].

«فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ ـ أي إصرار حيي بن أخطب على رفض الصلح ـ يَامِينُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَأَبُو سَعْدِ بْنُ وَهْبٍ، قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ! فَمَا تَنْتَظِرُ أَنْ نُسْلِمَ، فَنَأْمَنَ عَلَى دِمَائِنَا وَأَمْوَالِنَا؟ فَنَزَلا مِنَ اللَّيْلِ فَأَسْلَمَا، فَأَحْرَزَا دِمَاءَهُمَا وَأَمْوَالَهُمَا.

فَلَمَّا أَجْلاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ لابْنِ يَامِينَ: «**أَلَمْ تَرَ إِلَى ابْنِ عَمِّكَ عَمْرِو بْنِ جَحَّاشٍ، وَمَا هَمَّ بِهِ مِنْ قَتْلِي؟**»، وَهُوَ زَوْجُ أُخْتِهِ، كَانَتْ الرَّوَاعُ بِنْتُ عُمَيْرٍ تَحْتَ عَمْرِو بْنِ جَحَّاشٍ، فَقَالَ ابْنُ يَامِينَ: أَنَا أَكْفِيكَهُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَجَعَلَ لِرَجُلٍ مِنْ قَيْسٍ عَشْرَةَ دَنَانِيرَ عَلَى أَنْ يَقْتُلَ عَمْرَو بْنَ جَحَّاشٍ، وَيُقَالُ: خَمْسَةَ أَوْسُقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَاغْتَالَهُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ ابْنُ يَامِينَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِقَتْلِهِ، فَسُرَّ بِذَلِكَ».

[المغازي للواقدي ١/ ٣٧٣، ٣٧٤].

غنائم بني النضير:

وبالرغم من الحرية المطلقة إلى أعطاها النبي ﷺ لبني النضير ليحملوا كل ما يقدرون على حمله من أموالهم، فإنهم قد تركوا للمسلمين مغانم كثيرة، ومنها خمسون درعًا وثلاثمائة وأربعون سيفًا، وغلال عظيمة مع مساحات شاسعة مزروعة بالنخيل وغيرها من الزروع.

عَنِ المِسْوَرِ بْنِ رِفَاعَةَ قَالَ: وَقَبَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الأَمْوَالَ، وَقَبَضَ الحَلْقَةَ فَوَجَدَ مِنَ الحَلْقَةِ خَمْسِينَ دِرْعًا، وَخَمْسِينَ بَيْضَةً (خوذة)، وَثَلاثَمِائَةِ سَيْفٍ وَأَرْبَعِينَ سَيْفًا، وَيُقَالُ: غَيَّبُوا بَعْضَ سِلاحِهِمْ وَخَرَجُوا بِهِ.

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﵁ الَّذِي وَلِيَ قَبْضَ الأَمْوَالِ وَالحَلْقَةَ وَكَشْفَهُمْ عَنْهَا.

فَقَالَ عُمَرُ ﵁: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا تُخَمِّسُ مَا أَصَبْتَ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ كَمَا خَمَّسْتَ مَا أَصَبْتَ مِنْ بَدْرٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا أَجْعَلُ شَيْئًا جَعَلَهُ اللهُ ﷻ لِي دُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الآيَةُ [الحشر: ٧] **كَهَيْئَةِ مَا وَقَعَ فِيهِ السُّهْمَانِ لِلْمُسْلِمِينَ**». **[المغازي للواقدي ١/ ٣٧٧].**

---

(١) قال في الإصابة: هو يامين بن عمير بن كعب النضري، ذكره ابن عبد البر فقال: كان من كبار الصحابة ولم أطلع على تاريخ وفاته.

(٢) أبو سعد بن وهب النضري، أخرج له ابن سعد حديثًا عن رسول الله ﷺ من رواية ابنه أسامة بن أبي سعد عن أبيه قال: ... شهدت رسول الله ﷺ يقضي في سيل (مهروز) أن يحبس الأعلى من الأسفل حتى يبلغ الكعبين ثم يرسل.

مصير غنائم بني النضير:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ: كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِمَّا لَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَاصَّةً [خَالِصَةً]، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِ [قُوتَ سَنَتِهِ]، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلَاحِ وَالكُرَاعِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ.

[البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٤)، وفي تفسير القرآن (٤٨٨٥)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٧)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٦٥)، والترمذي في الجهاد (١٧١٩)، والنسائي في قسم الفيء (٤١٤٠)، وأحمد عن عمر ﷺ (١٧١، ٣٣٧)، ومرويات الإمام الزهري في المغازي للعواجي ١/ ٣٢٢].

وعَنْ ابْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ: قَالَ لِي مَعْمَرٌ: قَالَ لِي الثَّوْرِيُّ: هَلْ سَمِعْتَ فِي الرَّجُلِ يَجْمَعُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ أَوْ بَعْضِ السَّنَةِ؟ قَالَ مَعْمَرٌ: فَلَمْ يَحْضُرْنِي، ثُمَّ ذَكَرْتُ حَدِيثًا حَدَّثَنَاهُ ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ عُمَرَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ.

[البخاري في النفقات (٥٣٥٧)].

وعَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الحَدَثَانِ قَالَ: كَانَ فِيمَا احْتَجَّ بِهِ عُمَرُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ثَلَاثُ صَفَايَا: بَنُو النَّضِيرِ، وَخَيْبَرُ، وَفَدَكُ، فَأَمَّا بَنُو النَّضِيرِ فَكَانَتْ حُبُسًا لِنَوَائِبِهِ، وَأَمَّا فَدَكُ فَكَانَتْ حُبُسًا لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ، وَأَمَّا خَيْبَرُ فَجَزَّأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: جُزْأَيْنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَجُزْءًا نَفَقَةً لِأَهْلِهِ، فَمَا فَضُلَ عَنْ نَفَقَةِ أَهْلِهِ جَعَلَهُ بَيْنَ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ.

[أبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٦٧)، وقال الشيخ الألباني: حسن الإسناد].

وعَنْ الزُّهْرِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾[الحشر: ٦]، قَالَ: صَالَحَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ فَدَكَ ـ وَقُرًى قَدْ سَمَّاهَا لَا أَحْفَظُهَا ـ وَهُوَ مُحَاصِرٌ قَوْمًا آخَرِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ بِالصُّلحِ، قَالَ: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ يَقُولُ: بِغَيْرِ قِتَالٍ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَكَانَتْ بَنُو النَّضِيرِ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَالِصًا، لَمْ يَفْتَحُوهَا عَنْوَةً، افْتَتَحُوهَا عَلَى صُلْحٍ فَقَسَمَهَا النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ، لَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا رَجُلَيْنِ كَانَتْ بِهِمَا حَاجَةٌ. [أبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٧١)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد].

وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ ﵄ قَالَتْ: كُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ مِنِّي عَلَى ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ، وَقَالَ أَبُو ضَمْرَةَ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْطَعَ الزُّبَيْرَ ﷺ أَرْضًا مِنْ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ. [البخاري في فرض الخمس (٣١٥١)].

الأخوة الإيمانية بين المهاجرين والأنصار:

ومن الجدير بالذكر أن النبي ﷺ لم يقسم غنائم يهود بني النضير كما تقسم غنائم الحرب على المقاتلين المسلمين كما هو المتبع، وإنما قسم هذه الغنائم على المهاجرين دون الأنصار، وذلك بعد استشارة الأنصار وأخذ موافقتهم على ذلك.

قال الواقدي: «وَقَالُوا: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَـمَّا تَحَوَّلَ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ إِلَى المَدِينَةِ تَحَوَّلَ أَصْحَابُهُ مِنَ المُهَاجِرِينَ، **فَتَنَافَسَتْ فِيهِمُ الأَنْصَارُ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَيْهِمْ، حَتَّى اقْتَرَعُوا فِيهِمْ بِالسُّهْمَانِ، فَمَا نَزَلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِقُرْعَةِ سَهْمٍ.**

فَحَدَّثَنِي مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أُمِّ العَلَاءِ قَالَتْ: صَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي القُرْعَةِ، وَكَانَ فِي مَنْزِلِنَا حَتَّى تُوُفِّيَ، وَكَانَ المُهَاجِرُونَ فِي دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَلَمَّا غَنِمَ رَسُولُ الله ﷺ بَنِي النَّضِيرِ دَعَا ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ فَقَالَ: «**ادْعُ لِي قَوْمَكَ**»، قَالَ ثَابِتٌ: الخَزْرَجَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الأَنْصَارَ كُلَّهَا**»، فَدَعَا لَهُ الأَوْسَ وَالخَزْرَجَ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الأَنْصَارَ وَمَا صَنَعُوا بِالمُهَاجِرِينَ، وَإِنْزَالَهُمْ إِيَّاهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَأَثَرَتَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، ثُمّ قَالَ: «**إِنْ أَحْبَبْتُمْ قَسَمْتُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الـمُهَاجِرِينَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ، وَكَانَ المُهَاجِرُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ السُّكْنَى فِي مَسَاكِنِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَعْطَيْتُهُمْ وَخَرَجُوا مِنْ دُورِكُمْ**»، فَتَكَلَّمَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنهما، فَقَالَا: **يَا رَسُولَ الله! بَلْ تَقْسِمُهُ لِلمُهَاجِرِينَ، وَيَكُونُونَ فِي دُورِنَا كَمَا كَانُوا**، وَنَادَتْ الأَنْصَارُ: **رَضِينَا وَسَلَّمْنَا يَا رَسُولَ الله!** قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ ارْحَمْ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ**»، فَقَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَى المُهَاجِرِينَ، وَلَمْ يُعْطِ أَحَدًا مِنَ الأَنْصَارِ مِنْ ذَلِكَ الفَيْءِ شَيْئًا، إِلا رَجُلَيْنِ كَانَا مُحْتَاجَيْنِ: سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ، وَأَبَا دُجَانَةَ، وَأَعْطَى سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ سَيْفَ ابْنِ أَبِي الحُقَيْقِ، وَكَانَ سَيْفًا لَهُ ذِكْرٌ عِنْدَهُمْ.

قَالُوا: وَكَانَ مِمَّنْ أُعْطِيَ مِمَّنْ سُمِّيَ لَنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه بِئْرَ حِجْرٍ، وَأَعْطَى عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه بِئْرَ جَرْمٍ، وَأَعْطَى عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ سُؤَالَةَ ـ وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: مَالُ سُلَيْمٍ.

وَأَعْطَى صُهَيْبَ بْنَ سِنَانَ الضَّرَّاطَةَ، وَأَعْطَى الزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ وَأَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الأَسَدِ البُوَيْلَةَ، وَكَانَ مَالُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ وَأَبِي دُجَانَةَ مَعْرُوفًا، يُقَالُ لَهُ: مَالُ ابْنِ خَرَشَةَ، وَوَسَّعَ رَسُولُ الله ﷺ فِي النَّاسِ مِنْهَا».
[المغازي للواقدي ١/ ٣٧٨-٣٨٠].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَخَلَّوْا الْأَمْوَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَكَانَت لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً، يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ، فَقَسَّمَهَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى المُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ، إِلَّا أَنَّ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ وَأَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْن خَرَشَةَ رضي الله عنهما ذَكَرَا فَقْرًا، فَأَعْطَاهُمَا رَسُولُ الله ﷺ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٢].

وَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ جَابِرٍ الْبَلَاذُرِيُّ فِي كِتَابِ (فُتُوحِ الْبُلْدَانِ) لَهُ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِلأَنْصَارِ: «**لَيْسَتْ لِإِخْوَانِكُمْ مِنَ المُهَاجِرِينَ أَمْوَالٌ، فَإِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُ هَذِهِ وَأَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ جَمِيعًا،**

وَإِنْ شِئْتُمْ أَمْسَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ، وَقَسَمْتُ هَذِهِ فِيهِمْ خَاصَّةً»، فَقَالُوا: بَلْ أَقْسِمْ هَذِهِ فِيهِمْ، وَأَقْسِمْ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: جَزَاكُمُ اللهُ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ خَيْرًا، فَوَاللهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُكُمْ إِلا كَمَا قَالَ الْغَنَوِيُّ:

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَفَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ (١)

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ

قال الصالحي: «قلت: وروى الآجري في كتاب الشريعة عن قيس بن أبي حازم: قال أبو بكر الصديق ﷺ، فذكر نحو ما تقدم». [عيون الأثر ٢/ ٧٤، سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٦٣].

تألم المنافقين لجلاء اليهود:

وقد تأثر المنافقون لجلاء بني النضير تأثرًا كبيرًا، فنزل بهم من الغم والهم أمر عظيم؛ لأن هؤلاء اليهود كانوا لهم سندًا وعضدًا في مقاومتهم للنبي ﷺ؛ لذلك حزن هؤلاء المنافقون وخاصة عبد الله بن أبي لجلاء اليهود حزنًا شديدًا.

قال أبو سعيد الخدري ﷺ: «وَلَقِيَ الْمُنَافِقُونَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ خَرَجُوا حُزْنًا شَدِيدًا، لَقَدْ لَقِيتُ زَيْدَ ابْنَ رِفَاعَةَ بْنِ التَّابُوتِ، وَهُوَ مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَهُوَ يُنَاجِيهِ فِي بَنِي غَنْمٍ، وَهُوَ يَقُولُ: تَوَحَّشْتُ بِيَثْرِبَ لِفَقْدِ بَنِي النَّضِيرِ، وَلَكِنَّهُمْ يَخْرُجُونَ إِلَى عِزٍّ وَثَرْوَةٍ مِنْ حُلَفَائِهِمْ، وَإِلَى حُصُونٍ مَنِيعَةٍ شَامِخَةٍ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ لَيْسَتْ كَمَا هَاهُنَا.

قَالَ: فَاسْتَمَعْتُ عَلَيْهِمَا سَاعَةً، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَاشٌّ للهِ وَلِرَسُولِهِ». [المغازي للواقدي ١/ ٣٧٦].

دعوة عَمْرِو بْنِ سُعْدَى اليهودي إلى الإسلام بعد إجلاء بني النضير واعترافه واعتراف من اعترف من اليهود بوجود صفة النبي ﷺ في التوراة:

روى البيهقي بسنده عن إِبْرَاهِيمَ بْنِ جَعْفَرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: لَمَّا خَرَجَتْ بَنُو النَّضِيرِ مِنَ الْمَدِينَةِ أَقْبَلَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى فَأَطَافَ بِمَنَازِلِهِمْ، فَرَأَى خَرَابَهَا، وَفَكَّرَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَوَجَدَهُمْ فِي الْكَنِيسَةِ (معبد اليهود. شرح الشفا ٢/ ٥١٨)، فَنَفَخَ فِي بُوقِهِمْ، فَاجْتَمَعُوا، فَقَالَ الزَّبِيْرُ بْنُ بَاطَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَيْنَ كُنْتَ مُنْذُ الْيَوْمِ لَمْ نَرَكَ؟ وَكَانَ لَا يُفَارِقُ الْكَنِيسَةَ، وَكَانَ يَتَأَلَّهُ (يتعبد) فِي الْيَهُودِيَّةِ، قَالَ: رَأَيْتُ الْيَوْمَ عِبَرًا قَدْ

---

(١) **أزلقت**: قال في النور ـ بالزاي والقاف ـ يقال: أزلقت الحامل: إذا رمت ولدها، والذي في نسخة من العيون مقروءة على مصنفها وغيره ـ بالفاء ـ أي: دنت وقربت. سبل الهدى والرشاد ٤/ ٤٧٥.

عُبِّرْنَا بِهَا (العبرة: العظة والتذكر والاتعاظ، وعُبِّرنا بها يعني: اشتد علينا أمرها)، رَأَيْتُ مَنَازِلَ إِخْوَانِنَا خَالِيَةً بَعْدَ ذَلِكَ العِزِّ وَالجَلَدِ (القوة) وَالشَّرَفِ الفَاضِلِ، وَالعَقْلِ البَارِعِ، قَدْ تَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ، وَمَلَكَهَا غَيْرُهُمْ، وَخَرَجُوا خُرُوجَ ذُلٍّ، وَلَا وَالتَّوْرَاةِ مَا سُلِّطَ هَذَا عَلَى قَوْمٍ قَطُّ للهِ بِهِمْ حَاجَةٌ، وَقَدْ أَوْقَعَ قَبْلَ ذَلِكَ بِابْنِ الأَشْرَفِ ذِي عِزِّهِمْ، ثُمَّ بَيَّتَهُ فِي بَيْتِهِ آمِنًا، وَأَوْقَعَ بِابْنِ سُنَيْنَةَ سَيِّدِهِمْ، وَأَوْقَعَ بِبَنِي قَيْنُقَاعٍ فَأَجْلَاهُمْ (أخرجهم وأبعدهم) وَهُمْ أَهْلُ جَدِّ يَهُودَ (الجد: المكانة العظيمة والغنى)، كَانُوا أَهْلَ عِدَّةٍ وَسِلَاحٍ وَنَجْدَةٍ (شجاعة)، فَحَصَرَهُمْ فَلَمْ يُخْرِجْ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ رَأْسَهُ حَتَّى سَبَاهُمْ، فَكُلِّمَ فِيهِمْ فَتَرَكَهُمْ عَلَى أَنْ أَجْلَاهُمْ مِنْ يَثْرِبَ، يَا قَوْمُ! قَدْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ فَأَطِيعُونِي، وَتَعَالَوْا نَتَّبِعْ مُحَمَّدًا، فَوَاللهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ بَشَّرَنَا بِهِ وَبِأَمْرِهِمْ: ابْنُ الهَيِّبَانِ أَبُو عُمَيْرٍ، وَابْنُ حِرَاشٍ [جَوَّاسٍ]، وَهُمَا أَعْلَمُ يَهُودَ، جَاءَا مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ يَتَوَكَّفَانِ قُدُومَهُ وَأَمَرَانَا بِاتِّبَاعِهِ، وَأَمَرَانَا أَنْ نُقْرِئَهُ مِنْهُمَا السَّلَامَ، ثُمَّ مَاتَا عَلَى دِينِهِمَا وَدَفَنَّاهُمَا بِحَرَّتِنَا هَذِهِ.

فَأُسْكِتَ القَوْمُ، فَلَمْ يَتَكَلَّمْ مِنْهُمْ مُتَكَلِّمٌ، فَأَعَادَ هَذَا الكَلَامَ [أَوْ نَحْوَهُ]، وَخَوَّفَهُمْ بِالحَرْبِ وَالسِّبَاءِ وَالجَلَاءِ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَاطَا: قَدْ وَالتَّوْرَاةِ قَرَأْتُ صِفَتَهُ فِي كِتَابِ بَاطَا التَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى، لَيْسَ فِي المَثَانِي الَّذِي أَحْدَثْنَا.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: مَا يَمْنَعُكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنِ اتِّبَاعِهِ؟ قَالَ: أَنْتَ، قَالَ كَعْبٌ: وَلِمَ؟ وَالتَّوْرَاةِ مَا حُلْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَطُّ، قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنْتَ صَاحِبُ عَهْدِنَا وَعَقْدِنَا، فَإِنِ اتَّبَعْتَهُ اتَّبَعْنَاهُ، وَإِنْ أَبَيْتَ أَبَيْنَا.

[فَأَقْبَلَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى عَلَى كَعْبٍ فَقَالَ: أَمَا وَالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سِينَا إِنَّه لَلعِزُّ وَالشَّرَفُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ لَعَلَى مِنْهَاجِ مُوسَى، وَيُنْزَلُ مَعَهُ وَأُمَّتُهُ غَدًا فِي الجَنَّةِ.

قَالَ كَعْبٌ: نُقِيمُ عَلَى عَهْدِنَا وَعَقْدِنَا فَلا يَخْفِرُ (ينقض عهدهم) لَنَا مُحَمَّدٌ ذِمَّةً، وَنَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ حُيَيٌّ، فَقَدْ أُخْرِجَ إِخْرَاجَ ذُلٍّ وَصَغَارٍ، فَلا أَرَاهُ يَقِرُّ حَتَّى يَغْزُو مُحَمَّدًا، فَإِنْ ظَفِرَ بِمُحَمَّدٍ فَهُوَ مَا أَرَدْنَا، وَأَقَمْنَا عَلَى دِينِنَا، وَإِنْ ظَفِرَ بِحُيَيٍّ فَمَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ، وَتَحَوَّلْنَا مِنْ جِوَارِهِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى: وَلِمَ نُؤَخِّرُ الأَمْرَ وَهُوَ مُقْبِلٌ؟ قَالَ كَعْبٌ: مَا عَلَى هَذَا فَوْتٌ، مَتَى أَرَدْتُ هَذَا مِنْ مُحَمَّدٍ أَجَابَنِي إِلَيْهِ.

قَالَ عَمْرٌو: وَالتَّوْرَاةِ! إِنَّ عَلَيْهِ لَغَوْثًا، إِذَا سَارَ إِلَيْنَا مُحَمَّدٌ فَتَخَبَّأْنَا فِي حُصُونِنَا هَذِهِ الَّتِي قَدْ خَدَعَتْنَا، فَلَا نُفَارِقُ حُصُونَنَا حَتَّى نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِهِ، فَيَضْرِبُ أَعْنَاقَنَا].

فَأَقْبَلَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى عَلَى كَعْبٍ فَذَكَرَ مَا تَقَاوَلَا فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ قَالَ كَعْبٌ: مَا عِنْدِي فِي أَمْرِهِ إِلَّا مَا قُلْتَ، مَا تَطِيبُ نَفْسِي أَنْ أَصِيرَ تَابِعًا [لِقَوْلِ هَذَا الإِسْرَائِيلِيِّ، وَلا يَعْرِفُ لِي فَضْلَ النُّبُوَّةِ وَلا قَدْرَ الفِعَالِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى: بَلْ لَعَمْرِي لَيَعْرِفَنَّ ذَلِكَ.

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَرُعْهُمْ (يفزعهم) إلا بِمُقَدِّمَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ حَلَّتْ بِسَاحَتِهِمْ، فَقَالَ: هَذَا الَّذِي قُلْتُ لَكَ.

وَذَلِكَ أَنَّهُم نَقَضُوا عَهْدَ رَسُولِ الله ﷺ، وَحَارَبُوهُ فِي وَقْعَةِ الخَنْدَقِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ]».

[دلائل النبوة للبيهقي٣/ ٣٦١-٣٦٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي٤/ ٤٦٣-٤٦٥ وما بين المعكوفتين منه].

القرآن وجلاء بني النضير:

تحدث القرآن الكريم عن غزوة بني النضير في سورة كاملة وهي سورة الحشر، وقد سمى حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سورة الحشر بسورة بني النضير، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: **سُورَةُ الحَشْرِ**، قَالَ: **قُلْ سُورَةُ النَّضِيرِ**. [البخاري في المغازي (٤٠٢٩)، وفي التفسير (٤٨٨٣)].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: **سُورَةُ التَّوْبَةِ**؟ قَالَ: **التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا**، قَالَ: قُلْتُ: **سُورَةُ الأَنْفَالِ**؟ قَالَ: **نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ**، قَالَ: قُلْتُ: **سُورَةُ الحَشْرِ**؟ قَالَ: **نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ**.

[البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٢)، ومسلم في التفسير (٣٠٣١)].

قال ابن إسحاق: «وَنَزَلَ فِي بَنِي النَّضِيرِ سُورَةُ الحَشْرِ بِأَسْرِهَا، يَذْكُرُ فِيهَا مَا أَصَابَهُمْ اللهُ بِهِ مِنْ نِقْمَتِهِ، وَمَا سَلَّطَ عَلَيْهِمْ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، وَمَا عَمِلَ بِهِ فِيهِمْ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٢].

وقد بينت هذه السورة ملابسات هذه الغزوة، وفصلت القول فيها، وبينت أحكام الفيء، ومن هم المستحقون له؟ وأوضحت موقف المنافقين من اليهود، كما كشفت عن حقائق نفسيات اليهود، وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود، وفي أثناء الحديث عن الغزوة وجه سبحانه خطابه إلى المؤمنين وأمرهم بتقواه وحذرهم من معصيته، ثم تحدث سبحانه عن القرآن الكريم، وأسمائه وصفاته.

وهكذا كان المجتمع المسلم يتربى بالأحداث على التوحيد وتعظيم منهج الله، والاستعداد ليوم القيامة. [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٠٨].

سُورَةُ الحَشْرِ (سُورَةُ بَنِي النَّضِيرِ):

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ

ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ [الحشر].

مَا قِيلَ فِي بَنِي النَّضِيرِ مِنْ الشِّعْرِ:

شِعْرُ ابْنِ لُقَيْمٍ العَبْسِيِّ:

وَكَانَ مِمَّا قِيلَ فِي بَنِي النَّضِيرِ مِنْ الشِّعْرِ قَوْلُ ابْنِ لُقَيْمٍ العَبْسِيِّ، وَيُقَالُ: قَالَهُ قَيْسُ بْنُ بَحْرِ بْنِ طَرِيفٍ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَيْسُ بْنُ بَحْرٍ الأَشْجَعِيُّ ـ فَقَالَ (١):

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ١٩٥ – ١٩٦، البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٥٤٣-٥٤٥.

أَهْلِي فِدَاءٌ لِامْرِئٍ غَيْرِ هَالِكٍ ... أَحَلَّ اليَهُودَ بِالحَسِيِّ المُزَنَّمِ (١)
يَقِيلُونَ فِي جَمْرِ الغَضَاةِ وَبُدِّلُوا ... أُهَيْضِبُ عُودي بِالوَدِيِّ المُكَمَّمِ (٢)
فَإِنْ يَكُ ظَنِّي صَادِقًا بِمُحَمَّدٍ ... تَرَوْا خَيْلَهُ بَيْنَ الصَّلَا وَيَرَمْرَمِ (٣)
يَؤُمُّ بِهَا عَمْرَو بْنَ بُهْثَةَ إِنَّهُمْ ... عَدُوٌّ وَمَا حَيٌّ صَدِيقٌ كَمُجْرِمِ
عَلَيْهِنَّ أَبْطَالٌ مَسَاعِيرُ فِي الوَغَى ... يَهُزُّونَ أَطْرَافَ الوَشِيجِ المُقَوَّمِ (٤)
وَكُلُّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدٌ ... تُوُورِثْنَ مِنْ أَزْمَانِ عَادٍ وَجُرْهُمِ
فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي قُرَيْشًا رِسَالَةً ... فَهَلْ بَعْدَهُمْ فِي المَجْدِ مِنْ مُتَكَرَّمِ
بِأَنَّ أَخَاكُمْ فَاعْلَمُنَّ مُحَمَّدًا ... تَلِيدُ النَّدَى بَيْنَ الحَجُونِ وَزَمْزَمِ (٥)
فَدِينُوا لَهُ بِالحَقِّ تَجْسُمُ أُمُورُكُمْ ... وَتَسْمُوا مِنْ الدُّنْيَا إِلَى كُلِّ مُعْظَمِ (٦)
نَبِيٌّ تَلَاقَتْهُ مِنَ اللهِ رَحْمَةٌ ... وَلَا تَسْأَلُوهُ أَمْرَ غَيْبٍ مُرَجَّمِ (٧)
فَقَدْ كَانَ فِي بَدْرٍ لَعَمْرِي عِبْرَةٌ ... إِلَيْكُمْ يَا قُرَيْشًا وَالقَلِيبِ المُلَمَّمِ (٨)

---

(١) قال أبو ذر: «**الحسي والحساء**: مياه تغور في الرمل تمسكها صلاة الأرض، فإذا حفر عنها وُجدت، **والمزنم** (على هذا القول): المقلل اليسير، ومن رواه: بالحشي، أراد به حاشية الإبل، وهي صغارها وضعافها، وهو الصواب. والمزنم (على هذا القول): أولاد الإبل الصغار، وقد يكون المزنم (هنا): المعز، سميت بذلك للزنمتين اللتين في أعناقها، وهما الهنتان اللتان تتعلقان من أعناقها». وقال السهيلي: يريد: أحلهم بأرض غربة وفي غير عشائرهم، والزنيم والمزنم: الرجل يكون في القوم وليس منهم، أي أنزلهم بمنزلة الحسي، أي: المبعد الطريد، وإنما جعل الطريد الذليل حسيًا؛ لأنه عرضة الأكل، والحسي والحسو: ما يحسى من الطعام حسوًا، أي أنه لا يمتنع على آكل، ويجوز أن يريد بالحسي معنى الغذي من الغنم، وهو الصغير الضعيف الذي لا يستطيع الرعي، يقال: بدلوا بالمال الدثر والإبل الكوم رذال المال وغذاء الغنم والمزنم منه، فهذا وجه يحتمل، وقد أكثرت التنقير عن الحسي في مظانه من اللغة فلم أجد نصًّا شافيًا أكثر من قول أبي علي: الحسية والحسي ما يحسى من الطعام، وإذ قد وجدنا الغذي واحدة غذاء الغنم، فالحسي في معناه غير ممتنع أن يقال والله أعلم. والمزنم أيضًا: صغار الإبل. وقد يكون الحسى أيضًا: الغصن من النبات. ويكون المزنم ماله وهو الورق.

(٢) **الغضاة**: واحدة الغضى، وهو شجر، وفي رواية: «العضاة» وهو شجر أيضًا، الواحدة: عضة. **الأهيضب**: المكان المرتفع. **غودي**: اسم موضع. ومن رواه: عودا، فهو من عاد يعود. **الودي**: صغار النخل. **المكمم**: الذي خرج طلعه.

(٣) **الصلا ويرمرم**: موضعان.

(٤) **مساعير**: يسعرون الحرب ويهيجونها. **الوشيج**: الرماح.

(٥) **تليد**. قديم. **الندى**: الكرم. **الحجون**: موضع بمكة.

(٦) **فدينوا**، أي أطيعوا. **تجسم**: تعظم. **تسمو**: ترتفع.

(٧) **المرجم**: المظنون الذي لا يتيقن.

(٨) **الململم**: المجوع.

غَدَاةَ أَتَى فِي الخَزْرَجِيَّةِ عَامِدًا ... إِلَيْكُمْ مُطِيعًا لِلعَظِيمِ المكَرَّمِ
مُعَانًا بِرُوحِ القُدْسِ يُنْكَى عَدُوُّهُ ... رَسُولًا مِنْ الرَّحْمَنِ حَقًّا بِمَعْلَمِ (١)
رَسُولًا مِنْ الرَّحْمَنِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... فَلَمَّا أَنَارَ الحَقُّ لَمْ يَتَلَعْثَمْ (٢)
أَرَى أَمْرَهُ يَزْدَادُ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ... عُلُوًّا لِأَمْرٍ حَمَّهُ اللهُ مُحْكَمِ (٣)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: عَمْرُو بْنُ بُهْثَةَ، مِنْ غَطَفَانَ.

وَقَوْلُهُ: «بِالحَسِيِّ المزَنَّمِ»، عَنْ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ.

شِعْرُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: يَذْكُرُ إِجْلَاءَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَتْلَ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَالَهَا رَجُلٌ مِنْ المسْلِمِينَ غَيْرُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فِيمَا ذَكَرَ لِي بَعْضُ أَهْلِ العِلمِ بِالشِّعْرِ وَلَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْهُمْ يَعْرِفُهَا لِعَلِيٍّ ﷺ (٤):

عَرَفْتُ وَمَنْ يَعْتَدِلْ يَعْرِفْ ... وَأَيْقَنْتُ حَقًّا وَلَمْ أَصْدِفْ (٥)
عَنْ الكَلِمِ المحْكَمِ اللَّاءِ مِنْ ... لَدَى اللهِ ذِي الرَّأْفَةِ الأَرْأَفِ
رَسَائِلُ تُدْرَسُ فِي المؤْمِنِينَ ... بِهِنَّ اصْطَفَى أَحْمَدَ المصْطَفَى
فَأَصْبَحَ أَحْمَدُ فِينَا عَزِيزًا ... عَزِيزَ المُقَامَةِ وَالموْقِفِ (٦)
فَيَأَيُّهَا الموعِدُوهُ سَفَاهًا ... وَلَمْ يَأْتِ جَوْرًا وَلَمْ يَعْنُفْ (٧)
أَلَسْتُمْ تَخَافُونَ أَدْنَى العَذَابِ ... وَمَا آمِنُ اللهِ كَالأَخْوَفِ
وَأَنْ تُصْرَعُوا تَحْتَ أَسْيَافِهِ ... كَمَصْرَعِ كَعْبٍ أَبِي الأَشْرَفِ
غَدَاةَ رَأَى اللهُ طُغْيَانَهُ ... وَأَعْرَضَ كَالجَمَلِ الأَجْنَفِ (٨)
فَأَنْزَلَ جِبْرِيلَ فِي قَتْلِهِ ... بِوَحْيٍ إِلَى عَبْدِهِ مُلطَفِ

---

(١) **روح القدس**: جبريل ﷺ. **ينكي عدوه**: يبالغ في ضرره. **المعلم**: الموضع المرتفع المشرف.

(٢) **لم يتلعثم**: لم يتأخر ولم يتوقف.

(٣) **حمه**: قدره.

(٤) السيرة لابن هشام ٢/ ١٩٦-١٩٧، البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٥٤٥-٥٤٦.

(٥) **لم أصدف**: لم أعرض.

(٦) **المقامة** (بضم الميم): موضع الإقامة.

(٧) **الموعدوه**: المهددوه. **السفاه**: الضلال. **لم يعنف**: لم يأت غير الرفق.

(٨) **الأجنف**: المائل إلى جهة.

فَدَسَّ الرَّسُولُ رَسُولًا لَهُ ... بِأَبْيَضَ ذِي هَبَّةٍ مُرْهَفِ [(١)]

فَبَاتَتْ عُيُونٌ لَهُ مُعْوِلَاتٍ ... مَتَى يُنْعَ كَعْبٌ لَهَا تَذْرِفِ [(٢)]

وَقُلْنَ لِأَحْمَدَ ذَرْنَا قَلِيلًا ... فَإِنَّا مِنَ النَّوْحِ لَمْ نَشْتَفِ

فَخَلَّاهُمُ ثُمَّ قَالَ اظْعَنُوا ... دُحُورًا عَلَى رَغْمِ الآنُفِ [(٣)]

وَأَجْلَى النَّضِيرَ إِلَى غُرْبَةٍ ... وَكَانُوا بِدَارٍ ذَوِي زُخْرُفِ [(٤)]

إِلَى أَذْرِعَاتٍ رُدَافَى وَهُمْ ... عَلَى كُلِّ ذِي دَبَرٍ أَعْجَفِ [(٥)]

شِعْرُ سَمَّاكٍ اليَهُودِيِّ فِي الرد عَلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه: فَأَجَابَهُ سَمَّاكٌ اليَهُودِيُّ، فَقَالَ [(٦)]:

إِنْ تَفْخَرُوا فَهُوَ فَخْرٌ لَكُمْ ... بِمَقْتَلِ كَعْبٍ أَبِي الأَشْرَفِ

غَدَاةَ غَدَوْتُمْ عَلَى حَتْفِهِ ... وَلَمْ يَأْتِ غَدْرًا وَلَمْ يُخْلِفِ

فَعَلَّ اللَّيَالِيَ وَصَرْفَ الدُّهُورَ ... يُدِيلُ مِنَ العَادِلِ المُنْصِفِ [(٧)]

بِقَتْلِ النَّضِيرِ وَأَحْلَافِهَا ... وَعَقْرِ النَّخِيلِ وَلَمْ تُقْطَفِ [(٨)]

فَإِنْ لَا أَمُتْ نَأْتِكُمْ بِالقَنَا ... وَكُلِّ حُسَامٍ مَعًا مُرْهَفِ [(٩)]

---

(١) **بأبيض**: يعني سيفًا. **الهبة**: الاعتزاز. **المرهف**: القاطع.

(٢) **معولات**: باكيات بصوت. **ينعي**: يذكر خبر قتله. **تذرف**: تسيل بالدموع.

(٣) **اظعنوا**: ارحلوا. **الدحور** (بالدال المهملة): الذل والهوان. **على رغم الآنف**: على المذلة، يقال: أرغم الله أنفه، إذا أذله والآنف: جمع أنف.

(٤) **الغربة** (بضم الغين): الاغتراب. (وبفتح الغين): البعد. **الزخرف**: الزينة وحسن التنعم.

(٥) **أذرعات**: موضع بالشام. **ردافي**: أي مرتدفين يردف بعضهم بعضًا، الواحد: ردفي (كسكرى وسكارى). ويروى: ردافًا، وهو بهذا المعنى. **ذو دبر أعجف**: يعني جملًا. **دبر**: جرح. **الأعجف**: الهذيل الضعيف.

(٦) السيرة لابن هشام ٢/ ١٩٨.

(٧) **يديل**: من الدولة، أي نصيب منه مثل ما أصاب منا. ويريد بالعادل المنصف: النبي ﷺ. قال أبو ذر: فإن قيل: كيف قال اليهود فيه: العادل المنصف، وهو لا يعتقد ذلك؟ فالجواب أن يقال: أن يكون ذلك مما لفظه لفظ المدح ومعناه الذم، مثل قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان] وكما قال الآخر:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانًا

فهذا إن كان ظاهره المدح. فمعناه الذم.

(٨) **الأحلاف**: جمع حلف. وهو الصاحب. ويروى: وإجلائها، يعني وإخراجها من بلادها. **لم تقطف** (بفتح الطاء): لم يؤخذ ثمرها، ويروى بكسر الطاء، أي لم تبلغ زمن القطاف.

(٩) **الحسام المرهف**: السيف القاطع.

بِكَـفٍّ كَمِـيٍّ بِـهِ يَحْتَمِـي ... مَتَـى يَلْـقَ قِرْنًـا لَـهُ يُتْلِـفِ [١]

مَعَ القَوْمِ صَـخْرٌ وَأَشْـيَاعُهُ ... إِذَا غَـاوَرَ القَـوْمَ لَمْ يَضْـعُفِ [٢]

كَلَيْـثٍ بِـتَرْجٍ حَمَـى غِيلَـهُ ... أَخِي غَابَـةٍ هَـاصِرٍ أَجْـوَفِ [٣]

شِعْرُ كَعْبٍ ﷺ فِي إِجْلاءِ بَنِي النَّضِيرِ وَقَتْلِ ابْنِ الأَشْرَفِ: [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٩-٢٠٠، البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٥٤١-٥٤٣، سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٦٨-٤٦٩].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ يَذْكُرُ إِجْلَاءَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَتْلَ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ:

لَقَدْ خَزِيَتْ بِغَدْرَتِهَا الحُبُـورُ ... كَذَاكَ الـدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ يَـدُورُ [٤]

وَذَلِـكَ أَنَّهُـمْ كَفَـرُوا بِـرَبٍّ ... عَزِيـــزٍ أَمْـــرُهُ أَمْـــرٌ كَبِـــيرُ

وَقَدْ أُوتُوا مَعًـا فَهْـمًا وَعِلْـمًا ... وَجَـــاءَهُمْ مِـــنْ اللهِ النَّـــذِيرُ

نَــذِيرٌ صَــادِقٌ أَدَّى كِتَابًــا ... وَآيَـــاتٍ مُبَيَّنَـــةً تُنِـــيرُ

فَقَالُوا: مَا أَتَيْتَ بِأَمْرِ صِدْقٍ ... وَأَنْــتَ بِمُنْكَـرٍ مِنَّـا جَـدِيرُ [٥]

فَقَالَ: بَلَى لَقَـدْ أَدَّيْـتُ حَقًّـا ... يُصَـــدِّقُنِي بِـــهِ الفَهِـــمُ الخَبِـــيرُ

فَمَنْ يَتْبَعْهُ يُهْـدَ لِكُـلِّ رُشْـدٍ ... وَمَـــنْ يَكْفُـــرْ بِـــهِ يُجْـــزَ الكَفُـــورَ

فَلَـمَّا أُشْرِبُـوا غَـدرًا وَكُفْـرًا ... وَحَادَ بِهِـمْ عَـنْ الحَـقِّ النُّفُـورِ [٦]

أَرَى اللهُ النَّبِيَّ بِرَأْيٍ صَـدْقٍ ... وَكَـــانَ اللهُ يَحْكُـــمُ لَا يَجُـــورُ

فَأَيَّـــدَهُ وَسَـــلَّطَهُ عَلَـــيْهِمْ ... وَكَـــانَ نَصِـــيرُهُ نِعْـــمَ النَّصِـــيرِ

فَغُودِرَ مِنْهُمْ كَعْبٌ صَرِيعًـا ... فَـذَلَّتْ بَعْـدَ مَصْـرَعِهِ النَّضِـيرُ

عَلَى الكَفَّيْنِ ثَـمَّ وَقَـدْ عَلَتْـهُ ... بِأَيْـــدِينَا مُشَـــهَّرَةٌ ذُكُـــورُ [٧]

---

(١) **الكمي**: الشجاع. **القرن**: الذي يقاومك في قتال.

(٢) **صخر**: هو أبو سفيان بن حرب.

(٣) **ترج**: جبل بالحجاز تنسب إليه الأسود. **الغيل**: أجمة الأسد. **الهاصر**: الذي يكسر فريسته إذا أخذها. **والأجوف**: العظيم الجوف.

(٤) **خزيت**: ذلت. **الحبور**: جمع حبر، وهو العالم، ويقال في جمعه: أحبار أيضًا، ويريد «بالحبور»، علماء اليهود. **صرف**: تغير. **يدور**: يتحول وينتقل.

(٥) **جدير**: حقيق وخليق.

(٦) **حاد بهم**: أي مال بهم.

(٧) **مشهرة ذكور**: سيوف مسلولة من أغمادها، قوية قاطعة.

بِـأَمْرِ مُحَمَّـدٍ إِذْ دَسَّ لَـيْلًا ... إِلَى كَعْـبٍ أَخَـا كَعْـبٍ يَسِـيرُ

فَـمَا كَـرِهَ فَأَنْزَلَـهُ بِمَكْـرٍ ... وَمَحْمُـودٌ أَخُـو ثِقَـةٍ جَسُـورُ

فَتِلْكَ بَنُو النَّضِيرِ بِدَارِ سَوْءٍ ... أَبَـارَهُمْ بِـمَا اجْتَرَمُـوا المبِـيرُ [(١)]

غَدَاةَ أَتَاهُمْ فِي الزَّحْفِ رَهْوًا ... رَسُـولُ الله وَهْـوَ بِهِـمْ بَصِـيرُ [(٢)]

وَغَسَّـانَ الحُـمَاةَ مُـوَازِرُوهُ ... عَـلَى الأَعْـدَاءِ وَهْـوَ لَهُـمْ وَزِيـرُ

فَقَالَ السَّلَمُ وَيْحَكُمْ فَصَدُّوا ... وَحَالَفَ أَمْـرَهُمْ كَـذِبٌ وَزُورُ [(٣)]

فَذَاقُوا غِـبَّ أَمْـرِهِمْ وَبَـالًا ... لِكُـلِّ ثَلَاثَـةٍ مِـنْهُمْ بَعِـيرُ [(٤)]

وَأَجْلَـوْا عَامِـدِينَ لِقَيْنُقَـاعِ ... وَغُـودِرَ مِـنْهُمْ نَخْـلٌ وَدُورُ [(٥)]

شِعْرُ سَمَّاكٍ فِي الرَّدِّ عَلَى كَعْبٍ رضي الله عنه [(٦)]: فَأَجَابَهُ سَمَّاكٌ اليَهُودِيُّ، فَقَالَ:

أَرِقْتُ وَضَافَنِي هَـمٌّ كَبِيرُ ... بِلَيْـلٍ غَـيْرُهُ لَيْـلٌ قَصِـيرُ [(٧)]

أَرَى الأَحْبَارَ تُنْكِـرُهُ جَمِيعًـا ... وَكُلُّهُـمْ لَـهُ عِلْـمٌ خَبِـيرُ

وَكَانُوا الدَّارِسِينَ لِكُلِّ عِلْمٍ ... بِـهِ التَّـوْرَاةُ تَنْطِـقُ وَالزَّبُـورُ

قَتَلْتُمْ سَيِّدَ الأَحْبَـارِ كَعْبًـا ... وَقِـدْمًا كَـانَ يَـأْمَنُ مَـنْ يُجِـيرُ

تَـدَلَّى نَحْـوَ مَحْمُـودٍ أَخِيـهِ ... وَمَحْمُـودٌ سَرِيرَتُـهُ الفُجُـورُ

فَغَـادَرَهُ كَـأَنَّ دَمًـا نَجِيعًـا ... يَسِـيلُ عَـلَى مَدَارِعِـهِ عَبِـيرُ [(٨)]

فَقَـدْ وَأَبِـيكُمْ وَأَبِي جَمِيعًـا ... أُصِـيبَتْ إِذْ أُصِـيبَ بِـهِ النَّضِـيرُ

فَإِنْ نَسْلَمْ لَكُمْ نَتْرُكْ رِجَالًا ... بِكَعْـبٍ حَـوْلَهُمْ طَـيْرٌ تَـدُورُ

---

(١) **أبارهم**: أهلكهم. **اجترموا**: كسبوا.

(٢) **الرهو**: مشي في سكون.

(٣) **السلم** (بفتح السين وكسرها): الصلح. **حالف**: صاحب.

(٤) **غب أمرهم**: أي أبعد أمرهم. **الوبال**: النكال والقتل.

(٥) **عامدين**: قاصدين. **قينقاع**: قبيلة من اليهود.

(٦) السيرة لابن هشام ٢/ ٢٠٠.

(٧) **أرقت**: امتنع النوم عني. **ضافني**: نزل بي.

(٨) **النجيع**: الدم الطري. **المدارع**: جمع مدرعة، وهي ثوب يلبس. وقال بعضهم: لا تكون المدرعة إلا من صوف. ويروى: (مذارعه). بالذال المعجمة من البعير والدابة: قوائمها، وأراد بها هنا: اليدين والرجلين. **والعبير**: الزعفران.

كَـأَنَّهُمْ عَتَـائِرُ يَـوْمَ عِيـدٍ ... تُـذَبَّحُ وَهْـيَ لَـيْسَ لَهَـا نَكِـيرُ [١]

بِبِيضٍ لَا تُلِيقُ لَـهُنَّ عَظْـمًا ... صَـوَافِي الحَـدِّ أَكْثَرُهَـا ذُكُـورُ [٢]

كَمَا لَاقَيْتُمْ مِنْ بَأْسِ صَـخْرٍ ... بِأُحْدٍ حَيْثُ لَيْسَ لَكُـمْ نَصِـيرُ [٣]

شِعْرُ ابْنِ مِرْدَاسٍ فِي امْتِدَاحِ رِجَالِ بَنِي النَّضِيرِ [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠١]:

وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ أَخُو بَنِي سُلَيْمٍ يَمْتَدِحُ رِجَالَ بَنِي النَّضِيرِ:

لَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الـدَّارِ لَمْ يَتَصَـدَّعُوا ... رَأَيْتَ خِلَالَ الدَّارِ مَلهًـى وَمَلْعَبَـا [٤]

فَإِنَّكَ عَمْرِي هَـلْ أُرِيـكَ ظَعَائِنَـا ... سَلَكْنَ عَـلَى رُكْـنِ الشَّـطَاة فَتَيْأَبَـا [٥]

عَلَـيْهِنَّ عِـينٌ مِـنْ ظِبَـاءِ تَبَالَـةٍ ... أَوَانِـسُ يُصْـبِينَ الحَلِـيمَ المجَرِّبَـا [٦]

إِذَا جَاءَ بَاغِي الخَـيْرِ قُلْـنَ فُجَـاءَةً ... لَـهُ بِوُجُـوهٍ كَالـدَّنَانِيرِ مَرْحَبَـا

وَأَهْـلًا فَـلَا مَمْنُـوعَ خَـيْرٍ طَلَبْتَـهُ ... وَلَا أَنْـتَ تَخْشَـى عِنْـدَنَا أَنْ تُؤَنَّبَـا

فَلَا تَحْسَبَنِّي كُنْتُ مَوْلَى ابْنِ مِشْكَمٍ ... سَلَامٍ وَلَا مَوْلَى حُيَـيِّ بْـنِ أَخْطَبَـا [٧]

شِعْرُ خَوَّاتٍ فِي الرَّدِّ عَلَى ابْنِ مِرْدَاسٍ [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠١-٢٠٢]:

فَأَجَابَهُ خَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ، أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ فَقَالَ:

تُبَكِّي عَـلَى قَـتْلَى يَهُـودَ وَقَـدْ تَـرَى ... مِنْ الشَّجْوِ لَـوْ تَبْكِـي أَحَـبَّ وَأَقْرَبَـا [٨]

فَهَـلَّا عَـلَى قَـتْلَى بِـبَطْنِ أُرَيْنِـقٍ ... بَكَيْتَ وَلَمْ تُعْوِلْ مِـنَ الشَّـجْوِ مُسْـهِبَا [٩]

إِذَا السِّلْمُ دَارَتْ فِي صَدِيقٍ رَدَدْتَهَـا ... وَفِي الدِّينِ صَدَّادًا وَفِي الحَرْبِ ثَعْلَبَـا [١٠]

عَمَـدْتَ إِلَى قَـدْرٍ لِقَوْمِـكَ تَبْتَغِـي ... لَهُـمْ شَـبَهًا كَـيْمَا تَعِـزَّ وَتَغْلِبَـا

---

(١) **العتائر**: جمع عتيرة، وهي الذبيحة.

(٢) **لا تليق**: لا تبقى.

(٣) **صخر**: هو أبو سفيان بن حرب.

(٤) **لم يتصدعوا**: لم يتفرقوا.

(٥) **الظعائن**: النساء في الهوادج. **الشطاة** (بالطاء المهملة): موضع. تيأب: موضع.

(٦) **العين**: جمع عيناء، وهي الكبيرة العين. **تبالة**: موضع باليمن. **ويصبين**: يذهبن العقل.

(٧) **المولى** (هنا): الحليف والصاحب.

(٨) **الشجو**: الحزن.

(٩) **أرينق** (بالراء والزاي): موضع. **لم تعول**: لم ترفع صوتك بالبكاء. **المسهب**: المتغير الوجه.

(١٠) **الصداد**: الذي يصد عن الدين والحق. **ثعلبا**: أي كثير الروغان، أي لا يصدق في الحرب.

فَإِنَّكَ لَمَّا أَنْ كَلِفْتَ تَمَدُّحًا ... لِمَنْ كَانَ عَيْبًا مَدْحُهُ وَتَكَذُّبَا

رَحَلْتَ بِأَمْرٍ كُنْتَ أَهْلًا لِمِثْلِهِ ... وَلَمْ تُلْفِ فِيهِمْ قَائِلًا لَكَ مَرْحَبَا

فَهَلَّا إِلَى قَوْمٍ مُلُوكٍ مَدَحْتَهُمْ ... تَبَنَّوْا مِنَ العِزِّ المُؤَثَّلِ مَنْصِبَا (١)

إِلَى مَعْشَرٍ صَارُوا مُلُوكًا وَكُرِّمُوا ... وَلَمْ يُلْفَ فِيهِمْ طَالِبُ العُرْفِ مُجْدِبَا (٢)

أُولَئِكَ أَحْرَى مِنْ يَهُودَ بِمِدْحَةٍ ... تَرَاهُمْ وَفِيهِمْ عِزَّةُ المَجْدِ تُرْتُبَا (٣)

شِعْرُ ابْنِ مِرْدَاسٍ فِي الرَّدِّ عَلَى خَوَّاتٍ [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٢]:

فَأَجَابَهُ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ السَّلَمِيُّ، فَقَالَ:

هَجَوْتَ صَرِيحَ الكَاهِنَيْنِ وَفِيكُمْ ... لَهُمْ نِعَمٌ كَانَتْ مِنَ الدَّهْرِ تُرْتُبَا (٤)

أُولَئِكَ أَحْرَى لَوْ بَكَيْتَ عَلَيْهِمْ ... وَقَوْمُكَ لَوْ أَدَّوْا مِنَ الحَقِّ مُوجَبَا

مِنْ الشُّكْرِ إِنَّ الشُّكْرَ خَيْرٌ مَغَبَّةً ... وَأَوْفَقُ فِعْلًا لِلَّذِي كَانَ أَصْوَبَا (٥)

فَكُنْتَ كَمَنْ أَمْسَى يُقَطِّعُ رَأْسَهُ ... لِيَبْلُغَ عِزًّا كَانَ فِيهِ مُرَكَّبَا

فَبَكِّ بَنِي هَارُونَ وَاذْكُرْ فِعَالَهُمْ ... وَقَتْلَهُمْ لِلجُوعِ إِذْ كُنْتَ مُجْدِبَا

أَخَوَّاتُ أَذْرِ الدَّمْعَ بِالدَّمْعِ وَابْكِهِمْ ... وَأَعْرِضْ عَنْ المَكْرُوهِ مِنْهُمْ وَنَكِّبَا (٦)

فَإِنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ ... لَأُلْفِيتَ عَمَّا قَدْ تَقُولُ مُنَكِّبَا

سِرَاعٌ إِلَى العَلْيَا كِرَامٌ لَدَى الوَغَى ... يُقَالُ لِبَاغِي الخَيْرِ أَهْلًا وَمَرْحَبَا

شِعْرٌ لِكَعْبٍ أَوْ ابْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنهما فِي الرَّدِّ عَلَى ابْنِ مِرْدَاسٍ: [السيرة لابن هشام ٢/ ٢٠٢-٢٠٣].

فَأَجَابَهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، أَوْ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنهما، فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ، فَقَالَ:

لَعَمْرِي لَقَدْ حَكَّتْ رَحَى الحَرْبِ بَعْدَمَا ... أَطَارَتْ لُؤَيًّا قَبْلُ شَرْقًا وَمَغْرِبَا

بَقِيَّةَ آلِ الكَاهِنَيْنِ وَعِزَّهَا ... فَعَادَ ذَلِيلًا بَعْدَ مَا كَانَ أَغْلَبَا (٧)

---

(١) **المؤثل**: القديم.

(٢) **مجدب**: من الجدب، وهو القحط وقلة الخير.

(٣) **ترتب**: (بضم التاء الثانية وفتحها): ثابت. والتاء الأولى فيه زائدة، وهو من «رتب» عند سيبويه.

(٤) **الصريح**: الخالص النسب. **الكاهنان**: قبيلان من يهود المدينة، يزعمون أنهم من ولد هارون عليه السلام. ويروى «الكاهنين» للجمع.

(٥) **خير مغبة**: أي خير عاقبة بعد.

(٦) **نكب**: عرج عنهم.

(٧) **الأغلب**: الشديد.

فَطَاحَ سَلَامٌ وَابْنُ سَعْيَةَ عَنْوَةً ... وَقِيدَ ذَلِيلًا لِلْمَنَايَا ابْنُ أَخْطَبَا (١)

وَأَجْلَبَ يَبْغِي العِزَّ وَالذُّلَّ يَبْتَغِي ... خِلَافَ يَدَيْهِ مَا جَنَى حِينَ أَجْلَبَا (٢)

كَتَارِكِ سَهْلِ الأَرْضِ وَالحَزْنُ هَمُّهُ ... وَقَدْ كَانَ ذَا فِي النَّاسِ أَكْدَى وَأَصْعَبَا (٣)

وَشَأْسٌ وعَزَّالَ وَقَدْ صَلَيَا بِهَا ... وَمَا غُيِّبَا عَنْ ذَاكَ فِيمَنْ تَغَيَّبَا

وَعَوْفُ بْنُ سَلمَى وَابْنُ عَوْفٍ كِلَاهُمَا ... وَكَعْبٌ رَئِيسُ القَوْمِ حَانَ وَخُيِّبَا (٤)

فَبُعْدًا وَسُحْقًا لِلنَّضِيرِ وَمِثْلِهَا ... إِنْ أَعْقَبَ فَتْحٌ أَوْ إِنْ اللهُ أَعْقَبَا (٥)

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ **كتب السنة:** جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٨/ ٢١٨-٢٢٣، جمع الفوائد للمغربي (١٠٩٤هـ) ص ١٠٠٣-١٠٠٥، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٣٨٢-٣٩٠، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٦٣٣-٦٤٣.

ب ـ **كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي:** مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٣١١-٣٢٢، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ١٩٠-٢٠٢، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ١/ ٣٦٣ -٣٨٣، الطبقات الكبير لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٥٣ -٥٥، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٥٠-٥٥٥، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٣/ ٣٥٤-٣٦٨، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ١٤٦-١٥١، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ١٤٨-١٥٤، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ١٢٧-١٢٩، ٢٤٨-٢٤٩، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٥/ ٥٣٣-٥٥٠، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ١٨١-١٩٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٤/ ٤٥١-٤٧٧، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٢/ ٥٥٩-٥٧٠.

ج ـ **كتب السيرة الحديثة:** السيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/ ٣٠٤-٣١١، صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٤٣-٢٤٥، السيرة النبوية لرزق الله ٤١٧-٤٢٣، السيرة النبوية العطرة لشقرة ٤٠٦-٤٢٠، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٠٣-٢١٨.

د ـ **كتب الغزوات والسرايا:** غزوات الرسول ﷺ مع اليهود في الظلال ٦٣-٨٠، غزوة الأحزاب لباشميل ٤٦-٦٤، غزوة الخندق لأبي خليل ٣٣-٥٠، الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٥٣-١٨٤، حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ١/ ٢٣٥-٣٠٦، غزوات النبي ﷺ لقطب ٦٣-٨٠، غزوة الأحزاب للشافعي ٦-٣٥.

هـ ـ **كتب أخرى:** بنو إسرائيل في القرآن والسنة لطنطاوي ٢٧٧-٢٩٠، الرسول ﷺ واليهود للمرصفي ٢/ ٧٤٧-٧٨٢، رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ٧٧-١١٣، والله يعصمك من الناس للجدع ٨٠-٩٦.

---

(١) **طاح**: ذهب وهلك. **العنوة**: القهر والذلة.

(٢) قال أبو ذر: من رواه بالجيم فمعناه جمع وصاح، ومن رواه بالحاء المهملة فمعناه جمع أيضًا، إلا أن الذي بالجيم لا يكون إلا مع صياح.

(٣) **الحزن**: ما علا من الأرض. **أكدى**: لم ينجح في سعيه، يقال: أدى الرجل في حاجته إذا لم يظفر بها.

(٤) **حان**: هلك.

(٥) **إن الله أعقبا**: أي إن الله جاء بالنصر عليهم.

خرائط غزوة بني النضير

(١)

أطلس تاريخ الإسلام لمؤنس ص ٦٦.

(٢)

خريطة
تبين خط سير رسول الله
(صلى الله عليه وسلم)
عند انتقاله من قباء إلى منازل بني
مالك بن النجار حيث نزل في
دار أبي أيوب خالد الأنصاري حتى
بني مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم)

أطلس تاريخ الإسلام لمؤنس ص ٦٧.

(٣)

حرة خيبر
خيبر
الجرف
بني النخل
المدينة المنورة
أبيار علي

حرةُ واقم (اللابة الشرقية)
النبيت
بنو عبد الأشهل وزعوراء
بنو ظفر
بنو الحارث بن الخزرج
السنح
البقيع
مسجد رسول الله
جبل سلع
بنو واقف
وادي بطحان
بنو الحارث
منازل بني قينقاع
وادي مهزور
بنو قريظة
وادي العقيق
وادي مذينب
منازل بني النضير
بنو عوف بن الخزرج
بنو عوف بن مالك بن الأوس
مسجد قباء

بنو النَّضير
(٤ هـ)
﴿مَا قطعتم مِنْ لِينَة أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذن الله وَلِيُخْزِيَ الفاسقين﴾ (الحشر ٥٩/٥)

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ص ١٢٩.

(٤)

غزوة بني النضير من ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة المباركة

قال تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار * ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار) الحشر ٢ - ٣

شمال
بداية جبل أُحـــد
بنو الحارثة
النبيت
بنو عبد الأشهل وزعوراء
بنو ظفر
بنو الحارث من الخزرج
مسجد الرسول ﷺ
جبل سلع
بنو النجار
بنو زريق
بنو واقف
وادي بطحان
بنو الحارث
وادي مهزور
بعاث
بنو سالم بن عوف
بنو قريظة
يـــثرب
وادي العقيق
القواقلة
حصار المسلمين لبني النضير
بنو النضير
بنو عوف بن الخزرج
أطم كعب بن الأشرف
بنو عوف بن مالك
مسجد قُباء
جبل عير

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٧٠.

(٥)

حدائق الأنوار لبحرق ص ٥٤٠.

(٦)

٢- حصار بني النضير

الإدارة العسكرية في حروب الرسول محمد ﷺ لوتر ص ٢٠٧.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من غزوة بني النضير
المطلب الأول
الدروس العقائدية

١ ـ إثبات معيَّة الله ﷻ لرسوله ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تآمر اليهود ـ عليهم اللعنة وأظفرنا الله بهم وأظهرنا عليهم ـ أكثر من مرة على حياة رسول الله ﷺ، وفي كل مرة ينجيه الله ـ تبارك وتعالى ـ من مكرهم وتآمرهم.

تأمل معي كيف ينزل الله ـ تبارك وتعالى ـ جبريل ليخبر رسوله محمدًا ﷺ بما اتفق عليه يهود بني النضير سرًّا من إلقاء الحجر على رأسه وقتله، فيقوم من فوره ولتوه مغادرًا يهود بني النضير دون أن يحدِّثهم بشيء.

إن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على عناية الله برسوله ﷺ وهو الذي تعهد بحفظه وحمايته حتى يبلغ رسالة ربه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]». **[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧١]**.

ويقول د/ الزيد: «إن في قصة بني النضير الذين أرادوا قتل الرسول ﷺ ومجيء الخبر بالوحي من السماء يعلم الرسول ﷺ بذلك، آية للرسول ﷺ من ضمن الآيات التي أيد بها الرسول ﷺ وهي أيضًا مصداق لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]». **[فقه السيرة للزيد ٣٥٨]**.

٢ ـ إثبات النبوة للنبي محمد ﷺ:

يقول د/ البوطي: «الخبر الذي جاء من الله تعالى إلى رسوله ﷺ بكشف ما بيته اليهود من الغدر به ﷺ، تُعد واحدة من الخوارق الكثيرة التي أكرم الله بها نبيه ﷺ قبل بعثته وأثنائها، وهى مما ينبغي أن يسترعي انتباهنا ليحملنا على مزيد من الإيمان بنبوته ورسالته ﷺ، والاقتناع بأن شخصيته النبوية تعتبر الأساس الأول لوجوده وصفاته الشخصية الأخرى.

وقد عبَّر بعض الكاتبين في السيرة وفقهها عن هذا الخبر الإلهي الذي نزل على الرسول ﷺ بفضح نوايا اليهود ـ عبر عن ذلك بأنه أُلهم ما بيته اليهود له! وكلمة الإلهام تدل على معنى مشترك للناس كلهم، فحاسة الإلهام ـ عن طريق الإشارات والقرائن ـ حاسة طبيعية لا تختص بها فئة من الناس دون غيرهم، وكلمة (الخبر الإلهي) كما يستعملها علماء السيرة ـ رحمهم الله تعالى ـ إنما تدل على معنى هو من سمات النبوة وخصوصياتها، ونحن نعلم أن هذا المعنى دون غيره هو الذي جعل النبي ﷺ يحس بالمكر، فهو الوفاء من الله تعالى بوعده القاطع لرسوله: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾[المائدة].

وإذا كان الأمر كذلك، ففيم التمويه في التعبير؟... أَمَا إن هذا ليس إلا مظهرًا من مظاهر إنكار معجزاته ﷺ، وقد علمت فيما مضى أن مصدر إنكار المعجزات للرسول ﷺ ـ بعد ثبوتها بالقطع المتواتر ـ ليس إلا ضعفًا في الإيمان بنبوته ﷺ». [فقه السيرة للبوطي ٢٠٤].

ويقول د/ فيض الله: «وقد صرحت كتب السيرة هنا القديمة والحديثة، بأن الله تعالى أوحى إلى نبيه، بما تآمر به اليهود، فيقول ابن هشام: «فأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم...»».

ولا شك أنه ﷺ كان يتمتع ببصيرة نافذة، وفراسة صادقة، لكن رسالته لم تعتمد على شيء من ذلك، وإنما كانت تعتمد بالجملة والتفصيل، وقبل كل شيء وبعد كل شيء، على الوحي: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم].

لهذا لم نشتهِ أن يُعَبِّر بعض الذين كتبوا في التفسير عما بيَّته اليهود بقوله: «فأُلهِمَ رسول الله ﷺ ما يبيت اليهود من غدر»، وبعض الكاتبين في فقه السيرة بقوله: «أُلهِمَ رسولُ الله ﷺ الخطرَ المُدَبَّر له»؛ لأن الإلهام إحساس داخلي عميق ينعكس حيال الأحداث الكونية، وهو ـ كما يُعَرِّفُه أهل العلم ـ بتعبير أدق: ما يُلقى في الرَّوع بطريق الفيض، فيحمل المُلهَم على انتهاج مسلك خاص، من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة.

وهذا المعنى لا يختص بالرسل، ويشترك فيه أهل الحصافة والفكر جميعًا، بخلاف الوحي والخبر الإلهي، فإنه من دلائل النبوة، وخصوصيات الرسالة، لا مطمح لمخلوق فيها.

ولا شك أن هذا الإيحاءَ الإلهي المُعْجِز، هو الذي نفث في روع النبي ﷺ فنهض لتوِّه عَجِلًا، متظاهرًا بقضاء بعض حاجاته، وقَفِل راجعًا إلى المدينة، ونجَّاه الله بذلك من تلك المكيدة.

إن لدقة التعبير هنا، حظًّا من الإيمان واليقين، أكثر من حظها من العلم والبيان، ولا يحسن بالكاتب أن ينصرف في التعبير عن الحقيقة، إذا انقدحت في ثوب الإعجاز، إلى أي تعبير آخر، مهما كان فيه ظلال من لفت أو إثارة». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٦٣-١٦٤].

٣ ـ أن تتحقق في المسلم عقيدة (الولاء والبراء):

قَالَ مُحَمَّدُ بن مَسْلَمَةَ رضي الله عنه: «**تَغَيَّرَتِ الْقُلُوبُ، وَمَحَا الإِسْلامُ الْعُهُودَ**».

نعم تغيرت القلوب عن موالاة اليهود بعد نقضهم لعهدهم مع رسول الله ﷺ، فهل تتغير قلوبنا مع أحفاد بني النضير الملاعين، الذين تجمعوا من أشتات الأرض ليُقَتِّلوا ويُذَبِّحوا أبناء المسلمين، ويساعدوا على ذلك في كل مكان، هل آن لحكام المسلمين وشعوبهم أن يعوا الدرس من سيرة رسول الله ﷺ وموقف الصحابي الجليل محمد بن مَسْلَمَةَ رضي الله عنه فيقاطعوا اليهود، وتتغير قلوبهم تجاههم، أم هو

الخزي والعار والنفاق الذي استشرى في مجتمعات المسلمين، أم هو الجبن والضعف والخَوَرُ الذي أصبح صفة لمسلمي اليوم بعد أن كان صفة ليهود الأمس، ولا والله إن جبن اليهود هو هو لا يتغير، فالله ﷻ هو القائل: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

ولكن دب إلى قلوب المسلمين الوهن: حب الدنيا وكراهية الموت، فهانت عليهم أنفسهم، فهانوا على أعدائهم.

٤ ـ تحالف المنافقين مع اليهود:

وهنا يعلم اليهود أن لا مفر من تنفيذ أوامر رسول الله ﷺ والجلاء عن المدينة وإلا حاربهم وقضى عليهم.

ولكن الطابور الخامس طابور المنافقين لابد وأن يظهر في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ الإسلام، يظهر على لسان عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلُول الذي أرسل ليهود بني النضير بأنه معهم وسيؤازرهم، ويدخل في حصونهم ضد محمد ﷺ، وهذا ما يجعل يهود بني النضير يرسلون إلى رسول الله ﷺ بأنهم لن يخرجوا وليفعل ما بدا له.

«وعز على المنافق عبد الله بن أبي أن يرى بني النضير يبعدون عن المدينة ويلحقون ببني قينقاع في منفاهم وهو لا يحرك ساكنًا، فأرسل إليهم يحرضهم على عصيان أمر النبي ﷺ ومقاومته، ويعدهم بالمساعدة بالرجال والسلاح قائلًا: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم يدخلون معكم حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم، وداخل بني النضير من ابن أبي شك لما ذكروا من تخاذله عن الوفاء بعهده لبني قينقاع حين حاصرهم المسلمون، وكان قد وعدهم العون، ولمعرفتهم بما بين قومه بني قريظة وبين المسلمين من حلف؛ ولأن في مقدورهم إن أجلوا عن المدينة إلى خيبر أو غيرها من النواحي المجاورة أن يعودوا إلى يثرب حين يثمر نخيلهم، فيجنوا الثمرات ثم يعودوا أدراجهم». [**القيم الخلقية لفتح الباب ٢١٩-٢٢٠**].

وحينما جاء خبر رفضهم للجلاء هنالك يُكَبِّرُ رسول الله ﷺ ويُكَبِّرُ المسلمون من حوله ويقول ﷺ: **حاربت يهود**، ويعلن التعبئة العامة بين صفوف المسلمين.

وما كان رفض اليهود للجلاء إلا لوعد المنافقين لهم بالمساعدة، وهو تحالف شيطاني دائم بين الكفار والمنافقين في كل زمان ومكان، وها نحن اليوم نرى دعاة التطبيع مع الكيان الصهيوني رغم ما يفعلونه بإخواننا المسلمين في فلسطين، وفي كل مكان.

هؤلاء هم المنافقون الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ أيضًا، وكانوا يزينون للذين كفروا من أهل الكتاب بأنهم معهم وأنهم سيقاتلون معهم وفي حصونهم، ولكن سُنَّةُ الله باقية بأن الكفار والمنافقين جبناء ولا صبر لهم على مواجهة المسلمين الصادقين، فما أن حاصرهم رسول الله ﷺ حتى تخلى عنهم المنافقون، كما تخاذل عن نصرتهم بنو جلدتهم من بني قريظة، فلم يمدوهم بمال ولا رجال ولا سلاح، وتركوهم يواجهون مصيرهم المحتوم أمام رسول الله ﷺ جزاء خيانتهم ونقضهم للعهود، عليهم اللعنة إلى يوم القيامة.

٥ ـ الولاء بين المنافقين واليهود وإغواء الشيطان لأتباعه:

يقول صاحب الظلال: «لقد حكى القرآن الكريم في سورة الحشر ما قاله المنافقون ليهود بني النضير، ثم لم يفوا به، وخذلوهم فيه حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب.

ولكن في كل جملة قرآنية لفتة تقرر حقيقة وتمس قلبًا وتبعث انفعالًا وتقر مقومًا من مقومات التربية والمعرفة والإيمان العميق.

وأول لفتة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [الحشر: ١١]، فأهل الكتاب هؤلاء كفروا، والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام!

ثم هذا التوكيد الشديد في وعد المنافقين لإخوانهم: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾[الحشر: ١١].

والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير ما يقررون، ويؤكد غير ما يؤكدون: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾[الحشر].

وكان ما شهد به الله، وكذب ما أعلنوه لإخوانهم وقرروه!

ثم يقرر حقيقة قائمة في نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾[الحشر].

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله، ولو خافوا الله ما خافوا أحدًا من عباده، فإنما هو خوف واحد ورهبة واحدة، ولا يجتمع في قلبٍ خوفٌ من الله وخوفٌ من شيء سواه، فالعزة لله جميعًا، وكل قوى الكون خاضعة لأمره ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[هود: ٥٦] فممن يخاف إذن ذلك الذي يخاف الله؟ ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله.. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة، ويقرر في الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة، ويمضي يقرر حالة قائمة في نفوس المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب تنشأ من حقيقتهم السابقة ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في «تشخيص» حالة المنافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان، بشكل واضح للعيان، ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة، فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين، فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان، حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء، وسبحان العليم الخبير!

وتبقى الملامح النفسية الأخرى﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم، وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة.. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

والمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض، كما نرى تجمع المنافقين أحيانًا في معسكر واحد، ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم، إنما هو مظهر خارجي خادع، وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع، فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع المنظور، وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء، وتصادم الاتجاهات، وما صدق المؤمنون مرة وتجمعت قلوبهم على الله حقًّا إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذي لا يمثل حقيقة الحال، وما صبَر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار، وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس في القلوب الشتيتة المتفرقة!

إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب من المسلمين عندما تتفرق قلوب المسلمين، فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التي عرضتها الآية في المقطع السابق في هذه السورة، فأما في غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز، وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

والقرآن يقرر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين؛ ليهوِّن فيها من شأن أعدائهم، ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم، فهو إيحاء قائم على حقيقة، وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت، ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله، وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد فلم تقف لهم قوة في الحياة!

والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم، فهذا نصف المعركة، والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة في سياق وصفه لحادث وقع، وفي سياق التعقيب عليه، وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل، شرحًا يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه، ويتدبره كل من جاء بعدهم، وأراد أن يعرف الحقيقة من العالِم بالحقيقة!

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه، فقد سبقه حادث بني قينقاع الذي تشير إليه الآية بعد ذلك غالبًا: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥﴾ [الحشر].

ووقعة بني قينقاع كانت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فلما انتصر المسلمون على المشركين في بدر كره اليهود ذلك، وحقدوا على المسلمين أن ينالوا هذا الانتصار العظيم، وخافوا أن يؤثر هذا على موقفهم في المدينة فيضعف من مركزهم بقدر ما يقوي من مركز المسلمين، وبلغ رسول الله ﷺ ما يتهامسون به وما يفكرون فيه من الشر، فذكَّرهم العهد وحذرهم مغبة هذا الاتجاه، فردوا ردًّا غليظًا مغيظًا فيه تهديد، قَالُوا: يَا **مُحَمَّدُ، إِنَّكَ تَرَى أَنَّا قَوْمُكَ! لَا يَغُرَّنَّكَ أَنَّكَ لَقِيتُ قَوْمًا لَا عِلْمَ لَـهُمْ بِالْحَرْبِ، فَأَصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً، إِنَّا وَاللهِ لَئِنْ حَارَبْنَاكَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّا نَحْنُ النَّاسَ!**

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٧].

ثم أخذوا يتحرشون بالمسلمين، وذكرت الروايات من هذا أن امرأة من العرب قدمت ببضاعة لها فباعتها بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدت يهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام رأس المنافقين عبد الله بن أُبي ابن سلول يجادل رسول الله ﷺ عنهم باسم ما كان بينهم وبين الخزرج من عهد! ولكن الحقيقة كانت هي هذه الصلة بين المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب! فرضي رسول الله ﷺ في النهاية أن يجلوا عن المدينة، وأن يأخذوا معهم أموالهم ومتاعهم ـ إلا السلاح ـ ورحلوا إلى الشام.

فهذه هي الواقعة التي يشير إليها القرآن ويقيس عليها حال بني النضير وحقيقتهم، وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء!

ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة، فانتهوا بهم إلى تلك النهاية البائسة، يضرب لهم مثلًا بحال دائمة: حال الشيطان مع الإنسان، الذي يستجيب لإغرائه فينتهي وإياه إلى شر مصير: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر].

وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بني الإنسان، تتفقان مع طبيعته ومهمته، فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان وحاله هو هذا الحال!

وهي حقيقة دائمة ينتقل السياق القرآني إليها من تلك الواقعة العارضة، فيربط بين الحادث المفرد والحقيقة الكلية في مجال حي من الواقع، ولا ينعزل بالحقائق المجردة في الذهن، فالحقائق المجردة الباردة لا تؤثر في المشاعر، ولا تستجيش القلوب للاستجابة، وهذا فرق ما بين منهج القرآن في خطاب القلوب، ومنهج الفلاسفة والدارسين والباحثين!». [**الظلال لقطب ٦/ ٣٥٢٨-٣٥٣٠**].

٦ ـ تآمر المنافقين بين أُحد وبني النضير:

يقول د/ الغضبان: «يحدثنا القرآن الكريم عن هذه الحادثة، وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

إن الصورة لتختلف تمامًا اليوم عنها في أُحد، فلئن كان التحدي سافرًا في أُحد، فلقد خنسوا اليوم وراحوا يعملون في الخفاء كخفافيش الظلام، لم يعودوا يملكون القوة على المواجهة، ولا القوة على التحدي، إنما يتآمرون من وراء الأقنعة علهم ينتصرون مع حلفائهم اليهود على المسلمين، فهم يدعون بني النضير إلى الثبات في وجه المسلمين وإلى المقاومة، كما يعلنون لهم أن مددهم قادم ولا ريب في ألفٍ من المنافقين، وقد ربطوا مصيرهم بمصيرهم، ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر].

ولئن كان عبد الله بن أُبي قد استطاع أن يحافظ على حياة حلفائه بني قينقاع، فهو أعجز اليوم من أن يبدي رأيًا أو يتقدم بطلب لرسول الله ﷺ بعد تلك الخيانة السافرة في أُحد، وهو في الوقت نفسه يجلل بالعار من جديد في الخيانة التي فضحها القرآن عن التآمر السري بين الفريقين، المنافقين وكفار أهل الكتاب.

وكان خروج اليهود بدون سلاح وهدمهم بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين صفعة عنيفة للمنافقين، وإسقاطًا ماديًّا ومعنويًّا لهم.

القرآن يتنزل، والمواقف تتوضح، والمنافقون يتعرون، ومع ذلك يُبقي الإسلام ورسول الإسلام خيطًا خفيًّا يتسلقون من خلاله إلى التوبة، فلن يوصد الباب أبدًا، لكن اللعب على الحبال مكشوف، والتظاهر بالإيمان مفضوح لا يجدي، ولن يفيد إلا التوبة الصادقة الخالصة لله.

وكانت هذه الجولة الجديدة كفيلة بتداعي معسكر المنافقين، فوضح الحق واستبان السبيل لكثير منهم، وبدأوا يمسحون الغشاوة عن عيونهم فيستفيقوا من رقادهم ويؤوبوا إلى حظيرة الإسلام».
[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٢٥٥-٢٥٦].

٧ ـ حرص المنافقين على مصالحهم:

يقول د/ أبو فارس: «في غزوة بني النضير ظهر بشكل جلي واضح تعاطف المنافقين ـ مع أنهم بزعمهم ينتسبون إلى الإسلام على الأقل في الظاهر ـ مع يهود بني النضير الخونة الغادرين، ناكثي العهود، أعداء القيم، فترى رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول يرسل لبني النضير مَنْ يحرِّضهم على عدم الخروج من المدينة، وأنه سيمدهم بمدد من عنده، وسيقاتل معهم وينصرهم.

إن الذي يلفت النظر أن عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المنافقين لم يف بما التزم به، ووعد بني النضير به، فلم يحرك جنديًّا واحدًا من الألفين الذين أعدهم كما يزعم لنصرتهم والوقوف بجانبهم أثناء الحصار الشديد.

أقول: لقد أدرك رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول أن رسول الله ﷺ ومن معه من الصحابة المحاصِرين لبني النضير، قد اتخذوا قرارًا لا رجعة فيه، وهو إخراج بني النضير وطردهم من المدينة، ونفذوا هذا بحزم وبقوة، وإن المنافقين واليهود لا يملكون أن يقفوا في وجه رسول الله ﷺ ويقدروا على قتاله.

وفي الوقت ذاته فإن المنافقين برئاسة ابن سلول سينكشفون على حقيقتهم عند كثير ممن يجهلونهم، وهذا أمر يضن به المنافق ويحرص عليه أشد الحرص.

وأقول أيضًا: إن المنافق ابتداءً يكره المواجهة ولا يتقنها، وإنما هو يعمل في الخفاء ويحرص على ذلك حتى يتمكن من إنكار ما نُسب إليه، ويتنصل من ذلك.

إن مما يبدو لي أن رئيس المنافقين قد درس الموضوع بدقة ورأى أن وقوفه إلى جانب يهود بني النضير لا يؤدي إلى نتيجة مربحة في صالحه، وبالنسبة له، وفي نفس الوقت سيتعرض ويُعرض مصالحه للخطر دون جدوى، فكف عن ذلك.

أقول: إن الولايات المتحدة الأمريكية، وسائر دول الكفر في العالم الغربي والشرقي تقف بجانب دولة اليهود في فلسطين؛ لأنهم ابتداء يشتركون في العداء للإسلام وأهله؛ ولأنهم يحققون مصالح لهم من الوقوف بجانب دولة اليهود وتأييدها، وفي الوقت ذاته لا تتعرض مصالحهم للخطر في بلاد المسلمين.

ويوم أن يشعر الأمريكان والإنجليز والفرنسيون والروس وغيرهم من دول الكفر بأن وقوفهم إلى جانب اليهود يؤدي إلى تهديد مصالحهم بالخطر والزوال فسيكفون عن تأييد اليهود وتزويدهم بالسلاح بثمن زهيد أو مجانًا.

سوف يتخلى هؤلاء المنافقون عن الوقوف بجانب اليهود كما تخلى المنافقون في الماضي عن نُصرة يهود بني النضير، وهم يشاركونهم الشعور والموقف في عدائهم للرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

إن المسؤولية في بقاء دولة اليهود على أرض فلسطين لا تتحملها أمريكا ولا تتحملها دول الكفر؛ لأنهم أعداء كاليهود تمامًا، بل إن الصليبية في عدائها أعتى من اليهود، هذا ما يخبرنا به التاريخ قديمًا وحديثًا في الأندلس وفي الحروب الصليبية وفي عالمنا المعاصر وتاريخنا المعاصر في لبنان وزنجبار وإريتريا والحبشة، وغير ذلك من البلاد.

إن المسؤولية يتحملها المسلمون على المستويات كافة رسمية وشعبية، وإن العيب الحقيقي يعود إلى المسلمين الذين لم يدركوا هذه الحقيقة، وهي: ما لم تتعرض مصالح الدول الكافرة المنافقة المتعاضدة مع إسرائيل للخطر فلن تُغيِّر موقفها.

إن على المسلمين أن يلاحقوا هذه الدول ومصالحها في كل مكان: يقاطعون بضائعها، ويمنعون البترول أن يتدفق إليها، ويسحبون أرصدتهم من بنوكها، ولا يمدون شيئًا مما يقدرون عليه وتستفيد منه.

إن على الأمة الإسلامية أن تقف الموقف الحازم الذي وقفه رسول الله ﷺ من اليهود وأحلاف يهود وأصدقاء اليهود، مع أعدائها، فتكيل لهم الضربات الموجعة والمدمرة التي تقذف الرعب في قلوبهم، وتدمر كل شيء عليهم، فلا يجرؤوا على الوقوف بجانب اليهود ويساعدوهم بالرجال والسلاح والمال.

ويوم أن يقف المسلمون اليوم على المستوى الرسمي والمستوى الشعبي مع اليهود وأصدقاء اليهود وأخلافهم هذا الموقف فسيتخلى أصحاب المصالح المهددة من دول الشرق والغرب عن اليهود، وسيتوجهون بالنفاق إلى المسلمين يطلبون ودهم ويحرصون على رضاهم، ويبذلون في سبيل ذلك أموالهم ومساعدتهم كما كانوا يبذلونها لليهود». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٣-١٧٥**].

٨ ـ منافقو العرب بين الأمس واليوم:

يقول م/ أبو راس: «أمر الرسول ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ أن يذهب إلى بني النضير ليأمرهم بالخروج من المدينة، وقد أمهلهم ﷺ عشرًا وحذرهم بأنه سيضرب عنق كل من يتخلف.

ولم يجد اليهود مناصًا من الخروج، فأخذوا يتجهزون للرحيل لولا أن المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي أرسلوا إلى اليهود أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه.

الأمر الذي أعاد لليهود ثقتهم ليستقر رأيهم على المناوأة، وأرسلوا للنبي ﷺ يقولون له: لن نخرج فافعل ما بدا لك، ثم احتموا بحصونهم واستعدوا للقتال خصوصًا بعدما ترامى إلى مسامعهم أن عبد الله بن أُبي رأس النفاق أعد ألفي مقاتل لنصرتهم.

إلا أن هذه الحركة من المنافقين لم تفت في عضد رسول الله ﷺ ولا في عضد أصحابه ـ رضوان الله عليهم أجمعين، إذ أن الإسلام والمسلمين يعيشون في محنة عظيمة بعد غزوة أُحد، فبعد أن تجرأ الأعراب على بعوث رسول الله ﷺ وقتلوا من خيرة القراء من قتلوا في «بئر معونة» ها هم اليهود يخطون خطوة أكثر بشاعة وذلك في محاولتهم لقتله ﷺ.

والرسول ﷺ هنا ليس كغيره من القادة والساسة الذين نراهم في عصرنا الذي نعيش فيه يدخلون غمار الحروب الطاحنة التي لا معنى لها، لا لشيء إلا للحفاظ على عروشهم وملكهم وسطوتهم وإن مات أفراد الشعب الواحد تلو الآخر حتى يفنى عن آخره.

ولكنه ﷺ يريد بالذي قام به إشعار أعداء هذه الدعوة بأن الإسلام قوي في نفوس أبنائه، وأنه على الرغم مما حدث قادر على رد الصاع بمثله.

لقد نهض ﷺ لمناجزة بني النضير ومن لف لفهم، فأمر بحصار حصونهم وبتقطيع نخيلهم، فما أن رأى اليهود الموت وقد أحاط بهم من كل جانب ـ في الحين الذي استبطأوا فيه عون المنافقين لهم ـ حتى دب في قلوبهم الرعب، فاندحر اليهود ونزلوا إلى حكم المنتصر الذي أذن لهم بالجلاء عن ديارهم ولهم ما حملت إبلهم من أموال، ما عدا السلاح.

وفي هذه المعركة أنزل الحق ﷻ سورة الحشر، التي أمر الحق ﷻ فيها عبيده بأن يعتبروا بخروج بني النضير على النحو الذي خرجوا به، وأن يفقهوا الدرس العظيم الذي يفصح عن نفسية يهود في أي زمان أو مكان كانوا، اليهود الذين لا يستطيعون مواجهة أحد أو محاربة أحد إلا بحبل من الناس وحبل من الله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران].

ولقد قطع رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام حبل الناس من المشركين والكفار والمنافقين عندما أظهر المجتمع المسلم قوته وصلابته وتصميمه على النيل من كل غادر مهما علا شأنه وكبرت قوته.

وقطع حبل الله عن اليهود بإفسادهم ومجونهم وخيانتهم وغدرهم.

واليهود اليوم هم يهود الأمس لم يتغيروا، بل زادوا من تفننهم بالفساد والإفساد واللهو والمجون والخيانة والغدر، وبلغوا في كل هذا شأوًا لم تبلغه شياطين الجن، ولم يبق على الأمة المسلمة إلا العودة إلى كتاب ربها، وهدي رسولها حتى تكون هي صاحبة الكفة الأرجح في الصلاح والفلاح والتقى عند الله ﷻ إذ إنه ـ سبحانه ـ لا يحابي أحدًا، وأنه من لم يسرع به عملُه فلن يسرع به نسبه، فنسبنا وحده إلى الأمة الإسلامية لن يكفي إذ لابد من العمل الجاد المخلص: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة].

ومن ثم لابد من إشعار باقي الأمم التي تقف من خلال مصالحها وراء اليهود، ولابد من إشعار منافقي العرب الذين يظنون أن استمرار حكمهم كامن في استمرار وجود اليهود على أرض العرب والمسلمين في فلسطين، لابد من إشعار هؤلاء وهؤلاء أن المسلمين لا يزال بهم القوة والشكيمة والعزة والمنعة وإننا قادرون على إلحاق الضرر ـ إن لم يكن بالقرارات الحكومية فبالقرارات الفردية للمسلمين ـ بمصالح من يسير خلف العدو الصهيوني حماية لمصالحه ومآربه في مناطقنا الإسلامية.

لقد وصف الحق ﷻ اليهود وصفًا شافيًا شاملًا إذ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

نعم فعندما ينصر المسلم ربه فإن الله ﷻ لا يتخلى عنه بحال من الأحوال، بل إن هذا المسلم يصبح في جيش لا يعلم تعداد جنوده، ولا إحصاء عدته إلا الحق ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[المدثر:٣١].

ثم فضح الحق ـ سبحانه ـ مسلك المنافقين الذين حاولوا إعانة اليهود والذين حرضوهم على مقاتلة المسلمين، فقال الحق ـ سبحانه ـ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

ثم يضع الحق ﷻ اللمسات الأخيرة على نفسية هؤلاء وأولئك، فيقول ـ جل شأنه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

وإن كان اليهود هم اليهود فإن منافقي العرب هم منافقو العرب لم يتغيروا ولم يتبدلوا، منافقو الأمس يهمسون في آذان يهود الأمس أن لا يخرجوا، وقد أعددنا العدة لنصرتكم، ومنافقو اليوم هم الذين جلبوا يهود العالم من كل مكان ليكونوا لهم عونًا على شعوبهم، وهم الذين أخمدوا كل صوت حر شريف ينادي

بالتحرير الشامل، وهم الذين زرعوا الحدود المتاخمة لدولة البغي والفساد بالألغام لتنسف كل قدم تتجه إلى الأراضي المحتلة التي بارك الله فيها، وهم الذين امتصوا دماء الشعوب ليبنوا جيوشًا لا هدف لها إلا حماية العدو الصهيوني من غضبة الأحرار الأشراف المتعلقة قلوبهم برب العزة والجبروت.

وأيضًا فمنافقو اليوم هم الذين رهبتهم من الإسلام ومن رجالات الإسلام أشد من رهبتهم لله ﷻ، وهم الذين يتظاهرون بالإسلام والإيمان وبالعمل على تحرير الأرض المقدسة.

ولن يفضح نفاقهم ويفت في عضدهم إلا رجال يسيرون على الخط المستقيم الذي خطه ﷺ والذي قال فيه: هذا سبيل الله، إلا رجال يكونون بإسلامهم على مستوى سلفهم الصالح ليدخلوا ضمن قوله تعالى الموجه إلى رسول الله وصحابته: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحشر].

فإذا ما كانت الأمة المسلمة على هذا النسق من الإيمان والإسلام واليقين فإن منافقي العرب سيخنسون وسيعودون إلى جحورهم بعد أن يسقط في أيديهم، ليجد اليهود أنفسهم ـ وقد سقطت خطوط دفاعاتهم المتقدمة ـ وحيدين، ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله». [تأملات حركية لأبي راس ٢٢٥-٢٢٩].

ويقول أ/ حوى: «إن تلاحم الكافرين والمنافقين على الأرض الإسلامية لا شك فيه، وأنت عليك أن تستهدف الكفر، فإذا ما استطعت أن تنتصر عليه فقد انتهت قيمة المنافقين السياسية والعسكرية؛ ولذلك يجب أن تضع نصب عينيك أن السيطرة على الكفر هي الهدف، وفي الغالب فإن المنافقين لن ينتقلوا من القول إلى الفعل إلا في حالة واحدة هي أن تضمهم جميعًا حصون يقاتلون من خلالها، وإذن فلا ينبغي أن تعطيهم فرصة التجمع والتحصن». [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٤٠-٦٤١].

٩ ـ سنة الله في إذلال من يشاق الله ورسوله:

وبعد حصار دام عدة ليال تأتي سنة الله التي لا تتبدل في كل عصر ومكان حتى مع المسلمين أنفسهم أو من يَدَّعون الإسلام وهم يحاربونه عيانًا بيانًا، تأتي سنة الله التي لا تتخلف وهي: إخراج وإذلال من يشاق الله ﷻ والرسول ﷺ، أي من يكون في شق أو جانب خلاف شق أو جانب الله ﷻ والرسول ﷺ.

فقد أخبر ﷻ عن سبب خذلانه لبني النضير بقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾[الحشر].

وهي سنة لا تتبدل ولا تتغير إلى يوم القيامة أنه من يعادي الله وشريعته، ومن يعادي رسول الله ﷺ وسنته، فإن الله ﷻ لابد من أن يخرجهم من ديارهم وأن يذلهم تحت أرجل الأمم الأخرى، وإننا حين نَحَّيْنَا شريعة ربنا وسنة نبينا جانبًا أذلنا الله، كما أخبر بذلك الفاروق عمر ﷺ حين قال: «**إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ،**

فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللهُ». [المستدرك على الصحيحين في الإيمان ١/ ١٣٠ رقم ٢٠٧، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي].

ونحن ابتغينا العزة في شرائع الشرق والغرب ما بين شيوعية واشتراكية ورأسمالية وغيرها من المسميات فأذلنا الله، وحالنا لا يخفى على أحد.

فإذا أردنا النصر والتمكين فليس لنا إلا العودة إلى الله ودينه.

١٠ ـ الرعبُ جنديٌّ من جنود النصر:

يقول د/ أبو فارس: «تذكر كتب السنة النبوية المطهرة والسير الشريفة العطرة أن يهود بني النضير لجأوا إلى حصونهم المنيعة، وخزَّنوا من الغذاء والماء ما يكفيهم مدة طويلة تزيد على سنة كاملة، ومعهم من السلاح الوفير، والمال الكثير ما يعينهم على المقاومة فترة طويلة دون عنت أو مشقة.

لقد ظنوا أن هذه الحصون المنيعة تمنعهم من رسول الله ﷺ وظن المسلمون ـ أيضًا ـ أن من الصعوبة بمكان أن يخرجوا من هذه الحصون المنيعة.

لقد ذهب هذا الظن أدراج الرياح حينما تدخلت إرادة الله، إذ قذف في قلوبهم الرعب والخوف والجزع، فاستسلموا لرسول الله ﷺ وأمره، يخربون بيوتهم ويتركون سلاحهم وأموالهم لرسول الله ﷺ.

وإذا كان لنا أن نستنبط من هذا من دروس فنقول:

(١) إن الله ينصر عباده المؤمنين إن نصروه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد ﷺ].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم].

والله ـ تبارك وتعالى ـ ينصر أولياءه بأن ييسر لهم من أسباب النصر ما لا يخطر على بالهم ولا بال عدوهم نعمة منه وفضلًا؛ ذلك ليوقن الناس أن النصر بيد الله ولا تقف قوة في الأرض أمام قوة الله وقدرته.

إن جنود الله التي ينصر بها أولياءه كثيرون، ففي غزوة بني النضير كان الرعب جنديًّا من جنود الله، وفي غزوة بدر كانت الملائكة والنعاس والمطر والحصى من جنود الله، وكانت الريح والعنكبوت وغير ذلك من جنود الله، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

(٢) إن الذعر والجزع والخوف إذا سيطرت على إنسان من الناس أو جماعة من الجماعات أو جيش من الجيوش تفقده الاتزان في التفكير والسداد في اتخاذ القرار النافع له ولمن معه.

تأمل هؤلاء الذين دب الذعر في نفوسهم ماذا فعلوا بأنفسهم وبيوتهم.

(٣) الاعتبار في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر] يظهر لنا من وجوه:

الأول: إن الذي يقف في وجه الحق، ويصد الناس عنه، ويطارد دعاة الحق منهزم لا محالة، وسيجني ثمرة ما زرع من الصاب والعلقم والآلام، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران].

الثاني: الصراع بين الحق والباطل لا يتوقف وباق حتى يرث الله الأرض وما عليها، وستكون للباطل جولات وللحق جولات، ولكن العاقبة لأهل الحق في نهاية المطاف.

الثالث: الاعتبار يكون بتجنب ما ارتكبه اليهود من خيانة وغدر حتى لا يحدث نفس المصير الذي حدث لهم من الهزيمة والذل والهوان». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٨-١٧٩**].

١١ ـ عقوبة اليهود الأخروية:

يقول د/ أبو فارس: «وتذكر سورة الحشر عاقبة يهود بني النضير الأخروية: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤﴾ [الحشر].

أقول: وهذا ليس خاصًّا ببني النضير فقط بل هو جزاء لكل من يتخلق بأخلاقهم ويقف مواقفهم من دعوة الله ـ تبارك وتعالى ـ وشواهد ذلك كثيرة عبر التاريخ، فما حل بثمود قوم صالح ﷺ، وقبيلة عاد قوم هود ﷺ، وقبيلة مدين قوم شعيب ﷺ، وفرعون الطاغية وغيرهم من العذاب والدمار إلا نتيجة كفرهم وصدهم عن سبيل الله.

وليس كثرة الأموال التي في أيدي الطواغيت، وما يملكون من قوة وجاه وسلطان إلا استدراج لهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف].

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يُمْلِي** (يمهل ويؤخر ويطيل له في المدة، وهو مشتق من الملوة وهي المدة والزمان، بضم الميم وفتحها وكسرها) **لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** (أي لم يطلقه ولم ينفلت منه، قال أهل اللغة: يقال أفلته أطلقه وانفلت تخلص منه)»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود].

[مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٣)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٨)]. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٠-١٨١].

١٢ ـ الإسلام الصادق والحب الجارف لرسول الله ﷺ:

واستسلم بنو النضير لرسول الله ﷺ، ولكن تأتي هذه الصورة الرائعة من حب الصحابة للرسول ﷺ والصدق في الإسلام، فيحكي التاريخ أن اثنين من يهود بني النضير قد أسلما في هذه الغزوة، وهما عمرو

بن يامين وأبو سعد بن وهب ﭭ، ولننظر إلى هذا الموقف العظيم من الصحابي الجليل عمرو بن يامين ﭬ ـ ولم يمض على إسلامه إلا يومان ـ، فهو يعلم أن عمرو بن جَحَّاش هو الذي كان يريد اغتيال رسول الله ﷺ وهو ابن عمه، ولكنه حين دخل الإسلام ـ وأحب رسول الله ﷺ ـ أراد أن ينتقم من هذا الشقي، وذلك قبل أن يعطيهم رسول الله الأمان فاستأجر رجلًا من قيس بعشرة دراهم على أن يقوم بقتل عمرو بن جحاش، وهذا ما حدث بالفعل، فكان أصدق تعبير عن صدق إسلامه ومدى حبه لرسول الله ﷺ، فما أن أسلم حتى تَعَلَّم عقيدة الولاء والبراء التي ندعو الله أن يتعلمها مسلمو اليوم، حتى تعود إليهم عزتهم ويعود إليهم مجدهم، وما ذلك على الله بعزيز.

١٣ ـ الله ﷻ هو الفاعل والمدبر لأمور خلقه:

يقول صاحب الظلال: «من آيات سورة الحشر نعلم أن الله هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، والله هو فاعل كل شيء، ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة في صورة مباشرة، توقع في الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر! وساق المخرَجين للأرض التي منها يحشرون، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التي أُخرجوا منها.

ويؤكد فعل الله المباشر في إخراجهم وسوقهم بالفقرة التالية في الآية: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾[الحشر: ٢].

فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم، ولا هم كانوا يُسلِّمون في تصور وقوعه! فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم بحيث لا تتوقعون أنتم أن تُخرجوهم منها كما أُخرجوا، وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التي لا تردها الحصون!

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾..

أتاهم من داخل أنفسهم! لا من داخل حصونهم! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم، ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم! فضلًا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم، وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم، فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التي أتاهم الله منها، وهكذا حين يشاء الله أمرًا، يأتي له من حيث يعلم ومن حيث يقدر، وهو يعلم كل شيء، وهو على كل شيء قدير، فلا حاجة إذن إلى سبب ولا إلى وسيلة، مما يعرفه الناس ويقدرونه، فالسبب حاضر دائمًا والوسيلة مهيأة، والسبب والنتيجة من صنعه، والوسيلة والغاية من خلقه، ولن يمتنع عليه سبب ولا نتيجة، ولن يعز عليه وسيلة ولا غاية ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾[الحشر].

ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم، ويمكنون المؤمنين من إخرابها ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وبهذا تتم حكاية ما وقع للذين كفروا من أهل الكتاب، في تلك الصورة الموحية، وهذه الحركة المصورة، والله ـ سبحانه ـ يأتيهم من وراء الحصون فتسقط بفعلهم هم، ثم يزيدون فيخربونها بأيديهم وأيدي المؤمنين.

هنا يجيء أول تعقيب في ظل هذه الصورة، وعلى إيقاع هذه الحركة: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾.

وهو هتاف يجيء في مكانه وفي أوانه، والقلوب متهيئة للعظة متفتحة للاعتبار.

والآية التالية تقرر أن إرادة الله في النكاية بهم ما كانت لتعفيهم بأية حالة من نكال يصيبهم في الدنيا غير ما ينتظرهم في الآخرة: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾.

فهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله، بهذه الصورة التي وقعت أو بصورة أخرى، ولولا أن اختار الله جلاءهم لعذبهم عذابًا آخر، غير عذاب النار الذي ينتظرهم هناك، فقد استحقوا عذاب الله في صورة من صوره على كل حال!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

والمشاقة أن يأخذوا لهم شقًّا غير شق الله، وجانبًا غير جانبه، وقد جعل الله جانبه هو جانب رسوله حين وصف علة استحقاقهم للعذاب في صدر الآية، فاكتفى في عجزها بمشاقة الله وحده فهي تشمل مشاقة الرسول ﷺ وتتضمنها، ثم ليقف المشاقون في ناحية أمام الله ـ سبحانه ـ وهو موقف فيه تبجح قبيح، حين يقف المخاليق في وجه الخالق يشاقونه! وموقف كذلك رعيب، وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه، وهو شديد العقاب.

وهكذا تستقر في القلوب حقيقة مصائر المشاقين لله في كل أرض وفي كل وقت، من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب، وما استحقوا به هذا العقاب.

ولا يفوتنا أن نلحظ تسمية القرآن ليهود بني النضير بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾، وتكرار هذه الصفة في السورة؛ فهي حقيقة لأنهم كفروا بدين الله في صورته العليا التي جاء بها محمد ﷺ وقد كان اليهود ينتظرونها ويتوقعونها، وذكر هذه الصفة في الوقت نفسه يحمل بيانًا بسبب التنكيل بهم، كما أنه يعبئ شعور المسلمين تجاههم تعبئة روحية تطمئن لها قلوبهم فيما فعلوا معهم، وفيما حل بهم من نكال وعذاب على أيديهم، فذكر هذه الحقيقة هنا مقصود ملحوظ!». [في ظلال القرآن لقطب ٦/ ٣٥٢١-٣٥٢٢].

١٤ ـ الاعتبار والاتعاظ بالماضين:

يقول د/ زيدان: «في قصة غزوة بني النضير التي أنزل الله فيها معظم آيات سورة الحشر، قال تعالى بعد أن ذكر ما حلَّ بهم: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾، ومعنى ذلك واضح وهو: أيها المسلمون يا أصحاب العقول النيرة بنور الإيمان اتعظوا بما حلَّ ببني النضير بسبب عصيانهم وتمردهم على الله، ورفضهم الإيمان بما يجب عليهم الإيمان به، ونقضهم العهود، اتعظوا بما حلَّ بهم من نكال وعقاب وإذلال وخروج من ديارهم، اتعظوا بذلك واعتبروا به بأن لا تفعلوا ما فعلوه من خيانة وغدر لا كله ولا بعضه؛ لئلا يصيبكم من العذاب ما تستحقونه بقدر ما تقومون به من أسباب ودواعي العقاب، وحتى لا يحدث نفس المصير الذي حدث لهم من الهزيمة والذل والهوان.

إن هذا المعنى الواضح والذي يدعونا الله إليه أصبح غائبًا عن أذهان المسلمين، أو حاضرًا ولكنه مشوشًا غير واضح؛ لأن المسلمين يغفلون عن العبرة فيما قصَّه الله علينا من قصص الماضين، وما حلَّ بهم من جَرَّاء أفعالهم، ويحسبون أن ذلك لا يعنيهم ولا يتعلق بهم، وهذا خطأ يجب على الدعاة تصحيحه في أذهان المسلمين، وأن يبصروهم بأن سنة الله واحدة في مؤاخذته للعاصين، والمخالفين لأمر الله في اتباع شرعه وملاحظة سننه في الحياة، وأن يؤكد الدعاة هذا المعنى في دروسهم وخطبهم ومحاضراتهم، ويستشهدوا بآيات القرآن وما وقع للصحابة الكرام، ويذكروهم أيضًا بقوله تعالى في تعليل ما أصاب بني النضير من نكال وعقاب، بأنهم شاقوا الله ورسوله بعصيانهم لما أُمروا به من الإيمان بالله ورسوله، ثم قال تعالى مبينًا سنة من سننه في خلقه وهي: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤﴾ هذه الآية تبين لنا قاعدة من قواعد سنن الله في الحياة، فمن يتمرد على الله وشرعه ولا يلتزم بما جاء به محمد ﷺ، فالعقاب ينتظره سواء في الدنيا أو الآخرة، إن مهمة الدعاة في تبصير المسلمين هذه المعاني مهمة صعبة ولكنها ضرورية لتصحيح المفاهيم التي يجب مباشرتها أولًا حتى يمكن مطالبة المسلمين بالأعمال». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٨٨-٢٨٩].

١٥ ـ ديمومة الصراع مع الباطل:

يقول د/ الصلابي: «الصراع بين الحق والباطل لا يتوقف وهو باقٍ حتى يرث الله الأرض وما عليها، وستكون للباطل جولات وللحق جولات، ولكن العاقبة لأهل الحق في نهاية المطاف: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرعد]، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال].

إن الذي يقف في وجه الحق، ويصد الناس عنه، ويطارد دعاة الحق منهزم لا محالة، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران]».

[السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢١٨].

١٦ ـ لا إكراه في الدين:

وقد مر في عرض الغزوة أنه قد جلا مع يهود بني النضير بعض أولاد الأنصار الذين اعتنقوا اليهودية، وحاول الأنصار منع أولادهم من الجلاء قائلين: لا ندع أبناءنا يخرجون مع اليهود، ولكن النبي ﷺ ـ عملًا بحرية العقيدة ـ لم يمكن الأنصار مما أرادوا، ما دام أن أبناءهم قد دخلوا في اليهودية قبل الإسلام، وجلوا مع بني النضير بمحض اختيارهم، وقد اتخذ النبي ﷺ هذا القرار ونفذه بعد أن أنزل الله عليه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] كما سبق في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في عرض الغزوة.

١٧ ـ منهج القرآن في عرضه لغزوة بني النضير:

لقد كان لغزوة بني النضير من القرآن رقعة واسعة من آياته كادت أن تستغرق سورة برمتها، وهي سورة الحشر.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: سُورَةُ التَّوْبَةِ؟ قَالَ: التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا، قَالَ: قُلْتُ: سُورَةُ الأَنْفَالِ؟ قَالَ نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ، قَالَ: قُلْتُ: سُورَةُ الحَشْرِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ.

[البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٢)، ومسلم في التفسير (٣٠٣١)].

ولقد ساق القرآن الكريم هذه القصة في صورة تختلف في روايتها عما في كتب البشر، بمقدار ما بين صنع الله، وصنع البشر من فوارق لا تقاس.

وكان لهذه السورة «سورة بني النضير» صدى طيب عظيم في نفوس المسلمين، فهي أول نصر تحقق بعد المحن المتتابعة: أحد، والرجيع، وبئر معونة.

يقول أ/ شقرة: «كانت هذه الغزوة بعد أحد وقبل الأحزاب، وكانت بداية النصر على أعداء الإسلام المحدقين بالمدينة، الذين كانوا يخضعون للعهود، ويتربصون في أنفسهم بالرسول ﷺ والإسلام والمسلمين الدوائر، وينتظرون يومًا لا يريبهم فيه أمر ينكثون فيه العهود المبرمة مع الرسول ﷺ في سر وكتمان، حين تلوح لهم الفرصة التي لا يستطيع الرسول ﷺ ومن معه حيلة لأنفسهم يخلصون منها إلى سبيل نجاة.

ولكن هؤلاء الأعداء نسوا في غمرة مكرهم أنفسهم، وكيدهم الضعيف، أن الله ﷻ هو الذي يتولى حماية الإسلام والرسول ﷺ بنفسه، وهو القادر على تغيير المقاييس والنواميس التي يحتكم إليها البشر في

تدبيرهم وتقديرهم، وأن القوة التي يستندون إليها في هذا التدبير والتقدير هي من صنع الله سبحانه الذي تخضع الأشياءُ كلها لإرادته وقهره، فأين يذهبون؟ وهل في ظنهم أنهم بمكرهم وكيدهم سيفلتون؟!

ويستطيل شر أولئك اليهود، وينسون ـ أو بالأحرى يتناسون ـ أن في أعناقهم عهدًا يجب أن يظل وفاؤهم له ماضيًا، فيجمعون أمرًا زينته أنفسهم الحاقدة الواجدة على الإسلام ونبي الإسلام، وذلك بمحاولة اغتياله ﷺ كما رأينا.

لقد تميز عرض القرآن لغزوة بني النضير أنه تكلم عنها من أول السورة الكريمة، وذكر فائدة عظيمة لابد للمؤمنين أن يربطوا قلوبهم بها، وهي أن المؤمن يعمل السبب ولا يتكل عليه بل يُعْمِلُ السبب ويخلص التوكل على الله ويسأله التوفيق.

ويذكر القرآن أن الله هو الذي أخرج اليهود من حصونهم، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ ﴾.

يقول سيد قطب: «نزلت هذه السورة في حادث بني النضير ـ حي من أحياء اليهود ـ في السنة الرابعة من الهجرة، تصف كيف وقع؟ ولماذا وقع؟ وما كان في أعقابه من تنظيمات في الجماعة الإسلامية، ترويها بطريقة القرآن الخاصة، وتعقب على الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك في تربية تلك الجماعة تربية حية بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات». [**الظلال ٦/ ٣٥١٨**].

إلى أن يقول: «ومن هذه الآيات نعلم أن الله هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، والله هو فاعل كل شيء، ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة في صورة مباشرة، توقع في الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر! وساق المخرَجين للأرض التي منها يحشرون، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التي أُخرجوا منها». [**الظلال ٦/ ٣٥٢١**].

ويسبق ذكر نتيجة الغزوة إعلامُ الله سبحانه بأن الخلائق كلها تسبح له، فهو يشبه تذكير المسلمين بأن عبادتهم ربهم، وخضوعهم له، وإسلامهم أنفسهم له هو السبب في الحصول على ثمرة النصر، فعليهم أن يظلوا على صلة دائمة به، فبذلك وحده يكون النصر؛ لأنه هو العزيز الذي لا غلبة إلا بعزته، الحكيم الذي لا قدرة إلا بحكمته، فعلى المسلمين أن يوثقوا صلتهم بالعزيز الحكيم.

وتبدأ السورة بالتعجيل بذكر النتيجة التي انتهت إليها المعركة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ ﴾ [الحشر: ٢]، وهذا دأب القرآن في كل الغزوات التي انتهت بالمسلمين إلى النصر، فهو يعجل بالبشرى، لتبقى صورتها قوية راسخة في عقول المسلمين على مدار الزمن، ولتبقى

الفرحة بالنصر حية نابضة في صدورهم كلما قرأوا كل آية من تلكم الآيات المبشرات بالنصر، فيظل الشوق إلى النصر عارمًا في صدورهم، يلزمهم أسبابه، ويشدهم إلى دواعيه.

لقد كان المسلمون يعلمون تمكن اليهود في حصونهم، وكذلك كان يعتقد اليهود أنهم باقون في المدينة وأنهم لن يخرجوا منها قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم ﴾.

قال سيد قطب: «فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم، ولا هم كانوا يُسلمون في تصور وقوعه! فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم بحيث لا تتوقعون أنتم أن تُخرجوهم منها كما أُخرجوا، وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التي لا تردها الحصون!». [**الظلال ٦/ ٣٥٢١**].

وكأن تلك النتيجة التي انتهت إليها الغزوة لم تكن متوقعة للمسلمين أو لبعضهم على الأقل في زمن قريب؛ لأن الحصون المنيعة التي كانوا يتحصنون بها كانت مظنة لرد أطماع من تُحدثهم نفوسهم باقتحامها، حتى عند المسلمين أنفسهم، وإلا ما كان القرآن ليقول: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ ﴾[الحشر: ٢].

ولكن هذه الحصون لم تكن لتمنع الرعب أن يستولي على قلوبهم ويملأها، فالرعب لا تصده الحصون الشاهقة المنيعة، ولا ترده الأبواب الضخمة الثقيلة، ولا تكفه الأسلحة التي أُعدت للدفاع عنها، فهو شيء فوق هذا كله، وأقوى من هذا كله، ولا يستأذن في أمره فيؤذن له، بل إنه ليُسخِّر أصحابَ هذه الحصون لتقويضها وتخريبها؛ ليكونوا سخرية أبد الدهر، قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾[الحشر: ٢].

إنه ﷻ يقرر أن هزيمة يهود بني النضير جاءت من طريق لم يكونوا يتوقعونه، فقال تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ ﴾.

قال سيد قطب: «أتاهم من داخل أنفسهم! لا من داخل حصونهم! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم، ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم! فضلًا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم... إلخ». [**الظلال ٦/ ٣٥٢١**].

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عما حل بهم فقال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يخربون بيوتهم بأيديهم ويمكِّنون المؤمنين من إخرابها، وفي هذا عبرة لمن يعتبر؛ لذلك قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾.

«ولا يغفل القرآن دور الرسول ﷺ والمسلمين في تهديم هذه الحصون وتخريبها، فإن الحصار الذي فرضوه عليه كان العامل الكبير في إحلال الرعب في قلوب أصحابها، الذي انتهى بهم إلى إعمال يد التخريب والهدم فيها، قال تعالى: ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحشر: ٢]، أي أن التخريب كان بأيدي المؤمنين أيضًا.

ثم يلفت القرآن نظر المؤمنين في أوج الانتصار أن لا يوقعهم الغرور فيما أوقع فيه اليهود بحصونهم المنيعة، فإن القوة لله وحده، ويجب على الجند المؤمن أن يستمدها منه، فإن الله هو خالقهم وخالق القوة، ولا ينفك خلق عن خلق بسبب مما يظن أن فيه زيادة قوة وبأس يكون من تدبير هذا الخلق وتقديره، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

وبيَّن سبحانه أنه كتب على بني النضير الجلاء وترْك الديار، وأن لهم في الآخرة عذاب النار، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ﴾.

واستغل اليهود حادثة قطع النخيل، وتحدثوا عنه، فنجد القرآن الكريم يطمئن المؤمنين على صواب ما فعلوه في بني النضير فقال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

ولم يكن في هذه الغزوة قتال، بل كان حصار أنزل اليهود من حصونهم، وألقى الرعب في قلوبهم، من هيبة رسول الله ﷺ، وهذا ما يوضحه قوله سبحانه: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦].

لذا كان المال الذي أصابه المسلمون من بني النضير فيئًا موضوعًا تحت يد النبي ﷺ، وهو الذي لا غلبة إلا بعزته، ولا قدرة إلا بحكمته، فهو يتصرف فيه كما يشاء، وهكذا كل مال يصيبه المسلمون إلى يوم القيامة، يكون للإمام حق التصرف فيه، يضعه في الجهة التي يشاء، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾[الحشر]، وهو أول مال فيء يصيبه المسلمون، تولى الله سبحانه قسمته كيلا يكون دولة بين أيدي الأغنياء يتصرفون فيه بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئًا إلى الفقراء، فأنشأ القرآن بهذا قاعدة ثابتة للمال على الدهر.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ: كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِمَّا لَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً [خَالِصَةً]، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِ [قُوتَ سَنَتِهِ]، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلَاحِ وَالكُرَاعِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ الله ﷻ.

[البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٤)، وينظر بقية تخريجه في عرض الغزوة].

ويضع الله في هذه الآيات قواعد تشريعية إجمالية تنفسح على امتداد رقعة الوجود الإسلامي، ليظل هذا الوجود موثوقًا إليها في قوة وإحكام فلا يضل ولا يشقى، منها قاعدة في التنظيم الاقتصادي ﴿كَىْ لَا

يَكُونَ دُولَةًۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧]، وقاعدة في التشريع الدستوري: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، وهذا كله من بركة الجهاد في سبيل الله الذي عطله المسلمون بضعفهم وخذلانهم، واستيلاء حب الدنيا على قلوبهم.

وقد بين الله سبحانه حال المستحقين لمال الفيء في قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر].

فما من مسلم إلا وله حق في هذا المال الذي لا يكون بإيجاف خيل وركاب وقتال.

وقد التقى على صعيد هذه الغزوة مكر اليهود وكيد المنافقين معًا في تحالف هزيل ضعيف، ما لبث أن خار وانهار، ولم يبق منه إلا افتضاحه أمام الأجيال التي ستأتي حتى قيام الساعة، ولا شك أن المنافقين كانوا يطمعون في صمود بني النضير أن ينكفئ الرسول الله ﷺ وأصحابه على أعقابهم بهزيمة تمكنهم أن يُخرجوهم من المدينة ويطردوهم منها، ولعل اليهود أذاقوا نفوسهم حلاوة بشرى خيال كانت جنايته عليهم أفدح من جناية خذلان المنافقين لهم.

إن التحالف بين فئتين أو أكثر لا يحقق نُجحًا للمتحالفين إلا إذا أبرأ كل فريق نفسه من طمعه أن يكون وحده صاحب الغُنم، وإذا ناله خسارٌ دفعه إلى الفريق الآخر، أو كان من تدبيره بادئ ذي بدء أن يدني أسباب الغُنم إليه، وأسباب الخسار إلى غيره.

لذا فلم يلبث تحالف المنافقين واليهود أن خار وانهار، وأثبته القرآن بكل ضعفه وهزاله ومكره في قوله: ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ۝١٤ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٧﴾ [الحشر].

ويتقرر في هذه الآيات حقيقة ينشئها الله لأجيال المسلمين الآتية لئلا يصيبهم الوهن أمام أي تحالف يشبه ذلك التحالف الذي كان بين اليهود والمنافقين، فيقعوا فريسة الوهم في خذلان وصغار، يقررها قوله: ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر]، وقد ذكر الله في مواضع عدة من القرآن مثل هذه الحقيقة محذرًا المؤمنين أن يهنوا ويضعفوا ثم لا يجدوا في أنفسهم إلا الاستسلام الذليل ربما لأضعف أطراف مثل هذا التحالف، كما هو واقع اليوم للمسلمين على امتداد رقعة الأرض التي يعيشون فوقها.

والآيات التي تذكر هذا التحالف تذكر الحوار الذي دار بين اليهود وبين المنافقين فيه، وتكشف به دخائل نفوسهم المتربص بعضها ببعض، حتى لكأن كل طرف منهما يقف على بُعد بعيد من الطرف الآخر، حذرًا أن يسمع وسوسة نفسه، أو يرى على وجهه من إمارات الشك والريبة من أول كلمة فيه حتى آخر كلمة فيه.

وترى هذه الريبة ظاهرة بما ترسم هذه الآيات الكريمة بكل كلمة من كلماتها وقعة نفسية واسعة يبصر بها القارئ لها الحركة الخفية لنفوس أطراف التحالف، فلا يملك إلا أن يقول: إن القرآن هو العين الصادقة الكاشفة للتاريخ الغائب عن المسلمين في أعقاب الرسالة، فما أضلهم إن هم أغمضوا أعينهم لئلا يروا ما كشف لهم القرآن من ذلك التاريخ.

وشهادة الله هي الكلمة الفصل التي لا يجوز لأحد أن يقدم أو يؤخر كلمة بلسانه معها، وإذا استطاع إنسان ما أو جماعة ما أن تخفي من أمرها شيئًا، فتنخدع بذلك جماعة أخرى ـ ولطالما حدث ذلك وسيحدث ـ فإن عين الله الكاشفة ستكشفها ليراها الناس بأعينهم، أو أن يلقي في أرواعهم حذرًا منها ما يمكن أن يتصوره الواهمون المخدوعون، فينقادوا بذلك التصور إلى ما يريد أعداؤهم أن يقودوهم إليه.

ويظاهر القرآن في هذه الغزوة المباركة المؤمنين بما يكشفه لهم من حال المنافقين، والدور الخبيث الذي لعبوه مع اليهود، فوعدوهم بالنصر والوقوف معهم، والقتال إلى جانبهم، وأن مثلهم في ذلك كمثل الشيطان الذي يغوي أتباعه بالوعود العريضة، ثم لا يلبث أن يتخلى عنهم ويتركهم نهبًا للحسرات، فيقول: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر].

وقد وقعوا فيما وقع فيه من قبلهم من الكفار واليهود ـ في الغزوات التي سبقت هذه الغزوة ـ إذ اجتالهم الشيطان عن مواقعهم التي علاهم بها الغرور، وأضلهم فيها الاستكبار عن الحق المبين.

وليس يعذر الإنسان الذي يُسلم قياده للشيطان، فإن الله سبحانه قد جعل له قلبًا يعقل به، وعينًا يبصر بها، وأذنًا يسمع بها، وبعث له نبيًّا يهديه، ودعاه إلى التقوى، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر]، وحذره أن يصيب مما يصيب الفاسقون من مخالفة عما جاء به النبي ﷺ فيذيقه سوء العذاب، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر].

والعداوة الكامنة في النفس مهما بلغ من قدرة صاحبها على إخفائها فإنها لابد يومًا ما أن تظهر لتجعل من المتعادين مسرحًا لكل المفاسد التي ظلت مكبلة في نفسيهما زمنًا، فيدمر أحدهما الآخر ـ ولا بد ـ لأنه كان أسبق في إظهار عداوته، أو ربما كان الغالب منهما أقوى سببًا من الآخر.

والشيطان هو رمز قوة الشر التي تتحدى القوى مجتمعة؛ لأنها قوة خفية ماكرة تحيط بالإنسان من كل أقطاره، وتحيك حوله شبكة من خيوط الفساد القوية لا يستطيع منها نجاة، وتُمسك بزمام الجماعة القوية الكثيرة العدد والعدة، فتضع رأسها في أسباب الدمار والهلاك، فلا يعود لها عين تبصر بها إلا عينه، ولا أذن تسمع بها إلا أذنه، ولا قلب تعقل به إلا قلبه، بل إنها تسخر نفسها في طواعية لا تعرف حسمًا من التمرد عليه، بل إنها لترى كل شر خيرًا، وكل خير شرًا، إلا أن يعكس الشيطان لها ذلك، ولن يكون؛ لأنه لم يكن إلا لاحتضان الإنسان فردًا وجماعة لإزهاق روح الخير فيه، وإذكاء روح الشر، والمصير الذي ينتظرهم جميعًا ما توعدهم الله به ﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحشر].

ولو عقل يهود بني النضير لرأوا في مصارع من قبلهم من إخوانهم اليهود والمشركين في غزوة بدر وأخواتها عبرة بالغة تذكرهم بالنذر التي حاقت بهم جزاء غدرهم، واغترارهم بحصونهم، وانخداعهم بالوعود الخاتلة التي وسوس لهم بها إخوانهم المنافقون، فسارعوا إلى القرآن الذي جاء مصدقًا للتوراة والإنجيل يؤمنون به ويصدقون أحكامه وشرائعه، وقد علموا لمن آمن به ما لهم عليه من سبيل، وأن المستقبل لهم من دون الناس جميعًا، لا في أرض الجزيرة وحدها، بل وفي كل أرجاء الأرض، يدرك ذلك من يدرك، ويقصر عن ذلك من يقصر.

وقد علم أولئك اليهود علمًا لا يقبل النقض ولا الريب، مما جاءهم في التوراة وصفَ القرآن وقوة تأثيره: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر]، فكان عليهم أن يحملوا أنفسهم من الجلاء عن أرضهم وحصونهم بتصديق كلماته، والإيمان بأحكامه وآياته، واليقين بأسماء الله وصفاته، والانقياد المطلق لمعانيها التامة، التي

دانت لها بالتسبيح والتنزيه الخلائقُ كلها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر]، ولكنه الشقاء الباهظ الذي أحكموا وثاق عقولهم وقلوبهم به.

وقد ناسب أن تبدأ هذه السورة التي حكت لنا غزوة بني النضير بالتسبيح وأن تختم بالتسبيح؛ لأن اليهود على علم بما يقتضيه توحيد الله من تنزيهه وتجريده من كل ما يشوب صفاءه، فهم أهل كتاب، كان حتمًا عليهم به أن يكونوا أسرع الناس إلى الإيمان برسول الله ﷺ، الذي أوضح المحجة وأنار السبيل، وأقام البرهان على صدق كل ما جاء به من عند ربه ﷻ، مصدقًا إخوانه النبيين من قبله.

وكأن هذه البداية والنهاية أيضًا بمثابة الخطاب لهؤلاء أن ينزعوا أنفسهم من الأسباب التي أخرجتهم من ديارهم، وأن يتخلوا عما وقر في نفوسهم من الشر والسوء؛ ليعيشوا مع الآخرين بالمودة والإخاء».

[السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٤٠٧-٤٢٠].

المطلب الثاني

الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ استحباب اتخاذ الرفقة في المسير:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ هذا من فعل رسول الله ﷺ حين سار إلى بني النضير، إذ لم يذهب وحده إليهم بل اختار نفرًا من أصحابه ذوي جرأة وشجاعة ورأي وحكمة، يؤنسونه ويستشيرهم إن حزب أمر.

وتتأكد الرفقة والصحبة في السفر الطويل إذ يكره للإنسان أن يسافر وحده ويُستحب أن يسافر مع غيره، فقد يحتاج إلى مساعدة مادية أو معنوية فيقوم رفاقه في السفر بذلك».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧١-١٧٢].

٢ ـ العقوبة الرادعة لأعداء الإسلام:

يقول عميد/ فرج: «انتشر في المدينة وفي غيرها من البقاع ما أشاعته قريش عن انتصارها في أحد، وعما وقع بالمسلمين من الإصابات والقتل، وظن المنافقون ويهود المدينة وغيرهم من القبائل أن الفرصة قد حانت للقضاء على محمد ﷺ وأصحابه ﭫ، وتعرض المسلمون لعمليتي غدر فقدوا فيها عددًا من رجالهم يوم الرجيع وفي بئر معونة.

وتوقع رسول الله ﷺ تحركًا من يهود المدينة والمنافقين ضده، فهم يعايشونه عن قرب وينتهزون فرصة للغدر بالمسلمين وطعنهم، ولم يكن ﷺ مطمئنًّا إلى جوارهم أو وفائهم، فالمنافقون استتروا بالإسلام وظلوا يكيدون المسلمين من وراء هذا الستار، ولم يكن في الاستطاعة كشف ستر الإسلام عنهم، واليهود كانوا يرتبطون بالمسلمين بمعاهدة ألزمت هؤلاء بالوفاء بها، ولكن كان من الواضح أن يهود يعدون لعملية غدر؛ إظهارًا لما تنطوي عليه نفوسهم؛ ورغبة في الكيد والدسيسة وكشف العورات وانتهاز الفرص، وعلى الرغم من أن اليهود كانوا أهل كتاب ودعاة وحدانية، فإن تاريخهم سَجَّل خروجهم على الرسالات السماوية وإهدارهم للقيم الروحية والمبادئ الإنسانية، كما سَجَّل حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين، حفاظًا على سلطانهم القائم على الأطماع.

وعلى الرغم من أن اليهود كانوا قد تعاقدوا مع رسول الله ﷺ أول قدومه المدينة! وأكدوا هذا التعاقد في وثيقة تاريخية، فإنهم لم يلتزموا بما تم التعاقد عليه، فقد ملأ نفوسهم الحقد والحسد، وأكلت قلوبهم الغيرة والغيظ، وباتوا يرقبون فرصة الانقضاض على الإسلام والمسلمين.

وعلى الرغم من أن رسول الله ﷺ وأصحابه قد عادوا إلى المدينة بعد أُحد دون أن تنال قريش منهم مأربًا، فإن يهود المدينة وجدوها فرصة مواتية للكيد له؛ ظنًا منهم أنه مازال يعاني جراح أحد، وبات واضحًا أن هناك صدامًا يبدو في الأفق على وشك الوقوع بين المسلمين ويهود بني النضير».

[العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٦٤].

ويقول الشيخ الغزالي: «إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوبًا كثيرة، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل، وارتقابهم المزيد من الفتح، زاد ضغن الضاغنين، وقد كان الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾[الأنفال].

غير أن هذه الكراهية اختفت أمدًا بعد انتصار «بدر»، بل لعل هذا النصر أغرى جمهورًا من الضعاف والمترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد، فلما تقلبت الليالي بالمسلمين، ولحقتهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان.

وقد أدرك النبي ﷺ هذه الحال بعد «أُحُد» فبذل جهده ليستعيد هيبة المسلمين ويوطد ما اضطرب من مكانتهم؛ ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين: المشركون يظنون الفرصة سانحة لإتباع «أُحُد» بمثلها أو أشد، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد.

على أن الخسائر تلاحقت بالمسلمين في «الرجيع» و «بئر معونة» كما مر بك، ودخل الإيمان في محنة بعد أخرى، ومع هذه البأساء لم يفقد الرجال الواثقون صلتهم بربهم، واطمئنانهم إلى غدهم، وشرعوا

يردون الضربة بمثلها، فلما تحرك اليهود في هذه الآونة العصيبة ليغتالوا رسول الله ﷺ لم يتوان في إنزال العقوبة الرادعة بهم». [فقه السيرة للغزالي ٢٨٩-٢٩٠].

ويقول د/ الوكيل: «ولقد مثلت حادثتا الرجيع وبئر معونة أبشع غدر عُرف في حينه، حيث قُتل فيها رجال آمنون، خرجوا مع من قتلوهم، بطلب منهم، وبحجة أنهم سيعلمونهم أمور دينهم، ويفقهونهم فيه.

وقد شجع هذا القَدْر اليهود على أن يحذوا حذوه، وأيقظ فيهم جِبِلَّة فُطروا عليها، ولم يوارها في نفوسهم إلا الجبن الذي كان يغلب على كل ما جُبلوا عليه ما لم يتأكدوا من الأمان، وكان من ذلك خيانة بني النضير وتآمرهم على قتل الرسول ﷺ.

فكَّر الرسول ﷺ في هذه الأحداث تفكيرًا دقيقًا، وقد علم بخبرته وتجاربه أنه لو سكت على ذلك لتكالب الأعداء على المدينة، وأخذوا ينتهبونها، ولم يكن هناك ما يخيفهم أو يروعهم؛ لذا فقد عزم ﷺ على أخذ كل من تسول له نفسه التجرؤ على المسلمين بمنتهى الحزم الذي لا لين معه وبغاية الشدة التي لا هوادة فيها». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٣ -١٦٤**].

٣ ـ تأمين الجبهة الداخلية:

يقول د/ هيكل: «وجد محمد ﷺ لقتلى بئر معونة أشد الوجد، وحزن من أجلهم أعمق الحزن وقال: هذا عمل أبي براء، لقد كنت كارهًا متخوفًا، وشق على أبي براء إخفار عامر بن الطفيل إياه، حتى لقد ذهب ابنه ربيعة فطعن عامرًا بالرمح انتقامًا منه لأبيه.

وبلغ من حزن محمد ﷺ أنه ظل شهرًا كاملًا يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهم من قتلتهم، وتأثر المسلمون جميعًا لهذه الكارثة التي أصابت إخوانهم في الدين، وإن آمنوا بأنهم جميعًا استشهدوا، وبأنهم جميعًا لهم الجنة.

ووجد أهل المدينة من المنافقين واليهود فيما أصاب المسلمين بالرجيع وبئر معونة ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريش بأُحد، وما أنساهم نصر المسلمين على بني أسد، وما أضعف في نفوسهم من هيبة محمد وأصحابه، وفكر النبي ﷺ في هذه الحالة تفكير سياسي دقيق النظر بعيد مرامي الرأي، فليس شيء أشد على المسلمين يومئذ خطرًا من أن تضعف في نفوس مُساكنيهم بالمدينة هيبتهم، وليس شيء يطمع قبائل العرب فيهم مثل أن تشعر بهذا الانقسام الداخلي يوشك أن يثير حربًا أهلية إذا غزا المدينة غاز من جيرانها.

ثم إنه رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربصون بـه الـدوائر، فقـدَّر أن لا شيء خـير مـن أن يسـتدرجهم لتتضح نياتهم، ولما كان اليهود من بني النضير حلفاء لبني عامر، فقد ذهب إلى محلتهم على مقربة مـن قبـاء، في عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعـلي ﷺ، وطلـب إلـيهم معـاونتهم في ديـة القتيلـين اللذين قَتَلَ عمرو بن أمية ﷺ خطأ، ومن غير أن يعلم أن محمدًا ﷺ أجارهما».

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣١٨-٣١٩].

٤ ـ اليهود قتلة أنبياء وسفاكو دماء:

يقول د/ زيد: «لم يذكر التاريخ أمة بلغت ذروة الإجرام مثل بني إسرائيل، فقد كانوا على درجة عالية من الحمق والسفه خصوصًا مع الأنبياء والمرسلين، الذين أرسلهم الله للهداية والإرشاد إلى طريق الحق المستقيم.

فلا تكاد مرحلة تمر عليهم في تاريخ الرسالات دون أن يلطخوا أيديهم بدماء الأنبياء؛ ذلك لأن أنبياء الله يدعون إلى الخير والسمو وكل ما يحقق الانتصار على نوازع النفس وشهوات البدن، وكان بنو إسرائيل غارقين إلى أذقانهم في الوحل والرجس؛ ولهذا رفضوا دعوات الخير، واستراحوا إلى الشر الذي ألفوه وتعودوا عليه، وكانوا إذا جاءهم رسول من عند الله استكبروا عليه وتمادوا في الغي والضلال، وعاملوه معاملة سيئة لا تليق بكرامته عند الله حتى وصل بهم السفه في بعض الأحيان إلى القتل وإراقة الدماء.

وقد سجل القرآن الكريم عليهم ذلك في أكثر من موقف وجاءت بعض سوره حافلة بذكر هذه الجريمة الشنيعة التي تتمثل في قتل الأنبياء إرضاء لنوازع النفس والهوى.

نجد ذلك في قول الله ﷻ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[البقرة].

وكان جزاؤهم على هذا الجرم وغيره ما ورد في قوله جل شأنه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾[البقرة].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تناولت فضح جرائمهم، وكشف استعلائهم وغرورهم.

ولم يتوقف تيار الجريمة عند حد، بل استمر في تتابعه ميراثًا يرثه الأبناء عن الآباء حتى كان الجيل الذي عاصر رسول الله ﷺ في المدينة.

فعلى الرغم من معرفتهم بأمر الرسول ﷺ وما جاء به من كتبهم المقدسة وانتظارهم لمبعثه ليكونوا معه على الأوس والخزرج جيرانهم في المدينة، إلا أنه ﷺ عندما جاء إليهم ودعاهم إلى الدخول في الدين،

أنكروا ما جاء به وتمالؤوا مع أعدائه حقدًا وبغيًا، وجعلوا يتدارسون أمره في صباحهم ومسائهم حتى وصل بهم الأمر إلى التفكير في قتله والفراغ منه.

ولأمر ما جاء التعبير القرآني هكذا في قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].

فقد عبر بالماضي عند ذكر تكذيبهم للأنبياء، بينما عبر بصيغة المضارع في حالة القتل؛ للدلالة على استمرارية الفعل منهم.

قال الإمام ابن كثير: لم يقل (وفريقًا قتلتم) لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل؛ لأنهم حاولوا قتل رسول الله ﷺ بالسم والسحر. [**ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٢٣**].

فاليهود في المدينة لم يهدأ لهم بال منذ حل رسول الله ﷺ بها، فجعلوا يحرضون المنافقين عليه، ويكثرون من الجدل في محاولة لتعجيز رسول الله ﷺ، ولكن الله يطلعه دائمًا على ما يبيتون له».

[**عشرون محاولة لاغتيال الرسول ﷺ لزيد ١٢٩-١٣١**].

ويقول د/ أبو فارس: «اليهود قتلة أنبياء وسفاكو دماء، هذا ما نلاحظه من تصرفات بني النضير وغيرهم من اليهود قبل البعثة المحمدية وبعدها وحتى يومنا هذا، فهم يتعطشون لسفك دماء غير اليهود، ويجدون متعة في ذلك.

إن الذي يقرأ تاريخهم مع أنبيائهم وصالحيهم يجد أنهم كانوا يتآمرون على أنبيائهم، ويدسون عليهم، ويؤلبون الحكام على قتلهم، فقد تمكنوا من قتل يحيى وزكريا عليهما السلام وحاولوا قتل عيسى عليه السلام فنجاه الله من ذلك وجعل كيدهم في نحورهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

ولقد سجل القرآن الكريم جريمتهم هذه في سورة المائدة، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة].

إن صفة العدوانية عندهم، وخصلة التمرد على أوامر الله ـ تبارك وتعالى ـ ملازمتان لهم، لا تفارقانهم، فلا غرو إذن أن يستحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله، على ألسنة نفر من أنبيائهم كعيسى بن مريم وداود عليهما السلام، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة].

وبعد ميلاد الرسول ﷺ ونشأته حذَّر الراهب بحيرى عمه أبا طالب من خطر يهود على محمد ﷺ الغلام. (أنكر علماء بعض ما ورد في هذه القصة وردَّها، ولكن صحح علماء كثيرًا من أحداثها. ينظر: صحيح السيرة النبوية المسماة بالسيرة الذهبية لطرهوني ١/ ٢٥٥-٢٦١ هامش رقم ١٠٦).

وعند مقدمه المدينة تعرض ﷺ لمؤامرات وافتراءات وتشكيك من يهود، ومن هؤلاء يهود بني النضير إذ تآمروا عليه واجتمعوا على أن يلقوا حجرًا على رأسه يجعلونه خبزة.

وإذا كان اليهود ـ لعنهم الله وأخزاهم ـ لا يقيمون وزنًا لأنبيائهم، ولا يحفظون حُرمة لدمائهم، ولا لأعراضهم، فكيف يقيمون وزنًا لغيرهم ويحفظون حرمة لدمائهم؟!

إذا كانوا لا عهد لهم ولا ذمة مع أنبيائهم فهل يكون لهم عهد مع غيرهم؟!

إن المذابح التي شنها اليهود في أكثر من مكان في فلسطين كمذبحة: قبية، ودير ياسين، وجوسان، وفوكين، وفي خارج فلسطين كـ: صبرا وشاتيلا بالتعاون مع غيرهم من الصليبيين لا تُستهجن؛ لأن الشيء إذا صدر عن أهله لا يُستغرب ولا يُستهجن، ولكن الذي يُستهجن أن يجهل الناس أو يتجاهلوا وينسوا أو يتناسوا طبيعة يهود العدوانية، وأخلاقهم السيئة، وأحقادهم على كل خير وأهله، فيُقبلوا على تطبيع العلاقات معهم، ويطمئنوا لعهدهم، ويسيروا في طريق وعر يفضي إلى الهلكة».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٦٩-١٧١].

٥ ـ ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾:

يقول د/ أبو فارس: «إن ما ناله النضير من جلاء عن أوطانهم وأموالهم هو بعض ما يستحقونه من جزاء، وعقوبة، إنهم ارتكبوا الخيانة العظمى، إذ عزموا وصمموا على الاعتداء على حياة رئيس الدولة، وهذا يستوجب إزهاق هذه الأرواح الخبيثة، وتطهير المدينة من رجسها، ولكن حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ اقتضت ألا يكون مصيرهم القتل والاستئصال؛ ليفسح المجال لهم حتى يعتبروا أو يتعظوا، ومن ثم ليعودوا إلى الحق، ويدخلوا في هذا الدين.

ومن المؤسف حقًّا أن هؤلاء اليهود لم يتعظوا ولم يعتبروا، بل قست قلوبهم فهي كالحجارة الصلدة أو أشد قسوة. [سبق أن أوردنا مقولة كنانة بن صويراء لليهود؛ بما يثبت تيقنهم من نبوته ﷺ، ولكنه العناد والكبر].

كان الأجدى لهم أن يتعظوا ويراجعوا حساباتهم ومواقفهم من هذا الدين ونتائج هذه المواقف، ويتداركوا الموقف قبل فوات الأوان، فيقلعوا عما هم فيه من الفساد والإفساد، ويتوجهوا نحو النور الذي جاء به محمد ﷺ من ربه، وقد بشرت التوراة وبشر الإنجيل به، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٠].

٦ ـ اليهود هم اليهود:

يقول د/ الزيد: «لقد ربطت الآيات القرآنية الكريمة بين اليهود المعاصرين للرسول ﷺ والسابقين، في سوء الأخلاق والمكر وعدم التناهي عن الإثم والمنكر واستحقاقهم لعنة الله على ذلك جريًا على الأسلوب القرآني الذي يستهدف تقرير أن ما عليه المعاصرون من أخلاق وما يقفونه من مواقف هو جبلة متوارثة عن الآباء يتوارثها الأجيال من بعدهم جيل بعد جيل.

[ينظر: سيرة الرسول ﷺ لمحمد عزة دروزة ٢/ ١٨٥ - ١٨٦].

وهو ما نراه اليوم من اليهود المعاصرين لنا الذين يحتلون فلسطين ويدنسون حرمة بيت المقدس ويعتدون على حرمات المسلمين وديارهم وأموالهم، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ ﴾[المائدة]. **[ينظر: اليهودية والمسيحية لمحمد ضياء الرحمن الأعظمي ص ٩٢-٩٧].**

[فقه السيرة للزيد ٣٥٩].

ويقول الشيخ أبو خوات: «ولسنا في حاجة إلى ذكاء كبير لنأخذ العبرة والدرس، فما يزال في العالم يهود وما يزال النفاق سائدًا على سائر الأخلاق، ولقد أبى اليهود أن يعيشوا بجوار العرب وفي أرضهم كما كان آباؤهم يعيشون، فشغبوا على العرب مستندين على سادة النفاق في العالم، وما إخال المنافقين اليوم سيتغيرون كثيرًا عن منافقي المدينة بالأمس البعيد، كما أن يهود اليوم لم يتغيروا عن يهود النضير وقريظة، الغدر واللؤم والوقيعة وإثارة الحروب والمنازعات في دمائهم وطبائعهم، والأمر لا يحتاج إلى أكثر من شجاعة مسلمي الصدر الأول ويقين أصحاب الرسول ﷺ، وبذلك تتمثل كل طائفة في عصورنا الحاضرة بمن كانوا في غزوة بني النضير: أُمة آمنت بربها وبرسولها وبأن الموت في سبيل الله أشهى من كل حياة يشوبها أقل ألوان الذل والخضوع، وجماعة عنصرية فاجرة غادرة نهازة لكل فرصة مهما كانت لا تمُتُّ بسبب إلى معنى الأخلاق، وجماعة أخرى كان لهم عز وجاه وعظمة وآمال ملك وسلطان، لم يفاجئهم فيها إلا هذه الأمة المؤمنة التي تقيم العدل والحق وتكره الظلم والطغيان.

إن التاريخ يعيد نفسه أحيانًا، وها نحن اليوم: اليهود هم اليهود، يستندون على تأييد جبهة النفاق والحقد واسترجاع السلطة فتعدهم بكل التأييد، والعرب هم سلالات أولئك الذين وقفوا خمس عشرة ليلة فقط لينتهي كل شيء دون قتال، بيد أني أرى أن ما باليهود والمنافقين يوم النضير من الغدر والحقد لم

ينقص اليوم وإنما زاد، وأما ما كان بالمسلمين من الإيمان وحب الاستشهاد واسترخاص الحياة والشجاعة والإقدام وطاعة الله ورسوله فقد اعتراه النقص والضعف وأخشى أن يكون قد زال.

ولو قد عرف المسلمون أسلحة النصر الحقيقية فشحذوها واستخدموها عن يقين وإيمان لحققوا بها اليوم أكثر مما حققوا بها بالأمس، وإن شئت فاقرأ ما حدث لبني النضير من سورة الحشر قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الحشر].

وهكذا تعطينا هذه الكلمات الصادقة ـ لأنها كلمات رب العالمين ـ صفات اليهود الحقيقية:

(١) أنهم يعتمدون على غيرهم في كل أدوار حياتهم، فهم كلاب الصيد في كل زمان.

(٢) أنهم جبناء لا يقاتلون وجهًا لوجه وإنما القرى المحصنة دأبهم وطريقتهم.

ولعل المستعمرات المحصنة التي يقيمها اليهود في النقب وعلى الحدود المزعومة تؤكد لكل متشكك صدق كلام أصدق القائلين.

(٣) أنهم لا يخشون الله كما يخشون الناس، وبخاصة العرب والمسلمين.

ومن هنا يظهر لنا السبب الحقيقي في الفظائع التي يفعلونها بكل من يقع في أيديهم من العرب والمسلمين، ومن هنا أيضًا فإن قلوبهم متعلقة بحطام الدنيا، وكل فرد منهم له هدف دنيوي يسعى إليه، فإذا كانوا في ظاهر أمرهم مجتمعين فإنهم في حقيقة أمرهم متفرقون: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾.

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٦٩-٧٢].

ويقول د/ الزيد: «تعطينا هذه الأحداث بجملتها مجموعة من العبر والعظات التي يجب التبصر بها، والعمل بها تمليه علينا من سلوك نسلكه في مواجهة اليهود في كل عصر، والأمة الإسلامية في عصرها الحاضر في حاجة ملحة إلى أن تستفيد من تجارب من سبقها بعظات هذه التجارب كي لا تتعثر في خطواتها وتصاب بالغشاوة في مسيرتها».[ينظر: مكايد اليهود لعبد الرحمن بن حبنكة الميداني ص ١٢٦].

[فقه السيرة للزيد ٣٥٩-٣٦٠].

٧ ـ قيمة العهود عند المسلمين وعند اليهود:

يقول د/ فيض الله: «رأينا قبل غزوة بني قينقاع كيف كان المسلمون أوفياء بعهودهم، جادِّين في معايشة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين يلتقون بهم في الإيمان بالرسالات والكتب السماوية،

وأن اليهود كانوا عند أسوأ الظن، فقد عاشوا مع المسلمين في المدينة، يحرجون صدورهم، ويلمزون بدينهم ونبيهم، ويعينون عليهم أهل الشرك، الذين لا يلتقون معهم بنبي مرسل، ولا بكتاب منزل، ويسعون في نقض دولتهم الفتية من القواعد، كلما أرسوا لها ركنًا، حاولوا أن ينقضوا منها أركانًا.

وقد كشفت تلك الغزوة، ضغينة القوم، وخبثهم المبَطَّن، ونقضهم الوثيقة والعهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، بأسلوب دنيءٍ وهابطٍ مُزْرٍ، عبث بحجاب المرأة المسلمة الرزين، وكرامتها المصونة.

وكان ذلك في منتصف شوال من السنة الثانية للهجرة.

وغزوة بني النضير هذه كانت في شهر ربيع الأول في السنة الرابعة للهجرة، وكانت غدرًا خبيثًا، ومكرًا سيئًا، بشخص الرسول ﷺ نفسه.

ففي الوقت الذي سعى إلى اليهود، يستعينهم في دية قتلى بني عامر، للعهد الذي كان بينه وبينهم، كان اليهود يبيتون الغدر به، وبينهم وبينه عهد وميثاق.

يا لله للوفاء العجيب المتسامي إلى القمة، ولنقض العهد في أبشع صور الخسة والجبن والحقارة.

وليتمثل المسلم وفاء الرسول ﷺ رئيس هذه الدولة المسلمة النامية، بالتزاماتها حيال ما قطعته على نفسها من عهد الجوار، وليس في خزانتها ما يَدِي قتيلين؛ فلا يمهل، ولا يعطل، ولا يُرْجِئْ، بل يسعى ليقترض في دفع الدية، وفاءً بما التزم، وليتصور كيف تحاك ضده ـ وهو في أنبل طرق الوفاء، وصدق التعاقد ـ أحط مؤامرة، تحاك لكي تودي بحياته المثلى، ورسالته الإنسانية العليا.

إن دولة الإسلام، كشرعة الإسلام، لا تعرف إلا الوفاء، ولا وجود للغدر في دستورها، إنها التزمت الوفاء كأشد ما يكون الالتزام، وكأروع ما يكون؛ ولهذا ضربت المثل في عهودها المتلاحقة، كما أن دولة اليهود لم تعرف إلا الغدر ونقض العهود، كأبشع ما يكون الغدر ونقض العهد، وتاريخها مع المسلمين، وغير المسلمين، حافل بالأحداث والشواهد المخجلة المؤسفة اللاإنسانية.

ولتأكيد قيمة العهود، والوفاء بالالتزامات والعقود، نزلت هذه الآيات القطعيات في محكم التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[المائدة: ١]، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾[النحل: ٩١].

وكان الوفاء بالعهد من أبرز صفات المؤمنين، كما أنه من صفات رب العالمين: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٧٧]، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:١١١].

فهل يُقَدِّر المسلمون هذه الصفة النبيلة حق قدرها؟ وهل يرعونها حق رعايتها، في التصور والتطبيق، ولا يكونوا كاليهود، الذين تنكَّر لها تاريخهم الطويل القائم، فتخوَّضوا في وديان سحيقة من الأنانية البغيضة، والمادية المسرفة، والعنصرية المنبوذة المنكرة؟». [صور وعبر لفيض الله ١٦١-١٦٣].

وبإجلاء الرسول ﷺ لليهود من المدينة بعد نقضهم لتلك الوثيقة ينتهي أثرها وتصبح لاغية لا قيمة لها وهو ما أكده حديث الرسول ﷺ عندما أمر بإخراج اليهود من جزيرة العرب في آخر حياته ﷺ.

[أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ١٩٥، وقال الهيثمي في المجمع ٥/ ٣٢٥: رواه أحمد بأسانيد ورجال طريقين منها ثقات متصل إسنادها]. [فقه السيرة للزيد ٣٦٠].

ويقول د/ أبو فارس: «قد يخنس اليهود في فترة من الفترات عن مهاجمة المسلمين والنَّيْل منهم، وقد يسكنون ويهدؤون، لكن هذا الهدوء ليس نابعًا من حرصهم على العهود ومحافظتهم عليها، ولا رغبة منهم في مسالمة المسلمين، وإنما يعود هذا الموقف الطارئ في حياتهم إلى أنَّ الظروف غير مواتية للغدر والخيانة، وحين يشعرون بأن الكفة قد تكون في صالحهم، وتخدم أغراضهم وأهواءهم، فإن نقض العهد عندهم ونكثه من أحب الأمور إلى نفوسهم المنحرفة.

هذا ما حدث ليهود بني النضير بالضبط، إذ تجرأوا على رسول الله ﷺ بعد ما تراءى لهم أن المسلمين بعد أُحُد والأحداث التي تلتها قد ضعفت قواهم وتمزق شملهم، والفرصة قد واتت لتوجيه ضربة قاضية للمسلمين بالاعتداء على حياة القائد الرائد رسول الله ﷺ». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٦٨**].

ويقول د/ باقازي: «وصفوة القول: إن في قصة بني النضير عبرة للمسلمين؛ ليحذروا غدر اليهود وخيانتهم، فلا يثقوا بهم، أو يأتمنوهم على شيء، بل يعاملوهم بحذر، ويأخذوا جميع الاحتياطات الضرورية لحماية الجماعة الإسلامية من غدرهم، فيعاملوهم على أنهم غدارون، فيحتاطون لذلك، فلا ينخدعوا بهم كما انخدع سائر الأمم، فآووهم حين كانوا مشردين، ونصروهم حين كانوا مستضعفين، وأغنوهم حين كانوا فقراء، فلما تمكنوا في الأرض غدروا بهم، واعتدوا عليهم، فاستلوا على مقدراتهم وخيراتهم». [**بنو النضير من خلال سورة الحشر لباقازي ص ١٧١-١٧٢**].

٨ـ التربية الإسلامية:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللهِ عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ قَالَ: اللِّينَةُ النَّخْلَةُ ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ قَالَ: اسْتَنْزَلُوهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ، قَالَ: وَأُمِرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ فَحَكَّ فِي صُدُورِهِمْ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا وَتَرَكْنَا بَعْضًا، فَلَنَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ لَنَا فِيمَا قَطَعْنَا مِنْ أَجْرٍ، وَهَلْ عَلَيْنَا فِيمَا تَرَكْنَا مِنْ وِزْرٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ الآيَةَ. [**الترمذي في تفسير القرآن (٣٣٠٣)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ**].

يقول أ/ الصوياني: «هذا هو الإسلام، وهؤلاء هم المسلمون، وهذه هي التربية الإسلامية التي لا تنحصر بين أروقة المساجد وجدران البيوت، تربية تنتشر في كل اتجاه، وتصاحب المؤمن في كل مكان وتحت أي ظرف، في أوج الحروب وبين بريق السيوف والدماء يتوقف المسلمون ليسألوا رسول الله ﷺ

عن صحة تصرفهم مع سحوق أو فسيلة نخل، الإسلام يربي أصحابه في التعامل مع كل شيء حتى مع جذوع النخل بعد أن أرشدهم إلى التعامل مع جذوع الخيانة وجذورها اليهودية».

[السيرة النبوية للصوياني ٢/ ١٦٦].

٩ ـ حسد اليهود للمسلمين:

يقول د/ الزيد: «يتبادر إلى القارئ سؤال مهم وهو يرى اطلاع أهل الكتاب وعلمهم بالبعثة النبوية وصدق الرسول ﷺ، ثم لم يستجيبوا له وخاصة أحبار اليهود.

والإجابة صريحة في كتاب الله، تشهد على حسد اليهود، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾[البقرة]. [ينظر: قضايا ومباحث في السيرة لسليمان بن حمد العودة ص ٩٥].

والحسد داء بُليت به الأمم والأفراد، وحال بين كثير من الناس واتباع الحق، وجرَّهم إلى رد كثير من الخير، والوقوع في المعاصي عن قصد ومعرفة، ولم يقتصر وقوعه من الكفار، بل هو واقع حتى بين المسلمين مع أنه من أشد الذنوب، يقول ابن القيم رحمه الله: (فالكبائر كالرياء والعجب والكبر والفخر... والفرح والسرور بأذى المسلمين والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة).[تهذيب مدارج السالكين (هذبه عبد المنعم بن صالح العلي العزي) ص ٨٦].

والمؤمن يأخذ العبرة والعظة من غيره، فلا يَحُول الحسد بينه وبين شيء من الحق، ولا يقع في منزلة الحسد الذي هو ذنب من أعظم الذنوب التي يرتكبها القلب، وفي غفلة عما يدل عليه من الاعتراض على الله سبحانه في تقديره، وفي جهل بأثر ذلك على السلوك والتعامل». [فقه السيرة للزيد ٣٦٠-٣٦١].

١٠ ـ عن الرحمة:

يقول أ/ فتح الباب: «أولئك هم اليهود تأبى يهوديتهم إلا أن تغلب عليهم في جميع المواقف، إنهم أرباب الفساد في الأرض، والمحرضون على الفتنة، ومثيرو الحروب، والوالغون في دماء الضحايا منذ أقدم عصور البشرية، لا ينهاهم وازع من ضمير، ولا إيمان بقيمة من القيم، ومع ذلك فهم يذكرون الصلاح والخير والعدل والشفقة حين يُؤخذون بجرائمهم ويعاقبون على إفسادهم، ويطلبون الرحمة بهم ـ إذا عجزوا ـ وهم الظالمون، ولا يستعملونها إذا قدروا مع المظلومين.

وكذلك أحق الله الحق وأبطل الباطل، فتباكى يهود بني النضير المجرمون حين أدركهم اليأس فانصاعوا صاغرين لأمر النبي ﷺ وسألوه الإبقاء على حياتهم وأموالهم وأولادهم حتى يخرجوا من

المدينة، فاشترط عليهم أن يجلوا منها ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاؤوا من مال أو طعـام أو شراب، ليس لهم غيره.

وتطهرت منهم أرض يثرب حيث لحقوا ببني قينقاع في أذرعات على الشام، وأقام بعضـهم مـع يهـود خيبر، وبدأ النبي ﷺ من جديد يرسي دعائم الجبهة الداخلية بعد أن وقاها شر الحرب الأهلية بقضائه عـلى الفتنة في مهدها، ولم يجرؤ المنافقون على أن يرفعوا رؤوسهم بعد أن اجتثت أصول الشجرة الملعونة.

وفي إجلاء يهود بني النضير عن المدينة وتراخي ابن أبي وسائر المنافقين عن معاونتهم كما وعدوهم جبنًا من المسلمين، نزل قول الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾[الحشر].

وتَصِمُ هذه الآيات اليهود بالكفر وتزعزع الإيمان، كما يدل عليه خوفهم من المؤمنين دون الله تعالى، ومفهوم المخالفة ـ كما يعبر فقهاء القانون ـ أن الدليل على صدق الإيمان هو الخوف من الرب لا العبد، فللإيمان على النفس التي تعرف قيمته سلطان لا يعدله سلطان مهما بلغ شأنه؛ لأن في عقيدتها ألا سلطان لغير الله، وصدق الله العظيم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[آل عمران]».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٢٢١ –٢٢٣].

ويقول د/ أبو خليل: «والرحمة هنا لا محل لها في موقفين متباينين، تناقضت فيهما التصورات، طـرف متسامح يطرح المحبة والتعاون والتعايش بأمان، وطرف حاقد ماكر ناكث الوعد، ينفذ التآمر والقتل.

إن تصرفات اليهود سيطرت عليها روح الحفاظ على الامتيازات التي تمتعـوا بهـا عنـدما كـان العـرب فِرقًا وقبائل متنافسة، ولكن هيهات أن تنجح هذه الأحلام في ظل الإسلام، فما كان من عند الله يُمضه».

[غزوة الخندق لأبي خليل ٣٥-٣٦].

١١ ـ سماحة الإسلام ورحمته بأعدائه:

يقول أ/ رضوان: «هل الإسلام يقوم على إرغام الناس على الدخول فيه بالسيف؟

لو كان الأمر كذلك كما يدعي أعداء الإسلام، فلماذا لم يـرغم الرسـول ﷺ هـؤلاء الأسرى عـلى الإسلام وهم الذين فكروا في اغتياله والقضاء على الإسلام؟!

حقًّا لقد صدق في أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم قول رسول الإسلام ﷺ: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ [فَافْعَلْ] مَا شِئْتَ**». [البخاري في الأدب (٦١٢٠)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٩)].

ولا شك أن إخراج اليهود من بني النضير من المدينة من أعظم الأدلة على سماحة الإسلام، ورحمة الرسول القائد ﷺ.

وخير دليل على أنه حقًّا رسول من عند الله رب العالمين أرسله رحمة للعالمين؛ لأنه لم يغضب لنفسه، وينتقم من هؤلاء اليهود الذين أرادوا الغدر به شر انتقام.

إذ جرت سنن الطبيعة البشرية على أن الإنسان يغضب لنفسه أشد أنواع الغضب.

وقد ذكر لنا التاريخ عن قادة قتلوا عشرات الألوف وحبسوهم واعتقلوهم وعذبوهم لمجرد الخوف منهم فضلًا عن التفكير العملي في اغتيالهم». [محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٠-٨١].

١٢ ـ لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله:

يقول د/ فيض الله: «كان مكر اليهود، وتآمرهم على حياة الرسول ﷺ في المشهد الذي صورناه، غاية في الخسة والوضاعة؛ وكانوا يبتغون من مكرهم وغدرهم عزةً ورفعةً، ومجدًا وغلبةً، لكن القدر سَخِر منهم، فنجَّى الرسول ﷺ وكذَّب عزتهم، وأهوى رفعتهم، وقوَّض مجدهم، وكسر غلبتهم، وخرب بيوتهم، ورحَّلهم عن الديار، شر ما يكون الترحيل.

ولم يكلف ذلك كله المسلمين، قتالًا ومواجهةً، ولا اصطدامًا مسلحًا، لكنه الخوف الذي قذف الله تعالى به في قلوبهم، فطلبوا النجاة بأرواحهم في ذلة وخزي، مخلِّفين وراءهم ثراءً عريضًا، وملكًا كبيرًا، حازه المسلمون غنيمةً باردةً.

وقد جاء البيان القرآني الرفيع، في وصف ذلك المشهد الفظيع: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾[الحشر].

هذه عاقبة المكر السيئ، والغدر المشين، وانظر بعد ذلك كيف أشار القرآن الكريم إلى موطن العبرة، في هذه الموقعة، وإلى هذا التهديد الذي أعلنه لكل مَنْ يسلك سبل المكر المزري، والحقد المستبد، وقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾.

فهل للمسلم أن يعتبر، وهو الناظر الدارس في مسلك اليهود الماكر، أن ينتفع بما أحاط بهم، وأحبط تآمرهم، وكلفهم من ثمن غال، دفعوه راغمين مقابل مكرهم السيء؟

بل هل للمسلم أن يجتنب المكر بأخيه المسلم، الغافل الخالي، السليم الطوية، الصافي السريرة، فيحب له ما يحب لنفسه، ويكره ما يكره لها؛ ليكون في مسلك الإخوة المؤمنين، وفي مستوى الإيمان الرفيع الغالب؟

اللهم نظِّف قلوبنا، وطهرها من كل مرض، واغسلها بكل مُنَقٍّ مُعَقِّم، اللهم واجعل سريرتنا خيرًا من علانيتنا، واجعل علانيتنا صالحة». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٦٧-١٦٨].

١٣ ـ الإيثار:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تجلى خلق الإيثار في الأنصار بشكل واضح في موقفهم من توزيع الفيء على المهاجرين على أن يتركوا للأنصار ما شاركوهم فيه من عقار ومال، فأبى الأنصار إلا أن يأخذوا الفيء ويبقوا على الأموال.

إن خلق الإيثار ترسخ ونما في هذا الحادثة، فاستحقوا المدح والثناء من الله ومن رسوله ﷺ، ومن إخوانهم المهاجرين، وهذا الشرف ظلوا يحرصون عليه، فهو منقبة تتضاءل أمامها كثير من المناقب، وخصلة حميدة تهزل أمامها كثير من الخصال، ولا غرو أن نسمع قول الله ـ تبارك وتعالى ـ يمتدحهم فيقول: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر].

والإيثار في المفهوم الإسلامي أن تقدِّم أخاك المسلم على نفسك في المَغْنَم، وأن تتقدم أمامه تفديه بنفسك في المَغْرَم.

ولقد قام الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ بالإيثار وتخلقوا به بشقيه، فتناقص الأنصار، وقل عددهم بشكل ملحوظ بسبب الحروب بين أعداء الله وبين المسلمين، ولقد أشعر الرسول ﷺ المسلمين بهذا الأمر بأن الناس يزدادون والأنصار يتناقصون، فأوصى بهم خيرًا.

والمسلمون اليوم مدعوون على المستويات الكافة أن يتخلقوا بالإيثار، يربون أنفسهم وأبناءهم وأصدقاءهم عليه.

إن البشرية اليوم ضاربة في أعماق التيه، غارقة في بحر من الآلام والضياع، ممزقة إلى شراذم متدابرة متشاحنة متضاغنة متحاسدة، تسيطر عليها الأنانية لبعدهم عن منهج الله ﷻ وشرعه، وجفائها لهذه القيم الإيمانية والأخلاق الإسلامية، فهي مدعوة ـ أيضًا ـ إلى هذا الدين عقيدة وشريعة ونظام حياة».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٢-١٨٣].

١٤ ـ المقام السامي للصحابة الكرام ﭫ:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا ثناء الله تعالى ومدحه لصحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار في سورة الحشر بمناسبة ذكر المستحقين لأموال بني النضير، وهي أموال الفيء التي أفاء الله بها على رسوله والمشار إليها في سورة الحشر.

وقد حَكَمَ سعدُ بن معاذ ﭬ في بني قريظة، ولم يتأثر بحلف قديم بين قومه (الأوس) وبين يهود بني قريظة، مفضلًا بل وعاملًا بمقتضى ولائه لله ولرسوله وللمؤمنين، ومتبرئًا من موالاة غيرهم والانحياز إلى هذا الغير.

فعلى الدعاة وجماعتهم المسلمة تعريف المسلمين بالمقام السامي للصحابة الكرام ﭫ، والمنزلة العالية التي نالوها في خدمة الإسلام، وتفهيم المسلمين وجوب محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وحرمة بُغضهم أو الحقد عليهم أو سبهم أو تنقيصهم، وتفهيم المسلمين بأن الله مدحهم في كتابه العزيز، وشهد لهم بالصدق والإيمان وبرضوانه عليهم، وأن متبعيهم بإحسان يصيبهم رضوان الله، وأن مبغضهم والحاقد عليهم ومن سبهم أو انتقصهم مستحق لسخط الله.

فعلى الدعاة أن يوضحوا ذلك للناس لا سيما في الأماكن التي يعلن بعض الجهلة والمبتدعة سبَّ صحابة رسول الله ﷺ علانية وجهارًا.

فعلى الدعاة أن يستشهدوا بما نزل من كلام الله من عقاب سيحل بهؤلاء، كما أن عليهم أن يذكِّروهم بما ورد من أحاديث في مدحهم والثناء عليهم، وخاصة ما ورد في مناقب الخلفاء الراشدين، وهناك أحاديث في مناقب تخص أشخاصًا بأعيانهم من المهاجرين والأنصار، وإنما خصصت مناقب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﭫ؛ لأن أكثر سبِّ المبتدعة يتعلق بهم». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٩١-٢٩٣].

المطلب الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي اسْتِعَانَتِهِ بِمَنْ طَلَبَ الاسْتِعَانَةَ بِهِ مِنْ الكُفَّارِ، وَفِي مَنْعِهِ مَنْ مَنَعَهُ مِنْ الكُفَّارِ مِنْ القِتَالِ مَعَهُ:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: نَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ الفُضَيْلِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ نِيَارٍ الأَسْلَمِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ، قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: جِئْتُ لِأَتْبَعَكَ، وَأُصِيبَ مَعَكَ،

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتُؤْمِنُ بِالله ﷻ وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَارْجِعْ فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، قَالَ: ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: لَا، فَقَالَ: «**ارْجِعْ فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، قَالَ: فَرَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالبَيْدَاءِ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: «**أَتُؤْمِنُ بِالله وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَانْطَلِقْ**».

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عُثْمَانَ قَالَ: ثنا نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ قَالَ: ثنا ابْنُ المُبَارَكِ قَالَ: ثنا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ الفُضَيْلِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ نِيَارٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَدْرٍ حَتَّى إِذَا كَانَ بِحَرَّةِ الوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ ذُو جُرْأَةٍ وَنَجْدَةٍ، فَلَمَّا رَآهُ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ فَرِحُوا بِهِ وَأَعْجَبَهُمْ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْرُجُ مَعَكَ فَأُقَاتِلُ وَأُصِيبُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتُؤْمِنُ بِالله ﷻ وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَارْجِعْ فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِذِي الحُلَيْفَةِ أَدْرَكَهُ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: هَذَا فُلَانٌ قَدْ رَجَعَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْرُجُ مَعَكَ فَأُقَاتِلُ وَأُصِيبُ، فَقَالَ: «**أَتُؤْمِنُ بِالله ﷻ وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَارْجِعْ فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِظَهْرِ البَيْدَاءِ لَحِقَهُ أَيْضًا، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْرُجُ مَعَكَ فَأُقَاتِلُ وَأُصِيبُ، فَقَالَ: «**أَتُؤْمِنُ بِالله ﷻ وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَنَعَمْ إِذًا**».

وَحَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ عُمَرَ الزَّهْرَانِيُّ قَالَ: ثنا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ فُضَيْلِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ نِيَارٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يُرِيدُ بَدْرًا: أَخْرُجُ مَعَك، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**»، قَالَ بِشْرٌ: فَقُلْتُ لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ: أَلَيْسَ ابْنُ شِهَابٍ يُحَدِّثُ أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ سَارَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَشَهِدَ حُنَيْنًا، وَالطَّائِفَ وَهُوَ كَافِرٌ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ سَارَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَلَمْ يَأْمُرْهُ رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ.

وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ المُغِيرَةِ الكُوفِيُّ قَالَ: ثنا يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ قَالَ: ثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ مَالِكٍ عَنْ الفُضَيْلِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ نِيَارٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَجُلًا مِنْ المُشْرِكِينَ لَحِقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَاتَلَ مَعَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْجِعْ فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**».

وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: ثنا عَبْدُ الله بْنُ يُوسُفَ قَالَ: ثنا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ الفُضَيْلِ ابْنِ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ نِيَارٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ عُثْمَانَ عَنْ نُعَيْمٍ عَنْ ابْنِ المُبَارَكِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ لِقَاءَ رَسُولِ الله ﷺ بِذِي الحُلَيْفَةِ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَكَانَ فِيمَا رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَوْلُهُ: «**إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**»، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَيَّةَ عَنْ بِشْرِ بْنِ عُمَرَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ: أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ الله

ﷺ حُنَيْنًا، وَالطَّائِفَ وَهُوَ كَافِرٌ، وَطَلَبْنَا ذَلِكَ هَلْ نَجِدُهُ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ مُتَّصِلِ الإِسْنَادِ فَوَجَدْنَا فَهْدًا قَدْ حَدَّثَنَا قَالَ: ثنا يُوسُفُ بْنُ بُهْلُولٍ قَالَ: ثنا عَبْدُ الله بْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِيهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا انْهَزَمَ النَّاسُ يَوْمَ حُنَيْنٍ جَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ يَقُولُ: لَا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ، وَصَرَخَ كَلَدَةُ بْنُ الحَنْبَلِ وَهُوَ مَعَ أَخِيهِ لِأُمِّهِ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ: أَلَا بَطَلَ السِّحْرُ الْيَوْمَ، فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ: **اُسْكُتْ فَضَّ اللهُ فَاكَ، فَوَالله لَأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ**.

وَوَجَدْنَا الرَّبِيعَ الْمُرَادِيَّ قَدْ حَدَّثَنَا قَالَ: ثنا أَسَدُ بْنُ مُوسَى قَالَ: ثنا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ قَالَ: ثنا ابْنُ إِسْحَاقَ ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَهُ بِإِسْنَادِهِ، فَصَارَ مَا ذَكَرَهُ مَالِكٌ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ فِي أَمْرِ صَفْوَانَ مَوْجُودًا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ الَّذِي رَوَيْنَاهُ مُتَّصِلًا.

وَحَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ نَصْرٍ قَالَ: سَمِعْت يَزِيدَ بْنَ هَارُونَ قَالَ: أَنَا مُسْتَلِمُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: ثنا خُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خُبَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: أَتَيْت رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُرِيدُ غَزْوًا أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ قَوْمِي، وَلَمْ نُسْلِمْ، فَقُلْنَا: إِنَّا نَسْتَحْيِي أَنْ يَشْهَدَ قَوْمُنَا مَشْهَدًا لَمْ نَشْهَدْهُ مَعَهُمْ، قَالَ: «**أَوَ أَسْلَمْتُمَا؟**»، قُلْنَا: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ**».

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ شَيْبَةَ قَالَ: ثنا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ ثُمَّ ذَكَرَ بِإِسْنَادِهِ مِثْلَهُ.

فَقَالَ قَائِلٌ: فَهَلْ يَدْفَعُ مَا رَوَيْته عَنْ أَمْرِ صَفْوَانَ فِي قِتَالِهِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُشْرِكٌ مَا سِوَاهُ مِمَّا رَوَيْته فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: «**إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**».

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ الله ﷻ أَنَّ مَا رَوَيْنَاهُ مِنْ قِصَّةِ صَفْوَانَ لَيْسَ بِمُخَالِفٍ لِمَا رَوَيْنَاهُ فِي سِوَاهَا فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ: «**إِنِّي لَا أَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**»؛ لِأَنَّ قِتَالَ صَفْوَانَ كَانَ مَعَهُ ﷺ لَا بِاسْتِعَانَةٍ مِنْهُ إِيَّاهُ فِي ذَلِكَ.

فَفِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا امْتَنَعَ مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ وَبِأَمْثَالِهِ وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنَ الْقِتَالِ مَعَهُ بِاخْتِيَارِهِمْ لِذَلِكَ، وَكَانَ تَرْكُهُ ﷺ الِاسْتِعَانَةَ بِهِمْ مُحْتَمِلًا أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [آل عمران]، فَكَانَتْ الِاسْتِعَانَةُ بِهِمْ اتِّخَاذَهُ لَهُمْ بِطَانَةً، وَلَمْ يَكُنْ قِتَالُهُمْ مَعَهُ بِغَيْرِ اسْتِعَانَةٍ مِنْهُ بِهِمْ اتِّخَاذًا مِنْهُ إِيَّاهُمْ بِطَانَةً.

فَقَالَ قَائِلٌ: فَأَنْتُمْ قَدْ رَوَيْتُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ دُعَاءَهُ الْيَهُودَ إِلَى قِتَالِ أَبِي سُفْيَانَ مَعَهُ، وَهُمْ مِمَّنْ لَا يَأْلُونَهُ خَبَالًا، وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ مَا قَدْ حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: أَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شُرَيْحٍ

أَنَّهُ سَمِعَ الحَارِثَ بْنَ يَزِيدَ الحَضْرَمِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الحَارِثِ الأَنْصَارِيِّ عَنْ بَعْضِ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: لـمَّا بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ جَمْعُ أَبِي سُفْيَانَ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَانْطَلَقَ إِلَى اليَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّضِيرِ فَوَجَدَ مِنْهُمْ نَفَرًا عِنْدَ مَنْزِلِهِمْ، فَرَحَّبُوا، فَقَالَ: «**إِنَّا جِئْنَاكُمْ لِخَيْرٍ، إِنَّا أَهْلُ الكِتَابِ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ الكِتَابِ، وَإِنَّ لِأَهْلِ الكِتَابِ عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ النَّصْرَ، وَإِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْنَا بِجَمْعٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِمَّا قَاتَلْتُمْ مَعَنَا أَوْ أَعَرْتُمُونَا سِلَاحًا**».

قَالَ: فَفِي هَذَا الحَدِيثِ مَا يُخَالِفُ شَيْئًا مِمَّا رَوَيْته فِي هَذَا البَابِ، فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ الله وَعَوْنِهِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُخَالِفُ شَيْئًا مِمَّا رَوَيْنَاهُ فِي هَذَا البَابِ؛ لِأَنَّ اليَهُودَ الَّذِينَ دَعَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الحَدِيثِ إِلَى قِتَالِ أَبِي سُفْيَانَ مَعَهُ لَيْسُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الآثَارِ الأُوَلِ إِنَّهُ لَا يَسْتَعِينُ بِهِمْ، أُولَئِكَ عَبَدَةُ الأَوْثَانِ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الكِتَابِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا مُبَايَنَةَ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَمَا عَبَدَةُ الأَوْثَانِ عَلَيْهِ فِي البَابِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا البَابِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الكِتَابِ الَّذِينَ نَجْتَمِعُ نَحْنُ وَهُمْ فِي الإِيمَانِ بِمَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْ كُتُبِ الله تَعَالَى الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى مَنْ أَنْزَلَهَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَنُؤْمِنُ نَحْنُ وَهُمْ بِالبَعْثِ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ، وَأُولَئِكَ الآخَرُونَ لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَنَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الكِتَابِيُّونَ فِي قِتَالِ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَالغَلَبَةُ لَنَا لِأَنَّا الأَعْلَوْنَ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ تُبَّاعٌ لَنَا فِي ذَلِكَ، وَهَكَذَا حُكْمُهُمْ إِلَى الآنَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ العِلمِ، مِنْهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ يَقُولُونَ: لَا بَأْسَ بِالاسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ الكِتَابِ فِي قِتَالِ مَنْ سِوَاهُمْ، إِذَا كَانَ حُكْمُنَا هُوَ الغَالِبُ، وَيَكْرَهُونَ مَا سِوَى ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ أَحْكَامُنَا بِخِلَافِ ذَلِكَ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ تِلكَ الحَالِ.

فَقَالَ هَذَا القَائِلُ: فَأَنْتُمْ قَدْ رَوَيْتُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مَا يُخَالِفُ هَذَا يَعْنِي مَا حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ رِجَالٍ قَالَ: ثنا هَدِيَّةُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ قَالَ: ثنا الفَضْلُ بْنُ مُوسَى السِّينَانِيُّ قَالَ: ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ سَعْدِ بْنِ مُنْذِرٍ السَّاعِدِيِّ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ حَتَّى إِذَا خَلَفَ ثَنِيَّةَ الوَدَاعِ إِذَا هُوَ بِكَتِيبَةٍ خَشْنَاءَ فَقَالَ: «**مَنْ هَؤُلَاءِ؟**»، قَالُوا: بَنُو قَيْنُقَاعَ، وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ، وَهُمْ قَوْمُ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَقَالَ: أَسْلِمُوا، فَأَبَوْا، قَالَ: «**قُلْ لَهُمْ فَلْيَرْجِعُوا، فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ**».

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ فِي هَذَا الحَدِيثِ «وَهُمْ قَوْمُ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ» لَيْسَ يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ لَيْسَ مِنَ اليَهُودِ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الرَّهْطِ الَّذِينَ يَرْجِعُ الأَنْصَارُ إِلَيْهِمْ بِأَنْسَابِهِمْ، وَلَكِنَّهُ جَدَلَ بِنِفَاقِهِ فَأَمَّا نَسَبُهُ فِيهِمْ فَقَائِمٌ، وَقِيلَ إِنَّهُمْ قَوْمُهُ؛ أَيْ لِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ بِمُحَالَفَتِهِ لَا بِمَا سِوَى ذَلِكَ.

قَالَ هَذَا القَائِلُ: فَهَذَا يُخَالِفُ مَا فِي الآثَارِ الأُوَلِ فِي مَوْضِعَيْنِ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَإِنَّهُ جَعَلَهُمْ مُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ لَهُمْ: «**إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ**»، وَأَمَّا الآخَرُ فَمَنْعُهُ إِيَّاهُمْ مِنَ القِتَالِ مَعَهُ، وَفِي حَدِيثِ ثَابِتِ بْنِ الحَارِثِ الَّذِي قَدْ رَوَيْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي هَذَا البَابِ دُعَاءُ رَسُولِ اللهِ ﷺ اليَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّضِيرِ إِلَى القِتَالِ مَعَهُ.

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ ﷻ وَعَوْنِهِ أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ غَيْرُ مُخَالِفٍ لِذَلِكَ الحَدِيثِ وَلَا شَيْءَ مِمَّا رَوَيْنَاهُ فِي هَذَا البَابِ؛ لِأَنَّ وَجْهَ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِهَؤُلَاءِ اليَهُودِ الَّذِينَ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ مَا قَالَهُ لَهُمْ فِي حَدِيثِ أَبِي حُمَيْدٍ كَانَ بَعْدَ وُقُوفِهِ ﷺ عَلَى مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ المُنَافِقِ مِنَ الحِلْفِ، وَالمُحَالَفَةُ هِيَ المُوَافَقَةُ مِنَ الحَالِفِينَ لِلحَالِفِينَ، فَكَانُوا بِذَلِكَ خَارِجِينَ مِنَ الكِتَابِ الَّذِي كَانُوا مِنْ أَهْلِهِ مِمَّا سِوَاهُمْ مِنَ اليَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّضِيرِ فِي ذَلِكَ بِحِلَافِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُحَالِفُوا مُنَافِقًا.

وَكَانَ أُولَئِكَ بِمَا حَالَفُوا المُنَافِقَ الَّذِي حَالَفُوهُ مُرْتَدِّينَ عَنْ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَكَانُوا بِذَلِكَ كَالمُرْتَدِّينَ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنَا إِلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ إِلَى نَصْرَانِيَّةٍ، فَلَا يَكُونُونَ بِذَلِكَ يَهُودًا وَلَا نَصَارَى؛ لِأَنَّ ذَبَائِحَهُمْ غَيْرُ مَأْكُولَاتٍ؛ وَلِأَنَّ نِسَاءَهُمْ اللَّاتِي دَخَلنَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ غَيْرُ مَنْكُوحَاتٍ، فَمِثْلُ ذَلِكَ بَنُو قَيْنُقَاعَ لَمَّا حَالَفُوا عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ المُنَافِقَ فَوَاطَؤُوهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ، وَوَافَقُوهُ عَلَى ذَلِكَ، خَرَجُوا بِذَلِكَ مِنْ حُكْمِ الكِتَابِ الَّذِي كَانُوا مِنْ أَهْلِهِ، وَصَارُوا مُشْرِكِينَ كَمُشْرِكِي العَرَبِ الَّذِينَ أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ لَا يَسْتَعِينُ بِهِمْ، فَلَمْ يَسْتَعِنْ بِهِمْ فِي قِتَالِهِ المُشْرِكِينَ لِذَلِكَ، فَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الَّذِي يَذْكُرُ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ فَمُخَالِفٌ لِذَلِكَ، وَلَا بَأْسَ بِالاِسْتِعَانَةِ بِمِثْلِهِ فِي قِتَالِ المُشْرِكِينَ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُشْرِكٍ، إِنَّمَا هُوَ كِتَابِيٌّ كَافِرٌ، وَهُوَ عَدُوٌّ لِلكُفَّارِ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ كَمَا نَحْنُ أَعْدَاءٌ لَهُمْ، وَاللهَ ﷻ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ». [تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٥/ ٤٥٤-٤٦٤].

٢ ـ جواز الاستعانة المالية بغير المسلمين المعاهدين في الدولة الإسلامية:

أُخذ هذا من طلب رسول الله ﷺ من بني النضير أن يساعدوه في دية الكلابيين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ﷺ. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٦٨].

«ومن مجيء الرسول ﷺ إلى يهود بني النضير يستعين بهم في دية القتيلين نأخذ جواز أخذ الإعانات والتبرعات المالية فقط من غير المسلمين إذا كان جانبهم مأمونًا ولا يلحق المسلمين ضرر بذلك».

[ينظر: قرار المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي رقم (٦) في دورته العاشرة عام ١٤٠٨هـ، قرارات مجمع الفقه الإسلامي، (مكة: رابطة العالم الإسلامي د. ت) ص ٢٢٥]. [فقه السيرة للزيد ٣٥٨].

٣ ـ إباحة الحرب الاقتصادية ضد العدو [١]:

يقول صاحب الظلال: «يُطمئن الله ﷻ المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله من تقطيع نخيلهم وتحريقه، أو تركه كذلك قائمًا، وبيان حكم الله فيه، وقد دخل نفوس بعض المسلمين شيء من هذا: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر].

واللينة: الجيدة من النخل، أو نوع جيد منه معروف للعرب إذ ذاك.

وقد قطع المسلمون بعض نخل اليهود، وأبقوا بعضه، فتحرجت صدورهم من الفعل ومن الترك، وكانوا منهيين قبل هذا الحادث وبعده عن مثل هذا الاتجاه في التخريب والتحريق، فاحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص، يطمئن القلوب، فجاءهم هذا البيان يربط الفعل والترك بإذن الله، فهو الذي تولى بيده هذه الموقعة، وأراد فيها ما أراد، وأنفذ فيها ما قدَّره، وكان كل ما وقع من هذا بإذنه، أراد به أن يخزي الفاسقين، وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه، وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته، وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء.

بذلك تستقر قلوب المؤمنين المتحرجة، وتشفى صدورهم مما حاك فيها، وتطمئن إلى أن الله هو الذي أراد وهو الذي فعل، والله فعال لما يريد، وما كانوا هم إلا أداة لإنفاذ ما يريد».

[الظلال ٦/ ٣٥٢٢-٣٥٢٣].

٤ ـ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي قَطْعِ المُسْلِمِينَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَتَحْرِيقِهَا، وَفِي السَّبَبِ الَّذِي فِيهِ نَزَلَتْ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر]:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ سِنَانٍ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ مَرْزُوقٍ قَالَا: ثنا أَبُو عَاصِمٍ النَّبِيلُ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَطَعَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَحَرَّقَ.

حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى قَالَ: أَنْبَأَ ابْنُ وَهْبٍ قَالَ أَخْبَرَنِي اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ، وَهِيَ البُوَيْرَةُ وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ... حَرِيقٌ بِالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

---

(١) يراجع حرب الرسول ﷺ الاقتصادية للمشركين، وحرب الكفار الاقتصادية على المسلمين على مدار العصور، في الهدف الاقتصادي لغزوة أحد من هذا الكتاب، وكذلك في سرية العيص بقيادة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكذلك سرية نخلة بقيادة عبد الله بن جحش رضي الله عنه، وسيأتي التأصيل الشرعي وتفاصيله في الحديث عن استعمال هذا السلاح الاقتصادي في حرب الرسول ﷺ لبني النضير في المبحث الثالث من هذا الفصل.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر].

حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ سِنَانٍ قَالَ: ثنا يَحْيَى بْنُ حَمَّادٍ قَالَ: ثنا جُوَيْرِيَةُ بْنُ أَسْمَاءَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ... حَرِيقٌ بِالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

فَأَجَابَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ:

أَدَامَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ ... وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا السَّعِيرُ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَقَالَ قَائِلٌ: فِي حَدِيثِ يُونُسَ الَّذِي رَوَيْته مِنْ هَذِهِ الأَحَادِيثِ مَا قَدْ دَلَّ أَنَّ نُزُولَ قَوْلِهِ عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ الآيَةَ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنْ القَطْعِ وَالتَّحْرِيقِ مَا كَانَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ مُحَالٌ؛ لِأَنَّ اللهَ عز وجل لا يُنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ شَيْئًا إِلَّا مَا يُفِيدُ بِهِ أُمَّتَهُ، يَعْنِي لِيَسْتَعْمِلُوهُ فِي فَرَائِضِهِ عَلَيْهِمْ وَفِي تَعَبُّدِهِ إِيَّاهُمْ.

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عز وجل وَعَوْنِهِ: أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ لَمْ يَسْتَوْعِبْ السَّبَبَ الَّذِي كَانَ فِيهِ نُزُولُ هَذِهِ الآيَةِ، وَأَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنَ المُسْلِمِينَ قَبْلَ نُزُولِهَا مَا كَانَ مِنْ نُزُولِهَا فِيهِ عَلَيْهِمْ أَكْبَرُ الفَائِدَةِ، وَلَمْ نَجِدْهُ إِلَّا فِي حَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما كَمَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: ثنا الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّعْفَرَانِيُّ عَنْ عَفَّانَ قَالَ: ثنا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ قَالَ: ثنا حَبِيبُ بْنُ أَبِي عَمْرَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللهِ عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ قَالَ: اللِّينَةُ النَّخْلُ ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ قَالَ: اسْتَنْزَلُوهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ، وَأُمِرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ، فَحَكَّ فِي صُدُورِهِمْ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا وَتَرَكْنَا بَعْضًا، فَلَنَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ لَنَا فِيمَا قَطَعْنَا مِنْ أَجْرٍ، وَمَا عَلَيْنَا فِيمَا تَرَكْنَا مِنْ وِزْرٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ الآيَةَ.

قَالَ الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ: كَانَ عَفَّانَ يُحَدِّثُنَا بِهَذَا الحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ عَنْ حَبِيبٍ، ثُمَّ رَجَعَ فَحَدَّثَنَا بِهِ عَنْ حَفْصٍ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَعَقَلْنَا بِذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ أَنْزَلَهَا اللهُ عز وجل عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَعْلَمَ بِهَا المُسْلِمُونَ أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ قَطْعِهِمْ لَـمَّا قَطَعُوا مِنْ نَخْلِ بَنِي النَّضِيرِ وَتَحْرِيقِهَا مُبَاحٌ لَهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَأَنَّ الَّذِي تَرَكُوهُ مِنْهَا فَلَمْ يَقْطَعُوهُ وَلَمْ يُحَرِّقُوهُ مُبَاحٌ لَهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَبَانَ بِذَلِكَ مَوْضِعُ الفَائِدَةِ فِي نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ.

وَقَالَ قَائِلٌ آخَرُ: قَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ فِيمَا كَانَ تَقَدَّمَ بِهِ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ لَـمَّا وَجَّهَهُمْ إِلَى الشَّامِ مَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ مَا فِي هَذِهِ الأَحَادِيثِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، وَذَكَرَ مَا حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: أَنْبَأَ ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ لَـمَّا بَعَثَ أُمَرَاءَ الجُنُودِ نَحْوَ الشَّامِ: يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَعَمْرَو بْنَ العَاصِ، وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ ﷻ، اُغْزُوَا فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى نَاصِرٌ دِينَهُ، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَجْبُنُوا، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ، وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا، وَلَا تُحَرِّقُنَّهَا، وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً، وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ، وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً**».

قَالَ هَذَا القَائِلُ: فَأَبُو بَكْرٍ ﷺ قَدْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ، وَقَدْ قَرَأَهَا أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِمَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِهِ فِي هَذَا الحَدِيثِ، وَكَانَ مَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ بِحَضْرَةِ سِوَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِينَ قَرَؤُوا هَذِهِ الآيَةَ أَيْضًا، وَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ لَمْ تَكُنْ نَزَلَتْ فِي المَعْنَى المَذْكُورِ فِي حَدِيثَيْ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ نُزُولَهَا كَانَ فِيهِ.

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ وَعَوْنِهِ: أَنَّ الَّذِي فِي ذَيْنِكَ الحَدِيثَيْنِ مِنْ السَّبَبِ الَّذِي كَانَ فِيهِ نُزُولُ هَذِهِ الآيَةِ كَمَا فِيهِمَا، وَأَنَّ مَا فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ هَذَا غَيْرُ مُخَالِفٍ لِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عَوْدِ الشَّامِ إِلَى أَيْدِيهِمْ وَمِنْ فَتْحِهِمْ لَهَا وَمِنْ غَلَبَتِهِمْ الرُّومَ عَلَيْهَا بِمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُمْ إِيَّاهُ مِنْ ذَلِكَ.

حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: أَنْبَأَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ أَنَّ مَالِكًا حَدَّثَهُ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُفْتَحُ اليَمَنُ، فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبُسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ العِرَاقُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبُسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ الشَّامُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبُسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**».

وَكَمَا حَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ: ثنا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ ثُمَّ ذَكَرَ هَذَا الحَدِيثَ.

غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: ثُمَّ تُفْتَحُ العِرَاقُ، وَزَادَ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: ثُمَّ بَلَغَنِي أَنَّ سُفْيَانَ بِالمَوْسِمِ فَأَتَيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ هَذَا الحَدِيثِ، فَقَالَ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ أَعَادَهُ عَنْهُ كَمَا حَدَّثَنِي.

وَكَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ الشَّيْرَزِيُّ قَالَ: ثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ قَالَ: ثَنَا يَحْيَى بْنُ حَمْزَةَ قَالَ: ثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلقَمَةَ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَوَالَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ الفَقْرَ وَالعُرْيَ وَقِلَّةَ الشَّيْءِ، فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا! فَوَاللهِ لَأَنَا وَكَثْرَةُ الشَّيْءِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنْ قِلَّتِهِ، وَاللهِ لَا يَزَالُ**

هَذَا الأَمْرُ فِيكُمْ حَتَّى تُفْتَحَ لَكُمْ أَرْضُ فَارِسَ وَالرُّومِ وَأَرْضُ حِمْيَرَ، وَحَتَّى تَكُونُوا أَجْنَادًا ثَلَاثَةً: جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالعِرَاقِ، وَجُنْدٌ بِاليَمَنِ، وَحَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ المِائَةَ الدِّينَارَ فَيَسْخَطَهَا».

قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! مَنْ يَسْتَطِيعُ الشَّامَ وَبِهَا الرُّومُ ذَوَاتُ القُرُونِ؟! قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالله لَيَسْتَخْلِفُنَّكُمْ اللهُ فِيهَا حَتَّى تَظَلَّ العِصَابَةُ مِنْهُمْ البِيضُ قُمُصُهُمْ المُحَلَّقَةُ أَقْفَاؤُهُمْ قِيَامًا عَلَى الرَّجُلِ الأَسْوَدِ مِنْكُمْ المَحْلُوقِ، وَإِنَّ بِهَا اليَوْمَ رِجَالًا لَأَنْتُمْ أَحْقَرُ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنْ القِرْدَانِ فِي أَعْجَازِ الإِبِلِ».

قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، خِرْ لِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ، قَالَ: «أَخْتَارُ لَكَ الشَّامَ؛ فَإِنَّهَا صَفْوَةُ الله مِنْ بِلَادِهِ، وَاللهُ يَجْتَبِي صَفْوَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ بِأَهْلِ الإِسْلَامِ، فَعَلَيْكُمْ بِالشَّامِ فَإِنَّ صَفْوَةَ الله مِنْ الأَرْضِ الشَّامُ، فَمَنْ أَبَى فَيَسْقِي بِغُدُرِ اليَمَنِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ»، فَسَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ: فَعَرَفَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ نَعْتَ هَذَا الحَدِيثِ فِي جُزْءِ بْنِ سُهَيْلٍ السُّلَمِيِّ، وَكَانَ وَلِيَ الأَعَاجِمِ، وَكَانَ أُوَيْدِمًا قَصِيرًا، فَكَانُوا يَمُرُّونَ وَتِلْكَ الأَعَاجِمُ قِيَامٌ لَا يَأْمُرُهُمْ بِالشَّيْءِ إِلَّا فَعَلُوهُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَكَانَ أَمْرُ أَبِي بَكْرٍ ﷺ أُمَرَاءَ الأَجْنَادِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي حَدِيثِهِ الَّذِي رَوَيْنَاهُ لِهَذَا المَعْنَى الَّذِي فِي هَذِهِ الأَحَادِيثِ، وَلِمَا قَدْ حَضَّهُمْ عَلَيْهِ مِنْ الصَّلَاةِ بِإِيلِيَاءَ، وَمِنْ شَدِّ المَطَايَا إِلَيْهَا مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُ فِي كِتَابِنَا هَذَا، وَلِمَا قَدْ رُوِيَ عَنْهُ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: «وَمُنِعَتْ الشَّامُ مُدَّيَهَا وَدِينَارَهَا»، أَيْ أَنَّهَا سَتُمْنَعُ مُدَّيَهَا وَدِينَارَهَا الوَاجِبَيْنِ فِي أَرْضِهَا، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ افْتِتَاحِهِمْ إِيَّاهَا وَغَلَبَتِهِمْ عَلَيْهَا، وَسَنَذْكُرُ هَذَا الحَدِيثَ فِيمَا بَعْدُ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ».

[تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٨/ ٥٧٢-٥٧٩].

٥ ـ الحكمة من تقطيع نخيل بني النضير وحرقها:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أمر الرسول ﷺ بعض المسلمين بتقطيع بعض نخيل بني النضير وتحريقها؛ لأن في هذا إغاظة لهم وإذلالًا، وهو إرهاب لهم وقطع الأمل في الصبر والنصر، ومن ثم الرضوخ والاستسلام.

ومن الجدير بالذكر أن القاعدة العامة في الإسلام عدم الاعتداء على المدنيين والمزارعين والمزروعات في الحرب، ولقد جاءت نصوص كثيرة تنهى عن قطع الأشجار وقتل النساء والذراري؛ لأنهم لا يشاركون في القتال، وليس الهدف من القتال أي الجهاد هنا هو إزهاق أرواح الناس وإنما هو إزاحة العقبات من طريقهم حتى يختاروا دينهم بحرية.

وقطعُ أشجار نخيل بني النضير وتحريقها بإذن من الله ـ تبارك وتعالى ـ كما صرَّح بذلك القرآن الكريم في سورة الحشر أو سورة النضير كما وصفها ابن عباس رضي الله عنهما.

ويؤخذ من هذا جواز قطع الأشجار لحاجة أو ضرورة تقتضيها مصلحة المسلمين العامة في الحرب، كتقريب نصر، وتيئيس عدو من المقاومة، ودفعه للاستسلام حتى تحقن الدماء».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٥-١٧٦].

٦ ـ منع التخريب:

يقول الشيخ أبو زهرة: «وذلك أن النبي ﷺ كان منه ما توهموا أنه سيقطع نخلهم بعد أن استطال حصارهم، فاحتجوا عليه ﷺ بأنه نهى عن التخريب وعيبه، وكيف يقطع النخل مع هذا؟

والحقيقة أن النبي ﷺ لم يقطعه وإن همَّ بقطع النخل إفزاعًا لهم، وتخويفًا ليسارعوا بالاستسلام، وقد كانوا تحصنوا بحصونهم، ويرمون الحجارة من فوقها، وكان لابد أن ينزلهم من صياصيهم ـ وهي الحصون ـ والآية الكريمة صريحة في أنه أمر بقطع الثمار، لا بقطع الأصول بل أبقى ما أبقى قائمًا على أصوله كصريح الآية، ولو كان ﷺ قد قطع الأصول ما بقي نخيل تقوم عليها ثمار.

ولبيان الموضوع كاملًا نذكر الفقه فيه، وأساسه هذه الآيات التي تلوناها في واقعة الجلاء، أن النهي عن قطع النخيل والتخريب بشكل عام قد جاء في وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لبعض جنده، وما كان أبو بكر إلا متبعًا للنبي ﷺ وها هي ذي.

روى مالك في الموطأ وعبد الرزاق في المصنف عن ابن جريج قال: أخبرني يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ، فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تِلْكَ الأَرْبَاعِ، فَزَعَمُوا أَنَّ يَزِيدَ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ، وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ، وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ، إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ الله، ثُمَّ قَالَ لَهُ: **إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لله، فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُؤُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ، فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا، هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُلْ وَلَا تَجْبُنْ**. [موطأ مالك كتاب الجهاد (٩٧١)، ومصنف عبد الرزاق ٥ / ١٩٩ رقم ٩٣٧٥].

هذه وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ ولابد أن تكون بهدي النبي ﷺ؛ ولذلك ننفي أن يكون النبي ﷺ قد قطع نخيل بني النضير، فمحال أن يكون النبي ﷺ أمر في موضع، وأبو

بكر ﷺ ينهي بإطلاق؛ ولأن القرآن الذي نزل في واقعة الجلاء لم يذكر قطع النخيل، وهي الأصول، بل فيه أنه قُطعت ثمار، وبقيت أخرى على أصولها قائمة.

ولكن مع ذلك لما اشتدت لحاجة الحروب بين المسلمين والمشركين أو الكفار بشكل اختلف الفقهاء في جواز التخريب في أرض العدو من قطع أشجار، وتهديد بنيان وذبح الحيوان لغير مأكلة أو هلاكه بشكل عام.

فكثيرون من الفقهاء أجازوه؛ لأن الحرب لا تُبقي ولا تذر؛ ولأنه إذا أبيحت الأنفس، فكيف يُصان ما عداها وهو دونها، ويستندون في ذلك إلى أخبار نسبت للنبي ﷺ في غزواته.

أولها: وهو في قصة بني النضير أن النبي ﷺ أمر بتخريب بني النضير، وقال الله تعالى في ذلك: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

ثانيها: أن النبي ﷺ أمر بأن يُحرق قصر مالك بن عوف، وقد كان أميرًا لجيش المشركين في الطائف، ورمي بالمنجنيق حصنًا للطائف.

ثالثها: أنه ﷺ أمر بقطع كروم العنب لثقيف في الطائف، وقد ذُكر في المغازي أنهم عجوا عند إرادة قطعها، وقالوا: «**كيف نعيش بعد قطعها**».

هذه حجج الأكثرين من الفقهاء الذين قالوا ما قالوا تحت سلطان لحاجة الحروب وشدتها، وعدم تحرجها من قِبَل المشركين.

أما الفريق الآخر من الفقهاء ـ وإن لم يكونوا الأكثر ـ قد تمسكوا بقول الصديق ﷺ الذي لا يمكن أن يخرج عن قول النبي ﷺ ولا عن عمله، فمنعوا التخريب، وعلى رأس هذا الفريق فقيه الشام الأوزاعي، فقد قرر أنه لا يجوز التخريب إلا إذا ألجأت إليه ضرورة حربية، كأن يتحصن المحاربون بحصن ولا يمكن الوصول إليهم إلا بهدمه، أو تكون الأشجار غابة كثيفة، قد اتخذوها مستترًا يكمنون للمسلمين فيها، وينقضون عليهم من مسائرها.

وإن الناظر إلى أدلة الذين أباحوا التخريب في غير ضرورة ملجئة لا يجدها منتجة لإباحته بإطلاق، فإن تخريب النبي ﷺ لبيوت بني النضير؛ لأنهم اتخذوها حصونًا يقذفون منها الحجارة على المؤمنين، فكان لابد أن تُزال تلك الحصون دفعًا للأذى، فكانت الضرورة ملجئة لذلك، وقد قرر الجميع أن الضرورة تُقدر بقدرها.

وأن قصر عوف بن مالك كان قد اتخذه حصنًا، وكذلك الحصون التي رميت بالمنجنيق في ثقيف، فما كان رميها إلا لضرورة حربية لا للتخريب والإفساد.

أما ما هم به النبي ﷺ من قطع كروم العنب لثقيف؛ فلأنهم كانوا يتخذون منها الخمر، والخمر حرام، ويظهر أن النبي ﷺ لم يقطع، وإنما أمر فقط بالقطع، أو قطع قليلًا لإفزاعهم؛ وذلك ليحملهم على التسليم بدل الاستمرار على القتال، وبذلك تحقن الدماء؛ ولذلك سلَّموا بمجرد أن رأوا المسلمين يعتزمون قطعها.

وأنه بمراجعة الشريعة في مصادرها من كتاب وسنة وآثار للنبي ﷺ وصحابته الكرام يجد أنها لا تدل على جواز التخريب بل تمنعه.

ولنقف عند الآيات الكريمة التي تلوناها في قصة إجلاء بني النضير فنجد أن الآيات لا تُبيح التخريب بإطلاق وفي كل الأحوال، وأن القطع الذي ذكره القرآن إنما هو في قطع الثمار لا في قطع الأشجار، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر].

وذلك لأن اللينة المراد بها الثمرة، والمعاجم في اللغة تؤيد ذلك؛ لأن كلمة لينة جمعها لون، وهو بالاتفاق نوع من ثمر النخل؛ ولأن الآية تخير بين قطع اللينة أو بقائها على أصولها، وذلك يقتضي أن تكون ثمرة قائمة على الأصول تبقى أو تُقطع، والأصول النخيل، فلم يُذكر في القرآن إباحة قطعها ولأن الآثار الواردة في غزوة بني النضير التي هي موضوع الآيات الكريمات تفيد أن الصحابة ما كانوا يقطعون النخيل بل كانوا يقطعون الثمر.

فقد روي أن رسول الله ﷺ استعمل أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام على نخيل بني النضير قبل إجلائهم، فكان أبو ليلى يقطع العجوة، وهي تمر جيد، وابن سلام يقطع اللون وهو تمر رديء، فقيل لأبي ليلى: لم قطعت العجوة؟ قال: لأنها أغيظ لهم، وقيل لابن سلام: لم قطعت اللون؟ قال: لأني علمت أن الله تعالى مُظهر نبيه ومغنمه أموالهم، فأحببت إبقاء العجوة، وهي خيار أموالهم، وأن قطع الثمار لا يعد تخريبًا، لأنه سيكون مأكلة.

والذي ننتهي إليه بالنسبة لما يكون في الحرب من هدم وتحريق وتخريب أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبي ﷺ في حروبه:

أولًا: أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء؛ لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الراعي الظالم وبذلك وردت الآثار.

ثانيًا: أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورة حربية لا مناص منها، كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين فإنه لا مناص من قطع الأشجار، وهدم البناء على أنه ضرورة من ضرورات القتال، كما فعل النبي ﷺ في حصن ثقيف.

ثالثًا: أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج على أساس هذه الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد، فالعدو ليس هو الشعب إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٥٢-٧٥٥].

٧ ـ ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية:

يقول د/ البوطي والعيساوي: «قطع نخيل بني النضير وإحراقها ثبت بالاتفاق، والذي أتلفه الرسول ﷺ من ذلك إنما هو البعض ثم ترك الباقي، وقد نزل القرآن تصويبًا لما أقدم عليه الرسول ﷺ من ذلك: قطعًا وإبقاءً، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾[الحشر].

ومن الأسلحة التي كانت تستخدم ضد العدو على عهد النبي ﷺ وعهد الصحابة رضي الله عنهم من بعده كانت تتمثل في نحو السيوف والرماح والسهام والمجانيق وإتلاف أموال العدو وإشعال الحرائق فيها، وفي المباني. [البخاري بشرحه فتح الباري حديث رقم ٣٠٢١ و ٣٠٢٠ ج٦ ص ١٥٤].

كما كان التراشق بالنار، بين المسلمين والكفار، هو من جملة الوسائل الحربية التي استخدمت في الحروب على عهد الصحابة رضي الله عنهم. [المغني لابن قدامة ١٠/ ٥٠٣].

وقد استدل العلماء بذلك على أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام والقائد من مصلحة النكاية بأعدائهم، فالمسألة إذًا من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية كما جاء في شرح السير الكبير ما نصه: «وَالضَّرُورَةُ فِيهِ أَلَّا يَكُونَ لَهُمْ طَرِيقٌ آخَرُ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ الظَّفَرِ بِهِمْ بِذَلِكَ الطَّرِيقِ، أَوْ يَلْحَقُهُمْ فِي الطَّرِيقِ الآخَرِ حَرَجٌ عَظِيمٌ وَمَؤُونَةٌ شَدِيدَةٌ، فَحِينَئِذٍ لِدَفْعِ هَذِهِ المُؤْونَةِ يُبَاحُ لَهُمْ التَّحْرِيقُ». [شرح السير الكبير ٤/ ١٥٥٤].

قال العلماء: وإنما كان قصد الرسول ﷺ بتصرفه هذا في نخيل بني النضير ـ قطعًا أو كفًّا ـ تحقيق المصلحة وتلمس السبيل إليها؛ إرشادًا وتعليمًا للأئمة من بعده.

وبهذا أيضًا علل الشافعي رحمه الله أمر أبي بكر رضي الله عنه بالإحراق والقطع حينما أرسل خالدًا إلى طليحة وبني تميم، مع أنه نهى هو نفسه عن ذلك في حروب الشام، ويقول رحمه الله في هذا: «ولعل أمر أبي بكر رضي الله عنه بأن يكفوا عن أن يقطعوا شجرًا مثمرًا، إنما هو لأنه سمع الرسول ﷺ يخبر أن بلاد الشام تُفتح على المسلمين، فلما كان مباحًا له أن يقطع ويترك، اختار الترك نظرًا لصالح المسلمين».

[الأم ٧/ ٣٢٤، وينظر في الموضوع: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ـ د/ محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٧٠ ـ ط٥ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٩٠م ـ ٤٠٠ص].

وقد علم رسول الله ﷺ أن نخيل بني النضير له، ولكنه قطع وحرق ليكون ذلك نكاية لهم ووهنًا فيهم؛ حتى يخرجوا عنها، فإتلاف بعض المال لصالح باقيه جائز شرعًا مقصود عقلًا.

[أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ٤١٠].

وهذا الذي قلناه من إباحة قطع شجر الكفار وإحراقه إذا اقتضت المصلحة هو مذهب نافع مولى ابن عمر ومالك والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وجمهور الفقهاء.

وروي عن الليث بن سعد وأبي ثور والأوزاعي بعدم جوازه. [ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٥٠]. [فقه السيرة للبوطي ٢٠٤-٢٠٥، فقه الغزوات للعيساوي١٩٦-١٩٨].

٨ ـ حكم تخريب وإتلاف ممتلكات العدو أثناء المعركة أو في حالة الحرب:

يقول د/ مناصرة: «إن إتلاف ممتلكات العدو لا يتم إلا أثناء القتال أو في حالة الحرب؛ لأن إتلاف ممتلكات العدو بعد الاستيلاء عليها، ضرب من ضروب الإفساد، لا يقره شرع ولا عقل، والله قد نهى عباده عن ذلك، وأخبر أنها من صفات المفسدين.

[ينظر: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥٠٩، والشرح الكبير للمقدسي ٥/ ٥١٠. العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص١٦٥، والعلاقات الدولية في الشريعة الإسلامية ـ عبد الخالق النواوي ص١٣٧].

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة].

وينبغي أن تفرق بين ثلاثة أنواع من ممتلكات العدو:

أنواع ممتلكات العدو:

النوع الأول: ممتلكات تدعو حاجة المعركة إلى إتلافها، كالتي تعوق الحركات العسكرية في ميدان القتال أو في الطريق إليه، أو التي يستخفي العدو وراءها، أو يستخدمها في نقله، أو تموينه الحربي [ينظر: حاشية الطحطاوي على الدر المختار ـ دار المعرفة ـ بيروت ٢/ ٢٤٢، والعلاقات الدولية ـ عبد الخالق النواوي ص١٣٨]، ومخازن الذخيرة ومحطات الرادار، وحصون الحراسة [الشرح الكبير ـ ابن قدامة ٥/ ٥١٠]، أو كالذي يقرب من حصونهم ويمنع من قتالهم، أو يستترون به من المسلمين، أو يحتاج لقطعه لتوسعة الطريق، أو تمكن من قتل، أو سد بثق أو إصلاح طريق، أو ستارة منجنيق أو غيره، أو لا يقدر عليهم إلا به، أو يكونون يفعلون ذلك بنا فيفعل ذلك بهم لينتهوا إن لم يكن ذلك محرمًا في ديننا، وهذا النوع لا خلاف بين فقهائنا في جواز إتلافه. [ينظر: أسهل المدارك ـ أبو بكر الكشناوي ـ ط٢ دار الفكر ٢/ ٥، المغني لابن قدامة ١٠/ ٥١٠].

ولذا يقول ابن قدامة مشيرًا إليه: «هذا يجوز إتلافه بغير خلاف نعلمه»، بل إذا دعت الضرورة إلى إتلافه وجب، كما إذا تعين طريقًا للنصر. [ينظر: المغني لابن قدامة ١٠/ ٥١٠، الشرح الكبير ٥/ ٥١٠].

فهذا هو مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ونافع ومولى ابن عمر وإسحاق.

[ينظر: المدونة الكبرى للإمام مالك، رواية الإمام سحنون ١/ ٣٧٢، المهذب في فقه الإمام الشافعي ـ الشيرازي ٢/ ٢٣٦. فقه السيرة ـ د/ محمد سعيد رمضان البوطي ص٢٦٣].

النوع الثاني: هناك بعض الممتلكات إذا أتلفت عاد الضرر على المسلمين أنفسهم، مثل خزانات المياه الهائلة التي لو ضربها المسلمون لأخذت عليهم الطريق أو لأغرقتهم، وما يتضرر المسلمون بقطعة لكونهم ينتفعون ببقائه لعلوفهم، أو يستظلون به، أو يأكلون من ثمره، أو تكون العادة لم تجر بذلك بيننا وبين عدونا، فإذا فعلناه بها فعلوه بنا، كتدمير المستشفيات، وآبار الزيت (النفط)، ولو نحن أتلفناها عليه لعاملنا بالمثل وعاد ذلك علينا بضرر أفدح، فهذا يحرم لما فيه من الإضرار بالمسلمين.

[ينظر: المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥٠٩، العلاقات الدولية ـ د/ محمد علي الحسن ص١٦٦، المقنع لابن قدامة المقدسي ١/ ٤٨٦، العلاقات الدولية للنواوي ص١٣٩].

النوع الثالث: ممتلكات لا تدعو الحاجة الحربية إلى إتلافها، ولا إلى الإبقاء عليها، كسائر المزروعات والمباني التي لا تعوق الجيش، ولا تقف عقبة في طريق النصر، فلا ضرر فيه بالمسلمين ولا نفع سوى غيظ الكفار والإضرار بهم، ففيه رأيان:

[ينظر: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥١٠، الشرح الكبير لابن قدامة ٥/ ٥١٠، المحلى لا بن حزم الأندلسي ٧/ ٢٩٤، العلاقات الدولية للنواوي ص١٣٩، العلاقات الدولية لمحمد علي الحسن ص١٦٦].

الفرع الأول: رأي المجيزين وأدلتهم:

أولاً: رأي المجيزين: ١ـ يجوز، وبه قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومالك والشافعي وابن المنذر وإسحاق وابن حزم الأندلسي، قال إسحاق: التحريق سنة إذا كان أنكى في العدو.

[ينظر: الهداية شرح بداية المبتدئ على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان للمرغيناني، الأم للشافعي وبهامشه اختلاف الحديث برواية الربيع ٧/ ٣٢٤].

جاء في كتاب الهداية: «ويستحب أن يدعو من بلغته الدعوة، فإن أبوا ذلك استعانوا بالله عليهم وحاربوهم ونصبوا عليهم المجانيق وحرقوهم، وأرسلوا عليهم الماء، وقطعوا أشجارهم وأفسدوا زروعهم؛ لأن في جميع ذلك إلحاق الكبت والغيظ بهم وكسر شوكتهم وتفريق جمعهم».

[ينظر: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥١٠، الشرح الكبير لابن قدامة ٥/ ٥١٠].

وإذا أراد الإمام العود ومعه أسلحة لا يقدر على نقلها تحرق الأسلحة أيضًا، وما يحترق منها يدفن في موضع لا يَطلع عليه الكفار إبطالًا للمنفعة عليهم.

[ينظر: الهداية للمرغيناني ٢/ ١٤٢، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ٧/ ١٠١، الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك للدردير، بالهامش حاشية أحمد بن محمد الصاوي المالكي ٢/ ٢٨١].

وجاء في كتاب الخرشي: «يجوز قتال العدو إذا لم يجيبوا إلى ما دُعوا إليه بجميع أنواع الحرب، فيجوز قطع الماء عنهم ليموتوا بالعطش، أو يرسل عليهم الماء بالغرق على المشهور، أو يُقتلوا بآلة كضرب بالسيف، وطعن بالرمح، ورمي بالمنجنيق، وما أشبه ذلك من آلات الحرب، وبنار إن لم يمكن غيرها ولم يكن فيهم مسلم، فإن أمكن قتالهم بغيرها لم يقاتلوا بالنار عند ابن القاسم وسحنون وكذا إن كان فيهم مسلم». **[الخرشي على مختصر سيدي خليل، وبهامشه حاشية الشيخ العدوي ص٢٨١، حاشية العدوي على شرح أبي الحسن بن أبي زيد، وهي حاشية العلامة المحقق الشيخ علي الصعيدي على شرح الإمام أبي الحسن المسمى كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني ٢/ ٦، ٧، الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن زيد القيرواني للآبي ص٤١٤، جواهر الإكليل مختصر العلامة خليل في مذهب الإمام مالك للآبي ١/ ٢٥٣]**.

وروي عن مالك جواز قطع الشجر المثمر وتخريب العامر، ولم يجز قتل المواشي ولا تحريق النحل. **[ينظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ١/ ٣٢٨]**.

قال الشافعي: «أما كل ما لا روح فيه من شجر مثمر وبناء عامر وغيره فيحرقونه ويهدمونه ويقطعونه». **[الأم للشافعي ٧/ ٢١٣، ٣٢٤]**.

وفي رواية أخرى عن الشافعي: تحرق البيوت والشجر إذا كانت لهم معاقل، ويكره ذلك إذا لم تكن لهم معاقل. **[ينظر: بداية المجتهد للقرطبي ١/ ٣٢٨. حاشية قليوبي، وعميرة ص٢١٨، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج في الفقه على مذهب الإمام الشافعي للرملي ٨/ ٦١، الجهاد والنظم ـ د/ أحمد شلبي ص٩٥، المحلى لابن حزم ٧/ ٢٩٤]**.

وجاء في كتاب المحلى لابن حزم: «وجائز تحريق أشجار المشركين وأطعمتهم وزرعهم ودورهم وهدمها». **[المحلى لابن حزم ٧/ ٢٩٤]**.

ثانيًا: أدلة المجيزين:

(١) يجوز لنا إتلاف بناء العدو بالتخريب وشجرهم بالقطع وغيره لحاجة القتال والظفر بهم، لقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾[الحشر].

[ينظر: حاشية الطحطاوي على الدار المختار ٢/ ٢٤٢، بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٠١، حاشية البجيرمي ٤/ ٣٥٢، حاشية قليوبي وعميرة ص ٢١٨، نهاية المحتاج للرملي ٢/ ٦١، شرح روض الطالبين لأبي يحيى الشافعي ٤/ ١٩٠، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج للشربيني ٤/ ٢٢٦، ٢٢٧].

قال البيضاوي في تفسيره مستدلًا بها: يجوز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم زيادة لغيظهم. **[تفسير البيضاوي ص ٧٢٥]**.

وروي في أسباب نزول هذه الآية عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ أمر بقطع نخل بني النضير، بل إنه ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة [(١)]، فقال واحد من الحصن: إن

---

(١) **البويرة**: تصغير بورة، وهي الحفرة، وهي هنا مكان معروف بين الحديبية وتيماء، وهي من جهة قبلة مسجد قباء. ينظر: سنن أبي داود، الهامش، حديث رقم ٢٦١٥، ٣/ ٣٨.

هذا لفساد يا محمد، وأنك تنهى عن الفساد، فنزلت هذه الآية، ولها يقول حسان بن ثابت:

فَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

[ينظر: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥١١، صحيح البخاري / ٥، ١١٣].

فإن توقف النصر على إتلاف ذلك وجب. [مغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٧].

عن الزهري قال: حدثني أسامة ﵁ أن رسول الله ﷺ كان عهد إليه فقال: «أَغِرْ عَلَى أُبْنَى [1] صَبَاحًا وَحَرِّقْ». [أبو داود في الجهاد (٢٦١٦)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

(٢) أمر الله تعالى أولياءه المؤمنين بإغاظة أعدائه الكافرين، وجعل لهم الثواب على ذلك، وبيان هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾[التوبة: ١٢٠].

وإن في تخريب بيوتهم وقطع شجرهم إغاظة لهم، وكسرًا لشوكتهم [ينظر: الهداية للمرغيناني ٢/ ١٣٦، ١٣٧، المحلى لابن حزم ٧/ ٩٤]، فيجوز إتلافها إن لم يرج حصولها لنا مغايظة لهم وتشديدًا عليهم، فإن رجي حصولها لنا ندب الترك، وكره الإتلاف، حفظًا لحق الغانمين، أما إذا غنمناها بأن فتحنا دارهم قهرًا أو صُلحًا على أن تكون لنا أو غنمنا أموالهم فيحرم إتلافها لأنها صارت غنيمة لنا.

[مغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٦، ٢٢٧].

(٣) قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحشر: ٢].

قال عكرمة: بأيديهم في إخراب داخلها لئلا يأخذه المسلمون، وبأيدي المؤمنين في إخراب خارجها ليصلوا بذلك إليهم. [المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥٠٦].

قال تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[التوبة: ٥].

وهذا يدل على جواز حصار الكفار في البلاد والحصون والقلاع، وإرسال الماء عليهم ورميهم بنار ومنجنيق، وما في معنى ذلك من هدم بيوتهم، وقطع الماء عنهم، وإلقاء حيات أو عقارب عليهم، ولو كان فيهم نساء وصبيان. [ينظر: حاشية الطحطاوي ٢/ ٤٤١. الخرشي على مختصر سيدي خليل ٣/ ١١٣، حواشي الشرواني وابن قاسم ٩/ ٢٤١، مغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٣، نهاية المحتاج للرملي ٨/ ٦١، شرح كتاب السير الكبير للشيباني، إملاء محمد أحمد السرخسي ٤ / ١٤٦٧].

(١) **أبنى أو أبناء**: قرية، وهي قريبة من أرض الكرك في أطراف الشام في الناحية التي قُتل فيها أبوه زيد ﵁، فأما ببنا فهي أرض فلسطين ولم يكن النبي ﷺ يأمره بالإغارة عليها لبعدها، ولم يكن أسامة ليصل إليها، والخطر بالمصير إليها لتوسطها في البلاد وبُعدها من طرف الشام، فما كان النبي ﷺ ليأمره بالتغرير بالمسلمين، فكيف يحمل الخبر عليها مع مخالفة لفظ الرواية وفساد المعنى. ينظر: الحموي: معجم البلدان ١/ ٧٩.

وروي أن الرسول ﷺ حاصر الطائف ونصب عليهم المنجنيق، وقد أمر الرسول ﷺ بتحريق قصر مالك بن عوف وكان أمير الجيوش بالطائف. [ينظر: مغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٣، المحلى لابن حزم ٤/ ٢٩٤، شرح كتب السير الكبير للسرخسي ٤/ ١٤٦٧. صحيح البخاري ٤/ ٧٤، ٥/ ١١٣، ١٩٨].

وممن رأى ذلك الثوري والأوزاعي والشافعي والحنفية وظاهر كلام أحمد وابن حزم إذ قال بجوازه مع الحاجة وعدمها. [ينظر: الهداية للمرغيناني ٢/ ١٣٦، حاشية الطحطاوي ٢/ ٤٤١، أسهل المدارك شرح إرشاد السالك في فقه الإمام مالك للكشناوي ٢/ ٥٠، شرح منح الجليل على مختصر العلامة خليل وبهامشه تسهيل منح الجليل ١/ ٧١٥، مغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٣، المحلى لابن حزم ٤/ ٢٩٤. صحيح البخاري ٤/ ٧٤].

أما ما ورد عن أبي بكر الصديق ﷺ من نهيه عن تقطيع الشجر المثمر وعن تخريب العامر، فلا حجة في قول أحد مع رسول الله ﷺ كما يقول ابن حزم، وقد ينهي أبو بكر ﷺ عن ذلك اختيارًا؛ لأن ترك ذلك أيضًا مباح، كما في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر]، ولم يقطع النبي ﷺ نخل خيبر[1]، فكل ذلك حسن.

[ينظر: المدونة الكبرى للإمام مالك ١/ ٣٧٢].

وبهذا علل الشافعي ﷺ أمر أبي بكر ﷺ بالإحراق والقطع حينما أرسل خالدًا إلى طليحة وبني تميم مع أنه نهى هو نفسه عن ذلك في حروب الشام، ويقول ﷺ في هذا: ولعل أمر أبي بكر ﷺ بأن يكفوا عن أن يقطعوا شجرًا مثمرًا، إنما هو لأنه سمع رسول الله ﷺ يخبر أن بلاد الشام تُفتح على المسلمين، فلما كان مباحًا له أن يقطع ويترك اختار الترك نظرًا لصالح المسلمين، فنهى عنه لذلك فيما نرى لا أن تخريب ذلك وتحريقه لا يحل.

[ينظر: الأم للشافعي ٧/ ٣٢٤، فقه السيرة للبوطي ص ٢٦٢، العلاقات الدولية - محمد علي الحسن ص١٦٩].

وعن الزهري قال: حدثني أسامة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان عهد إليه فقال: «**أَغِرْ عَلَى أُبْنَى صَبَاحًا وَحَرِّقْ**». [ينظر: المدونة الكبرى للإمام مالك ١/ ٣٧٢، المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥١١، الشرح الكبير لابن قدامة ٥/ ٥١٠، بذل المجهود ١٢/ ١٢٤، ١٢٥، العلاقات الدولية - محمد علي الحسن ص١٦٩. أبو داود حديث (٢٦١٦)].

---

(١) خيبر: الموضع المذكور في غزوات النبي ﷺ، يطلق هذا الاسم على الولاية، وتشمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، واسم حصونها: حصن ناعم، وعنده قُتل مسعود بن مسلمة ألقيت عليه رحي، القموص حصن أبي الحقيق، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن الوطيع، وحصن الكتيبة، وأما لفظ خيبر فهو بلسان الحصن، ولكن هذه البقعة التي تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر، وقد فتحها النبي ﷺ في سنة سبع للهجرة وقيل سنة ثمان. ينظر: معجم البلدان ٢/ ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١.

الفرع الثاني: رأي المانعين وأدلتهم:

أولاً: رأي المانعين: ٢ـ عدم الجواز، وبهذا قال الليث بن سعد وأبو ثور والأوزاعي ورواية عن أحمد. [ينظر: المقنع في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل ١/ ٤٨٦، الشرح الكبير على متن الإقناع ٥/ ٥٠٨، المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥١٠، الشرح الكبير ٥/ ٥١٠، فقه السيرة للبوطي ٢٦٣].

جاء في بداية المجتهد: «وكره الأوزاعي قطع الشجر المثمر، وتخريب العامر كنيسة كانت أو غير ذلك». [بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ١/ ٣٢٨].

قال الأوزاعي: إذا كان في المطمورة العدو، فعلمت أنك تقدر عليهم بغير النار، فأحب إليَّ أن يكف عن النار، وإن لم يمكن ذلك وأبوا أن يخرجوا فلا أرى بأسًا وإن كان معهم ذرية، فقد كان المسلمون يقاتلون بها. [المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥٠٣].

وجاء في المغني لابن قدامة: وفتح البثوق عليهم ليغرقهم إن قدر عليهم بغيرهم لم يجز إذا تضمن ذلك إتلاف النساء والذرية الذين يحرم إتلافهم قصدًا، وإن لم يقدر عليهم إلا به جاز.

[ينظر: الشرح الكبير على متن الإقناع ٥/ ٥٠٨، المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥٠٦، المقنع ١/ ٤٨٦].

ثانيًا: أدلة المانعين:

(١) لأن إتلافه فساد محض، لا تدعو إليه حاجة حربية، وقد نهي عن الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾[الأعراف]، فهذا إفساد يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة].

ولذا نجد النبي ﷺ يوجه قادة الجيش في وصاياه إذ يقول: «**لَا تَهْدِمُوا بَيْتًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَجَرًا، إِلَّا شَجَرًا يَمْنَعُكُمْ قِتَالًا أَوْ يَحْجِزَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ**». [السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٤، ٩٠، ٩١].

وهذا من قوله ﷺ يفسر ما خفي على بعض الناس من محامل فعله ببعض ممتلكات عدوه كبني النضير، إذ أحرق بيوتهم وقطع بعض أشجارهم، وكبلاد خيبر إذ فعل بهم مثل ذلك في بعض ما يروى، وكأهل الطائف [1] إذ ضربهم بالمجانيق وقطع بعض كرومهم، فإنما كان ذلك لحاجة القتال لا عبثًا أو فسادًا. [صحيح البخاري ٥/ ١٩٨، العلاقات الدولية للنواوي ص١٣٩].

(٢) ما روي عن أبي بكر ﷺ أنه قال ليزيد بن أبي سفيان وهو يوصيه حين بعثه أميرًا على القتال

---

(١) **الطائف**: هي مسيرة يوم للطالع من مكة، نصف يوم للهابط من مكة، عمرها حسين بن سلامة، ثم أتى مسعود الثقفي ومعه مال كثير وكان تاجرًا، فقال: أحالفكم لتزوجوني وأزوجكم وأبني لكم طوقًا عليكم مثل الحائط لا يصل إليكم أحد من العرب فبنى بذلك المال طوقًا عليهم سميت الطائف وتزوج إليهم فزوجوه ابنة، افتتحها الرسول ﷺ في سنة تسع من الهجرة صلحًا، وكتب لهم كتابًا. ينظر: معجم البلدان ٤/ ١٢٠٩.

بالشام: وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا.

[ينظر: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥٠٦. الشرح الكبير على متن الإقناع ٥/ ٥٠٨، ينظر: السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٥- ٩٠، الجهاد والنظم ـ أحمد شلبي ص٩٥].

(٣) أن الأصل هو عدم قطع الشجر وهدم البناء؛ لأن الغرض من الحرب إلحاق الهزيمة بجيش العدو لا إيذاء الرعية. [العلاقات الدولية للنواوي ص١٣٩].

(٤) أن التخريب والتدمير بغير قصد هو عبث محض.

ثم يمضون في مناقشة أدلة الفريق الأول فيقولون: أما عن قطع اللينة فليس المراد هو النخيل وإنما المراد الثمرة، والنص القرآني يفيد ذلك ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٥]، ولا يمكن فرض قيامها على أصولها إلا إذا كانت هي الثمرة لا أصل النخلة، وقطع الثمرة لا يُعد تخريبًا، وقد روي أن الرسول ﷺ استعمل أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام، وكان أبو ليلى يقطع العجوة وهي ثمر طيب وابن سلام يقطع اللون (جمع لينة) وهو ثمر رديء، وقيل لابن سلام: لم قطعت اللون؟ (أي الرديء) فقال: لأني علمت أن الله تعالى مُظهر نبيه ومغنمه أموالهم، فأحببت إبقاء العجوة.

وبالاتفاق قطع الثمر جائز؛ لأنه أكل لا تخريب فيه ما دام الأصل باقيًا؛ لذا قال الشيخ أبو زهرة: وبذلك يسقط الاستدلال بهذا الدليل. [العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص١٦٩].

والواقع أن هذا التفسير مخالف:

(١) لتفسير المتقدمين الذين فسروا اللينة بمعنى النخلة، ويؤيدهم في ذلك الأحاديث الصحيحة، فقد روى نافع عن عمر ﵁ أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع وهو بالبويرة، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[الحشر:٥]. رواه البخاري في الصحيح عن قتيبة. [صحيح البخاري ٥/ ١١٣، السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٣، وينظر: الشرح الكبير لابن قدامة ٥/ ٥١٠، الأم للشافعي ٧/ ٣٢٤، المحلى لابن حزم ٧/ ٢٩٤، سنن أبي داود حديث رقم ٢٦١٥، جـ٣، ص٣٨، العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص١٧٠].

فهذا الحديث يؤيد أن الرسول ﷺ أمر بقطع النخيل وليس بقطع ثمار النخيل.

(٢) أن النبي ﷺ لم يأمر بالقطع فقط، وإنما أمر بالقطع والحرق، والحرق لا يكون للثمار بل يكون للشجر، وقد روي أن النبي ﷺ قد حرق بعض نخيل بني النضير وقطع بعضًا، وقال في ذلك حسان ﵁ شعرًا:

فَهَـــانَ عَـــلَى سَرَاةِ بَنِـــي لُـــؤَيٍّ   حَرِيقٌ بِالبُوَيْرَةِ مُسْـتَطِيرُ وَقِـدْرُ
تَـــرَكْتُمْ قِـــدْرَكُمْ لَا شَيْءَ فِيهَـــا   القَـــوْمِ حَامِيَـــةٌ تَفُـــورُ

فَأَجَابَهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ، فَقَالَ:

أَدَامَ اللهُ ذَلِـــكَ مِـــنْ صَـــنِيعٍ   وَحَـرَّقَ فِي طَرَائِقِهَـا السَّـعِيرُ
سَـــتَعْلَمُ أَيُّنَـــا مِنْهَـــا بِنُـــزْهٍ   وَتَعْلَـــمُ أَيَّ أَرْضَـــيْنَا تَضِـــيرُ

[ينظر: الشرح الكبير لابن قدامة ٥/ ٥١٠، المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥٠٩، صحيح البخاري ٥/ ١١٣، العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص ١٦٩].

فهذه روايات صحيحة تبين أن النبي ﷺ قد أمر بحرق بعض النخيل وقطع بعضه، ولذلك كان قول حسان ورد أبي سفيان إذ لو كان القطع للثمر لما كان داع لمثل هذا القول وذاك الرد.

[ينظر: المدونة الكبرى لمالك ١/ ٣٧٢، صحيح البخاري ٥/ ١١٣، السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٣].

(٣) أن النبي ﷺ قد أمر بحرق النخيل في أبناء، فقد ورد في سنن البيهقي عن الزهري عن عروة بن الزبير عن أسامة رضي الله عنه قال: **أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أن أُغِيرَ عَلَى أُبْنَى صَبَاحًا وَأُحَرِّقَ**.

[ينظر: السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٤، سنن أبي داود حديث (٢٦١٦)، بذل المجهود ١٢/ ١٢٤، ١٢٥].

أما هدم بيوت اليهود بأيديهم وأيدي المؤمنين، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها ليتسع موضع القتال وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التي من بعدها ليتحصنوا بها، ويرموا بالتي أخرجوا منها المسلمين، وقيل ليسدوا بها أزقتهم، وقال عكرمة: بأيديهم في إخراب دواخلها لئلا يأخذه المسلمون وبأيدي المؤمنين في إخراب خارجها ليصلوا بذلك إليهم. [العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص ١٦٩].

يتضح من هذا أن المسلمين ما هدموا بيوت اليهود إلا لاتخاذهم إياها حصونًا، ولإنزالهم الأذى بالمسلمين فكان لابد من تحريقها وإتلافها توصلًا لمنع الأذى عن أنفسهم.

الفرع الثالث: الرأي الراجح والمختار: والذي يظهر أن السبب في اختلافهم هو مخالفة فعل أبي بكر رضي الله عنه في ذلك لفعله ﷺ إذ ثبت أن الرسول ﷺ حرق نخل بني النضير، وثبت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: **لَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا**.

[ينظر: السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٥-٩٠، الجهاد والنظم ـ أحمد شلبي ص ٩٥].

فمن ظن أن فعل أبي بكر رضي الله عنه هذا إنما كان لمكان علمه بنسخ ذلك الفعل منه ﷺ، إذ لا يجوز على أبي بكر رضي الله عنه أن يخالف مع علمه بفعله، أو رأى أن ذلك خاصًّا لبني النضير لغزوهم، قال بقول أبي بكر رضي الله عنه، ومن اعتمد فعله ﷺ ولم ير قول أحد ولا فعله حجة عليه قال بتحريق وقطع الشجر.

والذي نراه: أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة النكاية بأعدائهم، وإنما كان قصد الرسول ﷺ بتصرفه هذا في النخيل قطعًا أو إتلافًا تحقيق المصلحة، وتلمس السبيل إليها، إرشادًا وتعليمًا للأئمة من بعده.

ولو أجرينا مقارنة بين تحريق نخل بني النضير وبين الكف عن تحريق نخل الطائف لاتضح لنا الفرق، فاليهود لا أمل في أن يهتدوا، ويتقرب المسلمون إلى الله بكل إيذاء وغيظ ينزلونه بهم، وبكل ما ينالونه منهم، وعلى العكس من ذلك أهل الطائف الذين لانت عريكتهم وسرعان ما أجابوا المسلمين، وهذا يعني أن القائد يتدبر الأمر في حدود الصالح العالم للدولة الإسلامية.

وغير ممنوع شريعة باتفاق الجميع:

١ـ أن تتلف الاستخبارات العسكرية جسرًا أو ممرًّا لمنع العدو من التقدم نحوه.

٢ـ أن تتلف السكك الحديدية الممتدة خلف خطوط الجيش، حتى لا يستعملها جيش العدو لمهاجمته من المؤخرة.

٣ ـ أن تهدم منازل أو مباني ليتسنى للجيش توجيه مدفعيته على العدو.

٤ ـ أن تخرب حصونًا كي لا يحتمي بها العدو.

٥ ـ أن تتلف الزروع في حقولها لضرورات الحرب».

[الاستخبارات العسكرية في الإسلام لمناصرة ص ١٣١ - ١٤٨ بتصرف].

٩ ـ بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ لِبَنِي النَّضِيرِ لَمَّا أَمَرَ بِإِجْلَائِهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ عِنْدَ قَوْلِهِمْ لَهُ: إِنَّ لَنَا دُيُونًا لَمْ تَحِلَّ: «ضَعُوا وَتَعَجَّلُوا»:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سُهَيْلٍ الْبَصْرِيُّ أَبُو بَكْرٍ إِمْلَاءً مِنْ أَصْلِهِ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ خَالِدٍ الزَّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ بْنِ رُكَانَةَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَمَرَ بِإِخْرَاجِ بَنِي النَّضِيرِ، جَاءَهُ نَاسٌ مِنْهُمْ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّكَ أَمَرْتَ بِإِخْرَاجِنَا وَلَنَا عَلَى النَّاسِ دُيُونٌ لَمْ تَحِلَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ضَعُوا وَتَعَجَّلُوا**».

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَبَنُو النَّضِيرِ هَؤُلَاءِ هُمْ أَشْرَافُ الْيَهُودِ، وَكَانُوا يَنْزِلُونَ الْمَدِينَةَ.

كَمَا حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْمُرَادِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ، قَالَ الرَّبِيعُ: حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ اللَّيْثِ، وَقَالَ مُحَمَّدٌ: أَنْبَأَنِي أَبِي وَشُعَيْبٌ، عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ**»، فَخَرَجْنَا

مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمِدْرَاسِ (هو البيت الذي يدرسون فيه)، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَنَادَاهُمْ: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**»، فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: «**ذَلِكَ أُرِيدُ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**»، قَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «**ذَاكُمْ أُرِيدُ**»، ثُمَّ قَالَهَا الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «**اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لله وَلِرَسُولِهِ، وَإِنِّي أُرِيدُ إِخْرَاجَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ، وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لله وَرَسُولِهِ**». [البخاري في الجزية (٣١٦٧)، وفي الإكراه (٦٩٤٤)، وفي الاعتصام بالكتاب (٧٣٤٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٥)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٠٣)، ومسند أحمد ١٥/ ٥١٢ رقم ٩٨٢٦].

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَهُمُ الَّذِينَ كَانَتْ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَرَدْنَ أَنْ يُهَوِّدْنَ مِنْ أَوْلَادِهِنَّ مَنْ يُرِدْنَ تَهْوِيدَهُ مِنْهُمْ هَوَّدُوهُ فِيهِمْ.

كَمَا حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَرْزُوقٍ، حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، فِي قَوْلِهِ ﷿: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قَالَ: «كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الْأَنْصَارِ لَا يَكَادُ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَتَحْلِفُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: لَئِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ لَتُهَوِّدَنَّهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ إِذَا فِيهِمْ نَاسٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ الله أَبْنَاؤُنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷿: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[البقرة: ٢٥٦]، قَالَ سَعِيدٌ: فَمَنْ شَاءَ لَحِقَ بِهِمْ، وَمَنْ شَاءَ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ».

وَكَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خُزَيْمَةَ، حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ قَالَ: سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ قَوْلِهِ ﷿: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[البقرة: ٢٥٦] قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَنْصَارِ خَاصَّةً، قُلْتُ: خَاصَّةً؟ قَالَ: خَاصَّةً، قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَتْ مِقْلَاتًا تَنْذِرُ إِنْ وَلَدَتْ وَلَدًا تَجْعَلُهُ فِي الْيَهُودِ تَلْتَمِسُ بِذَلِكَ طُولَ بَقَائِهِ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ وَفِيهِمْ مِنْهُمْ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله: أَبْنَاؤُنَا وَإِخْوَانُنَا مِنْهُمْ، قَالَ: فَسَكَتَ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَيِّرُوا أَصْحَابَكُمْ، فَإِنِ اخْتَارُوكُمْ فَهُمْ مِنْكُمْ، وَإِنِ اخْتَارُوهُمْ فَهُمْ مِنْهُمْ**»، قَالَ: فَأَجْلَوْهُمْ مَعَهُمْ.

فَاخْتَلَفَ شُعْبَةُ وَأَبُو عَوَانَةَ عَلَى أَبِي بِشْرٍ فِي إِسْنَادِ هَذَا الْحَدِيثِ، فَتَجَاوَزَ بِهِ شُعْبَةُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، وَأَوْقَفَهُ أَبُو عَوَانَةَ عَلَى سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَهُمْ خِلَافُ يَهُودِ خَيْبَرَ الَّذِينَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ عَامَلَهُمْ عَلَيْهَا بِشَطْرِ مَا تُخْرِجُ نَخْلُهَا وَأَرْضُهَا، وَأَقَامُوا فِيهَا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أَجْلَاهُمْ عُمَرُ ﵁ مِنْهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمُزَارَعَةِ بِشَطْرِ مَا تُخْرِجُ الْأَرْضُ فِيمَا قَدْ تَقَدَّمَ مِنَّا فِي كِتَابِنَا هَذَا.

ثُمَّ تَأَمَّلْنَا الْحَدِيثَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْبَابِ، فَوَجَدْنَا إِطْلَاقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِبَنِي النَّضِيرِ عِنْدَ إِجْلَائِهِ إِيَّاهُمْ أَنْ يَضَعُوا بَعْضَ دُيُونِهِمُ الْآجِلَةِ، وَيَتَعَجَّلُوا بَقِيَّتَهَا، وَكَانَ هَذَا الْبَابُ مِمَّا قَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيهِ، فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمْ، مِنْهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

كَمَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْكُوفِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ يَقُولُ: عَنْ عَمْرٍو، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ كَانَ لَا يَرَى بَأْسًا أَنْ يَقُولَ: «**عَجِّلْ لِي وَأَضَعْ عَنْكَ**».

وَكَرِهَهُ بَعْضُهُمْ، وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنهم.

كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ أَنَّ مَالِكًا، أَخْبَرَهُ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حَفْصِ بْنِ عُمَرَ بْنِ خَلْدَةَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما «سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَكُونُ لَهُ الدَّيْنُ عَلَى رَجُلٍ دِينَ إِلَى أَجَلٍ فَيَضَعُ عَنْهُ صَاحِبُ الْحَقِّ، وَيُعَجِّلُ لَهُ الْآخَرُ، فَكَرِهَ ذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما وَنَهَى عَنْهُ».

وَكَمَا حَدَّثَنَا يُونُسُ، قَالَ: أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ أَنَّ مَالِكًا، أَخْبَرَهُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عُبَيْدٍ أَبِي صَالِحٍ مَوْلَى السَّفَّاحِ أَنَّهُ قَالَ: بِعْتُ بَزًّا (الثيابُ أو مَتاعُ البيتِ من الثيابِ ونحوِها) لِي مِنْ أَهْلِ دَارِ نَخْلَةَ وَمِنْ أَهْلِ السُّوقِ إِلَى أَجَلٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ الْخُرُوجَ إِلَى الْكُوفَةِ، فَعَرَضُوا عَلَيَّ أَنْ أَضَعَ عَنْهُمْ وَيَنْقُدُونِي، فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: «**لَا آمُرُكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَنْ تُوكِلَهُ**».

وَكَمَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ أَنَّهُ سَمِعَ سُفْيَانَ يَقُولُ: أَبُو الزِّنَادِ، عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَكَرِهَهُ وَقَالَ: «**لَا تَأْكُلْهُ وَلَا تُوكِلْهُ**»، وَلَمْ يَذْكُرْ أَحْمَدُ فِي حَدِيثِهِ عُبَيْدًا أَبَا صَالِحٍ.

وَكَمَا حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْمُرَادِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ: حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ يَعْنِي ابْنَ مُحَمَّدٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ، فَقَالَ: إِنَّ لِي دَيْنًا عَلَى رَجُلٍ إِلَى أَجَلٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَضَعَ عَنْهُ، وَيُعَجِّلَ الدَّيْنَ لِي، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ رضي الله عنه: «**لَا تَفْعَلْ**».

فَقَالَ قَائِلٌ: أَفَتَجْعَلُونَ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي ذَكَرْتُمُوهُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْبَابِ حُجَّةً لِمَنْ أَجَازَ الْمَعْنَى الْمَذْكُورَ فِيهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ؟

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ لَا حُجَّةَ فِيهِ عِنْدَنَا لِمَنْ ذَهَبَ إِلَى إِطْلَاقِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ ذَهَبَ إِلَى كَرَاهَتِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ اللهِ ﷻ الرِّبَا، ثُمَّ حُرِّمَ الرِّبَا بَعْدَ ذَلِكَ فَحُرِّمَتْ أَسْبَابُهُ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ فِي الْفِقْهِ جَلِيلَةُ الْمِقْدَارِ مِنْهُ، يَجِبُ أَنْ تُتَأَمَّلَ حَتَّى يُوقَفَ عَلَى الْوَجْهِ فِيهَا إِنْ شَاءَ اللهُ، وَهِيَ حَطِيطَةُ الْبَعْضِ مِنَ الدَّيْنِ الْمُؤَجَّلِ، لِيَكُونَ سَبَبًا لِتَعْجِيلِ بَقِيَّتِهِ، فَكَرِهَ ذَلِكَ مَنْ كَرِهَهُ مِمَّنْ ذَكَرْنَا، وَأَطْلَقَهُ مَنْ سِوَاهُ مِمَّنْ وَصَفْنَا، وَكَانَ الْأَصْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ

لَوْ جَرَى فِي ذَلِكَ بَيْنَ مَنْ هُوَ لَهُ، وَبَيْنَ مَنْ هُوَ عَلَيْهِ بِالْوَضْعِ وَالتَّعْجِيلِ عَلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَشْرُوطٌ فِي صَاحِبِهِ، كَانَ وَاضِحًا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ، وَأَنَّهُ كَالرِّبَا الَّذِي جَاءَ الْقُرْآنُ بِتَحْرِيمِهِ، وَبِوَعِيدِ اللهِ ﷻ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا يَدْفَعُونَ إِلَى مَنْ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الدَّيْنُ الْعَاجِلُ مَا يَدْفَعُونَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يُؤَخِّرُوا عَنْهُمْ ذَلِكَ الدَّيْنَ الْعَاجِلَ إِلَى أَجَلٍ يَذْكُرُونَهُ فِي ذَلِكَ التَّأْخِيرِ، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ مُشْتَرِينَ أَجَلًا بِمَالٍ، فَحَرَّمَ اللهُ ذَلِكَ، وَأَوْعَدَ عَلَيْهِ الْوَعِيدَ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، فَكَانَ مِثْلُ ذَلِكَ وَضْعُ بَعْضِ الدَّيْنِ الْمُؤَجَّلِ لِتَعْجِيلِ بَقِيَّتِهِ فِي أَنْ لَا يَجُوزَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ ابْتِيَاعُ التَّعْجِيلِ بِمَا يُتَعَجَّلُ مِنْهُ بِإِسْقَاطِ بَقِيَّةِ الدَّيْنِ الَّذِي سَقَطَ مِنْهُ، فَهَذَا وَاضِحٌ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ، وَمِمَّنْ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَبُو حَنِيفَةَ، وَمَالِكٌ، وَأَبُو يُوسُفَ، وَمُحَمَّدٌ كَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مَعْبَدٍ، أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ، عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ بِمَا ذَكَرْنَا وَلَمْ يَحْكِ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ خِلَافًا.

وَكَمَا حَدَّثَنَا يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ، بِهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا.

وَمِمَّنْ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى خِلَافِ ذَلِكَ زُفَرُ بْنُ الْهُذَيْلِ.

كَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ الْجُعْفِيُّ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ، قَالَ: قَالَ زُفَرُ فِي رَجُلٍ لَهُ عَلَى رَجُلٍ أَلْفُ دِرْهَمٍ إِلَى سَنَةٍ مِنْ ثَمَنِ مَتَاعٍ أَوْ ضَمَانٍ، فَصَالَحَهُ مِنْهَا عَلَى خَمْسِ مِئَةٍ نَقْدًا: « **إِنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ**».

وَقَدْ كَانَ الشَّافِعِيُّ ﷀ قَدْ أَجَازَ ذَلِكَ مَرَّةً، كَمَا ذَكَرَهُ لَنَا الْمُزَنِيُّ عَنْهُ، قَالَ: وَلَوْ عَجَّلَ الْمُكَاتَبُ لِمَوْلَاهُ بَعْضَ الْكِتَابَةِ عَلَى أَنْ يُبَرِّئَهُ مِنَ الْبَاقِي لَمْ يَجُزْ، وَرُدَّ عَلَيْهِ مَا أَخَذَ، وَلَمْ يُعْتَقْ؛ لِأَنَّهُ أَبْرَأَهُ مِمَّا لَمْ يَبْرَأْ مِنْهُ، قَالَ الْمُزَنِيُّ: قَدْ قَالَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: ضَعْ وَتَعَجَّلْ لَا يَجُوزُ، وَأَجَازَهُ فِي الدَّيْنِ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَمَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْوَضْعُ وَالتَّعْجِيلُ لَيْسَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا مَشْرُوطًا فِي صَاحِبِهِ، وَلَكِنَّهُ عَلَى وَضْعٍ مَرْجُوٍّ بِهِ التَّعْجِيلُ لِبَقِيَّةِ الدَّيْنِ، فَذَلِكَ بِخِلَافِ الْبَابِ الْأَوَّلِ، وَلَا يَجُوزُ فِي الْمَعْقُولِ، إِبْطَالُهُ بِالْحُكْمِ، وَلَكِنَّهُ مَكْرُوهٌ غَيْرُ مَحْكُومٍ بِإِبْطَالِهِ، كَمَا يُكْرَهُ الْقَرْضُ الَّذِي يَجُرُّ مَنْفَعَةً، وَلَا يُحْكَمُ بِإِبْطَالِهِ لِذَلِكَ، فَهَذَا وَجْهُ هَذَا الْبَابِ بِإِيقَاعِ الصُّلْحِ عَلَى اشْتِرَاطِ التَّعْجِيلِ فِي الْوَضْعِ، وَفِي الْوَضْعِ الْمَرْجُوِّ بِهِ تَعْجِيلُ بَقِيَّةِ الدَّيْنِ بِغَيْرِ اشْتِرَاطٍ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَضْعِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ». [**تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٥/ ٦٥٥-٦٦٢**].

١٠ ـ غنائم بني النضير والحكم العام في الغنائم كلها:

يقول الشيخ أبو زهرة: «كانت غنائم بني النضير هي أول غنائم من أهل القرى من أرض ونخيل، وحصون، فهي التي سنت ما يتخذ من حكم الاستيلاء على الأراضي أتوزع على المحاربين أم تكون محبوسة على مصالح المسلمين، فيكون لهم غلاتها، وتبقى تحت أيدي أصحابها على ألا تكون أيديهم أيدي ملاك رقبة، بل ملاك منفعة على خراج يؤدونه.

ويقول الفقهاء إن ذلك الخراج هو بمثابة أجرة للأرض قد استأجروها به، وإليكَ النص الذي جاء في هذه الأراضي:

قال الله تعالى عقب إجلاء بني النضير: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

ونجد هذا النص الكريم قسم ما أفاء الله ـ تعالى ـ به على رسوله ﷺ والمؤمنين معه قسمين:

أحدهما: ما لا يُعد شيئًا نابتًا أو أرضًا، بل هو مال غير ثابت، فالأمر فيه إلى رسول الله ﷺ يوزعه كما شرع الله ـ تعالى ـ له، وقد أشار إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، ويوزعه النبي ﷺ بمقتضى أمره في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٤١].

والقسم الثاني: هو ما أفاء الله ـ تعالى ـ به من أهل القرى، وهو الأموال الثابتة من نخيل قائم وأرض زراعية.

وهذه قد جعلها الله ـ تعالى ـ لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

وهنا يجيء البحث فيه: أتقسم الأرض بين الغانمين وتخمس كما تخمس الغنائم، فيكون لله وللرسول ﷺ وذي القربى واليتامى والمساكين الخمس وأربعة الأخماس للمجاهدين.

وقد بدا ذلك الخلاف عند الاستيلاء على أرض سواد العراق، وقد جمع عمر رضي الله عنه الصحابة رضي الله عنهم خارج المدينة المنورة، وأخذ يجادلهم ويجادلونه ثلاث ليال سويًا، هو يحتج بألا يكون المال دُولة بين الأغنياء، وقال: إن الله سيفتح فارس ومصر والشام، فلو قُسمت فماذا يبقى لسد الثغور وماذا يبقى للذرية.

وهم يعارضون بأنها غنائمهم، وأشد من يعارضه بلال رضي الله عنه وصحب له، فكان عمر الفاروق رضي الله عنه يقول: **اللهم اكفني بلالًا وصحبه.**

وبعد ثلاث ليال أراد أن يُحكِّم بينه وبين مخالفيه طائفة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج، فلما التقوا به ذكر لهم أنه ما أزعجهم إلا ليحكموا بينه وبين مخالفيه، وبعد أن عرض وجهة نظره من الوجهة المصلحية الاجتماعية، ذكر لهم أنه وجد قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ إلى آخر الآيات [الحشر: ٧].

وفصل القول ووزع الأقسام التي تشتمل عليها الآية، وذكر أن الغلات أولًا للمهاجرين، ثم للذين أووا ونصروا، ثم للذين اتبعوهم، ثم للذين جاؤوا من بعدهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾[الحشر: ١٠].

ولما تلا عليهم الآيات انقطع الخلاف، وصار الإجماع على أن تكون الأرض محبوسة لمنافع المسلمين بحكم هذه الآية: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

وأن رسول الله ﷺ أعطى ثمرات أرض بني النضير للمهاجرين ليرفع بذلك مؤونتهم عن الأنصار، إذ كانوا قد ساهموهم في الأموال والديار، ولم يعط مع المهاجرين من الأنصار إلا أبا دجانة وسهل بن حنيف رضي الله عنهما لحاجتهما.

ومؤدى ذلك أنه وزع الأموال والثمرات على ذوي الحاجات وذوي القربى واليتامى والمساكين وفعل ذلك مع الذين اتبعوا من مهاجرين وأنصار، ثم مَنْ جاؤوا بعدهم، والله سبحانه وتعالى أعلم».
[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٥٥-٧٥٧].

١١ ـ حكم الفيء:

يقول د/ البوطي: «اتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم بدون قتال (وهو الفيء) يعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تُقسم عليهم الغنائم التي غنموها بعد قتال وحرب، مستدلين على ذلك بسياسته ﷺ في تقسيم فيء بني النضير، فقد خص به ـ كما رأيت ـ المهاجرين دون الأنصار، وقد نزل القرآن تصويبًا في الآيتين اللتين ذكرناهما.

ثم اختلفوا في الأراضي التي غنمها المسلمون بواسطة الحرب: فذهب مالك إلى أن الأرض لا تُقسم مطلقًا، وإنما يكون خراجها وقفًا لصالح المسلمين، إلا أن يرى الإمام أن المصلحة تقضي القسمة فإن له ذلك، ويذهب الحنفية قريبًا من هذا المذهب.

أما الشافعي فذهب إلى أن الأرض المأخوذة عنوة تجب قسمتها كما تجب قسمة غيرها من الغنائم، وهو الظاهر من مذهب الإمام أحمد.

ودليل ما ذهب إليه الشافعي أن تصرف النبي ﷺ بأموال بني النضير على خلاف ما تقتضيه

القسمة بين الغانمين في الحرب، إنما كان بسبب عدم وجود أي قتال تَسَبَّب عنه الحصول على تلك الغنائم، وقد نصت الآية على ذلك في معرض تعليل حكمه ﷺ في فيء بني النضير، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾ [الحشر].

وإذا كان هذا هو مناط جواز عدم القسمة لأراضي الفيء فمن الواضح أنه إذا ارتفع مناط الحكم، ارتفع الحكم معه، وعاد الحكم المنصوص عليه في حق الغنائم، سواء في ذلك الأراضي وغيرها.

ودليل ما ذهب إليه مالك وأبو حنيفة أمور كثيرة، من أهمها عمل عمر ﷺ حينما امتنع عن تقسيم سواد العراق، وجعلها وقفًا يجري خراجها ريعًا للمسلمين، وليس المجال هنا متسع لأكثر من هذا العرض المجمل في الموضوع.

إنما الذي ينبغي أن ننتبه إليه من هذا البحث هنا، هو التعليل الذي ذكره الله تعالى في الآيتين اللتين أوضحتا سياسته ﷺ في تقسيم فيء بني النضير إذ اختص به أناسًا دون آخرين، فقد ذكر الله تعالى في تعليل ذلك بقوله: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧]، أي كي لا يكون تداول المال محصورًا فيما بين طبقة الأغنياء منكم فقط.

والتعليل بهذه الغاية يؤذن بأن سياسة الشريعة الإسلامية في شؤون المال قائمة في جملتها على تحقيق هذا المبدأ، وإن كل ما تفيض به كتب الشريعة الإسلامية من الأحكام المتعلقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يُبتغى من ورائه إقامة مجتمع عادل تتقارب فيه طبقات الناس وفئاتهم، ويُقضى فيه على أسباب الثغرات التي قد تظهر فيما بينهم، والتي قد تؤثر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طُبقت أحكام الشريعة الإسلامية وأنظمتها الخاصة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزكاة، ومنع للربا، وقضاء على جميع مظاهر الاحتكارات لعاش الناس كلهم في بحبوحة من العيش، قد يتفاوتون في الرزق ولكنهم جميعًا مكتفون، ليس فيهم كَلٌّ على آخر، وإن كانوا جميعًا يتعاونون.

والمهم أن تعلم أن الله تعالى لما جعل غاية شريعته في الدنيا إقامة هذا المجتمع، شرع لذلك وسائل وأسبابًا معينة ألزمنا باتباعها وعدم الخروج عليها، أي أن الله تعالى تَعَبَّدَنَا بكل من الغاية والوسيلة معًا، فلا يجوز أن يقال: إن الغاية من الإسلام إقامة العدالة الاجتماعية، فلنسلك إلى ذلك ما نراه من الأسباب والسبل، بل إن هذا يُعد خروجًا على كل من الغاية والوسيلة معًا، فلن تتحقق الغاية التي أمرنا الله تعالى بتحقيقها إلا باتباع الوسيلة التي شرعها لنا سبيلًا إلى تلك الغاية، والتاريخ أعظم دليل، والوقائع أكبر شاهد.

هذا وجدير بك أن تعود إلى سورة الحشر بكاملها، لتتأمل التعليق الإلهي العظيم على هذه الحادثة بمجموعها وعامة ملابساتها: اليهود، المنافقون، سياسة الرسول في المال والحرب وغير ذلك... فهذه السورة من أهم ما يُمَكِّنك من الوقوف على دروس هذه القصة وعظاتها». [فقه السيرة للبوطي ٢٠٥-٢٠٦].

١٢ ـ حكم الأرض المفتوحة:

يقول د/ العيساوي: «سبق وأن قسمنا الغنيمة إلى أربعة أقسام وهي: (الأسرى، والسَّبي، والأَرَضُون، والأموال) وتكلمنا عن حكم الأسرى والأموال وكيفية قسمتها في فقه غزوة بدر الكبرى.

والآن نتكلم عن حكم الأراضي.

لقد عرفنا من خلال عرضنا لأحداث الغزوات الماضية أن المسلمين غنموا أراضي خيبر وأراضي بني النضير، وبني قريظة، وقينقاع، وهذه الأراضي التي استولى عليها المسلمون تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أرض ملكت عفوًا لجلاء أهلها.

الثاني: أرض استولي عليها صلحًا.

الثالث: أرض ملكت عنوةً وقهرًا. [آثار الحرب ص ٥٣٣، والجزية والإسلام ـ دانيل دينت ص ٣٧].

أولاً: الأرض التي ملكت عفوًا لجلاء أهلها عنها: هذا النوع من الأرض هو المعروف عند الفقهاء بالفيء: والفيء هو المال الذي يؤخذ من الحربيين من غير قتال، أي بطريق الصلح كالجزية والخراج.

[المبسوط ١٠/٧، وتفسير القرطبي ٨/١، ومعجم البلدان ١/ ٣٥-٣٧، وبداية المجتهد ١/ ٤٨٩، والمهذب ٢/ ٢٤٧، ونهاية المحتاج ٥/ ١٠٥، وأحكام أهل الذمة ص ١٠٦].

هذه الأموال في الإسلام تنتقل ملكيتها إلى بيت المال بالاستيلاء عليها، وتصير أملاك دولة.

وقد عبر الفقهاء عن ذلك بأنها تصير وقفًا أي ملكًا للأمة الإسلامية بمجرد الاستيلاء عليها، ويضع ولي الأمر عليها خراجًا يؤخذ كأجرة ممن يعامل عليها من مسلم أو معاهد، وصيرورتها وقفًا لأنها ليست غنيمة، فكان حكمها حكم الفيء يكون للمسلمين كلهم.

[فتح القدير ٤/ ٣٥٣، والخراج ص ٢٣، والقوانين الفقهية ص ٦٦].

ولم يختلف في ذلك فقهاؤنا بالنسبة للعقار، إلا أن الشافعية والحنابلة قالوا: إن وقفها يحتاج إلى صيغة من الإمام لتصبح هذه الأرض وقفًا. [الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٣٣، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٣٢، ومغني المحتاج ٣/ ٩٩، وشرح السير الكبير ٤/ ٢٤٨].

أما المنقول في الفيء فيوقف أيضًا عند الجمهور، ويصرفُ لمصالح المسلمين، أي الأمر فيه للإمام يفعل ما يراه مصلحة.

وأما عند الشافعية: فَيُخَمَّس المنقول كالغنيمة؛ لأن آية الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الحشر: ٦] مطلقة، وآية الغنيمة ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١] مقيدة، فحمل المطلق على المقيد جمعًا بينهما لاتحاد الحكم، فإن الحكم واحد، وهو رجوع المال من الحربيين للمسلمين وإن اختلف السبب بالقتال وعدمه. [ينظر: مغني المحتاج ٣/ ٩٣، وزاد المعاد ٣/ ٢٢، والقوانين الفقهية ص ١٤٨].

والدليل يرجح مذهب الجمهور، فَعَنْ عُمَرَ ﵁، قَالَ: «كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، مِمَّا لَمْ يُوجِفْ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ (الإيجاف هو الإسراع، أي لم يعدوا في تحصيله خيلًا ولا إبلًا، بل حصل بلا قتال، والركاب هي الإبل التي يسافر عليها لا واحد لها من لفظها واحدة راحلة، وكذلك الخيل لا واحد لها من لفظها واحده فرس)، فَكَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً، فَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَةٍ (أي يعزل لهم نفقة سنة، ولكنه كان ينفقه قبل انقضاء السنة في وجوه الخير فلا تتم عليه السنة)، وَمَا بَقِيَ يَجْعَلُهُ فِي الْكُرَاعِ (أي الدواب التي تصلح للحرب) وَالسِّلَاحِ، عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللهِ (هي ما أعد للحوادث أهبة وجهازًا للغزو)». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٧)، شرح مسلم للنووي ١٢/ ٧].

فقوله: كانت للنبي ﷺ خاصة: يؤيِّد مذهَبَ الجمهور في أنه لا يخمسُ الفيء، إذ من المعروف أن فدك والعوالي (أموال بني النضير في المدينة) [سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣٧]، وكانت للرسول ﷺ خاصة، ولمن بعدَه من الأئمة، لقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الحشر: ٦]، أراد أن ذلك لا يقسم كالغنائم بدليل قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر: ٧]، وإذا أراد الإمام تفريق الفيء بين المسلمين اتخذ ديوانًا يحفظُهم ويرتبهم، ويجعل العطاء على حسب ما يتيسر له شهريًّا أو غير ذلك.

[البحر الزخار ٥/ ٤٤٢، والمذهب ٢/ ٢٤٨].

ثانيًا: الأرض التي فُتحت صلحًا: يتحدد حكم هذا النوع من الأراضي بموجب عقد الصلح، فهو إما أن يقع الصلح على أن تكون الأرض للمسلمين، وإما أن يقع على أن تكون الأرض لأصحابها.

[آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص ٥٥٣].

ففي الحالة الأولى: تصبحُ الأرض وقفًا للمسلمين كأرض العَنْوة وتعتبرُ من بلاد الإسلام كالأرض التي جلا عنها أهلُها؛ لأن النبي ﷺ فتح خيبر، وصالح أهْلَها على أن يعمروا أرضَها ولهم نصفُ ثمرتها، فكانت للمسلمين دونهم، روى البخاري والبيهقي وأبو داود عن ابن عمر ﵄ قال: عامل النبي ﷺ خيبر بشطر ما يخرجُ منها من ثمر أو زرع.

[صحيح البخاري ٣/ ١٠٥، و٥/ ١٤٠، وسنن أبي داود ٣/ ٣٥٧، وسنن البيهقي ٦/ ١١٣].

وصالح النبي ﷺ بني النضير على أن يُجليَهم من المدينة ولهم ما أقلَّت الإبلُ من الأمتعة والأموال إلا الحلقة (يعني السلاح)، وكانت مما أفاء الله على رسوله ﷺ. [الشرح الكبير ١٠/ ٥٤٢].

ويوضع على هذه الأرض الخَراج ويكون تابعًا، فإذا اشترى مسلم بعضًا منها ظلَّ ملتزمًا بدفع الخراج؛ لأنه يعتبر أجرةً في نظير الانتفاع، وهذا أمرٌ متفق عليه بين الفقهاء.

[المدونة ٣/ ٢٦، والمنتقى على الموطأ ٣/ ٢١٩].

وفي الحالة الثانية: تكونُ الأرضُ ملكًا لأهلها بموجب الصُّلح باتفاق الفقهاء، ويلتزم المسلمون بتنفيذ شروط الصلح كاملةً ما داموا قائمين على الصلح، ولكن يوضعُ الخراج على الأرض يؤدونه عنها ويكون لبيت المال. [ينظر: الخراج ص ٦٣، وتبيين الحقائق ٣/ ٢٧٤، وحاشية ابن عابدين ٢/ ٣، ٥٣، والأم ٤/ ١٠٣-١٠٩، والشرح الكبير ١/ ٥٤٣، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ص ١٠٥].

ثالثًا: الأرض التي فُتحت عنوة: هذا النوع من الأراضي حكمه حكم سائر الأموال التي تغنم وأن خمسها لأهل الخمس وأربعة أخماسها للغانمين، بدليل ما بينته السُّنة بقوله ﷺ وفعله، **قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:** **«أَيُّمَا قَرْيَةٍ أَتَيْتُمُوهَا، وَأَقَمْتُمْ فِيهَا، فَسَهْمُكُمْ فِيهَا، وَأَيُّمَا قَرْيَةٍ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ خُمُسَهَا لله وَلِرَسُولِهِ، ثُمَّ هِيَ لَكُمْ»**. [مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٦)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٣٦)، والأموال ص٥٧].

فالمرادُ بالقرية الأولى الفيء، ويصرف مصارفه، والمراد بالقرية الثانية ما أُخِذَ عَنْوَةً فيكون غنيمةً يخرجُ منها الخمس وباقيه للغانمين، وهو معنى قوله ﷺ: «**ثُمَّ هِيَ لَكُمْ**» أي باقيها [آثار الحرب ص ٥٣٧]، وقد ثبت أن الرسولَ ﷺ قسم خيبرَ بينَ الغُزاة بعد أن فُتحت عَنْوَة.

[شرح مسلم ١٢/ ١٦٤، وسنن أبي داود ٢/ ٢١٧، ونيل الأوطار ٨/ ١٢].

وقسم أيضًا أموال بني قُريظة وبني النَّضير. [شرح مسلم ١٢/ ٩١، وزاد المعاد ٢/ ٦٨].

وقال عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: «**أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلاَ أَنْ أَتْرُكَ آخِرَ النَّاسِ بَبَّانًا** (المُعدم الذي لا شيء له) **لَيْسَ لَـهُمْ شَيْءٌ، مَا فُتِحَتْ عَلَيَّ قَرْيَةٌ إِلَّا قَسَمْتُهَا كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ، وَلَكِنِّي أَتْرُكُهَا خِزَانَةً لَـهُمْ يَقْتَسِمُونَهَا**. [صحيح البخاري ٤/ ٨٦].

فكان رأي سيدنا عمر ﷺ أن يترك الأرضَ مفتوحةً ولا يقسمها بين الفاتحين، وكانت هذه سياسَتَهُ في أرض السواد وغيرها.

والفقهاء متفقون على جواز قسمة الأراضي بين الغانمين، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١].

إلا أنهم اختلفوا في اعتبار القسمة أمرًا ملزِمًا لوليِّ الأمر، أم أن له الخيار في خصال أخرى.

والثابت أن حكمَ هذه الأراضي المفتوحة، متروكٌ للإمام: له أن يقسمها إن رأى ذلك صلاحًا للمسلمين، وله أن يتركها، وقد فعل ذلك عمرُ ﷺ في أرض السَّواد ووافقه الصحابة ﷺ على ذلك بعد أن اختلفوا عليه لكنه ظلَّ يُجاريهم حتى اتفقوا جميعًا.

وقد علق الطحاوي على قسمة الرسول ﷺ نصفَ خيبرَ نصفها لنوائبه وحاجته، فقال: «فعلمنا من ذلك أنه قَسَمَ، وله أن يقسِمَ، وتَرَكَ وله أن يتركَ». [القسطلاني ٥/ ٢٠٠]. [فقه الغزوات للعيساوي ١٧٧-١٨٠].

١٣ ـ توزيع الثروة توزيعًا عادلاً وتنشيطًا للحركة الاقتصادية عند المسلمين:

يقول د/ أبو فارس: «لقد حرص الرسول ﷺ أن يوزع الفيء على المهاجرين دون الأنصار ـ كما مر معك سابقًا ـ لحكمة ربانية باهرة، وهي تحقيق العدالة في توزيع الثروة، فلا تتكدس الثروة في أيدي فئة قليلة من الناس، يكون مصير الكثرة بأيديهم، إذ يترتب على هذا اختلال في التوازن الاقتصادي والمالي في المجتمع، مما يسبب كثيرًا من الاضطراب والتضخم في الحياة الاقتصادية، ولقد أخبر الله ـ تبارك وتعالى ـ عن هذه الحكمة في القرآن الكريم فقال ﷻ: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧]». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٣].

١٤ ـ قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد:

يقول د/ الصلابي: «بعد بيان العلة في توزيع أموال الفيء عقَّب سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرسول ﷺ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه، وأن هذا من لوازم الإيمان، وأمرهم بالتقوى، فإن عقابه شديد وأليم للعصاة، قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر]، أي: ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمركم بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وفساد، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ خافوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾ أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد لمن عصاه وخالف ما أمره به، قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء إلا أنها عامة في كل ما أمر الله به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجب، أو مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفيء وغيره.

وقد جاءت آيات كثيرة تربي الأمة على وجوب الانقياد لحكم الله تعالى، ولحكم رسوله ﷺ، وذلك في كل الأمور، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥﴾ [النساء].

وقال ﷺ: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**». [مسلم في الفضائل (١٣٣٧)]. [السيرة للصلابي ٢/ ٢١٣-٢١٤].

ويقول صاحب الظلال: «فأما قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾، فهي تمثل النظرية الدستورية الإسلامية، فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ قرآنًا أو سنة.

والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول ﷺ، فإذا شرَّعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان؛ لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان، وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات، بمعنى أن للأمة أن تشرِّع لنفسها ما تشاء، وكل ما تشرِّعه فهو ذو سلطان، فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول ﷺ والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها ـ والإمام نائب عن الأمة في هذا ـ وفي هذا تنحصر حقوق الأمة، فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول ﷺ في أي تشريع.

فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول ﷺ بخصوص أمر يَعْرِض للأمة فسبيلها أن تشرِّع له بما لا يخالف أصلًا من أصول ما جاء به الرسول ﷺ، وهذا لا ينقض تلك النظرية، إنما هو فرع عنها، فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول ﷺ إن كان هناك نص، وألا يخالف أصلًا من أصوله فيما لا نص فيه، وتنحصر سلطة الأمة ـ والإمام النائب عنها ـ في هذه الحدود، وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية، وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله، وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه الله له والقانون الذي يحكم البشر وهو من الله ﷻ؛ كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون، فيشقى الإنسان أو يتحطم، أو تذهب جهوده أدراج الرياح!».

[الظلال لقطب ٦/ ٣٥٢٥].

وعلى الدعاة وجماعتهم المسلمة رفع هذا الشعار وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ سواء كان هذا الإيتاء والنهي يتعلقان بنفس المسلم وشؤونه الخاصة أو ما يتعلق بعلاقاته مع غيره، وسواء كان ذلك ما تعلق بالدعاة وبجماعتهم أو ما تعلق بغيرهم. [**المستفاد لزيدان ٢/ ٢٩٠**].

١٥ ـ قاعدة التنظيم الاقتصادي:

يقول صاحب الظلال: «وقاعدة التنظيم الاقتصادي، تمثل جانبًا كبيرًا من أسس النظرية الاقتصادية في الإسلام، فالملكية الفردية معترف بها في هذه النظرية، ولكنها محددة بهذه القاعدة، قاعدة ألا يكون المال دُولة بين الأغنياء، ممنوعًا من التداول بين الفقراء، فكل وضع ينتهي إلى أن يكون المال دُولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية، كما يخالف هدفًا من أهداف التنظيم الاجتماعي كله.

وجميع الارتباطات والمعاملات في المجتمع الإسلامي يجب أن تُنظَّم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تُبقي عليه إن وجد.

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة، ففرض الزكاة، وجعل حصيلتها في العام اثنين ونصفًا في المائة من أصل رؤوس الأموال النقدية، وعشرة أو خمسة في المائة من جميع الحاصلات، وما

يعادل ذلك في الأنعام، وجعل الحصيلة في الركاز وهو كنوز الأرض مثلها في المال النقدي، وهي نسب كبيرة، ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء، بينما جعل الفيء كله للفقراء، وجعل نظامه المختار في إيجار الأرض هو المزارعة ـ أي المشاركة في المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها ـ وجعل للإمام الحق في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء، وأن يوظف في أموال الأغنياء عند خلو بيت المال، وحرَّم الاحتكار، وحظَر الربا، وهما الوسيلتان الرئيستان لجعل المال دُولة بين الأغنياء.

وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادي كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التي تعد قيدًا أصيلًا على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى. [**يراجع فصل سياسة المال في كتاب: العدالة الاجتماعية في الإسلام**].

ومن ثم فالنظام الإسلامي نظام يبيح الملكية الفردية، ولكنه ليس هو النظام الرأسمالي كما أن النظام الرأسمالي ليس منقولًا عنه، فما يقوم النظام الرأسمالي إطلاقًا بدون ربا وبدون احتكار، إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير، نشأ وحده، وسار وحده، وبقي حتى اليوم وحده، نظامًا فريدًا متوازن الجوانب، متعادل الحقوق والواجبات متناسقًا تناسق الكون كله، مذ كان صدوره عن خالق الكون، والكون متناسق موزون!». [**الظلال لقطب ٦/ ٣٥٢٤-٣٥٢٥**].

١٦ ـ السياسة المالية الجديدة للدولة الإسلامية:

يقول د/ قلعجي: «إن قسمة أموال بني النضير بين المهاجرين وفقراء الأنصار أوجدت تطورًا كبيرًا في السياسة المالية للدولة الإسلامية، فقد كانت الغنائم الحربية قبل هذه الغزوة تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدولة الإسلامية خُمسها لتصرف في مصارف معينة حددها القرآن الكريم، واليوم بعد غزوة بني النضير، أوجدت هناك سياسة مالية جديدة فيما يتعلق بالغنائم، وخلاصتها: أن الغنائم الحربية أصبحت حسب السياسة الجديدة على نوعين:

(١) غنائم استولى عليها المجاهدون بحد سيوفهم، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدولة خُمسها لتصرفه في مصارفه الخاصة.

(٢) غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتال، وهذا النوع يختص رئيس الدولة الإسلامية بالتصرف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك، يعالج به الأوضاع الاقتصادية في البلاد؛ فينقذ الفقراء من فقرهم، أو يشتري به سلاحًا، أو يبني به مدينة، أو يصلح به طرقًا أو... وهذا يعني أنه قد أصبح لرئيس الدولة الإسلامية ميزانية خاصة يتصرف فيها تصرفًا سريعًا حسب مقتضيات المصلحة.

هذه السياسة المالية الجديدة أوجدت كثيرًا من المرونة التي تفتقر إليها كل دولة في تشريعها؛ لأن تحجر القانون لا يجدي في معالجة المشكلات الطارئة إلا الإمعان في صعوبة حلها أو استحالته.

وبهذه السياسة الجديدة أصبحت أموال بني النضير وأراضيهم وبساتينهم في يد رسول الله ﷺ باعتباره رئيس الدولة الإسلامية ليتصرف فيها على ضوء المصلحة كما يشاء، فماذا فعل رسول الله ﷺ بهذه الأموال؟

إنه ﷺ نظر فوجد أن المشكلة المالية للمهاجرين ما زالت قائمة، رغم ما بذله إخوانهم الأنصار من تعاون مع رسول الله ﷺ لحلها، والمهاجرون هم المشتغلون الأول في الجهاد، فهم ما زالوا فقراء، والأراضي والبساتين بيد الأنصار، ولما كان رسول الله ﷺ يعنى عناية فائقة بالأمور الداخلية، ويعتبرها الأساس في بناء الدولة، فقد توجه أول ما توجه ـ بعد أن أصبحت أموال بني النضير في يده ـ إلى حل مشكلة الأوضاع المالية للمهاجرين خاصة وللفقراء عامة؛ ليُشعر هؤلاء بأن الدولة الإسلامية قد أنصفتهم فعلًا، فجعل ما وقع في يده ﷺ من أراضٍ وعقارات لبني النضير لفقراء المدينة ـ وجلهم من المهاجرين ـ لأن من أولى واجبات الدولة أن تعمل على إيجاد الظروف التي تفرض التوزيع العادل للثروة بين المواطنين، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ حين جعل الله تعالى توزيع غنائم بني النضير إليه.

ولما تكلم بعض المنافقين بعدم عدالة هذا التوزيع كان جواب رسول الله ﷺ أن منطق العدالة يقتضي بأن لا يكون المال دُولة بين الأغنياء منكم دون الفقراء، وانصاع الجميع لأمر رسول الله ﷺ، واقتنعوا بالسياسة المالية الجديدة للدولة الإسلامية». [قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ١٦٩-١٧٠].

١٧ ـ حُكْمُ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضَعُهُ فِي ذَوِي قُرْبَاهُ:

قال الإمام الطحاوي: «تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي **حُكْمِ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضَعُهُ فِي ذَوِي قُرْبَاهُ فِي حَيَاتِهِ، كَيْفَ حُكْمُهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ**؟

فَقَالَ قَائِلُونَ: هُوَ رَاجِعٌ مِنْ قَرَابَتِهِ إِلَى قَرَابَةِ الخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ لِبَنِي هَاشِمٍ، وَلِبَنِي المُطَّلِبِ خَاصَّةً.

وَقَالَ آخَرُونَ: وَهُمْ الَّذِينَ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مَا كَانَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ لِمَنْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ وَضْعَهُ فِيهِ مِنْ قَرَابَتِهِ هُوَ مُنْقَطِعٌ عَنْهُمْ بِوَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَنَظَرْنَا فِي هَذِهِ الأَقْوَالِ، لِنَسْتَخْرِجَ مِنْهَا قَوْلًا صَحِيحًا، فَرَأَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي حَيَاتِهِ فِي المَغْنَمِ، سَهْمُ الصَّفِيِّ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ فِي ذَلِكَ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ فِيهِ، مَا حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ المُرَادِيُّ، قَالَ: ثَنَا أَسَدُ بْنُ مُوسَى، قَالَ: ثَنَا أَبُو هِلَالٍ الرَّاسِبِيُّ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ القَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَك هَذَا الحَيَّ مِنْ مُضَرَ، وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَك إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَأْخُذُ بِهِ، وَنُحَدِّثُ بِهِ مَنْ بَعْدَنَا.

قَالَ ﷺ: «**آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنْ تُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَتُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَتُعْطُوا سَهْمَ اللهِ مِنَ الغَنَائِمِ وَالصَّفِيَّ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الحَنْتَمِ، وَالدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالمُزَفَّتِ**».

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدَ بْنِ مُوسَى، قَالَ: ثَنَا أَبُو الوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ، قَالَ: ثَنَا ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَنَفَّلَ سَيْفَهُ ذَا الفَقَارِ يَوْمَ بَدْرٍ».

حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ يَحْيَى الهَمْدَانِيُّ، قَالَ: ثَنَا أَبُو النَّضْرِ، قَالَ: ثَنَا الأَشْجَعِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ: «سَأَلْتُ الشَّعْبِيَّ عَنْ سَهْمِ النَّبِيِّ ﷺ كَسَهْمِ رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَكَانَ الصَّفِيُّ يُصَفَّى بِهِ إِنْ شَاءَ عَبْدًا، وَإِنْ شَاءَ أَمَةً، وَإِنْ شَاءَ فَرَسًا».

حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ الفَرَجِ، قَالَ: ثَنَا يُوسُفُ بْنُ عَدِيٍّ، قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «تَنَفَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَيْفَهُ ذَا الفَقَارِ يَوْمًا، وَهُوَ الَّذِي رَأَى فِيهِ الرُّؤْيَا، يَوْمَ أُحُدٍ».

حَدَّثَنَا يُونُسُ، قَالَ: ثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ اللَّيْثِيِّ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ فِيمَا يَحْتَجُّ بِهِ: «كَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ثَلَاثُ صَفَايَا، بَنِي النَّضِيرِ، وَخَيْبَرَ، وَفَدَكَ، فَأَمَّا بَنُو النَّضِيرِ، فَكَانَتْ، فَجَزَّأَهَا ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَقَسَمَ مِنْهَا جُزْءًا بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَحَبَسَ جُزْءًا لِلنَّفَقَةِ، فَمَا فَضَلَ عَنْ أَهْلِهِ، رَدَّهُ إِلَى فُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ».

حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ يَحْيَى الهَمْدَانِيُّ، قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الجُرَيْرِيُّ، عَنْ أَبِي العَلَاءِ، قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا مَعَ مُطَرِّفٍ بِأَعْلَى المِرْبَدِ، فِي سُوقِ الإِبِلِ إِذْ أَتَى عَلَيْنَا أَعْرَابِيٌّ مَعَهُ قِطْعَةُ أَدِيمٍ، أَوْ قِطْعَةُ جِرَابٍ ـ شَكَّ الجُرَيْرِيُّ ـ فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَقْرَأُ؟ فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَأُ، قَالَ: هَا، فَاقْرَأْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَتَبَهُ لَنَا، فَإِذَا فِيهِ: «**مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، لِبَنِي زُهَيْرِ بْنِ قَيْسٍ، حَيٍّ مِنْ عُكْلٍ، إِنَّهُمْ شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَفَارَقُوا المُشْرِكِينَ، وَأَقَرُّوا بِالخُمُسِ فِي غَنَائِمِهِمْ، وَسَهْمِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَفِيِّهِ، فَإِنَّهُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللهِ**».

فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ: هَلْ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا تُحَدِّثُنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَذْهَبَ عَنْهُ وَحَرُ الصَّدْرِ، فَلْيَصُمْ شَهْرَ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَلَا أَرَاكُمْ تَرَوْنَنَا، أَنِّي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ لَا حَدَّثْتُكُمُ اليَوْمَ حَدِيثًا، فَأَخَذَهَا، ثُمَّ انْطَلَقَ».

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَجْمَعُوا جَمِيعًا أَنَّ هَذَا السَّهْمَ لَيْسَ لِلْخَلِيفَةِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ كَالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ الخَلِيفَةُ لَا يَخْلُفُ النَّبِيَّ ﷺ فِيمَا كَانَ لَهُ، مِمَّا خَصَّهُ اللهُ بِهِ دُونَ سَائِرِ المُقَاتِلِينَ مَعَهُ، كَانَتْ قَرَابَتُهُ

أَحْرَى أَنْ لَا تَخْلُفَ قَرَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا كَانَ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ مِنْ الفَيْءِ وَالغَنِيمَةِ، فَبَطَلَ بِهَذَا قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ سَهْمَ ذَوِي القُرْبَى بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ لِقَرَابَةِ الخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ.

ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى مَا قَالَ النَّاسُ، سِوَى هَذَا القَوْلِ مِنْ هَذِهِ الأَقْوَالِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي هَذَا الفَصْلِ.

فَأَمَّا مَنْ خَصَّ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي المُطَّلِبِ، دُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ ذَوِي قُرْبَى رَسُولِ الله ﷺ، وَجَعَلَ سَهْمَ ذَوِي القُرْبَى لَهُمْ خَاصَّةً، فَقَدْ ذَكَرْنَا فَسَادَ قَوْلِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ، فِي كِتَابِنَا هَذَا، فَأَغْنَانَا ذَلِكَ عَنْ إِعَادَتِهِ هَا هُنَا.

وَكَذَلِكَ مَنْ جَعَلَهُ لِفُقَرَاءِ قَرَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ دُونَ أَغْنِيَائِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ كَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، فَقَدْ ذَكَرْنَا أَيْضًا فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذَا الكِتَابِ، فَسَادَ قَوْلِهِ، فَأَغْنَانَا عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا.

وَبَقِيَ قَوْلُ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ لَهُ أَنْ يَضَعَهُ فِيمَنْ رَأَى وَضْعَهُ فِيهِ، مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ وَأَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يَسْتَحِقُّ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى يُعْطِيَهُ إِيَّاهُ رَسُولُ الله ﷺ، قَدْ كَانَ لَهُ أَنْ يَصْطَفِي مِنْ المَغْنَمِ لِنَفْسِهِ مَا رَأَى، فَكَانَ ذَلِكَ مُنْقَطِعًا بِوَفَاتِهِ، غَيْرَ وَاجِبٍ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِ وَفَاتِهِ.

فَالنَّظَرُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، مَا لَهُ أَنْ يَخُصَّ بِهِ مَنْ رَأَى مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ، دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ فِي حَيَاتِهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَعْدِ وَفَاتِهِ، وَلَـمَّا بَطَلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَى أَحَدٍ بَعْدَ وَفَاتِهِ، بَطَلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ السَّهْمُ لِأَحَدٍ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ، بَعْدَ وَفَاتِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَقَدْ أَبَى ذَلِكَ عَلَيْكُمْ عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، ثُمَّ ذَكَرَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي دَاوُد، قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الله بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَسْمَاءَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمِّي، جُوَيْرِيَةُ بْنُ أَسْمَاءَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ هُرْمُزَ حَدَّثَهُ أَنَّ نَجْدَةَ، صَاحِبُ اليَمَامَةِ، كَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، يَسْأَلُهُ عَنْ سَهْمِ ذَوِي القُرْبَى، فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إِنَّهُ لَنَا، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ دَعَانَا لِيُنْكِحَ مِنْهُ أَيِّمَنَا، وَيُقْضَى مِنْهُ غَارِمُنَا، فَأَبَى أَنْ يُسَلِّمَهُ لَنَا كُلَّهُ، وَرَأَيْنَا أَنَّهُ لَنَا». [**شرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٣٠١ -٣٠٢**].

المطلب الرابع

الدروس الاجتماعية

١ ـ الوقوف على صورة المجتمع المسلم:

ولننظر إلى مجتمع المدينة ومدى حب الصحابة واتباعهم لرسول الله ﷺ، فها هو حُيَيُّ بن أَخْطَبَ زعيم بني النضير يرسل أخاه جُدَيَّ بن أَخْطَبَ برسالتين:

الأولى: إلى محمد ﷺ يؤكد فيها نقض اليهود العهد.

والثانية: إلى عبد الله بن أُبَيِّ بن سَلُول ـ زعيم المنافقين ـ يستحثه فيها على نصرتهم التي وعدهم بها.

ويرى جُدَيُّ بن أَخْطَبَ العجبَ، فحينما بَلَّغَ الرسالة الأولى كبر رسول الله ﷺ مبتهجًا، وكبر الصحابة من حوله، وكأنه واثق من النصر ومن إخراج هؤلاء اليهود.

وحينما ذهب ليبلغ الرسالة الثانية رأى أعجب من ذلك، فقد رأى عبد الله بن أبي لا يعنيه شيء مما يحدث بين رسول الله ﷺ وبين بني النضير، أو قُل إنه جَبُنَ عن نصرتهم والوقوف أمام رسول الله ﷺ، ولا عجب أن يرى جُدَيُّ بن أَخْطَبَ ابنًا لعبد الله بن أبي ـ ويسمى أيضًا عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سَلُول ـ وهو يتجهز للقتال مع رسول الله ﷺ، فابن زعيم المنافقين من أنشط المسلمين استجابة لأمر رسول الله ﷺ، فسبحان الله العظيم لا يدري أحد من أين يأتي الخير.

ويعود جُدَيُّ بن أَخْطَبَ إلى بني النضير وهو ينقل إليهم أخبار المجتمع المسلم وحرصه على اتباع رسول الله ﷺ، ونكوص المنافقين عن نصرتهم، كما هي طبيعة المنافقين في كل عصر.

٢ ـ لون من العدالة الاجتماعية في غزوة بني النضير:

يقول الشيخ أبو خوات: «لما خرج بنو النضير من حصونهم ومزارعهم اعتبرت في حكم الإسلام فيئًا أفاءه الله على النبي ﷺ والمسلمين، يعني فضلًا وزيادة أكرم الله به المسلمين ولم يكن غنيمة تُقسم أخماسًا تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[الأنفال: ٤١]؛ لأن شرط التقسيم فيما يأخذه المسلمون من أعدائهم، أن يباشر الجيش قتالًا فعلًا، وهذه الغزوة لم يحدث فيها قتال؛ ولذلك فإن الله يعلل عدم القسمة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر:٦] وبذلك صار ما تركه بنو النضير فيئًا لا غنيمة، فماذا فعل النبي ﷺ في هذا المال الجديد؟

نظر النبي ﷺ إلى مجتمع المدينة المكون من المهاجرين الفقراء الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة بسبب إيمانهم بدين الله ورسوله وهجرته إلى المدينة، ومن الأنصار أهل الديار ومن يملكون الزرع والضرع والتجارة، نظر إلى هذا المجتمع وقرر أن يقسم ما فتح الله به عليهم على المهاجرين فقط، حتى تتعادل كفتا الميزان بين المهاجرين والأنصار، وذلك بأمر الله سبحانه معللًا بقوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧]، أي إنما يُعطى المهاجرون هذا المال وحدهم حتى لا يكون المال والفيء متداولًا بين يدي الأغنياء وهم الأنصار دون الفقراء وهم المهاجرون، أي أن هنا مالًا اشترك الجميع في تحصيله فكل منهم له فيه نصيب، وعند القسمة يُعطى فريق ممن حصلوه دون فريق، رعاية للعدل الاجتماعي وتقريبًا للفوارق بين أغنياء المجتمع وفقرائه.

ولم تكن المسألة مسألة مهاجرين وأنصار وإنما كانت مشكلة فقراء وأغنياء بدليل أن سهل بن حنيف وأبا دجانة الأنصاريين رضي الله عنهما ذكرا لرسول الله ﷺ فقرهما، فأعطاهما النبي ﷺ كما يعطي كلًّا من المهاجرين.

وهذا الصنيع «عدالة اجتماعية» و«تكافل اجتماعي» و«مساواة في الفرص بين أبناء المجتمع الواحد» ... «اشتراكية» (١).

ومنه أخذ الباحثون في مدى تلاقي مبادئ الاشتراكية مع الإسلام النص الذي يجيز لولي الأمر أن يتخذ من الإجراءات ـ متى سنحت الفرصة في حدود العدل ـ ما يقرب بين دخول أفراد المجتمع بما لا يثير الفتن والأحقاد مراعاة للعدل الاجتماعي وحتى لا يظل الغنى غنيًّا والفقير فقيرًا، ولنقرأ الآية معًا: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾[الحشر].

ولعلنا نلاحظ تقديم وصف الفقر على وصف الهجرة في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وهذا واضح.

بقي أن نسأل: ماذا أحدث هذا الصنيع في نفوس الأنصار؟ هل انشقوا وألَّفوا حزبًا رجعيًّا يشغب على رسول الله ﷺ والمهاجرين؟ هل ظهر في تصرفاتهم ما يدل على ما في قلوبهم من حقد مثلًا أو حياء يخشون إظهاره وهم عن هذا الصنيع غير راضين؟

وتجيب الآية التالية للآيتين السابقتين من نفس السورة سورة الحشر عن ذلك كله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[الحشر].

ألا فليسمع الناس وليؤمنوا أن أعدل العدل وأكفى الكفاية جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا؛ مما يجعل المذاهب التقدمية كلها تنظر إليه باستحياء.

يقول ابن إسحاق: «وَخَلَّوْا الْأَمْوَالَ لرَسُولِ الله ﷺ، فَكَانَت لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً، يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ، فَقَسَّمَهَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ، إلَّا أَنَّ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ وَأَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْن خَرَشَةَ رضي الله عنهما ذَكَرَا فَقْرًا، فَأَعْطَاهُمَا رَسُولُ الله ﷺ». [السيرة لابن هشام ٢/ ١٩٢].

---

(١) سقطت النظرية الاشتراكية سقوطًا ذريعًا، ولكن الكاتب كتب هذا الكلام تحت ضغط التأثير الإعلامي للاشتراكية في مصر في فترة الستينيات من القرن العشرين، وقد تَراجَع الدكتور مصطفى السباعي عن كتابه (اشتراكية الإسلام)، كما تولى كثير من علمائنا نقض النظرية الاشتراكية، من أمثال سيد قطب، والمودودي، والسباعي، والغزالي، وينظر على سبيل المثال: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، والإسلام والمناهج الاشتراكية للشيخ محمد الغزالي، وكذلك كتاب: موقف الإسلام من الاشتراكية للدكتور مناع القطان، وغيرها الكثير. غريب.

هذه دروس نتعلمها، وكم في حياة الرسول ﷺ وفي غزواته من دروس وعظات».

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٧٢-٧٦].

٣ ـ تقريب الإسلام بين الطبقات:

يقول د/ فيض الله: «تكوَّن المجتمع المسلم الأول في المدينة من طائفتين كبيرتين من المسلمين: المهاجرين والأنصار، وكان المهاجرون من الفقراء، الذين أُخرجوا من ديارهم في مكة وأموالهم، وافدين على المدينة، أما الأنصار فكانوا سكان يثرب الأصليين، لهم كل ما فيها من مال صامت وناطق، ويدهم عليه ملك يمين، فكان البون شاسعًا بين الطائفتين، والإسلام يهدف دائمًا إلى تحقيق التوازن بين الطبقات، ولا يقر تضخم الثروات، وتركزها في أيدٍ قليلة، بالشكل الذي نجده في بعض النظم المادية والاقتصادية.

ذلك، ومع أن الأنصار المالكين الواجدين، كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية، وبسماحة وسخاء ظاهِرَيْن، وكانوا ـ كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ومع أنه انعقدت بينهم وبين المهاجرين أُخُوَّة فوق الأخوة من النسب، وهي أخوة الإسلام كما رأينا من قبل، ومع أن الأنصار أيضًا، وَفُّوا هذه الأخوة حقها من البذل والعطاء، وربما اقترحوا على النبي ﷺ قسمة النخيل بينهم وبين المهاجرين، كما في الصحيح، فرفض ذلك تقديرًا للعواقب، مع ذلك كله، بقى الفارق المادي ظاهرًا بين الطائفتين.

لهذا انتهز النبي الكريم ﷺ أول فرصة سنحت له؛ لإزالة هذا الفارق الذي لا يرضاه الإسلام، وقد تَمَثَّل في أموال بني النضير، التي كانت تسمى فيئًا، فخصَّ قسمها بين المهاجرين؛ إغناءً لهم؛ وليرتفع بمستواهم المادي إلى ما يُقَرِّب به من مستوى الأنصار.

قال ابن إسحاق في أموال بني النضير: «فَكَانَت لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً، يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ، فَقَسَّمَهَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ، إِلَّا أَنَّ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ وَأَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْن خَرَشَةَ رضي الله عنهما ذَكَرَا فَقْرًا، فَأَعْطَاهُمَا رَسُولُ الله ﷺ». **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٢].**

وقد كان هذا التصرف بوحي من العزيز الحكيم، وهو في غاية الحكمة والمصلحة الاجتماعية والاقتصادية؛ لأن الفيء ـ في الاصطلاح الفقهي ـ اسم لما رده الله تعالى على أهل دينه من أموال مَنْ خالفهم في الدين بلا قتال، إما بالجلاء ـ كما هنا ـ أو بالمصالحة على جزية أو غيرها، بخلاف الغنيمة، فإنها: المأخوذ بقوة الغزاة وقهر الكفرة؛ ولهذا تُخَمَّس الغنائم، ثم تقسَّم بين المحاربين، دون الفيء، فإنه كله لأمر الإمام حاكم المسلمين، يضعه حيث تُحَقَّق به المصلحة، ولم يكن ثمة مصلحة أهم من سد حاجة المهاجرين، ورفع مستواهم المادي، وتقريبهم فيه من إخوانهم الأنصار.

إنه التصرف العادل الحكيم، الذي لا سطو فيه على ما في أيدي الأغنياء، فيثيرهم، وفيه استغلال فيء مَنَّ الله به على المسلمين، بلا قتال ولا قعقعة سلاح، ووضعه في فئة فقيرة صادقة صالحة، على وجه يسُدُّ عَوَزَهَا، ويقيم أَوَدَها، ويحقق لها قسطًا من الحياة المادية الفاضلة.

إنه تصرف الطبيب الحصيف اليَقِظ، الذي يشخِّص العلة، ويصف لها العلاج الكافي، الذي من شأنه أن يحصل الشفاء ـ بإذن الله ـ، ويستأصل الداء، ويفيض على المجتمع الأمن والراحة، والبر والسلامة، ويزيل الفوارق، ويسوِّي الخلجان.

إنه التصرف النزيه الحكيم النابع من صميم العدل الذي قامت به الشرائع السماوية: لم يسلب الواجدين ما في أيديهم من حق، فلم يبتعث فيهم حقدًا، ولم يورثهم ضغينة، وأنصف ذوي الفاقة في أقرب طريق، وأيسر سبيل، فحقق العدالة بالأُخُوَّة والإيمان، والمحبة والسلام، لا بالعداء والدماء، ولا بالحقد والموجدة، ولا بتمزيق المجتمع، وتفريق الصف، وتشتيت الأمة الواحدة المتماسكة:

دَاوَيْتَ مُتَّئِدًا وَدَاوَوْا طَفْرَةً وَأَخَفُّ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ

ثم إنه التوجيه الإلهي الراشد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا تتطاول إليه إصلاحات ولا تقنينات ولا تنظيمات مهما تجردت، إن كان لها إلى التجرد سبيل، والذي أرسى القاعدة الصلبة الأولى، التي ينبغي أن تقوم عليها لَبِنَات العدالة الأولى، فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[الحشر: ٧].

تلك القاعدة الكبرى، التي تَرِدُ ـ في الوقائع ـ قيدًا في الإسلام، على الملكية الفردية، التي أباحها الإسلام، تمشيًا مع الفطرة الإنسانية، والغريزة الإنسانية، في حب التملك، لكنه حددها بقيود، منها تحريم الربا والاحتكار، والغش والرشوة، ومن أهمها هذه القاعدة التي ترتد إليها تلك القيود جميعًا: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾.

فكل وضع من شأنه أن يَقْصر تداول المال بين الأغنياء فقط، وحبسه عمن سواهم، ليس من الإسلام، وما يكون للإسلام أن يقره.

ذلكم شرع الله، ودينه الوحيد المتميز، في كل شيء، في عقيدة التوحيد، وفي منهج الحياة، وأسلوب العبادة، ونظام المال والاقتصاد، الشرع الفريد الذي لا يدانيه نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية؛ لأنه متوازن الجوانب، متعادل الحقوق والواجبات، موائم بين الغرائز الفطرية، والتكاليف الشرعية المالية». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٦٤-١٦٧].

٤ ـ معاناة مجتمع الإسلام في المدينة:

في محاولات اليهود اغتيال رسول الله ﷺ، وتآمرهم مع المشركين والمنافقين ضد رسول الله ﷺ، وغير ذلك من مكر اليهود بالإسلام والمسلمين، في كل هذا بيان لحجم المعاناة التي واجهها مجتمع الإسلام.

يقول د/ الحميدي: «فقد ظهر في هذه الغزوة وصف ما تعرض له المسلمون في المدينة بعد هجرتهم من قيام زعماء الكفر بمكة بتأليب الوثنيين في المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام على حرب المسلمين من داخل المدينة، وكان عبد الله بن أبي بن سلول آنذاك لم يسلم هو ومجموعة من قومه، وكاد أن يقوم هو وأتباعه بمحاربة المسلمين لولا أن النبي ﷺ نجح في إقناعهم بمخاطر قيام حرب داخل المدينة فأحجموا عن ذلك.

ولما أظهر ابن أبي الإسلام بعد غزوة بدر هو وأتباعه يئس الكفار منهم فكتبوا لليهود يهددونهم بمواجهتهم بحرب مفنية إن لم يقوموا بمحاربة رسول الله ﷺ وأصحابه، وصادف ذلك هوى في نفوسهم فعزموا على الحرب ونقضوا العهد، ولكن لما كانوا عاجزين ـ لجبنهم ـ عن مواجهة المسلمين قتاليًّا فإنهم لجأوا إلى سلاحهم الذي يتقنونه ولا يكلفهم مشقة كبيرة ولا ثمنًا باهظًا، حيث عزموا على الغدر برسول الله ﷺ والقيام باغتياله، وفي بالهم أنه لو تَمَّ ذلك لتفرق أصحابه وانتهت دولة الإسلام.

وفي هذا بيان لحجم المعاناة التي واجهها مجتمع الإسلام في أول نشوئه وفي حال قلة أفراده، وحينما يكون العدو من داخل البلد فإن عداوته تكون أنكى ومشكلته تكون أكثر تعقيدًا؛ لأن الأعداء من الخارج تكون المواجهة معهم ليوم واحد أو أيام معدودة ثم ينتهي الأمر، أما الأعداء من الداخل فإن المصيبة بهم دائمة، والحذر منهم يجب أن يكون دائمًا.

ومن هذه المعاناة الشديدة ندرك حجم المخاطر التي واجهها رسول الله ﷺ وهو يقود مجتمعه الصغير بين أعداء من الخارج يصرفون طاقاتهم وأموالهم في تأليب القبائل العربية على حرب المسلمين، ويقومون بغزو المدينة بجيوش ضخمة، وبين أعداء من الداخل أيديهم على أكبادهم من الغيظ الشديد والحنق الأثيم، إلى جانب ما يملكه اليهود من أموال كثيرة يبخلون بها عن المكارم ولكنهم يسخون بها في مواجهة المسلمين في حرب يرونها مصيرية». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٤-٥٥**].

المطلب الخامس

الدروس السياسية

١ ـ رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود:

يقول د/ حبيشي: «اتضح الحديث حول المعاهدة التي كانت بين النبي ﷺ ويهود المدينة على اختلاف طوائفهم.

ونحن جميعًا نعلم من خلال هذه المعاهدة أنها كانت معاهدة وطنية، أبرمها النبي ﷺ مع اليهود كي يعلم كلٌّ حدوده داخل هذا الوطن، ويتعرف كلٌّ على مسؤولياته، يباشرها كلما دعا داع يحتم هذه المباشرة.

والشيء الذي ينبغي أن لا يغيب عن البال، هو أن هؤلاء اليهود من بني النضير كغيرهم من أبناء يهود الذين استوطنوا يثرب، قد دخلوا في هذه المعاهدة مختارين غير مضطرين، والتزموا بها التزامًا يجعل كل من يعمل على خلافها يكون خائنًا.

وانطلاقًا من هذه الحقائق نطرح هذا السؤال: (وماذا عن يهود بني النضير، هل اقترفوا ما اقترفه إخوانهم من بني قينقاع من الآثام التي تجعل النبي ﷺ في حِلٍّ من معاهدتهم، وتجعل التاريخ يحكم عليهم بأنهم قد نقضوا العهد وأخلوا بالوعد، وأعلنوا حالة الحرب ضد النبي ﷺ والمسلمين معه، أم أنهم قد التزموا بالمعاهدة وبنودها، وحافظوا على العهود لا يسمحون لأنفسهم أن يمسوها بسوء، حتى يعيش المجتمع كله آمنًا مطمئنًا، حتى ولو اختلفت فيه الديانات وتعددت فيه العقائد؟).

ونحن لن نحاول أن نجيب على هذا السؤال من خلال افتراضات نفترضها ثم نختبرها، وإنما سنحاول أن نترك المجال بكل اتساعه للتاريخ يحكي وقائعه، ويسوق أحداثه ثم نستنتج نحن منه العظة والعبرة؛ لتكون هذه الأحداث المعبرة عن العلاقة بين النبي ﷺ وبين يهود بني النضير رسالة أخرى تبعث بها روح النبي ﷺ إلى أمته في عام ألفين، وفي ذكرى الإسراء والمعراج من رجب المحرم في هذه السنة، لعلها تنزل بردًا وسلامًا على قلب كل أب فقد ولده أو ابنته، أو لعلها تنزل بالسكينة على قلب كل أم رضعت وليدها على أرض فلسطين ودفعت به إلى بيت المقدس أعزل بغير سلاح في وجه هذه الطغمة الآثمة التي دنست أرض بيت المقدس، وهي تُقبل جبينه قائلة له: اذهب يملأ قلبك الإيمان فإما أن تعود إليَّ ببشرى تحرير المسجد الأقصى، أو تذهب شهيدًا ألقاك يوم القيامة في الفردوس الأعلى، ويوقظ دمك قلوبًا في صدور إخوانك من المسلمين، وعيونًا قد آمنت بالله ربًّا وبالنبي محمد ﷺ إمامًا، ولكنها استسلمت للكرى يداعب عيونها، فدنس المسجد الأقصى في غيبة منها.

نسوق هذه الأحداث كلها لتكون رسالة ترسل بها روح الحبيب محمد ﷺ إلى كل إمام ومسؤول من أئمة المسلمين وخاصتهم تنعش فؤادهم بالإيمان، فيتجه كل واحد منهم إلى الله يسأله أن يريه الحق حقًّا ويرزقه اتباعه، وأن يريه الباطل باطلًا ويرزقه اجتنابه.

إني أسوق هذه الأحداث من التاريخ لتكون رسالة تبعث بها روح الحبيب محمد ﷺ إلى كل مفكر وعالم في جميع العلوم الإنسانية لكي يخف إلى أوراقه، فيسكب عليها ما يشاء أن يسكبه من التحليلات لشخصية أبناء يهود وصفاتهم الملازمة لهم، ثم يتقدمون جميعًا بتحليلاتهم واقتراحاتهم إلى أصحاب المعالي والسيادة من قومهم كي تساعدهم على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب من غير خطأ يُعرِّض أمتهم للضياع، ومن غير زلل يندمون عليه، أو تندم أمتهم عليه حين يشعرون بسوء آثاره.

إننا نسوق هذه الأحداث من التاريخ منطلقين من عصر المبعث لتكون رسالة تبعث بها روح الحبيب محمد ﷺ إلى كل مجادل أو مناقش أو مفاوض، وإلى كل متكلم أو متحدث أو سياسي؛ كي تكون عاصمة لهم تعصمهم من الخطأ في التفكير، ومن الزلل في القول.

إننا نسوق هذه الأحداث من التاريخ تحمل عبق الماضي وآلامه وتشير إلى أصناف من البشر تحدد صفاتهم فترفع بعضهم في نشوة حتى يرى الناس، وتشير إلى بعضهم وهو يتوارى خلف ستار كثيف من مخازيه، قد ضربت على أفراده الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.

إنا نصنع ذلك ليكون رسالة تبعث بها روح النبي ﷺ إلى أفراد وجماعات أمة الإسلام تعينهم على تصور أعدائهم، وتعينهم على أن يربطوا التاريخ بعضه ببعض، وتعينهم على أن يأخذوا العبرة من وقائع التاريخ، فما التاريخ إلا ذاكرة الشعوب وضمير الأمم.

وإني لفاعل ذلك وأنا حريص كل الحرص على أن أترك التاريخ يحدثك بسجله الثبت، وحديثه الصادق، وظلال وقائعه التي لا تخطؤك». [**رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ٧٧-٧٩**].

٢ ـ تحالف الباطل:

يقول د/ حبيشي: «ما كان النبي ﷺ ـ فيما أرى ـ يعلم أن اليهود من بني النضير بخيانتهم ونبذهم للعهد سيحملونه على أمور لم يكن يفكر فيها.

وما كان الله الحَكَم العدل يترك اليهود يعبثون كما يشاؤون بمقادير الناس دون أن يتدخل بأسبابه التي خلقها، وبإرهاصاته التي ينشئها أمام المؤمنين من عباده حتى يستعدوا للدخول في معركة مع اليهود، ينال فيها اليهود جزاء خيانتهم، ويتلقون ما يكافئ نبذهم للعهد، وخلفهم للوعد.

وأنا أرى في بعض آي القرآن الكريم ما ينبه المسلمين بغير تصريح واضح إلى هذه الخلائق من أخلاق اليهود، وإلى هذه الطباع التي جُبلوا عليها.

ولكي نفهم عن الله قوله في هذا الموقف من المواقف التي ستدفع بالمسلمين على غير إرادة منهم ولا من نبيهم، أن يدخلوا في علاقة من نوع جديد مع يهود بني النضير، يجب أن نعلم علم اليقين أن يهود قد راسلوا قريشًا وراسلتهم قريش، وتفاهموا جميعًا في شأن محمد ﷺ والمسلمين معه، فرغبت قريش إلى اليهود أن يخفوا إلى قتال النبي ﷺ والمسلمين معه فيكسروا شوكتهم، ويذهبوا بهيبتهم إلى آخر الدهر، ولهم عند قريش ما يشاؤون، وما يشاؤه اليهود ليس بكثير عليهم تدفعه قريش مهما كان قدره، خصوصًا إذا علمنا أن المدينة على الطريق بين مكة والشام، وتجارة قريش تمر من هذا الطريق وهم على خلاف مع النبي ﷺ خلافًا قد دفع بالطرفين إلى سلسلة من الحروب قد وقع بعضها وخرج منها النبي ﷺ منتصرًا، وتجارة قريش مهددة، يهددها النبي ﷺ والمسلمون معه، فإذا قام اليهود بحماية مصالحهم مقابل جزء يأخذونه من أموالهم، أو مقابل الدخول في حلف معهم يحمونهم من غوائل الدهر، وعاديات الزمان، فإن ذلك ليس بكثير على اليهود أن يأخذوه، المهم رعاية مصالح قريش في المدينة حين تمر تجارتهم بها، وحين تفتح المدينة لهم أبوابها سوقًا كبيرة يبيعون تجارتهم بها.

أما اليهود فمصالحهم عند القرشيين أن قريشًا عرب لهم مكانتهم الدينية والاجتماعية في جزيرة العرب، ولهم كذلك تميزهم الاجتماعي والاقتصادي الذي لم يتوفر لغيرهم، فهم مسموعو الكلمة، وهم قادرون على تحريك الشعوب العربية وتوجيههم إلى حيث يريدون، واليهود أقلية يقيمون وسط بحر من البشر، لهم منهم جيران يشاطرونهم الأرض والوطن، وعلى بُعد قريب أو بعيد من أقوام آخرون يمكن للأوس والخزرج أن يستنفروهم وأن يستعدوهم على اليهود، ومنهم من يخف لنجدتهم، واليهود فوق أنهم أقلية فهم غرباء عن المنطقة أتوا إليها نازحين طامعين في وقت واحد، فاحتلوا الأرض واستعمروها، ومكثوا فيها واستثمروها، وبنوا فيها حصونهم التي تحصنوا بها، وبنوا حولهم الجدر داخل ترسانة حربية إذا لم تكن تقلق جيرانهم الآن فسوف يلتفتون إلى خطرها فيما بعد، واليهود فوق ذلك شتات من البشر، وشراذم من الناس، لا يجمعهم جامع فوق أنهم يهود، ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾[الحشر: ١٤].

ولأسباب الضعف هذه مجمعة أو مفترقة وجد اليهود مصالحهم في أحلاف ومعاهدات، يبرمونها مع أعداء هذا الدين الجديد وتابعيه؛ كي يأمنوا على بقائهم ومصالحهم لا ينال منها نبي هذا الدين الجديد ولا تابعوه.

من أجل هذا كله وجدنا اليهود قد راسلوا قريشًا وغيرهم تطلب منهم النصرة، أو الدخول معهم في عهد وأمان، ووجدنا قريشًا تراسل اليهود تطلب منهم القضاء على محمد ﷺ ودينه وصحبه رعاية لمصالحهم، وحفاظًا على سمعتهم وهيبتهم.

يا الله ما أشبه الليلة بالبارحة!

ويا الله هذه خلائق اليهود والكافرين تجمعها المصالح وتفرقها، فيجتمعون إذا لاحت لهم أسباب المصالح، وينبذ بعضهم إلى بعض العهد على سواء أو على غير سواء إذا أصبحت مصالحهم مختلفة.

ولقد علم النبي ﷺ بهذه المراسلات، كما علم بأن اليهود ومعهم القرشيون قد حاولوا اختراق صفوف الأوس والخزرج من خلال جماعة ضعفت نفوسهم، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم أنفسهم وربهم، فأظهروا الإيمان واستبطنوا الكفر وعُرفوا في التاريخ باسم (المنافقون).

ولقد تجاوب المنافقون بزعامة عبد الله بن أُبي بن سلول في حركة ظن اليهودُ بادي الرأي أنهم قد تم لهم بالفعل اختراق صفوف المسلمين». [**رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ٨٢-٨٤**].

٣ ـ مؤامرة يهودية لاغتيال القادة:

يقول أ/ فتح الباب: «لقد انكشف الغطاء وكادت الصحف التي تضمنت معاهدات الرسول ﷺ مع اليهود أن تتحول إلى ألفاظ جوفاء، فليعرض عليهم آخر عروضه وضعًا للأمور في نصابها، فإذا أبوا فلا يلومون إلا أنفسهم.

وهكذا ذهب النبي ﷺ إلى يهود بني النضير في حيهم على حدود المدينة ليكشف بنفسه عن طويتهم بعد أن تواترت أخبار ائتمارهم به، فأظهروا حسن استعدادهم للتعاون معه، ولكنه ارتاب في سلوك بعضهم، ولا سيما أن أحدهم دخل البيت الذي كان مستندًا إلى جواره، فانسحب من مكانه تاركًا أصحابه الذين ما لبثوا أن عادوا إلى المدينة وأدركوه في المسجد». [**القيم الخلقية لفتح الباب ٢١٧**].

ويقول د/ حبيشي: «ولعل عبارة حيي بن أخطب: «**فَمَا كُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصْنَعُوا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ فَمِنَ الآنَ**» تشعرك بأن يهود بني النضير قد احتالوا لقتل النبي ﷺ والتخلص منه أكثر من مرة، وما واقعة استدراج النبي ﷺ ومعه ثلاثون رجلًا يخرج إليهم ثلاثون من بني النضير، طلبوا إلى النبي ﷺ بعدها أن يُنزل العدد من كلا الطرفين فيكون ثلاثة من كل منهما عنا وعنكم ببعيد.

وليست قصة الثلاثين رجلًا هي الخيانة الوحيدة التي اصطنعها اليهود للتخلص من النبي ﷺ، ولكنهم بعد بدر وانتصار المسلمين فيها لم تنقطع مراسلتهم لقريش، ولا تحريضهم لزعمائهم إلى أن كانت وقعة أُحد، فتقدم يهود بني النضير سرًّا بجميع المعلومات التي تدل على نقاط الضعف في صفوف المسلمين والطرق المؤدية إلى استغلالها، وقدموها إلى أبي سفيان زعيم المشركين يومئذ، فماعت بسببهم معركة أُحد فيما يرى بعض المؤرخين.

ولكن المؤرخين يجمعون ـ استنادًا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وكتب المؤرخين ـ على أن المسلمين خرجوا من غزوة أُحُد فيهم بعض الانكسار حقًّا، لكن القرآن رباهم على كيفية صنع القرار والالتزام به،

وعلى سلوك الجندي داخل المعركة وعلاقته بقائده فيها، الأمر الذي جعل اليهود لا تهدأ ثائرتهم، ولا تنطفئ نيران العداوة والبغضاء في صدورهم، بعد أن رأوا محاولاتهم تفشل الواحدة بعد الأخرى، من أجل هذا كانت عبارة حيي بن أخطب: «**فَمَا كُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصْنَعُوا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ فَمِنَ الآنَ**».

وأما حديث حيي كله فكانت له آثار مختلفة في نفوس القوم، ومنهم غِرِّيُّون وعقلاء.

فمن الغِرِّيِّين الذين لا بصر لهم بالعواقب، رجل يقال له: عمرو بن جَحَّاش ـ بفتح الجيم وتشديد الحاء مع فتحها وآخره شين معجمه ـ وهو النضري، فقام إلى حيي منفعلًا وقال له: أنا صاحب هذا الرجل، وأنا الذي سألقي عليه الرحى.

ومن العقلاء الذين لهم اهتمامات بالأمور وعواقبها، وبقومه ومصالحهم رجل يقال له: **سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ**، حيث قام إلى جمهرة المؤتمرين داخل البيت بهذا الكلام المقنع العاقل الرصين: «**يَا قَوْمِ أَطِيعُونِي هَذِهِ المَرَّةَ، وَخَالِفُونِي الدَّهْرَ، وَاللهِ إِنْ فَعَلْتُمْ لَيُخْبَرَنَّ بِأَنَّا قَدْ غَدَرْنَا بِهِ، وَإِنَّ هَذَا نَقْضُ العَهْدِ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَلا تَفْعَلُوا، أَلا فَوَاللهِ لَوْ فَعَلْتُمْ الَّذِي تُرِيدُونَ لَيَقُومَنَّ بِهَذَا الدِّينِ مِنْهُمْ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ يَسْتَأْصِلُ اليَهُودَ وَيُظْهِرُ دِينَهُ**». [المغازي للواقدي١/ ٣٦٥].

وضاعت أصوات الحمائم وأوشكت أصوات الصقور أو الغربان أن تنتصر.

لم ينصت القوم في جملتهم إلى سلام بن مشكم، وإنما أنصتوا إلى حيي بن أخطب، وانتقل الجميع من النقاش والحوار إلى محاولة التنفيذ.

وتحمس عمرو بن جحاش النضري إلى تنفيذ الخيانة وحده، فقام إلى صخرة يدحرجها ويدفعها أمامه فوق سطح المنزل الذي يسند النبي ﷺ وصحبه ظهورهم إلى حائطه، وبينما عمرو يدحرج الحجر وما أن وصل به إلى ظهورهم الذي يعلو النبي ﷺ، حتى وجد النبي ﷺ يشتد في المشي، ويجد في السير وقد غادر المكان بسبب غير مفهوم أو معلوم لا للذين يجالسونه من نحو أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، ولا إلى ابن جحاش النضري.

فأصحاب النبي ﷺ يرون أن هذه الهيأة في المشي وهذا الانصراف بغير استئذان من النبي ﷺ، ليس له عندهم إلا تفسير واحد هو أن النبي ﷺ قد ألجأته الحاجة إلى ذلك فقام إلى قضاء حاجته.

وأما ابن جحاش النضري فقد وقف يعض على أنامله من الغيظ أن قام النبي ﷺ قبل أن يدركه، ولكنه هون الأمر عليه أنه رأى أصحاب النبي ﷺ جالسين لم يصحب النبي ﷺ في انصرافه منهم أحد، وهو أمر يوحي بأن النبي ﷺ عائد لا محالة.

وطال انتظار ابن جحاش، وطالت غيبة النبي ﷺ، فنزل يسأل حيي بن أخطب: أين ذهب النبي ﷺ؟

وطال انتظار المسلمين لرسول الله ﷺ وأخذوا يتساءلون عن النبي ﷺ: أين ذهب، ولماذا تأخر؟

وبينما هم يقلِّبون الأمر إذا بحيي يخرج إليهم تأخذه اعتمالات النفس وتنوع مشاعره واختلاط أفكاره يسأل في دهشة: أين ذهب أبو القاسم، هل انصرف لأنه قد استشعر أنا قد أبطأنا عليه؟! إن كان الأمر كذلك فهو غير محق في استشعاره مثل هذا البطء منا، فهو ليس ضيفًا عاديًّا، وهو ليس رجلًا كسائر الرجال، إنا قد أبطأنا لأنا نعد له ضيافته، ونصلح من شأننا حتى نلبي له طلبه.

إنا قد حملتنا الرغبة على أن نبالغ في ضيافته بما يناسب مكانته، وأن نقدم له من القِرى ما يليق به وبالوفد المرافق له، هذا وإنا مع ذلك لعلى حرص شديد أن نلبي له طلبه الذي جاء من أجله، وهو أن ندفع له من المال ما يستعين به على دفع دية الكلابيين من بني عامر ريثما نتصل بهم نهدئ من ثورتهم إن كانوا ثائرين لما بيننا وبينهم من العهد.

وما أن انتهى حيي من حديثه إلى المسلمين حتى قال الصدِّيق أبو بكر ﵁: إنَّ تأخر النبي ﷺ عنا في ذلك الوقت وانصرافه عنا بغير استئذان، أمور ليست له بعادة وما هي له بخلق، وأرى أن انصراف النبي ﷺ وتأخره لم يكن إلا لأمر قد حدث، فهيا بنا ننصرف.

وعاد حيي إلى الدار كاسف البال قليل الرجاء، يضرب كفًّا على أخرى تحسرًا على ما فاته من أمر النبي ﷺ وخيانته.

والجالسون يرون في عين حيي تلك الحسرة، ويلمحون تلك الحيرة، وحال حيي ينطق بما في نفسه: إن هذه هي المرة الثالثة نُحْكِم الأمر في كل مرة ويصبح الهدف قريبًا منا ثم يفلت من أيدينا، دبرنا له يوم الثلاثين وعدلنا في الخطة كي لا ينفلت منها وانفلت.

ودبرنا له يوم أُحد وأطلعنا أعداءه على عوراته وأسباب الضعف عنده، وهيجناهم ضده بما يكفي حتى أصبح الهدف بين أيدينا وضاع الهدف منا.

وقلنا في هذا اليوم، إن الرجل عندنا، والفرصة مواتية، وليس هناك من عقل يقدر أن يحكم بإمكان انفلات الفرصة من أيدينا وقد أصبح الهدف قريب المنال، واشتد قربه منا اشتدادًا عظيمًا، وفجأة ضاع الهدف من أيدينا.

أي شيطان أحمق ذلك الذي يخطط لنا معشر يهود؟! وأي حظ وافر هو ذلك الحظ الذي يحيط بمحمد؟! هذا هو حديث النفس الذي دخل به حيي الدار على قومه يقرأه الناس في وجهه، ويلمحون آثاره عليه وهو يضرب كفًّا على كف مرة، ويعض على أنامله من الغيظ مرة أخرى.



ولقد خف إليه عمرو بن جحاش النضري وهو يقول: أين محمد أيها الحاخام الأكبر، أقد عاد؟ أتأمرني أن أذهب الآن إلى سقف البيت أطرح عليه فلقة الرحى لنتخلص منه ومما جاء به؟ فرفع حيي بصره ثم قال: انتظر أيها المأفون الأحمق لا تعجل إنه عائد، وإنا سنبلغ منه ما نريد.

وما كان لصمت حاخامات اليهود أن يطول حيث مزق الصمت أحدُ عقلائهم، أو قل أحد حمائمهم وهو: كنانة بن صويراء فقال موجهًا حديثه لجمع أصحابه ما مر ذكره.

وحديث كنانة على هذا النحو إن كان قد بلغ من القوم مبلغًا يحملهم على الموافقة، أو يحملهم على الرضا ببعض ما يقول، فإن حديثه نفسه قد شجَّع سلام بن مشكم على أن يستأنف حديثه ينصح لقومه، وإن كان قبل قد عزف عن النصح لهم، بعد أن رآهم لا يلتفتون إلى نصحه، لقد شجع كلام كنانة سلام على أن يتحدث من جديد، فقال لقومه كلامًا يطابق من بعض وجوهه ما قاله كنانة، ختمه بشيء من التأنيب لحيي، ونصحه على أن لا يعود للمجازفة من جديد.

والذي يظهر لي من تقليبي للنصوص والنظر فيها أن حيي بن أخطب ظل على أمله هو وتابعوه في أن يعود النبي ﷺ وأنهم سيتمكنون من قتله، وأن أحاديث كنانة وسلام وأمثالهما إنما هي من باب الاحتمالات العقلية، أو هي من باب الشطط في التفكير الذي يصدمه الواقع، ويكذبه الحال.

ظل حيي وأصحابه على هذا الأمل يسكرون بنشوته، ويتعلقون بأذياله».

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ٩٢-٩٧].

٤ ـ اليهود بين الأمس واليوم:

يقول أ/ دروزة: «لقد ابتُلي العرب والمسلمون في هذا العصر باليهود في بلادهم، ومع أن المسلمين فتحوا معهم صفحة جديدة بعد النبي ﷺ، فعاملوهم في ظل السلطان الذي مارسوه أمدًا طويلًا في مشارق الأرض ومغاربها أحسن معاملة، وآووهم وحموهم ومنحوهم الحرية في دينهم ومعابدهم وتجارتهم ومعايشهم شأن ما كان من النبي ﷺ نحو يهود الحجاز في حين أنهم أوذوا أشد الأذى وحرموا أشد الحرمان وسيموا أشد الخسف في البلاد الأخرى، فقد قابلوا العرب والمسلمين بالكفر والجحود والشر والمكر والكيد والبغي والعدوان كما فعل يهود الحجاز من قبل استمرارًا في الجبلة الخلقية الفاسدة التي جُبلوا عليها، والنحيزة الشريرة الآثمة التي توارثوها وتشربوها، وطمعوا في السيطرة على فلسطين أولًا، فتكًا وتشريدًا وتدميرًا وانتهاك حرمات ومقدسات وتغيير معالم، دون أن يرعوا ذمة ولا أخلاقًا ولا إنسانية ولا قانونًا، ثم أخذوا يفعلون مثل ذلك في البلاد المجاورة لفلسطين مما هو ماثل للعيان، وتقشعر لهوله الأبدان متضامنين متواثقين في ذلك مع الدول الاستعمارية الطامعة

في ثروات البلاد العربية والهيمنة عليها والهادفة إلى إبقائها من أجل ذلك ضعيفة واهنة، والتي صارت الولايات المتحدة الأمريكية على رأسها، وصاروا نتيجة لذلك الهم المقيم المقعد للعرب والمسلمين بحيث لا يكون لهم أمان ولا استقرار ولا طمأنينة، ولا ازدهار ولا وحدة ما دامت جرثومة الشر المسماة (إسرائيل) قائمة في سرة بلادهم وعلى الأرض المقدسة من أوطانهم، فصار من أوجب الواجبات الدينية والقومية عليهم أن يقتدوا برسول الله ﷺ الذي جعل فيهم لهم الأسوة الحسنة، وأن يستعدوا ويتضامنوا، ويجاهدوا جهادًا لا هوادة فيه حتى يجتثوا تلك الجرثومة الخبيثة ويطهروا فلسطين وبلاد العرب من رجسها وشرها كما فعل رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم.

ويهتف رجال الدولة المجرمة بالسلام، ويظن بعض المسلمين خداعًا أو ضلالًا أن الاستجابة لهتافهم واجب عملًا بقول القرآن الكريم: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال]، وهذا خطأ بل إثم ديني وسياسي عظيم؛ لأن حالة الحرب بينهم وبين العرب ليست كما هي بين دولة ودولة وبلاد وبلاد لأسبابٍ ما يصح أن تزول بمعاهدة صلح، فإن أربعة أخماس الأراضي والمدن والقرى والمنازل والحوانيت والبساتين والحقول والكروم التي قامت عليها دولتهم المجرمة في سنة ١٩٤٨م هي ملك للعرب، استولوا عليها عنوة بالحديد والنار وطردوا منها أهلها بعد أن قتلوا الآلاف ومثلوا بالمئات من رجال ونساء وأطفال، والمطرودون منها ذلك الوقت يعيشون خارج وطنهم في شتات وحرمان وعوز ومخيمات، ويبلغ عددهم الآن نحو مليونين بينما المجرمون المغتصبون يتمتعون بكل ما تركوا من المزارع ووطنوا محلهم مئات الآلاف الذين جمعوهم من كل أنحاء الدنيا.

والسلم الذي يهتفون به يريدون به أن ينسى العرب كل ذلك ويقبلوا ببقاء كل الأراضي والمدن والقرى والمزارع والبساتين والمنازل والحوانيت في أيديهم، وببقاء أصحابها مشردين خارج وطنهم يعيشون حياة البؤس والحرمان والمخيمات والشتات، ثم أن يعقدوا صلحًا مع الدول العربية على أساس ذلك يمكنهم بالإضافة إلى ما استولوا عليه وغصبوه من فلسطين من الرتع في البلاد العربية الأخرى سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا وفسادًا وتجسسًا.

وحقوق أهل فلسطين في تقرير مصيرهم وإنشاء دولة مستقلة لهم في وطنهم وعودة المشردين إلى منازلهم وممتلكاتهم مقرر في عشرات القرارات الصادرة من هيئة الأمم المتحدة فضلًا عن كونها حقوقًا طبيعية، والمجرمون يرفضون التسليم بذلك منذ قيام دولتهم إلى الآن ويقابلون كل مسعى بالعنف والنار والتعطيل والاستهتار، وليس من سبيل إلا بمجاهدتهم باستمرار حتى يسترد المغصوب وتتطهر الأرض المقدسة من رجسهم أسوة بما فعله رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم.

والعرب من ورائهم المسلمون بل مئات الملايين من الدول الأخرى قادرون على ذلك إذا صدقوا في الجهاد والاستعداد له، وقد وعد الله بنصر من ينصره وهو القوي العزيز الذي لا يخلف الميعاد».

[معركة النبوة مع أهل الكتاب - أ/ محمد عزة دروزة، ضمن البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية (الدوحة ١٤٠٠هـ) ٦/ ٥٤٦ - ٥٤٩ - عني بطبعه ومراجعته أ/ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري - المكتبة العصرية - بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م].

٥ - شهادات غربية على غدر اليهود:

يقول د/ بركات أحمد: «في ٧ شوال سنة ٣ من الهجرة ٢٢مارس سنة ٦٢٥م وقعت غزوة أُحُد التي كانت غزوة غير حاسمة، وخسر الرسول ﷺ المعركة وقُتل سبعون مسلمًا مقابل اثنين وعشرين من قريش، وعلى الرغم من أن المكيين لم يستغلوا هزيمة المسلمين استغلالًا كاملًا إلا أن هيبة المسلمين هوت بهذه الهزيمة إلى أدنى مستوياتها.

وبعد غزوة أُحد بقليل قُتل في بئر معونة أربعون إلى سبعين مسلمًا، ولم ينج من المذبحة غير مسلم واحد هو عمرو بن أمية الضمري ﷺ، وقد التقى عمرو في طريق عودته برجلين من بني عامر ولم يكن لهم دور مباشر في المذبحة، فقَتَلهما وهما نائمان ثأرًا لأصحابه، ولما كان الرسول ﷺ وقبيلة بني النضير اليهودية مُلزمين بناء على العهد المبرم مع بني عامر بدفع الدية، ذهب رسول الله ﷺ بصحبة عدد من كبار أصحابه إلى مجلس النضير يستعينهم في دفع الدية، ووافق المجلس على الإسهام في دفعها، وطلب من الرسول ﷺ وأصحابه الانتظار، وحين كان الرسول ﷺ قاعدًا جنب الدار لاحظ تحركات أرابته، فإنه لم يحدث له قط أن كان قريبًا إلى هذا الحد من اليهود، وها هو الآن في حيهم وكان قتل عصماء بنت مروان، وأبي عفك، وكعب بن الأشراف بيد المسلمين في ظروف متشابهة ما يزال عالقًا بالأذهان، وغادر الرسول ﷺ المكان بهدوء وتبعه أصحابه، وأكدت الأنباء بعد ذلك أسوأ مخاوف الرسول ﷺ، فقد كان اليهود قد دبروا مؤامرة لاغتياله، وكان قد سبق لرسول الله ﷺ أن علم باتصال بني النضير بقريش في مكة.

وقد حققت (نابييه أبوت) في بحث بعنوان (دراسات للأدب العربي في أوراق البردي) (١) فقرة ورد فيها بيان الأسباب التي أفضت إلى غزوة الرسول ﷺ لبنى النضير، وأعاد (كستر) بحث هذه الفقرة وأثبت بعد تحليل مستفيض أن مؤلفها هو ابن لهيعة الذي عاش في مصر وتولى القضاء من سنة ١٥٥/ ٧٧١ إلى سنة ١٦٤/ ٧٨٠، ومؤدَّى الفقرة أن بني النضير بعثت سرًّا إلى قريش حين

---

(١) Document 5, «Campaigns of Muhammad» p.67 (Chicago,1957). (شيكاغوا، ١٩٥٧) الوثيقة ٥، غزوات محمد ﷺ» ص ٦٧.

نزلت بأُحُد لقتال محمد ﷺ تحضها على قتال المسلمين وتدلها على مواطن ضعفهم (١).

وهذه الرواية التي تأتي من مصدر يكاد يكون معاصرًا لابن إسحاق تُلقي مزيدًا من الضوء على الدور الذي لعبه بنو النضير. [ابن هشام ص ٥٤٣، وللزرقاني رواية مماثلة عن موسى بن عقبة في شرح المواهب اللدنية ـ القاهرة ١٣٢٥هـ الجزء الثاني ص٨١، على أن النص الوارد في ورق البردي يماثل الحديث الذي رواه عروة بن الزبير في دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني (حيدر آباد ١٣٢٠) ص١٧٦].

وفى مناسبة سابقة كان سلَّام بن مشكم سيد بني النضير بعد نحو ثلاثة أشهر من غزوة بدر قد زود أبا سفيان بن حرب ومائتي راكب مكي بالطعام والميرة، كما زود أبا سفيان بمعلومات سرية عن المسلمين [ابن هشام ص ٥٤٣]، وقد أُطلق على هذه المحاولة المكية الفاشلة للهجوم على المدينة كما يقول أبو الفرج اسم غزوة السويق نسبة إلى الخمر التي قدمها سلام بن مشكم للمكيين بهذه المناسبة [الأغاني، الجزء السادس، ٣٣٦]، والسويق شراب يُصنع من القمح والشعير، وقال أبو سفيان في مدح سلام على كرمه بهذه المناسبة شعرًا [كما سبق بيانه].

ويقول (رودنسون) بصدد المؤامرة التي حاكها بنو النضير أن هذا في مجموعه ليس افتراضًا خاطئًا، وهو افتراض كان من المنتظر أن يتوقعه أي شخص أوتي أدنى حظ من الفراسة السياسية، ولو كان أقل ذكاء من محمد (٢).

لقد فقد المسلمون خلال أربعة أشهر أكثر من مائة رجل في أُحُد وفى بئر معونة، وكانوا بحاجة إلى السلم في الداخل، وكان يهمهم أن يأمنوا جانب جيرانهم في المدينة واتصل الرسول ﷺ ببني قريظة وبني النضير في شأن تجديد الاتفاق الذي كان بينه وبينهم، وجدد بنو قريظة الاتفاق أما بنو النضير فقد رفضوه [أبو داود، الجزء الثالث، ص ١١٦ ـ ١١٧]، ولم يكن المسلمون في مركز قوة ولكنهم قرروا استخدام الحزم في أخذ القرار، وأرسل الرسول ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ وهو أنصاري من قبيلة متحالفة مع بني النضير ليوجه إليهم إنذارًا، وحدد لهم عشرة أيام لمغادرة المدينة. [ابن سعد، الجزء الثاني، ص٥٧].

وهَمَّ بنو النضير بقبول الإنذار إلا أن عبد الله بن أُبي، ووديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس أشاروا عليهم بالمقاومة [ابن هشام، ص ٦٥٣]، وكانوا يتوقعون أن يخف لنجدتهم ابن أُبي

---

(١) **M.J.Kister, «Notes on the Papyrus Text About Muhammad's Cambaign Against thl B.alNadir «,Archiv Orientalni, 32, 1964, p.234**. »م.ج. كستر»، «مذكرات عن نص البردي المتعلق بغزوة محمد ﷺ لبني النضير»، ٣٢، ١٩٦٤، ص ٢٣٤.

(٢) **Maxime Rodinson, Muhammad,tr.Anne Carter(New York,1971)p.191-192** مكسيم رودنسون «محمد ﷺ» ترجمة آن كارتر (نيويورك، ١٩٧١م)، ص ١٩١ ـ ١٩٢.

فضلًا عن بني قريظة وبني غطفان [ابن سعد، الجزء الثاني، ص٥٧]، وتحصن بنو النضير في حصونهم وأوصدوا عليهم أبوابها وانتظروا وصول المعونة.

وتكررت معهم قصة بني قينقاع، وذهب الرسول ﷺ وجلس مع أصحابه حتى استسلموا، ولم يتحرك أحد للأخذ بناصية بني النضير، وقد ورد في سورة الحشر التي نزلت في هذه المناسبة ذِكر لهذه الواقعة. [ابن هشام، ص ٦٥٤، الطبري: جامع البيان (القاهرة ١٩٥٤) الجزء الثامن والعشرون، ص ٢٧-٤٠، الزمخشري، الكشاف، الجزء الرابع ص ٧٩ ـ ٨٢ البيضاوي، الجزء الثاني ص ٣٣٢ -٣٣٣].

وجاء في القرآن الكريم بشأن ما صدر لبني النضير من وعود بتقديم العون: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾[الحشر: ١١].

واستمر الحصار أسبوعين ثم استسلم بنو النضير، وقد أُمروا بالجلاء ولكن سُمح لهم بأخذ ما حملت الإبل من أموالهم ما عدا السلاح (فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به ستمائة من الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف (العتبة التي بأعلى الباب) بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به)، وكان الخشب متاعًا ثمينًا، فقد كانوا بحاجة إليه لبناء بيوتهم في مقرهم الجديد.

إن عددًا كبيرًا من العوامل قد تحالف، فيما يبدو، في السنة الثانية من الهجرة، على خلق ظروف لا يُستبعد أن تكون قد جعلت من بني قينقاع ضحية لمؤامرة لم تدر لهم بخلد من جانب المنافقين، ولكن مثل هذا العذر لا يمكن أن يتلمس لبني النضير، لقد كان بنو قينقاع في الظاهر هم الذين أثاروا الخصومة مع الرسول ﷺ في وقت كان بوسع المسلمين فيه أن يتصدوا لهم من موقف قوة وأن يعاملوهم بالتالي بكرم وسماحة، أما بنو النضير فقد اتخذوا موقفًا عدائيًّا من المسلمين في وقت كان الرسول ﷺ وأصحابه غارقين فيه في مياه عميقة؛ ولذلك فإن معاملتهم بالرفق الذي عومل به بنو قينقاع كان من الممكن أن تؤول على أنها دليل على الضعف وأن تنال كثيرًا من هيبة المسلمين».

[محمد ﷺ واليهود لبركات أحمد ١١٦-١١٩].

٦ ـ الرسول ﷺ يخشى غدر اليهود ويختبرهم ليكشف نواياهم:

يقول أ/ دويدار: «كانت غزوة بني النضير أثرًا من آثار غزوة أُحُد؛ لأنها وقعت في تلك الفترة العصيبة التي جاءت في أعقابها، والتي كان المسلمون فيها لا يزالون يعانون من آثار الهزيمة في تلك الغزوة، كانوا لا يزالون في شعث من أمرهم، وكان كل ما يحيط بهم ثائرًا عليهم، فاليهود والمنافقون الذين يساكنونهم في المدينة، والأعراب الذين يجاورونهم في البادية، والمشركون الذين يناوؤونهم في مكة، كل أولئك كانوا

يشتركون في شعور واحد، هو شعور البغض والعداوة للمسلمين، ويتعاونون على فكرة واحدة هي الخلاص من محمد ﷺ وصحبه، ويرمون إلى هدف واحد هو القضاء على الإسلام ودعوته.

وفي مثل هذه الظروف يكون العدو القريب أشد خطرًا من العدو البعيد، ويكون الخطر الداخلي أبعد أثرًا من الخطر الخارجي، ويكون الجو مهيأ كل التهيؤ للكيد والدسيسة، وكشف العورات وانتهاز الفرص.

وقد كان اليهود والمنافقون هم العدو القريب من غير شك، وكانت مظاهر العداوة تنضح بها نفوسهم وتنطق بها ألسنتهم، ولم يكن من المستحيل عليهم أن ينتهزوا أي فرصة ليطعنوا المسلمين من ورائهم، فقد كان المسلمون في هذه الفترة الحرجة يتوقعون الغدرة من كل عدو، ويترقبون الطعنة من كل جانب، ولا سيما بعد أن ظهرت بوادر الغدر في واقعتي **الرجيع وبئر معونة**، وذهب ضحية الغدر فيهما هذا العدد الجم من الأصحاب والقراء.

لم يكن النبي ﷺ إذن بحيث يأمن غدرة اليهود والمنافقين في المدينة، ولم يكن بحيث يطمئن إلى وفائهم وإخلاصهم.

أما المنافقون فقد استتروا بستار الإسلام، فلم يكن للنبي ﷺ ولا للمسلمين أن يكشفوا ستر الإسلام عنهم، وأما اليهود فقد كانوا على عهد مع النبي ﷺ أن يتركوه ودينه ويتركهم ودينهم، وألا يمالؤوا عليه عدوًّا ولا يظاهروا عليه أحدًا، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يؤمَنون، فقد بدت مظاهر الغدر منهم في كثير من الحالات، وكاشف فريق منهم بالعداوة فأجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، وسعى أفراد منهم بالغدر فأوقع المسلمون بهم.

وقد كان ذلك والمسلمون في فورة النصر بعد غزوة بدر، فكيف والمسلمون في زعزعة الهزيمة بعد أُحُد؟ أليس الغدر في مثل هذه الحال أقرب ما يكون احتمالًا وأكثر ما يكون توقعًا؟ لم يكن ذلك أمرًا بعيد الوقوع من اليهود، لا سيما وهم على ترة من النبي ﷺ وأصحابه، بعد أن أخرجوا إخوانهم بني قينقاع، وبعد أن قتلوا زعيمهم وشاعرهم كعب بن الأشرف.

والقرآن الكريم يحذر منهم: وقد كشف الله للمؤمنين عن سرائر اليهود في هذه الفترة، وحذرهم أن يثقوا بهم أو يطمئنوا إليهم، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ

﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾[آل عمران]، فكان المؤمنون أجدرَ أن يحذروهم في هذه الآونة، وكان لابد أن ينتهز الرسول ﷺ فرصة ما ليختبرهم ويكشف عن نواياهم في هذا الظرف العصيب، فانتهز فرصة القتيلين اللذين أصابهما عمرو بن أمية ﷺ من بني عامر، فذهب إلى بني النضير ليستعين بهم في دِيَة هذين القتيلين، وكان بنو عامر حلفاء بني النضير.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِك القَتِيلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ اللَّذَيْنِ قَتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، لِلجِوَارِ الَّذِي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ عَقَدَ لَهُمَا، كَمَا حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ، وَكَانَ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَيْنَ بَنِي عَامِرٍ عَقْدٌ وَحِلفٌ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ القَتِيلَيْنِ قَالُوا: «**نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ نُعِينُكَ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ، مِمَّا اسْتَعَنْتَ بِنَا عَلَيْهِ**»، ثُمَّ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: «**إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ ـ وَرَسُولُ الله ﷺ إِلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ قَاعِدٌ ـ فَمَنْ رَجُلٌ يَعْلُو عَلَى هَذَا البَيْتِ فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحُنَا مِنْهُ؟**»، فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشِ بْنِ كَعْبٍ ـ أَحَدُهُمْ ـ فَقَالَ: «**أَنَا لِذَلِكَ**»، فَصَعِدَ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ صَخْرَةً كَمَا قَالَ، وَرَسُولُ الله ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ، رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ.

فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ الخَبَرُ مِنْ السَّمَاءِ بِمَا أَرَادَ القَوْمُ، فَقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى المدِينَةِ، فَلَمَّا اسْتَلبَثَ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابُهُ قَامُوا فِي طَلَبِهِ، فَلَقُوا رَجُلًا مُقْبِلًا مِنْ المدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ: «رَأَيْتُهُ دَاخِلًا المدِينَةَ»، فَأَقْبَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُمْ الخَبَرَ، بِمَا كَانَتْ اليَهُودُ أَرَادَتْ مِنْ الغَدْرِ بِهِ، وَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالتَّهَيُّؤِ لِحَرْبِهِمْ وَالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ. [**السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٩٠-١٩١**].

هكذا يقول ابن إسحاق، وبمثله أو قريب منه يقول غيره من كتاب السيرة النبوية، فالكل مجمعون على أن بني النضير هموا باغتيال النبي ﷺ في هذه الفرصة، فعلم النبي ﷺ بما دبروا له من الغدر، ففوت عليهم غرضهم، ثم أنذرهم بأن يخرجوا من البلد الذي يساكنونه فيه فأبوا، فأعلن الحرب عليهم، وحاصرهم في مساكنهم حتى أجلاهم عن المدينة. [**صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٣٨٧-٣٨٩**].

٧ ـ إرهاص يحتاج إلى تأمل:

يقول د/ حبيشي: «القرآن الكريم يواكب هذه الأحداث جميعها، فيقدم بين يديها إرهاصًا للمسلمين ونبيهم مقرونًا بالتوجيه المناسب لمثلها، أو راصدًا لها، ومخبرًا بها بعد وقوعها لتكون رسالة أو جزء رسالة يرسل بها النبي ﷺ الموحى إليه لأتباعه من الأجيال القادمة الذين ستكون لهم علاقات مع اليهود وخياناتهم عبر التاريخ.

وسواء قلنا إن القرآن يرصد واقعة بني النضير، أو يضع بين يديها إرهاصًا، فإنك تستطيع أن تقرأ هذه الآيات من سورة الأنفال، ثم تقرأ بعدها سورة الحشر بتمامها التي كان يحلو لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن يسميها بسورة بني النضير.

أما آيات سورة الأنفال فهي أقرب عندي إلى أن تكون إرهاصًا بين يدي الأحداث، وهي تذكر أصنافًا لا تسميهم وإنما تصفهم، وتوجه المسلمين من حين إلى آخر إلى ما ينبغي عليهم أن يفعلوه، كما توجه نبيهم وقدوتهم إلى أن ينفض عنه مشاعر الخوف من كل خيانة رخيصة، وينهض إن خاف من قوم خيانة بينه وبينهم عهد إلى إن يتحلل من عهودهم حين يعلم الخيانة منهم، ولا يبادلهم خيانة بخيانة، وإنما إذا وجدهم ينقضون العهد أعلن لهم أنه هو الآخر قد تحلل من معاهدات السلام ما داموا لم يلتزموا بها، ويعود الطرفان على سواء في نسبتهم إلى معاهدات السلام، كأنه يقول لهم: ما دمتم قد نقضتم العهد بالخيانة، وأعلنتم الحرب علينا فإننا ننبذ إليكم العهد لنكون جميعًا على سواء: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[الأنفال].

أما الآيات بتمامها التي ترهص إلى خيانة قادمة وشيكة، وهي التي أنقلها الآن بين يديك: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الأنفال].

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ٨٤-٨٥].

٨ ـ نقض المعاهدة مع الأعداء إذا أخلُّوا بشروطها:

يقول د/ حبيشي: «أقبل المسلمون الذين تركهم النبي ﷺ في المدينة ووقفوا من النبي ﷺ على حقيقة الأمر، وهو أن اليهود من بني النضير قد نقضوا العهد، وخرجوا من السلم إلى الحرب على طريقتهم التي أملاها الشيطان عليهم، ووسوس إليهم بها، وهي طريقة الخيانة.

والسؤال الآن الذي يبدو في أعين المسلمين وعلى وجوههم، ولا يجاهرون النبي ﷺ به هو: إذا كان اليهود قد خرجوا بالخيانة من معاهدة السلام، فما الذي يمكن أن يفعله النبي ﷺ ليكافئ به هذا الخروج؟

أما النبي ﷺ فقد كان عنده الجواب وحيًا أُوحي إليه من ربه، ذلك أنه لما توجس من اليهود خيفة أن يخونوه في وطنه وفي أصحابه، وأن يتعاهدوا مع أعدائه عليه، أنزل الله ﷻ عليه النص الذي يشبه

أن يكون قاعدة عامة في كل موقف مشابه، وهو قول الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال].

وعلم النبي ﷺ أن هذه الآية التي تمثل القاعدة العامة، تنطبق أول ما تنطبق على اليهود بجميع طوائفهم، إذ الخيانة متوقعة منهم كلما لاح الظرف الذي يمكنهم من الخيانة ويتيح لهم أسبابها.

وأنت خبير معي أن النبي ﷺ بمقتضى أخلاقه أولًا، وبمقتضى هذا النص التكليفي ثانيًا، لا يجوز له أن يقابل خيانة بخيانة، وإنما الشيء الوحيد المتاح له هو أن أعداءه إذا خرجوا من معاهدة السلام بالخيانة، فعليه أن يتخلص من قيودها بالإعلان الظاهر، والإخطار المعلن.

ألا فلينبذ النبي ﷺ إلى بني النضير بعهدهم، ويلقي إليهم بقيوده ردًّا على ما نبذوه إليه منها بالخيانة.

هذا هو الموقف الوحيد المتاح للنبي ﷺ أن يباشره، والنبي ﷺ لا يعرف جوابًا لهذا السؤال الذي قرأه في أعين أصحابه وعلى وجوههم، إلا أن ينبذ إلى بني النضير على سواء.

ولم يشأ النبي ﷺ أن يلقي بأصحابه في متاهات من الحيرة، وهم يحاولون أن يجيبوا على هذا السؤال الذي حيرهم لكثرة دورانه في أفئدتهم، واعتماله في صدورهم.

لم يشأ النبي ﷺ أن يتركهم على هذا الحال طويلًا، فأرسل إلى محمد بن مسلمة ﷺ أن يأتيه ولا يبطئ، فأتى محمد بن مسلمة ﷺ ووقف بين يدي النبي ﷺ وقفة المنصت يسمع أمره، والنشط الذي لا يحب أن يتلكأ في تنفيذ أمره.

أما النبي ﷺ فقد ألقى إليه بأمره: أن اذهب إلى يهود بني النضير فقل لهم: **إن رسول الله ﷺ، أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلدي.**

وحمل محمد بن مسلمة ﷺ رسالة النبي ﷺ إلى اليهود من بني النضير، لم يخيرهم فيها بين شيئين أو أشياء، وإنما طلب حقه المشروع وهو أن القائم في أرض قوم يتعايش منها، ويجاورهم فيها، إذا لم يلزم نفسه بالانتماء إلى هذه الأرض والدفاع عنها بالاشتراك مع أصحابها والتعايش سلمًا مع أصحاب الأرض الأصليين، فلا أقل من أن يخرج من هذه الأرض ويتركها لأصحابها، دون أن يكون هناك من ملام على أصحاب الأرض الأصليين، إن هم قد طلبوا من الذين أقاموا معهم في أرضهم بغير سند شرعي أن يخرجوا منها.

فإن هم تلكأوا ورفضوا أن يخرجوا، وأعلنوا الحرب على أصحاب الأرض الأصليين، فليس على أصحاب هذه الأرض من لوم، إن هم اصطنعوا الوسيلة التي يرونها مناسبة لإجلاء الغريب المخادع، الذي تحول إلى عدو خائن عن أرضهم لتستريح منه البلاد والعباد». [رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ٩٨-١٠٠].

ويقول د/ الوكيل: «وحين تيقن رسول الله ﷺ من غدر ونقض اليهود للعهود استجاب ﷺ لأمر ربه ﷻ في قوله ﷻ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال].

كان رسول الله ﷺ يستطيع ـ بعد أن تيقن من خيانتهم ـ أن يباغتهم في ديارهم ويقضي عليهم، ولكنه أرسل إليهم محمد بن مَسْلَمَةَ الأوسي رضي الله عنه برسالة صريحة: **أن اذهب إلى يهود بني النضير فقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلدي.**

لقد كان في هذا الإنذار كما نرى حزمًا لا يقبل التردد، وتوضيحًا للأمر الذي استحقوا به ذلك الموقف وحدد لهم فيه أجلًا لمغادرة البلاد، فالمسألة لا تقبل التفاوض، وليس لها حل سوى إجلائهم من بلاد خانوا أهلها، ودبروا المؤامرات لأصحابها، وهذا الإنذار يحمل في طياته مبدأ إسلاميًّا من مبادئ الحرب، وهو الذي بينته الآية الكريمة السابقة.

لقد كان باستطاعة الرسول ﷺ أن يبيتهم وهم آمنون، أو يبغتهم وهم غارون (غافلون)، ولاسيما وهم الذين نقضوا العهد، وغدروا برسول الله ﷺ، ولكن الإسلام هو الإسلام في ساعة الرضا والغضب، ومع العدو والصديق، ومبادئه هي مبادئه لا يجوز مخالفتها مهما كانت الظروف والأسباب».

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٤].

٩ ـ الصرامة مع الأعداء:

يقول د/ أبو خليل: «لقد طرح الإسلام في لحظاته الأولى في المدينة مبدأ عامًّا ثابتًا على مر الزمن، ألا وهو الموآخاة والتسامح والعيش معًا مع الأديان الأخرى، مع الاحترام الكامل لعقائدها، ولم يجعل ذلك شعارًا مرفوعًا، بل منهجًا أثبتته الوقائع والأعمال.

الإسلام معتقد قوي ومتسامح معًا، ولكنه ما جعل التسامح موقفًا مهتزًّا يتلقى بسببه الضربات والمؤامرات من قريش واليهود، بل جعل للتسامح قوة تحميه، وهذا ما صنعه ﷺ مع قتلة الأنبياء؟! (ورد أن اليهود قتلوا أكثر من سبعين نبيًّا، ومن جملة من قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام، قال ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء])». **[غزوة الخندق لأبي خليل ٣٤-٣٥].**

ويقول د/ أبو فارس: «إن الباحث في السيرة النبوية وأحداثها، وفي علاقة الرسول ﷺ باليهود بشكل عام، وفي غزوة بني النضير بشكل خاص يخلص إلى أن الرسول ﷺ قد سلك طريقًا واحدًا في معاملة اليهود والخونة القادرين، لقد كان ﷺ صارمًا معهم، يحاصرهم ويضيِّق عليهم ويُلقي الرعب في قلوبهم، ومن ثم يستسلمون ملقين سلاحهم طالبين النجاة، تاركين ديارهم وأموالهم غنيمة للمسلمين.

إن التجارب الوفيرة، والشواهد الكثيرة تؤكد أن ملاينة اليهود لا تجدي فتيلًا، وهي مضيعة للجهد، وهدر للوقت.

وإذا كان لنا أن نستنبط من هذا درسًا يستفيد منه المسلمون اليوم في واقع حياتهم، وفي علاقتهم مع أعدائهم وفي مقدمتهم اليهود الحاقدون الغادرون، المحتلون لأرضنا، المدنِّسون لمقدساتنا، فهذا الدرس هو اتباع النبي ﷺ واتباع سنته في علاجه ليهود النضير وغيرهم، إنه أسلوب القتال والمحاصرة والتدمير وتخريب البيوت، وهدمها على رؤوسهم حتى يستسلموا صاغرين.

إن على العرب المسلمين في عالمنا المعاصر أن يكونوا رجالًا، وأن يختطوا لأنفسهم خطة رشد حازمة، لا تردد فيها ولا تسويف، عليهم أن يحشدوا الطاقات ويعبؤوا النفوس تعبئة جهادية، وبذل أقصى ما في الوسع لمصارعة عدو لئيم غادر خائن، لا يرقب في مؤمن ولا مؤمنة ولا طفل ولا شيخ إلًّا ولا ذمة.

إن على المسؤولين في بلاد المسلمين أن يكفوا أنفسهم وغيرهم عن المناداة بالحلول الاستسلامية، وعليهم أن ينأوا بأنفسهم عن هذه المخاطر المهلكة لهم ولأمتهم.

إن المناداة بمثل هذه الحلول يُعد من قبيل الجري وراء السراب، والنفخ في رماد، والحراثة في البحر، ومحاولة يائسة لجني العنب من الشوك، وصرخة في واد لا تنتهي إلى قرار ولا أصحابها إلى استقرار.

لقد آن لنا أن ندرك الحقيقة، وأن نكون رجالًا بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ، إن الذي يُخجل هذه الأيام أن نذهب إلى هيئة الأمم وإلى الدول الكبرى، كأمريكا وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي نستجدي حلولًا لقضايانا، ونحن نعلم علم اليقين أن هذه الدول ضالعة مع اليهود تقول بقولهم، وتتحالف معهم في السر أو العلن أو كليهما معًا.

لا أدري إلى متى لا يستيقظ هؤلاء الذين يغطون في سباتهم العميق، ويدفنون رؤوسهم في الرمال، ويتخبطون في الأوهام، ويتلبطون في الوحل، ويتعامون عن الحقيقة، إلى متى هؤلاء يبقون على هذه الحالة المخزية من الجهالة والتيه والضياع، إلى متى يتوقفون عن هذه المهازل، ويكفون عما هم فيه من السذاجة والغفلة والحمق؟

أما آن لهؤلاء أن تهزهم هذه الحوادث الجسام من هؤلاء اللئام، الذي هتكوا سترهم وستر أمتهم، وأعراضهم، أما آن لهم أن يتعلموا المواقف الصحيحة الجازمة من رسول الله ﷺ في معاملته لليهود، تلك المعاملة الحازمة الصارمة، أما آن لهم أن يقفوا موقفًا حازمًا ولو لمرة واحدة، وينظروا ماذا تكون النتائج.

إن على الأمة الإسلامية أن تعد نفسها لهذا الموقف، وأن تتجاوز عن تخرصات المتخرصين، ووهم

المتوهمين، وأن تحزم أمرها، ولا تلتفت إلى شيء من الصيحات المنكرة التي أعلنت يأسها في سياستها وفشلها في قيادة السفينة إلى بر الأمان.

إن عليها أن تتجاوز هذه التيارات التي جرَّت عليها الويلات والهزائم ولا زالت تمهد لهزائم أخرى إن بقيت على الطريق، طريق الاستسلام والذل والهوان». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٦-١٧٨**].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «لقد كان رسول الله ﷺ حازمًا في علاج يهود بني النضير الخونة الغادرين، فلم يلاينهم وقد ارتكبوا ما ارتكبوا من تآمر، بل أصدر أمره النبوي بطردهم من المدينة، وأعطاهم مهلة بعدها تُضرب عنق من كان موجودًا في المدينة منهم.

ومما يجدر ذكره هنا أن هذا الأمر ليس من قبيل التهديد الذي ليس وراءه شيء من الحقيقة أو الرغبة في تطهير المدينة من رجز اليهود، بل كان أمرًا صارمًا تدعمه القوة، وهذا ما لاحظناه حين امتنع يهود بني النضير عن الخروج، إذ حاصرهم وأرغمهم على الخروج صاغرين.

ونحن اليوم بحاجة إلى أن تكون تصريحاتنا وقراراتنا في علاقتنا مع أعدائنا اليهود وغير اليهود ليست للاستهلاك المحلي والدعاية الرخيصة، والكسب الجماهيري ليس إلا، نحن بحاجة إلى أن نتخذ القرارات المشفوعة بالجدية والتطبيق، فيكون لقراراتنا معنى في نفوس الأعداء والأصدقاء على حد سواء.

إن مما نعانيه اليوم في كثير من البلاد الإسلامية أن نسمع جعجعة ولا نرى طَحْنًا، كم تعرضت بلادنا وشعوبنا لاعتداءات المعتدين، وسُفكت فيها دماء المسلمين، وانتهكت مقدسات، وديست حرمات، واعتدي على أعراض، فلم نحرك ساكنًا، واكتفينا باحتجاجات شديدة اللهجة، لا تبلغ قيمتها الورق الذي كُتب عليها، أليس هذا هو العبث واللهو والهزل؟!». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٢-١٧٣**].

١٠ ـ الدكتور ولفنسون يحامي عن اليهود:

يقول أ/ دويدار: «مع ما سبق عرضه من أقوال المؤرخين في محاولة اغتيال اليهود للرسول ﷺ، ولكن الدكتور إسرائيل ولفنسون يحاول في كتابه «تاريخ اليهود في بلاد العرب» أن يبرئ بني النضير من هذه التهمة، ويتلمس الأسباب تلمسًا لا ليبرئ بني قومه فحسب، بل ليلقي التبعة على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين في كل ما وقع بهذه الغزوة، فقد زعم أن النبي ﷺ غضب على يهود بني النضير؛ لأنهم لم يشاركوه في واقعة أحد، فأراد لهذا أن ينتقم منهم، فأنذرهم بأن يخرجوا من آطامهم ويَنْزَحوا عن يثرب في مدة عشرة أيام، وذلك حيث يقول في كتابه ص ١٣٥: «وكان إنذار الرسول ﷺ لهم بذلك بمثابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم في واقعة أحد، وكأن الرسول كان يعتبرها كغزوة موجهة إلى مدينة يثرب، فكان على بني النضير أن يخرجوا للقاء العدو كما تقضي شروط المعاهدة».

وكأنما أحس المؤلف أنه قد أحرج نفسه بهذا التعليل؛ لأن هذا الوضع ينطبق تمام الانطباق على يهود بني قريظة، فاستدرك بعد هذا مباشرة يقول: «ثم يظهر أن بني قريظة كانوا مرتبطين بعهد آخر غير عهد بني النضير، وأن الشروط كانت غير شروط عهد بني النضير، إذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك في واقعة أُحُد كما طالب بني النضير، ولم يثأر منهم بحجة مخالفة الشروط كما ثأر من بني النضير».

مغالطة: ثم أراد أن يجعل هذا الفرض حقيقة واقعة وأمرًا مسلمًا به، فأردف يعلله بقوله: «وليس معقولًا أن يغضب الرسول من بني النضير لعدم خروجهم إلى الوَغَى في واقعة أُحُد، دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها».

فقد افترض المؤلف أن رسول الله ﷺ طالب بني النضير في الاشتراك معه في واقعة أحد، وأنه كانت هناك معاهدة بين الرسول ﷺ وبين بني النضير تلزمهم بالاشتراك في هذه الواقعة، وأخرى بينه وبين بني قريظة لا تلزمهم بالاشتراك كما تلزم بني النضير، وأنه لو لم تكن معاهدة بني النضير مُلزمة لما غضب الرسول ﷺ على بني النضير دون غيرهم من اليهود.

وهذا زعم يحتاج إلى سند تاريخي يؤيد صحته، وليس يكفي فيه مجرد الظن، ولا تغني الفروض المنطقية عنه شيئًا، فعلى أي سند تاريخي اعتمد المؤلف في زعمه هذا؟

لم يذكر أحد من كُتَّاب السيرة ـ لا تصريحًا ولا تلميحًا ـ أن رسول الله ﷺ طالب بني النضير أو غيرهم من اليهود بالاشتراك مع المسلمين في واقعة أُحُد، أو أنه ـ حتى ـ لامهم أو عاتبهم على عدم خروجهم معه، بل الروايات كلها مجمعة على عكس ما ذهب إليه المؤلف، ومنها ما صرح بذلك تصريحًا لا يقبل التأويل.

دوران ولف: ولكن الدكتور إسرائيل يأبى إلا أن يصل إلى غرضه بأي وسيلة، سواء أبت عليه الروايات التاريخية أم طاوعت، وسواء أجمع المؤرخون على خلافه أم لم يجمعوا، وله في ذلك طريقة ملفوفة، وأسلوب دوَّار، يحوم به ثم يحوم حول الغرض، ثم لا يزال كذلك حتى يخَيَّل إليه أو يخَيِّل هو إلى القارئ أنه قد أصابه: فهو يعمد أولًا إلى الرواية التي تتأبى عليه فيكذبها أو يضعِّفها أو يشكك فيها، ثم يتخذ من ذلك أساسًا يبني عليه قاعدة، ثم يتجه بهذه القاعدة طردًا أو عكسًا كما يتطلب الغرض الذي يرمي إليه.

أما الرواية الأخرى فهو يعمد إليها فيلويها ليًّا أو يحرفها تحريفًا حتى تصل به إلى مراده، وهو مذهب جرى عليه المؤلف كثيرًا في كتابه، وأسلوب استخدمه كلما بدا له أن يخالف إجماع المؤرخين في رأي، أو يذهب غير ما ذهبوا إليه في موضوع.

وفي موضوعنا هذا استخدم المؤلف ثلاثًا من الروايات التاريخية، أولاها لابـن إسـحاق، والثانيـة لابن هشام ـ فيما يقول المؤلف ـ والثالثة لابن سعد صاحب الطبقات الكبرى.

فأما رواية ابن إسحاق فقد ذكر فيها ابن إسحاق من حديث مخيريق: «وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ مُخَيْرِيقٍ، وَكَـانَ حَبْرًا عَالِمًا، وَكَانَ رَجُلًا غَنِيًّا كَثِيرَ الأَمْوَالِ مِنْ النَّخْلِ، وَكَانَ يَعْرِفُ رَسُولَ الله ﷺ بِصِفَتِهِ وَمَا يَجِدُ فِي عِلْمِـهِ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ إلفُ دِينِهِ، فَلَمْ يَزَل عَلَى ذَلِكَ حَتَّى إذَا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَكَانَ يَوْمُ أُحُـدٍ يَـوْمَ السَّـبْتِ، قَـالَ: «**يَـا مَعْشَرَ يَهُودَ! وَالله إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ نَصْرَ مُحَمَّدٍ عَلَيْكُمْ لَحَقٌّ**»، قَالُوا: «**إِنَّ اليَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ**»، قَالَ: «**لَا سَـبْتَ لَكُمْ**»، ثُمّ أَخَذَ سِلَاحَهُ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ الله ﷺ بِأُحُدٍ، وَعَهِدَ إِلَى مَـنْ وَرَاءَهُ مِـنْ قَوْمِـهِ: «**إِنْ قُتِلْـتُ هَذَا اليَوْمَ فَأَمْوَالِي لِمُحَمَّدٍ ﷺ يَصْنَعُ فِيهَا مَا أَرَاهُ اللهُ**»، فَلَمّا اقْتَتَلَ النَّاسُ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَكَانَ رَسُـولُ الله ﷺ ـ فِيمَا بَلَغَنِي ـ يَقُولُ: «**مُخَيْرِيقُ خَيْرُ يَهُودِ**». [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥١٨، ٢/ ٨٩-٩٠].

وأما رواية ابن هشام ـ فيما زعم المؤلف ـ فملخصها أن الأنصار سـألوا النبـي ﷺ يـوم أُحُـد: ألا نستعين بحلفائنا من اليهود؟ فقال: «**لا حاجة لنا فيهم**».

وأما روايـة صـاحب الطبقـات فمضـمونها أن النبـي ﷺ خـرج بالمسـلمين إلى أُحُـد، حتـى إذا كـان بالشيخين التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجل [أصوات وضوضاء]، فقال: ما هذه؟ قـالوا: حلفـاء ابـن أُبي من يهود، فقال: «**لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك**».

ولما كانت الروايتان الأخيرتان صريحتين كـل الصـــراحة في معارضـة رأي المؤلـف، فقـد عمـد إلى إحداهما ـ وهي رواية ابن سعد ـ فضعَّفها وغض النظـر عنهـا؛ لأنهـا تتنـاقض مـع مـا قصـه عـن ابـن إسحاق، ثم عمد إلى الأخرى ـ وهي رواية ابن هشام فيما زعم ـ فشكك فيها وقال بأنها زعـم منسـوب لغير ابن إسحاق، ثم عقَّب عليها بقوله: «غير أن المستشرقين يرتابون في صـحة هـذا الحـديث كـما هـو شأنهم في كل ما يرويه ابن هشام عن غير ابن إسحاق، ويستدلون على عدم صحته بأن الرسول غضـب من بني النضير بسبب عدم اشتراكهم معه في يوم أحد، واتخذ مـن امتنـاعهم عـن ذلـك سـببًا لإعـلان الحرب على بني النضير».

منطق عجيب: فما دام ابن هشام يروي عن غير ابن إسحاق فحديثه موضع الشك، وما دام حديثـه موضع الشك فهو غير صحيح، وما دام غير صحيح فعكسه صحيح، وإذن فالرسـول ﷺ لم يقـل يـوم أحد: «**لا حاجة لنا في اليهود**»، وما دام لم يقل ذلك فهو في حاجة إليهم، وما دام في حاجـة إلـيهم فلابـد أن يخرجوا معه، وما داموا لم يخرجوا معه فقد غضب عليهم، وما دام قد غضب عليهم «فقـد اتخـذ مـن امتناعهم عن الخروج معه سببًا لإعلان الحرب على بني النضير»..

هذا هو منطق الدكتور إسرائيل ومنطق المستشرقين الذين أراد أن يستشهد بأقوالهم، وإلا، فأي علاقة بين عدم صحة الرواية وبين غضب الرسول ﷺ وانتقامه من بني النضير؟ على أن الرواية مع هذا ليست لابن هشام ولكنها للزهري، كما ذكر ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية».

أما رواية ابن إسحاق فقد جعل المؤلف يعتصرها ويلويها حتى استطاع أن يخرج منها بأن الرسول ﷺ أثنى على مخيريق، وما دام قد أثنى على مخيريق لأنه قد خرج معه، فقد غضب على غيره ممن لم يخرجوا معه، وما دام قد غضب على من لم يخرجوا معه فقد اتخذ من امتناع بني النضير سببًا لإعلان الحرب عليهم، وهذا ما أراده المؤلف حين قال في ص ١٣٢ من كتابه: «ويؤيد صدق نظر المستشرقين في هذا الزعم ما نقلناه عن ابن هشام نفسه، من ثناء الرسول ﷺ على مخيريق وقوله: «**مُخَيْرِيقُ خَيْرُ يَهُودِ**»، فإنه لم يقل ذلك إلا لأن مخيريقًا لم يتخلف عن تلك الموقعة كما تخلف بقية اليهود».

تحريف: ولكي يموه المؤلف على قارئيه بأن مخيريق ظل من اليهود ـ حتى بعد إيمانه بأن نصر محمد ﷺ حق، وبعد استشهاده في سبيل نصرة الدين الذي جاء به محمد ﷺ وبعد وَصَاته بأن يكون ماله لمحمد ﷺ يصنع فيه ما أراه الله ـ عمد إلى عبارة ابن إسحاق فغير منها وبدَّل، فحذف منها ما أراد وحرَّف منها ما أراد، وفرَّق بين أجزائها وباعد بين معانيها؛ حتى تصل به إلى مراده، ويحسن بنا أن نذكر نص العبارة كما أوردها المؤلف في كتابه، لكي يقارن القارئ بين النصين، ويرى بعينه مدى الفرق بين الاتجاهين:

قال المؤلف: «ولم يشترك أحد من اليهود في موقعة أحد إلا رجل اسمه مخيريق، كان رجلًا غنيًّا كثير النخيل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد».

ثم فصل بفقرة من كلامه هو ذكر فيها سبب امتناع بني النضير عن الخروج، ثم عاد إلى النص فأورد بقيته هكذا: «ولكن مخيريق اليهودي قال: لا سبت لكم، فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أُصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قُتل، فقال الرسول ﷺ: مخيريق خير اليهود».

ثم حذف من العبارة أولها ـ وهو قول ابن إسحاق «كان حبرًا عالمًا» ـ ليوهم القارئ أن مخيريق كان فردًا عاديًّا وليس من أهل العلم والتبحر في الدين، ثم حذف منها ثانيها كلمة «إذا» ليقف بالكلام عند كلمة «أحد» فانقلب المعنى إلى عكس ما أراد ابن إسحاق.

فأنت ترى أن المؤلف بدأ كلامه عن غير مخيريق بالتصغير من شأنه، ثم حرف في كلام الرسول ﷺ نفسه فزاد الألف واللام في كلمة «يهود»، مع أن السهيلي صاحب «الروض الأنف» وقف طويلًا عند هذه الكلمة يحللها، حتى انتهى منها إلى أن مخيريق قُتل مسلمًا لا يهوديًّا.

وهكذا يدور المؤلف ثم يدور حول الغرض الذي يرمي إليه حتى يُجهد القارئ ويُعنته، ثم يتركه حائرًا بين الشك واليقين، ولكن هذا اللف والدوران قد يجهد المؤلف نفسه حتى ينسى ما كتب، فيكتب بعده ما يعارضه، فيناقض نفسه بنفسه.

تناقض: فقد قال المؤلف قبل ذلك في ص ١٣٢ من كتابه، مبررًا عدم اشتراك اليهود في أُحُد: «وكانت موقعة أُحُد يوم سبت، فأبى اليهود أن يحملوا السلاح في ذلك اليوم، ورفضوا الاشتراك مع الرسول ﷺ في غزوة أحد، معتمدين على أن المعاهدة التي كانت بينهم وبين الرسول ﷺ تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التي تقع بعيدًا عن المدينة كما ذكرنا سابقًا».

ثم قال بعد ذلك في ص ١٣٥، مبررًا غضب الرسول ﷺ عليهم لعدم اشتراكهم: «وليس معقولًا أن يغضب الرسول من بني النضير لعدم خروجهم إلى الوَغَى في وقعة أُحُد، دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها».

فالمعاهدة في رأي المؤلف غير ملزمة لليهود بالاشتراك في الحرب خارج المدينة، حين يريد أن يبرر بها قعودهم عن الخروج يوم أُحُد، وهي في الوقت نفسه ملزمة لهم، حين يريد أن يبرر بها غضب الرسول ﷺ على بني النضير.. أليس هذا تناقضًا؟ أليس هذا التناقض وحده كافيًا لهدم الفكرة من أساسها؟

ثم أليس من التناقض أيضًا أن يكون العهد الذي بين الرسول ﷺ واليهود ملزمًا لبني النضير في الدفاع عن المدينة، وغير ملزم لبني قريظة؟ أليس الجميع أبناء ملة واحدة وأبناء وطن واحد؟.. ولكن الدكتور إسرائيل لا يبغي إلا الوصول إلى غرضه، وأن يضع في رأس القارئ ـ بأي وسيلة ـ أن رسول الله ﷺ غضب على بني النضير وأجلاهم عن المدينة؛ لأنهم لم يشاركوه في واقعة أُحُد، وإن خالفه في ذلك كل المؤرخين، وإن نقض هو ما قرره بنفسه من قبل من «أن المعاهدة التي كانت بينهم وبين الرسول تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التي تقع بعيدًا عن المدينة».

على أنه كان ينبغي للدكتور إسرائيل أن يعلم أن الله نهى المؤمنين في كتابه أن يتخذوا من اليهود بطانة، وكشف لهم عن دخيلتهم كشفًا صريحًا واضحًا لا يدع مجالًا للشك في عداوتهم للإسلام وأهله، فلم يكن من المعقول أن يخالف الرسول ﷺ عن أمر ربه فيشرك معه اليهود في حربه، وإلا فأي موقف غير موقف الحرب كان أجدر أن يحذر فيه الرسول ﷺ والمؤمنين هذه البطانة؟

مكابرة: وكما أراد الدكتور إسرائيل أن يثبت أن النبي ﷺ أعلن الحرب على بني النضير لأنهم لم يشاركوه في غزوة أُحُد، أراد أن ينفي عن بني النضير أنهم هموا باغتيال النبي ﷺ، فقال في ص ١٣٦ من

كتابه: «ويَذكر مؤرخو العرب سببًا آخر لإعلان الحرب على بني النضير غير امتناع اليهود عن الاشتراك في يوم أُحُد واعتذارهم بيوم السبت، فيقول ابن هشام...».

ثم ساق الرواية السابقة على أنها لابن هشام لا لابن إسحاق، ثم عقَّب عليها بقوله: «لكن المستشرقين ينكرون صحة هذه الرواية، ويستدلون على كذبها بعدم ذكر لها في سورة الحشر التي نزلت بعد إجلاء بني النضير».

وكأنما أحس المؤلف أن هذا الاستدلال ليس كافيًا لتكذيب كل مؤرخي العرب وإنكار صحة الرواية العربية، فاستدرك قائلًا: «على أننا لو سلمنا بصحة هذه الرواية فإننا لا نجدها كافية لإشهار الحرب على جميع بطون بني النضير، إذ نعلم من نص المعاهدة الكبيرة بين الرسول واليهود، أن كل جُرم من جهة فرد أو عدة أفراد، يقع عقابه على فاعليه وأهل بيتهم، دون أن يمس غيرهم بشيء من الأذى».

فأما أن سبب إعلان الحرب على بني النضير لم يُذكر في سورة الحشر بالشكل الذي يريده المستشرقون فهو صحيح؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ يعرض الحوادث «عرضًا تاريخيًّا مسلسلًا بقصد التسجيل، إنما هو يعرضها للعبرة والتربية، واستخلاص القيم الكامنة وراء الحوادث، ورسم سمات النفوس، وخلجات القلوب، وتصوير الجو الذي صاحبها، والسنن الكونية التي تحكمها، والمبادئ الباقية التي تحققها» [في ظلال القرآن ١/ ٤٦٧]، فهو لا يعرض للحوادث إلا بمقدار ما يلفت النظر، أو يمس القلب، أو يوقظ الوجدان.

على أن السبب الذي ينكر المستشرقون وجوده قد ذُكر في سورة الحشر ولكن على طريقة القرآن لا على طريقة المؤرخين، وذلك حيث يقول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾ [الحشر]، ثم أشير إليه مرة أخرى في سورة المائدة، وذلك حيث يقول عز وجل، مذكرًا رسوله والمؤمنين بنعمته عليهم ووقايته لهم من كيد أعدائهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ [المائدة]، فقد ذكر ابن إسحاق ـ كما ذكرت طائفة من أئمة التفسير ـ أنها نزلت في شأن بني النضير حين هموا بقتل رسول الله ﷺ.

طابع الجريمة ونتائجها: وأما أن الرواية العربية على فرض صحتها غير كافية لإشهار الحرب على جميع بطون بني النضير، كما تنص المعاهدة الكبيرة بين الرسول ﷺ واليهود، فأمر فيه نظر، ذلك أن الذي هَمَّ بقتل الرسول ﷺ لم يكن فردًا ولا أفرادًا بصفتهم الشخصية، إنما كانوا زعماء بني النضير الذين بيدهم الحَل والعقد فيها، والذين ذهب إليهم الرسول ﷺ ليفاوض في أشخاصهم القبيلة

بجميع بطونها وعشائرها، فهم حين يهمون بأمر إنما يهمون به باسم القبيلة كلها لأنهم كبراؤها وسادتها، وليس ينفي عن القبيلة تهمة الجريمة أن يقوم بها فرد أو أفراد من هؤلاء، فالجريمة إذن ليست جريمة فردية حتى يؤاخذ بها الأفراد الذين هموا بها دون غيرهم.

ثم إنه ينبغي أن يُوضع في الميزان ما كان ينتج عن الجريمة لو تمت، فهي لم تكن جريمة عادية واقعة على فرد عادي، إنما كان جُرمها واقعًا على المؤمنين جميعًا في شخص رسولهم ﷺ، فكانت نتائجها أخطر النتائج وأسوأها عاقبة؛ لأنها القضاء على دين الله الذي جاء به رسوله نورًا وهدى للناس كافة، فهم بهذا إنما ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٣٢﴾[التوبة]، ومن أجل هذا عبَّر القرآن عن هذه الجريمة على أنها جريمة جماعية، همَّت فيها جماعة بالاعتداء على جماعة، فلو أنها كانت جريمة فردية كجريمة كعب بن الأشرف لكان للمؤلف أن يقول ما قال.

على أن النصوص التي يشير إليها المؤلف في المعاهدة الكبيرة إنما جاءت بألفاظ العموم التي تتسع للفرد وللجماعة معًا: «**مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ... وَإِنَّهُ مَنْ فَتَكَ فَبِنَفْسِهِ فَتَكَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ... لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ... مَنْ خَرَجَ آمِنٌ وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ**». [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٠٣-٥٠٤].

لا شك إذن في أن العقاب الذي أنزله الرسول ﷺ ببني النضير كان مكافئًا للجريمة التي هموا بها، ولا شك في أنه ﷺ لم يكن ليخرجهم من المدينة، إلا بعد أن تأكد له أنهم قد بيتوا نية الغدر، وأن بقاءهم في المدينة قد غدا خطرًا عليه وعلى دعوته، ولا شك في أنه لم يكن يريد أن ينتقم إلا لدين الله الذي أرادوا أن يهدموه بقتل رسول الله ﷺ.

وهذه شنشنة عُرف بها اليهود من قديم، وشهد الله بها عليهم في كتابه حيث يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ٧٠﴾[المائدة].

هذه غلطة تاريخية ـ بل سقطة تاريخية عظيمة ـ كان لابد أن نقف عندها حتى نصححها، فإن وجه الحق فيها كاد أن يطمسه المؤلف ويعميه على ناشئتنا ومُحْدَثينا». [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٣٨٩-٣٩٧].

ويقول د/ الوكيل: «والحق أن ولفنسون يغالط في هذه الاعتراضات والمبررات مغالطة واضحة، بينها الدكتور جاد رمضان في المحاضرة التي ألقاها في الموسم الثقافي للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، حيث يقول: إن الجريمة لم تدبر من أفراد عاديين، ولكن مدبريها هم رؤوس بني النضير وزعماؤها الذين يعتبر رأيهم تعبيرًا عن رأي شعبهم كله، ومثلهم في ذلك كمثل الدولة التي تعلن الحرب على دولة أخرى، فإن الذين يعلنون الحرب هم الزعماء، والشعب يتحمل كل تبعات الحرب ونتائجها؛ لأنه هو الذي يختار زعماءه، وهم يعبرون عن إرادته ورأيه». [المدينة المنورة للوكيل ٢/ ٩٠-٩١].

ويقول د/ أبو خليل: «ويواصل ولفنسون دفاعه حيث يقول في نفس الكتاب: «إن هدم البيوت لم يكن القصد منه التخريب وأخذ الأخشاب، بل إن هدم نجاف البيوت يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة، وهي أن كل يهودي يعلّق على نجاف بيته صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني إسرائيل، أن يحتفظوا بالإيمان بإله واحد ولا يبدلوه ولو عُذبوا وقُتّلوا، فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذونها معهم، وهي عادة متبعة عند اليهود إلى يومنا هذا، ويظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يضعون تلك الصحيفة في داخل النجاف خوفًا من إتلاف الهواء أو مس الأيدي، فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها».

ومناقشة سريعة لهذا القول تجعلنا نقول ـ إن سلمنا أن هدم البيوت لم يكن القصد منه التخريب، بل عادة يهودية جاءت من التلمود ـ: إن ذلك لا يستدعي هدم البيوت عن آخرها، وإلا كان الفرد منهم لو انتقل إلى بيت آخر في حيه هدم بيته ليأخذ الصحائف معه! فالثابت أنهم هدموا بيوتهم حتى نقضوا الجدران، فالهدف ألا ينتفع المسلمون بها.

وهي عادة معروفة إلى زمننا هذا، إلى عامنا هذا، فتدمير المدن، وتفجير البيوت، وهدم ما بقي قائمًا من جدران أمر متبع معروف، وسياسة انتهجت ذلك كله بغيًا وحسدًا وبغضًا لغيرهم من الأمم».

[غزوة الخندق لأبي خليل ٤٤-٤٥].

١١ ـ عداوة اليهود:

يقول د/ الزيد: «في عداوة اليهود الشديدة للرسول ﷺ نجد فيها مصداقًا لقول الله جل شأنه: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[المائدة]، فإن النبي ﷺ رأى من اليهود من العداوة والإيذاء ما لا يضاهيهم فيه إلا المشركون في مكة ومن سار معهم، واليهود قد تدربوا على قتل الأنبياء والرسل ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه.

[ينظر: تفسير الطبري، تحقيق التركي ٨/ ٦٠٠].

في مقابل ما وجده الرسول ﷺ من نصارى الحبشة من الإيواء والنصرة للمهاجرين إلى الحبشة خوفًا من إيذاء المشركين في مكة، ولما أرسل الرسول ﷺ كتبه إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى من أحسنهم ردًّا، فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام فلم يستطع، فاكتفى بالرد الحسن، وضن بملكه، والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه ردًّا، وإن لم يكن أحسن منه ميلًا للإسلام، وأرسل للنبي ﷺ هدية حسنة، ثم لما فُتحت الشامُ ومصرُ وعرف أهلها الإسلام أسرعوا إلى الدخول فيه» [تفسير المراغي ٧/ ٦]». **[فقه السيرة للزيد ٣٦١-٣٦٢]**.

١٢ ـ لم ينف اليهود جريمتهم:

يقول د/ أبو خليل: «ومن الملاحظ أن بني النضير لم تنف خبر الغدر برسول الله ﷺ، ولو لم يكن الأمر حقًّا لكذبوه.

وفي رأينا أن سبب عدم تكذيب اليهود لخبر غدرهم وإلقاء الصخرة على رسول الله ﷺ شيوع الخبر بينهم، وبعضهم لم يكن على رأي الغدر والنكث، وعارضوا في قتل رسول الله ﷺ، إما حفاظًا على ديارهم وممتلكاتهم، وإما قناعة بنبوته ولو لم يتبعوه، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أما قال لهم سلام بن مشكم: **لا تفعلوا، والله ليخبرن بما هممتهم به؟**

بالإضافة إلى أن فعلتهم هذه عُرفوا بها على مر التاريخ، فليست أمرًا جديدًا عليهم».

[غزوة الخندق لأبي خليل ٣٩].

١٣ ـ لا مناص عن الجلاء:

يقول أ/ فتح الباب: «ولم يكن أمام الرسول ﷺ بعد أن أجمعت الشواهد على عداوة بني النضير وشروعهم في قتله لإشعال الفتنة والقضاء على الدعوة إلا أن يصدر أمره بإجلائهم عن المدينة، فبعث يطلب محمد بن مسلمة رضي الله عنه وقال له: **اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي، لقد أجَّلتكم عشرًا، فمن أبى بعد ذلك ضربت عنقه.**

وأسقط في يد المتآمرين ورأوا كيف كانت عاقبة مكيدتهم، فما استطاعوا لها ردًّا، وأذعنوا لقرار محمد ﷺ الصارم، وبدأوا يستعدون للجلاء عن مساكنهم، وقد تقطعت أنفاسهم حسرات، وذكروا أولاد عمومتهم من بني قينقاع في نفيهم، كما رجعوا بذاكرتهم إلى الماضي البعيد يوم كتب الله عليهم الضلال في التيه جزاء لهم بما بدر منهم من جحود ونكران وعصيان لأمر الله وأمر نبيه موسى عليه السلام، وها هم أولئك لا يتعظون بعد مرور تلك الحقب الطوال، وكلما أتى منهم جيل كان شرًّا مما سبقه، وحقت عليهم لعنة من الله بعداوتهم للإنسانية وجنايتهم على الشرائع الإلهية، وما تحض عليه من التزام بالقيم الأخلاقية». **[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٢١٨- ٢١٩].**

١٤ ـ تأديب العصاة:

يقول أ/ دويدار: «كانت غزوة بني النضير خطوة حازمة موفقة، وضربة في الصميم أصابت اليهود والمنافقين معًا، فكسرت شوكتهم وملأت قلوبهم بالرعب، فكف المنافقون عن اللغو والإرجاف وإشاعة الفتنة، وقبع بنو قريظة في عقر دارهم يترقبون في حذر وخوف، وهدأت المدينة فترة من الزمن استطاع الرسول ﷺ والمسلمون فيها أن يوجهوا جهودهم إلى تأديب ما بقي من القبائل الثائرة عليهم من أعراب البادية». **[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤٠٠].**

ويقول د/ العمري: «لقد أدى إجلاء بني النضير بعد إجلاء بني قينقاع إلى كسر شوكة اليهود والمنافقين في المدينة حيث جددت قريظة المعاهدة مع المسلمين خلال حصار بني النضير، وأظهرت رغبتها في المحافظة على العهد حتى كانت غزوة الأحزاب، والمنافقون لم ينجزوا وعدهم لبني النضير بالنصر وتبين ليهود عدمُ جدوى الاعتماد عليهم، وقوي كيان الإسلام بالتخلص من بني النضير والاستفادة من أراضيهم بإقطاعها للمهاجرين الذين كانوا يعتمدون في سكناهم على أراضٍ وبيوت للأنصار». [السيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/ ٣١٠-٣١١].

١٥ ـ الموازين الإسلامية وكيف يتم النصر؟:

يقول الشيخ الخطيب: «الميزان الإسلامي لا يتحقق إلا بالوصول إلى المستوى الإيماني اللائق بالأمة المؤمنة، هذا الميزان الذي لا يخطئ، يحدد بدقة متناهية دور الإيمان ومستواه في النفس المؤمنة.

فإذا وصل الإيمان إلى مستوى معين من اتباع لشرع الله، ولزوم لمنهج الله، وتجرد كامل لهذه الرسالة، وتوكل على الله، عندها نكون قد حققنا ما يريده المولى ﷻ، وعند ذلك يتفضل الله ﷻ على هذه الأمة بالنصر المبين والنجاح المؤزر.

والعلاقة بين الفرد والإيمان علاقة إيجابية، فبقدر ما يتوفر للمسلم من إيمان بقدر ما يتم له النصر من الله، نصر على نفسه، ونصر في عالمه الذي يعيش فيه بإظهار الحق الذي يدعو إليه، ونصر على عدوه، هذا ينطبق على العاملين للإسلام بالأمس واليوم وغدًا.

ونحن إزاء موقف خالد في الدستور القرآني، بل هو بحق قاعدة هامة من قواعد الإيمان التي لا تتصدع ولا تتغير ندركها بالعين البصيرة ونحاول أن نطبقها في واقعنا تطبيقًا عمليًّا، وعند ذلك لن نضعف أبدًا ولن نذل أبدًا ولن نهزم إن شاء الله.

نحن مع مقدمة سورة الحشر التي تمدنا بفيض غامر من الإيمان وما أحوجنا إليها في عصرنا الحاضر؛ لأن الأعداء يحاصروننا في كل مكان، أعداء في الشرق ملاحدة، وأعداء في الغرب كفرة، وتيارات في داخل بلادنا من هنا وهناك.

الخيانة والغدر: وهذه المقدمة تكشف لنا الموقف الثابت لليهود على مدار التاريخ وهو الخيانة والغدر، كما تكشف عن نُصرة الله لنا إذا كنا على مستوى الإيمان، ووقعة بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أُحُد سببها ذهاب الرسول ﷺ إليهم مع عشرة من كبار الصحابة يطلب منهم أن يشاركوا بمقتضى المعاهدة التي بينه وبينهم في دفع دية قتيلين قُتلا خطأ، فاستقبلوه بالبِشر والترحاب ووعدوا بأداء ما عليهم، بينما كانوا في نفس اللحظة يدبرون أمر الاغتيال لرسول الله ﷺ، واختاروا من بينهم «عمرو بن جحاش» ليصعد فوق الحائط الذي يجلس الرسول ﷺ بجواره، ويلقي عليه الصخرة،

فأوحى الله إلى رسوله بما يدبرون، فقام ورجع إلى المدينة، وأمر بالاستعداد لحربهم لظهور الخيانة منهم ونقض العهد، فحاصرهم رسول الله ﷺ في حصونهم، فاعتصم اليهود وراء هذه الحصون وتزودوا بالمؤن والماء والعتاد، حتى أصبحوا في منعة من أمرهم، واستقر في أذهانهم أنهم الغالبون، وأحكم أصحاب رسول الله ﷺ حصار تلك الحصون المنيعة ستًّا وعشرين ليلة وهم في حيرة من كيفية احتلال تلك الحصون المنيعة التي لا قِبَل لهم بها.

وتعصف التيارات المتلاطمة بهؤلاء وهؤلاء، ويظهر الموقف العسكري على الشكل التالي: يهود بني النضير أخذتهم العزة بحصونهم وقوتهم وأسلحتهم المتطورة عما يعرفه العرب في ذلك الوقت، وتركز في أذهانهم أن العرب لا قِبَل لهم بحرب الحصون المنيعة ذات الأبواب الضخمة الثقيلة، وتصوروا بحماقتهم أن المحاصِرين سيَلقون الضعف والهزيمة المحققة والإعياء بعد حصار قليل، وسوف يفت في عضدهم الانتظار وهذا ظنهم وتفكيرهم وكيدهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[الحشر: ٢].

والمسلمون المحاصِرون دخل في روعهم الفتور لتصورهم أن قوة بني النضير كبيرة لا قِبَل لهم بها، وكيف السبيل لخرق تلك الحصون، إيمانهم كامل، وتصورهم سليم والموقف في غاية الصعوبة، والإنهاك أخذ بهم كل مأخذ فإلى متى يدوم الحصار، سؤال يثار في نفوسهم ولا يعرفون للجواب سبيلًا، ولنعش لحظات مع الآيات الكريمة في أول سورة الحشر لنستوعب الفكرة ولنأخذ العبرة، ولنتدبر الموقف في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾[الحشر].

ميدان القتال ونضال حِلف الإيمان وحِلف الكفر، جبهة مؤمنة تكافح من أجل إعلاء كلمة الله، وجبهة كافرة محصنة يعلو جبهتها الغرور والكبرياء والله بيده الأمر، ومتى ترجح الكفة؟ إنها بأمر الله، ومتى يتم النصر؟ حتى يأمر الله والله هو الحكيم الخبير، له من ذلك حكمة ودروس وعبرة.

كيف يتم النصر؟: والسؤال الذي يطرح نفسه في الموقف العصيب: كيف يتم النصر؟ ومتى ينصر الله عبده؟ وما معنى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾[محمد ﷺ]؟ وما قيمة الشرط ﴿إِن﴾؟ ومتى تصل المعجزة من الله؟ وما وجه التشابه بين ذلك الموقف في ذلك العصر من موقفنا اليوم نحن واليهود؟ نحن وأعداء الله، نحن والتيارات الماركسية الإلحادية؟ وما هي العبرة التي يجب أن نأخذها مما أثبته القرآن العظيم؟

إن حادثة بني النضير وحصارهم في حصونهم تعلمنا حقيقة تدخُّل أمر الله في الوقت المناسب، ولتعلمنا درسًا في التربية الإسلامية، حيث إن هذا الموقف الهادف لم يحصل صدفة إنما قَدَرٌ من الله ليربي

النفوس المتعطشة للإسلام ولينميها في لبان الإيمان وليعرف المؤمنين أن النصر لا يأتي بالسلاح ولا بالقوة ولا بالعدد فحسب، وإنما هنالك ركيزة أهم ألا وهي نصر الله، هذا النصر إن جاء يغني عن القوة والسلاح، هذا النصر لا يأتي إلا إذا أصبح المؤمنون على مستوى النصر: إيمانًا ويقينًا وصدقًا واستقامة واستجابة.

سورة الحشر تُعلِّم المؤمنين دروسًا في التربية الوجدانية والإيمانية بأن نصر الله لا تقيده قيود ولا تحده حدود، ونصر الله لا يأتي اعتباطًا إنما شرطه إيمان المؤمنين وتساميهم وعلوهم بالدين.

متى يَقذف الله الرعب في قلوب الأعداء؟ ومتى يُدخل الروع في القلب الضعيف؟ هو إذن من الله، شرط الإيمان والتقوى والاستقامة؟ كان المسلمون على قدر كبير من الإيمان والاستقامة والاستجابة لله ورسوله فنصرهم الله، كانت غايتهم رضاء الله لا تأخذهم في الله لومة لائم.

هذه المواقف كلها دروس وعبر، لم تأت في القرآن الكريم عبثًا إنما هي الإرشادات والتوجيهات التي تغربل الإيمان، وتصفي القلوب مما داخَلها، وتُطهر النفوس من الغرور والكبرياء، إن ولاية ونصر الله أقوى من كل سلاح، فإن كنا على مستوى الإيمان فالله ولينا ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة: ٢٥٧].

الرعب قُذف إلى قلوب اليهود قذفًا عنيفًا فصعقوا، فتسمروا، وضعفوا وانهارت قواهم، وأصاب مركز كيانهم الخور فزاغ وعيهم، وتلجلج موقفهم واهتز، وضاعت عقولهم، وأصبح إلى انهزامية مسحوقة حتى صاروا يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

أبعد هذا النصر نصر؟ هل تصور المؤمنون أن يصل الضعف في اليهود وأن يهدموا بيوتهم بأيديهم إمعانًا في الهزيمة؟ هل تصور المؤمنون في الليالي التي قضوها أمام الحصون أن يصلوا لليهود أو أن يطؤوا بيوتهم ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾[الحشر: ٢].

ولكن أمر الله فوق كل أمر.

إن حياة رسول ﷺ، ومعاناة الصحابة من أحداث الإسلام الأولى هي المدرسة التي تربى فيها هؤلاء فأحسنت تربيتهم ليكونوا دعاة وقدوة وهداة، وصحيح أنه مجتمع فريد من نوعه لأن رسول الله ﷺ هو المعلم الأول، فكانوا نعم التلاميذ، ولكن علينا أن نستنير بهداهم وأعمالهم، وإنه الأمر من الله ﷻ: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾[الحشر]، نداء خالد من القرآن العظيم لأصحاب العقول أن يُدركوا قيمة الآية الكريمة: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾[الحشر: ٢].

ونحن اليوم إزاء معارك كبرى في مختلف الاتجاهات، وإزاء تيارات متلاحقة تشد بعضها بعضًا، وكلها تريد أن تنال من جسم الإسلام، تريد أن تغمد الحربة في صدر الإسلام لتدميه وتفقده توازنه؛

لأن في نجاح المسلمين هلاك لهم، فعلينا أن ننبذ الأنانية والحقد، ونضع الدنيا وراء ظهورنا والآخرة أمامنا، أن يكون رائدنا محمد رسول الله ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...**».

[البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، وفي الجهاد والسير (٢٩٧٧)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢). وفي لفظ لأحمد: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَيُرْعَبُ مِنِّي العَدُوُّ عَنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ». أحمد عن أبي ذر الغفاري ﷺ (٢٠٧٩٢). وفي لفظ لمسلم: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى العَدُوِّ». مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)].

والنصر بالرعب هو لأمته كذلك من بعده، وذلك إذا سارت في خطاه». [**راجع ظلال القرآن ج٢٨**].

[مفاهيم تربوية للخطيب ١/ ٤٩ -٥٣].

١٦ ـ جلاء بني النضير والزهو المفتعل:

يقول د/ الوكيل: «ويحدثنا ابن إسحاق عن خروج اليهود من المدينة فيقول: إنهم استقلوا بالنساء والأبناء والأموال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم... بزهاء وفخر ما رئي مثله من حي من الناس في زمانهم.

لقد حاول بنو النضير أن يستروا خروجهم مدحورين بهذا الزهو المفتعل، وليست هذه الطريقة التي اتبعوها في خروجهم إلا تعبيرًا عن حزن عميق، كما تمثل الدموع في كثير من الأحيان السرور الزائد في نفوس بعض الناس، أو لعلهم قد فعلوا ذلك فرحين فعلًا، ولكن بنجاتهم ونجاة نسائهم وأولادهم من القتل الذي توعدهم به الرسول ﷺ في إنذار محمد بن مسلمة ﷺ». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٥**].

لقد كانوا سعداء إذ أنهم تخلصوا من الموت؛ لذا فإن الاحتفال الذي احتفلوا به قُبيل تركهم المدينة كان احتفالًا لم ير أهل المدينة مثيلًا له، وإن الإنسان ليستغرب من ذلة هؤلاء الناس والذين يحتفلون وهم على أعتاب مُفارقة موطنهم ومساكنهم، بدلًا من الإحساس بالحزن والأسى.

[النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ٩٠].

١٧ ـ أخذ الحيطة من الأعداء:

وقد خرج زعماء بني النضير ونزلوا خيبر، وفي اعتقادي أن هؤلاء لم يقصدوا خيبر إلا ليكونوا قريبين من مجريات الأحداث، على علم بما يجري بين المسلمين وأعدائهم، حتى إذا واتتهم الفرصة لم يفلتوها، ومن جانب آخر ليتمكنوا من الاستمرار في تدبير المؤامرات ضد المسلمين لعلهم في إحداها يفلحون.

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٥].

١٨ ـ سياسة الأخذ بمبدأ الوقاية:

يقول د/ طنطاوي: «لقد كان إجلاء بني النضير تطبيقًا بارعًا لسياسة الأخذ بمبدأ الوقاية، التي سار عليها النبي ﷺ، لا سيما في أعقاب غزوة أُحد؛ لأن بقاءهم بجوار المدينة ـ بعد أن ظهر غدرهم

ـ كان سيخلق كثيرًا من الفتن داخلها، مما يتعذر معه أن تصبح قاعدة أمينة للدعوة الإسلامية، فضلًا عن أن وجودهم بجوار المدينة معناه وجود عدو آخر سوى قريش، الأمر الذي سيرغم المسلمين على قتال عدوين إذا لزم الأمر بدلًا من عدو واحد، فكان من المتحتم إجلاؤهم ليتفرغ المسلمون لعدو واحد هو قريش.

كذلك فإن إجلاء بني النضير كان خطة حكيمة، وضربة صائبة أصاب مقتلًا من اليهود والمنافقين في وقت واحد؛ لأنهما كانا يمثلان جبهة متحدة ضد المسلمين، فلما تصدعت تلك الجبهة خفت صوت المنافقين، وفترت عزيمتهم وانتكست رايتهم.

يضاف إلى ذلك أن المسلمين بهذا النصر الذي أحرزوه بدون تضحيات تُذكر، توطَّد سلطانهم في المدينة، وعمها الأمن والاطمئنان، وانتفع المهاجرون بما أفاءه الله ﷻ على رسوله ﷺ من أموال اليهود، وتمكن المسلمون من التفرغ لقمع الأعراب، الذين آذوا المسلمين بعد أحد، فقتلوا العشرات منهم، في الرجيع، وبئر معونة بنذالة وكفران، وما كان ذلك ليتم بسهولة لو بقي يهود بني النضير شوكة في جنب المدينة». [بنو إسرائيل في القرآن والسنة لطنطاوي ٢٩١].

١٩ ـ إجلاء يهود بني النضير ومرحلة الانطلاق:

ليس من العسير أن يقدر الإنسان قيمة نصر المسلمين وإجلاء بني النضير عن المدينة بعد الذي قدمنا من تقدير الرسول ﷺ لما كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع عوامل الفتنة، ومن دعوة المنافقين إلى أن يرفعوا رؤوسهم كلما أصاب المسلمين شر، ومن التهديد بالحرب الأهلية إذا غزا المسلمين غاز من الأعداء.

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٢١].

لقد كان إجلاء يهود بني النضير عن يثرب في أعقاب نقضهم عهد النبي ﷺ بعد أحد إيذانًا بمرحلة جديدة في تاريخ المسلمين بمدينة الأنصار، وتعد هذه المرحلة إحدى حلقات تثبيت الإسلام والتمكين لمبادئه في الجزيرة العربية، تمهيدًا لنشره في سائر أنحائها، ثم الانطلاق منها إلى أرجاء الدنيا الفسيحة بحكم عالمية الرسالة التي حمل أمانتها محمد ﷺ، فلقد تطهرت أرض المدينة من أخبث أعداء الإسلام وأيدهم خصومه، فأصبحت مهيأة للنجباء والازدهار دون عوائق أو موانع. [القيم الخلقية لفتح الباب ١١١].

وكذلك كان إجلاء بني النضير بهذه الصورة، وبهذه الشروط دليلًا قاطعًا على قوة المسلمين، وشدة بأسهم، كما كان فيه قضاء على الفتنة التي أوشكت أن تعم المدينة، وإزالة لما عسى أن يترتب على وجودهم من تشجيع للمنافقين على التمرد، وإثارة للأحقاد الدفينة، مما قد يسبب في نشوب حرب أهلية، وإيقاظ الإحن النائمة بين المسلمين، كما كان سيحدث بين الأوس والخزرج حين أنشدهم الفتى اليهودي أشعار حرب يوم بعاث.

وبذلك قُضي على التمرد داخل المدينة، وقبع المنافقون، ولم يحركوا ساكنًا، ووجه الرسول ﷺ همته نحو الخارج يرسل الجيوش، ويبعث السرايا، ويخرج بنفسه غازيًا.

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٦].

المطلب السادس
الدروس القيادية

١ ـ هل فكر النبي ﷺ في أول الأمر في إجلاء بني النضير:

يقول د/ حبيشي: «إني لأحب في بداية التعليق على أحداث التاريخ التي عرضتها بين يديك أن أؤكد على ما أعلمه، ولا أدعي أني أؤكد على الواقع الذي كان يعلمه النبي ﷺ أو يتصوره في توالي أحداث التاريخ.

والذي أعلمه من بداية حال النبي ﷺ مع بني النضير، هو أنه لم يكن يدور في ذهن النبي محمد ﷺ، أنه سيقاتل يهود بني النضير، أو أنه سيجليهم عن الأرض التي احتلوها، لا في الآن القريب، ولا في المستقبل المنظور، أو غير المنظور.

والذي يجعلني أذهب إلى هذا الاعتقاد هو ما أعلمه من خلائق النبي ﷺ.

وما أعلمه من خلائق النبي ﷺ أنه إذا عاهد أحدًا عهدًا محدودًا بمدة، فعهده إلى مدته لا ينتقصه منها شيئًا، وإذا عاهد أحدًا أو جماعة عهدَ أمن وتعايش في وطن واحد لا يخرج من هذا العهد أبدًا ولا ينتقضه، مهما كانت الظروف التي تدعوه أن ينقضه من طرف واحد من غير جريرة أو مخالفة تقع من الطرف الآخر الذي دخل معه في هذا الحلف أو تلك المعاهدة.

وما كل مخالفة تقع من الطرف الآخر تحمل النبي ﷺ على أن يفسرها تفسيرًا يحمله على أن يفهم أن الطرف المقابل قد خرج من العهد، وألقى بنفسه خارج ارتباطه، وأعلن الحروب على النبي ﷺ والمسلمين، بل إن النبي ﷺ لا يعتبر تصرف الطرف الآخر ناقضًا للعهد، إلا أن يكون هذا التصرف قد حمل من الخطر قدرًا يهدد المجتمع وأمنه، أو اعتدى على الآداب والعوائد اعتداء يجرح المشاعر ويصيب الأفئدة بالأذى.

هذا أمر يحملني على أن أعتقد أن النبي ﷺ ما كان في أول أمره يفكر في إجلاء اليهود من بني النضير عن أرضه ووطنه، حتى ولو كانوا في عُرف التاريخ والناس محتلين لهذه الأرض مغتصبين لهذا الوطن.

وأمر آخر يحملني على أن أعتقد أن النبي ﷺ كان بعيدًا عن التفكير في إجلاء هؤلاء اليهود ولو مرحليًّا، وهذا الأمر الآخر هو أن اليهود قد أشاعوا بين الناس (والناس حديثو عهد بالإسلام)، أنه لا يجوز للنبي

ﷺ ولا للمسلمين معه أن يعتزوا بنصرتهم على قريش، إذ القرشيون ما هم إلا أناس قليلو الحيلة في الحروب، وقليلو البصر في السياسة، بالإضافة إلى أنهم لا يملكون من الأموال إلا أقلها، وعملهم في التجارة يجعلهم لا يأمنون عليها في ذهابها وإيابها من الشام وإليها، بالإضافة إلى أنهم يخشون كسادها، ويرجون من ورائها الرواج الذي يعود عليهم بالربح ونماء المال، والقرشيون لا بصر لهم بالصناعة خاصة ما يتصل منها بصناعة السلاح؛ ولذا تراهم يعتمدون على غيرهم فيه إن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم حسبما يرى هذا الغير من مصلحته الشخصية وما يخدم مواقعه الاجتماعية، ثم إن القرشيين أخيرًا، ما هم إلا أناس محدودو الثقافة لا يملكون منها إلا مجموعة الحِكم في الاجتماعيات، وإلا بناء هشًّا في العقائد، وإلا هرمًا من الوهم في التشريعات التي تنظم حياة الناس.

لقد أشاع اليهود بين المسلمين كل هذا، والمسلمون قريبو عهد بإسلام، ثم أضافوا معه الزهو بشخصيتهم، وهي شخصية قادرة على الخيانة، والخيانة في عُرفهم أمر مشروع، وهي شخصية قادرة على صنع السلاح وتدبير الاقتصاد، وإثارة جماهيرهم على قاعدة من الدين، الذي أهم ما فيه من العقائد أن اليهود هم شعب الله المختار، وأن الله يدافع عن شعبه وينصرهم على الجوايم أو الحيوانات من البشر من غير اليهود.

وأنت على وعي كامل أن اليهود قد لخصوا كل هذه المواقف في عبارة واجهوا النبي ﷺ نفسه بها، حين قالوا له: **يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قد واجهت أناسًا لا بصر لهم بالحرب، وإنك إن واجهتنا لعلمت أنا نحن الرجال.**

ومثل هذه الكلمة تُقال للنبي ﷺ بغير مقدمات، تدفعه إلى أن يستسلم للتفكير في أمر اليهود وأمر نفسه، من غير أن تكون عنده نية في إجلاء اليهود عن الأرض التي اغتصبوها.

وحين فكر النبي ﷺ في نفسه وفي الدين معه وجد أن آثار التشرذم والانقسام الذي كان ظاهرًا في المجتمع قبل وجوده بفعل اليهود، ما زالت أسبابه قريبة العهد بالأوس والخزرج، وما زالت الرغبة في الانقسام والخروج على النبي ﷺ تطل برأسها من فم كل منافق له باليهود صلة، وهم يجدون من عبد الله بن أُبي بن سلول نواتهم التي يتجمعون حولها، وعبد الله بن أُبي يجد من أسباب الحقد في قلبه وقودًا كافيًا يدفعه إلى الكيد للمسلمين والتحالف مع غيرهم ولو كانوا يهودًا، ثم إن النبي ﷺ يَظهر له من تأمل الواقع أن المهاجرين أنفسهم ما زالت أقدامهم في هذا المكان غير ثابتة ثباتًا يكفيهم إلى تحمل تبعات آثار قرار إجلاء اليهود، لو فكر نبيهم ﷺ في اتخاذ مثل هذا القرار.

لقد حملت كلمات اليهود النبي ﷺ إلى أن يفكر في هذا كله، وانتهى النبي ﷺ من التفكير إلى أنه قد رأى أن هذه الأمور كلها يمكن التعامل معها تعامل القائد الحصيف مع الشدة التي تواجهه، حين

يكون بصدد اتخاذ قرار مصيري حاسم، لكن الذي ضايق النبي ﷺ هو هذه الخليقة التي علمها من اليهود، وتأبى خلائق شخصيته التعامل معها بما يكافئها، وهذه الخليقة من خلائق اليهود هي أنهم لا يتورعون عن الخيانة، أن يصطنعوا لها أساليبها، وأن يمدوا لها أسبابها، وأن يتخذوها لهم منهجًا من غير أن يخجلهم التاريخ، ومن غير أن يلتفتوا إلى لوم اللائمين.

وعند هذا الحد من التفكير وجد النبي ﷺ نفسه يخشى ما يمارسه اليهود ضده من الخيانة؛ لأنه أسلوب رخيص مبتذل، لا يستطيع هو أن يصطنع معهم أسلوبًا يكافئه، إذ الخلائق الإنسانية والنبوية فيه تأبى عليه أن يترخص أو يتبذل.

أمور كثيرة تدعونا إلى الاعتقاد أن النبي ﷺ لم يكن يفكر في أول الأمر في إجلاء بني النضير عن الأرض التي اغتصبوها، وعن الوطن الذي احتلوه». [**رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ٧٩-٨٢**].

٢ ـ أثر القائد الأناني على قومه:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان حيي بن أخطب قائدًا مغرورًا من قادة بني النضير، وحَبْرًا من أحبارهم، حاسدًا لرسول الله ﷺ النبوة والرسالة رغم معرفته بالحقيقة، قد منعه حسده الشنيع وحقده اللئيم الأسود عن طلب السعادة لقومه، وهو يعرف طريقها، بل أوردهم موارد الهلاك، وما أجمل قول القائل فيه: **يا حيي، أنت رجل مشؤوم تهلك بني النضير**.

أقول: ليس حيي بن أخطب فحسب هو الذي أورد قومه موارد الهلاك، وإنما كل قائد يتحلى بأخلاق حيي وصفاته من العجب والغرور والأنانية والاستبداد يقود شعبه إلى ذل الهزيمة وعارها.

والمسلمون اليوم بحاجة إلى القيادة الحكيمة الرشيدة المتواضعة المتصفة بالإقدام والشجاعة والإيثار، تستشير ولا تستبد بالرأي، وتفتح باب الحرية لكل صاحب رأي». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٥**].

٣ ـ براعة القيادة السياسية:

يقول أ/ باشميل: «وعندما غادر النبي ﷺ ديار بني النضير لم يترك هؤلاء اليهود يشعرون بمغادرته تلك الديار حيث أوهمهم عندما تحرك من مكانه بأنه ذاهب لقضاء حاجته.

ويظهر أنه ﷺ قد قدر أسوأ الاحتمالات، وهو أن اليهود وقد قرروا التخلص منه عن طريق الاغتيال في ديارهم لا يستبعد أن يغتنموا فرصة وجوده منفردًا في ديارهم مع قلة من أصحابه كلهم غير متسلح فيطوقوهم إذا ما علموا بأن النبي ﷺ اكتشف المؤامرة، ثم يستعجلوا الفتك بالنبي ﷺ قبل أن يتمكن من العودة سالمًا إلى المدينة؛ ولهذا فإنه ﷺ عندما تحرك من مكانه في ظل الحائط أوهم اليهود بأنه لا يعتزم مغادرة ديارهم وإنما هو ذاهب لقضاء حاجته؛ وبهذا فوت على هؤلاء اليهود فرصة قد تكون من أثمن فرصهم للقضاء عليه». [**غزوة الأحزاب لباشميل ٥٠-٥١**].

ويقول د/ أبو فارس: «إن انسحاب رسول الله ﷺ دون أن يُشعر بني النضير وأصحابه بما اتفق عليه بنو النضير فيه حِكمة، ذلك لو أخبرهم رسول الله ﷺ وهو في دارهم وبين أظهرهم، ربما سوَّل لهم الشيطان وسوَّلت لهم نفوسهم الاعتداء عليه وعلى أصحابه الذين معه، خاصة وأن اليهود كثرة والمسلمين قلة، مما يُغري اليهود بهم وبالاعتداء عليهم». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٢**].

٤ ـ أهمية تمتع القيادة بالوعي والذكاء:

كان كاتب سر النبي ﷺ إلى حين إجلاء بني النضير عن المدينة، من اليهود؛ ليتسنى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والسريانية ما يريده، فلما جلا اليهود خاف النبي ﷺ أن يستعمل في أسراره غير مسلم، فأمر فتعلم زيد بن ثابت رضي الله عنه من شبان المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين، وأصبح كاتب سر النبي ﷺ في كل شؤونه. [**حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٢٢**].

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ كِتَابَ اليَهُودِ، حَتَّى كَتَبْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كُتُبَهُ، وَأَقْرَأْتُهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ. [**البخاري في الأحكام باب ترجمة الحكام (أي الترجمة لهم) وهل يجوز ترجمان واحد، تعليقًا**].

وعَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ أَبَاهُ زَيْدًا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ لـمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ قَالَ زَيْدٌ: ذُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأُعْجِبَ بِي، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله! هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ: «**يَا زَيْدُ! تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ؛ فَإِنِّي وَالله مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي**»، قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ، مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ، وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ.

[**مسند أحمد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه (٢١٦١٨)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن من أجل عبد الرحمن**].

وفي رواية: عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ، قَالَ: «**إِنِّي وَالله مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي**»، قَالَ: فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ [حَذَقْتُهُ]، قَالَ: فَلَـمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ.

[**أبو داود في العلم (٣٦٤٥)، والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٧١٥)، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الوَجْهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه، رَوَاهُ الأَعْمَشُ عَنْ ثَابِتِ بْنِ عُبَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ السُّرْيَانِيَّةَ. وقال الشيخ الألباني عنهما: حسن صحيح**].

يقول د/ أبو شهبة: «وهذا ذكاء مفرط، وقوة حافظة، ومن لوازم تعلم الكتابة تعلم اللسان، وقد ثبت أنه رضي الله عنه كان يعرف السريانية والعبرانية، وقد كان رضي الله عنه ممن حفظ القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ، ومن أشهر كُتَّاب الوحي بين يديه، وهو الذي تولى كتابة القرآن وحده في الصحف في عهد الصدِّيق رضي الله عنه، وكان أحد كاتبي المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه.

وأَمْرُ رسولِ الله ﷺ زيدًا ﷺ بتعلم لغة اليهود وكتابتهم يدل على أن الإسلام يحبب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم، ويتعرف على علومهم ومعارفهم ولا سيما إذا دعت لذلك ضرورة».

[السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤٩].

٥ ـ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَمْرِهِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ أَنْ يَتَعَلَّمَ السُّرْيَانِيَّةَ وَقَوْلِهِ مَعَ ذَلِكَ: «إِنِّي لا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كُتُبِي»:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَرْزُوقٍ قَالَ: ثنا أَبُو الوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ (ح)، وَثنَا فَهْدُ ابْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: ثنا عَلِيُّ بْنُ مَعْبَدٍ قَالَا: ثنا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ الحَمِيدِ، عَنْ الأَعْمَشِ، عَنْ ثَابِتِ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتُحْسِنُ السُّرْيَانِيَّةَ؟ إِنَّهُ لَيَأْتِينِي كُتُبٌ**»، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «**فَتَعَلَّمْهَا**»، قَالَ: فَتَعَلَّمْتهَا فِي سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا».

حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي دَاوُد قَالَ: ثَنَا خَلَفُ بْنُ هِشَامٍ البَزَّارُ قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ، فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُ، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي**»، فَلَمَّا تَعَلَّمْتُ لَهُ كُنْتُ أَكْتُبُ إِلَى يَهُودَ إِذَا كَتَبَ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْت لَهُ كِتَابَهُمْ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَتَأَمَّلنَا هَذَا الحَدِيثَ فَوَجَدْنَا مَا كَانَ يَرِدُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ كُتُبِ يَهُودَ بِالسُّرْيَانِيَّةِ، إِنَّمَا كَانَ يَقْرَؤُهُ لَهُ اليَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا يَحْضُرُونَهُ، وَهُمْ غَيْرُ مَأْمُونِينَ عَلَى كِتْمَانِهِ بَعْضَ مَا فِيهِ، وَغَيْرُ مَأْمُونِينَ عَلَى تَحْرِيفِ مَا فِيهِ إِلَى مَا يُرِيدُونَ، وَكَانَ مَا يَنْفُذُ مِنْ كُتُبِهِ إِلَى اليَهُودِ جَوَابًا لِكُتُبِهِمْ لَهُ بِالعَرَبِيَّةِ، فَتَحْتَاجُ اليَهُودُ الوَارِدَةُ عَلَيْهِمْ إِلَى مَنْ يُحْسِنُ العَرَبِيَّةَ لِيَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ، إِذْ كَانُوا لَا يُحْسِنُونَ العَرَبِيَّةَ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يُحَرِّفَ مَا فِي كُتُبِهِ إِلَيْهِمْ إِلَى مَا يُرِيدُ، لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ، وَفِي قُلُوبِهِمْ عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ مَا فِيهَا، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ زَيْدًا ﷺ أَنْ يَتَعَلَّمَ لَهُ السُّرْيَانِيَّةَ لِيَقْرَأَ كُتُبَهُمْ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْهِ قِرَاءَةٌ، فَيَأْمَنَ بِهَا كِتْمَانَ مَا فِيهَا، وَيَأْمَنَ بِهَا تَحْرِيفَ مَا فِيهَا، وَيَكُونَ كِتَابُهُ ﷺ إِذَا وَرَدَ عَلَى اليَهُودِ وَرَدَ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ يَقْرَؤُهُ عَامَّتُهُمْ يَأْمَنُ فِيهِ مِنْ كِتْمَانِ بَعْضِ مَا فِيهِ وَمِنْ تَحْرِيفِ مَا فِيهِ إِلَى غَيْرِ مَا كَتَبَ بِهِ، فَهَذَا وَجْهُ هَذَا الحَدِيثِ عِنْدَنَا. وَاَللهَ سُبْحَانَهُ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ».

[تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٧/ ٤٦٩-٤٧٠].

المطلب السابع
الدروس العسكرية

١ ـ خطأ الجندي يصلحه القائد:

يقول د/ حبيشي: «إن الله ﷻ إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه، ومهد له طرقه وساق إليه الإرادات، ووجه إليه الأشواق والرغبات.

وها هي وقائع التاريخ تتحدث عن نفسها: فبينما النبي ﷺ يفكر في أحواله وأحوال أصحابه، وتعالي اليهود عليه وعليهم في الحديث والسلوك، وإذا بحدث من الأحداث يقع فينذر بباب جديد يفتح من الانشغالات ربما يستولي على حيز من فكر النبي ﷺ ليس بالهين، وبيان ذلك، أن جمهرة من المؤرخين وكُتاب السير منهم، ابن إسحاق، وابن عمر، وابن سعد، وابن عائذ وكثرة غيرهم من أهل المغازي قد ذهبوا إلى أن: «عمرو بن أمية الضمري ؓ أقبل من بئر معونة حتى إذا كان بقناة لقي رجلين من بني عامر بن صعصعة، قد كان النبي ﷺ وادعهما، فنسبهما فانتسبا، فقال (من القيلولة) معهما حتى إذا ناما وثب عليهما فقتلهما، ثم خرج حتى ورد على رسول الله ﷺ في قدر حلب شاة، فأخبره خبرهما، فقال رسول الله ﷺ: «**بئس ما صنعت، قد كان لهم منا أمان وعهد**»، فقال: ما شعرت، كنت أراهما على شركهما، وكان قومهما قد نالوا منا ما نالوا من الغدر بنا، وجاء بسلبهما، فأمر رسول الله ﷺ بسلبهما فعزل، حتى يبعث به مع ديتهما». [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٥٢].

والتاريخ الثبت يحدثنا أن بني عامر بن صعصعة كان بينهم وبين يهود بني النضير عهد وموادعة.

وحين وقعت هذه الحادثة من عمرو ؓ رأى النبي ﷺ أن عمرو ؓ قد باشر أمرًا يخالف به ـ قاصدًا أو غير قاصد ـ ما كان النبي ﷺ قد عاهد عليه الرجلين.

والقتل الخطأ له في شريعة النبي ﷺ وفي عوائد العرب ما يحكمه من النظام.

فتحفَّظ النبي ﷺ سلبهما وهو أمتعتهما وسلاحهما ليرسل به مع الدية التي يودي بها الرجلين.

وما كان عند النبي ﷺ من السعة ما يجعله يخف سريعًا إلى أن يرسل بالمال إلى أهل القتيلين، ففكر مليًّا ووقع اختياره على يهود بني النضير يقترض منهم مالًا يكفي لدفع دية الرجلين.

والذي دفع النبي ﷺ إلى ذلك ـ فيما أرى ـ أمور منها:

١ـ أن اليهود هم أكثر سكان أهل المدينة ثراء وأوفرهم مالًا.

٢ ـ وأن اليهود قد دخلوا مع النبي ﷺ في معاهدة سلام التزم فيها الجميع بأمن الوطن يحافظون عليه، وأرض الوطن يمنعونها من أن ينتقصها أحد من أطرافها، فضلًا عن أن يغزوها لينال من أهلها بالأذى، وينتهب خيراتها.

٣ ـ وقبل هذا كله ومع هذا كله محاولة النبي ﷺ إيضاح الأمر لليهود بالقدر الذي يرضي خاطرهم، فهم حلفاء بني عامر بن صعصعة كما علمت، ولا بأس بعد أن اتضح الأمر بين يدي اليهود أن يكونوا سفراء له عند حلفائهم فيشرحون الخطأ، ويبينون عن الزلل الذي وقع فيه عمرو بن أمية ﵁ عن غير وعي منه بما بين النبي ﷺ وبين الرجلين من عهد.

هكذا فيما أرى فكر النبي ﷺ في الأمر.

وهكذا فيما أرى عقد النبي ﷺ العزم على أن ينفذ ما توصل إليه من نتائج بفكره الصائب».

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ٨٦-٨٨].

٢ ـ حسن تصرف القيادة مع تطور الأحداث (ما أغنى عنهم كيدهم):

يقول أ/ فتح الباب: «ورفض يهود بني النضير عرض ابن أبي وانتهى بهم الرأي إلى الأخذ بمشورة كبيرهم حيي بن أخطب، وهو عدم الخروج من المدينة مخالفة لأمر النبي ﷺ وتحديًا له، ووضعوا هذا الرأي موضع التنفيذ، فالتزموا حصونهم بعد أن أعدوا بها ما يكفيهم من الماء والطعام ردحًا من الزمن، وظلوا كذلك عشرة أيام لا يغادرونها، فما كان من المسلمين إلا أن ساروا إليهم مدججين بالسلاح، فقاتلوهم عشرين ليلة وهم محصنون في بيوتهم، ولم يكن ثمة بديل من القضاء عليهم أو إجلائهم، هنالك أصدر النبي ﷺ أمره بقطع نخيلهم وحرقه لإكراههم على التسليم، فليس أشد وقعًا عليهم من رؤيتهم أموالهم تذروها الرياح، وهم أشد الناس حرصًا على متاع الحياة الدنيا، وتضحية في سبيله بقيم الشجاعة والشرف، وهم قد لاذوا بحصونهم رافضين الجلاء تعلقًا بهذه الأموال، فالآن لا يغنيهم إصرارهم شيئًا بعد أن يأتي المسلمون على نخيلهم.

ونجح تدبير الرسول ﷺ إذ خارت عزائمهم وأدركهم الجزع فصرخوا يعلنون استسلامهم في مقابل الإبقاء على زرعهم منادين النبي ﷺ بأنه كان ينهى عن الفساد ويعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾[الحشر] ردًّا مفحمًا لليهود فيما زعموا من فساد عمل الجند حين قطعوا زروعهم».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٢٢٠-٢٢١].

٣ ـ التدريب على قتال المدن والشوارع:

يقول ل/ خطاب: «نقل بنو النضير الحجارة إلى الشوارع، وجعلوا منها متاريس للقتال وراءها، كما دافعوا عن الشوارع والدور دفاعًا مستميتًا.

وقام المسلمون بتطهير الشوارع والدور والانتقال من شارع إلى آخر ومن دار إلى أخرى، حتى ضيقوا الحصار على يهود، وأجبروهم على الاستسلام.

إن قتال المدن والشوارع سهلٌ على المدافِع؛ لأنه يعرف الطرقات ومداخل البيوت ومخارجها، كما أن الشوارع والدور تقدم حماية للمدافعين؛ لذلك فإن مهمة قتال المدن والشوارع ليست سهلة على المهاجِم وتحتاج إلى قيادة مسيطرة وضبط متين وتدريب جيد.

إن نجاح المسلمين في قتال المدن والشوارع ضد يهود، يدل بوضوح على أن مستوى قيادتهم وضبطهم وتدريبهم كان رفيعًا جدًّا». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٨**].

٤ ـ سقوط الحصون التي لا تقهر أمام الإرادة القوية:

وينطلق جيش رسول الله ﷺ فور سماعه لنقض العهد إلى ديار بني النضير، فما أن وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ في الصباح حتى نهض إليهم فصلى العصر في فضاء بني النضير، وبني له قبة أمام حصونهم التي لم يكونوا يتخيلون أن يقهرها رسول الله ﷺ ولا أن ينـزلوا منها، ولا كان المسلمون ـ أنفسهم ـ يتخيلون هذا الأمر يأتي بهذه السهولة.

وما أشبه الليلة بالبارحة فقد كان يهود اليوم يزعمون أن خط بارليف لا يُقهر، ولكن الله زلزله تحت صيحات الله أكبر بسم الله في العاشر من رمضان.

وما ذلك إلا لأن الله هو الذي يتولى نصر المؤمنين ويقذف الرعب في قلوب الكافرين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

حقًّا يأتيهم الله من داخل نفوسهم فيرعبهم من المؤمنين الصادقين فينزلون من حصونهم ويخرجون منها، وليس ذلك فقط بل ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وكأن الله كان يعنينا منذ أربعة عشر قرنًا وهو يقول: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾.

اعتبروا بهذه المواقف التي يزلزل الله فيها أركان اليهود، ولكن بشرط أن يكون المسلمون تحت رايته ﷻ، وراية رسوله ﷺ لا تحت رايات كافرة: من الشيوعية تارة، والرأسمالية تارة، والعلمانية تارة... إلخ، فلن ينصرهم الله إلا إذا كانوا تحت الراية الإسلامية.

يقول د/ آل عابد: «إن المتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن الله هو الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم إلى الشام، حيث أول حشرهم، في حين أن كل الأسباب المادية معهم حتى اعتقدوا أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لقوتها ومنعتها.

لكن الله خالق الأسباب والمسببات جاءهم من حيث لم يحتسبوا، جاءهم من قلوبهم التي لم يتوقعوا أنهم يهزمون بها، فقذف فيها الرعب فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

وفي هذا الإخراج عِبر وعظات فليعتبر أولو الأفهام بما حل بهؤلاء اليهود، وبهذه الآية الكريمة بدأ الحديث عن غزوة بني النضير التي سجلها القرآن الكريم بطريقته الفريدة، حيث تكون بها تربية بالأحداث والوقائع، تختلف تمامًا عن طريقة أهل السير، وتمتاز بأنها تكشف الحقائق وتوضح الخفايا، ويربط كل الأحداث بفاعلها الحقيقي وهو الله رب العالمين، ومن ذلك أنها بينت أن الذي أخرج بني النضير هو الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

إن يهود بني النضير حَسَبوا كل شيء وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضية، لكن جاءتهم الهزيمة من مكان اطمأنوا إليه وهو أنفسهم، فإذا الرعب يأتيهم من داخلهم، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظة؛ لذلك يجب على كل إنسان عاقل أن يعتبر بهذه الغزوة، وأن يعرف أن الله هو المتصرف في الأمور، وأنه لا تقف أمام قدرته العظيمة لا الأسباب ولا المسببات، فهو القادر على كل شيء، فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ويصلحوا أمرهم، فإذا اتبعوا أمر الله أصلح الله لهم كل شيء، وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

وتسجيل القرآن الكريم للغزوة وما فيها من عبر جليلة تجعلها درسًا للأمة الإسلامية في جميع عصورها، تذكرهم أن طريق النصر قريب، وهو الرجوع إلى الله ﷻ والاعتماد عليه والتسليم لشريعته، وتقديره حق قدره، فإذا عرف ذلك المؤمنون نصرهم الله ولو كان عدوهم قويًّا وكثيرًا، فإن الله لا يُعجزه شيء، وأقرب شاهد واقعي لذلك هو إجلاء بني النضير، وهي عبرة فليُعتبر بها، والسعيد من اعتبر بغيره». [**حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ١/ ٢٧٠-٢٧١**].

ولابد أن يعلم كل مسلم أن الغرب والشرق من الكافرين والمشركين لا يخشون شيئًا إلا عودة الإسلام إلى أرض الواقع قولًا وعملًا، فهو الآن عدوهم الأول الذي اجتمعوا على حربه وإبادة أهله، ولن ينصرنا الله عليهم إلا إذا اعتبرنا بأحداث الصراع مع أجدادهم، ولن ينصرنا الله عليهم كما نصر أجدادنا إلا إذا كنا على عقيدتهم وبراءتهم من الكافرين والمنافقين.

٥ ـ مراقبة العدو في تحركاته:

يقول د/ أبو فارس: «إن الدارس لأحداث غزوة بني النضير يجد أن المسلمين كانوا لعدوهم بالمرصاد، يحصون كل حركة له وسكنة، أُخذ هذا من قتل عزوك اليهودي، إذ نصبوا له كمينًا في نفر من اليهود، وقد خرج هو ليصيب ساعة غرة من المسلمين فقبض عليه المسلمون وقتلوه».

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨١**].

٦ ـ تفقد أحوال الجيش والأفراد المقاتلين:

يقول د/ أبو فارس: «ونلاحظ أن المسلمين كانوا يتعارفون فيما بينهم، ويتساءلون عن أحوالهم، وعن إخوانهم فإذا ما تأخر جندي أو غاب وافتقدوه سألوا عنه، ولا تطمئن لهم قلوب إلا بعد معرفة كل شيء عنه.

ويؤخذ من هذا أمران:

الأمر الأول: لم يكن تصرف علي بن أبي طالب ﷺ مع نفر من الصحابة في نصب كمين لعزوك اليهودي تصرفًا ارتجاليًّا، وإنما كان بأمر عسكري من القائد الأعلى رسول الله ﷺ، فليس لأي واحد في الجيش أن يقوم بأي تصرف من التصرفات في المعركة إلا بعلم من القائد وموافقته، هذا هو الضبط العسكري، وهكذا ينبغي أن يكون الانضباط.

الأمر الثاني: إن لجوء المسلمين إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن أخبار علي بن أبي طالب ﷺ حين افتقدوه يدل على أن القائد ينبغي أن يُعاد إليه دون سواه في أخذ الأخبار الصحيحة والتعليمات، كما يدل على أنه مصدر المعلومات الموثقة، وعنده آخر التطورات والأخبار التي قد تخفى على كثير من العسكريين، فهو أعلم الناس بتحركات الجند والأمراء، بل ربما كلفهم بمهمة عسكرية، وهو أقدر الناس على الإجابة بما يحقق المصلحة العامة، وفق الظروف الواقعة، والأحداث الجارية».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨١-١٨٢].

٧ ـ تعلم القادة من خطة النبي ﷺ في إضعاف المقاومة اليهودية:

يحاصر رسول الله ﷺ حصون بني النضير ويرسم الخطة الناجحة في قتالهم وهي الخطة الصالحة للنصر إلى اليوم، وكأنها رسالة من رسول الله ﷺ إلى أمته في القرن الواحد والعشرين يعلمنا فيها كيفية معاملة أحفاد القردة والخنازير في كل عصر ومصر، فقد كانت خطة رسول الله ﷺ تعتمد على ركنين أساسيين:

أ ـ العمليات الفدائية.

ب ـ الحرب الاقتصادية.

أ ـ العمليات الفدائية: أما عن الأولى فنرى المسلمين في هذه الغزوة يفتقدون علي بن أبي طالب ﷺ من بينهم فيسألون رسول الله ﷺ عنه فيقول: **إنه في بعض شأنكم**، وما هي إلا دقائق يسيرة حتى يأتي الإمام علي ﷺ من عملية فدائية، وهو أحق الناس دائمًا بالقيام بالعمليات الفدائية، فهو ﷺ أول فدائي في الإسلام، يأتي الإمام علي ﷺ برأس رئيس فرقة الرماة من اليهود ويدعى «عَزْوَكُ»، وكان «عَزْوَكُ» في عشرة من اليهود خرجوا لاغتيال رسول الله ﷺ ليلًا فقتله علي ﷺ وفَرَّ بقية أصحابه، ولكن رسول الله ﷺ أرسل جمعًا من صحابته إلى هؤلاء اليهود العشرة فقتلوهم وألقوا برؤوسهم في الآبار.

إن رسول الله ﷺ يَعلمُ جبن اليهود وخوفهم وهلعهم من الموت؛ ولذلك اتخذ هذا الأسلوب ليقذف الرعب في قلوب اليهود، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين من الرعب من العمليات الاستشهادية التي يخشاها اليهود في فلسطين أكثر من خشيتهم من الجيوش العربية مجتمعة.

ولقد كان رسول الله ﷺ هو قدوة المسلمين في إقرار هذه الحركات الفدائية التي نراها اليوم على أرض الأقصى المغتصب، وندعو الله أن تكون بداية النصر، وألا يستطيع أحد من أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين وقفها؛ لأنها أولى الأركان الأساسية في حرب رسول الله ﷺ لبني النضير.

ب ـ الحرب الاقتصادية: المقاطعة والخسائر الاقتصادية: أما الركن الثاني في حربه ﷺ لهم فهو الحرب الاقتصادية، فالرسول ﷺ يعلم حب اليهود للمال وحرصهم عليه أكثر من دينهم وأعراضهم وكل شيء في هذه الحياة؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ بقطع بعض نخيل بني النضير حتى تعم الحسرة قلوبهم على هذه الأموال ويَفُتُّ في عضدهم وخاصة بعد تخلي المنافقين عنهم وتخلي بني قريظة عن إمدادهم ونصرتهم.

وقد آتت هذه الحرب الاقتصادية من رسول الله ﷺ أكلها بأن أوهنت وزعزعت قوى اليهود داخل حصونهم، وأدت إلى تسليمهم والرضوخ لأمر رسول الله ﷺ بالجلاء.

واليوم المسلمون مطالبون بأن يقتدوا برسول الله ﷺ في هذه الحرب الاقتصادية ضد اليهود وأعوان اليهود، فقد أفتى علماء المسلمين بحرمة شراء المنتجات اليهودية والأمريكية طالما أن هناك بديلًا لها من منتجات دول المسلمين، وحين نقول ذلك لا نستهين بأمر بسيط وهو مقاطعة المشروبات الغازية اليهودية، فيكفي أن تعلم أن كلمة «**بيبسي**» هي اختصار لجملة إنجليزية معناها «**ادفع سنتًا لتقيم دولة إسرائيل**».

ولا تتخيل أخي المسلم تأثير هذه المقاطعة على اقتصاد اليهود وأعوان اليهود إذا أخذها المسلمون مأخذ الجد، واقتدوا برسول الله ﷺ في حربه الاقتصادية لليهود؛ ولأنه يعلم مدى حبهم وحرصهم على المال بنصوص القرآن الكريم وشواهد تاريخ هؤلاء الملاعين.

وقد أفردنا المبحث الثالث لهذه المسألة بالتفصيل.

هذان هما الركنان الأساسيان في حرب رسول الله ﷺ لهؤلاء اليهود:

أ ـ الحركات الفدائية التي تثير الذعر والرعب في صفوف اليهود.

ب ـ والحرب الاقتصادية التي توهن عزائمهم وتفت في عضدهم.

ويقول د/ حبيشي: «رأى النبي ﷺ أن اليهود قد تحصنوا بحصونهم، وأنهم من وراء هذه الحصون التي تحصنوا بها، قد يتمكنون من رمي المسلمين وإحداث نسبة هائلة من الخسائر فيهم، وأن الحرب النظامية مع هذه الظروف حروب خاسرة، وانتهى القائد العظيم إلى خطة من نقطتين:

إحداهما: أن النبي ﷺ قد رأى أنه لابد من المقاومة الفردية التي تعتمد على التسلل واختراق صفوف العدو، وإحداث الخسائر في جنوده، والحصول على بعض أسلحته، وهذا الجزء من الخطة يُحدث الرعب في صفوف اليهود ويُعجِّل بالنصر والاستسلام.

ولقد بنى النبي ﷺ هذا الجزء من خطته على تصوره، بل علمه بالجانب السيكولوجي أو النفسي من شخصية اليهود، إذ اليهودي في كل عصر يكون خفيف القلب ضعيف الإرادة، لا يخف إلى إقدام، ولا يجد ما يدعوه إلى المخاطرة.

وهذا الجانب من شخصية اليهود قد علمه النبي ﷺ من تاريخ اليهود أنفسهم، ومن معايشتهم على أرض الواقع، ومن القرآن الكريم الذي أبرز له هذا الجانب من شخصية القوم، حين خاطبه في أكثر من موضع بهذا المعنى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة].

وهذا الجزء من الخطة التي قرر النبي ﷺ اصطناعها، يحتاج إلى قدر كبير من المخاطرة بالنفس، والنبي ﷺ كعادته دائمًا حين يحسب الموقف ويجد فيه كثيرًا من المخاطرة، فإنه إما أن يباشره بنفسه، أو يبدأ بأقرب الناس إليه.

وفيما نحن فيه اختار النبي ﷺ أحد أهل بيته ليقوم بأول هذه المهمات، ولكن في سِرِّيَّة مطلقة لا يكاد معها يَعرف بالأمر إلا من عهد إليه بتنفيذه، والقائد الذي كلفه والله من ورائهم محيط، وما ذلك إلا للحد من نسبة الخسائر المحتملة، وهو مطلب يطلبه كل قائد حريص على جنوده، مبق على رجاله، وهو هدف يحرص عليه كل رجل يقوم بعملية في صفوف العدو للإبقاء على نفسه وإخوانه للقيام بعمليات أخرى، فإن لم يرد الله مع هذه الحيطة إلا الاستشهاد، كان الاستشهاد عنده مطلبًا عزيزًا، وحياة في الدار الآخرة لا يعقبها فناء.

حرص النبي ﷺ أن يكون أول خارج لتنفيذ هذا الجزء من الخطة التي ارتآها النبي ﷺ ليتفادى بها الحرب النظامية أعز رجل عليه من أهل بيته، وهو علي رضي الله عنه كما رأينا.

وفي الطلعة الثانية أرسل النبي ﷺ مع علي رضي الله عنه أبا دجانة وسهل بن حنيف رضي الله عنهما في عشرة من أصحابه رضي الله عنهم، فأدركوا اليهود الذين فروا من علي رضي الله عنه، فقتلوهم وطرحت رؤوسهم في بعض البئار.

واستمر النبي ﷺ على هذا الجزء من الخطة يتابعه ليلة بعد ليلة حتى أتى بثماره من صد هجمات العدو عنه وتتبعهم له ولأصحابه ظانين أنهم يدركونه وينالون منه بهذا الأسلوب.

وثانية النقطتين: في خطة القائد العظيم ترتكز هي الأخرى على جوانب نفسية يعرفها النبي ﷺ من شخصيات اليهود، يعرفها منهم عن طريق معايشتهم، وهو يعرفها منهم عن طريق معرفته بتاريخهم، وهو يعرفها عنهم عن طريق الوحي.

وهذه النقطة الثانية في هذه الخطة للقائد العظيم ﷺ تدور كلها حول المال وتعلُّق اليهود به.

ويهود بني النضير كانوا زراعيين يزرعون النخيل والكروم، ويجنون ثمارها.

ولو أراد النبي ﷺ أن يفت في عضد المحاربين، ويوهن من عزائمهم من غير إحداث كبير خسائر في أفراده أو أفراد العدو، فما عليه إلا أن يُشعرهم بأن أصول اقتصادهم تحت يده، إن شاء تركها، وإن شاء نال منها.

وهذا التصور الذي تصوره النبي ﷺ صحيح إلى حد كبير، بل هو صحيح بجميع المقاييس، إذ القاعدة الأساسية التي قام عليها هذا التصور قد أثبتها التاريخ على مدار السنين وفي خضم الأحداث.

ولم يتردد النبي ﷺ في مباشرته لهذه الجزئية من خطته، كي تؤتي ثمارها مع الجزئية السابقة عليها، وتكتمل الخطة من هذين الجزأين جميعًا.

أصدر النبي ﷺ تعليماته إلى رجاله أن ينالوا من ثمار النخيل شيئًا ما؛ بقصد إحداث الألم في قلوب اليهود، وقد فعل المسلمون ذلك في عدة طلعات مختلفة أتت بثمارها السريعة، وكان لها ردود فعل مختلفة، وردود الفعل تلك تتلخص في نقطتين:

النقطة الأولى: أن اليهود قد رأوا فيما فعله النبي ﷺ فرصة متاحة يمكن استغلالها في شق صفوف الوحدة حول النبي ﷺ عمليًّا وفكريًّا، فأشاعوا أن النبي ﷺ متناقض مع نفسه فأقواله تخالف أفعاله (وحاشاه)، ذلك أنه ينهى عن الإفساد والفساد وهو الآن يأمر بتقطيع النخيل، أو إتلاف بعض ثمارها.

واستجاب بعض المسلمين لهذه الشائعات، وهم وإن كانوا لا يشكون في تصرفات النبي ﷺ إلا أنهم قد شكوا في تصرفات الرجال الذين قد قاموا بهذه العمليات المتصلة بأصول اقتصاديات اليهود، ولم يفرقوا وهم تحت تأثير الدعاية العالية بين عمل يقصد لذاته، وآخر يكون القصد منه هو التأثير على مجريات الأحداث في الحروب حقنًا للدماء من الفريقين، خاصة دماء المدنيين من غير المحاربين كالنساء والأطفال.

ولقد كان الوحي رحيمًا بالمسلمين حيث بيَّن لهم ولليهود الذين يعلمون صدق النبي ﷺ، أن هذا التصرف الذي تصرفه بعض رجال المسلمين كان مصدره الوحي، حيث قال الله ﷻ في سورة نَزلت كلها في يهود بني النضير وفيها قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر].

والنقطة الثانية: من ردود فعل اليهود مترتبة على فشلهم في النقطة الأولى، وهي أن اليهود حين رأوا أن مقاومة المسلمين لهم قد امتدت إلى أصول اقتصادهم، ورأوا مع ذلك أن حلفاءهم قد تخلوا

عنهم، رفعوا رايات الاستسلام، وطلبوا إلى النبي ﷺ أن يجالسهم ليتفاهموا معه».
[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٠٨-١١٢].

٨ ـ أموال بني النضير قوة للمسلمين:

يقول أ/ رضوان: «وزع الرسول ﷺ أرض بني النضير وكذلك ما بقي من أموالهم على المهاجرين، فعوضهم الله ـ تعالى ـ على أموالهم التي اغتصبتها منهم قريش في مكة، واستغنوا عن معونة إخوانهم الأنصار، ووزعت الأسلحة التي تركوها على المسلمين، فزادوا قوةً، وكبت الله المنافقين وما بقي من اليهود». [محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨١].

المطلب الثامن
الدروس الدعوية

١ ـ تفاعل الدعاة مع الأحداث:

يقول د/ زيدان: «موضوع الدعوة هو الإسلام بجميع معانيه، والدعاة يدعون إلى الإسلام، أي إلى معانيه كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما استنبطه منهما أهل العلم.

ومن جملة معاني الإسلام ما يتعلق منها بحالة الحرب التي قد تكون فيها الدولة الإسلامية، وللحرب مقتضياتها التي يجب مراعاتها، أو يجوز الأخذ بها تحقيقًا لمصلحة شرعية راجحة أو دفعًا لمفسدة، وإن كان المأخوذ بها في الأحوال العادية لا يجوز الأخذ به، ومن ذلك ما ورد في غزوة بني النضير، وما صدر عن المسلمين من قطع بعض نخيل بني النضير مراعاة لمقتضيات الحرب على النحو الذي بيناه، فعلى الدعاة تبيين هذا المعنى لأولي الأمر في البلاد الإسلامية؛ ولأن القتل وإزهاق النفوس يجوز في الحرب، فما دون ذلك من إتلاف مال العدو جوازه أولى، وإذا كان إتلاف مال يجوز لمقتضيات الحرب ومقتضيات عدائه، فجواز ما دون إتلاف ماله أولى، مثل مقاطعة العدو اقتصاديًّا إذا أمكن، وعدم ترويج سلعه وبضاعته، واستخدام أفراده وأتباعه، على أن يكون ذلك كله موزونًا بميزان الشرع ومحققًا للمصالح الشرعية.

ويمكن أيضًا للجماعة المسلمة ـ جماعة الدعاة ـ حماية لنفسها من أذى أعدائها وأعداء الإسلام، أن تمتنع عما فيه عون لهم اقتصاديًّا أو معنويًّا، فيمتنع أفراد الجماعة المسلمة من شراء بضائع خصوم الدعوة أو مساعدتهم، وترك أنصار الدعوة وأنصار الجماعة المسلمة دون معاونة ومساندة.

فعلى الدعاة تبصير أنفسهم وأعوانهم وعموم المسلمين بهذا المعنى البسيط، وهو الابتعاد عن معاونة ومساندة خصوم الدعوة، ولكن لا يجوز إتلاف مال العدو وتحريقه قياسًا على ما يجوز للدولة الإسلامية فعله مع أعدائها في حالة الحرب؛ لأن هذا قياس مع الفارق؛ ولأن الجماعة الإسلامية إن فعلت ذلك خرجت عن صفتها المميزة وهي جماعة دعاة إسلامية». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٨٩-٢٩٠].

٢ ـ إيثار بعض الدعاة بالعطاء:

يقول د/ زيدان: «ويجوز لجماعة الدعاة أن تؤثر أحد دعاتها أو بعضهم على البعض الآخر في العطاء، أي في الأشياء المادية التي تملكها والمرصدة لأعضائها والدعاة فيها، على أن يكون هذا الإيثار بمبرر شرعي، كما حصل في قسمة أموال بني النضير التي غنمها النبي ﷺ فأعطاها للمهاجرين دون الأنصار إلا اثنين أو ثلاثة منهم لفقرهم، وإنما آثر النبي ﷺ المهاجرين بأموال بني النضير وقسمتها عليهم لحاجتهم وفقرهم.

فعلى الدعاة وأنصار الجماعة المسلمة أن لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا أو سخطًا على الجماعة إذا آثرت بعضهم في العطاء لمبرر شرعي هي تقدره، وعليهم أن يحملوا تصرفها على محمل حسن، ووجود المبرر الشرعي لفعلها، مثل حاجة من آثروه بهذا العطاء، أو أن متطلبات عمله في الدعوة يستلزم هذا العطاء ونحو ذلك». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٩٠-٢٩١].

٣ ـ تحقيق معاني الأخوة والإيثار بين الدعاة:

يقول د/ زيدان: «وعلى الدعاة أن يحرصوا على تحقيق معاني الأخوة الإسلامية ومقتضياتها، ويرتقوا إلى مستوى الإيثار الذي وصل إليه الأنصار في علاقتهم مع المهاجرين، وأن يدعوا المسلمين إلى معاني الأخوة الإسلامية، وتذكيرهم بما كان عليه الصحابة الكرام من هذه المعاني ومن معاني الإيثار، ويرووا لهم القصص في الإيثار التي ذكرتها عن الصحابة الكرام.

وعلى هذا فمن غير المقبول من الدعاة أو من أعضاء الجماعة المسلمة، ونحن ندعوهم إلى إقامة هذا المجتمع الإسلامي المتميز فيما بينهم، أقول من غير المقبول أن يقع بينهم حسد أو حقد أو بغض، وإذا وقع شيء من هذه القاذورات في قلوبهم، فعليهم أن يبادروا إلى تطهير قلوبهم منها كما يسارعون إلى تطهير أبدانهم من النجاسة إذا وقعت أو حصلت فيها». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٩٣].

٤ ـ عبرة وعظة لقتلة الدعاة والمصلحين:

يقول د/ أبو فارس: «في مقتل عمرو بن جحاش اليهودي الذي أراد أن يلقي حجرًا على رأس رسول الله ﷺ عبرة لكل معتبر، وعظة لمن أراد أن يتعظ، فالذين يفكرون في الاعتداء على الدعاة والصالحين أو يعتدون عليهم، عليهم أن يفكروا جديًّا في مصيرهم، ويحذروا مغبة هذا الاعتداء والتنكيل، سيبقى شبح الذي قتلوه يلاحقهم في كل لحظة وفي كل مكان.

إن الذين يطاردون الدعاة إلى الله لا خَلاق لهم في الدنيا والآخرة، طبع الله على قلوبهم، قد وضعوا أنفسهم في زمرة اليهود الذين أعمى الحقد على الإسلام أبصارهم وبصائرهم فشقُوا وأشقوا غيرهم، وإن على البشرية أن تأخذ على أيدي هؤلاء المدمرين لها ولأخلاقها ولحياتها».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٤].

المبحث الثالث

مقاطعة بضائع الأعداء فريضة شرعية وضرورة حياتية وقومية

من أهم الدروس التي تُستفاد من غزوة بني النضير هو ضرورة الحرب الاقتصادية لأعداء الإسلام والمسلمين، وهو ما سنفصل القول فيه في هذا المبحث.

ولكني أريد هنا أن أقول: إنه في ظل هذه الهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين من أعدائهم، فلابد أن يراجع المسلمون أمورهم، وخاصة العقائدية في مسألة الولاء والبراء لأعداء الإسلام والمسلمين، فضلًا عن مساعدتهم ومساندتهم في هذه الحرب الشرسة، ولابد أن يكون لهم مواقف عملية تؤكد حقيقة الولاء والبراء لديهم؛ لأنها من أهم أسس العقيدة، وهو ما أكده الله تعالى بعد غزوة بدر الكبرى بقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

ومن هذا المنطلق في بيان حقائق هذا الإسلام الذي غفل عنها الكثيرون من أبنائه بسبب الشبهات المثارة حول أحكامه المختلفة، وكذلك الشهوات التي يعرضها عليهم الأعداء ليشتروهم بها من المنصب والمال وغير ذلك، جاء هذا المبحث للإشارة العابرة حول هذا الموضوع الذي تناوله كثير من علمائنا بالشرح والتفصيل.

وسأشير إلى بعض هذه المراجع لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع الحيوي الهام.

مقاطعة اليهود والأمريكان
من صفات عباد الرحمن [(١)]

من يحمل هم الإسلام؟: إن هَمَّ الإسلام في هذه الأيام هَمٌّ ثقيل، فإذا ما طُفت بنظرك في أي اتجاه تجده مسفوكة دماه، مهانًا بين العباد، قد تمرغ وجهه في وحل الكفر والطغيان، إذا ما نظرت إلى لون أحمر، وسألت عنه؟ قيل لك: دم مسلم مباح.

حينئذ لابد أن نسأل أنفسنا: من يحمل هَمَّ الإسلام؟

إن الإسلام اليوم لا يحتاج إلى عدد، فالعدد وفير، والمسلمون كثير، يسدون عين الشمس في ضحاها، ولكن يحتاج إلى قلوب تنبض وعقول تفكر وأجساد تتحرك.

---

(١) عنوان كتاب للمهندس/ صالح عبد الحميد البنا ـ ط شركة زهرة المدائن بالمنصورة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م ـ ٧٧ص، وهناك كتاب آخر بعنوان: **مقاطعة بضائع الأعداء فريضة وضرورة** ـ أ/ محمد السيد الشناوي ـ أُحد للدعاية والكمبيوتر ـ القاهرة ٢٠٠٤ م ـ ١٥٢ ص، وقد أخذت من الأخير بعض الفقرات المهمة لاستكمال بعض جوانب الموضوع باختصار، وينظر للتفصيل:

١- **أحكام المقاطعة الاقتصادية في الفقه الإسلامي** (ماجستير) ـ د/ عبد الله عدنان عبد الله القطان ـ إشراف د/ عبد الله محمد الصالح، ود/ محمد بن أحمد باصقر ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة اليرموك ـ إربد ـ الأردن ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م ـ ٢١٥ص.

٢- **حكم مقاطعة بضائع المحاربين للدين الإسلامي** ـ د/ سعد الدين بن محمد الكبي ـ مجلة البحث العلمي الإسلامي ـ عدد خاص بنصرة النبي محمد ﷺ ـ السنة الثانية ـ العدد السابع ـ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ/ أيار (مايو) ٢٠٠٦م ـ ص ٦٧-٨٥ ـ طرابلس ـ لبنان.

٣- **المقاطعة الاقتصادية حقيقتها وحكمها** ـ د/ خالد بن عبد الله الشمراني ـ دار ابن الجوزي ـ الدمام ١٤٢٦هـ ـ ٨٨ ص.

٤- **المقاطعة الاقتصادية مفهومها وأحكامها في الفقه الإسلامي** (ماجستير) ـ د/ عبد القادر بن سلطان الدوسري ـ إشراف د/ محمود علي مصلح السرطاوي ـ كلية الدراسات العليا ـ الجامعة الأردنية ـ عمان ـ الأردن ٢٠٠٩م ـ ٢٨٤ ص.

٥- **المقاطعة الاقتصادية: تأصيلها الشرعي، واقعها، والمأمول لها** (ماجستير) ـ د/ عابد بن عبد الله السعدون ـ دار التابعين ـ الرياض ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م ـ ٢٣٥ ص.

٦- **المقاطعة في الشريعة الإسلامية والقانون: دراسة مقارنة** (ماجستير) ـ د/ فضلي صديق إبراهيم مخير ـ إشراف د/ أبو بكر محمد أحمد ـ كلية الشريعة والقانون ـ جامعة أم درمان الإسلامية ـ الخرطوم ـ السودان ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ـ ٢٧٥ص.

٧- **المقاطعة: فريضة شرعية وضرورة قومية** ـ د/ راغب السرجاني ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ القاهرة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ـ ٩٥ ص.

قلوب تنبض بمشاكله وأحزانه وآماله، وعقول تفكر في حل هذه المشكلات وإزالة تلك العقبات ليسود على ربوع الدنيا، وأجساد تتحرك لتحمل هذه الحلول فتصل إلى نهاية الطريق فتتحقق الآمال؛ ولذا يصبح هو القوة الوحيدة؛ لأنه يستمد قوته من خالقه لا من بشر وطبيعة.

إن الظلام حالك تتجمع كتله لتُغير على أشعة النور فتقتلها ولكن هذه الأشعة ستكون حرابًا مسنونة تصيب الظلام في مقتل فيموت مدحورًا مذمومًا تكسوه أردية الذل والعار.

لنكن ممن قال الله فيهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

لنكن ممن قال فيهم الرسول ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ**».

[الترمذي في الفتن (٢٢٦٠)، وَقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وَعُمَرُ بْنُ شَاكِرٍ شَيْخٌ بَصْرِيٌّ قَدْ رَوَى عَنْهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلمِ. وقال الشيخ الألباني: صحيح].

فهل نعيش قضية الإسلام؟ هل نُلق الأحلام وراء ظهورنا ونضع الواقع نصب أعيننا وننصر دين الله؟

حينئذ سنكون ممن يحمل هَمَّ الإسلام؟!

فرضية الجهاد في هذا العصر: إن الجهاد في سبيل الله في عصرنا فرض عين على كل مسلم ومسلمة بالنفس والمال واللسان، كل بما يستطيع؛ لأن المسلمين قد اعتُدي عليهم، واغتُصبت أرضهم وديارهم، وطلبوا العون من إخوانهم واستنصروهم، والجهاد في هذه الحالة لا يكون إلا فرض عين على كل مسلم باتفاق العلماء.

ولهذا ففرض عين على كل مسلم في الأرض أن يعاون إخوانه في أرض الرباط والجهاد ـ فلسطين والعراق والشيشان وغيرها ـ بالنفس والمال واللسان، بقدر ما يستطيع.

ومن العون المطلوب والجهاد المفروض مقاطعة أعدائهم وخاصة في البيع والشراء، وهو من الجهاد الاقتصادي.

وقد تأكد لنا أن شراء بضائعهم يمكِّنهم من الربح المالي في ديارنا؛ ليجعلوه سلاحًا قاتلًا لإخواننا في أرض الرباط والجهاد؛ ولهذا كانت مقاطعتهم فرضًا لازمًا.

ماذا نريد بالمقاطعة؟: المقاطعة نعني بها: الامتناع عن التعاون مع الأعداء في مجالات الحياة، وخاصة في مجالات المال والبيع والشراء، فلا نبيع لهم ما يحتاجون إليه من بضائعنا، ولا نشتري منهم بضائعهم بما يقويهم ويمكنهم من الاعتداء علينا.

أو بتعبير آخر هي:

أ ـ منع تدفق الأموال، والمواد الخام، والبضائع، والخبرات الفنية إلى الأعداء.

ب ـ ومنع استيراد بضائعهم وترويجها في أقطار الأمة، والاستغناء عنها بالبضائع الإسلامية، ثم ببضائع البلاد غير المعادية للأمة.

لماذا نقاطع اليهود والأمريكان؟: أجبني عن هذه الأسئلة أولًا أجيبك عن سؤالك؟!

هل أرض فلسطين مِلكٌ للمسلمين أم لليهود والأمريكان؟

هل يرضيك سلب واغتصاب المسجد الأقصى؟!

هل يرضيك ما يحدث للمسلمين من قتل وتشريد على أيدي اليهود؟

أظنك مثلي يدب في عروقك دم الإسلام الحامي سنجيب: بلا، وألف لا، إن أرض فلسطين هي وقف إسلامي مِلكٌ لكل المسلمين في كل بقاع الأرض، ليس لليهود ولا للأمريكان جزء قيد أنملة فيها، وإن ما يحدث لأطفالها وشيوخها ونسائها من قتل وتشريد لينادي بصوت مبحوح ضائع وسط غابة الوحوش:

أين المسلمون؟ أين حماة العِرض ورافعي لواء العزة؟!

إني أرى المسجد الأقصى الآن حزينًا كئيبًا تدمع عيناه دماء ينادي وسط الشتات: أين أنت يا بلال كي تؤذِّن فوقي كما أذنت من قبل يوم فتَح عمر ﷺ مدينتي «القدس».

أين أنت يا صلاح الدين لينادي: هيا للجهاد؟! هيا للجنة؟! فهل من المعقول لذي لب أن يحابي عدوه.

ألا توقن أن اليهود و الأمريكان هم أعداؤك؟

قال ﷺ: «**مَا خَلا يَهُودِيٌّ قَطُّ بِمُسْلِمٍ إِلَّا حَدَّثَ نَفْسَهُ [هَمَّ] بِقَتْلِهِ**» (١).

إن اليهود هُم قَتَلة الأنبياء، وسفاكي الدماء، وأعداء السماء.

الحقد الدفين يملأ قلوبهم، لا يعترفون بشعب من الشعوب غيرهم.

هم السادة وما سواهم عبيد.

ألم تعلم أن غالبية المؤسسات والشركات الأمريكية هي لرجال أعمال يهود؟!

فهل بعد ذلك يحق لك أن تحابي هذا العدو؟! أولى لك أن تقاطعه حتى يتغير قلبه صوبك إلى حب، وحتى يزيل البغض من قلبه فيمتنع عن حربك وعداوتك، ولن يحدث ذلك ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ

---

(١) **ضعيف**: رواه الديلمي والخطيب وابن النجار عن أبي هريرة ﷺ ـ ضعيف الجامع الصغير: ٥٠٦٢، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف ١٠/ ٣٦٢ رقم ١٩٣٧٦ بنحوه، ورغم ضعف سند الحديث إلا أنه أصبح حقيقة لا تُنكر في عالم الواقع!

ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ [المائدة: ٨٢]، ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾[البقرة: ١٢٠].

أليست هذه آيات القرآن التي تُلقى على أسماعنا ليل نهار ونحن عنها غافلون؟ متى نستيقظ؟! إن مقاطعة اليهود والأمريكان أمر حتمي وضروري، وإنَّ دَعْمَنا لانتفاضة الأقصى وانتفاضة إخواننا في الأرض الحزينة: أرض الإسراء، يتمثل في أشياء منها:

ـ الجهاد بالسلاح.

ـ الجهاد بالمال.

ـ الامتناع ومقاطعة شراء بضائع ومنتجات العدو.

ـ الدعاء لهم بالنصر.

إن الإسلام يطلب منك أن تحمل سلاحًا الآن.

فإن كان في مقدورك أن تفعل فافعل.

وإن لم يكن في مقدورك أن تمتنع عن شراء أي سلعة، وأن تبحث عن مصدرها فإن كانت لشركة يهودية أو أمريكية فحينئذ وجب عليك أن تستبدلها بأخرى من صناعة بلدك أو أهل دينك وعشيرتك.

هل هذا أمر مرهق أن تفعله؟!: أم أننا في السلبية إلى آذاننا، فلا نستطيع الخروج من هذا البحر الذي غرقنا فيه؟؟

المقاطعة عبادة وجهاد: من الوسائل الدافعة إلى مقاطعة الأعداء أن نغرس في أبناء الأمة أن مقاطعة الأعداء وخاصة في البيع والشراء، بنية إضعافهم، ورد عدوانهم عن المؤمنين، قيامًا بفريضة معاونة إخوانهم المجاهدين ونصرتهم، ومشاركتهم في الجهاد والرباط في سبيل الله تكون المقاطعة بهذه النية عبادة لله تعالى، وجهادًا في سبيله، كإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومقاتلة العدو في أرض المعركة، ويوضح هذا ويؤكده أمور ثلاثة:

١ـ تقرر في الإسلام أن النية الصالحة تُحوِّل العمل والعادة إلى عبادة لله وجهاد في سبيله، والنبي ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ [بِالنِّيَّةِ]، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**». [البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وغيرهما].

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**». [البخاري في العلم (١٢٣)، وفي

الجهاد والسير (٢٨١٠)، وفي فرض الخمس (٣١٢٦)، وفي التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، وأحمد عن أبي موسى الأشعري ﷺ (١٨٩٩٩، ١٩٠٩٩، ١٩١٣٤، ١٩٢٤٠، ١٩٢٤١)].

قال العلماء: النية تؤثر في الفعل، فيصير بها تارة حرامًا، وتارة حلالًا، وصورته واحدة، كالذبح مثلًا، فإنه يحل الحيوان إذا ذبح لأجل الله، ويحرمه إذا ذبح لغير الله، والصورة واحدة.

[إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ١٠/ ٣٩].

حتى المباحات والعادات الفطرية تتحول بالنية الصالحة إلى عبادة لله تعالى وقربة له، كالأكل والشرب، والبيع والشراء إذا نوى بها المسلم اكتساب القوة لعبادة الله تعالى، ونصرة المجاهدين، ومجاهدة الأعداء تكون عبادة لله تعالى، وجهاد في سبيله يثيبه الله عليه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص ﷺ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً ـ تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ ـ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ**».

[البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (٤١٨٥)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذي (٢١١٦) وأحمد (١٥٢٤، ١٥٤٦) وغيرهم كثير عن سعد ﷺ].

ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون له عمل فليحسن نيته، فإن الله ﷻ يأجر العبد إذا حسن نيته حتى في اللقمة. [جامع العلوم والحكم في الحديث الأول ١/ ٤٣].

٢ـ امتثال تعاليم الله ورسوله عبادة لله تعالى: ومن ناحية أخرى فإن مقاطعة الأعداء بنية طاعة الله تعالى ورسوله في التعاون مع المؤمنين على البر والتقوى ومجاهدة الأعداء كما في قوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] يكون الامتثال بهذه النية عبادة لله تعالى وقربة له، وجهادًا في سبيله.

المقاطعة هي الجهاد المستطاع:

وما دام المسلم لا يستطيع مشاركة المجاهدين إلا بمقاطعة الأعداء في البيع والشراء، ففرض عليه أن يقوم بها بنية مشاركة إخوانه في الجهاد والرباط، هم يجاهدون بالنفس، وهو يجاهد بالمقاطعة.

والإسلام لم يكلف المسلم إلا ما في استطاعته، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف].

والنبي ﷺ يقول: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**».

[مسلم (٦٠٦٦) وغيره عن أبي هريرة ﷺ، كما في صحيح الجامع ٥٨١٠].

فإذا قاطع المسلم أعداء أمته بنية مشاركة المجاهدين في جهادهم، حيث لا يستطيع إلا ذلك كان شريكًا لإخوانه في الجهاد والرباط.

وفي غزوة تبوك عجز جماعة من المؤمنين عن الخروج فيها؛ لفقرهم وعجز الجيش عن حملهم معه مع

رغبتهم الشديدة في الخروج فيها؛ ولهذا عدهم النبي ﷺ في المجاهدين الخارجين فيها، وفيهم يقول ﷺ: «**إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**».

[البخاري (٢٨٣٩)، وغيره عن أنس ﷺ، كما في صحيح الجامع ١٥٧٥].

وفي رواية: «**لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ، وَلاَ قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟! فَقَالَ ﷺ: «**حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**».

[البخاري وغيره عن أنس ﷺ، كما في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٢].

وفيهم يقول الله تعالى مبينًا قصتهم وعذرهم: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة].

إن هذه المعاني إذا غرسناها في أبناء الأمة وتربوا عليها سارعوا صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساء إلى مقاطعة أعدائهم في البيع والشراء، وفي غيرهما قيامًا بفريضة النصرة لإخوانهم المجاهدين ومشاركة لهم في الجهاد والرباط الذي فرضه الإسلام على كل مسلم على الأرض.

الولاء للمؤمنين: ومن الوسائل الأساسية لتحفيز الأمة لمقاطعة أعدائها ومجاهدتهم أن نحيي في أبنائها فريضة الولاء للمؤمنين، والعداء لأعدائهم، وأن نغرس فيهم أنها فريضة ربانية لا يجوز للمسلم تركها، وأنها حق المسلم على إخوانه لا يجوز التفريط فيه، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

ويقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

الإيمان أساس الولاء: والإيمان هو أساس الولاء بين المؤمنين وترابطهم على اختلاف ألوانهم وأوطانهم وألسنتهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة].

ويقول ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [الأنفال: ٧٢].

والولاء للمؤمنين الذي نريده له صور عديدة، منها:

١ـ التلاحم بالمؤمنين، والشعور بآلامهم، ومناصرتهم وخاصة في أوقات الشدائد والمحن، كالبنيان الذي تلاحمت لبناته، فيقوى على حمل الأثقال، ومقاومة الأخطار، كما يقول النبي ﷺ: «**الـمُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ**». [البخاري في الصلاة (٤٨١)، وفي المظالم والغصب (٢٤٤٦)، وفي الأدب (٦٠٢٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٠)، وأحمد عن أبي موسى الأشعري ﷺ (١٩١٢٧، ١٩١٢٨، ١٩١٦٨)].

«**مَنْ لَا يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الـمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ**». [أخرجه الطبراني في الصغير ص ١٨٨، والأوسط ٢/ ١٧١/ ١/ ٧٦٢٦، وعنه أبو نعيم في أخبار أصبهان ٢/ ٢٥٢، وضعفه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة ١/ ٤٨٣ رقم ٣١٢].

٢ـ اتخاذ الأصفياء والنصراء من المؤمنين وحدهم: فالمؤمنون إخوة، وبعضهم لبعض قوة وإن تناءت بينهم الديار، بخلاف غير المؤمنين فلن يخلصوا لهم أبدًا مهما أحسنوا لهم القول، وخاصة إذا كانوا أعداءهم، والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾[آل عمران].

٣ـ معاداة أعداء المؤمنين: وقد قال علي بن أبي طالب ﷺ: **ثلاثة عدوك: عدوك، وصديق عدوك، وعدو صديقك.**

والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة]، وإذا ثبت النهي عن موالاة الأعداء لزمت معاداتهم.

والولاء للمؤمنين يقتضي مقاطعة أعدائهم ولابد، وخاصة في مجال البيع والشراء.

ولو غرسنا هذه الفريضة الربانية في أبناء الأمة لسارعوا إلى مقاطعة أعدائهم في البيع والشراء وغيره.

تبصير الأمة بحقيقة أعدائها: ولابد لولاة الأمر من الساسة والعلماء أن يبينوا لأبناء الأمة حقيقة أعدائهم، ويبصروهم بمكرهم وخططهم وموقفهم الحقيقي من أمتهم، حتى لا ينخدعوا بكلامهم، ولا يغريهم بريق شعاراتهم وزخرف ثقافتهم، ولا يطمئنوا لوعودهم؛ ولهذا أكثر الله من الحديث عن أهل الكتاب والمشركين في القرآن، مبينًا أخلاقهم ومكرهم وعداوتهم للإسلام وأهله، يقول ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾[الأنعام].

أي: أن الله تعالى فصَّل الآيات وبيَّن الأخبار عن المجرمين لتتضح معالمهم ومناهجهم وأخلاقهم وخططهم أمام المؤمنين؛ ليميزوا الحق وأهله ويوالوه، ويعرفوا الباطل وأتباعه ويعادوه.

ومن قرأ القرآن الكريم وجد هذا واضحًا، وجد أن الأعداء لا يُضمرون حبًّا للأمة، ولا يريدون لها خيرًا، وإنما يسعون إلى الإضرار بها وإزالتها بما استطاعوا من الطرق سواء أكان عن طريق بضائعهم أم عن طريق غيرها.

ويقول ﷻ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾[البقرة]، ويقول ﷻ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[آل عمران]، ويقول ﷻ: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾[البقرة: ٢١٧]، ويقول ﷻ: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة]، ويقول ﷻ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[البقرة: ١٢٠].

وبهذه الآيات وغيرها تظهر حقيقة الأعداء في موقفهم من الأمة، إنهم لا يضمرون لها حبًّا، ولا يريدون لها خيرًا، ويسعون للإضرار بها، ويوم أن تقوى شوكتهم، ويظهروا عليها، يبسطوا إليها أيديهم بالإيذاء والقتال، وألسنتهم بالسب والتشويه، ولا يراعوا فيها أخلاقًا ولا عهدًا، ولن يرضوا عنها إلا بقتل أبنائها، أو ردتها عن إسلامها إن استطاعوا.

وهذا ليس تجنيًا على أعداء الأمة وخاصة من اليهود، فتوراتهم المحرفة ناطقة بأوصافهم هذه، ونسوق نصين منها للبيان:

(١) جاء في سفر المكاتبين الثاني ١٥/ ٨٤ قوله: «**وقال موسى: يا رب لماذا خلقت شعبًا سوى شعبك المختار؟ قال: لتركبوا ظهورهم، وتمتصوا دماءهم، وتحرقوا أخضرهم، وتلوثوا طاهرهم، وتهدموا عامرهم**». [الطريق إلى بيت المقدس ـ د/ جمال عبد الهادي ١/ ١٦٤].

(٢) وجاء في سفر التثنية ٢٠: ١٦، ١٧ قول الرب لموسى: «**وأما مدن هذه الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبقي منهم نسمة ما، بل تحرمهم (تبيدهم) الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحيويين واليبوسيين**».

وذكرت توراتهم صورًا بشعة لطريقة قتلهم أعداءهم تنبئ عن قسوة قلوبهم، كما يقول ﷻ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة].

هذا البيان ـ لو عنينا به ـ من شأنه أن يدفع الأمة لتأخذ حذرها، ولا تأمن أعداءها، وأن تجاهدهم بكل أسلحتها المتاحة لها، وبمقاطعة بضائعهم وإضعاف قوتهم، أو بالجهاد المالي، أو بالجهاد العملي أو بالجهاد المسلح ونحو ذلك؛ ولهذا يقول ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾[الأنعام].

تاريخ المقاطعة العربية: تعود فكرة المقاطعة العربية لليهود إلى عام ١٩٢٢م، وذلك حينما قاطع أبناء فلسطين السلع اليهودية، وكان ذلك ردًّا على مقاطعة اليهود للسلع العربية.

وفي عام ١٩٤٥م بدأ تاريخ المقاطعة العربية لليهود في فلسطين رسميًّا، عندما اتخذت جامعة الدول العربية قرارات وتوصيات بضرورة المقاطعة الاقتصادية لليهود، وتُعتبر هذه المقاطعة عملًا دفاعيًّا مشروعًا أقرته جامعة الدول العربية كإحدى الوسائل التي يستخدمها العرب ضد الاعتداءات الواقعة عليهم من اليهود، كما تُجسد المقاطعة العربية لليهود دفاعًا عن الوجود العربي أمام الصهيونية في احتلال الأراضي العربية والاعتداء على الشعوب وتهديد الأمن القومي العربي.

وفي عام ١٩٥١م أَنشأت جامعة الدول العربية جهاز المقاطعة الاقتصادية لليهود الذي عمل بكفاءة وفاعلية، فقد تم تشكيل لجنة دائمة للمقاطعة بدلًا من اللجنة المؤقتة لمتابعة تنفيذ قرارات المقاطعة، ثم تطورت بعد ذلك، حيث تم نقل عملية المقاطعة من مجرد مقاطعة سلبية إلى مقاطعة إيجابية، بمعنى أن تقوم الدول العربية بإنشاء صناعات ذات أسس اقتصادية؛ لتحل محل السلع اليهودية في الأراضي الفلسطينية أو في الدول العربية الأخرى؛ ليتمكن الفلسطينيون من الاعتماد على السلع العربية والاستغناء عن السلع اليهودية المثيلة.

وانتقلت المقاطعة العربية لليهود من الالتزام الحكومي العربي فقط إلى الالتزام الشعبي، وتم إنشاء مكاتب للمقاطعة في كل دولة عربية؛ لتعمل تحت إشراف مكتب رئيس مقره في دمشق، ويقوم المكتب الرئيس بتنسيق العمل بينه وبين المكاتب الإقليمية، والإشراف على أجهزة المقاطعة، والتوصية بالإجراءات الواجب اتخاذها لتشديد هذه المقاطعة، ومطالبة السلطات العربية في الدول المختلفة بتنفيذ الإجراءات المطلوبة منها في هذا المجال.

نجح هذا الجهاز في بلورة إحكام المقاطعة الاقتصادية لليهود على أسس علمية مدروسة، وتمكن أن يلحق ضررًا ملموسًا ومتراكمًا بالاقتصاد اليهودي الصهيوني.

وفي بداية التسعينات أصاب المقاطعة الفتور في ظل مفاوضات السلام العربية اليهودية.

وفي ظل عودة الانتفاضة إلى الأراضي الفلسطينية عام ٢٠٠٠م وتصاعد العنف الإسرائيلي ضد الفلسطينيين العُزَّل، ارتفعت أصوات عربية تنادي بتفعيل المقاطعة العربية لإسرائيل مرة أخرى.

آثار المقاطعة العربية على إسرائيل [مغاوري شلبي موقع إسلام أون لاين]: لا يمكن إنكار الآثار والخسائر الاقتصادية التي تكبدتها إسرائيل بسبب المقاطعة العربية لها سواء كانت مقاطعة مباشرة أو غير مباشرة، مع أن المقاطعة العربية لإسرائيل لم تحقق كل أهدافها، وذلك لأنها لم تطبق بدرجة عالية.

وتشير بيانات المكتب الرئيس للمقاطعة العربية في دمشق إلى أن الخسائر التي تكبدتها إسرائيل بسبب هذه المقاطعة أخذت في التراكم بمرور الوقت، حتى بلغ إجمالي الخسائر ٩٠ مليار دولار منذ بداية المقاطعة وحتى عام ١٩٩٩م، وذلك رغم اتساع الثقوب في جدار هذه المقاطعة.

والجدول التالي يوضح تراكم خسائر إسرائيل المباشرة بسبب المقاطعة العربية لها منذ بداية المقاطعة العربية الرسمية في عام ١٩٤٥م.

الفترة	خسائر إسرائيل
الفترة من عام ١٩٤٥م ـ ١٩٥٦م	٥٠ مليون دولار
حتى عام ١٩٧٣م	٣٠٠ مليون دولار
عام ١٩٨٣م	٤٥٠٠٠ مليون دولار
عام ١٩٨٨م	٨٧ مليار دولار
عام ١٩٩٩م	٩٠ مليار دولار

وتؤكد تطورات الأرقام في الجدول السابق على ضرورة عدم التقليل من فاعلية المقاطعة العربية لإسرائيل؛ لأنها بلا شك ضيعت على الاقتصاد الإسرائيلي فرص التقدم والازدهار بما يعادل هذه المبالغ.

ولقد أحدثت المقاطعة الشعبية لمنتجات الشركات الإسرائيلية والأمريكية العامة بمصر انخفاضًا كبيرًا في مبيعات تلك الشركات في بعض الحالات إلى أكثر من ٨٠ ٪، في حين أغلقت بعض المحلات فروعها لحين انتهاء الأزمة، وتبرأت كثير من الشركات من تبعيتها لأمريكا ولإسرائيل.

كان ذلك بسبب تصاعد العنف الإسرائيلي ضد الفلسطينيين العُزَّل، وعودة الانتفاضة للأراضي الفلسطينية المحتلة.

وهذا يؤكد أن المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل ما زالت سلاحًا فعالًا بيد الشعوب العربية.

جهود غربية أمريكية لإجهاض المقاطعة: تعرضت المقاطعة لإسرائيل ـ وما زالت ـ لمعارضة وضغوط من الدول الغربية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا.

فالولايات المتحدة الأمريكية اتخذت إجراءات للضغط على الدول العربية، لإلغاء هذه المقاطعة بحجة تهيئة الأجواء لمفاوضات السلام العربية الإسرائيلية، وبناء جسور الثقة بين الطرفين، والقول بأن المقاطعة ضد الشرعية الدولية وقوانين حرية التجارة العالمية.

وقامت فرنسا بإصدار قانون في عام ١٩٩٧م يرفض مبدأ المقاطعة، وبدأت هذه الدول في استخدام منظمات دولية لتفكيك عرى المقاطعة العربية لإسرائيل، ولعل أحدث مثال لذلك هو ما بدأته الرابطة الدولية لمناهضة العنصرية ومعاداة السامية «ليكرا» في مايو سنة ٢٠٠٠م من حملة ضارية ضد المقاطعة العربية للشركات الأجنبية التي تتعامل مع إسرائيل، وساعدتها في ذلك غرفة الصناعة والتجارة في فرنسا، وذلك بهدف إرساء قاعدة قانونية واستصدار حكم قضائي من المحاكم الفرنسية يكون سندًا ومرجعًا لإرغام الشركات الفرنسية على عدم الانصياع لإجراءات المقاطعة العربية لإسرائيل، حيث قامت هذه الرابطة «ليكرا» بمقاضاة شركة «الميرام» الفرنسية التي عقدت مع إحدى شركات دبي عقدًا لتزويدها بشحنة من الأواني المنزلية، إلا أن شركة دبي اشترطت أن تصدر الشركة الفرنسية شهادة مدونًا عليها أن هذه السلعة فرنسية ولا تحتوي على أي مكون إسرائيلي.

و هذا مثال يؤكد أن الدول الغربية تسعى جاهدة إلى إجهاض المقاطعة العربية لإسرائيل، وفي سنة ١٩٧٩م أصدر الكونجرس الأمريكي قانونًا يعاقب أي شركة أمريكية تلتزم بالمقاطعة العربية.

وفي سنة ١٩٩٥م صدر قانون يمنع بيع أو تأجير أي معلومات عسكرية لأي دولة أو منظمة تمارس أو تطبق المقاطعة ضد إسرائيل.

يدل هذا على أن سلاح المقاطعة سلاح فعال ضد أعداء الأمة العربية والإسلامية، وأن نقطة ضعف الولايات المتحدة الأمريكية التي تساند إسرائيل هي الاقتصاد، وهى مهددة بانفجار رأسمالي أسوأ مما حدث عام ١٩٢٩م، وأي خسارة لها ستؤدي إلى انهيار فعلي في الاقتصاد الأمريكي.

ويرى الكاتب الفرنسي المسلم **رجاء جارودي** أن الحل الأمثل للتخلص من الهيمنة الأمريكية هو: مقاطعة البضائع وصفقات الأسلحة الأمريكية مقاطعة تامة تتمثل عن عقيدة داخلية.

شبهات واهية.. والرد عليها:

هناك فريق من الناس يُثبط الهمم والعزائم المتحركة نحو المقاطعة عن طريق شبهات واهية منها:

١ـ عدم الجدوى والتأثير: عدم جدوى ما تسببه المقاطعة من أضرار على صناعة القرار الأمريكي أو السلوك الهمجي اليهودي.

إن جدوى المقاطعة يظهر عند تحديد الهدف المقصود منها، ومن أهدافها أن يشعر العدو بأثرها في مصالحه المالية والاقتصادية، فإذا أحست الشركات اليهودية الأمريكية بالخطر، فسيكون هناك تأثير على صياغة القرار من هذه الشركات صاحبة النفوذ القوي في أمريكا وإسرائيل، وكلنا يعلم أن المجتمع الأمريكي مجتمع رأسمالي يحكمه الدولار.

وأمامنا مثال على أرض الواقع وهو أن أربع شركات يهودية أمريكية طالبت برفع الحصار عن السودان؛ لأنها المصدر الرئيس للصمغ العربي الذي تعتمد عليه في صناعتها، وأن أمريكا لا تستطيع أن تتحمل أبدًا خسارة مليار أو مليارين من زبائنها إذ سيؤدي ذلك إلى الانهيار الفعلي للاقتصاد الأمريكي، ولننظر ماذا حدث لمحلات «سنسبري» وفروعها في القاهرة عندما قاطعتها جموع الشعب، أغلقت أبوابها.

٢ ـ قلة جودة المنتجات الوطنية: وربما يقول قائل: إن المنتجات الوطنية أقل جودة من المنتجات اليهودية، وما يهمني هو الحصول على منتج بأقل سعر، وأفضل جودة ما دام متاحًا، وإذا لم أحصل عليه أنا سيحصل عليه غيري.

إن المقاطعة الشعبية تستلزم منا البذل، وبالتالي تحتاج إلى تضحيات في سبيل تحقيق الهدف، ولن يضحي إلا صاحب النفس المؤمنة والعزيمة القوية الصادقة، وبغير ذلك تُغلب الأمة على أمرها ويكون الفشل حليف أبنائها.

ومع ذلك نرى نفوسًا لا يهمها إلا مصلحتها حتى ولو كان ذلك على حساب دينها، فنجد أناسًا لا يزال حظ أحدهم مظهرًا فاخرًا أو أكلة طيبة، أو حلة أنيقة، أو مركبة فارهة، أو وظيفة وجيهة، أو لقبًا أجوف، وإن اشترى ذلك بحريته، وإن أنفق عليه من كرامته، وإن أضاع في سبيله حق أمته.

إن في المقاطعة تربية للأمة من جديد على التحرر من العبودية لأدوات الآخرين الذين علموها الإدمان لأشياء لا تنفعها، بل كثيرًا ما تضرها.

إن المقاطعة تعتمد على العقيدة التي توقظ الشعور وتنبه القلوب، وتترك مع كل نفس رقيبًا لا يغفل، وحارسًا لا يسهو، وشاهدًا لا يُجامل ولا يُحابي، ولا يَضل ولا يَنسى، يصحبها في الغدوة والروحة والمجتمع والخلوة، ويدفعها إلى الخيرات دفعًا، ويُجنبها طريق الزلل ويُبصرها سبيل الخير والشر.

والأموال التي تربحها الشركات اليهودية الأمريكية تذهب إلى العدو لكي يقتل بها أبناء جلدتنا، وتكون مساعدة للعدو ضد إخواننا في فلسطين، فهل نلتفت إلى الجودة وقلة السعر بعد ذلك؟!

ألا يجب تشجيع المنتج الوطني الذي يتضرر من منافسة البضائع الأجنبية، وتمكين الشعوب العربية والإسلامية من الاعتماد على النفس والاكتفاء الذاتي، حتى ولو كلفنا ذلك زيادة الأسعار؟

٣ ـ لسنا السبب: وإذا كانت مقاطعة إسرائيل ومن يساعدها أمر واجب، فلماذا نستورد هذه البضائع إلى بلادنا وتكون في الأسواق؟

المقاطعة تكون على مستويين: المستوى الرسمي، والمستوى الشعبي، وما يُقال مقاطعة رسمية يجب أن تمارسها الدول والحكومات، ولكن تضاؤل دور هذه الدول والحكومات في حماية الإنتاج (المنتج)

الوطني، خصوصًا بعد اتفاقيات «الجات» والتزامها بمبدأ الاقتصاد الحر، فضلًا عن أن بعضها قد يصبح مجرد أدوات في يد القوى العالمية المسيطرة على المال والاقتصاد، وسوق السلاح، والإعلام الدولي، والمنظمات الدولية؛ لأنها تُغريها بالقروض والمساعدات المالية والعسكرية، فلم يبق إلا سلاح المقاطعة الشعبية، وهو سلاح في أيدي الشعوب والجماهير وحدها، فلا تستطيع أي قوة في الأرض أن تُبطل مفعوله.

فالأمر يحتاج من الشعوب إلى عزيمة صادقة وثبات على المبدأ حتى تُؤتي المقاطعة ثمارها، وكذا يجب على مستوردي البضائع اليهودية أن يُقلعوا عن استيراد هذه البضائع إلى بلادنا مهما كانت الإغراءات المالية، فإن لم يفعلوا ذلك فقد ارتكبوا إثمًا عظيمًا، بل ويُعتبروا أحد أسباب هزيمة العرب و المسلمين في الأراضي المحتلة، وأحد أسباب وحشية اليهود في المنطقة.

فعلى المستهلك أن لا يتعامل معهم ويقاطعهم حتى يقلعوا عن ذلك.

٤ ـ **روح العصر والمسؤولية**: وقد يعترض معترض على المقاطعة الشعبية بحجة عدم تلاؤم أسلوب المقاطعة مع روح العصر، أو عدم مسؤولية أصحاب الشركات الأمريكية ومن يمولها من يهود وغير يهود، عن السياسات الأمريكية والإسرائيلية.

إذا كانت المقاطعة لا تلائم روح العصر، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تستخدمها لفرض سيطرتها وهيمنتها على أي دولة أخرى، وأحيانًا تستخدمها من أجل نشر التجويع الذي يسببه مثلًا التعامل الأمريكي مع تجارة الحبوب، أو التعامل الأوربي مع الفائض الزراعي والغذائي، أو من أجل نشر العجز في بلدان معينة عن مجرد صد خطر عسكري خارجي، وهو ما يسببه احتكار السلاح والعمل على منع توفر قوة دفاعية لصده، هذا علاوة على عشرات الأمثلة المعروفة عن ممارسات المقاطعة بدءًا بالصين وانتهاء بالعراق.

أليس من المضحك المبكي أن نسمع مثل هذا الاعتراض؟

إن قضية اليهود قضية عقيدة، هم يدافعون عن عقيدتهم إن كان لهم عقيدة، وإلا لتغيرت السياسات والتعاملات بتغير الحكومات، ولكن كل حكومة هي صورة طبق الأصل من سابقتها، وأغلب الشركات بل كل الشركات الأوربية والأمريكية ما زرعت في مجتمعاتنا إلا لضرب اقتصادنا وقتلنا القتل البطيء، وإلا لماذا نجدهم يبيعون منتجًا بأقل من سعره المشترى به؟! من يدفع هذه الخسارة؟! إن الأمر ليس سهلًا هكذا.

أما عن عدم مسؤولية أصحاب الشركات اليهودية عن السياسات الأمريكية فهذا غير صحيح؛ لأن أمامنا مثال على أرض الواقع وهو مطالبة أربع شركات يهودية أمريكية برفع الحصار عن السودان من

أجل الصمغ العربي، وكذلك يمكن لهذه الشركات الضغط على حكومتها إذا استمرت في محاربة الدول العربية والإسلامية إذا تضررت مصالحها.

٥ ـ **من يعول الأُسَر؟!**: وهناك شبهة قوية تقول: إن الشركات الأمريكية والبريطانية يعمل بها آلاف المصريين يعولون آلاف الأسر، وأن مردود المقاطعة سيقع على هؤلاء المصريين لا على اليهود والأمريكان.

ولقد أفتى العلماء الثقات بأن المنتجات الأمريكية واليهودية حرام ومقاطعتها جهاد في سبيل الله، والمسلم يبتعد عن الحرام ولا يعمل فيه، ويبحث عن عمل آخر حلال، فإذا كانت الخمر حرامًا وملعونة على لسان رسول الله ﷺ، بل لعن كل من له صلة بالخمر من قريب أو بعيد، ومعنى اللعن: هو الطرد من رحمة الله تعالى، والحرمان من رضوانه ﷻ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: **لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَالْمُشْتَرِي لَهَا، وَالْمُشْتَرَاةَ لَهُ**. [الترمذي في البيوع (١٢٩٥)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهم عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح].

فالعمل في هذه الشركات وترويج بضائع اليهود من قَبيل العمل في الخمر؛ لأن هؤلاء اليهود اغتصبوا أرضنا، وشرَّدوا أهلنا، وفَرضوا وجودهم الدخيل بالحديد والنار، والعنف والدم، وأن كل دينار أو درهم أو جنيه أو ريال يذهب إلى اليهود يتحول إلى صاروخ أو قنبلة أو رصاصة لقتل إخواننا في فلسطين.

كيف نَقبل أن نساعد القَتَلة على إقامة المجازر وحفر القبور لإخواننا وأهلينا؟ كيف نروِّج لاقتصاد القتلة الذين يذبحون أشقاءنا يوميًّا في فلسطين؟! إذا خفنا على رزق هؤلاء العمال فإن الله ﷻ تكفل برزق كل دابة في الأرض بعد أن تأخذ بالأسباب ثم بعد ذلك نتوكل على الله، فقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

وهذا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾ [التوبة].

أمر الله عباده المؤمنين بمقاطعة المشركين فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وكان هذا هو الموسم الاقتصادي الذي ينتظره أهل مكة، والتجارة التي يعيش عليها معظم الظاهرين في الجزيرة، ورحلة الشتاء والصيف التي تكاد تقوم عليها الحياة، إنها كلها ستتعرض للضياع بمنع المشركين من الحج، وبإعلان الجهاد العام على المشركين كافة.

وهذه العِمالة لابد وأن تُنتج وتشجع الصناعة المحلية حتى تنافس الصناعات الأجنبية؛ وبذلك يمكن أن تُقام السوق العربية المشتركة، والتكامل الاقتصادي العربي بحسن استخدام وتوظيف هذه الأيدي العاملة.

إن الحركة الشعبية على امتداد العالم الإسلامي لمقاطعة بضائع الأعداء حققت نجاحًا هائلًا، ونأمل أن يمتد إلى مجالات عديدة، حتى يشعر القتلة أن جرائمهم لن تمر بلا عقاب، وأن أبناء هذه الأمة لن يستسلموا للترهيب أو الترغيب، ولن يكفوا عن المقاومة حتى يتحقق النصر بإذنه تعالى، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج]، ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة]، وعلى النقابات وأصحاب رؤوس الأموال المصرية توفير فرص عمل لهؤلاء، وهل سمعنا عن أحد تضرر وأعلن أنه لم يجد عملًا لسبب المقاطعة!! لم يحدث ذلك.

من فتاوى العلماء بوجوب المقاطعة للمنتجات اليهودية الأمريكية:

قال د/محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر: «يأمرني ديني بمقاطعة كل بضاعة أو شيء ينفع عدوي ويضعفني ويضرني في الوقت نفسه عسكريًّا أو اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا، بصرف النظر عن مصدر هذا الشيء من (إسرائيل) أو من غيرها، وينبغي لي أن أبحث عن البديل الذي يجعلني أستغني عن هذا الشيء أو السلعة».]مجلة منار الإسلام ـ الإمارات ٢٦/ ١٠/ ٥١[.

د/يوسف القرضاوي: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد: فمما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة: أن الجهاد لتحرير أرض الإسلام ممن يغزوها ويحتلها من أعداء الإسلام واجب محتم وفريضة مقدسة، على أهل البلاد المغزوة أولًا، ثم على المسلمين من حولهم إذا عجزوا عن مقاومتهم، حتى يشمل المسلمين كافة، فكيف إذا كانت هذه الأرض الإسلامية المغزوة هي القبلة الأولى للمسلمين، وأرض الإسراء والمعراج، وبلد المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله؟ وكيف إذا كان غزاتها هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؟ وكيف إذا كانت يساندها اليهود في أنحاء العالم؟ إن الجهاد اليوم لهؤلاء الذين اغتصبوا أرضنا المقدسة، وشردوا أهلها من ديارهم، وسفكوا الدماء، وانتهكوا الحرمات، ودمروا البيوت، وأحرقوا المزارع، وعاثوا في الأرض فسادًا، هذا الجهاد هو فريضة الفرائض، وأول الواجبات على الأمة المسلمة في المشرق والمغرب.

فالمسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهم أمة واحدة، جمعتهم وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، ووحدة القِبلة، ووحدة الآلام والآمال كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات: ١٠]، وفي الحديث الشريف: «**الـمُسْلِمُ أَخُو الـمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يُسْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ...**». [البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٢)، وفي الإكراه (٦٩٥١)، ومسلم في البر

والصلة والآداب (٢٥٦٤، ٢٥٨٠)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٦)، وأحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٥٣٣٤، ٥٦١٤)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه (٧٦٧٠،٨٠٤٢، ٨٥٠٥)، وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه (١٥٥٨٩)، وعن شيخ من بني سليط (١٦١٨٨، ١٦٢٠٨)، وعن عرفجة بن أسعد رضي الله عنه (١٩٧٦٧)].

وها نحن نرى اليوم إخواننا وأبناءنا في القدس الشريف، وفي أرض فلسطين المباركة، يبذلون الدماء بسخاء، ويقدمون الأرواح بأنفس طيبة ولا يبالون بما أصابهم في سبيل الله، فعلينا ـ نحن المسلمين في كل مكان ـ أن نعاونهم بكل ما نستطيع من قوة: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾[الأنفال: ٧٢]، ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾[المائدة: ٢].

ومن وسائل هذه المعاونة: مقاطعة البضائع الإسرائيلية والأمريكية مقاطعة تامة، فإن كل ريال أو درهم أو قرش أو فلس، نشتري به سلعة يتحول إلى رصاصة تُطلق في صدور إخواننا وأبنائنا في فلسطين؛ لهذا وجب علينا ألا نعينهم على إخواننا بشراء بضائعهم؛ لأنها إعانة على الإثم والعدوان، لما أسلم ثُمامة بن أُثال الحنفي رضي الله عنه، ثم خرج معتمرًا، فلما قَدِم مكة، قالوا: أصبوت يا ثمامة؟ فقال: لا، ولكني اتبعت خير دين، دين محمد، ولا والله لا تصل إليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يَحملوا إلى مكة شيئًا، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يُخلي بينهم وبين الحمل.

والبضائع الأمريكية مثل البضائع الإسرائيلية في حُرمة شرائها والترويج لها، فأمريكا اليوم هي إسرائيل الثانية، ولولا التأييد المطلق، والانحياز الكامل للكيان الصهيوني الغاصب ما استمرت إسرائيل تمارس عدوانها على أهل المنطقة، ولكنها تصول وتعربد ما شاءت بالمال الأمريكي، والسلاح الأمريكي، والفيتو الأمريكي، وأمريكا تفعل ذلك منذ عقود من السنين، ولم تر أي أثر لموقفها هذا، ولا أي عقوبة من العالم الإسلامي، وقد آن الأوان لأمتنا الإسلامية أن تقول: لا لأمريكا، ولبضائعها التي غزت أسواقنا، حتى أصبحنا نأكل ونشرب ونلبس ونركب مما تصنع أمريكا.

إن الأمة الإسلامية التي تبلغ اليوم مليارًا وثلث المليار من المسلمين في أنحاء العالم يستطيعون أن يوجعوا أمريكا وشركائها بمقاطعتها، وهذا ما يفرضه عليهم دينهم وشرع ربهم.

فكل من اشترى البضائع الإسرائيلية والأمريكية من المسلمين، فقد ارتكب حرامًا، واقترف إثمًا مبينًا، وباء بالوزر عند الله والخزي عند الناس.

إن المقاطعة سلاح فعال من أسلحة الحرب قديمًا وحديثًا، وقد استخدمه المشركون في محاربة النبي ﷺ وأصحابه فآذاهم إيذاءً بليغًا، وهو سلاح في أيدي الشعوب والجماهير وحدها، لا تستطيع الحكومات أن

تفرض على الناس أن يشتروا بضاعة من مصدر معين، فلنستخدم هذا السلاح لمقاومة أعداء ديننا وأمتنا، حتى يشعروا بأننا أحياء، وأن هذه الأمة لم تمت، ولن تموت بإذن الله.

على أن في المقاطعة معاني أخرى غير المعنى الاقتصادي: إنها تربية للأمة من جديد على التحرر من العبودية لأدوات الآخرين الذين علَّموها الإدمان لأشياء لا تنفعها بل كثيرًا ما تضرها، وهي إعلان عن أخوة الإسلام، ووحدة أمته، وأننا لن نخون إخواننا الذين يقدمون الضحايا كل يوم، بالإسهام في أرباح أعدائهم.

وهي لون من المقاومة السلبية، يضاف إلى رصيد المقاومة الإيجابية، التي يقوم بها الإخوة في أرض النبوات، أرض الرباط والجهاد، وإذا كان كل يهودي يعتبر نفسه مجندًا لنُصرة إسرائيل بكل ما يقدر عليه، فإن كل مسلم في أنحاء الأرض مجند لتحرير الأقصى، ومساعدة أهله بكل ما يمكنه من نفس ومال، وأدناه مقاطعة بضائع الأعداء وقد قال الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنفال].

وإذا كان شراء المستهلك للبضائع اليهودية والأمريكية حرامًا وإثمًا، فإن شراء التجار لها ليربحوا من ورائها، وأخذهم توكيلات شركاتهم أشد حرمة وأعظم إثمًا، وإن تخفت تحت أسماء يعلمون أنها مزورة، وأنها إسرائيلية الصنع يقينًا ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ ﴾ [محمدﷺ]. اللهم بلغت اللهم فاشهد.

د/نصر فريد واصل مفتي جمهورية مصر العربية السابق: دعا الدكتور/ واصل في محاضرته بمسجد النور في إطار الموسم الثقافي لوزارة الأوقاف المصرية مساء الأحد الموافق ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٠م الملوك والرؤساء العرب إلى اتخاذ قرار صريح وعملي بالمقاطعة الاقتصادية لإسرائيل والدول التي تساندها موضحًا أن هذا الخيار خيار مناسب لمواجهة العدو.

وقال الدكتور واصل: إننا نمتلك الكثير من الخيارات آخرها الحرب، فالعدو يريد الحرب وهو يسعى إليها لأنه لا يستطيع أن يعيش بدونها؛ ولأن مصالحه لا تتحقق إلا بها، ونحن نريد السلام ولكن السلام القائم على العدل وإعادة الحقوق المغتصبة لأصحابها، وانتقد الدكتور واصل سلبية الدول الإسلامية تجاه ما يحدث في فلسطين المحتلة على أيدي قوات الاحتلال الإسرائيلي.

وفي جريدة آفاق عربية: دعا الدكتور نصر فريد واصل مفتي الجمهورية إلى المقاطعة الاقتصادية الشاملة للمنتجات الأمريكية والإسرائيلية والدول المؤيدة لهما، وأكد أن سلاح المقاطعة سيؤثر على الكيان الصهيوني تأثيرًا كبيرًا؛ لأن المسلمين يمثلون أكثر من خُمس سكان العالم وستحقق مقاطعتهم شللًا للمؤسسات الاقتصادية التي يملكها اليهود وأعوانهم.

وأضاف: يجب أن ينظر كل مسلم إلى السلعة التي يستهلكها ومصدر إنتاجها ويرفضها إذا كانت من إنتاج هذه الدول حتى لا تتحول الأموال التي ندفعها إلى خناجر يتم قتل أولادنا بها، في حين أننا نستطيع الاستغناء عن هذه السلع.

وناشد المفتي كل مسلم أن يدفع دولارًا واحدًا لإخوانه المدافعين عن الأقصى، حيث الحصيلة هائلة «أكثر من مليار دولار» مما سيساعد على توفير فرص عمل للفلسطينيين بديلًا عن العمل لدى اليهود.

وفي صوت الأزهر: يقول فضيلة المفتي: إن المطلوب حاليًا هو محاربة إسرائيل اقتصاديًّا بمقاطعتها هي وكل من يساندها، لا نطلب هذا من الحكام، وإنما الشعوب؛ لأن إرادة الشعوب لن يُوقفها حكام، إذا أرادت الدفاع عن المقدسات الإسلامية بكل السبل الممكنة فهذا هو الطريق.

وفي حوار مع فضيلة المفتي نشرته جريدة العربي قال: كل منتج إسرائيلي وأمريكي مستورَد حرام، ويجب الاعتماد على المنتج المحلي خاصة الكماليات غير الضرورية من الملبس حتى السيارة، فذلك أقل أنواع الجهاد الذي يمكن لنا كمسلمين أن نفعله في سبيل تحرير المسجد الأقصى طالما أننا لا نستطيع الذهاب للجهاد بالنفس، كما أن في ذلك تشجيعًا للمصانع المحلية واليد العاملة في وطني، وأنا بذلك أفتح باب المنافسة وأشجع السوق الإسلامية المشتركة والتكامل الاقتصادي العربي.

وهل يتساوى المنتج الأمريكي مع المنتج الإسرائيلي في المقاطعة؟ فأجاب: لا جدال في ذلك؛ فأمريكا هي القوة الرئيسة لإسرائيل، وأمريكا تعلم أن وقوفها موقفًا محايدًا بين إسرائيل والعرب ستكون النتيجة سقوط إسرائيل أو على الأقل ستعتدل على الفور، فأمريكا وإسرائيل وحدة واحدة، ومقاطعة منتجاتهما واجبة على الجميع على الجانب الشعبي، ومفروض أيضًا على الحكومات، لكن الشعب يستطيع الامتناع والمقاطعة، والحكومة لن تفرض على مواطن أن يشتري هذا ولا يشتري ذلك.

وماذا عن مستوردي هذه البضائع؟: قال: هو مرتكب إثمًا عظيمًا، بل ويعتبر أحد أسباب الهزيمة للعرب والمسلمين في الأراضي المحتلة، وأحد أسباب وحشية إسرائيل ومدعِّم لمزيد من المستوطنات الإسرائيلية على الأرض العربية؛ ولهذا يجب إقلاعه عن استيراد هذه البضائع، وإذا لم يمتنع وأغراه المال فعلى المستهلك ألا يتعامل معه وخسارته ستعلِّمه الدرس.

وقال: على كل مسلم أن ينظر إلى السلعة التي يستهلكها ومصدر إنتاجها، ويرفضها إذا كانت من إنتاج الدول المعتدية؛ حتى لا تتحول الأموال التي يدفعها إلى خناجر يتم قتل أولادنا بها، في حين أننا نستطيع الاستغناء عن هذه السلع.

«قاطعوهم ما استطعتم»: تفنيد حجج عدم المقاطعة المقنَّعة بالعلمية، المقاطعة أسلوب متحضر للتعبير عن الرفض. بقلم أ/فهمي هويدي

الحوار الدائر في مصر حول المقاطعة للمنتجات الصهيونية والأمريكية كشف عن أزمتين نعانيهما، كل منهما أعمق وأسوأ من الأخرى، الأولى: ثقافية، والثانية: اجتماعية؛ ولأنني لم استطع أن أتخلص من الشعور بالدهشة أو الصدمة لدى قراءتي لما نشرته بعض الصحف حول الموضوع، فلن أبدأ بالحديث عن أي من هاتين الأزمتين وإنما سأعود إلى إطلالة سريعة لما يحدث خارج ديارنا في أوربا بوجه أخص ربما لكي يشاركني القارئ الشعور بالدهشة.

(١) في إحدى القرى الصغيرة بمقاطعة «ساري» الإنجليزية رابط السكان أمام إحدى البنايات على ١٨ شهرًا متصلة لمنع إحدى الشركات الأمريكية من إقامة فرع لمطاعمها هناك باعتبار أن ذلك نوع من الاختراق والعدوان على نمط الغذاء المحلي، وهو ما رفضه الناس وأصروا على مقاومته ومقاطعته، وفي دفاعهم عن خصوصية أطعمتهم وهويتهم بالتالي فإنهم لجؤوا إلى تلك الخطوة لعدم تمكين الشركة من اختراق حياتهم، وإزاء ذلك الإصرار الذي لم يتزحزح الناس عنه طيلة السنة والنصف سنة لم تجد الشركة مفرًّا من التراجع، فألغت عقد الإيجار الذي كانت قد أبرمته مع الشركة مالكة البناية ورحلت عن قرية «هنتشلي وود» غير مأسوف عليها.

وفي شهر يوليو الماضي أقدمت مجموعة فرنسية تطلق على نفسها اسم جبهة المقاومة ضد الاضطهاد الرأسمالي على خطف الدُّمْيَة التي ترمز إلى شبكة المطاعم الأمريكية من أمام أحد فروعها في مدينة سانت الفرنسية، وأصدرت الجبهة بيانًا خفيف الظل لكنه عميق الدلالة قالت فيه: إن الدمية في صحة جيدة ولا تُقدَّم إليها المأكولات سوى اللحوم المعدة على الطريقة الفرنسية والأجبان، وحددت الجبهة مطالبها في ضرورة إضفاء الطابع الفرنسي على تلك المطاعم من قبيل أن تستخدم المطاعم جبنة الكامبير الفرنسية، وأن يرتدي العاملون فيها الزي التقليدي لمنطقة شارانت حيث تقع مدينة سانت، وأن تضع على طاولاتها شوكًا وسكاكين ومفارش عليها مربعات على غرار المطاعم الفرنسية التقليدية.

ذكر التقرير التي نشرته صحيفة الحياة اللندنية حول الموضوع في (١٠/ ٩) أن النبأ كان يمكن أن يبقى في خانة الطرائف لولا أجواء الاحتقان والتعبئة السائدة في عدد من الأوساط الفرنسية ضد المساعي التي ترى أن هدفها أمركة فرنسا بإلغاء ثقافتها والقضاء على اقتصادها.

ومقاومة الأمركة تجاوزت مسألة خطف الدُّمْيَة، وإنما ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك، ففي شهر أغسطس من العام الماضي قام رئيس نقابة الكونفدرالية الزراعية في فرنسا ـ اسمه جوزيه بوفيه ـ مع بعض

رفاقه بتحطيم واجهة ومحتويات المطعم الأمريكي في بلدة «مير» في تحد معلن لرموز الهيمنة الأمريكية، وقد أقدم يوفيه على تلك الخطوة أثر الخلاف الذي بين واشنطن وباريس حول مسألة الاستيراد والتصدير الذي أقدمت خلاله الولايات المتحدة على فرض حظر على بعض المنتجات الزراعية الفرنسية.

ومنذ حدثت واقعة تحطيم مطعم ماكدونالدز تحول جوزيه يوفيه إلى بطل شعبي في فرنسا وأصبح أحد نجوم الساحة السياسية باعتباره قائدًا لمقاومة الاجتياح الأمريكي؛ ولذلك فثمة حملة واسعة للتضامن معه وتأييده خصوصًا في القضية التي رفعتها الشركة الأمريكية ضده جراء ما أقدم عليه.

مجلة نيوزويك الأمريكية نشرت في عدد ٧/ ١١ الماضي تغطية واسعة للحملة ضد سلسلة المطاعم الأمريكية التي لها نحو خمسة آلاف فرع في القارة الأوربية، وتوفر ربع مليون فرصة عمل لأبناء أقطارها، مع ذلك فحملة مقاومتها شعبيًّا متصاعدة خصوصًا في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا؛ ولتحسين سمعتها فإن الشركة الأمريكية عملت على إضفاء الطابع المحلي على ما تقدمه من أطعمة وحرصت في حملة إعلانات مضادة نظمتها لتأكيد أنها من مواليد الولايات المتحدة فحسب، ولكن ما تقدمه هو صناعة محلية.

(٢) حملة المقاطعة لما سمته بعض الصحف الأوربية «العم ماك» واعتبرته سفيرًا لأمركة أوروبا لا تتجاوز حدود الدفاع عن الهوية كما رأيتَ (للعلم الحملة شملت مشروبًا أمريكيًّا مشهورًا وملابس وملاهي أطفال ومحطة تلفزيونية وهى محل ترحيب من أبرز عناصر النخبة الأوربية على الأقل، فإنني لم أصادف معارضة أو نقدًا لتلك الحملة من جانب أحد المثقفين الأوربيين في حدود ما أتيح لي من متابعات.

ما الذي حدث في مصر حين نادى البعض بمقاطعة المنتجات اليهودية الأمريكية دفاعًا عن الأرض والعرض والكبرياء وغير ذلك مما انتهكته دولة الكيان مؤيَّدة بالولايات المتحدة وهو ما تجلى بشدة في انتفاضة الأقصى الأخيرة؟

لا استطيع أن أدعي إحاطة بكل ما جرى في مصر في هذا الصدد، لكنني مع ذلك أزعم أن الدعوة لقيت صدى شعبيًّا واسع النطاق تجلى في انخفاض مبيعات المحال التجارية التي شاع بين الناس أن رأس المال الأمريكي أو اليهودي على علاقة بها، الأمر الذي دفع بعض المحال إلى نشر إعلانات في الصحف تعلن البراءة من تلك الشبهة.

لذلك فلستُ مبالغًا إذا قلتُ إن موقف الناس العاديين مطمئِن على الجملة، أما المقلِق حقًّا والمستفِز حقًّا فهو موقف بعض عناصر النُّخبة ممن أصبحوا يشكلون نتوءًا يسيء إلى الإجماع الوطني ويشوهه.

بين يدي نموذجان يعبران عن هذا الموقف، ولولا أنهما نُشرا على صفحات اثنتين من المطبوعات القومية لما استحقا ذكرًا ولا اهتمامًا، ولكن أما وقد حدث ذلك فقد وجب إزاءهما الإثبات والمراجعة.

النص الأول: نشرته في ٢٨/ ١٠ إحدى مجلاتنا الأسبوعية، وشنت فيه هجومًا حادًّا على دعوة المقاطعة، وقد وصف التعليق الذي وقع باسم المجلة الأمر الذي يعني أنه يعكس وجهة نظر رئاسة وهيئة تحريرها جميعًا وصف دعاة المقاطعة بأنهم قراصنة ومجموعة ضالة يحترفون ركوب الأمواج ويغلفون أفعالهم بعباءات تجعلهم في عيون الناس أبطالًا، هؤلاء ركبوا الموجة بعد أحداث الأقصى.

ما جرى في نظر المجلة ليس انتفاضة أو هَبَّة، ولكنه مجرد أحداث، وطبعوا منشورات ساخنة سوداء ساخطة وزعوها على الناس، وفيها يدعونهم للجهاد ويطالبونهم بالتخريب.

لاحظ الجمع بين الجهاد والتخريب واستحضر هنا لغة الخطاب الصهيوني ـ ومقاطعة المحال والشركات دون أن يعلموا حقيقة مَنْ هم أصحاب هذه المحال، وما إذا كانوا مصريين أو أمريكان أم يهودًا وتكون النتيجة مزيدًا من البلبلة.

ولكي يتجنب الوطن هجمات القراصنة ويحافظ على استقراره فليس هناك من سبيل ـ في رأي المجلة ـ سوى ترسيخ قيم التعامل الصحيحة مع مجتمع متحضر أهمها أن هناك وسائل كثيرة للاعتراض القانوني منها المسيرات السلمية التي تترك لأولي الأمر فرصة بلورة وصياغة رد الفعل المناسب.

لا أظن أن هذا الكلام الموغِل في تطرفه يحتاج إلى تعليق فإثباته يكفي في التعبير عن ما فيه من شذوذ وجنوح؛ لذلك فإنني سأتجاوزه وأنتقل إلى النموذج الثاني الذي أحسبه أكثر اعتدالًا في جنوحه ومن ثم أجدر بالمناقشة والمراجعة.

النص الثاني: مقال نشرته إحدى الصحف القومية اليومية ولم يعترض الكاتب فيه على مقاطعة ما صُنع أو زُرع في دولة الكيان ويتحفظ على مقاطعة الشركات المصرية التي تُتهم بالحق أو الباطل بالتعاون مع الصهاينة ويهون من حجم التعامل الاقتصادي مع دولة الكيان مشيرًا إلى أن حجم الصادرات الصهيونية للدول العربية لا يتجاوز ٧٥ مليون دولار، وهي قيمة ذكر أنها أقل بكثير من ١٪ من إجمالي الصادرات الصهيونية البالغة ٢ مليار دولار.

وقد أفهمُ تحفُّظه على مقاطعة الشركات التي تتهم بالتعاون مع الصهاينة بالباطل، ولكن الذي ليس مفهومًا هو أن يستمر التحفظ إذا كانت واقعة التعامل صحيحة لا بطلان فيه؛ لأننا إذا قاطعنا ما صُنع أو زُرع في دولة الكيان فلماذا لا نقاطع ما أسهمت فيه الاستثمارات الصهيونية حتى إذا كان قد صُنع في مصر، كذلك فإنني لم أفهم سبب تهوينه من حجم الصادرات الصهيونية للدول العربية؛ لأننا نتحدث

عن مبدأ وليس قيمة، مع ذلك فالقيمة التي ذكرها غير صحيحة لأن تقرير الصناعات في دولة الكيان عن عام ١٩٩٩ يشير إلى أن حجم الصادرات المباشرة وغير المباشرة إلى الدول العربية في ذلك العام ١٠١ مليون دولار.

غير أن أكثر ما يلفت النظر في النص المنشور هو الحجج التي أوردها لمعارضة مقاطعة المنتجات الأمريكية، وفي مقدمتها أن المقاطعة في هذه الحالة سوف تهدد الأمن القومي المصري لأن الولايات المتحدة سترد على مقاطعة شركاتها أو غيره بمنع تصدير السلاح أو قطع الغيار إلى مصر، في حين أن جل اعتماد القوات المسلحة الآن على السلاح الأمريكي، ثم إننا إذا قاطعنا البضائع الأمريكية فإن الولايات المتحدة سوف تحجب عنا السُّيَّاح الأمريكيين والأوربيين الأمر الذي سيؤدي إلى ضرب قطاع السياحة، ومن ثم تهديد الاقتصاد القومي بعد الأمن القومي.

تعليقي على هذا الكلام أنه فاسد في المنطق والحجة فهو يتحدث عن مقاطعة تتبناها الحكومات بينما المطروح هو مقاطعة شعبية لا تستند بالضرورة إلى قرار حكومي.

ثم إنه يقيس المسألة بحسابات اقتصادية وسياسية قوامها كيف تكون، بينما المطروح علينا في التحدي الراهن أبعد من ذلك بكثير بحيث نكون أو لا نكون، والمقاطعة في هذا السياق تُعد أضعف الإيمان والحد الأدنى المطلوب للمقاومة، وإذا جاز لنا أن نناقش التفاصيل والحجج فإن القول بأن المقاطعة ستهدد الأمن القومي لأنها ستدفع واشنطن إلى وقف تزويدنا بالسلاح مردود من ثلاثة أوجه:

الأول: لأن الذي لابد أن يختلف في حالة المقاطعة الشعبية لا الرسمية أو الحكومية.

الثاني: أن ذلك قرار لا تستطيعه الولايات المتحدة؛ لأن مبيعات السلاح للمنطقة تحقق لشركاتها العملاقة دخولًا هائلة لا تستطيع أن تستغني عنها بسهولة.

الثالث: فإنه على أسوأ الفروض فإن الولايات المتحدة ليست هي المصدر الوحيد للسلاح، فحجبه عنا لا يعني نهاية العالم بالنسبة لنا، فهناك أوربا وكوريا الشمالية والصين.

أما مسألة ضرب السياحة فالسياح الأمريكيون ليسوا أهم السياح الذين يفدون إلى مصر فضلًا عن أن الحكومة الأمريكية لا تستطيع أن تمنع السياح من القدوم إلينا وإنما قد تحذرهم فقط، ثم إنه ليس بوسعها ولا في سلطانها أن تمنع السياح الأوربيين أو اليابانيين من زيارة مصر.

(٣) الذين هاجموا مرة المقاطعة واستبسلوا في الدفاع عن المنتجات الصهيونية والأمريكية وأجهدوا أنفسهم في تبرير ذلك مرة باسم الدفاع عن الاستقرار ومرة بالدفاع عن الأمن القومي المصري ونسوا أو تناسوا أن الشعوب العربية تحركت وأثبتت ـ خصوصًا بعد انتفاضة الأقصى ـ حضورًا سياسيًّا

فعالًا، وأنها تريد أن تعبر عن غضبها وتبعث برسالة واضحة إلى كل من يهمه الأمر، تُعلن فيها رفض الاحتلال والاستكبار الصهيوني المؤيَّدَين أمريكيًّا، وبأي معيار وطني أو قومي، فهذه فرصة مواتية لعزل دولة الكيان وإزالة مظاهر اختراقها للواقع العربي، وهي أيضًا فرصة لمقاومة الأمركة التي تجتاح العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه، الذين انتقدوا الفكرة تعاملوا معها وكأنها بدعة في عالم السياسة في حين أن مصر عرفت الدعوة إلى مقاطعة البضائع الإنجليزية بعد ثورة ١٩١٩ وعقب إلغاء المعاهدة البريطانية التي عرفت باسم معاهدة ١٩٣٦، ثم في عام ١٩٥١، ثم إن الولايات المتحدة تعد دولة رائدة في مجال المقاطعة والحصار للدول والشعوب غير الموالية لها من كوبا إلى إيران ومرورًا بليبيا وكوريا الشمالية والعراق والسودان.

إن دعاة المقاطعة عندنا لم يذهبوا إلى ما ذهبت إليه حملات رفض الأمركة في أوربا التي سبقت الإشارة إليها، وإنما غاية ما تطلعوا إليه أن يعبر الناس عن غضبهم ومرارتهم بالامتناع عن التعامل مع المنتجات الصهيونية والأمريكية باختلاف أنواعها صناعية كانت أو ثقافية، وهو ما استكثره عليهم نفر من المثقفين فتعاملوا مع فكرة المقاطعة وكأنها عمل غير مشروع ومستهجن، بينما هي مستقرة ومعمول بها في العالم المتحضر الذي يدعوننا للالتحاق به.

وهذا ما عنيته بالأزمة الثقافية التي كشفت عنها الحملة الشعبية التي كانت كلها مبادرات جماهيرية عبرت عما يحويه جديرة بالحفاوة، وفيها أيضًا سبقت الجماهير صفوف المثقفين وتفوقت عليهم في سلامة الإدراك وصفاء النفس.

(٤) تمنيت ألا يكون هناك خلاف حول مبدأ المقاطعة وأن يدور حوارنا حول التفاصيل بحيث لا نستهلك طاقة الحوار في الجدل حول هل نقاطع أم لا؟ وهل دعاة المقاطعة مخرِّبون أم لا؟ وإنما تنصب مناقشتنا حول السؤال: كيف تكون المقاطعة؟ وذلك أن الإجابة قد تكون سهلة فيما يخص البضائع الصهيونية أو رأس المال الصهيوني، وهي أصعب فيما يتعلق بالبضائع الأمريكية؛ لأنه أصبح من العسير الآن في حالات كثيرة تحديد ما إذا كان المنتج أمريكيًّا أم لا، خصوصًا بعدما أصبح المنتج يولد في بلد ثم يُصنع في أكثر من بلد آخر.

في هذا السياق تُطرح أفكار عديدة منها اعتماد منشأ السلعة كمعيار لهويتها حيث تظل الكوكا كولا ومطاعم ماكدونالدز وسجائر مارلبورو وكلها أمريكية الهوية حتى إذا تم تصنيعها أو إنتاجها في أي بلد أوربي أو أفريقي أو آسيوي، من تلك الأفكار أيضًا أن المقاطعة الأمريكية ينبغي أن تُدرس جيدًا في إطار كل قُطر من خلال المؤسسات الوطنية سواء كانت نقابية أو مهنية أو جمعيات لرجال الأعمال حيث

يفترض أن تقوم تلك الجهات بتعويض أو استيعاب العمال الذين قد يسرحون من جراء توقف العمل في الشركات الأمريكية التي يعملون بها إذا أُخذت الأمور على محمل الجد، ومن أهل الاختصاص من يدعو إلى تعاون في هذا الصدد بين المؤسسات والمنظمات الأهلية في الوطن العربي.

يزيد من تعقيد المشكلة في الواقع المصري أن الاختراق الأمريكي للأسواق أبعد بكثير مما يتصور كثيرون، وحين يقرأ المرء قوائم السلع الموزعة التي ينتجها أو يشارك فيها رأس المال الأمريكي يدرك أن ما من سلعة معتبرة في السوق إلا ووراءها أصابع أمريكية من مياه الشرب ومعجون الأسنان إلى السيارات والقمح، الأمر الذي يكشف عن ثغرة كبيرة في الصناعات الوطنية، ويكاد يوحي بأن مصر ليس فيها صناعة وطنية صرف، وهو وضع مؤسف يمثل تراجعًا عما كانت عليه الحال في الثلاثينيات والأربعينيات حين كان الاعتزاز بالصناعة الوطنية والدفاع عنها قيمة في المجتمع محل حفاوة وتشجيع من النخبة.

وهذا جوهر ما سميتُه بالأزمة الاجتماعية التي يشكل الاقتصاد محورها، الأمر الذي ذكرني بما قاله **الشيخ محمد الغزالي** ذات مرة من أننا إذا تأملنا هيئتنا أو قلنا لكل شيء نرتديه عد إلى بلادك فسنفاجأ بأننا صرنا عراة لا نملك ما نستر به عوراتنا.

يبدو أن الحقيقة أَمَرُّ من ذلك، وأن الأمر لا يقتصر على ما نرتديه فحسب، وإنما اتسع الرتق حتى شمل جوانب أخرى عديدة من حياتنا المعيشية اليومية أصبحنا نعتمد فيها على الخارج وليس على أنفسنا، الأمر الذي يلقي بظلال قاتمة على استقلالنا الاقتصادي، ويؤثر بالسلب على الإرادة الوطنية، برغم كل ذلك فإنني أتمنى ألا توهن الأزمة والضغوط التي استصحبتها من عزائم دعاة المقاطعة الذين أتمنى أن يكون شعارهم: **قاطعوهم ما استطعتم إلى ذلك سبيلًا**. فهمي هويدي.

الفصل الثاني
غزوة ذات الرقاع (غزوة نجد)
جمادى الأولى ٤هـ/ أكتوبر (تشرين أول) ٦٢٥م / بابه ٣٤٢ قبطي
المبحث الأول
عرض غزوة ذات الرقاع (غزوة نجد)

تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في تاريخ الغزوة على رأيين:

أولاً: أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد غزوة خيبر:

يقول الإمام ابن حجر: «هَذِهِ الغَزْوَةُ اُخْتُلِفَ فِيهَا مَتَى كَانَتْ، وَاخْتُلِفَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَتِهَا بِذَلِكَ، وَقَدْ جَنَحَ البُخَارِيُّ إِلَى أَنَّهَا كَانَتْ بَعْدَ خَيْبَر، وَاسْتَدَلَّ لِذَلِكَ فِي هَذَا البَاب بِأُمُورٍ سَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَيْهَا مُفَصَّلًا، وَمَعَ ذَلِكَ فَذَكَرَهَا قَبْلَ خَيْبَرَ، فَلَا أَدْرِي هَلْ تَعَمَّدَ ذَلِكَ تَسْلِيمًا لِأَصْحَابِ المَغَازِي أَنَّهَا كَانَتْ قَبْلَهَا كَمَا سَيَأْتِي، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ الرُّوَاةِ عَنْهُ، أَوْ إِشَارَةً إِلَى احْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ ذَاتُ الرِّقَاعِ اسْمًا لِغَزْوَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ البَيْهَقِيُّ.

عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ المَغَازِي مَعَ جَزْمِهِمْ بِأَنَّهَا كَانَتْ قَبْل خَيْبَر مُخْتَلِفُونَ فِي زَمَانِهَا، فَعِنْدَ اِبْنِ إِسْحَاق أَنَّهَا بَعْدَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَبْلَ الخَنْدَقِ سَنَةَ أَرْبَعٍ، قَالَ اِبْنُ إِسْحَاق: أَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْدَ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ شَهْرَ رَبِيعٍ وَبَعْضَ جُمَادَى ـ يَعْنِي مِنْ سَنَتِهِ ـ وَغَزَا نَجْدًا يُرِيدُ بَنِي مُحَارِبٍ وَبَنِي ثَعْلَبَةَ مِنْ غَطَفَانَ، حَتَّى نَزَلَ نَخْلًا، وَهِيَ غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ.

وَعِنْد اِبْنِ سَعْدٍ وَابْنِ حِبَّانَ أَنَّهَا كَانَتْ فِي الْمُحَرَّم سَنَةَ خَمْسٍ.

وَأَمَّا أَبُو مَعْشَرَ فَجَزَمَ بِأَنَّهَا كَانَتْ بَعْدَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالخَنْدَقِ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِصَنِيعِ الْمُصَنِّفِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ غَزْوَة قُرَيْظَةَ كَانَتْ فِي ذِي القَعْدَةِ سَنَةَ خَمْسٍ، فَتَكُونُ ذَاتُ الرِّقَاعِ فِي آخِر السَّنَةِ وَأَوَّلِ الَّتِي تَلِيهَا.

وَأَمَّا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فَجَزَمَ بِتَقْدِيم وُقُوعِ غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، لَكِنْ تَرَدَّدَ فِي وَقْتِهَا فَقَالَ: لَا نَدْرِي كَانَتْ قَبْل بَدْرٍ أَوْ بَعْدَهَا أَوْ قَبْلَ أُحُدٍ أَوْ بَعْدَهَا (١).

وَهَذَا التَّرَدُّدُ لَا حَاصِلَ لَهُ، بَلْ الَّذِي يَنْبَغِي الجَزْمَ بِهِ أَنَّهَا بَعْد غَزْوِه بَنِي قُرَيْظَة؛ لِأَنَّهُ تَقَدَّمَ أَنَّ صَلَاةَ الخَوْفِ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ لَمْ تَكُنْ شُرِعَتْ، وَقَدْ ثَبَتَ وُقُوعُ صَلَاةِ الخَوْفِ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، فَدَلَّ

---

(١) يقول د/ العواجي: «ونَقْلُ ابن القيم وابن حجر لهذا القول عن موسى بن عقبة فيه نظر؛ لأن محمد باقشيش قد ذكر في رسالته (مرويات موسى بن عقبة ص ٢١٤) نقلًا عن مسند أبي عوانة، أن موسى بن عقبة يجعل غزوة ذات الرقاع بعد بني النضير». مرويات الإمام الزهري في المغازي للعواجي ١/ ٤٢٧-٤٢٨.

عَلَى تَأَخُّرِهَا بَعْدَ الخَنْدَقِ، وَسَأَذْكُرُ بَيَانَ ذَلِكَ وَاضِحًا فِي الكَلَامِ عَلَى رِوَايَةِ هِشَامٍ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ فِي هَذَا البَابِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى». [فتح الباري ٧/ ٤٨١-٤٨٢].

ويقول أيضًا: «وَقَدْ قِيلَ إِنَّ الغَزْوَةَ الَّتِي شَهِدَهَا أَبُو مُوسَى ﷺ وَسُمِّيَتْ ذَاتُ الرِّقَاعِ غَيْرُ غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا صَلَاةُ الخَوْفِ؛ لِأَنَّ أَبَا مُوسَى قَالَ فِي رِوَايَتِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا سِتَّةَ أَنْفُسٍ، وَالغَزْوَةُ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا صَلَاةُ الخَوْف كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا أَضْعَافَ ذَلِكَ، وَالجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ العَدَدَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو مُوسَى مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ كَانَ مُوَافِقًا لَهُ مِنَ الرَّامَّةِ لَا أَنَّهُ أَرَادَ جَمِيعَ مَنْ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَاسْتَدَلَّ عَلَى التَّعَدُّدِ أَيْضًا بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى ﷺ إِنَّهَا سُمِّيَتْ ذَاتُ الرِّقَاعِ لِـمَا لَفُّوا فِي أَرْجُلَهُمْ مِنَ الخِرَقِ، وَأَهْلُ المَغَازِي ذَكَرُوا فِي تَسْمِيَتِهَا بِذَلِكَ أُمُورًا غَيْرَ هَذَا...

لَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ مَانِعًا مِنِ اتِّحَادِ الوَاقِعَةِ وَلَازِمًا لِلتَّعَدُّدِ، وَقَدْ رَجَّحَ السُّهَيْلِيُّ السَّبَبَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو مُوسَى ﷺ، وَكَذَلِكَ النَّوَوِيُّ ثُمَّ قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ سُمِّيَتْ بِالمَجْمُوعِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى التَّعَدُّدِ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَرَّضْ أَبُو مُوسَى ﷺ فِي حَدِيثِهِ إِلَى أَنَّهُمْ صَلَّوا صَلَاةَ الخَوْفِ وَلَا أَنَّهُمْ لَقُوا عَدُوًّا، وَلَكِنَّ عَدَمَ الذِّكْرِ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الوُقُوعِ، فَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ فِي ذَلِكَ نَظِيرِ أَبِي مُوسَى ﷺ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْلَمَ وَالنَّبِيُّ ﷺ بِخَيْبَرَ كَمَا سَيَأْتِي هُنَاكَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ ذَكَرَ فِي حَدِيثِهِ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ صَلَاةَ الخَوْفِ فِي غَزْوَةِ نَجْد كَمَا سَيَأْتِي فِي أَوَاخِرِ هَذَا البَابِ وَاضِحًا، وَكَذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْن عُمَر ﷺ ذَكَرَ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ صَلَاةَ الخَوْفِ بِنَجْدٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَوَّلَ مَشَاهِدِهِ الخَنْدَقُ فَتَكُونُ ذَاتُ الرِّقَاعِ بَعْدِ الخَنْدَقِ». [فتح الباري ٧/ ٤٨٣].

ويقول الإمام ابن القيم: «وَالظَّاهِرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوَّلُ صَلَاةٍ صَلَّاهَا لِلخَوْفِ بِعُسْفَانَ كَمَا قَالَ أَبُو عَيَّاشٍ الزُّرَقِيُّ ﷺ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِعُسْفَانَ، فَصَلَّى بِنَا الظُّهْرَ وَعَلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، فَقَالُوا: لَقَدْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ غَفْلَةً، ثُمَّ قَالُوا: إِنَّ لَهُمْ صَلَاةً بَعْدَ هَذِهِ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، فَنَزَلَتْ صَلَاةُ الخَوْفِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ، فَصَلَّى بِنَا العَصْرَ، فَفَرَّقَنَا فِرْقَتَيْنِ... وَذَكَرَ الحَدِيثَ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَازِلًا بَيْنَ ضَجْنَانَ [(١)] وَعُسْفَانَ مُحَاصِرًا لِلْمُشْرِكَيْنِ، فَقَالَ الـمُشْرِكُونَ: إِنَّ لِهَؤُلَاءِ صَلَاةً هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، أَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، ثُمَّ مِيلُوا عَلَيْهِمْ

---

(١) **ضَجْنان**: اسم جبل بناحية تهامة، قال الواقدي: بين ضجنان ومكة خمسة وعشرون ميلًا... ولضجنان حديث في حديث الإسراء، حيث قالت له قريش: ما آية صدقك؟ قال: لما أقبلت راجعًا حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير فلان، فوجدت القوم ولهم إناء فيه ماء فشربت ما فيه... وذكر القصة. معجم البلدان ٣/ ٤٥٣، وتعرف اليوم بحرة المحسنية. معجم المعالم الجغرافية ص ١٨٣.

مَيْلَةً وَاحِدَةً، فَجَاءَ جِبْرِيلُ ﷺ فَأَمَرَهُ أَنْ يُقَسِّمَ أَصْحَابَهُ نِصْفَيْنِ... وَذَكَرَ الحَدِيثَ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ أَنَّ غَزْوَةَ عُسْفَانَ كَانَتْ بَعْدَ الخَنْدَقِ، وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى صَلَاةَ الخَوْفِ بِذَاتِ الرِّقَاعِ، فَعُلِمَ أَنَّهَا بَعْدَ الخَنْدَقِ، وَبَعْدَ عُسْفَانَ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، وَأَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ رضي الله عنهما شَهِدَا ذَاتَ الرِّقَاعِ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أَنَّهُ شَهِدَ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَلُفُّونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ الخِرَقَ لَـمَّا نُقِبَتْ.

وَأَمَّا أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَفِي «الـمُسْنَدِ» و«السُّنَنِ» أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الحَكَمِ سَأَلَهُ: هَلْ صَلَّيْتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الخَوْفِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَتَى؟ قَالَ: عَامَ غَزْوَةِ نَجْدٍ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ بَعْدَ خَيْبَرَ، وَأَنَّ مَنْ جَعَلَهَا قَبْلَ الخَنْدَقِ فَقَدْ وَهِمَ وَهْمًا ظَاهِرًا، وَلـمَّا لَمْ يَفْطَنْ بَعْضُهُمْ لِهَذَا ادَّعَى أَنَّ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ كَانَتْ مَرَّتَيْنِ، فَمَرَّةً قَبْلَ الخَنْدَقِ، وَمَرَّةً بَعْدَهَا، عَلَى عَادَتِهِمْ فِي تَعْدِيدِ الوَقَائِعِ إِذَا اخْتَلَفَتْ أَلفَاظُهَا أَوْ تَارِيخُهَا.

وَلَوْ صَحَّ لِهَذَا القَائِلِ مَا ذَكَرَهُ ـ وَلَا يَصِحُّ ـ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ صَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الخَوْفِ فِي المَرَّةِ الأُولَى لـمَا تَقَدَّمَ مِنْ قِصَّةِ عُسْفَانَ، وَكَوْنِهَا بَعْدَ الخَنْدَقِ، وَلَهُمْ أَنْ يُجِيبُوا عَنْ هَذَا بِأَنَّ تَأْخِيرَ يَوْمِ الخَنْدَقِ جَائِزٌ غَيْرُ مَنْسُوخٍ، وَأَنَّ فِي حَالِ المُسَايَفَةِ يَجُوزُ تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ إِلَى أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ فِعْلِهَا، وَهَذَا أَحَدُ القَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ رحمه الله وَغَيْرِهِ، لَكِنْ لَا حِيلَةَ لَهُمْ فِي قِصَّةِ عُسْفَانَ أَنَّ أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا لِلخَوْفِ بِهَا، وَأَنَّهَا بَعْدَ الخَنْدَقِ.

فَالصَّوَابُ تَحْوِيلُ غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ مِنْ هَذَا المَوْضِعِ إِلَى مَا بَعْدَ الخَنْدَقِ، بَل بَعْدَ خَيْبَرَ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهَا هَا هُنَا تَقْلِيدًا لِأَهْلِ الـمَغَازِي وَالسِّيَرِ، ثُمّ تَبَيَّنَ لَنَا وَهْمُهُمْ. وَبِالله التَّوْفِيقُ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ بَعْدَ الخَنْدَقِ، مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: أَقْبَلنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِذَاتِ الرِّقَاعِ، قَالَ: كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَسَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُعَلَّقٌ بِالشَّجَرَةِ، فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاخْتَرَطَهُ (سله من غمده)... فَذَكَرَ القِصَّةَ، وَقَالَ: فَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى بِطَائِفَةٍ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ تَأَخَّرُوا وَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الأُخْرَى رَكْعَتَيْنِ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ وَلِلقَوْمِ رَكْعَتَانِ.

وَصَلَاةُ الخَوْفِ إِنَّمَا شُرِعَتْ بَعْدَ الخَنْدَقِ، بَلْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ عُسْفَانَ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ قِصَّةَ بَيْعِ جَابِرٍ رضي الله عنه جَمَلَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، وَقِيلَ فِي مَرْجِعِهِ مِنْ تَبُوكَ، وَلَكِنْ فِي إِخْبَارِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي تِلكَ القَضِيَّةِ أَنَّهُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً ثَيِّبًا تَقُومُ عَلَى أَخَوَاتِهِ وَتَكْفُلُهُنَّ، إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ بَادَرَ إِلَى ذَلِكَ بَعْدَ مَقْتَلِ أَبِيهِ، وَلَمْ يُؤَخِّرْ إِلَى عَامِ تَبُوكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ». [**زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٥١-٢٥٤**].

وبهذا فقد ذهب إلى القول بأنها كانت بعد خيبر: ابن القيم، وابن حجر.

ومن العلماء المعاصرين: د/ محمد أبو شهبة في السيرة النبوية ٢/ ٣٧٠ حيث وضعها قبل عمرة القضاء، ود/ حافظ الحكمي في مرويات غزوة الحديبية ١٤٣-١٥٤، ود/ أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٣٧، ٤٦٢، وأ/ إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية ٣٧٠-٣٧١، ود/ محمد العواجي في مرويات الإمام الزهري في المغازي ١/ ٤٢٧-٤٢٨، ود/ زيد الزيد في فقه السيرة ٥٦٥-٥٧٠.

ثانيًا: أن غزوة ذات الرقاع كانت قبل الخندق:

يقول د/ البوطي: «اتفق علماء المغازي والسير على أن غزوة ذات الرقاع كانت قبل خيبر، ثم رجَّح معظمهم أنها كانت بعد غزوة بني النضير في العام الرابع للهجرة، وذهب بعضهم كابن سعد وابن حبان إلى أنها كانت في العام الخامس.

غير أن الإمام البخاري نصَّ في صحيحه على أنها كانت بعد خيبر، ولكنها جاءت مع ذلك في ترتيب كتابه قبلها!.. ورجَّح الحافظ ابن حجر ما ذهب إليه البخاري مستدلًا بأن صلاة الخوف كانت مشروعة في ذات الرقاع مع أنه لم يصلها في الخندق، وقد فاتته فصلاها قضاءً، كما استدل بما روي في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ﵁ يصف كيف نقبت أقدامهم في ذات الرقاع حتى لفوا على أقدامهم الخرق؛ فلذلك سُميت بذات الرقاع، وأبو موسى الأشعري ﵁ لم يعد من الحبشة إلا بعد غزوة خيبر، واستشكل ابن القيم الأمر على ضوء هذه الأدلة فقال: إن هذا يدل على أن غزوة ذات الرقاع ربما كانت بعد غزوة الخندق.

قلت: بل يتعين أن تكون غزوة ذات الرقاع هذه قبلها، إذ ثبت في الصحيح أن جابرًا ﵁ استأذن الرسول ﷺ إلى بيته في غزوة الخندق، وأخبر امرأته بما رأى من جوع رسول الله ﷺ، وفيه قصة الطعام الذي دعا إليه النبي ﷺ وأصحابه ﵃، وفيه أنه ﷺ قال لزوجة جابر ﵁: كلي هذا واهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة، وثبت في الصحيحين أيضًا أن رسول الله ﷺ سأل جابرًا ﵁ في غزوة ذات الرقاع: هل تزوج أم لا؟ قال: نعم يا رسول الله... الحديث، أي فلم يكن قد علم ﷺ بعدُ شيئًا عن زواجه.

فهذا يدل دلالة واضحة على أن ذات الرقاع كانت قبل الأحزاب فضلًا عن خيبر.

ولم أرَ من استدل بهذا على تأخر الأحزاب عن ذات الرقاع ممن قال بذلك، ولا من أجاب عنه ممن قال بعكسه، ولكنه على كل حال دليل يكاد يكون قاطعًا على ما نقول.

أمَّا ما استدل به الحافظ ابن حجر من أنه ﷺ لم يصل صلاة الخوف في الأحزاب وصلاها قضاء، فيجاب عنه: بأنه ربما كان سبب تأخير رسول الله ﷺ لها إذ ذاك استمرار الرمي بين المشركين والمسلمين بحيث لم يدع مجالًا للانصراف إلى الصلاة، وربما كان العدو في جهة القبلة، وصلاة الخوف التي صلاها

الرسول ﷺ في ذات الرقاع كان العدو في غير جهة القبلة كما سيأتي، أو ربما أخرها لبيان مشروعية قضاء الفائتة كيفما كانت، كما يجاب على الاستدلال بحديث أبي موسى الأشعري ﷺ بما ذكره كثير من علماء السير والمغازي من أن أبا موسى الأشعري ﷺ إنما قصد بها غزوة أخرى هي أيضًا سُميت بذات الرقاع؛ بدليل أنه قال عنها: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه... الخ، وغزوة ذات الرقاع التي نتحدث عنها كان العدد أكثر من ذلك.

وقد حاول الحافظ ابن حجر ﷺ أن يرد على هذا الكلام، ولكن ليس ثمَّة داع إلى ذلك، خصوصًا وقد ثبت الدليل القاطع على ما ذهب إليه علماء السير والمغازي مما ذكرناه من حديث جابر ﷺ في كل من الغزوتين». [فقه السيرة للبوطي ٢٠٩-٢١٠].

ويقول د/ رزق الله: «والذي نميل إليه هو ما ذهب إليه الدكتور البوطي؛ لأن حجته الخاصة بزواج جابر ﷺ قبل الخندق لا تُدفع، وهي في الصحيحين، إضافة إلى أن البخاري قد ذكر رأيه معلقًا، وحجته فقط مجيء أبي موسى الأشعري ﷺ بعد خيبر، وهي حجة دفعها البوطي بترجيح تعدد الغزوة».
[السيرة النبوية لرزق الله ٤٢٥].

وبهذا فقد ذهب إلى القول بأنها قبل غزوة الخندق: الإمام الزهري، وابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، وابن حبان، وموسى بن عقبة، وابن كثير، والكلاعي، والذهبي، والمقريزي، وابن الأثير، حيث ذكروها جميعًا قبل غزوة الخندق.

ومن العلماء المعاصرين: الشيخ محمد أبو زهرة في خاتم النبيين ﷺ ٢/ ٧٦٢-٧٦٧، وأ/ محمد باشميل في غزوة الأحزاب ٦٤، ود/ محمد سعيد البوطي في فقه السيرة ٢٠٩-٢١٠، ود/ محمد أبو فارس في غزوة الأحزاب ١٣، ود/ شوقي أبو خليل في غزوة الخندق ٥١، والشيخ أبو الحسن الندوي في السيرة النبوية ٢٤٥، وأ/ سعيد حوى في الأساس في السنة ٢/ ٦٤٧، ود/ مهدي رزق الله في السيرة النبوية ٤٢٤-٤٢٥، ود/ الصلابي في السيرة النبوية ٢/ ٢١٩، ود/ محمد خير هيكل في الجهاد والقتال ٢/ ١٣٧٤-١٣٧٦، ود/ محمود العيساوي في فقه الغزوات ٢٤٣-٢٤٥.

سبب تسميتها:

واختلف في سبب تسميتها بذلك.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَإِنَّمَا قِيلَ لَهَا غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ؛ لِأَنَّهُمْ رَقَّعُوا فِيهَا رَايَاتِهِمْ، وَيُقَالُ ذَاتُ الرِّقَاعِ: شَجَرَةٌ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ الرِّقَاعِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٤].

وقال الواقدي: فَإِنَّمَا سُمِّيَتْ ذَاتِ الرِّقَاعِ؛ لأَنَّهُ جَبَلٌ فِيهِ بُقَعٌ حُمْرٌ وَسَوَادٌ وَبَيَاضٌ. [المغازي ١/ ٣٩٥].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى ﷺ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَرْبُطُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ مِنَ الْخِرَقِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ.
[السيرة لابن كثير ٣/ ١٦٠].

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزَاةٍ، وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ (أي: يركبه كل واحد منا نوبة)، فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا (أي: أصابتها القروح من الحفاء)، فَنَقِبَتْ قَدَمَايَ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، فَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الخِرَقَ، فَسُمِّيَتْ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ لِمَا كُنَّا نُعَصِّبُ عَلَى أَرْجُلِنَا مِنْ الخِرَقِ.

قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: فَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا الحَدِيثِ ثُمَّ كَرِهَ ذَلِكَ، قَالَ: [مَا كُنْتُ أَصْنَعُ بِأَنْ أَذْكُرَهُ] كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ أَفْشَاهُ.

قَالَ أَبُو أُسَامَةَ: وَزَادَنِي غَيْرُ بُرَيْدٍ «وَاللهُ يُجْزِي بِهِ».
[البخاري في المغازي (٤١٢٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨١٦) واللفظ له].

سبب الغزوة:

وسببها ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد وسليم بالمسلمين، ذلك الغدر الذي تجلى في مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى، فخرج ﷺ قاصدًا قبائل محارب وبني ثعلبة.
[فقه السيرة للبوطي ٢٠٧].

هدف الغزوة:

فقد «تلقت استخبارات الجيش الإسلامي أن محارب وبني ثعلبة من غطفان قد اعتزموا الإغارة على المدينة مستهينين بالمسلمين بعد الذي أصابهم في معركة أُحُد؛ وأنهم لذلك أخذوا في التحشد، استقت استخبارات المدينة هذه المعلومات من رجل جاء إلى المدينة بجلب له». [غزوة الأحزاب لباشميل ٦٥].

روى الواقدي عن شيوخه: «قَالُوا: قَدِمَ قَادِمٌ بِجَلَبٍ (ما يُجلب من بلد إلى بلد للبيع) لَهُ فَاشْتَرَى بِسُوقِ النَّبَطِ وَقَالُوا: مِنْ أَيْنَ جَلَبْتَ جَلَبَكَ؟ قَالَ: جِئْتُ مِنْ نَجْدٍ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْمَارًا وَثَعْلَبَةَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ جُمُوعًا، وَأَرَاكُمْ هَادِينَ (غافلين عن أمرهم) (هادئين) عَنْهُمْ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ قَوْلُهُ، فَخَرَجَ فِي أَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَقَالَ قَائِلٌ: كَانُوا سَبْعَمِائَةٍ أَوْ ثَمَانِمِائَةٍ». [المغازي للواقدي ١/ ٣٩٥-٣٩٦].

«وكان هدف الرسول ﷺ أن يتمكن من مداهمة هذه القبيلة قبل أن تتحرك قواتها من منازلها، وهذه ثاني مرة يسارع النبي ﷺ إلى غزو غطفان في ديارهم، فقد قام بتأديبهم في حملة عسكرية قبل هذه إلى مكان من أرض نجد يقال له (ذي أمر) وذلك بعد غزوة بدر وقبل معركة أُحُد». [غزوة الأحزاب لباشميل ٦٥].

النفير العام:

«لم يتردد النبي ﷺ في إصدار الأوامر بالتأهب بسرعة للزحف على هذه القبيلة عندما بلغه نبأ تحشدها؛ لأن المسلمين كانوا يتوقعون ذلك من غطفان؛ لأنها أقوى وأشجع قبيلة محاربة في نجد، وعلى عداء شديد للمسلمين، وهي من الكثرة بحيث تستطيع حشد عدة آلاف في وقت وجيز، وقد كان رجال هذه القبيلة هم العمود الفقري لغزوة الأحزاب كما سيأتي». [غزوة الأحزاب لباشميل ٦٥].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ أَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالمَدِينَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ شَهْرَ رَبِيعٍ الآخِرِ وَبَعْضَ جُمَادَى، ثُمَّ غَزَا نَجدًا يُرِيدُ بَنِي مُحَارِبٍ وَبَنِي ثَعْلَبَةَ مِنْ غَطَفَانَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٢].

أمير المدينة بالنيابة:

وَاسْتَعْمَلَ ﷺ عَلَى المَدِينَةِ أَبَا ذَرٍّ الغِفَارِيَّ رضي الله عنه (١)، وَيُقَالُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنه، فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٢].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي عَائِذُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ أَبِي الحُوَيْرِثِ، قَالَ: اسْتَخْلَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى المَدِينَةِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنه». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٢].

وقائع الغزوة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَسَارَ حَتَّى نَزَلَ نَخْلًا (٢)، وَهِيَ غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ، فَلَقِيَ بِهَا جَمْعًا عَظِيمًا مِنْ غَطَفَانَ، فَتَقَارَبَ النَّاسُ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ حَرْب، وَقَدْ خَافَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ صَلَاةَ الخَوْفِ، ثُمَّ انْصَرَفَ بِالنَّاسِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٤].

وأخرجه البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ فِي الخَوْفِ فِي غَزْوَةِ السَّابِعَةِ غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ. [البخاري في المغازي (٤١٢٥)].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: سَمِعْتُ وَهْبَ بْنَ كَيْسَانَ سَمِعْتُ جَابِرًا رضي الله عنه: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى ذَاتِ الرِّقَاعِ مِنْ نَخْلٍ فَلَقِيَ جَمْعًا مِنْ غَطَفَانَ فَلَمْ يَكُنْ قِتَالٌ، وَأَخَافَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ رَكْعَتَيْ الخَوْفِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الخَوْفَ بِذِي قَرَدٍ.

وَقَالَ بَكْرُ بْنُ سَوَادَةَ: حَدَّثَنِي زِيَادُ بْنُ نَافِعٍ عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّ جَابِرًا رضي الله عنه حَدَّثَهُمْ: صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بِهِمْ يَوْمَ مُحَارِبٍ وَثَعْلَبَةَ. [البخاري في المغازي (٤١٢٧)].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ المَدِينَةِ، حَتَّى سَلَكَ عَلَى المَضِيقِ (قرية)، ثُمَّ أَفْضَى (وصل) إِلَى وَادِي الشُّقْرَةِ (٣) فَأَقَامَ بِهِ يَوْمًا، وَبَثَّ السَّرَايَا فَرَجَعُوا إِلَيْهِ مَعَ اللَّيْلِ وَخَبَّرُوهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا أَحَدًا، وَقَدْ وَطِؤُوا آثَارًا حَدِيثَةً.

---

(١) قال الزرقاني: «قاله ابن إسحاق، وتعقبه ابن عبد البر بأنه خلاف ما عليه الأكثر، وبأن أبا ذر رضي الله عنه لما أسلم بمكة رجع إلى بلاده فلم يجئ إلا بعد الخندق. انتهى. وعلى مختار البخاري أنها بعد خيبر وأبي معشر أنها بعد قريظة لا تعقب». شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢/ ٥٢٨.

(٢) نزل نَخْلًا بلفظ اسم جنس النخلة: موضع على يومين من المدينة أيضًا.

(٣) **الشُّقْرة**: بضم أوله وسكون ثانيه، بلفظ الشّقرة من اللون: موضع بطريق فيد بين جبال حمر، وهو بالقرب من النخيل على الطريق بين المدينة والقصيم، على مسافة سبعة وستين كيلًا من المدينة النبوية، ولا زالت معروفة اليوم. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة لشراب ١/ ١٥١-١٥٢.

ثُمَّ سَارَ رَسُولُ الله ﷺ فِي أَصْحَابِهِ حَتَّى أَتَى مَحَالَّهُمْ فَيَجِدُونَ المَحَالَّ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، وَقَدْ ذَهَبَتْ الأَعْرَابُ إِلَى رُؤُوسِ الجِبَالِ وَهُمْ مُطِلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وَقَدْ خَافَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالْمُشْرِكُونَ مِنْهُمْ قَرِيبٌ، وَخَافَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَيْهِمْ وَهُمْ غَارُّونَ (غافلون)، وَخَافَتْ الأَعْرَابُ أَلا يَبْرَحَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى يَسْتَأْصِلَهُمْ (يهلكهم جميعًا).

[المغازي للواقدي ١/ ٣٩٦].

صلاة الخوف:

عَنْ صَالِحِ بْنِ خَوَّاتٍ عَمَّنْ شَهِدَ رَسُولَ الله ﷺ يَوْمَ ذَاتِ الرِّقَاعِ صَلَّى صَلَاةَ الخَوْفِ أَنَّ طَائِفَةً صَفَّتْ مَعَهُ وَطَائِفَةٌ وِجَاهَ العَدُوِّ، فَصَلَّى بِالَّتِي [بِالَّذِينَ] مَعَهُ رَكْعَةً، ثُمَّ ثَبَتَ قَائِمًا وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ انْصَرَفُوا فَصَفُّوا وِجَاهَ العَدُوِّ، وَجَاءَتْ الطَّائِفَةُ الأُخْرَى فَصَلَّى بِهِمْ الرَّكْعَةَ الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ صَلَاتِهِ، ثُمَّ ثَبَتَ جَالِسًا، وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ.

وَقَالَ مُعَاذٌ: حَدَّثَنَا هِشَامٌ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ ؓ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِنَخْلٍ فَذَكَرَ صَلَاةَ الخَوْفِ.

قَالَ مَالِكٌ: وَذَلِكَ [وَهَذَا أَحَبُّ] أَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ [إِلَيَّ] فِي صَلَاةِ الخَوْفِ.

[البخاري في المغازي (٤١٣٠)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٤٢)، وأبو داود في الصلاة (١٢٣٨)، والنسائي في صلاة الخوف (١٥٣٧)، ومالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة (٤٤٠)، وأحمد (٢٣١٣٦)].

وعَنْ صَالِحِ بْنِ خَوَّاتٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ قَالَ: يَقُومُ الإِمَامُ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ وَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنْ قِبَلِ العَدُوِّ وُجُوهُهُمْ إِلَى العَدُوِّ، فَيُصَلِّي بِالَّذِينَ مَعَهُ رَكْعَةً، ثُمَّ يَقُومُونَ فَيَرْكَعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ رَكْعَةً، وَيَسْجُدُونَ سَجْدَتَيْنِ فِي مَكَانِهِمْ، ثُمَّ يَذْهَبُ هَؤُلَاءِ إِلَى مَقَامِ أُولَئِكَ، فَيَرْكَعُ بِهِمْ رَكْعَةً، فَلَهُ ثِنْتَانِ، ثُمَّ يَرْكَعُونَ وَيَسْجُدُونَ سَجْدَتَيْنِ. **[البخاري في المغازي (٤١٣١)].**

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّاسِ صَلَاةَ الخَوْفِ بِذَاتِ الرِّقَاعِ مِنْ نَخْلٍ، قَالَتْ: فَصَدَعَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ صَدْعَيْنِ (قسمهم قسمين)، فَصَفَّتْ طَائِفَةٌ وَرَاءَهُ، وَقَامَتْ طَائِفَةٌ تُجَاهَ العَدُوِّ، قَالَتْ: فَكَبَّرَ رَسُولُ الله ﷺ، وَكَبَّرَتْ الطَّائِفَةُ الَّذِينَ صَفُّوا خَلفَهُ، ثُمَّ رَكَعَ وَرَكَعُوا، ثُمَّ سَجَدَ فَسَجَدُوا، ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ رَأْسَهُ فَرَفَعُوا مَعَهُ، ثُمَّ مَكَثَ رَسُولُ الله ﷺ جَالِسًا وَسَجَدُوا لِأَنْفُسِهِمْ السَّجْدَةَ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ قَامُوا فَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ يَمْشُونَ القَهْقَرَى، حَتَّى قَامُوا مِنْ وَرَائِهِمْ، قَالَتْ: وَأَقْبَلَتْ الطَّائِفَةُ الأُخْرَى فَصَفُّوا خَلفَ رَسُولِ الله ﷺ، فَكَبَّرُوا ثُمَّ رَكَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ سَجَدَ رَسُولُ الله ﷺ سَجْدَتَهُ الثَّانِيَةَ فَسَجَدُوا مَعَهُ، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي رَكْعَتِهِ، وَسَجَدُوا هُمْ لِأَنْفُسِهِمْ السَّجْدَةَ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ قَامَتْ الطَّائِفَتَانِ جَمِيعًا فَصَفُّوا [فَصَلَّوْا] خَلفَ رَسُولِ الله ﷺ، فَرَكَعَ بِهِمْ رَسُولُ الله ﷺ فَرَكَعُوا جَمِيعًا ثُمَّ سَجَدَ، فَسَجَدُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَرَفَعُوا مَعَهُ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ

سَرِيعًا جدًّا لَا يَأْلُو أَنْ يُخَفِّفَ مَا اسْتَطَاعَ، ثُمَّ سَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ فَسَلَّمُوا، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَدْ شَرَكَهُ [شَارَكَهُ] النَّاسُ فِي الصَّلَاةِ كُلِّهَا. [أبو داود في الصلاة (١٢٤٢)، ومسند أحمد ٤٣/ ٣٧٣-٣٧٤ رقم ٢٦٣٥٤ واللفظ له، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: إسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد صرَّح بالتحديث فانتفت هنا شبهة تدليسه، وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين].

وقد وردت صلاة الخوف في حديث أبي هريرة ﷺ، في غزوة نجد، ولكنه أسلم في خيبر كما سيأتي، ولكنها ربما كانت غزوة أخرى إلى نجد، ولكني أوردتها لبيان كيفيتها.

روى الأئمة عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ: **هَلْ صَلَّيْتَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ صَلَاةَ الْخَوْفِ؟** قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: نَعَمْ، قَالَ مَرْوَانُ: مَتَى؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: عَامَ غَزْوَةِ نَجْدٍ، قَامَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَقَامَتْ مَعَهُ طَائِفَةٌ، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى مُقَابِلَ [مُقَابِلَةَ] الْعَدُوِّ، وَظُهُورُهُمْ إِلَى الْقِبْلَةِ، فَكَبَّرَ رَسُولُ الله ﷺ، [فَكَبَّرَ رَسُولُ الله]، فَكَبَّرُوا جَمِيعًا، الَّذِينَ مَعَهُ وَالَّذِينَ مُقَابِلِي [يُقَابِلُونَ] الْعَدُوِّ، ثُمَّ رَكَعَ رَسُولُ الله ﷺ رَكْعَةً وَاحِدَةً، وَرَكَعَتِ الطَّائِفَةُ الَّتِي مَعَهُ [وَرَكَعَتْ مَعَهُ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَلِيهِ]، ثُمَّ سَجَدَ، فَسَجَدَتِ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَلِيهِ، وَالْآخَرُونَ قِيَامٌ مُقَابِلِي [مُقَابِلَةَ] الْعَدُوِّ، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ الله ﷺ، وَقَامَتِ الطَّائِفَةُ الَّتِي مَعَهُ فَذَهَبُوا إِلَى الْعَدُوِّ، فَقَابَلُوهُمْ، وَأَقْبَلَتِ الطَّائِفَةُ الَّتِي كَانَتْ مُقَابِلِي [مُقَابِلَةَ] الْعَدُوِّ فَرَكَعُوا وَسَجَدُوا، وَرَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ كَمَا هُوَ، ثُمَّ قَامُوا فَرَكَعَ رَسُولُ الله ﷺ رَكْعَةً أُخْرَى، وَرَكَعُوا مَعَهُ، وَسَجَدَ، وَسَجَدُوا مَعَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتِ الطَّائِفَةُ الَّتِي كَانَتْ مُقَابِلِي الْعَدُوِّ، فَرَكَعُوا وَسَجَدُوا وَرَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ، ثُمَّ كَانَ السَّلَامُ، فَسَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ وَسَلَّمُوا جَمِيعًا، فَكَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ رَكْعَتَانِ، وَلِكُلِّ رَجُلٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ رَكْعَةٌ، رَكْعَةٌ [رَكْعَتَانِ رَكْعَتَانِ]». [أبو داود في الصلاة (١٢٤٠-١٢٤١)، والنسائي في صلاة الخوف (١٥٤٣)، ومسند أحمد ١٤/ ١٢ رقم ٨٢٦٠، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

وقَالَ ابْنُ هِشَام: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ بْنُ سَعِيدٍ التَّنُّورِيُّ ـ وَكَانَ يُكَنَّى: أَبَا عُبَيْدَةَ ـ قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ، عَنْ الحَسَنِ بْنِ أَبِي الحَسَنِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ فِي صَلَاةِ الخَوْفِ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ بِطَائِفَةٍ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، وَطَائِفَةٌ مُقْبِلُونَ عَلَى العَدُوِّ، قَالَ: فَجَاؤُوا فَصَلَّى بِهِمْ رَكْعَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ.

وقَالَ ابْنُ هِشَام: وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: صَفَّنَا رَسُولُ الله ﷺ صَفَّيْنِ، فَرَكَعَ بِنَا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ رَسُولُ الله ﷺ، وَسَجَدَ الصَّفُّ الأَوَّلُ، فَلَمَّا رَفَعُوا سَجَدَ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ تَأَخَّرَ الصَّفُّ الأَوَّلُ، وَتَقَدَّمَ الصَّفُّ الآخَرُ حَتَّى قَامُوا مَقَامَهُمْ، ثُمَّ رَكَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِمْ جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَجَدَ الَّذِينَ يَلُونَهُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ سَجَدَ الآخَرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ، فَرَكَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِمْ جَمِيعًا، وَسَجَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِأَنْفُسِهِمْ سَجْدَتَيْنِ.

وقَالَ ابْنُ هِشَام: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ بْنُ سَعِيدٍ التَّنُّورِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: يَقُومُ الإِمَامُ وَتَقُومُ مَعَهُ طَائِفَةٌ، وَطَائِفَةٌ مِمَّا يَلِي عَدُوَّهُمْ، فَيَرْكَعُ بِهِمْ الإِمَامُ وَيَسْجُدُ بِهِمْ، ثُمَّ

يَتَأَخَّرُونَ فَيَكُونُونَ مِمَّا يَلِي العَدُوَّ يَتَقَدَّمُ الآخَرُونَ، فَيَرْكَعُ بِهِمْ الإِمَامُ رَكْعَةً وَيَسْجُدُ بِهِمْ، ثُمَّ تُصَلِّي كُلُّ طَائِفَةٍ بِأَنْفُسِهِمْ رَكْعَةً، فَكَانَتْ لَهُمْ مَعَ الإِمَامِ رَكْعَةً رَكْعَةً، وَصَلُّوْا بِأَنْفُسِهِمْ رَكْعَةً رَكْعَةً.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٥-٢٠٦].

وقال الواقدي: «وَفِيهَا (أي في غزوة ذات الرقاع) صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ صَلاةَ الخَوْفِ.

فَحَدَّثَنِي رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ أَبِي نُعَيْم، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ، قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَا صَلَّى يَوْمَئِذٍ صَلاةُ الخَوْفِ، وَخَافَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَيْهِ وَهُمْ فِي الصَّلاةِ وَهُمْ صُفُوفٌ.

فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ أَخِيهِ، عَنْ القَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ صَالِحِ بْنِ خَوَّاتٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ صَلاةَ الخَوْفِ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ القِبْلَةَ وَطَائِفَةٌ خَلْفَهُ، وَطَائِفَةٌ مُوَاجِهَةٌ العَدُوَّ، فَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الَّتِي خَلْفَهُ رَكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ ثَبَتَ قَائِمًا، فَصَلَّوْا خَلْفَهُ رَكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمُوا، وَجَاءَتْ الطَّائِفَةُ الأُخْرَى فَصَلَّى بِهِمْ رَكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ، وَالطَّائِفَةُ الأُولَى مُقْبِلَةٌ عَلَى العَدُوِّ، فَلَمَّا صَلَّى بِهِمْ رَكْعَةً ثَبَتَ جَالِسًا حَتَّى أَتَمُّوا لأَنْفُسِهِمْ رَكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ». **[المغازي للواقدي ١/ ٣٩٦].**

عبَّاد بن بشر ﷺ وما حصل معه أثناء الحراسة:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ [مِنْ نَخْلٍ] فَأُصِيبَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [فَأَصَابَ رَجُلٌ امْرَأَةَ رَجُلٍ مِنْ المشْرِكِينَ] [1]، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ قَافِلًا، وَجَاءَ زَوْجُهَا وَكَانَ غَائِبًا، [فَلَمَّا أُخبِرَ] فَحَلَفَ أَنْ لا يَنْتَهِيَ حَتَّى يُهْرِيقَ (يصب ويسيل) دَمًا فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَخَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْزِلًا، فَقَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا** (يحفظنا ويحرسنا) **لَيْلَتَنَا هَذِهِ؟**»، فَانْتَدَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَرَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ[وَهُمَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ، والوَاقِدِيُّ]، فَقَالا: **نَحْنُ يَا رَسُولَ الله!** قَالَ: «**فَكُونُوا بِفَمِ الشِّعْبِ**» (الطريق في الجبل)، قَالَ: وَكَانُوا نَزَلُوا إِلَى شِعْبٍ مِنْ الوَادِي، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ، قَالَ الأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: **أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيَكَهُ أَوَّلَهُ أَوْ آخِرَهُ؟** قَالَ: **اكْفِنِي أَوَّلَهُ**، فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَامَ، وَقَامَ الأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي، وَأَتَى الرَّجُلُ فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ (سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد) عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةُ القَوْمِ [2]، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ (أصابه به)، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ عَادَ لَهُ بِثَالِثٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثُمَّ أَهَبَّ (أيقظ) صَاحِبَهُ، فَقَالَ:

---

(١) قال الواقدي: «وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ أَصَابَ فِي مَحَالِّهِمْ نِسْوَةً، وَكَانَ فِي السَّبْيِ جَارِيَةٌ وَضِيئَةٌ كَانَ زَوْجُهَا يُحِبُّهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ حَلَفَ زَوْجُهَا لَيَطْلُبَن مُحَمَّدًا، وَلا يَرْجِعُ إِلَى قَوْمِهِ حَتَّى يُصِيبَ مُحَمَّدًا، أَوْ يُهْرِيقَ فِيهِمْ دَمًا، أَوْ تَتَخَلَّصَ صَاحِبَتُهُ». المغازي للواقدي ١/ ٣٩٧.

(٢) **ربيئة**: هو العين والطليعة الذي ينظر للقوم؛ لئلا يدهمهم العدو، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه. النهاية لابن الأثير ٢/ ١٧٩. وبالتعبير العصري: هو رجل المراقبة المخصص لذلك.

اجْلِسْ **فَقَدْ أُوتِيتُ [أُثْبِتُّ** (أُصبت، أي جرحت جرحًا لا يمكن التحرك معه)]، فَوَثَبَ، فَلَـمَّا رَآهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ (عرفوا بخطره)، فَهَرَبَ، فَلَـمَّا رَأَى الـمُهَاجِرِيُّ مَا بِالأَنْصَارِيِّ مِنْ الدِّمَاءِ قَالَ: **سُبْحَانَ اللهِ! أَلا أَهْبَبْتَنِي [أَوَّلَ مَا رَمَاكَ]؟!** قَالَ: **كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِذَهَا** (أفرغ منها)، **فَلَـمَّا تَابَعَ الرَّمْيَ رَكَعْتُ فَأُرِيتُكَ [فَأَذِنْتُكَ]، وَايْمُ اللهِ لَوْلا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا** (ما يلي دار العدو) **أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِهِ لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِذَهَا**. [مسند أحمد ٢٣/ ٥٣، ١٥٣ رقم ١٤٧٠٤، ١٤٨٦٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: «حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف، عقيل بن جابر في عداد المجهولين لم يرو عنه غير صدقة بن يسار وذكره ابن حبان في ثقاته»، وأبو داود في الطهارة (١٩٨)، وحسنه الشيخ الألباني، والشيخ العلي في صحيح السيرة وقال: «وصححه ابن خزيمة: ٣٦، وذكره البخاري تعليقًا، كذا قال في التلخيص الحبير ١/ ١١٤-١١٥، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٥٠ كتاب السير باب صلاة الحرص، وفي الدلائل ٣/ ٣٧٩، و السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٨-٢٠٩»، والمغازي للواقدي ١/ ٣٩٧].

هَلُمَّ إِلَى الظِّلِّ يَا رَسُولَ اللهِ!:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ نَحْوَ المَشْرِقِ فِي غَزْوَتِه.

قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: فَإِنَّا لَفِي مُنْصَرَفِنَا أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ، فَقُلْتُ: هَلُمَّ إِلَى الظِّلِّ يَا رَسُولَ اللهِ، فَدَنَا إِلَى الظِّلِّ فَاسْتَظَلَّ، فَذَهَبْتُ لأُقَرِّبَ إِلَيْهِ شَيْئًا، فَمَا وَجَدْتُ إِلَّا جِرْوًا (١) مِنْ قِثَّاءٍ (٢) فِي أَسْفَلِ الغِرَارَةِ، قَالَ: فَكَسَرْتُهُ كَسْرًا ثُمَّ قَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا؟»**، فَقُلْنَا: شَيْءٌ فَضَلَ مِنْ زَادِ المَدِينَةِ، فَأَصَابَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ». [المغازي للواقدي ١/ ٣٩٨].

غزوة الأعاجيب:

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ: قَالَ لِي مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ: كَانَتْ غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ تُسَمَّى غَزْوَةَ الْأَعَاجِيبِ (٣).

---

(١) **الجِرْوُ والجِرْوَةُ**: الصَّغِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى مِنَ الحَنْظل وَالْبِطِّيخ والقِثَّاء والرُّمان وَالْخِيَارِ والباذِنجان، وَقِيلَ: هُوَ مَا اسْتَدَارَ مِنْ ثِمَارِ الأَشجار كَالْحَنْظَلِ وَنَحْوِهِ، وَالْجَمْعُ أَجْرٍ. لسان العرب ١٤/ ١٣٩.

(٢) **القثاء**: نوع من الْبِطِّيخ نباتي قريب من الْخِيَار لكنه أطول، واحدته قثاءة وَاسم جنس لما يُسمى بِمصْر الْخِيَار والعجور والفقوس. المعجم الوسيط ٢/ ٧١٥.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني ٩/ ٥٢-٥٥ من اسمه مسعدة رقم ٩١١٢، وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن شريك بن عبد الله إلا عبد الحكيم بن سفيان، ولا عن عبد الحكيم إلا محمد بن طلحة، تفرد به إبراهيم بن المنذر.

مجمع الزوائد ٨/ ٥٦٢ -٥٦٤ كتاب علامات النبوة (١٤١٦٥)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه. رواه الطبراني في الأوسط والبزار باختصار كثير، وفيه: عبد الحكيم بن سفيان ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه أحد، وبقية رجاله ثقات. وضعَّف إسناده محقق مجمع البحرين ٦/ ١٧٠ رقم ٣٥٤٥ لجهالة عبد الحكيم بن سفيان. وسنسوق فقراته فيما يلي من فقرات.

١ ـ قصة الصبي الذي به جنون:

روى الطبراني في الأوسط عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما، قَالَ: خَرَجْنَا [مع رسول الله ﷺ] فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِحَرَّةِ [1] وَاقِمٍ (وزن آطم، من آطام المدينة، تنسب إليه حرة واقم) عَرَضَتِ امْرَأَةٌ بَدَوِيَّةٌ بِابْنٍ لَهَا، فَجَاءَتْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: **يَا رَسُولَ الله، هَذَا ابْنِي قَدْ غَلَبَنِي عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ**، فَقَالَ: «**أَدْنِيهِ مِنِّي**»، فَأَدْنَتْهُ مِنْهُ، فَقَالَ: «**افْتَحِي فَمَهُ**»، فَفَتَحَتْهُ، فَبَصَقَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**اخْسَأْ عَدُوَّ الله، وَأَنَا رَسُولُ الله**» ـ قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ـ، ثُمَّ قَالَ: «**شَأْنُكِ بِابْنِكِ، لَيْسَ عَلَيْهِ بَأْسٌ، فَلَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يُصِيبُهُ**».

في نفس الرواية تكملة قصة ذلك الصبي، قال جابر رضي الله عنه: «ثُمَّ أَقْبَلْنَا رَاجِعِينَ، حَتَّى كُنَّا بِحَرَّةِ وَاقِمٍ عَرَضَتْ لَنَا الْأَعْرَابِيَّةُ ـ الَّتِي جَاءَتْ بِابْنِهَا ـ بِوَطْبٍ (الوطب: الزق الذي يكون فيه اللبن) مِنْ لَبَنٍ وَشَاةٍ، وَأَهْدَتْهُ لَهُ، فَقَالَ: «**مَا فَعَلَ ابْنُكِ؟ هَلْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يُصِيبُهُ؟**» قَالَتْ: **وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَصَابَهُ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يُصِيبُهُ**، وَقَبِلَ هَدِيَّتَهَا».

٢ ـ قصة الشجرتين:

ثُمَّ خَرَجْنَا فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، ضَحْوًا [صحراء] دَيْمُومَةٌ (هي الصحراء البعيدة، وهى فعلولة من الدوام أي بعيدة الأرجاء يدوم السير فيها)، لَيْسَ فِيهَا شَجَرَةٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِجَابِرٍ رضي الله عنه: «**يَا جَابِرُ، انْطَلِقْ فَانْظُرْ لِي مَكَانًا**» ـ يَعْنِي لِلْوُضُوءِ ـ، فَخَرَجْتُ أَنْطَلِقُ[فانطلقت]، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا شَجَرَتَيْنِ مُفْتَرِقَتَيْنِ [مُتَفَرِّقَتَيْنِ]، لَوْ أَنَّهُمَا اجْتَمَعَتَا سَتَرَتَاهُ، فَرَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا يَسْتُرُكَ إِلَّا شَجَرَتَيْنِ مُتَفَرِّقَتَيْنِ لَوْ أَنَّهُمَا اجْتَمَعَتَا سَتَرَتَاكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**انْطَلِقْ إِلَيْهِمَا، فَقُلْ لَهُمَا: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ لَكُمَا: اجْتَمِعَا**»، قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَقُلْتُ لَهُمَا، فَاجْتَمَعَا حَتَّى كَأَنَّهُمَا فِي أَصْلٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى قَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: «**ائْتِهِمَا، فَقُلْ لَهُمَا: إِنَّ رَسُولَ الله يَقُولُ: ارْجِعَا كَمَا كُنْتُمَا، كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى مَكَانِهَا**»، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ لَهُمَا: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ لَكُمَا: «**ارْجِعَا كَمَا كُنْتُمَا**»، فَرَجَعَتَا. [ستأتي رواية أخرى لها في حديث جابر رضي الله عنه الطويل فيما يأتي].

٣ ـ قصة الطائر الذي سقط على فرخه لما صاده بعض الصحابة رضي الله عنهم:

ثُمَّ أَقْبَلْنَا رَاجِعِينَ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ بِعِشِّ طَيْرٍ يَحْمِلُهُ فِيهِ فِرَاخٌ، وَأَبَوَاهُ يَتْبَعَانِهِ، وَيَقَعَانِ عَلَى يَدِ الرَّجُلِ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَنْ كَانَ مَعَهُ، فَقَالَ: «**أَتَعْجَبُونَ بِفِعْلِ هَذَيْنِ الطَّيْرَيْنِ بِفِرَاخِهِمَا؟ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذَيْنِ الطَّيْرَيْنِ بِفِرَاخِهِمَا**».

---

(١) **الحرة**: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار والجمع [حرار] ككلاب.

والحَرَّة: أرض بظاهر المدينة، بها حجارة سود كثيرة. النهاية لابن الأثير ١/ ٣٦٥.

[قَالَ الوَاقِدِيُّ: «فَكَانَ جَابِرٌ يَقُولُ: إِنَّا لَـمَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِفَرْخِ طَائِرٍ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ أَبَوَاهُ أَوْ أَحَدُهُمَا حَتَّى طَرَحَ نَفْسَهُ فِي يَدَيْ الَّذِي أَخَذَ فَرْخَهُ، فَرَأَيْتُ النَّاسَ عَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا الطَّائِرِ؟ أَخَذْتُمْ فَرْخَهُ فَطَرَحَ نَفْسَهُ رَحْمَةً لِفَرْخِهِ، وَالله لَرَبُّكُمْ أَرْحَمُ بِكُمْ مِنْ هَذَا الطَّائِرِ بِفَرْخِهِ**». [المغازي للواقدي ١/ ٣٩٨].

٤ ـ قصة الجمل الذي شكى إليه ﷺ حاله:

ثُمَّ أَقْبَلْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِمَهْبِطٍ مِنَ الْحَرَّةِ أَقْبَلَ جَمَلٌ يُرْقِلُ (يعدو)، فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا قَالَ هَذَا الجَمَلُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هَذَا جَمَلٌ جَاءَنِي يَسْتَعِيذُنِي [يَسْتَعْدِينِي]** (يطلب مني نصره) **عَلَى سَيِّدِهِ، يَزْعُمُ أَنَّهُ كَانَ يَحْرُثُ عَلَيْهِ مُنْذُ سِنِينَ حَتَّى إِذَا أَجْرَبَهُ وَأَعْجَفَهُ** (أهزله) **وَكَبُرَ سِنُّهُ أَرَادَ أَنْ يَنْحَرَهُ، اذْهَبْ مَعَهُ يَا جَابِرُ إِلَى صَاحِبِهِ فَائْتِ بِهِ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا أَعرِفُ صَاحِبَهُ، قَالَ: «**إِنَّهُ سَيَدُلُّكَ عَلَيْهِ**»، قَالَ: فَخَرَجَ بَيْنَ يَدَيَّ مُعْتَقًا [مُعْنِقًا] (مسرعًا) حَتَّى وَقَفَ بِي فِي مَجْلِسِ بَنِي خَطْمَةَ، فَقُلْتُ: أَيْنَ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ قَالُوا: [هذا جمل] فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَجِئْتُهُ، فَقُلْتُ: أَجِبْ رَسُولَ الله ﷺ، فَخَرَج مَعِي حَتَّى جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ جَمَلَكَ هَذَا يَسْتَعِيذُنِي [يَسْتَعْدِينِي] عَلَيْكَ، يَزْعُمُ أَنَّكَ حَرَثْتَ عَلَيْهِ زَمَانًا حَتَّى أَجْرَبْتَهُ وَأَعْجَفْتَهُ وَكَبُرَ سِنُّهُ ثُمَّ أَرَدْتَ أَنْ تَنْحَرَهُ؟**»، قَالَ: **وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ**، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**بِعْنِيهِ**»، قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، فَابْتَاعَهُ مِنْهُ، ثُمَّ سَيَّبَهُ فِي الشَّجَرَةِ حَتَّى نَصَبَ سَنَامًا، وَكَانَ إِذَا اعْتَلَّ عَلَى بَعْضِ الْمُهَاجِرِينَ أَوِ الْأَنْصَارِ مِنْ نَوَاضِحِهِمْ شَيْءٌ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَمَكَثَ بِذَلِكَ زَمَانًا.

رواية مسلم لقصة الشجرتين:

روى مسلم عن جابر ﷺ قال: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى نَزَلْنَا وَادِيًا (كل منفرج بين الجبال والتلال، يكون مسلكًا للسيل ومنفذًا) أَفْيَحَ (كل موضع واسع)، فَذَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ، فَاتَّبَعْتُهُ بِإِدَاوَةٍ (إناء صغير من جلد يحمل فيه الماء وغيره) مِنْ مَاءٍ، فَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ، فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِئِ (جانب) الوَادِي، فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: «**انْقَادِي** (أقبلي علي وأطيعيني، وانقاد فلان للأمر: أعطى القياد إذا أذعن طوعًا أو كرهًا) **عَلَيَّ بِإِذْنِ الله**»، فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالبَعِيرِ (ما صلح للركوب والحمل من الإبل، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، ويقال للجمل والناقة) المَخْشُوشِ (الذي يجعل في أنفه خِشاش، وهو عود يجعل في أنف البعير إذا كان صعبًا ويُشَدُّ فيه حبل ليُذَلَّ وينقاد، وقد يتمانع لصعوبته فإذا اشتد عليه وآلمه انقاد شيئًا) الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ، حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ الأُخْرَى، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: «**انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ الله**»، فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ (أي

نصف الطريق) مِمَّا بَيْنَهُمَا لأَمَ (ضم وجمع) بَيْنَهُمَا - يَعْنِي جَمَعَهُمَا - فَقَالَ: «**التَئِمَا** (**التئم**: انضم واجتمع، التأمتا عليه: انطبقتا عليه وسترتاه) **عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ**»، فَالتَأَمَتَا.

قَالَ جَابِرٌ ﵁ فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ (أي أعدو وأسعى سعيًا شديدًا) مَخَافَةَ أَنْ يُحِسَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقُرْبِي فَيَبْتَعِدَ - وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ فَيَتَبَعَّدَ - فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي، فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ (نظرة)، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مُقْبِلًا، وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدِ افْتَرَقَتَا، فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ وَقْفَةً فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا - وَأَشَارَ أَبُو إِسْمَاعِيلَ بِرَأْسِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا - ثُمَّ أَقْبَلَ.

٥ - قصة تخفيف العذاب عن ميتين:

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيَّ قَالَ: «**يَا جَابِرُ هَلْ رَأَيْتَ مَقَامِي؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**فَانْطَلِقْ إِلَى الشَّجَرَتَيْنِ، فَاقْطَعْ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا غُصْنًا، فَأَقْبِلْ بِهِمَا، حَتَّى إِذَا قُمْتَ مَقَامِي فَأَرْسِلْ غُصْنًا عَنْ يَمِينِكَ وَغُصْنًا عَنْ يَسَارِكَ**»، قَالَ جَابِرٌ ﵁: فَقُمْتُ فَأَخَذْتُ حَجَرًا فَكَسَرْتُهُ وَحَسَرْتُهُ (حددته ونحيت عنه ما يمنع حدته بحيث صار مما يمكن القطع به) فَانْذَلَقَ لِي (أصبح له حد يقطع، أي صار حادًّا)، فَأَتَيْتُ الشَّجَرَتَيْنِ فَقَطَعْتُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا غُصْنًا، ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَجُرُّهُمَا حَتَّى قُمْتُ مَقَامَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَرْسَلْتُ غُصْنًا عَنْ يَمِينِي وَغُصْنًا عَنْ يَسَارِي، ثُمَّ لَحِقْتُهُ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! فَعَمَّ ذَاكَ؟ قَالَ: «**إِنِّي مَرَرْتُ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ، فَأَحْبَبْتُ بِشَفَاعَتِي أَنْ يُرَفَّهَ** (يُخَفَّفُ) **عَنْهُمَا مَا دَامَ الغُصْنَانِ رَطْبَيْنِ**».

٦ - قصة نبع الماء من بين أصابعه:

قَالَ جَابِرٌ ﵁: فَأَتَيْنَا العَسْكَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**يَا جَابِرُ نَادِ بِوَضُوءٍ**»، فَقُلْتُ: أَلاَ وَضُوءَ؟ أَلاَ وَضُوءَ؟ أَلاَ وَضُوءَ؟، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا وَجَدْتُ فِي الرَّكْبِ (الراكبون للسفر وغيره) مِنْ قَطْرَةٍ (الشيء اليسير)، وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يُبَرِّدُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ المَاءَ فِي أَشْجَابٍ (جمع شجب، والشَّجْب بالسكون: السِقاء الذي قد أَخْلَق وبَلِيَ وصار شَنًّا، وسِقاءٌ شاجِب: أي يابِسٌ) لَهُ عَلَى حِمَارَةٍ (ثلاثة أعواد يشد بعض أطرافها إلى بعض ويخالف بين أرجلها، وذكرها الصالحي بالزاي، فقال: الحِمازة - بكسر الحاء، وتخفيف الميم والزاي: وهي أعواد يعلق عليها أسقية الماء) مِنْ جَرِيدٍ، قَالَ: فَقَالَ لِيَ: «**انْطَلِقْ إِلَى فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ الأَنْصَارِيِّ، فَانْظُرْ هَلْ فِي أَشْجَابِهِ مِنْ شَيْءٍ**»، قَالَ: فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهِ، فَنَظَرْتُ فِيهَا فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلاَّ قَطْرَةً فِي عَزْلاَءِ (فوهة القربة التي يصب منها الماء، والجمع العزالي) شَجْبٍ مِنْهَا، لَوْ أَنِّي أُفْرِغُهُ لَشَرِبَهُ يَابِسُهُ (معناه أنه قليل جدًّا فلقلته مع شدة يبس باقي الشجب وهو السقاء لو أفرغته لاشتفه اليابس منه ولم ينزل منه شيء)، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلاَّ قَطْرَةً فِي عَزْلاَءِ شَجْبٍ مِنْهَا لَوْ أَنِّي أُفْرِغُهُ لَشَرِبَهُ يَابِسُهُ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهِ**»، فَأَتَيْتُهُ بِهِ، فَأَخَذَهُ بِيَدِهِ فَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ بِشَيْءٍ لاَ أَدْرِي مَا هُوَ، وَيَغْمِزُهُ (يعصره) بِيَدَيْهِ، ثُمَّ أَعْطَانِيهِ، فَقَالَ: «**يَا جَابِرُ نَادِ بِجَفْنَةٍ** (هي القصعة أو البئر الصغيرة)»، فَقُلْتُ: يَا جَفْنَةَ الرَّكْبِ! (أي التي تشبعهم، أو يا صاحب جفنتهم فحذف المضاف، أي من كان عنده جفنة تشبعهم فليحضرها)

فَأُتِيتُ بِهَا تُحْمَلُ، فَوَضَعْتُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ فِي الجَفْنَةِ هَكَذَا، فَبَسَطَهَا وَفَرَّقَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ وَضَعَهَا فِي قَعْرِ الجَفْنَةِ وَقَالَ: «**خُذْ يَا جَابِرُ فَصُبَّ عَلَيَّ وَقُلْ بِاسْمِ الله**»، فَصَبَبْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ بِاسْمِ الله، فَرَأَيْتُ المَاءَ يَتَفَوَّرُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ فَارَتِ الجَفْنَةُ وَدَارَتْ حَتَّى امْتَلأَتْ، فَقَالَ: «**يَا جَابِرُ نَادِ مَنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ بِمَاءٍ**»، قَالَ: فَأَتَى النَّاسُ فَاسْتَقَوْا حَتَّى رَوَوْا، قَالَ: فَقُلْتُ: هَلْ بَقِيَ أَحَدٌ لَهُ حَاجَةٌ؟ فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ مِنَ الجَفْنَةِ وَهِيَ مَلأَى.

٧ ـ قصة الدابة التي ألقاها البحر لما شكى المسلمون من الجوع:

وَشَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ الجُوعَ، فَقَالَ: «**عَسَى اللهُ أَنْ يُطْعِمَكُمْ**»، فَأَتَيْنَا سِيفَ البَحْرِ (ساحل البحر، أو جانبه)، فَزَخَرَ (مد البحر وكثر ماؤه وعلا موجه) البَحْرُ زَخْرَةً، فَأَلْقَى دَابَّةً، فَأَوْرَيْنَا (أشعلنا) عَلَى شِقِّهَا النَّارَ، فَاطَّبَخْنَا وَاشْتَوَيْنَا وَأَكَلنَا حَتَّى شَبِعْنَا.

قَالَ جَابِرٌ ﷺ: فَدَخَلْتُ أَنَا وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ ـ حَتَّى عَدَّ خَمْسَةً ـ فِي حِجَاجِ (العظم المستدير حول العين) عَيْنِهَا مَا يَرَانَا أَحَدٌ، حَتَّى خَرَجْنَا فَأَخَذْنَا ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَقَوَّسْنَاهُ، ثُمَّ دَعَوْنَا بِأَعْظَمِ رَجُلٍ فِي الرَّكْبِ، وَأَعْظَمِ جَمَلٍ فِي الرَّكْبِ، وَأَعْظَمِ كِفْلٍ (الكساء الذي يدار على سنام البعير ثم يركب) فِي الرَّكْبِ فَدَخَلَ تَحْتَهُ مَا يُطَأْطِئُ (يخفض) رَأْسَهُ». [**مسلم في الزهد والرقائق (٣٠١٢)**].

٨ ـ قصة البيضات الثلاث:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «قَالَ جَابِرٌ ﷺ: فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ يَتَحَدَّثُ عِنْدَنَا إِلَى أَنْ جَاءَنَا عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ الحَارِثِيُّ بِثَلَاثِ بَيْضَاتٍ أَدَاحِي (جمع أُدحي بضم الهمزة، وهو الموضع الذي تبيض فيه النعامة وتفرخ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! وَجَدْتُ هَذِهِ البَيْضَاتِ فِي مَفْحَصِ (اسم الموضع الذي يحفره الطائر ليبيض فيه) نَعَامٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**دُونَكَ يَا جَابِرُ فَاعْمَلْ هَذِهِ البَيْضَاتِ**»، فَوَثَبْتُ فَعَمِلْتُهُنَّ، ثُمَّ جِئْتُ بِالبَيْضِ فِي قَصْعَةٍ، وَجَعَلْتُ أَطْلُبُ خُبْزًا فَلا أَجِدُهُ.

قَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَأْكُلُونَ مِنْ ذَلِكَ البَيْضِ بِغَيْرِ خُبْزٍ.

قَالَ جَابِرٌ: فَرَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَمْسَكَ يَدَهُ وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ انْتَهَى إِلَى حَاجَتِهِ وَالبَيْضُ فِي القَصْعَةِ كَمَا هُوَ، قَالَ: ثُمَّ قَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَكَلَ مِنْهُ عَامَّةُ أَصْحَابِنَا، ثُمَّ رُحْنَا مُبَرِّدِينَ [(١)]».

[المغازي للواقدي ١/ ٣٩٩].

(١) قَالَ ابْنُ الأَثِير: الإِبراد انْكِسَارُ الوَهَجِ وَالحَرِّ، وَهُوَ مِنَ الإِبراد الدُّخُولِ فِي البَرْدِ؛ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ صَلُّوهَا فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا مِنْ بَرْدِ النَّهَارِ، وَهُوَ أَوَّله. وأَبرد القومُ: دَخَلُوا فِي آخِرِ النَّهَارِ. وَقَوْلُهُمْ: أَبردوا عَنْكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ أَي لَا تَسِيرُوا حَتَّى يَنْكَسِرَ حَرُّهَا ويَبُوخ. وَيُقَالُ: جِئْنَاكَ مُبْرِدين إِذا جاؤوا وَقَدْ بَاخَ الحَرُّ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: الإِبْرادُ أَن تَزِيغَ الشَّمْسُ، قَالَ: وَالرَّكْبُ فِي السَّفَرِ يَقُولُونَ إِذا زَاغَتِ الشَّمْسُ قَدْ أَبردتم فرُوحُوا. لسان العرب ٣/ ٨٤.

٩ ـ قصة الرجل الذي دعا عليه ﷺ بضرب عنقه:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «قَالَ جَابِرٌ ﷺ: وَقَدْ جَهَزْنَا (أي صبحناه) صَاحِبًا لَنَا، يَرْعَى ظَهْرَنَا وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ مُتَخَرِّقٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«أَمَا لَهُ غَيْرُ هَذَا؟»**، فَقُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ الله! إِنَّ لَهُ ثَوْبَيْنِ جَدِيدَيْنِ فِي العَيْبَةِ (ما تجعل فيه الثياب)، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: **«خُذْ ثَوْبَيْكَ»**، فَأَخَذَ ثَوْبَيْهِ فَلَبِسَهُمَا ثُمَّ أَدْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«أَلَيْسَ هَذَا أَحْسَنَ؟ مَا لَهُ ضَرَبَ اللهُ عُنُقَهُ؟»**، فَسَمِعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقَالَ: **فِي سَبِيلِ الله يَا رَسُولَ الله؟** فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«فِي سَبِيلِ الله»**، قَالَ جَابِرٌ: فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله».

[المغازي للواقدي ١/ ٣٩٨].

وقَالَ جَابِرٌ ﷺ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، فَخَرَجَ رَجُلٌ فِي ثَوْبَيْنِ مُنْخَرِقَيْنِ يُرِيدُ أَنْ يَسُوقَ بِالْإِبِلِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: **«مَا لَهُ ثَوْبَانِ غَيْرُ هَذَا؟»** قِيلَ: إِنَّ فِي عَيْبَتِهِ ثَوْبَيْنِ جَدِيدَيْنِ، قَالَ: **«إِيتُونِي بِعَيْبَتِهِ»**، فَفَتَحَهَا فَإِذَا فِيهَا ثَوْبَانِ، فَقَالَ لِلرَّجُلِ: **«خُذْ هَذَيْنِ فَالْبَسْهُمَا وَأَلْقِ الْمُنْخَرِقَيْنِ»**، فَفَعَلَ ثُمَّ سَاقَ بِالْإِبِلِ، فَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ فِي أَثَرِهِ كَالْمُتَعَجِّبِ مِنْ بُخْلِهِ عَلَى نَفْسِهِ بِالثَّوْبَيْنِ، فَقَالَ لَهُ: **«ضَرَبَ اللهُ عُنُقَكَ»**، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَقَالَ: **فِي سَبِيلِ الله**، فَقُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ».

[المستدرك ٤/ ٢٠٤ (٧٣٦٩) كتاب اللباس، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم فقد احتج في غير موضع بهشام بن سعد و لم يخرجاه إلا أن الحديث عند مالك عن زيد بن أسلم عن جابر ﷺ].

١٠ ـ قصة غورث بن الحارث:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ، عَنْ الحَسَنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي مُحَارِبٍ يُقَالُ لَهُ غُوْرَثُ قَالَ لِقَوْمِهِ مِنْ غَطَفَانَ وَمُحَارِبٍ: **أَلَا أَقْتُلُ لَكُمْ مُحَمَّدًا؟** قَالُوا: بَلَى، وَكَيْفَ تَقْتُلُهُ؟ قَالَ: أَفْتِكُ بِهِ (أتاه ليقتله)، قَالَ: فَأَقْبَلَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ وَسَيْفُ رَسُولِ الله ﷺ فِي حِجْرِهِ، فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ، أَنْظُرُ إِلَى سَيْفِكَ هَذَا؟** قَالَ: نَعَمْ ـ وَكَانَ مُحَلًّى بِفِضَّةٍ فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ ـ قَالَ: فَأَخَذَهُ، فَاسْتَلَّهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَهُزُّهُ وَيَهُمُّ، فَيَكْبِتُهُ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: **يَا مُحَمَّدُ، أَمَا تَخَافُنِي؟** قَالَ: **«لَا، وَمَا أَخَافُ مِنْكَ؟»** قَالَ: **أَمَا تَخَافُنِي وَفِي يَدِي السَّيْفُ؟** قَالَ: **«لَا، يَمْنَعُنِي اللهُ مِنْكَ»**، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى سَيْفِ رَسُولِ الله ﷺ فَرَدَّهُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾[المائدة].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ: أَنَّهَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِي عَمْرِو بْنِ جَحَّاشٍ، أَخِي بَنِي النَّضِيرِ وَمَا هَمَّ بِهِ، فَاللهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ. **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٥-٢٠٦].**

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ (رجع) رَسُولُ الله ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ (أي: وسط النهار وشدة الحر) فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ (شجر أم غيلان، وكل

شجر عظيم له شوك، وقيل: هو العظيم من الشجر مطلقًا)، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ (أي شجرة) وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: **«إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي** (سله من غمده) **وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا** (أي مجردًا من غمده)، **فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي، فَقُلْتُ اللهُ، ثَلَاثًا [فَشَامَ السَّيْفَ** (أدخله في غمده)، **فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ]»**، وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ [وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ].[البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٠، ٢٩١٣)، وفي المغازي (٤١٣٩)، ومسلم في الفضائل (٨٤٣)، ومسند أحمد ٢٢/ ٢٣٨-٢٣٩ رقم ١٤٣٣٥].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ الله ﷺ مُحَارِبَ خَصَفَةَ بِنَخْلٍ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالَ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ الله ﷺ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: **مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي**؟ قَالَ: «اللهُ»، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: **«مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟»**، قَالَ: **كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ**، قَالَ: « **أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، قَالَ: **لَا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ**، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَى أَصْحَابِهِ [فَأَتَى قَوْمَهُ]، قَالَ: **قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ**.

فَلَمَّا كَانَ الظُّهْرُ أَوِ الْعَصْرُ [فَلَمَّا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ]، صَلَّى بِهِمْ [صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ] صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَكَانَ النَّاسُ طَائِفَتَيْنِ: طَائِفَةً بِإِزَاءِ عَدُوِّهِمْ [العَدُوِّ]، وَطَائِفَةً صَلَّوْا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَكَانُوا مَكَانَ [بِمَكَانِ] أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا بِإِزَاءِ عَدُوِّهِمْ، وَجَاءَ أُولَئِكَ، [وَانْصَرَفَ الَّذِينَ بِإِزَاءِ عَدُوِّهِمْ] فَصَلَّى بِهِمْ [فَصَلَّوْا مَعَ] رَسُولُ الله ﷺ رَكْعَتَيْنِ، فَكَانَ لِلْقَوْمِ رَكْعَتَانِ رَكْعَتَانِ، وَلِرَسُولِ الله ﷺ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ.

[مسند أحمد ٢٣/ ١٩٣، ٣٦٩-٣٧٠ رقم ١٤٩٢٩، ١٥١٩٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح].

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِذَاتِ الرِّقَاعِ، فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَسَيْفُ النَّبِيِّ ﷺ مُعَلَّقٌ بِالشَّجَرَةِ، فَاخْتَرَطَهُ، فَقَالَ: تَخَافُنِي؟، قَالَ: **«لَا»**، قَالَ: **فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**»، قَالَ: «**اللهُ**»، فَتَهَدَّدَهُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ [(١)]، [فَأَغْمَدَ السَّيْفَ وَعَلَّقَهُ].

وَأُقِيمَتْ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى بِطَائِفَةٍ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ تَأَخَّرُوا، وَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الْأُخْرَى رَكْعَتَيْنِ، وَكَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعٌ وَلِلقَوْمِ رَكْعَتَانِ.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: فظاهرها مشعر بأنهم حضروا القصة، وأنه إنما رجع عما كان عزم عليه بالتهديد، وليس كذلك، بل وقع في رواية إبراهيم بن سعد في الجهاد بعد قوله: قلت: الله!! فشام السيف، أي: أغمده، وكان الأعرابي لما شاهد ذلك الثبات العظيم وعرف أنه حيل بينه وبينه، تحقق صدقه، وعلم أنه لا يصل إليه ألقى السلاح، وأمكن من نفسه.

وَقَالَ مُسَدَّدٌ عَنْ أَبِي عَوَانَةَ عَنْ أَبِي بِشْرٍ: اسْمُ الرَّجُلِ «غَوْرَثُ بْنُ الحَارِثِ»، وَقَاتَلَ فِيهَا مُحَارِبَ خَصَفَةَ.

وَقَالَ أَبُو الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ ﷺ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِنَخْلٍ فَصَلَّى الخَوْفَ.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَزْوَةَ نَجْدٍ صَلَاةَ الخَوْفِ.

وَإِنَّمَا جَاءَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَيَّامَ خَيْبَرَ. **[البخاري في المغازي (٤١٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٤٣)، ومسند أحمد عن جابر ﷺ ٢٣/ ١٩١-١٩٢ رقم ١٤٩٢٨]**.

وفي رواية الطبراني السابقة عن جابر ﷺ: «ثُمَّ خَرَجْنَا فَنَزَلْنَا فِي وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ بَنِي مُحَارِبٍ، فَعَرَضَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُحَارِبٍ يُقَالُ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَعْطِنِي سَيْفَكَ هَذَا، فَسَلَّهُ، وناوَلَهُ إِيَّاهُ، فَهَزَّهُ وَنَظَرَ إِلَيْهِ سَاعَةً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ، مَا يَمْنَعُكَ مِنِّي؟** قَالَ: «**اللهُ يَمْنَعُنِي مِنْكَ**»، فَارْتَعَدَتْ يَدُهُ، حَتَّى سَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَتَنَاوَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا غَوْرَثُ، مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**» قَالَ: لَا أَحَدَ، بِأَبِي أَنْتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اكْفِنَا غَوْرَثًا وَقَوْمَهُ**».

١١ ـ قصة جمل جابر ﷺ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَأَبْطَأَ بِي جَمَلِي وَأَعْيَا، فَأَتَى عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**جَابِرٌ**»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**مَا شَأْنُكَ؟**» قُلْتُ: **أَبْطَأَ عَلَيَّ جَمَلِي وَأَعْيَا** (تعب وعجز عن المشي)، **فَتَخَلَّفْتُ**، فَنَزَلَ يَحْجُنُهُ (يجذبه) بِمِحْجَنِهِ (عصا في رأسها اعوجاج يلتقط بها الراكب ما يسقط منه)، ثُمَّ قَالَ: «**ارْكَبْ**»، فَرَكِبْتُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ أَكُفُّهُ (أمنعه) عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**تَزَوَّجْتَ؟**» قُلْتُ: **نَعَمْ**، قَالَ: «**بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟** (هي التي يسبق لها أن تزوجت، والبكر هي التي لم تتزوج بعد، ويطلق كل منهما على الذكر والأنثى)» قُلْتُ: **بَلْ ثَيِّبًا**، قَالَ: «**أَفَلاَ جَارِيَةً** (أي بكرا) **تُلاَعِبُهَا** (لصغرها على الغالب) **وَتُلاَعِبُكَ!**» قُلْتُ: **إِنَّ لِي أَخَوَاتٍ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ امْرَأَةً تَجْمَعُهُنَّ، وَتَمْشُطُهُنَّ، وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ**، قَالَ: «**أَمَّا إِنَّكَ قَادِمٌ، فَإِذَا قَدِمْتَ، فَالكَيْسَ الكَيْسَ** (الزم الكيس وهو الفطنة وشدة المحافظة على الشيء فقد أمره ﷺ باستعمال الكيس، وأن يرفق بأهله عندما يقدم عليهن فيحذر ويتقي عند مجامعة زوجته، فربما لطول غيبته وامتداد غربته أصابها وهي حائض أو أثقل عليها في ذلك، وقيل معنى الكيس: الولد، وقيل: الجماع)»، ثُمَّ قَالَ: «**أَتَبِيعُ جَمَلَكَ؟**» قُلْتُ: **نَعَمْ**، فَاشْتَرَاهُ مِنِّي بِأُوقِيَّةٍ، ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلِي، وَقَدِمْتُ بِالْغَدَاةِ (صبيحة اليوم)، فَجِئْنَا إِلَى المَسْجِدِ فَوَجَدْتُهُ عَلَى بَابِ المَسْجِدِ، قَالَ: «**آلْآنَ قَدِمْتَ؟**» قُلْتُ: **نَعَمْ**، قَالَ: «**فَدَعْ جَمَلَكَ، فَادْخُلْ، فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ**»، فَدَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ، فَأَمَرَ بِلاَلًا أَنْ يَزِنَ لَهُ أُوقِيَّةً، فَوَزَنَ لِي بِلاَلٌ، فَأَرْجَحَ (زاد لي عن استحقاقي) لِي فِي المِيزَانِ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى وَلَّيْتُ (أدبرت)، فَقَالَ: «**ادْعُ لِي جَابِرًا**» قُلْتُ: **الآنَ يَرُدُّ عَلَيَّ الجَمَلَ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْهُ** (أي من رد جملي علي بعد أن أخذت ثمنه من رسول الله ﷺ)، قَالَ: «**خُذْ جَمَلَكَ وَلَكَ ثَمَنُهُ**».

[البخاري في البيوع (٢٠٩٧)، وباختصار في الاستقراض (٢٣٨٥، ٢٤٠٦)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَتَلاَحَقَ بِي وَتَحْتِي نَاضِحٌ لِي [وَأَنَا عَلَى نَاضِحٍ لَنَا] قَدْ أَعْيَا، وَلاَ يَكَادُ يَسِيرُ، قَالَ: فَقَالَ لِي ﷺ: «**مَا لِبَعِيرِكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: عَلِيلٌ [عَيِيَ]، قَالَ: فَتَخَلَّفَ رَسُولُ الله ﷺ فَزَجَرَهُ، وَدَعَا لَهُ، فَمَا زَالَ بَيْنَ يَدَي الإِبِلِ قُدَّامَهَا يَسِيرُ، قَالَ: فَقَالَ لِي ﷺ: «**كَيْفَ تَرَى بَعِيرَكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: بِخَيْرٍ، قَدْ أَصَابَتْهُ بَرَكَتُكَ، قَالَ: «**أَفَتَبِيعُنِيهِ**»، فَاسْتَحْيَيْتُ، وَلَمْ يَكُنْ لَنَا نَاضِحٌ غَيْرُهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: **نَعَمْ**، فَبِعْتُهُ إِيَّاهُ عَلَى أَنَّ لِي فَقَارَ ظَهْرِهِ (أي خرزاته أي مفاصل عظامه واحدتها فقارة، والمراد ركوبه) حَتَّى أَبْلُغَ المَدِينَةَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ ﷺ: **يَا رَسُولَ الله، إِنِّي عَرُوسٌ** (هكذا يقال للرجل عروس كما يقال ذلك للمرأة، لفظهما واحد لكن يختلفان في الجمع، فيقال رجل عروس ورجال عرس، وامرأة عروس ونسوة عرائس)، فَاسْتَأْذَنْتُهُ فَأَذِنَ لِي، فَتَقَدَّمْتُ النَّاسَ إِلَى المَدِينَةِ حَتَّى انْتَهَيْتُ [حَتَّى أَتَيْتُ المَدِينَةَ]، فَلَقِيَنِي خَالِي فَسَأَلَنِي عَنِ البَعِيرِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ فِيهِ، فَلاَمَنِي فِيهِ.

قَالَ: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ لِي حِينَ اسْتَأْذَنْتُهُ: «**مَا [هَلْ] تَزَوَّجْتَ أَبِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟**»، فَقُلْتُ لَهُ: **تَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا**، قَالَ: «**أَفَلَا [هَلَّا] تَزَوَّجْتَ بِكْرًا تُلاَعِبُكَ وَتُلاَعِبُهَا**»، فَقُلْتُ لَهُ: **يَا رَسُولَ الله، تُوُفِّيَ وَالِدِي ـ أَوِ اسْتُشْهِدَ ـ وَلِي أَخَوَاتٌ صِغَارٌ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ إِلَيْهِنَّ مِثْلَهُنَّ، فَلَا تُؤَدِّبُهُنَّ، وَلَا تَقُومُ عَلَيْهِنَّ، فَتَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا لِتَقُومَ عَلَيْهِنَّ وَتُؤَدِّبَهُنَّ**، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ غَدَوْتُ إِلَيْهِ بِالبَعِيرِ، فَأَعْطَانِي ثَمَنَهُ وَرَدَّهُ عَلَيَّ، [قَالَ المُغِيرَةُ: هَذَا فِي قَضَائِنَا حَسَنٌ لاَ نَرَى بِهِ بَأْسًا].

[البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٧)، ومسلم في المساقاة (٧١٥) واللفظ له].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: فَقَدْتُ جَمَلِي لَيْلَةً فَمَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَشُدُّ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها (أي رحلها)، قَالَ: فَقَالَ لِي: «**مَا لَكَ يَا جَابِرُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: فَقَدْتُ جَمَلِي ـ أَوْ ذَهَبَ جَمَلِي ـ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «**هَذَا جَمَلُكَ اذْهَبْ فَخُذْهُ**»، قَالَ: فَذَهَبْتُ نَحْوًا مِمَّا قَالَ لِي فَلَمْ أَجِدْهُ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، مَا وَجَدْتُهُ! قَالَ: فَقَالَ لِي: «**هَذَا جَمَلُكَ اذْهَبْ فَخُذْهُ**»، قَالَ: فَذَهَبْتُ نَحْوًا مِمَّا قَالَ لِي فَلَمْ أَجِدْهُ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا نَبِيَّ الله، لَا وَالله مَا وَجَدْتُهُ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «**عَلَى رِسْلِكَ**»، حَتَّى إِذَا فَرَغَ أَخَذَ بِيَدِي فَانْطَلَقَ بِي حَتَّى أَتَيْنَا الجَمَلَ، فَدَفَعَهُ إِلَيَّ قَالَ: «**هَذَا جَمَلُكَ**».

قَالَ: وَقَدْ سَارَ النَّاسُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ عَلَى جَمَلِي فِي عُقْبَتِي (في نَوْبتي)، قَالَ: وَكَانَ جَمَلًا فِيهِ قِطَافٌ (هو تقارب الخَطْو في بطءٍ، أو ضِيقُ المشي، ومنه دابَّةٌ قَطوف، أي: متقاربة الخَطْو بطيئةٌ، أو ضَيقةُ المشي)، قَالَ: قُلْتُ: يَا لَهْفَ أُمِّي (كلمة يُتحسر بها على فائت) أَنْ يَكُونَ لِي إِلَّا جَمَلٌ قَطُوفٌ، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْدِي يَسِيرُ، قَالَ: فَسَمِعَ مَا قُلْتُ، قَالَ: فَلَحِقَ بِي، فَقَالَ: «**مَا قُلْتَ يَا جَابِرُ قَبْلُ؟**»، قَالَ: فَنَسِيتُ مَا قُلْتُ، قَالَ: قُلْتُ: **مَا قُلْتُ شَيْئًا يَا نَبِيَّ الله**، قَالَ: فَذَكَرْتُ مَا قُلْتُ، قَالَ: **قُلْتُ يَا نَبِيَّ الله: يَا لَـهْفَاهُ أَنْ يَكُونَ لِي**

إِلَّا جَمَلٌ قَطُوفٌ، قَالَ: فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ عَجُزَ الجَمَلِ بِسَوْطٍ أَوْ بِسَوْطِي، قَالَ: فَانْطَلَقَ أَوْضَعَ أَوْ أَسْرَعَ جَمَلٍ رَكِبْتُهُ قَطُّ، وَهُوَ يُنَازِعُنِي خِطَامَهُ، قَالَ: فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنْتَ بَائِعِي جَمَلَكَ هَذَا**»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**بِكَمْ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: بِوُقِيَّةٍ، قَالَ: قَالَ لِي: «**بَخٍ بَخٍ!** (كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء) **كَمْ فِي أُوقِيَّةٍ مِنْ نَاضِحٍ وَنَاضِحٍ** (قاله ﷺ إعجابًا ومدحًا مع أن ثمنه كثير يصلح أن يكون لناضحين وأكثر، والناضح: هي الدابة التي يُستقى عليها الماء، ثم استعمل في كل بعير)»، قَالَ: قُلْتُ: **يَا نَبِيَّ الله، مَا بِالمَدِينَةِ نَاضِحٌ أُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا مَكَانَهُ**، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ أَخَذْتُهُ بِوُقِيَّةٍ**»، قَالَ: فَنَزَلتُ عَنْ الرَّحْلِ إِلَى الأَرْضِ، قَالَ: «**مَا شَأْنُكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: جَمَلُكَ، قَالَ: قَالَ لِي: «**ارْكَبْ جَمَلَكَ**» قَالَ: قُلْتُ: مَا هُوَ بِجَمَلِي، وَلَكِنَّهُ جَمَلُكَ، قَالَ: **كُنَّا نُرَاجِعُهُ مَرَّتَيْنِ فِي الأَمْرِ إِذَا أَمَرَنَا بِهِ، فَإِذَا أَمَرَنَا الثَّالِثَةَ لَمْ نُرَاجِعْهُ**، قَالَ: فَرَكِبْتُ الجَمَلَ حَتَّى أَتَيْتُ عَمَّتِي بِالمَدِينَةِ، قَالَ: وَقُلْتُ لَهَا: أَلَمْ تَرَيْ أَنِّي بِعْتُ نَاضِحَنَا رَسُولَ الله ﷺ بِأُوقِيَّةٍ، قَالَ: فَمَا رَأَيْتُهَا أَعْجَبَهَا ذَلِكَ، قَالَ: وَكَانَ نَاضِحًا فَارِهًا (نشيطًا حادًّا قويًّا)، قَالَ: ثُمَّ أَخَذْتُ شَيْئًا مِنْ خَبَطٍ (ورق الشجر يُنفَضُ بالمخابط، ويُجفَفُ ويُطحَنُ، ويُخلَطُ بدَقِيقٍ أو غيره، ويُضرَبُ ويُلينُ بالماء، فتُوجَرُه الإبلُ) أَوْجَرْتُهُ (أدخله في فمه) إِيَّاهُ، ثُمَّ أَخَذْتُ بِخِطَامِهِ فَقُدْتُهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ مُقَاوِمًا رَجُلًا (أي: قائمًا معه، يقال: قاوَمتُه قِوامًا، أي: قمت معه) يُكَلِّمُهُ، قَالَ: قُلْتُ: **دُونَكَ يَا نَبِيَّ الله جَمَلَكَ**، قَالَ: فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ، ثُمَّ نَادَى بِلَالًا ﷺ فَقَالَ: «**زِنْ لِجَابِرٍ أُوقِيَّةً وَأَوْفِهِ**»، فَانْطَلَقْتُ مَعَ بِلَالٍ فَوَزَنَ لِي أُوقِيَّةً وَأَوْفَى مِنْ الوَزْنِ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُحَدِّثُ ذَلِكَ الرَّجُلَ.

قَالَ: قُلْتُ لَهُ: قَدْ وَزَنَ لِي أُوقِيَّةً وَأَوْفَانِي، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ ذَهَبْتُ إِلَى بَيْتِي وَلَا أَشْعُرُ، قَالَ: فَنَادَى «**أَيْنَ جَابِرٌ؟**»، قَالُوا: ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ، قَالَ: «**أَدْرِكْ ائْتِنِي بِهِ**»، قَالَ: فَأَتَانِي رَسُولُهُ يَسْعَى، قَالَ: يَا جَابِرُ، يَدْعُوكَ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ: «**فَخُذْ جَمَلَكَ**»، قُلْتُ: مَا هُوَ جَمَلِي، وَإِنَّمَا هُوَ جَمَلُكَ يَا رَسُولَ الله! قَالَ: «**خُذْ جَمَلَكَ**»، قُلْتُ: مَا هُوَ جَمَلِي، إِنَّمَا هُوَ جَمَلُكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**خُذْ جَمَلَكَ**»، قَالَ: فَأَخَذْتُهُ، قَالَ: فَقَالَ: «**لَعَمْرِي مَا نَفَعْنَاكَ لِنُنْزِلَكَ عَنْهُ**»، قَالَ: فَجِئْتُ إِلَى عَمَّتِي بِالنَّاضِحِ مَعِي وَبِالوَقِيَّةِ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا تَرَيْنَ رَسُولَ الله ﷺ أَعْطَانِي أُوقِيَّةً، وَرَدَّ عَلَيَّ جَمَلِي.

[مسند أحمد عن جابر ﷺ ٢٣/ ١٤٨ رقم ١٤٨٦٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير نبيح العنزي فقد روى له أصحاب السنن وهو ثقة].

وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَسِيرُ عَلَى نَاضِحٍ لِي فِي أُخْرَيَاتِ الرِّكَابِ، فَضَرَبَهُ رَسُولُ الله ﷺ ضَرْبَةً - أَوْ قَالَ فَنَخَسَهُ نَخْسَةً - قَالَ: فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ الرِّكَابِ، إِلَّا مَا كَفَفْتُهُ، قَالَ: فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**أَتَبِيعُنِيهِ بِكَذَا وَكَذَا، واللهُ يَغْفِرُ لَكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فَزَادَنِي، قَالَ: «**أَتَبِيعُنِيهِ**

بِكَذَا وَكَذَا، وَاللهُ يَغْفِرُ لَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ سُلَيْمَانُ: فَلَا أَدْرِي كَمْ مِنْ مَرَّةٍ قَالَ: «**أَتَبِيعُنِيهِ بِكَذَا وَكَذَا**»، ثُمَّ قَالَ: «**هَل تَزَوَّجْتَ بَعْدَ أَبِيكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**أَبِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟**»، قَالَ: قُلْتُ: ثَيِّبًا، قَالَ: «**أَلَا تَزَوَّجْتَهَا بِكْرًا تُلَاعِبُكَ وَتُلَاعِبُهَا، وَتُضَاحِكُكَ وَتُضَاحِكُهَا**».

[مسند أحمد ٢٣/ ٢٥٨ رقم ١٥٠١٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي نضرة، وهو منذر بن مالك بن قطعة العوقي، فمن رجال مسلم].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ مُرْتَحِلًا عَلَى جَمَلٍ لِي ضَعِيفٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ الله ﷺ جَعَلَتِ الرِّفَاقُ تَمْضِي، وَجَعَلتُ أَتَخَلَّفُ، حَتَّى أَدْرَكَنِي رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**مَا لَكَ يَا جَابِرُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَبْطَأَ بِي جَمَلِي هَذَا، قَالَ: «**فَأَنِخْهُ**»، فَأَنَخْتُهُ، وَأَنَاخَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**أَعْطِنِي هَذِهِ العَصَا مِنْ يَدِكَ**» أَوْ قَالَ: «**اقْطَعْ لِي عَصًا مِنْ شَجَرَةٍ**»، قَالَ: فَفَعَلتُ، فَأَخَذَ [فَأَخَذَهَا] رَسُولُ الله ﷺ فَنَخَسَهُ (فزجره) بِهَا نَخَسَاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «**ارْكَبْ**»، فَرَكِبْتُ فَخَرَجَ ـ وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ ـ يُوَاهِقُ نَاقَتَهُ مُوَاهَقَةً (**الوهق**: حث الناقة على السير، والمراد يباريها في السير ويماشيها)، قَالَ: وَتَحَدَّثَ مَعِي رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**أَتَبِيعُنِي جَمَلَكَ هَذَا يَا جَابِرُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله بَل أَهَبُهُ لَكَ، قَالَ: «**لا، وَلَكِنْ بِعْنِيهِ**»، قَالَ: قُلْتُ: فَسُمْنِي بِهِ، قَالَ: «**قَدْ قُلْتُ أَخَذْتُهُ بِدِرْهَمٍ**»، قَالَ: قُلْتُ: لا إِذًا يَغْبِنُنِي (**غبنه في البيع يغبنُه غبنًا**: غلبه ونقصه) رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ: «**فَبِدِرْهَمَيْنِ**»، قَالَ: قُلْتُ: لا، قَالَ: فَلَمْ يَزَل يَرْفَعُ لِي رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَلَغَ الأُوقِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: فَقَدْ رَضِيتُ، قَالَ: «**قَدْ رَضِيتَ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**نَعَمْ**»، قُلْتُ: هُوَ لَكَ، قَالَ: «**قَدْ أَخَذْتُهُ**».

قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِي: «**يَا جَابِرُ هَل تَزَوَّجْتَ بَعْدُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**أَثَيِّبًا أَمْ بِكْرًا؟**»، قَالَ: قُلْتُ: بَل ثَيِّبًا، قَالَ: «**أَفَلا جَارِيَةً تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنْ أَبِي أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ بَنَاتٍ لَهُ سَبْعًا فَنَكَحْتُ امْرَأَةً جَامِعَةً تَجْمَعُ رُؤُوسَهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ، قَالَ: «**أَصَبْتَ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، قَالَ: «**أَمَا إِنَّا لَوْ قَدْ جِئْنَا صِرَارًا** (بئر قديمة على ثلاثة أميال من المدينة من جهة المشرق) **أَمَرْنَا بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَسَمِعَتْ بِنَا فَنَفَضَتْ نَمَارِقَهَا** (جمع نُمْرُقة ـ بضم النون والراء، وبكسرهما ـ وبغير هاء، وهي الوسادة الصغيرة يتكأ عليها)»، قَالَ: قُلْتُ: **وَالله يَا رَسُولَ الله مَا لَنَا مِنْ نَمَارِقَ**، قَالَ: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ، فَإِذَا أَنْتَ قَدِمْتَ فَاعْمَل عَمَلًا كَيِّسًا** (**الكَيْس**: هو الجماع، وطلب الولد. اللسان (ك ي س)، والمراد حثه على طلب الولد)».

قَالَ: فَلَمَّا جِئْنَا صِرَارًا أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، فَأَقَمْنَا عَلَيْهَا ذَلِكَ اليَوْمَ، فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ الله ﷺ دَخَلَ وَدَخَلنَا.

قَالَ: فَأَخْبَرْتُ [فَحَدَّثْتُ] المَرْأَةَ الحَدِيثَ، وَمَا قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ، قَالَتْ: **فَدُونَكَ، فَسَمْعًا وَطَاعَةً.**

قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخَذْتُ بِرَأْسِ الجَمَلِ، فَأَقْبَلْتُ بِهِ حَتَّى أَنَخْتُهُ عَلَى بَابِ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ جَلَسْتُ فِي المَسْجِدِ قَرِيبًا مِنْهُ، قَالَ: وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فَرَأَى الجَمَلَ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا؟**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَذَا جَمَلٌ جَاءَ بِهِ جَابِرٌ، قَالَ: «**فَأَيْنَ جَابِرٌ؟**»، فَدُعِيتُ لَهُ، قَالَ: «**تَعَالَ أَيْ يَا ابْنَ أَخِي خُذْ بِرَأْسِ جَمَلِكَ، فَهُوَ لَكَ**»، قَالَ: فَدَعَا بِلالًا فَقَالَ: «**اذْهَبْ بِجَابِرٍ فَأَعْطِهِ أُوقِيَّةً**»، فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَأَعْطَانِي أُوقِيَّةً، وَزَادَنِي شَيْئًا يَسِيرًا، قَالَ: فَوَالله مَا زَالَ يَنْمِي عِنْدَنَا وَنَرَى مَكَانَهُ مِنْ بَيْتِنَا حَتَّى أُصِيبَ أَمْسِ فِيمَا أُصِيبَ النَّاسُ، يَعْنِي: يَوْمَ الحَرَّةِ [فِيمَا أُصِيبَ لَنَا يَعْنِي يَوْمَ الحَرَّةِ] (١). [مسند أحمد ٢٣/ ٢٧٠-٢٧٢ رقم ١٥٠٢٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن لأجل محمد بن إسحاق ـ وهو ابن يسار القرشي مولاهم المدني ـ فهو حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، سيرة ابن هشام ٢/ ٢٠٧، ورواه البخاري بنحوه في كتاب البيوع (٢٠٩٧)، ومسلم في المساقاة (٧١٥). ينظر: صحيح السيرة للعلي ٣٧٣، والسيرة النبوية للصوياني ٢/ ٣١٨].

وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ، فَلَمَّا قَفَلْنَا، تَعَجَّلْتُ عَلَى بَعِيرٍ قَطُوفٍ، فَلَحِقَنِي رَاكِبٌ مِنْ خَلْفِي، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: «**مَا يُعْجِلُكَ؟**» قُلْتُ: **إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ**، قَالَ: «**فَبِكْرًا تزَوَّجْت أَمْ ثَيِّبًا؟**» قُلْتُ: **بَلْ ثَيِّبًا**، قَالَ: «**فَهَلَّا جَارِيَةً تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ**» قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ، فَقَالَ: «**أَمْهِلُوا، حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلًا ـ أَيْ عِشَاءً ـ لِكَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ، وَتَسْتَحِدَّ المُغِيبَةُ**» قَالَ: وَحَدَّثَنِي الثِّقَةُ: أَنَّهُ قَالَ فِي هَذَا الحَدِيثِ: «**الكَيْسَ الكَيْسَ يَا جَابِرُ**»، يَعْنِي الوَلَدَ.

[البخاري في النكاح (٥٢٤٥)].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: «قَالَ جَابِرٌ ﷺ: وَإِنَّا لَنَسِيرُ إِلَى أَنْ أَدْرَكَنِي رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**مَا لَكَ يَا جَابِرُ؟**»، فَقُلْتُ: أَيْ رَسُولَ الله جَدِّي أَنْ يَكُونَ لِي بَعِيرُ سُوءٍ، وَقَدْ مَضَى النَّاسُ وَتَرَكُونِي، قَالَ: فَأَنَاخَ رَسُولُ الله ﷺ بَعِيرَهُ، فَقَالَ: «**أَمَعَكَ مَاءٌ؟**»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَجِئْته بِقَعْبٍ (قدح من خشب) مِنْ مَاءٍ، فَنَفَثَ فِيهِ، ثُمَّ نَضَحَ عَلَى رَأْسِهِ وَظَهْرِهِ وَعَلَى عَجُزِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَعْطِنِي عَصًا**»، فَأَعْطَيْتُهُ عَصًا مَعِي ـ أَوْ قَالَ: قَطَعْتُ لَهُ عَصًا مِنْ شَجَرَةٍ، قَالَ: ثُمَّ نَخَسَهُ، ثُمَّ قَرَعَهُ بِالعَصَا، ثُمَّ قَالَ: «**ارْكَبْ يَا جَابِرُ**»، قَالَ: فَرَكِبْتُ، قَالَ: فَخَرَجَ ـ وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ ـ يُوَاهِقُ نَاقَتَهُ مُوَاهَقَةً مَا تَفُوتُهُ نَاقَتُهُ.

قَالَ: وَجَعَلتُ أَتَحَدَّثُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَبَا عَبْدِ الله، أَتَزَوَّجتَ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟**»، فَقُلْتُ: ثَيِّبًا، فَقَالَ: «**أَلا جَارِيَةً تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ؟!**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، بِأَبِي وَأُمِّي، إِنَّ أَبِي أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ تِسْعَ بَنَاتٍ، وَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً جَامِعَةً تَلُمُّ شَعَثَهُنَّ، وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ، قَالَ:

---

(١) **يَوْمَ الحَرَّة**: يوم مشهور في الإسلام أيام يزيد بن معاوية، لما انتهب المدينة عسكرُه من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينة من الصحابة والتابعين، وأمَّر عليهم مسلم بن عقبة المرِّي في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين، وعَقِيبها هلك يزيد، والحرة هذه: أرض بظاهر المدينة، بها حجارة سود كثيرة، وكانت الوقعة بها. النهاية لابن الأثير ١/ ٣٦٥.

«أَصَبْتَ»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّا لَوْ قَدِمْنَا صِرَارًا أَمَرْنَا بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَسَمِعَتْ بِنَا فَنَفَّضَتْ نَمَارِقَهَا**»، قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا نَمَارِقُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهَا سَتَكُونُ، فَإِذَا قَدِمْتَ فَاعْمَلْ عَمَلًا كَيِّسًا**»، قَالَ: قُلْتُ: أَفْعَلُ مَا اسْتَطَعْتُ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**بِعْنِي جَمَلَكَ هَذَا يَا جَابِرُ**»، قُلْتُ: بَلْ هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**لَا، بَلْ بِعْنِيهِ**»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ سُمْنِي بِهِ، قَالَ: «**فَإِنِّي آخُذُهُ بِدِرْهَمٍ**»، قَالَ: قُلْتُ: تَغْبِنُنِي يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**لَا، لَعَمْرِي**»، قَالَ جَابِرٌ ﷺ: فَمَا زَالَ يَزِيدُنِي دِرْهَمًا دِرْهَمًا حَتَّى بَلَغَ بِهِ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا ـ أُوقِيَّةً ـ فَقَالَ: «**أَمَا رَضِيتَ؟**»، فَقُلْتُ: هُوَ لَكَ، فَقَالَ: «**فَظَهْرُهُ لَكَ حَتَّى تَقْدُمَ الْمَدِينَةَ**»، قَالَ: وَيُقَالُ: إِنَّهُ قَالَ: «**آخُذُهُ مِنْكَ بِأُوقِيَّةٍ وَظَهْرُهُ لَكَ**» فَبَاعَهُ عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا صِرَارًا أَمَرَ بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، فَأَقَامَ بِهِ يَوْمَهُ، ثُمَّ دَخَلنَا الْمَدِينَةَ، قَالَ جَابِرٌ ﷺ: فَقُلْتُ لِلمَرْأَةِ: قَدْ أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا كَيِّسًا، قَالَتْ: سَمْعًا وَطَاعَةً لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَدُونَكَ فَافْعَل، قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَأَخَذْتُ بِرَأْسِ الْجَمَلِ فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَنَخْتُهُ عِنْدَ حُجْرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْتُ حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: «**أَهَذَا الْجَمَلُ؟**»، قُلت: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ الَّذِي اشْتَرَيْتَ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلالًا، فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَأَعْطِهِ أُوقِيَّةً، وَخُذْ بِرَأْسِ جَمَلِكَ يَا ابْنَ أَخِي فَهُوَ لَكَ**»، فَانْطَلَقت مَعَ بِلال، فَقَالَ بِلالٌ: **أَنْتَ ابْنُ صَاحِبِ الشِّعْبِ؟** فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «**وَاللهِ لَأُعْطِيَنَّكَ وَلَأَزِيدَنَّكَ**»، فَزَادَنِي قِيرَاطًا أَوْ قِيرَاطَيْنِ، قَالَ: فَمَا زَالَ ذَلِكَ يُثْمِرُ وَيَزِيدُنَا اللهُ بِهِ، وَنَعْرِفُ مَوْضِعَهُ حَتَّى أُصِيبَ هَا هُنَا قَرِيبًا عِنْدَكُمْ ـ يَعْنِي الْجَمَلَ.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَحَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَطِيَّةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: لَمَّا انْصَرَفْنَا رَاجِعِينَ فَكُنَّا بِالشُّقْرَةِ [سبق تعريفها]، قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا جَابِرُ مَا فَعَلَ دَيْنُ أَبِيكَ؟**»، فَقُلْتُ: عَلَيْهِ انْتَظَرْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يُجَذَّ نَخْلُهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا جَذَذْتَ فَأَحْضِرْنِي**»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ صَاحِبُ دَيْنِ أَبِيكَ؟**»، فَقُلْتُ: أَبُو الشَّحْمِ الْيَهُودِيُّ، لَهُ عَلَى أَبِي سِقَةُ تَمْرٍ (السقة جمع وسق، وهو الحمل وقدره الشرع بستين صاعًا... وقد صحفه بعضهم بالشين المعجمة وليس بشيء، والذي ذكره أبو موسى في غريبه بالشين المعجمة وفسره بالقطعة من التمر)، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَمَتَى تَجُذُّهَا؟**»، قُلْتُ: غَدًا، قَالَ: «**يَا جَابِرُ، فَإِذَا جَذَذْتَهَا فَاعْزِلِ الْعَجْوَةَ عَلَى حِدَتِهَا، وَأَلْوَانَ التَّمْرِ عَلَى حِدَتِهَا**»، قَالَ: فَفَعَلْتُ، فَجَعَلْتُ الصَّيْحَانِيَّ عَلَى حِدَةٍ، وَأُمَّهَاتَ الْجَرَادَيْنِ عَلَى حِدَةٍ، وَالْعَجْوَةَ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى جُمَّاعٍ مِنَ التَّمْرِ مِثْلِ نُخْبَةٍ وَقَرْنٍ وَشُقْحَةٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الأَنْوَاعِ، وَهُوَ أَقَلُّ التَّمْرِ، فَجَعَلْتُهُ حَبْلًا وَاحِدًا، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَخَبَّرْتُهُ، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ عِلْيَةُ أَصْحَابِهِ، فَدَخَلُوا الْحَائِطَ، وَحَضَرَ أَبُو الشَّحْمِ، قَالَ: فَلَمَّا نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى التَّمْرِ مُصَنَّفًا، قَالَ:

«**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُ**»، ثُمَّ انْتَهى إِلَى العَجْوَةِ فَمَسَّهَا بِيَدِهِ وَأَصْنَافَ التَّمْرِ، ثُمَّ جَلَسَ وَسَطَهَا، ثُمَّ قَالَ: «**أُدْعُ غَرِيمَكَ**»، فَجَاءَ أَبُو الشَّحْمِ، فَقَالَ: «**اكْتَلْ**»، فَاكْتَالَ حَقَّهُ كُلَّهُ مِنْ حَبْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ العَجْوَةُ، وَبَقِيَّةُ التَّمْرِ كَمَا هُوَ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا جَابِرُ هَلْ بَقِيَ عَلَى أَبِيكَ شَيْءٌ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: لا، قَالَ: وَبَقِيَ سَائِرُ التَّمْرِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ دَهْرًا، وَبِعْنَا مِنْهُ، حَتَّى أَدْرَكَتْ الثَّمَرَةُ مِنْ قَابِلٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَقُولُ لَوْ بِعْتُ أَصْلَهَا مَا بَلَغَتْ مَا كَانَ عَلَى أَبِي مِنَ الدَّيْنِ، فَقَضَى اللهُ مَا كَانَ عَلَى أَبِي مِنَ الدَّيْنِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَالنَّبِيُّ ﷺ لَيَقُولُ: «**مَا فَعَلَ دَيْنُ أَبِيكَ؟**»، فَقُلْتُ: قَدْ قَضَاهُ اللهُ ﷻ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِجَابِرٍ**»، فَاسْتَغْفَرَ لِي فِي لَيْلَةٍ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً». [المغازي للواقدي١/ ٣٩٩-٤٠٢].

عودة النبي ﷺ إلى المدينة:

وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِجُعَالِ بنِ سُرَاقَةَ ﷺ بَشِيرًا إِلَى أَهْلِ المَدِينَةِ بِسَلامَةِ المُسْلِمِينَ.

وَغَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً. [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/ ٢٦٩].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄ قَالَ: قَفَلْنَا (رجعنا) مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَزْوَةٍ، فَتَعَجَّلْتُ عَلَى بَعِيرٍ لِي قَطُوفٍ (بطيء)، فَلَحِقَنِي رَاكِبٌ مِنْ خَلْفِي، فَنَخَسَ (طعن في مؤخرته ليهيجه) بَعِيرِي بِعَنَزَةٍ (رمح قصير أطول من العصا) كَانَتْ مَعَهُ، فَانْطَلَقَ بَعِيرِي كَأَجْوَدِ مَا أَنْتَ رَاءٍ مِنَ الإِبِلِ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا يُعْجِلُكَ؟**» قُلْتُ: **كُنْتُ حَدِيثَ عَهْدٍ بِعُرُسٍ**، قَالَ: «**أَبِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟**»، قُلْتُ: **ثَيِّبًا**، قَالَ: «**فَهَلَّا جَارِيَةً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ!**»، قَالَ: فَلَمَّا ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ، قَالَ: «**أَمْهِلُوا حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلًا ـ أَيْ عِشَاءً ـ لِكَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ** (غير المتزينة وهي منتشرة الشعر مغبرة الرأس)، **وَتَسْتَحِدَّ** (تستعمل الحديدة في إزالة شعر الإبط والعانة ونحو ذلك) **المُغِيبَةُ** (المرأة التي غاب عنها زوجها)». [البخاري في النكاح (٥٠٧٩)، ومسلم في الإمارة (٧١٥)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَـمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ، نَحَرَ جَزُورًا أَوْ بَقَرَةً»، زَادَ مُعَاذٌ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مُحَارِبٍ، سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدَ اللهِ ﵄ «اشْتَرَى مِنِّي النَّبِيُّ ﷺ بَعِيرًا بِوَقِيَّتَيْنِ وَدِرْهَمٍ أَوْ دِرْهَمَيْنِ، فَلَمَّا قَدِمَ صِرَارًا أَمَرَ بِبَقَرَةٍ، فَذُبِحَتْ فَأَكَلُوا مِنْهَا [فَنُحِرَتْ، ثُمَّ قَسَمَ لَحْمَهَا]، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَ المَسْجِدَ، فَأُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَوَزَنَ لِي ثَمَنَ البَعِيرِ [فَأَرْجَحَ لِي]».

[البخاري في الجهاد والسير باب الطعام عند القدوم (٣٠٨٩)، ومسلم في المساقاة (٧١٥)].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٨/ ٢٨٠- ٢٨٤، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٤٨١- ٤٩٣، جمع الفوائد للمغربي (١٠٩٤هـ) ص١٠٢٧، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٦٠٩+٦٤٤-٦٥٤.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٤٢٧-٤٣١، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٣/ ٢٠٣-٢٠٩، المغازي

للواقدي (٢٠٧هـ) ١/ ٣٩٥-٤٠٢، الطبقات الكبير لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٥٧-٥٨، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٥٥-٥٥٩، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٣/ ٣٦٩ -٣٨٤، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ١٥٢-١٥٥، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٢٤٦-٢٤٩، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٥٠-٢٥٥، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٥/ ٥٥٩-٥٧٣، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ١٩٦-٢٠١، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٥/ ٢٦٨-٢٨٧، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٢/ ٥٧٠-٥٧٨.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٣٧ و ٤٦٢، صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٧٠-٢٧٥، السيرة النبوية لرزق الله ٤٢٤-٤٢٩، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢١٩-٢٢٤.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: غزوة الأحزاب لباشميل ٦٤-٧٢، غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٣-١٦، غزوة الخندق لأبي خليل ٥١-٥٤، غزوة الأحزاب للشافعي ٣٦-٣٩، القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١١٩-١٢٣، غزوات النبي ﷺ لقطب ٨١-٩٦، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٦٧-٢٦٨، المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٤٦، ١٥١.

هـ ـ كتب أخرى: فرسان من عصر النبوة لجمعة ٦٠٨-٦٠٩، والله يعصمك من الناس للجدع ١٣٨-١٤٧، عشرون محاولة لاغتيال الرسول ﷺ لزيد ٨٥-٨٧.

خرائط غزوة ذات الرقاع (غزوة نجد)

(١)

غزوة ذات الرِّقاع

المحــــرَّم ٤ هـ

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ص ١٣٢.

(٢)

ذات الرقاع (نخلاً) : موضع بالأراضي النجدية يبعد عن المدينة النبوية باثنتين وتسعين كيلا تقريبا .

اختلف المؤرخون في تأريخ هذه الغزوة ولكن الأرجح ما ذكره المحدثون بأنها وقعت في ربيع الثاني من السنة السابعة للهجرة المباركة .

غزوة ذات الرقاع في ربيع الثاني من السنة السابعة من الهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٨٤.

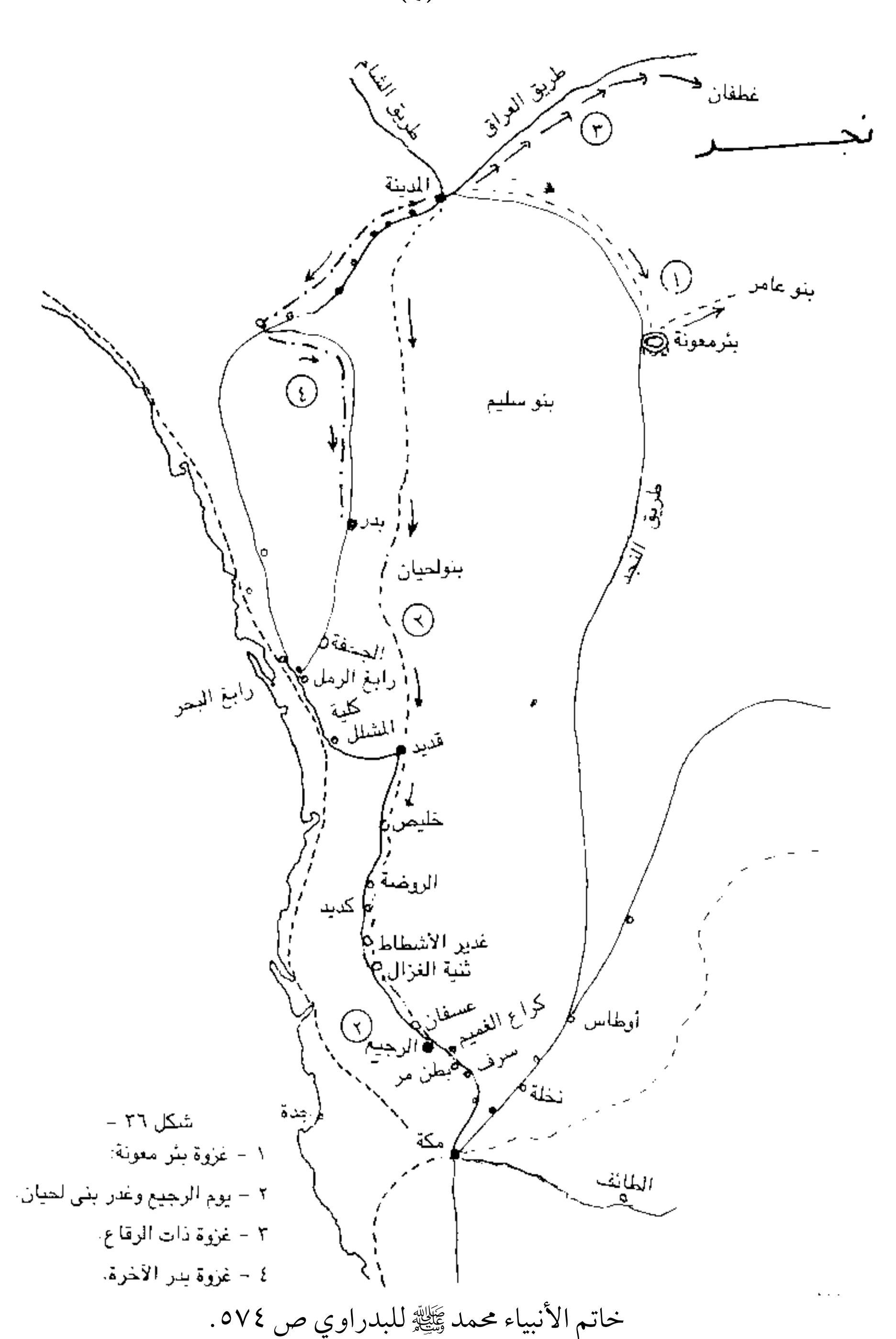
(٣)

السرايا والغزوات
بين أحد والخندق

بحر الروم
البحر الأبيض المتوسط
يافا
عسقلان
القدس
البحر الميت
مؤاب
عمان
مؤتة
بادية الشام
وادي السرحان
معان
العقبة
دومة الجندل
سيناء
صحراء النفوذ
تبوك
جزر تيران
قيس عيلان
تيماء
ضبا
مدائن صالح (الحجر)
الوجه
مصر
وادي القرى
غطفان
خيبر
هلال
فدك
أملج
غزوة دومة الجندل
سرية الرجيع
غزوة ذات الرقاع
سرية أبي سلمة الى قطن
سرية معونة
المدينة المنورة
غزوة بدر الآخرة
ينبع
بدر
بحر القلزم
البحر الأحمر
الشمال

حدائق الأنوار لبحرق ص ٥٣٩.

(٤)



خاتم الأنبياء محمد ﷺ للبدراوي ص ٥٧٤.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من غزوة ذات الرقاع (غزوة نجد)
المطلب الأول
الدروس العقائدية

١ ـ جدية الدين الإسلامي وواقعيته:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أكدت هذه الحملات العسكرية التي قادها الرسول ﷺ سمة من سمات هذا الدين هي سمة الجدية والواقعية، إن هذا الدين يأمر أتباعه بأن يواجهوا الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان والفكرة بالفكرة، ويحبذ الحوار الفكري بين أتباعه وبين معارضيه؛ لأنه المنتصر في النهاية؛ لأن البقاء للأصلح والأصوب، ولكن هذا الدين لا يقف عند هذا إذا قرر مناوؤوه أن يغلقوا آذانهم وعيونهم عن سماع الحق أو عدم السماح لغيرهم سماع صوت الحق، واستخدموا أسلوب القوة في ذلك، فإن هذا الدين يقرر أن يواجه القوة بالقوة، ويهب إلى أبعد من هذا فيواجه مجرد تفكير العدو باستخدام القوة إلى استخدام القوة قبله». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٢٧].

٢ ـ حفظ الله ورعايته لأوليائه ودعاته:

يقول د/ البوطي: «قصة المشرك الذي أخذ سيف النبي ﷺ وهو نائم تحت الشجرة....إلخ، قصة ثابتة وصحيحة كما رأيت، وهي تكشف عن مدى رعاية الباري ﷻ وحفظه لنبيه ﷺ، ثم هي تزيدك يقينًا بالخوارق التي أخضعها الله ﷻ له ﷺ مما يزيدك تبصرًا ويقينًا بشخصيته النبوية، فقد كان من السهل الطبيعي بالنسبة لذلك المشرك ـ وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي ﷺ وهو أعزل غارق في غفلة النوم ـ أن يهوي به عليه فيقتله، وإنك لتلمس ذلك من المشرك هذا الاعتداد بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التي أمكنته من رسول الله ﷺ في قوله: «**من يمنعك مني!؟**» فما الذي طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟... إن الذي طرأ هو ما لم يكن في حساب المشرك وتقديره، ألا وهو عناية الله وحفظه لنبيه ورسوله ﷺ، فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب، وأن تقذف في ساعديه تيارًا من الرجفة، فيسقط من يده السيف، ثم يجلس متأدبًا مطرقًا بين يدي رسول الله ﷺ.

وأهم ما يجب أن تعلمه من هذه الحادثة أن هذا هو مصداق قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة]، فليست العصمة المقصودة في الآية أن لا يتعرض لأذى أو محنة من قومه، إذ تلك هي سنة الله في عباده كما قد علمت، وإنما المراد من العصمة أن لا تطول إليه أي يد تحاول اغتياله وقتله لتُغتال فيه الدعوة الإسلامية التي بُعث لتبليغها». [فقه السيرة للبوطي ٢١٢].

وفيها «حفظ الله تعالى نبيه من تآمر المشركين لما كان في مكة، وحفظه من غدر اليهود لما استقر في المدينة، في أحداث كثيرة، وواقعات جماعية وفردية، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٦٣-١٦٤].

ويقول الصالحي: «قول غورث للنبي ﷺ: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**» على سبيل الاستفهام الإنكاري، أي لا يمنعك مني أحد؛ لأن الأعرابي كان قائمًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، والسيف في يد الأعرابي، والنبي ﷺ جالس لا سيف معه.

ويؤخذ من مراجعة الأعرابي في الكلام أن الله ﷻ منع نبيه منه، وإلا فما الذي أحوجه إلى مراجعته وتكرارها ثلاث مرات كما عند البخاري في الجهاد، مع احتياج غورث إلى الحظوة عند قومه بقتله.

وفي قول النبي ﷺ في جوابه: «**اللهُ يَمْنَعُنِي مِنْكَ**» إشارة إلى ذلك؛ ولذلك أعاده الأعرابي فلم يزده على ذلك الجواب، غاية الثبات للنبي ﷺ وعدم مبالاته به أصلًا». [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/ ٢٨١].

ويقول د/ فيض الله: «دلَّت قصة غورث المشرك، الذي ندب نفسه لقتل رسول الله ﷺ وتطوع بذلك لقومه، على مَبْلَغِ ما كان يتمتع به النبي ﷺ من رعاية الله وعنايته وحفظه، وعلى ثقة النبي ﷺ بربه ﷻ في ذلك.

وإلا فما ظنك بالرسول ﷺ وقد نزل تحت شجرة سمرة، فعلق بها سيفه، ونام مع أصحابه نومة ـ كما قررت رواية البخاري، ولعله طال نومهم أو قَصُرَ، وإذا بغورث يخترط السيف، وَيَسْتَلُّه يهدد به النبي ﷺ وهو في مركز القوة والثِّقل، يقول: ألا تخافني؟ ما يمنعك مني؟ ويجيبه المصطفى ﷺ بكل اعتداد وثبات، وثقة بوعد الله: لا أخاف منك، يمنعني الله، فيهوي السيف من يد المشرك، بقدرة الكبير القدير، ويتهاوى المشرك، فيسلم السيف إلى صاحبه.

ليس لهذا التفسير، والقصة صحيحة في كتب السيرة، وفي صحيح البخاري، إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهي، الذي يتخطى العادات والسنن، ويتجاوز قوى الناس، لنُصْرة نبيه ﷺ، والذودِ عن دعوته.

وقد قررت آي القرآن أن الله ضمن لنبيه حفظ حياته وسلامته من كل خطر يهدد حياته، ليستمر في الدعوة إلى الله بكل اطمئنان.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور: ٤٨].

أي امض لأمر الله ونهيه، وتبليغ رسالته، فإنا نَحوطك ونحفظُك، فلا يصل إليك مَنْ أرادك بسوءٍ من المشركين.

فليست قصةُ غورثٍ هذه التي روتها الصحاح، إلا مثالًا من أمثلة هذا الحفظ المُؤَكَّد المضمون، وصورة من صور تلك الحيَاطَةِ المُلتَزَمَةِ، فضلًا من الله وتكرمًا». [صور وعبر لفيض الله ١٧٨-١٧٩].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «إن ذلك بلا ريب فيه أمر خارق للعادة لأن السيف تنقبض عليه اليد في وقت إرادة الضرب ثم يسقط من يده على غير إرادة منه، وقد اعتزم الشر وبيته ودبره، فلما حانت ساعته، خانته يده، وقد كان ذلك من النبي ﷺ في أمور كثيرة، ولكن لم يجعلها دليل نبوته، ولم يتحد بها العرب، بل تحدى بالقرآن وحده؛ لأنه ما جاء بالخوارق الحسية، كعصا موسى وإبراء الأكمة والأبرص وغير ذلك من الحوادث التي تنقضي بمجرد وقوعها، بل كانت معجزته باقية؛ لأن رسالته باقية، لا تنقضي بزمانها وهي القرآن الباقي الخالد الذي يتحدى الناس في كل جيل وفي كل مكان: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[الإسراء]».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٧٦٦-٧٦٧].

٣ ـ الثقة المطلقة بالله تعالى وقدرته:

يقول د/ الزيد: «فمع أن الأعرابي قد اخترط السيف بيده وهو نائم والرسول ﷺ ليس بيده سلاح ومع ذلك يقول للأعرابي: «الله يمنعني منك» فهو واثق من حفظ الله ورعايته له، فلم يتمكن الأعرابي أن يصنع شيئًا وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]».

[تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٠ تح مقبل الوادعي].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «والله سبحانه قد أمر رسوله ﷺ أن يبلغ ما أُنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهؤلاء المبلِّغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبيُّ ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلَّغ عنه ولو حديثًا».

[التفسير القيم لابن القيم ـ أ/ محمد أويس الندوي ص ٤٣٠]. [فقه السيرة للزيد ٥٦٨].

ويقول د/ أبو فارس: «تأمل معي قول الرسول ﷺ للأعرابي الذي أخذ سيف النبي ﷺ خلسة ورفعه مصلتًا ليقتل الرسول ﷺ حين سأله: من يمنعك مني الآن يا محمد؟ قال رسول الله ﷺ وهو مطمئن القلب مستقر النفس غير مرتبك ولا مضطرب: الله عز وجل، فسقط السيف من يده.

قلت في نفسي متسائلًا: لِمَ سقط السيف من يد هذا المشرك؟

فكان جواب العقل والقلب على التو: إنها كلمة: الله عز وجل، حين نطق بها رسول الله ﷺ، كانت كالصاعقة على قلب المشرك وعقله، قد زلزلت بنيانه، وهدمت أركانه، وأفقدته عقله وجنانه، والسيطرة على يده التي أمسكت حسامه، فما عادت هذه اليد تقوى على حمل السيف، فسقط السيف من يده.

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن هذا ليس خاصًّا بالرسول ﷺ، بل حصل لأتباعه، ويحصل للمؤمنين المخلصين من الكرامات مثل هذا، فإن من عباد الله أناسًا لو أقسموا على الله لأبرهم.

نعم يمكن أن يقف الدعاة المخلصون هذه المواقف، وتحصل لهم مثل هذه الكرامات في أيامنا هذه، إن الله ﷻ إذا علم منهم إخلاصًا ومستوى إيمانيًّا معينًا فسيهيئ لهم من أسباب النصر على أعدائهم ومن أساليب إرهاب عدوهم ما لا يخطر على بالهم.

لقد كان المجاهدون على أرض فلسطين في القرن العشرين من أبناء أرض الكنانة، يصيحون في وجوه أعداء الله اليهود: الله أكبر، كانت هذه الكلمة التي تنطلق من قلوب أصحابها مارة بحناجرهم تهز اليهود من الأعماق، وتجعلهم يلقون سلاحهم ويولون مدبرين، لا يلوون على شيء؛ لأن هؤلاء المجاهدين باعوا أنفسهم لله، وجاؤوا من أجل نيل الشهادة على الأرض المباركة؛ لينالوا الفوز العظيم بجنات النعيم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٤-٣٥**].

ويقول د/ الحميدي: «في اتصاف النبي ﷺ بالتوكل على الله تعالى والاعتماد عليه في النصر على الأعداء، فحينما قال له غورث بن الحارث: من يمنعك مني؟ قال: الله، وهذا يعتبر درسًا للأمة في اللجوء إلى الله سبحانه واستمداد النصر منه وحده». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٨**].

ويقول د/ زيد: «ولا شك أن الرجل وإن كان لم يسلم إلا أنه لم يستطع مواجهة النور المحمدي عندما أشهر سيفه وعبأ شجاعته، فقد كانت طلعة رسول الله ﷺ ببهائها وجلالها كفيلة بإيقاف تيار الشر عند كل من يحاول الاقتراب منه بسوء أو أذى، وكيف لا وقد نصره الله بالرعب يُقذف في صدور الأعداء مسيرة شهر». [**عشرون محاولة لاغتيال الرسول ﷺ لزيد ٨٧**].

٤ ـ لا إكراه في الدين:

يقول د/ أبو فارس: «أخذنا هذا من معاملة الرسول ﷺ للأعرابي الذي سقط السيف من يده، ومكنه الله من عنقه، لقد عرض الرسول ﷺ عليه الإسلام فأبى، فما هدده بالقتل إن لم يسلم ولم يكرهه على ذلك، بل عفا عنه بما يؤكد هذه الآية المحكمة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة].

وما السنة إلا مؤكدة لما ورد في القرآن الكريم أو شارحة لها ومفسرة أو مضيفة إلى الأحكام أحكامًا لم ترد في القرآن الكريم». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٥-٣٦**].

المطلب الثاني
الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ فقر الصحابة رضي الله عنهم :

«فلم يكونوا يجدون ما ينتعلون به حتى نقبت أقدامهم وسقطت أظفارهم وكانوا يلفون على أرجلهم الخرق ويجاهدون في سبل الله». [فقه السيرة للزيد ٥٦٨].

٢ ـ خلق التواضع والإخلاص:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان صحابة رسول الله ﷺ يحرصون على كتمان أعمالهم الصالحة رجاء قبولها، وإذا ما غفل أحدهم فذَكَر بعض أعماله وتضحياته ندم ندمًا شديدًا على ذكر ذلك خشية أن يكون قد ضيَّع حسناته.

تأمل معي هذا التواضع والإخلاص عند أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حينما حدَّث عما حدث له في غزوة ذات الرقاع ندم على ذلك وكرهه.

قال ابن حجر في فتح الباري: وذلك أن كتمان العمل الصالح أفضل من إظهاره إلا لمصلحة راجحة كمن يكون ممن يُقتدى به» [فتح الباري ٨/ ٤٢٥]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٣-٣٤].

٣ ـ ينبغي تجريد الأعمال الصالحة لرب العالمين:

يقول د/ فيض الله: «صرحت الرواية التي ذكرناها عن أبي موسى رضي الله عنه، بأنه حدَّثَ بهذا الحديث، ثم كره ذلك، وقال راوي الحديث عنه: كأنه كره أن يكون شيئًا من عمله أفشاه.

فيبدو أن أبا موسى رضي الله عنه حَدَّثَ بهذا الحديث، في مناسبةٍ ما، ردًّا على سؤال، أو كشفًا لخفاء، وأنه راجَع نفسه في ذلك، فبدا له أنه تعجَّل بعض الشيء في التعريف بسبب هذه التسمية، إذ ترتب عليه إظهار ما كان ينبغي الإسرار به، من الأعمال الصالحة، خشيةَ الرياء، أو أن يتسرب إليها نزغ الهوى، وحظ النفس، فيحبطها؛ ولهذا ندم على تعجله في توضيحه، إشفاقًا على ذلك الجهاد المُحتَسَب عند الله، أن يبطل مثوبته.

وجاء في رواية ابن هشام، أن أبا موسى رضي الله عنه أعلن أسفه لهذا التصريح، وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟ فقد خرج الأمر من يده، ولم ينل من مقابله شيئًا، بل ربما نقص من ثوابه المذخور، أو أحبطه.

أرأيت إلى مبلَغ حِيَاطَة سلف هذه الأمة، أعمالهم الصالحة، وصونها من مداخل الشيطان، والهوى المهلك؟

وكذلك ينبغي احتساب الأعمال الصالحة، عند رب العالمين، وتجريدها من كل باعث لغيره فيها؛ لتكون جديرة بالرفع والتقبل وادخار الأجر، وتنميته عنده.

ولا يفسد العمل، مثل الرياء به، وإشهاره على الملأ، وشراء الثناء عليه، ومَحْمَدَةِ الناس من أجله.

ومن ثَمَّ دعا القرآن إلى الإخلاص في كثير من آياته، وذم المرائين: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: ٥]، وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف].

قال أهل العلم: إنها نزلت فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ يقول الله ﷻ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»، وفي رواية: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**».

[مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، وأحمد عن أبي هريرة ﵁ (٩٣٣٦)].

ولهذا كان السلف الصالح من هذه الأمة يحترسون من الشهرة وحب الظهور بالأعمال، فربما تركوا العمل خوفًا من الشهرة أن تُتْلِفَه عليهم.

قال الحسن ﵀: لقد صَحِبْتُ أقوامًا، إن كان أحدُهم لتُعْرَض له الحكمة، لو نطق بها لنفعته، ونفعت أصحابه، وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، إن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى في الطريق، فما يمنعه أن يُنَحِّيه إلا مخافة الشهرة.

إن تجريد الأعمال الصالحة من كل حظوظ النفس والهوى والمصلحة، هو خلاصة الدين، ومُحَصِّل العبودية لله رب العالمين.

لذلك جَمَّلَ السلفُ أعمالهم، وصانوها، وخافوا عليها من أنفسهم؛ فلهذا كره أبو موسى ﵁ التحدث بسبب تسمية هذه الغزوة، وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟

فانظر يا أخي المسلم، كيف كان سلفك الصالح يحترس من الرياء ومن الظهور بعمله الصالح، وكيف ترى اليوم من المسلمين من يرائي إذا عمل، ويحب الظهور بما يعمل وبما لا يعمل؟

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، ونعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من أن نُعْجَبَ بما نفعل، وأن نُفسد أعمالنا بالرياء، وحب الثناء». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٧٦-١٦٨].

ويقول د/ الزيد: «من كراهية أبي موسى الأشعري ﵁ للحديث عما حصل له في غزوة ذات الرقاع من المشقة يقول النووي ﵀ قَوْله: (وَكَرِهَ أَنْ يَكُون شَيْئًا مِنْ عَمَله أَفْشَاهُ) فِيهِ اِسْتِحْبَابُ إِخْفَاءِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَمَا يُكَابِدهُ العَبْدُ مِنَ المَشَاقِّ فِي طَاعَةِ الله تَعَالَى، وَلَا يُظْهِرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ مِثْلِ بَيَانِ حُكْم ذَلِكَ الشَّيْء، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الاِقْتِدَاءِ بِهِ فِيهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا وُجِدَ لِلسَّلَفِ مِنْ الإِخْبَار بِذَلِكَ». [شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ١٩٧-١٩٨].

فعلى المسلم أن يحرص على بقاء الأعمال الصالحة بينه وبين ربه، فهو أخلص وأعظم للأجر وأبعد عن الحبوط، والشيطان يحرص على منع المسلم من عمل الصالحات، فإذا انتصر عليه وعمل العمل الصالح سعى الشيطان في إبطال هذا العمل وإنقاص أجره وذلك بالحديث عن هذا العمل».

[فقه السيرة للزيد ٥٦٩-٥٧٠].

٤ ـ القائد القدوة والاتصال الروحي بالله ﷻ:

في قصة غورث يقول عميد/ فرج: «وهذه الحادثة تلقي الضوء على اتصال الرسول ﷺ الروحي بربه ﷻ وإيمانه العميق به وإدراكه حماية الله له على الدوام، ولاشك في أنه ﷺ يقدم لأصحابه المثل الحي للإيمان الصادق، ويكون بذلك أسوة لهم، فيأخذون عنه ويعملون مثله، فالجند دائمًا يتطلعون إلى قادتهم ويتمثلون بهم، هذا فوق أن هذه الرؤيا الواضحة لإيمان القائد تعزز الثقة بينه وبين جنده، والقوة الحقيقية تكمن دائمًا في الثقة المتبادلة بين القادة والجنود، هذه الثقة التي ترفع من معنويات الجند وتصبح دعامة تؤكد النصر وتدعمه». **[العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٦٨].**

٥ ـ أهمية خلق الشجاعة للقائد:

«لقد ظهر اتصاف النبي ﷺ بالشجاعة الفذة ورباطة الجأش، حيث كان ثابت القلب هادئ النفس والسيف في يد عدوه مصلتًا وهو مجرد من السلاح». **[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٨].**

٦ ـ العفو عند المقدرة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد سقط السيف من يد الأعرابي المشرك، وتناول رسول الله ﷺ السيف وقال له: **من يمنعك مني الآن؟** قال الأعرابي: لا أحد، لقد كان في مكنة الرسول ﷺ أن يفصل رأس هذا المشرك عن جسده، ولكنه لم يفعل، بل عفا عنه، وهذا هو الخلق الممدوح عند الناس، وهذا الخلق من الرسول ﷺ هو الذي حمل المشرك على مدح الرسول ﷺ حين أتى قومه قائلًا: **جئتكم من عند خير الناس**، والتزم ألا يقاتل رسول الله ﷺ في معركة قط، فالتزم الحياد، وفي هذا كسب للمسلمين على المستوى الإعلامي وعلى المستوى العسكري إذ حيَّدوا عدوًّا شرسًا يصر على قتالهم».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٥].

ويقول د/ الحميدي: «في اتصاف النبي ﷺ بالعفو عند المقدرة، فقد عفا عن ذلك الأعرابي وهو مستحق العقوبة، والعفو عند المقدرة خصلة عظيمة لا يقدر عليها إلا الكاملون من الرجال.

ولا شك أن لهذا الخلق الكريم أثرًا بالغًا في الدعوة إلى الإسلام، فقد جاء في بعض روايات هذا الخبر أن ذلك الأعرابي أسلم، وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير». **[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٩].**

ويقول الشيخ أبو خوات: «وفي هذه الغزوة وقعت قصة دعثور ذلك الرجل مر على النبي ﷺ وهو نائم تحت سمرة، فأخرج سيف النبي ﷺ من جرابه ثم أيقظه فقال له: يا محمد! من يمنعك مني فقال له: الله، فوقع السيف من يد الرجل، وأخذه الرسول ﷺ وعفا عنه وقد كان يريد قتله.

ولعل في هذا العفو درسًا يجب أن يلقنه الطغاة من الناس ليعلموا أن لذة العفو إنما تكون عند المقدرة». [**دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٨١**].

٧ ـ انحدار أخلاق العدو:

يقول الشيخ أبو زهرة: «ويتضح من قصة غورث ما انحدر إليه بعض المشركين من أخلاق تتنافى مع مراعاة الجوار، والمروءة وفيها إرادة الغدر والقتل من غير مواجهة، وكيف استباحوا ذلك بالنسبة للنبي ﷺ كفرًا وفسوقًا وعنادًا. [**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٧٦٦-٧٦٧**].

٨ ـ التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان تعلق هذا الصحابي بالقرآن الكريم تعلقًا شديدًا، وحبه لتلاوته حبًّا أنساه آلام السهام التي كانت تنغرس في جسمه، وتثج الدم ثجًّا.

لقد كان يود من كل قلبه أن تبقى هذه النشوة واللذة والمتعة بتلاوة القرآن الكريم، ولو أدى ذلك إلى تمزيق جسمه وتفتيت كبده، وتمزيق أحشائه، ومن ثم أن تصعد روحه إلى بارئها، لكن الذي منعه من هذا حرصه على ألا يفرط بثغر أمره رسول الله ﷺ بحفظه، تأمل معي قوله لما قال له أخوه: «أفلا أهبتني أول ما رماك؟» كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع عليَّ ركعت فآذنتك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها».

[**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣١**].

٩ ـ درس للشباب المسلم:

في موقف عباد بن بشر ؓ ما: «يعطي درسًا للشباب المسلم في الإيمان والرجولة والثبات على العقيدة والتمسك بالنظام، وتكشف للقارئ عن سر قيام الدولة الإسلامية وانتشار العقيدة الإسلامية على أيدي أولئك الرجال من صحابة محمد ﷺ بتلك السرعة التي أذهلت الدنيا».

[**غزوة الأحزاب لباشميل ٧٠-٧١**].

١٠ ـ رعاية القيادة لأفراد الجماعة:

يقول د/ الغضبان: «ها هو جابر بن عبد الله بن حرام ؆ اليوم يمضي مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة الثانية وهو سعيد أن يكون جنديًّا بين هؤلاء المئات، وكان وهو في فورة شبابه يحرص ما استطاع أن يقترب من رسول الله ﷺ عَلَّه يفوز منه بنظرة، أو كلمة عابرة تسعده، وكأنما قد ملك الوجود كله.

ومن هو حتى يهتم به رسول الله ﷺ بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وكل الرصيد

الذي يملكه أنه ابن الشهيد عبد الله بن عمرو بن حرام سيد قومه ونقيبهم».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٣٠٦].

يقول أ/ فتح الباب: «ومن المواقف الخالدة التي صدرت عن أعظم القيم الروحية في تلك الغزوة أنه في أثناء انصراف المسلمين منها أبطأ جمل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فنخسه النبي ﷺ فانطلق متقدمًا بين يدي الركاب، ثم قال له: أتبيعه؟ فابتاعه منه، وقال: لك ظهره إلى المدينة، فلما وصل إلى المدينة أعطاه الثمن ووهب له الجمل فلم يأخذه منه، وليس أجمل من ذلك ولا أوقع أثرًا في نفس الجندي إذ يرعاه قائده ويؤثره على نفسه ولو كان به خصاصة، ضاربًا بذلك المثل الأعلى للقادة في رعاية أفراد الجماعة وتأليف قلوبهم؛ كي يبذلوا بلا مَنٍّ، ويضحوا عن رضى ومحبة، وإيمان عميق بالقائد والرسالة معًا».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٢٢].

ويقول د/ الزيد: «في قصة جمل جابر رضي الله عنه نأخذ متابعة الرسول ﷺ لأحوال أصحابه ورفقه بهم ومؤانسته لهم، والحديث معهم وتفقده لشؤونهم، وقد ورد أنه إذا كان مع أصحابه سار في آخرهم، لكي يتمكن من معرفة أحوالهم وإعانة ضعيفهم وهذا من تواضعه ﷺ». **[فقه السيرة للزيد ٥٧٠].**

ويقول د/ البوطي: «إنما ذكرنا قصة جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وما كان بينه و بين الرسول ﷺ من المحادثة في طريق عودتها إلى المدينة، مع أنها لا تتعلق بشيء من أمر الغزوة لما فيها من الصورة الكاملة الدقيقة لخلق رسول الله ﷺ مع أصحابه، وما انطوى عليه خلقه الكريم هذا من لطف المعاشرة ورقة في الحديث وفكاهة في المحاورة ومحبة شديدة لأصحابه.

فأنت إذا تأملت جيدًا في هذه القصة التي سردناها، علمت أن النبي ﷺ كان متأثرًا بالمحنة التي طافت على بيت جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فقد استشهد والده في غزوة أحد، فقام هو ـ وهو أكبر أولاد أبيه ـ على شأن الأسرة ورعاية الأطفال الكثيرين الذين خَلَّفهم له والده من ورائه، وهو على ذلك رقيق الحال ليس له نصيب وافر من الدنيا.

وكأنما استشعر الرسول ﷺ في تأخر جابر رضي الله عنه عن القوم بسبب جمله الضعيف الذي لا يملك غيره، مَظهرًا لحالته العامة هذه... (وقد كان من عادته ﷺ إذا سار مع أصحابه في طريق، أن يتفقد أصحابه كلهم ويطمئن عليهم بين كل فترة وأخرى)، فانتهزها فرصة وتخلف حتى التقى معه وراح يواسيه بأسلوبه الرقيق الفكه الذي رأيت، في طريق ليس معهما فيه ثالث.

عرض عليه ﷺ شراء بعيره، وهو إنما يريد أن يجعل ذلك ذريعة ومناسبة لإكرامه ومساعدته على وضعه الذي هو فيه، ثم سأله عن زوجته والبيت، في أسلوب فكه رقيق، وراح يُطَمْئن الزوج الجديد، أنهم إذا وصلوا قريبًا من المدينة أقاموا ساعات هناك، حتى يتسامع أهل المدينة بمقدمهم، فتسمع زوجته

فتصلح من شأنها وتهيء له البيت بزينته ونمارقه، وينساق معه جابر في الأسلوب نفسه فيقول: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق!... فيجيبه ﷺ قائلًا: إنها ستكون.

صورة رائعة عن لطف معشره، وأنس حديثه، والفكاهة الحلوة في محاورته لأصحابه، لم يكتب لنا أن نراها ونسعد بها في مجالسه ﷺ وغزواته وأسفاره، ولكن ها نحن نستشفها من سيرته وأخباره العطرة، فيهزنا الشوق إلى رؤيته التي حُرمناها، ومجالسه التي سمعنا بها ولم نرها، وغزواته التي قرأناها ولم يكن لنا شرف الاشتراك فيها، اللهم عوضنا عن ذلك كله بلقاء معه في جنان خلدك، وهيئنا لذلك بتوفيق من لدنك للتمسك بهديه واقتفاء أثره في تحمل كل محنة وضيم في سبيل دينك وتحقيق شريعتك».

[فقه السيرة للبوطي ٢١٢ –٢١٣].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «هكذا كانت مراعاة القائد لجنده، يتتبع الضعيف فيقويه، والمتخلف فلا يتركه حتى يسير معه ببركة الله، وما سقنا الخبر لذلك فقط، بل سقناه لهذا؛ ولأنها بركة بأمر خارق للعادة.

وإن حديث الجمل لا ينتهي بذلك، بل إن النبي ﷺ يبتاع الجمل، فيريد أن يهبه له جابر، فيأبى إلا الشراء، ثم يساومه، طلبه النبي ﷺ بدرهم فأبى، فزاده إلى درهمين فأبى، فما زال يزيده حتى جعل ثمنه، أوقية من ذهب، ولكنه يهبه للرسول، بعد أن ساوم هذه المساومة.

وإذا كان قد تعرف حال صاحبه وهو في السفر، فلابد أن يؤنسه ويعينه، ويتعرف حاله، فسأله رسول الله ﷺ قائلًا: يا جابر، هل تزوجت. قال: نعم يا رسول الله، قال ﷺ: أثيبًا أم بكرًا. قال: لا بل ثيبًا. قال ﷺ: أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك، قال جابر: يا رسول الله، إن أبي أصيب يوم أحد، وترك بنات له سبعًا، فنكحت امرأة جامعة، تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن، قال له الرسول ﷺ العطوف الألوف: أصبت إن شاء الله.

ولكن الرسول ﷺ لا يكتفي بذلك الود الراحم، بل إنه يقيم الوليمة لزواج صاحبه، فإذا وصل إلى مكان يبعد عن المدينة بنحو ثلاثة أميال اسمه صرار، نحر جزورًا، يأكل هو وأهله، كان ذلك والجمل لا يزال في يد جابر.

فرأى إزاء تلك المحبة والمودة أن يرسل الجمل إلى رسول الله ﷺ، وقد وهبه له، فرده النبي ﷺ إليه، وأرسل معه ثمنه، وهو الأوقية من الذهب التي ارتضاها ثمنًا له.

ولننقل كلام رسول الله ﷺ لنرطب به أسماعنا، ونملأ به قلوبنا: «**يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك**»، ودعا بلالًا فقال له: «**اذهب بجابر، وأعطه أوقيه ذهب**».

ذكرنا هذه القصة لنعرف مودة رسول الله ﷺ، ورأفته بهم، وملاحظته إدخال السرور على نفوسهم، وإذهاب العنت عنهم؛ لتكون منهم قوة في الأرض، فليست القوة بالفظاظة والتحكم، إنما القوة بالمحبة والتراحم والتودد». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٦٨-٧٦٩].

ويقول الشيخ القرني: «انظر إلى أخلاق النبي ﷺ مع أصحابه، فهو في غاية من الرقة والرحمة والتواضع، فمن عادته أنه كان يتأخر في القفول عن أصحابه حتى يتفقدهم، وقد عرف ما بجابر رضي الله عنه وَرَقَّ له، وأكرم الله جابرًا رضي الله عنه برسول الله ﷺ حيث كان سببًا في نهوض جمله الضعيف وتقدمه بعد أن كان متأخرًا.

ثم أخذ ﷺ يداعب جابرًا رضي الله عنه ويحادثه، وكانت مساومته له على جمله طريقًا غير مباشر لمساعدة جابر رضي الله عنه بعد أن أدرك حالته وضيق ذات يده.

إن القصة تخبر عن لطف معشر النبي ﷺ وحسن معاملته لأصحابه الذين بادلوه حبًّا بحب ووفاء بوفاء، وآثروه على أنفسهم، وافتدوه وقت الشدة بأرواحهم، وصدق الله العظيم إذ يقول له: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهكذا يجب أن يكون القادة في معاملتهم لرعاياهم، ولا يغض من شأن الشريف أن يكون لين الجانب يأنس إليه أصحابه، ويجدون في صدره الرحب ملاذًا لهم وأمنًا، فهو يدنو منهم ويداعبهم في مزاج لطيف ويهش لهم ويضحك معهم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ سُلَيْمٍ، وَلَهَا ابْنٌ مِنْ أَبِي طَلْحَةَ يُكْنَى أَبَا عُمَيْرٍ، وَكَانَ يُمَازِحُهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَرَآهُ حَزِينًا، فَقَالَ: «**مَا لِي أَرَى أَبَا عُمَيْرٍ حَزِينًا؟**»، فَقَالُوا: مَاتَ نُغَرُهُ الَّذِي كَانَ يَلعَبُ بِهِ، قَالَ: فَجَعَلَ يَقُولُ: «**أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**».

[مسند أحمد ٢٧/ ٣٣١ رقم ١٣٢٩٨، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

ويعلق العقاد رحمه الله على هذه القصة قائلًا: وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت إليها، فالسيد يزور خادمه في بيته، ويسأل أمه عن حزن أخيه ويواسيه في موت طائر ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه، ومثل هذا عطفه على الضعف البشرى في رجل مثل عبد الله الخمار الذي لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة، فكان النبي ﷺ يحده في الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه».

[هدي السيرة للقرني ١٦٢-١٦٣].

١١ ـ ينبغي للقائد أن يكون حُلوَ العشيرة، لطيفَ الحديث، جَمَّ التواضع لجنوده:

يقول د/ فيض الله: «دلَّ على هذا حواره الهادف مع جابر رضي الله عنه، في القصة الجانبية، التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما من أهل السيرة، منصرفه من هذه الغزوة، والتي تمثل خلق الرسول الكريم ﷺ خير تمثيل، وتصور حسن عشرته لأصحابه رضي الله عنهم في أجلى صور اللطف والرقة، والتواضع الرفيع الرحيم:

أ ـ أرأيت كيف أدرك جابرًا ﵁، وقد تخلف عن القوم؛ لضعف جَمَلِه، فأهمه أمره، واتخذ له جريدة، فَنَخَسَه بها نَخَسَات لعلها كانت خفيفة، فكانت للجمل قوة غالب بها الجمال، وواهقها فسبقها... معجزة للنبي ﷺ.

ب ـ ثم عرض على جابر ﵁ أن يبتاع جمله هذا، فأراد أن يَهبَه إياه، فأبى وساومه مساومة، كانت سَمْحَة بارَّة، لا كما يساوم الناس في بياعاتهم، وما كان من قصد النبي ﷺ المتاجرة بالجمل، والمرابحة فيه، وإنما اتخذه وسيلة لبر جابر ﵁، فإنه لما انقلب إلى صرار، رد على جابر ﵁ جمله، ونقده ثمنه، وزاده شيئًا يسيرًا ـ كما قالت الرواية ـ.

إنه أسلوب فريد في بر الأصحاب، والتلطف بعشرتهم، ما يفعله إلا الرسل ومَنْ تأسى بهم.

ج ـ وليس ذلك فحسب، بل إنه ﷺ تَعَرَّفَ على أخبار جابر ﵁ الأُسَرِيَّة، بعد أن استشهد والده في أحد، فعضه الدهر بنابه، وأصبح هو المسؤول عن الأسرة وحده، وعلم من خلال سؤاله عن أحواله وزواجه، أنه تزوج أخيرًا امرأة ثَيِّبًا، فأعلمه أنه كان يود الزواج من بِكْرٍ غَضَّةِ الإهاب، تداعبه ويداعبها، وتخفف من قسوة المحنة التي يعاني منها، لكنه استصوب رأيه، لما أجابه بأنه آثر الثيب؛ لتقوم على البنات السبع، اللاتي مات عنهن أبوه، وتَلُمَّ شَعْثَهُنَّ، وتَرُمَّ رثاثهن.

د ـ وأحب الرسول الكريم ﷺ، ذو الخلق العظيم، أن يُكرم الصحابي المجاهد معه في غزوة ذات الرقاع؛ لقرب عهده بالزواج، عندما يقترب من المدينة، فيكون منها على بعد أميال، فيأمر فتُنحر الجزور، ويقيم عليها يومه، وتسمع زوجه العروس بمقدمه، فتُصلح من شأنها، وتتعهد بيتها، وتنفض وسائدها، تأهبًا للقاء زوجها.

ولما عقَّب جابر ﵁، بأنه ليس في بيته وسائد، أخبر الصادق المصدوق مُبَشِّرًا بأنه ستصلح حاله، وسيغتني بفضل الله، وستكون له وسائد وغيرها من وسائل النعيم.

أيُّ لطفٍ هذا، وأية مواساة هذه، وأية طمأنة وإحسان صُحبَة، في أوبةٍ من غزوة، بلا تكلف ولا تهيُّأ ولا استعداد سابق: أبرأ جمله وقوَّاه له، بلمسة خارقة، ومعجزة ظاهرة، ثم وهبه إياه بعد أن نقده ثمنه؛ ثم احتفى به فأمر فنحر القوم الجزور لتستعد عروسه لاستقباله، ثم طمأنه عن نعيم منظور، وغنىً مذخور في جيب الأيام.

تلك من نماذج الأخلاق النبوية، التي تحلى بها رسول الله ﷺ والتي حلاه بها ربه ﷻ، الذي بعثه ليتمم به مكارم الأخلاق.

وبهذا الأسلوب الهادئ الوادع، الرفيق الرقيق، يعلم الربانيون، حسن الصحبة، وصدق الأخوة، وبر الخلة والأخلاء.

اللهم كما متعتنا بالاستماع إلى هذا الهدي النبوي الرفيع، وفقنا للمتعة باتباعه والتأسي به فيه، وإبرازه خلقًا ومنهاجًا، ونورًا للإنسانية الهابطة المعذبة في ماديتها المسرفة، وأنانيتها المؤسفة».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٧٩-١٨١].

١٢ ـ الحِكْمَةُ مِنْ مُسَاوَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِجَابِرٍ رضي الله عنه:

قال السهيلي: «وَمِنْ لَطِيفِ العِلمِ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه بَعْدَ أَنْ تَعْلَمَ قَطْعًا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا، بَل كَانَتْ أَفْعَالُهُ مَقْرُونَةً بِالحِكْمَةِ، وَمُؤَيَّدَةً بِالعِصْمَةِ، فَاشْتِرَاؤُهُ ﷺ الجَمَلَ مِنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، ثُمَّ أَعْطَاهُ الثَّمَنَ، وَزَادَهُ عَلَيْهِ زِيَادَةً، ثُمَّ رَدَّ الجَمَلَ عَلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُعْطِيَهُ ذَلِكَ العَطَاءَ دُونَ مُسَاوَمَةٍ فِي الجَمَلِ، وَلَا اشْتِرَاءٍ، وَلَا شَرْطٍ، وَلَا تَوْصِيلٍ.

فَالحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ بَدِيعَةٌ جِدًّا، فَلْتُنْظَرْ بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَأَلَهُ: هَل تَزَوَّجْتَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: هَلَّا بِكْرًا، فَذَكَرَ لَهُ مَقْتَلَ أَبِيهِ، وَمَا خَلَّفَ مِنَ البَنَاتِ، وَقَدْ كَانَ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ جَابِرًا رضي الله عنه بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحْيَا أَبَاهُ، وَرَدَّ عَلَيْهِ رُوحَهُ، وَقَالَ: «مَا تَشْتَهِي فَأَزِيدُكَ؟»، فَأَكَّدَ ﷺ هَذَا الخَبَرَ بِمِثْلِ مَا يُشْبِهُهُ، فَاشْتَرَى مِنْهُ الجَمَلَ، وَهُوَ مَطِيَّتُهُ، كَمَا اشْتَرَى اللهُ تَعَالَى مِنْ أَبِيهِ وَمِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْفُسَهُمْ بِثَمَنٍ هُوَ الجَنَّةُ، [وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة].

وَنَفْسُ الإِنْسَانِ مَطِيَّتُهُ ـ كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ رضي الله عنه: إِنْ نَفْسِي مَطِيَّتِي، ثُمَّ زَادَهُمْ زِيَادَةً فَقَالَ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس]، ثُمَّ [جَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ العِوَضِ وَالمُعَوَّضِ] وَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمُ الَّتِي اشْتَرَى مِنْهُمْ فَقَالَ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران]، فَأَشَارَ ﷺ بِاشْتِرَائِهِ الجَمَلَ مِنْ جَابِرٍ رضي الله عنه وَإِعْطَائِهِ الثَّمَنَ، وَزِيَادَتِهِ عَلَى الثَّمَنِ، ثُمَّ رَدِّ الجَمَلِ المُشْتَرَى عَلَيْهِ، أَشَارَ بِذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى تَأْكِيدِ الخَبَرِ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ عَنْ فِعْلِ اللهِ تَعَالَى بِأَبِيهِ، فَتَشَاكَلَ الفِعْلُ مَعَ الخَبَرِ، كَمَا تَرَاهُ، وَحَاشَ لِأَفْعَالِهِ أَنْ تَخْلُوَ مِنْ حِكْمَةٍ، بَل هِيَ كُلُّهَا نَاظِرَةٌ إِلَى القُرْآنِ، وَمُنْتَزَعَةٌ مِنْهُ ﷺ.

[الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٢٤٨-٢٤٩ تح الشيخ الوكيل، وما بين المعكوفتين زيادة لابن كثير].

قال ابن كثير: «وَهَذَا الَّذِي سَلَكَهُ السُّهَيْلِيُّ هَا هُنَا إِشَارَةٌ غَرِيبَةٌ وَتَخَيُّلٌ بَدِيعٌ، وَاللهُ سبحانه وتعالى أَعْلَمُ».

[البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٥٧٢].

١٣ـ الذوق الإسلامي في التعامل الأسري:

يقول الشيخ الصوياني: «قال ﷺ: «**إِنَّا لَوْ قَدِمْنَا صِرَارًا أَمَرْنَا بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَسَمِعَتْ بِنَا فَنَفَّضَتْ نَمَارِقَهَا**»، قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا نَمَارِقُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهَا سَتَكُونُ، فَإِذَا قَدِمْتَ فَاعْمَل عَمَلًا كَيِّسًا**» [المغازي للواقدي١/ ٣٩٩-٤٠٢]، «**فَالكَيْسَ الكَيْسَ**» [البخاري في البيوع (٢٠٩٧)، وفي النكاح (٥٢٤٥)]، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ صِرَارًا أَمَرَ بِبَقَرَةٍ، فَذُبِحَتْ فَأَكَلُوا مِنْهَا [البخاري في الجهاد والسير (٣٠٨٩)، ومسلم في المساقاة (٧١٥)]، فَأَقَمْنَا عَلَيْهَا ذَلِكَ اليَوْمَ [مسند أحمد ٢٣/ ٢٧٢ رقم ١٥٠٢٦]، فَلَمَّا ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ، قَالَ: «**أَمْهِلُوا حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلًا ـ أَيْ عِشَاءً ـ لِكَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ** (غير المتزينة وهي منتشرة الشعر مغبرة الرأس)، **وَتَسْتَحِدَّ** (تستعمل الحديدة في إزالة شعر الإبط والعانة ونحو ذلك) **المُغِيبَةُ** (المرأة التي غاب عنها زوجها)»». [البخاري في النكاح (٥٠٧٩)، ومسلم في الإمارة (٧١٥)]، فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللهِ ﷺ دَخَلَ وَدَخَلنَا، قَالَ: فَأَخْبَرْتُ [فَحَدَّثْتُ] المَرْأَةَ الحَدِيثَ، وَمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: **فَدُونَكَ، فَسَمْعًا وَطَاعَةً** [مسند أحمد ٢٣/ ٢٧٢ رقم ١٥٠٢٦].

تأثرت تلك المرأة الصالحة بذوق رسول الله ﷺ الرفيع، وأسلوبه الرائع في منح الأنوثة توهجها وعطرها الذي لا يقاوم، حتى ينهار ذلك الحبيب القادم أمام هذا السحر الحلال، ويستسلم ذلك المحارب مهزومًا بالحب الطاهر، وهو الذي لا يستسلم إذا هاجت الحرب والحراب.

ولم يكن ﷺ وحده في رقي الذوق والأسلوب، زوجاته ـ رضي الله عنهن ـ كن كذلك، كن نسيجًا من الرقة والإحساس، ذات يوم «دَخَلَتْ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ ـ أَحْسِبُ اسْمَهَا خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ ـ عَلَى عَائِشَةَ ﵂ وَهِيَ بَاذَّةُ الْهَيْئَةِ، فَسَأَلَتْهَا: مَا شَأْنُكِ؟ فَقَالَتْ: زَوْجِي يَقُومُ اللَّيْلَ، وَيَصُومُ النَّهَارَ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَتْ عائِشَةُ ﵂ ذَلِكَ لَهُ، فَلَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُثْمَانَ ﵁ فَقَالَ: «**يَا عُثْمَانُ، إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا، أَفَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ، فَوَاللهِ إِنِّي أَخْشَاكُمْ لله، وَأَحْفَظُكُمْ لِحُدُودِهِ**».

[مسند أحمد ٤٣/ ٧٠-٧١ رقم ٢٥٨٩٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين].

وفي رواية: «دَخَلَتِ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ ﵁ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فَرَأَيْنَهَا سَيِّئَةَ الْهَيْئَةِ، فَقُلْنَ: **مَا لَكِ؟ مَا فِي قُرَيْشٍ رَجُلٌ أَغْنَى مِنْ بَعْلِكِ**، قَالَتْ: **مَا لَنَا مِنْهُ شَيْءٌ، أَمَّا نَهَارُهُ فَصَائِمٌ، وَأَمَّا لَيْلُهُ فَقَائِمٌ**، قَالَ: فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرْنَ ذَلِكَ لَهُ، فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فقَالَ: «**يَا عُثْمَانُ أَمَا لَكَ فِي أُسْوَةٍ؟**»، قَالَ: **وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ الله، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**، قَالَ: «**أَمَّا أَنْتَ فَتَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ** [قَالَ: **إِنِّي لأَفعَلُ**، قالَ: «**لا تَفعَل، إِنَّ لِعَينَيكَ عَلَيكَ حَقًّا**،] **وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، صَلِّ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ**»، قَالَ: فَأَتَتْهُمُ المَرْأَةُ بَعْدَ ذَلِكَ عَطِرَةً كَأَنَّهَا عَرُوسٌ، فَقُلْنَ لَهَا: مَهْ، قَالَتْ: **أَصَابَنَا مَا أَصَابَ النَّاسَ**. [صحيح ابن حبان ٢/ ١٩ رقم ٣١٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره، والطبقات الكبير ٣/ ٣٦٦ رقم ٤٢٨٣].

من ودٍّ ووصال، في أجواء يمطر الإسلام فيها حبًّا وقلوبًا، فما بين المرأة والرجل أكثر من الجسد، إنها أشياء حميمة تجعل للدنيا مذاقًا أجمل، المرأة بالنسبة للرجل ـ إذا تحضَّر بالإسلام ـ عبق لا ينقطع، ربيع في كل الفصول، مطر صيفي، هل هناك أرق من قوله ﷺ لحادي العيس ذي الصوت الجميل: «**رُوَيْدَكَ بِالْقَوَارِيرِ**». [البخاري في الأدب (٦١٦١)].

هل هناك أبهى من قوله ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ**».

[النسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح].

إن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أراد أن ينقطع للعبادة صيامًا وقيامًا، حتى لقد باح للنبي ﷺ بنيته أن يجري عملية تنقطع بها صلته بالمرأة تمامًا، لكن النبي ﷺ نهاه، وقال له: «**إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا**».

إذًا فلا رهبانية في الإسلام، فالرهبانية هناك عند النصارى، وخلف حصون بني النضير وقريظة وغيرهم من يهود، تعالوا ـ قبل أن نتنهي من قصة جابر رضي الله عنه وجمله ـ نزور حصون اليهود لنرى مدى علاقتهم بالمرأة في تلك الأيام، تعالوا نزور: **زريبة للنساء**، هذا هو أقل وصف أصف به أماكن تواجد المرأة اليهودية، أما المرأة نفسها عند أولئك القوم فهي أقل رتبة من الحيوان، أقل رتبة من الخنازير القذرة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ [أَخْرَجُوهَا مِنَ الْبَيْتِ، و] لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، [وَلَمْ يُشَارِبُوهَا،] وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ (أي لم يخالطوهن ولم يساكنوهن في بيت واحد)، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**[جَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ] اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ**» فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَقَالَا يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، فَلَا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ (أي غضب) عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا.

[مسلم في الحيض (١٦ (٣٠٢)، وأبو داود في الطهارة (٢٥٨)، ومسند أحمد ٢١/ ١٩٨ رقم ١٣٥٧٦].

ها هو ﷺ مع زوجته أم سلمة رضي الله عنها نائمان فأصابها الدم، فهل طردها ﷺ من بيته أو من فراشه؟

لن أجيب، أم سلمة رضي الله عنها ستجيب، تقول رضي الله عنها: بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مُضْطَجِعَةً فِي خَمِيصَةٍ (كساء أسود مربع له علمان في طرفيه من صوف وغيره) إِذْ حِضْتُ، فَانْسَلَلْتُ فَأَخَذْتُ ثِيَابَ حِيضَتِي، قَالَ: «**أَنُفِسْتِ**؟ (أي هل حضت)»، قُلْتُ: **نَعَمْ**، فَدَعَانِي فَاضْطَجَعْتُ مَعَهُ فِي الْخَمِيلَةِ (القطيفة البيضاء من الصوف). [البخاري في الحيض (٢٩٨)].

أما عائشة ﵂ فتروي لنا أشياء تغيض اليهود حتى الموت، فتقول ﵂: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَرَأْسُهُ فِي حَجْرِي، وَأَنَا حَائِضٌ. [**البخاري في التوحيد (٧٥٤٩)**].

وتقول عائشة ﵂: «أَنَّهَا كَانَتْ تُرَجِّلُ، تَعْنِي رَأْسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهِيَ حَائِضٌ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَئِذٍ مُجَاوِرٌ فِي الْمَسْجِدِ (معتكف فيه)، يُدْنِي لَهَا رَأْسَهُ (يقرب لها رأسه وهي في حجرتها)، وَهِيَ فِي حُجْرَتِهَا، فَتُرَجِّلُهُ، وَهِيَ حَائِضٌ». [**البخاري في الحيض (٢٩٦)**].

أي تسرِّح شعره، وناداها ذات يوم لتعطيه السجادة ليصلّي عليها وهو في المسجد وهي حائض، تقول ﵂: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَاوِلِينِي الْخُمْرَةَ** (هي السجادة يسجد عليها المصلي وسميت خمرة لأنها تخمر الوجه أي تغطيه) **مِنَ الْمَسْجِدِ**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: إِنِّي حَائِضٌ، فَقَالَ: «**إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ**». [**مسلم في الطهارة (٢٩٨)، وأبو داود في الطهارة (٢٦١، والترمذي في الطهارة (١٣٤)، والنسائي في الطهارة (٢٧١)**].

إذًا فالطمث أذى يتخلص منه جسم المرأة كما يتخلص جسمها وجسم الرجل من البول وغيره.

قد يقول قائل: إن اليهود كانوا يعتقدون ذلك ومعهم النصارى، لكنهم اليوم يدعون إلى تحرير المرأة، وإلى إعطائها حقوقها كاملة.

فأقول: لننسَ لدقائق كلام أنس بن مالك ﵁ السابق، ولننسَ ما كان يفعله اليهود والنصارى في السابق، ولنقل إنهم يمثلون أنفسهم فقط ولا يمثلون الدين اليهودي والنصراني، لننس ذلك ولنتوجه إلى يهود اليوم ونصارى اليوم، الذين أزعجونا وأزعجوا نساءنا حول تحرير المرأة، والمناداة بحقوقها، ماذا يقول دينهم الآن، ماذا يقول كتابهم المقدس اليوم وبعد ألفي عام من المراجعة والتمحيص والدراسة، ربما نجد سر هذا الضجيج.

أمامي الآن كتابهم المقدس وهو يتحدث عن المرأة، فيقول: **(وإذا كان بامرأة سيلان دم من جسدها كعادة النساء: فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من لمسها يكون نجسًا إلى المغيب، وجميع ما ترقد عليه أو تجلس عليه يكون نجسًا، وكل من لمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بالماء ويكون نجسًا إلى المغيب، ومن لمس شيئًا مما تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بالماء، ويكون نجسًا إلى المغيب.**

إن كان فراشها أو ما هي جالسة عليه شيء: فمن لمسه يكون نجسًا إلى المغيب.

إن ضاجعها رجل فأصابه شيء من دم الحيض ـ فكم تتوقعون مدة نجاسته؟ إلى المغيب؟ لا، الكتاب المقدس يقول: يكون نجسًا سبعة أيام، وكل فراش يستلقي عليه يكون نجسًا).

[الكتاب المقدس -اللاويين- شريعة ما يفرزه الجسد- ١٤].

إن معنى هذا الهراء أن الرجل يحيض أيضًا.

أين هذا الهراء من قول عائشة ﵂: «كُنْتُ أَنَا وَرَسُولُ الله ﷺ نَبِيتُ فِي الشِّعَارِ الْوَاحِدِ (أي الثوب الذي يلاصق الجسم مباشرة)، وَأَنَا حَائِضٌ طَامِثٌ، فَإِنْ أَصَابَهُ مِنِّي شَيْءٌ غَسَلَ مَكَانَهُ، وَلَمْ يَعْدُهُ (أي يغسل مكان الدم فقط ولا يغسل ما حوله)، ثُمَّ صَلَّى فِيهِ، وَإِنْ أَصَابَ -تَعْنِي: ثَوْبَهُ- مِنْهُ شَيْءٌ غَسَلَ مَكَانَهُ وَلَمْ يَعْدُهُ، ثُمَّ صَلَّى فِيهِ.

[أبو داود في الطهارة (٢٦٩)، وفي النكاح (٢١٦٦)، والنسائي في الطهارة (٢٨٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

بل إن رسول الله ﷺ يصر على أن تأكل عائشة ﵂ وتشرب قبله وهي حائض، بل يقسم عليها، ثم يقوم بحركة تتوهج منها الرقة والحب، حركة تدخل السرور إلى قلبها ونفسها، لقد جاء رجل فسأل عائشة ﵂: هَلْ تَأْكُلُ الْمَرْأَةُ مَعَ زَوْجِهَا وَهِيَ طَامِثٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُونِي فَآكُلُ مَعَهُ وَأَنَا عَارِكٌ، وَكَانَ يَأْخُذُ الْعَرْقَ (عظم في لحم)، فَيُقْسِمُ عَلَيَّ فِيهِ، فَأَعْتَرِقُ مِنْهُ (آكل منه)، ثُمَّ أَضَعُهُ فَيَأْخُذُهُ، فَيَعْتَرِقُ مِنْهُ، وَيَضَعُ فَمَهُ حَيْثُ وَضَعْتُ فَمِي مِنَ الْعَرْقِ، وَيَدْعُو بِالشَّرَابِ فَيُقْسِمُ عَلَيَّ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ، فَآخُذُهُ فَأَشْرَبُ مِنْهُ، ثُمَّ أَضَعُهُ فَيَأْخُذُهُ فَيَشْرَبُ مِنْهُ، وَيَضَعُ فَمَهُ حَيْثُ وَضَعْتُ فَمِي مِنَ الْقَدَحِ». [النسائي في الطهارة (٢٧٩) وفي الحيض والاستحاضة (٣٧٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد].

أين هذا من دين اليهود والنصارى الذي يعاملون المرأة كمخلوق من الدرجة العاشرة، مخلوق نجس، أنجس من النجاسة نفسها، كل شيء تلمسه يتنجس، كل شيء يلمسها يتنجس، كل من لمس شيئًا لمسته ينجس، أي أن المرأة لا يمكن أن تبقى في المنزل وإلا أصبح المنزل نجسًا ملوثًا تجوبه الآثام والشياطين، لا بد من وضع النساء اليهوديات والنصرانيات في زرائب خاصة نجسة، حتى ينقطع دم الحيض عنهن.

لا، حتى لو انقطع الطمث فانقطاعه لا يكفي للخروج من الزريبة؛ لأن كتابهم المقدس يقول: **(وإذا طهرت من سيلانها فلتنتظر سبعة أيام ثم تطهر)**. [الكتاب المقدس -سفر اللاويين- شريعة ما يفرزه الجسد].

هل يكفي هذا أيها الكتاب المقدس؟ لا، فالحيض ليس نجاسة فقط، بل هو ذنب ترتكبه المرأة ولا بد من تكفيره، كيف؟ يقول كتابهم المقدس: **(وفي اليوم الثامن تأخذ لها يمامتين أو فرخي حمام، وتجيء بهما إلى الكاهن** (العالم المسؤول عن دار العبادة) **فيذبح واحدة ويحرق الأخرى ويكفِّر عنها الكاهن بعد ذلك أمام الرب سيلان نجاستها)**. [المصدر السابق].

ترى كم بقي للمرأة من أيام حياتها تعامل فيها كإنسان، يبدو من كلامهم السابق أن المرأة قذفت من كوكب مليء بالشياطين والنفايات». [السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٣١٨-٣٢٤، وينظر درس «النهي عن طرق النساء ليلاً» في الدروس الفقهية المستفادة من غزوة بني المصطلق].

المطلب الثالث
الدروس الفقهية

١ ـ مشروعية صلاة الخوف (١):

يقول الشيخ أبو زهرة: «كانت الأهبة للحرب من جانبهم عنيفة شديدة، وإن كان الله تعالى قد ألقى في قلوبهم الرعب، وكان على المؤمنين أن يحذروهم، ولقد كان المشركون يتفاهمون فيما بينهم على أن يَنْقَضُّوا على المسلمين إذا حان وقت صلاتهم، وهم يعلمون، وجرى على ألسنتهم أن الصلاة أحب إليهم من كل شيء، فكانوا يطمعون أن يصيبوا منهم غِرَّة وقت صلاتهم، ولكن الله تعالى قد علَّم جنده الحذر، فقال عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾[النساء: ٧١].

ولذلك شرعت صلاة الخوف لمثل هذه الحال، ونزلت آية شرعيتها في هذه الغزوة، فقال تعالت كلماته: ﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[النساء].

ويظهر أن الآيات الكريمات قد نزلت في وقت ذلك اللقاء بين المؤمنين والمشركين الذي كان فيه الحذر من الجانبين، وهذه الآيات تدل على أحكام شرعية:

أولها: قصر الصلاة الرباعية لأجل السفر أو الخوف ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

وثانيها: أنها ثبتت صلاة الخوف بها، وظاهرها الذي تدل عليه أنه يصلي ركعتين، وليُحْرِم الجميع بالصلاة معه، ولكن تجيء طائفة منهم النبي ﷺ بأسلحتها، ولتُصَلِّ معهم ركعة، والطائفة الأخرى تحرس المصلين مع تسلح المصلين أنفسهم، فإذا أتم الركعة مع هذه الطائفة، تأتي الطائفة الأخرى، مع أسلحتها، ولتأخذ حذرها، ويصلي ﷺ الركعة الثانية مع الطائفة الأخرى، ويسلم ﷺ عند كمال صلاته.

---

(١) فصَّل الدكتور وهبة الزحيلي آراء العلماء في صلاة الخوف وأحكامها وكيفيتها في كتابه القيم «الفقه الإسلامي وأدلته» ٢/ ٤٣١-٤٤٤ ط دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ومن بعد ذلك تصلي كل طائفة الركعة الباقية لها مع بقاء الأخرى حارسة، فالطائفة التي ابتدأت الصلاة مع النبي ﷺ تكون ركعتها لاحقة لأنها الثانية، والطائفة الأخرى التي جاءت الأولى تصلي مسبوقة؛ لأن ما فاتها هو الركعة الأولى.

ونلاحظ في صلاة الخوف:

أولًا: أنها ركعتان، وروي أنها كانت الأربع في حال الخوف من غير سفر، وأن النبي ﷺ ـ وكذلك كل إمام ـ يقسِّم المصلين فرقتين إحداهما تحرس، وقد أحرمتْ للصلاة ويصلي بالأخرى ـ وأن ذلك يقتضي الحراسة الدائمة، مع عدم الانقطاع عن الصلاة.

وثانيًا: أن الصلاة تكون بإمامة القائد، أو من يقوم مقامه ليكون الجمع بين الصلاة والإمامة أي تكون الصلاة جماعة.

وثالثًا: أن ينتفع الجميع بفضل الجماعة فإن فضل الجماعة ينالها اللاحق، وهو الذي يقطع الصلاة بعد الدخول فيها، ثم يتمها، والمسبوق وهو يتأخر دخوله فيها، ثم يعيد ما سبق به، وله فضل الجماعة.

وقد روى ابن هشام عدة روايات في صلاة النبي ﷺ في الخوف وقد تعددت هذه الصلاة في مواطن كثيرة، ولبُّها واحد.

فقد روى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما فِي صَلَاةِ الخَوْفِ قَالَ: «صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ بِطَائِفَةٍ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، وَطَائِفَةٌ مُقْبِلُونَ عَلَى العَدُوِّ، قَالَ: فَجَاؤوا فَصَلَّى بِهِمْ رَكْعَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٠٤].

والآية تنطبق على هذه الرواية ولا تخرج عما قلنا، بيد أن الرواية تدل على أن النبي ﷺ صلى بهم أربعًا، وكلٌّ صلى ما فاته، وروي عن جابر رضي الله عنه أيضًا قال: صلى بنا رسول الله ﷺ، فركع بنا جميعًا، ثم سجد رسول الله ﷺ وسجد معه الصف الأول فلما رفعوا سجد الذين يلونهم بأنفسهم، ثم تأخر الصف الأول، وتقدم الصف الثاني حتى قاموا مقامهم، ثم ركع النبي ﷺ بهم جميعًا، ثم سجد النبي ﷺ وسجد الذين يلونه معه، فلما رفعوا رؤوسهم سجد الآخرين بأنفسهم فركع النبي ﷺ بهم جميعًا، وسجد كل واحد منهم بأنفسهم سجدتين.

وإننا نرى في عبارة هذه الرواية اضطرابًا، ولا نرى أن الآية تنطبق عليها، والأولى أحق بالأخذ، وعليها الفقهاء الأربعة.

وتدل الآيات السابقة على أن الصلاة لا تسقط في سفر أو حضر، ولا أمن ولا خوف.

وأنها في الخوف والسفر قد تقصر، أو تكون بالإيماء، ولكن لا تسقط؛ لأنها ذِكر الله، ويجب أن يكون العبد قائمًا به في كل حال، ولو على الجنوب.

وأنه إذا كان الأمن والاطمئنان يجب أن تُقام الصلاة كاملة مقومة على وجهها بركوعها وسجودها، والائتمام الكامل والجماعة الكاملة كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]، أي معينًا في مواقيته، لا يجوز التخلف عنها في أي حال، ولا عذر في تركها؛ لأنها مخاطبة العبد لربه، وذلك هو الدين القيم». [**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٦٣-٧٦٥**].

ويقول د/ البوطي: «الطريقة التي صلى بها رسول الله ﷺ جماعة مع أصحابه في هذه الغزوة هي الأساس الذي قامت عليه مشروعية صلاة الخوف.

ولصلاة الخوف كيفيتان: إحداهما خاصة بأن يكون العدو في جهة القبلة.

والثانية خاصة إذا كان العدو في غير جهتها.

والكيفية الثانية هي التي صلى بها الرسول ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فقد حان وقت الصلاة، وأشتات العدو من حولهم في أكثر من جهة القبلة وحدها، ويخشى أنهم يراقبون المسلمين من بعد، حتى إذا رأوهم أدبروا عنهم جميعًا وانشغلوا بصلاتهم غدروا بهم وانحطوا فيهم بسيوفهم.

فبدأ رسول الله ﷺ الصلاة مع فرقة من أصحابه، وإخوانهم يراقبون العدو في جهاته المختلفة، حتى إذا أتم الرسول ﷺ من صلاته نصفها، أي ركعة واحدة، فارقه مَنْ كانوا يصلون خلفه وأسرعوا فأتموا الركعة الثانية وحدهم، والرسول ﷺ واقف في صدر ركعته الثانية، ثم ذهبوا ليرابطوا مكان إخوانهم، حيث جاء هؤلاء فاقتدوا برسول الله ﷺ فصلى بهم الركعة الثانية التي بقيت من صلاته، ثم قاموا فأتموا وحدهم الركعة الثانية لهم والنبي ﷺ ينتظرهم جالسًا، ثم سلموا عليه. [**صحيح مسلم ٦/ ٤٨**].

والذي اقتضى هذه الكيفية من الصلاة مع إمكان أدائهم الصلاة بجماعتين، سببان اثنان:

الأول: قصد اجتماعهم كلهم على الاقتداء برسول الله ﷺ، وتلك فضيلة لا يُصار إلى غيرها عند إمكان تحقيقها.

الثاني: استحباب وحدة الجماعة قدر الإمكان، فتجزئة القوم أنفسهم إلى عدة جماعات تتوالى لأداء فريضة من الفرائض مكروه بدون ضرورة.

ولم يلاحظ السادة الحنفية إلا السبب الأول لها؛ ولذلك ذهبوا إلى أنه لا مسوغ لبقاء مشروعيتها بعد وفاة النبي ﷺ. [**فقه السيرة للبوطي ٢١١-٢١٢**].

ويقول د/ العيساوي: «وقد اتفق العلماء على مشروعيتها لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ سَجَدُوا۟ ...﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

وبصدد الخوف من العدو هناك نوعان من الصلاة تؤدى الفريضة على نحوهما:

(١) صلاة تسمي (صلاة الخوف) وهي تؤدى جماعة وعلى أشكال متعددة معينة، جاء تفصيلها في كتب الحديث والفقه، وليس فيها ضربٌ ولا قتال، وهي التي تحدثت عنها الآية السابقة من سورة النساء، وهذا النوع من صلاة الخوف أقره الجمهور بمن فيهم الأحناف.

[**ينظر: بدائع الصنائع ١/ ٢٤٢، والمجموع للنووي ٤/ ٤٠٥**].

وقد أورد العلماء ضيع عديدة في كيفية أدائها، ذكر منها ابن العربي ثماني صفات في كتابه أحكام القرآن. [**أحكام القرآن ١/ ٦١٨**].

(٢) صلاة تسمي (صلاة شدة الخوف) وهذه الصلاة يسقط فيها من الأركان، ويقع فيها من المشي والضرب والطعان ما يستلزمه قتال العدو، أو الخوف منه، وعلى هذه الصلاة فسر الجمهور قوله تعالى في سورة البقرة [٢٣٩]: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾. [**فقه الغزوات للعيساوي ٢٧٥، وينظر في تفصيل ذلك: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية لمحمد خير هيكل ٢/ ١٣٦٥-١٣٨**].

٢ ـ عناية الإسلام بالصلاة:

يقول د/ الغضبان: «وكانت صلاة الخوف فقهًا عظيمًا لكل جندي في الجيش ـ والمسلم عمومًا ـ على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها، ولا يمكن التنازل عنها ـ مهما كانت الظروف ـ، وكانت فقهًا عظيمًا كذلك قضية صلاة الجماعة وأهميتها، فيصلي كل فريق ركعة مع رسول الله ﷺ وركعة وحده، فينال شرف الاقتداء بالمصطفى ﷺ وينال الفريق الأول شرف افتتاح الصلاة مع رسول الله ﷺ في التكبير، وينال الفريق الثاني شرف اختتام الصلاة معه ﷺ في التسليم، وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد والدم في لحظة واحدة، ويتكون الجيل الرباني الذي لا ينسى ربه في أي لحظة من لحظات حياته، بل يكون أكثر ما يكون ذكرًا لله وهو يشتجر في رماحه مع العدو، وهذا الجيل هو الذي قال الله تعالى له عقب بدر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنفال].

وهو الذي قال له عقب أحد وعقب محنة الرجيع ومعونة: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ [النساء: ١٠١-١٠٢].

هذا الجيل الذي تربى من معين النبوة يقوم على صياغة رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم أشرف كتب الله اختارها لخلقه، فلم نجد لحظة واحدة أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد، لنرى الجيل النكد في حياتنا المعاصرة والذي يرى العبادة والصلاة والذكر خاصة بالدراويش وأهل الله كما يزعمون وكذبوا في ذلك». [**التربية القيادية للغضبان ٣/ ٣٠٣-٣٠٤**].

ويقول الشيخ أبو خوات: «ولنقف هنا بعض الوقت لنتساءل: ألهذا الحد يعنى النبي ﷺ بالصلاة؟ وإذا كانت الصلاة حين الخوف من وثوب العدو واجبة الأداء على هذه الصورة وبالوضع المستطاع الذي يشعر بأي وجه بمراقبة الله ورجاء رحمته وخوف عذابه، وبخاصة في المواقف التي لا بديل فيها عن طلب النصر، والنصر إنما يكون من الله: فما موقف المسلمين منها في وقت الدعة والأمن والهدوء؟

إنني أنظر من هذه الزاوية فآخذ العبرة وأتعلم الدروس، إن المسلمين أصبحوا في بعض المواقف يخشون أو يستحيون أن يقوموا للصلاة، أصبحت الصلاة في نظر بعضهم شيئًا لا ينبغي إعلانه ولا الحرص على فعله، مع إنها في حقيقة أمرها سهلة الأداء، مدعاة للطهارة والنظافة، وسيلة لذكر الله والقرب منه ومراقبته في كل عمل يقوم به المصلي بين الصلاتين مكفرة للذنوب التي لا يخلو منها هذه العصور إنسان، ولو نظرنا إلى فرضية الصلاة وعرفنا أنها وجبت ليلة الإسراء في أرفع مكان، وفلسفنا هذا المعنى إلى أنها الهدية التي رجع بها النبي ﷺ إلى المسلمين فكأن الله ـ وقد قرب محمدًا بجسده وروحه إلى أقدس مكان ـ أوجب الصلاة على أمته لتكون بديلًا عن الإسراء بها حيث يتم بواسطتها اللقاء الإلهي في اليوم خمس مرات.

وإنك تسأل من تخالطهم من الذين لا يبدو عليهم أداء الصلاة، فيقولون لك: إننا نصلي في البيت ويؤكدون لك أنهم لا ينامون حتى يؤدوا ما عليهم من صلاة، وتتعمق معهم فتجدهم بين حاج لبيت الله أكثر من مرة، وبين ناشئ في بيت رجل عالم، بل وبين متعلم في أحضان معاهد الدين، ونسي هؤلاء جميعًا قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾[النساء]، وقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾[الإسراء]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾[هود].

فماذا يضير هؤلاء جميعًا إذا خرجوا من بيوتهم متوضئين حراصًا على وضوئهم، حتى إذا أذن للظهر أدوا صلاته في دقائق على أي مكان طاهر في مجالات عملهم، ثم إذا عادوا إلى منازلهم واستراحوا قاموا للعصر وصلوه، وبوضوئه يصلون المغرب وقد يدركون العشاء، وبذلك يكونوا قدوة لمرؤوسيهم، ويكون لهم أجرهم وأجر من اقتدى بهم، فإن كثيرين من متوسطي الموظفين وصغارهم يخشون أو يستحيون أن يصلوا في حضرة رؤسائهم، فإذا صلى هؤلاء انحلت عقدة الخوف وخفت درجة الحياء مما لا حياء فيه، وقد يكون هؤلاء متوضئين ولا يصلون.

وقد حدث ذات مساء أن كنت أنا وبعض العلماء في نادي طلبة الجامعة نسمع محاضرة عن فلسطين، وبدأت المحاضرة قبيل المغرب واستمرت وكانت المعلومات القيمة التي نستمع إليها لا تسمح بأن نتركها

ونخرج للصلاة، ولكن فريضة المغرب تقف أمامنا وتُسائلنا عن ضياعها، وهنا طلبنا أنا وإخواني العلماء وَقْفَ المحاضرة لنؤدي الصلاة لأننا في حرج: لا نرضى أن نترك المحاضرة ولا أن نترك الصلاة، فأُوقفت المحاضرة خمس عشرة دقيقة، وليست هنا العبرة، ولكن العبرة أنني خرجت على النجيل أصلي بصف واحد من الناس، فما إن انتهيت من الصلاة والتفت ورائي حتى وجدت حوالي أربعين فردًا بينهم ست نساء اختمرن وصلين في آخر الصفوف...

وإذن كان هؤلاء كلهم متوضئين، وكانوا يخشون أو يستحيون، ولو أن الذين على رأس الحفل قاموا للصلاة لانحلت العقدة وخف الحياء.

ومن هذه الواقعة أرجو أن تُراعى أوقات الصلاة في مواعيد عقد الندوات والمحاضرات والاحتفالات، حتى يرتفع الحرج عن الحاضرين والحاضرات، وحتى يكون هذا تقليدًا تراعيه كل الجهات، وقد نفذ هذا فعلًا في جمعية الشبان المسلمين في ندوة الخميس الدينية التي تعقد كل خميس بين صلاتي المغرب والعشاء، واتبع ذلك في سائر الندوات والمحاضرات».

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٧٨-٨١].

ويقول د/ الزيد: «يتضح من صلاة الخوف في هذه الغزوة أهمية الصلاة وأنها لا تسقط بحال من الأحوال لا في السفر ولا في الحضر ولا في الأمن ولا في الخوف وذلك لعظم مكانتها وأهميتها في الإسلام». [فقه السيرة للزيد ٥٦٧].

٣ ـ أهمية صلاة الجماعة:

يقول د/ الزيد: «فمع شدة الخوف وملاقاة الأعداء يقيم المسلمون الصلاة جماعة مما يدلنا على أهمية الصلاة جماعة في المسجد الذي بُني لأجل إقامة الصلاة فيه». [فقه السيرة للزيد ٥٦٧].

٤ ـ الرباط في سبيل الله، وحراسة ثغور المسلمين عبادة عُظْمَى:

يقول د/ فيض الله: «أفصحت قصة عمار بن ياسر المهاجري، وعباد بن بشر الأنصاري رضي الله عنهما، اللذين أقامهما سيدنا رسول الله ﷺ حارسين ثغرًا من ثغور المسلمين، عن مبلغ امتثال السلف الصالح في خير القرون أمر الرسول القائد ﷺ، ومبلغ تصورهم الجهاد في يقينهم.

فليس الجهاد في الإسلام طاقه مادية، وقوة عسكرية، وتحركًا ماديًّا، ابتغاء النصر كيفما كان الأمر، كلا، إنه في الإسلام عبادة، يتطوع بها المسلم بدمه وماله، لنصرة دين الله، وترسيخ شرعه ونظامه في هذه الدنيا.

ليس القصد في الجهاد الانتصار ولا الغلبة والسيطرة على مناطق النفوذ، ولا بسط السلطان على أكبر مساحات من الخامات، كلا! القصد فيه مرضاة الله بنشر دينه وتطبيق شرعه: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**». [البخاري في العلم (١٢٣)، وفي الجهاد والسير (٢٨١٠)، وفي فرض الخمس (٣١٢٦)،

وفي التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، ومسند أحمد عن أبي موسى الأشعري ﵁ (١٨٩٩٩، ١٩٠٩٩، ١٩١٣٤، ١٩٢٤٠، ١٩٢٤١)].

ولما تمثل عَبَّادٌ ﵁ هذه الحقيقة، وعرف أنه وهو على الثغر، في مقام العبادة، شفع عبادته هذه بمناجاة الحق سبحانه، فقام يصلي، قام يتبتل، ويقرأ ويدعو، ويستغرق في عبوديته لرب العالمين... فلم يشعر وهو ممتزج ذائب في عبوديته، بوقع السهام في جسمه، الواحد تلو الآخر، وراح ينتزعها بغير مبالاة، كما لو كانت ذبابًا يُطَيِّرُه، أو غبارًا ينفضه.

ومن ثم لم تكن به حاجة إلى قطع الصلاة، أو قطع السورة التي كان يتلوها فيها، ولولا خوفه ـ أخيرًا ـ من فراغ الثغر إن سقط، واتساع الخطر على المسلمين المجاهدين الذين تولى حراستهمليناموا، لما قطع صلاته؛ ليسلِّم أخاه أمانة حفظ الثغر.

فاستمع إلى قوله: «**وأيم الله لولا أن أضيِّع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها**»، يعني صلاته.

أرأيت كيف تُنسِي حلاوة مناجاة الله تعالى، الآلام، وكيف تتكسر السهام في موقف امتثال أمر الله، وأمر رسول الله؟

كم كان عباد بن بشر ﵁ متلذذًا بموقف الحراسة، وشرف الرباط في الثغر، امتثالًا للأمر! أتشك في أنه كان يحفظ جيدًا قول النبي ﷺ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله**».

[الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٩)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي البَاب عَنْ عُثْمَانَ وَأَبِي رَيْحَانَةَ، وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ شُعَيْبِ بْنِ رُزَيْقٍ. وصححه الشيخ الألباني].

فلا تشك إذن في أنه كان يحفظ جيدًا قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَر].

حينما يرقى المسلمون في جهادهم إلى هذا المستوى، يصبحون جديرين بنصر الله، وإنجاز وعده.

والقوة المادية المجردة، لا غناء للإنسانية فيها، إن لم يصنعها الإيمان، ويفجرها اليقين، وتبثها إشعاعات من روح الله.

اللهم حبب إلينا الإيمان، وعرفنا بشرف الجهاد، وبصرنا به ابتغاء مرضاتك، وأحينا سعداء، وأمتنا شهداء، في سبيلك، يا رب العالمين! [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٨١-١٨٣].

ويقول د/ الغضبان: «هكذا يفقه الجيل المتوازن كيف يزجي فراغه ويملأ وقته، أما حراس جيلنا النكد فيأخذ السيجارة ليشعلها من عقب السيجارة الثانية، وينفث الدخان والسم، أو يجلسون معًا على ورق اللعب والنرد يقامرون بمالهم وأمتهم ومحرسهم، لكن جيل النبوة ينتظر لحظة يخلو فيها لنفسه، حتى يخلو بربه فهو في شوق لمناجاته.

إن عَبَّادًا ﷺ في عالم من الأُنس بالله يجعله ينسى أن سهمًا قد غرز في جلده وأسال دمه، وهو يريد أن ينزع هذا الشاغل الذي يشغله عن ربه، ويتابع حديثه بين يدي ربه ﷻ، وجاء السهم الثاني الذي يناسبه أن تند منه صرخة توقظ الجيش كله، وأن يُحمل من أقرانه ليُعالج مرضه، لكن صاحبنا في عالمه الرباني الحالم جاء ما يشجي حلمه، فرمى بسهمه الثاني وانتزعه والدم ينسكب غزيرًا منه، ودمعه ينسكب غزيرًا خشية لله ﷻ يتابع جلسته مع ربه وكتاب ربه ﷻ، وجاء السهم الثالث الذي قد يكون به أجله، ورمى بسهمه الثالث، لكن صحا وذكر أنه حارس على ثَغْرٍ من ثُغور المسلمين، وقد يُؤتى الثغر من قِبَله، ونزلت دمعات الحسرة والشجى في حلقه أن حيل بينه وبين متابعة السورة التي يناجي بها ربه، فقطعها وركع وسجد وأيقظ صاحبه عمار بن ياسر قائلًا له: اجلس فقد أتيت ـ أو قد أثبتُّ ـ أي أصابتني الجراحة، هذا القلب العامر بالإيمان كالجبال الرواسي، العامر بالشجاعة كالصخور الصم، لم يرتعب، ولم يرتعد، ولم يرتجف، بل كل ما حركه هو خوفه على ثغر المسلمين، أما جسده، وأما دمه، وأما روحه، فما له ولهم إن كان يناجي ربه.

ومهما حاولنا أن نصف تلك الحالة، فنحن أعجز عن وصفها، أمام وصفه العظيم الذي يقطع كل قول ويغني عن كل تعليق.

ونحن نقطع السور أحيانًا لطرق خفيف على الباب، أو لطارق يخطر على بالنا فننسى كل ما نقرأ، وصاحبنا حارس الثغر ﷺ تطرقه السهام الثلاثة، فتنغرز في جسده، وتخرج الدم الفوار منه فلا يستجيب لهذا الطارق، ولا يطرق قلبه لحظة خوف خاطفة وهو أنيس بربه ومناجاة ربه.

وبقي أن نعرف أن عباد بن بشر ﷺ هو أحد الأبطال الخمسة الذين ذَبحوا كعب بن الأشرف في عقر داره، وأن نعلم أنه قائد حرس المسلمين في المعارك الضخام وقائد خيالتهم، وأن نعلم أنه واحد من الكُمَّل الثلاثة من الأوس والذين قالت عائشة ﷺ فيهم: «ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلًا، كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر».

[سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٣٣٨، وقال المحقق فيه: «أخرجه الحاكم ٣/ ٢٢٩، ووافقه الذهبي، وذكره الحافظ في الإصابة ١/ ٧٦ عن ابن إسحاق، وقد صرح بالتحديث»]. [التربية القيادية للغضبان ٣/ ٣٠٥-٣٠٦].

تقسيم الحراسة: يقول د/ أبو فارس: «يلاحظ القارئ الكريم أن الرجلين الذين قد أُنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليل نصفين: نصفًا للراحة ونصفًا للحراسة، وهذا شيء جيد، إذ لابد من راحة جسم الجندي بعض الوقت، أما أن يسهر طول الليل فقد ينهكه السهر، ويغلبه النوم أثناء الحراسة، فتكون الغفلة من الحرس، وتكون الميلة من العدو.

لكن الذي نريد أن نقوله: كان الأولى بهذا الصحابي الجليل الذي انشغل بالصلاة عن الحراسة أن يحرس إخوانه ويؤجل قيامه، وفي اعتقادنا أن له أجرًا يفوق أجر صلاته، فأجر الجهاد في هذا الدين أجر القائم ليله الصائم نهاره، وكلنا يذكر حديث رسول الله ﷺ: «**عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[1]. [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٠-٣١**].

مكان الحراسة مكان إستراتيجي: يقول د/ أبو فارس: «اختار النبي ﷺ فم الشعب مكان إقامة الحرس، وكان هذا الاختيار في غاية التوفيق؛ لأنه المكان الذي يتوقع أن يأتي العدو منه لمهاجمة المعسكر.

قد يهتم بعض القادة العسكريين بالحراسة إلا أنه قد لا يوفق في اختيار مكان الحراسة فيؤتى الجيش من مكان لم يُعِر القائد له انتباهًا واهتمامًا». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣١**].

قرب مهجع الحراسة من الحارس: يقول د/ أبو فارس: «لقد كان مهجع الحرس قريبًا من الحارس، ومن ثم استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيدًا عن الحارس لما تمكن الحارس من إيقاظ أخيه، وبالتالي يحدث ما لا تحمد عقباه.

نعم إن مكان إقامة الحرس ينبغي أن يكون قريبًا من الحارس؛ لأن ذلك مهم جدًّا، إذ لو حزب شيء طارئ لا يستطيع الحارس بمفرده أن يدفعه أو يرده فينبغي عليه أن يوقظ الحرس أولًا ليهب للدفاع عنه وعن إخوانه، أما أن يكون الحارس في واد ومهجع الحراسة في واد آخر فهذا يجعل الاتصال صعبًا في الساعات الحرجة مما يلحق الضرر بالمسلمين». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٢**].

٥ ـ الحرص على قيام الليل:

يقول د/ الزيد: «فالصحابيان عمار بن ياسر وعَبَّاد بن بشر رضي الله عنهما لما كلفهما الرسول ﷺ بالحراسة اقتسما الليل نصفين أحدهما يصلي النصف الأول والآخر يصلي النصف الثاني. وهذا دأب الصالحين رضي الله عنهم، وهو المحافظة على هذا الوِرد الليلي». [**فقه السيرة للزيد ٥٦٨-٥٦٩**].

---

(١) قال د/ أبو فارس: رواه الترمذي سنن الترمذي مع عارضه الأحوذي ٧/ ١٣٨، وجاء في مختصر شرح الجامع الصغير ٢/ ١٢، الحديث الصحيح هذا، ولسنا مع الدكتور الفاضل محمد سعيد رمضان البوطي في تحسين موقف هذا الصحابي الذي انشغل بصلاته عن حراسته، واعتباره هذا الفعل أمرًا طبيعيًّا، مستحسنًا، فهو يقول في كتابه فقه السيرة، ص ٢٧٤ ـ كان من الطبيعي جدًّا بالنسبة لذلك الأنصاري عباد بن بشر رضي الله عنه، أن يشغل شطر حراسته من الليل بركعات خاشعة يقف فيها بين يدي ربه جل جلاله، وقد انصرفت مشاعره كلها إلى مناجاته بآيات من كتابه الكريم.

ويقول د/ الحميدي: «في الخبر الأخير مثل واضح على قوة الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى لدى الصحابة ﭫ، كما أنه يدل على عنايتهم بالصلاة، وأنها أغلى عندهم من أنفسهم وأموالهم، وهذه الصلاة التي عُمرت بالخشوع وكُلِّلَت بحضور القلب مع الله تعالى هي الصلاة المؤثرة، التي أنجبت أبطالًا عظماء كهؤلاء الصحابة الكرام، فعلى قدر ما يعطونه ربهم ﷻ في الليل من الخضوع والتذلل وتجريد القلب لعبادته يعطيهم بالنهار من القوة على مكابدة الأعداء ومواجهة الشدائد؛ ولذلك لا نجد في الأمر غرابة إذا وجدناهم ينامون قليلًا من الليل ويواجهون عدوهم مع انبلاج الفجر بعزام قوية وهمم عالية تفوق طاقة الكفار بأضعاف، مع أن أعداءهم قد أخذوا قسطًا أكبر بكثير من النوم والراحة، فهؤلاء الصحابة ﭫ كما جاء في وصفهم «**عُبَّاد في الليل فرسان في النهار**».

ونلاحظ في هذا الخبر أن عَبَّاد بن بشر ﭬ قد أغفل من حساب فكره النظر إلى مستقبل أولاده وأهله وأمواله فيما إذا أصيب واستشهد، وإنما كان يوازن النظر حينما رماه ذلك الرجل بين أمرين: أن يكمل السورة التي بدأها أو أن يقطعها ليوقظ أخاه عمارًا حتى لا يضيِّع المهمة الكبيرة التي أناطها به رسول الله ﷺ، وكلا الأمرين من أمور الآخرة، وبهذا نعلم أن الصحابة ﭫ لم يكونوا يحسبون للدنيا حسابًا في تفكيرهم، وإنما كان تفكيرهم منحصرًا في أعمال الآخرة.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن عباد بن بشر الأشهلي الأنصاري ﭬ لم يُستشهد في ذلك اليوم فقد بريء من جراحه، وإنما استشهد في معركة اليمامة ﭬ». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٩-٦٠**].

٦ ـ الحرص على الخشوع في الصلاة:

يقول د/ الزيد: «فهذا الصحابي الجليل ﭬ يصلي النافلة ـ وليس الفريضة ـ فيصاب بسهم فلا يفزع ولا يخاف، بل ينزع السهم ويمضي في صلاته، ثم يُصاب بالسهم الثاني وينزف الدماء وينزعه ويمضي في صلاته، ثم يُصاب بالسهم الثالث فأتم صلاته ولم يقطعها، ثم أيقظ صاحبه لا خوفًا من الرامي ولكن خوفًا على ثغر المسلمين، أين نحن من هؤلاء السلف الصالح ﭫ؟ الذين تعلقوا بالصلاة وعرفوا قدرها ووعوا مكانتها، فكانوا يرتاحون بها لا منها، وكانت قلوبهم ـ وهم في كل مكان ـ معلقة بالمساجد وبها، ونحن ندخل المسجد ونؤدي الصلاة وقلوبنا لا تدخل المسجد بل معلقة بالأسواق وأمور الدنيا وصخبها نسأل الله الرحمة». [**فقه السيرة للزيد ٥٦٩**].

٧ ـ معرفة طبيعة الجهاد الإسلامي:

يقول د/ البوطي: «لابد من أن يقف المسلم وقفة متأملة طويلة، أمام خبر ذينك الصحابيين، وهما يقومان على الثغر الذي أمرهما رسول الله ﷺ بحراسته؛ ليعلم طبيعة الجهاد الإسلامي، وكيف كان يمارسه أصحاب رسول الله ﷺ.

ولم يكن الجهاد عملًا حركيًّا يقوم على أساس المقاومة المادية المجردة، ولم يتصور واحد من المسلمين هذه الصورة الشوهاء له ولا في لحظة واحدة.

إنما الجهاد ـ كما علمه الرسول ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم وفهمه الصحابة منه ـ عبادة كبرى يتعلق فيها كيان المسلم كلُّه بخالقه جل جلاله خاشعًا مستغيثًا متبتلًا، وما ساعة يكون فيها المؤمن أقرب إلى ربه جل جلاله من تلك الساعة التي يستدبر فيها الدنيا ويستقبل بوجهه شطر الموت والاستشهاد.

ولذلك كان من الطبيعي جدًّا بالنسبة لذلك الأنصاري «عباد بن بشر» رضي الله عنه أن يَشغل شطر حراسته من الليل بركعات خاشعة يقف فيها بين يدي ربه عز وجل، وقد انصرفت مشاعره كلها إلى مناجاته بآيات من كتابه الكريم.

وكان من الطبيعي جدًّا أن لا يبالي بذلك السهم الذي أسرع فانحط في جسده، ولا بالسهم الثاني الذي تبعه؛ لأن بشريته كلها إنما كانت في تلك الساعة مطوية ضمن مشاعره المنصرفة إلى ربه جل جلاله، وقد غمرتها لذة المناجاة بين العبد وخالقه.

ولما ارتد شعوره إليه وأخذ يهتم بما قد أصابه، لم يكن ذلك لمزيد من الألم بدأ يشعر به، وإنما للمسؤولية المنوطة به مخافة أن يضيعها بضياع حياته واستمرار سكوته، فكان ذلك هو الذي اضطره إلى أن يلتفت فيوقظ صاحبه ليستلم منه أمانة الثغر الذي أنيط بهما حفظه. [**يقول د/ رزق الله: «لم يقطع عَبَّاد رضي الله عنه صلاته لألم يشعر به، وإنما قطعها استشعارًا بمسؤولية الحراسة التي كُلِّف بها، وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد عند سلفنا الصالح، ولا وجه للمقارنة بينه وبين ما عليه نحن الآن!!» السيرة النبوية لرزق الله ص ٤٢٨**].

وتأمل يا أخي المسلم في قوله رضي الله عنه: وأيم الله، لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقَطَع نفْسي قبل أن أقطعها أو أنفذها (أي السورة).

تلك هي طبيعة الجهاد الذي تكفل الله لأربابه بالنصر والفوز، مهما كانت القوة المتألبة عليهم المتجمعة من حولهم، فقارن ـ ليتقطع منك الكبد حسرة وأسى ـ بين ذلك الجهاد و «الجهاد» الآخر الذي نفخر باسمه وشعاراته اليوم.

قارن؛ لتقف على مدى عدالة الله في الأرض، ولتعلم أن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، ثم ارفع يديك إلى السماء متوسلًا أن لا يهلكنا الله بما فعل المبطلون، واجتهد أن تسكب قطرات حارة من دمع عينيك فيهما، فلعل في ذل العبودية إذ نتسربل به صادقين أمام الله، ما يرد عنا نقمة حقت علينا بتقصيرنا وما جنيناه من سيء الأعمال على نفوسنا». [**فقه السيرة للبوطي ٢١٣ – ٢١٤**].

٨ ـ فقه حديث عَبَّاد وعمَّار رضي الله عنهما:

قال الإمام السهيلي: «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ مِنْ الفِقْهِ صَلَاةُ المَجْرُوحِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا، كَمَا فَعَلَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ، وَقَدْ تَرْجَمَ بَعْضُ المُصَنِّفِينَ عَلَيْهِ لِمَوْضِعِ هَذَا الفِقْهِ، وَفِيهِ مُتَعَلَّقٌ لِمَنْ يَقُولُ: إنَّ غُسْلَ النَّجَاسَةِ، لَا يُعَدُّ فِي شُرُوطِ صِحَّةِ الصَّلَاةِ، وَفِيهِ مِنْ الفِقْهِ أَيْضًا تَعْظِيمُ حُرْمَةِ الصَّلَاةِ، وَأَنَّ لِلمُصَلِّي أَنْ يَتَمَادَى عَلَيْهَا، وَإِنْ جَرَّ إلَيْهِ ذَلِكَ القَتْلَ، وَتَفْوِيتُ النَّفْسِ، مَعَ أَنَّ التَّعَرُّضَ لِفَوَاتِ النَّفْسِ لَا يَحِلُّ إلَّا فِي حَالِ المُحَارَبَةِ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ: لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِهِ لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِذَهَا، يَعْنِي: السُّورَةَ الَّتِي كَانَ يَقْرَؤُهَا». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٢٥٧].

٩ ـ حسن التقاضي:

يقول د/ الزيد: «أيضًا من كريم أخلاقه ﷺ وحسن قضائه لجابر رضي الله عنه أنه عندما وصل إلى المدينة رد عليه جمله الذي اشتراه منه وأعطاه ثمنه وأرجح له في الثمن. اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي العظيم». [فقه السيرة للزيد ٥٧٠].

١٠ ـ من الفقه في حديث جابر رضي الله عنه:

١ـ في الحديث جواز المساومة لمن يعرض سلعته للبيع.

٢ ـ وفيه أن القبض ليس شرطًا في صحة البيع.

٣ ـ وجواز التحدث بالعمل الصالح للإتيان بالقصة على وجهها لا على وجه تزكية النفس، وإرادة الفخر.

٤ ـ وفيه تفقد الإمام والكبير لأصحابه وسؤاله عما ينزل بهم، وإعانتهم بما تيسر من حال أو مال أو دعاء.

٥ ـ وفيه جواز الضرب للدابة للمسير، وإن كانت غير مكلفة، إذا لم تكن قادرة.

٦ـ وفيه توقير التابع لرئيسه.

٧ ـ وفيه الوكالة في وفاء الدين، والشراء بالنسيئة.

٨ ـ وفيه جواز الزيادة على الثمن عند الأداء، والرجحان في الوزن لكن برضا المالك.

٩ ـ وفيه فضيلة لجابر رضي الله عنه حيث ترك حظ نفسه وامتثل أمر النبي ﷺ له ببيع جمله مع احتياجه إليه.

١٠ ـ وفيه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ. [صحيح السيرة للعلي ٣٧٤].

١١ ـ مُسَاوَمَةُ جَابِرٍ رضي الله عنه فِي جَمَلِهِ وَمَا فِيهِ مِنْ الفِقْهِ:

قال الإمام السهيلي: «وَذَكَرَ مُسَاوَمَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِجَابِرٍ رضي الله عنه فِي الجَمَلِ حَتَّى اشْتَرَاهُ مِنْهُ بِأُوقِيَّةٍ وَأَنَّهُ أَعْطَاهُ أَوَّلًا دِرْهَمًا، فَقَالَ: لَا، إذًا تَغْبِنُنِي يَا رَسُولَ اللهِ.

فَإِنْ كَانَ أَعْطَاهُ الدِّرْهَمَ مَازِحًا، فَقَدْ كَانَ يَمْزَحُ، وَلا يَقُولُ إِلا حَقًّا، فَإِذَا كَانَ حَقًّا، فَفِيهِ مِنْ الفِقْهِ إِبَاحَةُ المُكَايَسَةِ الشَّدِيدَةِ فِي البَيْعِ، وَأَنْ يُعْطِيَ فِي السِّلعَةِ مَا لا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ثَمَنًا لَهَا بِنَصِّ الحَدِيثِ.

وَفِي دَلِيلِهِ أَنَّ مَنْ اشْتَرَى سِلعَةً بِمَا لا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ثَمَنًا، وَهُوَ عَاقِلٌ بَصِيرٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِي البَيْعِ تَدْلِيسٌ عَلَيْهِ، فَهُوَ بَيْعٌ مَاضٍ لا رُجُوعَ فِيهِ.

وَرُوِيَ مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُ كُلَّمَا زَادَ لَهُ دِرْهَمًا: قَدْ أَخَذْتُهُ بِكَذَا وَاللهُ يَغْفِرُ لَك، فَكَأَنَّهُ ﷺ أَرَادَ بِإِعْطَائِهِ إِيَّاهُ دِرْهَمًا دِرْهَمًا أَنْ يُكْثِرَ اسْتِغْفَارَهُ لَهُ.

وَفِي جَمَلِ جَابِرٍ رضي الله عنه هَذَا أُمُورٌ مِنْ الفِقْهِ سِوَى مَا ذَكَرْنَا، وَذَلِكَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْ الفُقَهَاءِ احْتَجُّوا بِهِ فِي جَوَازِ بَيْعٍ وَشَرْطٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَرَطَ لَهُ ظَهْرَهُ إِلَى المَدِينَةِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لا يَجُوزُ بَيْعٌ وَشَرْطٌ، وَإِنْ وَقَعَ فَالشَّرْطُ بَاطِلٌ وَالبَيْعُ بَاطِلٌ، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ شُعَيْبٍ عَنْ جَدِّ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ شَرْطٍ وَبَيْعٍ، وَعَنْ بَيْعٍ وَسَلَفٍ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ هَذَا الحَدِيثَ، فَقَالَ: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو.

وَهَذِهِ رِوَايَةٌ مُسْتَغْرَبَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ جِدًّا؛ لِأَنَّ المَعْرُوفَ عِنْدَهُمْ أَنَّ شُعَيْبًا إِنَّمَا يَرْوِي عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللهِ لا عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّ أَبَاهُ مُحَمَّدًا مَاتَ قَبْلَ جَدِّهِ عَبْدِ اللهِ، فَقِفْ عَلَى هَذِهِ التَّنْبِيهَةِ فِي هَذَا الحَدِيثِ فَقَلَّ مَنْ تَنَبَّهَ إِلَيْهَا.

وَقَالُوا: لا حُجَّةَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه؛ لِمَا فِيهِ مِنْ الاضْطِرَابِ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: أَفْقَرَنِي ظَهْرَهُ إِلَى المَدِينَةِ، وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: اسْتَثْنَيْتُ ظَهْرَهُ إِلَى المَدِينَةِ، وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: شَرَطَ لِي ظَهْرَهُ، وَقَالَ البُخَارِيُّ: الاِشْتِرَاطُ أَكْثَرُ وَأَصَحُّ، وَكَذَلِكَ اضْطَرَبُوا فِي الثَّمَنِ، فَقَالُوا: بِعْته مِنْهُ بِأُوقِيَّةٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِأَرْبَعِ أَوَاقِيٍّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِخَمْسِ أَوَاقِيٍّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِخَمْسَةِ دَنَانِيرَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِأَرْبَعَةِ دَنَانِيرَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ فِي مَعْنَى الأُوقِيَّةِ، وَكُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ قَدْ ذَكَرَهَا البُخَارِيُّ، وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي بَعْضِ رِوَايَاتِهِ: دِينَارَيْنِ وَدِرْهَمَيْنِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ بِإِبْطَالِ الشَّرْطِ، وَجَوَازِ البَيْعِ، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيث بَرِيرَةَ حِينَ بَاعَهَا أَهْلُهَا مِنْ عَائِشَةَ، وَاشْتَرَطُوا الوَلاءَ، فَأَجَازَ النَّبِيُّ ﷺ البَيْعَ وَأَبْطَلَ الشَّرْطَ، وَاسْتَعْمَلَ مَالِكٌ هَذِهِ الأَحَادِيثَ أَجْمَعَ، فَقَالَ: بِإِبْطَالِ البَيْعِ وَالشَّرْطِ عَلَى صُورَةٍ، وَبِجَوَازِهِمَا عَلَى صُورَةٍ أُخْرَى، وَبِإِبْطَالِ الشَّرْطِ وَجَوَازِ البَيْعِ عَلَى صُورَةٍ أَيْضًا، وَذَلِكَ بَيِّنٌ فِي المَسَائِلِ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا، وَأَبْيَنُ مَا تُوجَدُ مُحْكَمَةَ الأُصُولِ مُسْتَثْمَرَةَ الجَنَا وَالفُصُولِ فِي كِتَابِ المُقَدِّمَاتِ لِابْنِ رُشْدٍ، فَلْيَنْظُرْهَا هُنَالِكَ مَنْ أَرَادَهَا». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٢٤٦-٢٤٨].

المطلب الرابع
الدروس العسكرية

١ ـ استرداد هيبة الجيش الإسلامي:

يقول الشيخ أبو زهرة: «كان الاتجاه في هذه الغزوة إلى بني محارب، وبني ثعلبة من غطفان وخرج رسول الله ﷺ في أربعمائة مقاتل.

وذلك لما كان من عامر بن الطفيل، وقَتْل أكثر من سبعين من القراء من المؤمنين خديعة وغدرًا؛ مما يدل على الاستهانة بالرسول ﷺ وجيشه بعد غزوة أُحد التي ادُّعي فيها بغير الحق هزيمة المؤمنين، وإشاعة ذلك في الصحراء ليستردوا هيبتهم، ويحرضوا العرب على محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين.

وكان لابد للنبي ﷺ من أن يعلن قوة الإيمان، وأن يقتص من الذين قتلوا الأبرار الأتقياء من أصحابه غدرًا وخيانة.

خرج إليهم رسول الله ﷺ في أربعمائة رجل كما ذكرنا، فوجد جمعًا عظيمًا من غطفان، فلما تراءى الجمعان تهيب كل صاحبه، ويقول ابن إسحاق: خاف الناس بعضهم بعضًا، ولم يكن قتال، فلم ينل محمد ﷺ منهم، ولم يقتص لأولئك الأبرار الذين قُتلوا خيانة وغدرًا.

ولكنهم إذا كانوا لم يقتصوا منهم لكثافة عددهم وكانوا عددًا كبيرًا وبُعد الشُّقَّة بين موضع القتال والمدينة، فإن النبي ﷺ قد أرهبهم، واسترد ما كان للجيش الإسلامي من هيبة، وذهبت صورة ما أنشأته قريش لنفسها.

وفوق ذلك، ارتاد البلاد العربية، وتعرف مداخلها، ثم أشار لقريش إلى أنه يرصدهم، كل مرصد، ويتتبع متاجرهم إن أراد، وما كان الدخول في معركة يشك في نتيجتها خيرًا من أن يصل إلى الأمور من غير حرب، وأما القصاص لأولئك الأبرياء الذين ذهبوا في غدر دنيء، وخفر للعهد لا يرضى عنه عربي، ولا يقبله من له مروءة، فإن أمر ذلك إلى الله، والمستقبل القريب، وإن ربك لبالمرصاد، وما كان النبي ﷺ لينتقم إذا استجابوا لله وآمنوا بما أنزل على الرسول». [**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٦٢-٧٦٣**].

٢ ـ أهمية معرفة الأعداء:

يقول أ/ فتح الباب: «كان النبي ﷺ يُعلِّم أصحابه أن الطريق إلى النصر الأخير طويل وشاق، فلا ينبغي للمسلمين أن يغفلوا عن أعدائهم، فما كان هؤلاء ليغفلوا عنهم، وليكن شعارهم دائمًا «**اعرف عدوك**»، فإن الوقوف على أخبار العدو وعملائه من أهم أسباب النصر في المعارك سواء أكانت حربية أم سياسية أم اقتصادية أم نفسية.

وتحقيق هذا الشعار يُعد سلاحًا ماضيًا من أسلحة المقاومة لا سبيل إلى التخلي عنه أو الإقلال من شأنه بأي حال من الأحوال، وخاصة أن المسلمين كانوا يواجهون أعداء كثيرين ذوي بأس وقوة وغلظة، لا يتورعون عن استخدام أحط الوسائل وأبشعها في سبيل القضاء على الإسلام، يظاهرهم في ذلك أشياع من المشركين والمنافقين، ويمدونهم بالعون والتأييد، ويتجسسون على المسلمين للتعرف على مراكز قوتهم، فكان السبيل الأمثل لإحباط مخططات قريش والقبائل الموالية لها والضرب على أيدي مدبريها هو المعرفة الواعية بها، وقطع الطريق على نوايا ومحاولات التربص بالمسلمين، وانتهاز الفرصة للإيقاع بهم، اعتمادًا على عنصر التآمر والاحتيال والتكتم وما إلى ذلك من أساليب التمويه.

وهذه المعرفة هي السلاح المضاد الذي يكفل عدم التردي في حبائل المكر والغدر، أما وسيلة الحصول على هذه المعرفة فهي الحيلة والذكاء والقدرة على سبر أغوار النفس البشرية، على أن دراسة المكان المناسب والوقت المناسب للمعركة لا يقل أهمية عن دراسة أحوال العدو وقدراته ومواطن قوته وضعفه وما يضمره من نوايا ويضعه من أهداف ويسلكه من سبل، أما مواطن قوته فالسبيل إلى دحرها هو معرفتها أولًا ثم مقاومتها بكافة الطرق ثانيًا، وأما مواطن ضعفه فالطريق إلى الاستفادة منها هو معرفتها أيضًا ثم البحث عن أنسب الوسائل للإكثار منها إضعافًا للعدو وتوهينًا من عزيمته».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١١٩-١٢٠].

٣ ـ أهمية سلاح الاستخبار:

يقول أ/ فتح الباب: «وكان الاستخبار هو وسيلة النبي ﷺ في معرفة اتجاهات العدو وتطلعاته وقدراته، فكان من الطبيعي أن يتخذ هذه الخطة بعد إجلائه يهود بني النضير في المدينة وانتصاره في بدر الصغرى أو الآخرة، وما أفاءه الله على المسلمين فيها من ربح في التجارة وكسر شوكة المنافقين وإحباط كيدهم، وعلم النبي ﷺ من رجال مخابراته أن جماعة من قبيلة غطفان بنجد هم بنو محارب وبنو ثعلبة قد أعدوا عدتهم لغزو المدينة، فاعتزم كعادته أن يباغتهم بالهجوم قبل أن يخرجوا إلى قتاله، وجهز جيشًا من أربعمائة من رجاله.

ونهض ﷺ حتى بلغ منازل بني ثعلبة بنجد وكانت على مسيرة يومين من المدينة في مكان يعرف بذات الرقاع وهو جبل فيه بقع حمرة وسواد وبياض قريب من النخيل بين السعد والشقرة، وفي رواية أخرى أن ذات الرقاع شجرة بهذا الاسم في ذلك الموقع، كما قيل: إنما سميت هذه الغزوة ذات الرقاع لأن أقدامهم رقت جلودها وقرحت من الحفاء فكانوا يلفون عليها الخرق، وقيل: بل لأنهم رقعوا راياتهم فيها». **[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٢٠-١٢١]**.

٤ ـ أهمية الضربة الأولى في المعركة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تبين لنا من الحملات العسكرية أن النبي ﷺ كان يحرص على أن يوجه الضربة الأولى لخصمه وعدوه العسكري؛ لما للضربة الأولى من أثر على معنويات المقاتَلين من الأعداء وإرباكهم، وإفقادهم توازنهم، وفي النهاية انهيار المقاومة عندهم وجعلهم يولون مدبرين لا يلوون على شيء.

وهذا ما حدث فعلًا في غزوة ذات الرقاع، وغزوة دومة الجندل، وغزوة بني المصطلق، إذ كانت الضربة الأولى قد كسرت شوكتهم، وقضت على حركتهم الفاعلة المؤثرة، فولوا مدبرين أمام الجيش الإسلامي، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم غنيمة سائغة للمسلمين.

ولقد أثبتت الحروب العسكرية قديمًا وحديثًا أثر الضربة الأولى على معنويات العدو.

ومما يؤسف له حقًّا أن عدونا في حروبه الحديثة معنا يستخدم الضربة الأولى معنا لعلمه بأثرها، فيفقد جيوشنا التوازن، ومن ثم تكون الهزيمة والاندحار والانهيار.

ويوم أن استعملنا الضربة الأولى ـ صوريًّا ـ مرة واحدة كان لها من الأثر ما كان على معنويات العدو وانهياره، إلا أنه قد خطط ألا نستفيد من ثمرة هذه الضربة، لسياسة مرسومة للمعركة ومحددة بحدود لا تتجاوزها.

وعلى أي حال فقد كان الجندي المقاتل الذي لم يعرف حقيقة المعركة حينذاك يتمتع بمعنويات عالية أذهلت العالم، في حين أن خصمه قد انهارت معنوياته وولى هاربًا». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٢٧-٢٨].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «لقد كان الرسول ﷺ في هذه الحملات العسكرية يحرص على مباغتة عدوه، حيث يشل تفكيره، وقدرته على القتال؛ لأنه لم يتوقع من أي جانب يُؤتى، وفي أي وقت يُضرب.

والمباغتة هذه تسمى في الحروب الحديثة المفاجأة، (وهي تعني الظهور أمام العدو في وقت لا يُقَدِّره وبصورة لا يتوقعها، وبأسلوب يجهله... وهي بهذه الصورة تؤدي إلى ارتباك خطير في صفوف العدو فوق أنها تثير الرعب بين جنوده، فيفقدون اتزانهم، وتهتز أعصابهم، بصورة تجعلهم غير قادرين على المواجهة والقتال، وهنا تحل بهم الهزيمة.

والقائد الذكي الماهر هو الذي يجتهد في أن يضع خصمه في الموضع الذي يصبح فيه مسلوب الإرادة، مقيد التفكير لا حول له ولا قوة، ضعيفًا لا يملك القدرة على المقاومة والتحمل، ويكون همه الأول هو وقاية نفسه.

والمباغتة قد تكون عددية أي أن يواجه العدو بقوات كبيرة العدد لم تكن في حسبانه، وقد تكون في وقت لا يتوقعه العدو، وقد تكون في جبهة لا يُقَدِّر العدو أهميتها، فتكون هي مقبرته، وقد تكون باستخدام أسلحة جديدة يجهلها العدو.

وتتم المباغتة إذا تحققت لها سهولة الحركة وسريتها وسرعتها). [المدرسة العسكرية الإسلامية لمحمد فرج ص٤١٠]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٢٨-٢٩].

ويقول د/ الحميدي: «في مبادرة النبي ﷺ إلى غزو قبيلة غطفان في مكان تجمعهم وعدم تأخير ذلك إلى أن يصلوا إلى المدينة، وقد سبق في سرية أبي سلمة ؓ بيان محاولة قبيلة غطفان الوصول إلى المدينة لغزو أهلها ونهب ما يستطيعون من خيراتها.

وقد كان في خروج النبي ﷺ إليهم في مكان تجمعهم أقوى رادع لهم عن التفكير مرة أخرى في غزو المدينة». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٨].

٥ ـ أعظم ما يكون النصر بقذف الرعب في قلوب الأعداء:

يقول د/ فيض الله: «عرَّفتنا هذه الغزوة ـ كما عرفتنا غزوة بني النضير من قبلها ـ أن الله تعالى، مكَّن لنبيه في الأرض، وأخذ أعداءه بالفزع، فكانوا يولُّون مدبرين، طالبين النجاة، تاركين وراءهم ما خوَّلوه، من مال وثراء، وريع وعقار، وذراري وحيوان.

ذلك أنهم نصروا الله، وبذلوا آخر ما في طوقهم، من قوة ومن رصيد، لم يَسْتَبْقُوا لأنفسهم عزيزًا ولا غاليًا، إلا وقدموه في سبيل الله.

ألم تر أنهم خرجوا مشاة، يتناوبون الجمل الواحد وهم سُداس، حتى نقبت أقدامهم، وسقطت أظافرهم، ولفوا الخرق على أقدامهم، وهذا قصارى جهدهم، كل ذلك فعلوه ابتغاء وجه الله، ولنصرة دينه، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[الحج: ٤٠].

غير أن النصر هنا ما كان بقعقعة السلاح، ولا مبارزة الشجعان، بل كان بأن ألقى الله الذعر في قلوب المشركين، فاعتصموا بشُعُب الجبال، متلَمِّسين النجاة.

وصدق قول النبي ﷺ في الصحيح: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**».

[البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، وفي الجهاد والسير (٢٩٧٧)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)، وفي لفظ لأحمد: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَيُرْعَبُ مِنِّي العَدُوُّ عَنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ» أحمد عن أبي ذر الغفاري ؓ (٢٠٧٩٢)، وفي لفظ لمسلم: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى العَدُوِّ» مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)].

وإنما يكون هذا النصر للذين يتولاهم الله من أنبيائه وأوليائه، والذين وَثَّقوا صِلاتهم بالله، فلم يجدوا لهم سندًا إلا الله، ولا مُتَّجَهًا إلا إليه، ولا نصيرًا سواه؛ فيكتب الله لهم الغلبة والعزة، بإرهاب عدوهم، فإذا رُهِبَ لم يستطع أن يتخذ إلى مقاومتهم سبيلًا، وذلك أعظم ما يكون النصر والغلب، فمع الخوف تسقط الحيل، وتحبط الخطط، ويتجمد الفكر، وينقطع العمل المنظم المجدي».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٧٤-١٧٥].

«كانت غزوة ذات الرقاع حافلةً بالمشاعر لا بالدماء، حافلةً بالمعجزات والكرامات، لم يكن فيها قتال، لكن ذلك المكان المسمى بـ(ذات الرقاع) كان ساحة للخوف والتوتر، أخاف الناس بعضهم بعضًا، ثم تفرقوا دون دماء، أخاف النبيُّ ﷺ أعداءه وكسب ثناء بعضهم، وحقَّق ﷺ بجيشه نصرًا معنويًّا له رصيده في النفوس». [السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٣١٤-٣١٥].

٦ ـ حب الجنود للقيادة النبوية:

يقول أ/ فتح الباب: «وفي تهيئة المسلمين سبل الراحة للنبي ﷺ بتركهم له الأشجار الظليلة يأوي إليها لتقيه حر الهجير في الصحراء دلالة عميقة على الحب المتبادل بين الجماعة وقائدها، حب يسري فيهم سري الروح في البدن.

كذلك فإن هَبَّة أصحابه ومبادرتهم إلى التصدي للأعرابي المعتدي ومنعه أن يرتكب جريمته المنكرة، والتفافهم حول رسول الله ﷺ يمثل هذا الموقف قيمة من أعظم القيم الإنسانية والأخلاقية وهي الوحدة، وحدة القائد والجنود في الحرب والسلم على السواء، فالكل للواحد والواحد للكل».
[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٢٣].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد كان صحابة رسول الله ﷺ جميعًا يحبونه ويؤثرونه على أنفسهم، فما ساروا في غزوة إلا قاتلوا دونه والتفوا حوله، وما وجدوا أمرًا يسر رسول الله ﷺ ويهيئ له الراحة إلا فعلوه، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حبهم إياه وإيثاره على أنفسهم.

ففي غزوة ذات الرقاع يقول جابر بن عبد الله بن حرام رضي الله عنهما: «إن الصحابة إذا أتوا على شجرة ظليلة تركوها للنبي ﷺ». [المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٤٦، وغزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٢].

٧ ـ الحرص على توفير الراحة التامة للقائد:

يقول د/ أبو فارس: «ويمكننا أن نستفيد من هذا درسًا آخر غير درس الحب للقائد ﷺ وهذا الدرس هو الحرص على توفير الراحة التامة للقائد حتى يكون قادرًا على التخطيط والمتابعة، ولابد للقيادة الناجحة من صفاء الذهن وسكون النفس واطمئنان القلب، وجسم مرتاح قادر على الحركة، يجب المحافظة على حياة القائد ما أمكن؛ لأن خسارة القائد في المعركة أفدح بكثير من أي خسارة أخرى، فقد يُعَوِّض فقدان جندي بجندي غيره بسهولة، وتعويض القائد في الساعات الحرجة بغيره أمر في غاية الصعوبة، إذ ليس من السهل إيجاد البديل الذي يستوعب خطة القتال في المعركة، وتحركات الجيش في جبهات القتال وأوضاع المقاتلين وأحوالهم وحاجاتهم وما يلبي هذه الحاجات.

وفي الوقت ذاته فإن فقدان القائد في هذه الظروف القتالية يؤثر تأثيرًا قويًّا وسلبيًّا على الروح المعنوية القتالية عند الجنود». [المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٤٦، وغزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٢-٣٣].

٨ ـ اهتمام القائد بأمن الجنود:

يقول د/ أبو فارس: «ظهر ذلك حينما قرر الرسول ﷺ أن ينام الجيش بواد قريب من المدينة بعد عودته من غزوة ذات الرقاع، إذ اختار رجلين من خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلًا.

إن كل قائد حَذِر ـ وفي مقدمتهم الرسول القائد ﷺ ـ يدرك أن الأعداء يراقبون تحركاته وسكناته، ويغتنمون فرصة يغفل فيها المسلمون فيميلون عليهم ميلة واحدة، هذا وغيره لم يغب عن ذهن رسول الله ﷺ لحظة واحدة، فأَخَذ بالأسباب». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٠**].

ويقول د/ الرشيد: «من واجبات القائد: أن يتخذ حرسًا على العسكر حتى لا ينتهز العدو فرصة فيبغتهم على حين غفلة منهم، وقد وردت أحاديث من السنة تدل على مشروعية هذا الواجب، وسوف أذكر حديثين منها في هذا المقام:

الحديث الأول: عَنْ مُصْعَبِ بْنِ ثَابِتٍ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِهِ: إِنِّي مُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ مَا كَانَ يَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ إِلَّا الضِّنُّ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَى أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا**». [**مسند أحمد ١/ ٤٨٨، ٥٠٩ عن عثمان بن عفان ﷺ (٤٣٣، ٤٦٣)، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن، وهذا إسناد ضعيف. وينظر من المسند رقم ٤٤٢، ٤٧٠، ٥٥٨ ففيه روايات حسنة بنفس المعنى**].

ففي هذا الحديث: بيَّن فضل الحراسة في سبيل الله ﷻ، وهذا دليل على مشروعيتها.

الحديث الثاني: عَنْ سَهْلِ ابْنِ الحَنْظَلِيَّةِ ﷺ أَنَّهُمْ سَارُوا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَأَطْنَبُوا (أطنب الرجل في عدوه إذا مضى فيه باجتهاد ومبالغة) السَّيْرَ حَتَّى كَانَتْ عَشِيَّةً، فَحَضَرْتُ الصَّلاَةَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَارِسٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَةِ آبَائِهِمْ بِظُعُنِهِمْ وَنَعَمِهِمْ وَشَائِهِمُ اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ: «**تِلكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ؟**»، قَالَ أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيُّ ﷺ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**فَارْكَبْ**»، فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ حَتَّى تَكُونَ فِي أَعْلاَهُ وَلاَ نُغَرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيْلَةَ ...**».

[**أبو داود في الجهاد (٢٥٠١)، وصححه الشيخ الألباني، والحاكم في المستدرك كتاب الجهاد (٢٤٣٣)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٤٩ كتاب السير (١٨٩٠٩)**].

فقد طلب النبي ﷺ من أحد الصحابة أن يتولى حراستهم في تلك الغزوة، وهذا دليل فعلي على مشروعية الحراسة في سبيل الله.

وقد ذكر الماوردي رحمه الله أن من واجبات أمير الجيش نحو جنده: (حراستهم من غِرَّة يظفر بها العدو منهم، وذلك بأن يتتبع المكامن ويحوط سوادهم بحرس يأمنون على نفوسهم ورجالهم ليسكنوا في وقت الدعة، ويأمنوا ما وراءهم في وقت المحاربة) [الأحكام السلطانية للماوردي، والأحكام السلطانية لأبي يعلى، وينظر: مختصر في سياسة الحروب للهرثمي ص ٣٢]». [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٥٦-٥٧].

٩ ـ تحقيق الحملة أغراضها:

يقول أ/ باشميل: «وهكذا انصرف النبي ﷺ من غزوة ذات الرقاع دون أن يلقى حربًا إلا أن حملته العسكرية هذه قد حققت أغراضها كاملة، وذلك أنه ﷺ بحركته العسكرية السريعة هذه قد تمكن من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة، فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درسًا بأن المسلمين ليسوا قادرين (فقط) على سحق من تحدثه نفسه بالاقتراب من المدينة، بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه في عقر داره.

وهذا هو الذي جعل قبائل نجد المشركة تتبخر من رؤوس زعمائها جميعًا فكرة غزو المسلمين في عقر دارهم فلم يجرؤوا على غزو المسلمين إلا عندما طلب منهم اليهود المشاركة (مع قريش) في غزوة الأحزاب.

وهكذا انصرف النبي ﷺ بجيشه من ديار غطفان وقد سجل نصرًا ساحقًا كان له أبلغ الأثر لا في نفوس قبائل غطفان وحدها بل في نفوس جميع القبائل النجدية التي كانت تطمع في المسلمين وتحدث نفسها بالإغارة عليهم متوهمة ضعفهم بعد الانتكاسة التي أصابتهم في معركة أُحُد.

والنصر الساحق هذا يتجسد في أن النبي ﷺ استطاع بحركته السريعة هذه إلى ديار نجد أن يرهب أعظم القبائل النجدية (غطفان) ويشتت جموعها العظيمة تلك التي ما كانت لتنفض حتى تغير على المدينة لولا أن الله تعالى ألهم الرسول القائد ﷺ المحنك فقام بتلك الحركة السريعة وباغت (كما هي عادته في تأديب الأعراب) تلك الجموع الغطفانية وهي لما تزل في ديارها». [غزوة الأحزاب لباشميل ٦٨-٦٩].

المطلب الخامس

الدروس الدعوية

١ ـ تحمل الصعاب في سبيل تبليغ رسالة الإسلام:

يقول د/ البوطي: «فيما رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري ﷺ في بيان سبب تسمية هذه الغزوة بهذا الاسم صورة واضحة عن مدى ما كان يتحمله أصحاب رسول الله ﷺ في تبليغ رسالة ربهم و الجهاد في سبيله، لقد أوضحت الصورة أنهم كانوا فقراء لا يجدون حتى الظهر الذي يمتطونه لجهادهم وغزواتهم، فالستة أو السبعة الذين كانوا يتعاقبون ركوب البعير الواحد في قطع مسافة بعيدة شاقة، ولكن الفقر مع ذلك لم يستطع أن يعيقهم عن أداء رسالتهم: رسالة الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، فقد تحملوا في سبيل ذلك كل النتائج وكل ألوان المحن، نقبت أقدامهم من طول سيرها على الوعثاء والقتاد، وتساقطت أظفارهم مما اصطدمت بالحجارة والصخور، وتعرَّت أقدامهم فلم يجدوا إلا الخِرَق يلفونها عليها الواحدة فوق الأخرى!

ومع ذلك فما ضعفوا وما استكانوا، واستهانوا بكل ذلك في جنب عظم المسؤولية الإلهية الملقاة على أعناقهم منذ أن أصبحوا مسلمين، فقد كانوا يتمثلون قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة].

وهو نص البيعة التي وقعوا عليها وأخذوا أنفسهم بها.

ثم إنك ترى أن أبا موسى الأشعري ﷺ كره من نفسه أنه أباح بهذا الخبر، بعد أن أفلت من فمه، عندما سألوه عن سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع، وإنما كره ذلك وندم عليه بسبب أنه أفشا شيئًا من عمله الذي احتسب أجره عند الله ﷻ.

وهذا يدل ـ كما يقول الإمام النووي ـ على أنه يستحب للمسلم أن يُخفي أعماله الصالحة وما قد يكابد من المشاق في سبيل الله وفي طاعته، وأن لا يتعمد إظهار شيء من ذلك إلا لمصلحة، مثل بيان حكم ذلك الشيء و التنبيه على الاقتداء به ونحو ذلك، وعلى مثل هذا يُحمل ما وجد للسلف من الإخبار ببعض أعمالهم». [فقه السيرة للبوطي ٢١١].

ويقول د/ أبو فارس: «تأمل معي قول أبي موسى الأشعري ﷺ في غزوة ذات الرقاع: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا، وَنَقِبَتْ قَدَمَايَ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، وَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الخِرَقَ».

وهكذا ينبغي أن يدرك الدعاة أن الطريق صعب ومفروش بالأشواك وفيه عقبات كأداء، وآلام وأحزان، وهو الطريق الوحيد الذي يؤدي بصاحبه إلى الجنة، قال رسول الله ﷺ: «**حُفَّتْ الجَنَّة بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتْ النَّار بِالشَّهَوَاتِ**» [رواه الإمام مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والدارمي وأحمد ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ١/ ٤٧٩]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٣].

٢ ـ لا شيء يثني عن الجهاد والدعوة إلى الله:

يقول د/ فيض الله: «قد ذهبنا في سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع، إلى ما ذهب إليه أهل الحديث وكثير من كتب السيرة النبوية، من أن الصحابة في هذه الغزوة مسَّهم شيء كثير من الضنك، وتعرضوا لألوان من الشدة، حتى نقبت أقدامهم، وسقطت أظافرهم، فأهووا على أرجلهم يلفونها بالخرق، يبقون عليها من وخز الأشواك، وقسوة الحجارة، وحر الرمال، فما كان لكل ستة منهم سوى بعير واحد، يتعاقبون ركوبه.

هكذا خرجوا للجهاد في سبيل الله، راضين ومصممين، لا يَشْكُون من فاقة، ولا يخشون من الحر، ولا من عناد الطبيعة، ولا من ضعف وسائلهم في مقاومتها، ولا يحسبون حسابًا لشيء حتى الموت، الذي استقلوه في ذات الله، وفيما عند الله، فباعوا أنفسهم، واشتراها الله منهم.

وحينما تقوى الروح المعنوية، تفتر جميع القوى، ويتهاوى كل شيء دونها: قوي إيمانهم، ورسخ يقينهم، واتصلوا بأعظم قوة في الوجود، قوة رب العالمين، فتضاءل الوجود أمامهم، فخَضُدَت الأشواك، وتكسرت الحجارة، وانطفأ لهيب الرمال، وتغلب الصحابة على هذه الظواهر المادية الطبيعية بأيسر الأسباب، فألقوا على أقدامهم الخرق، ولفوها بها.

يا الله! ما أعظم المقصد، وما أشرف الغاية، وما أعلى تلك النفوس، التي اكتسحت بالشدائد المتجمعة، وغالبت قوى الطبيعة، لتكفكف قوى الشر والكفر والعدوان، وتمهد لرسالة الله، وتنشر الحق، وتقيم العدل، وتضع منهاج الله في هذه الأرض.

في سبيل هذه الغاية العليا، تهون الصعاب، وتزول الشدائد، وتكتسح العقبات، وكذلك الإيمان العميق، يسخر كل شيء لخدمته، ويتلاشى كل شيء دونه». [صور وعبر لفيض الله ١٧٥-١٧٦].

الفصل الثالث

غزوة بدر الموعد، أو الآخرة، أو الثانية، أو الصغرى

الجمعة هلال ذي القعدة ٤ هـ/٤ أبريل (نيسان) ٦٢٥م / ٩ برمودة ٣٤١ قبطي

المبحث الأول

عرض غزوة بدر الموعد، أو الآخرة، أو الثانية، أو الصغرى

تاريخ الغزوة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَـمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المدِينَةَ مِنْ غَزْوَةِ الرِّقَاعِ أَقَامَ بِهَا بَقِيَّةَ جُمَادَى الأُولَى وَجُمَادَى الآخِرَةِ وَرَجَبًا، ثُمَّ خَرَجَ فِي شَعْبَانَ إِلَى بَدْرٍ، لِمِيعَادِ أَبِي سُفْيَانَ حَتَّى نَزَلَهُ.

وَقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَكَانَتْ لِهِلالِ ذِي القَعْدَةِ عَلَى رَأْسِ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا، وَغَابَ رَسُولُ الله ﷺ فِيهَا سِتَّ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ لأَرْبَعَ عَشْرَةَ بَقِيَتْ مِنْ ذِي القَعْدَةِ.

وتابعه على ذلك ابن سعد في الطبقات.

وقال الذهبي: «وكان موسم بدر يجتمع فيه العرب لهلال ذي القعدة إلى ثامنه».

[تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ٢٥١].

وقال الصالحي والمقريزي: «وكانت بدر الصفراء مجمعًا للعرب، وسوقًا تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان ليال خلون منه، فإذا مضت ثمان ليال تفرق الناس إلى بلادهم». **[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٧٨ وإمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ١٩٢-١٩٣، وينظر في أسواق العرب قبل الإسلام وبعده: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي ١/ ٢٦٦-٢٦٧، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - د/ جواد علي ٣/ ٩٢١].**

سبب الغزوة:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً أُخْرَى: أَخْبَرَنِي عِكْرِمَةُ، قَالَ: لَـمَّا انْصَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ وَالْمُشْرِكُونَ عَنْ أَحُدٍ، وَبَلَغُوا الرَّوْحَاءَ (تبعد عن المدينة جنوبًا حوالي أربعين ميلًا)، قَالُوا: **لَا مُحَمَّدًا قَتَلْتُمْ [قَتَلْتُمُوهُ]، وَلَا الْكواعِبَ** (جمع كاعب، وهي المرأة حين يبدو ثديها للنُّهود) **أَرْدَفْتُمْ** (أركبتم وراءكم على الإبل والمعنى أسرتم)، **شَرٌّ [وَبِئْسَ] مَا صَنَعْتُمْ [ارْجِعُوا]**، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَنَدَبَ (دعا) النَّاسَ فَانْتَدَبُوا (فخرجوا) حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الْأَسَدِ أَوْ بِئْرَ أَبِي عُيَيْنَةَ [عِنَبَةَ]، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾، وَقَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: **مَوْعِدُكَ مَوْسِمُ بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا**، فَأَمَّا الْجَبَانُ فَرَجَعَ، وَأَمَّا الشُّجَاعُ فَأَخَذَ أُهْبَةَ الْقِتَالِ وَالتِّجَارَةِ فَأَتَوْهُ، فَلَمْ يَجِدُوا بِهِ أَحَدًا وتَسَوَّقُوا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ

عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[آل عمران]. [مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦ كتاب المغازي والسير (١٠١١٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١١/ ٢٤٧ رقم ١١٦٣٢]، ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن منصور الجواز وهو ثقة. السنن الكبرى للنسائي في التفسير ١٠/ ٥٥ رقم ١١٠١٧. وقال السيوطي في لباب النقول ص ٦١: إن سنده صحيح، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٢٢٨: أخرجه النسائي وابن مردويه، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه عن ابن عباس، ومن الطريق المرسلة أخرجه ابن أبي حاتم وغيره. صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٣٧، ٢٤٥].

وروى الواقدي عن شيوخه: «قَالُوا: لَـمَّا أَرَادَ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ يَنْصَرِفَ يَوْمَ أُحُدٍ نَادَى: **مَوْعِدٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ بَدْرٌ الصَّفْرَاءُ رَأْسَ الحَوْلِ، نَلْتَقِي فِيهِ فَنَقْتَتِلُ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ: «**قُلْ: نَعَمْ إنْ شَاءَ اللهُ**»، وَيُقَالُ: قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَئِذٍ: **مَوْعِدُكُمْ بَدْرٌ الصَّفْرَاءُ بَعْدَ شَهْرَيْنِ**.

قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: وَالأَوَّلُ أَثْبَتُ عِنْدَنَا، فَافْتَرَقَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ وَرَجَعَتْ قُرَيْشٌ فَخَبَّرُوا مَنْ قِبَلَهُمْ بِالمَوْعِدِ، وَتَهَيَّؤُوا لِلخُرُوجِ وَأَجْلَبُوا (تجمعوا وتألبوا)، وَكَانَ هَذَا عِنْدَهُمْ أَعْظَمَ الأَيَّامِ؛ لأَنَّهُمْ رَجَعُوا مِنْ أُحُدٍ وَالدَّوْلَةُ لَهُمْ، طَمِعُوا في بَدْرِ المَوْعِدِ أَيْضًا بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الظَّفَرِ.

وَكَانَ بَدْرٌ الصَّفْرَاءُ مَجْمَعًا يَجْتَمِعُ فِيهِ العَرَبُ، وَسُوقًا تَقُومُ لِهِلالِ ذِي القَعْدَةِ إلَى ثَمانِ لَيَالٍ خَلَوْنَ مِنْهُ، فَإِذَا مَضَتْ ثَمانِي لَيَالٍ مِنْهُ تَفَرَّقَ النَّاسُ إلَى بِلادِهِمْ». [المغازي للواقدي ١/ ٣٨٤].

أبو سفيان يكره الخروج ويشن الحرب النفسية على المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «أما أبو سفيان فإنه لما كان هو الذي تحدى المسلمين وطلب منهم ـ تحت تأثير نشوة النصر المؤقت الذي أحرزه في أُحُد ـ الموافقة على ملاقاة جيش مكة في بدر، فقد وجد نفسه ـ بعد أن ذهبت عنه سكرة الانتصار المزيف ـ ملزمًا بأن يفي بوعده فيلاقي بجيش مكة جيش المدينة في بدر وفي الميعاد المحدد.

ولكنه كقائد مسؤول يقدر النتائج خشي ملاقاة المسلمين، وكان شديد الرغبة في ألا يحدث هذا اللقاء، غير أنه كان على يقين بأن القائد الأعلى للجيش الإسلامي النبي ﷺ لن يخلف الميعاد، وأنه لابد زاحف إلى منطقة بدر وفاء بالكلمة التي أعطاها.

ولذلك فإن أبا سفيان، وقبل أن يتحرك الجيش النبوي من المدينة، قام بمناورة قصد بها تخويف المسلمين لعلهم يعدلون عن الخروج إلى بدر فيحصل له ما أراد، دون أن يفهم العرب أنه نكل عن الحرب.

فقد أرسل إلى المدينة من يشيع بين المسلمين أن قريشًا قد خرجت إلى بدر بجيش لم تشهد الجزيرة العربية مثله في الضخامة والتنظيم، وذلك لتثبيط المسلمين وبث الرعب في نفوسهم».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٧٣-٧٤].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «فَلَمَّا دَنَا المَوْعِدُ كَرِهَ أَبُو سُفْيَانَ الخُرُوجَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَجَعَلَ يُحِبُّ أَنْ يُقِيمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِالمَدِينَةِ وَلا يُوَافِقُونَ المَوْعِدَ.

فَكَانَ كُلُّ مَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ مَكَّةَ يُرِيدُ المَدِينَةَ أَظْهَرَ لَهُ إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَغْزُوَ مُحَمَّدًا فِي جَمْعٍ كَثِيفٍ، فَيَقْدَمُ القَادِمُ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَرَاهُمْ عَلَى تَجَهُّزٍ فَيَقُولُ: تَرَكْتُ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ جَمَعَ الجُمُوعَ وَسَارَ فِي العَرَبِ لِيَسِيرَ إِلَيْكُمْ لِمَوْعِدِكُمْ، فَيَكْرَهُ ذَلِكَ المُسْلِمُونَ وَيَهِيبُهُمْ ذَلِكَ». [المغازي للواقدي ١/ ٣٨٤-٣٨٥].

أبو سفيان يستأجر نعيم بن مسعود للإرجاف:

وقد استأجر زعيم مكة أبو سفيان للقيام بهذه المهمة رجلًا اسمه نعيم بن مسعود، إذ جعل له أبو سفيان مكافأة عشرين بعيرًا إن هو قام بهذه المهمة.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «وَيَقْدَمُ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيُّ مَكَّةَ، فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ: يَا نُعَيْمُ، إِنِّي وَعَدْتُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ يَوْمَ أُحُدٍ أَنْ نَلْتَقِيَ نَحْنُ وَهُوَ بِبَدْرٍ الصَّفْرَاءِ عَلَى رَأْسِ الحَوْلِ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ، فَقَالَ نُعَيْمٌ: مَا أَقْدَمَنِي إِلَّا مَا رَأَيْتُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ يَصْنَعُونَ مِنْ إِعْدَادِ السِّلاحِ وَالكُرَاعِ، وَقَدْ تَجَلَّبَ إِلَيْهِ حُلَفَاءُ الأَوْسِ مِنْ بَلِيٍّ وَجُهَيْنَةَ وَغَيْرِهِمْ، فَتَرَكْتُ المَدِينَةَ أَمْسِ وَهِيَ كَالرُّمَّانَةِ.

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَحَقًّا مَا تَقُولُ؟ قَالَ: إِي وَاللهِ، فَجَزَوْا نُعَيْمًا خَيْرًا، وَوَصَلُوهُ وَأَعَانُوهُ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَسْمَعُكَ تَذْكُرُ مَا تَذْكُرُ مَا قَدْ أَعَدُّوا؟ وَهَذَا عَامُ جَدْبٍ ـ قَالَ نُعَيْمٌ: الأَرْضُ مِثْلُ ظَهْرِ التُّرْسِ لَيْسَ فِيهَا لِبَعِيرٍ شَيْءٌ ـ وَإِنَّمَا يُصْلِحُنَا عَامُ خِصْبٍ غَيْدَاقٍ (واسع مخصب)، تَرْعَى فِيهِ الظَّهْرُ وَالخَيْلُ، وَنَشْرَبُ اللَّبَنَ، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ يَخْرُجَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ، وَلا أَخْرُجُ فَيَجْتَرِؤُونَ عَلَيْنَا، وَيَكُونُ الخُلْفُ مِنْ قِبَلِهِمْ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَنَجْعَلُ لَكَ عِشْرِينَ فَرِيضَةً عَشْرًا جِذَاعًا (جمع الجذع، وهو من الإبل ما دخل في السنة الخامسة، ومن البقر والمعز ما دخل في السنة الثانية)، وَعَشْرًا حِقَاقًا (جمع الحقة، وهو من الإبل ما دخل في السنة الرابعة إلى آخرها؛ وسمي بذلك لأنه استحق الركوب)، وَتُوضَعُ لَكَ عَلَى يَدَيْ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَيَضْمَنُهَا لَكَ.

قَالَ نُعَيْمٌ: رَضِيتُ، وَكَانَ سُهَيْلٌ صَدِيقًا لِنُعَيْمٍ، فَجَاءَ سُهَيْلًا فَقَالَ: يَا أَبَا يَزِيدَ، تَضْمَنُ لِي عِشْرِينَ فَرِيضَةً عَلَى أَنْ أَقْدَمَ المَدِينَةَ فَأُخَذِّلَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي خَارِجٌ، فَخَرَجَ عَلَى بَعِيرٍ حَمَلُوهُ عَلَيْهِ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ فَقَدِمَ، وَقَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ مُعْتَمِرًا، فَوَجَدَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَجَهَّزُونَ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مِنْ أَيْنَ يَا نُعَيْمُ؟ قَالَ: خَرَجْتُ مُعْتَمِرًا إِلَى مَكَّةَ، فَقَالُوا: لَكَ عِلْمٌ بِأَبِي سُفْيَانَ؟ قَالَ: نَعَمْ، تَرَكْتُ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ جَمَعَ الجُمُوعَ، وَأَجْلَبَ مَعَهُ العَرَبَ، فَهُوَ جَاءَ فِيمَا لا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ، فَأَقِيمُوا وَلا تَخْرُجُوا، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَتَوْكُمْ فِي دَارِكُمْ وَقَرَارِكُمْ، فَلَنْ يَفْلِتَ مِنْكُمْ إِلَّا الشَّرِيدُ، وَقُتِلَتْ سَرَاتُكُمْ، وَأَصَابَ مُحَمَّدًا فِي نَفْسِهِ مَا أَصَابَهُ مِنَ الجِرَاحِ، فَتُرِيدُونَ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَيْهِمْ فَتَلْقَوْهُمْ فِي مَوْضِعٍ

مِنَ الأَرْضِ؟ بِئْسَ الرَّأْيُ رَأَيْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ - وَهُوَ مَوْسِمٌ يَجْتَمِعُ فِيهِ النَّاسُ - وَالله مَا أَرَى أَنْ يَفْلِتَ مِنْكُمْ أَحَدٌ، وَجَعَلَ يَطُوفُ بِهَذَا القَوْلِ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ؛ حَتَّى رَعَبَهُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْهِمْ الخُرُوجَ، حَتَّى نَطَقُوا بِتَصْدِيقِ قَوْلِ نُعَيْمٍ أَوْ مَنْ نَطَقَ مِنْهُمْ». [المغازي للواقدي ١/ ٣٨٥-٣٨٦].

تأثر المسلمين بالإرجاف:

ولقد قذفت إشاعة نعيم بن مسعود الرعب في قلوب المسلمين، حتى لم يبق لهم نية في الخروج. [السيرة الحلبية ٢/ ٥٨٠].

«وَاسْتَبْشَرَ بِذَلِكَ المُنَافِقُونَ وَاليَهُودُ، وَقَالُوا: **مُحَمَّدٌ لا يَفْلِتُ مِنْ هَذَا الجَمْعِ**، وَاحْتَمَلَ الشَّيْطَانُ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ النَّاسِ لِخَوْفِ المُسْلِمِينَ حَتَّى بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ ذَلِكَ، وَتَظَاهَرَتْ بِهِ الأَخْبَارُ عِنْدَهُ، حَتَّى خَافَ رَسُولُ الله ﷺ أَلا يَخْرُجَ مَعَهُ أَحَدٌ». [المغازي للواقدي ١/ ٣٨٦].

أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والثقة بوعد الله ﷻ:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «فَجَاءَهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ رضي الله عنه وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه وَقَدْ سَمِعَا مَا سَمِعَا، فَقَالا: **يَا رَسُولَ الله، إِنَّ اللهَ مُظْهِرٌ دِينَهُ وَمُعِزٌّ نَبِيَّهُ، وَقَدْ وَعَدْنَا القَوْمَ مَوْعِدًا، وَنَحْنُ لا نُحِبُّ أَنْ نَتَخَلَّفَ عَنْ القَوْمِ؛ فَيَرَوْنَ أَنَّ هَذَا جُبْنٌ مِنَّا عَنْهُمْ، فَسِرْ لِمَوْعِدِهِمْ، فَوَالله إِنَّ فِي ذَلِكَ لَخِيَرَةٌ.**

فَسُرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرُجَنَّ، وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِي أَحَدٌ**»، قَالَ: فَلَمَّا تَكَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ تَكَلَّمَ بِمَا بَصَّرَ اللهُ ﷻ المُسْلِمِينَ، وَأَذْهَبَ مَا كَانَ رَعَبَهُمْ الشَّيْطَانُ، وَخَرَجَ المُسْلِمُونَ بِتِجَارَاتٍ لَهُمْ إِلَى بَدْرٍ.

فَحُدِّثْتُ، عَنْ يَزِيدَ، عَنْ خَصِيفَةَ قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه يَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَقَدْ قُذِفَ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِنَا، فَمَا أَرَى أَحَدًا لَهُ نِيَّةٌ فِي الخُرُوجِ، حَتَّى أَنْهَجَ اللهُ تَعَالَى لِلمُسْلِمِينَ بَصَائِرَهُمْ، وَأَذْهَبَ عَنْهُمْ تَخْوِيفَ الشَّيْطَانِ، فَخَرَجُوا، فَلَقَدْ خَرَجْتُ بِبِضَاعَةٍ إِلَى مَوْسِمِ بَدْرٍ، فَرَبِحْت لِلدِّينَارِ دِينَارًا، فَرَجَعْنَا بِخَيْرٍ وَفَضْلٍ مِنْ رَبِّنَا». [المغازي للواقدي١/ ٣٨٦-٣٨٧].

اسْتِعْمَالُهُ ﷺ ابْنَ أُبَيٍّ أَوْ ابْنَ رَوَاحَةَ رضي الله عنهما عَلَى المدِينَةِ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَاسْتَعْمَلَ ﷺ عَلَى المدِينَةِ عَبْدَ الله بْنَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولَ الأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٩].

وَقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَاسْتَخْلَفَ عَلَى المَدِينَةِ ابْنَ رَوَاحَةَ رضي الله عنه. [المغازي للواقدي ١/ ٣٨٤].

خروج الجيش الإسلامي إلى بدر الموعد:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «فَسَارَ رَسُولُ الله ﷺ فِي المُسْلِمِينَ، وَخَرَجُوا بِبَضَائِعَ لَهُمْ وَنَفَقَاتٍ، فَانْتَهَوْا إِلَى بَدْرٍ لَيْلَةَ هِلالِ ذِي القَعْدَةِ، وَقَامَ السُّوقُ صَبِيحَةَ الهِلالِ، فَأَقَامُوا ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ وَالسُّوقُ قَائِمَةٌ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ خَرَجَ فِي أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَتْ الخَيْلُ عَشْرَةَ أَفْرَاسٍ: فَرَسٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَفَرَسٌ لأَبِي بَكْرٍ، وَفَرَسٌ لِعُمَرَ، وَفَرَسٌ لأَبِي قَتَادَةَ، وَفَرَسٌ لِسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، وَفَرَسٌ لِلمِقْدَادِ، وَفَرَسٌ لِلحُبَابِ، وَفَرَسٌ لِلزُّبَيْرِ، وَفَرَسٌ لِعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ رضي الله عنهم.

فَحَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ المِقْدَادُ رضي الله عنه: شَهِدْتُ بَدْرَ المَوْعِدَ عَلَى فَرَسِي سُبْحَةَ (اسم الفرس، وجاءت بفتح السين) أَرْكَبُ ظَهْرَهَا ذَاهِبًا وَرَاجِعًا، فَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا». [المغازي للواقدي ١/ ٣٨٧].

علي رضي الله عنه يحمل لواء المسلمين:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «وَكَانَ يَحْمِلُ لِوَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الأَعْظَمَ يَوْمَئِذٍ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه».

[المغازي للواقدي ١/ ٣٨٧].

رُجُوعُ أَبِي سُفْيَانَ فِي رِجَالِه:

«ثُمَّ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَالَ: **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، قَدْ بَعَثْنَا نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ لأَنْ يَخْذُلَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ عَنْ الخُرُوجِ وَهُوَ جَاهِدٌ، وَلَكِنْ نَخْرُجُ نَحْنُ فَنَسِيرُ لَيْلَةً، أَوْ لَيْلَتَيْنِ، ثُمَّ نَرْجِعُ، فَإِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ لَمْ يَخْرُجْ بَلَغَهُ أَنَّا خَرَجْنَا، فَرَجَعْنَا؛ لأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ، فَيَكُونُ هَذَا لَنَا عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ أَظْهَرْنَا أَنَّ هَذَا عَامُ جَدْبٍ، وَلا يُصْلِحُنَا إِلَّا عَامُ عُشْبٍ**، قَالُوا: **نِعْمَ مَا رَأَيْتَ**.

فَخَرَجَ فِي قُرَيْشٍ، وَهُمْ أَلْفَانِ وَمَعَهُمْ خَمْسُونَ فَرَسًا، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَجَنَّةَ (موضع على أميال يسيرة من مكة بناحية مر الظهران) مِنْ نَاحِيَةِ الظَّهْرَانِ؛ وَبَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ قَدْ بَلَغَ عُسْفَانَ، ثُمَّ بَدَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَقَالَ، **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، ارْجِعُوا، لا يُصْلِحُنَا إِلَّا عَامُ خِصْبٍ غَيْدَاقٍ، نَرْعَى فِيهِ الشَّجَرَ، وَنَشْرَبُ فِيهِ اللَّبَنَ، وَإِنَّ عَامَكُمْ هَذَا عَامُ جَدْبٍ، وَإِنِّي رَاجِعٌ فَارْجِعُوا**، فَرَجَعَ النَّاسُ، فَسَمَّى أَهْلُ مَكَّةَ ذَلِكَ الجَيْشَ جَيْشَ السَّوِيقِ(١)، يَقُولُونَ: خَرَجُوا يَشْرَبُونَ السَّوِيقَ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٩-٢١٠، المغازي للواقدي ١/ ٣٨٧-٣٨٨].

الرَّسُولُ ﷺ وَمَخْشِيٌّ الضَّمْرِيُّ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَأَقَامَ عَلَيْهِ ثَمَانِي لَيَالٍ يَنْتَظِرُ أَبَا سُفْيَانَ.

وَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَدْرٍ يَنْتَظِرُ أَبَا سُفْيَانَ لِمِيعَادِهِ فَأَتَاهُ مَخْشِيُّ بْنُ عَمْرٍو الضَّمْرِيُّ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ وَادَعَهُ عَلَى بَنِي ضَمْرَةَ فِي غَزْوَةِ وَدَّانَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَجِئْتَ لِلِقَاءِ قُرَيْشٍ عَلَى هَذَا المَاءِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ يَا أَخَا بَنِي ضَمْرَةَ، وَإِنْ شِئْتَ مَعَ ذَلِكَ رَدَدْنَا إِلَيْكَ مَا كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، ثُمَّ جَالَدْنَاكَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ**»، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا مُحَمَّدُ، مَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْكَ مِنْ حَاجَةٍ». [السيرة لابن هشام ٢/ ٢١٠].

---

(١) **السويق**: أن تمحص الحنطة أو الشعير أو نحو ذلك، ثم تُطحن، ثم يُسافَر بها، وقد تُمزج باللبن والعسل والسمن وتُلَتُّ، فإن لم يكن شيء من ذلك مُزجت بالماء.

وَقَالَ الوَاقِدِيُّ: «وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي ضَمْرَةَ، يُقَالُ لَهُ: مَخْشِيُّ بْنُ عَمْرٍو، وَهُوَ الَّذِي حَالَفَ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى قَوْمِهِ فِي غَزْوَةِ رَسُولِ الله ﷺ الأُولَى إِلَى وَدَّانَ، فَقَالَ - وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ فِي سُوقِهِمْ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ أَكْثَرُ أَهْلِ ذَلِكَ المَوْسِمِ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ لَقَدْ أُخْبِرْنَا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْكُمْ أَحَدٌ، فَمَا أَعْلَمُكُمْ إِلَّا أَهْلَ المَوْسِمِ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِيَرْفَعَ ذَلِكَ إِلَى عَدُوِّهِ مِنْ قُرَيْشٍ: **«مَا أَخْرَجَنَا إِلَّا مَوْعِدُ أَبِي سُفْيَانَ، وَقِتَالُ عَدُوِّنَا، وَإِنْ شِئْتَ مَعَ ذَلِكَ نَبَذْنَا إِلَيْكَ، وَإِلَى قَوْمِكَ العَهْدَ، ثُمَّ جَالَدْنَاكُمْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَحَ مِنْ مَنْزِلِنَا هَذَا»**، فَقَالَ الضَّمْرِيُّ: بَلْ نَكُفُّ أَيْدِيَنَا عَنْكُمْ وَنَتَمَسَّكُ بِحِلْفِكَ». [المغازي للواقدي ١/ ٣٨٨].

إخبار مَعْبَدُ بْنُ أَبِي مَعْبَدٍ الخُزَاعِيُّ لقريش بما رأى وسمع:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: «وَسَمِعَ بِذَلِكَ مَعْبَدُ بْنُ أَبِي مَعْبَدٍ الخُزَاعِيُّ فَانْطَلَقَ سَرِيعًا، وَكَانَ مُقِيمًا ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، وَقَدْ رَأَى أَهْلَ المَوْسِمِ، وَرَأَى أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ، وَسَمِعَ كَلامَ مَخْشِيٍّ، فَانْطَلَقَ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَدِمَ بِخَبَرِ مَوْسِمِ بَدْرٍ، فَسَأَلُوهُ فَأَخْبَرَهُمْ بِكَثْرَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ ذَلِكَ المَوْسِمِ، وَمَا سَمِعَ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ لِلضَّمْرِيِّ، وَقَالَ: وَافَى مُحَمَّدٌ فِي أَلْفَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَقَامُوا ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حَتَّى تَصَدَّعَ أَهْلُ المَوْسِمِ، فَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ لأَبِي سُفْيَانَ: قَدْ وَالله نَهَيْتُكَ يَوْمَئِذٍ أَنْ تَعِدَ القَوْمَ، وَقَدْ اجْتَرَؤُوا عَلَيْنَا، وَرَأَوْا أَنْ قَدْ أَخْلَفْنَاهُمْ، وَإِنَّمَا خَلَّفَنَا الضَّعْفُ عَنْهُمْ، فَأَخَذُوا فِي الكَيْدِ وَالنَّفَقَةِ فِي قِتَالِ رَسُولِ الله ﷺ، وَاسْتَجْلَبُوا مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ العَرَبِ، وَجَمَعُوا الأَمْوَالَ العِظَامَ وَضَرَبُوا البَعْثَ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَلَمْ يُتْرَكْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بِمَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ، فَلَمْ يُقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَقَلَّ مِنْ أُوقِيَّةٍ لِغَزْوَةِ الخَنْدَقِ».

[المغازي للواقدي ١/ ٣٨٨-٣٨٩].

ما قيل من الشعر في غزوة بدر الموعد:

مَعْبَدٌ وَشِعْرُهُ فِي نَاقَةِ لِلرَّسُولِ ﷺ هوَتْ: فَأَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ يَنْتَظِرُ أَبَا سُفْيَانَ فَمَرَّ بِهِ مَعْبَدُ بْنُ أَبِي مَعْبَدٍ الخُزَاعِيُّ، فَقَالَ - وَقَدْ رَأَى مَكَانَ رَسُولِ الله ﷺ وَنَاقَتُهُ تَهْوِي بِهِ -:

قَدْ نَفَرَتْ مِنْ رُفْقَتَيْ مُحَمَّدِ ... وَعَجْوَةٍ مِنْ يَثْرِبَ كالعَنْجَدِ (١)

تَهْوَى عَلَى دِينِ أَبِيهَا الأَتْلَدِ ... قَدْ جَعَلَتْ مَاءَ قُدَيْدٍ مَوْعِدِي (٢)

وَمَاءَ ضَجْنَانَ (٣) لَهَا ضُحَى الغَدِ

---

(١) **العنجد**: حب الزبيب، ويُقال: هو الزبيب الأسود.

(٢) **الدِّين**: الدأب والعادة. **الأتلد**: الأقدم. **قديد**: موضع قرب مكة.

(٣) **ضَجْنَان**: اسم جبل بناحية تهامة، قال الواقدي: بين ضجنان ومكة خمسة وعشرون ميلًا... ولضجنان حديث في حديث الإسراء، حيث قالت له قريش: ما آية صدقك؟ قال: لما أقبلت راجعًا حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير فلان، ==

شِعْرٌ لابْنِ رَوَاحَةَ أَوْ كَعْبٍ رضي الله عنهما فِي بَدْرٍ: وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه فِي ذَلِكَ:
قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَنْشَدَنِيهَا أَبُو زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه:

وَعَدْنَا أَبَا سُفْيَانَ بَدْرًا فَلَمْ نَجِدْ ... لِمِيعَادِهِ صِدْقًا وَمَا كَانَ وَافِيَا
فَأُقْسِمُ لَوْ وَافَيْتَنَا فَلَقِيتَنَا ... لَأُبْتَ ذَمِيمًا وَافْتَقَدْتَ المَوَالِيَا (١)
تَرَكْنَا بِهِ أَوْصَالَ عُتْبَةَ وَابْنَهُ ... وَعَمْرًا أَبَا جَهْلٍ تَرَكْنَاهُ ثَاوِيَا (٢)
عَصَيْتُمْ رَسُولَ الله أُفٍّ لِدِينِكُمْ ... وَأَمْرِكُمْ السَّيْءِ الَّذِي كَانَ غَاوِيَا (٣)
فَإِنِّي وَإِنْ عَنَّفْتُمُونِي لَقَائِلٌ ... فِدًى لِرَسُولِ الله أَهْلِي وَمَالِيَا (٤)
أَطَعْنَاهُ لَمْ نَعْدِلْهُ فِينَا بِغَيْرِهِ ... شِهَابًا لَنَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِيَا (٥)

شِعْرُ حَسَّانَ رضي الله عنه فِي بَدْرٍ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه فِي ذَلِكَ:

دَعُوا فَلَجَاتِ الشَّامِ قَدْ حَالَ دُونَهَا ... جِلَادٌ كَأَفْوَاهِ المَخَاضِ الأَوَارِكِ (٦)
بِأَيْدِي رِجَالٍ هَاجَرُوا نَحْوَ رَبِّهِمْ ... وَأَنْصَارِهِ حَقًّا وَأَيْدِي المَلَائِكِ
إِذَا سَلَكْتَ لِلغَوْرِ مِنْ بَطْنِ عَالِجٍ ... فَقُولَا لَهَا لَيْسَ الطَّرِيقُ هُنَالِكِ (٧)
أَقَمْنَا عَلَى الرَّسِّ النَّزُوعِ ثَمَانِيًا ... بِأَرْعَنَ جَرَّارٍ عَرِيضِ المَبَارِكِ (٨)
بِكُلِّ كُمَيْتٍ جَوْزُهُ نِصْفُ خَلْقِهِ ... وَقُبٍّ طِوَالٍ مُشْرِفَاتِ الحَوَارِكِ (٩)

= فوجدت القوم ولهم إناء فيه ماء فشربت ما فيه... وذكر القصة. معجم البلدان ٣/ ٤٥٣، وتعرف اليوم بحرة المحسنية. معجم المعالم الجغرافية ص ١٨٣.

(١) **افتقدت**: فقدت. **الموالي**: القرابة.

(٢) **ثاويًا**: مقيمًا.

(٣) **السيء** (بالتخفيف): السيء (بالتشديد).

(٤) **عنفتموني**: لمتموني.

(٥) **لم نعدله**: لم نر معه غيره.

(٦) **الفلجات**: جمع فلج، وهو الماء الجاري: سمي فلجًا لأنه فدخ في الأرض، وفرق بين جانبيه. **المخاض**: الحوامل من الإبل. **الأوارك**: التي ترعى الأراك، هو شجر.

(٧) **الغور**: المنخفض من الأرض. **عالج**: مكان فيه رمل كثير.

(٨) **الرس**: البئر. **النزوع**: التي يخرج ماؤها بالأيدي. **الأرعن**: الجيش الكبير الذي له أتباع وفضول.

(٩) **الكميت**: الفرس. **جوزه**: وسطه، ويريد بطنه. **قب**: جمع أقب: وهو الضامر. **الحوارك**: جمع حارك، وهو أعلى الكتفين من الفرس.

تَرَى العَرْفَجَ العَامِيَّ تَذْرِي أُصُولَهُ ... مَنَاسِمُ أَخْفَافِ المطِيِّ الرَّوَاتِكِ (١)

فَإِنْ نَلْقَ فِي تَطْوَافِنَا وَالتِمَاسِنَا ... فُرَاتَ بْنَ حَيَّانٍ يَكُنْ رَهْنَ هَالِكِ

وَإِنْ تَلْقَ قَيْسَ بْنَ امْرِئِ القَيْسِ بَعْدَهُ ... يُزَدْ فِي سَوَادٍ لَوْنُهُ لَوْنُ حَالِكِ (٢)

فَأَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي رِسَالَةً ... فَإِنَّكَ مِنْ غُرِّ الرِّجَالِ الصَّعَالِكِ(٣)

شِعْرُ أَبِي سُفْيَانَ فِي الرَّدِّ عَلَى حَسَّانٍ ﷺ:

فَأَجَابَهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ، فَقَالَ:

أَحَسَّانُ إِنَّا يَا ابْنَ آكِلَةِ الفَغَا ... وَجَدِّكَ نَغْتَالُ الخُرُوقَ كَذَلِكِ (٤)

خَرَجْنَا وَمَا تَنْجُو اليَعَافِيرُ بَيْنَنَا ... وَلَوْ وَأَلَتْ مِنَّا بِشَدٍّ مُدَارِكِ (٥)

إِذَا مَا انْبَعَثْنَا مِنْ مُنَاخٍ حَسِبْتَهُ ... مُدَمَّنَ أَهْلِ الموْسِمِ المتَعَارِكِ (٦)

أَقَمْتَ عَلَى الرَّسِّ النَّزُوعِ تُرِيدُنَا ... وَتَتْرُكُنَا فِي النَّخْلِ عِنْدَ المدَارِكِ (٧)

عَلَى الزَّرْعِ تَمْشِي خَيْلُنَا وَرِكَابُنَا ... فَمَا وَطِئَتْ أَلْصَقْنَهُ بِالدَّكَادِكِ (٨)

أَقَمْنَا ثَلَاثًا بَيْنَ سَلْعٍ وَفَارِعٍ ... بِجُرْدِ الجِيَادِ وَالمطِيِّ الرَّوَاتِكِ (٩)

---

(١) **العرفج**: نبات. **العامي**: الذي أتى عليه العام. **تذري أصوله**: تعقلها وتطرحها. **مناسم**: جمع منسم، وهو طرف خف البعير. **الرواتك**: المسرعة.

(٢) **الحالك**: الشديد السواد.

(٣) **الغر**: البيض. **الصعالك**: جمع: صعلوك، وأصله الصعاليك، حذفت ياؤه لإقامة الوزن وهو الفقير الذي لا مال له.

(٤) **الفغا**: التمر، وقيل: هو غبرة تعلو التمر قبل أن يطيب. قال أبو ذر: يريد أنهم أهل نخيل وتمر. **تغتال**: تقطع. **الخروق**: جمع خرق، وهو الفلاوة الواسعة.

(٥) **اليعافير**: جمع يعفور، وهو ولد الظبية، يريد أنهم لكثرتهم لا تنجو معهم الظباء. **وألت**: اعتصمت ولجأت، يقال: وألت إلى الجبل، أي اعتصمت به، ومنه: الموئل، وهو الملجأ. **الشد**: الجري. **المدارك**: المتتابع.

(٦) **المدمن**: الموضع الذي ينزلون فيه فيتركون به الدمن، أي آثار الدواب والإبل، وأرواثها وبعارها. **أهل الموسم**: أي جماعة الحجاج، وكل مكان كانت العرب تجتمع فيه فهو موسم، إذا كان ذلك عادة منهم في ذلك المكان، كسوق عكاظ وذي المجاز وأشباهها. **المتعارك**: الذي يزدحم فيه الناس.

(٧) **الرس النزوع**: البئر التي تنزع ماؤها بالأيدي، **المدارك**: المواضع القريبة. ويروى: «المبارك».

(٨) **الدكادك**: جمع دكدك، وهو الرمل اللين.

(٩) **سلع وفارع**: جبلان. **الرواتك**: المسرعة.

حَسِبْتُمْ جِلَادَ القَوْمِ عِنْدَ قِبَابِهِمْ   كَمَأْخَذِكُمْ بِالعَيْنِ أَرْطَالَ آنُكِ [(١)]

فَلَا تَبْعَثْ الخَيْلَ الجِيَادَ وَقُلْ لَهَا   عَلَى نَحْوِ قَوْلِ المعْصِمِ المتَمَاسِكِ [(٢)]

سَعِدْتُمْ بِهَا وَغَيْرُكُمْ كَانَ أَهْلَهَا   فَوَارِسُ مِنْ أَبْنَاءِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ

فَإِنَّكَ لَا فِي هِجْرَةٍ إنْ ذَكَرْتَهَا   وَلَا حُرُمَاتِ الدِّينِ أَنْتَ بِنَاسِكِ [(٣)]

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٦١٠+٦٥٢.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٣٨٦-٣٨٩، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٢٠٩-٢١٣، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ١/ ٣٨٤-٣٩١، الطبقات الكبير لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٥٥-٥٧، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٥٩-٥٦١، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٣/ ٣٨٤-٤٨٨، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ١٥٥-١٥٧، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٢٤٩-٢٥١، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٥٥، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٥/ ٥٧٣-٥٧٨، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ١٩٢-١٩٥، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٤/ ٤٧٨-٤٨٣، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٢/ ٥٧٩-٥٨١.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٠١- ٤٠٢، صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٤٥، السيرة النبوية لرزق الله ٤٢٣، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٢٥.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: غزوة الأحزاب لباشميل ٧٢-٧٩، غزوة الخندق لأبي خليل ٥٥-٦٠، مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٣-٣٤.

---

(١) قال أبو ذر: «العين» (هنا): المال الحاضر. والعين (أيضًا): الدرر، وكلاهما يصلح هاهنا، ومن رواه «بالعير»، فالعير: الرفقة من الإبل. **الآنك**: القزدير.

(٢) **المعصم**: المستمسك بالشيء.

(٣) الناسك: المتتبع لمعالم دينه وشرائعه.

خرائط غزوة بدر الموعد، أو الآخرة، أو الثانية، أو الصغرى

(١)

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ص ١٣١.

(٢)

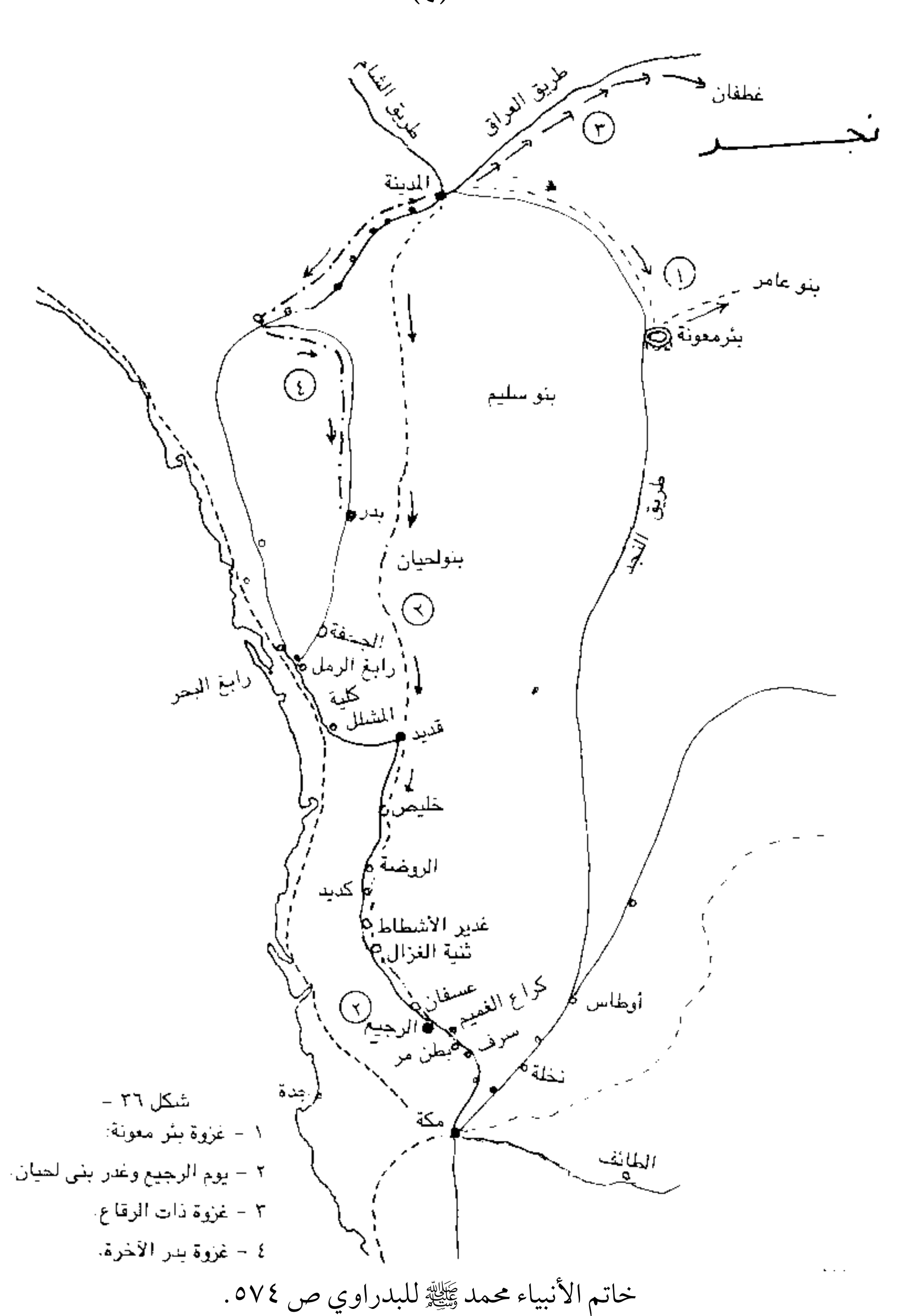
غزوة بدر الموعد في ذي القعدة من السنة الرابعة من الهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٧١.

(٣)

حدائق الأنوار لبحرق ص ٥٣٩.

(٤)



خاتم الأنبياء محمد ﷺ للبدراوي ص ٥٧٤.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
غزوة بدر الموعد، أو الآخرة، أو الثانية، أو الصغرى

١ ـ خطورة العدو الداخلي:

يقول أ/ فتح الباب: «ذلك أن القضاء على العدو الداخلي ضرورة حتمية لمواجهة العدو الخارجي، وبغير ذلك لم يكن في وسع المسلمين التصدي لقريش الموتورة الحاقدة، والاضطلاع بمسؤوليات نشر الدعوة، لقد اجتث بإجلاء اليهود ذلك الخطر الجسيم الذي كان يتهدد المسلمين في المدينة، خطر عملاء قريش وأذنابها ممن كانت تتخذ مخلبًا لتخريب الجبهة الإسلامية الصاعدة في يثرب، وشغلها عن عدوها الأكبر المتمثل في قريش بما يثيره اليهود من شائعات وفتن بين المهاجرين والأنصار، مستهدفين من ذلك استنـزاف طاقة المسلمين في تلك الحرب النفسية البغيضة، وصرف أنظار النبي ﷺ وصحبه عما يدبره أبو سفيان وعصبته من مؤامرات واتفاقات مع القبائل لغزو المسلمين، ووقف تيار الدين الجديد وما يشكله من تحد سياسي واقتصادي واجتماعي لها». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١١١-١١٢].

٢ ـ استئصال شوكة اليهود:

يقول أ/ فتح الباب: «كان يهود بني النضير شوكة في جنب الإسلام، وقد استؤصلت تلك الشوكة اللعينة، فآن للمسلمين أن يملكوا القدرة على الحركة والانطلاق في مواجهة أعدائهم، ودب الرعب في أشياع اليهود ممن أسلموا ولما يدخل الإيمان قلوبهم فنافقوا، وأقاموا على أمل فرصة تحين فيغتنمونها للإيقاع بالمسلمين وشفاء نفوسهم المريضة.

وساد الرخاء في المدينة بعد أن وزعت على المسلمين أسلاب الحرب مما ترك اليهود وراءهم من أموال كثيرة، واشتد ساعدهم بما غنموا من عدة حربية واستغنى المهاجرون عن معونة الأنصار بما قسم لهم من الفيء، فكان المأمن في الدار وكانت نعمة الثراء، وأتيح لهم قسط من الراحة والاستقرار بعد عناء الحرب في بدر وأحد والمدينة، وانصرف الرسول ﷺ إلى تنظيم أمور المسلمين، وإقامة دعائم الدولة الإسلامية الناشئة، وإعدادها للوفاء بمسؤولياتها في الغد القريب». [القيم الخلقية لفتح الباب ١١٢].

٣ ـ أهمية القيادة المتيقظة:

يقول أ/ فتح الباب: «بيد أن عينه ﷺ كانت على الصحراء التي تفصل بين مكة حيث العدو المتربص، وبين يثرب حيث جنود الله الرابضون حوله في انتظار ما يأمر به، ولم يغب عن فطنته أن أبا سفيان رأس الشرك سوف ينفذ تهديده، فالنصر الذي حققته قريش في أحد كان نصرًا مؤقتًا ورخيصًا لم يحقق غايته من القضاء على الإسلام، وما كانت أحد إلا معركة واحدة في حرب مصيرية.

وكان أبو سفيان يدرك تلك الحقيقة ويعلم مدى صلابة الرسول ﷺ وأصحابه وقوة إيمانهم وإصرارهم على هزيمة الشرك مهما طال المدى وشقت التضحيات، ومن ثم قال بعد أحد: «يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل»، وأعلن تحديه للنبي ﷺ بدعوته إلى الاشتباك في بدر مرة أخرى.

وها هو ذا العام أوشك أن ينصرم، واقترب موعد الصدام المرتقب، ولكن أبا سفيان يتردد، فقد كان العام عام جدب مما حال دون استعداد قريش وقدرتها على مجابهة المسلمين في معركة فاصلة، وهو يعلم أن محمدًا سوف يخرج إلى بدر متحديًا، فليكن اللقاء بعد هذا العام، وليبعث عدو الإسلام أحد أتباعه إلى المدينة للتمويه والتضليل بقصد تحقيق رغبته في التأجيل دون أن يريق ماء وجهه، ويعلن عجزه عن القتال فتكون فضيحة قريش أمام العرب أجمعين، ويعلو شأن المسلمين.

وقال نعيم عميل أبي سفيان للمسلمين في لهجة الصديق المشفق إن قريشًا قد حشدت كل طاقاتها وأعدت جيشًا لم تشهد الجزيرة في تاريخها مثيله قوة وعتادًا مستهدفة شن حرب شعواء على المسلمين أشد مما واجهوا في أحد، حتى لا تقوم لهم بعدها قائمة أبدًا، وأن الخير لهم ألا يبادروا بالهجوم في ذلك العام الموعود، وأن يرجؤوا ذلك حتى يكملوا عدتهم ويصبح في مقدورهم قبول التحدي.

موقف بطولي: وكادت تلك الخطة الماكرة أن تثمر كما قَدَّرَ كبير المشركين، فتوجس كثير من المسلمين شرًّا وداخلهم الخوف، فمالوا إلى إرجاء منازلة قريش إيثارًا للهدوء والسكينة ولما يمض إلا بعض عام على معركة أحد، فتصدى لهم رسول الله ﷺ في موقف من أعظم ما خلده التاريخ للبطولة والأبطال، موقف أدرك ﷺ أنه لا مفر منه للقضاء على أكبر خطر يهدد إحدى القيم الروحية الأساسية في العقيدة الإسلامية، قيمة الجهاد والفداء في سبيل الله، وما ينبثق منها من قيم الصبر على الشدائد ونبذ الاستكانة والإخلاد إلى متع الحياة والقعود عن إتمام الرسالة، والتراخي في التضحية وبخاصة في وقت عصيب كان الإسلام خلاله ما يزال في مفترق الطرق». [القيم الخلقية لفتح الباب ١١٣-١١٤].

٤ ـ الإيمان القوي لا يتأثر بالمحنة:

يقول أ/ فتح الباب: «إن أول درس علمه سيدنا محمد ﷺ للمسلمين هو الإيمان الذي لا يتزحزح ولا يتزعزع مهما اشتدت المحنة، الإيمان بالحق مهما قَلَّ أصحابه عددًا وعدة في مواجهة الباطل مهما زاد أشياعه وتوافرت إمكانياته، الإيمان بالانتصار الحتمي للعدل على الظلم والبهتان، وللمساواة على الطغيان، وللنور على الظلام، الإيمان بضرورة البذل حتى الرمق الأخير دفاعًا عن النفس والوطن والعقيدة، الإيمان بأن الحق أقوى من الباطل، وأن الفجر يعقب ظلمات الليل المدلهمة.

وعلمهم أن الله اصطفاهم من دون الناس ليحملوا رسالته إلى العالم أجمع؛ وليخلصوا العالم من شرور العدوان والبغي والضلال، وأن يفتدوا تلك الغاية المقدسة بكل ما ملكت أيديهم من أموال، وما منحوا من قوة وما سرى في شرايينهم من دماء.

وعلمهم أن رضا الله غاية لا يدركها إلا الأطهار، وأن الاستشهاد في سبيله شرف لا يرقى إليه إلا الأبطال، وأن الحياة لا تستحق أن تُعاش على الظلم، وأن الله أكبر وأن النصر للمؤمنين».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١١٤-١١٥].

٥ ـ قوة التصميم:

يقول أ/ حوى: «فمن المعروف أنه في كل قضية من القضايا تجد الناس متردد ومُقْدِم، وههنا تأتي مهمة القيادة في اتخاذ القرار لتحسم التردد، وبعد اتخاذ القرار تجد ناسًا يثبِّطون الهمم وههنا تأتي مهمة القيادة في الحسم والتصميم وردِّ كل التردد والقضاء عليه، فلا تعطي فرصة لمؤجل أو مسوِّف أن يفسد الموقف.

وإنك لترى هذا كله مجسدًا برسول الله ﷺ في كل موقف، وأظهر ما يظهر ذلك في غزوة بدر الآخرة، قارن بين موقفه ﷺ وموقف أبي سفيان لتدرك الفارق بين القيادة المصممة والقيادة المترددة».

[الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٥٣].

٦ـ حزم النبي ﷺ وقوة عزيمته:

ويقول د/ الحميدي: «لقد ظهر في هذا الخبر مثل من حزم النبي ﷺ وقوة عزيمته وصدقه ووفائه وإدراكه الدقيق لعوامل القوة والانتصار، وعوامل الضعف والانهزام، حيث قال لمستشاريه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «**والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد**»، وذلك حينما أشيع في أوساط المسلمين كراهية بعضهم للخروج». **[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٦٦].**

٧ ـ الطاعة والتسليم للقيادة:

يقول د/ الحميدي: «وفي هذه الغزوة ظهر إرجاف اليهود والمنافقين بسبب ما قام به نعيم ابن مسعود الغطفاني من السفارة لصالح قريش حيث بثَّ دعاية إعلامية واسعة عن ضخامة جيش المشركين الذي أعدوه لتلك الغزوة، فنطق اليهود والمنافقون بكلمات التخذيل والإرجاف، حيث قالوا: محمد لا يفلت من هذا الجمع، ولكن مع الإرجاف الكبير من خارج المدينة وداخلها فإن حماس المسلمين لم يفتر وعزيمتهم لم تضعف ومعنويتهم الحربية ظلت عالية بمجرد سماعهم عن عزم النبي ﷺ على الخروج، وهذا يعتبر مثلًا عاليًا في الطاعة والتسليم لأوامر الله جل جلاله ورسوله ﷺ.

وموقف يُذكر لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما حينما أشارا على رسول الله ﷺ بالخروج في الوقت الذي بلغت فيه الدعاوى الإعلامية ذروتها وتأثر بها بعض أفراد المسلمين.

ويصل المسلمون إلى بدر ويشاركون الناس في الموسم التجاري، ويصبحون أعظم الوفود كثرة، ثم يعودون بعد ثمانية أيام وقد سلموا من الأذى، وكسبوا انتصارًا معنويًّا عظيمًا على أعدائهم بدون قتال، كما أنهم ربحوا في تجاراتهم ربحًا طيبًا كما ذكر عثمان بن عفان رضي الله عنه». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٦٦-٦٧**].

٨ ـ السهر على قضايا الإسلام:

يقول أ/ حوى: «لقد عقد الموعد للمواجهة أبو سفيان يوم أُحُد، ولقد عقده من موقع القوة في زعمه، وهو بذلك يتحدى، ولكن كيف تصرف عندما حان الموعد، وكيف تصرف رسول الله ﷺ؟

ههنا سهر وهناك بطر، والعجيب أنك لا تجد في جيش أبي سفيان من عارض، ولا تجد أن أبا سفيان قد استشار، تلك علل الشرك في ذلك الدهر، قارن هذا كله ببعض ما نحن فيه: إن الكفر الآن ساهر على قضاياه، وله مؤسساته، وعنده تصميم على أمور كثيرة وهذا يقتضي منا سهرًا وتصميمًا، وعلى القيادات الإسلامية أن ترتقي في القدوة إلى أعلى قمة مستطاعة». [**الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٥٣-٦٥٤**].

٩ ـ مسؤولية القيادة في تحضير الجنود:

يقول أ/ فتح الباب: «لقد حسن الرسول ﷺ الموقف، وقضى على ذلك التردد الذي خاطر كثيرًا من رجاله قبيل أن يستشري فيصعب علاجه، فأعلن أن المسير إلى بدر أمر مقضي ولا رجعة فيه، لقد عزموا فليتوكلوا، وما كان لرسول الله ﷺ والذين آمنوا أن يخشوا المشركين، وصاح محمد ﷺ معلنًا غضبته لما بَدَرَ في صفوف المسلمين من ضعف، وما خامر القلوب من خوف، إن جنود الله لا يهابون عدوهم وعدو الله، وأن عليهم أن يكونوا دائمًا على أهبة الاستعداد للموت في سبيل تحقيق الهدف الأسمى، فلا راحة والعدو على الأبواب، ولا استكانة إلى المال والبنين، ولا مطالبة بثمن جهاد الأمس، فحياة المسلم الحق حلقات متصلة من الكفاح والإقدام، ذلك واجب القائد، والمسلمون هم قادة البشرية على طريق الحق.

وأقسم القائد الأعظم أنه ذاهب إلى بدر ولو ذهب وحده، فكانت تلك الصيحة بادرة تَحَوُّل حاسم، وسرت من نفسه القوية المؤمنة روح الشجاعة والتضحية في قلوب أصحابه، واستعادوا ذكرى انتصارهم في بدر وما وعد الله شهداءهم في أحد من الفوز بالرضوان مع الصادقين والصديقين، واسترجعوا مواقفهم الرائعة في الدفاع عن الإسلام، وذكروا أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن من ينصر الله ينصره، وصغرت في نفوسهم ملذات العيش الرضي، واسترخصوا الموت زودًا عن الشرف والقيم العليا، فتدافعوا إلى أسلحتهم يحملون، وإلى دوابهم يجهزون، وإلى لباس الحرب يرتدون».

[**القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١١٥-١١٦**].

١٠ ـ مسيرة في سبيل الله:

يقول أ/ فتح الباب: «وأذن رسول الله ﷺ بالمسير إلى بدر، وولى عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول على المدينة ليرعى شؤونها ريثما يعود الجيش الإسلامي من المعركة مكلل الهامات بالثأر، وزحف موكب الإيمان يطوي الصحاري بقيادة رسول الله ﷺ موليًا وجهه إلى مكة، وفي بدر عسكر الأبطال، وقد صحت عزيمتهم على قتال قريش، وقاد أبو سفيان عصبة قريش في عدة بلغت ما يربوا على ألفي محارب، ولم تكد تقطع في مسيرتها يومين حتى فكر أبو سفيان في العودة منسحبًا إلى مكة، وجاهر قومه بما استقر عليه رأيه: «**يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب، وإن عامكم هذا لمقبل، وإني راجع فارجعوا**».

لقد كان أبو سفيان يعلم أن النصر الذي أحرزه في أحد لم يُثن من عزيمة المسلمين، وأنهم يترقبون ذلك اليوم ليضربوا ضربتهم القاضية، وأنهم قوم يؤثرون الموت استشهادًا على الحياة، فأراد أن يتقي عواقب الصراع مع غريم لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلًا، وأن يُبقي على مكانة قريش بين العرب بعد معركة أحد، فعاد أدراجه مع عصابته وقد رضي من الغنيمة بالإياب، وآثر عار الانسحاب على عار الهزيمة». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١١٧].

١١ ـ أحياء عند ربهم يرزقون:

يقول أ/ فتح الباب: «ولبث المسلمون في بدر ثمانية أيام ينتظرون أعداء الله، وتاجروا وربحوا، وقد ارتفعت فيهم الروح المعنوية بفضل موكب الرسول العظيم ﷺ، وكفى الله المؤمنين القتال، فرجعوا إلى المدينة غانمين مطمئنين إلى قوتهم، واثقين بقدرتهم على المقاومة، ونزل قول الله ﷻ في هذه الغزوة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]». [القيم الخلقية لفتح الباب ١١٧-١١٨].

١٢ ـ إظهار قوة المسلمين والعزة الإسلامية:

يقول أ/ الشامي: «في اللقاء الذي جرى بين رسول الله ﷺ ومخشي بن عمرو الضمري التأكيد الكبير لمعنى القوة التي كان يتمتع بها المسلمون، وأن العقد الذي كان بين الفريقين يستمر بعامل قوة المسلمين لا

بعامل ضعفهم، وبناء على طلب الطرف الثاني، وفي هذا ما فيه من القوة للمسلمين وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم». [من معين السيرة للشامي ٢٨٨].

ويقول د/ قلعه جي: «لقد كان لهذا الخروج أثره في نفوس العرب، فقد أصبحت كثير من القبائل قانعة بأن الدولة الإسلامية قد توفر لها من أسباب القوة ما تستطيع به البطش بأعدائها؛ ولذلك رأينا ذلك الحوار بين رسول الله ﷺ ومخشي بن عمرو الضمري». [قراءة سياسية لقلعه جي ١٧٤].

١٣ ـ من المنتصر حقًّا في غزوة أُحُد؟:

يقول د/ الحميدي: «في هذه الغزوة ظهرت أخلاق الكفار، وظهر مَنِ المنتصر حقًّا في معركة أحد، ومَنِ المنهزم، فقد ظهرت شجاعة المسلمين العالية وإقدامهم على المكاره، ووفاؤهم بالوعد، كما ظهر جبن الكفار وفشلهم.

وظهر أن المنتصر حقًّا في معركة أحد هم المسلمون؛ لأنهم خرجوا للقتال بعد سنة بنفوس وثَّابة ومعنويات عالية، بينما تقاعس الكفار وجبنوا، وصاروا يبذلون من أموالهم لمن يخذِّل رسول الله ﷺ وأصحابه عن الخروج ليكون النكول من المسلمين حتى لا يفتضح المشركون أمام العرب، وليحتفظوا بنتائج معركة أحد التي وهموها نصرًا وليست كذلك.

إن الحملة الإعلامية التي قام بها المشركون لإثبات انتصاراتهم في أحد وتفوقهم الحربي قد انتكست على رؤوسهم وأصبحوا مثار السخرية عند العرب، وثبت للناس أن ارتباك المسلمين للمفاجأة في أحد وسقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم ولا ضعفهم العسكري». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٦٥-٦٦].

١٤ ـ بدر الآخرة تُظهر تحوُّل الموقف العسكري تحولاً كاملاً لصالح المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «لقد كانت تحركات الجيش الإسلامي من المدينة حتى بدر مناورة رائعة ناجحة أثبت بها وجوده، وأعطى الدليل القاطع لأعداء الإسلام داخل المدينة وخارجها، أنه أصبح أقوى قوة مرهوبة، لا في منطقة يثرب فحسب، بل في جزيرة العرب بجمعها.

ولا أدل على ذلك من أن جيش مكة، وهو من أعظم الجيوش في الجزيرة من حيث كثرة العدد وقوة التنظيم وجودة التسلح قد هاب الجيش الإسلامي، ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعاد سابق حدده ـ في تحد ـ قائد عام جيش مكة نفسه.

ولا شك أن حملة بدر الآخرة التي قادها النبي ﷺ قد كانت تحديًا صارخًا مهينًا لمعسكر قريش الوثني، كما أنها كانت ـ كذلك ـ بمثابة إرهاب وتأديب لجميع القبائل العربية المعادية للإسلام، والتي كانت ـ بعد ما أصاب المسلمين في أُحُد ـ تُحدِّث نفسها بالاعتداء عليهم.

فقد لزمت قريش الهدوء ولم تقم بأية حركة عسكرية ضد المسلمين بعد حملتهم هذه التي قاموا بها إلى بدر حتى موقعة الأحزاب الفاصلة التي اشتركت فيه أكثر القبائل العربية المشركة.

ومما يدل على نجاح المناورة الكبيرة التي قام بها الجيش الإسلامي حتى بدر وأن المنطقة الشاسعة الممتدة من المدينة حتى بدر وما حولها أصبحت تخشى بأس المسلمين، بعد أن كان زعماؤها يعدون العدة لسحقهم، هو أن مخشي بن عمرو الضمري ـ أحد زعماء قبائل منقطة بدر ـ قد جاء إلى النبي ﷺ وهو معسكر بها في انتظار جيش مكة، قال له ـ جاسًّا النبض وكالمحتج: يا محمد ﷺ أجئت للقاء قريش على هذا الماء، أي ماء بدر الواقع في أراضي بني ضمرة؟

فأجابه النبي ﷺ ـ بلهجة القوي الواثق من نفسه وجيشه ـ: نعم يا أخا ضمرة، وإن شئت رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك.

وكان النبي ﷺ ـ قبل معركة بدر الكبرى ـ قد عقد بينه وبين قبائل بني ضمرة معاهدة عدم اعتداء، وذلك أثناء قيامه بإحدى الدوريات الاستطلاعية في منطقة (ودان) في السنة الأولى من الهجرة.

لقد أسمع النبي ﷺ سيد قبائل بني ضمرة هذا الجواب الذي عرض فيه إنهاء المعاهدة بينه وبين بني ضمرة ـ في منطقة تموج بالمسلحين من هذه القبائل ـ ولكن سيد بني ضمرة (مخشي بن عمرو) قال للنبي ﷺ ـ في تلطف ووجل ـ: لا والله يا محمد ما لنا بذلك من حاجة، وهذا دليل على أن قوة المسلمين العسكرية يوم ذاك بلغت درجة لم تخش معها أحدًا من هذه قبائل، وأن كل آثار انتكاسة أحد قد زالت». [**الأحزاب لباشميل ٧٨-٧٩**].

ويقول أ/ رضوان: «كان انتصار المسلمين في بدر الآخرة بانسحاب الأعداء دون حرب وجبنهم عن مواجهتهم مع أنهم مكثوا عامًا يعدون أنفسهم لمواجهة مع المسلمين، خير دليل على انقلاب الموقف العسكري بين المسلمين وقريش لصالح المسلمين انقلابًا كاملًا لم تعد بعده قريش تجرؤ على مقابلة المسلمين بمفردها، دون الاستعانة بالكثير من قبائل العرب، كما سنرى ذلك في الخندق.

وكانت هذه الغزوة المباركة هي نقطة الانطلاق لنشر نور الله ﷻ في كل أنحاء الجزيرة وشرق العالم وغربه». [**محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٢-٨٣**].

ويقول د/ هيكل: «وكذلك محت غزوة بدر الآخرة أثر أُحد محوًا تامًّا، ولم يبق لقريش إلا أن تنتظر عامًا آخر، رازحة تحت عار من جُبنها لا يقل وطأة عن عار هزيمتها في بدر الأولى.

وأقام محمد ﷺ بالمدينة مستريحًا إلى نصر الله إياه، مطمئنًا إلى ما عاد للمسلمين من هيبتهم، حذرًا دائمًا غدرة العدو، باثًّا عيونه في كل النواحي». [**حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٢٤**].

ويقول د/ أبو شهبة: «والمتتبع لمجريات الحوادث في هذه الغزوة يرى أن المشركين قد باتوا يخشون المسلمين، ولا يجرؤون على لقياهم، وكأنما كان نصرهم في أُحُد فلتة لا يطمعون في مثلها، فمن ثم لجأوا إلى الحيلة يدرؤون بها عن أنفسهم عار خُلف الوعد باللقاء، ولكنهم لم يفلحوا، وخيب المسلمون ظنونهم، وقد شعر المشركون بأثر تخلفهم في إذهاب هيبتهم المزعومة في النفوس؛ ولذلك قال صفوان بن أمية لأبي سفيان: قد ـ والله ـ نهيتك أن تعد القوم، قد اجترؤوا علينا، رأوا أنا أخلفناهم».

[السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤٤].

ويقول د/ الوكيل: «وعاد ﷺ إلى المدينة، وقد تكلم الناس بخروج المسلمين ونكوص أبي سفيان، فزادت هيبة المسلمين في نفوسهم، وبخاصة في داخل المدينة، حيث كُبت المنافقون، وأصبحوا بعد إجلاء بني النضير، وخروج المسلمين لمواجهة أبي سفيان، لا يستطيعون أن يرفعوا بعدائهم رأسًا، وذلوا فلم يقدروا على المجاهرة بشيء مما يكنون في صدورهم.

دخل المسلمون المدينة بعد عودتهم من بدر الأخيرة، وقد مضى من شهر ذي القعدة اثنا عشر يومًا تقريبًا، فوجدوا المدينة هادئة، والأحوال مستقرة، وقد أراد الله ﷻ إجلاء بني النضير عن المدينة، قبل خروج المسلمين لهذه الغزوات، حتى لا يثيروا فتنة فيها وقد خلت من أكثر المدافعين عنها».

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٩].

١٥ ـ تشويه الأعداء صورة الدعاة:

يقول م/ أبو راس: «ودار الحَوْل وأخذ الرسول ﷺ بالتجهز للقاء قريش في الموعد المضروب، ونفر المسلمون لملاقاة المشركين حتى وصلوا مع رسول الله ﷺ إلى ماء «بدر» فعسكروا حوله، وانتظروا قدوم أبي سفيان وظلوا ثمانية أيام يرتقبون قريشًا ولكن قريشًا لم تف بكلمتها إذ أن أبا سفيان ما كاد يصل إلى «الظهران» حتى صاح بقومه: «**يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا**».

وعاد أبو سفيان ولكن ما كان الذي قاله وادعاه هو السبب، ولكنه ـ وهو الذي كان قائدًا لفلول قريش في غزوة أحد ـ يعلم أن الذي خطفه يوم أحد لم يكن نصرًا، وإن تخيله كذلك؛ لذا فهو حريص على استبقاء هذا «النصر» وإن كان وهمًا!

وهكذا بالإيمان الصادق، والصبر المثابر، والعمل الجاد، انتقل زمام الأمر في جزيرة العرب مرة أخرى إلى الفئة المؤمنة، فأصبحت القبائل العربية في الجنوب التي كانت تهتبل كل فرصة للإغارة على المسلمين أصبحت تفر في كل اتجاه في اللحظة التي تسمع ببعوثهم وأصبحت تحسب لهم ألف ألف حساب».

[تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٣٠].

١٦ ـ أهمية وجود القيادة العسكرية العبقرية:

يقول عميد/ فرج: «يتلاحظ أن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة لم يشأ أن يخلف موعده مع أبي سفيان، ولم يكن من المعقول أن يخرج رسول الله ﷺ بأصحابه إلى موقف لم يُعد نفسه له، فهو حين قرر الخروج كان يعتزم لقاء قريش ومواجهتها، وهو بهذا التصميم والعزم كان ـ دون ريب ـ واثقًا من نتيجة هذا اللقاء، ويقول العسكريون إن إحساس القائد هو أهم العُمُد في الحرب، ولقد كان إحساس رسول الله ﷺ صادقًا، وأدرك أصحابه صدق إحساسه فنزعوا من أنفسهم التردد الذي أوجدته دعاية نعيم بن مسعود والمنافقين واليهود، وخرجوا معه، وهكذا تتبين لنا صفتان حيويتان كان يتميز بهما رسول الله ﷺ كقائد عسكري، وهما القدرة على اتخاذ قرار صحيح وصائب، والشجاعة والجرأة في تنفيذ هذا القرار.

ولعل أبا سفيان قد أدرك تميز الرسول ﷺ بهاتين الصفتين فهاب لقاءه، ولجأ إلى أسلوب المناورة خوفًا من نتيجة اللقاء، حتى أن أحد رجاله وهو صفوان بن أمية لامه لأنه وعد المسلمين ثم أخلف وعده قائلًا: «**قَدْ وَاللهِ نَهَيْتُكَ يَوْمَئِذٍ أَنْ تَعِدَ القَوْمَ، وَقَدْ اجْتَرَؤُوا عَلَيْنَا، وَرَأَوْا أَنْ قَدْ أَخْلَفْنَاهُمْ، وَإِنَّمَا خَلَّفَنَا الضَّعْفُ عَنْهُمْ**».

ونقطة أخرى هامة أثارها خروج المسلمين وتقاعس قريش، فمما لاشك فيه أن خروج الأولين رفع روحهم المعنوية، وأعاد إليهم ثقتهم في أنفسهم، وعزز موقفهم داخل المدينة بين المنافقين واليهود، وأكد لهم قدرتهم القتالية وإمكانية مواجهتهم لقريش وهزيمتهم، في الوقت الذي زلزل تقاعس قريش معنوياتهم، وهدم عندهم روح القتال، ودفع اليأس إلى نفوسهم، وأساء إلى مكانتهم بين العرب».

[**العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٦٩-٢٧٠**].

١٧ـ معركة ثانية على أرض بدر:

يقول أ/ الصوياني: «لقد اغترَّ أبو سفيان ـ قائد قريش ـ بما حدث في أُحُد، فصاح بالنبي ﷺ متحديًا: **مَوْعِدُكَ مَوْسِمُ بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا** [سبق تخريجه في عرض الغزوة]، كان أبو سفيان ومن معه يريدون أن يملأوا آبار بدر بأجساد المؤمنين مثلما حشر المؤمنون جثث طواغيت قريش في تلك البئر المنتنة على أرض بدر، حلم لقريش، فهل يتحقق.

كان أبو سفيان يريد استغلال مناسبة إقامة موسم بدر، وهو موسم للعرب يجتمعون فيه تجارةً وأدبًا وشعرًا، لكن أبا سفيان أراد أن يجعل للحرب نصيبًا في هذا الموسم، حرب تستعيد بها قريش بعض ما تناثر من هيبتها، حرب يشهدها العرب جميعًا، فليكن لأبي سفيان ما يريد، ها هو ﷺ عندما اقترب موعد إقامة سوق بدر يستعد للسفر، لا للحرب فقط، بل للحرب والتجارة، متجاهلًا كل

صيحات المخذلين والجبناء في المدينة الذين يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران:١٧٣]، فقد ردَّ ﷺ على أولئك المخذلين والجبناء بعزم شاركه به أصحابه رضي الله عنهم فقالوا: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، فامتدح الله هذا الإيمان المتجذِّر، وهذه الثقة الراسخة بالله، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران]، فـ (قَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: **مَوْعِدُكَ مَوْسِمُ بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا**)، فَأَمَّا الْجَبَانُ فَرَجَعَ، وَأَمَّا الشُّجَاعُ فَأَخَذَ أُهْبَةَ الْقِتَالِ وَالتِّجَارَةِ فَأَتَوْهُ.

وصل الشجعان إلى أرض بدرٍ فرحبت بهم وتذكرت نصرهم، كانت أرض بدرٍ أرضًا للانتصار، هكذا هي في عقول وقلوب المؤمنين، أما بالنسبة لقريش فهي تذكرهم بالهزيمة، لم يستطع أبو سفيان وجيشه مغادرة مكة ولا الحركة منها، فالتشاؤم يعيقهم عن الحركة، يشلهم عن الوفاء بالوعد والتحدي، أبو سفيان وكبار القوم خائفون، يخشون أن تحشر جثثهم في بئر أخرى، فلم يحضروا، وهكذا انتهت غزوة بدر الثانية قبل أن تبدأ، فليس على الساحة سوى المؤمنين، إنهم يتلفتون فلا يرون أحدًا، يذرعون أرض بدر، يمشطونها بحثًا عن جيش الوثنيين فلا يرون أحدًا، وهكذا انهزمت قريش في معركة هي التي طلبتها وحدَّدت مكانها وزمانها، أما رسول الله ﷺ وجنده، فقد مالوا بمطاياهم نحو موسم بدر (فَأَتَوْهُ، فَلَمْ يَجِدُوا بِهِ أَحَدًا وتَسَوَّقُوا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران])، فطلب ﷺ من أصحابه أن يكتبوا هذه الآية وأن يجعلوها بعد الآية السابقة، لتقرأ هكذا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران].

تفضَّل سبحانه على نبيه ﷺ وصحابته رضي الله عنهم بانتصار لم ترق فيه قطرة دم، فباعوا واشتروا وكسبوا، ودعوا إلى التوحيد، وربما كسبوا بدعوتهم تلك أتباعًا ومؤمنين جددًا ينشرون التوحيد في قومهم أو يهاجرون، ثم عادوا شوقًا إلى أهلهم، شوقًا إلى المدينة». [**السيرة النبوية للصوياني ٣/ ٥– ٧**].

الفصل الرابع
غَزْوَةُ دُومَةِ الجَنْدَلِ (١)
الأحد ٢٥ ربيع الأول ٥هـ/ ٢٤ أغسطس ٦٢٦ م/ مسرى ٣٤٢ قبطي
المبحث الأول
عرض غَزْوَة دُومَةِ الجَنْدَلِ

تاريخها:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى المدِينَةِ، فَأَقَامَ مِنْ مَقْدَمِ رَسُولِ الله ﷺ بِهَا أَشْهُرًا حَتَّى مَضَى ذُو الحِجَّةِ، وَوَلِيَ تِلكَ الحِجَّةَ المَشْرِكُونَ، وَهِيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ، ثُمَّ غَزَا رَسُولُ الله ﷺ دَوْمَةَ الجَنْدَلِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٣].

وَقَالَ الوَاقِدِيُّ [وابن هشام]: في رَبِيعِ الأَوَّلِ عَلَى رَأْسِ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا، خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ لِخَمْسِ لَيَالٍ بَقِينَ مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، وَقَدِمَ لِعَشْرٍ بَقِينَ مِنْ رَبِيعٍ الآخَرِ. [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٢].

سبب الغزوة:

وسبب تجريد هذه الحملة هو أن استخبارات الجيش النبوي حصلت على معلومات مفادها أن قبائل دومة الجندل قد أخذوا في التجمع لغزو المدينة، وأنهم يخيفون الناس ويقطعون الطريق ويظلمون من يمر بهم.

روى الواقدي عن شيوخه: «قَالُوا: أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَدْنُوَ إِلَى أَدْنَى الشَّام (أقربها إلى المدينة)، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا طَرَفٌ مِنْ أَفْوَاهِ الشَّامِ، فَلَوْ دَنَوْتَ لَهَا كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يُفْزِعُ قَيْصَرَ، وَقَدْ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ بِدُومَةِ الجَنْدَلِ جَمْعًا كَثِيرًا، وَأَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ مَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنْ الضَّافِطَةِ (جمع ضافط، وهو الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن)، وَكَانَ بِهَا سُوقٌ عَظِيمٌ وَتُجَّارٌ، وَضَوَى إِلَيْهِمْ قَوْمٌ مِنْ العَرَبِ كَثِيرٌ، وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَدْنُوا مِنْ المَدِينَةِ». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٣].

اسْتِعْمَالُ ابْنِ عُرْفُطَةَ رضي الله عنه عَلَى المدِينَةِ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ وَالوَاقِدِيُّ: وَاسْتَعْمَلَ عَلَى المدِينَةِ سِبَاعَ بْنَ عُرْفُطَةَ الغِفَارِيَّ رضي الله عنه.

النفير العام وخروج الجيش الإسلامي:

وعلى عادة النبي ﷺ المتبعة في سلوك خطة المباغتة وتأديب الأعراب بنقل المعركة إلى مضاربهم بسرعة، جهز قوة خفيفة قوامها ألف مقاتل وأسرع بها في اتجاه دومة الجندل.

---

(١) **دُومة الجندل:** «قال أبو عبيد البكري: سميت دومة الجندل بدومي بن إسماعيل كان نزلها».[الروض الأنف]، وهي تبعد عن المدينة مسيرة ستة عشر يومًا. تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ٢٥٨. وسيأتي التعريف بها في: سَرِيَّةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه إِلَى دُومَةِ الجَنْدَلِ شعبان ٦هـ.

قال الواقدي: «فَنَدَبَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ، فَخَرَجَ فِي أَلْفٍ مِنَ الـمُسْلِمِينَ، فَكَانَ يَسِيرُ اللَّيْلَ وَيَكْمُنُ النَّهَارَ، وَمَعَهُ دَلِيلٌ لَهُ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ يُقَالُ لَهُ: مَذْكُورٌ، هَادٍ خِرِّيتٍ (الماهر الذي يهتدي لأخرات المَفاوز، وهي طرقها الخفية ومضايقها... وإنما سُمي خريتًا لشَقِّه المفاوز)، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مُغِذًّا لِلسَّيْرِ، وَنَكَبَ (عدل) عَنْ طَرِيقِهِمْ، وَلَـمَّا دَنَا رَسُولُ الله ﷺ مِنْ دُومَةِ الجَنْدَلِ ـ وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا يَوْمٌ أَوْ لَيْلَةٌ سَيْرَ الرَّاكِبِ المُعْتِقِ (أعتق الراكب فرسه إذا أعجلها) ـ قَالَ لَهُ الدَّلِيلُ: يَا رَسُولَ الله، إنَّ سَوَائِمَهُمْ تَرْعَى، فَأَقِمْ لِي حَتَّى أَطَّلِعَ لَكَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نَعَمْ**»، فَخَرَجَ العُذْرِيُّ طَلِيعَةً حَتَّى وَجَدَ آثَارَ النَّعَمِ وَالشَّاءِ وَهُمْ مُغَرِّبُونَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ وَقَدْ عَرَفَ مَوَاضِعَهُمْ، فَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى هَجَمَ عَلَى مَاشِيَتِهِمْ وَرِعَائِهِمْ، فَأَصَابَ رَسُولُ الله ﷺ مَنْ أَصَابَ، وَهَرَبَ مَنْ هَرَبَ فِي كُلِّ وَجْهٍ». [**المغازي للواقدي ١/ ٤٠٣**].

هروب أهل دومة الجندل:

قال الواقدي: «وَجَاءَ الخَبَرُ أَهْلَ دُومَةِ الجَنْدَلِ فَتَفَرَّقُوا، وَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ بِسَاحَتِهِمْ، فَلَمْ يَجِدْ بِهَا أَحَدًا، فَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا وَبَثَّ السَّرَايَا، وَفَرَّقَهَا حَتَّى غَابُوا عَنْهُ يَوْمًا، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْهِ، وَلَمْ يُصَادِفُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، وَتَرْجِعُ السَّرِيَّةُ بِالقِطْعَةِ مِنَ الإِبِلِ، إِلَّا أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ﷺ أَخَذَ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَتَى بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: هَرَبُوا أَمْسِ حَيْثُ سَمِعُوا بِأَنَّكَ قَدْ أَخَذْتَ نَعَمَهُمْ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ الإِسْلامَ أَيَّامًا، فَأَسْلَمَ، فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ». [**المغازي للواقدي ١/ ٤٠٣-٤٠٤**].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا، فَأَقَامَ بِالمَدِينَةِ بَقِيَّةَ سَنَتِهِ. [**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٣**].

معاهدة عدم اعتداء:

قال ابن سعد: «وفي هذه الغزاة وادع رسول الله ﷺ عُيَيْنَة بن حصن أن يرعى بتَغْلَمِين (موضع في بني فزارة) وما والاه إلى المَرَاض (موضع، أو واد، على ستة وثلاثين ميلًا من المدينة)، وكان ما هناك قد أخصب وبلاد عُيينة قد أجدبت، وتغلمين من المَرَاض على ميلين، والمَرَاض على ستة وثلاثين ميلًا من المدينة على طريق الرَّبْذة». [**الطبقات الكبير لابن سعد ٢/ ٥٩، والسيرة الحلبية ٢/ ٥٨٢**].

مدة الغزوة:

قال ابن كثير: «قال الواقدي [**نقله عنه الطبري في تاريخه ٢/ ٥٦٤**] وفيه توفيت أم سعد بن عبادة ﷺ، وابنها مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة.

وقد قال أبو عيسى الترمذي في جامعه: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ: أَنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ وَالنَّبِيُّ ﷺ غَائِبٌ، فَلَـمَّا قَدِمَ صَلَّى عَلَيْهَا، وَقَدْ مَضَى لِذَلِكَ شَهْرٌ. [**الترمذي في الجنائز (١٠٣٨)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف**].

وهذا مرسل جيد، وهو يقتضي أنه ﷺ غاب في هذه الغزوة شهرًا فما فوقه على ما ذكره الواقدي رحمه الله». [البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٧، قال محققه: «وقال البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٤٨: وهو مرسل صحيح، وكذا قال الحافظ في التلخيص ٢/ ١٢٥»].

أهداف الغزوة:

يقول د/ الوكيل: «وظل المسلمون في المدينة زهاء أربعة أشهر، لا يكدر صفوهم شيء، حتى إذا كان ربيع الأول من السنة الخامسة، وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمر بهم، والتعرض لمن في القافلة بالأذى والظلم، كما وردت الأنباء بأنهم يفكرون في القرب من المدينة لعجم عودها.

إن دومة الجندل تعتبر بلادًا نائية بالنسبة للمدينة المنورة؛ لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي ـ خليج فارس، وهي على مسيرة ست عشرة ليلة من المدينة، ولو أن المسلمين أغفلوا أمرها، وسكتوا على وجود هذا التجمع فيها ما لامهم أحد ولا ضرهم هذا التجمع في شيء على المدى القريب، ولكن النظرة السياسية البعيدة توجب على المسلمين أن يتحركوا لفض هذا التجمع والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنه للأسباب الآتية:

١ ـ لأن السكوت على هذا التجمع وما شاكله يؤدي بلا شك إلى تطوره واستفحاله، ثم يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوة المسلمين وإسقاط هيبتهم، وهو الأمر الذي يكافحون من أجل استرداده.

٢ ـ لأن وجود مثل هذا التجمع في الطريق إلى الشام قد يؤثر على الوضع الاقتصادي للمسلمين، فلو أن المسلمين سكتوا على هذا التجمع لتعرضت قوافلهم أو قوافل القبائل التي تحتمي بهم للسلب والنهب مما يُضعف الاقتصاد، ويؤدي إلى حالة من التذمر والاضطراب.

٣ ـ وهناك أمر أهم من الأمرين السابقين وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلها، وإشعار سكانها بأنهم في حمايتهم وتحت مسؤوليتهم؛ لذلك فهم يؤمِّنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم، أو يعرضهم للخطر.

لهذا ندب الرسول ﷺ المسلمين للخروج، وخرج في ألف من أصحابه، وكان يسير الليل، ويكمن النهار حتى يخفي مسيره». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٩-١٧٠].

٤ ـ حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية الهامة؛ لأن ظهور الدولة الإسلامية بهذه القوة يؤثر على نفسية قريش العدو الأول للدولة الإسلامية، ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها.

٥ ـ الحرص على إزالة الرهبة النفسية عند العرب الذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الروم، والتأكيد عمليًّا للمسلمين بأن رسالتهم عالمية.

[**ينظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع، ص١٤٤، ١٤٥ نقلًا عن السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٢٧-٢٢٨**].

ويقول د/ أبو فارس: «مما تقدم نرى أن هدف النبي ﷺ من هذه الغزوة القضاء على تحشدات قبائل المنطقة، ومنعهم من قطع الطريق.

وهناك رأي آخر يقول بأن موعد افتتاح الجبهة الرومانية قد قرب، فلابد من القيام بأعمال تمهيدية في الشمال، ويلخص هذه الأعمال التمهيدية بعملين هما:

الأول: فرض هيبة الدولة الإسلامية على القبائل العربية المتاخمة لحدود الروم في الشمال، وإشعارهم بأن هذه الدولة تملك من القوة ما يمكنها من القضاء عليهم عندما تريد ذلك؛ لئلا يطمعوا بمهاجمة جنبات الجيش المتقدم لحرب الروم، أو لئلا يكونوا عونًا للروم على المسلمين.

الثاني: القيام باستطلاع مبدئي للطريق والأرض». [**التفسير السياسي للسيرة النبوية ص ٢٦٠**].

[**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٢٠**].

وتحت عنوان «المغزى البعيد للحملة» يقول أ/ باشميل: «ولا يستبعد أن يكون الرسول ﷺ قد قصد بهذه الحملة العسكرية التي قطع بها إلى دومة الجندل ست عشرة ليلة، لا يستبعد أن يكون قصد به إرهاب الرومان الذين تقع المنطقة التي وصل إليها بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليال من عاصمة ملكهم الثانية دمشق.

بل لقد أكد الواقدي هذا في مغازيه». [**غزوة الأحزاب لباشميل ٨١-٨٢**].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٦٦٤.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٢١٣، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ١/ ٤٠٢-٤٠٤، الطبقات الكبير لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٥٨-٥٩، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٦٤، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٣/ ٣٨٩-٣٩١، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٢٥٧-٢٥٨، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٥٥-٢٥٦، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٥ -٧، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٠١-٢٠٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٤/ ٤٨٤، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٢/ ٥٨١-٥٨٢.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/ ٤٠٢، السيرة النبوية لرزق الله ٤٢٩-٤٣٠، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٢٦.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: غزوة الأحزاب لباشميل ٧٩-٨٢، غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩-٢٠، غزوة الخندق لأبي خليل ٦١-٦٢، مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٤-٣٦.

خرائط غَزْوَةِ دُومَةِ الجَنْدَلِ

(١)

غزوة دُومَة الجَنْدَل

ربيع الأول ٥ هـ

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ص ١٣٣.

(٢)

دَوْمَيْن: قرية قرب حمص، وقع ذكرها في قصر الصَّلاة من حديث مسلم.

دُومَة الجَنْدل

البخاري	مسلم	أبو داود	الترمذي	النَّسائي	ابن ماجه

بين الشَّام والمدينة المنوَّرة، قرب جبلي طيِّئ، كانت به بنو كنانة من كلب، وجَّه إليها رسول الله ﷺ خالد ابن الوليد وهو في تبوك سنة تسع للهجرة.

وهي الجوف، جوف السَّرحان.

شمال مدينة تيماء على مسافة ٤٥٠ كم.

(القاموس الإسلامي ٢/٤١٢، معجم البلدان ٢/٤٨٧)

دومة الجندل

قلعة في دومة الجندل

دُومَـة الجندل

معان
أيلة
دومة الجندل
سيناء
مقنا
تبوك
القليبة
النفود الكبرى
مدين
مويلح
ضبا
تيماء
حائل
الوجه
العلا
خيبر
بحر القلزم (الأحمر)
ينبع
المدينة المنورة
إفريقية
الحجاز
مهد الذهب
رابغ
جدة
مكة المكرمة
الطائف

أطلس الحديث النبوي للكتب الصحاح الستة لأبي خليل ص ١٧٦.

(٣)

الإمبراطورية البيزنطية
فلسطين
دومة الجندل
قضاعة
سيناء
أرض
تبوك
تيماء
جذام
الحجر
عذرة
الوجه
خيبر
طيء

دومة الجندل : تقع ضمن نطاق منطقة الجوف في شمال المملكة العربية السعودية ، وبها مسجد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه والمسافة بينها وبين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم حوالي تسعمائة كيلو متر تقريبا .
والمسافة إليها في الماضي تستغرق من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع على ظهور الإبل .

شبه الجزيرة العربية
أسد
غطفان
الحناكية
أملج
جهينة
النوبة
المدينة النبوية
ينبع
نجد
بدر
خزاعة
مهد الذهب
الحجاز
بنوسُليم
رابغ
هذيل
لحيان
أرض السودان
جدة
مكة المكرمة
هوازن
قريش
الطائف
الشعيبة
ثقيف

غزوة دومة الجندل في ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٧٣ ط٣ ـ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٤)

غزوة دومة الجندل في ربيع الأول سنة ٥ هـ

كاف (القريات)
بنو عدوان
كلب
سكاكا
تميم
أيلة
دومة الجندل
قضاعة
قضاعة
البدع
تبوك
أسد
مسار الجيش الإسلامي إلى دومة الجندل
بلي
بلاد طيء
ضباء
تيماء
جذام
العُلا
غطفان
الوجه
يهود خيبر
خيبر
عذرة
أرض الحجاز
أملح
بحر القلزم (البحر الأحمر)
جهينة
الأوس
المدينة النبوية
ينبع
الخزرج
غفار

حِصْنُ مَارِدٌ ، حِصْنُ أُكَيْدِرِ الْكِنْدِيِّ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، عدسة المؤلف

قال البلادي في معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية:

دومة الجندل دَالٌ مُهْمَلَةٌ وَوَاوٌ سَاكِنَةٌ ، وَمِيمٌ وَهَاءٌ : جَاءَتْ فِي النَّصِّ : وَكَلْبُ بْنُ وَبْرَةَ مِنْ قُضَاعَةَ ، اتَّخَذُوا وَدًّا بِدُومَةِ الْجَنْدَلِ .قلت : جَرَى الْمُتَقَدِّمُونَ عَلَى ضَبْطِ دُومَةَ بِالضَّمِّ ، وَقَالُوا : إِنَّهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَى : دُومٍ أَوْ دُومَانَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّهَا بِالْفَتْحِ بِاسْمِ الدَّوْمَةِ مِنَ الشَّجَرِ الْمَعْرُوفِ ، فَالْعَرَبُ تُسَمِّي السَّبَالَة ، والتناضب ، وَنَحْوَهَا . وَأَهْلُهَا الْيَوْمَ يَقُولُونَ : دَوْمَةُ الْجَنْدَلِ ، بِالْفَتْحِ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ فِي الْجَوْفِ ، يُشْرِفُ عَلَيْهَا حِصْنُ مَارِدٌ ، حِصْنُ أُكَيْدِرِ الْكِنْدِيِّ .

مقياس الرسم
صفر ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠ كم

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٧٣ ط ٤ ـ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٥)

السرايا والغزوات
بين أحد والخندق

بحر الروم
البحر الأبيض المتوسط
يافا
مؤاب
القدس
عمان
عسقلان
البحر الميت
مؤتة
بادية الشام
وادي السرحان
معان
العقبة
دومة الجندل
صحراء النفوذ
سيناء
تبوك
قيس عيلان
جزر تيران
تيماء
ضبا
مدائن صالح
(الحجر)
مصر
الوجه
وادي القرى
غزوة دومة الجندل
غطفان
خيبر
غزوة ذات الرقاع
هلال
فدك
سرية الرجيع
سرية أبي سلمة الى قطن
أملج
سرية معونة
المدينة المنورة
بحر القلزم
البحر الأحمر
غزوة بدر الآخرة
ينبع
بدر
الشمال

حدائق الأنوار لبحرق ص ٥٣٩.

(٦)

شكل ٢٧ - غزوة دومة الجندل

خاتم الأنبياء محمد ﷺ للبدراوي ص ٥٨١.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من غزوة دومة الجندل

١ ـ الإعداد العسكري والنفسي والتربوي للمواجهات القادمة:

يقول د/ الغضبان: «كانت خطة الرسول القائد ﷺ ترمي إلى أهداف عديدة وراء هذه الغزوة، فهي **غزوة، وحرب استطلاعية** تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها.

وهي **حرب إعلامية** تأتي على أعقاب بدر الموعد، وتستثمر انتصاراتها، فبعد وجود ذلك الجيش القوي في بدر، والذي أثبت أنه سيد أهل الموسم، وقلب الصفحة الإعلامية التي ربحتها قريش بعد أُحُد، أنه لم يبق من المسلمين أَحَد، فتأتي هذه الغزوة لتعطي أبعادًا أضخم، وآمالًا أوسع للقوة النبوية المتوافرة في الساحة العربية.

وهي **حرب عسكرية** تريد أن تصد هجومًا محتملًا على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة.

وهي **حرب سياسية** تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أُحُد لتقصد المدينة وتستبيحها.

وهي فوق هذا كله، وأهم من هذا كله، **دورة تربوية رائعة وقاسية وشاملة** على رأسها رسول الله ﷺ وبين يديه ألف من أصحابه رضي الله عنهم، فيتلقون فيها كل لحظة دروسًا في الطاعة والانضباط، ودروسًا في التدريب الجسمي والعسكري والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها، وأحكامًا وفقهًا في الحلال والحرام، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامي في بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة، وخارج كيان القبيلة، حيث أخذت تفد إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء القبائل المجاورة، والتخلي عن الأطر القبلية وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمة الواحدة التي تجعل الولاء لله ورسوله، وفوق هذا كله تتيح الفرصة لجيل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للوافدين الجدد وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النفوس، ومن له صلة بمعسكر النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وسلوكه، إنها ليست ساعات محدودة أو أيامًا معدودة، بل هي دورة قرابة شهر، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل النوازع، فيتلقاها ﷺ ليصوغها برفق وتؤدة على ضوء الإسلام، ويعلم الجيل الرائد فن القيادة، وعظمة السياسة؛ لأنه سيكون كل فرد منه فيما بعد على رأس جيش في صحاري الأرض وفيافيها ماضيًا في نشر الإسلام، وتقديمه واقعًا حيًّا للناس قبل تقديمه فكرًا خالصًا لهم.

لهذه الأهداف مجتمعة كانت هذه الغزوة العظيمة.

لقد كانت **معركة صامتة، وتربية هادئة**، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصحراء، يتربى ويتثقف ويتدرب ويُمتحن ويُقوَّم؛ ليكون هذا استعدادًا لمعركتين قادمتين من أعنف معارك هذه المرحلة، وهي: غزوة بني المصطلق، وما تلاها من آثار إيجابية وسلبية، ثم غزوة الخندق التي مثلت قمة التخطيط المعادي للإسلام، وكان الهُوي بعدها إلى المنحدر، ولم تكن غزوة دومة الجندل إلا إعدادًا عسكريًّا نفسيًّا وتربويًّا لهذه المواجهة». [**التربية القيادية للغضبان ٣/ ٣٧٢-٣٧٣**].

٢ ـ التربية على الطاعة والانضباط للأمير:

يقول د/ الغضبان: «ومن مخططات التربية كذلك أن يكون والي المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ﷺ في تجربة جديدة، فهو ليس أوسيًّا ولا خزرجيًّا ولا قرشيًّا، بل من غفار التي كانت تعتبر من سُرَّاق الحجيج عند العرب، فلا بد لهذا الجيل أن يتربى على الطاعة والانضباط للأمير أيًّا كان شأن هذا الأمير، ولابد أن تذوب الفوارق الطبقية في القبيلة والعشيرة، ويخضع الأوس والخزرج والقرشيون لأمير من غفار، ولا شك أن الكثير من المنافقين لا يزالون في المدينة، وقد يكون عبد الله بن أُبي على رأسهم، وهم أعجز من أن يشكِّلوا استعصاء أو مواجهة للأمير الذي ولاه الرسول ﷺ، والمؤمنون الموجودون قادرون على أن يكبحوا جماح هذا الاستعصاء.

ولولا ثقة الرسول ﷺ بكفاءة أميره (سباع بن عرفطة الغفاري ﷺ) وعبقريته وقدرته على الإدارة الحازمة، ولولا ثقته بالجيل الذي رباه، لما أقدم النبي ﷺ على هذه الإمارة، إنه ﷺ يربي أصحابه وهو غائب عن المدينة في تحويل أبناء العشائر والقبائل إلى أبناء الأمة الواحدة المسلمة التي تسمع وتطيع، ولو كان عليها عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيهم كتاب الله». [**التربية القيادية للغضبان ٣/ ٣٧٤**].

٣ ـ أهمية عنصر المفاجأة في الحرب:

يقول م/ أبو راس: «أراد الرسول ﷺ أن يلقن العرب في شمال الجزيرة العربية الذين كانوا لا يخشون أحدًا بعد القيصر بعد أن ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا ذنبًا وأداة في يد القيصر ليؤدب بهم من يخرج عن طاعته من العرب!

ولم يكن القيصر يتوقع في يوم من الأيام أن يكون للضائعين وللتائهين وللهائمين على وجوههم قوة تهدد ملكه، ولم يكن القيصر يعتقد أن ملكه سيزول على أيدي هؤلاء العرب الذين عهده بهم لا هَمَّ لهم إلا السلب والنهب والانكباب على الشهوات والملذات، التي في سبيلها يقتلون بعضهم بعضًا، ويسلبون بعضهم بعضًا، ويبيعون بعضهم بعضًا للقياصرة أو للأكاسرة؛ لذا فلقد اجتمع متنصرة العرب، لما سمعوا بالقوة المتنامية في المدينة المنورة ـ في «دومة الجندل» وذلك لمهاجمة المدينة المنورة، إلا أنه ﷺ لم ينتظر

الغزاة حتى يدهموا المدينة ولكنه خرج في ألف من المسلمين يكمن بهم نهارًا، ويسير بهم ليلًا، فما أن بلغو مضارب أعدائهم مجتمعين للإغارة على المدينة حتى اجتاحوهم مباغتين ففزعت الجموع، وفرت في كل اتجاه، وأقام ﷺ عدة أيام يبعث السرايا هنا وهناك، فما صمد أحد في وجه بعوثه ﷺ».

[تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٣٠-٢٣١].

البراعة الحربية للنبي ﷺ: يقول د/ الحميدي: «ويظهر في هذا الخبر براعة النبي ﷺ في الإدارة الحربية حيث وصل إلى دومة الجندل في أقصى شمال الجزيرة وهو يقود جيشًا كبيرًا نسبيًّا، فلم يعلم به أهل تلك البلاد حتى فاجأهم قبل أن يجتمعوا له ويُعدوا العدة للقائه، وبهذه الإدارة الحكيمة جَنَّبَ النبي ﷺ أصحابه خوض معركة قد تكون شاقة عليهم مع حصول المسلمين على المكاسب الحربية التي أرادوها، من إضعاف عدوهم معنويًّا وماديًّا، وإرهابهم حتى لا يفكروا مرة أخرى بغزو المسلمين».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٦٩ -٧٠].

٤ ـ دقة الرصد الحربي وسرعة اتخاذ القرار:

يقول د/ قلعه جي: «لقد كان على رسول الله ﷺ أن يتابع نشاطه العسكري لنشر الأمن في الصحراء؛ ولإقناع القبائل العربية بأن السيادة على الصحراء للدولة الإسلامية دون غيرها، وأن أي تحرك ضدها سيكون وبالًا على صاحبه؛ ولذلك فإن رسول الله ﷺ لما سمع بأن القبائل الضاربة عند دومة الجندل يؤذون من مر بهم، وأن طيشهم قد دفعهم إلى التفكير بمهاجمة المدينة المنورة، توجه إليهم فورًا ﷺ».

[قراءة سياسية لقلعه جي ١٧٤].

ويقول د/ الحميدي: «وهذا الخبر يدلنا على دقة الرصد الحربي عند المسلمين في العهد النبوي، حيث علم الرسول ﷺ بما هَمَّ به أهل دومة الجندل من الزحف على المدينة ومهاجمة المسلمين، فقام بهذه الغزوة الموفقة التي أدت إلى تلك النتائج الطيبة لصالح المسلمين». **[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٦٩].**

٥ ـ سِرِّيَّة الحركة في الأمور العسكرية:

يقول د/ أبو فارس: «إن سِرِّيَّة الحركة في الأمور العسكرية أمر في غاية الأهمية، وكثير من هذه الأمور تعتمد على التستر والتخفي في السير والحركة، وقد كان رسول الله ﷺ يسلك أساليب مختلفة في التستر، وفي غزوة دومة الجندل كان أسلوبه أن يسير بالليل وأن يكمن بالنهار حتى لا تشيع أخباره وتُنقل أسراره، وتتعقبه عيون الأعداء، ومن ثم تتخذ التدابير الوقائية اللازمة، وترسم خطتها بناء على ما لديها من معلومات». **[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٠].**

ويقول عميد/ فرج: «وكان الرسول ﷺ يسير ليلًا ويكمن نهارًا، وهذا إجراء يتصف من وجهة النظر العسكرية بالحكمة والفهم وحسن التقدير، ذلك أن التحرك يتم في منطقة صحراوية جرداء، حيث لا

ظل يحمي المتحركين من الشمس ويقيهم حرارتها، وكذلك كان الوقت صيفًا والتحرك ليلًا أخف وأيسر، هذا فوق أن التحرك ليلًا كتمان للسير ومانع للاستكشاف؛ مما يحقق المفاجأة، وهي من العوامل الرئيسة لنجاح الخطة؛ لأنها تعني إخفاء نية وقوة وموعد واتجاه الضربة». [**العبقرية العسكرية لفرج ٢٧٠**].

٦ ـ المبشرات بالفتوحات الإسلامية:

يقول د/ العيساوي: «تعتبر غزوة دومة الجندل أول غزوة غزاها المسلمون لأرض الشام، ويُعد هذا إنذارًا للروم الذين يسيطرون على الشام، وبعثت الأمل في نفوس المسلمين بأنهم سيفتحون ملك قيصر كما سيفتحون ملك كسرى». [**فقه الغزوات للعيساوي ٢٨٠**].

٧ ـ بسط نفوذ المسلمين:

يقول د/ هيكل: «دومة الجندل واحة على حدود ما بين الحجاز والشام، تقع في منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس، وأنت ترى من هذا التحديد الجغرافي لدومة الجندل مبلغ ما اتسع نفوذ محمد ﷺ وأصحابه، وما بلغ إليه سلطانهم وخوف شبه الجزيرة إياهم، كما ترى كيف كان المسلمون يحتملون المتاعب في غزواتهم، مستهينين بالقيظ والجدب وقلة الماء، مستهينين بالموت نفسه، يحركهم إلى هذا النصر والظفر شيء واحد هو سبب قوتهم المعنوية: الإيمان بالله وحده لا شريك له». [**حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٢٤**].

ويقول د/ الوكيل: «إن وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه في أن يرعى بإبله وغنمه في أرض بينها وبين المدينة ستة وثلاثون ميلًا ـ أي ما يقرب من خمسة وستين كيلو مترًا ـ لدليل قاطع على مدى ما وصلت إليه قوة المسلمين، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للناس في هذه المنطقة، وأن هذه المناطق النائية كانت ضمن حدود الدولة الإسلامية، وأن الدولة أصبحت منيعة، ليس في مقدور أحد أن يعتدي عليها، ولو كان ذلك في استطاعة أحد، لكان هو عيينة بن حصن الذي كان يغضب لغضبته عشرة آلاف فتى». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧٠**].

٨ ـ ميزات غزوة دومة الجندل:

يقول د/ أبو شهبة في ذلك:

(١) أنها أول غزوة بعيدة عن المدينة من جهة الشام، إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليال، وقد كانت بمثابة إعلان دعوة الإسلام بين سكان البوادي الشمالية وأطراف الشام الجنوبية، وأحسوا بقوة الإسلام وسطوته، كما كانت إرهابًا لقيصر وجنده.

(٢) أن سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدوها من قبل؛ ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقيا فيما بعد». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٥١-٢٥٢].

٩ ـ قيمة الرحمة:

يقول أ/ فتح الباب: «ومن مناقب النبي ﷺ في تلك الغزوة أنه ﷺ عاهد عيينة بن حصن الفزاري ـ وكان من أعراب تلك المنطقة ـ أن يتركه المسلمون يرعى هو وقومه في رقعة تمتد من تغلمين إلى المراض، إذ كانت بلاده قد أجدبت على حين أخصب ما يجاورها من بقاع، وتلك قيمة الرحمة التي تشمل المحتاجين جميعًا أنصارًا وأعداء في السلم وفي الحرب معًا، قيمة غوث الملهوف والإحسان إلى الإنسان ومهما اختلف جنسه أو لونه أو معتقده». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٢٤-١٢٥].

١٠ ـ القضاء على العراقيل أمام الدعوة:

يقول أ/ رضوان: «وقد استطاع الرسول القائد ﷺ بجيشه الذي لا يزيد تعداده عن ألف من الجنود، وباتباع خطة المفاجأة الكاملة بسيره ليلًا وكمونه نهارًا أن يلحق الهزيمة المريرة بتلك القبائل الكثيرة العَدد والعُدد، وأن يبدد شملهم، ويغنم الكثير من أموالهم.

وقد عاد الرسول القائد ﷺ بعد شهر إلى المدينة، بعد أن حذَّر الإمبراطورية الرومانية ـ ومن يدور في فلكها من قبائل العرب ـ بأن أمة الإسلام الفتية الناشئة لن تتهاون في كبح جماح المعتدين، ولن تتوانى عن إقامة العدل في كل بقاع الأرض العربية، وأن هذه الأمة المسلمة المشرقة بنورها على العالم المظلم بالشرك والظلم والاستبداد لا تخاف قيصر في عَدده وعُدته.

ولا شك في أن هذه الغزوة المباركة قد حققت كل أهدافها، ووطدت هيبة الإسلام والمسلمين في كل بقاع الجزيرة العربية، وفتحت الطريق أمام مواصلة الزحف الإسلامي، الذي يحمل مشاعل النور والعدل والتوحيد إلى ربوع الإمبراطورية الرومانية فيما بعد». [محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٤].

«ورجع النبي ﷺ مع أصحابه فرحين مستبشرين إلى المدينة بعد أن طهر وكرًا آخر من أوكار العدو ممهدًا الطريق لانتشار نور التوحيد وسيادة كلمة الحق وانتصار رواد القيم الفاضلة على المبطلين والمستغلين». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٢٥].

الفصل الخامس
غزوة بني المُصْطَلِقِ (المُرَيْسِيعِ)
السبت الثاني من شعبان ٥هـ/ ٢٨ ديسمبر ٦٢٦م/ ١ طوبة ٣٤٣ قبطي
المبحث الأول
عرض غزوة بني المُصْطَلِقِ (المُرَيْسِيعِ)

بنو المُصْطَلِقِ:

يقول د/ رزق الله: «يتفق النسابون على أن بني المصطلق بطن من بطون قبيلة خزاعة، ويرى أكثرهم أن خزاعة قبيلة قحطانية يمنية [ينظر: **نهاية الأرب للنويري ٢/ ٣٣٢، وقلائد الجمان للقلقشندي ص٩٣، والسيرة لابن هشام ١/ ١٣٦**]، ويلتقون في نسبهم مع الأوس والخزرج في عمرو بن عامر، الجد الثاني للأوس والخزرج والرابع لبني المصطلق [**الطبقات لخليفة بن خياط ص ٧٦، ١٠٧**]، وكانوا يسكنون قَديدًا [(١)]، وعسفان[(٢)] في منطقة متوسطة لديار خزاعة المنتشرة على الطريق من المدينة إلى مكة ما بين مَرِّ الظَّهْرَان[(٣)] وبين الأَبْوَاء[(٤)].

ولهذا الموقع أهمية كبرى في الصراع بين المسلمين وقريش على طريق القوافل التجارية، وقد عُرفت بموقفها المسالم للمسلمين في هذا الصراع، على الرغم مما عليه خزاعة من الشرك ووجود صنم مناة [(٥)] على هضبة المُشَلَّل [(٦)] بقَديد من ديارهم، ويحج إليه العرب، وعلى الرغم من قربهم إلى مكة، وما كان بينهم وبين قريش من أحلاف قديمة وربما كان ذلك لسببين رئيسين:

---

(١) **قديد**: يقع شمال خليص بثلاثة عشر وثلث كيلو مترات؛ لأن الحربي ذكر أن المسافة بين خليص وقديد ثمانية أميال، والميل يساوي كيلو وثلثين، وبقديد ماء المريسيع الذي غزاهم الرسول ﷺ، وكديد غير قديد وهو جنوب بـ ٤٢ كيلو مترًا.

(٢) المناسك للحربي ص ٤٥٨- ٤٦٣. وتبعد عسفان عن مر الظهران (وادي فاطمة) ٥٠ كيلو مترًا شمالًا وعن مكة ٨٠ كيلو مترًا. ينظر: مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ص ٧٥.

(٣) مَرُّ الظَّهْرَان: هو وادي فاطمة بينه وبين مكة ثلاثون كم، وشرقي مستورة بثلاثة أكيال. ينظر: مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٧٣-٧٤.

(٤) **الأَبْوَاء**: تبعد عن مكة ٢٤٠ كيلًا. ينظر: مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ص ٧٨-٨٠.

(٥) **مناة الطاغية**: اسم صنم في جهة البحر مما يلي قديدًا بالمشلل على سبعة أميال من المدينة، وكان الأزد وغسان يهلون له ويحجون إليه، معجم البلدان لياقوت الحموي ٥/ ٢٠٤، ومعجم المعالم الجغرافية ٣٠٣، وذكر أن موقعه كان في بلدة صَعْبَر اليوم بين رابغ وخليص. مرويات الزهري في المغازي للعواجي ١/ ٤٤٦.

(٦) **المُشَلَّل**: وهي ثنية تأتي أسفل قديد من الشمال إذا كنت في بلدة (صعبر) بين رابغ والقضيمة، كانت المشلل مطلع الشمس مع ميل إلى الجنوب، وحرة المشلل هي التي تراها من تلك القرية سوداء مدلهمة. معجم المعالم ٢٩٨. مرويات الزهري في المغازي للعواجي ١/ ٤٤٦.

الأول: لصلاتهم القديمة بعبد المطلب جد الرسول ﷺ ومحالفتهم له، إذ إن العداء القديم بينهم وبين قريش والذي انتهى بإخراجهم من مكة في العهود القديمة [ابن هشام ١/ ١٧٣ بإسناد صحيح، فتح الباري ١٤/ ٢٠ كتاب أحاديث الأنبياء باب قصة خزاعة]، قد تبلور قبل ظهور الإسلام، واتخذ شكل صراع شبه دائم بينهم وبين بني بكر من كنانة، الذين كانوا في حلف مع قريش، وقد دفعهم هذا الوضع الأمني الخطير إلى السعي لمحالفة عبد المطلب.

وقد روي أن الرسول ﷺ قد أقر هذا الحلف عندما جاءته خزاعة بنص الوثيقة يوم الحديبية في العام السادس الهجري. [الواقدي ٢/ ٧٨١-٧٨٢، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٧٨-٢٧٩].

ولعل وجود مناة في ديارهم والاستفادة من ذلك ماديًّا ومعنويًّا هو الذي أبطأ بحركة انتشار الإسلام وسط خزاعة عامة وبني المصطلق خاصة، كما كان الحال في مكة. [المجتمع المدني ـ الجهاد للعمري ص ٩٤].

وأول موقف وقفته خزاعة ضد المسلمين هو انضمامهم لجيش الأحابيش (هم من انضم إلى قريش من غيرها، وتحبشوا: أي اجتمعوا، وهم القارة عضل والديش أبناء الهون بن خزيمة) الذي ساند الجيش المكي في غزوة أحد. [المغازي للواقدي ١/ ٢٠٠]. [السيرة النبوية لرزق الله ٤٣١-٤٣٢].

تاريخ الغزوة:

يقول د/ العلي: «اختلف العلماء في ذلك، وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوال:

١ـ فمن قائل إنها **في شعبان سنة ست**، قال بذلك ابن إسحاق إمام المغازي[1]، وتبعه على ذلك خليفة بن خياط، وابن جرير الطبري، وابن حزم، وابن عبد البر، وابن العربي، وابن الأثير وابن خلدون، فقد صرح كل منهم بأن غزوة بني المصطلق كانت **في شعبان من السنة السادسة للهجرة**.

٢ـ ولابن حزم رأي آخر، وافقه عليه عدد من العلماء، منهم: مالك بن أنس، وموسى بن عقبة، والبخاري، وابن قتيبة، ويعقوب بن سفيان الفسوي، والنووي، وابن خلدون، أنها كانت **في شعبان من العام الرابع للهجرة**.

٣ ـ وذهبت طائفة إلى أنها كانت **في شعبان من السنة الخامسة للهجرة**، وذهب إلى هذا القول: موسى بن عقبة، وأبو معشر، والواقدي، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذهبي، وابن القيم، وابن حجر العسقلاني، وابن كثير، رحمهم الله.

ومن المحْدَثين: الخضري بك، والغزالي، والبوطي، وأبو شهبة، والشيخ البنا الساعاتي، والصابوني.

---

(١) قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَذَلِكَ سَنَةَ سِتٍّ، وَقَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ: سَنَةَ أَرْبَعٍ، وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ رَاشِدٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ: كَانَ حَدِيثُ الإِفْكِ فِي غَزْوَةِ الْمُرَيْسِيعِ. البخاري في المغازي باب غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ وَهْيَ غَزْوَةُ الْمُرَيْسِيعِ.

وهذا القول هو الأصح والأظهر، والله أعلم؛ لأن الأدلة متظاهرة ومتفقة على تأييد هذا القول».

[صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٤٥-٢٤٦].

وقد عرض الدكتور قريبي هذه الآراء الثلاثة، وسرد أقوال أصحابها، وقام بعرض الردود على الرأيين الأول والثاني، ومؤيدات الرأي الثالث، وخلص إلى أن الصحيح أنها كانت في شعبان سنة خمس للهجرة. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١١٥-١٣٣].

أسباب الغزوة:

من أهم الأسباب لهذه الغزوة:

١ـ تأييد هذه القبيلة لقريش وتكتلها معها في معركة أُحد ضد المسلمين، وذلك ضمن كتلة الأحابيش[1] التي كانت في الجيش المكي.

٢ـ سيطرة هذه القبيلة على الخط الرئيس المؤدي إلى مكة، فكانت حاجزًا منيعًا من نفوذ المسلمين إلى مكة.

٣ ـ من أهم الأسباب في هذه الغزوة أن قبيلة بني المصطلق أخذت تجمع الجموع لغزو المدينة المنورة، وقد أطمعها في التفكير في غزو المدينة والتصميم على ذلك، انتصار المشركين في غزوة أحد، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك أعد عدته، واتخذ التدابير المناسبة، وباغتهم في مكانهم، وهزمهم شر هزيمة.

[صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٤٨].

فإن الاستخبارات الإسلامية نقلت إلى النبي ﷺ نبأ مفاده أن سيد بني المصطلق (الحارث بن أبي ضرار) [2] قد أخذ يحشد قومه ومن أطاعه من القبائل المجاورة لحرب رسول الله ﷺ، وأنه قد جمع جموعًا كبيرة يريد بها غزو المدينة. [غزوة الأحزاب لباشميل ٨٣].

وروى الواقدي عن شيوخه: «قَالُوا: إِنَّ بَلْمُصْطَلِقَ مِنْ خُزَاعَةَ كَانُوا يَنْزِلُونَ نَاحِيَةَ الْفُرُعِ (من أعمال المدينة)، وَهُمْ حُلَفَاءُ فِي بَنِي مُدْلِجٍ، وَكَانَ رَأْسُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي ضِرَارٍ، وَكَانَ قَدْ سَارَ فِي قَوْمِهِ وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْ الْعَرَبِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَابْتَاعُوا خَيْلًا وَسِلاحًا وَتَهَيَّؤُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٤].

---

(١) **الأحابيش**: هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة، وسمو بذلك لأنهم تحالفوا وتعاقدوا مع قريش على أنهم يد على من سواهم، وكان ذلك عند جبل بأسفل مكة يقال له حبشي فنسبوا إليه، وقيل سموا بذلك لتجمعهم والتحبش التجمع، والحباشة الجماعة، لسان العرب ابن منظور ٨/ ١٦٦، القاموس المحيط الفيروز آبادي ٢/ ٢٦٧.

(٢) هو الحارث بن أبي ضرار بن خبيب بن عائذ بن مالك بن المصطلق الخزاعي، قائد هذه القبيلة العظيمة في تلك المعركة الخاسرة، وهو والد جويرية أم المؤمنين، أسلم بعد غزوة بني المصطلق، وحسن إسلامه، كما سيأتي.

وروى ابن إسحاق عن شيوخه: «قَالُوا: بَلَغَ رَسُولُ الله ﷺ أَنَّ بني الـمُصْطَلِقِ يَجْمَعُونَ لَهُ، وَقَائِدُهُمُ الْحَارِثُ بن أَبِي ضِرَارٍ أَبُو جُوَيْرِيَةَ بنتِ الْحَارِثِ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ».

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٧ كتاب المغازي والسير(١٠١٧٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني(في الكبير ٢٤/ ٦٠-٦١) ورجاله ثقات. و السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٠، وقال العلي: سنده صحيح. صحيح السيرة النبوية ص ٢٤٨].

الاستخبارات النبوية:

سارع الرسول ﷺ وأرسل أحد استخباراته الأذكياء المحنكين ليستطلع له وينظر فيما إذا كان الخبر الذي تلقاه صحيحًا أم لا، وكان الذي وقع عليه الاختيار لهذه المهمة هو بريدة بن الحصيب الأسلمي ﷺ.

[هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله الأسلمي، قال ابن السكن: أسلم حين مر به النبي ﷺ - مهاجرًا - بالغميم].

قال الواقدي: «وَجُعِلَتْ الرُّكْبَانُ تَقْدُمُ مِنْ نَاحِيَتِهِمْ فَيُخْبِرُونَ بِمَسِيرِهِمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ، فَبَعَثَ بُرَيْدَةَ بْنَ الْحَصِيبِ الأَسْلَمِيَّ ﷺ يَعْلَمُ عِلْمَ ذَلِكَ، وَاسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَقُولَ: فَأَذِنَ لَهُ، فَخَرَجَ حَتَّى وَرَدَ عَلَيْهِمْ مَاءَهُمْ فَوَجَدَ قَوْمًا مَغْرُورِينَ قَدْ تَأَلَّبُوا (تجمعوا) وَجَمَعُوا الْجُمُوعَ، فَقَالُوا: مَنِ الرَّجُلُ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْكُمْ قَدِمْتُ لِمَا بَلَغَنِي عَنْ جَمْعِكُمْ لِهَذَا الرَّجُلِ فَأَسِيرُ فِي قَوْمِي وَمَنْ أَطَاعَنِي فَتكُونُ يَدُنَا وَاحِدَةً حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ: فَنَحْنُ عَلَى ذَلِكَ فَعَجِّلْ عَلَيْنَا.

قَالَ بُرَيْدَةُ ﷺ: أَرْكَبُ الآنَ فَآتِيكُمْ بِجَمْعٍ كَثِيفٍ مِنْ قَوْمِي وَمَنْ أَطَاعَنِي، فَسُرُّوا بِذَلِكَ مِنْهُ، وَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَ الْقَوْمِ». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٤-٤٠٥].

وقبل أن يغادر رجل الاستخبارات النبوية المدينة طلب من الرسول ﷺ أن يسمح له باللجوء إلى الكذب على العدو إذا ما اضطر إلى ذلك أثناء قيامه بمهمته في أرض العدو، فسمح له بذلك كضرورة يلجأ إليها رجل الاستخبارات في مثل هذه المواقف.

وقد استقى الحقيقة من مصدرها إذ قابل قائد الحشد الحارث بن أبي ضرار نفسه.

الاستنفار العام:

لما استيقن الرسول ﷺ من الخبر استنفر ﷺ قوات الجيش وأعلن أنه ذاهب إلى ديار بني المصطلق لضربهم وتأديبهم، فتمت التعبئة بسرعة، وفصل النبي ﷺ من المدينة بجيش كبير فيه من سلاح المطاردة ثلاثون فرسًا.

قال الواقدي: «فَنَدَبَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ عَدُوِّهِمْ، فَأَسْرَعَ النَّاسُ لِلْخُرُوجِ وَقَادُوا الْخُيُولَ، وَهِيَ ثَلاثُونَ فَرَسًا، فِي الْمُهَاجِرِينَ مِنْهَا عَشَرَةٌ، وَفِي الأَنْصَارِ عِشْرُونَ، وَلِرَسُولِ الله ﷺ فَرَسَانِ، وَكَانَ عَلِيٌّ فَارِسًا، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله، وَالْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو ﷺ.

وَفِي الأَنْصَارِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَأَبُو عَبْسِ بْنُ جَبْرٍ، وَقَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَعُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ، وَمَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ، وَسَعْدُ بْنُ زَيْدٍ الأَشْهَلِيُّ، وَالْحَارِثُ بْنُ حَزْمَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو قَتَادَةَ، وَأُبَيُّ ابْنُ كَعْبٍ، وَالْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ، وَزِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ، وَفَرْوَةُ بْنُ عَمْرٍو، وَمُعَاذُ بْنُ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ رضي الله عنهم».

[المغازي للواقدي ١/ ٤٠٥].

أمير على المدينة:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَاسْتَعْمَلَ عَلَى المدِينَةِ أَبَا ذَرٍّ الْغِفَارِيَّ رضي الله عنه، وَيُقَالُ: نُمَيْلَةُ بْنُ عَبْدِ الله اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٩].

وقيل: اسْتَعْمَلَ عَلَى المدِينَةِ زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ رضي الله عنه. [طبقات ابن سعد٢/ ٦٠، زاد المعاد ٣/ ٢٥٧].

تقسيم الجيش:

وقد قسَّم النبي صلى الله عليه وسلم جيشه الزاحف على بني المصطلق إلى قسمين:

أ ـ المهاجرين، وأعطى رايتهم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ب ـ الأنصار، وأعطى رايتهم لسيد الخزرج سعد بن عبادة رضي الله عنه.

المنافقون في الجيش:

وفي هذه الحملة خرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم جمع كبير من المنافقين لم يخرج مثله في غزاة مثلها قط، وكان من بين هؤلاء المنافقين رأس النفاق عبد الله بن أُبي بن سلول.

قال الواقدي: «قَالُوا: وَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بَشَرٌ كَثِيرٌ مِنْ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يَخْرُجُوا فِي غَزَاةٍ قَطُّ مِثْلِهَا، لَيْسَ بِهِمْ رَغْبَةٌ فِي الْجِهَادِ إِلَّا أَنْ يُصِيبُوا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا (المتاع، وكل شيء فهو عرض سوى الدراهم والدنانير فإنها عين)، وَقَرُبَ عَلَيْهِمْ السَّفَرُ». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٥].

مسير الجيش الإسلامي وإسلام رجل من عبد القيس:

قال الواقدي: «فَخَرَجَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حَتَّى سَلَكَ عَلَى الْخَلَائِقِ (مكان به مزارع وآبار قرب المدينة) فَنَزَلَ بِهَا، فَأُتِيَ يَوْمَئِذٍ بِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«أَيْنَ أَهْلُكَ؟»**، قَالَ: بِالرَّوْحَاءِ (من عمل الفرع)، قَالَ: **«أَيْنَ تُرِيدُ؟»**، قَالَ: إِيَّاكَ جِئْتُ لأُومِنَ بِكَ وَأَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ الْحَقُّ، وَأُقَاتِلَ مَعَكَ عَدُوَّكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَاكَ لِلإِسْلامِ»**، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ: **«الصَّلاةُ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا»**، قَالَ: فَكَانَ الرَّجُلُ بَعْدَ ذَلِكَ يُصَلِّي حِينَ تَزِيغُ الشَّمْسُ، وَحِينَ يَدْخُلُ وَقْتُ الْعَصْرِ، وَحِينَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ، لا يُؤَخِّرُ الصَّلاةَ إِلَى الْوَقْتِ الآخَرِ».

[المغازي للواقدي ١/ ٤٠٥-٤٠٦].

وقال الواقدي: «حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ الْفَضِيلِ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ مَسْعُودِ ابْنُ هُنَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم بِبَقْعَاءَ، فَقَالَ: **«أَيْنَ تُرِيدُ يَا مَسْعُودُ؟»**، فَقُلْتُ: جِئْتُ لأَنْ أُسَلِّمَ عَلَيْكَ،

وَقَدْ أَعْتَقَنِي أَبُو تَمِيمٍ، قَالَ: «**بَارَكَ اللهُ عَلَيْكَ، أَيْنَ تَرَكْتَ أَهْلَكَ؟**» قَالَ: تَرَكْتُهُمْ بِمَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِالْخَذَوَاتِ، وَالنَّاسُ صَالِحُونَ، وَقَدْ رَغِبَ النَّاسُ فِي الإِسْلامِ وَكَثُرَ حَوْلَنَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلِلَّهِ الْحَمْدُ الَّذِي هَدَاهُمْ**»، ثُمَّ قَالَ مَسْعُودٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَأَيْتَنِي أَمْسِ وَلَقِيتُ رَجُلًا مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ فَدَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلامِ فَرَغَّبْتُهُ فِيهِ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَإِسْلامُهُ عَلَى يَدَيْكَ كَانَ خَيْرًا لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ غَرَبَتْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**كُنْ مَعَنَا حَتَّى نَلْقَى عَدُوَّنَا، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُنَفِّلَنَا اللهُ أَمْوَالَهُمْ**».

قَالَ: فَسِرْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى غَنَّمَهُ اللهُ أَمْوَالَهُمْ وَذَرَارِيَّهُمْ، فَأَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ قِطْعَةً مِنْ إِبِلٍ وَقِطْعَةً مِنْ غَنَمٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أَقْدِرُ أَنْ أَسُوقَ الإِبِلَ وَمَعِي الْغَنَمُ؟ اجْعَلْهَا غَنَمًا كُلَّهَا أَوْ إِبِلًا كُلَّهَا، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّ ذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟**» قُلْتُ: تَجْعَلُهَا إِبِلًا، قَالَ: «**أَعْطِهِ عَشْرًا مِنْ الإِبِلِ**» قَالَ: فَأُعْطَيْتُهَا، فَيُقَالُ لَهُ: قَارَعَهُ مِنْ المَالِ، أَوْ مِنَ الْخُمُسِ؟ قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي، فَرَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي، فَوَاللهِ مَا زِلْنَا فِي خَيْرٍ مِنْهَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٩].

الصلاة على البعير:

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يُصَلِّي عَلَى بَعِيرِهِ فَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ لِي بِيَدِهِ هَكَذَا - وَأَوْمَأَ زُهَيْرٌ بِيَدِهِ - ثُمَّ كَلَّمْتُهُ، فَقَالَ لِي هَكَذَا - فَأَوْمَأَ زُهَيْرٌ أَيْضًا بِيَدِهِ نَحْوَ الْأَرْضِ - وَأَنَا أَسْمَعُهُ يَقْرَأُ، يُومِئُ بِرَأْسِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: «**مَا فَعَلْتَ فِي الَّذِي أَرْسَلْتُكَ لَهُ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُكَلِّمَكَ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أُصَلِّي**».

قَالَ زُهَيْرٌ: وَأَبُو الزُّبَيْرِ جَالِسٌ مُسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: بِيَدِهِ أَبُو الزُّبَيْرِ إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَقَالَ: بِيَدِهِ إِلَى غَيْرِ الْكَعْبَةِ. [مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٤٠)، ومسند أحمد ٢٢/ ٢٤٧ رقم ١٤٣٤٥، ٢٣/ ١٢ رقم ١٤٦٤٣].

الجمع بين المغرب والعشاء:

عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلْتُ جَابِرًا ﷺ: هَلْ جَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، زَمَانَ غَزْوِنَا بَنِي الْمُصْطَلِقِ.

[مسند أحمد ٢٣/ ٧٩ رقم ١٤٧٤٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف لسوء حفظ ابن لهيعة].

جاسوس بني المصطلق:

قال الواقدي: «قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ بِبَقْعَاءَ أَصَابَ عَيْنًا لِلْمُشْرِكِينَ، فَقَالُوا لَهُ: مَا وَرَاءَكَ؟ أَيْنَ النَّاسُ؟ قَالَ: لا عِلْمَ لِي بِهِمْ.

فَحَدَّثَنِي هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ يَعْقُوبَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ طَلْحَةَ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: لَتَصْدُقَنَّ أَوْ لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، قَالَ: فَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَلْمُصْطَلِقِ، تَرَكْتُ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي ضِرَارٍ قَدْ جَمَعَ لَكُمْ الْجُمُوعَ وَتَجَلَّبَ إِلَيْهِ نَاسٌ كَثِيرٌ، وَبَعَثَنِي إِلَيْكُمْ لآتِيَهُ بِخَبَرِكُمْ وَهَلْ تَحَرَّكْتُمْ مِنْ الْمَدِينَةِ؟، فَأَتَى عُمَرُ ﷺ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ

فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَدَعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الإِسْلامِ وَعَرَضَهُ عَلَيْهِ فَأَبَى، وَقَالَ: لَسْتُ بِمُتَّبِعٍ دِينكُمْ حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ قَوْمِي؛ إِنْ دَخَلُوا فِي دِينِكُمْ كُنْتُ كَأَحَدِهِمْ، وَإِنْ ثَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ فَأَنَا رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ الله، أَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَقَدَّمَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَضَرَبَ عُنُقَهُ، فَذَهَبَ الْخَبَرُ إِلَى بَلْمُصْطَلِقَ.

فَكَانَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ تَقُولُ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَتْ: جَاءَنَا خَبَرُهُ وَمَقْتَلُهُ وَمَسِيرُ رَسُولِ الله ﷺ قَبْلَ أَنْ يَقْدِمَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، فَسِيءَ أَبِي وَمَنْ مَعَهُ، وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا، وَتَفَرَّقَ عَنْهُمْ مَنْ كَانَ قَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَفْنَاءِ الْعَرَبِ (رجل من أفناء الناس، أي لم يعلم من هو، الواحد فنو، وقيل: هو من الفناء، وهو المتسع أمام الدار)، فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَاهُمْ». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٥-٤٠٦].

شعار المعركة:

عَنْ سِنَانِ بن وَبَرَةَ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ غَزْوَةَ الْمُرَيْسِيعِ، فَكَانَ شِعَارُنَا: **يَا مَنْصُورُ، أَمِتْ أَمِتْ** (قال الصالحي: «يا منصور أمت»: أمر بالموت، والمراد به التفاؤل بالنصر بعد الإماتة مع حصول الغرض للشعار، فإنهم جعلوا هذه الكلمة علامة بينهم يتعارفون بها؛ لأجل ظلمة الليل)».

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٧ كتاب المغازي والسير (١٠١٧٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير (٧/ ١١٩ رقم ٦٤٩٦) وإسناد الكبير حسن، ووافقه العلي في صحيح السيرة النبوية ٢٥٠، وقريبي في مرويات غزوة بني المصطلق ١٤٣-١٤٧. السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٤، المغازي للواقدي ١/ ٤٠٧].

الإغارة على بني المصطلق وهم غارُّون:

عن ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ، فَكَتَبَ إِلَيَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الـمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ (غافلون)، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ.

حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ.

ولفظ مسلم: عَنْ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ عَنْ الدُّعَاءِ قَبْلَ الْقِتَالِ؟ قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، قَدْ أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الـمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ (غافلون)، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى سَبْيَهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ ـ قَالَ يَحْيَى أَحْسِبُهُ قَالَ ـ جُوَيْرِيَةَ، أَوْ قَالَ: الْبَتَّةَ ابْنَةَ الْحَارِثِ.

وقَالَ أَبُو دَاوُد بعد إيراده: هَذَا حَدِيثٌ نَبِيلٌ، رَوَاهُ ابْنُ عَوْنٍ عَنْ نَافِعٍ، وَلَمْ يُشْرِكْهُ فِيهِ أَحَدٌ.

[البخاري في العتق (٢٥٤١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣٣)، ومسند الشافعي ٦٠/ ٢٤٤، ومسند أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما رقم ٤٨٥٧، ٥١٢٤، وشرح معاني الآثار للطحاوي كتاب السير ٣/ ٢٠٩، والسنن الكبرى للبيهقي في باب قسمة الغنيمة في دار الحرب ٩/ ٥٤، ٩/ ١٠٧، باب جواز ترك دعاء من بلغته الدعوة، وكتاب الأموال لأبي عبيد ص ١٧٥ باب الحكم في رقاب أهل العنوة من الأسرى والسبي، وكتاب المعارف لابن قتيبة ص ٦١، والاعتبار للحازمي ص ٢١١- ٢١٢].

وعن ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ: مَا أَقْعَدَ ابْنَ عُمَرَ ﷺ عَنْ الْغَزْوِ، وَعَنِ الْقَوْمِ إِذَا غَزَوْا بِمَا يَدْعُونَ الْعَدُوَّ قَبْلَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ، وَهَلْ يَحْمِلُ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ فِي الْكَتِيبَةِ بِغَيْرِ إِذْنِ إِمَامِهِ؟ فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّ ابْنَ عُمَرَ قَدْ كَانَ يَغْزُو وَلَدُهُ، وَيَحْمِلُ عَلَى الظَّهْرِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ أَفْضَلَ الْعَمَلِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَى، وَمَا أَقْعَدَ ابْنَ عُمَرَ عَنْ الْغَزْوِ إِلَّا وَصَايَا لِعُمَرَ، وَصِبْيَانٌ صِغَارٌ، وَضَيْعَةٌ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الـمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ (غافلون)، يَسْقُونَ عَلَى نَعَمِهِمْ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى سَبَايَاهُمْ، وَأَصَابَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ.

قَالَ: فَحَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ ابْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ فَلَا يَحْمِلُ عَلَى الْكَتِيبَةِ إِلَّا بِإِذْنِ إِمَامِهِ.

[مسند أحمد ٨/ ٤٧٧-٤٧٨، رقم ٤٨٧٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

رواية نشوب المعركة وانهزام العدو:

عَنْ مُحَمَّدِ بن إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بنُ عُمَرَ بن قَتَادَةَ، وَعَبْدُ الله بن أَبِي بَكْرٍ، وَمُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى بنِ حَيَّانَ، كُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي بِبَعْضِ حَدِيثِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، قَالَ: بَلَغَ رَسُولُ الله ﷺ أَنَّ بني الـمُصْطَلِقِ يَجْمَعُونَ لَهُ، وَقَائِدُهُمُ الْحَارِثُ بن أَبِي ضِرَارٍ أَبُو جُوَيْرِيَةَ بنتِ الْحَارِثِ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَـمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ الله ﷺ، خَرَجَ إِلَيْهِمْ حَتَّى لَقِيَهُمْ عَلَى مَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ الـمُرَيْسِيعُ مِنْ نَاحِيَةِ قُدَيْدٍ إِلَى السَّاحِلِ، فَتَزَاحَمَ النَّاسُ وَاقْتَتَلُوا، فَهَزَمَ اللهُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَقُتِلَ الْحَارِثُ بن أَبِي ضِرَارٍ أَبُو جُوَيْرِيَةَ (يقول د/ قريبي: «وهذا وهم؛ لأن والد جويرية معدود في الصحابة، وله حديث عند أحمد، في قدومه على رسول الله ﷺ بالمدينة وإسلامه. ينظر: الاستيعاب على هامش الإصابة ١/ ٢٩٩، ١/ ١٨١، وأسد الغابة ١/ ٣٩٩-٤٠٠، وينظر حديثه في المسند ٤/ ٢٧٩». مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٤١)، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَنَفَّلَ اللهُ رَسُولَهُ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَصَابَ مِنْهُمْ سَبْيًا كَثِيرًا قَسَمَهُ فِي الـمُسْلِمِينَ، وَكَانَ فِيمَا أَصَابَ يَوْمَئِذٍ مِنَ النِّسَاءِ: جُوَيْرِيَةُ بنتُ الْحَارِثِ بن أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدَةُ نِسَاءِ قَوْمِهَا». **[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٧ كتاب المغازي والسير (١٠١٧٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في الكبير ٢٤/ ٦٠-٦١] ورجاله ثقات، والسنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٦٥ كتاب السير (١٧٨٨٢). صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٥٠].**

وقال الواقدي: «ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُرَيْسِيعِ، وَهُوَ الـمَاءُ، فَنَزَلَهُ وَضُرِبَ لِرَسُولِ الله ﷺ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمٍ وَمَعَهُ مِنْ نِسَائِهِ عَائِشَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ، وَقَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى الـمَاءِ وَأَعَدُّوا وَتَهَيَّؤُوا لِلْقِتَالِ، فَصَفَّ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ وَدَفَعَ رَايَةَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَرَايَةَ الأَنْصَارِ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ﷺ، وَيُقَالُ: كَانَ مَعَ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ﷺ رَايَةُ الْمُهَاجِرِينَ.

ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ، فَنَادَى فِي النَّاسِ: **قُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تَمْنَعُوا بِهَا أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ**، فَفَعَلَ عُمَرُ ﷺ، فَأَبَوْا، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَمَى رَجُلٌ مِنْهُمْ بِسَهْمٍ، فَرَمَى الـمُسْلِمُونَ سَاعَةً بِالنَّبْلِ،

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحْمِلُوا، فَحَمَلُوا حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَمَا أَفْلَتَ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ، وَقُتِلَ عَشَرَةٌ مِنْهُمْ، وَأُسِرَ سَائِرُهُمْ.

وَسَبَى رَسُولُ الله ﷺ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالذُّرِّيَّةَ، وَغُنِمَتْ النَّعَمُ، وَالشَّاءُ، وَمَا قُتِلَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ.

وَكَانَ أَبُو قَتَادَةَ يُحَدِّثُ قَالَ: حَمَلَ لِوَاءَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانُ ذُو الشَّقْرِ، فَلَمْ تَكُنْ لِي بِأُهْبَةٍ حَتَّى شَدَدْت عَلَيْهِ وَكَانَ الْفَتْحُ.

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُحَدِّثُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَهُمْ غَارُّونَ(غافلون)، وَنَعَمُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ.

وَالْحَدِيثُ الأَوَّلُ أَثْبَتُ عِنْدَنَا». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٧].

وقال الواقدي: «وَحَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي الأَبْيَضِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدَّتِهِ، وَهِيَ مَوْلاةُ جُوَيْرِيَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ تَقُولُ: أَتَانَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ عَلَى الْمُرَيْسِيعِ، فَأَسْمَعُ أَبِي يَقُولُ: أَتَانَا مَا لا قِبَلَ لَنَا بِهِ، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَرَى مِنْ النَّاسِ، وَالْخَيْلِ مَا لا أَصِفُ مِنْ الْكَثْرَةِ، فَلَمَّا أَنْ أَسْلَمْتُ وَتَزَوَّجَنِي رَسُولُ الله ﷺ، وَرَجَعْنَا جَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَلَيْسُوا كَمَا كُنْتُ أَرَى، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ رُعْبٌ مِنْ الله تَعَالَى يُلْقِيهِ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ.

فَكَانَ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَدْ أَسْلَمَ فَحَسُنَ إِسْلامُهُ يَقُولُ: لَقَدْ كُنَّا نَرَى رِجَالًا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ مَا كُنَّا نَرَاهُمْ قَبْلُ وَلا بَعْدُ». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٨-٤٠٩].

يقول د/ العلي: «وليس بين هذا الحديث وبين حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيح تعارض، فقد جمع ابن حجر رحمه الله بينهما بقوله: (ويحتمل أن يكون لما دهم المسلمون بني المصطلق وهم على الماء ثبتوا قليلًا وقاتلوا، ولكن وقعت الغلبة عليهم). [فتح الباري٧/ ٤٣٠ - ٤٣١، في التعليق على حديث غزوة بني المصطلق في المغازي]. [صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٥٠].

الأسرى والغنائم:

قال الواقدي: «فَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي جَهْمٍ، قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالأَسْرَى فَكُتِفُوا وَجُعِلُوا نَاحِيَةً وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ بُرَيْدَةَ بْنَ الْحُصَيْبِ، وَأَمَرَ بِمَا وُجِدَ فِي رِحَالِهِمْ مِنْ رِثَّةِ (خلقة) الْمَتَاعِ، وَالسِّلاحِ، فَجُمِعَ وَعُمِدَ إِلَى النَّعَمِ وَالشَّاءِ فَسِيقَ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ شُقْرَانَ مَوْلاهُ، وَجَمَعَ الذُّرِّيَّةَ نَاحِيَةً، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَقْسَمِ ـ مَقْسَمِ الْخُمُسِ ـ وَسُهْمَانِ الْمُسْلِمِينَ مَحْمِيَةَ بْنَ جَزْءٍ الزَّبَيْدِيَّ، فَأَخْرَجَ رَسُولُ الله ﷺ الْخُمُسَ مِنْ جَمِيعِ الْمَغْنَمِ، فَكَانَ يَلِيهِ مَحْمِيَةُ بْنُ جَزْءٍ الزَّبَيْدِيُّ.

وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنِ عَبْدِ الله، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ، قَالا: جَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى خُمُسِ الْمُسْلِمِينَ مَحْمِيَةَ بْنَ جَزْءٍ الزَّبَيْدِيَّ، قَالا: وَكَانَ يَجْمَعُ الأَخْمَاسَ،

وَكَانَتْ الصَّدَقَاتُ عَلَى حِدَتِهَا، وَأَهْلُ الْفيءِ بِمَعْزِلٍ عَنْ الصَّدَقَةِ، وَأَهْلُ الصَّدَقَةِ بِمَعْزِلٍ عَنْ الْفيءِ، وَكَانَ يُعْطِي مِنْ الصَّدَقَةِ الْيَتِيمَ وَالْـمِسْكِينَ وَالضَّعِيفَ، فَإِذَا احْتَلَمَ الْيَتِيمُ نُقِلَ إِلَى الْفيءِ، وَأُخْرِجَ مِنْ الصَّدَقَةِ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْجِهَادُ، فَإِنْ كَرِهَ الْـجِهَادَ وَأَبَاهُ لَمْ يُعْطَ مِنْ الصَّدَقَةِ شَيْئًا، وَخَلَّوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَكْسِبَ لِنَفْسِهِ.

وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ لا يَمْنَعُ سَائِلًا، فَأَتَاهُ رَجُلانِ يَسْأَلانِهِ مِنْ الْخُمُسِ، فَقَالَ: «**إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا مِنْهُ، وَلا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ**».

قَالُوا: فَاقْتُسِمَ السَّبْيُ وَفُرِّقَ فَصَارَ في أَيْدِي الرِّجَالِ، وَقُسِمَتْ الرِّثَّةُ، وَقُسِمَ النَّعَمُ وَالشَّاءُ، وَعُدِلَتْ الْجَزُورُ بِعَشْرٍ مِنْ الْغَنَمِ وَبِيعَتْ الرِّثَّةُ، فِيمَنْ يُرِيدُ، وَأُسْهِمَ لِلْفَرَسِ سَهْمَانِ وَلِصَاحِبِهِ سَهْمٌ وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ.

وَكَانَتْ الإِبِلُ أَلْفَي بَعِيرٍ وَخَمْسَةَ آلافِ شَاةٍ، وَكَانَ السَّبْيُ مِائَتَي أَهْلِ بَيْتٍ، فَصَارَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ في سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، وَابْنِ عَمٍّ لَهُ، فَكَاتَبَهَا عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ ذَهَبٍ».

[المغازي للواقدي ١/ ٤٠٩-٤١١].

وقال الواقدي: فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ، قَالَ: كَانَ السَّبْيُ مِنْهُمْ مَنْ مَنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ بِغَيْرِ فِدَاءٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ افْتُدِيَ، وَذَلِك بَعْدَ مَا صَارَ السَّبْيُ في أَيْدِي الرِّجَالِ، فَافْتُدِيَتْ الْمَرْأَةُ وَالذُّرِّيَّةُ بِسِتِّ فَرَائِضَ، وَكَانُوا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ بِبَعْضِ السَّبْيِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُوهُمْ فَافْتَدَوْهُمْ، فَلَمْ تَبْقَ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي الْـمُصْطَلِقِ إِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَوْمِهَا، وَهَذَا الثَّبْتُ.

فَحَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ يَرْبُوعٍ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: قَدِمَ الْوَفْدُ الْمَدِينَةَ، فَافْتَدَوْا السَّبْيَ بَعْدَ السُّهْمَانِ». **[المغازي للواقدي ١/ ٤١٢]**.

قَتْلَى بَنِي المصْطَلِقِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأُصِيبَ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ يَوْمَئِذٍ نَاسٌ، وَقَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﵁ مِنْهُمْ رَجُلَيْنِ مَالِكًا وَابْنَهُ، وَقَتَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﵁ رَجُلًا مِنْ فُرْسَانِهِمْ يُقَالُ لَهُ أَحْمَرُ أَوْ أُحَيْمِرٌ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٣].

المنافقون يثيرون الفتنة داخل الجيش:

وفي غزوة بني المصطلق هذه كادت تنشب حرب أهلية طاحنة بين المسلمين وهم في ديار بني المصطلق.

عَنْ جَابِرٍ ﵁ قَالَ: غَزَوْنَا [كُنَّا فِي غَزَاةٍ ـ قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً : فِي جَيْشٍ ـ] مَعَ النَّبِيِّ ﷺ [قَالَ: يَرَوْنَ أَنَّهَا غَزْوَةُ بَنِي الْـمُصْطَلِقِ] وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْـمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْـمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ



لَعَّابٌ [(١)] فَكَسَعَ [(٢)] أَنْصَارِيًّا [(٣)]، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: **يَا لَلْأَنْصَارِ!** (قال ابن حجر: قَوْله: (يَا لَلأَنْصَار) بِفَتْحِ اللام وَهِيَ لِلاسْتِغَاثَةِ أَيْ أَغِيثُونِي، وَكَذَا قَوْل الآخَر: يَا لَلْمُهَاجِرينَ)، وَقَالَ الـمُهَاجِرِيُّ: **يَا لَلْمُهَاجِرِينَ!** فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ [فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ الله ﷺ]، فَقَالَ: «**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الـجَاهِلِيَّةِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**مَا شَأْنُهُمْ؟**»، فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ [قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ]، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ** [**مُنْتِنَةٌ** (أي مذمومة في الشرع، مجتنبة مكروهة كما يجتنب الشيء المنتن، يريد قولهم: يا لفلان)]».

قَالَ جَابِرٌ ﷺ: وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ ثُمَّ كَثُرَ الـمُهَاجِرُونَ بَعْدُ.

وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: **أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا؟! [فَعَلُوهَا، أَمَا وَالله] لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الـمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: **أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ الله هَذَا الخَبِيثَ؟** لِعَبْدِ الله [فَقَامَ عُمَرُ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الـمُنَافِقِ]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «[**يَا عُمَرُ دَعْهُ**] **لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ [أَنَّ مُحَمَّدًا] كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**». [البخاري في المناقب (٣٥١٨)، وفي تفسير القرآن (٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٤)، ومسند أحمد ٢٣/ ٣٨٨ رقم ١٥٢٢٣].

وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو: فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الله: **وَالله لَا تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقِرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ وَرَسُولُ الله ﷺ الْعَزِيزُ، فَفَعَلَ**. [الترمذي في التفسير(٣٣١٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الـمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَاجْتَمَعَ قَوْمُ ذَا وَقَوْمُ ذَا، وَقَالَ هَؤُلَاءِ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، وَقَالَ هَؤُلَاءِ: يَا لَلْأَنْصَارِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ [دَعُوا الْكَسْعَةَ فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ]**». [مسند أحمد ٢٢/ ٤٦٩ رقم ١٤٦٣٢، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ٢٣/ ٣٣٦ رقم ١٥١٢٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن رجاله رجال الصحيح].

---

(١) **رجل لعاب**: أي بطال، وقيل: كان يلعب بالحراب كما تصنع الحبشة، وهو جهجاه بن قيس الغفاري، فتح الباري ٦/ ٥٤٦ وسماه ابن إسحاق: جهجاه بن مسعود. وكان جهجاه من المتألبين على عثمان بن عفان ﷺ، وأنه قام إلى عثمان وهو على المنبر فأخذ عصاه وكسرها، فما حال عليه الحول حتى أرسل الله في يده الأكلة فمات منها، هكذا نقل ابن حجر في الإصابة ١/ ٢٥٣. مرويات غزوة بني المصطلق ٢٥٢.

(٢) قال ابن حجر: الْكَسْع: الـمَشْهُور فِيهِ أَنَّهُ ضَرْبُ الدُّبُرِ بِالْيَدِ أَوْ بِالرِّجْلِ. وَوَقَعَ عِنْد الطَّبَرِيِّ مِنْ وَجْهٍ آخر عَنْ عَمْرو بْن دِينَار عَنْ جَابِر «أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَار بِرِجْلِهِ» وَذَلِكَ عِنْد أَهْل الْيَمَن شَدِيد الْكَسْع يَأْتِي تَفْسِيره بَعْد بَاب، وَالْمَشْهُور فِيهِ أَنَّهُ ضَرْب الدُّبُر بِالْيَدِ أَوْ بِالرِّجْلِ.

(٣) قال ابن حجر: وَالرَّجُل الـمُهَاجِرِيُّ هُوَ جَهْجَاهُ بْن قَيْس ـ وَيُقَال اِبْن سَعِيد ـ الْغِفَارِيُّ، وَكَانَ مَعَ عُمَر بْن الْخَطَّاب يَقُود لَهُ فَرَسه، وَالرَّجُل الْأَنْصَارِيُّ هُوَ سِنَان بْن وَبَرَة الْجُهَنِيُّ حَلِيف الْأَنْصَار.

وَعَنْ جَابِرٍ ﵁ قَالَ: اقْتَتَلَ غُلامَانِ: غُلَامٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَغُلَامٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَنَادَى الـمُهَاجِرُ أَوْ الـمُهَاجِرُونَ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، وَنَادَى الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا دَعْوَى أَهْلِ الـجَاهِلِيَّةِ؟**»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، إِلَّا أَنَّ غُلَامَيْنِ اقْتَتَلَا فَكَسَعَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، قَالَ: «**فَلَا بَأْسَ، وَلْيَنْصُرْ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِـمًا أَوْ مَظْلُومًا، إِنْ كَانَ ظَالِـمًا فَلْيَنْهَهُ فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ، وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ**». [مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٤)، ومسند أحمد ٢٢/ ٣٥٧ رقم ١٤٤٦٧].

وروى الواقدي عن شيوخه: «قَالُوا: فَبَيْنَا الـمُسْلِمُونَ عَلَى مَاءِ الـمُرَيْسِيعِ قَدْ انْقَطَعَتْ الْحَرْبُ وَهُوَ مَاءٌ ظَنُونٌ (الذي تتوهمه ولست منه على ثقة، فعول بمعنى مفعول، وقيل: هي البئر التي يظن أن فيها ماء وليس فيها ماء، وقيل: البئر القليلة الماء، وهو المراد هنا)، إِنَّمَا يَخْرُجُ فِي الدَّلْوِ نِصْفُهُ، أَقْبَلَ سِنَانُ بْنُ وَبَرٍ الْجُهَنِيُّ - وَهُوَ حَلِيفٌ فِي بَنِي سَالِمٍ - وَمَعَهُ فِتيَانٌ مِنْ بَنِي سَالِمٍ يَسْتَقُونَ فَيَجِدُونَ عَلَى الـمَاءِ جَمْعًا مِنَ الْعَسْكَرِ مِنْ الـمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَكَانَ جَهْجَا بْنُ سَعِيدٍ الْغِفَارِيُّ أَجِيرًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﵁، أَدْلَى سِنَانٌ وَأَدْلَى جَهْجَا دَلْوَهُ، وَكَانَ جَهْجَا أَقْرَبَ السِّقَاءِ إِلَى سِنَانِ بْنِ وَبَرٍ، فَالْتَبَسَتْ دَلْوُ سِنَانٍ وَدَلْوُ جَهْجَا، فَخَرَجَتْ إِحْدَى الدَّلْوَيْنِ وَهِيَ دَلْوُ سِنَانِ بْنِ وَبَرٍ، قَالَ سِنَانٌ: فَقُلْتُ: دَلْوِي، فَقَالَ جَهْجَا: وَالله مَا هِيَ إِلا دَلْوِي، فَتَنَازَعَا إِلَى أَنْ رَفَعَ جَهْجَا يَدَهُ فَضَرَبَ سِنَانًا فَسَالَ الدَّمُ، فَنَادَى: يَا آلَ خَزْرَجٍ، وَثَارَتْ الرِّجَالُ، قَالَ سِنَانٌ: وَأَعْجَزَنِي جَهْجَا هَرَبًا، وَأَعْجَزَ أَصْحَابِي، وَجَعَلَ يُنَادِي فِي الْعَسْكَرِ: يَا آلَ قُرَيْشٍ، يَا آلَ كِنَانَةَ، فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ سِرَاعًا.

قَالَ سِنَانٌ: فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا رَأَيْتُ نَادَيْتُ بِالأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَقْبَلَتْ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، وَشَهَرُوا السِّلاحَ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ، حَتَّى جَاءَنِي نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يَقُولُونَ: اُتْرُكْ حَقَّكَ.

قَالَ سِنَانٌ: وَإِذَا ضَرَبْتُهُ لَمْ يَضْرُرْنِي شَيْئًا، قَالَ سِنَانٌ: فَجَعَلْتُ لا أَسْتَطِيعُ أَفْتَاتُ عَلَى حُلَفَائِي بِالْعَفْوِ لِكَلامِ الْمُهَاجِرِينَ، وَقَوْمِي يَأْبَوْنَ أَنْ أَعْفُو إِلَّا بِأَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ أَوْ أَقْتَصَّ مِنْ جَهْجَا، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَلَّمُوا حُلَفَائِي، فَكَلَّمُوا **عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ** وَنَاسًا مِنْ حُلَفَائِي، فَكَلَّمَنِي حُلَفَائِي فَتَرَكْتُ ذَلِكَ وَلَمْ أَرْفَعْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ». [المغازي للواقدي ٢/ ٤١٥-٤١٦].

وقد انتهت هذه الفتنة، لا سيما وأن الأنصاري المضروب تنازل عن حقه لدى المهاجري، فماتت بذلك الفتنة.

رأس الفتنة يتكلم:

ولكن انتهاء الفتنة الأهلية بهذه السرعة لم يَرُق لرأس النفاق عبد الله بن أُبي الذي كان موجودًا في الجيش مع المسلمين، فقد اعتبر مثل ذلك الحادث فرصة المنافقين الذهبية لإذكاء نيران الفتنة بين أصحاب محمد ﷺ، ولكن هذه الفرصة فاتت على المنافقين بتصالح الرجلين وانصياع الفريقين لتوجيهات نبيهم ﷺ، فغاظ ذلك عبد الله بن أُبي.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى ذَلِكَ الماءِ وَرَدَتْ وَارِدَةُ النَّاسِ وَمَعَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَجِيرٌ لَهُ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، يُقَالُ لَهُ جَهْجَاه بْنُ مَسْعُودٍ يَقُودُ فَرَسَهُ، فَازْدَحَمَ جَهْجَاه وَسِنَانُ بْنُ وَبَرٍ الجُهَنِيُّ، حَلِيفُ بَنِي عَوْفِ بْنِ الخَزْرَجِ عَلَى الماءِ فَاقْتَتَلا، فَصَرَخَ الجُهَنِيُّ: **يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ**، وَصَرَخَ جَهْجَاه: **يَا مَعْشَرَ المهَاجِرِينَ**، فَغَضِبَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَعِنْدَهُ رَهْطٌ (ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة، وسكون الهاء أفصح من فتحها) مِنْ قَوْمِهِ فِيهِمْ: زَيْدُ بنُ أَرْقَم، غُلامٌ حَدَثٌ، فَقَالَ: **أَوَقَدْ فَعَلُوهَا، قَدْ نَافَرُونَا** (غلبونا، يقال: نافره إذا غلبه) **وَكَاثَرُونَا فِي بِلادِنَا، وَالله مَا أَعُدُّنَا وَجَلابِيبِ قُرَيْشٍ** (الجلابيب: لقب لكل من أسلم من المهاجرين، لقبهم بذلك المشركون. والجلابيب في الأصل الأزر الغلاظ، كانوا يلتحفون بها فلقبوهم بذلك) **إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، أَمَا وَالله لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُمْ: **هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَالله لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ دَارِكُمْ**. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩١، وقال الشيخ العلي: والحديث رجاله ثقات، ولكنه مرسل، وابن جرير الطبري في تاريخه ٢/ ٦٠٥، وله شاهد مرسل من طريق عروة عند ابن أبي حاتم قال فيه ابن حجر، أنه مرسل جيد، فتح الباري ٨/ ٦٤٩، وأصله في الصحيحين كما سبق من حديث زيد بن أرقم، وجابر بن عبد الله وبهذا يكون الحديث حسنًا لغيره. صحيح السيرة النبوية للعلي ص٢٥٤].

وقال الواقدي: «وَكَانَ ابْنُ أُبَيٍّ جَالِسًا في عَشَرَةٍ مِنْ المُنَافِقِينَ: ابْنُ أُبَيٍّ، وَمَالِكٌ، وَدَاعِسٌ، وَسُوَيْدٌ، وَأَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ، وَمُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرٍ، وَزَيْدُ بْنُ اللَّصَيْتِ، وَعَبْدُ الله بْنُ نَبْتَلَ، وَفي الْقَوْمِ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، غُلامٌ لَمْ يَبْلُغْ أَوْ قَدْ بَلَغَ، فَبَلَغَهُ (أي ابن أبي) صِيَاحُ جَهْجَا: يَا آلَ قُرَيْشٍ، فَغَضِبَ ابْنُ أُبَيٍّ غَضَبًا شَدِيدًا، وَكَانَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ كَلامِهِ وَسَمِعَ مِنْهُ أَنْ قَالَ: **وَالله مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ مَذَلَّةً، وَالله إِنْ كُنْتُ لَكَارِهًا لِوَجْهِي هَذَا، وَلَكِنْ قَوْمِي غَلَبُونِي، قَدْ فَعَلُوهَا، قَدْ نَافَرُونَا وَكَاثَرُونَا في بَلَدِنَا، وَأَنْكَرُوا مِنَّتَنَا** (نعمتنا)، **وَالله مَا صِرْنَا وَجَلابِيبُ قُرَيْشٍ هَذِهِ إلا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، وَالله لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنِّي سَأَمُوتُ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ هَاتِفًا يَهْتِفُ بِمَا هَتَفَ بِهِ جَهْجَا، وَأَنَا حَاضِرٌ لا يَكُونُ لِذَلِكَ مِنِّي غِيَرٌ** (الاسم من قولك: غيرت الشيء فتغير)، **وَالله لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ قَوْمِهِ، فَقَالَ: **هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلادَكُمْ فَنَزَلُوا مَنَازِلَكُمْ وَآسَيْتُمُوهُمْ في أَمْوَالِكُمْ حَتَّى اسْتَغْنَوْا، أَمَا وَالله لَوْ أَمْسَكْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ بِلادِكُمْ، ثُمَّ لَمْ يَرْضَوْا بِمَا فَعَلْتُمْ، حَتَّى جَعَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَغْرَاضًا لِلْمَنَايَا، فَقُتِلْتُمْ دُونَهُ، فَأَيْتَمْتُمْ أَوْلادَكُمْ، وَقَلَلْتُمْ وَكَثُرُوا**». [المغازي للواقدي ٢/ ٤١٦-٤١٧].

زيد بن أرقم رضي الله عنه ينقل ما سمع:

قال الواقدي: «فَقَامَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ بِهَذَا الحَدِيثِ كُلِّهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَيَجِدُ عِنْدَهُ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ: أَبَا بَكْرٍ، وَعُثْمَانَ، وَسَعْدًا، وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ، وَأَوْسَ بْنَ خَوْلِيٍّ، وَعَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ،

فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَكَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ خَبَرَهُ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا غُلامُ لَعَلَّكَ غَضِبْتَ عَلَيْهِ**»، قَالَ: لا، وَالله لَقَدْ سَمِعْتُهُ مِنْهُ، قَالَ: «**لَعَلَّهُ أَخْطَأَ سَمْعُكَ**»، قَالَ: **لا يَا نَبِيَّ الله**، قَالَ: «**لَعَلَّهُ شُبِّهَ عَلَيْكَ**»، قَالَ: **لا، وَالله لَقَدْ سَمِعْتُهُ مِنْهُ يَا رَسُولَ الله**.

وَشَاعَ فِي الْعَسْكَرِ مَا قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ، وَلَيْسَ لِلنَّاسِ حَدِيثٌ إِلَّا مَا قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ، وَجَعَلَ الرَّهْطُ (ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة، وسكون الهاء أفصح من فتحها) مِنَ الأَنْصَارِ يُؤَنِّبُونَ (يبالغون في التوبيخ والتعنيف) الْغُلامَ، وَيَقُولُونَ: **عَمَدْتَ** (قصدت) **إِلَى سَيِّدِ قَوْمِكَ تَقُولُ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ، وَقَدْ ظَلَمْتَ وَقَطَعْتَ الرَّحِمَ**، فَقَالَ زَيْدٌ: **وَالله لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْهُ، قَالَ: وَوَالله مَا كَانَ فِي الْخَزْرَجِ رَجُلٌ وَاحِدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ، وَالله لَوْ سَمِعْتُ هَذِهِ المَقَالَةَ مِنْ أَبِي لَنَقَلْتُهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يُنْزِلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَا كَاذِبٌ أَمْ غَيْرِي، أَوْ يَرَى رَسُولُ الله ﷺ تَصْدِيقَ قَوْلِي**، وَجَعَلَ زَيْدٌ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَى نَبِيِّكَ مَا يُصَدِّقُ حَدِيثِي**، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله، مُرْ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ فَلْيَأْتِكَ بِرَأْسِهِ، فَكَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ هَذِهِ المَقَالَةَ، وَيُقَالُ: قَالَ: قُلْ لِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ يَأْتِكَ بِرَأْسِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَعْرَضَ عَنْهُ: «**لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»، وَقَامَ النَّفَرُ مِنَ الأَنْصَارِ الَّذِينَ سَمِعُوا قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَدَّهُ عَلَى الْغُلامِ، فَجَاؤُوا إِلَى ابْنِ أُبَيٍّ فَأَخْبَرُوهُ، وَقَالَ أَوْسُ بْنُ خَوْلِيٍّ: يَا أَبَا الْحُبَابِ، إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَأَخْبِرِ النَّبِيَّ يَسْتَغْفِرْ لَكَ، وَلا تَجْحَدْهُ فَيَنْزِلَ مَا يُكَذِّبُكَ، وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَقُلْهُ فَأْتِ رَسُولَ الله فَاعْتَذِرْ إِلَيْهِ وَاحْلِفْ لِرَسُولِ الله مَا قُلْتَهُ. فَحَلَفَ بِالله الْعَظِيمِ مَا قَالَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا.

ثُمَّ إِنَّ ابْنَ أُبَيٍّ أَتَى إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «**يَا بْنَ أُبَيٍّ، إِنْ كَانَتْ سَلَفَتْ** (صدر ووقع) **مِنْكَ مَقَالَةٌ فَتُبْ**»، فَجَعَلَ يَحْلِفُ بِالله مَا قُلْتُ مَا قَالَ زَيْدٌ، وَلا تَكَلَّمْتُ بِهِ، وَكَانَ فِي قَوْمِهِ شَرِيفًا، فَكَانَ يُظَنُّ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ وَكَانَ يُظَنُّ بِهِ سُوءُ الظَّنِّ». [**المغازي للواقدي ٢/ ٤١٧-٤١٨**].

اعْتِذَارُ ابْنِ أُبَيٍّ لِلرَّسُولِ ﷺ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ مَشَى عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ رضي الله عنه قَدْ بَلَّغَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُ، فَحَلَفَ بِالله مَا قُلْتُ مَا قَالَ وَلَا تَكَلَّمْتُ بِهِ ـ وَكَانَ فِي قَوْمِهِ شَرِيفًا عَظِيمًا ـ، فَقَالَ مَنْ حَضَرَ رَسُولَ الله ﷺ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِهِ: **يَا رَسُولَ الله، عَسَى أَنْ يَكُونَ الْغُلَامُ قَدْ أَوْهَمَ فِي حَدِيثِهِ وَلَمْ يَحْفَظْ مَا قَالَ الرَّجُلُ**؛ حَدَبًا (عطفًا) عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، وَدَفْعًا عَنْهُ.

[**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩١**].

مشورة عمر رضي الله عنه بقتل ابن أبي:

قال الواقدي: «فَحَدَّثَنِي هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: لَـمَّا كَانَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ أُبَيٍّ مَا كَانَ أَسْرَعَ رَسُولُ الله ﷺ السَّيْرَ، وَأَسْرَعْتُ مَعَهُ، وَكَانَ مَعِي أَجِيرٌ اسْتَأْجَرْتُهُ

يَقُومُ عَلَى فَرَسِي، فَاحْتَبَسَ عَلَيَّ فَوَقَفْتُ لَهُ عَلَى الطَّرِيقِ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى جَاءَ، فَلَمَّا جَاءَ وَرَأَى مَا بِي مِنْ الْغَضَبِ أَشْفَقَ أَنْ أَقَعَ بِهِ، فَقَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي النَّاسِ أَمْرٌ مِنْ بَعْدِكَ، فَحَدَّثَنِي بِمَقَالَةِ ابْنِ أُبَيٍّ، قَالَ عُمَرُ ﵁: فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ فِي فِيءِ (ظل) شَجَرَةٍ، عِنْدَهُ غُلَيْمٌ أُسَيْوِدُ يَغْمِزُ ظَهْرَهُ (يعصره، وهو التكبيس)، فَقُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّكَ تَشْتَكِي ظَهْرَكَ**، فَقَالَ: «**تَقَحَّمَتْ بِي النَّاقَةُ** (ألقتني) **اللَّيْلَةَ**»، فَقُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله، إِيذَنْ لِي أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَ ابْنِ أُبَيٍّ فِي مَقَالَتِهِ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَوَكُنْتَ فَاعِلًا؟**»، قَالَ: **نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ**، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذًا لَأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ بِيَثْرِبَ كَثِيرَةٌ، لَوْ أَمَرْتُهُمْ بِقَتْلِهِ قَتَلُوهُ**»، قُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله، فَمُرْ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ يَقْتُلُهُ**، قَالَ: «**لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا قَتَلَ أَصْحَابَهُ**»، قَالَ: فَقُلْتُ: **فَمُرِ النَّاسَ بِالرَّحِيلِ**، قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَأَذَّنْتُ بِالرَّحِيلِ فِي النَّاسِ». [**المغازي للواقدي ٢/ ٤١٨**].

قال ابن إسحاق: «فَسَمِعَ ذَلِكَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، فَمَشَى بِهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَذَلِكَ عِنْدَ فَرَاغِ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ عَدُوِّهِ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﵁، فَقَالَ: **مُرْ بِهِ عَبَّادَ بْنِ بِشْرٍ فَلْيَقْتُلْهُ**، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ! لَا وَلَكِنْ أَذِّنْ بِالرَّحِيلِ**»، وَذَلِكَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يَرْتَحِلُ فِيهَا، فَارْتَحَلَ النَّاسُ». [**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩١**].

سَيْرُ الرَّسُولِ ﷺ بِالنَّاسِ لِيُشْغِلَهُمْ عَنْ الْفِتْنَةِ:

قال ابن إسحاق: «ثُمَّ مَشَى رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّاسِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى أَمْسَى، وَلَيْلَتَهُمْ حَتَّى أَصْبَحَ وَصَدْرَ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى آذَتْهُمْ الشَّمْسُ، ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ (مس الأرض: أول ما ينال منها) فَوَقَعُوا نِيَامًا، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ لِيَشْغَلَ النَّاسَ عَنْ الْحَدِيثِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ». [**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩١-٢٩٢**].

وقال الواقدي: «فَحَدَّثَنِي عُبَيْدُ الله بْنُ الْهُرَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، قَالَ: لَمَّا رُحْنَا مِنْ الْمُرَيْسِيعِ قَبْلَ الزَّوَالِ كَانَ الْجَهْدُ بِنَا يَوْمَنَا وَلَيْلَتَنَا، مَا أَنَاخَ مِنَّا رَجُلٌ إِلا لِحَاجَتِهِ أَوْ لِصَلاةٍ يُصَلِّيهَا، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَسْتَحِثُّ رَاحِلَتَهُ وَيَخْلُفُ بِالسَّوْطِ فِي مَرَاقِّهَا (أي مراق بطنها، وهي ما رق منه في أسافله) حَتَّى أَصْبَحْنَا، وَمَدَدْنَا يَوْمَنَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ أَوْ كَرَبَ، وَلَقَدْ رَاحَ النَّاسُ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بِمَقَالَةِ ابْنِ أُبَيٍّ وَمَا كَانَ مِنْهُ، فَمَا هُوَ إِلا أَنْ أَخَذَهُمْ السَّهَرُ وَالتَّعَبُ بِالْمَسِيرِ فَمَا نَزَلُوا حَتَّى مَا يُسْمَعُ لِقَوْلِ ابْنِ أُبَيٍّ فِي أَفْوَاهِهِمْ - يَعْنِي ذِكْرًا - وَإِنَّمَا أَسْرَعَ رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّاسِ لِيَدَعُوا حَدِيثَ ابْنِ أُبَيٍّ، فَلَمَّا نَزَلُوا وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ فَوَقَعُوا نِيَامًا». [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٢٢**].

الرَّسُولُ ﷺ وَأُسَيْدٌ أَوْ سَعْدٌ وَمَقَالَةُ ابْنِ أُبَيٍّ:

قال الواقدي: «وَيُقَالُ: لَمْ يَشْعُرْ أَهْلُ الْعَسْكَرِ إِلا بِرَسُولِ الله ﷺ قَدْ طَلَعَ عَلَى رَاحِلَتِهِ الْقَصْوَاءِ وَكَانُوا فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَكَانَ لا يَرُوحُ حَتَّى يُبْرِدَ إِلَّا أَنَّهُ لَـمَّا جَاءَهُ خَبَرُ ابْنِ أُبَيٍّ رَحَلَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ، فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَعَلَيْكَ السَّلامُ**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ رَحَلْتَ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ مَا كُنْتَ تَرْحَلُ فِيهَا، وَيُقَالُ: لَقِيَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ـ قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: وَهُوَ أَثْبَتُ عِنْدَنَا ـ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، خَرَجْتَ [رُحْتَ] فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ مَا كُنْتَ تَرُوحُ(١) فِيهَا [فِي مِثْلِهَا]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟**»، قَالَ: أَيُّ صَاحِبٍ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ أَخْرَجَ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**»، قَالَ: **فَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله تُخْرِجُهُ إِنْ شِئْتَ، فَهُوَ الأَذَلُّ وَأَنْتَ الأَعَزُّ، وَالْعِزَّةُ لله وَلَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، اُرْفُقْ بِهِ فَوَالله لَقَدْ جَاءَ اللهُ بِكَ، وَإِنَّ قَوْمَهُ لَيَنْظِّمُونَ لَهُ الْخَرَزَ (الذي ينضم، الواحدة خرزة) مَا بَقِيَتْ عَلَيْهِمْ إِلا خَرَزَةٌ وَاحِدَةٌ عِنْدَ يُوشَعَ الْيَهُودِيِّ قَدْ أَرَّبَ بِهِمْ (اشتد عليهم في ثمنها) فِيهَا لِمَعْرِفَتِهِ بِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا لِيُتَوِّجُوهُ، فَجَاءَ اللهُ بِكَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ، فَمَا يَرَى إِلا قَدْ سَلَبْتَهُ مُلْكَهُ». [المغازي للواقدي ٢/ ٤١٩، السيرة لابن هشام ٢/ ٢٩١-٢٩٢].

الله ﷻ يصدق زيد بن أرقم ﷺ:

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي فَسَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيِّ بْنَ سَلُولَ يَقُولُ [لِأَصْحَابِهِ]: **لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا [مِنْ حَوْلِهِ]، وَلَئِنْ [وَلَوْ] رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي، فَذَكَرَ [ذَلِكَ] عَمِّي لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَدَعَانِي [النَّبِيُّ ﷺ] فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ [رَسُولُ الله ﷺ] إِلَى عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، وَكَذَّبَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَصَدَّقَهُمْ، فَأَصَابَنِي [شَيْءٌ] غَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي (قال ابن حجر: وَفِي رِوَايَة اِبْن أَبِي لَيْلَى «حَتَّى جَلَسْتُ فِي الْبَيْت مَخَافَةَ إِذَا رَآنِي النَّاسُ أَنْ يَقُولُوا: كَذَبْتَ»)، وَقَالَ عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَى [إِلَّا] أَنْ كَذَّبَكَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَقَتَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، وَأَرْسَلَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَهَا (قال ابن حجر: وَفِي رِوَايَة أَبِي الْأَسْوَد عَنْ عُرْوَة «فَبَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ أَبْصَرُوا رَسُولَ الله ﷺ يُوحَى إِلَيْهِ فَنَزَلَتْ»، وَفِي رِوَايَة أَبِي سَعْد قَالَ: «فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِير مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنْ الْهَمِّ أَتَانِي فَعَرَكَ بِأُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَلَحِقَنِي أَبُو بَكْر فَسَأَلَنِي فَقُلْتُ لَهُ، فَقَالَ: أَبْشِرْ. ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَر مِثْل ذَلِكَ، فَلَمَّا

---

(١) **الرواح**: قال الأزهري وغيره: قد يتوهم بعض الناس أن الرواح لا يكون إلا في آخر النهار، وليس كذلك، بل الرواح والغدو عند العرب يستعملان في المسير أي وقت كان من ليل أو نهار، وأما راحت الإبل فهي رائحة، فلا يكون إلا بالعشي، إذا أراحها راعيها على أهلها، يقال: سرحت بالغداة إلى المرعى وراحت بالعشي على أهلها، أي رجعت من المرعى إليهم. وقال ابن فارس: الرواح: رواح العشي وهو من الزوال إلى الليل.

أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُول الله ﷺ سُورَة الْمُنَافِقِينَ»)، وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ [يَا زَيْدُ] (قال ابن حجر: وَفِي مُرْسَل الْحَسَنِ «فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِأُذُنِ الْغُلَامِ فَقَالَ: وَفَتْ أُذُنُكَ يَا غُلَامُ» مَرَّتَيْنِ)». [البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠١، ٤٩٠٤، ٤٩٠٠)، والترمذي في التفسير (٣٣١٢)، ومسند أحمد ٣٢/ ٨٢ رقم ١٩٣٣٣].

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ (أورد د/ قريبي ما ورد في أنها في غزوة بني المصطلق، وما ورد في أنها في غزوة تبوك، ورجح أنها في غزوة بني المصطلق. مرويات غزوة بني المصطلق ٢٤٢-٢٥١)، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الـمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: فَحَلَفَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَلَامَنِي قَوْمِي وَقَالُوا: مَا أَرَدْتَ إِلَى هَذَا؟! قَالَ: فَانْطَلَقْتُ، فَنِمْتُ كَئِيبًا أَوْ حَزِينًا، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيَّ نَبِيُّ الله ﷺ أَوْ أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَنْزَلَ عُذْرَكَ وَصَدَّقَكَ»، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: ٧] حَتَّى بَلَغَ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. [البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٢)، والترمذي في التفسير (٣٣١٤)، ومسند أحمد ٣٢/ ٣٦ رقم ١٩٢٨٥، واللفظ له].

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ» فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ لِأَصْحَابِهِ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا (يتفرقوا) مِنْ حَوْلِهِ.

قَالَ زُهَيْرٌ: وَهِيَ قِرَاءَةُ مَنْ خَفَضَ حَوْلَهُ.

وَقَالَ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ، فَقَالَ [فَقَالُوا]: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ الله ﷺ [كَذَّبَ زَيْدًا رَسُولُ الله ﷺ] (قال ابن حجر: وَفِي رِوَايَةِ اِبْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ زَيْد عِنْد النَّسَائِيِّ «فَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ: أَتَى زَيْدٌ رَسُولَ الله ﷺ بِالْكَذِبِ»)].

قَالَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقِي [فِي]: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١].

قَالَ: ثُمَّ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ [رَسُولُ الله] ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، قَالَ: فَلَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ، وقَوْلُهُ [تَعَالَى]: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] وَقَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ.

[مسلم في صفات المنافقين (٢٧٧٢)، والبخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٣)، ومسند أحمد ٣٢/ ٨٣ رقم ١٩٣٣٤].

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَكَانَ مَعَنَا أُنَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ، فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ، وَكَانَ الأَعْرَابُ يَسْبِقُونَا إِلَيْهِ، فَسَبَقَ أَعْرَابِيٌّ أَصْحَابَهُ، فَيَسْبِقُ الأَعْرَابِيُّ فَيَمْلَأُ الحَوْضَ، وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً، وَيَجْعَلُ النِّطْعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ، قَالَ: فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَعْرَابِيًّا [الْأَعْرَابِيَّ]

فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَتِهِ لِتَشْرَبَ، فَأَبَى أَنْ يَدعَهُ، فَانْتَزَعَ قِبَاضَ المَاءِ [فَانْتَزَعَ حَجَرًا فَفَاضَ]، فَرَفَعَ الأَعْرَابِيُّ خَشَبَةً فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ، فَأَتَى عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ رَأْسَ المُنَافِقِينَ فَأَخْبَرَهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَغَضِبَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، ثُمَّ قَالَ: **لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ،** يَعْنِي الأَعْرَابَ، وَكَانُوا يَحْضُرُونَ [يُحَدِّثُونَ] رَسُولَ الله ﷺ عِنْدَ الطَّعَامِ، فَقَالَ عَبْدُ الله: إِذَا انْفَضُّوا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، فَأْتُوا مُحَمَّدًا بِالطَّعَامِ، فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ: **لَئِنْ رَجَعْتُمْ [إِذَا رَجَعْتُمْ] إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ،** قَالَ زَيْدٌ: وَأَنَا رِدْفُ رَسُولِ الله ﷺ، [وَأَنَا رِدْفُ عَمِّي]، قَالَ: فَسَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ [وَكُنَّا أَخْوَالَهُ]، فَأَخْبَرْتُ عَمِّي، فَانْطَلَقَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ الله ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ فَحَلَفَ وَجَحَدَ [وَاعْتَذَرَ]، قَالَ: فَصَدَّقَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَكَذَّبَنِي، قَالَ: فَجَاءَ عَمِّي إِلَيَّ، فَقَالَ: **مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ مَقتَكَ رَسُولُ الله ﷺ وَكَذَّبَكَ وَالمُسْلِمُونَ،** قَالَ: فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الهَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ، قَالَ: فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ قَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنَ الهَمِّ، إِذْ أَتَانِي رَسُولُ الله ﷺ فَعَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الخُلْدَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ لَحِقَنِي فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ الله ﷺ؟ قُلْتُ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا، إِلاَّ [غَيْرَ] أَنَّهُ عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَقَالَ: **أَبْشِرْ،** ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ ﷺ، [فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ الله ﷺ؟]، فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لأَبِي بَكْرٍ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ سُورَةَ المُنَافِقِينَ [﴿ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ١] حَتَّى بَلَغَ ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾ [المنافقون: ٧] حَتَّى بَلَغَ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨].

[الترمذي في التفسير (٣٣١٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد، والمستدرك على الصحيحين في التفسير ٢/ ٥٣١ رقم ٣٨١٢، وقال الحاكم: «قد اتفق الشيخان على إخراج أحرف يسيرة من هذا الحديث من حديث أبي إسحاق السَّبِيعِي، عن زيد بن أرقم، وأخرج البخاري مُتَابِعًا لأبي إسحاق من حديث شعبة عن الحكم، عن محمد بن كعب القرظي، عن زيد بن أرقم، ولم يخرجاه بطوله، والإسناد صحيح»، وقال الذهبي: «صحيح وأخرجا منه»].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فَمَرَّ رَسُولُ الله ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨]، فَأَتَيْتُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ، فَحَلَفَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ بِالله مَا تَكَلَّمَ بِهَذَا، فَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا أَخْبَرَنِيهِ الْغُلَامُ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، فَجَاءَ سَعْدٌ فَأَخَذَ بِيَدِي فَانْطَلَقَ بِي، فَقَالَ: هَذَا حَدَّثَنِي، قَالَ: فَانْتَهَرَنِي عَبْدُ الله ابْنُ أُبَيٍّ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَبَكَيْتُ، وَقُلْتُ: إِيْ وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ النُّورَ وَالنُّبُوَّةَ لَقَدْ قَالَهُ، قَالَ:

وَانْصَرَفَ عَنْهُ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

[مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٥ رقم ١١٤٢٠، وقال الهيثمي: قلت: هو في الصحيح بغير سياقه، رواه الطبراني [المعجم الكبير ٥/ ١٩٦ رقم ٥٠٧٣] عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، وهو ضعيف].

قال ابن إسحاق: «وَنَزَلَتْ السُّورَةُ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ فِيهَا المنَافِقِينَ فِي ابْنِ أُبَيٍّ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ أَمْرِهِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأُذُنِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللهُ بِأُذُنِهِ**»». **[السيرة لابن هشام ٢/ ٢٩٢]**.

قال الواقدي: «قَالَ: فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسِيرُ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ، وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ ﷺ يُعَارِضُ النَّبِيَّ ﷺ بِرَاحِلَتِهِ يُرِيهِ وَجْهَهُ فِي الـمَسِيرِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَحِثُّ رَاحِلَتَهُ فَهُوَ مُغِذٌّ فِي السَّيْرِ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ ﷺ: فَمَا هُوَ إِلا أَنْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَأْخُذُهُ الْبُرَحَاءُ (أي: شدة الكرب) وَيَعْرَقُ جَبِينُهُ وَتَثْقُلُ يَدَا رَاحِلَتِهِ حَتَّى مَا كَادَ يَنْقُلُهَا، عَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُوحَى إِلَيْهِ، وَرَجَوْت أَنْ يَكُونَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ تَصْدِيقُ خَبَرِي، قَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ ﷺ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخَذَ بِأُذُنِي، وَأَنَا عَلَى رَاحِلَتِي، حَتَّى ارْتَفَعْتُ مِنْ مَقْعَدِي، وَيَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**وَفَتْ أُذُنُكَ يَا غُلامُ، وَصَدَّقَ اللهُ حَدِيثَكَ**»، وَنَزَلَ فِي ابْنِ أُبَيٍّ السُّورَةُ مِنْ أَوّلِهَا إِلَى آخِرِهَا وَحْدَهُ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾.

فَحَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ الْهُرَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ ﷺ يَقُولُ يَوْمَئِذٍ لابْنِ أُبَيٍّ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ: **إِيتِ رَسُولَ اللهِ يَسْتَغْفِرْ لَكَ**، قَالَ: فَرَأَيْتُهُ يَلْوِي رَأْسَهُ مُعْرِضًا، يَقُولُ عُبَادَةُ ﷺ: **أَمَا وَاللهِ لَيُنْزِلَنَّ فِي لَيِّ رَأْسِكَ قُرْآنٌ يُصَلَّى بِهِ**.

وَحَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ الظَّفَرِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ، قَالَ: مَرَّ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ عَشِيَّةَ رَاحَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ الْمُرَيْسِيعِ، وَقَدْ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سُورَةُ الـمُنَافِقُونَ، فَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ مَرَّ أَوْسُ بْنُ خَوْلِيٍّ فَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ ابْنُ أُبَيٍّ: إِنَّ هَذَا الأَمْرَ قَدْ تَمَالأْتُمَا عَلَيْهِ، فَرَجَعَا إِلَيْهِ فَأَنَّبَاهُ وَبَكَّتَاهُ بِمَا صَنَعَ، وَبِمَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ إِكْذَابًا لِحَدِيثِهِ، وَجَعَلَ أَوْسُ بْنُ خَوْلِيٍّ يَقُولُ: **لا أَكْذِبُ عَنْكَ أَبَدًا حَتَّى أَعْلَمَ أَنْ قَدْ تَرَكْتَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، وَتُبْتَ إِلَى اللهِ، إِنَّا أَقْبَلْنَا عَلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ نَلُومُهُ وَنَقُولُ لَهُ: كَذَبْتَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ قَوْمِكَ، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَصْدِيقِ حَدِيثِ زَيْدٍ وَإِكْذَابِ حَدِيثِكَ**، وَجَعَلَ ابْنُ أُبَيٍّ يَقُولُ: **لا أَعُودُ أَبَدًا**». **[المغازي للواقدي ٢/ ٤١٩-٤٢٠]**.

عبد الله ﷺ يريد قتل أبيه بنفسه:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَبَلَغَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ أَبِيهِ، فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ: أَنَّ عَبْدَ اللهِ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللهِ ابْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ**

رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا» (قال ابن حجر: وَقَعَ فِي مُرْسَلِ عِكْرِمَةَ عِنْدَ الطَّبَرِيِّ «أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ وَالِدِي يُؤْذِي اللهَ وَرَسُولَهُ، فَذَرْنِي حَتَّى أَقْتُلَهُ، قَالَ ﷺ: «لا تَقْتُلْ أَبَاكَ»).

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٢-٢٩٣].

وقال الواقدي: «وَبَلَغَ ابْنَهُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ مَقَالَةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: مُرْ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ يَأْتِكَ بِرَأْسِهِ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَ أَبِي فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ فَمُرْنِي، فَوَاللهِ لأَحْمِلَنَّ إِلَيْكَ رَأْسَهُ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ هَذَا، وَاللهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ فِيهَا رَجُلٌ أَبَرَّ بِوَالِدٍ مِنِّي، وَمَا أَكَلَ طَعَامًا مُنْذُ كَذَا وَكَذَا مِنَ الدَّهْرِ وَلا يَشْرَبُ شَرَابًا إِلا بِيَدِي، وَإِنِّي لأَخْشَى يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تَأْمُرَ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ فَلا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ أَبِي يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلُهُ، فَأَدْخُلُ النَّارَ، وَعَفْوُكَ أَفْضَلُ وَمَنُّكَ أَعْظَمُ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ، مَا أَرَدْتُ قَتْلَهُ، وَمَا أَمَرْتُ بِهِ، وَلَنُحْسِنَنَّ صُحْبَتَهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا»، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبِي كَانَتْ هَذِهِ الْبَحْرَةُ (البحرة أو البحيرة: اسم للمدينة الشريفة) قَدْ اتَّسَقُوا (اجتمعوا) عَلَيْهِ لِيُتَوِّجُوهُ (يلبسوه التاج ويسوده. والتاج: ما يصاغ للملوك من الذهب والجوهر) عَلَيْهِمْ، فَجَاءَ اللهُ بِكَ، فَوَضَعَهُ اللهُ وَرَفَعَنَا بِكَ، وَمَعَهُ قَوْمٌ يُطِيفُونَ بِهِ وَيَذْكُرُونَ أُمُورًا قَدْ غَلَبَ اللهُ عَلَيْهَا، قَالَ: فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَرَفَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَرَكَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِقَتْلِهِ قَالَ:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا حَوَادِثُ تُنْتَظَرْ	وَمِنْ أَعْجَبِ الأَحْدَاثِ مَا قَالَهُ عُمَرْ
يُشِيرُ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ الْوَحْيُ هَكَذَا	وَلَمْ يَسْتَشِرْهُ بِالَّتِي تَحْلِقُ الشَّعَرْ
وَلَوْ كَانَ لِلْخَطَّابِ ذَنْبٌ كَذَنْبِهِ	فَقُلْتُ لَهُ مَا قَالَ فِي وَالِدِي كَشَرْ
غَدَاةَ يَقُولُ ابْعَثْ إِلَيْهِ مُحَمَّدًا	لِيَقْتُلَهُ بِئْسَ لَعَمْرُكَ مَا أَمَرْ
فَقُلْتُ: رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتَ فَاعِلًا	كَفَيْتُكَ عَبْدَ اللهِ لمحَكَ بِالْبَصَرْ
تُسَاعِدُنِي كَفٌّ وَنَفْسٌ سَخِيَّةٌ	وَقَلْبٌ عَلَى الْبَلْوَى أَشَدُّ مِنَ الحَجَرْ
وَفِي ذَاكَ مَا فِيهِ وَالأُخْرَى غَضَاضَةٌ	وَفِي الْعَيْنِ مِنِّي نَحْوَ صَاحِبِهَا عَوَرْ
فَقَالَ: أَلَا لا يَقْتُلُ المَرْءُ طَائِعًا	أَبَاهُ وَقَدْ كَادَتْ تَطِيرُ بِهَا مُضَرْ

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٢٠-٤٢٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بن سَلُولَ وَهُوَ فِي ظِلِّ أَجَمَةٍ [أطمة]، فَقَالَ: قَدْ غَبَّرَ عَلَيْنَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، فقَالَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ: [يا رَسولَ الله]، وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، وَالَّذِي

أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَئِنْ شِئْتَ لَآتِيَنَّكَ [لأتيتك] بِرَأْسِهِ، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا، وَلَكِنْ بِرَّ أَبَاكَ وَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُ**».

قال أبو حاتم ﷺ: أَبُو كَبْشَةَ هَذَا وَالِدُ أُمِّ أُمِّ رَسُولَ الله، كَانَ قَدْ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ فَاسْتَحْسَنَ دِينَ النَّصَارَى فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ وَأَظْهَرَهُ، فَعَاتَبَتْهُ قُرَيْشٌ حَيْثُ جَاءَ بِدِينٍ غَيْرِ دِينِهِمْ، فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُعَيِّرُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَنْسِبُهُ إِلَيْهِ، يَعْنُونَ بِهِ أَنَّهُ جَاءَ بِدَيْنٍ غَيْرِ دِينِهِمْ، كَمَا جَاءَ أَبُو كَبْشَةَ بِدَيْنٍ غَيْرِ دِينِهِمْ.

[صحيح ابن حبان ٢/ ١٧٠-١٧١ رقم ٤٢٨، ومجمع الزوائد في الإيمان ١/ ٣٠١ رقم ٤٢٠، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط [١/ ٨٠ رقم ٢٢٩]، وقال: تفرد به زيد بن بشر الحضرمي، قلت: وثقه ابن حبان وبقية رجاله ثقات، وفي المناقب ٩/ ٥٢٨ رقم ١٥٧٦١، وقال الهيثمي: رواه البزار [مسند البزار ١٤/ ٣٢٢ رقم ٧٩٧٨]، ورجاله ثقات، وينظر: فتح الباري ١/ ٤٠].

يمنع أباه من دخول المدينة:

قال ابن كثير: «وقد ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن ابنه عبد الله ﷺ وقف لأبيه عند مضيق المدينة، فقال له: **قِفْ! فَوَ الله لا تَدْخُلُهَا حَتَّى يَأْذَنَ رَسُولُ الله ﷺ فِي ذَلِكَ**، فأذن له، فأرسله حتى دخل المدينة». **[البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ١٨٨].**

وقال الصالحي: «ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى وادي العقيق تقدم عبد الله بن عبد الله بن أُبي، فجعل يتصفح (نظر في صفحات وجوههم) الرِّكَاب (المطي، الواحدة: راحلة من غير لفظها) حتى مر أبوه، فأناخ به، ثم وطئ على يد راحلته، فقال أبوه: **ما تريد يا لكع** (هو في الأصل العبد، ثم استعمل في الحمق والذم)؟ قال: **والله لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، لتعلم أيها الأعز من الأذل: أنت أم رسول الله ﷺ!** فمن مر به من المسلمين يرفده (يعينه) عبد الله بن عبد الله ويمنع غير ذلك، فيقول: تصنع هذا بأبيك؟! حتى مر به رسول الله ﷺ فسأل عنه، فقيل: عبد الله بن عبد الله بن أبي يأبى أن يأذن لأبيه حتى تأذن له، فمر رسول الله ﷺ وعبد الله واطئ على يد راحلة أبيه، وابن أبي يقول: **لأنا أذل من الصبيان، لأنا أذل من النساء**، فقال رسول الله ﷺ: «**خل عن أبيك**»، فخلى عنه». **[سبل الهدى والرشاد ٤/ ٤٩٨].**

يقول الشيخ العلي: «في رواية الترمذي لحديث جابر السابق الذكر عن غزوة بني المصطلق ومحاولة المنافقين إثارة الفتنة زيادة لطيفة ليست عند البخاري ومسلم حيث قال الترمذي بعد قول النبي لعمر: «**دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**».

وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو (يعني ابن دينار): فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الله: **وَالله لَا تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقِرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ وَرَسُولُ الله ﷺ الْعَزِيزُ، فَفَعَلَ**. **[الترمذي في التفسير(٣٣١٥)].**

وقد جاء موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبيه واستئذانه لرسول الله ﷺ في أربعة أحاديث كلها منقطعة، ولكن رجالها ثقات عند الحميدي من طريق أبي هارون [مسند الحميدي ٢/ ٥٢٠]، وعند الطبراني

من طريق عروة بن الزبير، قال فيه الهيثمي: رجاله رجال الصحيح [**مجمع الزوائد ٩/ ٣١٨**]، ومن طريق عاصم بن عمر بن قتادة عند ابن جرير الطبري وابن هشام في السيرة [**سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣، ابن جرير التاريخ ٢/ ٦٠٨ تفسير ٢٨/ ١١٦**]، ومن طريق عكرمة وابن زيد عند ابن كثير في التفسير والتاريخ. [**تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٢، تاريخ البداية والنهاية ٤/ ١٥٨**].

ولكن مجموع هذه الطرق يؤيد بعضها بعضًا، وترتقي إلى درجة الحسن لغيره، ويقويها رواية الترمذي السابقة الذكر، وقد جاء أيضًا ما يقويها من حديث أبي هريرة دون ذكر أنها كانت في غزوة بني المصطلق». [**صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٥٤- ٢٥٥**].

نزول آية التيمم:

قال الواقدي: «حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَبّادٍ، عَنْ عِيسَى بْنِ مَعْمَرٍ، عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ ﵂: حَدِّثِينَا يَا أُمَّهْ حَدِيثَكِ فِي غَزْوَةِ الْمُرَيْسِيعِ، قَالَتْ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ فِي سَفَرٍ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا، وَكَانَ يُحِبُّ أَلَّا أُفَارِقَهُ فِي سَفَرٍ وَلا حَضَرٍ، فَلَمَّا أَرَادَ غَزْوَةَ الْمُرَيْسِيعِ أَقْرَعَ بَيْنَنَا، فَخَرَجَ سَهْمِي وَسَهْمُ أُمِّ سَلَمَةَ، فَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَغَنَّمَهُ اللهُ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا رَاجِعِينَ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ مَنْزِلًا لَيْسَ مَعَهُ مَاءٌ وَلَمْ يَنْزِلْ عَلَى مَاءٍ، وَقَدْ سَقَطَ عِقْدٌ لِي مِنْ عُنُقِي، فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَأَقَامَ بِالنَّاسِ حَتَّى أَصْبَحُوا، وَضَجَّ النَّاسُ وَتَكَلَّمُوا وَقَالُوا: احْتَبَسَتْنَا عَائِشَةُ، وَأَتَى النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ ﵁ فَقَالُوا: أَلا تَرَى إِلَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ حَبَسَتْ رَسُولَ الله ﷺ وَالنَّاسُ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَضَاقَ بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ فَجَاءَنِي مُغَيَّظًا فَقَالَ: أَلا تَرَيْنَ مَا صَنَعْتِ بِالنَّاسِ؟ حَبَسْتِ رَسُولَ الله ﷺ وَالنَّاسُ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي عِتَابًا شَدِيدًا وَجَعَلَ يَطْعَنُ بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، فَلا يَمْنَعُنِي مِنْ التَّحَرُّكِ إلا مَكَانُ رَسُولِ الله ﷺ رَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي وَهُوَ نَائِمٌ.

فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: وَالله إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَنْزِلَ لَنَا رُخْصَةٌ، وَنَزَلَتْ آيَةُ التَّيَمُّمِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لا يُصَلُّونَ إلا فِي بِيَعِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ طَهُورًا حَيْثُمَا أَدْرَكَتْنِي الصَّلاةُ**»، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: **مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ**، قَالَتْ: وَكَانَ أُسَيْدُ رَجُلًا صَالِحًا فِي بَيْتٍ مِنْ الأَوْسِ عَظِيمٍ». [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٢٦-٤٢٧**].

وقال الواقدي أيضًا: «فَحَدَّثَنِي مَعْمَرٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ﵄ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ حِينَ احْتَبَسَ عَلَى قِلادَةِ عَائِشَةَ ﵂ بِذَاتِ الْجَيْشِ، فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ أَوْ كَادَ نَزَلَتْ آيَةُ التَّيَمُّمِ فَمَسَحْنَا الأَرْضَ بِالأَيْدِي، ثُمَّ مَسَحْنَا الأَيْدِيَ إِلَى الْمَنَاكِبِ ظَهْرًا وَبَطْنًا، وَكَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الصّلاتَيْنِ فِي سَفَرِهِ». [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٣٥**].

وقصة نزول آية التيمم وردت في الصحيحين، ذكرها البخاري في عدة مواضع، وذكرها مسلم في الطهارة، وهي من حديث عائشة رضي الله عنها في غزوة (المريسيع) قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ (قال ابن حجر: «قَالَ اِبْنُ عَبْد الْبَرِّ فِي التَّمْهِيد: يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ فِي غَزَاة بَنِي الْمُصْطَلِق، وَجَزَمَ بِذَلِكَ فِي «الِاسْتِذْكَارِ» وَسَبَقَهُ إِلَى ذَلِكَ اِبْنُ سَعْدٍ وَابْنُ حِبَّانَ. [فتح الباري ٢/ ٢٣ كتاب التيمم باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ [النساء: ٤٣] رقم ٣٢٢]) حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ، أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْتِمَاسِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه فَقَالُوا: أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي فَلَا يَمْنَعُنِي مِنْ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى فَخِذِي، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ، فتيَمَّمُوا، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ: **مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ**.

قَالَتْ: فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَأَصَبْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ.

[البخاري في التيمم (٣٣٤)، ومسلم في الطهارة (٣٦٧)].

وقد بينت رواية أحمد هذا الإبهام الذي جاء في عتاب أبي بكر رضي الله عنه عائشة رضي الله عنها، قَالَتْ: فَلَقِيتُ مِنْ أَبِي مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ مِنْ التَّعْنِيفِ وَالتَّأْفِيفِ، وَقَالَ: فِي كُلِّ سَفَرٍ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْكِ عَنَاءٌ وَبَلَاءٌ [عَلَى النَّاسِ] قَالَتْ: فَأَنْزَلَ اللهُ الرُّخْصَةَ بِالتَّيَمُّمِ، قَالَتْ: فتيَمَّمَ الْقَوْمُ وَصَلَّوْا، قَالَتْ: يَقُولُ أَبِي حِينَ جَاءَ مِنَ اللهِ مَا جَاءَ مِنْ الرُّخْصَةِ لِلْمُسْلِمِينَ: **وَاللهِ مَا عَلِمْتُ يَا بُنَيَّةُ إِنَّكِ لَـمُبَارَكَةٌ، مَاذَا جَعَلَ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي حَبْسِكِ إِيَّاهُمْ مِنْ الْبَرَكَةِ وَالْيُسْرِ**. **[مسند أحمد ٤٣/ ٣٦٢ رقم ٢٦٣٤١، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل ابن إسحاق وهو محمد، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. والموطأ كتاب أبواب الصلاة باب التيمم رقم ٧٢].**

مسابقة رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها:

قال الواقدي من قول عائشة رضي الله عنها: «ثُمَّ إِنَّا سِرْنَا مَعَ الْعَسْكَرِ حَتَّى إِذَا نَزَلْنَا مَوْضِعًا دَمِثًا طَيِّبًا ذَا أَرَاكٍ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ هَلْ لَكِ فِي السِّبَاقِ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، فَتَحَزَّمْتُ بِثِيَابِي، وَفَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَبَقْنَا فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ الَّتِي كُنْتِ سَبَقْتِينِي**»، وَكَانَ جَاءَ إِلَى مَنْزِلِ أَبِي وَمَعِي شَيْءٌ فَقَالَ: هَلُمِّيهِ فَأَبَيْتُ، فَسَعَيْتُ وَسَعَى عَلَى أَثَرِي فَسَبَقْتُهُ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْغَزْوَةُ بَعْدَ أَنْ ضُرِبَ الْحِجَابُ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٢٧].

قال الحلبي: «هذا، وفي كلام ابن الجوزي عن عائشة ﵂ أنها قالت: «خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم، فقال للناس: تقدموا فتقدموا، ثم قال: تعال حتى أسابقك، فسابقته فسبقته، فسكت عني حتى حملت اللحم وخرجت معه في سفرة أخرى، فقال للناس: تقدموا، فتقدموا، ثم قال لي: تعال حتى أسابقك، فسابقته فسبقني، فجعل يضحك وهو يقول: **هذه بتلك**» فليتأمل. [السيرة الحلبية ٢/ ٦٠٢].

تَنَبُّؤُ الرَّسُولِ ﷺ بِمَوْتِ رِفَاعَةَ المُنَافِقِ:

عَنْ جَابِرٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَلَـمَّا كَانَ قُرْبَ المَدِينَةِ هَاجَتْ (ثارت وتحركت) رِيحٌ شَدِيدَةٌ تَكَادُ أَنْ تَدْفِنَ الرَّاكِبَ (أي تغيبه عن الناس وتذهب به لشدتها)، فَزَعَمَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**بُعِثَتْ هَذِهِ الرِّيحُ لِمَوْتِ مُنَافِقٍ** (أي عقوبة له علامة لموته وراحة للبلاد والعباد منه)»، فَلَـمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ فَإِذَا مُنَافِقٌ عَظِيمٌ مِنَ الـمُنَافِقِينَ قَدْ مَاتَ. [مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨٢)، وأحمد في المسند ٢٢/ ٢٧٦ رقم ١٤٣٧٨، ٢٣/ ٧١ رقم ١٤٧٣٢، وفيها «عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّ جَابِرًا ﵁ أَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ غَزَوْا غَزْوَةً بَيْنَ مَكَّةَ وَالـمَدِينَةِ...»].

قال ابن إسحاق: «ثُمَّ رَاحَ رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّاسِ وَسَلَكَ الْـحِجَازَ (مكة والمدينة والطائف ومخاليفها، كأنها حجزت بين نجد وتهامة، أو بين نجد والسراة، أو لأنها احتجزت بالحداء) حَتَّى نَزَلَ عَلَى مَاءٍ بِالْحِجَازِ فُوَيْقَ النَّقِيعِ (**النقيع**: من ديار مزينة، وكان طريق رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، ونقعاء: موضع فوق النقيع، وبين النقيع والمدينة عشرون فرسخًا، معجم البلدان لياقوت ٥/ ٢٩٩ و٣٠١، وهو يقدر بـ ١٠٠ كيلومتر لأن الفرسخ يعادل خمس كيلوات. ينظر: نسب حرب ص ٣٨٩. مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٢٧٠)، يُقَالُ لَهُ بَقْعَاءُ، فَلَمَّا رَاحَ رَسُولُ الله ﷺ هَبَّتْ عَلَى النَّاسِ رِيحٌ شَدِيدَةٌ آذَتْهُمْ وَتَخَوَّفُوهَا؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا تَخَافُوهَا، فَإِنَّمَا هَبَّتْ لِـمَوْتِ عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْكُفَّارِ**»، فَلَمَّا قَدِمُوا المدِينَةَ وَجَدُوا رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ التَّابُوتِ أَحَدَ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَكَانَ عَظِيمًا مِنْ عُظَمَاءِ يَهُودَ وَكَهْفًا لِلْمُنَافِقِينَ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩١، وهو مرسل رجاله ثقات وصرح ابن إسحاق بالتحديث، وقد وصله الإمام مسلم، وعبد بن حميد، وأحمد من طريق آخر عن جابر دون ذكر أن الريح كانت في غزوة بني المصطلق، وبهذا الشاهد يعلم أن حديث ابن إسحاق يصبح حسنًا لغيره. صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٥٥].

وقال الواقدي: «ثُمَّ رَاحَ رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّاسِ مُبْرِدًا، فَنَزَلَ مِنَ الْغَدِ مَاءً يُقَالُ لَهُ: بَقْعَاءُ فَوْقَ النَّقِيعِ، وَسَرَّحَ النَّاسُ ظَهْرَهُمْ فَأَخَذَتْهُمْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ حَتَّى أَشْفَقَ النَّاسُ مِنْهَا، وَسَأَلُوا عَنْهَا رَسُولَ الله ﷺ وَخَافُوا أَنْ يَكُونَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ خَالَفَ إِلَى المَدِينَةِ، وَقَالُوا: لَمْ تَهِجْ هَذِهِ الرِّيحُ إِلا مِنْ حَدَثٍ، وَإِنَّمَا بِالـمَدِينَةِ الذَّرَارِيُّ وَالصِّبْيَانُ، وَكَانَتْ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ مُدَّةٌ، فَكَانَ ذَلِكَ حِينَ انْقِضَائِهَا، فَدَخَلَهُمْ أَشَدُّ الْخَوْفِ، فَبَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ خَوْفُهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ بَأْسٌ مِنْهَا، مَا**

بِالمَدِينَةِ مِنْ نَقْبٍ إلا عَلَيْهِ مَلَكٌ يَحْرُسُهُ، وَمَا كَانَ لِيَدْخُلَهَا عَدُوٌّ حَتَّى تَأْتُوهَا؛ وَلَكِنَّهُ مَاتَ الْيَوْمَ مُنَافِقٌ عَظِيمُ النِّفَاقِ بِالمَدِينَةِ، فَلِذَلِكَ عَصَفَتْ (اشتدت) **الرِّيحُ**»، وَكَانَ مَوْتُهُ لِلْمُنَافِقِينَ غَيْظًا شَدِيدًا، وَهُوَ زَيْدُ بْنُ رِفَاعَةَ بْنِ التَّابُوتِ مَاتَ ذَلِكَ الْيَوْمَ.

فَحَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ الحَارِثِ، عَنْ عَبَّاسِ بْنِ سَهْلٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﭭ، قَالَ: كَانَتْ الرِّيحُ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ مَا كَانَتْ قَطُّ إِلَى أَنْ زَالَتْ الشَّمْسُ، ثُمَّ سَكَنَتْ آخِرَ النَّهَارِ، قَالَ جَابِرٌ ﭬ: فَسَأَلْتُ حِينَ قَدِمْتُ قَبْلَ أَنْ أَدْخُلَ بَيْتِي: مَنْ مَاتَ؟ فَقَالَ: زَيْدُ بْنُ رِفَاعَةَ بْنِ التَّابُوتِ، وَذَكَرَ أَهْلُ المَدِينَةِ أَنَّهُمْ وَجَدُوا مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الرِّيحِ حَتَّى دُفِنَ عَدُوُّ الله فَسَكَنَتْ الرِّيحُ.

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﭬ يَوْمَئِذٍ لابْنِ أُبَيٍّ: أَبَا حُبَابٍ، مَاتَ خَلِيلُكَ، قَالَ: أَيُّ أَخِلَّائِي؟ قَالَ: مَنْ مَوْتُهُ فَتْحٌ لِلإِسْلامِ وَأَهْلِهِ، قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: زَيْدُ ابْنُ رِفَاعَةَ بْنِ التَّابُوتِ، قَالَ: يَا وَيْلاه، كَانَ وَالله وَكَانَ، فَجَعَلَ يَذْكُرُ، فَقُلْتُ: اعْتَصَمْتَ بِالذَّنْبِ الأَبْتَرِ (المقطوع)، قَالَ: مَنْ أَخْبَرَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِمَوْتِهِ؟ قُلْتُ: رَسُولُ الله ﷺ أَخْبَرَنَا السَّاعَةَ أَنَّهُ مَاتَ هَذِهِ السَّاعَةَ، قَالَ: فَأُسْقِطَ فِي يَدَيْهِ وَانْصَرَفَ كَئِيبًا (حَزِن أشد الحزن) حَزِينًا، قَالُوا: وَسَكَنَتِ الرِّيحُ آخِرَ النَّهَارِ فَجَمَعَ النَّاسُ ظُهُورَهُمْ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٢٢-٤٢٣].

فقدان ناقة رسول الله ﷺ:

قال الواقدي: «فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ ابْنِ رُومَانَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ ابْنِ قَتَادَةَ، قَالا: وَفُقِدَتْ نَاقَةُ رَسُولِ الله ﷺ الْقَصْوَاءُ مِنْ بَيْنِ الإِبِلِ، فَجَعَلَ المُسْلِمُونَ يَطْلُبُونَهَا فِي كُلِّ وَجْهٍ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ اللُّصَيْتِ ـ وَكَانَ مُنَافِقًا وَهُوَ فِي رِفْقَةِ قَوْمٍ مِنْ الأَنْصَارِ، مِنْهُمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرِ بْنِ وَقْشٍ، وَسَلَمَةُ بْنُ سَلامَةَ بْنِ وَقْشٍ، وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ـ فَقَالَ: أَيْنَ يَذْهَبُ هَؤُلاءِ فِي كُلِّ وَجْهٍ؟ قَالُوا: يَطْلُبُونَ نَاقَةَ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ ضَلَّتْ، قَالَ: أَفَلا يُخْبِرُهُ اللهُ بِمَكَانِ نَاقَتِهِ؟ فَأَنْكَرَ الْقَوْمُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالُوا: قَاتَلَكَ اللهُ يَا عَدُوَّ الله نَافَقْتَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﭬ فَقَالَ: وَالله لَوْلا أَنِّي لا أَدْرِي مَا يُوَافِقُ رَسُولُ الله مِنْ ذَلِكَ لأَنْفَذْتُ خُصْيَتَكَ بِالرُّمْحِ يَا عَدُوَّ الله، فَلِمَ خَرَجْتَ مَعَنَا وَهَذَا فِي نَفْسِكَ؟ قَالَ: خَرَجْتُ لأَطْلُبَ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، وَلَعَمْرِي إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُخْبِرُنَا بِأَعْظَمَ مِنْ شَأْنِ النَّاقَةِ يُخْبِرُنَا عَنْ أَمْرِ السَّمَاءِ، فَوَقَعُوا بِهِ جَمِيعًا، وَقَالُوا: وَالله لا يَكُونُ مِنْكَ سَبِيلٌ أَبَدًا وَلا يُظِلُّنَا وَإِيَّاكَ ظِلٌّ أَبَدًا، وَلَوْ عَلِمْنَا مَا فِي نَفْسِكَ مَا صَحِبْتَنَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ وَثَبَ هَارِبًا مُنْهَزِمًا مِنْهُمْ أَنْ يَقَعُوا بِهِ وَنَبَذُوا مَتَاعَهُ، فَعَمَدَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَجَلَسَ مَعَهُ فِرَارًا مِنْ أَصْحَابِهِ مُتَعَوِّذًا بِهِ، وَقَدْ جَاءَ رَسُولَ الله ﷺ خَبَرُ مَا قَالَ مِنْ السَّمَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ، وَالمُنَافِقُ يَسْمَعُ: «**إِنَّ رَجُلًا مِنَ المُنَافِقِينَ شَمِتَ أَنْ ضَلَّتْ نَاقَةُ رَسُولِ الله، وَقَالَ: أَلا يُخْبِرُهُ اللهُ بِمَكَانِهَا؟ فَلَعَمْرِي**

(الحياة) **إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُخْبِرُنَا بِأَعْظَمَ مِنْ شَأْنِ النَّاقَةِ، وَلا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلا اللهُ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَنِي بِمَكَانِهَا، وَأَنَّهَا فِي هَذَا الشِّعْبِ** (الطريق في الجبل) **مُقَابِلَكُمْ، قَدْ تَعَلَّقَ زِمَامُهَا بِشَجَرَةٍ فَاعْمِدُوا عَمْدَهَا**».

فَذَهَبُوا فَأَتَوْا بِهَا مِنْ حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا نَظَرَ الـمُنَافِقُ إِلَيْهَا قَامَ سَرِيعًا إِلَى رُفَقَائِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، فَإِذَا رَحْلُهُ مَنْبُوذٌ وَإِذَا هُمْ جُلُوسٌ لَمْ يَقُمْ رَجُلٌ مِنْ مَجْلِسِهِ، فَقَالُوا لَهُ حِينَ دَنَا: لا تَدْنُ مِنَّا، قَالَ: أُكَلِّمُكُمْ، فَدَنَا، فَقَالَ: أُذَكِّرُكُمْ بِاللهِ، هَلْ أَتَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مُحَمَّدًا فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي قُلْتُ؟ قَالُوا: لا، وَاللهِ وَلا قُمْنَا مِنْ مَجْلِسِنَا هَذَا، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ، وَتَكَلَّمَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّهُ قَدْ أُتِيَ بِنَاقَتِهِ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ فِي شَكٍّ مِنْ شَأْنِ مُحَمَّدٍ، فَأَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي لَمْ أُسْلِمْ إِلَّا الْيَوْمَ، قَالُوا لَهُ: فَاذْهَبْ إِلَى رَسُولِ اللهِ يَسْتَغْفِرْ لَكَ، فَذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْتَغْفَرَ لَهُ وَاعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فَسْلًا (الرديء الرذل من كل شيء، وقيل: الرذل الذي لا مروءة له، ورويت: الفَشِل: الجبان الضعيف القلب) حَتَّى مَاتَ، وَصَنَعَ مِثْلَ هَذَا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٢٣-٤٢٥].

مسابقة رسول الله ﷺ بين الخيل والإبل:

قال الواقدي: «وَسَبَّقَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بَيْنَ الْخَيْلِ وَبَيْنَ الإِبِلِ، فَسَبَقَتْ الْقَصْوَاءُ الإِبِلَ، وَسَبَقَ فَرَسُهُ ـ وَكَانَ مَعَهُ فَرَسَانِ لِزَازٌ وَآخَرُ يُقَالُ لَهُ: الظِّرِبُ ـ فَسَبَقَ يَوْمَئِذٍ عَلَى الظِّرِبِ، وَكَانَ الَّذِي سَبَقَ عَلَيْهِ أَبُو أُسَيْدٍ السَّاعِدِيُّ، وَالَّذِي سَبَقَ عَلَى نَاقَتِهِ بِلالٌ». **[المغازي للواقدي ٢/ ٤٢٦]**.

النهي عن طرق النساء ليلاً:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي عَتِيقٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنْتُ رَفِيقَ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ فِي غَزْوَةِ الْمُرَيْسِيعِ، فَأَقْبَلْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى وَادِي الْعَقِيقِ فِي وَسَطِ اللَّيْلِ، فَإِذَا النَّاسُ مُعَرِّسُونَ (النزول بمكان ليلًا)، قُلْنَا: فَأَيْنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالُوا: فِي مُقَدَّمِ النَّاسِ قَدْ نَامَ، فَقَالَ لِي عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: **يَا جَابِرُ، هَلْ لَكَ بِنَا فِي التَّقَدُّمِ وَالدُّخُولِ عَلَى أَهْلِنَا؟** فَقُلْتُ: **يَا أَبَا مُحَمَّدٍ لا أُحِبُّ أَنْ أُخَالِفَ النَّاسَ لا أَرَى أَحَدًا تَقَدَّمَ**، قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: **وَاللهِ مَا نَهَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ تَقَدُّمٍ**، قَالَ جَابِرٌ: **أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ بِبَارِحٍ** (بذاهب)، فَوَدَّعَنِي وَانْطَلَقَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَنْظُرُ إِلَيْهِ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، فَطَرَقَ أَهْلَهُ بَلْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَإِذَا مِصْبَاحٌ فِي وَسَطِ بَيْتِهِ وَإِذَا مَعَ امْرَأَتِهِ إِنْسَانٌ طَوِيلٌ، فَظَنَّ أَنَّهُ رَجُلٌ وَسُقِطَ فِي يَدَيْهِ وَنَدِمَ عَلَى تَقَدُّمِهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: الشَّيْطَانُ مَعَ الْغُرِّ، فَاقْتَحَمَ الْبَيْتَ رَافِعًا سَيْفَهُ قَدْ جَرَّدَهُ مِنْ غِمْدِهِ يُرِيدُ أَنْ يَضْرِبَهُمَا، ثُمَّ فَكَّرَ وَاذَّكَرَ فَغَمَزَ امْرَأَتَهُ بِرِجْلِهِ فَاسْتَيْقَظَتْ فَصَاحَتْ وَهِيَ تَوَسَنُ (شدة النوم، أو أوله)، فَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللهِ فَمَنْ هَذَا؟ قَالَتْ: رُجَيْلَةُ مَاشِطَتِي (مسرِّحة الشعر)، سَمِعْنَا بِمَقْدِمِكُمْ فَدَعَوْتُهَا تُمَشِّطُنِي

فَبَاتَتْ عِنْدِي، فَبَاتَ فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَ مُعْتَرِضًا لِرَسُولِ الله ﷺ فَلَقِيَهُ بِبِئْرِ أَبِي عُتْبَةَ وَرَسُولُ الله ﷺ يَسِيرُ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَبَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ، فَالْتَفَتَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَشِيرٍ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا النُّعْمَانِ**»، فَقَالَ: لَبَّيْكَ، قَالَ: «**إِنَّ وَجْهَ عَبْدِ الله لَيُخْبِرُكَ أَنَّهُ قَدْ كَرِهَ طُرُوقَ** (إتيان) **أَهْلِهِ**»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَبَرَكَ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ**»، فَأَخْبَرَهُ كَيْفَ كَانَ تَقَدَّمَ وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا تَطْرُقُوا** (تأتوا) **النِّسَاءَ لَيْلًا**»، قَالَ جَابِرٌ ﷺ: فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا نَهَى عَنْهُ رَسُولُ الله ﷺ.

قَالَ جَابِرٌ ﷺ: فَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْعَسْكَرِ وَلُزُومَهُ وَالْجَمَاعَةَ، لَقَدْ أَقْبَلْنَا مِنْ خَيْبَرَ، وَكُنَّا مَرَرْنَا عَلَى وَادِي الْقُرَى فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْجُرُفِ لَيْلًا، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ: «**لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا**»، قَالَ جَابِرٌ ﷺ: فَانْطَلَقَ رَجُلانِ فَعَصَيَا رَسُولَ الله ﷺ فَرَأَيَا جَمِيعًا مَا يَكْرَهَانِ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٣٩-٤٤٠، وأخرجه الدارمي ١/ ١١٨، والطبراني في الكبير ١١/ ٢٤٥، والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٩٣، والبيهقي في الدلائل ٤/ ٢٧١**].

العودة إلى المدينة:

قال ابن سعد: «وغاب رسول الله ﷺ في غَزَاته هذه ثمانية وعشرين يومًا، وقدم المدينة لهلال شهر رمضان». [**الطبقات لابن سعد ٢/ ٦١**].

تَوَلِّي قَوْمُ ابْنِ أُبَيٍّ مُجَازَاتَهُ:

وَجَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَحْدَثَ الْحَدَثَ كَانَ قَوْمُهُ هُمْ الَّذِينَ يُعَاتِبُونَهُ وَيَأْخُذُونَهُ وَيُعَنِّفُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِمْ: **كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ! أَمَا وَالله لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِي اُقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلْته**، قَالَ : قَالَ عُمَرُ ﷺ: **قَدْ وَالله عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي**. [**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٣**].

مَوْتُ ابْنِ صُبَابَةَ:

وَقَدْ أُصِيبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَنِي كَلْبِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَامِرِ بْنِ لَيْثِ بْنِ بَكْرٍ يُقَالُ لَهُ هِشَامُ بْنُ صُبَابَةَ، أَصَابَهُ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ مِنْ رَهْطِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ مِنْ الْعَدُوِّ فَقَتَلَهُ خَطأً.

[**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٠**].

وقال الواقدي: «وَكَانَ هَاشِمُ بْنُ صُبَابَةَ قَدْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ، فَرَجَعَ فِي رِيحٍ شَدِيدَةٍ وَعَجَاجٍ فَتَلْقَى رَجُلًا مِنْ رَهْطِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ يُقَالُ لَهُ: أَوْسٌ، فَظَنَّ أَنَّهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ، فَقَتَلَهُ، فَعَلِمَ بَعْدُ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تُخْرَجَ دِيَتُهُ.

وَيُقَالُ: قَتَلَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَقَدِمَ أَخُوهُ مِقْيَسٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَمَرَ لَهُ بِالدِّيَةِ فَقَبَضَهَا، ثُمَّ عَدَا عَلَى قَاتِلِ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى قُرَيْشٍ مُرْتَدًّا وَهُوَ يَقُولُ:

شَفي النَّفْسَ أَنْ قَدْ بَاتَ بِالْقَاعِ مُسْنَدًا ... يُضَرِّجُ ثَوْبَيْهِ دِمَاءُ الأَخَادِعِ
وَكَانَتْ هُمُومُ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ قَتْلِهِ ... تُلِمُّ فَتَحْمِينِي وِطَاءَ المَضَاجِعِ
ثَأَرْتُ بِهِ فِهْرًا وَحَمَّلْتُ عَقْلَهُ ... سَرَاةَ بَنِي النَّجَّارِ أَرْبَابَ فَارِعِ
حَلَلْتُ بِهِ وِتْرِي وَأَدْرَكْتُ ثُؤْرَتِي ... وَكُنْتُ إِلَى الأَوْثَانِ أَوَّلَ رَاجِعِ

فَأَهْدَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَمَهُ حَتَّى قَتَلَهُ نُمَيْلَةُ يَوْمَ الْفَتْحِ.

[المغازي للواقدي ١/ ٤٠٧-٤٠٨، السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٣].

وَقَالَ مِقْيَسُ بْنُ صُبَابَةَ أَيْضًا:

جَلَّلْتُهُ ضَرْبَةً بَاءَتْ لَهَا وَشَلٌ ... مِنْ نَاقِعِ الْجَوْفِ يَعْلُوهُ وَيَنْصَرِمُ
فَقُلْتُ وَالمَوْتُ تَغْشَاهُ أَسِرَّتُهُ ... لَا تَأْمَنَنْ بَنِي بَكْرٍ إِذَا ظُلِمُوا

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٤].

زواج النبي ﷺ من جويرية بنت الحارث ؓ وإطلاق الأسرى:

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ؓ قَالَتْ: لَـمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَبَايَا بَنِي الـمُصْطَلِقِ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ، وَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً حُلْوَةً مُلَاحَةً (ملح الشيء بالضم ملاحة بالفتح: بهج وحسن منظره فهو مليح والأنثى مليحة، والجمع ملاح) [تَأْخُذُهَا الْعَيْنُ] لَا يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَسْتَعِينُهُ فِي كِتَابَتِهَا.

قَالَتْ: [فَلَـمَّا قَامَتْ عَلَى الْبَابِ] فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي فَكَرِهْتُهَا [كَرِهْتُ مَكَانَهَا]، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ [أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ] سَيَرَى مِنْهَا [مِثْلَ] مَا رَأَيْتُ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنْ الْبَلَاءِ [وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ أَمْرِي] مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ [شَمَّاسٍ]، أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ، فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى كِتَابَتِي [أَسْأَلُكَ فِي كِتَابَتِي].

قَالَ: «**فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ**»، قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أَقْضِي [أُؤَدِّي عَنْكِ] كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ**»، قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**قَدْ فَعَلْتُ**».

قَالَتْ: وَخَرَجَ الْخَبَرُ إِلَى النَّاسِ [فَتَسَامَعَ ـ تَعْنِي النَّاسَ ـ] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ، فَقَالَ النَّاسُ: أَصْهَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ [مِنْ السَّبْيِ فَأَعْتَقُوهُمْ]، قَالَتْ: **فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا [فِي سَبَبِهَا] مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الـمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ [رَأَيْنَا] امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا**. [مسند أحمد ٤٣/ ٣٨٤ رقم ٢٦٣٦٥، وأبو داود في العتق (٣٩٣١)، وقَالَ أَبُو دَاوُد: هَذَا حُجَّةٌ فِي أَنَّ الْوَلِيَّ

هُوَ يُزَوِّجُ نَفْسَهُ، وقال الشيخان الأرناؤوط والألباني: إسناده حسن، وقال الساعاتي في الفتح الرباني: سنده جيد، والحاكم ٤/ ٢٦ وسكت عنه الذهبي، والطبراني في الكبير ٢٤/ ٦١، والسيرة لابن هشام ٢/ ٢٩٤-٢٩٥، والمغازي للواقدي ١/ ٤١١، والبيهقي في السنن ٩/ ٧٥. وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٠٧].

قال الواقدي: «وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ أَبِي الأَبْيَضِ، عَنْ جَدَّتِهِ، وَهِيَ مَوْلاةُ جُوَيْرِيَةَ، كَانَ عَالِمًا بِحَدِيثِهِمْ، قَالَتْ: سَمِعْتُ جُوَيْرِيَةَ تَقُولُ: افْتَدَانِي أَبِي مِنْ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ بِمَا أُفْتُدِيَ بِهِ امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ، ثُمَّ خَطَبَنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أَبِي فَأَنْكَحَنِي، قَالَتْ: وَكَانَ اسْمُهَا بَرَّةَ فَسَمَّاهَا رَسُولُ الله ﷺ جُوَيْرِيَةَ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ: «**خَرَجَ مِنْ بَيْتِ بَرَّةَ**».

قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: وَأَثْبَتُ مِنْ هَذَا عِنْدَنَا حَدِيثُ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى عَنْهَا كِتَابَتَهَا وَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا. [المغازي للواقدي ١/ ٤١٢].

وقال الواقدي: «فَحَدَّثَنِي حِزَامُ بْنُ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَتْ جُوَيْرِيَةُ: رَأَيْتُ قَبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ بِثَلاثِ لَيَالٍ كَأَنَّ الْقَمَرَ يَسِيرُ مِنْ يَثْرِبَ حَتَّى وَقَعَ فِي حِجْرِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُخْبِرَهَا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ، فَلَمَّا سُبِينَا رَجَوْتُ الرُّؤْيَا، فَلَمَّا أَعْتَقَنِي، وَتَزَوَّجَنِي وَالله مَا كَلَّمْتُهُ فِي قَوْمِي، حَتَّى كَانَ الْمُسْلِمُونَ هُمُ الَّذِينَ أَرْسَلُوهُمْ وَمَا شَعَرْتُ إلا بِجَارِيَةٍ مِنْ بَنَاتِ عَمِّي تُخْبِرُنِي الْخَبَرَ، فَحَمِدْتُ اللهَ ﷻ.

وَيُقَالُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَعَلَ صَدَاقَهَا عِتْقَ كُلِّ أَسِيرٍ مِنْ بَنِي الـمُصْطَلِقِ، وَيُقَالُ: جَعَلَ صَدَاقَهَا عِتْقَ أَرْبَعِينَ مِنْ قَوْمِهَا». [المغازي للواقدي ١/ ٤١١-٤١٢].

إسلام الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنه:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ، وَكَانَتْ فِي سبايا بَنِي الْمُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ، فَوَقَعَتْ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ، وَذَكَرَ الْخَبَرَ، وَفِيهِ: «فَأَقْبَلَ أَبُوهَا الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ لِفِدَاءِ ابْنَتِهِ، فَلَمَّا كَانَ بِالْعَقِيقِ نَظَرَ إِلَى الْإِبِلِ الَّتِي جَاءَ بِهَا لِلْفِدَاءِ فَرَغِبَ فِي بَعِيرَيْنِ مِنْهَا، فَغَيَّبَهُمَا فِي شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ الْعَقِيقِ، ثُمَّ أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَصَبْتُمْ ابْنَتِي، وَهَذَا فِدَاؤُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **فَأَيْنَ الْبَعِيرَانِ اللَّذَانِ غَيَّبْتَهُمَا بِالْعَقِيقِ، فِي شِعْبِ كَذَا وَكَذَا؟** فَقَالَ الْحَارِثُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، فَوَالله مَا اطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللهُ، فَأَسْلَمَ الْحَارِثُ، وَأَسْلَمَ مَعَهُ ابْنَانِ لَهُ وَنَاسٌ مِنْ قَوْمِهِ. [الاستيعاب ١/ ٢٩٩، مع الإصابة، وأسد الغابة ١/ ٤٠٠، والإصابة ١/ ٢٨١، وسيأتي تعقيب د/ قريبي على الرواية المشابهة لها من سيرة ابن هشام في الدروس المستفادة].

الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَبَنُو المصْطَلِقِ وَمَا نَزَلَ فِي ذَلِكَ مِنْ الْقُرْآنِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا بِهِ رَكِبُوا إِلَيْهِ فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ هَابَهُمْ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ

الْقَوْمَ قَدْ هَمُّوا بِقَتْلِهِ وَمَنَعُوهُ مَا قِبَلَهُمْ مِنْ صَدْقِهِمْ، فَأَكْثَرَ المسْلِمُونَ فِي ذِكْرِ غَزْوِهِمْ حَتَّى هَمَّ رَسُولُ الله ﷺ بِأَنْ يَغْزُوَهُمْ، فَبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ قَدِمَ وَفْدُهُمْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله سَمِعْنَا بِرَسُولِكَ حِينَ بَعَثْتَهُ إِلَيْنَا، فَخَرَجْنَا إِلَيْهِ لِنُكْرِمَهُ وَنُؤَدِّيَ إِلَيْهِ مَا قِبَلَنَا مِنْ الصَّدَقَةِ فَانْشَمَرَ رَاجِعًا، فَبَلَغْنَا أَنَّهُ زَعَمَ لِرَسُولِ الله ﷺ أَنَّا خَرَجْنَا إِلَيْهِ لِنَقْتُلَهُ، وَوَالله مَا جِئْنَا لِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ وَفِيهِمْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾[الحُجُرات] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٦].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: المصنف لابن أبي شيبة (٢٣٥ هـ) ٢٠/ ٣٩٢-٣٩٤، جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٨/ ٢٨٤-٢٨٦، مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧ هـ) ٦/ ٢٠٧-٢٠٨، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٤٩٤-٥٠٣، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢٦-٧٤٦، الجامع الصحيح للوادعي (١٤٢٢هـ) ٣/ ٢٦٣-٢٦٤.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٤٣٥-٤٧٩، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٢٨٩-٣٠٧، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ١/ ٤٠٤-٤١٣+٢/ ٤١٥-٤٣٩، الطبقات الكبير لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٥٩-٦٠، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٦٠٤-٦١٠، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٤٤-٧٧، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٢١٦-٢٣٢، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٢٥٨-٢٨١، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٥٦-٢٦٩، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ١٨١-٢٠٥، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٠٣-٢٢٠، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٤/ ٤٨٦-٥١١، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٢/ ٥٨٣-٦٢٨.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٠٤-٤١٦، صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٤٥-٢٦٣، السيرة النبوية لمهدي رزق الله ٤٣١-٤٤١، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٣١-٢٥٥، فقه السيرة للزيد ٤٦٤-٤٨٨.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي، غزوة الأحزاب لباشميل ٨٢-١١٤، غزوة الأحزاب لأبي فارس ٢١-٢٤+ ٥٩-٧٧، غزوة الحديبية لأبي خليل ٢٩-٥١، حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ١/ ٣٠٧-٣٩٦، غزوات النبي ﷺ لقطب ٩٧-١١١، غزوة الأحزاب للشافعي ٤٤-٧٧.

هـ ـ كتب أخرى: رجال مبشرون بالجنة لجمعة ٢٢٦-٢٣٢، فرسان من عصر النبوة لجمعة ٦١٤-٦٢٥، في رحاب خاتم رسل الله ﷺ لمحمد ٤٢٣-٤٣٨، مجتمع المدينة للندوي ٢٢٣-٢٣٩ +٤٥٨-٤٦٢.

خرائط غزوة بني المُصْطَلِقِ (المُرَيْسِيعِ)

(١)

أقاليم الجزيرة عند البكري

الغور — العروض

الحجاز وتهامة — اليمن

نجد والبحرين

أهمّ الأعلام الجغرافية ومنازل أهمّ القبائل

في الحجاز وشمال ووسط الجزيرة

خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى

مقياس الرسم ١ : ٤٠٠٠٠٠٠

أطلس تاريخ الإسلام لمؤنس ص ٥٦.

(٢)

منازل القبائل العربية
في وسط وشمال الجزيرة العربية
وبلاد الشام في العصر النبوي

أطلس تاريخ الإسلام لمؤنس ص ٥٨.

(٣)

غزوة بني المُصْطَلِق

(المُرَيْسِيع)

شعبان ٥ هـ

صحراء النفـود الكبرى
بحر القلزم (الأحمر)
الحجاز
نجد
سيناء
مصر
النوبة
مدين
أذرح
معان
إلى مؤتة
العقبة (أيلة)
دُومة الجندل
تبوك
تيماء
مويلح
ضبا
مدائن صالح (الحجر)
العُلا
ذات الرقاع
الوجه
خيبر
فدك
بني أمر
وادي القرى
بنو قرقرة
أحد
بنو لحيان
بواط
المدينة المنورة
العُشيرة
ينبع
بدر
حمراء الأسد
السويق
ودان
بحران
بنو قريظة
بنو سُليم
رابغ
المريسيع
الحديبية
جُدة
مكة المكرمة
حنين
الطائف

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ص ١٣٥.

(٤)

الإفـــــك

غزوة بني المُصْطَلِق (من خزاعة)

غزوة المُرَيْسِيع

(شعبان ٥ هـ)

﴿ إنَّ الذينَ جاؤوا بالإفك عُصْبَةٌ منكُم لا تَحْسَبُوهُ شرًّا لكم بَلْ هُوَ خيرٌ لكم لكلِّ امرِئٍ منهم ما اكتسبَ مِنَ الإثمِ والذي تولَّى كِبْرَهُ منْهم له عذابٌ عظيم ﴾

﴿ ولولا إذْ سمعتُموهُ قلتم ما يكونُ لنا أن نتكلَّمَ بهذا سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ ﴾

﴿ إنَّ الذين يحبُّونَ أن تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليم في الدُّنيا والآخرة .. ﴾

(النُّور ٢٤/١١، ١٦، ١٩)

الأوس والخزرج

المدينة المنوَّرة

ذو الحليفة (آبار علي)

مزينة

جهينة

سُلَيم

غفار

الأبواء

بدر

الجحفة

رابغ البحر

المُرَيْسِيع

خزاعة

قديد

البحر الأحمر (القلزم)

عضل والقارة

خزيمة

الحديبية

جدة

مكة المكرمة

قريش

هوازن

عرفة

الطائف

ثقيف

مازن

أزد السراة

أطلس القرآن لأبي خليل ص ٢٤٠.

(٥)



أطلس الحديث النبوي للكتب الصحاح الستة لأبي خليل ص ٣٤٠.

(٦)

المدينة النبوية
الغريض
ينبع النخل
الفريش
ينبع البحر
المسيجيد
الواسطة
أرض
بدر
الغزلان
الراس الأبيض
النصايف
الأكحل
الأبواء
مستورة
رابغ
الجحفة
وادي قديد
المريسيع
بنو المصطلق
القديمة
أول
خليص
الحجاز
نجد
جزيرة العرب
البحر الأحمر
(القلزم)
عسفان
ذهبان
جدة
مكة المكرمة
الطائف
الشعبة
يلملم (السعدية)

المريسيع ماء لبني خزاعة يقع في وادي قديد.

المسافة بين المدينة النبوية ووادي قديد حوالي ٢٩٧كم تقريباً.

المسافة بين مكة المكرمة ووادي قديد حوالي ١٢٠كم تقريباً.

وقعت خلال هذه الغزوة حادثة الأفك ضد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فبرأها الله تعالى من ذلك.

غزوة بني المصطلق في شعبان من السنة الخامسة للهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٧٤ ط٣ ـ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٧)

غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ٥ هـ

إِنَّ الَّذِينَ جَآءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾

المدينة النبوية

أرض

الحجاز

بنو المصطلق

وادي قديد

المريسيع: ماء لبني خزاعة يقع في وادي قديد.

بحر القلزم
(البحر الأحمر)

مكة المكرمة

* وقعت خلال هذه الغزوة حادثة الأفك ضد أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها فبرأها الله تعالى بآيات تتلى إلى يوم القيامة من سورة النور. تأمل الآيات أعلى الصفحة!

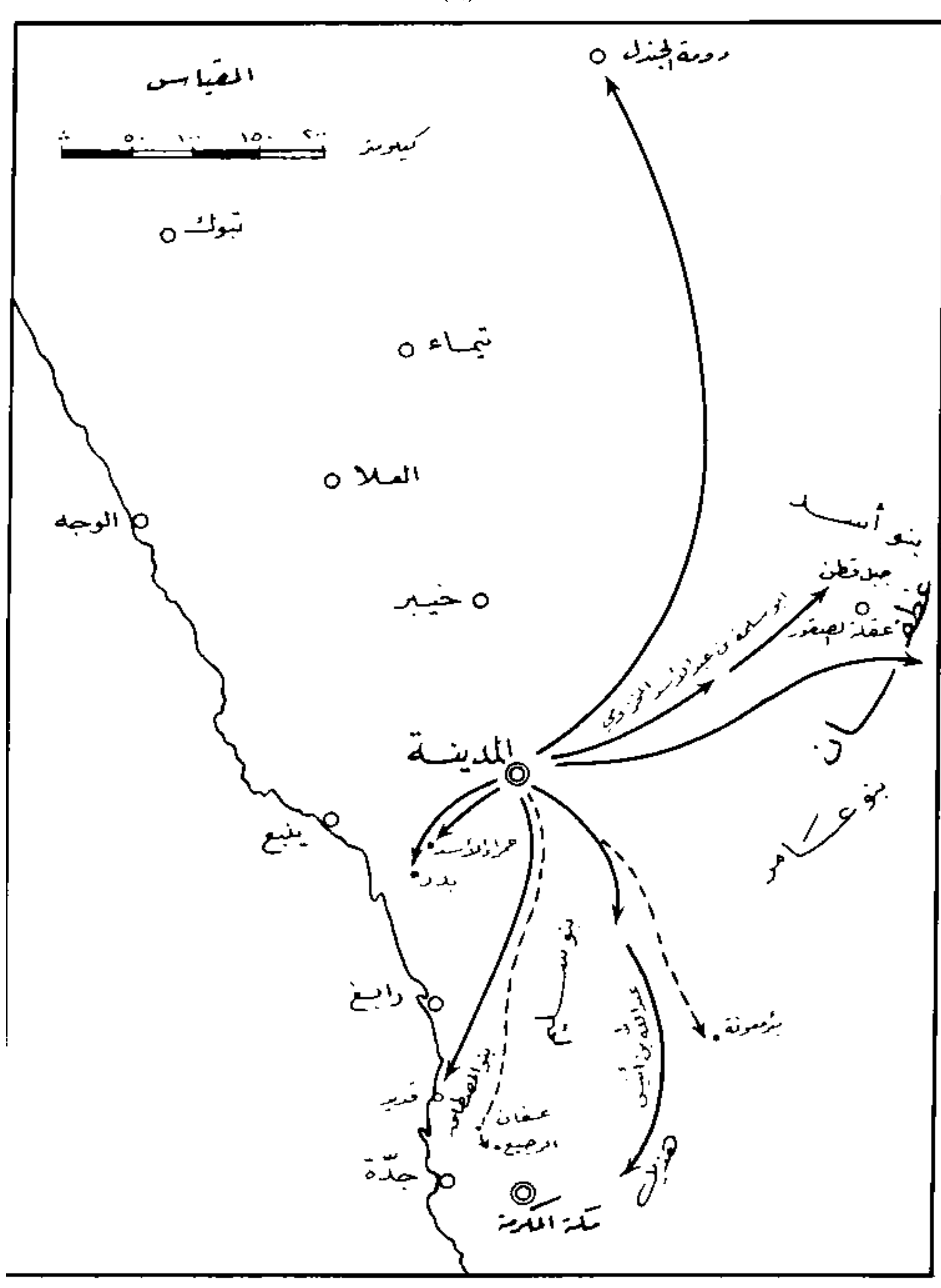
الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٧٤ ط ٤ ـ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٨)

غزوة
بـني المصطلق
٥٠كم ٢٥ ٠
جبال جهيـنة
جبل رضوى
بواط
بئر معونة
المدينة المنورة
قباء
ذو الحليفة
ينبع النخل
عين المبارك
وادي العقيق
حرة مزين
وادي الصفراء
الصفراء
حمراء الأسد
بدر
العرج
الشقية
حرة رهاط
وادي الفاجة
بئر صالح
الريانة
مهد الذهب
أم البرك
المريض
الأبواء
مستورة
وادي الفرع
صفينة
الخرار
بئر غابر
رابغ
حرة بني سليم
وادي ستارة
بئر العوادي
حسنة
الجحفة
مريسيع
قديد
قضيمة
بنو المصطلق
ذات عرق
البركة
أمج
وادي غران
إلى نجد
عسفان
وادي العقيق
عشيرة
قرن المنازل
الجموم
وادي فاطمة
وادي عرفة
عرفات
جدة
الحديبية
مكة المكرمة
الشمال
بحر القلزم
البحر الأحمر

حدائق الأنوار لبحرق ص ٥٤٤.

(٩)



التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٢٧٤

(١٠)

شكل ٤٠ - غزوة بنى المصطلق

خاتم الأنبياء محمد ﷺ للبدراوي ص ٦٤٤.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من غزوة بني المُصْطَلِقِ (المُرَيْسِيعِ)
المطلب الأول
الدروس العقائدية

١ ـ المنافقون في عهد الرسول ﷺ:

يقول د/ الزيد: «بمناسبة هذه الحادثة من المنافقين أود أن أقف الوقفات السريعة التالية عن المنافقين في عهد الرسول ﷺ:

(١) إنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه، فقد كان من الناس من يُظهر الكفر مستكرهًا، وهو في الباطن مؤمن. [ينظر: تفسير القرآن لابن كثير ١/ ٤٧، ومنهاج السنة لابن تيمية ٨/ ٤٧٦، وقارن بوجهة نظر أخرى للدكتور عبد العزيز الحميدي في كتابه (المنافقون في القرآن) ص ١٠٠].

(٢) أن النفاق علامة من علامات قوة هذا الدين فنفاقهم نتيجة خشيتهم قوة المسلمين وعند ضعف المسلمين يُجاهر كلٌّ بمبدئه وعقيدته.

(٣) ولذلك فأول منشأ النفاق في المدينة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين الكبير على المشركين.
[ينظر: النفاق لعبد الرحمن الدوسري ص ٥ (المقدمة)].

(٤) أن المنافقين أخطر صنف على المسلمين [المرجع السابق ص ٧١]؛ لأن المسلمين لا يؤتون في معظم ما يصيبهم من الشر إلا من قبل المنافقين.

(٥) تاريخ المنافقين في عهد الرسول ﷺ شاهد على تآمرهم مع اليهود ومع مشركي مكة على حرب المسلمين ومحاولة القضاء عليهم. [ينظر: سيرة الرسول ﷺ لمحمد عزة دروزة ٢/ ٧٦ و ٨٩].

(٦) الحديث عن المنافقين في القرآن الكريم ورد في سبع عشرة سورة من السور المدنية البالغ عددها ثلاثين سورة تقريبًا.

(٧) أن المنافقين دائمو القلق والخوف، قلوبهم خالية من الإخلاص، أعمالهم تنطوي على نية خبيثة كلما هتف امرؤ ظنوا أنه يهتف ضدهم، يقول الله تعالى عنهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أعقبها بكلمة مهمة تعريهم، قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقين].
[ينظر: النفاق لعبد الرحمن الدوسري ص ٩٣].

(٨) وصفهم ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين فقال:

(أ) لكل منه وجهان وجه يلقى به المؤمنين ووجه ينقلب به إلى إخوانه الملحدين، وله لسانان أحدهما

يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم لـه عـن سره المكنـون: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[البقرة].

(ب) يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن، فإن كان لهم فتح من الله قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب، فيا من يريد معرفتهم خذ صفاتهم من كلام رب العالمين فلا تحتاج بعده دليلًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾[النساء]. [**مدارج السالكين لابن القيم ١/ ٢٥٠، تحقيق محمد حامد الفقي**].

(٩) نلحظ اهتمام القرآن الكريم بذكر أوصاف المنافقين والإعراض عن أسمائهم، وفي هذا إشـارة خفية إلى أن هذا النوع من البشر يتجدد وجوده ويتسمى بأسماء مختلفة، فأراد من عدم ذكر الأسماء أن يلفت نظر الناس إلى الخصائص المميزة لهم مع غض الطرف عن أسمائهم ومحدداتهم.

[**ينظر: فصول في التفكير الموضوعي لعبد الكريم بكارص ٧٢**].

(١٠) أن المنافقين كما هذه هي أوصافهم الدنيئة في الدنيا فلهم أيضًا الدرك الأسفل من النار يـوم القيامة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء].

[**فقه السيرة للزيد ٤٨٠-٤٨٢**].

٢ ـ توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق:

يقول صاحب الظلال: «هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص «المنافقون» الـدال عـلى موضـوعها، ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر النفاق والمنافقين، ووصف أحـوالهم ومكائـدهم، فـلا تكـاد تخلـو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحًا أو تصريحًا، ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصـورة عـلى الحـديث عـن المنافقين، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم.

وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم، وما في نفوسـهم مـن البغض والكيد للمسلمين، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب.

وليس في السورة عدا هذا إلا لفتة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم مـن صـفة من صفات المنافقين، ولو من بعيد، وأدنى درجات النفاق عـدم التجـرد لله، والغفلـة عـن ذكـره اشـتغالًا بالأموال والأولاد، والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات.

وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة، واستمرت إلى قـرب وفـاة رسـول الله ﷺ ولم تنقطع في أي وقت تقريبًا، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين، هـذه الحركـة ذات أثـر

واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي أحداثها، وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرًا كبيرًا، وورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة، وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين.

وقد ورد عن هذه الحركة فصل جيد في كتاب: «سيرة الرسول: صورة مقتبسة من القرآن الكريم» لمؤلفه الأستاذ محمد عزة دروزة، نقتطف منه فقرات كاشفة: «وعلة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة، فالنبي ﷺ والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم، فتتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهر، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء، كما كان شأن المنافقين بوجه عام، ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة يناوؤون النبي ﷺ جهارًا، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد، ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ما تحرز أو تحفظ، وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فرارًا بدينهم ودمهم إلى الحبشة أولًا، ثم إلى يثرب، وحتى فُتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه، أو بالإغراء والتهويش، وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب.

«أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفًا جدًّا، فالنبي ﷺ استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصارًا أقوياء من الأوس والخزرج، ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه، ولم يبق تقريبًا بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام.

ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به إما عن جهالة وغباء، وإما عن غيظ وحقد وعناد؛ لأنهم رأوا في قدوم النبي ﷺ حدًّا لنفوذهم وسلطانهم، موقف الجحود والعداء العلني للنبي ﷺ والمسلمين من المهاجرين والأنصار، وكان للعصبية في الوقت نفسه أثر غير قليل في عدم الوقوف هذا الموقف؛ لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي ﷺ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر، إلا أن جلهم قد حسن إسلامهم، وغدوا يرون في النبي رسول الله ﷺ، وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع، فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد، ويحملهم ذلك على مناوأة النبي ﷺ ودعوته ونفوذه أن يظهروا علنًا في نزعتهم وعدائهم، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام، والقيام بأركانه، والتضامن مع قبائلهم، وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه، وإذا كانوا وقفوا أحيانًا مواقف علنية فيها كيد ودس، وعليها طابع من النفاق بارز، فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادة التي كانت تحدق بالنبي ﷺ والمسلمين، والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط،

ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو النفاق، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي ﷺ والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار، كما أن المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتًا، وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون، وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم، وتحذر النبي ﷺ والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة».

«ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية، حتى لكأنه نضال قوي، يذكِّر بما كان من نضال بين النبي ﷺ وزعماء مكة، وإن اختلفت الأدوار والنتائج، إذ أن النبي ﷺ لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد وقوته تزداد، ودائرة الإسلام تتسع، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز، وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة، وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيرًا متناسبًا عكسيًّا مع ما كان من تزايد قوة النبي ﷺ واتساع دائرة الإسلام، وتوطد عزته وسلطانه».

«ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي قام به المنافقون، وخاصة في أوائل العهد، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيًا بعصبياتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر في نفوس سواد قبائلهم، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة، ولم يكن الإسلام قد رسخ في هذا السواد رسوخًا كافيًا، وأن النبي ﷺ كان محوطًا بالمشركين الجاحدين من كل جانب، وأهل مكة خصومه الألدَّاء، وهم قبلة الجزيرة يتربصون به الدوائر، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه، واليهود في المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به، ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر، ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى، والتضامن في موقف المعارضة والكيد، حتى ليمكن القول: إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد، وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي ﷺ من هؤلاء وأظهره عليهم، وكفاه شرهم». [يراجع الفصل بتمامه من ص ١٧٦-٢١٦ بالجزء الثاني من كتاب «سيرة الرسول: صورة مقتبسة من القرآن الكريم» لمؤلفه الأستاذ محمد عزة دروزة].

وهذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي ﷺ هو رسول الله، وحلفهم كذبًا ليصدقهم المسلمون، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجُنَّة يخفون وراءها حقيقة أمرهم، ويخدعون المسلمين فيهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون].

فهم كانوا يجيؤون إلى رسول الله ﷺ فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان، لا يقصدون بها وجه الحق، إنما يقولونها للتقية، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين، فهم كاذبون في أنهم جاؤوا ليشهدوا هذه الشهادة، فقد جاؤوا ليخدعوا المسلمين بها، ويداروا أنفسهم بقولها، ومن ثم يكذبهم الله في شهادتهم بعد التحفظ الذي يثبت حقيقة الرسالة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾.

والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه، فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين، ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين في موضوع شهادتهم وهو الرسالة، وليس هذا هو المقصود، إنما المقصود تكذيب إقرارهم فهم لا يقرون الرسالة حقًّا ولا يشهدون بها خالصي الضمير!

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ وهي توحي بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم، أو عُرف عنهم كيد أو تدبير، أو نُقلت عنهم مقالة سوء في المسلمين، كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم، فيجعلون أيمانهم وقاية وجُنَّة يحتمون وراءها، ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢﴾ وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل!؟

ويعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة، وأيمان مكذوبة خادعة، وصد عن سبيل الله وسوء عمل، يعلله بأنهم كفروا بعد الإيمان، واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾.

فهم عرفوا الإيمان إذن، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر، وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه، أو تذوق، أو حياة، وإلا فمن ذا الذي يذوق ويعرف، ويطَّلع على التصور الإيماني للوجود، وعلى التذوق الإيماني للحياة، ويتنفس في جو الإيمان الذكي، ويحيا في نور الإيمان الوضيء، ويتفيأ ظلال الإيمان النديَّة، ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوي المجدب الكنود؟ من ذا الذي يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود، الذي لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد! ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾.

ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة، تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس، وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفزع والحقد والكنود، بل تنصبهم

تمثالًا وهدفًا للسخرية في معرض الوجود: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

فهم أجسام تعجب، لا أناسي تتجاوب! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون، فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة: ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ ولكنها ليست خشبًا فحسب، إنما هي: ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ لا حركة لها، ملطوعة بجانب الجدار!

هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفزع الدائم والاهتزاز الدائم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء، وهم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف، والتعبير يرسمهم أبدًا متلفتين حواليهم، يتوجسون من كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف، يحسبونه يطلبهم، وقد عرف حقيقة أمرهم!

وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان، إذا هم كالقصبة المرتجفة في مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال!

وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول ﷺ وللمسلمين: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ هم العدو الحقيقي، العدو الكامن داخل المعسكر، المختبئ في الصف، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولكن الرسول ﷺ لم يؤمر هنا بقتلهم، فأخذهم بخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم (كما سيجيئ نموذج من هذه المعاملة بعد قليل).

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا، والدعاء من الله حكم بمدلول هذا الدعاء، وقضاء نافذ لا راد له ولا معقب عليه، وهذا هو الذي كان في نهاية المطاف.

ويستطرد السياق في وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم، وتبييتهم للرسول ﷺ وكذبهم عند المواجهة، وهي مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾.

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول [كما مر في عرض الغزوة].

ونتظر مرة إلى الأحداث، ومرة إلى الرجال، ومرة إلى النص القرآني، فنجدنا مع السيرة، ومع المنهج التربوي الإلهي، ومع قدر الله العجيب في تصريف الأمور..

فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون، ويعيشون فيه في حياة الرسول ﷺ قرابة عشر سنوات، والرسول ﷺ لا يخرجهم من الصف، ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته، وإن كان يعرفهم في لحن القول، بالالتواء والمداورة، ويعرفهم بسيماهم وما يبدو فيها من آثار الانفعالات والانطباعات؛ ذلك كي لا يَكِلِ اللهُ قلوب الناس للناس، فالقلوب له وحده، وهو الذي يعلم ما فيها ويحاسب عليه، فأما الناس فلهم ظاهر الأمر؛ كي لا يأخذوا الناس بالظنة، وكي لا يقضوا في أمورهم بالفراسة! وحتى حينما عرَّف الله نبيه ﷺ بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته، فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يُظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه، إنما عرَّفهم وعرَّف بهم واحدًا فقط من رجاله هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ولم يشع ذلك بين المسلمين.

حتى إن عمر رضي الله عنه كان يأتي حذيفة رضي الله عنه ليطمئن منه على نفسه أن الرسول ﷺ لم يسمه له من المنافقين! وكان حذيفة رضي الله عنه يقول له: يا عمر لست منهم، ولا يزيد! وكان رسول الله ﷺ قد أُمر ألا يصلَّى على أحد منهم مات أبدًا، فكان أصحابه يعرفون عندما يرون الرسول ﷺ لا يصلي على ميت، فلما قبض ﷺ كان حذيفة رضي الله عنه لا يصلي على من عرف أنه منهم، وكان عمر رضي الله عنه لا ينهض للصلاة على ميت حتى ينظر، فإن رأى حذيفة رضي الله عنه هناك علم أنه ليس من المجموعة وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئًا!

وهكذا كانت تجري الأحداث كما يرسمها القدر لحكمتها ولغايتها، للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم والآداب.

وهذا الحادث الذي نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمة.

هذا عبد الله بن أبي بن سلول، يعيش بين المسلمين، قريبًا من رسول الله ﷺ تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول ﷺ، ولكن الله لا يهدي قلبه للإيمان؛ لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة، وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير، تقف دونه إحنة في صدره أن لم يكن ملكًا على الأوس والخزرج، بسبب مقدم رسول الله ﷺ بالإسلام إلى المدينة! فتكفُّه هذه وحدها عن الهدى، الذي تواجهه دلائله من كل جانب، وهو يعيش في فيض الإسلام ومده في يثرب!

وهذا ابنه عبد الله ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع، يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه، ولكنه يُكِن له ما يكنه الولد البار العطوف، ويسمع أن رسول الله ﷺ يريد

أن يقتل أباه هذا، فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة، يواجهها هو في صراحة وفي قوة وفي نصاعة، إنه يحب الإسلام، ويحب طاعة رسول الله ﷺ ويحب أن ينفذ أمره ولو في أبيه، ولكنه لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشي على الأرض بعده أمام ناظريه، وهو يخشى أن تخونه نفسه، وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية، وهتاف الثأر، وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ﷺ؛ ليعينه على خلجات قلبه، ويرفع عنه هذا العنت الذي يلاقيه، فيطلب منه إن كان لا بد فاعلًا أن يأمره هو بقتل أبيه، وهو لا بد مطيع، وهو يأتيه برأسه؛ كي لا يتولى ذلك غيره، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض، فيقتله، فيقتل مؤمنًا بكافر، فيدخل النار.

وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلَّب النظر في هذا الموقف الكريم، روعة الإيمان في قلب إنسان، وهو يعرض على رسول الله ﷺ أن يَكِلَ إليه أشق عمل على النفس البشرية أن يقتل أباه وهو صادق النية فيما يعرض، يتقي به ما هو أكبر في نظره وأشق، وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر، فيدخل النار، وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشري تجاه أبيه وهو يقول: «**فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي**»، وهو يطلب من نبيه وقائده ﷺ أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج، لا بأن يرد أمره أو يغيره فالأمر مطاع والإشارة نافذة، ولكن بأن يَكِلَ إليه هو أن يأتيه برأسه!

والرسول الكريم ﷺ يرى هذه النفس المؤمنة المحرَجة، فيمسح عنها الحرج في سماحة وكرامة: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**»، ومن قبل هذا يكف عمر بن الخطاب ﵁ عن رأيه: «**دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ؟**».

ثم تصرف الرسول ﷺ في الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم، وأمره بالسير في غير أوان، ومتابعة السير حتى الإعياء؛ ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التي أثارها صياح الرجلين المتقاتلين: يا للأنصار! يا للمهاجرين! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التي أطلقها المنافق عبد الله ابن أبي بن سلول، وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين في تاريخ العقائد وفي تاريخ الإنسان، وحديث الرسول ﷺ مع أسيد بن حضير ﵁، وما فيه من تعبئة روحية ضد الفتنة، واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة في قومه حتى بعد الإسلام!

وأخيرًا نقف أمام المشهد الرائع الأخير، مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبي، وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل، تصديقًا لمقاله هو: «**لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**»؛ ليعلم

أن رسول الله ﷺ هو الأعز، وأنه هو الأذل، ويظل يقفه حتى يأتي رسول الله ﷺ فيأذن له، فيدخلها بإذنه، ويتقرر بالتجربة الواقعة مَنْ هو الأعزُّ ومَنْ هو الأذلُّ، في نفس الواقعة، وفي ذات الأوان.

ألا إنها لَقِمَّةٌ سامقة تلك التي رَفع الإيمان إليها أولئك الرجال، رفعهم إلى هذه القمة، وهم بعد بشر، بهم ضعف البشر، وفيهم عواطف البشر، وخوالج البشر، وهذا هو أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة، حين يدركها الناس على حقيقتها، وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدب على الأرض في صورة أناسيٍّ تأكل الطعام وتمشي في الأسواق.

ثم نعيش في ظلال النصوص القرآنية التي تضمنت تلك الأحداث: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ فهم يفعلون الفعلة، ويطلقون القولة، فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله ﷺ جَبُنُوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالأَيمان يتخذونها جنة، فإذا قال لهم قائل: تعالوا يستغفر لكم رسول الله، وهم في أمن من مواجهته، لووا رؤوسهم ترفعًا واستكبارًا! وهذه وتلك سمتان متلازمتان في النفس المنافقة، وإن كان هذا التصرف يجيء عادة ممن لهم مركز في قومهم ومقام، ولكنهم هم في ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة، فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا في أمان من المواجهة، حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والأيمان!

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بما قضاه الله في شأنهم على كل حال، وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾.

ويحكي طرفًا من فسقهم، الذي استوجب قضاء الله فيهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾.

وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع، ولؤم النحيزة، وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان، ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين.

إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشِّعب لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ ويسلموه للمشركين!

وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الضيق والجوع!

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين؛ ليموتوا جوعًا أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة!

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق..

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان، من قديم الزمان، إلى هذا الزمان، ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكِّرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾.

ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم، فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين!

وهكذا يَثَبِّت الله المؤمنين ويقوي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة، التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم.

ويطمئنهم إلى أن خزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع، والذي يعطي أعداءه لا ينسى أولياءه، فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق، وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيرًا ولا قليلًا لو قطع عنهم الأرزاق! وهو أكرم أن يَكِلَ عباده ولو كانوا أعداءه إلى ما يعجزون عنه البتة، فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء!

ثم قولتهم الأخيرة: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾.

وقد رأينا كيف حقق ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبي! وكيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز!

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

ويضم اللهُ سبحانه رسولَه والمؤمنين إلى جانبه، ويضفي عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله! وأي تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسولَه والمؤمنين معه إلى جواره، ويقول: ها نحن أولاء! هذا لواء الأعزاء، وهذا هو الصف العزيز!

وصدق الله، فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن، العزة المستمدة من عزته تعالى، العزة التي لا تهون ولا تهن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل؟

لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله في صفه مع رسول الله ﷺ وجعل عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير في السورة، ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم، ويبرؤوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين،

ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾.

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب، ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفًا أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية، وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان.

ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر، ويلهه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ وأول ما يخسرونه هو هذه السمة، سمة الإنسان، فهي موقوفة على الاتصال بالمصدر الذي صار به الإنسان إنسانًا، ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء، مهما يملك من مال ومن أولاد.

ويلمسهم في موضوع الإنفاق لمسات متنوعة في آية واحدة.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم، فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

فيترك كل شيء وراءه لغيره، وينظر فلا يجد أنه قدم شيئًا لنفسه، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران، ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أُمهل ليتصدق وليكون من الصالحين! وأنى له هذا: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾.

وأنى له ما يتقدم به؟ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾.

إنها اللمسات المنوعة في الآية الواحدة، في مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين، ولواذ المؤمنين بصف الله الذي يقيهم كيد المنافقين، فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان، وألا يغفلوا عن ذكر الله، وهو مصدر الأمان..

وهكذا يربي اللهُ المسلمين بهذا القرآن الكريم». [**في ظلال القرآن لقطب ٦/ ٣٥٧٣-٣٥٨١**].

٣ ـ يُعَامَل المنافقون بظاهر الإسلام، ما داموا مع المسلمين، ويحتاط لهم:

يقول د/ فيض الله: «أشرنا إلى هذا المبدأ قبلًا [غزوة بني قينقاع]، ووقع التصريح به هنا في قولة النبي ﷺ: «**وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**».

والجديد في هذه الغزوة أن النبي ﷺ لم يقف موقفًا سلبيًّا حيال مؤامرات المنافقين هذه، وكلمات ابن أُبَيٍّ المسمومة المهددة بطرد المسلمين من المدينة، والتي استهدفت تفتيت الصف المسلم، وتشتيت المسلمين، وتمزيق الوحدة الإسلامية، التي صنعها رسول الله ﷺ، بل اتخذ إزاءها الخطوات الإيجابية التالية:

١ـ أنه عَفَّى على كلمات ابن أُبَيٍّ المحرقة، وتهديداته المسفة، بما دفنها في مهدها، وأطفأ لهيبها؛ وذلك بالرحيل المفاجئ، في غير أوقات الرحيل، حيث الشمس في كبد السماء، والجو يشتعل... وذلك ليشغل المسلمين بأعباء السفر، ومهام النقلة الثقيلة، عن هذا اللغو الأثيم، فلا تلوكه ألسنتهم، ولا يجْتَرُّونَه مرةً بعد مرة؛ وبذلك يبيد إلى الأبد.

وأفلحت فعلًا هذه الخطوة النبوية الجريئة الحاسمة، التي لم تلتفت مطلقًا إلى إثارة الأسئلة والاستفسارات حولها، فخرست ألسنة حداد، وأمسكت أخرى شداد، ودفنت الفتنة التي أيقظها ابن أُبَيٍّ لساعتها في مهدها.

٢ـ ولم يشأ النبي ﷺ أن يواجه حملة ابن أُبَيٍّ الـمُحَطِّمَة، ومؤامراته المدبرة، بالقوة واستعمال السلاح، حرصًا على وحدة الصف المسلم؛ وذلك لأن لابن أُبَيٍّ أتباعًا وشيعةً مسلمين مغرورين، ولو فتك به لأَرْعَدَت له أُنُوف، وغضب رجال مسلمون، متحمسون له، وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أية مصلحة للمسلمين ولا للإسلام، فكانت الحكمة النبوية التي تجلت في نهي عمر رضي الله عنه عن قتله؛ وعللت ذلك بأنه سيتحدث الناس عندئذ أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه، ولا يخفى ما في ذلك من إرجاف بالمسلمين، وإضعاف لقوتهم، بل على العكس من ذلك، أعلنت أنها تحسن صحبته ما بقي مع المسلمين، ولم ينْحَزْ إلى الكافرين فعلًا.

وإنها لسياسة شرعية حكيمة رشيدة، في معالجة المواقف العصيبة، في حزم وقوة أعصاب، وبُعد نظر، ومَنْ أجدر بذلك من النبوة المستندة في تصرفاتها كلها إلى الوحي الموحَى به.

٣ ـ لكن ذلك كله لم يَحُل دون كشف هذا الموقف بعد ذلك؛ لينخذل النفاق، وتخضد شوكة المنافقين، ويفتضح أمرهم على الملأ، فيخجل منهم أتباعهم أنفسهم، ويقعدوا عن نصرتهم؛ وفي ذلك هزيمتهم واندحارهم.

لقد نزلت في هذه المواقف المخزية سورة كاملة سميت بسورة المنافقين، تكذبهم في إسلامهم، وفي إيمانهم، وتقلل من أهميتهم، ولا تكترث بأموالهم ولا بأولادهم، وتشير إلى إرجاف كبيرهم، وتعلق على كلمته الكبيرة المهدِّدَة، وتقول: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون].

سورة تُتلى من كتاب الله، وتحفظها الصدور، وتُقرأ في الصلوات، يتوارثها المسلمون عبر الأجيال من كلام الله، خير بكثير من حرب مُبِيدَة، على أنها حرب معنوية، وهي أشد على أهل النفاق من الحرب الفتاكة؛ لأنها فَضَّاحةُ الأسرار، كشَّافة النوايا، وصَّافة الوقائع عن مشاهدة، وكفى بالله شهيدًا».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٠٠-٢٠٢].

٤ ـ خطورة النفاق في إثارة الفتن:

يقول الشيخ الغزالي: «عندما كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد كانت مخاصمته تتخذ طريق الجهرة والتهجم دون مبالاة، فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة، سلكت عداوته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة، فأمسى الكيد له يقوم على المكر والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعالن بها الأقوياء، وائتمار الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام، بل إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجِهة.

وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التي تصيب العدو، وإن كان بعضها يستحيي من استخدامه الرجل الشريف!

وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي ﷺ ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد، ويغلب عليها الضعف، أسلوب اللمز والتعريض حينًا، والإفك حينًا آخر.

وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضغنًا عليهم وتربصًا بهم، وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنهم الرسول ﷺ بالجلاء، فلما لم يُقف مدَّ الإسلام شيء، ولم تهدَّه هزيمة، وأخذت القبائل العادية تختفي واحدة تلو أخرى، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم تنكشف نياتهم السوء إلا على فلتات الألسنة ومزالق الطباع، فكانت سيرتهم تلك مثار فتن شداد تأذى منها رسول الله والمؤمنون شيئًا غير قليل.

وظهر ذلك جليًّا في «غزوة بني المصطلق». [فقه السيرة للغزالي ٢٩٥].

ويقول أ/ الشامي: «خرج المنافقون في هذه الغزوة، ولم تكن المشاركة في الجهاد غايتهم، وإنما دفعهم إلى ذلك المغنم المتوقع، وقُرب المسافة نسبيًّا، بل لعل العامل الأهم هو استعادة مكانتهم في صفوف المسلمين، بعد أن أصابها ما أصابها نتيجة فعلهم وسلوكهم في غزوة الأحزاب (على رأي من يقول أنها كانت بعد غزوة الأحزاب)، ومن قبلها ما فعلوه في غزوة أُحُد من رجوعهم..وقد بدأ موقف الرسول ﷺ قويًّا وفي صعود فكان عليهم أن ينتهزوها فرصة، يتظاهرون بمؤازرتهم للرسول ﷺ وحرصهم على نصرته.

ويشاء الله ألا يتم لهم ما أرادوا، فالنفوس المظلمة لا يمكن أن ينبعث منها النور، وإذا هم أمام موقفين لعلهما من أسوأ المواقف التي للنفاق في تاريخه القذر:

أولهما: في قول ابن أُبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ولئن كان هذا القول يمثل مستوى الانحدار الذي هوى فيه المنافقون، فقد كان موقف المؤمنين منه يمثل الجانب الآخر في سمو العقيدة وصلابة الإيمان في نفوس المؤمنين الصادقين، وقد تمثل ذلك في أكثر من موقف.

منها: موقف أسيد بن حضير ﵁ الذي قال على البداهة حين سمع الأمر من رسول الله ﷺ: **فَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله تُخْرِجُهُ إِنْ شِئْتَ، فَهُوَ الأَذَلُّ وَأَنْتَ الأَعَزُّ، وَالْعِزَّةُ لله وَلَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.**

ومنها: موقف عبد الله بن عبد الله بن أُبي حيث وقف على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه قال له: وراءك، فقال: ما لك ويلك؟ فقال: **والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل**، فلما جاء رسول الله ﷺ ـ وكان إنما يسير ساقة (أي في آخر الناس) ـ فشكا إليه ابن أُبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: **والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له**، فأذن له، فقال: **أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن**، إنها مواقف الإيمان. [عن تفسير ابن كثير في سورة المنافقين].

ثانيهما: موقف النفاق في اختلاق «قصة الإفك»، هذه القصة التي هزت المدينة مدة شهر كامل هزًا عنيفًا، وكانت السهام موجهة فيها إلى النبي ﷺ وفي بيته الكريم وإلى أعز الناس عليه عائشة ﵂، وإلى أبيها الصديق ﵁...

ومرة أخرى تنزل الآيات ببراءة السيدة الكريمة زوج النبي ﷺ وبتكذيب المنافقين، كما نزلت من قبل الآيات بتصديق الذي أوفى لله بأذنه، زيد بن أرقم ﵁ وبتكذيب المنافقين».

[من معين السيرة للشامي ٣٤٧-٣٤٨].

٥ ـ تولي الله لأمر هذا الدين:

يقول د/ الزيد: «من موقف عبد الله بن أُبي بن سلول الذي تصدر إيذاء الرسول ﷺ وتزعَّم المنافقين في المدينة وواجه منه المسلمون في المدينة العنت والمشقة، نتذكر في هذا الرجل قول عائشة ﵂: (كان يوم بُعاث (بضم الموحدة وتخفيف المهملة وهو مكان عند بني قريظة على ميلين من المدينة وكانت به وقعة بين الأوس والخزرج فقتل فيها كثير منهم، فتح الباري ٧/ ١١١) يومًا قَدَّمه الله لرسول الله ﷺ، فَقَدِمَ رسول الله ﷺ وقد افترق ملأهم وقتلت سرواتهم (خيارهم) وجرحوا، فَقَدَّمه الله لرسول الله ﷺ في دخولهم الإسلام).

[صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٧/ ١١٠، رقم ٣٧٧٧].

حيث مهَّد الله ﷻ لهذه الدعوة بقتل من كان يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام، يقول ابن حجر ﵀: (فقتل منها من أكابرهم من كان لا يؤمن، أي يتكبَّر ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أُبي بن سلول) ونأخذ من هذا أمرين:

الأول: أن الله ﷻ هو الذي يتولَّى أمر هذا الدين، وعلى المؤمن أن يفعل الأسباب، فالله ﷻ هو الـذي كتب هذا القتال في المدينة، لكي يفرح الأنصار بمقابلة الرسول ﷺ ويرجـوا أن يجمعهـم الله بالرسـول ﷺ بعد نزاعهم الدامي المر الذي حصل بينهم، وهو سبحانه الذي جعل في هذا القتـال مـا يزيـل عقبـة من عقبات الدعوة في المدينة وهم أولئك الملأ أمثال عبد الله بن أبي بن سلول في المدينة وأمثال أبي جهـل في مكة حيث سلط أهل المدينة بعضهم على بعض، ليقتل الكبار الذين يتكبرون ويأنفون مـن الـدخول في الإسلام ويعيقون غيرهم من الدخول فيه.

الثاني: بقاء عبد الله بن أبي بن سلول وهو من هذا النوع، لكي نتـذكر نعمـة الله ﷻ ونعـرف رعايـة الله ﷻ لهذه الدعوة وأن العشرات من أمثال ابن أبي كانوا لو بقـوا عـلى قيـد الحيـاة حتـى مجـيء الرسـول ﷺ سيقولون مثل قوله ويفعلون مثل فعله، لكن الله سبحانه بتـدبيره ونصـــره للمـؤمنين كفـاهم شر هـؤلاء وأبقى واحدًا منهم يذكرهم بهم، والله ﷻ يقول: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾[البقرة]».

[فقه السيرة للزيد ٤٧٨ – ٤٨٠].

٦ ـ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَنْ دَعَا بِدُعَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خُزَيْمَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ الْهَيْثَمِ بْنِ الْجَهْمِ الْعَبْدِيُّ الْمُؤَذِّنُ قَالَ: ثنا عَوْفٌ الْأَعْرَابِيُّ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ عُتَيِّ بْنِ ضَمْرَةَ قَالَ: رَأَيْتُ عِنْدَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَجُلًا تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَعَضَّهُ أُبَيٌّ وَلَمْ يُكَنِّهُ، فَنَظَرَ إلَيْهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: كَأَنَّكُمْ أَنْكَرْتُمُوهُ، فَقَالَ أُبَيٌّ: لَا أَهَابُ أَحَدًا فِي هَذَا أَبَدًا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ وَلَا تَكْنُوا**».

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ وَهُـوَ ابْـنُ حَفْـصٍ قَالَ: حَدَّثَنَا السَّرِيُّ بْنُ يَحْيَى عَنْ الْحَسَنِ عَنْ عُتَيٍّ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَـنْ سَمِعْتُمُوهُ يَدْعُو بِدُعَاءِ الجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ بِهَنِ أَبِيهِ وَلَا تَكْنُوا**».

قَالَ: فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ فِيمَنْ سَمِعَ يَدْعُو بِدُعَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَمَـرَ بِـهِ فِيـهِ، فَقَـالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تَقْبَلُونَ هَذَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَأَنْتُمْ تَرْوُونَ عَنْهُ فَذَكَرَ:

مَا قَدْ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ دَاوُد قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْوَاسِطِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ عَـنْ مَنْصُورِ بْنِ زَاذَانَ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الحَيَاءُ مِـنْ الْإِيـمَانِ، وَالْإِيـمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنْ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ مِنْ النَّارِ**».

قَالَ: فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْبَذَاءَ فِي النَّارِ، وَمَعْنَى الْبَذَاءِ فِي النَّارِ هُوَ أَهْلُ الْبَذَاءِ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّ الْبَذَاءَ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِذِكْرِهِ مَنْ هُوَ فِيهِ.

فَكَانَ جَوابُنَا فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ الله ﷻ وَعَوْنِهِ: أَنَّ الْبَدَاءَ المُرَادَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ خِلَافُ الْبَذَاءِ المُـرَادِ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ الْبَذَاءُ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُبْذَأَ عَلَيْهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُ ذَلِكَ الْبَذَاءُ، فَهُوَ مِـنْ أَهْـلِ الْوَعِيدِ الَّذِي فِي الْحَدِيثِ المَذْكُورِ ذَلِكَ الْبَذَاءُ فِيهِ، وَأَمَّا المَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ فَإِنَّمَا هُـوَ عُقُوبَـةٌ لِمَـنْ كَانَتْ مِنْهُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يَدْعُو بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَهُوَ كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ: **يَا لِبَكْرٍ! يَا لِتَمِيمٍ! يَا لِهَمْدَانَ!** فَمَنْ دَعَا كَذَلِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلِيَّةَ الَّذِينَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ كَـانَ مُسْـتَحِقًّا لِلْعُقُوبَـةِ، وَجَعَـلَ النَّبِيُّ ﷺ عُقُوبَتَهُ أَنْ يُقَابَلَ بِمَا فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي لِيَكُونَ ذَلِكَ اسْتِخْفَافًا بِهِ وَبِالَّذِي دَعَـا إِلَيْـهِ، وَلِيَنْتَهِـيَ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ فِي المُسْتَأْنَفِ فَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ.

كَمَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ: ثنا خَالِدٌ وَهُوَ ابْنُ الْحَارِثِ، قَـالَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ عُتَيِّ بْنِ ضَمْرَةَ، قَالَ: شَهِدْتُهُ يَوْمًا - يَعْنِي أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ ﵁ - وَإِذَا رَجُلٌ يَتَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعَضَّهُ بِكَذَا أَبِيهِ وَلَمْ يُكَنِّهِ، فَكَأَنَّ الْقَوْمَ اسْتَنْكَرُوا ذَلِكَ مِنْهُ فَقَـالَ: لَا تَلُومُـونِي، فَإِنَّ نَبِيَّ الله ﷺ قَالَ لَنَا: «**مَنْ رَأَيْتُمُوهُ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ وَلَا تَكْنُوا**».

وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَى مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ مِـنْ عَـزَاءِ نَفْسِـهِ إِلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَيْ: إِضَافَتِهَا إِلَيْهِمْ.

فَقَالَ قَائِلٌ: فَقَدْ رَوَيْتُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مَا يَدُلُّ عَلَى دَفْعِ هَذَا المَعْنَى فَذَكَرَ مَا قَدْ حَدَّثَنَا بَكَّارُ بْنُ قُتَيْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ بَشَّارٍ الرَّمَادِيُّ وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ غُلَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عِمْرَانُ بْنُ أَبِي عِمْرَانَ الصُّوفِيُّ وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ الْعَلَاءِ قَالُوا جَمِيعًا عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: حَفِظْتُهُ مِنْ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا ﵁ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**».

قَالَ هَذَا الْقَائِلُ: فَلَوْ كَانَ مَا فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ كَمَا رَوَيْتُمُوهُ لَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَنْكَرَ عَلَى مَـنْ تَـرَكَ الْقَوْلَ الَّذِي فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ لِمَنْ دَعَا بِمَا دَعَا بِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ.

فَكَانَ جَوابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ الله ﷻ وَعَوْنِهِ: أَنَّ مَا فِي الْحَدِيثِ غَيْرُ مُخَالِفٍ لِمَـا فِي الْحَـدِيثِ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ الَّذِي فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِنَّمَا هُوَ الدُّعَاءُ بِأَهْلِ الْهِجْرَةِ إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَأَهْلِ النُّصْرَةِ لله ﷻ وَلِرَسُـولِهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَالدُّعَاءِ إِلَى رَجُلٍ جَاهِلِيٍّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ كَافِرٍ بِالله وَرَسُولِهِ فَجَاءَ فِيمَنْ دَعَـا إِلَى الْجَـاهِلِيِّ مَا فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ وَلَمْ يَجِئْ مِثْلُـهُ فِـيمَنْ دَعَـا إِلَى مُهَـاجِرٍ إِلَى الله ﷻ وَإِلَى رَسُـولِهِ ﷺ، وَإِلَى نَـاصِرٍ لله ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، فَإِنْ قَالَ: فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: «**مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**».

قِيلَ لَهُ: لِأَنَّ قَوْلَهُ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ! وَقَوْلُ صَاحِبِهِ: يَا لِلأَنْصَارِ! شَبِيهٌ بِقَوْلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ: يَا لِفُلَانٍ! فَكَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ ذَلِكَ الْقَوْلَ مِمَّنْ قَالَهُ إِذْ كَانَ اللهُ ﷻ وَرَسُولُهُ ﷺ قَدْ أَوْجَبَا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ النُّصْرَةَ لَهُمْ وَدَفْعَ الْأَذَى وَالظُّلْمِ وَالمَكْرُوهِ عَنْهُمْ، وَتَقَدَّمَ الْوَعِيدُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ لِمَنْ تَرَكَ مَا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ بِمَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الَّذِي مَرَّ بِمَظْلُومٍ فَلَمْ يَنْصُرْهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي كِتَابِنَا هَذَا، فَبَانَ بِحَمْدِ الله ﷻ وَنِعْمَتِهِ اسْتِوَاءُ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي هَذَا الْبَابِ، وَانْتِفَاءُ التَّضَادِّ عَنْهُ وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ». [تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٦/ ٥١٠-٥١٤].

٧ ـ من أعلام النبوة:

يقول الإمام السهيلي: «وَذَكَرَ مَقَالَةَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ، وَأَنَّ ابْنَهُ عَبْدَ الله بْنَ عَبْدِ الله اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ فِي قَتْلِ أَبِيهِ مِنْ أَجْلِ تِلْكَ المَقَالَةِ.

وَفِي هَذَا الْعِلْمُ الْعَظِيمُ وَالْبُرْهَانُ النَّيِّرُ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ أَشَدَّ خَلْقِ الله حَمِيَّةً وَتَعَصُّبًا، فَبَلَغَ الْإِيمَانُ مِنْهُمْ وَنُورُ الْيَقِينِ مِنْ قُلُوبِهِمْ إِلَى أَنْ يَرْغَبَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ فِي قَتْلِ أَبِيهِ وَوَلَدِهِ تَقَرُّبًا إِلَى الله وَتَزَلُّفًا إِلَى رَسُولِهِ، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَبْعَدُ النَّاسِ نَسَبًا مِنْهُمْ ـ أي من الأنصار.

وَمَا تَأَخَّرَ إِسْلَامُ قَوْمِهِ وَبَنِي عَمِّهِ وَسَبَقَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ الْأَبَاعِدُ إلا لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ، إِذْ لَوْ بَادَرَ أَهْلُهُ وَأَقْرَبُوهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ لَقِيلَ: قَوْمٌ أَرَادُوا الْفَخْرَ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ، وَتَعَصَّبُوا لَهُ، فَلَمَّا بَادَرَ إِلَيْهِ الْأَبَاعِدُ، وَقَاتَلُوا عَلَى حُبِّهِ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ، عُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ بَصِيرَةٍ صَادِقَةٍ، وَيَقِينٍ قَدْ تَغَلْغَلَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَرَهْبَةٍ مِنْ الله أَزَالَتْ صِفَةً قَدْ كَانَتْ سَدِكَتْ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ أَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَسْتَطِيعُ إِزَالَتَهَا إلا الَّذِي فَطَرَ الْفِطْرَةَ الْأُولَى، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ.

وَأَمَّا عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الله ﷺ فَكَانَ مِنْ كُتَّابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ اسْمُهُ حُبَابٌ، وَبِهِ كَانَ يُكَنَّى أَبُوهُ، فَسَمَّاهُ رَسُولُ الله ﷺ عَبْدَ الله، مَاتَ شَهِيدًا بِالْيَمَامَةِ ﷺ.

وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ مُسْنَدًا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى جَمَاعَةٍ فِيهِمْ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ وَلَّى، فَقَالَ عَبْدُ الله: **لَقَدْ عَتَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ**، فَسَمِعَهَا ابْنُهُ عَبْدُ الله، فَاسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ فِي أَنْ يَأْتِيَهُ بِرَأْسِ أَبِيهِ، فَقَالَ: «**لَا، وَلَكِنْ بِرَّ أَبَاكَ**». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٤٣٠-٤٣١].

٨ ـ رابطة العقيدة لا تقف أمامها رابطة:

يقول د/ أبو فارس: «إن الدين الإسلامي يقرر بوضوح لا لبس فيه ولا غموض أن الرابطة التي تصلح ليتجمع النوع الإنساني حولها هي رابطة العقيدة والدين، وهي الوشيجة الحقيقية التي تؤلف بين قلوب الناس، وتوثق أواصر المحبة عندهم، وأن أية وشيجة لا تصلح لتجميع النوع الإنساني.

ويقرر الإسلام أن أي آصرة مادية إذا تعارضت مع آصرة العقيدة فإن آصرة العقيدة هي التي تُقدَّم على سواها ولو كانت آصرة القرابة أو الأبوة أو الوطن، هذا الذي قررته الشريعة ليس مثاليًّا ولا نظريًّا لا أثر له في عالم الحقيقة والواقع، إنما طبقه المسلمون بصور عديدة لا حصر لها، وما حصل من عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول يؤكد هذا، لقد كان موقفه ترجمة عملية سليمة للموقف الإيماني المطلوب، فحين رأى من أبيه صدودًا عن دين الله، وحقدًا على رسول الله ﷺ، وإيذاء لأصحابه رضوان الله عليهم، فاصل أباه، وانعقد قلبه على قتله إن كان في ذلك مصلحة تقتضيها عقيدته، وأمره رسول الله ﷺ بذلك، تأمل قوله لرسول الله ﷺ: **يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلَغَك عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَالله لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ.**

ألا ترى أخي القارئ الكريم أن الولد الصالح يحب كل مؤمن أكثر من أبيه فكيف بقائده وحبيبه ورسوله ومنقذه من النار ﷺ.

وفي هذا درس لكل داعية رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا أن يُحَكِّم دينه في كل أمر من أمور حياته وعلاقاته، ينبغي أن يُحَكِّم الإسلام في علاقته مع أمه وأبيه وأخته وأخيه وقريبه وولده والناس أجمعين.

وليكن قدوة المسلم في هذا الموقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول حين وقف مع أبيه الموقف المنسجم مع عقيدته، التي استحوذت على قلبه، وأخذت عليه كل مأخذ، لقد وقف الولد موقفًا حقق القيم الإيمانية المستعلية في النفوس، وأسقط من حسابه القيم الأرضية والتفكير الأرضي.

وتلك لعمر الحق نعمة وفضل من الله، يؤتيها الله من يشاء من عباده، نسأله سبحانه وتعالى أن يلهمنا السداد والرشاد والإخلاص في القول والعمل». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٤-٤٦**].

ويقول د/ قريبي: «ومجموع هذه الروايات المختلفة للموقف يبرز لنا موقفًا صلبًا قويًّا من مواقف العقيدة الإسلامية إذا تمكنت من قلب المسلم ورسخت فيه؛ ذلك لأن بناء الشخصية الإسلامية على هذه العقيدة يُخرج للبشرية نمطًا فريدًا من الناس يتحدون جميع الروابط والأواصر التي عهدها البشر في أعرافهم وتقاليدهم ومذاهبهم الاجتماعية، وتكون الآصرة الوحيدة في حياة المسلم هي آصرة العقيدة وحدها، ومن هنا نفهم ما ورد في التاريخ الإسلامي من رسوخ المسلم وثباته في وجه أبيه وأخيه الكافرين ولو أدى به ذلك إلى قتلهما؛ لأن أغلى شيء يملكه المسلم هو عقيدته، فإذا وقف في سبيل الدعوة إليها عُرْفٌ اجتماعي أو رابطة قبلية أو مذاهب تقليدية، تحداها المسلم بعزم وإصرار.

ومن ذلك هذا الموقف المشرف الذي وقفه عبد الله بن عبد الله بن أُبي ﷺ من أبيه عبد الله بن أُبي ابن سلول، حتى وصل به الأمر إلى مراودة الرسول ﷺ واستئذانه في قتله إن كان يحب ذلك.

وليس في الدنيا مذهب يخلق هذا النوع الفريد من التفاني في سبيل المبدأ أو العقيدة، وتلك معجزة عقيدة الإسلام التي يفتقر إليها الناس في كل زمان ومكان، وهي وحدها الكفيلة بسعادة البشرية ووحدتها وقوتها، فما أحوجها إلى مصل هذا الغرس الطيب لينشأ جيل فريد في تصوره الإسلامي، وسلوكه العملي في واقع الحياة؛ لانتشال شباب الأمة الإسلامية من وهدة الضلال إلى قمة العقيدة الإسلامية واستعلائها». [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٢٦٧-٢٦٨].

ويقول د/ زيدان: «ذكرنا قول المنافق ابن أبي بن سلول: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[المنافقون:٨] يريد بالأعز نفسه وأتباعه، والأذل من أعزه الله وهو رسول ﷺ، وإن هذه المقالة الخبيثة بلغت عبد الله ابن هذا المنافق، وكان هذا الابن الصالح من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، فأغاظته وأغضبته؛ لأن رسول الله ﷺ أحبُّ إليه من أبيه، ورباطه أعظم وأقوى من رباطه النسبي بأبيه؛ لأن رباطه برسول الله ﷺ رابطة إيمان وهي تعلو على ما سواه من الروابط ولو كانت رابطة الأبوة؛ ولهذا استأذن رسول الله ﷺ أن يقتل أباه، فأبى ذلك ﷺ.

ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة وقف عبد الله على مداخل المدينة، فلما قدم أبوه ليدخل منعه ابنه، وأقسم بالله أن لا يدخل حتى يعلن بأن رسول الله هو العزيز وأنه هو الذليل، فقالها الأب، ثم لم يأذن له ابنه حتى يأذن له رسول الله ﷺ بالدخول، فلم يسمح له بالدخول حتى أذن له رسول الله ﷺ.

فعلى الدعاة أن يربوا أنفسهم ومن يدعوهم على هذا الولاء لله ولرسوله وللإسلام والمسلمين، وأن يكون ولاؤهم وبراؤهم على هذا الأساس، فالقريب منهم الولي لهم هو كل مؤمن، والبعيد منهم من كان عدوًا لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين وإن كان قريب منهم نسبًا». [المستفاد لزيدان ٢/ ٣٠٢].

٩ ـ التجرد:

يقول د/ فيض الله: «أشارت قصة إرجاف ابن أُبَيٍّ؛ لمحاولة تفريق المسلمين، والمحادثات التي نبتت في جوانبها، إلى أن المسلم مُجَنَّد في الدين، ممتثل لأمر الإسلام، ينفذه تلقائيًا، ولو في أحب الناس إليه، وآثرهم عنده.

فهذا عبد الله المؤمن، ابن عبد الله بن أُبَي المنافق، يعرض على النبي ﷺ استعداده لقتل أبيه، وحَمْل رأسه إليه، وأنه ينفذ الأمر كما صدر إليه، وكان بارًا بوالده، كأشد ما يكون البر، يَعرف منه ذلك كلُّ الناس، لكن بر الرسول ﷺ أولى؛ وإنه ليخشى إن تُوُلِّيَ غيرُهُ قتلَ أبيه، أن تطغى عليه نفسه وشحنةُ العاطفة الأبوية الثرة، فيقتلَ قاتلَ أبيه، فيدخل النار لقتله نفسًا مؤمنة.

فأي شيء هذا الإيمان، وما أعمق جذوره في نفوس المؤمنين الصادقين! إنه يملك عليهم كل شيء، حتى ليصبحون أداةً طَيِّعَةً لتنفيذ تعاليمه وأوامره...

ومع ذلك فقد جاء الشرع باعتبار المنافق مسلمًا بحسب ظاهره، ويُعَامَل بهذا الظاهر معاملةَ المسلمين، ما دام معهم؛ ولهذا أضرب النبي ﷺ عما عرضه عليه عبد الله، وقال ﷺ: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**».

ومن مظاهر طاعة المسلم المطلقة لأمر الله ودينه، في حادثة ابن أُبَيٍّ أيضًا، أن عبد الله ابنه، تصدى له عندما وصلوا المدينة، وقال له: «**قِفْ! فَوَ اللهِ لا تَدْخُلُهَا حَتَّى يَأْذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ**، فلما أذن له تركه يدخلها.

أرأيت إلى هذه الطاعة المثلى، أرأيت إلى التأهب الكامل لتنفيذ الأوامر الدينية العليا، بدون تحريف ولا تأويل ولا تعطيل، ولا دس حظوظ الهوى والنفس خلالها...؟

إن هذا لهو الإيمان المثالي والحب المثالي، كما يريده الدين نفسه، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

إن هذا لهو التطبيق الصحيح المثالي المطلوب لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

اللهم عمق الإيمان في قلوبنا، حتى لا يكون فيها شيء أرسخ ولا أثبت منه، وأغلِ وأعلِ حب شرعك ودينك في أنفسنا، فلا يكون شيء في الدنيا أغلى منه ولا أعلى، وارزقنا الأهلية الكاملة لحمل شريعتك، وتطبيق تعاليمك، يا رب العالمين». [**صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٠٣-٢٠٤**].

ويقول د/ أبو شهبة: «وقد تجلى في هذه الحادثة موقف بطولي إيماني، سما عن الرحم والعاطفة، وعزَّ في تاريخ الدنيا بَلْه سير الصحابة، ذلك أن المؤمن الصادق عبد الله بن عبد الله بن أُبي أتى رسول الله فقال: **يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ!**

ماذا ترى يكون جواب الرسول الكريم ﷺ؟ إنه لموقف محرج حقًّا أيوافق الرسول ﷺ؟ إنه إن فعل فسيستريح من شر مستطير طالما نال من النبي ﷺ والمسلمين، وأضرَّ بالدعوة الإسلامية، ولكن كيف؟ ونبينا محمد ﷺ إنسان بشر قبل أن يكون نبيًّا، وإنسانيته فاقت كل ما يتصور في عقله وخبرته بالنفوس البشرية وغرائزها في المحل الذي لا يطاول، وهو يعلم يقينًا أن الابن في مأساة نفسية وعاطفية تغلَّب عليها بقوة إيمانه، وسمو نفسه، وحبِّه لله ولرسوله!

لقد ضرب الابن أروع مثل الإيمان والتضحية بعاطفة الأبوة، فليضرب النبي ﷺ الإنسان ذو القلب الكبير والخلق العظيم أروع المثل في العفو والرحمة وحسن الصحبة، فيقول ﷺ: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**»!

يا لروعة العفو، ويا لجلال العظمة الإنسانية!

ويسمو الإيمان ثم يسمو، فلا يرضى الابن المؤمن الصادق من الأب بالاعتذار أو إنكار ما قال، بل يقف لأبيه وهم آيبون عند مدخل المدينة، وبيده سيفه قائلًا له: **قِفْ! فَوَ اللهِ لا تَدْخُلُهَا حَتَّى يَأْذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ**، فلما أذن له تركه يدخل وقد أشاح عنه بوجهه». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٥٦-٢٥٧].

ويقول عميد فرج: «إن موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي أليس هو موقف بطولي فيه عظمة الإسلام ورجولة المسلمين، أليس هو موقف يتغلب فيه الإيمان بالله وبالرسول وبالدعوة على أسمى عاطفة أنبتها الله تبارك وتعالى في نفوس البشر وهي عاطفة البنوة، إن عبد الله ﷺ ـ كما قال ـ أبر الناس بوالده، ولكنه في ذات الوقت يؤكد أنه أكثر برًا بالإسلام، وإذا كان قتل أبيه فيه مصلحة للإسلام، فليقتل هو أباه بيده، ويقدم رأسه لرسول الله ﷺ، ويقدم بيده حياة أبيه فداء للدين والدعوة، هذه هي روح الإسلام الخالدة التي تمثلت في كل رجل مسلم آمن بالله وبالرسول، لا يقيم وزنًا للعاطفة مهما كانت، وللأفراد مهما قربت الصلة بهم إذا ما تعارضت هذه العاطفة وتلك الصلة مع مصلحة الإسلام وأمن المسلمين.

إن موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي يقدم أعظم المثل على ما بلغته قوة الإيمان في نفوس أصحاب الرسول ﷺ، قوة أعظم من رابطة الدم التي تصل الابن وأبيه، قوة استبدلت بتلك الرابطة وغيرها من روابط القرابة والمصاهرة وتبادل المصالح، رابطة روحية عميقة، رابطة التآلف والتآخي في العقيدة، والتفاني في سبيلها.

إن موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي حسنة من حسنات الإسلام، وثمرة ناضجة من ثمرات الإيمان، وفضل من الله تبارك وتعالى على البشر». [العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٧٣].

المطلب الثاني

الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ المؤمن الداعية لا يكون إلا عزيزًا:

يقول د/ زيدان: «العزة تعني الغلبة والقوة، وهي لله أصلًا فهو القوي الذي لا يُغلب، ولمن اتصل به وأيده وأعزه من رسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

والعزة غير الكِبر، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه، العزة معرفة المسلم بحقيقة نفسه وبقيمة وعظيم قدر ما يحمله من معاني الإسلام؛ ولذلك فهو يكرمها ولا يضعها لأي غرض من أغراض الدنيا، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلها.

فعلى الدعاة أن يربوا نفوسهم وأتباعهم على معاني العزة؛ لأنهم موصولون بالقوي العزيز الذي أعزهم بالإسلام، فلا يجوز أن يذلوا أو يشعروا بمهانة لضعفهم وقوة خصومهم، فإن الأسد يبقى شاعرًا بأسديته ولو وقع في أسر الصياد، فلا يجوز أن يكون المؤمن أقل إحساسًا من هذا الحيوان.

إن على الدعاة أن يحسوا بقدر وعظم ما يحملونه من معاني الإسلام التي لا قيمة ولا قدر للإنسان بدونها، فلا تتضعضع ذاتيتهم أمام الكافر إذا قدر وآلت السلطة إليه، فإن الخنزير يبقى خنزيرًا، ويُرَى على أنه خنزير وإن وقف على مكان عالٍ.

إن على الدعاة أن يُذكِّروا المسلمين بأنهم أعزاء ما أعزوا الإسلام، وإن الذلة والهوان من حق ونصيب الكافر.

وليعلم الدعاة بأن دعوتهم لا يمكن أن يحملها الذليل الذي لا يستشعر في قلبه عزة الإيمان».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣٠٣].

٢ ـ كيفية التعامل مع المنكر:

يقول د/ الزيد: «حكمة الرسول ﷺ في التعامل مع المنكر الذي وقع من كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول، فمع وجود القرائن على مقالته تلك لم يوافق الرسول ﷺ على طلب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في قتله، ومن ذلك يتقرر أن المنكر لا يُزال بمنكر مثله أو أكبر منه، ولكن عند عدم التمكن من إزالته بالكلية نلجأ إلى إزالة القدر المستطاع إزالته مع مراعاة المصلحة الراجحة في ذلك». [ينظر: **الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق لمحمد سعيد القرافي ص ٣٤ (بحث غير منشور)]. [فقه السيرة للزيد ٤٧٨].**

ويقول أ/ باشميل: «وكان عبد الله بن أُبي سيدًا في قومه الخزرج، وما كانت عداوته للنبي ﷺ وبغضه للمسلمين لتخفى على النبي ﷺ، ولكنه ﷺ لم يشأ التوسع في الموضوع، بل حاول إسدال الستار عليه خوف الفتنة.

وعندما طلب عمر بن الخطاب ﷺ من رسول الله ﷺ أن يسمح له بضرب عنق رأس النفاق عبد الله بن أُبي ـ وهم لما يزالوا في ديار بني المصطلق ـ رفض النبي ﷺ هذا الطلب قائلًا: «**فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ!**»، فقال عمر ﷺ: **إن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر أنصاريًّا يقتله**، فلم يوافق النبي ﷺ على ذلك، بل رفض هذا الاقتراح أيضًا قائلًا لعمر ﷺ: **ترعد له (إذن) أُنُف كثيرة بيثرب**، يعني النبي ﷺ بقوله هذا إن قتل عبد الله بن أُبي على هذه الصورة قد يكون سببًا في إثارة حرب أهلية بين المسلمين؛ لأنه كان يتوقع غضب رجال كثيرين من الخزرج لقتل زعيمهم عبد الله بن أُبي، لا سيما وأن كثيرًا منهم لا يعلمون حقيقة نفاقه.

ولم يشأ النبي ﷺ أن يجري أي تحقيق فيما نُسب إلى رأس النفاق من قول خطير أو يتخذ أي إجراء ضده للمقالة القبيحة التي قال، إلا أن وجوه قوم ابن أُبي من الخزرج جاؤوا إليه وقالوا له: يا أبا الحباب، إن كنت قلت ما نقل عنك فأخبر به النبي ﷺ فليستغفر لك ولا تجحده فينزل فيك ما يكذبك، وإن كنت لم تقله فائت رسول الله ﷺ فاعتذر له.

فحلف لقومه بالله العظيم أنه ما قال من ذلك شيئًا، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ وأخذ يحلف له بالله أنه لم يقل شيئًا مما نقل إليه زيد بن أرقم ﷺ.

وكان لهذا الموقف الحكيم الذي وقفه النبي ﷺ من رأس النفاق أثر كبير في الحد من شرور هذا المنافق، فكان قومه ـ بعد ذلك ـ إذا أحدث الحدث هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٩٠-٩٤].

ويقول د/ البوطي: «تدلنا معالجة النبي ﷺ للمشكلة التي استغلها عبد الله بن أُبي بن سلول بالشكل الذي رأيناه، على مدى ما قد آتاه الله من براعة فائقة في سياسة الأمور وتربية الناس والتغلب على مشاكلهم، لقد كان ما سمعه ﷺ من كلام ابن أُبي مسوغًا كافيًا لأن يأمر بقتله بحسب الظاهر، ولكنه ﷺ استقبل الأمر بصدر أرحب من ذلك، وسمع عن اللغط الذي جرى، والتناوش الذي وقع، والجيش فيه عدد كبير من المنافقين الذين يبحثون عن شيء مثل هذا ليقوموا ويقعدوا به، فلم يعالج الأمر بعاطفة متأثرة، وإنما ترك الحكمة وحدها هي التي تدبر، فكان أن أمر القوم بالمسير في وقت لم يكونوا يعتادونه، حتى يشغلهم السير عن الاجتماع والمحادثة والكلام، وظل يسير بهم بقية اليوم والليل كله وصدرًا من اليوم التالي، لا يدع لهم مجالًا يفرغ فيه المنافقون للخوض فيما يريدونه من باطل، فلما انحطوا بعد ذلك على الأرض لم يدع لهم التعب فرصة الحديث عن شيء، وذهب الجميع في سبات عميق.

وانتظر الناس أن يجدوا من الرسول ﷺ إذا وصل المدينة شدة على المنافقين لا ريب أنها تتجلى في قتل عبد الله بن أُبي بن سلول؛ فلذلك جاءه ابنه عبد الله ﷺ يعرض على الرسول ﷺ أن يتولى هو قتل

أبيه إذا كان الرسول ﷺ يريد أن يحكم بذلك، ولكنه فوجئ من رسول الله ﷺ بما لم يكن متوقعًا حينما قال: **بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**، وانظر إلى التعليل فيما قاله لعمر ﷺ: «**فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ!**».

ولقد كان من نتيجة هذه الحكمة أن انحسر عن عبد الله بن أُبي ابن سلول قومه فكانوا هم الذين يعنِّفونه ويفضحون أمره إذا ما أراد أن يحدث شيئًا، وأنت خبير أن المنافق يعتبر في الأحكام القضائية الدنيوية مسلمًا مع وجوب الحيطة والحذر منه.

وقبل أن تستغرق في التأمل فيما كان يتصف به ﷺ من البراعة في الحكمة والسياسة وتدبير الأمور، ينبغي أن أذكرك مرة أخرى بأن كل هذه الصفات إنما تأتي من وراء صفة النبوة فيه، فهي كلها متفرعة عن كونه نبيًا ورسولًا إلى الناس، ومن الخطأ الفادح أن يعمد باحث فيحلل مثل هذه الصفات في حياته ﷺ دون أن يربطها بمصدره الأساسي الأول وهو نبوته ﷺ ورسالته.

وتلك خطة ـ كما بينا ذلك سابقًا ـ يختارها محترفو الغزو الفكري لشغل المسلمين عن التأمل في نبوته ﷺ، ويتلقفها منهم أولئك الذين فاقوا حتى القردة في إتقان فن التقليد الأعمى».

[فقه السيرة للبوطي ٢٢١-٢٢٢].

٣ ـ كانت غزوة بني المصطلق كنانة سهام مسمومة أفرغها المنافقون ليكيدوا المجتمع المسلم:

يقول الشيخ عرجون: «كانت غزوة (المريسيع) كنانة سهام مسمومة لأحداث جسام، ووقائع خطيرة، دبرها أهل النفاق وفجارهم، لم يقع مثلها في غزوة من الغزوات المسعورة في القتال.

وقد جعل الله ترياق سموم أحداثهم في قيادة النبي ﷺ لمجتمعه المسلم، كلما أُبطل منها مفعول حادثة من حوادثها بسياسته الحكيمة المحكمة التي أمده الله بها في مقابلة الأخطار لوأدها في مهدها كشرت عن أنيابها حادثة أعتى منها، وأشرس وأضرى.

وكل حادثة من تلك الحوادث العاتية العاصفة كانت كافية لتذرية رياح تسعرها بلهيب الفتن القواصم وحدة المجتمع المسلم التي كانت تكمن فيها قوته وصوارم عزائمه، والتي يستمد منها انتصاراته الساحقة لقوى أعدائه وأعداء نبيه ﷺ، وأعداء دعوته ورسالته.

ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، كلما جاؤوا من سوء مكرهم بواحدة أتاهم الله بحكمة تدبيره على يدي نبيه ﷺ بما يبطل كيدهم، ويرغم أنوفهم، ويذل غرورهم، ويفسد عليهم تدبيرهم المتدسس وراء جُدُر النفاق والفجور.

وهذه الغزوة كانت بأحداثها التي دبرها المنافقون امتحانًا قاسيًا متتابع الحلقات لصلابة قناة المجتمع المسلم، واختبارًا لقوة شكيمته وتماسك عرى وحدته الإيمانية، وابتلاء لصبره في وجه النوازل، ومقابلة الكوارث، واستبانة لحكمة قيادة القائد الأعظم ممثلة في النبي ﷺ في مواجهة الأحداث مهما كان خطرها بأعداد أمثالها لمقاومتها وإطفاء تسعرها وإفشال تدبير من دبروها من أعداء هذا المجتمع المسلم، وإبطال سيء كيدهم ولئيم مكرهم لتدمير هذا المجتمع واستئصاله لوقف تيار دعوته ونشر رسالته».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٦-٢٣٧].

٤ ـ أول سهام الفتنة في هذه الغزوة سهم كاد يقضي على وحدة المجتمع المسلم:

يقول الشيخ عرجون: «بدأت هذه الغزوة بُعيد وصول كتائب المجاهدين بقيادة النبي ﷺ إلى (المريسيع) ـ ماء بني المصطلق ـ وقد تزاحمت حوله جموعهم ومن انضوى إليهم من شراذم المتربصين الذي كان صغوهم معهم في عداوة الإسلام، وعداوة حامل أمانة رسالته ﷺ، وعداوة المجتمع المسلم في تركيبه الجديد من المهاجرين والأنصار، ومن آمن معهم ـ بحادثة جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب ﵁، وسنان بن وبر الأنصاري اللذين ازدحما على الماء، فاشتبكا وتقاتلا، فتناديا بدعوى الجاهلية، فقال جهجاه: يا للمهاجرين، وصرخ سنان: يا للأنصار، فاستجاب لهما سراع الناس، وكادت تقع بين دعامتي المجتمع المسلم فتنة عمياء جائحة مدمرة، أشعل نارها خبيث النفاق، ورأس المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول ـ لعنه الله ـ لولا حكمة رسول الله ﷺ وسياسته في إطفاء لهيبها، حيث اجتمع من المهاجرين جموع، ومن الأنصار آخرون، وهموا بالاقتتال، فلم يزل بهم رسول الله ﷺ يخفضهم حتى فاؤوا إلى رحمة الله، وانكمد ابن أُبي غيظًا بحقده، وهدأ الناس.

ثم ما لبث الناس فواق شاة حتى أقبلت الفتنة الصماء بجحافل ظلماتها، فاغرة فاهها لتلتهم حياة المجتمع المسلم بين طواحين أضراسها، وضراوتها الشرسة». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٧].

٥ ـ القضاء على الفتنة:

ويقول د/ قريبي: «وهكذا قضى رسول الله ﷺ على هذه الفتنة التي كادت تفكك وحدة المسلمين وتمزق شملهم وتجعلهم شيعًا وأحزابًا، فتقر بذلك أعين المنافقين وأعداء الدين، لكن الإيمان الذي ربى رسول الله ﷺ أصحابه عليه، كان أقوى من مكيدة المنافقين، فما أن سمع المسلمون كلام الرسول ﷺ بأمرهم بترك دعوى الجاهلية، حتى خمدت الفتنة التي أوقد المنافقون نارها، ثم اتخذ الرسول الكريم التدابير التي تقضي على آثارها وتعيد الإخاء والمودة إلى نفوس المسلمين».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٢٥٦].

٦ ـ تجنب المسلم ما يجعله عرضة لحديث الناس:

يقول د/ الزيد: «حكمة الرسول ﷺ في عدم قتله لعبد الله بن أبي وقوله: «**إذًا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**» ومنه نأخذ مشروعية الدفع عن العِرض، فالمسلم لا يُعرِّض عِرضه للحديث فيه، ولو كان القائل مخطئًا، بل عليه أن يجتنب ما استطاع تلك المواقف التي تجعله عُرضة لحديث الناس، ويشبه هذا قول الرسول ﷺ للرجلين لما رأياه في الليل في الطريق ومعه امرأة قال لهما: «**عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**»، فَقَالَا: سُبْحَانَ الله! يَا رَسُولَ الله، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا**».

[البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥)، ومواضع أخرى، ومسلم في السلام (٢١٧٥)].

قال ابن حجر ؒ: «وَفِيهِ التَّحَرُّزُ مِنَ التَّعَرُّضِ لِسُوءِ الظَّنِّ وَالِاحْتِفَاظُ مِنْ كَيَدِ الشَّيْطَانِ وَالِاعْتِذَارِ، قَالَ اِبْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ: وَهَذَا مُتَأَكِّدٌ فِي حَقِّ الْعُلَمَاءِ وَمَنْ يُقْتَدَى بِهِ، فَلَا يَجُوز لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلًا يُوجِبُ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ فِيهِ مَخْلَصٌ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ إِلَى إِبْطَال الِانْتِفَاع بِعِلْمِهِمْ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ بَعْض الْعُلَمَاء: يَنْبَغِي لِلْحَاكِمِ أَنْ يُبَيِّنَ لِلْمَحْكُوم عَلَيْهِ وَجْهَ الْحُكْم إِذَا كَانَ خَافِيًا نَفْيًا لِلتُّهْمَةِ، وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ خَطَأُ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِمَظَاهِرِ السُّوءِ وَيَعْتَذِر بِأَنَّهُ يُجَرِّبُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَدْ عَظُمَ الْبَلَاءُ بِهَذَا الصِّنْفِ، وَاللهُ أَعْلَمُ».

[فتح الباري لابن حجر ٤/ ٢٨٠]. [فقه السيرة للزيد ٤٨٣].

٧ ـ خطورة الفراغ:

يقول د/ قريبي: «والحكمة ظاهرة من أمره ﷺ بالرحيل في وقت غير معتاد، وهي إشغال الناس عن الحديث في هذه المقالة التي قالها عبد الله بن أُبيٍّ؛ لأن ترك مثل هذا الخبر ينتشر في الجيش يسبب بلبلة في الأفكار، ويثير القيل والقال مما يصرف أذهان الجند الإسلامي إلى مهاترات كلامية، لا تُحمد عقباها، فكانت مسيرة الجيش المتصلة ليلًا ونهارًا، مما أجهدهم حتى وقعوا نيامًا، فشُغلوا بالنوم عن الحديث في هذا الموضوع الذي يريد الرسول ﷺ صرفهم عن الحديث فيه، ومسح النوم العميق بعد النصب الشديد آثار الفتنة.

وهذا منهج في سياسة الأمور ينبغي أن يسلكه القادة الراشدون في كل زمان ومكان».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٢٦٢، فقه السيرة للزيد ٤٨٣].

٨ ـ ملامح من معالم منهج رسالة الخلود في هذه الغزوة:

يقول الشيخ عرجون: «لقد جمعت غزوة بني المصطلق من معالم منهج الرسالة الخالدة الخاتمة أحداثًا تشريعية ووقائع حربية، وحوادث اجتماعية، وأحكامًا فقهية، وآدابًا سياسية، وسياسةً قيادية كتمت أنفاس النفاق، وفضحت كيد المنافقين، وكشفت عن دسائسهم، وملأت قلوبهم غيظًا وحقدًا على

المجتمع المسلم، وشددت من قوة تماسك هذا المجتمع الذي أشجاهم حتى ماتوا بغيظهم لم ينالوا منه ما أقامته لهم شياطينهم من سيء الطبع والمكر، وأخبث الغدر، وأكذب الفِرى والبهتان.

وحسب هذه الغزوة فضلًا، وحسب الناظرين في أحداثها أن ينظروا فيها تفقهًا وتعمقًا يغنيانها عن التعليقات والتحليلات التي تنبه على ما في طواياها من دروس تربوية ومناهج سلوكية؛ لأنها آيات بينات من الهدى والنور؛ ولأن خصائصها في أحداثها كانت سطورًا من الحكمة، كتبها الله تعالى بقلم الغيب، وجرت بها تصاريف الأقدار بما شاء الله من تمحيص للمجتمع المسلم وإظهار لفضله في تربية رسول الله ﷺ له تربية عملية تكمن عناصرها في الأحداث والوقائع؛ ليكون في تطبيقها رفعًا لذكره ﷺ ونشرًا لهدايته في آفاق الحياة». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٥١-٢٥٢**].

٩ ـ ترك مؤاخذة كبراء القوم:

قال ابن حجر: «وَفِي الْحَدِيثِ مِنْ الْفَوَائِدِ: تَرْكُ مُؤَاخَذَةِ كُبَرَاءِ الْقَوْمِ بِالْهَفَوَاتِ لِئَلَّا يَنْفِرَ أَتْبَاعُهُمْ وَالِاقْتِصَارُ عَلَى مُعَاتَبَاتِهِمْ، وَقَبُولُ أَعْذَارِهِمْ، وَتَصْدِيقُ أَيْمَانِهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ الْقَرَائِنُ تُرْشِدُ إِلَى خِلَافِ ذَلِكَ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ التَّأْنِيسِ وَالتَّأْلِيفِ». [**فتح الباري ٨/ ٥١٤ كتاب التفسير(٤٩٠٠)**].

وَفِيهِ جَوَازُ تَبْلِيغِ مَا لَا يَجُوزُ لِلْمَقُولِ فِيهِ، وَلَا يُعَدُّ نَمِيمَةً مَذْمُومَةً إِلَّا إِنْ قَصَدَ بِذَلِكَ الْإِفْسَادَ الْمُطْلَقَ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ تُرَجَّحُ عَلَى الْمَفْسَدَةِ فَلَا». [**فتح الباري ٨/ ٥١٤ كتاب التفسير (٤٩٠٠)**].

المطلب الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ مشروعية خروج النساء مع أزواجهن في الحروب والمعارك:

يقول د/ أبو فارس: «أخذ من فعل الرسول ﷺ، وتصرفاته دليل شرعي كأقواله، والمسلم مأمور بالتأسي به، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

ولعل خروج المرأة مع زوجها في سفر كهذا يحقق فائدة له، فقد يحتاج الزوج إلى زوجته في أمر لا يُستحسن أن يطلع عليه غيرها». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٥٩، ينظر : فتح الباري ٥/ ٢٧٠، وقد سبق تفصيل الحديث في هذا في المرحلة الثانية من غزوة أُحُد**].

ويقول د/ الفنيسان: «كان رسول الله ﷺ إذا خرج في سفر أقرع بين نسائه، وفي غزوة الخندق ضُربت له خيمة من أدم، فكانت عائشة تمكث عنده أيامًا، ثم تعقبها أم سلمة، ثم زينب وهكذا...».

[**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٠**].

٢ ـ عقوبة الجاسوس الكافر القتل:

«ويؤخذ هذا الحكم من فعل الرسول ﷺ إذ قبض على جاسوس أرسله الحارث قائد بني المصطلق وقتله». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٧].

٣ ـ حكم إنذار العدو قبل بدئه بالقتال (١):

يقول د/ قريبي: «قبل الحديث عن إنذار الرسول ﷺ لبني المصطلق أو عدم إنذاره لهم، يحسن أن نبدأ ببيان حكم الدعوة إلى الإسلام عمومًا، وما هي الخطوات التي كان يتبعها الرسول الله ﷺ مع المدعوين إلى الإسلام، وبيان الأدلة على وجوب إنذار العدو أو عدم وجوبه، وذكر الخلاف الوارد بين أهل العلم في ذلك باختصار؛ ليكون ذلك تمهيدًا لما نحن بصدده، حيال غزوة بني المصطلق، وفيما يأتي أقوال العلماء:

(أ) ذهب بعض العلماء إلى وجوب الدعوة إلى الإسلام مطلقًا، سواء أكان عند المدعوين علم بالإسلام أم لا، وإليه ذهب مالك وجماعة من العلماء. [منهم علي بن أبي طالب، وعمر بن عبد العزيز، والهادوية. ينظر: المدونة الكبرى لمالك ٢/ ٣، نيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٤٤].

(ب) وذهب أكثر العلماء إلى التفصيل بين مَنْ بلغتهم الدعوة وعلموا بها، فلا يجب في حقهم الإنذار، وبين من لم تبلغهم الدعوة ولا علموا بها، فيجب الإنذار في حقهم، وإليه ذهب الأئمة الثلاثة وأتباعهم.

(ج) وهناك قول ثالث بعدم وجوب الإنذار مطلقًا، حكاه المازري، والقاضي عياض. [ينظر هذه المذاهب: في الاعتبار للحازمي ص ٢١١-٢١٢، شرح مسلم للنووي ٤/ ٣٣٠، فتح الباري ٧/ ٤٧٨].

استدل الفريق الأول بأحاديث منها:

(١) ما رواه مسلم وأبو داود وغيرهما من حديث بُرَيْدَةَ بْنِ الحَصِيبِ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: **«اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلا تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تَمْثُلُوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ...** [مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦١٢ و ٢٦١٣)، والترمذي في السير (١٦١٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨)...].

---

(١) ينظر للتفصيل: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ـ د/ محمد خير هيكل ١/ ٧٧٩-٧٩٢، والقيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ـ د/ عبد الله محمد الرشيد ٩٢-٩٨، وفقه السرايا ـ د/ محمود خلف جَراد العيساوي ٢١-٢٧، وفقه الغزوات ـ د/ العيساوي ١٨٨-١٩١، وأضواء على دراسة السيرة للشامي ص ٤٣-٤٧.

(٢) ما رواه البخاري عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ ـ وهو محاصرها ـ: «**لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ (أي يموجون ويخوضون فيمن يعطاها) لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا [يُعْطَى]، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ ﷺ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**»، فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ الله يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «**فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ [فَأْتُونِي بِهِ]**»، فَأُتِيَ بِهِ [فَلَمَّا جَاءَ]، فَبَصَقَ رَسُولُ الله ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: **يَا رَسُولَ الله! أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟** فَقَالَ ﷺ: «**انْفُذْ** (أي انفصل وامض سالمًا) **عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فِيهِ، فَوَالله لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**». [البخاري في المغازي (٤٢١٠)، وفي الجهاد والسير (٢٩٤٢، ٣٠٠٩)، وفي المناقب (٣٧٠١)، ومسلم في فضائل الصحابة ﷺ (٢٤٠٦)، ومسند أحمد ٣٧/ ٤٧٧ رقم ٢٢٨٢١].

ووجه الدلالة من الحديثين قوله: «**ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ**» وهو أمر، والأمر يقتضي الوجوب ما لم يكن هناك صارف، وهو صريح في وجوب الدعوة قبل القتال.

واستدل الفريق الثاني بما يأتي:

(١) ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله أَخْبَرَنَا ابْنُ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ فَكَتَبَ إِلَيَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ. حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ.

ولفظ مسلم: عَنْ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ عَنْ الدُّعَاءِ قَبْلَ الْقِتَالِ؟ قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، قَدْ أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى سَبْيَهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ ـ قَالَ يَحْيَى أَحْسِبُهُ قَالَ ـ جُوَيْرِيَةَ، أَوْ قَالَ: الْبَتَّةَ ابْنَةَ الْحَارِثِ.

وقَالَ أَبُو دَاوُد بعد إيراده: هَذَا حَدِيثٌ نَبِيلٌ، رَوَاهُ ابْنُ عَوْنٍ عَنْ نَافِعٍ، وَلَمْ يُشْرِكْهُ فِيهِ أَحَدٌ.

[البخاري في العتق (٢٥٤١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣٣)...].

وعن ابْنُ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ: مَا أَقْعَدَ ابْنَ عُمَرَ ﷺ عَنْ الْغَزْوِ، وعَنْ الْقَوْمِ إِذَا غَزَوْا بِمَا يَدْعُونَ الْعَدُوَّ قَبْلَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ؟، وَهَلْ يَحْمِلُ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ فِي الْكَتِيبَةِ بِغَيْرِ إِذْنِ إِمَامِهِ؟ فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّ ابْنَ عُمَرَ قَدْ كَانَ يَغْزُو وَلَدُهُ، وَيَحْمِلُ عَلَى الظَّهْرِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ أَفْضَلَ الْعَمَلِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْجِهَادُ فِي

سَبِيلِ الله تَعَالَى، وَمَا أَقْعَدَ ابْنَ عُمَرَ عَنْ الْغَزْوِ إِلَّا وَصَايَا لِعُمَرَ، وَصِبْيَانٌ صِغَارٌ، وَضَيْعَةٌ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، يَسْقُونَ عَلَى نَعَمِهِمْ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى سَبَايَاهُمْ، وَأَصَابَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ.

قَالَ: فَحَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ ابْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ فَلَا يَحْمِلُ عَلَى الْكَتِيبَةِ إِلَّا بِإِذْنِ إِمَامِهِ.

[مسند أحمد ٨/ ٤٧٧ رقم (٤٨٧٣)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح].

(٢) ما رواه البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَى خَيْبَرَ لَيْلًا، وَكَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ[1] بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتْ الْيَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ (جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد) وَمَكَاتِلِهِمْ (جمع مكتل وهو الزنبيل الكبير)، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَالله، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ[2]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ** (الناحية وفضاء بين دور الحي) **قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**».

وفي لفظ: «**كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا غَزَا قَوْمًا لَمْ يُغِرْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ بَعْدَ مَا يُصْبِحُ، فَنَزَلْنَا خَيْبَرَ لَيْلًا...**».

وفي لفظ: «**صَبَّحْنَا خَيْبَرَ بُكْرَةً، فَخَرَجَ أَهْلُهَا بِالْمَسَاحِي...**».

[البخاري في الجهاد (٢٩٤٥)، وفي المغازي (٤١٩٧ و ٤١٩٨)، ومسلم في النكاح (١٣٦٥)، والترمذي في السير (١٥٥٠)، ومالك في الموطأ كتاب الجهاد (١٠٢٠)، وأحمد عن أنس رضي الله عنه (١٣١٦٣)].

ووجه الدلالة من هذين الحديثين قوله: «أَغَارَ» أي أخذهم على غِرة، ويدل على هذا صراحة لفظ: «وَهُمْ غَارُّونَ» أي غافلون.

أما المذهب الثالث القائل بعدم الإنذار مطلقًا، فهو مذهب ضعيف ترفضه الأحاديث المتقدمة.

وقد صرح بضعفه المازري والقاضي عياض وغيرهما من العلماء.

والراجح في هذه المسألة هو مذهب جماهير العلماء القائلين بالتفصيل بين من لم تبلغه الدعوة إلى الإسلام فتجب دعوته، وبين من بلغته الدعوة فلا تجب، وبه يمكن الجمع بين الأحاديث، ومتى أمكن الجمع فلا يُصار إلى غيره؛ لأن العمل بجميع الأحاديث أولى من رد بعضها.

---

(١) في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أغار على أهل خيبر ليلًا، وتقدم في حديث سهل أن النبي ﷺ أمر عليًّا رضي الله عنه أن يدعوهم إلى الإسلام قبل القتال. وأجاب ابن حجر: بأن حديث أنس رضي الله عنه كان أول ما طرقهم رسول الله ﷺ وحديث علي رضي الله عنه بعد ذلك، فتح الباري ٧/ ٤٨٧.

(٢) **الخميس**: الجيش العظيم؛ سمى بذلك لأنه مقسوم بخمسة أقسام، المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب. وقيل لأنه تخمس فيه الغنائم. ينظر: النهاية لابن الأثير ٧/ ٩٢.

[ينظر: الاعتبار للحازمي ص ٢١١-٢١٢، وشرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، وشرح مسلم للنووي ٤/ ٣٣٠، ٣٤٣، ونصب الراية للزيلعي ٣/ ٣٧٩، ٣٨٢، وفتح الباري ٦/ ١١٢، ٧/ ٤٧٨، وسبل السلام للصنعاني ٤/ ٤٥، ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧].

وقد وردت السنة بجواز الإغارة على بلغته الدعوة إلى الإسلام، ومن فعل الرسول ﷺ:

(١) كما هو في حديث عبد الله بن عمر وأنس بن مالك المتقدمين.

(٢) ومن تقريره ﷺ كما في حديث الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ ﵁ قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّانَ، وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ؟ قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**».

[البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٣)].

وفي لفظ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الذَّرَارِيِّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ؟ فَقَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**».

وعَنْ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا نُصِيبُ فِي الْبَيَاتِ مِنْ ذَرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**».

وعنه ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ: لَوْ أَنَّ خَيْلًا أَغَارَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَأَصَابَتْ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: «**هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ**». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٤٥)].

وفي لفظ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ خَيْلَنَا أُوطِئَتْ مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْلَادِهِمْ، قَالَ: «**هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ**». [الترمذي في السير (١٥٧٠)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ].

وفي لفظ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ فَيُصَابُ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ؟ قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**». [ابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٩)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

(٣) ومن قوله ﷺ كما هو في حديث أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ عَهِدَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «**أَغِرْ عَلَى أُبْنَى** (بالضم ثم السكون وفتح النون والقصر بوزن حُبلى، موضع بالشام من جهة البلقاء. معجم البلدان ١/ ٧٩) **صَبَاحًا وَحَرِّقْ**».

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو الْغَزِّيُّ سَمِعْتُ أَبَا مُسْهِرٍ قِيلَ لَهُ: أُبْنَى؟ قَالَ: نَحْنُ أَعْلَمُ هِيَ يُبْنَى فِلَسْطِينَ».

[أبو داود في الجهاد (٢٦١٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٣)، وضعفه الألباني [وأحمد عن أسامة ﵁ (٢١٢٧٨، ٢١٣١٧)] كلاهما من طريق صالح بن أبي الأخضر، قال فيه ابن حجر: «ضعيف يعتبر به» التقريب ١/ ٣٥٨، والحديث رواه الشافعي أيضًا في الأم ٤/ ١٧٤ من غير طريق صالح بن أبي الأخضر، ولفظه: قال الشافعي أخبرنا بعض أصحابنا عن عبد الله بن جعفر الأزهري، قال: سمعت ابن شهاب يحدث عن عروة عن أسامة بن زيد ﵄ قال: أمرني رسول الله ﷺ «أن أغزو صباحًا على أهل أبنى وأحرق»].

وخلاصة القول في هذا: أن الدعوة إلى الإسلام واجبة قبل القيام بالهجوم الحربي في حق من لم تبلغه الدعوة الإسلامية ولا علم بها؛ فإن الإسلام دين هداية وبيان وإرشاد، وليس له غرض في الحروب المدمرة، كما هو واضح من هدي هذا الدين الحنيف.

أما من بلغته الدعوة الإسلامية وعلم بها، فلا يجب في حقه تجديد الدعوة؛ لأن العلم بها حاصل لديه وخاصة إذا علم منه تبييت الشر للمسلمين، ومحاولة ضرب قلعة الإسلام، كما حصل من بني المصطلق.

ومن هنا يفهم الدارس لظروف وملابسات هذه الغزوة أن الرسول ﷺ لم يقم بالهجوم على هذه القبيلة إلا بعد أن علم أنها تحتشد لحربه وضرب دار الإسلام «المدينة المنورة».

وذلك لأن الرسول ﷺ كان قد تثبت في ذلك من بعض سفرائه حين بلغه خبر هذه القبيلة، كما سبق ذكره. [**مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٩٨-١٠٥**].

٤ ـ حكم الدعوة إلى الإسلام قبل بدء القتال[١]:

يقول د/ قريبي: «إن النصوص تدل بظاهرها على أن المدعوين قبل القتال على قسمين:

القسم الأول: قوم لم تبلغهم الدعوة، فهؤلاء تجب دعوتهم قبل قتالهم حتى تقوم عليهم الحجة.

ويدل لذلك حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَا قَاتَلَ رَسُولُ الله [النَّبِيُّ ﷺ] قَوْمًا قَطُّ حَتَّى يَدْعُوَهُمْ [إِلا دَعَاهُمْ]». [**أحمد (٢٠٥٣، ٢١٠٥)، ومجمع الزوائد ٥/ ٥٥٢ كتاب الجهاد (٩٥٧٨)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح**].

وحديثه أيضًا ﷺ في بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ أَبُو بَكْرٍ: رُبَّمَا قَالَ وَكِيعٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مُعَاذًا قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ**».

[**البخاري في الزكاة (١٤٥٨، ١٤٩٦)، وفي المغازي (٤٣٤٧)، ومسلم في الإيمان (١٩) واللفظ له، وأبو داود في الزكاة (١٥٨٤)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٥، ٢٥٢٢)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣)، والدارمي في الزكاة (١٦١٤)، وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما (٢٠٧٢)**].

---

(١) ينظر للتفصيل: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ـ د/ محمد خير هيكل ١/ ٧٧٩-٧٩٢، والقيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ـ د/ عبد الله محمد الرشيد ٩٢-٩٨، وفقه السرايا ـ د/ محمود خلف جَراد العيساوي ٢١-٢٧، وفقه الغزوات ـ د/ العيساوي ١٨٨-١٩١.

وأخرج عبد الرزاق عن علي ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «**لَا تُقَاتِلُ قَوْمًا حَتَّى تَدْعُوَهُمْ**».

[خرجه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٦٤١ وصححه].

وروى ابن منده عن عبد الرحمن بن عائذ قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثًا قال لهم: «**تَأَلَّفُوا النَّاسَ، وَتَأَنَّوهُمْ، وَلا تُغِيرُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى تَدْعُوَهُمْ ـ أي إلى الإسلام ـ فَمَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلا تَأْتُونِي بِهِمْ مُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَأْتُونِي بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ وَتَقْتُلُوا رِجَالَهُمْ**».

[قال السيوطي: رواه ابن منده وابن عساكر عن عبد الرحمن بن عائذ ـ كنز العمال رقم ١١٣٠٠].

القسم الثاني: قوم بلغتهم الدعوة وعلموا بها، فهؤلاء تستحب دعوتهم من باب التأكيد وزيادة في إقامة الحجة عليهم، وتجوز الإغارة عليهم بغتة، بدون تجديد دعوة لهم اكتفاء بالدعوة السابقة التي قد بلغتهم، ويدل لذلك حديث ابن عمر ﷺ **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ.**

وحديث الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ اللَّيْثِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ: لَوْ أَنَّ خَيْلًا أَغَارَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَأَصَابَتْ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ آبَائِهِمْ**»، وفي لفظ: «إِنَّا نُصِيبُ فِي الْبَيَاتِ مِنْ ذَرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**»، وفي لفظ: سُئِلَ (السائل هو الصعب نفسه كما هي رواية الترمذي، ينظر: سنن الترمذي ٣/ ٦٦، كتاب السير ما جاء في النهي عن قتل النساء والصبيان) النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الذَّرَارِيِّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ؟ فَقَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**». [البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي في الكبرى، وتحفة الأشراف للمزي، وابن ماجه، الجميع في الجهاد، والترمذي، وأحمد ٤/ ٣٨، ٧١، ٧٢، ٧٣].

وقد تقدم ذلك مفصلًا في محله. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٢٥-٤٢٦].

ويقول د/ فيض الله: «رأينا كيف أن النبي ﷺ لما دنا من صفوف الكفار أمر عمر بن الخطاب ﷺ أن ينادي فيهم بأن يقولوا: لا إله إلا الله؛ ليمنعوا بها أنفسهم وأموالهم، وأن عمر ﷺ فعل ذلك، فلما رفضوا أن يقولوا كلمة الإسلام، حمل المسلمون عليهم حملتهم الشديدة، فهزموهم بإذن الله.

لقد كان عَرْض الإسلام على الكفار المقاتلين، قبل بدء القتال، مبدأ إسلاميًا مقررًا مطبقًا في كافة الحروب الإسلامية التي خاضها سلف هذه الأمة، في الدعوة إلى الله، وتوطيد نظام الإسلام ومنهاجه في هذه الأرض، ما كان منها في عهد النبوة، وما كان منها في عهد الخلافة الراشدة.

ويلاحظ أنه اكتفى بعرض كلمة التوحيد على المقاتلين، فقط، ولم تُعرض عليهم الجزية، بعد أن أبوا الإسلام؛ لأن هؤلاء من مشركي العرب، الذين لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، كما تقرره كتب الفقه، وأشرنا إليه من قبل». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٩٨].

٥ ـ في غزوة بني المصطلق ما يثبت أن منهج رسالة الإسلام أن لا يهاجم أحد قبل دعوته إلى الإسلام:

يقول الشيخ عرجون: «هذه الروايات في سبب هذه الغزوة مما اتفق عليه أهل السير والمغازي، وهي متفقة مع منهج الرسالة الذي فصلنا القول فيه تفصيلًا في صدر الكلام على غزوات النبي ﷺ لا يترك فيه مجالًا للشك، وقد سجلنا هذا المنهج في كتابنا (سماحة الإسلام) بأسانيده من السنة وأعمال الراشدين في صدر الكلام على مشروعية جهاد القتال في الإسلام.

وفي هذا التفصيل هنا وهناك أوضحنا أن النبي ﷺ لم يهاجم قومًا بالحرب قبل أن يعرض عليهم الإسلام عرضًا بينًا، فإن أَبوه طُلبت منهم الجزية عربًا أو غير عرب على القول الصحيح، فإن لم يستجيبوا لها قوتلوا وهم يعلمون، فلا يغدر بهم ولا يؤخذون على غرة؛ إن مشروعية جهاد في الإسلام إنما كانت لدفع الذين يقفون في طريق الدعوة إلى الله، والذين يعوقون سير الرسالة في التبليغ بالقوة والحرب.

وقد ذكرنا ما روي في الصحيح من وصية النبي ﷺ لقواد بعوثه وسراياه ووصايا الصدِّيق، والفاروق من بعده ﷺ، وقد ذكرنا أن النبي ﷺ جيء إليه بقوم أسارى أُخذوا قبل أن يعرض عليهم الإسلام فأطلقهم وردهم إلى مأمنهم.

وقد اتخذ ولاة الأمر الصالحون هذا المنهج ديدنهم ودأبهم، فلم يهاجموا أحدًا إلا بعد إعذار يقطع حجته بعرض الإسلام عليه وإعطائه فرصة الاختيار ليسلم أو يستسلم.

بيد أن البخاري ومسلمًا ذكرا في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عون ما يدل على خلاف ما بيناه هنا في أصل مشروعية الجهاد لحماية الدعوة إلى الله، ونشر رسالة الإسلام من أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون ـ أي غافلون ـ فأوقع بهم وقتل من رجالهم من قتل، وأسر سائرهم، وسبى نساءهم وذراريهم وغنم أموالهم من النعم والشاء ومتاع المنازل.

روى البخاري ومسلم وغيرهما: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله أَخْبَرَنَا ابْنُ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ فَكَتَبَ إِلَيَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ، حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ ﭫ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ.

ولفظ مسلم: عَنْ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ عَنْ الدُّعَاءِ قَبْلَ الْقِتَالِ؟ قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، قَدْ أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى سَبْيَهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ ـ قَالَ يَحْيَى أَحْسِبُهُ قَالَ ـ جُوَيْرِيَةَ، أَوْ قَالَ: الْبَتَّةَ ابْنَةَ الْحَارِثِ.

وقَالَ أَبُو دَاوُد بعد إيراده: هَذَا حَدِيثٌ نَبِيلٌ، رَوَاهُ ابْنُ عَوْنٍ عَنْ نَافِعٍ، وَلَمْ يُشْرِكْهُ فِيهِ أَحَدٌ.

[سبق تخريجه].

قال اليعمري في (العيون): وقد أشار ابن سعد إلى هذه الرواية، وقال: الأول أثبت.

وابن سعد بعد أن ساق كلام أهل المغازي قال: وكان ابن عمر يحدِّث أن النبي ﷺ أغار عليهم وهم غارون ونعمهم تستقي على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، والأول أثبت ـ أي قول أهل المغازي ـ وهو أن بني المصطلق، وكان رأسهم وسيدهم الحارث بن أبي ضرار، فسار في قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه، وتهيؤوا للمسير معه إليه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي يعلم علم ذلك، فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم، فندب رسول الله ﷺ الناس إليهم، وسار بهم حتى بلغ (المريسيع)، فضرب عليه قبته، وتهيأ الفريقان للقتال، وتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه فحملوا عليهم حملة رجل واحد، فما أفلت منهم إنسان.

وعبارة ابن إسحاق: فَتَزَاحَفَ النَّاسُ وَاقْتَتَلُوا، فَهَزَمَ اللهُ بَنِي المصْطَلِقِ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَنَفَّلَ رَسُولُ الله ﷺ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَفَاءَهُمْ عَلَيْهِ.

ويقول ابن حجر: وَالَّذِي فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيث اِبْن عُمَر يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَغَارَ عَلَيْهِمْ عَلَى حِين غَفْلَة مِنْهُمْ فَأَوْقَع بِهِمْ، وَلَفْظه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِق وَهُمْ غَارُّونَ وَأَنْعَامهمْ تُسْقَى عَلَى المَاء، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتهمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهمْ».

محاولة ابن حجر التوفيق بين رواية أهل السير والمغازي ورواة الصحيح، وهم أثبت وأوثق:

ثم أخذ ابن حجر في محاولة التوفيق بين رواية أهل المغازي، ورواية الصحيحين فقال: يحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم ثبتوا قليلًا، فلما كثر فيهم القتل انهزموا، بأن يكون لما دهمهم وهم على الماء ثبتوا وتصافوا ووقع القتال بين الطائفتين، ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم.

ثم أشار ابن حجر إلى كلام اليعمري في (العيون) وذكره لحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من صحيح مسلم فقال: وَالْحُكْم بِكَوْنِ الَّذِي فِي السِّيَر أَثْبُت مِمَّا فِي الصَّحِيح مَرْدُود، وَلَا سِيَّمَا مَعَ إِمْكَان الْجَمْع.

وفي طريقة ابن حجر للجمع تعسف في التأويل.

وأحسن طريق للجمع بين ما ذكره أصحاب السير والمغازي، وما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من أن النبي ﷺ أوقع ببني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تسقى على الماء: أن معنى غارون غافلون، أي مشغولون بسقي نعمهم حين وصول النبي ﷺ بكتائب المجاهدين إليهم، وهذا لا

ينافي أنهم كانوا متأهبين لحربه ﷺ بجموعهم التي جمعوها واستعدوا بها لمهاجمته ﷺ، ولكنهم لم يبدؤوا السير لهذا الهجوم، ومن كان على مثل حالهم لا تجدد له الدعوة، وإنما يؤخذ بالحرب والقتال على أي صورة يوجد عليها وتُمكِّن من هزيمته.

أما الدعوة التي زعم نافع رحمه الله أنها كانت في أول الإسلام ثم نسخت، فلم يثبت قط في رواية صحيحة أو عمل من جهاد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وصالحي ولاة الأمر في أمته نسخها، بل ظلت باقية في كل جهاد قتالي قامت به جيوش المسلمين في عصور الاستقامة والعدل وقصد إعلاء كلمة الله.

والذي قاله نافع رحمه الله في رده على ابن عون من أن الدعوة قبل القتال كانت في أول الإسلام إنما هو اجتهاد لم يَذكر له نصًّا يدل عليه، فلا يقاوم النصوص الثابتة عن رسول الله ﷺ وعن خليفتيه أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق رضي الله عنهما، وقد جرى الأمر من بعدهما على ما جريا عليه.

وقول نافع رحمه الله: إن الدعاء قبل القتال كان في أول الإسلام يقتضي أن الدعاء قبل القتال كان منصوصًا ثم نُسخ، ولم يثبت له نص ناسخ، فادعاء النسخ غير صحيح إلا إذا ثبت الناسخ، وليس ثمة ناسخ، فالدعاء قبل القتال ثابت باق في الإسلام لكل من لم تبلغه دعوة هذا الدين، بلاغًا بينًا.

وقد قدمنا أنه ثبت في بعض روايات القصة أن النبي ﷺ أمر عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أن ينادي في بني المصطلق بقوله: «**قولوا: لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم**»، وهذا توكيد لشرعة الدعاء قبل القتال، وليس دعاء مبتدأ؛ لأن بني المصطلق كانوا ممن بلغتهم دعوة الإسلام، فتأهبوا لمهاجمته بما جمعوه من شراذم القبائل التي انضوت إليهم، ثم لم يلبثوا لأول ما ذاقوا طعم الموت في حد السيوف وطعنات السنان أن فروا منهزمين، فأخذوا فلم يفلت منهم أحد.

صدق نافع في روايته عن مولاه ابن عمر ووجوب تأويل كلامه:

وقول نافع: وحدثني بهذا الحديث ابن عمر ـ وكان في ذلك الجيش ـ قول صدق لا يرد على نافع؛ لأنه في روايته ثقة صدوق، ولا سيما عن مولاه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولكن الكلام له احتمال لا ينافي صدق نافع في روايته عن مولاه ابن عمر، ولا ينافي أن الدعاء قبل القتال باقٍ لم ينسخ، وأن بني المصطلق بلغتهم دعوة الإسلام وعرفوه معرفة ترفع وجوب دعائهم إليه إلا من باب التوكيد، ولكنهم كذبوا به واستكبروا في الأرض بغير الحق عنادًا وكفرًا، وأعدوا لحرب رسول الله ﷺ الجموع التي جمعوها وتأهبوا للهجوم، فسار إليهم رسول الله ﷺ بكتائب المجاهدين قبل أن يسيروا إليه، ففاجأهم على ماء (المريسيع)، فلما وصل إليهم زاحفوا أصحابه ورموه بالنبال، وقاتلوهم، فأمر رسول الله ﷺ كتائب الجهاد أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فهزموهم، وقتلوا منهم بعضهم، وأسروا سائرهم.

وقد ذكرنا الاحتمال الذي يتم به التوفيق بين روايات أصحاب السير والمغازي، وظاهر حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو أن المعنى: غارون، أي غافلون مشغولون في سقي أنعامهم على الماء، ولم يتوهموا قط أن أخبار تجمعاتهم بلغت النبي ﷺ، وأنه ﷺ تحرك بكتائب المجاهدين في وجههم، فلقي جموعهم على ماء (المريسيع) فزاحفوهم وترامو بالنبال، وحمل عليهم أصحاب رسول الله ﷺ فصدقوا الحملة وأصابوهم فلم يفلت منهم إنسان.

والغفلة التي هي معنى الغرة كانت حين شغلهم بسقي نعمهم وشائهم، ولم تكن غفلة عن الإسلام ودعوته؛ لأنهم كانوا على علم به، وبرسالته، ولكنهم أخذوا في تجميع الجموع لحرب رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم ليستأصلوهم، فبادرهم ﷺ بعد أن تأكد من أخبارهم وأخبار تجمعاتهم والتقى بهم بجيشه، وقاتلهم وقاتلوه، بيد أنهم لم يصبروا على عض السيوف وطعن الرماح، فانهزموا أمام حملة المجاهدين، وقتل منهم عشرة رجال، وأخذ سائرهم أسرى، فالغرة التي في حديث ابن عمر كانت غفلة طارئة شغلوا بها في سقي أنعامهم، وفي فترة هذه الغفلة كانت الإغارة عليهم».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢١١-٢١٥].

٦ ـ هل كان هناك إنذار لبني المصطلق بالحرب على وجه الخصوص:

يقول د/ قريبي: «أما ما يتعلق بشأن بني المصطلق فللعلماء في ذلك قولان:

(أ) ذهب فريق من العلماء إلى أن رسول الله ﷺ، دعاهم قبل القتال، ولكنهم امتنعوا عن قبول الإسلام، وثبتوا للقتال، ودارت المعركة بين الفريقين، وكان النصر حليف المسلمين، وعلى رأس القائلين بهذا:

(١) ابْنُ إِسْحَاقَ: قَالَ حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى ابْنِ حِبَّانَ، كُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي بَعْضَ حَدِيثِ بَنِي المُصْطَلِقِ، قَالُوا: بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ أَنَّ بَنِي المُصْطَلِقِ يَجْمَعُونَ لَهُ... الحديث.

وفيه: «فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ الله ﷺ بِهِمْ خَرَجَ إِلَيْهِمْ حَتَّى لَقِيَهُمْ عَلَى مَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ المُرَيْسِيعُ، مِنْ نَاحِيَةِ قَدِيدٍ إِلَى السَّاحِلِ فَتَزَاحَفَ النَّاسُ وَاقْتَتَلُوا، فَهَزَمَ اللهُ بَنِي المُصْطَلِقِ وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ».

[سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٠].

والحديث رجاله ثقات رجال الصحيح، ولكنه مرسل. [(١)]

---

(١) قال الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي ص ٣٠٨: «رواه بنحوه ابن جرير في تاريخه من طريق بن إسحاق بسنده مرسلًا، وكذلك رواه ابن هشام في «السيرة» وهذا الإسناد مع ضعفه ليس فيه أمر لعمر رضي الله عنه بعرض الإسلام، وقد أشار الزرقاني في شرحه على المواهب إلى ضعف هذه الزيادة، وحق له ذلك، فقد صح عنه ﷺ ما يقتضي ضعفها ثم ساق ما قاله ابن القيم في ذلك. انظر قول ابن القيم ص ١٠٩».

(٢) الواقدي: ذكر الحديث مطولًا وفيه: «انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ إِلَى المُرَيْسِيعِ،... وَقَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى المَاءِ وَأَعَدُّوا وَتَهَيَّؤُوا لِلْقِتَالِ، فَصَفَّ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ وَدَفَعَ رَايَةَ المُهَاجِرِينَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﵁ وَرَايَةَ الأَنْصَارِ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ﵁ ... ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﵁، فَنَادَى فِي النَّاسِ: **قُولُوا: لا إِلَهَ إِلا اللهُ تَمْنَعُوا بِهَا أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ**، فَفَعَلَ عُمَرُ ﵁، فَأَبَوْا فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَمَى رَجُلٌ مِنْهُمْ بِسَهْمٍ فَرَمَى المُسْلِمُونَ سَاعَةً بِالنَّبْلِ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحْمِلُوا، فَحَمَلُوا حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ...».

ثم قال: «وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُحَدِّثُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي المُصْطَلِقِ، وَهُمْ غَارُّونَ وَنَعَمُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ. وَالحَدِيثُ الأَوَّلُ أَثْبَتُ عِنْدَنَا». [**المغازي للواقدي ١/ ٤٠٤ ـ ٤٠٧**].

(٣)(٤) وتابعه في هذا ابن سعد وابن سيد الناس، فقد ساقا القصة بدون إسناد وأشارا إلى حديث ابن عمر، ثم قالا: الأول أثبت. [**طبقات ابن سعد ٢/ ٦٣، ٦٤ وعيون الأثر ٢/ ٩١- ٩٢**].

(٥) أما ابن جرير الطبري فقد ساق حديث ابن إسحاق من طريقه [**تاريخ الطبري ٢/ ٦٠٤**]، ولكنه لم يتعرض لذكر حديث ابن عمر.

(٦) وساق ابن الأثير نحو قول ابن إسحاق بدون إسناد [**الكامل ٢/ ١٩٢**]، ولم يذكر حديث ابن عمر أيضًا.

وسكوت الطبري وابن الأثير وعدم إيرادهما حديث ابن عمر، قد يُفهم منه موافقتهما لابن إسحاق في رأيه.

(ب) وذهب الفريق الثاني من العلماء إلى أن رسول الله ﷺ أغار عليهم دون دعوة، وعلى رأسهم:

(١) ابن عبد البر: فقد صرح بأن رسول الله ﷺ أغار عليهم وهم غارون.

ثم قال: «وقيل إن بني المصطلق جمعوا لرسول الله ﷺ فلما بلغه ذلك خرج إليهم، فلقيهم على ماء يقال له المريسيع، فاقتتلوا فهزمهم الله». ثم عقب بقوله: «والقول الأول أصح: أنه أغار عليهم وهم غارون». [**الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٢٠٠**].

(٢) ابن حزم فقد صرح بذلك أيضًا. [**جوامع السيرة ص ٢٠٣**].

(٣) ابن القيم: فقد ساق نحو قول ابن إسحاق وموافقيه.

ثم قال: هكذا قال عبد المؤمن [(١)] بن خلف في سيرته وغيره، وهو وهم، فإنه لم يكن بينهم قتال، وإنما أغار عليهم، على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم، كما في الصحيح: «أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي المُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ». [**زاد المعاد ٢/ ١٢٥**].

---

(١) هو الإمام العلامة الحافظ الحجة الفقيه النسابة، شيخ المحدثين، شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي، الشافعي، صاحب التصانيف (ت ٧٠٥هـ). تذكرة الحفاظ للذهبي ٤/ ١٤٧٧- ١٤٧٩، والشوكاني في البدر ١/ ٤٠٣-٤٠٤.

(٤) ابن كثير: فقد أورد رواية ابن إسحاق والواقدي بإسنادهما ثم عقب بقوله: وثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال، فقال قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهو غارون. الحديث. [**البداية والنهاية ٤/ ١٥٦**].

(٥) ابن حجر: فإنه بعد أن ساق قول ابن إسحاق، قال: هكذا ذكر ابن إسحاق بأسانيد مرسلة، والذي في الصحيح من حديث ابن عمر يدل على أنه أغار عليهم على حين غفلة منهم، فأوقع بهم، وساق الحديث.

ثم رام الجمع بينه وبين رواية ابن إسحاق بقوله: ويحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم ثبتوا قليلًا، فلما كثر فيهم القتل انهزموا، بأن يكون لما دهمهم وهم على الماء ثبتوا وتصافُّوا، ووقع القتال بين الطائفتين ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم.

ثم قال: وقد ذكر هذه القصة ابن سعد نحو ما ذكر ابن إسحاق، وأن الحارث كان جمع جموعًا وأرسل عينًا تأتيه بخبر المسلمين فظفروا به فقتلوه فلما بلغه ذلك هلع (أشد الجزع والضجر)، وتفرق الجمع وانتهى النبي ﷺ إلى الماء هو المريسيع فصف أصحابه للقتال ورموهم بالنبل ثم حملوا عليهم حملة واحدة فما أفلت منهم إنسان، بل قتل منهم عشرة وأسر الباقون رجالًا ونساء.

ثم قال: وساق ذلك اليعمري في «عيون الأثر «ثم ذكر حديث ابن عمر ثم قال: أشار ابن سعد إلى حديث ابن عمر، ثم قال: الأول أثبت.

قال ابن حجر: قلت: والحكم بكون الذي في السير أثبت مما في الصحيح مردود، ولا سيما مع إمكان الجمع. [**فتح الباري ٧/ ٤٣٠-٤٣١، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ٢/ ٩٨**].

والصواب في هذا مع القائلين بأن رسول الله ﷺ أغار عليهم وهم غارون ذلك لما يلي:

(١) صحة حديث ابن عمر وصراحته في ذلك، وهو ثابت في الصحيح والسنن والمسانيد وغيرها.

(٢) صرَّح كثير من العلماء بأن من بلغته الدعوة العامة إلى الإسلام، أو قربت داره أو حاول النيل من المسلمين، أنه يجوز مباغتته على غرة.

[**ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي ٤/ ٣٤٣، وفتح الباري ٦/ ١١٢، ٧/ ٣٤٠، ٤٤٥، ٤٧٨، وشرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٢٠٧- ٢١٠، والمدونة الكبرى لمالك ٢/ ٢، وتحفة الأحوذي ٥/ ١٥٥-١٥٦**].

وهذه الأوصاف تنطبق على بني المصطلق، فقد بلغتهم الدعوة العامة وكانوا ضمن المتألبين مع قريش في معركة أحد، ضد المسلمين ولم يكتفوا بهذا بعد عودتهم إلى بلادهم بل أخذوا يجمعون الجموع ويَعِدون بضرب المسلمين، مما يدل على أنهم علم وبصيرة بالدعوة الإسلامية، ومثل هؤلاء لا تجب الدعوة في حقهم.

(٣) إن مستند القائلين، بأن رسول الله ﷺ أنذرهم هو حديث ابن إسحاق (علمًا بأن قول ابن إسحاق ليس صريحًا في إنذارهم، وإنما فيه مجرد وجود القتال بين الفريقين. وقد جمع ابن حجر بين ذلك)، والواقدي وكلا الحديث مرسل، والمرسل معدود في قسم الحديث الضعيف عند جمهور العلماء، وذلك للجهل بحال الراوي المحذوف؛ لأنه يحتمل أن يكون غير صحابي، وبالتالي يحتمل أن يكون ضعيفًا.

وإن اتفق أن المرسِل لا يروي إلا عن ثقة، فالتوثيق مع الإبهام غير كاف ولأنه إذا كان المجهول المسمى لا يقبل، فالمجهول عينًا وحالًا أولى. [ينظر: مقدمة صحيح مسلم ١/ ٢٤، ورسالة أبي داود إلى أهل مكة ص ٢٤، والكفاية للخطيب البغدادي ص ٥٥٠-٥٥٥، ومقدمة التمهيد لابن عبد البر ١/ ٥- ٦، ومقدمة ابن الصلاح ص ٧٣- ٧٥، والتبصرة والتذكرة للعراقي ١/ ١٤٨، والتقييد والإيضاح له ص ٧٣- ٧٥، والتقريب للنووي ص١١٩، «تدريب الراوي» وشرح مسلم له ١/ ٢٣، تدريب الراوي للسيوطي ص ١١٩، فتح المغيث للسخاوي ١/ ١٣٣، ١٣٥- ١٣٦].

(٤) إن الظاهر من صنيع القائلين بحجيته، فيما لو لم يوجد في الباب غيره كما صرح بذلك أبو داود وغيره، خلافًا للمالكية.

[رسالة أبي داود إلى أهل مكة ص ٢٥، وفتح المغيث للسخاوي ١/ ١٣٣، ومقدمة التمهيد لابن عبد البر ١/ ٦].

(٥) على فرض صحته فلا يقاوم الحديث المسند.

(٦) ذكر الدكتور أكرم العمري أنه: «لا يمكن معارضة آية قرآنية أو حديث صحيح برواية من كتب التاريخ والأدب».

وقال في موضع آخر: ولا شك أن مادة السيرة، في كتب الحديث موثقة يجب الاعتماد عليها وتقديمها على روايات كتب المغازي والتواريخ العامة.

وخاصة إذا أوردتها كتب الحديث الصحيحة؛ لأنها ثمرة جهود جبارة، قدمها المحدثون عند تمحيص الحديث ونقده سندًا ومتنًا، وهذا التدقيق والنقد الذي حظي به الحديث، لم تحظ به الكتب التاريخية.

[ينظر: نظرة في مصادر ودراسة السيرة النبوية لأكرم ضياء العمري ص ١، ٣].

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٠٦-١١٢].

٧ ـ جواز استرقاق العرب:

يقول د/ قريبي: «إن الأحاديث الواردة في ذلك من الكثرة والشهرة بمكان، وهو أمر معلوم في عهد رسول الله ﷺ وصحابته من بعده.

وسأقتصر على إيراد الأحاديث الواردة في غزوة بني المصطلق وهي:

١ـ حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عند البخاري ومسلم وغيرهما، وهذا سياق مسلم: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى التَّمِيمِيُّ حَدَّثَنَا سُلَيْمُ بْنُ أَخْضَرَ عَنْ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ عَنْ الدُّعَاءِ قَبْلَ الْقِتَالِ؟ قَالَ:

فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، قَدْ أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى سَبْيَهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ ـ قَالَ يَحْيَى أَحْسِبُهُ قَالَ ـ جُوَيْرِيَةَ، أَوْ قَالَ: الْبَتَّةَ [1] ابْنَةَ الْحَارِثِ.

وَحَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَاكَ الْجَيْشِ.

وحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ عَنْ ابْنِ عَوْنٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ مِثْلَهُ، وَقَالَ: جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ وَلَمْ يَشُكَّ. [مسلم في الجهاد والسير (١٧٣٠)].

٢ـ وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَصَبْنَا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ، فَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا الْعُزْبَةُ، وَأَحْبَبْنَا الْعَزْلَ...

[سيأتي تخريجه في حكم العزل].

٣ ـ حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها قَالَتْ: لـَمَّا قَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ سَبَايَا بَنِي الـمُصْطَلِقِ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ، وَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا... الحديث.

وفيه: «فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا». [أبو داود ٢/ ٣٤٧ كتاب العتق، وأحمد ٦/ ٢٧٧، والبيهقي ٩/ ٧٤ وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما].

وبهذه الأحاديث وغيرها قال جمهور العلماء بجواز استرقاق العرب كغيرهم من سائر الكفار من الأعاجم من يهود ونصارى وغير ذلك.

وقد بوب البخاري بقوله «باب من ملك من العرب رقيقًا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية» ثم أورد جملة أحاديث منها حديث عبد الله بن عمر وحديث أبي سعيد. [البخاري ٣/ ١٢٩ كتاب العتق].

قال ابن حجر: هذه الترجمة معقودة لبيان الخلاف في استرقاق العرب، وهي مسألة مشهورة، والجمهور على أن العربي إذا سبي جاز أن يسترق، وإذا تزوج أمة بشرطه كان ولدها رقيقًا.

وخلاصة القول في هذا هو جواز استرقاق العرب لا فرق بين ذكورهم وإناثهم، وهو قول جمهور العلماء. [ينظر: شرح النووي على مسلم ٣/ ٦١٤، ٤/ ٣٣١، وفتح الباري ٥/ ١٧٠ - ١٧٣، وسبل السلام للصنعاني ٤/ ٤٥، ونيل الأوطار ٧/ ٢٤٦، ٨/ ٧-٨]. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٤٧-٤٥٥].

---

(١) قال النووي: في شرحه على صحيح مسلم ٤/ ٣٣٠: أما قوله أو ألبتة فمعناه: أن يحيى بن يحيى قال: أصاب يومئذ بنت الحارث، وأظن شيخي سليم بن أخضر سماها في روايته: جويرية، أو أعلم ذلك، وأجزم به، وأقول ألبتة، وحاصلة أنها جويرية فيما أحفظه إما ظنًّا وإما علمًا.

٨ ـ إبطال الشبهة التي أثيرت حول الرق في الإسلام [(١)]:

يقول اللواء عون: «الرقيق في الأصل ناشئ من أسرى الحروب، والحروب لا تنتهي بين الأمم، فالرقيق معروف لديها جميعًا، وقد كان العبد في أقدم الشرائع وهي شريعة موسى ﷺ، يُسترَق ست سنوات، ثم يعتق بعدها ويُعامل بالحسنى، كما جاء في الكتاب المقدس: «**إذا اشتريت عبدًا عبرانيًّا فستُّ سنين يخدم، وفي السابعة يخرج حرًّا مجانًا**». [العهد القديم، إصحاح ٢١ من سفر الخروج].

وجاء فيه أن إبراهيم ﷺ، كان صاحب إماء وعبيد، وأن زوجته هاجر كانت في الأصل أَمَة مصرية، وأن يوسف ﷺ بِيع عبدًا لحاكم مصر [ينظر: سفر التكوين: آيات ١٤، ١٥، ١٦، ٢٣]، كما قرر القرآن في قصته، ومن تلك القصة القرآنية، ومن الإصحاح الذي ذكرها، يفهم المرء أن الشرائع القديمة كانت تجازي السارق بالاسترقاق: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: ٧٥]، وقد نُفِّذ الحكم بأن أخذ يوسف ﷺ أخاه لنفسه، في نظير مكياله الذي سرقه، دون أن يجد على ذلك اعتراضًا.

وقد كانت الدولة البيزنطية تعطي السيد حق التصرف المطلق في عبده، فيميته أو يبيعه كما يشاء [الإسلام والحضارة العربية ـ محمد كرد علي ١/ ٩٤، وفون كريمر ص ٣٣٢]، وقد زاد الرقيق فيها زيادة تلفت النظر، لعدم الرغبة في عتقه، حتى بلغ عدد العبيد في بعض عصورها، ثلاثة أرباع الأحرار من أبنائها، وظل العبيد يلقَون شر المعاملات، حتى جاء الإمبراطور العادل «**كلوديوس**» فأمر بإعتاقهم جميعًا، حتى احتلوا الوظائف الإدارية وصاروا ينافسون حكام روما، ولكن سرعان ما عادت معاملتهم إلى سابق عهدها، فصار العبد يباع بيْع السلع، ويُحرم من كثير من الحقوق المدنية والتعليمية، ولم تستطع الكنيسة إصلاح حاله، أو رفع الظلم عنه. [نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية ـ تعريب مؤنس وزايد ط ١٩٥٠م ص ٧٥].

بل إن تلك الدولة كانت تعد تجارة الرقيق من أهم مواردها، فكانت تحصِّل مكوسًا على العبيد والغلمان والخصيان [نورمان بينز ص ١٦٣]؛ لتضاعف ميزانيتها، ومع ذلك كانت تمنعه من تعلم القراءة والكتابة، وتعاقب من يخالف ذلك منهم عقابًا شديدًا، وذلك لاستفادة السادة من جهل عبيدهم. [وسترمارك، نقلًا عن الإسلام والحضارة العربية ١/ ٤٩].

أما الإسلام: فقد عامل الرقيق باللطف والعدالة، وكثيرًا ما كان الرسول ﷺ يعمل على الإقلال منه، بالعفو عن الأسرى أو قبول فدائهم، فكتُب المغازي تروي أنه بعد انتصاره على «**بني المصطلق**» وتوزيع السبي بين الجند، تزوج بنت زعيمهم، السيدة **جُويرية بنت الحارث** رضي الله عنها ليبادر أصحابه إلى

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع ينظر: موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر ـ د/ عبد الحليم عويس ٣/ ٣١٣-٣٣٣ ـ دار الوفاء ـ المنصورة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

إطلاق أهلها، الذين أصبحوا أصهار رسولهم، وفعلًا أعتق المسلمون ـ إكرامًا لها ـ أهلَ مائة بيت من قبيلتها. [السيرة الحلبية ٢/ ٢٩٨، ومحاضرات الخضري في السيرة ص ١٢٤].

ومرة أخرى جاءه وفد «**هوازن**» يطلبون سباياهم بعد توزيعها، ويتركون له أموالهم فأوحى إليهم سرًّا أن يستشفعوا به لدى المسلمين، عقب انصرافه من الصلاة، فلما كلموه أطلق لهم أسراهم، ووعد المتمسك بحقه من الجند، أن يدفع له ست نياق لقاء أسيره الذي يطلقه [**الماوردي في الأحكام السلطانية ص ١٢٩ إلى ١٣٢ وكتب السيرة المختلفة**]، فأي تحايل شريف على منح الحرية للناس كذلك التحايل؟!

والرسول ﷺ كثيرًا ما أوصى أصحابه بحسن معاملة الرقيق، فأمرهم ألا يُكلفوا عبيدهم فوق طاقتهم من الأعمال، وأن يساعدوهم إذا كلفوهم، وأمرهم أن يطعموهم مما يَطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، وشجع العبيد على حضور مجالس العلم، والتزود من المعرفة، وكان أصحابه ينفذون تعليماته بكل دقة، فكانوا يؤثرون الأسير على أنفسهم بجيِّد الطعام، لدرجة كانت تجعله يشعر بالخجل[**ابن هشام بهامش الروض الأنف ص ٧٨**]، وكان الأسرى ينالون قسطهم وافيًا من الطعام والمعاملة الحسنة [**الخضري: تاريخ الدولة العباسية ص ٢١٢**]، في حين يلقى الأسرى في القرن العشرين، ما تشيب لهوله الولدان من التعذيب والحرمان. (قلت: ما بالك بما يحدث في القرن الواحد والعشرين، وعلى سبيل المثال أسرى «**جوانتاناموا**» ولا عزاء لحقوق الأسرى واتفاقية جنيف...!).

وفي الوقت الذي نرى فيه الروم يجعلون للسيد حق إهلاك عبده، ومنعه من التعليم، نسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في جواز أمان العبد المسلم إذا أمَّن أحد الأعداء: «**عبد المسلمين من المسلمين، وذمته من ذمتهم، يجوز أمانه**». [**أبو يوسف: الخراج ص ١٢٦**].

فأي سموٍّ بالرقيق ذلك السموُّ، الذي يجعل كلمته محترمة، سارية على سادته في حال القتال؟

هذا وقد حرص الإسلام الحرص كله، على تحرير الأرقاء وفك الرقاب، فقد جعل عتق العبد أحد أبواب ثمانية، من مصارف الزكاة، فالعبد يساعَد من أموالها في سداد أقساطه لسيده، ليصير بعد أدائها حرًّا، قال تعالى في مصارف الزكاة: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة] [**الآيات بترتيب ذكرها في سورة البقرة ١٧٧، والنساء ٩٢، والمجادلة ٣، والتوبة ٦٠، والبلد ١٣**]، فجعل للعبد الحق في أن يشتري نفسه من سيده، بمال يتفقان على قدره ومواعيد دفعه، وفتح للأَمَة سبيل الحرية إذا أولدها سيدها، وجعل عتق الرقبة كفارة كثير من المخالفات التي يرتكبها المسلم، وما أكثر المخالفات من النفوس البشرية، فجعل العتق كفارة القتل الخطأ: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[النساء: ٩٢]، وجعله

بالتخيير في كفارة اليمين، إذا حنث فيه صاحبه: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، وجعله كذلك كفارة الظهار ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣].

بل إنه رغَّب في العتق لغير تلك المخالفات، فجعله طريقًا من طرق شكر الله على نعمته، قال تعالى يخاطب الإنسان: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد].

حقيقة إن الإسلام جعل العبد نصف الحر، في المعاملات الاجتماعية والشهادة وغيرها، ولكن هذا الفارق قد يكون هو الوحيد بين العبد وسيده، ومع هذا فقد رأينا السادة الروم يستفيدون من جهل عبيدهم، ورأينا السادة المسلمين يُعنون بتعليم عبيدهم وإمائهم حتى لمع نجم الكثير منهم في ميدان العلوم والفنون، ويكفي أن نعرف أنه من بين الأرقاء المسلمين، العلامة «**ياقوت**» صاحب معجم البلدان والمؤلفات القيمة، الذي طار ذكره في الناس [بتلر في **فتح العرب لمصر** ص ٣١]، كما كان من بين الإماء المثقفات من حذَقت الغناء، وأجادت الموسيقى والأدب، ودرست علوم الشرع المختلفة، حتى جذبت لها أنظار الأمراء، وزاحمت الحرائر في قصور الخلفاء، وبخاصة في الدولة العباسية، التي كان معظم خلفائها أبناء الجواري المملوكات.

هذه معاملة الإسلام للأسير بعد استرقاقه، وقد رأينا معاملة الرسول ﷺ له حتى في الميدان، وهذا لا يمنع المرء من ذكر بعض المعاملات القاسية، التي كانت تبدر من بعض القادة للأسرى، وهم القادة الذين كانوا معروفين بالإسراع إلى سفك الدماء **كخالد بن الوليد** رضي الله عنه الذي قال فيه الفاروق: «**إن في سيف خالد لرهَقًا**»، والذي أقسم يومًا، لئن نصره الله على أعدائه لَيُجرين النهر بدمائهم، **وكيزيد بن المهلب** رضي الله عنه الذي يُروى عنه أنه أعاد فتح «جُرجان فأخذ أسراهم»، وصلبهم فرسخين، إلى يمين الطريق ويساره، وقاد منهم ١٢٠٠٠ إلى وادي جرجان، وقال: مَنْ طلبهم بثأر فليقتل، فكان الرجل من المسلمين، يقتل الأربعة والخمسة، وقيل: إنه قتل منهم ٤٠٠٠٠ من الأسرى. [ابن الأثير: **الكامل** ٥/ ١٤].

وإذا كنا ندافع عن هؤلاء القادة بأنهم كانوا يريدون إرهاب عدوهم القوي، فكيف الدفاع عن غيرهم؟ لقد لوحظ السرف في الدماء أيضًا على **الحجاج بن يوسف** وكان إسرافه ظاهرًا في قتل أسرى «**دير الجماجم**» التي انتصر فيها على الثائر **محمد بن الأشعث** لدرجة أن **الخليفة عبد الملك** لامه بقوله: «**أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين سَرَفُكَ في الدماء وتبذيرك في الأموال، ولا يحتمل هاتين الخصلتين لأحد من الناس**». [المسعودي في **مروج الذهب** ٣/ ١٤١].

ويظهر أن بعض القادة الأمويين والعباسيين، كانت تلعب بهم الأهواء السياسية والنزعات النفسية، لبعدهم عن زمن الرسالة، وعهد الخلافة فرأيناهم يُنكلون بالأسرى، ويخلفون الوعد والأمان اللذيْن أوجب الإسلام احترامهما.

فهذا «**ابن الأشعث**» يسلك سبيل أستاذه الحجاج، عندما ثار به بعض قادته (١٤٧هـ/ ٧٦٥م) فإنه حاربه حتى قتله وهرب عنه أصحابه، ولكن ابن الأشعث أعطاهم الأمان ليعودوا، فلما عادوا قتلهم جميعًا [**الكامل ٥/ ١٢١**]، وهل الغدر شيء غير هذا؟

بل إن آخر خلفاء بني أمية **مروان بن محمد** «عُرف عنه في الناس أنه كان يقتل أسراه جميعًا إلا العبيد، فكان الكثير منهم يدَّعون أنهم عبيد [**الكامل ٥/ ١٤٥، ١٤٩**]؛ ليَتخلصوا من ظلمه.

وأيًّا ما كان الأمر، فهذه أمثلة فردية، تشهد بمخالفتها للتشريع الإسلامي العام، والقواعد التي جرى العمل بها في صدر الإسلام، وإنما ذُكرت إحقاقًا للحق؛ وليظهر للناس أن المسلمين كغيرهم، فيهم الفاتك وفيهم المقتصد، وإن كان الفاتك فيهم، لم يبلغ ما بلغه المسرفون في الدماء من الرومان، أو المغول أو الأتراك أو البيزنطيين.

ونهاية القول: إن الإسلام كان يرعى حق الأسير، فلا يلقيه في المعتقلات حتى يموت جوعًا وعريًا، ولا يكلفه من الأعمال ما يقصم ظهره، على النحو الذي تعامل به الأسرى، في عصر النور والمدنية، وعلى أيدي المثقفين من أبناء الأمم الغربية، التي تدَّعي أنها حامية الحضارة في العالمين، ثم تَسترِق الشعوب والأفراد، وتعترف في قوانينها بالتفرقة بين السود والبيض، وتخص الزنوج في بلادها بمعاملة يأباها الطبع السليم، والذوق الإنساني الكريم.

وهكذا نرى الإسلام في فجره يفك الرقيق، والعصر الحاضر في حضارته يسترق الأحرار، سواء أكانوا أفرادًا أو جماعات». [**الفن الحربي في صدر الإسلام لعون ٢٩٩-٣٠٤**].

ويقول د/ يونس: «يحمل المغرضون حملة شعواء على الإسلام من جهة أنه لم يبطل أمر الرق بالكلية، بل أقره وجعل له أحكامًا وتشريعات ذات أصول وفروع فيه.. مع أن المسلمين يقولون إنه دين الحرية والمساواة واحترام حقوق الإنسان، فأي مساواة بين مَنْ هو حر طليق وبين مَنْ هو كالسلعة التي تُعرض في الأسواق للبيع والشراء وتتداولها الأيدي المتعددة... إلى آخر ما شنعوا به من أمور حسبوا أنها توصلهم إلى ما يريدون من خداع الناس وغشهم وإلباس الحق بالباطل عليهم، وفتنتهم عن دين الله، وصرفهم عن سبيله القويم.

والإسلام بحججه وقوة أدلته وحِكم شرائعه كالطود الأشم لا يتأثر بهذه الأقوال المموهة والأباطيل المكشوفة وهم بالنسبة إليه:

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيُوهِنَهَا   فَلَمْ يَضِرْهَا وأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

وقليل من النظر المنصف يظهر أن هذه الشبهة: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾[النور: ٣٩]، فالرق أمر قديم بقدم الإنسان، ومعروف من أول عصور التاريخ، وكانت له أسباب متعددة دفعت إليه، فالقوي كان يسترق الضعيف معتمدًا على قوته ليسخره في عمله، وكانت النفوس مطبوعة على المحاربة وشن الغارات لسبب أو لغير سبب، فكان الغالب يتسلط على كل من في ولايته من نساء وأطفال فيجعلهم أرقاء، وقد أدى فساد الأخلاق والجهالة بالحقوق إلى سرقة الأطفال وبيعهم في أسواق النخاسة.

حتى بعد أن وُجدت القوانين كان للرق فيها أسباب بالغة منتهى العسف والتجبر، فقد كان في روما أن المدين إذا أفلس ولم يستطع قضاء ما عليه كان رقيقًا للدائن، وقد أقرت الديانتان اليهودية والنصرانية أمر الرق وشرعتا له الأحكام، كما يدل على ذلك كتب العهدين القديم والجديد اللذين يعترف بهما مثيرو هذه الشبهة من النصارى.

وكان العرب قد فُطروا على شن الغارات وإقامة المعارك، وكانوا يسترق بعضهم بعضًا في هذه الحروب، ويشترون الأرقاء من هذه البلاد التي يتجرون فيها، ولم تكن لهم عقارات يستغلونها ولا أرض يزرعونها، فكانت معيشتهم تقوم على رعاية الماشية، فكان وجود الأرقاء لخدمتهم ورعاية ماشيتهم من ضرورات حياتهم، فبعث الله تعالى نبيه ﷺ بالإسلام والناس كما وصفنا وحال الرق بينهم كما أوضحنا، فلو جاء الإسلام بإبطاله مرة واحدة، لتعرض أولًا لهدم حياة الأمة العربية التي بُعث فيها نبيهم ﷺ، وبالتالي إلى شدة مخالفتهم له واجتماعهم على مقاومة دعوته بقدر ما يملكون من قوة، فإن التعرض للأرقاء هو أشد ما يدفع الأمة العربية إلى المقاومة والمناضلة دفاعًا عن حياتها.

يدلك على ذلك أن قادة الإنجليز عندما فتحوا السودان ونادوا بإبطال الرق ما كاد الأرقاء يسمعون بهذا الأمر حتى خرجوا من بيوت سادتهم لا يملكون أية وسيلة يكتسبون بها عيشهم، فلم يمض غير أسبوع واحد حتى لم يجدوا ما يأكلون، وكانوا يفتشون في أرواث الدواب عن بعض حبات من الشعير ليغسلوها ويأكلوها ففشت فيهم الأمراض والأوبئة، وتعطلت مصالح سادتهم الذين كانوا يأنفون العمل بأنفسهم، فبارت الأرض وساءت الحال، فبادرت الحكومة بأمر الأرقاء إلى العودة إلى بيوت ساداتهم، ثم عملت على إبطاله على التدريج كما هي سياسة الإسلام وشريعته الحكيمة الحقة، فلو أن

رسول الله ﷺ جاء بإبطاله دفعة واحدة لخرج الأرقاء لا يجدون أي مصدر للرزق، فإما أن يرجعوا إلى سادتهم فينضموا إليهم في محاربة دعوته، وإما أن يطالبوا الرسول ﷺ بأرزاقهم فيضطر النبي ﷺ إلى أن يشتغل بالإغارة والنهب ـ وما هو بفاعل ـ بدل أن يشتغل بنشر دين الله والدعوة إلى الحق والخير؛ لهذا كله سلك النبي ﷺ سبيل تضييق الرق إلى أقصى حد ممكن، فحصر أسبابه الكثيرة في سبب واحد، وهو الحرب بين الكفار والمسلمين لإعلاء كلمة الله.

فيعرض المسلمون عليهم الإسلام أو الجزية قبل الشروع في قتالهم، فإذا اختاروا أحدهما كان لهم ما للمسلم وعليهم ما عليهم، وإن أبوا قاتلهم المسلمون، فإن أسروهم كانوا أرقاء للمسلمين بعد اختيار الإمام رقهم، وهم الذين جنوا على أنفسهم باعتدائهم على الحق وأهله فيستحقون أن يجازوا من جنس ما اقترفوا.

وجعل الإسلام للإمام حق تخليصهم من الرق بالمن أو الفداء، فإذا صاروا أرقاء لم ينسد عليهم باب الحرية بل جعل لحريتهم أسبابًا كثيرة نذكر منها ما يأتي:

أولًا: جعل لإعتاق الأرقاء وإعانة المكاتبين سهمًا في مصارف الزكاة، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾[التوبة].

ثانيًا: جعل الإسلام إعتاق الرقاب كفارة للجرائم والأخطاء التي يرتكبها المسلم، مثل كفارة القتل والظهار والإيلاء واليمين والجماع في نهار رمضان عامدًا.

ثالثًا: ومن أسباب تحرير الرقاب الكتابة، وهي عقد بين السيد ورقيقه على أن يؤدي عملًا أو مالًا على نجمين أو أكثر، فإذا أداه فهو حر، وقد ندب السيد وغيره إلى إعطائه شيئًا من المال يعينه على أداء النجوم، وندب السيد إلى أن يحط عنه شيئًا منها إذا لم يعطه قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾[النور: ٣٣].

رابعًا: إذا نذر السيد العتق نذرًا منجزًا لزم في الحال أو معلقًا لزمه عند حصول ما علق عليه.

خامسًا: إذا أتت الأَمَةُ بولد من سيدها كانت حرة بعد موته، وتبعها أولادها من سيدها، كما يدل لذلك ما جاء عن عبد الله بن عمر من رواية مالك قال: **نهى عمر ﷺ عن بيع أمهات الأولاد، لا تباع ولا تُوهب ولا تُورَّث، يستمتع بها ما بدا له، فإذا مات فهي حرة**، ولا يقول ذلك عمر ﷺ إلا بتوقيف من رسول الله ﷺ، فليس مما يقال فيه بالرأي والاجتهاد.

سادسًا: وقد رغب الإسلام في تحرير الرقاب ترغيبًا عظيمًا فجعله سببًا في العتق من النار.

روى البخاري ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا اسْتَنْقَذَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ**».

[مسلم في العتق (١٥٠٩)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٤٧)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (١٠٤٢٢)].

وروى أحمد وابن حبان والبيهقي عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «**لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ، أَعْتِقْ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَوَلَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ؟ قَالَ: «**لَا، إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا، وَالْمِنْحَةُ الْوَكُوفُ، وَالْفَيْءُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَأَطْعِمْ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الْخَيْرِ**».

[مسند أحمد عن البراء ﷺ (١٨١٧٣)، وصححه الإمام ابن حجر في الفتح كتاب العتق باب في العتق وفضله].

وجعل فك الرقبة في أول الخصال التي يكون بها العبد المسلم شاكرًا نعم الله عليه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد].

سابعًا: ولاستشراف الإسلام إلى العتق جعل عتق أي جزء من العبد ساريًا إلى عتق الكل، وعتق الشريك لنصيبه ساريًا إلى أنصباء باقي الشركاء إن كان عنده من المال ما يفي بقيمتها التي يجب عليه أن يؤديها إليهم.

ثم إن الإسلام لم يجعل الرق دليلًا على المهانة والحقارة كما عند الأمم الأخرى، بل حفظ للرقيق حرمته وكرامته حتى كان المسلمون يعاملون أرقاءهم معاملة أفراد الأسرة، فيخالطونهم ويؤاكلونهم كما تقدم ذلك...». [**الآيات والعبر الكبرى ليونس ١٨٦-١٩٠**].

وتحت عنوان «**كلمة لا بد منها**» يقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام لم يحرم الرق حتى هذه الساعة، ولا يوجد نص من كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا محمد ﷺ يدل من قريب أو بعيد بأي نوع من الدلالات أن الرق مُحُرَّم في الإسلام، بل النصوص من القرآن والسنة تدل بجميع أنواع الدلالات وفي مقدمتها دلالة العبارة أن الرق حلال، فقد ورد في سورة المؤمنون: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾[المؤمنون].

فالمسلم لا يصرف شهوته إلا من طريق الزواج أو التسري بالإماء كما نصت الآية، والآيات التي تحدثت عن الرق كثيرة لسنا بصدد إحصائها والتعليق عليها.

والسنة النبوية القولية والفعلية وعمل الصحابة ﷺ يدل على أن الرق والاسترقاق مباح، فقد استرق رسول الله ﷺ واسترق الصحابة ﷺ في غزوة بني قريظة وغزوة حنين، وظل المسلمون

يتعاملون بالرقيق بيعًا وشراءً قرونًا عديدة، فلم ينكر عليهم أحد، بل إنك لا تكاد تجد بابًا من أبواب الفقه إلا وفيه حديث عن الرق، سواء كان في الحدود أو القصاص أو العبادة أو الزكاة أو المعاملات.

وقد يتحرج بعض الناس من ذكر هذا الحكم، وإذا ذكر أمامه يتعسف في الدفاع عنه، ويتجاوز النصوص، وهذا في تقديري ليس صوابًا ولا صحيحًا، إن المسلم ينبغي ألا يخجل من دينه، وأحكام شريعته، سواء استطاع العقل الإنساني أن يدرك حِكم الأحكام أو لم يستطع.

إن الناس لا يَحكمون في شرع الله، وليس لهم ذلك، بل الله هو الذي يَحكم في الناس بشرعه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون عما يفعلون، فالبشر يعتريهم النقص فكيف يستدرك الناقص على الكامل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

إن الإسلام لا يحرم شيئًا إلا لمفسدة فيه، وقد يتوصل الإنسان إلى معرفة هذه المفسدة، وقد لا يتوصل، فإذا لم يهتد الإنسان لاكتشاف هذه المفسدة في وقت من الأوقات فلا يعني أن الحكم غير صحيح، وإنما يدل على جهل هذا الإنسان وعدم معرفته، والإسلام لا يبيح شيئًا من الأشياء إلا لمصلحة تتحقق للناس، وقد يتوصل الناس إلى اكتشاف هذه المصلحة وقد لا يتوصلون، وسواء توصلوا أو لم يتوصلوا فإن الحكم صحيح وباقٍ لا يؤثر فيه جهلهم بهذه المصلحة (إن الإسلام منع الطرق الظالمة في الاسترقاق وحرَّمها، كاسترقاق المدين إذا عجز عن الوفاء بدينه للدائن أو سرقة الأطفال واسترقاقهم ثم بيعهم، أو غير ذلك، أما الأسر فهو طريق مشروع في الاسترقاق منذ عهده ﷺ، ولم يأت نص يمنعه لا من الكتاب ولا من السنة).

نعم إن الإسلام شجع على تحرير الرق، فشرع الكفَّارات الكثيرة التي يتحرر قسم من الرقيق بواسطتها، ككفارة الظِّهار، وكفارة اليمين، وكفارة النذر، وكفارة الاعتداء على حرمة رمضان، وكفارة قتل الخطأ.

وكون الإسلام يشجع على تحرير الرق عن هذه الطرق فلا يعني أنه يحرم الرق أصلًا.

وأقول أيضًا: إن ما يكتبه بعض العلماء والباحثين في عالمنا المعاصر، عن الرق ويغالي في كتابته وحديثه حتى يصرح بأن الإسلام حرم الرق، ولا يوجد في الشريعة ما يحله، حتى يقنع الناس، أو الأعداء الذين لا هَمَّ لهم إلا توجيه الافتراءات والطعون للإسلام، يدفعهم حقدهم وحسدهم وبغضهم لهذا الدين ولرسوله ﷺ ولأصحابه ﭫ وفق منهج خبيث غير موضوعي ولا علمي.

إن هذه العاطفة، عاطفة الدفاع عن الإسلام جيدة ـ رغم أن الإسلام ليس ضعيفًا يحتاج إلى دفاع المدافعين عنه، فهو صادر عن الله الذي يعلم والناس لا يعلمون ـ ومأجورون عليها إن شاء الله، ولكن هذه العاطفة ينبغي أن تتقيد بالأحكام الشرعية والمستنبطة من النصوص من الكتاب والسنة، وألا تتجاوز حدودها، ولا تغالي ولا تشتط، فتطغى على الشرع وتنفي أحكامًا شرعية».

[المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٢٥٩-٢٦٠].

٩ ـ جواز التيمم والتنويه بشأن الصلاة:

يقول د/ فيض الله: «نزلت آية التيمم في هذه الغزوة، تنويهًا بشأن الصلاة، وتنبيهًا على عظيم شأنها، وأنه لا يحول دون أدائها فقد الماء، وهو وسيلة الطهارة التي هي أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف وفقد الأمن من إقامتها». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢١٠-٢١١].

١٠ ـ يمن عائشة رضي الله عنها وبركتها في نزول تشريع التيمم:

يقول الشيخ عرجون: «وفي هذه الغزوة المباركة نزلت آية التيمم، وهي من تشريع الرحمة ورفع الإصر عن هذه الأمة الإسلامية.

اختلاف العلماء في تعيين آية التيمم التي نزلت بسبب قلادة عائشة رضي الله عنها :

وللتيمم آيتان في القرآن، إحداهما في سورة النساء، والأخرى في سورة المائدة وقد اختلف العلماء من السلف في أي آيتيه هي التي نزلت في غزوة بني المصطلق، فقال ابن بطال: هي آية النساء أو المائدة، ولم يرجح آية على آية في سبق النزول.

وقال القرطبي: هي آية النساء، ووجَّه قوله بأن آية المائدة تُسمى آية الوضوء، أي أن ذكر التيمم فيها جاء بعد ذكر الوضوء، وعدم إمكانه حقيقة أو حكمًا، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾[المائدة].

قال القرطبي: وآية النساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾[النساء] لا ذكر فيها للوضوء.

وذهب هذا المذهب الواحدي حيث ذكر الحديث في آية النساء في كتابه أسباب النزول، وقال ابن حجر: وخفي على الجميع ما ظهر للبخاري من أنها آية المائدة بلا تردد لرواية عمرو بن الحارث إذ صرح فيها بقوله: فنزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [المائدة: ٦].

فرح المسلمين بنزول رخصة التيمم وثناؤهم على حفاوة الله تعالى بها:

وقد اغتبط المسلمون وفرحوا فرحًا شديدًا بفضل الله عليهم إذ فرَّج عنهم ضائقتهم ببركة عائشة رضي الله عنها، وجاءها أبوها الصديق بعد هذا العتاب الشديد، وقد رأى غبطة المسلمين بحفاوة الله تعالى

بهم حفاوة عامة في كل زمان ومكان ببركتها وإكرامًا لها، وإظهارًا لفضلها وتشريفًا لمقامها، فقال لها ووجهه يتبلج بنور المحبة الأبوية: **إنك لمباركة**.

وفي رواية للطبراني ذكرها اليعمري في (العيون) أن أبا بكر ﷺ قال لعائشة ﷺ: **والله يا بنية، إنك كما علمت لمباركة**، وذكر الزرقاني عن القتبي في تفسيره أن النبي ﷺ قال لها: «**ما كان أعظم بركة قلادتك**».

وقال أسيد بن حضير ﷺ: **ما هي بأول بركاتكم يا آل أبي بكر**، وفي رواية أنه قال لعائشة: **جزاك الله خيرًا، فو الله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك منه مخرجًا، وجعل للمسلمين فيه بركة**».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢١٦-٢١٨].

١١ ـ حكم العزل [(١)]:

يقول د/ قريبي: «ورد في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ من طريق ابْنِ مُحَيْرِيزٍ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَرَأَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ الْعَزْلِ؟ (هو نزع الذكر بعد الإيلاج لينزل خارج الفرج، خشية أن تحمل المرأة)، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَصَبْنَا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ، وَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا الْعُزْبَةُ، وَأَحْبَبْنَا الْعَزْلَ، فَأَرَدْنَا أَنْ نَعْزِلَ، وَقُلْنَا: نَعْزِلُ وَرَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَبْلَ أَنْ نَسْأَلَهُ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ نَسَمَةٍ** (النفس والروح) **كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَائِنَةٌ**». **[البخاري في المغازي(٤١٣٨)، وفي العتق(٢٥٤٢)، ومالك في الموطأ كتاب الطلاق(١٢٦٢)، وأبو داود في النكاح(٢١٧٢)، وأحمد عن أبي سعيد الخدري ﷺ (١١٦٤٧)]**.

وفي كتاب النكاح: عَنْ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: أَصَبْنَا سَبْيًا فَكُنَّا نَعْزِلُ، فَسَأَلْنَا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «**أَوَإِنَّكُمْ لَتَفْعَلُونَ**»، قَالَهَا ثَلَاثًا «**مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا هِيَ كَائِنَةٌ**». **[البخاري في النكاح (٥٢١٠)]**.

وفي كتاب القدر عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مُحَيْرِيزٍ الْجُمَحِيُّ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ: بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نُصِيبُ سَبْيًا وَنُحِبُّ الْمَالَ، كَيْفَ تَرَى فِي الْعَزْلِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَوَإِنَّكُمْ لَتَفْعَلُونَ ذَلِكَ، لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّهُ لَيْسَتْ نَسَمَةٌ كَتَبَ اللهُ أَنْ تَخْرُجَ إِلَّا هِيَ كَائِنَةٌ**». **[البخاري في القدر(٦٦٠٣)، وبنحوه في البيوع (٢٢٢٩)]**.

وحديث أبي سعيد هذا أورده مسلم بألفاظ متعددة. **[صحيح مسلم ٤/ ١٥٧ ـ ١٦٠ كتاب النكاح]**.

---

(١) هناك بحث قيم عن هذا الموضوع بعنوان: **العزل عن المرأة: دراسة شرعية وطبية** ـ د/ طارق محمد الطواري ـ المكتبة الشاملة، ومكتبة المصطفى، على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

وهو أيضًا عند أبي داود والنسائي وابن ماجه وأحمد. [ينظر: سنن أبي داود ١/ ٥٠٠- ٥٠١، والنسائي ٦/ ٨٩، وابن ماجه ١/ ٦٢٠ الجميع في كتاب النكاح باب العزل، وأحمد ٣/ ٦٣ و ٦٨ و ٧٢].

وفي حديث جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «**كُنَّا نَعْزِلُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ**».

[البخاري في النكاح (٥٢٠٩)، وابن ماجه في النكاح (١٩٢٧)، وأحمد عن جابر ﷺ (١٣٩٠٦)].

وزاد مسلم: عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا نَعْزِلُ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ، زَادَ إِسْحَقُ: قَالَ سُفْيَانُ: لَوْ كَانَ شَيْئًا يُنْهَى عَنْهُ لَنَهَانَا عَنْهُ الْقُرْآنُ.

وفي لفظ عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا نَعْزِلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَبِيَّ الله ﷺ فَلَمْ يَنْهَنَا.

وفي لفظ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي جَارِيَةً لِي، وَأَنَا أَعْزِلُ عَنْهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ ذَلِكَ لَنْ يَمْنَعَ شَيْئًا أَرَادَهُ الله**»، قَالَ: فَجَاءَ الرَّجُلُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ الْجَارِيَةَ الَّتِي كُنْتُ ذَكَرْتُهَا لَكَ حَمَلَتْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنَا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ**».

[مسلم في النكاح (١٤٤٠)].

وهذه الأحاديث التي ظاهرها جواز العزل، ورد ما يعارضها، فعند مسلم وأحمد عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ أُخْتِ عُكَّاشَةَ قَالَتْ: حَضَرْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي أُنَاسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنْ الْغِيلَةِ**(١)**، فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ وَفَارِسَ فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ فَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا**»، ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنْ الْعَزْلِ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ**» زَادَ عُبَيْدُ الله فِي حَدِيثِهِ عَنْ الْمُقْرِئِ: «وَهِيَ ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ(٢) سُئِلَتْ ۝٨﴾ [التكوير]. [مسلم في النكاح (١٤٤٢)، وأبو داود في الطب (٣٨٨٢)، والترمذي في الطب (٢٠٧٧)، والنسائي في النكاح (٣٣٢٦)، ومالك في الموطأ كتاب الرضاع (١٢٩٢)، والدارمي في النكاح (٢٢١٧)، وأحمد عن جدامة بنت وهب ﷺ (٢٦٤٩٤، ٢٦٤٩٥، ٢٦٩٠١)].

وبسبب هذه الأحاديث التي ظاهرها التعارض اختلف العلماء في حكم العزل، فذهب ابن حبان وابن حزم إلى تحريمه أخذًا بحديث جدامة هذا وما في معناه.

وعلل ابن حزم ذلك بأن الأحاديث الدالة على الإباحة، متمشية مع أصل الإباحة، وحديث جدامة دال على التحريم، فصح أن حديثها ناسخ لجميع الإباحات المتقدمة التي لا شك في أنها قبل البعث وبعد البعث، وهذا أمر متيقن؛ لأنه إذا أخبر ﷺ أنه الوأد الخفي، والوأد محرم، فقد نسخ الإباحة المتقدمة بيقين،

---

(١) **الغيلة**: بالكسر الاسم من الغيل بالفتح، وهو أن يجامع الرجل زوجته وهي مرضع، وكذلك إذا حملت وهي مرضع. النهاية لابن الأثير ٣/ ٤٠٢.

(٢) **الموؤودة**: هي البنت كان في الجاهلية إذا ولد لأحدهم بنت دفنها في التراب وهي حية. يقال وأدها يئدها وأدًا فهي موؤودة. النهاية لابن الأثير ٥/ ١٤٣، ومختار الصحاح ص ٧٠٥، والقاموس المحيط ١/ ٤٣٢-٤٣٣.

فمن ادعى أن تلك الإباحة المنسوخة قد عادت، وأن النسخ المتيقن قد بطل فقد ادعى الباطل وقفي ما لا علم له به، وأتى بما لا دليل عليه.

وأيد ذلك بما ورد في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ ـ عند مسلم [في النكاح (١٤٣٨)] ـ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الْعَزْلِ؟ فَقَالَ: «**لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا ذَاكُمْ، فَإِنَّمَا هُوَ الْقَدَرُ**»، قَالَ مُحَمَّدٌ بن سِيرِينَ: وَقَوْلُهُ «لَا عَلَيْكُمْ» أَقْرَبُ إِلَى النَّهْيِ. [المحلى لابن حزم ١١/ ٢٩٠-٢٩٢].

وذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزوجة الحرة بإذنها وعن السرية بدون إذن، والخلاف في الزوجة المملوكة، هذا أقرب الأقوال في هذه المسألة والخلاف طويل بين العلماء، واستدل الجمهور على الجواز بالأحاديث المتقدمة التي ظاهرها الجواز.

وأجابوا عن حديث جدامة وما في معناها بأن النهي فيها محمول على كراهة التنزيه ـ وأجيب عن قوله في حديث جدامة «**ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ**» أنه ليس صريحًا في التحريم؛ لأن التحريم للوأد المحقق الذي هو قطع حياة محققة، والعزل وإن شبهه ﷺ به فإنما هو قطع لما يؤديه إلى الحياة والمشبه دون المشبه به، وإنما سماه وأدًا لما تعلق به من قصد منع الحمل.

وهناك أجوبة أخرى فيها أخذ ورد، فلا نطيل الكلام فيها ونكتفي بالإشارة إلى أماكنها لمن أراد الوقوف عليها. [ينظر: معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٣٠-٣٥، وشرح مسلم للنووي ٣/ ٦١٢، وزاد المعاد لابن القيم ٤/ ٢٠-٢٣، وتهذيب السنن له ٦/ ٢١٤ «عون المعبود»، وفتح الباري ٩/ ٣٠٥-٣١٠، وسبل السلام للصنعاني ٣/ ١٤٥-١٤٦، ونيل الأوطار للشوكاني ٦/ ٢٢٢- ٢٢٤، وشرح ثلاثيات مسند أحمد لمحمد السفاريني ١/ ٢٩٧- ٣٠٢].

وخلاصة القول في هذا الباب هو جواز العزل، وأحاديث جابر بن عبد الله ﷺ على اختلاف ألفاظها صريحة في جواز ذلك وأصرح منها حديثه عند مسلم وأبي داود ولفظه: عَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ لِي جَارِيَةً هِيَ خَادِمُنَا وَسَانِيَتُنَا (أي التي تسقي لنا شبهها بالبعير في ذلك، وفي لفظ أحمد «سايستنا»، وهي بنفس المعنى)، وَأَنَا أَطُوفُ عَلَيْهَا، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ تَحْمِلَ، فَقَالَ: «**اعْزِلْ عَنْهَا إِنْ شِئْتَ، فَإِنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِّرَ لَهَا**»، فَلَبِثَ الرَّجُلُ ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ الْجَارِيَةَ قَدْ حَبِلَتْ، فَقَالَ: «**قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِّرَ لَهَا**». [مسلم في النكاح (١٤٣٩)، وأبو داود في النكاح (٢١٧٣)، وأحمد عن جابر ﷺ (١٣٩٣٦، ١٤٧٢٠)].

ففيه التصريح من رسول الله ﷺ لهذا السائل بالإذن بفعل العزل إن أحب ذلك، ثم بين له أن فعله هذا لا يرد شيئًا قدره الله ﷻ وأنه إذا أراد شيئًا كان ولا محالة».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٥٩-٤٦٤].

ويقول البوطي: «ويتبع ذلك إسقاط النطفة أو العلقة قبل نفخ الروح فيها، كما يتبع ذلك عموم ما يُسمى اليوم بتحديد النسل.

والحديث الذي ذكرناه في هذا صريح بجواز العزل، فقد قال لهم حينما استفتوه في ذلك: **مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا**، وفي رواية لمسلم: «**مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَائِنَةٌ**»، أي ليس عليكم أن تتركوا العزل؛ لأن ما قد قدَّر الله واقع لا ريب فيه، فلا يمكن أن يمتنع المقدر بعملكم.

وأصرح من هذا الحديث ما رواه الشيخان عن جابر ﷺ أنه قال: «كُنَّا نَعْزِلُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ».

وقد ذهب جمهور الأئمة بناءً على هذا إلى جواز ممارسة العزل، ولكنهم اشترطوا لذلك موافقة الزوجة؛ لما قد يكون من الضرر بها، غير أنه يكره ذلك إذا كان سببه خشية النفقة وقلة ذات اليد.

وخالف ابن حزم الجمهور، فذهب إلى حرمة العزل مطلقًا، مستدلًا بما رواه مسلم أن النبي ﷺ سئل عن العزل، فقال: «**ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ**»، واستدل بأحاديث أخرى كلها موقوفة على الصحابة، فمن ذلك ما رواه بسنده عن نافع أن ابن عمر ﷺ كان لا يعزل، وقال: لو علمت أحدًا من ولدي يعزل لنكَّلته، ومنه ما رواه من طريق الحجاج ابن منهال أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ كان يكره العزل.

وأجاب ابن حزم عن حديث جابر الذي استدل به الجمهور بأنه منسوخ.

[ينظر: المحلى لابن حزم ١٠/ ٨٧].

وذكر ابن حجر في فتح الباري رأي ابن حزم ثم قال: وهذا معارض بحديثين أحدهما أخرجه الترمذي والنسائي وصححه من طريق معمر عن يحيى ابن كثير عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا كُنَّا نَعْزِلُ، فَزَعَمَتِ الْيَهُودُ أَنَّهَا الْمَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى، فَقَالَ ﷺ: «**كَذَبَتِ الْيَهُودُ، إِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَهُ لَمْ يَمْنَعْهُ**». **[الترمذي في النكاح (١١٣٦)، قَالَ الترمذي: وَفِي الْبَابِ عَنْ عُمَرَ وَالْبَرَاءِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ، وقال الشيخ الألباني: صحيح].**

قال: و الحديث الثاني في النسائي من وجه آخر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ.

[ينظر: فتح الباري ٩/ ٢٤٥].

أقول: وواضح أن قول الرسول ﷺ عن العزل: الوأد الخفي، لا يعني التحريم، بل الأظهر أن يحمل كلامه هذا - على ضوء الأحاديث الثابتة الأخرى - على النهي التنزيهي كما ذهب إلى ذلك الجمهور، ودعوى ابن حزم أن الأحاديث المبيحة للعزل منسوخة، يردها ما رواه الستة خلا أبا داود من حديث جابر: كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل، زاد مسلم: فبلغ ذلك النبي ﷺ فلم ينهنا.

فلولا أن حكم إباحة العزل ظل مستمرًّا إلى وفاته ﷺ لما قال جابر ﷺ ذلك، ولأوضح آخر ما استقر عليه الحكم الشرعي.

وحكم إسقاط النطفة قبل نفخ الروح فيها يتبع ما ذكرنا من حكم العـزل، إلا أن بعضًـا مـن الجماهـير الذين أفتوا بالعزل حرموا الإسقاط، ولعلهم تحرجوا عن القيـاس في ذلـك، واعتـبروا المضـغة أقـرب إلى التخلق والذات الإنسانية من النطفة قبل العلوق، وهو تحرج لا يتضـح سـببه، اللهـم إلا أن يكـون ضررًا صحيًّا للحامل.

إذا علمت هذا، علمت الحكم الشرعي الذي يتعلق بتحديد النسل وهو إتباع وسيلة علاجية لمنع الحمل بدلًا من العزل فهو جائز إذا اتبعت الوسائل التي أجازها جمهور الأئمة، بشرط أن لا يظن فيه أي ضرر للزوجة وبشرط أن يكون ذلك برغبة متفقة من الزوجين، ولست أعلم ما يخالف هذا الحكم عند أحد من الأئمة الفقهاء رحمهم الله، إلا ما روى من ذلك الحافظ ولي الدين العراقي، عن الشيخ عماد الدين بن يوسف والشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقد روي عنهما القول بحرمة استعمال المرأة دواء ما من شأنه أن يمنع الحمل، قال ابن يونس: ولو رضي به الزوج.

[ينظر: طرح التثريب وشرحه للحافظ العراقي ٨/ ٦٢].

أقول: وهذا الرأي محجوج بمقتضى دلالة السنة، وبما ذهب إليه بناء على ذلك الجمهور.

غير أن من أهم ما ينبغي تعلمه في هذا الصدد، أن الحكم بإباحة العزل أو عموم ما يسمى اليوم: تحديد النسل، منوط برضى الزوجين أنفسهما دون أن يكون عليهما سلطان أو توجيه من الخارج، إذ أن ما يجوز ممارسته للفرد صاحب العلاقة، قد لا يجوز تشريعه بشكل إلزامي للجماعة، وهذه قاعدة من القواعد الفقهية المتفق عليها.

فالطلاق مما يجوز للفرد المتزوج ممارسته عند الحاجة أو المصلحة التي يراها، ولكن ليس للحاكم أن يأمر الناس أمرًا إلزاميًّا أو أدبيًّا أو توجيهيًّا، بأن يمارسوا هذا الحق، فيطلقوا زوجاتهم، وتحديد النسل شأنه في ذلك شأن الطلاق تمامًا، وهذه القاعدة الهامة لابد من أن تعيها وتفهمها جيدًا، كي لا يلبِّس عليك أحد ممن يحترفون اليوم صناعة الفتوى قائلين: لقد أباحت السنة تحديد النسل، وهذا دليل على أن للدولة أن تحمل الناس ـ بما تراه من السبل ـ على ذلك.

والحقيقة أنه لا علاقة إطلاقًا بين ذلك الدليل وهذا المدلول إلا علاقة التلبيس والتمويه.

فالخلاصة أن أمر العزل أو تحديد النسل، إذا نُظر إليه من حيث علاقة الزوجين ببعضهما وما تشيع بينهما من حقوق ويجمعهما من مصالح، أمر سهل لا مشكلة فيه كما قد رأيت.

ولكنه إذا نُظر إليه على أساس أن يكون مبدأ يُدعى إليه دعوة عامة ويُغرى الناس به بناءًا على فلسفة توجيهية تنشط وسائل الإعلام والتوجيه في بثها، فإنه يغدو حينئذ أمرًا على جانب كبير من الأهمية والخطورة وهو يستدعي حينئذ من المسلمين أن ينشطوا في محاربته محاربة واعية فعالة: تقوم على أساس

فهم الخطط الماكرة المختلفة التي يبيتها أعداء المسلمين للإجهاز عليهم، وعليهم أن لا ينخدعوا بما يُشاع من مشاكل الإنتاج والاقتصاد فذلك جزء من التخطيط نفسه». [فقه السيرة للبوطي ٢١٩-٢٢١].

ويقول د/ فيض الله: «روي في الصحيح أن الصحابة رضي الله عنهم استفتوا رسول الله ﷺ بعد أن قَسَّم بينهم السبي ـ في العزل، فَعَنْ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ رضي الله عنه فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَصَبْنَا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ، فَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا الْعُزْبَةُ، وَأَحْبَبْنَا الْعَزْلَ، فَسَأَلْنَا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «**مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلا وَهِيَ كَائِنَةٌ**». [سبق تخريجه قريبًا].

وهذا يشير إلى نفور الدين من الحيلولة دون الإنجاب، بوجه عام.

وهذا البحث مستوفى في كتب الفقه، وفي باب الحظر والإباحة عند الحنفية على التخصيص، ومن أحسن مَنْ كتب وتوسع فيه الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه في إحيائه العظيم، ومن أول مَنْ كتب فيه بعنوان (تحديد النسل) من المُحْدَثين الأستاذ الأكبر الشيخ الإمام محمود شلتوت.

وكتب فيه أخيرًا الزميل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، لكنه لم يشر بإطلاق ـ سامحه الله ـ إلى ما كتبه قبله شيخنا شلتوت رحمه الله». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢١١].

١٢ ـ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْعَزْلِ وَأَنَّهُ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ وَفِيمَا رُوِيَ مِنْ تَكْذِيبِهِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يُونُسَ الْبَصْرِيُّ وَصَالِحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَنْصَارِيُّ قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ قَالَ: ثنا سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَوْفَلٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: حَدَّثَتْنِي جُذَامَةُ قَالَتْ: ذُكِرَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ الْعَزْلُ فَقَالَ: «**ذَاكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ**».

حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْأَزْدِيُّ قَالَ: ثنا أَبُو زُرْعَةَ الْحَجَرِيُّ قَالَ: أَنْبَأَ حَيْوَةُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ أَنَّهُ سَمِعَ عُرْوَةَ يُحَدِّثُ عَنْ عَائِشَةَ عَنْ جُذَامَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

وَحَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي دَاوُد قَالَ: ثنا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: أَنْبَأَ يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْأَسْوَدِ، ثُمَّ ذَكَرَ بِإِسْنَادِهِ مِثْلَهُ.

وَمَا حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مَعْبَدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ ثُمَّ ذَكَرَ بِإِسْنَادِهِ مِثْلَهُ، وَقَالَ فِيهِ جُدَامَةُ بِالدَّالِ.

فَقَالَ قَائِلٌ مَا فِي هَذِهِ الْآثَارِ الَّتِي رَوَيْتُمُوهَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَعَلَ الْعَزْلَ كَمَا قَدْ جَعَلَهُ فِيهَا، وَقَدْ رَوَيْتُمْ عَنْهُ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ فَذَكَرَ:

مَا حَدَّثَنَا بَكَّارُ بْنُ قُتَيْبَةَ قَالَ: ثنا أَبُو دَاوُد (ح) وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَرْزُوقٍ قَالَ: ثنا أَبُو دَاوُد عَنْ هِشَامِ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللهِ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي رِفَاعَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ عِنْدِي جَارِيَةً وَأَنَا أَعْزِلُ عَنْهَا، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ تَحْمِلَ، وَأَشْتَهِي مَا يَشْتَهِي الرِّجَالُ، وَإِنَّ الْيَهُودَ يَقُولُونَ هِيَ الْمَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَذَبَتْ يَهُودُ، لَوْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَهُ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَصْرِفَهُ**».

وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَرْزُوقٍ قَالَ: ثنا هَارُونُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْخَزَّازُ قَالَ: ثنا عَلِيُّ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ يَحْيَى ابْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي مُطِيعِ بْنِ رِفَاعَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: أَنْبَأَ ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَيَّاشُ بْنُ عُقْبَةَ الْحَضْرَمِيُّ عَنْ مُوسَى بْنِ وَرْدَانَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: «بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ الْيَهُودَ يَقُولُونَ إِنَّ الْعَزْلَ هِيَ الْمَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَذَبَتْ يَهُودُ**»، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ أَفْضَيْتَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِقَدَرٍ**».

وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي دَاوُد قَالَ: ثنا عَيَّاشُ بْنُ الْوَلِيدِ الرَّقَّامُ قَالَ: ثنا عَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَأَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: أَقَمْتُ جَارِيَةً لِي بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ فَمَرَّ بِي يَهُودِيٌّ فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْجَارِيَةُ؟ فَقُلْتُ: جَارِيَةٌ لِي، قَالَ: أَكُنْتَ تُصِيبُهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ فَلَعَلَّ فِي بَطْنِهَا مِنْكَ سَخْلَةً (السَخل: الولد المحبب إلى أبويه، وهو في الأصل ولد الغنم)، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي كُنْت أَعْزِلُهَا، قَالَ: تِلْكَ الْمَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**كَذَبَتْ يَهُودُ كَذَبَتْ يَهُودُ**».

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ ﷻ وَعَوْنِهِ: أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ مَا ذَكَرْنَا عَنْهُ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْبَابِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنِ اتِّبَاعِ الْيَهُودِ عَلَى شَرِيعَتِهِمْ مَا لَمْ يُحْدِثْ اللهُ فِي شَرِيعَتِهِ مَا يَنْسَخُ ذَلِكَ، إِذْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ مُقْتَدِينَ بِالَّذِي جَاءَهُمْ بِكِتَابِهِمْ، وَإِذْ كَانَ اللهُ ﷻ أَنْزَلَ عَلَيْهِ فِيمَا أَنْزَلَ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يَعْنِي مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَنْبِيَائِهِ: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] إِنَّمَا كَانَ يَصِلُ إِلَى ذَلِكَ مِمَّا كَانَ يَجِدُهُ فِي التَّوْرَاةِ وَفِيمَا سِوَاهَا مِنْ كُتُبِ اللهِ ﷻ الَّتِي كَانَ أَنْزَلَ عَلَى أَنْبِيَائِهِ قَبْلَهُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ، فَجَازَ أَنْ يَكُونَ لَمَّا كَشَفَهُمْ عَنْ ذَلِكَ كَيْفَ هُوَ فِي كِتَابِهِمْ ذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُ الْمَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى وَكَذَّبُوهُ، فَقَالَ مَا قَالَ مِمَّا تَرْوِيهِ عَنْهُ جُدَامَةُ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ اللهُ ﷻ بِكَذِبِهِمْ، وَأَنَّ الْأَمْرَ فِي الْحَقِيقَةِ بِخِلَافِ ذَلِكَ، كَمَا لَمَّا سَأَلَهُمْ عَنْ حَدِّ الزِّنَا فِي كِتَابِهِمْ ذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُ الْجَلْدُ وَالْفَضِيحَةُ، وَأَنَّهُ لَا رَجْمَ فِيهِ، وَأَتَوْهُ بِالتَّوْرَاةِ فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ حَتَّى أَعْلَمَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُ، وَأَمَرَ ذَلِكَ الْيَهُودِيَّ رَفْعَ يَدِهِ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ فَرَفَعَهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِمِ الْحُجَّةُ بِأَنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِهِمْ، فَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ مَنْ زَنَى مِنْهُمْ مِمَّنْ أَتَوْهُ بِهِ مُحَكِّمِينَ لَهُ فِيهِ.

فَمِثْلُ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْهُمْ فِي الْعَزْلِ لـمَّا بَيَّنَ اللهُ ﷻ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَذِبَهُمْ فِي ذَلِكَ بَيَّنَ لِأُمَّتِهِ ﷺ كَذِبَهُمْ فِيهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ مَا أَوْضَحَ لَهُ مَا يُسْتَعْمَلُ الْوَأْدُ فِيهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، فَأَعْلَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ المَخْلُوقُ مِنْ النُّطْفَةِ فِيهِ الْحَيَاةُ فَيَجُوزُ أَنْ يُوأَدَ حِينَئِذٍ فَيَكُونَ مَيِّتًا، وَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِحَيٍّ وَإِنَّمَا هِيَ كَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا حَيَاةَ فِيهَا، فَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ مَا كَانَ ذَلِكَ مَوْؤُودًا، وَقَدْ كَانَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ خِطَابٌ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ فِي هَذَا المَعْنَى مَا قَدْ ذَكَرْنَا.

كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: ثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ يَزِيدَ المُقْرِئُ قَالَ: ثنا ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ مَعْمَرِ بْنِ أَبِي حُيَيَّةَ قَالَ سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنِ رِفَاعَةَ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ: تَذَاكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ الْعَزْلَ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ قَدْ اخْتَلَفْتُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَدْرٍ الْخِيَارُ فَكَيْفَ بِالنَّاسِ بَعْدَكُمْ، إِذْ تَنَاجَى رَجُلَانِ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: مَا هَذِهِ المُنَاجَاةُ؟ قَالَ: إِنَّ الْيَهُودَ تَزْعُمُ أَنَّهَا المَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: إِنَّهَا لَا تَكُونُ مَوْؤُودَةً حَتَّى تَمُرَّ بِالتَّارَاتِ السَّبْعِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، فَعَجِبَ عُمَرُ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ، وَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا.

وَكَمَا حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ الْفَرَجِ قَالَ: ثنا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُكَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ حَدَّثَنِي مَعْمَرُ بْنُ أَبِي حُيَيَّةَ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ قَالَ: تَذَاكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ عُمَرَ ﷺ الْعَزْلَ ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَهُ سَوَاءً غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ قَوْلَهُ فَعَجِبَ عُمَرُ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ، وَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَهَذَا مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ اسْتِخْرَاجٌ صَحِيحٌ فِي هَذَا المَعْنَى.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ﷺ هَذَا الْكَلَامُ أَيْضًا.

كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا بَكَّارَ قَالَ: ثنا مُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: ثنا سُفْيَانُ قَالَ: ثنا الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الْوَدَّاكِ أَنَّ قَوْمًا سَأَلُوا ابْنَ عَبَّاسٍ ﷺ عَنْ الْعَزْلِ، فَذَكَرَ مِثْلَ كَلَامِ عَلِيٍّ فِي الْحَدِيثَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ سَوَاءً.

وَكَمَا حَدَّثَنَا فَهْدٌ قَالَ ثنا أَبُو نُعَيْمٍ قَالَ: ثنا مُحَمَّدُ بْنُ شَرِيكٍ قَالَ: سَمِعْت ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّهُ أَتَاهُ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ يَسْأَلُونَهُ عَنْ الْعَزْلِ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ المَوْؤُودَةُ، فَقَالَ لِجَوَارِيهِ: أَخْبِرُوهُمْ كَيْفَ أَصْنَعُ، فَكَأَنَّهُنَّ اسْتَحْيَيْنَ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَصُبُّهُ فِي الطَّسْتِ، ثُمَّ أَصُبُّ عَلَيْهِ المَاءَ، ثُمَّ أَقُولُ لِإِحْدَاهُنَّ انْظُرِي لَا تَقُولِينَ إِنْ كَانَ شَيْءٌ ثُمَّ، قَالَ: إِنَّهُ يَكُونُ نُطْفَةً، ثُمَّ دَمًا، ثُمَّ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَظْمًا، ثُمَّ يُكْسَى لَحْمًا، ثُمَّ يَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ حَتَّى يَنْفُخَ فِيهِ الرُّوحَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَلَمَّا وَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى كَذِبِ الْيَهُودِ فِيمَا كَانُوا قَالُوهُ فِي الْعَزْلِ وَاسْتِحَالَتِهِ أَكْذَبَهُمْ فِيهِ وَأَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِنْ عَزَلُوا أَوْ لَمْ يَعْزِلُوا إِلَّا مَا قَدَّرَ اللهُ ﷻ فِيهِ مِنْ كَوْنِ وَلَدٍ مِنْهُ أَوْ مِنْ انْتِفَاءِ ذَلِكَ مِنْهُ.

وَفِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ هَذَا كِفَايَةٌ لِمَا احْتَجْنَا إِلَى هَذَا الْكَلَامِ مِنْ أَجْلِهِ وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ.

[تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ٦٢٢-٦٢٩].

وقد استفاض الإمام ابن حجر في شرح أحاديث العزل في الفتح كتاب النكاح باب العزل رقم ٥٢٠٧-٥٢١٠». [فتح الباري لابن حجر ٩/ ٢١٥-٢٢٠].

١٣ ـ حكم النظر إلى الإماء:

قال الإمام السهيلي: «وَأَمَّا نَظَرُهُ ﷺ لِجُوَيْرِيَةَ حَتَّى عَرَفَ مِنْ حُسْنِهَا مَا عَرَفَ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ امْرَأَةً مَمْلُوكَةً، وَلَوْ كَانَتْ حُرَّةً مَا مَلَأَ عَيْنَهُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يُكْرَهُ النَّظَرُ إِلَى الْإِمَاءِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نَظَرَ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ نَوَى نِكَاحَهَا، كَمَا نَظَرَ إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي قَالَتْ لَهُ: إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَصَعَّدَ فِيهَا النَّظَرَ ثُمَّ صَوَّبَ، ثُمَّ أَنْكَحَهَا مِنْ غَيْرِهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ الرُّخْصَةُ فِي النَّظَرِ إِلَى الْمَرْأَةِ عِنْدَ إِرَادَةِ نِكَاحِهَا، وَقَالَ لِلْمُغِيرَةِ ﷺ حِينَ شَاوَرَهُ فِي نِكَاحِ امْرَأَةٍ: «**لَوْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا**»، وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ حِينَ أَرَادَ نِكَاحَ ثُبَيْتَةَ بِنْتَ الضَّحَّاكِ.

وَقَدْ أَجَازَهُ مَالِكٌ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ ذَكَرَهَا ابْنُ أَبِي زَيْدٍ.

وَفِي مُسْنَدِ الْبَزَّارِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي بَكْرَةَ: لَا حَرَجَ أَنْ يَنْظُرَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَرْأَةِ إِذَا أَرَادَ تَزَوُّجَهَا، وَهِيَ لَا تَشْعُرُ.

وَفِي تَرَاجِمِ الْبُخَارِيِّ: النَّظَرُ إِلَى الْمَرْأَةِ قَبْلَ التَّزْوِيجِ، وَأَوْرَدَ فِي الْبَابِ قَوْلَهُ ﷺ لِعَائِشَةَ: «**أُرِيتُكِ فِي الْمَنَامِ يَجِيءُ بِكِ الْمَلَكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَكُشِفَتْ عَنْ وَجْهِكِ، فَقَالَ: هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَقُلْتُ: إِنْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللهِ يَمْضِهِ**» وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ حَسَنٌ.

وَفِي قَوْلِهِ: «**إِنْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللهِ**» سُؤَالٌ؛ لِأَنَّ رُؤْيَاهُ وَحْيٌ، فَكَيْفَ يُشَكُّ فِي أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَمْ يَشُكَّ فِي صِحَّةِ الرُّؤْيَا، وَلَكِنَّ الرُّؤْيَا قَدْ تَكُونُ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَقَدْ تَكُونُ لِمَنْ هُوَ نَظِيرُ الْمَرْءِ أَوْ سَمِيُّهُ، فَمِنْ هَاهُنَا تَطَرَّقَ الشَّكُّ مَا بَيْنَ أَنْ تَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهَا، أَوْ لَهَا تَأْوِيلٌ كَذَلِكَ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا يَقُولُ فِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: وَلِغَيْرِهِ فِيهِ قَوْلٌ لَا أَرْضَاهُ، فَلَا يَخْلُو نَظَرُهُ ﷺ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ، أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ، وَإِلا فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[النور: ٣٠] وَهُوَ إِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَقُدْوَةُ الْوَرِعِينَ ﷺ». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٤٣٣-٤٣٤].

١٤ ــ صحة جعل العتق صداقًا [سيأتي تفصيله في غزوة خيبر]:

يقول د/ قريبي: «تقدم في حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْـمُؤْمِنِينَ ﵂ قَالَتْ: لَـمَّا قَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ سَبَايَا بَنِي الْـمُصْطَلِقِ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ، وَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا...، فَأَتَتْ رَسُولَ الله ﷺ تَسْتَعِينُهُ فِي كِتَابَتِهَا... فَقَالَ لها ﷺ: «**فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ**»، قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ**»، قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**قَدْ فَعَلْتُ**».

وعند الطحاوي: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدُ قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: ثنا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ: ثنا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبَ إِلَيَّ نَافِعٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ جُوَيْرِيَةَ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا.

أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ.

فَقَدْ رَوَى هَذَا ابْنُ عُمَرَ ﵄، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ كَمَا ذَكَرْنَا، ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مِثْلِ هَذَا، أَنَّهُ يُجَدِّدُ لَهَا صَدَاقًا.

حَدَّثَنَا بِذَلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ شُعَيْبٍ قَالَ: ثنا الْخَصِيبُ قَالَ: ثنا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عُبَيْدِ الله، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَهَذَا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ ﵄، قَدْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْحُكْمَ فِي ذَلِكَ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ، عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ.

فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سَمَاعًا سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ دَلَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي اسْتَدْلَلْنَا بِهِ نَحْنُ عَلَى خُصُوصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ فِي ذَلِكَ [(١)]، بِمَا وَصَفْنَا دُونَ النَّاسِ.

[شرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٢١ رقم ٤٣٠٠ – ٤٣٠١].

قلت: هذا الحديث الذي أيد به الطحاوي الخصوصية لا ينهض لفصل النزاع وذلك للاحتمال الموجود فيه، وحديثه الأول صريح في أن النبي ﷺ أعتق جويرية وجعل عتقها صداقها، والأصل في ذلك الاقتداء به ﷺ حتى تثبت الخصوصية، وهذا الحديث فيه الاحتمال المذكور يبطل الاستدلال، بخلاف جعل العتق صداقًا فإن الأحاديث صريحة في ذلك.

---

(١) استدل الطحاوي على الخصوصية بقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

قال: فلما أباح الله لنبيه أن يتزوج بغير صداق، كان له أن يتزوج على العتاق الذي ليس بصداق، ومن لم يبح الله له أن يتزوج على غير صداق، لم يكن له أن يتزوج على العتاق، الذي ليس صداق.

وهذه الآية التي استدل بها الطحاوي على الخصوصية، استدل بها أيضًا ابن القيم على عدم الخصوصية.

فعند البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والطحاوي «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْتَقَ صَفِيَّةَ وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا». [**البخاري في النكاح (٥٠٨٦، ٥١٦٩)، ومسلم في النكاح (١٣٦٥)، وأبو داود في النكاح (٢٠٥٤)، والترمذي في النكاح (١١١٥)، والطحاوي فيه ٣/ ٢٠**].

وفي لفظ عند البخاري: «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: سَبَى النَّبِيُّ ﷺ صَفِيَّةَ فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَقَالَ ثَابِتٌ لِأَنَسٍ: مَا أَصْدَقَهَا؟ قَالَ: أَصْدَقَهَا نَفْسَهَا فَأَعْتَقَهَا». [**البخاري في المغازي (٤٢٠١)**].

وفي لفظ عند مسلم: «تَزَوَّجَ صَفِيَّةَ وَأَصْدَقَهَا عِتْقَهَا». [**مسلم في النكاح (١٣٦٥)**].

وفي لفظ عندالبخاري من حديث أنس ﷺ أيضًا قَالَ: «صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الصُّبْحَ قَرِيبًا مِنْ خَيْبَرَ بِغَلَسٍ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ... الحديث.

وفيه: «وَكَانَ فِي السَّبْيِ صَفِيَّةُ، فَصَارَتْ إِلَى دَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ لِثَابِتٍ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ آنْتَ قُلْتَ لِأَنَسٍ: مَا أَصْدَقَهَا؟ فَحَرَّكَ ثَابِتٌ رَأْسَهُ تَصْدِيقًا لَهُ». [**البخاري في المغازي (٤٢٠٠)**].

ولفظ مسلم أن دِحْيَةَ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ، فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً**»، فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ الله ﷺ فَقَالَ يَا نَبِيَّ الله، أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ سَيِّدِ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، مَا تَصْلُحُ إِلَّا لَكَ، قَالَ: ادْعُوهُ بِهَا، قَالَ: فَجَاءَ بِهَا فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ غَيْرَهَا**»، قَالَ: وَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَقَالَ لَهُ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ (كنية أنس بن مالك ﷺ خادم رسول الله ﷺ) مَا أَصْدَقَهَا؟ قَالَ: نَفْسَهَا، أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا. [**مسلم في النكاح (١٣٦٥)**].

فهذه الألفاظ كلها صريحة في صحة جعل العتق صداقًا، ومع هذا كله فقد صرفها بعض العلماء عن ظاهرها وأولها بتأويلات بعيدة فيها تكلف، من تلك التأويلات: دعوى الخصوصية لرسوله الله ﷺ، كما تقدم في قول الطحاوي، ومنها أنه ﷺ لما أعتقها وجبت له عليها قيمتها فصح به العقد، ومنها أن هذا شيء قاله أنس بن مالك ﷺ من قِبَل نفسه، لما لم يعلم أن رسول الله ﷺ ساق صداقًا... إلخ.

والذي لا ينبغي العدول عنه في هذه المسألة بالذات هو العمل بما نصت عليه الأحاديث وهي صريحة في هذا؛ لأن الأصل عدم الخصوصية؛ ولأن الراوي أعرف بتأويل ما روى، فما كان لأنس ﷺ أن يقول شيئًا من قِبل نفسه، لا سيما أنه قد ورد عند الطبراني وأبي الشيخ عن صفية نفسها قالت: «**أعتقني وجعل عتقي صداقي**». [**فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/ ١٢٩**].

وهذا يوافق ما قاله أنس ﷺ، وصاحب القصة أدرى بها من غيره.

وقد تعرض لهذه المسألة ابن القيم في زاد المعاد أثناء كلامه على الأحكام الفقهية في غزوة خيبر، وأيد القول بصحة جعل العتق صداقًا، ورد على القائلين بغيره.

وهذا نص كلامه: «وَمِنْهَا (أي من الأحكام الفقهية المأخوذة من غزوة خيبر): جَوَازُ عِتْقِ الرَّجُلِ أَمَتَهُ، وَجَعْلِ عِتْقِهَا صَدَاقًا لَهَا، وَيَجْعَلُهَا زَوْجَتَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهَا، وَلَا شُهُودٍ وَلَا وَلِيٍّ غَيْرِهِ، وَلَا لَفْظِ إِنْكَاحٍ وَلَا تَزْوِيجٍ، كَمَا فَعَلَ ﷺ بِصَفِيَّةَ، وَلَمْ يَقُلْ قَطُّ: هَذَا خَاصٌّ بِي، وَلَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ، مَعَ عِلْمِهِ بِاقْتِدَاءِ أُمَّتِهِ بِهِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ: إِنَّ هَذَا لَا يَصْلُحُ لِغَيْرِهِ، بَلْ رَوَوْا الْقِصَّةَ وَنَقَلُوهَا إِلَى الْأُمَّةِ، وَلَمْ يَمْنَعُوهُمْ، وَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ الِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي ذَلِكَ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ لَـمَّا خَصَّهُ فِي النِّكَاحِ بِالمَوْهُوبَةِ، قَالَ: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لَهُ مِنْ دُونِ أُمَّتِهِ، لَكَانَ هَذَا التَّخْصِيصُ أَوْلَى بِالذِّكْرِ لِكَثْرَةِ ذَلِكَ مِنْ السَّادَاتِ مَعَ إِمَائِهِمْ، بِخِلَافِ المَرْأَةِ الَّتِي تَهَبُ نَفْسَهَا لِلرَّجُلِ لِنُدْرَتِهِ وَقِلَّتِهِ، أَوْ مِثْلُهُ فِي الْحَاجَةِ إِلَى الْبَيَانِ، وَلَا سِيَّمَا وَالْأَصْلُ مُشَارَكَةُ الْأُمَّةِ لَهُ، وَاقْتِدَاؤُهَا بِهِ، فَكَيْفَ يَسْكُتُ عَنْ مَنْعِ الِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي ذَلِكَ المَوْضِعِ الَّذِي لَا يَجُوزُ مَعَ قِيَامِ مُقْتَضَى الْجَوَازِ، هَذَا شِبْهُ المُحَالِ، وَلَمْ تَجْتَمِعْ الْأُمَّةُ عَلَى عَدَمِ الِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي ذَلِكَ، فَيَجِبُ المَصِيرُ إِلَى إِجْمَاعِهِمْ. وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

وَالْقِيَاسُ الصَّحِيحُ: يَقْتَضِي جَوَازَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَمْلِكُ رَقَبَتَهَا، وَمَنْفَعَةَ وَطْئِهَا، وَخِدْمَتِهَا، فَلَهُ أَنْ يُسْقِطَ حَقَّهُ مِنْ مِلْكِ الرَّقَبَةِ، وَيَسْتَبْقِيَ مِلْكَ المَنْفَعَةِ، أَوْ نَوْعًا مِنْهَا، كَمَا لَوْ أَعْتَقَ عَبْدَهُ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْدِمَهُ مَا عَاشَ فَإِذَا أَخْرَجَ المَالِكُ رَقَبَةَ مِلْكِهِ، وَاسْتَثْنَى نَوْعًا مِنْ مَنْفَعَتِهِ، لَمْ يُمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ فِي عَقْدِ الْبَيْعِ، فَكَيْفَ يُمْنَعُ مِنْهُ فِي عَقْدِ النِّكَاحِ، وَلَـمَّا كَانَتْ مَنْفَعَةُ الْبُضْعِ لَا تُسْتَبَاحُ إِلَّا بِعَقْدِ نِكَاحٍ أَوْ مِلْكِ يَمِينٍ، وَكَانَ إِعْتَاقُهَا يُزِيلُ مِلْكَ الْيَمِينِ عَنْهَا، كَانَ مِنْ ضَرُورَةِ اسْتِبَاحَةِ هَذِهِ المَنْفَعَةِ جَعْلُهَا زَوْجَةً، وَسَيِّدُهَا كَانَ يَلِي نِكَاحَهَا، وَبَيْعَهَا مِمَّنْ شَاءَ بِغَيْرِ رِضَاهَا، فَاسْتَثْنَى لِنَفْسِهِ مَا كَانَ يَمْلِكُهُ مِنْهَا، وَلَـمَّا كَانَ مِنْ ضَرُورَتِهِ عَقْدُ النِّكَاحِ مَلَكَهُ؛ لِأَنَّ بَقَاءَ مِلْكِهِ المُسْتَثْنَى لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ، فَهَذَا مَحْضُ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ المُوَافِقِ لِلسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٤٩-٣٥٠] [(١)]. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٣٠-٤٣٧].

١٥ ـ مشروعية قسمة الغنائم بين المقاتلين [(٢)]:

يقول د/ البوطي: «مشروعية تقسيم الغنائم بين المقاتلين، بعد استثناء السلب والخُمس من الغنيمة: فأما السلب فهو ما يكون مع المقتول من سلاح ونحوه، فيجوز أن يأخذه القاتل لقوله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**».

[البخاري في فرض الخُمس (٣١٤٢)، وفي المغازي (٤٣٢٢)، وفي الأحكام (٧١٧٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥١)، وأبو داود في الجهاد (٢٧١٧)، والترمذي في السير (١٥٦٦٢)، ومالك في الموطأ كتاب الجهاد (٩٩٠)].

---

(١) ينظر: زاد المعاد ٢/ ١٦٠، ١/ ٤٣، ٤/ ٢٧، وسبل السلام للصنعاني ٣/ ١٤٨، ونيل الأوطار للشوكاني ٦/ ١٧٥-١٧٦، وشرح ثلاثيات مسند أحمد لمحمد السفاريني ١/ ٣٨٨- ٣٩٠.

(٢) سبق تفصيلها في الدروس المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة بدر، المبحث الثامن: الدروس المستفادة من قضية الأنفال.

وأما الخُمس فهو لمن ذكرهم الله تعالى في كتابه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وأما الأخماس الأربعة فتوزع على المقاتلين كما كان يفعل رسول الله ﷺ، وهذا متفق عليه بين الأئمة في الأموال المنقولة، أما الأرض فقد وقع الخلاف في أمر تقسيمها كما عرضنا له عند الحديث عن أمر بني النضير». [فقه السيرة للبوطي ٢١٨].

ويقول د/ قريبي: «ورد في حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قسم سبايا بني المصطلق وأن جويرية بنت الحارث وقعت في سهم ثابت بن شماس أو ابن عم له. الحديث.

وفي حديث أبي سعيد الخدري ﵁ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَصَبْنَا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ، فَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا الْعُزْبَةُ، وَأَحْبَبْنَا الْعَزْلَ... [سبق تخريجه في حكم العزل].

وقد بينتْ الأحاديث الأخرى كيفية القسمة.

فعند البخاري عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﵄ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَعَلَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِصَاحِبِهِ سَهْمًا.

وفي لفظ: قَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا.

قَالَ (القائل: فسره نافع هو: عبيد الله بن عمر العمري، الراوي عنه. قاله ابن حجر، فتح الباري ٧/ ٤٨٤): فَسَّرَهُ نَافِعٌ فَقَالَ: إِذَا كَانَ مَعَ الرَّجُلِ فَرَسٌ فَلَهُ ثَلَاثَةُ أَسْهُمٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَسٌ فَلَهُ سَهْمٌ.

[البخاري في الجهاد (٢٨٦٣)، وفي المغازي (٤٢٢٨)].

وأورده مسلم بلفظ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَسَمَ فِي النَّفَلِ (بالتحريك: الغنيمة وجمعه أنفال، والنفل بالسكون وقد يحرك الزيادة. النهاية لابن الأثير ٥/ ٩٩، قلت: وهو في الحديث بالتحريك) لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِلرَّجُلِ سَهْمًا.

[مسلم في الجهاد (١٧٦٢)].

وعند أبي داود: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَسْهَمَ لِرَجُلٍ وَلِفَرَسِهِ ثَلَاثَةَ أَسْهُمٍ: سَهْمًا لَهُ، وَسَهْمَيْنِ لِفَرَسِهِ.

[أبو داود (٢٧٣٣، ٢٧٣٤)، وابن ماجه (٢٨٥٤)، كلاهما في الجهاد، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

والأحاديث صريحة في أن للفرس سهمين ولصاحبه سهمًا، فيكون للفارس ثلاثة أسهم، سهم له وسهمان لفرسه، وللراجل سهم واحد.

وبهذا قال الجمهور من العلماء لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة في ذلك، وخالف الأحناف فقالوا: للفارس سهمان فقط سهم له وسهم لفرسه، واحتجوا بما رواه أبو داود من حديث مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيِّ ﵁ أن رسول الله ﷺ: «... أَعْطَى الْفَارِسَ سَهْمَيْنِ، وَأَعْطَى الرَّاجِلَ سَهْمًا».

[أبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، وقَالَ أَبُو دَاوُد: حَدِيثُ أَبِي مُعَاوِيَةَ أَصَحُّ وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ. أي الحديث السابق].

وقد أجاب ابن حجر عن هذا الحديث بأن في إسناده ضعفًا (لأن فيه يعقوب بن مجمع بن يزيد بن جارية الأنصاري، المدني، مقبول من الرابعة. د. التقريب ٢/ ٣٧٧)، ثم قال: ولو ثبت فيكون معناه: أسهم للفارس بسبب فرسه سهمين، غير سهمه المختص به.

وقد رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ومسنده بهذا الإسناد فقال: «للفرس».

ثم قال ابن حجر: وللنسائي من حديث الزبير «أن النبي ﷺ ضرب لـه أربعـة أسـهم وسـهمين لفرسه وسهمًا له وسهمًا لقرابته». (ينظر الحديث في سنن النسائي ٦/ ١٩٠ كتاب الخيل باب سـهمان للخيـل، ولفظـه: «ضرب رسول الله ﷺ عام خيبر للزبير بن العوام أربعة أسهم: سهمًا للزبير وسهمًا لذي القربى، لصـفية بنـت عبـد المطلـب أم الزبير، وسهمين للفرس». والحديث حسن).

[فتح الباري ٦/ ٦٨، وينظر : سبل السلام للصنعاني ٤/ ٥٨، ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٩٩- ٣٠٠].

والقول الراجح في هذا هو ما ذهب إليه الجمهور لقوة أدلتهم في ذلك.

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٢٧-٤٢٩].

١٦ ـ مشروعية دية قتل الخطأ:

يقول د/ أبو فارس: «أخذ هذا من دفع النبي ﷺ دية هشام بن صبابة الذي قتل خطأ لأخيه مقيس بن صبابة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٦].

١٧ ـ عقوبة المرتد القتل:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما حكم به رسول الله ﷺ على مقيس حينما ارتد عن الإسلام وقتل غدرًا قاتل أخيه خطأ، إذ حكم النبي ﷺ بإهدار دمه، يوم فتح مكة وإن كان متعلقًا بأستار الكعبة».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٦].

١٨ ـ النهي عن طرق النساء ليلاً:

إذا كان الرجل في سفر وأراد العودة إلى بيته فلا يجوز للرجـل أن يـأتي أهلـه فجـأة، وخاصـة في هـذا العصر الذي تطورت فيه وسائل الاتصال بين الناس، ولابد له أن يُعْلِمَهُم بوقت رجوعه إليه؛ لما ورد مـن قوله ﷺ وفعله، فقد نهى النبي ﷺ عن طروق النساء ليلًا، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «**إِذَا أَطَالَ أَحَدُكُمْ الغَيْبَةَ فَلا يطْرُقَنَّ**[1] **[يَطْرُقْ] أَهْلَهُ لَيْلًا**».

[صحيح: (حم خ م) عن جابر رضي الله عنه ـ صحيح الجامع الصغير: ٣٥٦].

وقَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: **نَهَانَا رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الطُّرُوقِ إِذَا جِئْنَا مِنَ السَّفَرِ**.

[صحيح: (حم: ١٥١٨٦م١) عن جابر رضي الله عنه].

وقال ﷺ: «**لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا**». [صحيح: (طب) عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ صحيح الجامع الصغير: ٧٣٦٢].

---

(١) **الطروق بالضم**: المجيء بالليل من سفر أو من غيره على غفلة، ويقال لكل آت بالليل طارق ولا يقال بالنهـار إلا مجـازًا... وسمي الآتي بالليل طارقًا لأنه يحتاج غالبًا إلى دق الباب، وقيل: أصل الطروق السكون، ومنه أطـرق رأسـه، فلـما كـان الليل يسكن فيه سمي الآتي فيه طارقًا. فتح الباري ٩/ ٢٥٢.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أقبل من غزوة فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا، وَلا تَغْتَرُّوهُنَّ** (أي لا تتشددوا عليهم)»، وبعث راكبًا إلى المدينة بأن الناس داخلون بالغداة.

[إسناده صحيح: (الخرائطي في مساوئ الأخلاق٨٤٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما ـ وقال محققه: «أورده صاحب كنز العمال (١٧٦٠٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة في مصنفيهما، وجعلاه موقوفًا على ابن عمر»].

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لا يَطْرُقُ أَهْلَهُ [لَيْلًا]، كَانَ [يَأْتِيهِمْ] لا يَدْخُلُ إِلا غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً.**

وفي رواية لأحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: **كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لا يَطْرُقُ أَهْلَهُ لَيْلًا، كَانَ يَقْدَمُ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً.** [صحيح: (حم خ م ن) عن أنس رضي الله عنه ـ صحيح الجامع الصغير: ٤٨٦٢].

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكْرَهُ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طُرُوقًا.**

[صحيح: (خ) عن جابر رضي الله عنه ـ كتاب النكاح باب لا يطرق أهله ليلًا إذا أطال الغيبة].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ لَيْلًا فَتَعَجَّلَ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَإِذَا فِي بَيْتِهِ مِصْبَاحٌ، وَإِذَا مَعَ امْرَأَتِهِ شَيْءٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: إِلَيْكَ إِلَيْكَ عَنِّي، فُلانَةُ تُمَشِّطُنِي، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، **فَنَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا.** [إسناده صحيح: (الخرائطي في مساوئ الأخلاق٨٤٥) عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وقال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم ٤/ ٢٩٣ من طريق آخر مرسلًا، ورواه أحمد عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: مسند أحمد ٢٥/ ١١ رقم ١٥٧٣٦ ، وقال الشيخ الأرناؤوط: مرفوعه صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه].

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: **نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ أَهْلَهُ لَيْلًا.**

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: **إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ بَعْدَ صَلاةِ العِشَاءِ.**

وفي رواية: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: **نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا، أَوْ [أن] يُخَوِّنَهُمْ، أَوْ يَلْتَمِسَ عَثَرَاتِهِمْ.** [صحيح: (حم خ م مي) عن سعد بن أبي وقاص وجابر بن عبد الله وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وأورده الإمام الخرائطي عن جابر رضي الله عنه بلفظ: «نهانا رسول الله ﷺ أن نطرق أهلنا ليلًا إذا قدمنا من سفر». وحسن محققه إسناده برقم ٨٤٠].

يعني لا يفاجئهم تهمة وتخونًا.

وفي رواية لأحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: **كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَنْهَى أَحَدَنَا إِذَا جَاءَ مِنْ سَفَرٍ أَنْ يَطْرُقَ أَهْلَهُ، قَالَ: فَطَرَقْنَاهُنَّ بَعْدُ.**

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، قَالَ: فَاسْتَأْذَنْتُ أَتَعَجَّلُ، قُلْتُ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ، قَالَ: **ثَيِّبًا أَمْ بِكْرًا؟** قَالَ: قُلْتُ: ثَيِّبًا، قَالَ: **فَأَلا كَانَتْ بِكْرًا تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ؟** قَالَ: **انْطَلِقْ وَاعْمَلْ عَمَلًا كَيِّسًا**، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَعْنِي لا تَطْرُقْهُنَّ لَيْلًا.

وفي رواية: قَالَ ﷺ: **أَصَبْتَ إِنْ شَاءَ اللهُ**، قَالَ: **أَمَا إِنَّا لَوْ قَدْ جِئْنَا صِرَارًا** (بئر قديمة على ثلاثة أميال من المدينة) **أَمَرْنَا بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَسَمِعَتْ بِنَا فَنَفَضَتْ نَمَارِقَهَا**، قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا مِنْ نَمَارِقَ، قَالَ: **إِنَّهَا سَتَكُونُ، فَإِذَا أَنْتَ قَدِمْتَ فَاعْمَل عَمَلًا كَيِّسًا**.

قَالَ: فَلَمَّا جِئْنَا صِرَارًا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، فَأَقَمْنَا عَلَيْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللهِ ﷺ دَخَلَ وَدَخَلْنَا. [مسند أحمد ٢٣/ ١٧٢، ٢٧١ رقم ١٤٨٩٦، ١٥٠٢٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح، وقد زاد الإمام الخرائطي في بدايته «لا تأتي أهلك طروقًا»، وحسن محققه إسناده رقم ٨٤٤].

ويبين النبي ﷺ الحكمة من هذا النهي، ففي حديث جابر ﵁ قَالَ: «فَلَمَّا قَدِمْنَا ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ - أي المدينة - فَقَالَ ﷺ: «**أَمْهِلُوا حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلًا - أَيْ عِشَاءً - لِكَيْ تَمْتَشِطَ** (تسرح شعرها وتصلحه) **الشَّعِثَةُ** (منتفشة الشعر)، **وَتَسْتَحِدَّ** (الاستحداد: إزالة الشعر النابت حول العورة) **الْمُغِيبَةُ** (مَنْ غاب عنها زوجها)».

[صحيح: (خ م د ن حب) **عن جابر** ﵁ **- صحيح الجامع الصغير: ١٤٠٤**، وجاء برواية: «**إذا دخلت ليلًا فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة**». (خ) عن جابر ﵁ - صحيح الجامع ٥٢٥، وبرواية: «**إذا قدم أحدكم ليلًا فلا يأتين أهله طروقًا حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة**». (حم م) عن جابر ﵁ - صحيح الجامع الصغير: ٧٢٥].

قال الحافظ ابن حجر: «وَقَوْلُهُ فِي طَرِيقِ عَاصِمٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرٍ ﵁ «**إِذَا أَطَالَ أَحَدُكُمْ الْغَيْبَةَ فَلا يَطْرُقُ أَهْلَهُ لَيْلًا**» التَّقْيِيدُ فِيهِ بِطُولِ الْغَيْبَةِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ عِلَّةَ النَّهْيِ إِنَّمَا تُوجَدُ حِينَئِذٍ، فَالْحُكْمُ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وُجُودًا وَعَدَمًا، فَلَمَّا كَانَ الَّذِي يَخْرُجُ لِحَاجَتِهِ مَثَلًا نَهَارًا وَيَرْجِعُ لَيْلًا لا يَتَأَتَّى لَهُ مَا يُحْذَرُ مِنَ الَّذِي يُطِيلُ الْغَيْبَةَ كَانَ طُولُ الْغَيْبَةِ مَظِنَّةَ الأَمْنِ مِنَ الْهُجُومِ، فَيَقَعُ الَّذِي يَهْجُمُ بَعْدَ طُولِ الْغَيْبَةِ غَالِبًا عَلَى مَا يُكْرَهُ، إِمَّا أَنْ يَجِدَ أَهْلَهُ عَلَى غَيْرِ أُهْبَةٍ مِنَ التَّنَظُّفِ وَالتَّزَيُّنِ الْمَطْلُوبِ مِنَ الْمَرْأَةِ، فَيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبُ النَّفْرَةِ بَيْنَهُمَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ الْبَابِ الَّذِي بَعْده بِقَوْلِهِ: «**كَيْ تَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ، وَتَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ**».

وَيُؤْخَذُ مِنْهُ كَرَاهَةَ مُبَاشَرَةِ الْمَرْأَةِ فِي الْحَالَةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا غَيْرَ مُتَنَظِّفَةٍ؛ لِئَلا يَطَّلِعَ مِنْهَا عَلَى مَا يَكُونُ سَبَبًا لِنَفْرَتِهِ مِنْهَا، وَإِمَّا أَنْ يَجِدَهَا عَلَى حَالَةٍ غَيْرِ مُرْضِيَةٍ، وَالشَّرْعُ مُحَرِّضٌ عَلَى السَّتْرِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**أَنْ يَتَخَوَّنَهُمْ وَيَتَطَلَّبَ عَثَرَاتِهِمْ**»، فَعَلَى هَذَا مَنْ أَعْلَمَ أَهْلَهُ بِوُصُولِهِ، وَأَنَّهُ يَقْدُمُ فِي وَقْتِ كَذَا مَثَلًا لا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا النَّهْيُ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ اِبْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ، ثُمَّ سَاقَ مِنْ حَدِيثِ اِبْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ غَزْوَةٍ فَقَالَ: **لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ**، وَأَرْسَلَ مَنْ يُؤَذِّنُ النَّاسَ أَنَّهُمْ قَادِمُونَ».

قَالَ اِبْنُ أَبِي جَمْرَةَ نَفَعَ اللهُ بِهِ: فِيهِ النَّهْيُ عَنْ طُرُوقِ الْمُسَافِرِ أَهْلَهُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْ غَيْرِ تَقَدُّمِ إِعْلامٍ مِنْهُ لَهُمْ بِقُدُومِهِ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَتْ إِلَيْهِ الإِشَارَةُ فِي الْحَدِيثِ.

قَالَ: وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فَرَأَى عِنْدَ أَهْلِهِ رَجُلًا، فَعُوقِبَ بِذَلِكَ عَلَى مُخَالَفَتِهِ. ا. هـ.

وَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ عَنْ ابْنِ عُمَر ﭭ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تُطْرَقَ النِّسَاءُ لَيْلًا، فَطَرَقَ رَجُلانِ، كِلاهُمَا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ مَا يَكْرَهُ»، وَأَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاس نَحْوَهُ وَقَالَ فِيهِ: «فَكِلاهُمَا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا». (1)

وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ مُحَارِبٍ عَنْ جَابِرٍ ﭬ «أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ رَوَاحَةَ ﭬ أَتَى امْرَأَتَهُ لَيْلًا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ تُمَشِّطُهَا فَظَنَّهَا رَجُلًا، فَأَشَارَ إِلَيْهَا بِالسَّيْفِ، فَلَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا». أَخْرَجَهُ أَبُو عَوَانَةَ فِي صَحِيحِهِ. [وقد سبق تخريجه عن أحمد في مسنده].

وَفِي الحَدِيثِ الحَثُّ عَلَى التَّوَادِّ وَالتَّحَابِّ خُصُوصًا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ لأَنَّ الشَّارِعَ رَاعَى ذَلِكَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَعَ اطِّلَاعِ كُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى مَا جَرَتِ العَادَةُ بِسِتْرِهِ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لا يَخْفَى عَنْهُ مِنْ عُيُوبِ الآخَرِ شَيْءٌ فِي الغَالِبِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَنَهَى عَنِ الطُّرُوق لِئَلا يَطَّلِعَ عَلَى مَا تَنْفِرُ نَفْسُهُ عَنْهُ، فَيَكُون مُرَاعَاةُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الزَّوْجَيْنِ بِطَرِيقِ الأَوْلَى، وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ الاسْتِحْدَادَ وَنَحْوَهُ مِمَّا تَتَزَيَّنُ بِهِ المَرْأَةُ لَيْسَ دَاخِلًا فِي النَّهْيِ عَنْ تَغْيِيرِ الخِلْقَةِ، وَفِيهِ التَّحْرِيضُ عَلَى تَرْكِ التَّعَرُّضِ لِمَا يُوجِبُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ». [فتح الباري ٩/ ٢٥٢].

ويعلق صاحب الظلال على قوله ﷺ: «**أَمْهِلُوا حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلًا - أَيْ عِشَاءً - لِكَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ، وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ**» بقوله: «إلى هذا الحد من اللطف والدقة بلغ حس رسول الله ﷺ وصحابته ﭫ، بما علَّمهم الله من ذلك الأدب الرفيع الوضيء، المشرق بنور الله.

ونحن اليوم مسلمون، ولكن حساسيتنا بمثل هذه الدقائق قد تبلدت وغلظت، وإن الرجل ليهجم على أخيه في بيته، في أية لحظة من لحظات الليل والنهار، يطرقه ويطرقه ويطرقه فلا ينصرف أبدًا حتى يزعج أهل البيت فيفتحوا له، وقد يكون في البيت هاتف (تليفون) يملك أن يستأذن عن طريقه، قبل أن يجيء، ليؤذن له أو يعلم أن الموعد لا يناسب؛ ولكنه يهمل هذا الطريق ليهجم في غير أوان،

---

(١) وروى الترمذي عَنْ جَابِرٍ ﭬ **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَاهُمْ أَنْ يَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا**، وَفِي البَابِ عَنْ أَنَسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ جَابِرٍ ﭬ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭭ **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَاهُمْ أَنْ يَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا، قَالَ: فَطَرَقَ رَجُلانِ بَعْدَ نَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا**. الترمذي في الاستئذان والآداب (٢٧١٢)، وقد رواه الدارمي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭭ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا، قَالَ: وَأَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ قَافِلًا** (راجعًا) **فَانْسَاقَ رَجُلانِ إِلَى أَهْلَيْهِمَا، فَكِلاهُمَا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا**، وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: **كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ نَزَلَ الْمُعَرَّسَ ثُمَّ قَالَ: لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا، فَخَرَجَ رَجُلانِ مِمَّنْ سَمِعَ مَقَالَتَهُ فَطَرَقَا أَهْلَيْهِمَا فَوَجَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا**» - سنن الدارمي في المقدمة (٤٤٤، ٤٤٥)، وروى أحمد عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﭭ **أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَزَلَ العَقِيقَ فَنَهَى عَنْ طُرُوقِ النِّسَاءِ اللَّيْلَةَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا، فَعَصَاهُ فَتَيَانِ، فَكِلاهُمَا رَأَى مَا كَرِهَ**». المسند: ٥٨١٤، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

وعلى غير موعد، ثم لا يقبل العرف أن يُرَدَّ عن البيت ـ وقد جاء ـ مهما كره أهل البيت تلك المفاجأة بلا إخطار ولا انتظار!

ونحن اليوم مسلمون، ولكننا نطرق إخواننا في أية لحظة في موعد الطعام، فإن لم يقدم لنا الطعام وجدنا في أنفسنا من ذلك شيئًا! ونطرقهم في الليل المتأخر، فإن لم يدعونا إلى المبيت عندهم وجدنا في أنفسنا من ذلك شيئًا! دون أن نقدر أعذارهم في هذا وذاك!

ذلك أننا لا نتأدب بأدب الإسلام؛ ولا نجعل هوانا تبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ إنما نحن عبيد لعرف خاطىء، ما أنزل الله به من سلطان!

ونرى غيرنا ممن لم يعتنقوا الإسلام، يحافظون على تقاليد في سلوكهم تشبه ما جاء به ديننا ليكون أدبًا لنا في النفس، وتقليدًا من تقاليدنا في السلوك، فيعجبنا ما نراهم عليه أحيانًا؛ ونتندر به أحيانًا، ولا نحاول أن نعرف ديننا الأصيل، فنفيء إليه مطمئنين». [في ظلال القرآن ٤/ ٢٥١٠].

المطلب الرابع

الدروس الاجتماعية

١ ـ استهداف مصلحة الدعوة من الزواج:

يقول د/ الزيد: «كان في زواجه ﷺ من جويرية بنت الحارث تكريمًا لتلك القبيلة العربية التي كانت من أعز قبائل العرب وأكبرها قدرًا وقد وقعوا في الأسر، ولما علم الصحابة بتزوج الرسول ﷺ منهم قالوا: أصهار رسول الله، فأطلقوا مَنْ بأيديهم من النساء والولدان، وهو حَلٌّ كريم لهذه المشكلة الكبيرة التي يؤدي بقاؤها إلى إذلال هذه القبيلة العظيمة، ولقد كان لهذا الحل أثره الكبير عليهم حيث أقبلوا مسلمين راغبين في الدخول في الدين. [ينظر: النهج المحمدي لعبد العزيز المسند ص ١٦١، والسيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٥٣- ٢٥٤]. [فقه السيرة للزيد ٤٧٦-٤٧٧].

ويقول د/ فيض الله: «إن إحلال زواج النبي ﷺ بما فوق الأربع وبما دونها، ثم تحريمه، كان بأمر الله وإذنه ووحيه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾[الأحزاب: ٥٠]، وقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾[الأحزاب: ٥٢].

ومهما يكن في جويرية رضي الله عنها من ملاحة وجمال، ففي بعض أمهات المؤمنين ملاحة وحسن وجمال، وما يصح أن يكون الحُسن وحده هو الباعث على الزواج في نظام الإسلام، وفي توجيهات النبوة، وقد عرفنا أن جويرية رضي الله عنها كانت بنت الحارث سيد قومه، ووقعت في قِسمة الغنائم في سهم أحد الأنصار، فافتدت نفسها منه، فأغلى فداءها؛ لمكانتها من قومها، وزعامة أبيها، فاستعانت بالنبي ﷺ فلبَّاها لذلك، وقضى كتابتها وتزوجها.

ولو أراد النبي ﷺ أن يصطفيها لحسنها، لاصطفاها قبل قسمة الغنائم، لكن الزواج منها كان لأمر أبعد من ذلك وأسمى، وهو الطمع في إسلام قومها؛ وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعز الإسلام، ومن لك بإسلام قبيلة كاملة، بأي سبيل؟

إنها الحكمة الدينية البعيدة، وليست الغرض النفسي القريب، ولا قضاء الوطر، ولا إشباع الرغبات الجنسية الحرَّى، كما يلغو بذلك بعض المستشرقين والمستغربين.

ومن أجل الإخلاص في استهداف المصلحة الإسلامية البعيدة، يسَّر الله هذا الزواج، وباركه، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه، فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث.

أترى لو بقيت جويرية رضي الله عنها عند ذلك الأنصاري، الذي وقعت في سهمه، أكان في الوسع أن تتحقق هذه المصلحة الإسلامية العظيمة؟

إن الحكمة الحكيمة، كانت تكمن في هذا الزواج، الذي عاد على المسلمين بالبركة والقوة، والدعم المادي والأدبي معًا، للإسلام والمسلمين.

فأين من هذا السمو في الزواج النبوي، تحرضات المتحيزين، من أهل الكفر ومن بعض أهل الإيمان المتأثرين بهم، ووصفهم النبي ﷺ بذي الولع المفرط بمفاتن المرأة، والرغبة الجنسية العارمة، مما لا يليق بآحاد الناس الماديين، فضلًا عن سيد الناس، الذي غَيَّر وجه التاريخ، وسما بالإنسانية إلى أَوْجِّها، الذي قدره لها علام الغيوب، وما يزال يهديه، وبشريعته بطبيعتها الكاملة، قادرًا على هذا التغيير والسمو، كلما التُمِسَ المنقذ من هذا الضلال المادي المسرف المهلك الهابط؟». [صور وعبر لفيض الله ١٩٩-٢٠١].

ويقول د/ قريبي: «إن الحكمة تتجلى في موقفها أمام رسول الله ﷺ تذكر ما آل إليه أمرها، وما تجده من المرارة والأسى على ما حل بقومها؛ لأنها لا تعرف الذل والهوان، فهي ابنة سيد قومه، وقد رزئت بكارثة عظمى، فقتل زوجها ومقاتلة قومها وسبي النساء والذرية، ووقعت تحت ذل الرق والعبودية، فكاتبت على نفسها لتظفر بحريتها، ولكنها عجزت عن أداء كتابتها فجاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله المواساة والمساعدة على أداء كتابتها، فوقفت أمامه تُعرِّفه بنفسها ومكانتها في قومها، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فوقعتُ في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو ابن عم له، فكاتبتُه على نفسي، فجئتُك، أستعينك على كتابتي، فرقَّ رسول الله ﷺ لحالها وعرض عليها أن يؤدي عنها كتابتها ويتزوجها ليرفع من شأنها ويعوضها خيرًا مما فقدته من العز والشرف والسنا؛ لأن بقاء مثلها عند أحد أفراد الجيش مما يزيد الأسى في نفسها، ومن ناحية أخرى ليعيد ﷺ إلى قومها العزة والكرامة، فكان زواجه ﷺ منها سببًا في إطلاقهم من قيود الأسر،

وقد وقع ما أراده ﷺ، فما أن تزوج جويرية حتى تسامع المسلمون بذلك، ففكوا جميع الأسرى الذين بأيديهم من بني المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، وعادت الحرية إلى القبيلة بأكملها وصاروا محل عناية واحترام عند المسلمين.

وهكذا كان زواج رسول الله ﷺ من جويرية بركة على قومها وعزًا لها ورفعة لقومها من الهوان الذي لحقهم، وبذلك يمكن لنا أن نستجلى بعض الحكمة في زواجه ﷺ منها».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٨٥-٤٨٦].

٢ ـ أهمية البيت في تنشئة الأبناء:

يقول الشيخ عرجون: «كانت السيدة جويرية بنت الحارث سيد قومه قد نشأت في ظل سيادة أبيها لقومه في عزة وسؤدد وتمجد، وللبيوت أعظم الأثر في تنشئة ناشئيها، وتربية بناتها وبنيها، وقد تزوجت جويرية في حداثة سنها قبل أن يغزو النبي ﷺ قومها، وكان زوجها مسافع بن صفوان أحد فتيان خزاعة، جِذْم بني المصطلق، وأصل دوحتهم، اقترنت به في حداثة سنها قبل أن تتم العقد الثاني من عمرها، وقد قُتل عنها زوجها مسافع مشركًا فيمن قُتل من بني المصطلق الذين أسرعوا إلى القتال، فجندلتهم السيوف المسلمة.

والسيدة جويرية ﵂ كانت على حداثة سنها حين سُبيت قد زينها الله تعالى بعقل رصين، وتفكير حصيف، وخلق كريم، وحسن تَأَتٍّ للأمور، وفصاحةٍ تعرف مواقع الكلام وتأثيره في النفوس الكريمة، وتعزز لا يصبر على الضيم، وسؤدد سما بها عن الرضا بمذلة الرق والتطلع إلى الحرية الكريمة، فرضيت بما كاتبت عليه ثابت بن قيس الأنصاري ﵁ على بَهْظه؛ لأنها كانت نظَّارة إلى معالي الأمور، تخوض لها لجج المكارم لتجلس على ذروتها.

تصفها أم المؤمنين عائشة ﵂ فتقول: وكانت امراة حلوة ملاحة، أي ذات بهجة وحسن منظر».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٢].

٣ ـ عظمة حرية الإنسان:

يقول الشيخ عرجون: «وكان من سمو نفسها وطموح آمالها ورفعة تصوراتها، أنها بعد أن كاتبت على نفسها بهذا القدر الباهظ من المال أن جاءت إلى سيد المكرمات والمكارم، وأكرم البشر، وأعلمهم بمنازل الناس، وأحقهم أن تمد إليه يد العرفان لانتشاله من وهدة ألقته فيها أعاصير الدبور الجاهلية، فباعدت بينه وبين حياته التي كانت كلها نسائم من الصبا، ورشحات من ندى رغد العيش الرفيف ـ محمد ﷺ ـ وهو الذي هزم قومها، وأسر رجالهم، وسبى نساءهم وذراريهم بالأمس القريب، فكانت إحدى سبايا قومها،

وهي بنت سيدهم، ووقعت في سهم رجل من كواهل المسلمين وفصحاء الأنصار، ثابت بن قيس بن شماس ﷺ، خطيب رسول الله ﷺ في محافل المنافرات، فلم تصبر على بلاء الرق ـ تستعينه على الخروج من سجن حريتها لتتنفس عبير الكرامة وتستشعر العزة التي كانت تتقلب بين أزاهرها، وطلبت منه ﷺ أن يعينها، وأخبرته بخبرها فقالت: يا رسول الله ﷺ إني امرأة مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله ﷺ، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وكان من أمري ما لا يخفى عليك، وفي رواية أنها قالت: قد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبني على ما لا طاقة لي به ولا يدان لي ولا قدرة عليه، وهو تسع أواق من الذهب، وما أكرهني على ذلك إلا أني رجوتك صلى الله عليك، وجئتك أسألك في كتابتي.

هيه يا أقدار الغيب! ماذا كتبت ألواحك الأزلية لجويرية بنت الحارث المصطلقية؟ هل ستعود إلى حظائر بني المصطلق وتحقق لها آمالها في الحرية، وفي زواجها من أحد فتيانهم؟ هذا أقصى ما كانت تتمناه، أن يخف عنها ثقل كتابتها، وأن تتحرر، وأن تعود إلى خدرها في بني المصطلق، ولكن أقدار الغيب قالت للحياة: لا، ليس هذا مكان هذا النبل المتسامي بمشاعره إلى ذرى الشموخ، بل مكانها أن ترتفع فوق ما تخيلته من عظائم آمالها، فاكتبوها على قدر مكانها من عظمة من جاءته لتسأله أن يعينها في كتابتها لتُتحرر من العبودية وتعود حرة كريمة على نفسها وعلى قومها، لا إلى خدور حرائر بني المصطلق لتكون كما كانت قبل سبيها سيدتهن؛ لأنها بنت سيدهن، ولم يحملها على الرضا بهذه الكتابة الباهظة التي لا تطيقها، ولا يدان لها بها، ولا تقدر عليها إلا رجاوتها في مكارمه ﷺ؛ لتحقيق هذه العظيمة في نظرها؛ ولهذا جاءته تسأله في كتابتها، ولكن تساوموا بها فوق هامات آمالها إلى ميزان مكارم من وضعت رحال رجاوتها بين يديه لتكون معه في أعلى عليين، أُمًّا للمؤمنين، وحليلة سيد الأولين والآخرين ﷺ.

ذلك أمر أُبرم قبل أن تخلق دنيا الناس، وقبل أن تأتي جويرية إلى الحياة، بل قبل أن تكون على الأرض حياة، فليأخذ محمد ﷺ بيدها وليطيرها معه إلى ربض الفراديس، وإلى أرفع منزلة في الجنان ليخرجها وهي تضع رجاوتها وآمالها بين يديه من سجن الرق والعبودية لغير الله تعالى إلى آفاق السؤدد والعزة ولتكن زوجًا لأكرم البشر، ولتكن أُمًّا للمؤمنين، ثابت بن قيس، ومن فوقه، ومن دونه من سائر أبناء هذه الحياة من المؤمنين والمؤمنات، وسيدة من سيدات نساء العالمين.

أي قلم يستطيع أن يصور مشاعر السيدة الجليلة جويرية وقد صارت بكلمة واحدة أُمًّا للمؤمنين وزوجة لسيد المرسلين ﷺ: ليت للقلم قدرة على تصوير المعالم النفسية التي أفعمت كل ذرة في إحساس السيدة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، واستأثرت

بمشاعرها لحظة أن قال لها سيد الأولين والآخرين وهي تسأله في كتابتها: «**هل لك في خير من ذلك؟**»، فقالت: وما هو يا رسول الله؟ وهذا سؤال من طوَّفت به أنوار الغيب فأضاءت له آفاق الحياة ليرى بخياله وأحلامه مكانه الجديد منها، فقال لها ﷺ: «**أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك**».

وافرحة الأبد! أي غيث رويٍّ هذا الذي جادت به سماء الغيب لتسقي بنميره قلبًا كان قبل لحظة يتحرق تطلبًا لأدنى درجات الحرية البشرية، فماذا جرى في صحف المقادير؟ أهذا حُلُمُ نائمٍ؟ أم حقيقة يقظان بدَّلته المقادير حياة بحياة، فرفعته من حضيض العبودية الإنسانية إلى قمة العز والسؤدد، وبوأته ذروة السمو الإنساني؟ وأي سمو أسمى وأجل وأعظم من هذا الذي تسمعه جويرية بنت الحارث المصطلقية من سيد الخلق محمد ﷺ، وقد جاءت إليه تسأله أن يعينها على أداء كتابتها التي لا طاقة لها على أدائها، ولا قدرة لها عليها، وقد رجته لها، وهو الذي يُرجى للعظائم «**أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك**».

وكانت جويرية حين تكلم رسول الله ﷺ، وتسمع كلامه مليئة الفؤاد بالأمل المرجى، تتكلم وتسمع وهي ثابتة الجأش، رابضة القلب، ساكنة الفؤاد، مضيئة الروح، كأنما تقرأ آيات مستقبلها في صحف الغيب بعيني بصيرتها، فأجابت رسول الله ﷺ، فلم تتلعثم، ولم تتردد، ولم تتأن، ولم تتريث، ولكنها أسرعت بروحها وقلبها وعقلها ووجدانها ومشاعرها وهي تملي على لسانها: **نعم، يا رسول الله، قد فعلت**». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٢-٢٤٥].

٤ ـ بركة جويرية رضي الله عنها على قومها بصهرهم لسيد البشر ﷺ:

يقول الشيخ عرجون: «أجل، أبرم في الأرض ما كان مبرمًا في السماء، وجفت الصحف ورفعت الأقلام، ودخلت السيدة جويرية إلى خدرها أُمًّا للمؤمنين، وزوجًا لمحمد ﷺ، وخرج النبأ العظيم همسًا إلى الناس، فتسامعوه بينهم، وتعالموه في محافلهم، وأضاء حديثه الآفاق، كما يضيء لمع البرق في السماء، وقال المسلمون: إن رسول الله ﷺ قد تزوج السيدة جويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنها، فأرسلوا كلهم ما في أيديهم من السبي وقالوا متعاظمين: **هم أصهار رسول الله ﷺ**.

قالت عائشة رضي الله عنها تصور هذا الموقف النبيل في جميع جوانبه بأوجز وأبرع أسلوب: **فما رأينا امرأة أعظم بركة على قومها منها، فلقد اعتق الله تعالى بها مائة أهل بيت من بني المصطلق**.

هذه هي أشهر الروايات في قصة جويرية وزواج رسول الله ﷺ بها، وما كان في هذا الزواج من خير وفضل على قومها في عتقهم من رق العبودية بسببه، وانطلاقهم أحرارًا في حياتهم؛ لأنهم صاروا أصهار رسول الله ﷺ.

روايات أخرى في قصة زواج رسول الله ﷺ جويرية رضي الله عنها: وفي رواية عند الواقدي أن رسول الله ﷺ أرسل إلى ثابت بن قيس عندما أخبرته خبر كتابتها، فقال ثابت يجيب رسول الله ﷺ: **هي لك يا رسول الله بأبي وأمي**، فأدى ﷺ ما كان من كتابتها، وأعتقها وتزوجها.

وروى البيهقي عن جويرية، قالت: رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليال كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أُخبر أحدًا، فلما سبينا رجوت الرؤيا، فاعتقني وتزوجني.

وذكر ابن هشام أن النبي ﷺ اشتراها من ثابت بن قيس، واعتقها وتزوجها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وفي روايةٍ ذكرها شارح المواهب أن أباها جاء بفدائها، وكان الفداءُ قطيعًا من الإبل، ولكنه لما دنا من المدينة غيَّب عنها بعيرين في شعاب العقيق، كانا قد أعجباه، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقال له: **يا محمد، هذا فداء ابنتي**، فقال له رسول الله ﷺ: «**فأين البعيران اللذان غيبتهما في العقيق في شِعب كذا، وكذا**»، فقال الحارث: **أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فو الله ما اطلع على ذلك إلا الله**، فأسلم الحارث، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، ودفع الإبل إلى رسول الله ﷺ، ودفع رسول الله ﷺ إليه ابنته جويرية فأسلمت معهم وحسن إسلامهم، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وعند ابن سعد من مرسل أبي قلابة: سبى رسول الله ﷺ جويرية وتزوجها، فجاء أبوها فقال لرسول الله ﷺ: إن ابنتي لا يُسبى مثلها فخلِّ سبيلها، فقال له رسول الله ﷺ: «**أرأيت إن خيرتها أليس قد أحسنت؟**»، قال أبوها: بلى، فأتاها أبوها فقال: **إن هذا الرجل قد خيرك فلا تفضحينا**، فقالت: **فإني أختار الله ورسوله**.

نفحات السماء كانت هي المختارة للسيدة جويرية طريقها إلى أعز وأشرف حياة:

وهذه نفحة من نفحات الإنعام الإلهي الذي جرت به أقلام المقادير على صحف الغيب، أملى آياتها العقل الحصيف، والرأي الموفق الرصين وخط حروفها الإيمان الراسخ الرزين، وأوحى بها الفكر المتسامي عن رغائب الأرض في ترف البيت المتسيدة فيه بمواريث الجاهلية التي لا تعرف إلا فرشًا وثيرًا، وطعامًا شهيًا، وشرابًا هنيًا، وذواقًا مريًا بين أتراب ضواحك، يُنعَّمن لكل رغيبة لسيدة النديِّ، والحياة المعطلة بالترف عن الحركة النفسية أو الفكرية، أو البدنية تتصنع بالفراغ الملول لتملأ به جو الندى سمومًا قواتل، تستحليها الضواحك لتقتل بها شبح الفراغ استحلاء النسيم في وجه الصباح النديِّ بِطَلِّ الربيع.

وإلا فما الذي يحمل امرأة مثل جويرية بنت سيد قومها بني المصطلق على سرعة رضاها وهي في عمر الزهرة التي تطل من برعمها متنفسة أنفاس الحياة مع ندى الصباح في الربيع.

أجل، لقد وضعتها مقادير الغيب وضعًا ضاقت به نفسها فلم تحتمل إحكام حلقاتها حول عنق حريتها إذ أُخذت سَبِيَّة بين سبايا قومها، وهي بنت سيدهم، فكوتبت لتفتدي حريتها كتابة تعجز عن أدائها، ولم يحملها على قبول ما لا طاقة لها به إلا أنها ألقت بآمالها ورجاواتها بين يدي أكمل البشر وأكرم الخلق محمد ﷺ، وجاءته تسأله في كتابتها، وهو ﷺ في بيت أم المؤمنين عائشة ﵂».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٥-٢٤٧].

٥ ـ غيرة النساء أمر طبيعي في حدود الاعتدال:

يقول الشيخ عرجون: «قالت عائشة ﵂ تصف جويرية فأنصفتها: **(وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه)**، والمُلاحة وصف مبالغة في الملاحة، وهي استواء مواطن الحسن والحلاوة، وهي من قولهم طعام مليح إذا كان فيه من الملح بقدر ما يصلحه، فيطيب طعمه، قال السهيلي في الروض: ولذلك إذا بالغوا في المدح قالوا: مليح قزيح، فمليح من ملحت القدر، وقزيح من قزحتها أي طيبت نكهتها بالأفاوية، وهي الأقزاح.

ثم قالت عائشة ﵂ : فو الله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت، وهذا القول من السيدة عائشة ﵂ إنما هو نفثة من نفثات الغَيْرة على رسول الله ﷺ لشدة حبها له ﷺ وغيرتها عليه، وكان لهذه الغيرة عند عائشة ﵂ في حياتها معه ﷺ مظاهر أكثر مما كان عند غيرها من الزوجات الطاهرات، وفي حياتهن معه ﷺ أكثر من دليل على أن عائشة ﵂ كانت تعيش معه ﷺ ذروة هذه الغيرة التي استحوذت على مشاعرها». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٧].

٦ ـ رسول الله ﷺ أكمل البشر حسًّا إنسانيًّا وأصفاهم طبيعة وأذوقهم لحلاوة الكمال الإنساني حسًّا ومعنى:

يقول الشيخ عرجون: «ورسول الله ﷺ قد أوتي من صفاء الطبيعة البشرية ما لم يؤته أحد من الخلق، فكان ﷺ سوي المزاج، عليمًا بمواقع الذوق الكمالي في خصائص الإنسان.

وقد أضفى الله تعالى على رسوله ﷺ من الكمال الإنساني في جميع مواقعه من الطبيعة البشرية، ومنحه من الاعتدال الحسي والمعنوي ما ميزه به وفضله على سائر أفراد البشر، وجمع له به مظاهر الاستواء في تذوق كل كمال أوتيه الإنسان في تقويمه الحسي، ومداخل نفسه، فلا تتفاوت جوانب طبيعته ﷺ في تذوق طعم هذا الكمال.

ومن ثم كان تذوقه للكمال الإنساني، وإحساسه به مستوى جوانب الإدراك لمواقع الاسترواح الجمالي في كل ما تستحليه النفوس الكريمة حسًّا ومعنى، وفي كل ما تستطيبه الأمزجة المتوازية في عناصرها وميولها.

وفي هذا الإطار من الطبيعية الكمالية التي جُبل عليها رسول الله ﷺ ينبغي أن توضع الخطوط الراسمة لتذوقه ﷺ طعم الكمال في مستويات البشرية، وفي مستويات الجمال الكوني الممثلة في عناصر الكون الطبيعية التي هي منابع الجمال فيه؛ لأنه ﷺ أوتي من صفاء الطبيعة البشرية ما لم يؤته أحد من العالمين، وهذا الكمال المتوازن في صفاء الطبيعة البشرية هو المقصود بكمال الرجولية المطلق في كملة البشر، فلا حرج قط في أن يوصف محمد ﷺ بكل ما يندرج تحت هذا الكمال الرجولي؛ لأن هذا الكمال الرجولي هو جماع صفات الكمال البشري في الرجل.

ومحمد رسول الله ﷺ أكمل البشر في إنسانيته، واعرفهم بمواقع الكمال الحسي والمعنوي من أوصاف الرجولية». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٧-٢٤٨].

٧ ـ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ إشارة إلى ما جبل عليه ﷺ من تذوق حلاوة الكمال الإنساني حسًّا ومعنى:

يقول الشيخ عرجون: «ولأمرٍ (ما) قال الله تعالى لرسوله محمدًا ﷺ بعد تخيير أمهات المؤمنين اللائي كن في عصمته ﷺ ومات عنهن: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢] إعزازًا لأمهات المؤمنين اللائي اخترن الله ورسوله على (من) و(ما) سواهما، فقصره ﷺ عليهن إكرامًا لهن، جزاء اختيارهن، ورضائهن كلهن.

ولعله للإشارة إلى ما قلناه من أنه ﷺ أرق الناس حسًّا، وأرهفهم ذوقًا، وأعرفهم بمواقع الكمال الحسي والمعنوي، ولكن الله تعالى مع الإشادة بصفاء طبيعة رسول الله ﷺ نوه بهذا الموقف النبيل، موقف أمهات المؤمنين، هذا الموقف الإيماني البالغ ذروة الإخلاص عندهن ليرشد عباده أن هذا الموقف أجل عند الله وأعظم من تحقيق رغبة كمالٍ حسِّيٍّ عند رسوله ﷺ، والله وحده هو المحيط بأسرار كلامه العزيز، وأسرار مداخل نفوس خواصه من البشر». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٨-٢٤٩].

٨ ـ بدأت غزوة المصطلق بأعتى نوازل البلاء والمحن ثم ختمت بأسعد ما يسعد كرائم النفوس:

يقول الشيخ عرجون: «وبعد: فهكذا بدأت غزوة بني المصطلق بما بدأت به من أحداث الفتن الجسام التي دبرها النفاق تحت أستار الظلام، وكوارث النوازل العظام، التي أذاقت المسلمين جرعًا من مرارة أحداث (أُحُد) ولكن الله تعالى بمنه وفضله أخرج منها نبيه محمدًا ﷺ ومجتمعه المسلم، وأهل بيته الأكرمين، وصاحبه وصديقه الأمين كما يخرج الذهب المصفى، والجوهر المخلَّص من مخلطات المعادن، وألويةُ النصر تخفق فوق رؤوسهم، وحفاوة الله تعالى تكنفهم من جميع جوانبهم ونعمه السوابغ تحيط بهم من أقطارهم.

وهكذا ختمت بإعراس النبي ﷺ بالسيدة الجليلة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق التي خلع الله عليها جلابيب السيادة الحقيقية بإعراس النبي ﷺ بها، فكانت أُمًّا للمؤمنين تعظيمًا وتوقيرًا، وإسعادًا لها بكنف رسول الله ﷺ، وإدخالًا للبهجة على رسول الله ﷺ بها وهبها الله من كمال إنساني كانت به من صفوة نساء العالمين». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٩].

٩ ـ الباعث على الغزوة والزواج بجويرية رضي الله عنها:

يقول أ/ الشامي: «إن الباعث على هذه الغزوة، هو رد الاعتداء الذي بات وشيكًا على المدينة، ولم يقم بها رسول الله ﷺ إلا بعد التأكد من الأمر بإرسال مبعوثه إلى الحارث، فلم تكن غايته ﷺ من الغزو هي الغزو أو الحصول على الغنائم؛ ولذا نلاحظ في سلوكه أنه حينما يحصل له ما قصد، يتجاوز عن المكاسب بأسلوب أو بآخر، وما زواجه ﷺ من جويرية بنت الحارث إلا الدليل الواضح على ذلك.

إن الذي قسم الغنائم هو رسول الله ﷺ ولو كان يريد الزواج لكان في سهمه من يريد، ولكن لم يكن ذلك هدفًا، فلما جاءت جويرية رضي الله عنها وهي بنت سيد القوم كان زواجها إطلاقًا لقومها، وهذا ما قالته عائشة رضي الله عنها.

وقد يتساءل سائل لِمَ لم يطلق سراحهم قبل التقسيم ..

فالجواب: إن هذا حق للمجاهدين، وإرغامهم على ذلك غمط لحقهم، فكان الزواج الوسيلة التي حققت الهدف». [من معين السيرة للشامي ٣٤٦-٣٤٧].

١٠ ـ السيدة أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها كانت من الله بمنزلة في علمها وعملها وورعها وإشراق روحها:

يقول الشيخ عرجون: «وقد زاد الله عز شأنه أم المؤمنين السيدة جويرية رضي الله عنها زوج النبي ﷺ رضي الله عنها كمالًا فوق كمالها، فجعلت حصافة عقلها، وزكانة تفكيرها، وصفاء قلبها وإشراق روحها بين يدي رسول الله ﷺ، وهي تلحظه في عبادته الخاصة إذا كان عندها، وتشهده في تقديسه وتسبيحه لخالقه، وتصغي إليه وهي تسمع أحاديثه في أدب الإسلام الاجتماعي، وأحكامه العبادية، وشرائعه النظامية، وتلطفه في عشرته الزوجية، وحكمته في معاملته الداخلية والخارجية، فتعي ذلك كله وعيًا ضابطًا يرويه عنها من أصحابه الذين أخلصوا حياتهم للعلم، يأخذونه عن رسول الله ﷺ مشافهة أو رواية أقرب ما تكون للمشافهة؛ لأنه إما سماع عن أقرانهم أو شهود لمجالس سماعه، أو تلقيًا لأسراره من أمهات المؤمنين زوجاته، وأخذًا لحقائقه العملية ممن كان أهلًا لحمل هذه الحقائق والأسرار التشريعية والآداب السلوكية في تربية البيت ومن يضمه بين جنباته.

وهؤلاء يلقونه إلى من يرويه عنهم صادقًا أفضل ما يكون الصدق مطلوبًا، وضابطًا أصدق ما يكون الضبط منشودًا، ومن ثم كانت السيدة جويرية أم المؤمنين وزوج سيد العالمين ﵂ عالمة بما تسمع، عاملة بما تعلم، فقيهة عابدة، تقية ورعة، نقية الفؤاد مضيئة العقل، مشرقة الروح، تحب الله ورسوله ﷺ، وتحب الخير للناس أجمعين.

وكانت ﵂ تروي من حديث رسول الله ﷺ، ناقلة لحقائق الدين من خزائنها عند من تنزلت عليه ﷺ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصحابة ﵃ لينشروه في المجتمع المسلم علمًا وعملًا، وفي عامة المجتمع الإنساني دعوة وهداية.

روى عنها حبر الأمة عبد الله بن عباس ﵄، وجابر بن عبد الله ﵄، وعبد الله بن عمر ﵄، وعبد الله بن السباق ﵁، والطفيل ابن أخيها ﵁، وغيرهم من الأجلاء.

وكانت أم المؤمنين جويرية ﵂ من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات القانتات، الصابرات في مجال مناجاة الله تعالى وتحميده وتقديسه وتسبيحه، أخرج الترمذي والنسائي بسند صحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهَا وَهِيَ فِي مَسْجِدٍ، ثُمَّ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِهَا قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالَ لَهَا: «**مَا زِلْتِ عَلَى حَالِكِ**»، فَقَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: «**أَلاَ أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهَا: سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ**».

[الترمذي في الدعوات (٣٥٥٥)، والنسائي في صفة الصلاة (١٣٥٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ جُوَيْرِيَةَ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «**مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا**»، قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**».

[مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٦)، وأبو داود في الصلاة (١٥٠٣)].

أيُّ فضل أفضل وأرفع، وأي شرف أشرف وأعلى من فضل وشرف جمعا بين فضائل الدنيا وشرف الآخرة ختمت به غزوة من غزوات رسول الله ﷺ ـ أو واقعة من وقائع تاريخ السيرة النبوية الشريفة في أحداثها ومسيرتها وهي تحمل لواء الدعوة إلى الله ناشرة رسالة الحق والهدى والنور ـ مما ختمت به هذه الغزوة المفعمة بكبريات الأحداث غزوة (بني المصطلق ـ المريسيع) وهي التي بدأت نارًا تلظى وفتنًا

مدمرات تتسعر وكوارث قواصم تتوالى على المجتمع المسلم، وفيه رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الله، ويعلمهم دين الله وشرائعه، ويقودهم في جهادهم، ويملي عليهم دروس التربية السلوكية القائمة على دعائم مكارم الأخلاق، والفضائل الإنسانية، وانتهت بها انتهت به من النور والهدى والرحمة والسعادة التي أقر الله بها عين رسوله في إعراسه بسيدة بني المصطلق السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، الذين أسلموا جميعًا بعد أن علموا أن النبي ﷺ شرَّفهم بمصاهرته، واتخذ من سيدة بيوتهم زوجًا وأُمًّا للمؤمنين، فكانت أبرك امرأة على قومها إذ أعتقهم الله تعالى بها من رق العبودية، وأقبل بهم يقدمهم سيدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية على الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم، وكانوا من كتائب المجاهدين لنصرة دين الله ونشر رسالته». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٩-٢٥١**].

١١ ـ شبهات حول زواج النبي ﷺ:

يقول الشيخ أبو خوات: «كانت بزواجها أكثر الناس بركة على قومها، وبسبب هذا الزواج هدى الله قومها للإسلام حتى أبوها الحارث أعلن إسلامه.

ومن هنا نأخذ كلَّ ما يُقال في كتب أعداء الإسلام وعلى ألسنتهم في شأن زواج النبي ﷺ بالبحث والمراجعة ورد كل زواج إلى أسبابه ودواعيه، قبل أن نأخذ عباراتهم عن الشهوة والرغبة في أنوثة النساء إلى واد من الفتنة سحيق.

ولنضع أمام القارئ في هذا المجال الحقائق الآتية:

(١) أن النبي ﷺ عاش شبابه كله وجزءًا من شيخوخته مع زوجة واحدة تكبره بخمس عشرة سنة كانت متزوجة قبله رجلين ولها من كل منهما أولاد، ولم تكن على قدر كبير من الجمال.

(٢) أنها حين ماتت وكانت سنه ﷺ خمسين سنة لم يُقبل على الزواج حتى عرض عليه العارضون امرأة دميمة كبيرة تخدمه وترضى منه بشرف الزوجية دون نظر إلى شيء آخر، فقبل وتزوج «سودة بنت زمعة ﵂» التي كانت زوجًا لأحد مهاجري الحبشة، ثم مات عنها وليس لها منه أولاد.

(٣) أن كل زواج تم بعد ذلك كان لأسباب إنسانية تقتضيها الظروف التي كان يعيش فيها المسلمون في المدينة بعد الهجرة، فكانت أول زوجة بعد سودة هي عائشة الفتاة الصغيرة وكان زواجها بالمدينة، والمعلوم أن الهجرة تمت وسن النبي ﷺ ثلاث وخمسون سنة، وكان سببه إحكام الترابط بين النبي ﷺ والصديق ﵁، وهكذا قصة زواج حفصة بنت عمر، وأم سلمة، وزينب، وقد علمنا قصة زواج جويرية.

فقد كان زواجه ﷺ إما وفاء لصاحب، أو إنقاذ لسمعة أسرة، أو تشريع لحكم من أحكام الله في الدين، إلى غير ذلك مما لا يخلو من حكمة جليلة، ولكن أعداء الإسلام يلبسون كل شيء بغير لباسه؛

ليلبسوا على الناس أمور دينهم، وليضعوا ما يثير العاطفة دائمًا أمام ما ينير العقل ويهدي إلى الحق المستقيم». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٨٣-٨٤].

١٢ ـ إسلام الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنه:

يقول د/ قريبي: «بعد أن ساق ابن هشام حديث ابن إسحاق من طريق عائشة رضي الله عنها المصرِّح بأن رسول الله ﷺ أدى عن جويرية رضي الله عنها كتابتها وتزوجها.

عقب قوله: قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: لَـمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَمَعَهُ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ رضي الله عنها، وَكَانَ بِذَاتِ الْجَيْشِ (من المدينة على بريد من جهة مكة، وبينها وبين العقيق سبعة أميال، معجم ما استعجم للبكري ٢/ ٤٠٩-٤١٠. وعلى هذا تكون المسافة بين ذات الجيش والمدينة ٢٠ كيلو مترًا؛ لأن البريد أربع فراسخ، والفرسخ يساوي خمس كيلومترات) دَفَعَ جُوَيْرِيَةَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَدِيعَةً وَأَمَرَهُ بِالِاحْتِفَاظِ بِهَا، وَقَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المدِينَةَ، فَأَقْبَلَ أَبُوهَا الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ بِفِدَاءِ ابْنَتِهِ، فَلَـمَّا كَانَ بِالْعَقِيقِ نَظَرَ إِلَى الْإِبِلِ الَّتِي جَاءَ بِهَا لِلْفِدَاءِ فَرَغِبَ فِي بَعِيرَيْنِ مِنْهَا، فَغَيَّبَهُمَا فِي شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ الْعَقِيقِ، ثُمَّ أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَصَبْتُمْ ابْنَتِي، وَهَذَا فِدَاؤُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«فَأَيْنَ الْبَعِيرَانِ اللَّذَانِ غَيَّبْتَهُمَا بِالْعَقِيقِ، فِي شِعْبِ كَذَا وَكَذَا؟»**، فَقَالَ الْحَارِثُ: **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، فَوَاللهِ مَا اطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللهُ**، فَأَسْلَمَ الْحَارِثُ، وَأَسْلَمَ مَعَهُ ابْنَانِ لَهُ وَنَاسٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْبَعِيرَيْنِ فَجَاءَ بِهِمَا، فَدَفَعَ الْإِبِلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَدُفِعَتْ إِلَيْهِ ابْنَتُهُ جُوَيْرِيَةُ فَأَسْلَمَتْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهَا، فَخَطَبَهَا رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أَبِيهَا، فَزَوَّجَهُ إِيَّاهَا، وَأَصْدَقَهَا أَرْبَعَ مِئَةِ دِرْهَمٍ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٥-٢٩٦، ٦٤٥-٦٤٦].

وأكد السهيلي نسبة هذا القول إلى ابن هشام. [الروض الأنف ٦/ ٧٠٦-٧/ ٥٣٧].

قلت: هذا لا يقاوم حديث عائشة؛ لأنه لا إسناد له، وقد صُدِّر بـ (يقال) الدالة على الضعف.

وممن وقع في هذا الخطأ الشيخ محمد الغزالي. [فقه السيرة للغزالي ٣٠٨].

فرد عليه الشيخ الألباني بقوله: «هذا غير صحيح، وقد أشار لذلك ابن هشام في سيرته، فإنه ذكر هذه الرواية بدون إسناد، وصدرها بقوله: (ويقال)»، ثم قال الألباني أيضًا: «والصحيح أنه ﷺ قضى عنها كتابتها وتزوجها دون أن يخطبها من أبيها، فإنها كانت أسيرة، كما رواه ابن إسحاق بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها، ومن طريقه أخرجه أحمد وابن هشام، وفي حديثهما (إطلاق الأسرى)». انتهى.

قلت: وأخرجه من هذه الطريقة أبو داود أيضًا كما تقدم.

وقال عقبة: «وهذا حجة في أن الولي هو يزوج نفسه».

وهذا يرد ما ذكره ابن هشام من أن رسول الله ﷺ خطبها من أبيها وتزوجها وأصدقها أربع مئة درهم، على أنه قد نسب ابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر لابن إسحاق نحو ما ذكر ابن هشام، وليس فيه ذكر الزواج بعد قدوم الحارث إلى المدينة.

وهذا نصه: قال ابن إسحاق: «تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ رضي الله عنها، وَكَانَتْ فِي سبايا بَنِي الْمُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ، فَوَقَعَتْ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ، وَذَكَرَ الْخَبَرَ، وَفِيهِ: «فَأَقْبَلَ أَبُوهَا الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ لِفِدَاءِ ابْنَتِهِ، فَلَمَّا كَانَ بِالْعَقِيقِ نَظَرَ إِلَى الْإِبِلِ الَّتِي جَاءَ بِهَا لِلْفِدَاءِ فَرَغِبَ فِي بَعِيرَيْنِ مِنْهَا، فَغَيَّبَهُمَا فِي شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ الْعَقِيقِ، ثُمَّ أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَصَبْتُمْ ابْنَتِي، وَهَذَا فِدَاؤُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **فَأَيْنَ الْبَعِيرَانِ اللَّذَانِ غَيَّبْتهمَا بِالْعَقِيقِ، فِي شِعْبِ كَذَا وَكَذَا؟** فَقَالَ الْحَارِثُ: **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَوَاللهِ مَا اطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللهُ**، فَأَسْلَمَ الْحَارِثُ، وَأَسْلَمَ مَعَهُ ابْنَانِ لَهُ وَنَاسٌ مِنْ قَوْمِهِ. **[الاستيعاب ١/ ٢٩٩، مع الإصابة وأسد الغابة ١/ ٤٠٠، والإصابة ١/ ٢٨١، وهذه الرواية لم أجدها في سيرة ابن هشام].**

ولفظ ابن حجر: «ذكر ابن إسحاق في المغازي أن الحارث بن أبي ضرار، والد جويرية، جاء إلى المدينة ومعه فداء ابنته بعد أن أسرت وتزوجها رسول الله ﷺ»، ثم ساق القصة. **[الإصابة ١/ ٢٨١].**

فهذا يدل دلالة واضحة أن الحارث لم يكن موجودًا وقت العقد، وأن قدومه إلى المدينة كان بعد زواج جويرية، وهذا هو ما دل عليه حديث عائشة رضي الله عنها.

وقد تقدم قول أبي داود عقب حديث عائشة: «وهذا حجة في أن الولي هو يزوج نفسه».

فهذا مما يؤكد لنا سقوط هذه القصة التي ذكرها ابن هشام بصيغة التمريض محذوفة السند.

والصحيح في هذا أن مجيء الحارث كان سببًا في إسلامه، ولا يبعد أنه طلب ابنته كما دل عليه حديث ابن إسحاق، ولكنه لم يُمَكَّن من ذلك.

[هذا الحديث نسبه إلى ابن إسحاق كل من عبد البر وابن الأثير وابن حجر، وينظر المراجع السابقة].

وقد ورد ما يدل على أن رسول الله ﷺ قال لأبيها: اذهب إليها فخيرها، فإن أرادت أن تذهب معك فخذها، فهذا لا يستبعد لعلم الرسول ﷺ أنها لا تختار عليه أحدًا، وأن ذلك يكون أدعى لتمكن الحارث من الإسلام، لما فيه من حسن المعاملة، ومما دل على هذا ما رواه ابن سعد وغيره من مرسل أبي قلابة، أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقي قال: حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن أيوب، عن أبي قلابة: «أن النبي ﷺ سبى جويرية بنت الحارث، فجاء أبوها إلى النبي ﷺ فقال: إن ابنتي لا يُسبى مثلها، فأنا أكرم من ذلك فخل سبيلها، قال: «**أرأيت إن خيَّرناها أليس قد أحسنا؟**»، قال: بلى، وأدَّيْتَ ما عليك، قال: فأتاها أبوها، فقال: إن هذا الرجل قد خيَّرك فلا تفضحينا، فقالت: فإني قد اخترت رسول الله ﷺ، قال: قد والله فضحتنا. **[طبقات ابن سعد الكبرى ٨/ ١١٨].**

وأخرجه خليفة: قال أخبرنا عبد الوهاب بن عبد المجيد، قال: حدثنا أيوب عن أبي قلابة أن رسول

الله ﷺ سبى جويرية بنت الحارث فجاء أبوها فقال: «إن ابنتي لا تُسبى» الحديث.

[تاريخ خليفة بن خياط ص ٨٠].

وأورده ابن حجر في التهذيب من طريق ابن سعد في ترجمة جويرية، وقال: هذا مرسل صحيح الإسناد. [تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٠٧].

وأورده في الإصابة دون أن ينسبه إلى ابن سعد وصحح إسناده أيضًا، ونصه: عن أبي قلابة قال: سبى النبي ﷺ جويرية ـ يعني وتزوجها ـ فجاء أبوها فقال: إن ابنتي لا يُسبى مثلها فخل سبيلها، فقال: «**أرأيت إن خيرتها أليس قد أحسنت؟** «قال: بلى، فأتاها أبوها فذكر لها ذلك، فقالت: اخترت الله ورسوله. ثم قال: وسنده صحيح. [الإصابة ٤/ ٢٦٥].

قلت: الظاهر في هذا الباب هو ما أفاده حديث عائشة من أن رسول الله ﷺ أدى عن جويرية كتابتها وتزوجها وهو صريح في ذلك، مع أن ما نُسب لابن إسحاق، وكذا مرسل أبي قلابة، ليسا نصًّا في أن رسول الله ﷺ دفع إلى الحارث ابنته ثم تزوجها منه بعد ذلك، وإنما فيه مجرد مجيء الحارث يطلب فداء ابنته، وأمر الرسول الله ﷺ بتخييرها.

ولسنا بحاجة إلى تلمس التوفيق بين حديث ساقط لا إسناد له وحديث عائشة الصحيح، ومن هنا يتحتم القول بما في حديث عائشة لثبوته ولا ينظر إلى ما عداه من الروايات الضعيفة.

وخلاصة القول أن هذه الآثار تدل بمجموعها على قدوم الحارث بعد الوقعة، وكان ذلك سببًا في إسلامه، وهو ما دل عليه الحديث الآتي عند أحمد والبيهقي. (سيأتي نصه كاملًا في درس: «موقف بني المصطلق بعد الغزوة»، من الدروس الدعوية). [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٥٨-١٦٤].

المطلب الخامس

الدروس السياسية

١ ـ دعوة إلى العصبية ومواجهة حكيمة:

يقول د/ الحميدي:

«**أولًا**: مثل من عداوة المنافقين المتأصلة في نفوسهم للمؤمنين، حيث انتهز عبد الله بن أُبي بن سلول فرصة الخلاف الذي نشأ بين رجلين من المسلمين ليثير الدعوة إلى العصبية القبلية، فنطق بكلمات خبيثة في سب المهاجرين من قريش والتنقيص منهم، مع أن ذلك الرجل المهاجر الذي اختصم مع حليف

الأنصار ليس من قريش وإنما هو من غفار، ولكن زعيم المنافقين صب جام غضبه على المهاجرين من قريش؛ لأنهم عصبة النبي ﷺ الأولى وأصل الدعوة الإسلامية.

وهكذا يغلي الحقد في قلوب المنافقين، فتظهر نفثاته على فلتات ألسنتهم ظانين أن كلامهم سيُظهر مفعوله في التفريق بين المؤمنين.

ثانيًا: موقف إيمان وشجاعة لزيد بن أرقم ﷺ حيث مشى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك الكلام السيئ الذي سمعه من ابن أبي، مع أن زيدًا كان غلامًا، ومن كان في مثل هذه السن لا يُنتظر منه غالبًا الدخول مع الكبار في صراع، خاصة في مثل وضع ابن أُبي الذي ما زال له أنصار يقولون برأيه ويدافعون عنه.

ولقد شكره النبي ﷺ على هذا الموقف الشجاع وعلى مقدرته على استيعاب ما سمع، كما جاء في رواية الإمام البخاري: أن النبي ﷺ أرسل إليه بعد نزول سورة «المنافقون» فقرأها عليه، وقال: «**إن الله قد صدقك**».

ثالثًا: في المحاورة التي جرت بين رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب ﷺ مثل من غِيرة عمر ﷺ الإسلامية وحرصه على إخماد الشر وأهله، ولكنَّ رأي رسول الله ﷺ كان أعلى، وحكمته كانت أعظم، فقد رأى بما ألهمه الله ﷻ أن قتل عبد الله بن أبي وأمثاله يؤثر على سير الدعوة الإسلامية، فابن أُبي معدود عند العرب من أصحاب النبي ﷺ، فلو قتله لَنَفَرَ الناس وصدوا عن الدخول في الإسلام، حينما يتحدثون أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه.

وإن في هذا التصرف النبوي الحكيم توجيهًا لدعاة المسلمين وقادتهم إلى لزوم الاهتمام بقضايا الدعوة الإسلامية، وأن يكون من الأهداف العالية التي يجعلها المسلم نصب عينيه أن يحاول اجتذاب الناس إلى الإسلام، وأن يبتعد كل البعد عن الأمور التي تنفِّر الناس من الدخول في الإسلام أو الاستقامة عليه، ما لم يرتكب إثمًا.

ولقد تجلت حكمة النبي ﷺ في هذا الأمر حينما جاء عبد الله بن عبد الله بن أبي يعرض على رسول الله ﷺ استعداده للإقدام على قتل أبيه، ويبين أنه لو أقدم على قتله غيره فإنه لا يأمن من حدوث فتنة بسبب ذلك، بينما حصل المقصود من قوم ابن أبي وذلك حينما تولوا عتابه وتعنيفه وردعه عن التجاوزات التي يمارسها من غير أن يتعرض مجتمع المؤمنين لفتنة بسببه.

ولقد ذكَّر النبي ﷺ عمر بهذه النتائج الحميدة بقوله: «**كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ! أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِي اُقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ**»، وأدرك عمر ﷺ هذه الحكمة العظيمة، فقال: **قَدْ وَاللهِ عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي.**

ومن هذا نعلم أن تصرف النبي ﷺ الحكيم قد صدَّ فتنة كانت وشيكة الوقوع في المدينة لو أن الرسول ﷺ عامل زعيم المنافقين بما يستحق من عقوبة، إلى جانب محافظته على سمعة الدعوة الإسلامية خارج المدينة أن تُشَوَّه من قِبل أعداء الإسلام أو ممن يجهل واقع المسلمين.

رابعًا: في تصرف النبي ﷺ في مواجهة تلك الفتنة في حينها حكمة بالغة، فقد عالج الفتنة التي أثارها عبد الله بن أبي بأمر شغل به المسلمين عن الحديث عنها، وذلك حيث أمر المسلمين بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه، ثم واصل المسير يومه وليلته وصدر اليوم التالي، حتى إذا نزلوا وقد أعياهم السير والسهر وقعوا نيامًا، فلم يكن لديهم فراغ للحديث عن الموضوع، وهذا يعتبر درسًا نبويًّا عاليًا للقادة في كيفية القضاء على المشكلات التي تعرض لهم، والفتن التي يثيرها أعداء الإسلام في صفوف المسلمين، فالنفوس إن لم تُشْغل بما ينفعها شُغلت بما يضرها». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٨١-٨٣**].

ويقول عميد/ فرج: «ولعل حديث ابن أُبي كشف أمر المنافقين، ولعل رسول الله ﷺ حين أذن له ولرجاله بالخروج كان يرجوا أن يدفع بهم إلى مجال المسؤولية وميدان العمل الإيجابي، لعل قلوبهم تصحو، ولعل أفهامهم تعقل، ولعل نفوسهم تهتدي، فيحسن إسلامهم وتسمو عقيدتهم ويرسخ إيمانهم؛ فيستفيد منهم الإسلام ويكونوا له رجاله وأبطاله، ولكن تبين أن النفاق متمكن منهم، وأنهم غير قادرين على التخلص منه واستبداله بإيمان أسمى وأرقى!». [**العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٧٣**].

٢ ـ محاربة العصبية الجاهلية بجميع أنواعها:

يقول د/ الزيد: «لما اختلف الأنصاري والمهاجري على الماء، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، وكاد القتال يقع قال الرسول ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**».

أيضًا نقول: دعوا هذه الدعاوى والانتماءات والولاءات القبلية والحزبية، فلا يُقال: (يا لفلان)؛ لأنها من دعوى الجاهلية وقد جعل الله المؤمنين إخوة وحزبًا واحدًا، فإنما ينبغي أن تكون الدعوة (يا للمسلمين) فقط دون غيرها من سائر الانتماءات والولاءات.

[**ينظر: الروض الأنف للسهيلي ٤/ ١٧، وسبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٠٤**]. [**فقه السيرة للزيد ٤٧٧**].

ويقول د/ زيدان: «المراد بالعصبية الجاهلية اشتراك في معنى أو وصف معين يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيها على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك.

والذي كان في الجاهلية من العصبية: العصبية القبلية.

ولكن العصبية الممقوته والتي نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية أي الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها.

واستدل على ما أقول بما وقع في غزوة بني المصطلق، وسبق وأن ذكرته عن جابر بن عبد الله فيما جرى بين الأنصاري والمهاجري.

ووجه الدلالة بهذا الخبر، أن النبي ﷺ أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادي استعمل اسمًا استعمله القرآن وهو (المهاجرين) و(الأنصار) فالمهاجري استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذي كسع، فكأنه بندائه هذا يريد عونهم؛ لاشتراكه وإياهم بمعنى واحد وهو (المهاجرة) وكذلك الأنصاري استنصر بالأنصار؛ لأنه منهم ويشترك وإياهم بوصف واحد ومعنى واحد وهو مدلول كلمة (الأنصار).

وكان حق الاثنين ـ إذا كان لابد من الاستنصار بالغير ـ أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعًا.

وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد علي نبذ العصبية بجميع أنواعها، سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر، مشترك آخر، من بلد أو مذهب أو حرفة أو حزب، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[الحُجُرات: ١٠].

ويقول رسول الله ﷺ: «**الـمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يُسْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ** ...».

[البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٢)، وفي الإكراه (٦٩٥١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٤، ٢٥٨٠)].

وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصرًا على الحق لا على الباطل، بمعنى أن ينصروا المحق وأن يكونوا معه لا مع المعتدي، مهما كانت صلاتهم بالمحق أو بالمبطل، بالمعتدي أو بالمعتدَى عليه، وأن يحققوا المعنى الصحيح الذي صرح به ﷺ بقوله: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِـمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِـمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «**تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**».

[البخاري في الإكراه (٦٩٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٥٥)، وأحمد ١٩/ ١٤عن أنس بن مالك ﷺ (١١٩٤٩)، ٢٠/ ٣٦٣ رقم ١٣٠٧٩].

إن مهمة الدعاة في التخلص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها كما أمر بذلك رسول الله ﷺ مهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، ولأهميتها البالغة يجب بذل كل جهد ممكن لقلعها من النفوس».

[المستفاد لزيدان ٢/ ٣٠١-٣٠٢].

٣ ـ القضاء على العصبية القبلية وتصعيد مفهومها:

يقول د/ الغضبان: «كلمة واحدة من فم النبي ﷺ أوقفت حربًا «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»، ولا تزال الأمة اليوم تعج بهذه العصبيات القبلية والوطنية والقومية، وتفترق أحزابًا وطوائف وشيعًا ودولًا، وهي أعجز من أن تحل شيئًا من هذه العصبيات، بل تزداد اشتعالًا وحرقًا لكيان الأمة وتكوينها، بل ويصطلي الدعاة

بنارها مثل غيرهم، فيتوزعون منازع شتى، ويصيبهم ما يصيب مجتمعهم الجاهلي من نكسات وتمزق وخلافات، وهم الأمل المرجى بإحياء الأمة.

ويصعِّد النبي ﷺ مفهوم النصر، فنصر الظالم هو كفه عن ظلمه، فهو نصره على نفسه وعلى شيطانه وعلى عصبية، ونصر المظلوم عونه، ولو كان من غير قبيلته، ولو كان من غير عشيرته، فأخوة الإسلام هي الميزان التي يوزن بها الناس والأشخاص والقيم والأعراف، والعصبية عصبية، سيان كانت في الإسلام أو في الجاهلية، فهي في الجاهلية بين أوس وخزرج، أو بين قبيلة وأخرى، وهي في الإسلام بين المهاجرين وبين الأنصار، وكلا الكلمتين مستحدثتان في ظل النبوة، ومع ذلك فقد اعتبرها النبي ﷺ عصبية جاهلية، وقال عنها: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**».

وليست عصبية الانتماء للجماعات الإسلامية إلا صورة عفنة من هذه الصور».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٤٦٨-٤٦٩].

٤ ـ تحريم دعوى الجاهلية:

قال الإمام السهيلي: «وَذَكَرَ أَنَّهُ نَادَى: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَنَادَى جَهْجَاهٌ الْغِفَارِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَهُمَا، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ حِينَ سَمِعَهُمَا مِنْهُمَا، قَالَ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»، يَعْنِي: إِنَّهَا كَلِمَةٌ خَبِيثَةٌ؛ لِأَنَّهَا مِنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَجَعَلَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةً وَحِزْبًا وَاحِدًا، فَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ: يَا لَلْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ دَعَا فِي الْإِسْلَامِ بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَيَتَوَجَّهُ لِلْفُقَهَاءِ فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يُجْلَدَ مَنْ اسْتَجَابَ لَهَا بِالسِّلَاحِ خَمْسِينَ سَوْطًا اقْتِدَاءً بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ فِي جَلْدِهِ النَّابِغَةَ الْجَعْدِيَّ خَمْسِينَ سَوْطًا، حِينَ سَمِعَ: يَا لَعَامِرٍ، فَأَقْبَلَ يَشْتَدُّ بِعُصْبَةٍ لَهُ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ فِيهَا الْجَلْدَ دُونَ الْعَشْرَةِ لِنَهْيِهِ ﷺ أَنْ يُجْلَدَ أَحَدٌ فَوْقَ الْعَشْرَةِ إِلَّا فِي حَدٍّ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: اجْتِهَادُ الْإِمَامِ فِي ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ مِنْ سَدِّ الذَّرِيعَةِ وَإِغْلَاقِ بَابِ الشَّرِّ، إِمَّا بِالْوَعِيدِ، وَإِمَّا بِالسَّجْنِ، وَإِمَّا بِالْجَلْدِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُعَاقِبْ الرَّجُلَيْنِ حِينَ دَعَوْا بِهَا.

قُلْنَا: قَدْ قَالَ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»، فَقَدْ أَكَّدَ النَّهْيَ، فَمَنْ عَادَ إِلَيْهَا بَعْدَ هَذَا النَّهْيِ، وَبَعْدَ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ لَهَا بِالْإِنْتَانِ وَجَبَ أَنْ يُؤَدَّبَ حَتَّى يَشُمَّ نَتْنَهَا، كَمَا فَعَلَ أَبُو مُوسَى ﷺ بِالْجَعْدِيِّ، فَلَا مَعْنَى لِنَتْنِهَا إِلَّا سُوءُ الْعَاقِبَةِ فِيهَا، وَالْعُقُوبَةُ عَلَيْهَا». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٤٢٩].

٥ ـ الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصف الداخلية:

وهذا الدرس يظهر في قوله ﷺ: «**فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ!**».

يقول د/ الغضبان: «إنها المحافظة التامة على السمعة السياسية، والفرق كبير جدًّا بين أن يتحدث

الناس عن حب أصحاب محمدٍ محمدًا، ويؤكدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: **ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمدًا**، وبين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة ستتم في محاولة الدخول إلى الصف الداخلي في المدينة من العدو، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتلك التضحيات».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٤٦٢-٤٦٣].

٦ ـ تغلب الرسول ﷺ على المشكلات التي صاحبت هذه الغزوة:

يقول د/ قريبي: «إن معالجة الرسول ﷺ لتلك السموم التي نفثها المنافقون في ساحة الجيش الإسلامي، ابتغاء تمزيق وحدته وتفريق كلمته، لتدل دلالة واضحة على أن الرسول ﷺ محاط بالعناية من الله ﷻ وعلى أنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم].

لقد كان ما تفوه به ابن أُبي من الكلام البذيء مسوغًا كافيًا لقتله، وإراحة الناس من شره، ولكن الرسول ﷺ لبُعد نظره وتوفيق الله له، رأى أن المصلحة تقتضي التسامح والصفح عنه، فقابل تلك الأذية والقول اللاذع بصدر رحب وقلب واسع، فقد ضاقت نفس عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذرعًا بهذا المنافق، ووسعه حلم الرسول ﷺ وصفحه الجميل عمن أساء إليه، يوضح ذلك ما ورد من قوله ﷺ عندما قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **دَعْنِي يَا رَسُولَ الله أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»**. [البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٧)].

ولكن أذن بالسير فسار بالناس في ساعة لم يعهد له أن يسير في مثلها، وأمر بالسير المتواصل حتى لا يتمكن المنافقون من التجمع والخوض في حديث ابن أُبي وترويجه بين الناس.

ولقد توقع الناس أن رسول الله ﷺ سيعاقب المنافقين على سوء صنيعهم وعلى الأقل بقتل رأس الفتنة ابن أبي ولكن لم يقع شيء من هذا كله، ولقد جاء ابنه عبد الله بن عبد الله ابن أُبي رضي الله عنه فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله! إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّك تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلَغَك عَنْهُ، فَإِنْ كُنْت لَا بُدَّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إلَيْك رَأْسَهُ، فَوَالله لَقَدْ عَلِمَتْ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إلَى قَاتِلِ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا»**. [السيرة لابن هشام ٢/ ٢٩٢-٢٩٣].

لقد كان من آثار هذه المعاملة الحسنة أن قوم عبد الله بن أُبي بن سلول هُم الذين أخذوا يعنفونه ويفضحون أمره ويأخذون على يديه، ولما بلغ رسول الله ﷺ هذا من فعلهم مع ابن أُبي أرسل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: **«كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ! أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْته يَوْمَ قُلْتَ لِي اُقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ لَوْ أَمَرْتَهَا**

الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ، قَالَ عُمَرُ ؓ: **قَدْ وَالله عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي**».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٣]. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٨٧-٤٨٨].

ويقول أ/ الشامي: «وكل مواقفه ﷺ وتصرفاته حكمة، ولكنا نقتصر في هذه الغزوة على ذكر موقفين:

- حينما بلغته كلمة ابن أبي، أذَّن بالمسير، وفي وقت ما كان يروح في مثله، ثم سار بالناس يومهم وليلتهم وصدرًا من نهارهم.. حتى أنهكهم التعب.. وما ذاك إلا ليشغل الناس عن حديث عبد الله؛ لأن هذا الحديث ربما أدى إلى توسع الخلاف بين المؤمنين والمنافقين في وقت لا يريد الرسول ﷺ أن يفتح فيه جبهة جديدة للعداوة.. يدل على ذلك حديثه مع عمر الآتي:

- اقترح عمر ؓ قتل عبد الله بن أبي - كما رأينا - ومرت أحداث بعد ذلك ورسول الله ﷺ يسعه بحلمه حتى افتضح أمره افتضاحًا عظيمًا.. فجعل قومه بعد ذلك إذا أحدث الحدث يعاتبونه ويعنفونه، فقال ﷺ لعمر بن الخطاب ؓ حين بلغه ذلك من شأنهم -: «**كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ! أَمَا وَالله لَوْ قَتَلْته يَوْمَ قُلْتَ لِي اُقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ لَوْ أَمَرْتهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ**»، قَالَ عُمَرُ ؓ: **قَدْ وَالله عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي**».

ومن تلك الآنف التي أشار إليها رسول الله ﷺ موقف سعد بن عبادة ؓ الذي سيأتي ذكره يوم خطبة الرسول ﷺ بأمر الإفك.. حيث قال أسيد بن حضير كلمته، فقال له سعد: كذبت لعمر الله ما نضرب أعناقهم.. تقول السيدة عائشة ؓ: «**وكان قبل ذلك يرى رجلًا صالحًا**»، فسعد كان يُرى رجلًا صالحًا، ولم يكن يُحسب من تلك الآنف، ولكن الأحداث أظهرت منه ما لم يكن متوقعًا.. (سعد بن عبادة ؓ سيد الخزرج، وكان رجلًا صالحًا، كما قالت عائشة ؓ، ولكنه احتملته الحمية فدفعته إلى ذلك الموقف، ولم يغمص عليه في دينه بسبب ذلك الموقف، فمواقفه الكثيرة لا تنسى) وهكذا تظهر حكمته ﷺ وبُعد نظره في تقدير الأمور.. هذا في المستوى الداخلي، وأما في المستوى الخارجي فقد حدده بقوله ﷺ: (**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**)». [من معين السيرة للشامي ٣٤٩-٣٥٠].

٧ - الأسلوب الناجح في مواجهة الفتن وأصحابها:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أثار رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق فتنة كادت تعصف بوحدة الجماعة من مهاجرين وأنصار، واستغل الخلاف بين الغلامين ليصنع منه مشكلة وينفخ فيها ويشيعها ويستغلها أسوأ استغلال لتحقيق مآربه الشخصية التي كان يخفيها في حنايا ضلوعه، في قلبه المملوء حقدًا على الإسلام ورسول الإسلام وسائر المسلمين، إنه كان يعتبر الرسول ﷺ هو الذي حال بينه وبين تحقيق حلمه الذي كان يريده، وهو أن يُتوج ملكًا على الخزرج، بل على المدينة كلها.

وكان علاج الرسول ﷺ لهذه الفتنة التي أثارها ابن سلول شاملًا عدة نواح:

(أ) علاجه لعبد الله بن أبي بن سلول: لما نال عبد الله بن أبي بن سلول من رسول الله ﷺ والمهاجرين وتكلم عليه كلامًا قبيحًا يتوقف اللسان عن ذكره، وبلغ ذلك الرسول ﷺ وعمر رضي الله عنه، فأشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يضرب عنقه فيستريح منه، إلا أن الرسول ﷺ أبى ذلك، وقال: **دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه.**

إن الصبر الحكيم على المجرمين له ثمرته، إنه يفتضح أمرهم، ويظهرون على حقيقتهم أمام أقرب الناس إليهم فيحددون مواقفهم منهم.

لقد أغلق النبي ﷺ وحكمته على أمثال عبد الله بن أبي بن سلول بابًا واسعًا ينتهز فتحه الانتهازيون، ويشوش المشوشون، ويروج المروجون لينفِّروا الناس من اتباع الحق والهدى.

(ب) علاجه للخلاف الذي دب بين المسلمين: لقد أثَّر كلام ابن سلول في نفوس بعض المسلمين، وحدث لغط واستعداد عندهم للإسهام في الفتنة، إلا أن النبي ﷺ لم يدع الشر يستفحل فتدخل سريعًا وحسم الموقف، كيف كان ذلك؟

لقد أطلت الفتنة برأسها وأشرفت، واستمرار الناس في الكلام والمحاورة مع استقرارهم في مكانهم يزيد النار اشتعالًا، ويوجد الفرصة المواتية لمشعلي الفتنة ليزيدوا النار ضرامًا، فما كان منه ﷺ إلا أن أمر الجيش بالتحرك والمسير فورًا، وساروا مسافة طويلة جدًّا أنهكت أجسامهم فانشغلوا بتعبهم عن الحديث في الفتنة، وما أن أمرهم الرسول ﷺ بالنزول حتى ناموا جميعًا، فنامت الفتنة بنومهم.

وبهذا التصرف الحكيم استطاع رسول الله ﷺ أن يطارد الفتنة ويقطع دابرها.

(ج) علاجه لولد ابن سلول: وكان عبد الله ولد ابن سلول رجلًا صالحًا، قد حزن حزنًا شديدًا لما بدر من أبيه، وعرض على رسول الله ﷺ أن يقتله بسيفه إن كان له رأي بقتله، فأبى رسول الله ﷺ وقال: **بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.**

نتائج هذه السياسة الحكيمة: ولقد أنتجت سياسة رسول الله ﷺ الحكيمة مع رأس المنافقين، فكشفته على حقيقته، ونَفَر منه كثير من الناس الذين خُدعوا به فترة من الزمن، وأصبح عندهم منبوذًا لا يسمعون له، بل أصبح عندهم قتله مستساغًا، ولو قتله في ذلك الوقت لثارت له أنوف لا مانع لديها اليوم من قتله، كما قال رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٢-٤٤].

٨ ـ اتباع الطغاة الضغط الاقتصادي على الدعاة:

قول أ/ الشامي: «كان من قول عبد الله بن أُبي في كلمته الخبيثة: **سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ،... هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ دَارِكُمْ.**

لا شك أن الأنصار قد قَدَّموا الكثير الكثير، ولكن النفاق لا يفهم إلا منطق المادة، فهو لم يدرك لذة الإيمان لحظة واحدة، إنه يظن من خلال تجاربه ومفاهيمه عن الحياة، أن الإنسان يُقاد من شهوة بطنه ومن خلال حاجاته المادية، وما درى أن هؤلاء المهاجرين قد تعالوا على المادة بكل ما لديها من وسائل الضغط، إنه لم يطلع فيما يبدو على تاريخ الإيمان ـ القريب العهد ـ ليتعلم منه أن المهاجرين صبروا على الجوع ثلاث سنوات في الحصار الاقتصادي في شِعب أبي طالب، ولو كان منطقه صحيحًا لما وصل الإسلام إلى المدينة ولانتهى أمره في مكة، إن دعوة الإيمان التي حملها محمد ﷺ إلى الناس كانت تتعامل مع عقولهم وأفئدتهم تتعامل مع قلوبهم ومشاعرهم، ولم تكن أبدًا دعوة تقوم مرتكزاتها الأساسية على التلويح للناس بتحقيق شهواتهم... إن ابن أُبي أخطأ التقدير كما أخطأ الفهم، كما أخطأ الطريق السوي: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور]». [من معين السيرة للشامي ٣٥٠].

٩ ـ سماحة الإسلام:

يقول أ/ رضوان: «قالت السيدة عائشة ﵂: «**فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا [فِي سَبَبِهَا] مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الـمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ [رَأَيْنَا] امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا**».

وتدل هذه الشهادة من أحب زوجات الرسول ﷺ إليه وهي السيدة عائشة ﵂ على حكمة زواج الرسول ﷺ من أم المؤمنين جويرية ﵂ ألا وهي إعتاق هذه القبيلة العربية العظيمة من السبي والرق، بأسلوب حكيم من المعلِّم الحكيم والقائد الرحيم ﷺ.

فلو أنه طلب ذلك من المسلمين بغير هذا الزواج لكرهوا ذلك وسرت الفتنة بينهم لترك ما بأيديهم من أسرى وسبايا.

ولكنهم دللوا بإطلاقهم سراح الأسرى والسبايا ـ لأنهم قد صاروا أصهار رسول الله ﷺ ـ على مدى حبهم لرسول الله ﷺ ورحمة قلوبهم، وتغلغل تعاليم الإسلام الرحيمة في نفوسهم وأرواحهم.

وترتب على هذا التصرف الحكيم من الرسول ﷺ وأصحابه ﵃ أن أسلمت كل قبيلة بني المصطلق عن طواعية واختيار.

فأين الإكراه على الإسلام بالسيف يا أعداء الله والحق والإنصاف من المستشرقين الصليبيين؟!

أين الإرغام ولو كان موجودًا لكان خير مجال لممارسته هم هؤلاء الأسرى، الذين يُحكم عليهم المسلمون قبضتهم الحديدية.

ولكن إسلامهم عن طواعية دليل على كذبكم وبهتانكم، والله متم نوره ولو كره الكافرون».

[محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٦].

المطلب السادس

الدروس العسكرية

١ـ موقف بني المصطلق من الصراع بين المسلمين وقريش:

يقول د/ قريبي: «لم تشر المصادر التي بين أيدينا إلى موقف عدائي محدد صدر من بني المصطلق ضد المسلمين منذ أن تأسست دولة الإسلام حتى كانت غزوة أُحُد، رغم تحرك المسلمين العسكري في أطراف المدينة من جميع نواحيها، حيث أرسلوا السرايا استهدفت عرقلة التجارة المكية إلى الشام، بتهديد طرقها الرئيسة، كما لم تسهم بنو المصطلق مع المشركين في غزوة بدر الكبرى.

وأول إشارة إلى اتخاذهم موقفًا عدائيًّا واضحًا ضد المسلمين هو إسهامهم مع قريش في موقعة أحد، ضمن كتلة الأحابيش [(١)]، التي اشتركت في المعركة تأييدًا لقريش. [سيرة ابن هشام ٢/ ٦١، والمغازي للواقدي ١/ ٢٠٠، والكامل لابن الأثير ٢/ ١٤٩، وزاد المعاد لابن القيم ٢/ ١٠٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٤/ ١٠، ونور اليقين للخضري بك ص ١٣٣، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لأبي شهبة ص ١٩٦].

وبهذا نعلم أن بني المصطلق قد أثَّرت فيها دعايات قريش للاشتراك معها في موقعة أحد، لتأخذ بثأرها وتغطي عار الهزيمة التي نزلت بها في موقعة بدر الكبرى.

وأما قبل ذلك فلم يوجد أي دليل على اشتراك بني المصطلق مع قريش ضد المسلمين حتى كانت غزوة أُحُد وما لحق بالمسلمين فيها من خسائر جسيمة ذات أثر عظيم في أرجاء شبه الجزيرة العربية، وداخل المدينة المنورة نفسها، فضعفت هيبة المسلمين وتجرَّأ عليهم الأعراب، وشمت بهم اليهود والمنافقون، وقاموا بدعاية واسعة ضدهم، وقد أدت الظروف التي أعقبت غزوة (أحد) إلى ما يلي:

(١) طمع المشركين في القضاء على الإسلام والمسلمين والإجهاز على الدعوة الإسلامية نهائيًّا، ويتمثل هذا في رغبة أبي سفيان في العودة إلى المسلمين لاستئصال شأفتهم، غير أنه نكص على عقبيه، بتخذيل معبد بن أبي معبد الذي مرَّ ذكره.

(٢) تنفُّس المنافقين واليهود الصعداء وتربُّصهم الشر بالمسلمين، وهذا عدو داخلي بالمدينة المنورة نفسها.

---

(١) **الأحابيش**: هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة. ينظر: سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٣، والمعارف لابن قتيبة ص٢٦، وأنساب الأشراف للبلادي ص٥٢، وفتح الباري لابن حجر ٥/ ٣٣٤ و٣٤٢، وسُمُّوا بذلك: لأنهم تحالفوا وتعاقدوا مع قريش على أنهم يد على من سواهم، وكان ذلك عند جبل بأسفل مكة يقال به (حبشي) فنسبوا إليه، وقيل: سُمُّوا بذلك لتجمعهم، والتحبُّش التجمع، والحباشة الجماعة. المعارف ص ٢٦٩، ولسان العرب لابن منظور ٨/ ١٦٦، والقاموس المحيط للفيروز آبادي ٢/ ٢٦٧، فتح الباري ٥/ ٣٣٤.

(٣) رغبة الأعداء المجاورين لعاصمة الإسلام من القبائل العربية في التحرُّك ضد المسلمين، بسبب الدعايات المغرضة التي انتشرت على أيدي المرجفين في المدينة من اليهود والمنافقين.

[**الرسول ﷺ لسعيد حوى ١/ ٢٢٩**].

وأصبح المؤمنون مهدَّدين في عُقر دارهم من الداخل والخارج، فمن الداخل المنافقون واليهود فكانوا يذيعون خبر المعركة، ويلفِّقون الأكاذيب لإشاعة الضعف والخور في صفوف المسلمين، ولتشجيع عدوهم عليهم.

وأما من الخارج فقد صار المسلمون لا يحاربون قريشًا وحدها وإنما يواجهون الجزيرة برمتها.

ومن ذلك أن سارعت عدة قبائل إلى التجمُّع للإغارة على المدينة والقضاء على المسلمين فيها، كما حدث ذلك:

(أ) من بني أسد بقيادة طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين، من القبائل النجدية.

(ب) خالد بن سفيان الهذلي الذي كان مقيمًا في عرنة قرب عرفات.

فلما علم رسول الله ﷺ بتجمُّعهم ومحاولتهم اقتحام المدينة بعث إليهم من يؤدِّبهم في عقر دارهم، فأرسل إلى طليحة ومن شايعه أبا سلمة بن عبد الأسد ﷺ على رأس مائة وخمسين رجلًا من المهاجرين والأنصار ففرَّقوا جمعهم واستاقوا نعمهم وعادوا إلى المدينة سالمين.

وأرسل إلى خالد بن سفيان عبدَ الله بن أنيس الجهني ﷺ فقتله في عقر داره، فكان في ذلك ضربة لهم وعبرة لغيرهم ممن يحاول السير على منوالهم، وما نزل بهم حلَّ بغيرهم من بني ثعلبة وبني محارب من القبائل الغطفانية التي حاولت الهجوم على المدينة المنورة كذلك، فخرج رسول الله ﷺ على رأس سبعمائة مقاتل فساروا حتى نزلوا ديار العدو فلم يجدوا فيها أحدًا غير نسوة، فأخذوهن، فبلغ الخبر رجالهن فخافوا وتفرَّقوا في رؤوس الجبال، ورجع المسلمون معزَّزي الجانب، وعُرفت هذه الغزوة بغزوة ذا الرقاع.

وهكذا جنَّد المسلمون أنفسهم عسكريًّا وسياسيًّا، ليثبتوا للقبائل بأنهم مخطؤون في تصوُّرهم أن المسلمين بعد معركة (أُحُد) لا يستطيعون مقاومة من يريد النَّيْل منهم، فجهزوا تلك السرايا والغزوات ليُشعِروا عدوهم بأنهم قادرون على سحق كل من تحدِّثه نفسه بالاعتداء عليهم، أو محاولة النَّيْل منهم، فكانت حركاتهم العسكرية ناجحة، أنزلوا فيها بالأعداء ضربات زلزلت معنوياتهم، وجعلتهم يصحِّحون تصوراتهم الخاطئة، عن مدى قوة المسلمين العسكرية، وترابطهم السياسي والمعنوي، وخاصة المعسكر القرشي واليهودي. [**غزوة الأحزاب لباشميل ص ٢٠**].

وبعد هذا كله جاء دور بني المصطلق؛ إذ إنها كانت ضمن كتلة الأحابيش التي انضمت إلى جانب قريش في معركة أُحُد، ثم أَخذت بعد رجوعها من معركة أحد تعد العدة وتجمع الجموع، وتقتني السلاح

والخيل، على مدى سنتين، كان المسلمون خلال تلك الفترة يواجهون تحرُّكات قبائل الجزيرة، فهم ما بين سرية وغزوة.

فانتهزت قبيلة بني المصطلق فرصة انشغال المسلمين ببقية القبائل، فأخذت تجمع الجموع، وتسعى في القبائل المجاورة لها، تحرِّضها وتشجِّعها على الانضمام معها في الهجوم على دولة الإسلام.

ولما وصل خبرهم إلى رسول الله ﷺ، قدَّر للموقف قدره، وجعل يفكر في مواجهة هذه القبيلة التي استعدت للمعركة استعدادًا كاملًا، فبدأ بمراقبة حركات هذا العدو مراقبة شديدة، ثم أمر بريدة بن الحصيب رضي الله عنه بالذهاب إليهم ليعرف وجهتهم وقوتهم، فجاءه بخبرهم كما سبق بيانه».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٨٩-٩٤].

٢ـ غزوة بني المصطلق من توابع غزوة أُحُد:

يقول د/ الحميدي: «في الفترة التي تلت غزوة أُحد كثرت محاولات القبائل العربية غزو المسلمين في المدينة، وقد بدأت هذه المحاولات من بني أسد وأرسل لهم الرسول ﷺ أبا سلمة رضي الله عنه في سرية، ثم كانت محاولة خالد بن نبيح الهذلي فعاجله النبي ﷺ بالقتل وهو في بلاده على يد عبد الله بن أنيس رضي الله عنه، ثم كانت محاولة قبيلة غطفان فخرج إليهم النبي ﷺ وعاجلهم في غزوة ذات الرقاع قبل أن يجتمعوا، ثم كانت محاولة أصحاب دومة الجندل فغزاهم النبي ﷺ وعاجلهم قبل أن يجتمعوا، وقد سبقت أخبار هذه الغزوات والسرايا، وكانت نتائجها جميعًا لصالح المسلمين، وأخيرًا جرت محاولة بني المصطلق التي جاءت في هذا الخبر.

ولقد كان الدافع لهذه المحاولات ما بثه مشركو مكة من دعايات واسعة ومبالغات عن حجم إصابة المسلمين في أحد، فكان هناك طمع من عدد من القبائل في غزو المدينة ما دام أهلها في حال ضعف.

ولقد كان النبي ﷺ مدركًا لمخاطر تلك الدعايات السيئة، ومن أجل تفادي تلك المخاطر قام بمغامرة ملاحقة المشركين إلى حمراء الأسد ثاني يوم من معركة أحد على ما به وبأصحابه من الجراح، ولقد كان لتلك الغزوة أثرها الواضح في صد مشركي مكة عن العودة إلى المدينة كما سبق، إضافة إلى ما كان لها من أثر في إرهاب الأعداء داخل المدينة والقبائل المحيطة بها، ولكن دعايات الكفار القوية قد لبَّست الأمر على القبائل البعيدة فظنوا أن أهل المدينة قد أصبحوا صيدًا سمينًا سائغًا للمصطادين، وأن المفلح هو من يسبق لهذا الصيد فقاموا بتلك المحاولات التي تمت خلال تلك الفترة.

ولقد كان النبي ﷺ ناجحًا كل النجاح في معاجلة بني المصطلق قبل أن يزحفوا على المدينة، وقبل أن يتكوَّن له جَمْع كبير، كما أن طليعة المسلمين كانوا في غاية الحذر والنباهة حينما قبضوا على عين الأعداء قبل أن يقوم بمهمته، وكان قتله هو الحكمة لئلا يفلت من المسلمين فيُخبر أعداءهم بهم.

ولقد قام النبي ﷺ بالاحتياطات اللازمة لمعرفة خبر الأعداء حتى لا يهاجمهم المسلمون وهم براء مما نسب إليهم، فأرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي ﷺ ليعلم خبرهم، وقد صارحه زعيمهم بمرادهم في غزو المسلمين في المدينة بعد أن خدعه بريدة وأخفى عليه مهمته الحقيقة».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٧٥-٧٧].

٣ـ موقف المسلمين من تحركات بني المصطلق:

يقول د/ قريبي: «لم يقف المسلمون من تحركات بني المصطلق الاستفزازية مكتوفي الأيدي، وإنما درسوا الموقف دراسة ميدانية، وأرسل الرسول ﷺ عيونه لكشف نيات هذه القبيلة ومعرفة استعدادها وتهيئها لغزو المدينة، وقد تم للمسلمين إدراك حقيقة ما تنويه هذه القبيلة من شر وما تبيته للمسلمين من وقيعة، ولم يكن للمسلمين ـ وقد أدركوا الأمر حق الإدراك وتيقنوا من خبث النيات السيئة لهذه القبيلة ـ أن يسكتوا عن الأمر ويتجاهلوا الموقف العدائي الواضح، خاصة إذا عرفنا أن أعداء المسلمين كُثُر في تلك الآونة، فما لم تلقَّن هذه القبيلة درسًا قاسيًا من المسلمين يوقفها عند حدها فإن غيرها من أعداء الإسلام سيقف الموقف نفسه؛ ومن هنا اندفع المسلمون لكسر شوكة هذا العدو وتحطيمه في عقر داره».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٩٧].

٤ ـ كانت غزوة بني المصطلق بدء نهاية تطهير الجو أمام مسيرة المجتمع المسلم بدعوته ورسالته:

يقول الشيخ عرجون: «كانت هذه الغزوة بدءًا لكسح الجيوب المنتشرة هنا وهناك بعد كسر شوكة قريش، ومن كان قد انضوى تحت لوائها من شراذم القبائل التي ساقها الغرور الأحمق إلى منازلة المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ، والتي كانت نهاية غزوة الخندق نهاية لفش تورماتها المتجمعة في تكتلات قد نخر السوس جذوعها، فتفرقت إلى أشتات لم تجتمع بعدها أبدًا للهجوم على هذا المجتمع المسلم؛ وذلك لتحول ميزان قوة هذا المجتمع من رواسب الجاهلية وتراثها المادي المظلم إلى حرب منهجية تقصد إلى نشر الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته إلى العالمين، مستهدفة إقامة منائر العدل والإخاء الإنساني والترابط المتلاحم المتراحم بين أفراد وجماعات الإنسانية في أرجاء الأرض.

كانت بنو المصطلق لا تزال تغط في نوم الرواسب الجاهلية بزعامة رئيسها الحارث بن أبي ضرار، وكانت تصك آذانها أخبار الحروب التي نشبت بين المجتمع المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة وبين أعدائه الذين أقض مضاجعهم صدى انتصاراته المدوية، فتثير في أنفسهم نعرة الطيش المتهور.

وكان بنو المصطلق من بقايا هذا الغثاء المتخلف في سفح جسور الحياة العربية، وقد ملكهم الرعب وخافوا إن هم ظلوا في موقفهم الاعتزالي المتحير المتردد أن تدور عليهم الدائرة وتقضي عليهم كتائب

المجاهدين وهم نائمون، فتحركوا ليهاجموا المجتمع المسلم بقيادة قائده الأعظم رسول الله ﷺ، وأخذوا يعدون العدة، ويتأهبون بكل ما قدروا عليه من الرجال والسلاح والمؤن لمهاجمة قوة هذا المجتمع المنتصر، ومشى زعيمهم ورجالهم في إحياء بقايا غسالات القبائل يجمعونها معهم لتجربة حظهم في رد السيل الجارف الذي اكتسح أمامه كل قوى الجاهلية الوثنية المعتمدة على المظاهر المادية المتهاوية تحت ضربات الجهاد القتالي الذي يخوضه المجتمع المسلم دفاعًا عن وجوده، وإزالة العقبات من طريق دعوته وتبليغ رسالته، رسالة الحق والعدل والنور والهدى». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٠٧-٢٠٨].

٥ ـ أهمية الاستخبارات:

يقول د/ أبو فارس: «إن مهمة الاستخبارات العسكرية جمع المعلومات عن الأعداء في السلم والحرب وفحصها ومعرفة مدى دقتها وتحليلها، ومحاولة الاستفادة منها في الوقت المناسب، وبناء خطة التعامل مع هؤلاء الأعداء على ضوء هذه المعلومات، إن كان التعامل مسالمة أو محاربة، هجومًا أو دفاعًا.

وهذه مهمة جد خطيرة، يجب على كل جيش أن يهتم بها، وأن يسخِّر كثيرًا من طاقاته البشرية والمالية والفنية في هذا الشأن، ولا نعجب إذا رأينا في كل جيش من الجيوش المعاصرة دائرة استخبارات عسكرية.

وإذا درسنا سيرة رسول الله ﷺ فإننا نجده ﷺ حريصًا على جمع المعلومات عن الأعداء وفحصها وتحليلها وبناء خططه على هذه المعلومات.

وكان النبي ﷺ يحرص على بث العيون في كل مكان؛ ليأتوا له بأخبار التحركات العسكرية للأعداء، وأحيانًا كان يبعث العيون ليدخلوا في جيش الأعداء ويعيشوا معه فترة ثم يأتوا بالأخبار الدقيقة عن هذا الجيش، بل ربما عاشوا مع قادته واطلعوا على أسرارهم ونقلوها للمسلمين.

ففي غزوة بني المصطلق أرسل النبي ﷺ بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ليأتيه بأخبار بني المصطلق ومسيرهم، وأذن له أن يقول ما يتخلص به من شرهم، فخرج حتى ورد عليهم ورأى جمعهم، فقالوا له: من الرجل؟ قال: رجل منكم قدمت لما بلغني من جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي ومن أطاعني، فنكون يدًا واحدة حتى نستأصلهم.

فقال له الحارث: فنحن على ذلك، فعجل علينا.

قال بريدة: أركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومي، فسروا بذلك منه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم. [السيرة الحلبية ٢/ ٥٨٣- ٥٨٤].

إن الاستخبارات العسكرية كما ترى لها أبلغ الأثر في كسب النصر والتغلب على الأعداء؛ لأنها تعطي صورة عن تحركات العدو وعدده وعدته وتساعد القائد على رسم خطة دفاعه أو خطة هجوم مضادة، بل إنه على ضوء المعلومات المتتابعة يمكن للقائد أن يطور خطته القتالية.

وكان رسول الله ﷺ يولي عناية فائقة لذلك، وكان يستخدم وسائل متعددة لمراقبة عدوه ورصد حركاته وسكناته، وكان يحالف غير المسلمين ليستعين بهم في رصد تحركات أعدائه وتزويده بها ومن هؤلاء قبيلة خزاعة، فقد كانت مخلصة لرسول الله ﷺ في هذا الأمر».

[المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٦٩-٧٠، غزوة الأحزاب لأبي فارس ٢٩-٣٠].

ويقول عميد/ فرج: «في هذه الغزوة نلاحظ أن رسول الله ﷺ بعث عينًا له تعلم من أمر الحارث وقومه، هذه العين (بريدة بن الحصيب رضي الله عنه) كانت تقوم بدور المخابرات في حروب اليوم، كلف بريدة رضي الله عنه بمتابعة القوم وجمع المعلومات، واتصل بريدة رضي الله عنه بهم ودخل بينهم واختلط بهم وجمع معلوماته، ثم تحايل عليهم وخرج من بينهم وهم يرونه حليفًا وليس عدوًّا، وهذا هو لب عمل المخابرات في جيوش اليوم، ورسول الله ﷺ حين بعث به كان حريصًا على أن تكون بين يديه صورة واضحة عن عدوه، ولقد ذكر مؤرخ يوناني عاش قبل الميلاد (٢٠١-١٢٠ ق. م) يسمى بوليبوس أنه يجب على القائد أن يؤمن إيمانًا راسخًا بوجوب معرفة كل شيء عن خصمه، ومن أهم ما يجب أن ينال عناية القائد هو أن يكون على علم سابق بنوايا العدو وتحركاته حتى يستطيع أن يتخذ اللازم من إجراءات لإفساد خطته، وإن القيام بهذه العملية تتطلب اختيار شخص يُقَدِّر أهميتها، يكون متمتعًا بأكبر قدر من الذكاء، وأن يكون تفكيره ناضجًا ومرتبًا ونقيًّا حتى يستطيع أن يواجه مهمته ببراعة وقدرة، ولعل نجاح بريدة رضي الله عنه في مهمته يؤكد أن رسول الله ﷺ قد أحسن اختيار رجل مخابراته الناجح». [العبقرية العسكرية لفرج ٢٧٢-٢٧٣].

٦ ـ التثبت والتبين في الأخبار:

يقول د/ الزيد: «من بعث الرسول ﷺ لبريدة بن الحصيب رضي الله عنه إلى الحارث بن أبي ضرار، ليتأكد من صحة ما بلغ الرسول ﷺ، نأخذ منه أهمية التثبت والتبين في الأخبار وعدم العجلة، فبعض الناس تستفزهم الأخبار فيتعجلون في أحكامهم ويتبين عدم صحة الخبر، والمطلوب هو التثبت وعدم العجلة حتى يتم التأكد وظهور الحقيقة جلية». [فقه السيرة للزيد ٤٧٥-٤٧٦].

٧ ـ اتخاذ زمام المبادرة القوية في الحروب من أهم أسباب النصر [(١)]:

يقول د/ فيض الله: «ما إن علم النبي ﷺ بتجمع بني المصطلق لحربه، حتى استحث الصحابة لحربهم، فخرج إليهم في سبعمائة من الصحابة المقاتلين، في غير تردد، ولا انتظار هجومهم ليرد اعتداءهم، بل بادرهم بالقتال؛ ولعله كان يرى أن الكسب دائمًا في جانب المهاجِم لا المدافع.

فأضف هذه الحادثة إلى ما ذكرناه لك قبلًا، من الردود على مَنْ ذهب إلى أن القتال شُرِعَ أولًا دفاعًا في مرحلة الحرب الدفاعية، وأن أمر الجهاد لم يستقر إلا بعد غزوة الأحزاب.

---

(١) سبق تفصيلها في سرية أبي سلمة رضي الله عنه إلى قَطَن (بني أسد)، أول المحرم ٤ هـ.

ولم يقتصر النبي ﷺ على المبادرة، بل عمد إلى إخافة العدو بقتل الجاسوس؛ لما رفض أن يجيب على أي سؤال وُجِّهَ إليه، ولم يشأ أن يدلي بأية معلومات عن أحواله، إن انضمام المبادرة إلى هذا القتل، كان قوة في قتال المسلمين، فكان هذا من أول النصر، الذي تم بالملاقاة الحاسمة». [صور وعبر لفيض الله ١٩٧].

«وبنو المصطلق قبيلة عربية تسكن قرب مكة، في المنطقة الواقعة ما بين مكة والمدينة، وقد أراد ﷺ استغلال واستثمار الوقت بمفاجأة تلك القبيلة قبل أن تتحرك ويتكامل استعدادها، أراد ﷺ أن يباغتها بضربة سريعة تشلها؛ لأن أي تأخير قد يضاعف من خطر تلك القبيلة، وذلك لقربها من عدو النبي ﷺ الأول (قبيلة قريش)، أي تأخير يعني مزيدًا من الأعوان والعتاد والخطر، فمباغتة ذلك الجيش الوثني وهو مسترخٍ على أرضه هو أسرع الطرق وأيسرها للقضاء عليه وإراحة المدينة من خطره».

[السيرة النبوية للصوياني ٣/ ٢٧- ٢٨].

٨ ـ إستراتيجية الردع:

يقول د/ الزيد: «كانت هذه الضربة التي وجهت إلى بني المصطلق قد أعطت درسًا لكل من يفكر أن يتجرأ على المسلمين بعد غزوة أُحد، حيث إن هذه الضربة كفَّت الكثير من القبائل العربية عن خطوات مماثلة وجعلتها تشعر أن المسلمين قادرون على حماية أنفسهم ورد الاعتداء عنهم بقوة، وأن وقعة أحد لم تؤثر عليهم [ينظر: الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق لمحمد سعيد القرافي ص ١٩ (بحث غير منشور)]».

[فقه السيرة للزيد ٤٧٧].

٩ ـ تحرز القائد الأعظم ﷺ:

يقول الشيخ عرجون: «وفي طريق رسول الله ﷺ إلى منازل بني المصطلق أتى برجل من عبد قيس، فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أين أهلك» قال: بالروحاء، قال: «أين تريد؟» قال: إياك جئت لأومن بك وأشهد أن ما جئت به حق، وأقاتل معك عدوك، فقال النبي ﷺ: «**الحمد لله الذي هداك إلى الإسلام**» فقال الرجل: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال ﷺ: «الصلاة لأول وقتها».

وسؤال النبي ﷺ للرجل عن أهله، وأين يريد من التحرز الذي ينبغي أن يكون عليه القائد الأعظم، وهو منهج من مناهج الرسالة الخالدة، وهذا التحرز إنما كان خشية أن يكون هذا الرجل عينًا للأعداء، أو كانت طريقه تمر عليهم فيسألونه فيخبرهم عن تجمعات المجتمع المسلم وقائده ﷺ وسيره، ولعل سيره إليهم يكون في طريق سير الرجل، فيخبر القوم وهو لا يشعر». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٠٩].

١٠ ـ أفضلية المسير الليلي وعامل الليل في الأسفار:

يقول ل/ خطاب: «تحرَّك الرسول ﷺ ليلًا في أكثر هذه الغزوات، حتى يحول دون انكشاف نياته واتجاه حركة قواته، فيأمن بذلك مباغتة أعدائه مباغتة تامة بالمكان والزمان.

لقد كانت القبائل التي غزاها النبي ﷺ قوية ولها حلفاء وأنصار، فلو أنها عرفت بمسيره لسارعت بالاستعداد للقائه ولاستعانت عليه بحلفائها وأنصارها لمعاونتها يوم اللقاء.

ولكن المسير الليلي حال بينها وبين ذلك كله، فاستطاع النبي ﷺ بقواته القليلة بالنسبة لقوات تلك القبائل، أن يتغلب عليها ويقضي على نياتها العدوانية، ويلقي الرعب في نفوسها ونفوس القبائل الأخرى التي سمعت بانتصار المسلمين.

إن الضربة الأولى، لها أثر حاسم على نفسية الأعراب، فإذا أمكن التغلب عليهم في المعركة الأولى تشتت شملهم، وإلا فما أصعب القضاء عليهم!

لقد عرف الرسول ﷺ نفسية القبائل هذه فحاول القضاء على معنوياتها بضربة مباغتة بالمسير الليلي الذي أدى إلى تطبيق مبدأ: المباغتة، أهم مبادئ الحرب على الاطلاق». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٦**].

ويقول أ/ كولن: «لقد كان الرسول ﷺ يختار الليل لجميع أسفاره، ففي الليل سر آخر، ثم ألا يوصيه القرآن ـ وإن كان من طرف خفي ـ بذلك؟ والرسول موسى عليه السلام قاد المؤمنين ليلًا للهروب معه؛ لأن الله تعالى قال له: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الدخان]، وأصدر الأمر نفسه إلى النبي لوط عليه السلام: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ [هود: ٨١] وعندما أسرى بسيد الأنبياء ﷺ، ثم بدأ بسياحته السماوية التي تجاوز فيها جبريل عليه السلام، كان هذا الإسراء ليلًا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء].

وهناك سفر ليلي لكل نبي تقريبًا، فالمنازل تقطع بالليل وتصبح تلك الليالي ليالي الوصول والقرب إلى الله.

والله تعالى يقسم بالليل في كثير من آياته، فأعمال البر والخير الوضيئة التي تعمل في ظلام الليل البهيم تجعل الليل أضوأ من النهار وأكثر منه نورًا.

يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حقي الأرضرومي:

يا عين ما هذا النوم؟ تعالي واستيقظي في الليالي.

وتأملي.. تأملي سير الكواكب في الليالي

فالذي يقطع المسافات يقطعها ليلًا، وفي الليل تبتل سجادته بالدموع عندما يخر للسجود، هنا يستطيع روحه أن يرتفع ويقطع المسافات، والذي تعودت جدران بيوته على سماع تأوهاته يستطيع التسلق إلا آفاق تقصر دونها المسافات، أمثال هؤلاء يقطعون هذه المسافات في الليل، والذين قطعوا هذه المسافات قطعوها ليلًا، أما الذين ناموا في الليالي فقد بقوا في وسط الطريق، فإن كنتم تريدون الخلاص من عذاب البرزخ، فلا تدعوا لياليكم دون تهجد، لا تدعوها لأن الرسول ﷺ لم يدعها.

يقول محمد إقبال: «بقيتُ عشرين سنة في لُندن، في عالم الضباب، ولا أتذكر أنني تركت صلاة التهجد في أي ليلة من لياليها».

أجل، فمن يستغل الليل ـ حيث ينقطع كل صوت ـ سيجد كل كلام يتلفظ به صدى في وجدانه، وسيستطيع قطع المسافات.

فكان الرسول ﷺ يقطع المسافات المادية والمعنوية في الليل؛ لذا كان يسافر ليلًا ويرتاح نهارًا، وهكذا يفاجأ الأعداء به، إذ يرونه أمامهم فجأة فيذهلون ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الصافات].

وهذه الآية تعرض مقطعًا صغيرًا من هذا المنظر، أجل، كان إذا نزل في ساحة قوم أعداء بجيشه فهذه يعني أن أمر هؤلاء الأعداء يُعد منتهيًا وساء صباحهم.

كان الرسول ﷺ يهاجم في السَّحَر.. [مسلم، الصلاة، ٩]، ففي السحر كانت تظهر معتقدات أهالي تلك المنطقة، وذلك عند قيامهم ـ وعدم قيامهم ـ برفع الأذان وإقامة الصلاة. فالسَّحَر هو الوقت الذي تهب فيه نسائم التجلي، يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حقي:

تهب نسائم التجلي في السحر فيا عينيَّ! استيقظا عند السحر

وقت السحر مهم جدًّا لدى المؤمن، فهو الوقت الذي تهب فيه على المؤمن نسائم التجلي، وفيه يتهيأ لولوج عالم المعاني لأنه يتهيأ فيه للصلاة.

لذا، كان الرسول ﷺ يختار الفجر على الدوام، فبينما كان العدو ينهض من فراشه متثائبًا، إذا به يرى المؤمن المتوثب نشاطًا أمامه، كانت هذه هي طريقته في أغلب الأحيان، فعندما هتف أمام أسوار خيبر: «**الله أكبر! خربت خيبر!**» [**البخاري، الصلاة ١٢، الأذان ٦، مسلم، الجهاد ١٢٠، الموطأ الجهاد، ٤٨**] اهتزت هذه الأسوار، ولكن لم يدر أحد كيف وصل هذا الجيش إلى هناك؛ لأنه ﷺ كان يقوم بغزواته بسرعة البرق، ويجد في سير متصل بحيث إن أسرع الجمال ما كانت تستطيع اللحاق به، وكانت غزوة بني المصطلق من هذه الغزوات السريعة، وعندما ذر النفاق بقرنه عند العودة من هذه الغزوة، رأى بفطنته الكبيرة أن أفضل وسيلة للحيلولة دون انتشار آثار فتنة النفاق هو إصدار الأمر بالسفر المتصل دون توقف؛ وبفضل هذا السير المتصل لم يجد المنافقون الفرصة لزيادة نار الفتنة، ومع أن عبد الله بن أُبي بن سلول كان يخطط في فكره أشياء وأمورًا إلا أنه لم يجد الوقت الضروري لإنضاج أفكاره أو وضعها موضع التنفيذ، فالجميع كانوا في سير سريع وكأنهم يَعْدُون عَدْوًا، لقد تم الذهاب والإياب بهذه السرعة، فتعب الجميع تعبًا شديدًا؛ لذا فما أن أعطى لهم الإذن بالراحة حتى وقعوا نيامًا حتى طلوع الشمس في اليوم التالي، ولعله المرة الأولى التي تم فيها أداء صلاة الصبح في الضحى. [**البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ١٨٠**].

استمر هذا حتى السنة الخامسة للهجرة؛ لذا علمت القبائل أن أيًّا منها لن تستطيع الوقوف وحدها أمام الرسول ﷺ؛ لذا قررت توحيد قوتها والوقوف معًا أمام الرسول ﷺ، وهكذا جمعوا قواتهم وتوجهوا إلى المدينة». [**النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ٩٣-٩٥**].

١١ ـ الإبداع:

يقول ل/ خطاب: « **الإبداع**: سَبْق العدو بالعمل لإرغامه على تبديل الخطة التي اتخذها وإرغامه للانقياد إلى رغائبك.

والإبداع هنا، معناه: سرعة الخاطر في إعطاء القرار الجازم الصحيح في المواقف الحرجة، مع تحمل مسؤولية ذلك القرار مهما تكن النتائج.

وكان عمل النبي ﷺ تحريكه قواته بعد غزوة بني (المصطلق) عندما علم بمحاولة عبد الله بن أُبي لإثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار، واستمرار المسير الشاق لمدة ثلاثين ساعة... كان عمل الرسول ﷺ هذا إبداعًا متميزًا، إذ لولا مسارعته إلى الحركة بقواته حتى أنهكها التعب لما استبعدنا بتاتًا نجاح عبد الله بن أُبي في فتنته.

إن مزية الإبداع من أعظم مزايا القائد القدير». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٧-٢١٩**].

١٢ ـ أخذ الشارة والشعار في المعارك:

سبق تفصيله في غزوة بدر الكبرى المرحلة الأولى.

١٣ ـ قدرة القيادة على حل المشكلات:

يقول د/ أبو فارس: «إن القائد العسكري هو الذي يواجه المشكلات ولا يهرب منها، بل يفكر جديًّا في حلها ولا يقف عند التفكير الجدي، بل يتجاوزه إلى الحل العملي لها؛ لأن الإهمال يتولد عنه أخطار كثيرة، ربما تعصف بأمن المجتمع والدولة؛ لأن ذلك يؤدي إلى الفتن، والفتن تؤدي إلى التنازع، والتنازع يؤدي إلى الفشل، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[الأنفال: ٤٦].

إن أخطر شيء على الأمة المشاكل الداخلية، فهي تشغلها عن عدوها، وتبدد جهودها وقدراتها، وتوهن قوتها، وتضعف بنيانها.

لقد كان رسول الله ﷺ حريصًا كل الحرص على حل المشكلات التي تحدث في دولته سواء عسكرية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية.

إننا نقرأ في سيرة رسول الله ﷺ بعض المشكلات التي حدثت ونقرأ كيف حلها ومن هذه القضايا: الفتنة في غزوة بني المصطلق.

لقد انتصر رسول الله ﷺ في هذه الغزوة على أعدائه، وغنم من الإبل والشياه آلافًا، كما أسر كثيرًا من الأسرى، ولكن هناك من نغص على المسلمين هذا النصر وهو رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، إذ استغل خلافًا بين غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، ليشعل فتنة بين المهاجرين والأنصار.

وقد انتهت هذه الفتنة، لا سيما وأن الأنصاري المضروب تنازل عن حقه لدى المهاجري، فماتت بذلك الفتنة، ولكن رأس النفاق قد أشعل الفتنة من جديد، فنفث الشيطان في النفوس، فكيف عالج الرسول ﷺ هذه المشكلة وقطع دابر الفتنة، وأخرس ألسنة السوء؟

لقد أمر الرسول ﷺ بالرحيل في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها.

لم يأذن رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ بقتل عبد الله بن أُبي بن سلول لأنه صاحب الفتنة؛ لأن في قتله فتنة كبرى في الداخل والخارج، فله أقارب وأصدقاء لم يدركوا حقيقته؛ ولهذا كان موقف الرسول ﷺ أن يصبر على أذاه حرصًا على وأد الفتنة، إن الصبر الحكيم على المجرمين له ثمرته، أنه يفضح أمرهم، ويُظهرهم على حقيقتهم أمام أقرب الناس إليهم فيحددون موقفهم منهم؛ ولهذا جاء ولد عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ فقال له ما عرضناه سلفًا من أقواله، وكان من فعل ولده أيضًا ما رأيناه.

حقًّا لقد أنتجت هذه السياسة الحكيمة لرسول الله ﷺ فكشفته على حقيقته ليس لولد عبد الله بن أبي بن سلول فحسب بل لجميع أقاربه من المؤمنين الصالحين فنفر منه كثير من الناس الذين خُدعوا به فترة من الزمن، وأصبح عندهم منبوذًا، لا يسمعون له بل أصبح عندهم قتله مستساغًا، ولو قتله في جو الفتنة لثارت له أنوف لا مانع لديها اليوم من قتله.

أما علاجه ﷺ للفتنة التي أطلت برأسها وأشرفت، فلم يكن بالاستمرار في مكان الفتنة، فإن الكلام لا ينقطع والمحاورة تستمر، وباستمرارها تزيد النار اشتعالًا، وتوجد الفرصة المواتية لمشعلي نار الفتنة ليزيدوها اشتعالًا وضرامًا، بل كان العلاج الأمر بالمسير وعدم الاستقرار مسافة طويلة جدًّا، أنهكت أجسامهم فانشغلوا بتعبهم عن الحديث في الفتنة، وما أن أمرهم رسول الله ﷺ بالنزول حتى ناموا فنامت الفتنة بنومهم.

بهذا التصرف الحكيم عالج رسول الله ﷺ هذه المشكلة وقضى على الفتنة وقطع دابرها».

[المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٥٠-٥٣].

١٤ ـ مراقبة الأعداء في الجبهة الداخلية:

يقول د/ أبو فارس: «ومن مهمات الاستخبارات العسكرية أيضًا مراقبة الأعداء في الجبهة الداخلية وجمع المعلومات عنهم، وإن أخطر عدو كان في عهد رسول الله ﷺ وفي المدينة يسكن مع رسول الله ﷺ بعد اليهود المنافقون.

وكان الرسول ﷺ لا يغفل لحظة واحدة عن مراقبة هؤلاء ورصد حركاتهم وسكناتهم وتصريحاتهم وأقوالهم، وكان كل صحابي يسمع كلامًا يسيء للمسلمين ينقله إلى رسول الله ﷺ حتى يتخذ الموقف المناسب منهم، هذا ولقد تكفلت سورة براءة وغيرها بفضح هؤلاء المنافقين وهتك أستارهم وكشف أسرارهم.

أما الشواهد من السيرة على اهتمام الرسول ﷺ وأصحابه بخطر هؤلاء ومن ثم مراقبتهم واتخاذ التدابير الناجعة بحقهم فكثير، ومن هذه الشواهد ما حدث في غزوة بني المصطلق، حينما تخاصم غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فاستغل رأس المنافقين هذا الأمر ليحاول إحداث فتنة بين المهاجرين والأنصار وقال كلامًا أساء فيه إلى رسول الله ﷺ وإلى المهاجرين، وقال فيما قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وسمعها زيد بن أرقم رضي الله عنه فأخبر بها النبي ﷺ فطلب عمر رضي الله عنه قتل رأس المنافقين لأنه عامل فتنة، وقد نقل زيد بن أرقم رضي الله عنه لرسول الله ﷺ قول رأس المنافقين الذي يحرض المنافقين وغيرهم على الشح والبخل وعدم الإنفاق على فقراء المسلمين حتى ينفض الناس عن رسول الله ﷺ». [المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٧٥-٧٦].

١٥ ـ الدروس العسكرية المستفادة من غزوة المريسيع:

يقول العميد/ كاخيا: «حفلت معركة غزو يوم المريسيع أو غزوة بني المصطلق وما رافقها من أحداث ووقائع متتالية بدروس عسكرية مفيدة من أبرزها:

(١) **انتهاج الأسلوب الهجومي في رد كيد الأعداء**: وذلك بخروج الرسول الكريم ﷺ مع المسلمين سراعًا لملاقاة جموع بني المصطلق في مكان تحشُّدهم، بدلًا من انتظار مسيرهم إلى المدينة المنورة وتهديدهم أمنها وأمن المسلمين الموجودين فيها، ما يسمى في عصرنا الحاضر (الضربة الاستباقية).

(٢) **الاعتماد على الاستطلاع القتالي والحيطة القتالية**: وهذا رأيناه عندما أرسل رسول الله ﷺ الصحابي بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه إلى ديار بني المصطلق كي يعلم له أخبار تحشُّدهم ونواياهم في مهاجمة المسلمين، حتى أن هذا الصحابي أخفى انتماءه والجهة التي أرسلته وتوصل أن يتكلم مع الحارث بن أبي ضرار نفسه في موضوع الحرب.

(٣) **عرض الإسلام على الأعداء ومحاولة تجنب القتال**: عندما بعث ﷺ بعمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى القوم وعرض عليهم الإسلام قبل بدء الأعمال القتالية؛ كي يمنعوا أنفسهم وأموالهم من المسلمين، فأبى بنو المصطلق هذا العرض وأصروا على متابعة العداء؛ مما أدى إلى شن الهجوم من قِبل المسلمين عليهم، وما آلت إليه نتائج هذه المعركة، وهذا ما يُطلق عليه الآن (إنسانية الحرب ومحاولة حل النزاعات بالطرق السلمية).

(٤) **تنظيم المعركة الهجومية من قِبل الرسول الكريم ﷺ**: عندما صفَّ المسلمين في ترتيب قتالي هجومي، وهو (القتال بالصف)، وقسَّم جيش المسلمين إلى كتيبتين: المهاجرين والأنصار، ولكل عنصر من عناصر ترتيب القتال هذا رايته الخاصة من أجل القيادة والتعارف والسيطرة على القوات والأفراد حين القتال التلاحمي الهجومي، ورأينا أيضًا وضع شعار للمسلمين (يا منصور أمت أمت)؛ من أجل تعارف مقاتلي المسلمين مع بعضهم عند القتال القريب؛ ولئلا يقتل المسلم مسلمًا خطأً ظنًا أنه مشرك من الأعداء.

(٥) **المسير المديد والشاق الذي فرضه الرسول ﷺ على جيشه حين العودة**: عندما حاول المنافقون إشعال نار الفتنة في صفوف جيش النبي ﷺ في هذه الغزوة، ونشر روح التفرقة، أمر الرسول الكريم ﷺ الجيش بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل فيها كعادته، ومشى بالجيش يومهم حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم التالي حتى آذتهم حرارة الشمس، ثم وقعوا نيامًا بمجرد أن لامست الأرض أجسادهم، وإنما فعل النبي ﷺ ذلك من أجل أن ينسوا حديث الفتنة، وينشغلوا بأمر أهم وهو التعب والجهد وقلة النوم؛ قاصدًا من ذلك المحافظة على الروح المعنوية والكفاءة القتالية لجيش المسلمين.

(٦) **إطلاق سراح الأسرى من بني المصطلق وإكرام معاملتهم**: فقد أطلق الرسول الكريم ﷺ سراح جميع الأسرى من مقاتلي بني المصطلق كونه أَسَرَ في المعركة جميع رجالهم نتيجة لزواجه ﷺ من أم المؤمنين جويرية بنت الحارث سيد القوم، فأسلم معظمهم من تلقاء نفسه بعد أن لمسوا المعاملة الحسنة والرحمة والشفقة من قِبل المسلمين ونبيهم المصطفى ﷺ». [**الغزوات النبوية لكاخيا ٥٧-٥٩**].

١٦ ـ ضعف مقاومة بني المصطلق:

يقول د/ قريبي: «أما كون المسلمين لم يلقوا في هذه الغزوة مقاومة شديدة على الرغم من تحشد بني المصطلق واستعدادهم الكامل للمعركة، فلعل هذا يفسر بأمرين:

الأول: علم المسلمين المسبق باحتشاد هذه القبيلة للهجوم على المدينة، واستعداد المسلمين الكامل في هذه الغزوة، وأخذهم الحذر التام.

الثاني: هجوم المسلمين المبكر على هذه القبيلة قبل أن تقوم هي بالهجوم.

ومن المعلوم أن العدو إذا بوغت في عقر داره على حين غفلة، فإنه تتحطم معنوياته وتنهار قواه، ويسهل القضاء عليه، ويصاب بالذعر والاندحار، حتى ولو كان قد أعد عدته، وجمع الجموع، كما حصل لهذه القبيلة، فإنها قد تهيأت عسكريًا وجمعت جموعها لمهاجمة المدينة المنورة، غير أن المسلمين كشفوا القضية قبل أن تقوم هذه القبيلة بالهجوم، فكان المسلمون هم المهاجمين، ولقَّنوا هذا العدو درسًا كان عبرة له، وردعًا لأمثاله، ممن تسول لهم أنفسهم مهاجمة عاصمة الإسلام (المدينة المنورة).

وهذان الأمران: يفسران عدم لقاء المسلمين أية مقاومة تُذكر في هذه الغزوة، إلا ما يحصل عادة من مناوشات ومحاولات يائسة للدفاع عن النفس، وبه يفسر ما ذكرته كتب المغازي من وجود صدام وقتلى، لم يؤد إلى وجود خسائر في صفوف المسلمين، مما يؤيد أن الرسول ﷺ كان قد علم بتبييت هذا العدو الغزو له، فعاملهم بنقيض قصدهم وهجم عليهم قبل أن يهجموا عليه، وهذا يدل على ما كان عليه المسلمون ـ بقيادة نبيهم ﷺ ـ من يقظة كاملة لكل تحركات الأعداء من الداخل والخارج على سواء». [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٤٨ - ١٤٩].

١٧ ـ أهم نتائج غزوة بني المصطلق:

يقول د/ آل عابد:

(١) فرار الجموع التي جمعها الحارث بن أبي ضرار ليغزو بها المدينة خوفًا من المسلمين من قبل حدوث المعركة.

(٢) ازدادت قوة المسلمين بعد انتصارهم على بني المصطلق، فلم تعد أي قبيلة تفكر في غزو المدينة بمفردها.

(٣) أصبح الخط الرئيس المؤدي إلى مكة سالكًا للمسلمين، فقد كان بنو المصطلق يكونون حاجزًا مانعًا من نفوذ المسلمين إلى مكة.

(٤) وقعت ثلاثة أحداث في هذه الغزوة كانت لها آثار عظيمة هي:

(أ) وقوع جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في الأسر، وتحمل النبي ﷺ كتابتها، وزواجه منها، كل ذلك كان بركة على قومها حيث أدى إلى فكاكهم من الأسر.

(ب) ما حصل من عبد الله بن أبي رأس النفاق من محاولة إثارة الفتنة بين المسلمين، وتدارك النبي ﷺ للموقف، ونزول القرآن مؤيدًا لزيد بن أرقم ﵁، كل ذلك كان تربية عملية للمسلمين في كيفية مواجهة المصائب والفتن والخروج منها بسلام.

(ج) حديث الإفك، ونزول القرآن ببراءة السيدة الحَصَان عائشة ﵂، كل ذلك كان درسًا قاسيًا تلقته الجماعة المسلمة، وخاصة البيت النبوي الطاهر.

(٥) إسلام الحارث بن أبي ضرار، وإسلام بني المصطلق معه، وحسن إسلامهم، فأصبحت ديار بني المصطلق داخلة في نفوذ المسلمين». [حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ١/ ٣٢١].

١٨ ـ نتائج الحركات العسكرية بعد أُحد:

يقول د/ العمري: «ولا شك أن حركات المسلمين العسكرية في أنحاء شبه الجزيرة العربية وتحديهم لقريش في بدر الموعد، واستمرارهم في الضغط على اقتصاد مكة بالسيطرة على الطرق التجارية، كل ذلك

كان يهيئ ظرفًا مناسبًا لتحالف المشركين مع يهود الذين أجلى المسلمون منهم بني قينقاع وبني النضير عن المدينة، وبقيت قريظة ظاهرها احترام الحلف بينها وبين المسلمين وباطنها الحقد والرغبة في الانتقاض والانتقام، وقد تكشفت حقيقة ذلك فيما حدث في غزوة الأحزاب».

[السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤١٦].

ويقول أ/ الشيباني: «قام الرسول ﷺ بسلسلة من العمليات العسكرية قاد بعضها بنفسه أو أنفذ سرايا يقودها صحابته كعمليات تأديبية ضد القبائل التي تحشدت لغزو المدينة، وكان أن بلغ في إحدى غزواته الطرف الشمال الغربي من الجزيرة العربية لضرب التحشدات المعادية في دومة الجندل؛ لمنع انضمام قبائل الشمال إلى التحالف المعادي للإسلام.

وكان لهذه التحركات العسكرية أن وطدت دعائم الحكم الإسلامي في المدينة، وقوَّت ساعد المسلمين، وشلت حركة قريش التي تميزت في تلك المرحلة بالسلبية، يقول غلوب باشا: (ولعل المفارقة العظيمة بين الجانبين في هذه السنوات من سنوات المعارك تبدو واضحة جلية فيما تميز به المسلمون من نشاط لا حدود له، وما تميزت به قريش من سلبية وجمود، وظل المسلمون يقومون بغزوات وسرايا من هذا النوع، من قاعدتهم في المدينة ضد القبائل البدوية الحليفة لقريش مستعينين فيها بحلفائهم من البدو، أما الأفراد الذين يُظهرون عداء شديدًا للمسلمين أو للنبي ﷺ فكان مصيرهم القتل).

[جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٢٤].

كان الرسول ﷺ يدرك أن معركة ما بين المسلمين والمشركين واقعة ولا مناص؛ ولذلك كانت أعماله تهدف إلى إعطاء الثورة الإسلامية زخمًا وقوة استعدادًا للمستقبل، وإضعاف لجبهة الأعداء، يقول مونتجمري وات: (وهكذا استطاع محمد ﷺ في الفترة الواقعة بين موقعة أحد وحصار المدينة ـ وإن عجز عن منع المكيين من تكوين حلف ضده ـ أن يمنع كثيرًا من القبائل من الانضمام إليهم، وزادت القوى التي كانت في حوزته، ولم يكن يستطيع أن ينظر إلى الهجوم المهدد له بدون قلق ولكنه لم يفقد الأمل).

[منتجمري وات: محمد ﷺ في المدينة ص ٥٣]. [الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقية المنصفة للشيباني ٦٤-٦٥].

المطلب السابع

الدروس الدعوية

١ ـ التعجيل في مواجهة العدو:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا أن النبي ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون الجموع لقتاله، وأنه ﷺ سار إليهم بجيشه حتى باغتهم على ماء المريسيع.

ويستفاد من هذا أن من حسن التدبير والسياسة الحكيمة لولي الأمر في الدولة الإسلامية أن يباغت العدو إذا انكشفت نيته في محاربة المسلمين كأن يجمع لهم جموعه، وهذا إذا كان للمسلمين القوة الكافية للخروج إلى العدو وقتاله والهجوم عليه.

أما إذا لم يكن للمسلمين القوة الكافية للقيام بما ذكرنا فعلى ولي الأمر فيهم أن يأخذ خطة الدفاع وعدم الهجوم، كما فعله ﷺ في معركة الخندق حيث حفر الخندق حول المدينة وتهيأ للدفاع عنها، ولم يخرج ﷺ لقتالهم لعلمه بضخامة جيش العدو، وعدم القدرة على ملاقاته وجهًا لوجه.

فالمسألة تقديرية متروكة لولي الأمر.

فعلى الدعاة بيان ذلك باعتباره من الفقه الشرعي الذي يشمل مختلف شؤون الحياة.

كما ينبغي للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تباغت خصومها، بإفشال خططهم الخبيثة نحوها وذلك بكشف ما يثبت سوء نيتهم وقصدهم الخبيث لإيذاء الدعاة وجماعتهم المسلمة.

ولا ينبغي للجماعة المسلمة الانتظار حتى يباشر أعداؤها فعلًا تنفيذ ما يؤذيهم ويلحق الضرر بهم.

ويعتبر هذا الكشف من جماعة الدعاة لخطط الاعتداء عليها وعلى أفرادها من نوع الهجوم على العدو قبل أنْ يبدأ هو بالهجوم.

كما أن على الدعاة وهم يقومون بتبليغ دعوتهم، إذا شعروا بما يبيت لهم من سوء وكيد، أن يكشفوا ذلك للمسؤولين في منطقتهم، ويبينوا القرائن الدالة على ذلك حتى لا يؤخذ الدعاة على حين غرة، كما لو أراد أحد الدعاة إلقاء محاضرةٍ في منطقة معينة أو في مسجد، علم بأن خصوم الدعاة يبيتون ما يمنع هذه المحاضرة، كأن يجندوا بعض الجهال للتحرش بالداعي، أو بمنع من يريد الحضور لسماع المحاضرة من دخول مكان إلقائها، فعلى الداعي أخذ ما يلزم لمنع الخصوم من تنفيذ ما يريدون، كأن يخبر المسؤول الإداري أو الأمني في المنطقة بذلك؛ ليأخذ ما يلزم لمنع حدوث ذلك.

أما إذا لم يعلم الداعي من خصوم الدعاة النية على إفشال عمله الدعوي، فعليه أن يأخذ الحيطة من كيدهم بمراقبة من يريد الإخلال بجو المحاضرة ومنعه من ذلك». [**المستفاد لزيدان ٢/ ٣٠٠-٣٠١**].

٢ ـ تحيُّن الفرص في تبليغ الدعوة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان النبي ﷺ وأصحابه يحرصون كل الحرص على تبليغ دعوة الإسلام لكل إنسان يرونه وإن كان عدوًّا، بل إنهم ينطلقون إلى الناس في مضاربهم ومساكنهم يبلغونهم هذا الدين؛ ذلك لأن وظيفتهم الأولى في الحياة الدنيا نشر الدعوة الإسلامية، وتبليغها للناس كافة، وما شرع الإسلام الجهاد، وما خاض المسلمون هذه الغزوات وغيرها إلا لإزالة العقبات التي تعترض الدعاة حين يريدون تبليغ الدعوة الإسلامية أو تعترض الناس حين تصلهم الدعوة الإسلامية فيؤمنون بها ويستجيبون لأوامرها.

وفي غزوة بني المصطلق وبعد أن اصطف الفريقان للقتال أمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي بني المصطلق يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تمنعوا أموالكم، فأبوا إلا القتال».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٩٧٠]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٦].

٣ ـ حرص الأفراد على وحدة الصف وتماسك الجبهة الداخلية:

يقول د/ أبو فارس: «إن بقاء الجماعة المسلمة، وقوة شوكتها، وأثرها على أعدائها، يعتمد على مدى تماسك جبهتها الداخلية، ووحدة صفها، وإن أي توهين لوحدتها يعني ضعفها أمام أعدائها الطامعين.

لقد وقف رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق يبذر بذور الفتنة لتمزيق وحدة الأمة، وإثارة النعرات الجاهلية بعد أن قضى عليها الإسلام، فحاول أن يستغل الخصومة التي حدثت في هذه الغزوة بين غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، ففطن رسول الله ﷺ لذلك وقضى على هذه الفكرة في مهدها.

ويؤخذ من تصرف زيد بن أرقم رضي الله عنه الذي أقره القرآن أنه يجوز نقل الأخبار إلى القيادة المسلمة إذا كانت هذه الأخبار تضر بالمصلحة العامة، وأن كتمانها مع معرفة أثرها السلبي يؤذي المجتمع الإسلامي، ومن ثم فقد ارتكب صاحبها مخالفة شرعية.

نعم لقد كان زيد بن أرقم رضي الله عنه في نقل أخبار الفتنة لرسول الله ﷺ محقًّا ومحققًا لمصلحة المسلمين، وظل وفيًّا لرسول الله ﷺ لا يسمع شيئًا يضر بالمصلحة العامة إلا نقله عنه، ولو كان المتحدث أقرب الناس إليه، هكذا كان منهاجه، لقد كان زيد بن أرقم رضي الله عنه بعد حادثة عبد الله بن أُبي بن سلول يقول: والله لو تكلم أبي عن رسول الله ﷺ لأخبرته. [السيرة ـ لمحمود شاكر ٢/ ٢٧٢].

ومن أخطر الفتن النَّيْل من القيادة المسلمة ومنازعة الأمر أهله، وشق عصا الطاعة.

ولا غرو إذا علمنا أن أعداءنا يحرصون على تصديع صفنا من الداخل، بإثارة الفتن، عن طريق النعرات الإقليمية، والنزعات العرقية، والحركات القومية.

ومن المؤسف حقًّا أن نراهم قد أفلحوا في أيامنا هذه بنشر هذه الحركات الهدامة التي هدمت أول ما هدمت وحدة الأمة الإسلامية ومزقتها إلى دويلات وطوائف متناحرة، وفئات متعصبة لعرق أو جنس أو لون أو إقليم.

هذا هو تخطيط أعدائنا، وفي مقدمتهم لورانس الذي هداه شيطانه بعد طول بحث لاختيار شعار القومية العربية لتمزيق وحدة الأمة الإسلامية والقضاء على دولتها في مطلع القرن العشرين».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٠-٤٢].

٤ ـ الزواج وأثره في الدعوة:

يقول د/ الغضبان: «وهذه السمة ذات دلالة واضحة على الاتجاه العام في تأليف قلوب الخصوم وتقريبهم للإسلام، وأن الجهاد السياسي قد يكون من وسائله الناجعة الزواج والمصاهرة من الخصوم.

وما أحوج شباب الإسلام إلى هذه الفقه السياسي والأفق الواسع في فهم طبيعة هذا الدين، إن الشباب المسلم كثيرًا ما يتحمس في قضية التميز والمفاصلة؛ حتى يتحجر على نفسه، وينغلق على ذاته، ويجعل سدًا منيعًا على أفراده، فلا يدخل في الصف الإسلامي أحد ولا يحرص على دخولهم في الأصل، وتسيطر عليه فكرة الحرب والكراهة لأعداء الله، وفكرة الإذلال والإهانة لهم، وينسى أنه داعية قبل كل شيء وأن هدفه الأخير كذلك أن يدخل الناس في دين الله أفواجًا، وبالتالي فلا بد أن يدرك الداعية أن هداية هؤلاء الخصوم ودخولهم في الإسلام هو الهدف الأول، وليس ذبحهم والقضاء عليهم، وأن تألف كبار الخصوم وربح قلوبهم هو ربح لقلوب أتباعهم جميعًا، ونتمنى أن يفرِّق الأخ بين أساليب التأليف والتحبيب بالإسلام وبين أساليب المداهنة في دين الله والتنازل عن الإسلام في سبيل ذلك.

وشيء آخر ما أحوج دعاة الإسلام إليه، فالزواج نفسه قد مسخ عن مفهومه الأول واقترب في الواقع العملي وفي صفوف شباب الإسلام من الزواج الكهنوتي النصراني، حيث إن التعدد قد أصبح نشازًا في الصف الإسلامي، وأصبح غريبًا غربة اقتراف المنكر، وقادة الدعوة هم المثل المقتدى به في هذه الدعوة فلا بد أن يكونوا نماذج حية في تطبيق هذا الفهم النبوي في جعل الزواج والتعدد وسيلة من وسائل بناء الدعوة وتقريب القلوب والالتحام مع الخصوم والأصدقاء، وما رأيناه من إقدام رسول الله ﷺ على الزواج من زينب وتحطيم عادة التبني من خلال الزواج بمطلقة متبناه وما تحمَّله ﷺ من مواجهة المجتمع الجاهلي الذي يُحرِّم هذا الزواج حتى يزيل الحرج عمليًّا عن المؤمنين في الإقدام على هذا الزواج هو دفع للدعاة الكبار أن يتأسوا برسول الله ﷺ وينقلوا قضية الزواج من مفهومها المحدود حيث البحث عن الجمال والبكر والسن الصغير للارتقاء بها إلى الأفق الواسع الذي يشيع المودة والرحمة بين أبناء الأمة جميعًا ورفع مستوى المرأة الثيب وزوجات الشهداء إلى المستوى الكريم اللائق بهن أنهن محط أنظار القيادة ولسن من المحرومات اللواتي انصرف النظر عنهن فقط لأنهم ثيبات.

إنها مسؤولية جسيمة يضطلع بها الدعاة وأخص بالذكر القيادات لوضع الزواج في وظيفته الاجتماعية العامة وجعل الكفاءة حقيقة من خلال الدين والخلق لا من خلال الجمال والحسب والبكارة، ومن خلال مصلحة الإسلام العليا لا من خلال الرغبة الجنسية المحدودة.

والنظر إلى الزواج على أنه وسيلة هامة من وسائل الدعوة لا على أنه معيق من معيقاتها، ولابد أن تتدرب الأخوات المسلمات كذلك على هذه المعاني ويلجمن أهواءهن وأنانيتهن وغيرتهن أمام

مصلحة الإسلام وعقيدة الإسلام ومصلحة أخواتهن اللاتي لم يكن لهن من ذنب إلا أن فقدن أزواجهن في سبيل الله». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ١٤-١٥].

٥ ـ يعتبر العتق سببًا هامًّا من أسباب انتصار الإسلام وانتشاره:

يقول د/ فيض الله: «فتح الإسلام أبواب العتق على مصارعها، ويسر سبله، وجعله من أعظم أسباب مرضاة الله، كما قال ﷻ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد].

على عكس ما كان عليه الحال عند الرومان، والدول التي عاصرت فجر الإسلام وسبقته؛ وذلك في الوقت الذي حدد أسبابه، وضيَّق روافده، وألغى أكثرها، إلا سببًا واحدًا، وهو الاسترقاق في الحروب، ضرورة التماثل في التعامل الخارجي.

وقد أحرزت سياسة تحرير الرقيق نجاحًا كبيرًا في الصف الإسلامي عبر القرون، كما يبدو ذلك لمتتبع تاريخ الإسلام السياسي، وتاريخ رجال الإسلام والموالي، وعادت على المسلمين بحصيد وافر، وحصيلة ضخمة، من الأمم والشعوب والرجال الأفذاذ.

وتعتبر غزوة المريسيع، من الغزوات الفريدة المباركة، التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها، وكان الحادث الذي أسلمت القبيلة من أجله، هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم، بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم ﷺ، وحيال هذا العتق الجماعي، وإزاء هذه الأريحية الفذة، دخلت القبيلة كلها في دين الله.

وصدقت عائشة ﵂ في قولها: «**فَمَا رَأَيْنَا امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا**»، وأية بركة أعظم من إسلام قبيلة بأسرها؟

إن مَرَدَّ هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد، هو حب الصحابة النبيَّ ﷺ وتكريمُهم إياه، وإكبارهم شخصه العظيم، وكذلك يؤتي الحب النبوي هذه الثمار الطيبة، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التاريخ».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٩٨-١٩٩].

٦ ـ موقف بني المصطلق بعد الغزوة:

يقول د/ قريبي: «لقد صار بنو المصطلق بعد الغزوة دعاة إلى الله ﷻ، منضمِّين تحت لواء رسول الله ﷺ، واصبحوا محل عناية واحترام بين المؤمنين، إذ كان زواج رسول الله ﷺ منهم رفعة لهم، وإعلاء لشأنهم، ومنزلتهم، فكان لهذه المصاهرة أثرها الفعَّال في نفوس المسلمين، حتى أطلق المسلمون ما بأيديهم من أسرى بني المصطلق، وكبر عليهم استرقاقهم، بعد أن صاروا أصهار رسول الله ﷺ، وقد كان لهذه المعاملة الحسنة من رسول ﷺ وصحبه الكرام لأسرى بني المصطلق أثر جميل في قلوب بني المصطلق،



فسارعوا إلى الإسلام واعتنقوه عن الإيمان راسخ وقناعة كاملة، ورأوا أن مثل هذه الأخلاق الكريمة لا يمكن أن تصدر إلا من نبي؛ لأن القوم يعرفون تاريخ الحروب القبلية وما يحصل فيها من فتك ونهب، وسلب، وكان الشعار المعروف لديهم «مَنْ عَزَّ بَزَّ».[١]

وأنه لا مكان في عرف القوى الجاهلية للمغلوب المنهزم، ولا للضعيف المنكوب، فحين غزاهم رسول الله ﷺ وهزمهم، كانت معاملته لهم بعد الهزيمة على خلاف ما كان يتوقعه هؤلاء القوم، فقد عاملهم بالرفق واللين، وتزوج ابنة شريفهم لجبر خاطرها وردَّ اعتبارها إليها وإلى قومها، وانطلق المسلمون يفكون أسراهم حين انتشر خبر زواجه ﷺ من جويرية، فلم يعد يحسن استرقاق أصهار رسول الله ﷺ، وكم كان لهذا الصنيع الإسلامي من جميل الأثر وعظيم الوقع في نفوس بني المصطلق جميعًا، فلم يكن موقف هؤلاء بعد هذه الغزوة إلا الانضمام فورًا لكتائب الإسلام المجاهدة وبذل المهج والأرواح لنشر هذه المبادئ الإسلامية السامية، التي شملتهم بعطفها وحنانها وذاقوا حلاوة المعاملة الإنسانية الرفيعة تحت توجيهات نبيهم ﷺ.

ومما يدل على حسن إسلام هذه القبيلة، وما كان لها من دور فعَّال في سبيل الدعوة إلى الإسلام وإعلاء كلمة الله ما رواه أحمد والبيهقي أن الْحَارِثَ بْنَ أَبِي ضِرَارٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَدَعَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ فَدَخَلْتُ فِيهِ وَأَقْرَرْتُ بِهِ، فَدَعَانِي إِلَى الزَّكَاةِ فَأَقْرَرْتُ بِهَا، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَرْجِعُ إِلَى قَوْمِي فَأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، فَمَنْ اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ رَسُولًا لِإِبَّانِ (أي وقت كذا، والمراد وقت حصول الثمرة) كَذَا وَكَذَا لِيَأْتِيَكَ مَا جَمَعْتُ مِنْ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لَهُ وَبَلَغَ الْإِبَّانُ الَّذِي أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْهِ احْتَبَسَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ، فَلَمْ يَأْتِهِ، فَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ سَخْطَةٌ (أي عدم الرضا علينا) مِنْ الله ﷻ وَرَسُولِهِ ﷺ، فَدَعَا بِسَرَوَاتِ (أشراف) قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولَهُ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدِي مِنْ الزَّكَاةِ، وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ الْخُلْفُ، وَلَا أَرَى حَبْسَ رَسُولِهِ إِلَّا مِنْ سَخْطَةٍ كَانَتْ، فَانْطَلِقُوا فَنَأْتِيَ رَسُولَ الله ﷺ.

---

(١) أي من غلب سلب، وهو مثل، وأول من قاله رجل من طيء يقال له: جابر بن رألان بفتح الراء وسكون الهمزة أحد بني ثُعَل بضم الثاء وفتح العين المهملة، وكان من حديثه أنه خرج ومعه صاحبان له، حتى إذا كانوا بظهر الحيرة، وكان للمنذر ابن ماء السماء يوم يركب فيه، فلا يلقي أحدًا إلا قتله، فلقي في ذلك اليوم جابرًا وصاحبيه فأخذتهم الخيل بالسوية فأتى بهم المنذر، فقال: اقترعوا فأيكم قرع خليت سبيله وقتلت الباقين، فاقترعوا، فقرعهم جابر بن رألان فخلي سبيله وقتل صاحبيه، فلما رآهما يقادان ليقتلا، قال: (من عز بز) فأرسلها مثلًا. مجمع الأمثال للميداني ٢ / ٣٠٧ رقم ٤٠٤٤.

وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ مِنْ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرِقَ فَرَجَعَ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ الْحَارِثَ مَنَعَنِي الزَّكَاةَ، وَأَرَادَ قَتْلِي، فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْبَعْثَ إِلَى الْحَارِثِ، فَأَقْبَلَ الْحَارِثُ بِأَصْحَابِهِ إِذْ اسْتَقْبَلَ الْبَعْثَ وَفَصَلَ مِنْ الْمَدِينَةِ، لَقِيَهُمْ الْحَارِثُ، فَقَالُوا: هَذَا الْحَارِثُ!! فَلَمَّا غَشِيَهُمْ قَالَ لَهُمْ: إِلَى مَنْ بُعِثْتُمْ؟ قَالُوا: إِلَيْكَ، قَالَ: وَلِمَ؟! قَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، فَزَعَمَ أَنَّكَ مَنَعْتَهُ الزَّكَاةَ، وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ! قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، مَا رَأَيْتُهُ بَتَّةً، وَلَا أَتَانِي!

فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنَعْتَ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي**؟! «قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلَا أَتَانِي، وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ احْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ كَانَتْ سَخْطَةً مِنْ اللهِ ﷻ وَرَسُولِهِ.

قَالَ: فَنَزَلَتْ الْحُجُرَاتُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات]. [**مسند الإمام أحمد ٣٠/ ٤٠٣-٤٠٥ عن الحارث بن ضرار ﷺ (١٨٤٥٩) وحسنه الشيخ الأرناؤوط بشواهده دون قصة إسلام الحارث بن ضرار ﷺ، وسنن البيهقي الكبرى ٩/ ٥٤- ٥٥، ومجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ٢٣٨-٢٣٩ كتاب التفسير باب سورة الحجرات رقم ١١٣٥٢، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني، إلا أنه قال الحارث بن سرار بدل ضرار، ورجال أحمد ثقات. وجمع د/ قريبي طرق الحديث وأقوال العلماء عليها وخلص إلى أن الحديث حسن لغيره. مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٥٨-١٧٣**].

فهذه الرواية توضح حسن إسلام بني المصطلق وحرصهم على طاعة الله ورسوله ﷺ، بأدائهم الزكاة التي يشق على العرب دفعها، مما يدل على حسن إسلامهم، أيضًا تكريم الله بإنزاله قرآنًا في تصديقهم، ويدل الحديث كذلك على ما قامت به هذه القبيلة من خدمات جلية للإسلام، فلقد كان بنو المصطلق عام الفتح ضمن الكتائب الإسلامية الزاحفة نحو مكة، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل إليهم بشر بن سفيان وبديل بن ورقاء يستنفرانهم، ولما بلغ رسول الله ﷺ قديدًا من بلاد بني المصطلق عبأ الجيش وعقد الألوية، واجتمع إليه من كان تخلَّف من القبائل، ودخلت خزاعة في خمسمائة مقاتل من ضمنهم بنو المصطلق وعقد لهم رسول الله ﷺ ثلاثة ألوية بقيادة ثلاثة من أبطالهم وهم عمرو بن سالم، وبشر بن سفيان، وأبو شريح الكعبي خويلد بن عمرو، وهكذا ظل بنو المصطلق دعاة إلى الله ﷻ ومجاهدين لإعزاز الإسلام ونصرته، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء».

[**مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٨٩-١٩٣**].

الفصل السادس
حديث الإفك
المبحث الأول
عرض حديث الإفك

المعركة الكبرى.. حديث الإفك:

«وأثناء عودة الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق هذه، قال المنافقون في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تلك المقالة الخبيثة من الإفك، الذي به نالوا عرض رسول الله ﷺ حتى آذوه أشد الإيذاء وجعلوه عُرضة لأعنف الآلام النفسية وأشدها». [غزوة الأحزاب لباشميل ص ٩٥].

«لقد كانت معركة خاضها رسول الله ﷺ وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك، وخاضها الإسلام، معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ وخرج منها منتصرًا كاظمًا لآلامه الكبار، محتفظًا بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره، فلم تُؤْثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله، والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته، والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه». [في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٠١].

ويقول الشيخ الهلالي: « إن حادثة الإفك من أهم الأحداث وأخطرها في سيرة رسول الله ﷺ، فلم يمكر بالمسلمين مكر أشد من هذه الإشاعة، وهي إشاعة مختلقة هزت البيت النبوي شهرًا كاملًا، وعصفت بالمدينة النبوية بأسرها، بل اضطرب المجتمع المسلم بكامله، لقد كانت حلقة من سلسلة التآمر على الدعوة، ومحاولة تشويه رموزها؛ وذلك لأن العدو يعلم أن هذا الدين إنما يقوم على المثال النموذج، والقدوة الأسوة، فترى المنافقين يواصلون نسج المؤامرات، ويشيعون حرب الشك والريبة والخيانة: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢]، وفي المجتمع: ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

وفي أي مكان؟! في عرين الإسلام ومهده، يختلقون قصة الإفك المبين؛ لينالوا من آل البيت الطاهرين.

هذا الحدث كلَّف أطهر النفوس وأصفاها وأصبرها وأزكاها في تاريخ بني آدم آلامًا تتفطر منها السماوات، وتنشق الأرض، وتخر لها الجبال هدًّا، وحمَّل المسلمين أشقَّ التجارب في تاريخهم الطويل، حيث علَّق قلوبهم بحبال الشك والريبة، والألم والقلق؛ لأن هذه الحادثة ـ التي طعنت في رسول الله ﷺ، في عِرض زوجته الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما ـ أفتكُ شائعة على وجه التاريخ.

وعادة ما تنتشر مثل هذه الشائعات بين الناس انتشار النار في هشيم المحتظر؛ لأنها تتعلق بالجنس، وبالقيادات السياسية الهامة، والشخصيات العامة، فما بالك بأمر متعلق بأطهر نساء العالمين، وزوج سيد المرسلين في الدنيا والآخرة؟! لا شك أنها ستكون الأوسع انتشارًا، حيث تلوكها ألسنة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، دون حيطة أو حذر.

لقد سعى رئيس حزب المنافقين للعبث بعفاف زوجات رسول الله ﷺ، فاتهم زوجته الحبيبة بالفاحشة، نكاية بالمؤمنين والمؤمنات، ولقد بيَّن الله كذبه وافتراءه، فلولا عناية الله ﷻ وفضله، لكانت هذه الحادثة التي اختلقها هذا المنافق الأثيم قادرة على أن لا تُبقي نفسًا مستقرة مطمئنة لأنثى من بنات حواء إلى يوم الدين، فنزل الوحي الكريم؛ ليضع حدًّا لتلك المأساة، ويصيغ قواعد تربوية تنظم حركة المجتمع الإسلامي على أسس راسخة، لا تهزه إشاعة ـ ما إن تمسك بها ـ بعد ذلك إلى قيام الساعة ».

[مقدمة الشيخ الهلالي لتحقيق كتاب: حديث الإفك للمقدسي ص ٥-٦].

عائشة رضي الله عنها تروي القصة المؤلمة:

ولما في هذا الحادث الخطير من عبر وعظات وتربيات يمكن أن يستفيد منها الذين يتسرعون في رمي الأبرياء، فإنا سندع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تروي لنا قصة هذا الألم القاتل الذي عاشته طيلة شهر كامل.

[غزوة الأحزاب لباشميل ص ٩٨].

وقد تضمن حديث مسلم سياق القصة وبيانها أحسن بيان، وهذا نصه [(١)]:

حَدَّثَنَا حِبَّانُ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله بْنُ الْمُبَارَكِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ الْأَيْلِيُّ ح وحَدَّثَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ ابْنُ رَافِعٍ: حَدَّثَنَا وقَالَ الْآخَرَانِ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، وَالسِّيَاقُ حَدِيثُ مَعْمَرٍ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدٍ وَابْنِ رَافِعٍ، قَالَ يُونُسُ وَمَعْمَرٌ جَمِيعًا عَنْ الزُّهْرِيِّ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ، وَعُبَيْدُ الله بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللهُ مِمَّا قَالُوا.

وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ وَأَثْبَتَ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا.

شَأْنُ الرَّسُولِ ﷺ مَعَ نِسَائِهِ فِي سَفَرِهِ:

ذَكَرُوا أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ مَعَهُ.

---

(١) الشروح والتعليقات للدكتور قريبي في مرويات غزوة بني المصطلق، فجزاه الله خيرًا.

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا (هي غزوة بني المصطلق) فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي (مركب النساء)، وَأُنْزَلُ فِيهِ مَسِيرَنَا، حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوِهِ وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنْ المَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ.

سُقُوطُ عِقْدِ عَائِشَةَ رضي الله عنها وَتَخَلُّفُهَا لِلْبَحْثِ عَنْهُ:

فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ مِنْ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ [(١)] قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ [(٢)] الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي فَحَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ.

قَالَتْ: وَكَانَتْ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُهَبَّلْنَ (أي لم يكثر عليهن اللحم، يقال: هبله اللحم إذا كثر عليه وركب بعضه بعضًا. النهاية لابن الأثير ٥/ ٢٤٠)، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ (أي لم يغط اللحم بعضه بعضًا، النهاية لابن الأثير ٥/ ٢٤٠، ٣/ ٣٦٩، ومختار الصحاح ص ٦٨٩، ٤٧٥)، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ (أي البلغة منه. النهاية لابن الأثير ٣/ ٢٨٩)، فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ القَوْمُ ثِقَلَ [(٣)] الهَوْدَجِ حِينَ رَحَلُوهُ وَرَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ وَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ (قصدت) مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ القَوْمَ سَيَفْقِدُونِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ.

مُرُورُ ابْنِ المعَطَّل رضي الله عنه بِهَا وَاحْتِمَالُهُ إِيَّاهَا عَلَى بَعِيرِهِ:

فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ قَدْ عَرَّسَ (التعريس هو نزول المسافر آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة. النهاية لابن الأثير ٣/ ٢٠٦) مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ فَادَّلَجَ (بالتشديد سار آخر الليل. النهاية لابن الأثير ٢/ ١٢٩. يقال: أدلج بالتخفيف إذ سار أول الليل: وادلج بالتشديد إذا سار من آخره) فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي، فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَقَدْ كَانَ

---

(١) **جزع ظفار**: الجزع: هو الخرز اليماني الصيني فيه سواد وبياض تشبع الأعين، وظفار «بوزن قطام وهي مبنية على الكسر، اسم مدينة لحمير باليمن». ينظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ٢٦٠، والقاموس المحيط ٣/ ١٢، وشرح مسلم للنووي ٥/ ٦٣٠، وفتح الباري ٨/ ٤٥٩.

(٢) **الرهط من الرجال**: ما دون العشرة وقيل إلى الأربعين ولا تكون فيهم امرأة، ولا واحد له من لفظه، ويجمع على أرهط وأرهاط وأراهط جمع الجمع. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ٢٨٣.

(٣) في رواية الليث عن يونس «**فلم يستنكر القوم خفة الهودج**» البخاري ٦/ ٨٥ كتاب التفسير، قال ابن حجر: وهو أوضح لأن مرادها إقامة عذرهم في تحميل هودجها وهي ليست فيه، فكأنها تقول: كأنها لخفة جسمها بحيث إن الذين يحملون هودجها لا فرق عندهم بين وجودها فيه وعدمها؛ ولهذا أردفت ذلك بقوله: وكنت جارية حديثة السن، أي أنها مع نحافتها صغيرة السن فذلك أبلغ في خفتها. فتح الباري ٨/ ٤٦٠.

يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ عَلَيَّ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ (أي قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون. كما صرحت بذلك رواية ابن إسحاق) حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ (غطيت) وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللهِ مَا يُكَلِّمُنِي[1] كَلِمَةً، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِيَ الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ (الوغرة: بسكون الغين المعجمة شدة الحر. النهاية لابن الأثير ٥/ ٢٠٨) فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ (أولها، وفي القاموس المحيط ٢/ ١٣٩: نحر النهار والشهر أوله)، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنُ سَلُولَ.

إعْرَاضُ الرَّسُولِ ﷺ عَنْهَا:

فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ (مرضت) حِينَ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، وَلَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي (يشككني) فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ (الرفق والإحسان) الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**» (تيكم: اسم إشارة إلى المؤنثة، أي: كيف هذه؟)، فَذَاكَ يَرِيبُنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَ مَا نَقَهْتُ (**نقه المريض** من باب طرب وخضع إذا برأ وأفاق وكان قريب العهد بالمرض، ولم يرجع إليه كمال صحته وقوته. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٥/ ١١١، والقاموس المحيط ٤/ ٢٩٤، ومختار الصحاح ص ٦٧٨).

عِلْمُهَا بِمَا قِيلَ فِيهَا:

وَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ[2] قِبَلَ الْمَنَاصِعِ (المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة واحدها منصع كمقعد. النهاية لابن الأثير ٥/ ٦٥، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ٣/ ٨٩، وفي فتح الباري ١/ ٢٤٩ «المناصع أماكن معروفة من ناحية البقيع»)، وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا، وَلَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ (جمع كنيف، المكان الساتر، وأرادت به هنا المكان المعد لقضاء الحاجة. القاموس المحيط ٣/ ١٩٢، ومختار الصحاح ص ٥٨٠) قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي التَّنَزُّهِ (البعد لقضاء الحاجة. النهاية لابن الأثير ٥/ ٤٣ وعند ابن إسحاق: **وكنا قومًا عربًا لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، وإنما كنا نذهب في فسح المدينة.** سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٩) وَكُنَّا نَتَأَذَّى (أي نتقذر) بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ بِنْتُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا ابْنَةُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ

---

(١) قال ابن حجر: عبرت بهذه الصيغة إشارة إلى أنه استمر منه ترك المخاطبة لئلا يفهم لو عبرت بصيغة الماضي اختصاص النفي بحال الاستيقاظ، فعبرت بصيغة المضارعة. ينظر: فتح الباري ٨/ ٤٦٣.

(٢) قال ابن عبد البر: اسمها سلمي بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم وهي ابنه خالة أبي بكر الصديق. وقيل أم مسطح بنت أبي رهم ابن المطلب بن عبد مناف ـ وأمها ريطة بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق. والظاهر أنها سلمى بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، واسم أبي رهم أنيس مكبرا لا سلمى بنت صخر فإن هذا نسب أم أبي بكر الصديق خالة أم مسطح وهي سلمى بنت صخر بن عامر... إلخ.

أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ [(١)] بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَبِنْتُ أَبِي رُهْمٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا (أي: المسير، لا من قضاء الحاجة. فتح الباري ٨/ ٤٦٦) مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا (أي: وطئته برجلها فسقطت، والمرط: بكسر الميم واحد المروط وهي أكسية من صوف أو خز، كان يؤتزر بها. مختار الصحاح ص ٤١٢، ٦٢١)، فَقَالَتْ: تَعِسَ (**تعس**: يتعس إذا عثر وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك. النهاية لابن الأثير ١/ ١٩٠، وفتح الباري ٨/ ٤٦٦) مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ! أَتَسُبِّينَ رَجُلًا قَدْ شَهِدَ بَدْرًا؟ (فيه منقبة عظيمة لمن شهد بدرًا)، قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ (وتفتح النون وتسكن وتضم الهاء الآخرة وتسكن، ومعناها: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم. النهاية لابن الأثير ٥/ ٢٧٩- ٢٨٠)، أَوْ لَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قُلْتُ: وَمَاذَا قَالَ؟ قَالَتْ: فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي.

انْتِقَالُهَا إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا:

فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**» قُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَيَقَّنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ الله ﷺ فَجِئْتُ أَبَوَيَّ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ، مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ! هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَالله لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ (**الوضاءة**: الحسن والبهجة) عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا (أي القول في عيبها)، قَالَتْ: قُلْتُ: سُبْحَانَ الله! وَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟! قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ (أي لا ينقطع ولا يسكن)، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي [(٢)].

استشارة رسول الله ﷺ أصحابه عند تأخر نزول الوحي:

وَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ (استفعل من اللبث وهو الإبطاء والتأخر. النهاية لابن الأثير ٤/ ٢٤٤، وفتح الباري ٨/ ٤٦٨، استلبث الوحي بالرفع: طال لبث نزوله، وبالنصب استبطأ النبي ﷺ نزوله) يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنهما فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنَ الْوُدِّ،

---

(١) **مسطح** رضي الله عنه: بمكسور وسكون سين وطاء مهملة ـ لقب، واسمه عوف، يكنى أبا عباد، وقيل: أبا عبد الله (ت ٣٤هـ) في خلافة عثمان رضي الله عنه، ويقال عاش إلى خلافة علي رضي الله عنه وشهد معه صفين، ومات سنة ٣٧، ينظر: الاستيعاب ٣/ ٤٩٤، وأسد الغابة ٤/ ٣٠٨، ٥/ ١٥٦، والإصابة ٣/ ٤٠٨، وفتح الباري ٨/ ٤٦٥.

(٢) قال ابن حجر: «وَعِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ أَيُّوب عَنْ اِبْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «**لَمَّا بَلَغَنِي مَا تَكَلَّمُوا بِهِ هَمَمْتُ أَنْ آتِيَ قَلِيبًا فَأَطْرَحَ نَفْسِي فِيهِ**» وَأَخْرَجَهُ أَبُو عَوَانَةَ أَيْضًا». [فتح الباري ١٠/ ٨٠] ومجمع الزوائد ٩/ ٣٨٣-٣٨٤ كتاب المناقب باب حديث الإفك رقم ١٥٣٠١، وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط، ورجالها ثقات. ولفظه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رميت بها رميت به أردت أن ألقي نفسي في قليب (بئر).

فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هُمْ أَهْلُكَ، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ (١) فَقَالَ: **لَمْ يُضَيِّقْ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ** (٢)، **وَإِنْ تَسْأَلْ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ**، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «**أَيْ بَرِيرَةُ! هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عَائِشَةَ؟**» قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا (أي أعيبها به وأطعن بها عليها) أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ (هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم، وقد يقع على غير الشاة من كل ما يألف البيوت من الطير وغيرها. النهاية لابن الأثير ٢/ ١٠٢) فَتَأْكُلُهُ (٣).

النبي ﷺ يطلب كف أذى رأس النفاق:

قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى المِنْبَرِ (المراد به هنا الذي اتخذ في السنة الثانية، وكان من الطين، وأما الذي اتخذ من خشب إنما كان في السنة الثامنة، وغزوة بني المصطلق كانت في الخامسة أو السادسة. السيرة الحلبية ٢/ ٣١٨)، فَاسْتَعْذَرَ (أي قال: من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه فلا يلومني. النهاية لابن الأثير

---

(١) قال ابن حجر: وقع بسبب هذا الكلام من علي ﷺ أن نسبته عائشة ﷺ إلى الإساءة في شأنها، فتح الباري ٨/ ٤٦٩ وسيأتي الجواب عن هذا في مواقف بعض الصحابة من حادثة الإفك.

(٢) وعند ابن إسحاق: «**إِنَّ النِّسَاءَ لَكَثِيرٌ وَإِنَّكَ لَقَادِرٌ عَلَى أَنْ تَسْتَخْلِفَ**». سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠١.

وعَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ: أَبَلَغَكَ أَنَّ عَلِيًّا، كَانَ فِيمَنْ قَذَفَ عَائِشَةَ؟ قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ قَدْ أَخْبَرَنِي رَجُلَانِ مِنْ قَوْمِكَ، أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الحَارِثِ، أَنَّ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ لَهُمَا: كَانَ عَلِيٌّ مُسَلِّمًا فِي شَأْنِهَا فَرَاجَعُوهُ، فَلَمْ يَرْجِعْ وَقَالَ: مُسَلِّمًا، بِلَا شَكٍّ فِيهِ وَعَلَيْهِ، كَانَ فِي أَصْلِ العَتِيقِ كَذَلِكَ. البخاري في المغازي (٤١٤٢).

مسلمًا: من التسليم في الأمر أي ساكتًا، وفي رواية (مسلَّمًا) أي سالمًا من الخوض فيه، وروى (مسيئًا)، قال في الفتح: هو الأقوى من حيث نقل الرواية. وقواه بما في رواية ابن مردويه بلفظ إن عليًّا أساء في شأني، والله يغفر له، قال: وإنما نسبته إلى الإساءة؛ لأنه لم يقل كما قال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، بل ضيق على بريرة وقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، ونحو ذلك من الكلام، وخلاصة القول أن عليًّا ﷺ لم يكن ليسيء الظن بأهل بيت رسول الله ﷺ، وحاشاه ﷺ، وإنما حمله على تصرفه وقوله إشفاقه على رسول الله ﷺ، ورغبته في إذهاب الغم والكرب عن نفسه لما رأى من شدة تأثره ﷺ بالأمر.

(٣) وفي رواية أخرى للبخاري: حَدَّثَنَا الْأُوَيْسِيُّ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الله حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ صَالِحٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ وَابْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ وَعُبَيْدُ الله عَنْ عَائِشَةَ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ﷺ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا، وَهُوَ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: **لَمْ يُضَيِّقْ اللهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ**، فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَمْرًا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: **يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَالله مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا**، فَذَكَرَ بَرَاءَةَ عَائِشَةَ. البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٦٩).

٣/ ١٩٧) مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولَ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي**[1]**، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا** (هو صفوان بن معطل ﷺ كما هو مصرح به في أول الحديث) **مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**»، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ.

كادت الفتنة تنشب بين الأوس والخزرج:

قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ اجْتَهَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ (أي حملته الأنفة والغضب على الجهل)، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ـ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ـ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ (أي تناهضوا للنزاع والعصبية) الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ.

قَالَتْ: وَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ بَكَيْتُ لَيْلَتِي الْمُقْبِلَةَ، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، وَأَبَوَايَ يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ لِي مَا قِيلَ.

مفاتحةُ الرسول ﷺ لعائشة ﵂ وجوابها له:

وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا[2] لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ (وفي رواية هشام: «**فحمد الله وأثنى عليه**

---

(١) في رواية هشام بن عروة: «شيروا علي ـ بلفظ الأمر ـ في أناس أبنوا أهلي وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط». البخاري ٦/ ٨٩ كتاب التفسير، والترمذي ٥/ ١٣ فيه، وأحمد ٦/ ٥٩، وتفسير الطبري ١٨/ ٩٣.

والابن: التهمة، كما في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ١٧، وفي الاعتصام عند البخاري ٩/ ٩٢ «**ما تشيرون عليَّ في قوم يسبون أهلي؟**» بصيغة الاستفهام. وفي رواية ابن حاطب: «**كيف ترون فيمن يؤذيني في أهلي، ويجمع في بيته من يؤذيني؟**». ينظر: مسند إسحاق بن راهويه ٤/ ١٣٤، وتفسير الطبري ١٨/ ٩٥.

(٢) وعند ابن حزم: «**أن المدة كانت خمسين يومًا أو أزيد**». جوامع السيرة ٢٠٦، قال ابن حجر: «ويجمع بأنها المدة التي كانت بين قدومهم المدينة ونزول القرآن في قصة الإفك وأما التقييد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها حين بلغها الخبر». فتح الباري ٨/ ٤٧٥.

بما هو أهله، ثم قال: أما بعد». البخاري ٦/ ٨٩ كتاب التفسير) رَسُولُ الله ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ: يَا عَائِشَةُ! فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا** [(١)]، **فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»، قَالَتْ: فَلَـمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي (أي ارتفع وذهب) حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ الله ﷺ فِيمَا قَالَ! فَقَالَ: وَالله مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ الله ﷺ! فَقَالَتْ: وَالله مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَقُلْتُ ـ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ (قال ابن حجر: «قالت هذا توطئة لعذرها لكونها لم تستحضر اسم يعقوب عليه السلام» فتح الباري ٨/ ٤٧٥)ـ: إِنِّي وَالله لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ بِهَذَا حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَإِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ ـ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ـ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ ـ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ـ لَتُصَدِّقُونَنِي (قالت ذلك لأن المرء مؤاخذ بإقراره واعترافه)، وَإِنِّي وَالله مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف].

قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ: وَأَنَا وَالله حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَالله مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى، وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ ﷻ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ الله ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا.

نُزُولُ الْقُرْآنِ بِبَرَاءَةِ عَائِشَةَ ﵂:

قَالَتْ: فَوَالله مَا رَامَ (أي ما برح وما فارق مجلسهن) رَسُولُ الله ﷺ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ (شدة الكرب من ثقل الوحي) عِنْدَ الْوَحْيِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ (ينصب) مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ (هو اللؤلؤ الصغار، وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ) مِنَ الْعَرَقِ فِي الْيَوْمِ الشَّاتِ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَـمَّا سُرِّيَ (انكشف عنه

---

(١) كذا وكذا: قال ابن حجر: هو كناية عما رميت به من الإفك، ولم أر في شيء من الطرق التصريح، فلعل الكناية من لفظ النبي ﷺ. فتح الباري ٨/ ٤٧٥.

وعند ابن إسحاق قال: «**يا عائشة إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس، فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده**». سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠١، وعند ابن حاطب: «**فقال أبواي: أي بنية إن كنت صنعت ما قال الناس، فاستغفري الله، وإن لم تكوني صنعتيه، فأخبري رسول الله ﷺ بعذرك**». تفسير الطبري ١٨/ ٩٥، وفي رواية هشام: «**قال: يا عائشة إن كنت قارفت سوءًا وظلمت فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، قالت: وقد جاءت امرأة من الأنصار فهي جالسة بالباب، فقلت: ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئًا**». البخاري ٦/ ٩٠ كتاب التفسير، والترمذي ٥/ ١٣ فيه، أحمد ٦/ ٦٠.

ما يجده من الهم والثقل) عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «**أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ**»، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي، قَالَتْ: فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[النور: ١١] عَشْرَ آيَاتٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ بَرَاءَتِي.

هَمُّ أَبِي بَكْرٍ ﷺ بِعَدَمِ الإِنْفَاقِ عَلَى مِسْطَحٍ ثُمَّ عُدُولُهُ:

قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ ـ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ ـ: وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور].

قَالَ حِبَّانُ بْنُ مُوسَى: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الـمُبَارَكِ: هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا.

موقف الورع والخشية لأم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂:

قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَمْرِي، مَا عَلِمْتِ أَوْ مَا رَأَيْتِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي (أي أمنعهما من أن أنسب إليهما ما لم يدركاه، ومن العذاب لو كذبت عليهما)، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي (أي تعالني وتفاخرني، وهو مفاعلة من السمو، أي تطاولني عنده ﷺ) مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ.

تورط حمنة بنت جحش وجماعة آخرين:

وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَهَذَا مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ.

وقَالَ فِي حَدِيثِ يُونُسَ: «احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ».

وحَدَّثَنِي أَبُو الرَّبِيعِ الْعَتَكِيُّ، حَدَّثَنَا فُلَيْحُ بْنُ سُلَيْمَانَ، ح وحَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْحُلْوَانِيُّ، وَعَبْدُ ابْنُ حُمَيْدٍ قَالَا: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ ن كِلَاهُمَا عَنْ الزُّهْرِيِّ بِمِثْلِ حَدِيثِ يُونُسَ وَمَعْمَرٍ بِإِسْنَادِهِمَا.

وَفِي حَدِيثِ فُلَيْحٍ «اجْتَهَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ «كَمَا قَالَ مَعْمَرٌ، وَفِي حَدِيثِ صَالِحٍ «احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ» كَقَوْلِ يُونُسَ، وَزَادَ فِي حَدِيثِ صَالِحٍ: قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ وَتَقُولُ: فَإِنَّهُ قَالَ:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

وَزَادَ أَيْضًا: قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ عَنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ.

قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَفِي حَدِيثِ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ «مُوعِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ»، و قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: «مُوغِرِينَ»، قَالَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ: قُلْتُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ: مَا قَوْلُهُ «مُوغِرِينَ»، قَالَ: الْوَغْرَةُ شِدَّةُ الْحَرِّ.

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ، وَمَا عَلِمْتُ بِهِ، قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا فَتَشَهَّدَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ: أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي** (أَي: اتهموها)، **وَايْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا دَخَلَ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي**» وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِقِصَّتِهِ، وَفِيهِ: وَلَقَدْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتِي فَسَأَلَ جَارِيَتِي فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَرْقُدُ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلَ عَجِينَهَا، أَوْ قَالَتْ خَمِيرَهَا ـ شَكَّ هِشَامٌ ـ فَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اصْدُقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى أَسْقَطُوا لَهَا بِهِ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ! وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تِبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ، وَقَدْ بَلَغَ الْأَمْرُ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَاللهِ مَا كَشَفْتُ عَنْ كَنَفِ أُنْثَى (أَي: ثوبها الذي يسترها) قَطُّ.

قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: وَقُتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ الزِّيَادَةِ: وَكَانَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا بِهِ مِسْطَحٌ، وَحَمْنَةُ، وَحَسَّانُ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللهِ ابْنُ أُبَيٍّ فَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ (أَي: يستخرجه بالبحث والمسألة، ثم يفشيه ويشيعه ويحركه، ولا يدعه يخمد) وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ وَحَمْنَةُ. [**مسلم في التوبة (٢٧٧٠)، والبخاري في تفسير القرآن (٤٧٥٠، ٤٧٥٧)، وفي الشهادات (٢٦٦١)، وفي المغازي (٤١٤١)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٨٠)، ومسند أحمد عن عائشة ﵂ (٢٤٣١٧، ٢٥٦٢٣–٢٥٦٢٥)، وابن إسحاق في السيرة لابن هشام ٢/ ٢٩٧–٣٠٢، والواقدي في المغازي ٢/ ٤٢٧–٤٣٤. ووردت فقرات منه في صحيح البخاري في الأحاديث رقم: ٢٥٩٣، ٢٦٣٧، ٢٦٦١، ٢٦٨٨، ٢٨٧٩، ٤٠٢٥، ٤٦٩٠، ٤٧٤٩، ٤٧٥٠، ٤٧٥٧، ٦٦٦٢، ٦٦٧٩، ٧٣٦٩، ٧٣٧٠، ٧٥٠٠، ٧٥٤٥، وقد جمع الإمام المقدسي روايات حديث الإفك في كتابه الرائع: حديث الإفك ـ الإمام الحافظ أبو محمد تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي ص ١٠٥ وما بعدها**].

وعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْتُ أُمَّ رُومَانَ، وَهْيَ أُمُّ عَائِشَةَ ﵄، عَمَّا قِيلَ فِيهَا مَا قِيلَ، قَالَتْ: بَيْنَمَا أَنَا مَعَ عَائِشَةَ جَالِسَتَانِ، إِذْ وَلَجَتْ عَلَيْنَا امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَهْيَ تَقُولُ: فَعَلَ اللهُ بِفُلَانٍ وَفَعَلَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: لِمَ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ نَمَا ذِكْرَ الْحَدِيثِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَيُّ حَدِيثٍ؟ فَأَخْبَرَتْهَا، قَالَتْ: فَسَمِعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَخَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا، فَمَا أَفَاقَتْ إِلَّا وَعَلَيْهَا حُمَّى بِنَافِضٍ (أي حمى متلبسة بارتعاد من

النفض وهو التحريك)، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟»، قُلْتُ: حُمَّى أَخَذَتْهَا مِنْ أَجْلِ حَدِيثٍ تُحُدِّثَ بِهِ، فَقَعَدَتْ، فَقَالَتْ: وَاللهِ لَئِنْ حَلَفْتُ لاَ تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنِ اعْتَذَرْتُ لاَ تَعْذِرُونِي، فَمَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ يَعْقُوبَ وَبَنِيهِ، فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ، فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ مَا أَنْزَلَ، فَأَخْبَرَهَا، فَقَالَتْ: بِحَمْدِ اللهِ لاَ بِحَمْدِ أَحَدٍ. [البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٨٨)، وفي المغازي (٤١٤٣)، ومسند أحمد ٤٤/ ٦٢٨-٦٢٩ رقم ٢٧٠٧٠، ٢٧٠٧١].

أَبُو أَيُّوبَ رضي الله عنه وَذِكْرُهُ طُهْرَ عَائِشَةَ لِزَوْجِهِ رضي الله عنها:

قال الواقدي: فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ، عَنْ دَاوُدَ ابْنِ الْحُصَيْنِ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ أَفْلَحَ مَوْلَى أَبِي أَيُّوبَ: أَنَّ أُمَّ أَيُّوبَ قَالَتْ لأَبِي أَيُّوبَ: أَلا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ الْكَذِبُ، أَفَكُنْتِ يَا أُمَّ أَيُّوبَ فَاعِلَةً ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: لا وَاللهِ، مَا كُنْتُ لأَفْعَلَهُ، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْك، فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَذَكَرَ أَهْلُ الإِفْكِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[النور] يَعْنِي أَبَا أَيُّوبَ حِينَ قَالَ لأُمِّ أَيُّوبَ، وَيُقَالُ: إِنَّمَا قَالَهَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ.

فَحَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَحْيَى، عَنْ أُمِّ سَعْدٍ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ رَبِيعٍ، قَالَتْ: قَالَتْ أُمُّ الطُّفَيلِ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: أَلا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ؟ قَالَ: أَيُّ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: مَا يَقُولُونَ، قَالَ: هُوَ وَاللهِ الْكَذِبُ، أَوَكُنْتِ تَفْعَلِينَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللهِ، قَالَ: فَهِيَ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْكِ، قَالَتْ: وَأَنَا أَشْهَدُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٣٤-٤٣٥، السيرة النبوية لابن هشام٢/ ٣٠٢، فتح الباري٨/ ٤٧٠].

سبحانك هذا بهتان عظيم:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: «**مَا تُشِيرُونَ عَلَيَّ فِي قَوْمٍ يَسُبُّونَ أَهْلِي مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُوءٍ قَطُّ**».

وَعَنْ عُرْوَةَ قَالَ: لَـمَّا أُخْبِرَتْ عَائِشَةُ بِالأَمْرِ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى أَهْلِي، فَأَذِنَ لَهَا وَأَرْسَلَ مَعَهَا الْغُلاَمَ، وَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: **سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**. [البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٧٠)].

وعن سَعِيدِ بن جُبَيْرٍ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[النور]، يَعْنِي: أَلا قُلْتُمْ مِثْلَ مَا قَالَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه، وَذَلِكَ أَنَّ سَعْدًا لَـمَّا سَمِعَ قَوْلَ مَنْ قَالَ فِي أَمْرِ عَائِشَةَ، قَالَ: **سُبْحَانَكَ، هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**، وَالْبُهْتَانُ الَّذِي يَبْهَتُ فَيَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ. [مجمع الزوائد ٧/ ١٨٣ كتاب التفسير(١١٢٠٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في المعجم الكبير ٢٣/ ١٤٤] وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف].

القضاء على الفتنة:

وبذلك انتهى حديث الإفك وبطل مفعوله المدمر، فقضى على تلك الفتنة الاجتماعية التي كادت تذهب بوحدة المسلمين، بل وتثير بينهم حربًا أهلية طاحنة، فتزلزل بنيان هذا الدين الوليد.

هَمُّ ابْنِ المعَطَّلِ بِقَتْلِ حَسَّانَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ صَفْوَانَ بْنَ المعَطَّلِ اعْتَرَضَ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ بِالسَّيْفِ حِينَ بَلَغَهُ مَا كَانَ يَقُولُ فِيهِ، وَقَدْ كَانَ حَسَّانُ قَالَ شِعْرًا مَعَ ذَلِكَ يُعَرِّضُ بِابْنِ المعَطَّلِ فِيهِ وَبِمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ مُضَرَ، فَقَالَ:

أَمْسَى الجَلَابِيبُ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا ... وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ (١)

قَدْ ثَكِلَتْ أُمُّهُ مَنْ كُنْتَ صَاحِبَهُ ... أَوْ كَانَ مُنْتَشِبًا فِي بُرْثُنِ الْأَسَدِ (٢)

مَا لِقَتِيلِي الَّذِي أَغْدُو فَآخُذُهُ ... مِنْ دِيَةٍ فِيهِ يُعْطَاهَا وَلَا قَوَدِ (٣)

مَا الْبَحْرُ حِينَ تَهُبُّ الرِّيحُ شَامِيَّةً ... فَيَغْطَئِلُ وَيَرْمِي الْعِبْرَ بِالزَّبَدِ (٤)

يَوْمًا بِأَغْلَبَ مِنِّي حِينَ تُبْصِرُنِي ... مِلْغَيظٍ أَفْرِي كَفَرْيِ الْعَارِضِ الْبَرِدِ (٥)

أَمَّا قُرَيْشٌ فَإِنِّي لَنْ أُسَالِمَهُمْ ... حَتَّى يُنِيبُوا مِنَ الْغِيَّاتِ لِلرَّشَدِ (٦)

وَيَتْرُكُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى بِمَعْزِلَةٍ ... وَيَسْجُدُوا كُلُّهُمْ لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ

وَيَشْهَدُوا أَنَّ مَا قَالَ الرَّسُولُ لَهُمْ ... حَقٌّ وَيُوفُوا بِعَهْدِ اللهِ وَالْوُكُدِ (٧)

فَاعْتَرَضَهُ صَفْوَانُ بْنُ المعَطَّلِ، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، ثُمَّ قَالَ كَمَا حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عُتْبَةَ:

تَلَقَّ ذُبَابُ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنَّنِي ... غُلَامٌ إِذَا هُوجِيتُ لَسْتُ بِشَاعِرِ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التَّيْمِيُّ: أَنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ وَثَبَ عَلَى صَفْوَانَ بْنِ المعَطَّلِ، حِينَ ضَرَبَ حَسَّانَ فَجَمَعَ يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ إِلَى دَارِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَلَقِيَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: أَمَا أَعْجَبَكَ ضَرْبُ حَسَّانَ بِالسَّيْفِ! وَاللهِ مَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ قَتَلَهُ، قَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: هَلْ عَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَيْءٍ مِمَّا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَا، وَاللهِ، قَالَ: لَقَدْ اجْتَرَأْتَ، أَطْلِقْ الرَّجُلَ، فَأَطْلَقَهُ، ثُمَّ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَدَعَا حَسَّانَ وَصَفْوَانَ بْنَ المعَطَّلِ، فَقَالَ ابْنُ المعَطَّلِ: يَا رَسُولَ اللهِ، آذَانِي وَهَجَانِي، فَاحْتَمَلَنِي الْغَضَبُ فَضَرَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

---

(١) **الجلابيب**: الغرباء. بيضة البلد: أي منفردًا لا يدانيه أحد، قال أبو ذر: وهو في هذا الموضع مدح، وقد يكون ذمًّا، وذلك إذا أُريد أنه ذليل ليس معه غيره.

(٢) **ثكلته أمه**: فقدته. **البرثن**: الكف مع الأصابع، ومخلب الأسد، أو هو للسبع كالإصبع للإنسان.

(٣) **القود**: قتل النفس.

(٤) **يغطئل**: يجول ويتحرك. **العبر**: جانب النهر أو البحر.

(٥) **أفري**: أقطع. **العارض**: السحاب. **البرد**: الذي فيه برد.

(٦) **ينيبوا**: يرجعوا. **الغيات**: جمع غية، من الغي، وهو خلاف الرشد.

(٧) **يريد بالوكد**: العهود المؤكدة.

لِحَسَّانَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ، أَتَشَوَّهْتَ عَلَى قَوْمِي أَنْ هَدَاهُمُ اللهُ لِلْإِسْلَامِ**» (معناه: أقبحت ذلك من فعلهم حين سميتهم بالجلابيب من أجل هجرتهم إلى الله وإلى رسوله؟)، ثُمَّ قَالَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ فِي الَّذِي أَصَابَكَ**»، قَالَ: هِيَ لَكَ يَا رَسُولَ الله.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: **أَبَعْدَ أَنْ هُدَاكُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ**. [سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٥، تاريخ الطبري ٢/ ٦١٨، **دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٧٤-٧٥، وقال ابن حجر في تعجيل المنفعة ص ١٢٨: سنده صحيح، وقد وصلها موسى بن عقبة في مغازيه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وينظر: مجمع الزوائد ٩/ ٢٣٤-٢٣٦، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٦٢-٢٦٣**].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْطَاهُ عِوَضًا مِنْهَا بَيْرُحَاءَ، وَهِيَ قَصْرُ بَنِي حُدَيْلَةَ الْيَوْمَ بِالمدِينَةِ وَكَانَتْ مَالًا لِأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى آلِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَعْطَاهَا رَسُولُ الله ﷺ حَسَّانَ فِي ضَرْبَتِهِ وَأَعْطَاهُ سِيرِينَ، أَمَةً قِبْطِيَّةً، فَوَلَدَتْ له عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانَ.

قَالَتْ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: لَقَدْ سُئِلَ عَنْ ابْنِ المعَطَّلِ فَوَجَدُوهُ رَجُلًا حَصُورًا، مَا يَأْتِي النِّسَاءَ، ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ شَهِيدًا. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٠٦-٣٠٧].

وقال الواقدي: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ ابْنِ رُومَانَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ، وَعَبْدُ الله بْنُ يَزِيدَ بْنِ قُسَيْطٍ، عَنْ أُمِّهِ فَكُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ بِطَائِفَةٍ، وَعِمَادُ الْحَدِيثِ، عَنْ ابْنِ رُومَانَ، وَعَاصِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَالُوا: لَـمَّا قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ مَا قَالَ، وَذَكَرَ جُعَيْلُ بْنُ سُرَاقَةَ وَجَهْجَا، وَكَانَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ قَالَ: **وَمِثْلُ هَذَيْنِ يَكْثُرُ عَلَى قَوْمِي، وَقَدْ أَنْزَلْنَا مُحَمَّدًا فِي دُورِ كِنَانَةَ وَعِزِّهَا، وَالله لَقَدْ كَانَ جُعَيْلٌ يَرْضَى أَنْ يَسْكُتَ فَلا يَتَكَلَّمُ فَصَارَ الْيَوْمَ يَتَكَلَّمُ**، وَقَوْلُ ابْنِ أُبَيٍّ أَيْضًا فِي صَفْوَانَ بْنِ مُعَطَّلٍ وَمَا رَمَاهُ بِهِ، فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

أَمْسَى الجَلابِيبُ قَدْ رَاعُوا وَقَدْ كَثُرُوا ... وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ

فَلَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ جَاءَ صَفْوَانُ إِلَى جُعَيْلِ بْنِ سُرَاقَةَ، فَقَالَ: انْطَلِقْ بِنَا، نَضْرِبُ حَسَّانَ، فَوَالله مَا أَرَادَ غَيْرَكَ وَغَيْرِي، وَلَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْهُ، فَأَبَى جُعَيْلٌ أَنْ يَذْهَبَ، فَقَالَ لَهُ: لا أَفْعَلُ إلا أَنْ يَأْمُرَنِي رَسُولُ الله، وَلا تَفْعَلُ أَنْتَ حَتَّى تُؤَامِرَ رَسُولَ الله ﷺ فِي ذَلِكَ، فَأَبَى صَفْوَانُ عَلَيْهِ فَخَرَجَ مُصْلِتًا السَّيْفَ حَتَّى ضَرَبَ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي نَادِي قَوْمِهِ، فَوَثَبَتْ الأَنْصَارُ إِلَيْهِ فَأَوْثَقُوهُ رِبَاطًا ـ وَكَانَ الَّذِي وَلِي ذَلِكَ مِنْهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ ـ وَأَسَرُوهُ أَسْرًا قَبِيحًا، فَمَرَّ بِهِمْ عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ فَقَالَ: مَا تَصْنَعُونَ؟ أَمِنْ أَمْرِ رَسُولِ الله وَرِضَائِهِ أَمْ مِنْ أَمْرٍ فَعَلْتُمُوهُ؟ قَالُوا: مَا عَلِمَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ: لَقَدْ اجْتَرَأْتَ، خَلِّ عَنْهُ، ثُمَّ جَاءَ بِهِ وَبِثَابِتٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يَسُوقُهُمْ، فَأَرَادَ ثَابِتٌ أَنْ يَنْصَرِفَ فَأَبَى عُمَارَةُ

حَتَّى جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ حَسَّانُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَهَرَ عَلَيَّ السَّيْفَ فِي نَادِي قَوْمِي، ثُمَّ ضَرَبَنِي لأَنْ أَمُوتَ، وَلا أَرَانِي إِلا مَيِّتًا مِنْ جِرَاحَتِي، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى صَفْوَانَ فَقَالَ: «**وَلِمَ ضَرَبْتَهُ وَحَمَلْتَ السِّلاحَ عَلَيْهِ؟**»، وَتَغَيَّظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ، آذَانِي وَهَجَانِي وَسَفِهَ عَلَيَّ وَحَسَدَنِي عَلَى الإِسْلامِ**، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى حَسَّانَ فَقَالَ: «**أَسَفِهْتَ عَلَى قَوْمٍ أَسْلَمُوا؟**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احْبِسُوا صَفْوَانَ، فَإِنْ مَاتَ حَسَّانُ فَاقْتُلُوهُ بِهِ**».

فَخَرَجُوا بِصَفْوَانَ، فَبَلَغَ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ مَا صَنَعَ صَفْوَانُ، فَخَرَجَ فِي قَوْمِهِ مِنَ الْخَزْرَجِ حَتَّى أَتَاهُمْ فَقَالَ: عَمَدْتُمْ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ تُؤْذُونَهُ وَتَهْجُونَهُ بِالشِّعْرِ وَتَشْتُمُونَهُ، فَغَضِبَ لِمَا قِيلَ لَهُ، ثُمَّ أَسَرْتُمُوهُ أَقْبَحَ الإِسَارِ وَرَسُولُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، قَالُوا: فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ أَمَرَنَا بِحَبْسِهِ، وَقَالَ: «**إِنْ مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَاقْتُلُوهُ**»، قَالَ سَعْدٌ: وَاللهِ إِنَّ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ لَلْعَفْوُ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ قَضَى بَيْنَكُمْ بِالْحَقِّ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ يَعْنِي لَيُحِبُّ أَنْ يَتْرُكَ صَفْوَانَ، وَاللهِ لا أَبْرَحُ حَتَّى يُطْلَقَ، فَقَالَ حَسَّانُ: مَا كَانَ لِي مِنْ حَقٍّ فَهُوَ لَكَ يَا أَبَا ثَابِتٍ، وَأَبَى قَوْمُهُ، فَغَضِبَ قَيْسٌ ابْنُهُ غَضَبًا شَدِيدًا، فَقَالَ: عَجَبًا لَكُمْ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، إِنَّ حَسَّانَ قَدْ تَرَكَ حَقَّهُ وَتَأْبَوْنَ أَنْتُمْ، مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَزْرَجِ يَرُدُّ أَبَا ثَابِتٍ فِي أَمْرٍ يَهْوَاهُ، فَاسْتَحْيَا الْقَوْمُ وَأَطْلَقُوهُ مِنَ الْوَثَاقِ، فَذَهَبَ بِهِ سَعْدٌ إِلَى بَيْتِهِ فَكَسَاهُ حُلَّةً، ثُمَّ خَرَجَ صَفْوَانُ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ لِيُصَلِّيَ فِيهِ، فَرَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**صَفْوَانُ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**مَنْ كَسَاهُ؟**»، قَالُوا: سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: «**كَسَاهُ اللهُ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ**»، ثُمَّ كَلَّمَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ، فَقَالَ: لا أُكَلِّمُكَ أَبَدًا إِنْ لَمْ تَذْهَبْ إِلَى رَسُولِ اللهِ، فَتَقُولَ: كُلُّ حَقٍّ لِي قِبَلَ صَفْوَانَ فَهُوَ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَأَقْبَلَ حَسَّانُ فِي قَوْمِهِ حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كُلُّ حَقٍّ لِي قِبَلَ صَفْوَانَ بْنِ مُعَطَّلٍ فَهُوَ لَكَ، قَالَ: «**قَدْ أَحْسَنْتَ، وَقَبِلْتُ ذَلِكَ**»، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرْضًا بَرَاحًا وَهِيَ بَيْرُحَاءُ وَمَا حَوْلَهَا وَسِيرِينَ، وَأَعْطَاهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ حَائِطًا كَانَ يَجِدُ مَالًا كَثِيرًا عِوَضًا لَهُ مِمَّا عَفَا عَنْ حَقِّهِ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: فَحَدَّثَ هَذَا الْحَدِيثَ ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، فَقَالَ: أَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ سُحَيْمٍ، عَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرٍ، أَنَّ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ حَبَسَ صَفْوَانَ، فَلَمَّا بَرِئَ حَسَّانُ أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «**يَا حَسَّانُ أَحْسِنْ فِيمَا أَصَابَكَ**»، فَقَالَ: هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُرَاحًا وَأَعْطَاهُ سِيرِينَ عِوَضًا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٣٥-٤٣٨].

إصلاح النبي ﷺ بين سيدي الأوس والخزرج:

قال الواقدي: قَالُوا: وَمَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيَّامًا، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي نَفَرٍ، فَخَرَجَ يَقُودُ بِهِ حَتَّى دَخَلَ بِهِ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَمَنْ مَعَهُ، فَتَحَدَّثَا عِنْدَهُ سَاعَةً وَقَرَّبَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ طَعَامًا، فَأَصَابَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَكَثَ أَيَّامًا، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ سَعْدِ بْنِ

عُبَادَةَ، وَنَفَرٍ مَعَهُ فَانْطَلَقَ بِهِ حَتَّى دَخَلَ مَنْزِلَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَتَحَدَّثَا سَاعَةً وَقَرَّبَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ طَعَامًا، فَأَصَابَ رَسُولُ الله ﷺ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمَنْ مَعَهُمْ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ لأَنْ يَذْهَبَ مَا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْقَوْلِ الَّذِي تَقَاوَلا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٣٥].

إقامة الحد على المفترين:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: **لَـمَّا نَزَلَ عُذْرِي قَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَذَكَرَ ذَاكَ وَتَلاَ ـ تَعْنِي الْقُرْآنَ ـ فَلَـمَّا نَزَلَ مِنَ الْمِنْبَرِ أَمَرَ بِالرَّجُلَيْنِ وَالْمَرْأَةِ، فَضُرِبُوا حَدَّهُمْ.** [أبو داود في الحدود (٤٤٧٤)، والترمذي في التفسير (٣١٨١)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٦٧)، وأحمد عن عائشة رضي الله عنها ٤٠/ ٧٦ رقم ٢٤٠٦٦، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: حسن، والطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ١٦٣ باب جلد النبي ﷺ أصحاب الإفك].

وقال أبو داود: حَدَّثَنَا النُّفَيْلِيُّ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لَمْ يَذْكُرْ عَائِشَةَ قَالَ: فَأَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ مِمَّنْ تَكَلَّمَ بِالْفَاحِشَةِ: حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ. قَالَ النُّفَيْلِيُّ: وَيَقُولُونَ الْمَرْأَةُ حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ. [أبو داود في الحدود(٤٤٧٥)، وقال الشيخ الألباني: حسن لغيره].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: **لَـمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَتِي قَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَدَعَاهُمْ وَحَدَّهُمْ.**

[أحمد عن عائشة رضي الله عنها ٤٠/ ٣٧٧ رقم ٢٤٣٢١، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث حسن].

وعَنْ سَعِيدِ بن جُبَيْرٍ قَالَ: جَلَدَ النَّبِيُّ ﷺ حَسَّانَ بن ثَابِتٍ، وَعَبْدَ الله بن أُبَيٍّ، وَمِسْطَحً، وَحَمْنَةَ بنت جَحْشٍ، كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً فِي قَذْفِ عَائِشَةَ، ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، غَيْرَ عَبْدِ الله بن أُبَيٍّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَاتَ عَلَى نِفَاقِهِ. [مجمع الزوائد ٧/ ١٨٧ كتاب التفسير (١١٢٠٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في الكبير ٢٣/ ١٥٢] وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح].

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: لَـمَّا تَلَا رَسُولُ الله ﷺ الْقِصَّةَ الَّتِي نَزَلَ بِهَا عُذْرِي عَلَى النَّاسِ، نَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ فَأَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ مِمَّنْ كَانَ بَاءَ بِالْفَاحِشَةِ فِي عَائِشَةَ فَجُلِدُوا الْحَدَّ، قَالَ: وَكَانَ رَمَاهَا عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ أُخْتُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، رَمَوْهَا بِصَفْوَانَ بْنِ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيِّ وَكَذَلِكَ رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيُّ، أنبأ أَبُو بَكْرِ بْنُ دَاسَةَ، ثنا أَبُو دَاوُدَ، ثنا النُّفَيْلِيُّ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، بِهَذَا الْحَدِيثِ، لَمْ يَذْكُرْ عَائِشَةَ، قَالَ: فَأَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ مِمَّنْ تَكَلَّمَ بِالْفَاحِشَةِ فَضُرِبُوا حَدَّهُمْ: حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ قَالَ أَبُو دَاوُدَ: قَالَ النُّفَيْلِيُّ: وَيَقُولُونَ الْمَرْأَةُ حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ.

[السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٤٣٦ رقم ١٧١٣١-١٧١٣٢، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح، الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣١٢].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حَدَّ اللهُ الَّذِينَ شَتَمُوا عَائِشَةَ ثَمَانِينَ ثَمَانِينَ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ، فَيَسْتَوْهِبُ رَبِّيَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُمْ، فَأَسْتَأْمِرُكِ يَا عَائِشَةُ**»، فَسَمِعَتْ عَائِشَةُ

الْكَلامَ، فَبَكَتْ وَهِيَ فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَسُرُورُكَ أَطْيَبُ إِلَيَّ مِنْ سُرُورِي، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ ضَاحِكًا، وَقَالَ: «ابْنَةُ أَبِيهَا». [مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٤-٣٨٥ في المناقب (١٥٣٠٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في الكبير ٢٣/ ١٦٣]، وفيه عبد الله بن هارون أبو علقمة الفروي، وهو ضعيف. وقد تقدم لهذا الحديث طرق].

بين حسان وعائشة رضي الله عنها:

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها وَعِنْدَهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يُنْشِدُهَا شِعْرًا يُشَبِّبُ بِأَبْيَاتٍ لَهُ، وَقَالَ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ[1]

فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها: لَكِنَّكَ لَسْتَ كَذَلِكَ.

قَالَ مَسْرُوقٌ فَقُلْتُ لَهَا: لِمَ تَأْذَنِينَ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكِ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑪﴾ [النور]، فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى، قَالَتْ لَهُ: إِنَّهُ كَانَ يُنَافِحُ أَوْ يُهَاجِي عَنْ رَسُولِ الله ﷺ. [البخاري في المغازي (٤١٤٦)، وفي تفسير القرآن (٤٧٥٨)].

وعَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: جَاءَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا، قُلْتُ: أَتَأْذَنِينَ لِهَذَا؟ قَالَتْ: أَوَلَيْسَ قَدْ أَصَابَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ، قَالَ سُفْيَانُ: تَعْنِي ذَهَابَ بَصَرِهِ، فَقَالَ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحومِ الْغَوَافِلِ

قَالَتْ: لَكِنْ أَنْتَ. [البخاري في تفسير القرآن (٤٧٥٥)].

وقال الواقدي: فَحَدَّثَنِي أَفْلَحُ بْنُ حُمَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَا كَانَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَذْكُرُ حَسَّانَ إلا بِخَيْرٍ، وَلَقَدْ سَمِعَتْ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ يَوْمًا يَسُبُّهُ لِمَا كَانَ مِنْهُ، فَقَالَتْ: لا تَسُبُّهُ يَا بُنَيَّ أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

وَحَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ زَمَعَةَ الأَسَدِيَّ يُخْبِرُ أَنَّهُ سَمِعَ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ رضي الله عنها تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**حَسَّانُ حِجَازٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، لا يُحِبُّهُ مُنَافِقٌ، وَلا يُبْغِضُهُ مُؤْمِنٌ**».

وَقَالَ حَسَّانُ يَمْدَحُ عَائِشَةَ رضي الله عنها:

حَصَانٌ رَزَانٌ لا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحومِ الْغَوَافِلِ
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ جَاءَ عَنِّي قُلْتُهُ فَلا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي

هِيَ أَبْيَاتٌ أَنْشَدَنِيهَا ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ وَابْنُ جَعْفَرٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٣٨-٤٣٩].

---

(١) **الحصان**: المرأة العفيفة. **رزان**: ذات ثبات ووقار وسكون. **ما تُزَن**: ما تتهم. **غرثى**: جائعة.

ما قيل من الشعر في حديث الإفك:

شعر حسان رضي الله عنه في الاعتذار عما قال في عائشة رضي الله عنها:

قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه يَعْتَذِرُ مِنَ الَّذِي كَانَ قَالَ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ رضي الله عنها:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

[حَلِيلَةُ خَيْرِ النَّاسِ دِينًا وَمَنْصِبًا ... نَبِيِّ الْهُدَى وَالْمَكْرُمَاتِ الْفَوَاضِلِ] (١)

عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ (٢)

مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللهُ خِيمَهَا ... وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ (٣)

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ ... فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي

وَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِيتُ وَنُصْرَتِي ... لِآلِ رَسُولِ اللهِ زَيْنِ الْمَحَافِلِ

لَهُ رَتَبٌ عَالٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ ... تَقَاصَرَ عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ (٤)

فَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَائِطٍ ... وَلَكِنَّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَاحِلِ (٥)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: بَيْتُهُ «عَقِيلَةُ حَيٍّ» وَالَّذِي بَعْدَهُ وَبَيْتُهُ «لَهُ رَتَبٌ عَالٍ» عَنْ أَبِي زَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَحَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ إِنَّ امْرَأَةً مَدَحَتْ بِنْتَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَتْ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لَكِنْ أَبُوهَا.

شِعْرٌ فِي هِجَاءِ حَسَّانَ وَمِسْطَحٍ وَحَمْنَةَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي ضَرْبِ حَسَّانَ وَأَصْحَابِهِ فِي فِرْيَتِهِمْ عَلَى عَائِشَةَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فِي ضَرْبِ حَسَّانَ وَصَاحِبَيْهِ:

لَقَدْ ذَاقَ حَسَّانُ الَّذِي كَانَ أَهْلَهُ ... وَحَمْنَةُ إِذْ قَالُوا هَجِيرًا وَمِسْطَحُ (٦)

تَعَاطَوْا بِرَجْمِ الْغَيْبِ زَوْجَ نَبِيِّهِمْ ... وَسَخْطَةَ ذِي الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فَأُتْرِحُوا (٧)

---

(١) **الحليلة**: الزوجة.

(٢) **العقيلة**: الكريمة. **المساعي**: ما يُسعى فيه من طلب المجد والمكارم.

(٣) **خِيمَهَا**: طبعها.

(٤) **السَوْرَةُ** (بفتح السين): الوثبة، و(بضم السين): المنزلة.

(٥) **لائط**: لاصق. **الماحل**: الماشي بالنميمة.

(٦) **الهجير**: الهجر وقول الفاحش القبيح.

(٧) **الرجم**: الظن. **أترحوا**: أحزنوا، من الترح، وهو الحزن. ويروى «فأبرحوا» بالباء وهو من البرح، أي المشقة والشدة.

وَآذَوْا رَسُولَ الله فِيهَا فَجُلِّلُوا   مَخَازِيَ تَبْقَى عُمِّمُوهَا وَفُضِّحُوا
وَصُبَّتْ عَلَيْهِمْ مُحْصَدَاتٌ كَأَنَّهَا   شَآبِيبُ قَطْرٍ مِنْ ذُرَا المزْنِ تُسْفَحُ (١)

وروى الطبراني شعرًا في عرضه للقصة فقال: قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: فَقِيلَ فِي أَصْحَابِ الْإِفْكِ الْأَشْعَارُ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِمِسْطَحٍ فِي رَمْيِهِ عَائِشَةَ فَكَانَ يُدْعَى عَوْفًا:

يَا عَوْفُ وَيْحَكَ هَلَّا قُلْتَ عَارِفَةً   مِنَ الْكَلَامِ وَلَمْ تَبْغِ بِهِ طَمَعَا
فَأَدْرَكَتْكَ حُمَيًّا مَعْشَرٍ أَنُفٍ   فَلَمْ يَكُنْ قَاطِعٌ يَا عَوْفُ مَنْ قَطَعَا
هَلَّا حَرْبَتٌ مِنَ الْأَقْوَامِ إِذْ حَسَدُوا   فَلَا تَقُولُ وَإِنْ عَادَيْتَهُمْ قَذَعَا
لَـمَّا رَمَيْتَ حَصَانًا غَيْرَ مُقْرِفَةٍ   أَمِينَةَ الجَيْبِ لَمْ يَعْلَمْ لَـهَا خَضَعَا
فِيمَنْ رَمَاهَا وَكُنْتُمْ مَعْشَرًا إِفْكًا   فِي سِيِّءِ الْقَوْلِ مِنْ لَفْظِ الخَنَا شُرَّعَا
فَأَنْزَلَ اللهُ عُذْرًا فِي بَرَاءَتِهَا   وَبَيْنَ عَوْفٍ وَبَيْنَ الله مَا صَنَعَا
فَإِنْ أَعِشْ أُجِبْ عَوْفًا فِي مَقَالَتِهِ   سُوءَ الجَزَاءِ بِمَا أَلْفِيتَهُ تَبَعَا

وَقَالَتْ أُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الَّذِينَ رَمَوْا عَائِشَةَ مِنَ الشِّعْرِ:

شَهِدَ الْأَوْسُ كَهْلُهَا وَفَتَاهَا   وَالخُمَاسِيُّ مِنْ نَسْلِهَا وَالفَطِيمُ
وَنِسَاءُ الخَزْرَجِينَ يَشْهَدْ   نَ بِحَقٍّ وَذَلِكُمْ مَعْلُومُ
أَنَّ ابْنَةَ الصِّدِّيقِ كَانَتْ حَصَانًا   عِفَّةَ الجَيْبِ دِينُهَا مُسْتَقِيمُ
تَتَّقِي اللهَ فِي المَغِيبِ عَلَيْهَا   نِعْمَةُ الله سِتْرِهَا مَا يَرِيمُ
خَيْرُ هَدْيِ النِّسَاءِ حَالًا وَنَفْسًا   وَأَبًا لِلْعُلَى نَمَاهَا كَرِيمُ
لِلْمَوَالِي إِذْ رَمَوْهَا بِإِفْكٍ   أَخَذَتْهُمْ مَقَامِعُ وَجَحِيمُ
لَيْتَ مَنْ كَانَ قَدْ رَمَاهَا بِسُوءٍ   فِي حُطَامٍ حَتَّى يَتُوبَ اللَّئِيمُ
وَعَوَانٌ مِنَ الحُرُوبِ تَلَظَّى   نَفَسًا قُوَّتُهَا عَقَارٌ صَرِيمُ
لَيْتَ سَعْدًا وَمَنْ رَمَاهَا بِسُوءٍ   فِي كِظَاظٍ حَتَّى يَتُوبَ الظَّلُومُ

قَالَ أَبُو أُوَيْسٍ: وَحَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَمَرَ بِالَّذِينِ رَمَوْا عَائِشَةَ فَجُلِدُوا الحَدَّ جَمِيعًا ثَمَانِينَ ثَمَانِينَ، وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ فِي الشِّعْرِ حِينَ جُلِدُوا:

---

(١) **محصدات**: يعني سياطًا محكمة الفتل شديدات. **الشآبيب**: جمع شؤبوب، وهو الدفعة من المطر. **الذرا**: الأعالي. **والمزن**: السحاب. **وتسفح**: تسيل.

لَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللهُ مَا كَانَ أَهْلِهِ وَحَمْنَةُ إِذْ قَالُوا هَجِيرًا وَمِسْطَحُ
تَعَاطَوْا بِرَجْمِ الْقَوْلِ زَوْجَ نَبِيِّهِمْ وَسَخَطِهِ ذِي الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فَأَتْرَحُوا
فَآذَوْا رَسُولَ اللهِ فِيهَا وَعَمَّمُوا مَخَازِيَ سُوءٍ جُلِّلُوهَا وَفُضِّحُوا

[المعجم الكبير للطبراني ٢٣/ ١١٥، وحديث الإفك للمقدسي ١٨٣-١٨٥].

القصيدة الوضاحية في مدح السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

١ - ما شَانُ أَمِّ المؤمنين وشَاني هُدِيَ المُحِبُّ لها وضَلَّ الشَّاني
٢ - إِنِّي أقولُ مُبَيِّنًا عَنْ فَضْلِها ومُتَرْجِمًا عَنْ قَوْلها بِلِسَاني
٣ - يا مُبْغِضِي لا تَأْتِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ فالبَيْتُ بَيْتي والمَكانُ مَكاني
٤ - إِنِّي خُصِصْتُ على نِساءِ مُحَمَّدٍ بِصِفاتِ بِرٍّ تَحْتَهُنَّ مَعاني
٥ - وَسَبقْتُهُنَّ إلى الفَضَائِلِ كُلِّها فالسَّبْقُ سَبْقِي والعِنَانُ عِنَاني
٦ - مَرِضَ النَّبِيُّ وماتَ بينَ تَرَائِبي فالْيَوْمُ يَوْمي والزَّمانُ زَماني
٧ - زَوْجي رَسولُ الله لَمْ أَرَ غَيْرَهُ اللهُ زَوَّجَني بِهِ وحَبَاني
٨ - وأتاهُ جِبريلُ الأَمينُ بِصُورَتي فأَحَبَّني المُخْتارُ حِينَ رآني
٩ - أنا بِكْرُهُ العَذْراءُ عِنْدِي سِرُّهُ وضَجيعُهُ في مَنْزِلي قَمَرانِ
١٠ - وَتَكَلَّم اللهُ العظيمُ بِحُجَّتي وَبَرَاءَتِي في مُحْكَمِ القُرآنِ
١١ - واللهُ خَفَّرَني وعَظَّمَ حُرْمَتِي وعلى لِسَانِ نَبِيِّهِ بَرَّاني
١٢ - واللهُ في القُرآنِ قد لَعَنَ الذي بَعْدَ البَراءَةِ بالقَبيحِ رَماني
١٣ - واللهُ وَبَّخَ مَنْ أراد تنقُّصي إفْكًا وسَبَّحَ نَفسَهُ في شأني
١٤ - إِنِّي لَمُحْصَنَةُ الإِزارِ بَريئَةٌ ودليلُ حُسْنِ طَهَارَتي إحْصاني
١٥ - واللهُ أَحصنَني بخاتِمِ رُسْلِهِ وأَذَلَّ أَهْلَ الإفْكِ والبُهتانِ
١٦ - وسَمِعْتُ وَحْيَ الله عِنْدَ مُحَمَّدٍ من جِبْرَئيلَ ونُورُه يَغْشاني
١٧ - أَوْحَى إِلَيْهِ وَكُنْتُ تَحتَ ثِيابِهِ فَحَنى عليَّ بِثَوْبِهِ وخَبَّاني
١٨ - مَنْ ذا يُفَاخِرُني وينكرُ صُحْبَتي ومُحَمَّدٌ في حِجْرِه رَبَّاني؟
١٩ - وأَخَذتُ عن أَبَوَيَ دينَ مُحمدٍ وَهُما على الإِسْلامِ مُصْطَحِبانِ
٢٠ - وأبي أَقامَ الدِّين بَعْدَ مُحَمَّدٍ فالنَّصْلُ نصْلي والسِّنان سِناني
٢١ - والفَخْرُ فَخْرِي والخِلاَفَةُ في أبي حَسْبي بِهَذا مَفْخَرًا وكَفاني

٢٢ - وأنا ابْنَةُ الصِّدِّيقِ صاحِبِ أَحْمَدٍ ... وحَبِيبِهِ في السِّرِّ والإعلانِ
٢٣ - نَصَرَ النبيَّ بمالِهِ وفِعالِه ... وخُرُوجِهِ مَعَهُ مِنَ الأوطانِ
٢٤ - ثانيه في الغارِ الذي سَدَّ الكُوَى ... بِردائِهِ أَكْرِم بِهِ مِنْ ثانِ
٢٥ - وجَفا الغِنى حتَّى تَخَلَّل بالعَبَا ... زُهدًا وأَذْعَنَ أَيَّما إِذْعانِ
٢٦ - وتَخَلَّلَتْ مَعَهُ مَلائِكَةُ السَّما ... وأَتَتْهُ بُشرى الله بالرِّضْوانِ
٢٧ - وهو الذي لَمْ يَخْشَ لَوْمَةَ لائمٍ ... في قَتْلِ أهلِ البَغْيِ والعُدوانِ
٢٨ - قَتَلَ الأُلى مَنَعوا الزَّكاة بكُفْرِهِم ... وأَذَل أَهْلَ الكُفر والطُّغيانِ
٢٩ - سَبَقَ الصَّحابَةَ والقَرَابَةَ لِلهُدى ... هو شَيْخُهُمُ في الفضلِ والإِحْسانِ
٣٠ - والله ما اسْتبقُوا لِنَيْلِ فضيلةٍ ... مِثْلَ استباقِ الخيلِ يومَ رِهانِ
٣١ - إلَّا وطارَ أبي إلى عَلْيائِها ... فمكانُه منها أَجَلُّ مكانِ
٣٢ - وَيْل لِعَبْدٍ خانَ آلَ مُحَمَّدٍ ... بِعَدَاوةِ الأزواجِ والأَخْتانِ
٣٣ - طُوبى لِمَنْ والى جماعةَ صَحْبِهِ ... ويكونُ مِن أحْبابِهِ الحَسَنانِ
٣٤ - بينَ الصحابةِ والقرابةِ أُلْفَةٌ ... لا تستحيلُ بِنَزْغَةِ الشيطانِ
٣٥ - هُمْ كالأَصابعِ في اليدينِ تواصُلًا ... هل يَسْتَوي كَفٌّ بغير بَنانِ؟
٣٦ - حَصِرَتْ صُدورُ الكافرين بوالدي ... وقُلوبُهُمْ مُلِئَتْ من الأضغانِ
٣٧ - حُبُّ البَتولِ وَبَعْلِها لم يَخْتَلِفْ ... مِن مِلَّةِ الإسلامِ فيه اثنانِ
٣٨ - أكرم بأربعةٍ أئمةِ شَرْعِنا ... فَهُمُ لِبيتِ الدينِ كالأركان
٣٩ - نُسِجَتْ مَوَدَّتهم سَدًى في لُحْمَةٍ ... فَبِناؤها مِنْ أثبَتِ البُنيانِ
٤٠ - الله أَلَّفَ بَيْنَ وُدِّ قُلُوبِهِمْ ... لِيَغِيظَ كُلَّ مُنافِقٍ طعَّانِ
٤١ - رُحَماءُ بَيْنَهُمُ صَفَتْ أَخْلاقُهُمْ ... وخَلَتْ قُلُوبُهُمُ مِنَ الشَّنَآنِ
٤٢ - فَدُخُولهم بَيْنَ الأَحِبَّةِ كُلْفَةٌ ... وسِبَابُهُمْ سَبَبٌ إلى الحِرْمانِ
٤٣ - جَمَعَ الإِلهُ المسلمين على أبي ... واستُبدلوا مِنْ خوْفهم بأَمان
٤٤ - وإذا أرادَ اللهُ نُصْرَة عَبْدِهِ ... مَنْ ذا يُطيقُ لَهُ على خُذْلانِ
٤٥ - مَن حَبَّني فَلْيَجْتَنِبْ مَنْ سَبَّني ... إنْ كانَ صانَ مَحَبَّتي ورعاني
٤٦ - وإذا مُحِبِّي قَدْ أَلظَّ بِمُبْغِضي ... فَكِلاهُما في البُغضِ مُسْتويانِ
٤٧ - إِني لَطَيِّبَةٌ خُلِقْتُ لطيِّبٍ ... ونِساءُ أَحْمَدَ أطيبُ النِّسْوانِ

٤٨ - إني لأَمُّ المؤمنينَ فَمَنْ أبى حُبِّي فَسَوْف يَبُوءُ بالخُسْرانِ
٤٩ - الله حَبَّبَني لِقَلْبِ نَبيِّهِ وإلى الصراطِ المستقيمِ هداني
٥٠ - واللهُ يُكْرِمُ مَنْ أرادَ كَرامتي ويُهينُ رَبّي من أرادَ هواني
٥١ - واللهَ أَسْأَلُهُ زيادةَ فَضْلِهِ وحَمِدْتُهُ شكْرًا لِمَا أَوْلاني
٥٢ - يا من يَلُوذُ بِأَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ يرجو بذلك رحمةَ الرحمانِ
٥٣ - صِلْ أُمَّهَاتِ المؤمنينَ ولا تَحُدْ عَنَّا فَتُسْلَبْ حُلَّةَ الإيمانِ
٥٤ - إني لصادِقَةُ المقالِ كريمةٌ إِي والَّذي ذَلَّتْ لَهُ الثَّقَلانِ
٥٥ - خُذْها إليكَ فإنَّما هي رَوْضَةٌ محفوفَةٌ بالرَّوحِ والرَّيحانِ
٥٦ - صَلَّى الإلهُ على النبيّ وآلِهِ فَبِهِمْ تُشَمُّ أزاهِرُ البُستانِ

[القصيدة الوضاحية في مدح السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ الإمام أبو عمران الفليشي موسى بن محمد بن عبد الله الكفيف المَرِّيِّي الأندلسي، المعروف بابن بهيج (ت بعد ٤٩٦ هـ) ـ اعتنى به أ/ نظام محمد صالح يعقوبي ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢ م].

نظم حديث الإفك: للشيخ محمد بن محمد عبد الله بن محمد المامي اليعقوبي.

حَمْدًا لمن بالصدق في القول أمرْ كل العباد وعن الإفك زجرْ
صلى وسلم على خير البشـرْ والآل والصحب الأجلة الغررْ
وبعد ذي منظومة مختصهْ بقصة الإفك تفي بالقصهْ
من كتب الصحيح تستوفيها خوفًا من أن يقع إفك فيها
مثل الذي ورد في البخاري ومسلمٍ فيها من الأخبار
والإفك في سنة ست وقعا لما غزا خيرُ الورى المريسعا
وكان من دأب شفيع الشفعا إذا أراد سفرًا أن يقرعا
بين نسائه فمن من نسوته خرج سهمها مضت في صحبته
فأقرع النبي لدى إرادتهْ لهذه بين النسا كعادتهْ
فخرج السهم هنا لعائشهْ ولم تكن ذات سهام طائشهْ
وكان ذا فيما روى الانجابُ من بعد ما قد نزل الحجابُ
وكانت أم المؤمنين تُحْمَلُ في هودج لها وفيه تُنْزَلُ
فنزل النبي بذاك الجيش أثنا قفولهم بذات الجيش

وبات بالمنزل بعض الليل   وبعد ذا أذن بالرحيل
فخرجت لحاجة ورجعتْ   والناس في الرحيل كانت شرعتْ
وفقدتْ عِقدًا لها وذهبتْ   تطلبه هناك فيها قد ثبتْ
ولم يكونوا علموا خروجها   فاحتملوا من بعدها هودجها
وحسبوها فيه، إذ ذاك الزمنْ   نساؤه لم يتسمن بالسمنْ
وأخذوا من ذا خروج الأهل   لحاجة بدون إذن البعل
فرجعت إلى مكان العسكر   إذ وجدت وما به من بشـر
فقصدت مكانها إذ رجعتْ   وضربتْ جلبابها واضطجعتْ
تظن أن القوم يفقدونها   وسوف يرجعون يطلبونها
فغلبتها عينها فنامتِ   فَمَرَّ صفوان بني سلمةِ
نجل المعطل الحنيف السالكْ   سُبْلَ الهدى بأمنا هنالكْ
كان لبعض شأنه تخلّفا   ولم يبت مع الهداة الحنفا
عرفها وليس ذاك بعجابْ   لأنه أبصـرها قبل الحجابْ
ما سمعتْ منه سوى استرجاعه   فاستيقظت في الحين من سماعه
فركبت بعيره إذ قربهْ   منها وقد أمسكه لتركبهْ
فقاد مسـرعًا بها ليلحقا   بالجيش لكنْ جيش طه سبقا
وبعد ما بطيبة الجيش نزلْ   طلع وهو قائد بها الجملْ
ثم أشاع أهل الإفك الفاحشهْ   وذاك لا علم به لعائشهْ
فمرضت بعد القدوم بقليلْ   وبلغ الحديثُ صفوة الجليلْ
ووالدي عائشةٍ وما درتْ   بذاك إلا أنها قد أنكرتْ
من أفضل الأنام بعض لطفهِ   والبعض من حنانه وعطفهِ
كان إذا ما جاءها يسلِّمُ   ولا يقول غير كيف تيكمُ
فنقهت من بعد قرب شهر   ولم تكن قد علمت بالأمر
وخرجت لفسحة من فُسَحِ   طيبة ليلًا مع أم مسطح
وهي المناصع ولم تك الكنفْ   مألوفة عندهمُ فيها ألفْ
وأم مسطح إذا رُمْتَ النسبْ   بنت أبي رهم سليل المطلبْ

وهي خالة أبي بكر السـري   والأم بنت صخر بن عامر
ومسطح إلى أثاثة انتسبْ   وذا إلى عبَّاد بن المطلبْ
ومسطح لقبُه والخلفُ   جا في اسمه هل عامر أو عوف
واعلم بأن أمَّه تسمى   كما حكاه النوويُّ سلمى
فعثرت في مرطها بنت أبي   رهم رفيقة ظعينة النبي
في سيرها ذاك فقالت تعسا   مسطح أي شقي والمرط الكسا
قالت لها عائشةٌ لبيسما   قلت تسبين حنيفًا مسلما
شهد بدرًا مع خير الرسلِ   وهو من المهاجرين الأوَل
قالت لها أما سمعت ما ذكرْ   وقومُه وأخبرتها بالخبرْ
فزادها ذا مرضًا واشتكتِ   أشد من ما قد مضـى وبكتِ
واستأذنت خير الورى وما أبى   في أن تزور الأم إذ ذا والأبا
تريد منهما تيقن الخبرْ   فسألت الأم كما جا في الخبرْ
فلم تزدها فيه إلا الأمرا   بأن تهوِّن عليها الأمرا
وأمُّ أمنا تكنى أما   رومان واعلم أنها تسمَّى
زينب بنت عبد دهمان وإنْ   سألت ممن هو قلتُ لك منْ
بنى فراس ابن غنم ابن ما   لك الذي إلى كنانة انتمى
وقد بكت ليلتَها ويومها   وفقدت راحتها ونومها
ثم استشار في فراقها النبي   لأتقى عليًّا وأسامة الأبي
أما أسامة فخيرًا ذكرا   عنها وقال ذاك إفك مفترى
وقال الآخر -كما في ابن كثيرْ   وغيرِه- النساء غيرها كثيرْ
وسل بريرة فإنها تقولْ   لك الحقيقة فسألها الرسولْ
فلم تقل ولن تقول غيرا   والله لا أعلم إلا خيرا
أو أنها تنام عما أعجنُ   لهم فتأكل العجينَ الداجنُ
فخطب الناس إمام الرسل   وقال من يعذرني من رجل
بلغني منه الأذى في أهلي   وهم بخير عُرفوا وفضل
و بما يقول أيضًا قذفا   صفوان وهو بالجميل عرفا

ولم يكن يدخل بيتي إلا إن كنت حاضرًا وإلا ولَّى
وابن أُبَيٍّ قاصدًا إذ أمرَه كان هو الذي تولى كبرَه
فقال سعد بن معاذ نضـرب عنقه إذا للأوس ينسب
وإن يكن من خزرج فمرنا فما به أمرتَنا فعلنا
فاحتملت حمية بعضَ الرجالْ وهو سعد بن عبادة فقالْ
لابن معاذ لم تقل ما قلتنا آنفًا إلا بعدما علمتنا
أن المراد من رجال الخزرج وما تقول هو عين البهرج
وقال لو كان من الأوس لما كنت تحب قتله وأقسما
وعند ذا قال أسيد بن حضيرْ وهو ابن عم بن معاذ الأميرْ
لابن عبادة كذبت عن يقينْ أنت تجادل عن المنافقينْ
وكاد أن يقع شرٌّ بأس هناك بين خزرج وأوس
فنزل النبي عن منبرِهِ من بعد حسم ما جرى بأسرهِ
وجاء عائشةَ ذو الفخار والوالدان معها في الدار
ودمعها يسيل في انهمار هي ومرأة من الأنصار
فحمد الله وقال يا عا ئشة قد سمعت ما قد شاعا
وسيبرئك إن بريئهْ من ذاك كنت بارئُ البريئهْ
أو كنت قد قارفت سوء توبي لله فهو غافر الذنوب
فقلص الدمع وقالت لأبي بكر أيا أبي أجب عني النبي
وفيه تقديم الكبير للكلامْ مَعْ أول الأمر في المهمات العظامْ
فقال لا أدري بما أجيبُ خير الورى والدها الأديبُ
فطلبت جواب الأم للنبي فلم تقل إلا كقولة الأب
قالت لهم والله قد سمعتمْ هذا الحديث وبه صدقتمْ
ولستمُ مصدقين قولَنا وفي أبي يوسفَ أسوة لنا
في قوله صبر جميل فكرتْ لتذكر اسمه وما تذكرتْ
من شدة الأمر الذي قد اعترى وكان عندها المقال أحقرا
من أن يجيء فيه وحي يتلى وفي المساجد به يصلى

لكنها كانت تود أن يرى ... تكذيبه في النوم أفضلُ الورى
فلم يقم طه من المكان ... حتى أتت براءة القرءان
في عشــر آيات لها ابتداء ... بقوله: (إن الذين جاؤوا..)
فقال أبشري فمن ذي الفاحشهْ ... برأك الله – علا- يا عائشهْ
قالت بحمد الله لا بحمدكا ... هو الذي برأني من ذلكا
فخطب الناس النبي وتلا ... ما في البراءة عليه نزلا
وكان مما كان فيه يسبحُ ... حسان نجل ثابت ومسطحُ
وبنت جحش حمنة تفشيهِ ... لأجل أختها وتستوشيهِ
هذا وقد كان النبي المجتبى ... يسأل عن ذلك أيضًا زينبا
تقول أحمي منه سمعي والبصـرْ ... وعندما بلغ صفوان الخبرْ
حلف ما كشف قط عن كنفْ ... أنثى وقد كفاك أنه حلفْ
وقد كفاك أنه سعيدا ... مماته من بعد ذا شهيدا
ثم أقيم الحد في ابن ثابت ... ومسطح وحمنة في الثابت
وكان قبل ذا أبو بكر الأبرْ ... ينفق مسطحًا كما جا في الخبرْ
لقربه وفقره فقال لا ... أنفعه من بعدها فنزلا
إلى رحيم قوله لا يأتل ... قال: بلى أحب أن يغفر لي
فرد الإنفاق له وقال لا ... أنزعه من بعد ذاك وائتلى
وهذه الآية أرجى آيهْ ... في قول بعض من أولي الدرايهْ
نرجو من الله بها الغفرانا ... والفضل والرحمة والإحسانا
وتم ما كنت أردت نظمه ... والحمد لله الذي أتمه
صلى على خاتم الأنبياء ... وآله والصحب الأتقياء

[حديث الإفك للمقدسي ٩٩-١٠٤].

❖ **مصادر ومراجع خاصة بغزوة بني المصطلق وحديث الإفك للاستزادة:**

(١) **أثر حادثة الإفك على المجتمع المسلم** (ماجستير) ـ د/ زينب بنت إبراهيم القصير ـ إشراف د/ سامي بن علي بن محمد القليطي ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة طيبة ـ المدينة المنورة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م ـ ٢٢٣ص.

(٢) **الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة بني المصطلق** (ماجستير) ـ د/ محمد بن سليمان مراد ميرك ـ إشراف د/ عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم ـ المعهد العالي للقضاء ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ـ ٢٦٢ ص.

(٣) **آيات حادثة الإفك في سورة النور: دراسة تحليلية** (ماجستير) ـ د/ خالد بن فهد الكليب المغيرة ـ إشراف د/ عبد الغني قمر جمعة جاد الله ـ جامعة المدينة العالمية ـ كلية العلوم الإسلامية ـ ماليزيا ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م ـ ٢٢٠ ص.

(٤) **حادثة الإفك ودلالاتها الفقهية والأصولية** ـ د/ هاني أحمد عبد الرحمن عبد الشكور ـ سلسلة دعوة الحق ٢٤٨ ـ رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م ـ ١٥٩ص.

(٥) **حادثة الإفك: دراسة دعوية** (ماجستير) ـ د/ عبدالغني بن عبد ربه بن ناجي الرحيلي ـ إشراف د/ حمود بن أحمد الرحيلي ـ كلية الدعوة وأصول الدين ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٢م ـ ٣٤٣ص.

(٦) **حادثة الإفك: دروس وعبر** ـ د/ أمير بن محمد المدري ـ مكتبة خالد بن الوليد، دار الكتب اليمنية ـ صنعاء ـ اليمن ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م ـ ١٤٩ ص.

(٧) **حديث الإفك** ـ أ/ سيد قطب ـ إعداد أ/ سيد جويل ـ دار الدعوة ـ الإسكندرية ١٩٨٤م ـ ٥٩ص.

(٨) **حديث الإفك** ـ الإمام أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي (٦٠٠هـ) ـ حقق نصوصه ووثقها وخرج أحاديثه وآثاره وعلق عليه الشيخ أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي، ومعه: **الذيل على حديث الإفك، نظم حديث الإفك** ـ غراس للنشر والتوزيع ـ الكويت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ـ ٣١٥ ص.

(٩) **حديث الإفك كما جاء في سورة النور، وأثر المنافقين فيه** (ماجستير) ـ د/ عبدالحليم بن إبراهيم العبد اللطيف ـ إشراف د/ محمد الراوي ـ كلية أصول الدين ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ـ ٣٥٧ص، ط نادي القصيم الأدبي ببريدة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ـ ٣٨٩ص.

(١٠) **حديث الإفك من المنظور الإعلامي** ـ د/ علي محمود رشوان ـ طبعة المؤلف ـ القاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ـ ١٥٩ ص.

(١١) **حديث الإفك وبراءة السيدة عائشة ﵂ منه** ـ الإمام عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي (٦٩٥هـ) ـ أعدها للطبع عبد الله عبد الرحمن الخنيني ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ـ ١٧٣ص.

(١٢) **حكمة الابتلاء** ـ الإمام ابن القيم ـ ويليه : **حديث الإفك** ـ أ/ سيد قطب ـ تقديم أ/ مروان كجك ـ دار الكلمة الطيبة ـ القاهرة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(١٣) **الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق** (ماجستير) ـ د/ محمد سعيد بن أحمد بن ناصر القرافي ـ إشراف د/ عبد الموجود محمد عبد اللطيف ـ كلية الدعوة ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م ـ ١٣٨ ص.

(١٤) **سياسة النبي ﷺ الحكيمة في معالجة أحداث غزوة بني المصطلق** ـ د/ طه عفان الحمداني ـ الجامعة العراقية ـ كلية التربية للبنات ـ مجلة مداد الآداب ـ العدد الثاني ص ٣٨٨-٤٤١.

(١٥) **غزوة بني المصطلق دروس وعبر** ـ الشيخ أمير بن محمد المدري ـ مكتبة خالد بن الوليد، عالم الكتب اليمنية ـ صنعاء ـ اليمن د.ت ـ ٦٢ ص.

(١٦) **القيم التربوية المستنبطة من حادثة الإفك** (ماجستير) ـ د/ سلافة بكر عبد الله القاضي ـ إشراف د/ نايف حامد همام الشريف ـ كلية التربية ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م ـ ١٥١ ص.

(١٧) **المبادئ التربوية المستنبطة من غزوة بني المصطلق وتطبيقاتها التربوية** (ماجستير) ـ د/ عاتق بن حميد الشريف ـ إشراف د/ محمد بن بكر حسن كمال ـ كلية الدعوة وأصول الدين ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م ـ ١٤٦ ص.

(١٨) **مرويَّات غزوة بني المصطلق، وهي غزوة المريسيع** (ماجستير) ـ جمع وتحقيق ودراسة د/ إبراهيم بن إبراهيم قريبي ـ إشراف د/ أكرم ضياء العمري ـ جامعة الملك عبد العزيز ـ ط مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ـ ٤١٤ ص، وط ٢ الجامعة الإسلامية ـ إحياء التراث الإسلامي (٥) ـ المدينة المنورة ١٤٢٥هـ ـ ٥٦٨ ص.

(١٩) **المضامين التربوية في القصص القرآني: قصة حادثة الإفك، قصة أصحاب الحجر، وقصة أصحاب الجنة** (دكتوراه) ـ د/ نوال مهدي محمد ـ إشراف د/ حيدر خوجلي ـ معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي ـ جامعة أم درمان الاسلامية ـ أم درمان ـ السودان ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م ـ ٤٠٩ص.

❖ مصادر ومراجع خاصة بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :

(١) **الآثار والمواقف العقدية لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : جمع وتحقيق ودراسة عقدية** (ماجستير) ـ د/ أمان بنت حامد بن عبده نصر ـ إشراف د/ محمد عبد الحافظ حافظ ـ كلية الدعوة وأصول الدين ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م ـ ٧٥٧ص.

(٢) **الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة رضي الله عنها على الصحابة رضي الله عنهم** ـ الإمام بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر الزركشي (٧٩٤ هـ) ـ تح أ/ سعيد الأفغاني ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ١٩٣٩م ـ ٢٢٨ ص، وط المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٩٧٠م ـ ٢١٢ ص، وط تحقيق وتخريج د/ رفعت فوزي عبد المطلب ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م ـ ٢٠٤ ص، وط تحقيق وتقديم د/ محمد بنيامين أرول ـ راجعه وقدم له المحدث شعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م ـ ٣٢٧ص.

(٣) **أحاديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : أدوار من حياتها** ـ السيد مرتضى العسكري ـ دار الزهراء ـ بيروت ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م ـ ٤٩٨ص.

(٤) **ألفية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها المسماة : الروضة الأنيقة في نصرة العفيفة الصديقة رضي الله عنها وأرضاها** ـ يحي بن عطية الصامولي الأزهري ـ دار التقوى ـ القاهرة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م ـ ١١٢ ص.

(٥) **أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها** (سلسلة شبهات حول الصحابة والرد عليها ٣) ـ شيخ الإسلام الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي المعروف بابن تيمية (٧٢٨هـ) ـ جمع وتقديم وتحقيق أ/ محمد مال الله ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م ـ ١٠٢ ص.

(٦) **أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الكتاب والسنة** (دكتوراه) ـ د/ موسى شاهين لاشين ـ إشراف د/ محمد علي أبو الروس ـ كلية أصول الدين والدعوة ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة ١٩٦٥م.

(٧) **أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ومروياتها في التفسير من الكتب الستة وتفسير الإمام الطبري** (ماجستير) ـ د/ محمود سليمان علي ـ إشراف د/ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ـ كلية الدعوة وأصول الدين ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ١٤١٠ هـ ـ ٥٢٢ ص.

(٨) **أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : حياتها وفقهها** (ماجستير) ـ د/ سعيد بن فايز الدحيل ـ إشراف د/ محمد بن أحمد بن صالح الصالح ـ كلية الشريعة ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ـ ٥١٧ ص.

(٩) **براءة مريم وعائشة رضي الله عنها** ـ أ/ عماد الدين شرف الدين ـ المختار الإسلامي ـ القاهرة ١٩٩٢م ـ ٧٨ص.

(١٠) **براءة من السماء: عائشة رضي الله عنها** ـ د/ أحمد درة ـ الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠٢م ـ ١٩٨ ص.

(١١) **البريئة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها** ـ أ/ عفيفة الحصني ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

(١٢) **تفسير أم المؤمنين السيدة عائشة** رضي الله عنها - د/ عبد الله أبو السعود بدر - دار عالم الكتب - الرياض والقاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م - ٣٠٤ ص.

(١٣) **حبيبة الحبيب ﷺ أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها - أ/ صالح بن محمد العطا - ط المؤلف - الكويت ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م - ٥٠٦ ص.

(١٤) **الحصون المنيعة في براءة عائشة الصديقة باتفاق أهل السنة والشيعة** - الشيخ محمد عارف بن أحمد بن سعيد المنير الحسيني الدمشقي (١٣٤٢هـ) - تح أ/ السيد يوسف أحمد - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م - ٢٢٣ ص.

(١٥) **حياة عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها - أ/ محمود شلبي - دار الجيل - بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م - ٤٦٣ص.

(١٦) **الدلالات التربوية للأحاديث التي روتها أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها **في كتاب العلم من الصحيحين البخاري ومسلم** - د/ منى بنت محمد العلي الصانع - كرسي الشيخ عبد الله بن صالح الراشد الحميد لخدمة السيرة والرسول ﷺ بجامعة القصيم - الرياض ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

(١٧) **رسالة من عائشة** رضي الله عنها - أ/ عبد المنعم الهاشمي - دار ابن كثير - دمشق ١٩٩٤م - ٨٥ ص.

(١٨) **زواج السيدة عائشة** رضي الله عنها **ومشروعية الزواج المبكر والرد على منكر ذلك** - د/ خليل إبراهيم ملا خاطر - دار القبلة - جدة ١٤٠٥هـ - ٩٢ص.

(١٩) **السنا الوهاج في سن عائشة** رضي الله عنها **عند الزواج** - أ/ فهد بن محمد بن محمد الغفيلي - دار الصميعي - الرياض ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م - ٤٨٠ ص.

(٢٠) **السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق** رضي الله عنهما - د/ خالد بن محمد الحافظ العلمي - مكتبة دار الزمان - المدينة المنورة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م - ٢٠٨ ص.

(٢١) **السيدة عائشة** رضي الله عنها (ماجستير) - د/ زاهية مصطفى قدورة - إشراف د/ حسن إبراهيم حسن - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٤٦م، وطبعت بعنوان : **عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها - مطبعة مصر ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م - ٢٢٤ ص، وط دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٣٩٢ هـ.

(٢٢) **السيدة عائشة** رضي الله عنها **نورانية العفاف وقرآنية الإنصاف** - أ/ محمد جاد الزغبي - وكالة العز للدعاية والإعلان - القاهرة ٢٠١١م - ١٦٠ ص.

(٢٣) **السيدة عائشة** رضي الله عنها **وتوثيقها للسنة** - د/ جيهان رفعت فوزي - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م - ٢٨٨ ص.

(٢٤) **السيدة عائشة** رضي الله عنها : **أم المؤمنين حبيبة حبيب الله** - أ/ محمد عطية خميس - ط ٢ دار الدعوة - حلب ١٣٩٦ هـ.

(٢٥) **السيدة عائشة** رضي الله عنها : **أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام** - أ/ عبد الحميد طهماز - ط ٦ دار القلم - دمشق ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م - ٢٣٩ ص.

(٢٦) **سيرة السيدة عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها ـ العلامة السيد سليمان الندوي ـ عربه وحققه وخرج أحاديثه أ/ محمد رحمة الله حافظ الندوي ـ دار القلم ـ دمشق ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ـ ٣٧٤ص.

(٢٧) **سيرة أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها **وجهودها في الدعوة والاحتساب** (ماجستير) ـ د/ جوهرة بنت صالح الطريفي ـ إشراف د/ عبد الكريم الحميدي ـ كلية الدعوة والإعلام ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤١٧ هـ ـ ٣٦٢ ص.

(٢٨) **الصادقة بنت الصديق** رضي الله عنها **ورجال صدقوا** ـ أ/ أبو بكر القادري ـ مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء ١٩٩٨م ـ ٢١٥ ص.

(٢٩) **الصاعقة في نسف أباطيل وافتراءات الشيعة على أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها **مع دفع الكذب المبين عن أمهات المؤمنين** ـ د/ عبد القادر بن محمد عطا صوفي ـ أضواء السلف ـ الرياض ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م ـ ٢٧٨ ص.

(٣٠) **الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق** رضي الله عنها ـ أ/ عباس محمود العقاد ـ ط١١ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٨٨م ـ ١١٥ ص، وط المكتبة العصرية ـ بيروت ١٩٨٨م ـ ٨٨ ص.

(٣١) **عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها **وإن رغمت أنوف الملاعين** ـ أحمد بن سليمان ـ د.ن ١٤٣١هـ ـ ٤٨ص.

(٣٢) **عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها : **أيامها وسيرتها الكاملة** ـ د/ محمد سعيد رمضان البوطي ـ مكتبة الفارابي ـ دمشق ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ـ ١٤٤ ص.

(٣٣) **عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها : **حبيبة النبي** ﷺ **وأعلم النساء** ـ أ/ إبراهيم محمد حسن الجمل ـ دار الفضيلة ـ القاهرة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ـ ٣٢ ص.

(٣٤) **عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها : **دراسة وتحليل لحياتها الحافلة وشخصيتها الفاضلة على ضوء ما ورد في الكتاب والسنة** (ماجستير) ـ د/ جواهر محمد سرور باسلوم ـ إشراف د/ يوسف الضبع ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ١٤٠٣ هـ ـ ٤٢٤ ص.

(٣٥) **عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها : **موسوعة علمية عن : حياتها، وفضلها، ومكانتها العلمية، وعلاقتها بآل البيت، ورد الشبهات حولها** ـ مجموعة من الباحثين ـ إشراف أ/ علوي بن عبد القادر السقاف ـ مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ الظهران ـ السعودية ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م ـ ١١٦٥ص.

(٣٦) **عائشة بنت أبي بكر الصديق** رضي الله عنها : **سيدة الداعيات في الإسلام** ـ أ/ رفيدة الحبش ـ دار الخير ـ بيروت ١٩٩٠م ـ ١٢٣ ص.

(٣٧) **عائشة** رضي الله عنها **معلمة الرجال والأجيال** ـ أ/ محمد علي قطب ـ مكتبة القرآن ـ القاهرة د.ت ـ ١١٢ص.

(٣٨) **عائشة** رضي الله عنها **والسياسة** ـ أ/ سعيد الأفغاني ـ نشره أ/ قاسم الرجب ـ مكتبة المثنى ـ بغداد ١٣٨٨ هـ ـ ٣٠٤ ص، وط٢ دار الفكر ـ بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

(٣٩) **عفواً أم المؤمنين** ـ أ/ مها المحمدي ـ دار القاسم ـ الرياض د.ت ـ ٤٠ ص.

(٤٠) **عين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة** ـ الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ) ـ تح أ/ عبد الله الدرويش ـ دار الإيمان ـ بيروت ودمشق ١٩٨٣م ـ ٨٨ ص.

(٤١) **الفتح الأنعم في براءة عائشة ومريم** ﵄ ـ الشيخ علي أحمد عبد العال الطهطاوي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ـ ٢٥٦ ص.

(٤٢) **فضائل أم المؤمنين عائشة** ﵂ ـ أ/ حمزة بن حامد بن بشير القرعاني ـ دار السندس للتراث الإسلامي ـ القاهرة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ـ ٤٧ ص.

(٤٣) **فضل أم المؤمنين عائشة** ﵂ ـ المجلس السادس والأربعون من أمالي الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر (٥٧١هـ) ـ دراسة وتحقيق أ/ الحسين بن محمد الحدادي ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ـ ٤٧ص.

(٤٤) **فضل أم المؤمنين عائشة** ﵂ **والدفاع عنها في الشعر العربي: دراسة موضوعية وفنية** (ماجستير) ـ د/ عبد الرحمن مناور سلطان السهلي ـ إشراف د/ عبد الخالق بن مساعد الزهراني ـ كلية اللغة العربية ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م ـ ٢٢٠ص.

(٤٥) **فقه السيدة عائشة** ﵂ **في غير العبادات** (دكتوراه) ـ د/ قاسم أحمد جاسم الجوراني ـ إشراف د/ عبد الستار حامد الدباغ ـ كلية الفقه وأصوله ـ الجامعة الإسلامية ـ بغداد ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ـ ٣٧١ص.

(٤٦) **فقه أم المؤمنين عائشة** ﵂ **في بابي الطهارة والصلاة : دراسة مقارنة بين المذاهب الفقهية الأربعة** (ماجستير) ـ د/ تهاني إبراهيم حسين أبو سعيد ـ إشراف د/ محمد حسني سليم ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ١٤١٧ هـ ـ ٤٨٩ ص.

(٤٧) **في حياة أم المؤمنين السيدة عائشة** ﵂ (ماجستير) ـ د/ محمد عبد الحميد سيد البوسي ـ كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة ١٩٣٥م.

(٤٨) **قال ابن عباس حدثتنا عائشة : فصول في تآخي (الأدبي) و(الشرعي) في الثقافة العربية** ـ د/ فهد العرابي الحارثي ـ ط المؤلف ـ السعودية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ـ ٤٠٤ص.

(٤٩) **قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب أم المؤمنين الصديقة عائشة** ﵂ ـ الشيخ الإمام أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الواعظ الأندلسي (ق ٦ هـ) ـ تح د/ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ـ مكتبة التوبة ـ الرياض ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ـ ٧١ ص، ونشرت بعنوان : **القصيدة الوضاحية في مدح السيدة عائشة أم المؤمنين** ﵂ ـ الشيخ الإمام أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الواعظ الأندلسي ـ (كان حيًّا سنة ٤٩٦هـ) ـ اعتنى به نظام محمد صالح اليعقوبي ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ـ ٤٧ ص (ضمن سلسلة : لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام (٣٣) ـ المجموعة الرابعة رمضان ١٤٢٢هـ).

(٥٠) **القول الجلي في فضائل أم المؤمنين عائشة والخليفة علي** ﵄ ـ الشيخ عاطف عبد المعز الفيومي ـ مكتبة طريق المصلحين ـ القاهرة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م ـ ٤٩ ص.

(٥١) **مروج النور في الذب عن الصِّدِّيقة الطهور** ـ أ/ سيد علي شعبان ـ البحث الفائز بالمركز الثاني في مسابقة «أمنا عائشة ملكة العفاف» ـ موقع الدرر السنية ـ د.ت ـ ١٣٠ص.

(٥٢) **مرويات السيدة عائشة بنت أبي بكر** رضي الله عنها **في كتب السنة النبوية الستة وأثره في الدعوة إلى الله تعالى** (دكتوراه) ـ د/ عادل الصاوي عبد العفار أبو زيد ـ إشراف د/ مرسى شعبان السويدي ـ جامعة الأزهر ـ المنوفية ٢٠١٣م ـ ٧٧٨ص.

(٥٣) **مرويات أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها **في التفسير** ـ د/ سعود بن عبد الله الفنيسان ـ مكتبة التوبة ـ الرياض ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م ـ ٥١٠ ص.

(٥٤) **مرويات أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها **في السيرة والتاريخ** (ماجستير) ـ د/ إيمان بنت إبراهيم بن علي البداح ـ إشراف د/ سعد بن عبد الرحمن العبيسي ـ كلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م ـ ٧٠٨ ص.

(٥٥) **مسند أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها **من جوامع الكبير في الحديث** ـ الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ) ـ الدار السلفية ـ بومباي، الهند ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ـ ٢١٧ ص.

(٥٦) **مسند عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها **من المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي** ـ الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ـ مكتبة السنة ـ القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ـ ٤١٦ ص.

(٥٧) **مسند عائشة** رضي الله عنها ـ الحافظ أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني (٣١٦هـ) ـ دراسة وتحقيق الشيخ عبد الغفور عبد الحق حسين ـ مكتبة دار الأقصى ـ الكويت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ـ ١١٦ص.

(٥٨) **مسند عائشة** رضي الله عنها ـ الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ـ تحقيق أبي مطيع السندي ـ مكتبة السنة ـ القاهرة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٥٩) **موسوعة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر** رضي الله عنها ـ د/ عبد المنعم الحفني ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة ٢٠٠٣م ـ ١٣٥٦ ص.

(٦٠) **موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها : **حياتها وفقهها** ـ الشيخ سعيد فايز الدخيل ـ تقديم د/ محمد رواس قلعه جي ـ دار النفائس ـ بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ـ ٧٦٧ ص.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من حديث الإفك (١)
المطلب الأول
الدروس العقائدية

١ ـ إبراز بشرية الرسول ﷺ:

يقول د/ البوطي: «وأما قصة الإفك، فإنها حلقة فريدة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، ولقد كانت هذه الأذيَّة أشد في وقعها على نفسه ﷺ من كل تلك المحن السابقة، وتلك هي طبيعة الشر الذي يصدر من المنافقين، فهو دائمًا يكون أقسى من غيره وأبلغ في المكيدة والضرر، إذ تكون الفرص والأسباب خاضعة لهم أكثر من غيرهم، وخبر الإفك صورة فريدة للأذى الذي تفرد به المنافقون.

وإنما كانت هذه القصة أبلغ من غيرها في إيذاء النبي ﷺ؛ لأن كل ما كان قد كابده قبل ذلك من المحن التي تحدثنا عن طرف منها، أمور كان يتوقعها، قد وطن نفسه لقبولها وتحملها، وليس التقاؤه بها في طريق الدعوة مفاجأة له، أما هذه فقد فوجئ بها؛ لأنها ليس مما قد اعتاده، أو توقعه، إنها اليوم شيء آخر، إنها شائعة، لو صحت لكانت طعنة نجلاء في أخص ما يعتز به إنسان، أخص ما يتصف به: الشرف والكرامة، وما الذي أدراه إنها شائعة صحيحة أو باطلة؟... من هنا كانت هذه الأذية أبلغ في تأثيرها من كل ما عداها؛ لأنها جاءت لتلقي بشعوره النفسي في اضطراب مثير لا مناص منه، ومع ذلك فلو أن الوحي سارع إلى كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين لكان في ذلك مخلص من هذا الاضطراب والشكوك المثيرة، ولكن الوحي تلبث أكثر من شهر لا يعلِّق على ذلك، فكان ذلك مصدرًا آخر للقلق والشكوك.

ومع ذلك فإن محنة الإفك هذه، جاءت منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية الرسول ﷺ، وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يتلبس بها، إن معنى النبوة في حياته ﷺ كان من المحتمل أن يبقى مشوبًا في وَهْمِ بعض المؤمنين به، والكافرين على السواء لو لم تأتِ حادثة الإفك هذه لتهز شخصية الرسول ﷺ هزًّا قويًّا يفصل إنسانيته العادية عن معنى النبوة الصافية فيه، ثم لتجلى معنى النبوة والوحي تجلية تامة أمام الأنظار والأفكار، حتى لا يبقى أي مجال التباس بينه وبين أي معنى من المعاني النفسية أو الشعورية الأخرى.

---

(١) يقول الإمام القاسمي : «واعلم أن ما اشتملت عليه هذه الآيات ـ أي آيات حديث الإفك ـ من الأحكام والفوائد والمطالب والآداب، لا تفي بها مجلدات ». تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ١٢/ ٤٤٦٨ .

لقد فاجأت هذه الشائعة سمع النبي ﷺ وهو في طور من إنسانيته العادية، يتصرف ويتأمل ويفكر كأي أحد من الناس ضمن حدود العصمة المعروفة للأنبياء والمرسلين، فاستقبلها كما يستقبل مثلها أي بشر عادي من الناس، ليس له اطلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول، ولا على قصد ملفق كاذب، فاضطرب كما يضطربون، وشك كما يشكون، وأخذ يقلب الرأي على وجوهه، ويستنجد في ذلك بمشورة أولي الرأي من أصحابه.

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية في إبراز هذا الجانب الإنساني المجرد فيه ﷺ أن يتأخر الوحي كل هذه الفترة التي تأخرها؛ كي تتجلى للناس حقيقتان، كل منهما على غاية من الأهمية:

أما الحقيقة الأولى: فهي أن النبي ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشرًا من الناس، فلا ينبغي لمن آمن به أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حدود البشرية، فينسب إليه من الأمور والتأثير في الأشياء ما لا يجوز نسبته إلا لله تعالى وحده.

وأما الحقيقة الثانية: فهي أن الوحي الإلهي ليس شعورًا نفسيًّا ينبثق من كيان النبي ﷺ كما أنه شيئًا ليس خاضعًا لإرادته أو تطلعاته وأمنياته، إذ لو كان كذلك، لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة من يوم ميلادها ويريح نفسه من ذيولها ونتائجها، ويجعل مما يعتقد من الخير والاستقامة في أهله قرآنًا يطمئن به أصحابه المؤمنين، ويسكت الآخرين من أصحاب الفضول، ولكنه لم يفعل؛ لأنه لا يملك ذلك.

ولننقل لك ما يقوله في بيان هذه الحقيقة د/ محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) يقول: (ألم يرجف المنافقون في المدينة بحديث الإفك عن زوجه عائشة ~~رضي الله عنها~~، وأبطأ الوحي وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس (إني لا أعلم عنها إلا خيرًا) ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب ومضى شهرٌ بأكمله والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «**يَا عَائِشَةُ! فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ**».

هذا كلامه بوحي ضميره، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظنون ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنًا براءتها ومصدرًا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن إليه ـ أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبلُ ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحي السماوي؛ لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة]. [**النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٧**].

ولقد كانت السيدة عائشة ﵂، أول من تجلت لها هاتان الحقيقتان، حتى ذهبت في توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهبًا أنساها ما سواه ومن سواه؛ فلذلك أجابت أمها حينما طلبت إليها أن تشكر رسول الله ﷺ قائلة: **وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي**.

إن هذا الكلام من السيدة عائشة ﵂ قد يبدو وكأن فيه شيئًا من عدم اللياقة تجاه النبي ﷺ غير أن الظرف والحالة هما اللذان أمليا عليها هذا الكلام، فهي إنما انساقت بوحي الحالة التي كونتها الحكمة الإلهية تثبيتًا لعقيدة المؤمنين، وقطعًا لإفك المنافقين والملحدين، وإظهارًا لمعنى التوحيد والعبودية الشاملة لله وحده.

وهكذا فقد انطوت قصة الإفك على حكمة إلهية باهرة استهدفت تثبيت العقيدة الإسلامية، ورد ما قد يعرض من شبهة عليها، وتلك هي الخيرية التي عبر الله عنها بقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]. [**فقه السيرة للبوطي ٢٢١-٢٢٢**].

ويقول د/ رزق الله: «جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها، فلو كان الوحي أمرًا ذاتيًّا غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ، لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكل أبعادها شهرًا كاملًا، ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أنْ ظهرت بشرية الرسول ﷺ ونبوته، فعندما حسم الوحي اللغط الذي دار حول أم المؤمنين عائشة ﵂ عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرسول ﷺ، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدل ذلك على حقيقة الوحي، وأن الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى لبقيت رواسب المحنة في نفس الرسول ﷺ بصفة خاصة، ولانعكس ذلك على تصرفاته مع زوجته عائشة ﵂، وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلًا كبيرًا على نبوة محمد ﷺ». [**السيرة النبوية لرزق الله ٤٤٠-٤٤١**].

ويقول د/ العمري: «في حديث الإفك توضيح دقيق لبشرية الرسول ﷺ، فقد تأثر أبلغ التأثر لرمي المنافقين زوجه، ومع حرصه عليها وحبه لها ولأبيها، فإنه لم يتمكن من الكشف عن الغيب أو استحضار الوحي الذي انقطع عنه شهرًا؛ ليجري عليه الابتلاء والامتحان، فلو كان الوحي إلهامًا أو تألقًا عقليًّا ـ أي انبثاقًا من فكرة ـ فإن الحوافز الكثيرة التي أثرت في كيانه وأقلقت فكره وحفزت عاطفته كانت كفيلة بانطلاق الوحي لإنهاء الصراع والقلق والألم في نفسه ﷺ، ولكن الرسول ﷺ كما حكى القرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، ولا سلطان له على الوحي، ولا يقدر على استحضاره ولا الإضافة إليه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة]». [**السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤١٥-٤١٦**].

«وهذا يدل على بشريته ﷺ وأن الوحي من عند الله ﷻ وهو الذي يعلم الغيب، فالرسول ﷺ بشر لكنه يتميز عن غيره بأنه ﷺ يوحى إليه». [**فقه السيرة للزيد ٤٨٤**].

ويقول د/ قريبي: «لقد كانت قصة الإفك فريدة في نوعها وضخامتها عن جميع المحن والمصائب التي واجهها رسول الله ﷺ في هذه الغزوة وفي غيرها؛ لأن الرسول ﷺ كان وقد وطن نفسه لمواجهة كل بلية أو أذى يقوم به المنافقون؛ لأنه على علم وبصيرة نافذة بمكايدهم وخستهم، إلا أنه لم يكن يتوقع منهم النَّيل من عرضه ورميه في أحب الناس إليه؛ لذا كانت حادثة الإفك لها أثرها ووقعها الثقيل على رسول الله ﷺ، لقد جاءت هذه القصة تحمل في طياتها إبراز بشرية الرسول ﷺ، وأنه يتأثر كغيره من بني الإنسان، وأنه لا يعلم الغيب وإنما الغيب لله وحده، إذ لو كان يعلم الغيب لجزم ببراءة ساحة أهله وكذب المفترين لأول وهلة، وأراح نفسه، وأراح غيره.

ولكنه مكث أكثر من شهر في قلق دائم والناس يموجون ويخوضون في ذلك، وهو لا يزيد على أن يشاور أصحابه وأتباعه في شأن أهله، ويطلب من ينجده بإيقاف هذا الحادث الأليم، ثم في آخر المطاف يذهب إلى زوجه يقول لها: «**يَا عَائِشَةُ! فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**».

لقد كان هذا كله حاسمًا لما يخشى أن يقع فيه بعض المسلمين فيرفعون رسول الله ﷺ فوق منزلته التي أنزله الله إياها ويَدَّعون له ما لم يدعه لنفسه، فكانت هذه الواقعة واضحة الدلالة على مشاركة الرسول ﷺ غيره في البشرية، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه.

وقد أوضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ **عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾** ﴾ [الجن].

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله: ﴿ **قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾** ﴾ [الأعراف]». [**مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٨٩-٤٩٠**].

٢ ـ الوحي بيد الله يوحيه إلى رسوله متى شاء:

يقول د/ أبو فارس: «تأخر نزول الوحي بالقرآن في تبرئة عائشة رضي الله عنها دليل على أن هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالى: إن الذي يقرأ حديث الإفك ويتابع وقائع الأحداث يشعر بالحالة النفسية الحرجة التي كان يعيشها رسول الله ﷺ ويلاحظ حالة القلق والحزن في سويداء قلب أبي بكر الصديق وبنته الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما.

إن هذه الحالة لم تكن يومًا مضى وانقضى ـ وإن كان اليوم في هذه الأحوال كأنه سنة أو ألف سنة ـ لقد استمرت هذه الحالة شهرًا كاملًا، ولا يستطيع النبي ﷺ أن يفعل شيئًا، وينتظر كما ينتظر سائر الخلق حتى ينزل القرآن ببراءة عائشة رضي الله عنها.

كل هذا دليل على أن هذا القرآن مِنْ عِنْدِ الله، وليس من عند بشر حتى ولو كان رسولًا نبيًّا، حتى ولو كان سيد ولد آدم خاتم النبيين والمرسلين، ولو كان من عند الرسول ﷺ لما انتظر هذه المدة الطويلة المرهقة، وهو يعاني من الآلام والأحزان، وكذلك يرى زوجه وأمها وصهره وصاحبه في الغار يعانون ما يعانون من القلق والأسى، كان بإمكانه ـ لو كان القرآن من عنده ـ أن يحل المشكلة ويوقف الأحزان من أول يوم، فيعلن براءتها، إلا أن شيئًا من هذا لم يكن، بل ظل يسأل عن عائشة من يعرفها ويستشير في شأن فراقها وينتظر أمر الله وحكمه، حتى نزل بعد ثلاثين يومًا من قيل وقال وكثرة السؤال».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٠-٦١].

ويقول د/ قريبي: «إن قصة الإفك كان من نتائجها البيان القاطع بأن الوحي ليس خاضعًا لأمنية الرسول ﷺ وإرادته، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة منذ نشأتها وطفولتها، ويريح نفسه من ويلاتها ونتائجها، وذلك بأن يأتي بقرآن يبرئ به أهله ويطمئن به أصحابه، ويُسكت به أهل القيل والقال؛ لأنه كان يعلم من أهله الاستقامة والبعد عن هذه الجريمة الشنعاء، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه لا يملكه وإنما الوحي بيد الله وحده.

وقد نفى الله عنه ذلك في أَحَد مواقفه مع المشركين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾ [الحاقة].

وظل شهرًا كاملًا يحمل بين جنبيه الألم الشديد، من جَرَّاء هذه الكارثة الفادحة ويصبر نفسه على ذلك ويطلب الفرج من الله ﷻ.

وكان من تمام الحكمة الإلهية أن تأخر عنه الوحي هذه المدة كلها ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وقد عالج ابن القيم هذه القضية معالجة طيبة، وإليك ما قاله ؒ: «فَإِنْ قِيلَ: فَمَا بَالُ رَسُولِ الله ﷺ تَوَقَّفَ فِي أَمْرِهَا، وَسَأَلَ عَنْهَا وَبَحَثَ، وَاسْتَشَارَ، وَهُوَ أَعْرَفُ بِالله وَبِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ وَبِمَا يَلِيقُ بِهِ، وَهَلَّا قَالَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ١٦﴾ [النور] كَمَا قَالَهُ فُضَلَاءُ الصَّحَابَةِ؟

الامْتِحَانُ لَهُ ﷺ: فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْحِكَمِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي جَعَلَ اللهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ سَبَبًا لَهَا وَامْتِحَانًا وَابْتِلَاءً لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلِجَمِيعِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِيَرْفَعَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ أَقْوَامًا، وَيَضَعَ بِهَا آخَرِينَ، وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَإِيمَانًا، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا.

وَاقْتَضَى تَمَامُ الِامْتِحَانِ وَالِابْتِلَاءِ أَنْ حُبِسَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ الْوَحْيُ شَهْرًا فِي شَأْنِهَا، لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ؛ لِتَتِمَّ حِكْمَتُهُ الَّتِي قَدَّرَهَا وَقَضَاهَا، وَتَظْهَرَ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَيَزْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ إِيمَانًا وَثَبَاتًا عَلَى الْعَدْلِ وَالصِّدْقِ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِالله وَرَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَالصِّدِّيقِينَ مِنْ

عِبَادِهِ، وَيَزْدَادَ الْمُنَافِقُونَ إِفْكًا وَنِفَاقًا وَيُظْهِرَ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ سَرَائِرُهُمْ؛ وَلِتَتِمَّ الْعُبُودِيَّةُ الْمُرَادَةُ مِنْ الصِّدِّيقَةِ وَأَبَوَيْهَا، وَتَتِمَّ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَلِتَشْتَدَّ الْفَاقَةُ وَالرَّغْبَةُ مِنْهَا وَمِنْ أَبَوَيْهَا، وَالِافْتِقَارُ إِلَى اللهِ وَالذُّلُّ لَهُ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ وَالرَّجَاءُ لَهُ؛ وَلِيَنْقَطِعَ رَجَاؤُهَا مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَتَيْأَسَ مِنْ حُصُولِ النُّصْرَةِ وَالْفَرَجِ عَلَى يَدِ أَحَدٍ مِنْ الْخَلْقِ؛ وَلِهَذَا وَفَّتْ هَذَا الْمَقَامَ حَقَّهُ لَمَّا قَالَ لَهَا أَبَوَاهَا: **قُومِي إِلَيْهِ**، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ بَرَاءَتَهَا، فَقَالَتْ: **وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلا اللهَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي**.

حَبْسُ الْوَحْيِ لِتَمْحِيصِ الْقَضِيَّةِ وَازْدِيَادِ حَاجَتِهِ ﷺ لَهُ: وَأَيْضًا فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ حَبْسِ الْوَحْيِ شَهْرًا أَنَّ الْقَضِيَّةَ مُحِّصَتْ وَتَمَحَّضَتْ، وَاسْتَشْرَفَتْ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْظَمَ اسْتِشْرَافٍ إِلَى مَا يُوحِيهِ اللهُ إِلَى رَسُولِهِ فِيهَا، وَتَطَلَّعَتْ إِلَى ذَلِكَ غَايَةَ التَّطَلُّعِ، فَوَافَى الْوَحْيُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَالصِّدِّيقُ وَأَهْلُهُ وَأَصْحَابُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَوَرَدَ عَلَيْهِمْ وُرُودَ الْغَيْثِ عَلَى الْأَرْضِ أَحْوَجَ مَا كَانَتْ إِلَيْهِ، فَوَقَعَ مِنْهُمْ أَعْظَمَ مَوْقِعٍ وَأَلْطَفَهُ، وَسُرُّوا بِهِ أَتَمَّ السُّرُورِ، وَحَصَلَ لَهُمْ بِهِ غَايَةُ الْهَنَاءِ، فَلَوْ أَطْلَعَ اللهُ رَسُولَهُ عَلَى حَقِيقَةِ الْحَالِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَأَنْزَلَ الْوَحْيَ عَلَى الْفَوْرِ بِذَلِكَ؛ لَفَاتَتْ هَذِهِ الْحِكَمُ وَأَضْعَافُهَا، بَلْ أَضْعَافُ أَضْعَافِهَا.

إِظْهَارُ اللهِ ﷻ مَنْزِلَتَهُ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عِنْدَهُ: وَأَيْضًا فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَحَبَّ أَنْ يُظْهِرَ مَنْزِلَةَ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عِنْدَهُ، وَكَرَامَتِهِمْ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُخْرِجَ رَسُولَهُ عَنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَيَتَوَلَّى هُوَ بِنَفْسِهِ الدِّفَاعَ وَالْمُنَافَحَةَ عَنْهُ، وَالرَّدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَذَمِّهِمْ وَعَيْبِهِمْ بِأَمْرٍ لَا يَكُونُ لَهُ فِيهِ عَمَلٌ، وَلَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ، بَلْ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْمُتَوَلِّي لِذَلِكَ، الثَّائِرُ لِرَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ.

ثُبُوتُ بَرَاءَةِ عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ ﵂: وَأَيْضًا فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ هُوَ الْمَقْصُودَ بِالْأَذَى، وَالَّتِي رُمِيَتْ زَوْجَتُهُ، فَلَمْ يَكُنْ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَشْهَدَ بِبَرَاءَتِهَا مَعَ عِلْمِهِ أَوْ ظَنِّهِ الظَّنَّ الْمُقَارِبَ لِلْعِلْمِ بِبَرَاءَتِهَا، وَلَمْ يَظُنَّ بِهَا سُوءًا قَطُّ، وَحَاشَاهُ، وَحَاشَاهَا؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا اسْتَعْذَرَ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ قَالَ: «**مَنْ يَعْذِرُنِي فِي رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**»، فَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ الْقَرَائِنِ الَّتِي تَشْهَدُ بِبَرَاءَةِ الصِّدِّيقَةِ أَكْثَرَ مِمَّا عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لِكَمَالِ صَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ، وَرِفْقِهِ، وَحُسْنِ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ، وَثِقَتِهِ بِهِ، وَفَّى مَقَامَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ حَقَّهُ، حَتَّى جَاءَهُ الْوَحْيُ بِمَا أَقَرَّ عَيْنَهُ، وَسَرَّ قَلْبَهُ، وَعَظَّمَ قَدْرَهُ، وَظَهَرَ لِأُمَّتِهِ احْتِفَالُ رَبِّهِ بِهِ، وَاعْتِنَاؤُهُ بِشَأْنِهِ.

[زاد المعاد ٣/ ٢٦١-٢٦٣]. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٩١-٤٩٣].

٣ ـ صيانة زوجات الأنبياء من الخيانة:

يقول د/ أبو شهبة: «صان الله سبحانه أنبياءه أن تقع من زوجاتهم خيانة زوجية؛ وذلك لأن زنى الزوجة مما يمتد أثره السيئ إلى الزوج، فصان الله زوجاتهم عن ذلك حتى لا يكون منفرًا منهم، ومعوقًا عن الاهتداء بهم، أما الكفر فيجوز عليهن، وذلك كامرأتي نوح ولوط ﵉؛ لأن الكفر لا تتعدى معرَّته

إلى الزوج، وأما ما ذكره الله عنهما في قوله ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[التحريم: ١٠].

فقد أجمع المفسرون سلفًا وخلفًا على أنه ليس المراد الزنا وإنما الخيانة في الدين، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما زنت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تخبر أنه مجنون، وإذا ما آمن به أحد أخبرت به قومه الكافرين، وكانت امرأة لوط تدل قومه على أضيافه إذا نزل به ضيف». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٦٥].

٤ ـ رؤيا الرسول ﷺ وحي صادق:

يقول د/ أبو فارس: «أفاد الحديث المتقدم أن الرسول ﷺ إذا رأى رؤيا في منامه كانت وحيًا، وجاءت روايات عديدة تذكر أن النبي ﷺ عند بدء النبوة كان إذا رأى رؤيا في منامه جاءت كفلق الصبح.

تأمل قول عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: «**وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَـرَى رَسُـولُ اللهِ ﷺ فِي النَّـوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا**». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٩-٧٠].

المطلب الثاني

الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ حب أفراد الصف للقيادة وحرصهم على إراحة خاطره:

في قول علي رضي الله عنه لما استشاره الرسول ﷺ في قصة الإفك يقول الإمام بحرق: «قال العلماء: إنما رأى علي رضي الله عنه من النبي ﷺ انزعاجًا وقلقًا، فأراد راحة خاطره.

قلت: ومما يدل على أنهم كانوا يرون انزعاج خاطره أشد عليهم من كل أمر: أن عمر رضي الله عنه لما قال للأنصاري: جَاءَ الْغَسَّانِيُّ؟! فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، اعْتَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْوَاجَهُ» [١].

[حدائق الأنوار لبحرق ٣٠٠].

---

(١) البخاري في التفسير (٤٩١٣)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩)، ولفظه عن عمر رضي الله عنه: «وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ، وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالْخَبَرِ، وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا، فَقَدِ امْتَلأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ، فَإِذَا صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ الْبَابَ فَقَالَ: افْتَحِ افْتَحْ، فَقُلْتُ: جَاءَ الْغَسَّانِيُّ؟! فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، اعْتَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْوَاجَهُ».

وبلفظ: «... وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غَابَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشَهِدْتُهُ أَتَيْتُهُ بِمَا يَكُونُ، وَإِذَا غِبْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشَهِدَ أَتَانِي بِمَا يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ مَنْ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدِ اسْتَقَامَ لَهُ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَلِكُ غَسَّانَ بِالشَّأْمِ، كُنَّا نَخَافُ أَنْ يَأْتِيَنَا، فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِالأَنْصَارِيِ وَهْوَ يَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، قُلْتُ لَهُ: وَمَا هُوَ؟ أَجَاءَ الْغَسَّانِيُّ؟ قَالَ: أَعْظَمُ مِنْ ذَاكَ، طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ». البخاري في اللباس (٥٨٤٣).

٢ ـ التأسي بالرسول ﷺ في تحمل إيذاء أعداء الدين:

يقول د/ رزق الله: «كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، وكان من لطف الله تعالى بنبيه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها، وسجَّل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفرية، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس التي تركها لنا لنستفيد منها ونقوِّم بها المواقف المماثلة». [السيرة النبوية لرزق الله ٤٤٠].

٣ ـ الأدب والحياء في معاملة النساء المسلمات:

يقول د/ أبو شهبة: «أدب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في معاملة النساء المسلمات ولا سيما نساء النبي ﷺ، والمبالغة في توقي مواطن الريبة والتهمة، فقد ثبت أن صفوان رضي الله عنه اكتفى بالاسترجاع حتى استيقظت السيدة عائشة رضي الله عنها، وفي استرجاعه ما يدل على استفظاعه وأسفه أن تترك زوجة النبي ﷺ في العراء، ولم يكلمها قط غير أنه سألها عن شأنها وعرض عليها الركوب، وحين الركوب أولاها ظهره ولما ركبت قاد بها ولم يسر خلفها.

وقديمًا فعل نبي الله موسى عليه السلام ذلك مع ابنة شعيب عليه السلام، فقد قال لها: سيري خلفي ودليني على الطريق، خشية أن تضرب الريح بثوبها فتكشف أو تصف بعض جسمها.

وهذا غاية الأدب والعفة؛ ولذلك قالت ابنة شعيب ـ وقد سمعت ورأت ـ كما قال الله سبحانه: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص]. (أما أمانته فقد حدثناك عنها. وأما قوته فقد قيل: لأنها شاهدته وهو ينحي عن البئر، وما كان يطيق ذلك إلا الجماعة من الرجال، وقيل: لأنها رأته وقد دفع الرعاء عن البئر على كثرتهم، ولم يخشهم، وسقى لهما). [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٦٦].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد حمل نفر من الصحابة هَوْدَجَ عَائِشَةَ رضي الله عنها ولم يشعروا بعدم وجودها فيه، وهذا يستفاد منه بأنهم كانوا في غاية الأدب معها، والمبالغة في ترك التنقيب عما في الهودج، بحيث إنها لم تكن فيه وهم يظنون أنها فيه وربما ظنوا أنها نائمة فيه. [ينظر: فتح الباري ١٠/ ٧٣].

ويمكننا أن نقول أيضًا: إن الفرق بين وزن الهودج بوجود عائشة فيه وخلوه منها، يسير بالنسبة لأولي العزم من الرجال الذين حملوه، فلم يشعروا به». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٠].

٤ ـ الحياء من الأدب:

يقول د/ أبو فارس: «إن القارئ الكريم يدرك هذا من تصرف صفوان بن المعطل رضي الله عنه حينما رأى عائشة رضي الله عنها، وهي نائمة، فأخذ يسترجع حتى قامت من نومها على استرجاعه، ولم يكلمها بل أناخ بعيره وأركبها عليه ثم أخذ يقودها.

لقد مشى صفوان أمام عائشة رضي الله عنها، وهي تركب البعير، وفي هذا من الأدب الجم والحياء ما فيه، فقد جنب نفسه من النظر إلى أم المؤمنين، وعائشة رضي الله عنها، وكل امرأة حين يتقدمها الرجل الأجنبي وتمشي هي خلفه، تشعر بالاستقرار النفسي، والاطمئنان القلبي في سيرها وركوبها، فإذا انكشف بعض جسمها أثناء ركوبها أو نزولها أو حركتها أو مشيها فإنها مطمئنة إلى أنه لن يراها، فتأمل هذا الأدب الجم والذوق الرفيع، والحياء الإيماني!

إن مشي صفوان أمام عائشة رضي الله عنها قطع وساوس الشيطان في نفسها، وجعلها تطمئن اطمئنانًا يهدئ من روعها، ويستأصل الظنون والأوهام والخوف الريبة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٤-٦٥].

٥ ـ حسن التصرف في الأزمات:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان موقف عائشة رضي الله عنها حين تركها الجيش أن تبقى مكانها، ولا تغادره حتى إذا افتقدوها جاؤوا يبحثون عنها في المكان الذي فارقوها فيه، ولو غادرت المكان تبحث عنهم ربما ضلت الطريق وتعرضت لمتاعب ومصاعب، وتعرض الذين يبحثون عنها إلى مشقة وعنت وإرهاق».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٥].

٦ ـ شؤم الحرص على الدنيا:

يقول د/ الزيد: «في حديث الإفك شؤم الحرص على الدنيا، يقول ابن حجر رحمه الله: (فيه شؤم الحرص على المال؛ لأنها لو لم تُطل في التفتيش لرجعت بسرعة فلما زاد على قدر الحاجة أثر ما جرى)».

[فقه السيرة للزيد ٤٨٥].

٧ ـ الصحابة رضي الله عنهم بشر وليسوا ملائكة:

يقول د/ أبو فارس: «إن ما جرى من المشادة بين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير، يستفاد منها أن الصحابة ـ على علو كعبهم وشرف منزلتهم، وسمو أخلاقهم ـ بشر يخطؤون ويصيبون ويذنبون ويستغفرون، ليسوا بمعصومين كالرسل والملائكة، فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

أما البشر فيقول الرسول ﷺ بشأنهم مخاطبًا إياهم: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**». [مسلم في التوبة(٢٧٤٩)]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٥].

ويقول د/ العمري: «والحق أن حديث الإفك كادت تشعل نار العصبية من جديد بين الأوس والخزرج هذه المرة حيث تجادل زعماؤهم بغضب في المسجد، وكان هذا هو مقصد المنافقين أن يهدموا وحدة المسلمين ويزعزعوا ثقتهم بقيادتهم، ويشعلوا نار الفتنة بينهم، ولكن الله سلَّم، وتمكن الرسول ﷺ من تهدئة الجميع والحفاظ على وحدتهم والخروج من الامتحان الصعب بنجاح».

[السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤١٢].

٨ ـ العزاء والسلوى للعفيفات المرميات بالزور:

يقول د/ أبو شهبة: «إن في هذه القصة عزاء وسلوى للعفيفات اللاتي يرمين زورًا وكذبًا بالفاحشة، فهذه الصديقة بنت الصِّدِّيق ﵂، وزوج الرسول ﷺ، والمبرأة من فوق سبع سماوات قد رميت بما هي براء منه، من المنافقين ومن شايعهم من ضعفاء الإيمان، ومن قبل رمي اليهود صدِّيقة بني إسرائيل السيدة مريم البتول ﵉ بالزنا، فما دنس ذلك من شرفها، ولا أنزل من كرامتها عند ربها، بل زادها رفعة وشرفًا، ولا تزال هذه القصة تتكرر على مسرح الحياة، فليكن للمحصنات المؤمنات الغافلات اللاتي لا يسلمن من قالة السوء فيها عزاء وسلوى». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٦٥-٢٦٦].

٩ ـ الصالحات للصالحين:

يقول صاحب الظلال: «ويختم الحديث عن حادث الإفك ببيان عدل الله في اختياره الذي ركبه في الفطرة، وحققه في واقع الناس، وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة، وأن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة، وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج، وما كان يمكن أن تكون عائشة ﵂ كما رموها، وهي مقسومة لأطيب نفس على ظهر هذه الأرض: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾[النور].

ولقد أحبت نفس رسول الله ﷺ عائشة ﵂ حبًّا عظيمًا، فما كان يمكن أن يحببها الله لنبيه المعصوم، إن لم تكن طاهرة تستحق هذا الحب العظيم.

أولئك الطيبون والطيبات﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ بفطرتهم وطبيعتهم، لا يلتبس بهم شيء مما قيل.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ مغفرة عما يقع منهم من أخطاء، ورزق كريم، دلالة على كرامتهم عند ربهم الكريم». [الظلال لقطب ٤/ ٢٥٠٥-٢٥٠٦].

١٠ ـ حسن معاشرة الأزواج والرحمة بهن:

يقول د/ أبو شهبة: «حسن معاشرة النبي ﷺ لأزواجه، ورحمته بهن، وضبط النفس حتى في المواقف التي يستبد بالنفس البشرية فيها الغضب، فتخرج عن حد الاعتدال، فعلى الرغم مما قيل في عائشة ﵂ مما يجرح القلب، ويؤذي النفس كان يدخل عليها وهي مريضة فيسأل عنها، وإن لم تجد منه ﷺ اللطف الذي كانت تجده منه حينما كانت تشتكي، وغاية ما يطمع فيه من بشر كريم في مثل هذا الموقف المؤلم المحير أن يكظم غيظه، ويكف غضبه، أما الملاطفة فأمر خارج عن طوق البشر، ولن تكون إلا ممن فقد غَيْرته، وذهبت من نفسه معالم الرجولة والنخوة.

ويبلغ السمو الإنساني بالرسول ﷺ في معاملة عائشة رضي الله عنها حينما دخل عليها وهي في بيت أبيها وقال لها: «**يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»!

يا لعظمة النفس، إن العظيم حقًّا هو الذي يعلم أن كل بني آدم خطاء، وييسر للمذنبين طريق التوبة، والقوي حقًّا هو الذي يرحم ضعف الناس!

كان يمكن للنبي ﷺ أن يطلِّق عائشة رضي الله عنها، وبذلك يستريح من ألم النفس الواصب، ويقطع قالة السوء، ولكن كيف يكون هذا؟ وهو الذي وسع بصدره وخلقه الناس جميعًا على اختلاف مشاربهم وفطرهم وطبائعهم، حتى استحق ثناء الحق جل وعلا حيث يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[القلم]».
[السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٦٦-٢٦٧].

١١ ـ الإفك أرذل الافتراء وأحطه لؤمًا أن يكون في حق أطهر الطاهرات:

يقول الشيخ عرجون: «وقد سمى الله تعالى في كتابه الحكيم هذا الافتراء (الإفك) فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] والإفك أبلغ الكذب، وأرذل الافتراء، وألأم الاختلاق، كما سماه جل شأنه بهتانًا وهو يعاتب المؤمنين في سكوتهم لحظة سماعهم بدافع إيمانهم بطهارة ساحة النبي ﷺ أن تكون في عصمته من تحوم حولها أدنى الشبهات، وبدافع إيمانهم بطهارة ذيل من اصطفاها الله تعالى زوجًا لخير الخلق خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ، فكانت بهذا الاصطفاء أمًّا للمؤمنين وسيدة نساء العالمين فضلًا وشرفًا وطهرًا وعلمًا وأدبًا وخلقًا ـ بقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾، والبهتان هو البلاء لا يشعر به الإنسان حتى يفجأه بوقوعه.

وفي أسلوب هذه الآية الكريمة ضرب من البلاغة والمبالغة في تنفير المؤمنين عن سكوتهم عند سماع ما يسيء ويشين سمعة أي مؤمن ومؤمنة، حيث جعل الله المؤمنين والمؤمنات شيئًا واحدًا بإيمانهم، وجعلهم كلهم نفسًا واحدة، يتوحد بها النفع والضرر، والخير والشر والإحسان والإساءة.

من أحسن ما قيل في بيان بلاغة الآية قول ابن المنير والزمخشري:

قال العلامة ابن المنير في انتصافه تعليقًا على قول الزمخشري: معناه ظنوا بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات، كقوله: لا تلمزوا أنفسكم، والسر في هذا التعبير تعطيف المؤمن على أخيه المؤمن وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة ولا شيء أشنع من ذلك.

قال الزمخشري: فإن قلت: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرًا وقلتم؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟ قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرِّح بلفظ الإيمان، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدِّق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن.

وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه، أن يبني الأمر فيها على الظنِّ لا على الشك، وأن يقول بملء فيه بناء على ظنِّه بالمؤمن الخير: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢﴾ هكذا بلفظ المصرِّح ببراءة ساحته، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال.

وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بأخوات. [الكشاف للزمخشري ٤/ ٢٧٤].

القرطبي يعمم العتاب فيجعله شاملاً لجميع المؤمنين والمؤمنات حاشا أبا أيوب الأنصاري وزوجه: قال القرطبي: «هذا عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه ﷺ، وأن تَحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان. [تفسير القرطبي ١٥/ ١٧٥].

وقد وقع هذا التنزيه لله تعالى فخرج به من العتاب أبو أيوب الأنصاري وزوجته رضي الله عنهما، إذ دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب! أسمعت ما قيل؟ فقال: نعم، وذلك الكذب! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله، قال أبو أيوب: فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب: نعم، وهذا فضل انفرد به أبو أيوب وزوجته، فتفضَّل الله عليهما فأخرجهما من عتاب شمل جميع المؤمنين.

وقد أنزل الله تعالى في شأن قصة الإفك، وشأن المتكلمين فيه بالباطل والكذب وتبرئة الصديقة رضي الله عنها والثناء عليها، وذكر ما أعده الله لها من عظيم الثواب في الآخرة، ونقاء السيرة في الدنيا، وعلو الدرجة في المجتمع المسلم أينما كانت أجياله وأوطانه ـ قرآنًا يُتلى، ويُتعبد بتلاوته وتشريعاته، ويُصلى به، آيات محكمات، ملزِمًا لكل مؤمن ومؤمنة بما جاء به من هداية وأحكام إلى يوم القيامة.

وذلك في نحو ست عشرة آية من صدر سورة النور، تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] وتختم بقوله جل شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٢٦﴾ كل آية منها مستقلة ـ كما يقول الزمخشري ـ بما هو تعظيم لشأن رسول ﷺ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضي الله عنها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢١-٢٢٣].

١٢ ـ الرسول ﷺ وحديث الإفك:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر مواقف جليلة لرسول الله ﷺ، ولأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وصفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

فالرسول ﷺ قد ابْتُلي بهذه الفرية بلاء عظيمًا، فهو في أعلى مسؤولية من الدعوة والقيادة، وأي شيء يدنِّس سمعته فإنه يؤثر على سير دعوته ومكانته القيادية؛ فلهذا عاش تلك المدة قبل أن ينزل عليه الوحي ببراءة عائشة في معاناة شديدة.

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يطَلِّق عائشة فور سماع هذه الفرية ويخلص نفسه من ذلك البلاء، ولكن لم يكن من خُلُقه ﷺ أن يحافظ على سمعته الدعوية والقيادية بظلم الآخرين، فما ذنب عائشة الطاهرة وبيتها الطاهر حينما يكون حل المشكلة بالقضاء عليها وإنزال مزيد من البلاء على أبويها؟!

لذلك كان البقاء في المعاناة والحرج مع شدته هو السلوك الأمثل عند رسول الله ﷺ حتى يأتي الفرج من الله تعالى، وفي هذا مثل واضح على اتصاف النبي ﷺ بأعلى ما يمكن أن يتصف به بشر من الرحمة والشفقة.

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يحكم ببراءتها من أعلى منبر لما يعلمه من صدقها وعفافها وتقواها، وسيصدقه في ذلك المؤمنون، ولكن كيف وقد قيل ما قيل وانتشرت الإشاعة الأثيمة في كل أوساط المدينة، وربما أنها انتقلت خارج المدينة؟!

وهل يكفي إعلان النبي ﷺ بالبراءة لقطع دابر ألسنة الحاقدين من اليهود والمنافقين؟ وهل ستظل سمعة النبي ﷺ الدعوية والقيادية نقية طاهرة بمجرد هذا الإعلان؟

لقد كان ﷺ واثقًا من طهارة الصديقة ونزاهتها مما نُسب لها ولذلك قام على المنبر وقال: «**مَنْ يَعْذِرُنِي فِي رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا**».

ولكن لم يكن ذلك إعلانًا للبراءة الكاملة التي تُسكت الحاقدين وتقطع جميع موارد الفتنة، وإنما كان ذلك محاولة منه ﷺ لكف أذى كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول عن نفسه وأسرته حتى ينزل في الأمر بيان قاطع شاف من الله تعالى، ولم يسبق أن حدث مثل تلك الفرية ونزل فيها تشريع من الله تعالى، ولو كان لطبقه رسوله الله ﷺ حالًا». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩١-٩٢**].

١٣ ـ الرسول ﷺ قمة القمم في الصبر:

ولقد أراد الله أن يختبر نبيه ﷺ بحديث الإفك ليظل قمة القمم في الصبر، ومثلًا أعلى للمؤمنين في الاحتساب، فلم يكن هناك لون من الابتلاء يصعب على النفس البشرية تحمله إلا والنبي ﷺ ذاقه وصبر عليه واحتسب أجره عند الله.

لقد فقد أحب الناس إليه فصبر، وأوذي في جسده فصبر، وأوذي في عرضه فصبر واحتسب، كان الإفك محنة فصار منحة، كان بلاء فصار وسامًا، ونزلت تبرئه الزوجة العفيفة في قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته أبد الدهر، فهل هناك تكريم لعائشة أكثر من هذا؟ ولقد صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور].

كان هذا الحادث فرصة يتعلم منها المؤمنون دروسًا في التهذيب وحسن الخلق والتمسك بالفضائل.

١٤ ـ صبر النبي ﷺ وآل أبي بكر ﷺ تحت وطأة بلاء الإفك:

يقول الشيخ عرجون: «وقد لبث ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابرًا صبرًا لم يُعرف في تاريخ النوازل والبلايا لأحد من قبله، ولا لأحد من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد قدومهم المدينة بسبع وثلاثين ليلة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، تحدث به أهل النفاق ومرضى القلوب، ولاكته ألسنتهم بين أشداقهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وكذلك كان حال آل أبي بكر، فإنهم منذ بلغهم (الإفك) وما تحدث به المنافقون ومرضى القلوب وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون، ولكنهم استسلموا لقضاء الله منتظرين حكمه ـ وهم يتجرعون مرارة الصبر في حيرة وذهول ـ بكشف هذه الغمة التي أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمر رسول الله ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصف عائشة لحالها وحال أبويها في أحرج لحظات البلاء: تقول عائشة ﵂ تصف حال أبويها وحال أهل بيتها، وما بلغت منهم المحنة من شدة عصفت بكيانهم، وزلزلت أقدامهم، وأذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية، فسكتوا سكوت المطلع إلى الغيب، يتسمع حكمه على حياته: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

ثم تقول عائشة ـ رضوان الله عليها ـ تصف حالها من الثقة واليقين الإيماني ببراءتها، وتصف حال أبويها وشدة ما نزل بهما حين نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وتغشاه ما كان يتغشاه: «فَأَمَّا أَنَا حِينَ رَأَيْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ، فَوَالله مَا فَزِعْتُ وَلَا بَالَيْتُ، قَدْ عَرَفْتُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ ﷻ غَيْرُ ظَالِمِي، وَأَمَّا أَبَوَايَ فَوَالَّذِي نَفْسُ عَائِشَةَ بِيَدِهِ مَا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَخْرُجَنَّ أَنْفُسُهُمَا، فَرَقًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ الله تَحْقِيقُ مَا قَالَ النَّاسُ». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٨-٢٢٩**].

١٥ ـ شدة بلاء هذا الحادث على رسول الله ﷺ وعلى زوجه أم المؤمنين وعلى أبويها وآلها وسائر المسلمين:

يقول الشيخ عرجون: «وكان في هذا الحديث الخطير من شدة البلاء لرسول الله ﷺ ما لم يعلم مبلغ إيجاعه وإيلامه إلا الله تعالى، ولكن رسول الله ﷺ كان في صبره فوق مستوى الأحداث وآلامها، فصبر أجمل الصبر، واحتمل أعظم الاحتمال، وعالج الأمر بحكمة هادئة، وكان همه الأكبر أن يقي المجتمع المسلم عواصف الفتن، وقواصم المكايد النفاقية التي كانت تثيرها العصبيات القومية التي كانت من بقايا الرواسب الجاهلية في أنفس بعض المؤمنين.

كما كان في هذا الحدث الخطير لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، زوجة سيد الخلق وأحب الناس إليه، ولأبويها وآلها، وخاصة المسلمين وعامتهم ما أقض مضاجعهم ونشَّف الدمع في مآقيهم، حتى كشف الله تعالى الغمة، وفرج الكربة، وأنزل وحيه بالقرآن الكريم على رسوله الأمين بما لم يكن لأحد في الحسبان، ولا وقع مثله قط في حادثة من الحوادث التي تراها النظرة العابرة على أنها حادثة فردية كان يكفي في إبطالها أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا منامية في تبرئة أطهر الطاهرات أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٣-٢٢٤].

١٦ ـ ما غيبته الأقدار في هذا البلاء من حكم ربانية تمثل جوانب من منهج الرسالة:

يقول الشيخ عرجون: «ولكن الله تعالى أراد أن يجعل هذه الحادثة درسًا تربويًّا بليغًا للمجتمع المسلم تبقى معه آثاره ما بقي في الحياة من يتلو آيات الله من الهدى والنور.

وأن يجعل منها درسًا تأديبيًّا للذين ساقتهم العصبيات القومية سياقًا لا يرضاه إيمانهم برسالة الإسلام وآدابها وشرائعها وأحكامها وأخلاقها.

وأن يجعل منها نكالًا للنفاق والمنافقين، وللذين في قلوبهم مرض لا يشفيه إلا الإرجاف بالسوء وإشاعة الأكاذيب والبهتان في مجتمع المؤمنين.

وأن يجعل منها منارًا على طريق الذين ملأ الإيمان قلوبهم ليزيدهم علمًا بمقام رسول الله ﷺ ومعرفة بحرماته، وتقديرًا لمنزلته عند ربه الذي أرسله هدى ورحمة للعالمين.

وأن يجعل منها منهجًا لمعالم الاصطفاء لخواص المقربين لرسول الله ﷺ لتعرفهم الأمة بنعوت فضلهم وفواضلهم، وتعرف لهم أقدارهم في ذروة دوحة الإيمان والمؤمنين.

وأن يجعل منها خصيصة ليرفع من شأن أطهر الطاهرات، الصديقة بنت الصديق زوج أحب خلق الله إلى الله؛ إظهارًا لشرفها الذاتي والاجتماعي، وإنافة لمكانتها في أهل البيت طهرًا وفضلًا وشرفًا، وثقلًا

في ميزان الفضائل الإنسانية والإيمانية لمكانها من قلب رسول الله ﷺ».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٤-٢٢٥].

١٧ ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وحديث الإفك:

يقول د/ الحميدي: «أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد ابتُلي أيضًا ببلاء عظيم، فقد كانت التهمة موجهة لبنته الصديقة الطاهرة، وبالتالي فإن أبا بكر رضي الله عنه الذي يعتبر أول رجل في الإسلام بعد رسول الله ﷺ قد وُجهت له طعنة نجلاء وضربة موجعة، والمنافقون وسائر أعداء الإسلام أحرص شيء على تشويه سمعة قادة المسلمين البارزين، وقد عاش رضي الله عنه تلك الفترة في هم كبير ومعاناة شديدة لما يرى من نيل المنافقين الشديد من رسول الله ﷺ، ولما يرى من واقع ابنته المحزن، والبلاء الهابط على أسرته، ولكنه كان جميل الصبر، راسخ اليقين، عظيم الثقة بالله جل جلاله.

ومما تجمل به الصديق رضي الله عنه من عفة اللسان أنه لم يصدر منه أي سب ولا شتم لأولئك الذين خاضوا في عِرض ابنته، ولم يُنقل عنه ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ أنه قال شيئًا إلا قوله: «**والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام**». [فتح الباري ٨/ ٤٨٠]. **[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٢-٩٣].**

١٨ ـ محنة عائشة رضي الله عنها:

يقول د/ الحميدي: «أما الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها فقد نزل عليها خبر الإفك نزول الصاعقة، وظلت تبكي الليل والنهار، وكان من فضل الله تعالى عليها أنها لم تعلم بهذا الخبر إلا في وقت متأخر، ومع صغر سنها وشناعة الإفك وسعة انتشاره فإنها لم يظهر منها أي سلوك يخدش دينها أو يشين عقلها، وصبرت صبرًا جميلًا مشوبًا بالحياء المتين والأدب الرزين، حتى فرج الله سبحانه وتعالى كربتها وأنزل براءتها».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٣].

١٩ ـ بيان فضل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وتواضعها:

يقول الشيخ عرجون: «وقد أبانت عائشة رضي الله عنها أبلغ بيان بأروع أسلوب إذ تحدثت عن نفسها بعد أن برأها الله تعالى فقالت: لقد أعطيت تسعًا ما أعطيتهن امرأة: لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكرًا ما تزوج بكرًا غيري، ولقد توفي رسول الله ﷺ وإن رأسه لفي حجري، ولقد قبر في بيتي، ولقد حفت الملائكة ببيتي، وإن كان الوحي لينزل عليه وأنا معه في لحافه، فما يبينني عن جسده، وإني لابنة خليفته وصدِّيقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة عند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقًا كريمًا.

ولقد صدقت في كل ما حدَّثت به عن نفسها من الفضل والشرف والخصائص النبيلة والصفات الكمالية التي لم تجتمع في امرأة قبلها ولا بعدها». **[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٦-٢٢٧].**

ويقول د/ الزيد: «في حديث الإفك فضيلة ظاهرة عظيمة لأم المؤمنين عائشة ﵂ حيث نزلت براءتها بنص قرآني يتلى إلى يوم القيامة وإن كانت ﵂ تقول: (ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها)، لكن هذا شأنها في نفسها وهذا من تواضعها ﵂ وشأنها عند الله جل شأنه وعند المؤمنين عظيم جدًّا، وازداد عند المؤمنين بهذه البراءة المتلوة على ألسنة أهل القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها». [**فقه السيرة للزيد ٤٨٥**].

ويقول د/ أبو شهبة: «فقد شاء الله أن يبرئ عائشة ﵂ من فوق سبع سماوات، وأن ينزل في شأنها قرآنًا يُتلى إلى يوم الدين، وهذا بعض ما جوزي به رجل دخل في الإسلام من أول يوم، وبذل نفسه وأهله وماله لله ولرسوله، ولم يزد ـ وقد تلظَّى بنار هذه الفتنة ـ على أن قال: (والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام)!

وما جوزيت به سيدة قدمت للرسول ﷺ كل خير، ووفرت له كل وسائل الراحة النفسية والبيتية حتى تفرغ لأداء رسالة ربه، ولم تملك حينما نزل بها البلاء، وحل المصاب، إلا أن قالت كما قال نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[يوسف]».

[**السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٦٧**].

ويقول الإمام ابن القيم: «وَمَنْ تَأَمَّلَ قَوْلَ الصِّدِّيقَةِ وَقَدْ نَزَلَتْ بَرَاءَتُهَا، فَقَالَ لَهَا أَبَوَاهَا: قُومِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: «**وَالله لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ**».

عَلِمَ مَعْرِفَتَهَا، وَقُوَّةَ إِيمَانِهَا، وَتَوْلِيَتَهَا النِّعْمَةَ لِرَبِّهَا، وَإِفْرَادَهُ بِالْحَمْدِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ، وَتَجْرِيدَهَا التَّوْحِيدَ، وَقُوَّةَ جَأْشِهَا، وَإِدْلَالَهَا بِبَرَاءَةِ سَاحَتِهَا، وَأَنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ مَا يُوجِبُ قِيَامَهَا فِي مَقَامِ الرَّاغِبِ فِي الصُّلْحِ، الطَّالِبِ لَهُ، وَثِقَتُهَا بِمَحَبَّةِ رَسُولِ الله ﷺ لَهَا قَالَتْ مَا قَالَتْ؛ إِدْلَالًا لِلْحَبِيبِ عَلَى حَبِيبِهِ، وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ مَقَامَاتِ الْإِدْلَالِ، فَوَضَعَتْهُ مَوْضِعَهُ، وَلله مَا كَانَ أَحَبَّهَا إِلَيْهِ حِينَ قَالَتْ: «**لَا أَحْمَدُ إِلا اللهَ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي**»، وَلله ذَلِكَ الثَّبَاتُ وَالرَّزَانَةُ مِنْهَا، وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهَا، وَلَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ، وَقَدْ تَنَكَّرَ قَلْبُ حَبِيبِهَا لَهَا شَهْرًا، ثُمَّ صَادَفَتْ الرِّضَا مِنْهُ وَالإِقْبَالَ، فَلَمْ تُبَادِرْ إِلَى الْقِيَامِ إِلَيْهِ، وَالسُّرُورُ بِرِضَاهُ وَقُرْبِهِ، مَعَ شِدَّةِ مَحَبَّتِهَا لَهُ، وَهَذَا غَايَةُ الثَّبَاتِ وَالْقُوَّةِ». [**زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٦٣**].

ويقول د/ أبو فارس: «إن المرء إذا نزل فيه قرآن يبرئه مما اتهم به يُسر سرورًا عظيمًا ويتغنى به، وربما حدثته نفسه بشيء من العُجْبِ، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث لعائشة ﵂، ولنستمع إليها وهي تحدثنا عن نفسها بتجرد: «**وَلَكِنْ وَالله مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى، وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ ﷻ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ الله ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا**».

ولقد عُرفت رضي الله عنها بهذا الخلق طيلة حياتها، فقد روى الإمام البخاري رحمه الله عَنْ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ (من كرب الموت)، قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ، فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ الله ﷺ وَمِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ، قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ، قَالَ: «**فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللهُ، زَوْجَةُ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ**»، وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلَافَهُ (بعده)، فَقَالَتْ: **دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا**. [البخاري في تفسير القرآن (٤٧٥٣، ٤٧٥٤)].

إن خلق التواضع هو خلق الأنبياء والرسل، والأولياء، وخلق التكبر والكبرياء خلق الشياطين من الإنس والجن، وما أهلك أبليسَ ـ أعاذنا الله منه ـ إلا تكبره، إذ رفض تكبرًا السجود لآدم وقال مصرحًا عما في نفسه الخبيثة المتكبرة: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧١].

البلاغة الأدبية عند عائشة رضي الله عنها: يقول د/ الحميدي: «ولقد عبرت في هذا الخبر عن معاناتها وآلامها حينما علمت بالإفك بأسلوب أدبي في غاية الرفعة والسمو.

إن حديث الإفك هذا يعتبر نموذجًا للأدب العالي، في قوة البيان، وجزالة الألفاظ، ووضوح المعنى، ولقد كانت عائشة رضي الله عنها مشهورة بالفصاحة وقوة الكلمة والتأثير القوي على السامعين، ولقد أثنى عليها بالفصاحة والبيان بلغاء الصحابة والتابعين.

ومن نماذج بلاغتها في هذا الحديث قولها: **فانطلق ـ يعني صفوان ـ يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك**، فالفاء في قولها «**فهلك**» هي الفاء الفصيحة، فقد أفصحت عن جُمَل مقدرة تحكي حال الناس الذين خاضوا في تلك الفرية الشنيعة، فاكتفت ببيان عاقبة أمرهم عن وصف حالهم وجريمتهم.

ومن ذلك قولها: **فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة**، فهذا تعبير بليغ عن التأثير الشديد جدًّا الذي تجاوز حدود التأثر المعتاد الذي تستهل منه العيون دمعًا، فبلغ إلى الحد الذي قلص معه الدمع وجف تمامًا». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٣-٩٤].

٢٠ ـ حفظ الله تعالى أمهات المؤمنين عن التكلم في هذه المحنة وهن ضرائر عائشة رضي الله عنها:

يقول الشيخ عرجون: «وكان من أجل النعم الإلهية على المجتمع المسلم في قصة (الإفك) أن الله تعالى حمى أمهات المؤمنين كلهن عن التكلم في محنة هذا البهتان الخبيث، لم يؤثر عن واحدة منهن فيها كلمة واحدة، وهن ضرائر عائشة رضي الله عنها وشريكاتها في القرب الداني من رسول الله ﷺ، وهن اللائي كان يُخشى عليهن من تحريش الغَيْرة أن تدفعهن أو بعضهن إلى التحدث فيما يحوم حول ذلك.

ولكن الله تعالى حفظهن جميعًا حفظًا لمقام حرم رسوله ﷺ أن تظل عروش بيوتهن في خلوتهن أو جلوتهن معه ﷺ من لم تكن في أدبها النفسي، وتدينها ومراقبة ربها في ذروة السمو والفضل والشرف، ومعالي مكارم الأخلاق تأدبًا بأدب رسول الله ﷺ ونشأة على تنشئته لهن وتربيتهن بما يعصمهن عن الانزلاق إلى مزالق الباطل، وتقوله على من يعرفن أنها أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأعزهن عنده، وأعرفهن بمطارح أنظاره، وأسرعهن إلى التعلق بأسباب رضاه في كل ما تقرُّ به عينه ﷺ.

ومن ألطف ذلك وأحمد محامده أن القسطلاني ذكر في المواهب أن أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها كانت رفيقة عائشة في الخروج إلى هذه الغزوة، فقال: وخرجت عائشة وأم سلمة رضي الله عنها، ومر الزرقاني على قول القسطلاني في شرحه للمواهب ولم يعلق عليه بشيء.

وهذا قول يُظهر أنه مما انفرد به القسطلاني، أو وقع فيه وهم، فنقل من رواية وقصة أخرى إلى قصة بني المصطلق ورواية البخاري في قصة (الإفك) من حديث عائشة عن الزهري عن عدد من شيوخه عيون السلف وأكابره، تخالف ذلك تمام المخالفة، قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها ـ هي غزوة بني المصطلق ـ فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب، وسند هذا الحديث عند البخاري من أقوى وأوثق الأسانيد، لعلو درجة رجاله من شيوخ الزهري، ورواية القسطلاني لم نوفق إلى معرفة سندها [ذكرها الواقدي في مغازيه ١/ ٤٠٧]، وهي مخالفة لما هو متعارف من عادته وسنته ﷺ في السفر ببعض زوجاته بعد الإقراع بينهن تحقيقًا للعدل والمساواة في الحقوق، كما يقتضيه أسلوب عائشة رضي الله عنها في حديث الزهري الذي أخرجه البخاري عنه، من قولها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، فهذا التعبير يفيد أن هذا كان من عادته وسنته في السفر مع بعض زوجاته، فرواية البخاري أرجح، بل أصوب إلى أن يظهر غير ذلك.

وكيفما كان الأمر فإن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها داخلة في عموم ما كان من أزواج النبي ﷺ في حفظهن عن التكلم في قصة الإفك بشيء، وهي معروفة في سيرتها بأنها كانت من أوزن بنات حواء عقلًا، ولو لم يكن لها من ذلك إلا مشورتها في الحديبية لكفاها فضلًا وشرفًا».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٨-٢٤٠].

٢١ ـ الورع وخشية الله:

يقول الشيخ عرجون: «وقد خص الله تعالى أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها بموقف نبيل من عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك، وهي التي كانت تناصيها عند رسول الله ﷺ مما كان يخاف منه العثرة، ذلك أن رسول الله ﷺ خصها بالسؤال عن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها وطهارة ذيلها من رجس

(الإفك) وافتراء البهتان، فقال لها: «ماذا علمت أو رأيت»؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما رأيت إلا خيرًا.

قالت عائشة ﵂ تثني عليها وتعرف لها فضلها في دينها وأدبها: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك».

ونحن نرى أمر حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش متشبهًا علينا، لا نستطيع أن نبت فيه بحكم؛ لأن الحكم عليها بدون دليل قاطع بأنها خاضت في (الإفك) والبهتان، وهي لم تفصح ولا صرحت بالقذف الموجب كالحكم على من زعم عليها بأنها خاضت في (الإفك) وصرحت وأفصحت بالقذف الموجب، وليس في يده حجة على إثبات ما يزعم أنه قد كان منها سوى ما جاء في الروايات المتعارضة في إيجاب العقوبة عليه حدًّا أو تعزيرًا زاجرًا». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٠**].

ويقول د/ الحميدي: «كذلك كان لأم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂ موقف جليل في الورع وخشية الله ـ تعالى ـ وذلك أنها لما استشارها رسول الله ﷺ في أمر عائشة قالت: «**يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيرًا**»، قالت عائشة ﵂: «**وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع**»، يعني فكان المظنون من ضرة تنافس ضرتها على الحظوة لدى الزوج أن تسعى جهدها في كسب زوجها، وقد يهبط مستواها الديني إلى افتراء أمور تنفر زوجها من ضرتها، لكن زينب لم تنتهز هذه الفرصة لتشويه سمعة عائشة ﵂.

وهكذا اصطفى الله تعالى لرسوله ﷺ نساء طاهرات تقيات، فلم يُذكر عن واحدة منهن أنها أسهمت في ذلك الإفك». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٤-٩٥**].

٢٢ ـ مواقف بعض الصحابة ﵃ من حديث الإفك:

عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: قَالَ لِي الْوَلِيدُ ابْنُ عَبْدِ المَلِكِ: أَبَلَغَكَ أَنَّ عَلِيًّا كَانَ فِيمَنْ قَذَفَ عَائِشَةَ؟ قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ قَدْ أَخْبَرَنِي رَجُلَانِ مِنْ قَوْمِكَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ لَهُمَا: كَانَ عَلِيٌّ مُسَلِّمًا فِي شَأْنِهَا، فَرَاجَعُوهُ فَلَمْ يَرْجِعْ، وَقَالَ مُسَلِّمًا بِلَا شَكٍّ فِيهِ، وَعَلَيْهِ كَانَ فِي أَصْلِ الْعَتِيقِ كَذَلِكَ. [**البخاري في المغازي (٤١٤٢)**].

ويقول د/ الحميدي: «كذلك كان لبعض الصحابة مواقف عالية في الدفاع عن أم المؤمنين عائشة، وتنزيهها مما نُسب إليها، فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر من رواية عَطَاء الْخُرَاسَانِيِّ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَوْلُهُ: «وَكَانَتْ أُمُّ أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّة قَالَتْ لِأَبِي أَيُّوبَ ﵄: أَمَا سَمِعْتَ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فَحَدَّثَتْهُ بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَقَالَ: **مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**».

قُلْتُ:... وَرَوَى الطَّبَرِيُّ أَيْضًا مِنْ طَرِيق اِبْن إِسْحَاق «حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ بَعْض رِجَال بَنِي النَّجَّار أَنَّ أَبَا أَيُّوب قَالَتْ لَهُ أُمُّ أَيُّوبَ: **أَمَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ؟** قَالَ: **بَلَى، وَذَلِكَ الْكَذِبُ، أَكُنْتِ فَاعِلَةً ذَلِكَ يَا أُمَّ أَيُّوبَ؟** قَالَتْ: **لَا وَاللهِ**، قَالَ: **فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْر مِنْكِ**، قَالَتْ: فَنَزَلَ الْقُرْآن: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ١٦] الْآيَة».

وَلِلْحَاكِم مِنْ طَرِيق أَفْلَحَ مَوْلَى أَبِي أَيُّوب عَنْ أَبِي أَيُّوب نَحْوُهُ، وَلَهُ مِنْ طَرِيق أُخْرَى قَالَ: «قَالَتْ أُمُّ الطُّفَيْل لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ» فَذَكَرَ نَحْوه. [فتح الباري ٨/ ٤٧٠].

وَقَالَ لأُسَامَةَ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟، قَالَ: **سُبْحَانَ اللهِ! مَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام الطبراني من حديث سَعِيدِ بن جُبَيْرٍ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور]، يَعْنِي: أَلا قُلْتُمْ مِثْلَ مَا قَالَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ، وَذَلِكَ أَنَّ سَعْدًا لَـمَّا سَمِعَ قَوْلَ مَنْ قَالَ فِي أَمْرِ عَائِشَةَ، قَالَ: سُبْحَانَكَ، هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، وَالْبُهْتَانُ الَّذِي يَبْهَتُ فَيَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ. [مجمع الزوائد ٧/ ١٨٣ في التفسير (١١٢٠٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٣/ ١٤٤] وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف].

فهذه نماذج من مواقف الصحابة ﷺ تدل على ورعهم وعفة ألسنتهم مما ينتج عن قوة إيمانهم وخشيتهم من الله تعالى». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٥-٩٦].

٢٣ ـ الذي تولى كبر الإفك هو ابن أُبي بن سلول رأس المنافقين ومشى خلفه مرضى القلوب:

يقول الشيخ عرجون: «وكان الذي تولى كبر هذا الإفك والبهتان وأشاعه واستوشاه هو الخبيث الفاجر رأس النفاق وزعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ـ لعنه الله ـ وجاراه في ذلك بعض من استزلهم الشيطان فاستحوذ على مكامن الإيمان من أنفسهم فغطاها بظلام وسوسته وضلالاته، وكانت فتنة عمياء، أصابت المجتمع المسلم بزلزلة هزت كيانه، ولم يكن الناس فيها سواسية، ولكنهم كانوا مختلفين، فأفصح بعضهم بعظيمة العظائم وقبيحة القبائح، وجمجم آخرون، وسكتت طائفة فلم تدر من شدة الدهش والذهول ما تقول، وكَعَّ بعض عن الإفصاح بالحق في تنزيه حليلة خير المرسلين الطاهرة أم المؤمنين ﵂، وأنزل الله تعالى عقابه على من جبن وسكت ولم يدفع الإفك والبهتان عن ساحة الطهر والكمال، وادخر للذين صرحوا واستوشوا الافتراء والكذب يثيرونه كلما خبت ناره زادوها تسعيرًا.

أولئك هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض ممن لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، وهم الذين كانوا يسمعون ولا ينكرون لضعف ثقتهم في أنفسهم لضعف إيمانهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٣].

٢٤ ـ الأثر النفسي من علي كرم الله وجهه:

يقول الشيخ أبو زهرة: «يبدو من سياق القصة كما روتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن كلام علي رضي الله عنه لم يقع من نفسها موقع الرضا، كما وقع كلام أسامة رضي الله عنه، وكما وقع كلام الصحابة الذين قالوا خيرًا.

وذلك لأن عليًّا ـ كرم الله وجهه ـ لم يكن في كلامه ما يرضي، ولكن كان في كلامه ما يكون سبيلًا لإنهاء الموضوع، ولكيلا يشغل النبي ﷺ بأمر عارض.

وما كان يرضي كلام علي عائشة؛ لأنه لم يشهد بالبراءة كما شهد غيره، ولعلها كانت ترى أنه أعلم ببراءتها أكثر من غيره من الصحابة؛ ولأن له بالبيت الذي هي فيه صلة، فشهادته تكون أقوى من شهادة غيره.

ولأنه كان ذلك لا يرضي مَنْ لها مكانة عائشة في قلب النبي ﷺ؛ لأنه قال: النساء غيرها كثيرات، وإن له أن يستخلف غيرها.

وإذا كان ذلك لم يرض البريئة الطاهرة، فإنه كان السبيل إلى صرف النبي ﷺ إلى التحقيق، ووراء التحقيق كان الاطمئنان الابتدائي، ثم كان وراءه الإبراء لها من النبي ﷺ ثم الإبراء لها من الله تعالى.

ولقد استرسل المؤرخون في ذكر ما بينها وبين علي كرم الله وجهه، حتى جعلوه سبب الخروج عليه في واقعة الجمل وقالوا ما قالوا في ذلك.

ونحن نقول إنه بلا ريب لم يرض علي رضي الله عنه عاطفتها، ولكنها في ظني ما أبغضته، وإن خالفته على كلام في ذلك، وإن الدليل على أنها لم تبغضه أنه عندما نعي إليها ذهبت إلى قبر النبي ﷺ، وقالت: جئت أنعي إليك أحب أصحابك إليك، جئت أنعي إليك صفيك المجتبى، وحبيبك المرتضى، علي بن أبي طالب.

وما كان من شأنها أن تبغض أحب أصحاب رسول الله ﷺ إليه، فرضي الله عنها وكرم الله وجهه».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٣٧-٨٣٨].

٢٥ ـ ثمرة رأي علي رضي الله عنه وفائدته:

يقول د/ أبو فارس: «وحين أشار علي ـ كرم الله وجهه ـ على رسول الله ﷺ بأن يتزوج غير عائشة، لا شك أن هذا آلم عائشة رضي الله عنها، ولكن عليًا رضي الله عنه أراد تحقيق مصلحة أهم من مصلحة عائشة يحدثنا عنها ابن حجر رحمه الله بقوله: «وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي قَالَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه حَمَلَهُ عَلَيْهِ تَرْجِيحُ جَانِبِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِمَا رَأَى عِنْدَهُ مِنْ الْقَلَقِ وَالْغَمِّ بِسَبَبِ الْقَوْلِ الَّذِي قِيلَ، وَكَانَ ﷺ شَدِيدَ الْغَيْرَةِ، فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّهُ إِذَا فَارَقَهَا سَكَنَ مَا عِنْدَهُ مِنْ الْقَلَقِ بِسَبَبِهَا إِلَى أَنْ يَتَحَقَّقَ بَرَاءَتُهَا فَيُمْكِنُ رَجْعَتُهَا، وَيُسْتَفَاد مِنْهُ اِرْتِكَابُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ لِذَهَابِ أَشَدِّهِمَا.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ ﷺ في شرحه على صحيح مسلم: «رَأَى عَلِيٌّ ﷺ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَصْلَحَةُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ انْزِعَاجِهِ، فَبَذَلَ جَهْدَهُ فِي النَّصِيحَةِ لِإِرَادَةِ رَاحَةِ خَاطِرِهِ ﷺ.

[شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٠٨].

وَقَالَ الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد بْن أَبِي جَمْرَة: لَمْ يَجْزِمْ عَلِيٌّ ﷺ بِالْإِشَارَةِ بِفِرَاقِهَا لِأَنَّهُ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ** «فَفَوَّضَ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ إِلَى نَظَر النَّبِيِّ ﷺ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَرَدْتَ تَعْجِيلَ الرَّاحَةِ فَفَارِقْهَا، وَإِنْ أَرَدْتَ خِلَافَ ذَلِكَ فَابْحَثْ عَنْ حَقِيقَة الْأَمْر إِلَى أَنْ تَطَّلِعَ عَلَى بَرَاءَتهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّق أَنَّ بَرِيرَةَ لَا تُخْبِرهُ إِلَّا بِمَا عَلِمَتْهُ، وَهِيَ لَمْ تَعْلَم مِنْ عَائِشَة إِلَّا الْبَرَاءَةَ الْمَحْضَةَ». **[فتح الباري ١٠/ ٨٣]**».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٨-٦٩].

٢٦ ـ للإنسان أن يستشير أصدقاءه المقربين في أمر خاص به:

يقول د/ أبو فارس: «فلقد استشار النبي ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد ﷺ في فراق عائشة ﷺ، فأشار أسامة بإبقائها وأشار علي بالزواج من غيرها.

وقد يتساءل القارئ الكريم لم خص النبي ﷺ أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب بالاستشارة دون غيرهما من الصحابة؟

ويجيب العلامة ابن حجر ﷺ بقوله: «وَالْعِلَّةُ فِي اِخْتِصَاصِ عَلِيٍّ وَأُسَامَةَ بِالْمُشَاوَرَةِ: أَنَّ عَلِيًّا كَانَ عِنْدَهُ كَالْوَلَدِ؛ لِأَنَّهُ رَبَّاهُ مِنْ حَالِ صِغَرِهِ ثُمَّ لَمْ يُفَارِقهُ، بَلْ وَازْدَادَ اِتِّصَالُهُ بِتَزْوِيجِ فَاطِمَة؛ فَلِذَلِكَ كَانَ مَخْصُوصًا بِالْمُشَاوَرَةِ فِيمَا يَتَعَلَّق بِأَهْلِهِ لِمَزِيدِ اِطِّلَاعِهِ عَلَى أَحْوَالِهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْره، وَكَانَ أَهْلُ مَشُورَتِهِ فِيمَا يَتَعَلَّق بِالْأُمُورِ الْعَامَّةِ أَكَابِرَ الصَّحَابَة كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

وَأَمَّا أُسَامَةُ فَهُوَ كَعَلِيٍّ فِي طُولِ الْمُلَازَمَةِ وَمَزِيدِ الِاخْتِصَاصِ وَالْمَحَبَّة؛ وَلِذَلِكَ كَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ حِبُّ رَسُول الله ﷺ؛ وَخَصَّهُ دُونَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ لِكَوْنِهِ كَانَ شَابًّا كَعَلِيٍّ، وَإِنْ كَانَ عَلِيٌّ أَسَنَّ مِنْهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ لِلشَّابِّ مِنْ صَفَاءِ الذِّهْنِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ؛ وَلِأَنَّهُ أَكْثَرُ جُرْأَةً عَلَى الْجَوَابِ بِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنْ الْمُسِنِّ؛ لِأَنَّ الْمُسِنَّ غَالِبًا يَحْسُبُ الْعَاقِبَةَ، فَرُبَّمَا أَخْفَى بَعْض مَا يَظْهَرُ لَهُ رِعَايَةً لِلْقَائِلِ تَارَةً وَالْمَسْؤُولِ عَنْهُ أُخْرَى، مَعَ مَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَار أَنَّهُ اِسْتَشَارَ غَيْرهمَا». **[فتح الباري ١٠/ ٨٣]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٧-٦٨].**

٢٧ ـ بيان فضل صفوان ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «تأمل قول الرسول ﷺ فيه: «**وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**».

إن هذه الشهادة من الرسول ﷺ تعتبر وسامًا يوشح به صدر صفوان ﷺ، وحق له أن يعيش الدهر جذلانًا به، إن القلب ينبغي أن يفعم بالسرور والحبور.

إذا كان الناس يفرحون لسماع كلمة مدح أو ثناء من إنسان عادي لهم، ويطيرون فرحًا إذا كان هذا الإنسان ذا مسؤولية أو مكانة مرموقة فيهم، وربما دونوا هذه الكلمات وعلقوها في بيوتهم إن كانت من ملك أو رئيس، فكيف الحال إذا كان المزكي رسول الله ﷺ سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ويؤكد هذه الشهادة بالقسم المؤكد، ألا يحق للذي زكاه رسول الله ﷺ أن يطير فرحًا حين يسمع هذه الشهادة، لاسيما وقد أكدها القرآن فبرأه مما افترى المفترون.

ألا فليهنأ صفوان بشهادة الرسول ﷺ له، وليحمل هذا الوسام يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيحظى بشفاعة سيد المرسلين عند رب العالمين، يوم لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه سبحانه».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٥-٦٦].

٢٨ ـ تأتي المنحة في المحنة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد خاطب الله ﷻ عائشة ووالديها والذين أوذوا في حديث الإفك بقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النور: ١١].

فكيف كان هذا خيرًا لأبي بكر ولزوجه ولابنته عائشة التي بكت حتى كاد قلبها ينفلق وفكرت بأن تلقي نفسها في بئر.

إنه مما لا شك فيه أن حديث الإفك تمخضت عنه آلام شديدة، وأحزان عميقة، ورغم هذا فقد كان فيه كل الخير للذين أوذوا، هكذا أخبر الله سبحانه، وخبر الله حق وصدق، نؤمن به، ونسلم برضا فيه، وإضافة إلى ذلك فإن الله ﷻ إذا أراد بعبد خيرًا ييسر له أبواب الخير؛ لينال الثواب الجزيل، ومن أبواب الخير هذه، أن الله يبتلي المؤمنين بما يحزنهم ويؤلمهم ليصبروا فينالوا ثوابه وجزاءه، ولقد ابتليت عائشة ؓ وأبو بكر وأم رومان ؓ وغيرهم فصبروا فكان الخير للصابرين، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[البقرة]». **[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٦-٦٧].**

٢٩ ـ التوبة تَجُبُّ ما قبلها:

يقول د/ أبو فارس: «وهذا يؤخذ من حديث الإفك، فقد جاء قول النبي ﷺ لعائشة: «**وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**».

هذا هو المقرر في دين الإسلام بشكل واضح أن الإنسان إذا تاب إلى الله توبة نصوحًا فإن الله يغفر جميع ذنوبه وإن كانت من الكبائر، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾[الزُّمر]. **[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٠-٧١].**

٣٠ ـ السبب في عدم جَلْد ابن أبي:

يقول الإمام ابن القيم: «وَلـمَّا جَاءَ الْوَحْيُ بِبَرَاءَتِهَا، أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْ صَرَّحَ بِالْإِفْكِ، فَحُدُّوا ثَمَانِينَ ثَمَانِينَ، وَلَمْ يُحَدَّ الْخَبِيثُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ مَعَ أَنَّهُ رَأْسُ أَهْلِ الْإِفْكِ.

فَقِيلَ: لأَنَّ الحُدُودَ تَخْفِيفٌ عَنْ أَهْلِهَا وَكَفَّارَةٌ، وَالخَبِيثُ لَيسَ أَهْلًا لِذَلِكَ، وَقَدْ وَعَدَهُ اللهُ بِالعَذَابِ العَظِيمِ فِي الآخِرَةِ، فَيَكْفِيهِ ذَلِكَ عَنِ الحَدِّ.

وَقِيلَ: بَلْ كَانَ يَسْتَوْشِي الحَدِيثَ وَيَجْمَعُهُ وَيَحْكِيهِ، وَيُخْرِجُهُ فِي قَوَالِبِ مَنْ لَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: الْحَدُّ لَا يَثْبُتُ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ، أَوْ بِبَيِّنَةٍ، وَهُوَ لَمْ يُقِرَّ بِالْقَذْفِ، وَلَا شَهِدَ بِهِ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَذْكُرُهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، وَلَمْ يَشْهَدُوا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَذْكُرُهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقِيلَ: حَدُّ الْقَذْفِ حَقُّ الْآدَمِيِّ، لَا يُسْتَوْفَى إِلَّا بِمُطَالَبَتِهِ، وَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ حَقٌّ للهِ فَلَا بُدَّ مِنْ مُطَالَبَةِ المَقْذُوفِ، وَعَائِشَةُ لَمْ تُطَالِبْ بِهِ ابْنَ أُبَيٍّ.

وَقِيلَ: بَلْ تَرَكَ حَدَّهُ لِمَصْلَحَةٍ هِيَ أَعْظَمُ مِنْ إِقَامَتِهِ، كَمَا تَرَكَ قَتْلَهُ مَعَ ظُهُورِ نِفَاقِهِ، وَتَكَلُّمِهِ بِمَا يُوجِبُ قَتْلَهُ مِرَارًا، وَهِيَ تَأْلِيفُ قَوْمِهِ، وَعَدَمُ تَنْفِيرِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ كَانَ مُطَاعًا فِيهِمْ، رَئِيسًا عَلَيْهِمْ، فَلَمْ تُؤْمَنْ إِثَارَةُ الْفِتْنَةِ فِي حَدِّهِ، وَلَعَلَّهُ تُرِكَ لِهَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا.

مَنْ حُدَّ فِي حَدِيثِ الإِفْكِ: فَجُلِدَ مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ؛ تَطْهِيرًا لَهُمْ وَتَكْفِيرًا، وَتُرِكَ عَبْدُ اللهِ بْن أُبَيٍّ إِذًا، فَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ ذَاكَ».

[زاد المعاد لابن القيم / ٢٦٣-٢٦٤].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «وهنا يرد سؤال: إن الذين تحدثوا حديث الإفك كانوا أكثر من ثلاثة، فقد تناول القول به غير الثلاثة، بل إن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: إن الذي تولى كبره عبد الله بن أُبي، فلماذا يقم الحد، إلا على هؤلاء الثلاثة؟

ونقول في الجواب عن ذلك: إن النبي ﷺ ذكر أن هؤلاء قد صرحوا بالرمي ويظهر أنه قام الدليل على أنهم تكلموا، ولم يقم الدليل على غيرهم.

ولكن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: إن الذي تولى كبره رأس المنافقين فكيف لا يُحد، وهو الآثم الأول؟

ونقول في الجواب عن ذلك: إنه بلا ريب هو الذي تولى كبر هذا، بالتنبيه على ما يسهل على غيره الرمي، من غير أن يصرح بالرمي، ويدس الخبر في الناس بلحن القول من غير تصريح، فيحمل الناس على أن يتكلموا، وهو لا يظهر الكلام إلا بين خاصته الذين يشيعون الإفك بتوجيه الأذهان إليه من غير

أن يصرحوا، فهم يوعزون بالقول، ولا يظهرون، ويدفعون غيرهم، ولا يتكلمون، وتلك حال المنافقين يستترون ولا يتكلمون، وبذلك تتحقق في غيرهم شروط إقامة الحد، ولا تتحقق فيهم، والله أعلم».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٣٨-٨٣٩].

ويقول د/ أبو فارس: «لم يجلد عبد الله بن أبي ابن سلول؛ لأن العقوبة تطهير للقلب والنفس من الآلام، وتطهير لها من عقوبة الآخرة، وهذا للمسلم بلسانه وقلبه، أما ابن سلول فهو كافر بقلبه، لم يرد الله أن يطهر قلبه، ويخفف عنه عقوبة الآخرة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٢].

ويقول الشيخ الغزالي: «والغريب أن الحد أُقيم على من ثبتت عليهم تهمة القذف، وهم (حسان بن ثابت) و(مسطح) و(حمنة)، أما (عبدالله بن أبي) مدبِّرُ الحملة وجرثومتها الخفية، فإنه كان أحذر من أن يقع تحت طائلة العقاب، لقد أوقع غيره ثم أفلت بنفسه». [فقه السيرة للغزالي ٣٠٣].

ويقول أ/ باشميل: «والغريب في الأمر أن كل الذين تعرضوا لعقاب الجلد ليس بينهم منافق واحد، بل كلهم مسلمون تأثروا بقوة الأراجيف فجرفهم تيار الإشاعات الكاذبة، فنطقوا بها أوقعهم تحت طائلة العقوبة من صريح الكلام في عرض زوج نبيهم الطهور.

ولقد نجا عبد الله بن أُبي وعصبته المنافقة من عقوبة القذف؛ لأن التهمة لم تثبت عليه قانونًا، بالرغم من أن الناس يعلمون في قرارة أنفسهم ويشعرون، ومنهم النبي الأعظم ﷺ أن المحرك الأول لحديث الإفك إنما هو هذا المنافق ابن أُبي وحزبه، ولكن الشعور والاعتقاد شيء، والقانون وإجراءاته الرسمية شيء آخر.

ولهذا نجا رأس النفاق وعصابته من العذاب، عذاب السياط التي أصابت غيرهم حدًّا؛ لأن هذا المنافق كان يعلم عقوبة القذف الصريح، فكان لذلك أحذر من أن يقع تحت طائلة القانون، بكلام صريح مشهود يفوه به من حديث الإفك الذي لم يكن له سواه باعثًا ومروجًا؛ ولهذا أفلت من العقوبة بعد أن أوقع غيره لينال عذابها». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٠٩-١١٠].

ويقول أ/ الشامي: «وقد لا يكون غريبًا أنه لم تثبت تهمة القذف على المنافقين الذين أشاعوا الخبر ورتبوه.. بينما أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش فضربوا حد القذف، ونجا المنافقون.. وما ذلك إلا لأن طبيعة النفاق العمل بعيدًا عن السطح، هكذا يتورط غيرهم وهم بعيدون».

[من معين السيرة للشامي ٣٤٨-٣٤٩].

٣١ ـ العفو خير من العقوبة:

يقول د/ أبو فارس: «كان أبو بكر ﷺ يُنفق على مِسطح بن أثاثة، وهو قريب له، ومع هذا لم يحفظ هذا الود، ولم يُقَدِّر هذا الصنيع، بل شارك في حديث الإفك وكرر كلامًا نال فيه من عائشة ﵂، وهذا مؤلم

حقًّا، ويزداد هذا الألم إذا كان من القريب، نعم إنه ظلم مكروه ممجوج، ويقبح هذا ويزداد بشاعة إذا كان من ذوي القرابة.

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

لم يكن يخطر على بال أبي بكر ﷺ أن يقوم مسطح بالولوغ في عرض ابنته عائشة ﷺ، ويشيع الفرية التي تسيء إليها، فلما تحقق كل ما لم يخطر على باله أقسم ألا ينفق على مسطح، فأراد الله ﷻ أن يُعلِم أبا بكر ﷺ وغيره من المسلمين أن العفو أفضل من العقوبة، ونهاه عن يمينه، وأمره بإعادة النفقة على مسطح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾[النور].

فلما سمع أبو بكر ﷺ: ألا تحبون أن يغفر لكم؟ قال: بلى». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٢-٧٣].

٣٢ ـ اختلاف الروايات في أسماء من صرح بالإفك ومن سمعه فلم يدفعه:

يقول الشيخ عرجون: «وقد اختلفت الروايات اختلافًا واسعًا في أسماء من أفصح بالإفك، ومن سمعه فلم يدفعه، ومن تضاحكوا لسماعه ولم يخوضوا فيه.

والذين دار ذكرهم في الروايات بأنهم شركوا فيه: هم عبد الله بن أُبي ابن سلول رأس النفاق وزعيم المنافقين، وهو تولى كِبْره، فأفصح به وصرح، وشقي وهلك بالافتراء والبهتان وقول الزور، وهذا قول عائشة ﷺ، أخرجه البخاري من حديث الزهري، عن عروة.

قال القرطبي: وأخرجه أبو بكر الإسماعيلي في كتابه المخرج على الصحيح من وجه آخر من حديث مَعْمَر عن الزهري وفيه: قال كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال: الذي تولى كبره منهم علي بن أبي طالب؟ فقلت: لا، حدثني سعيد بن المسيب، وعروة، وعلقمة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، كلهم يقول سمعت عائشة ﷺ تقول: والذي تولى كبره عبد الله بن أُبي.

وأخرج البخاري أيضًا من حديث الزهري عن عروة عن عائشة: والذي تولى كبره منهم عبد الله بن أُبي. [تفسير القرطبي ١٥/ ١٦٣].

وكان هذا اللعين ابن سلول هو الذي يجتمع إليه فيه، ويستوشيه ويشعل ناره.

وذكر القرطبي أن حسان بن ثابت كان من قالته، وشرك مع القائلين مسطح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش، وقد سأل عبد الملك بن مروان عروة، فقال عروة: لم يُسم من أهل الإفك إلا حسان، ومسطح، وحمنة، وعبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين، وجُهل غيرهم، إلا أنهم كانوا عصبة.

[تفسير القرطبي ١٥/ ١٦٦].

وقد ذُكر عن عائشة في بعض الروايات أن الذي تولى كِبْره حسان بن ثابت، وهذا قول معارَض بقول عروة: كانت عائشة تكره أن يُسب حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٩-٢٣٠].

٣٣ ـ براءة حسان من الخوض في الإفك والإفصاح به وشعره في ذلك:

يقول الشيخ عرجون: «قال أبو عمر بن عبد البر: إن عائشة برأت حسان من الفرية، وقالت إنه لم يقل شيئًا، وأنكر حسان أن يكون قال شيئًا من ذلك في قوله من قصيدة يمدح بها عائشة رضي الله عنها التي سبق إيرادها.

وقد تعارض النقل في روايات صحيحة الأسانيد عن عائشة رضي الله عنها في حسان بالنفي والإثبات، ويُجمع بين قوليها فيه، أنه لم يقل إفصاحًا أو تصريحًا، وإنما لعله عرَّض بذلك وأومأ إليه في مجلس شاعري لا يتحفظ عند المسامرة، فنسب إليه أنه تكلم فيه وشارك.

تأويل ما أُبن به حسان في الإفك ومواقفه في الإسلام: والذي تميل إليه النفس لتعارض الروايات أن حسان رضي الله عنه جرى في مجالس الهالكين بالإفك على طريقة سمر الشعراء وأهل الأدب القولي، يتضاحكون بالكلمات والفكاهة والخبر الساخر، دون أن يقصدوا ما يتعلق بها، وهذا فيهم كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء]، ومن ثم جرى الخلاف فيه بين العلماء: هل خاض في الإفك وأفصح بالافتراء والبهتان أو كان يسمع ولا يدفع؟

وحسان رضي الله عنه له مواقف في الإسلام من أكرم وأشرف مواقف المجاهدين بلسانه في نصرة الدعوة الإسلامية منذ دخل في ساحة الإسلام مسلمًا مؤمنًا، محبًا للإسلام ونبيه ﷺ وأهله وآل بيته.

وكان في حياته المسلمة سيفًا مصلتًا على أعناق أعداء الإسلام من المشركين وشعرائهم ينافح عن رسول الله ﷺ، ويدافع عن أصحابه ودعوته، وقصائده الإسلامية في ديوانه تحتل مكانًا رحبًا وهي من غرر شعره.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقول له: «**اهجهم وروح القدس معك**»، وكان ﷺ يسمع شعره ويُسر به، ويقول عن شعره في منافراته لشعراء المشركين: إنه أشد عليهم من رشق النبل.

ولو لم يكن له إلا همزيته التي يقول فيها ردًا على أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان من أشد أعداء النبي ﷺ قبل إسلامه لكفاه فخرًا في إسلامه:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

قال نَقَدة الشعر في هذا البيت: إنه أهجى بيت في شعر العرب، وأنصف بيت، وأنظف بيت، مع ما فيه من قارس الهجاء الوجيع.

رد ابن كثير التهمة عن حسان ﷺ: وقد رد ابن كثير قول من قال: الذي تولى كبر الإفك حسان، فقال: «وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ بشعره وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «**اهْجُهُمْ ـ أَوْ هَاجِهِمْ ـ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**». [البخاري في بدء الخلق (٣٢١٣)، وفي المغازي (٤١٢٣)، وفي الأدب (٦١٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة ﷺ (٢٤٨٦)].

[تفسير ابن كثير ١٠/ ١٩٠].

وحسب حسان من المآثر والمفاخر أنه انفرد في حياته الإسلامية بلقب شاعر الإسلام، وفي قصيدته التي زعم ابن إسحاق أنه هجا فيها صفوان بن المعطل يقول:

أَمَّا قُرَيْشٌ فَإِنِّي لَنْ أُسَالِمَهُمْ حَتَّى يُنِيبُوا مِنْ الْغِيَّاتِ لِلرَّشْدِ
وَيَتْرُكُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى بِمَعْزِلَةٍ وَيَسْجُدُوا كُلُّهُمْ لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ
وَيَشْهَدُوا أَنَّ مَا قَالَ الرَّسُولُ لَهُمْ حَقٌّ وَيُوفُوا بِعَهْدِ الله وَالْوُكُدِ

ولا يرى فيها هجاء لمسلم لا تعريضًا ولا تصريحًا، ويروى أن صفوان ﷺ بلغه أن حسان يتكلم في الإفك، وأنه هجاه بشعره، فأخذته الحمية قبل أن يتثبت، واعترض حسان فضربه بسيفه ضربة إرعاب وتخويف، وقال له:

تَلَقَّ ذُبَابُ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنَّنِي غُلَامٌ إِذَا هُوجِيتُ لَسْتُ بِشَاعِرِ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التَّيْمِيُّ: إِنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ وَثَبَ عَلَى صَفْوَانَ بْنِ المعَطَّلِ، حِينَ ضَرَبَ حَسَّانَ فَجَمَعَ يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ إِلَى دَارِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَلَقِيَهُ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: أَمَا أَعْجَبَكَ ضَرْبُ حَسَّانَ بِالسَّيْفِ، وَالله مَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ قَتَلَهُ، قَالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ: هَلْ عَلِمَ رَسُولُ الله ﷺ بِشَيْءٍ مِمَّا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَا، وَالله، قَالَ: لَقَدْ اجْتَرَأْتَ، أَطْلِقْ الرَّجُلَ، فَأَطْلَقَهُ، ثُمَّ أَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَدَعَا حَسَّانَ وَصَفْوَانَ بْنَ المعَطَّلِ، فَقَالَ ابْنُ المعَطَّلِ: يَا رَسُولَ الله! آذَانِي وَهَجَانِي، فَاحْتَمَلَنِي الْغَضَبُ فَضَرَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِحَسَّانَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ، أَتَشَوَّهْتَ عَلَى قَوْمِي أَنْ هَدَاهُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ فِي الَّذِي أَصَابَكَ**»، قَالَ: هِيَ لَكَ يَا رَسُولَ الله.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: أَبَعْدَ أَنْ هُدَاكُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْطَاهُ عِوَضًا مِنْهَا بَيْرُحَاءَ، وَهِيَ قَصْرُ بَنِي حُدَيْلَةَ الْيَوْمَ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَتْ مَالًا لِأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى آلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَعْطَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَسَّانَ فِي ضَرْبَتِهِ وَأَعْطَاهُ سِيرِينَ، أَمَةً قِبْطِيَّةً، فَوَلَدَتْ لِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانَ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٠٥-٣٠٦].

وكان يفتخر بأنه ابن خالة إبراهيم ولد رسول الله ﷺ.

هذا الموقف الكريم من النبي ﷺ، وفيه هذا التصرف الرحيم مع حسان رضي الله عنه يتنافى كل المنافاة مع رواية من زعم أن عائشة رضي الله عنها قالت: الذي تولى كبر الإفك حسان؛ لأنه لا يعقل أن يكون حسان هو الذي تولى كبر الإفك والافتراء على الطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، ثم يلقى من رسول الله ﷺ هذا العتاب المتلطف مع الإكرام المشرف بإهدائه أخت أم ولده إبراهيم عليه السلام، وبستانًا خرير الماء، كثير الثمر، هذا بعيد جدًّا». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٠-٢٣٢].

٣٤ ـ تأويل موقف مسطح وتبرئته من الإفصاح بالإفك:

يقول الشيخ عرجون: «وأما مسطح بن أثاثة رضي الله عنه فإنه وإن ذُكر مع من سُمي من أهل الإفك في قول عروة مجيبًا لسؤال عبد الملك بن مروان، ولكنه لم يثبت عنه الإفصاح والتصريح والموجبان لحد الفرية والقذف، وأقصى ما يتصور في موقفه أنه كان يسمع، ويشارك بالكلمة الموئة من غير تصريح، ويدل لذلك أنه نفى عن نفسه أن يكون قال شيئًا ـ أي تصريحًا ـ كما يدل عليه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في رده على اعتذار مسطح بأنه لم يقل شيئًا: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل، فقال مسطح: إنما كنت أغشى مجالس حسان، فأسمع ولا أقول شيئًا.

قال القشيري ـ كما حكاه عنه القرطبي ـ: فأما مسطح فلم يثبت عنه قذف صريح، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح.

وقد قدمنا أن الذي كان يقال في مجالس حسان إنما هو نوع من السمر والتضاحك والتغامز بالأحداث التي تشغل المجتمع، ويشهد لذلك شعر حسان أن يكون قد قال شيئًا، وقد برأته عائشة رضي الله عنها عن الإفصاح والتصريح». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٢-٢٣٣].

٣٥ ـ لم يثبت عندنا شيء عن إفصاح حمنة بالإفك:

يقول الشيخ عرجون: «وأما حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها فهي امرأة كغيرها من عامة النساء، تغلب عليها العاطفة والحمية، وكانت ترى من فضل عائشة رضي الله عنها ومنزلتها عند رسول الله ﷺ، وعنده أختها السيدة النبيلة زينب بنت جحش رضي الله عنها، وهي التي كانت

تسامي عائشة من بين نساء النبي ﷺ، ولكنها لم تكن تلحقها، فلما أرجف المنافقون بحديث الإفك، واستوشوه في مجالسهم، وأذاعوه على الأسماع، وأفصحوا به وصرحوا، وكانت مجالس مآنس لمرضى القلوب من ضعفة المسلمين الذين لم تشرب قلوبهم حب الإيمان، وهؤلاء كانوا مغمورين في المجتمعات لا يُعرفون إلا لمامًا، فلم يقم لهم وزن في حضورهم ولا في غيابهم.

ولعل حمنة كانت من اللائي يسترقن السمع من النساء المنافقات وبيوتهن، فتسمع حديث الإفك، وتستطعمه وتستعيده حمية لأختها السيدة التقية أم المؤمنين زينب رضي الله عنها.

وشهر ذلك من أمر حمنة، وذاع في الناس أنها قالت في الإفك، ولم يثبت عندنا في رواية ثابتة أنها أفصحت وصرحت بما يوجب إقامة الحد على المفتري الكذاب.

وكل ما ثبت هو ذكر اسمها مع من زُعم عليهم من المؤمنين أنهم قالوا ما قيل في الإفك، دون تعيين لقول على نحو ما ثبت عن الخبيث اللعين رأس النفاق وزعيم المنافقين، عبد الله بن أُبي بن سلول الذي صرح بأخبث ما افتُري من البهتان والإفك». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٣-٢٣٤].

٣٦ ـ لم يثبت عندنا أن أحدًا من خُلَّص المؤمنين صرح بالإفك:

يقول الشيخ عرجون: «وبهذا التحقيق يتضح أننا نرى أنه لم يثبت عندنا اشتراك أحد من خُلَّص المسلمين المؤمنين في حديث الإفك تصريحًا يوجب حد القذف، وإنما الذي كان إنما هو إرجاف من المنافقين، ومرضى القلوب، أفصحوا في إرجافهم عن الافتراء والبهتان والإفك، وهم الذين كانوا يجتمعون له، يستوشونه ويشعلون لهيبه ليحزنوا الذين آمنوا، ويدخلوا عليهم من الفتنة والشك ما يشغلهم عن نشر دعوتهم، وتبليغ رسالتهم، وليسيؤوا إلى رسول الله ﷺ في أحب الناس إليه، بألأم ما عُرف من لؤم الطبائع البشرية وأخبث ما تلوث به سيرة أطهر الطاهرات، وأفضل الفضليات.

وقد أخبرنا الله تعالى أنه كان في المجتمع المسلم سماعون للمنافقين، نمامون، يسمعون أكاذيبهم فينشرونها بين الناس؛ ليثيروا الفتن، ويسمعون من المؤمنين أحاديثهم فينقلونها إليهم.

وهؤلاء السماعون النمامون هم الوسائل الخبيثة لنقل الحديث وإشاعة السوء في المجتمعات، فلا يبعد أن يكون المنافقون قد أوحوا إلى هؤلاء السماعين كما توحي الشياطين إلى أوليائهم أن يبثوا أكاذيب الإفك في مجالس المؤمنين؛ ليتلقفها منهم ضعفاء الإيمان، ويتلقوها بألسنتهم، متضاحكين، يسترضون بها عواطف الحمية العصبية بسماعها وإذاعتها، وبهذا الطريق الخبيث من كيد المنافقين تنوقل حديث الإفك من بيوت ومجالس المنافقين إلى مسامع المؤمنين في مجالسهم، فجمجم به الهزأة الساخرون الذين يلقون الحديث فلا يبالون بما فيه، واستطعمه بعض الضحكة الهازلين، يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وأما قوله تعالى: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] فالخطاب فيه للمجتمع المسلم كله بما فيه من صادقي الإيمان، وبما فيه من المنافقين ومرضى القلوب والسماعين للمنافين النمامين الناشرين للإفك والبهتان.

وقد ذكر الزمخشري مع عبد الله بن أبي من المنافقين زيد بن رفاعة وفي رواية عن عروة بن الزبير أن المشتركين في حديث الإفك كثيرون، وقد سماهم الله عصبة، ولم يسم منهم إلا ما علم، وجُهل الباقون فلم يُذكروا، ولو أن أحدًا من الرواة عني بالبحث عن أهل الإفك لوصل إلى أن حديث الإفك حبكة من نسج النفاق وخبث المنافقين، الذين لم يقع في حبائلهم إلا مرضى القلوب والسماعون النمامون.

ويرشح ما ذهبنا إليه أن العلماء اختلفوا: هل حُدَّ أحدٌ من أهل الإفك؟ حكى الماوردي في ذلك قولين بالنفي والإثبات.

والمسألة لم يثبت فيها حديث صحيح يرفع الشك ويوجب اليقين، فالله تعالى أعلم بما كان».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٤-٢٣٥].

٣٧ ـ تناول سيرة الصحابة ﷺ ينبغي أن يكون قائمًا على تحري الحق الصريح:

يقول الشيخ عرجون: «ونحن ندين بأن سيرة أصحاب رسول الله ﷺ لها قبس من نور سيرته ﷺ، فكما يجب في تناول سيرته ﷺ أن يكون هذا التناول قائمًا على البحث المتعمق والتحقيق الممحَّص ـ فلا يقبل فيه إلا ما ثبت ثبوتًا بينًا، بالدليل والحجة سندًا وتفقهًا، ولفظًا ومعنى ـ يجب في تناول سيرة أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ أن يكون هذا التناول مستهدفًا للحق الذي لا افتراء فيه، ولا يكفي في القول به وجوده في روايات متعارضة، قد يصح سند بعضها، ولكن متونها وحقائقها ومعانيها قد تتعارض مع ما عُرف عن المجتمع المسلم إذ ذاك من التوقف في قبول المظنونات في غير الأحكام الجزئية التعبدية فضلًا عن مطارح المشكوكات المريبة.

وليس هذا منا ميلًا إلى عصمة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عن الخطأ والمخالفة، ولكنه جنوح منا إلى القول بوجوب التثبت فيما يُنقل من سيرتهم وأحداث حياتهم، وليس أحد من البشر معصومًا سوى أنبياء الله ورسله، حفظًا لشرائع الله وأحكامه، حتى لا يتعبد الناس إلا بما شرعه الله.

والذي أدخل علينا الاشتباه في أمر حمنة موقفُ أختها أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش ﵂، ذلك الموقف النبيل من قصة (الإفك) وقد سألها رسول الله ﷺ: «ماذا علمت أو رأيت؟» فأجابت بما أملاه عليها ورعها في دينها وتقواها في إيمانها، وأخبرت عن الطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشة رضوان الله عنهما، فقالت: والله ما علمت إلا خيرًا، إذ كيف يكون هذا الموقف النبيل من أم المؤمنين زينب بنت

جحش أخت حمنة، ثم تسمع زينب أن أختها حمنة تطلق لسانها في البهتان المفترى، تحارب لها في هذا الموقف الآثم ـ كما تقول الرواية ـ ولا يُعرف عن زينب ولو في رواية واحدة أنها زجرت أختها حمنة عن الخوض في هذا الباطل والإثم المفترى لتردها عنه، قيامًا بما تعلم من براءة عائشة ﵂، وحماية لحرمة رسول الله ﷺ، والروايات عُرضة للزيادة والنقص في عباراتها، وعُرضة للوهم في ألفاظها وأسلوبها، وعُرضة للسكوت حيث لا يحسن السكوت، ولم نر رواية أخرجت حمنة عن الخوص في (الإفك) أو رواية نفت عنها الحد فيمن حد على قول من قال بإقامته عن الخائضين فيه».

[**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٠-٢٤١**].

٣٨ ـ تصوير القرآن للموقف بأسلوب إعجازه وروعته:

يقول الشيخ عرجون: «والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ـ التي نزلت في حديث الإفك ـ على ضوء ما قالت عائشة ﵂ في رواية الصحيح يرى أنها جاءت بأكفأ وأربى في التشريف والحفاوة والمنافحة عن حرم رسول الله ﷺ وتنزيه ساحتها، وتعزية المجتمع المسلم وتسلية رسول الله ﷺ فيما أصابه من البلاء وشدة المحنة، وفيما جاء به أعداء الله، وأعداء رسوله وأعداء أهله، وأعداء دينه، ورسالته من المنافقين ومرضى القلوب، الحاسدين المحنقين والمتلقفين الأباطيل والأكاذيب من ألسنة الفجرة المتقولين، وأفواه المرجفين، تعظيمًا لقدره ﷺ، وصونًا لساحته أن يكون متنزلًا للبهتان المفترى، وإعزازًا لأحب الناس إليه أن يحوم حول حمى شرفها وطهرها رشح من نزيز الحاقدين». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٥**].

٣٩ ـ آية من البلاغة الزمخشرية في تفسير آيات الإفك والبراءة:

وفي تصوير ما اشتملت عليه الآيات التي برئت بها عائشة ﵂ أفرغ الزمخشري سواد عيون براعته البيانية مدادًا لقلمه، فأحسن وأبدع، وسما إلى ذروة الإعجاز في الكلام البشري إنصافًا وانتصافًا، ومعرفة لمنازل البلاغة من الكلام، فقال: «ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما رُكب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه.

ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها؛ حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ فأوجز في ذلك وأشبع، وفصَّل وأجمل، وأكد وكرَّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر...

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يُسأل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال: من أذنب ذنبًا ثم تاب منه قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك.

ولقد برَّأ الله تعالى أربعة بأربعة: برَّأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرَّأ موسى عليه السلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرَّأ مريم عليها السلام بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: إني عبد الله، وبرَّأ عائشة رضي الله عنها بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر.

مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر، كم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم، وخيرة الأوَّلين والآخرين، وحجة الله على العالمين.

ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدُّم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق، فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمَّل كيف غضب الله في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه».

[الكشاف للزمخشري ٤/ ٢٨٠-٢٨١].

٤٠ ـ طبيعة الحادث وملابساته:

يقول أ/ دويدار: «لقد كان هذا الحادث في ذاته أمرًا عاديًّا غير جدير بأن يثير شبهة أو شكًّا، فإنه لم يزد في وضعه الطبيعي على أن سيدة فاتها الركب دون علم منها ولا منهم، فأدركها تابع الركب فأجارها حتى ردها إلى مأمنها، فكان صنيعه معها صنيع الرجل الذي يؤدي واجبه لأنه واجب، فإن لم يكن واجبًا فإنه مروءة ينبعث إلى فعلها الرجل الكريم من تلقاء نفسه، وفي كلتا الحالتين لم يكن ينبغي أن يكون هناك مجال للشك في أمرها وأمره؛ لأنه أمر طبيعي تمليه ظروف البيئة وطبيعتها.

وقد هاجرت من قبل أم سلمة من مكة إلى المدينة وليس معها إلا وليدها الطفل، فلما رآها **عثمان بن طلحة** على هذه الحال، أبت عليه المروءة ـ وهو مشرك ـ أن يتركها وحدها في هذه المتاهة، فاصطحبها في رحلتها حتى أوصلها إلى المدينة ثم عاد، فما تحدث أحد من أهل المدينة في شأنها ولا في شأن عثمان، على رغم أن عثمان كان لا يزال مشركًا وعدوًّا للإسلام والمسلمين.

ورغم ما كان في تلك الرحلة من سعة الوقت وتعدد الفرص لمن أراد أن ينتهز فرصة؛ ذلك أن الشهامة العربية تقضي على الرجل أن يحمي المرأة حين لا حامي لها ولو كانت من رعاع الناس، فكيف وعائشة زوج رسول الله ﷺ، وعقيلة بيت النبوة، وسليلة بيت أبي بكر رضي الله عنه، ذلك البيت الذي ما عُرفت له سَقطة قط في الجاهلية حتى تُعرف عنه في الإسلام؟ وكيف وصفوان رضي الله عنه رجل يؤمن بالله ورسوله،

ويعتنق مبادئ الإسلام الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر؟ وكيف وهو بعد ذلك رجل عربي فيه شهامة العرب ومروءتهم وسمو نفوسهم؟

كان حقد ابن أُبي هو السبب في هذه الفرية: لكنه الحقد والحسد والضغينة أكلت قلب عبد الله بن أُبي، وملأته غيظًا على الإسلام ورسوله ﷺ، ودفعت به إلى هذا الموقف الدنيء، كما دفعت به من قبل إلى مواقف أخرى تكشف كلها عن خُبث نيته وسوء قصده، فقد عاد ابن أُبي من هذه الرحلة مغيظًا محنقًا بسبب ما لقي في مكيدته تلك من إخفاق، وما أصابه بسببها من مذلة وهوان، فدخل المدينة ونفسه تفور من الغيظ على رسول الله ﷺ، فجعل يتلمس فرصة ينفس بها عن نفسه، فما كاد يرى عائشة وصفوان عائدين على فترة من الركب، حتى وجدها أحسن فرصة يطلق فيها الوشاية، ويُشعل الفتنة التي عجز عن إشعالها بين المهاجرين والأنصار بسبب الأجيرين، فراح يطلق لسانه بالإفك في عائشة «عسى أن يُوقع بين النبي ﷺ وأقرب الأصدقاء إليه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أو يفلح في تشكيك المسلمين في كرامة نبيهم ﷺ، أو يقيم بين قومه الخزرج وسائر المسلمين شغبًا يقعون فيه عصبية له وأنفة من هوانه، فينتقض أمر الإسلام من أوس وخزرج وأنصار ومهاجرين». [**الصديقة بنت الصديق** رضي الله عنها **للعقاد ٧٥**].

لقد كانت ظروف الرحلة وملابساتها كلها تدعو إلى العجلة: «وكان مسير الجيش في عودته من هذه الغزوة مضطربًا أشد اضطراب؛ لشيوع الفتنة بين المسلمين وأتباع عبد الله بن أبي»، وكان النبي ﷺ معجلًا ليشغل الناس عن الحديث في أمر هذه الفتنة، حتى جعل ﷺ يضرب راحلته بالسوط في مراقيها ليستعجلها، فلم يكن من العجب أن يفوت الركب عائشة في هذه الأوبة العاجلة، دون أن يفطن أحد إلى تخلفها وانقطاعها عن الركب، ولكنه الغرض الدنيء والخصومة الوضيعة هبطا بابن أُبي إلى أحط دركات الخساسة، فأطلق هذه الفرية التافهة، وأشاع هذه الكذبة الدنيئة، فتلقفها أُناس على شاكلته من المنافقين وأشاعوها في كل ناحية، حتى امتلأت بها الأسماع وتداولتها الألسن، وتحدَّث بها من لا يدرك ما وراءها من الأغرار والبلهاء.

هذه فرية لا تجوز حتى على امرأة ساقطة: هذه فرية ما كان ينبغي أن تجوز حتى على امرأة ساقطة، إذ لا يمكن لامرأة ـ مهما يكن من حمقها وسفاهتها ـ أن تجاهر بأمرها هذه المجاهرة، وأن تأتي هكذا في وضح النهار ومعها رفيقها، فتكشف ما خفي من مستور أمرها، وتعلن على أعين الناس أنها قد أتت ما أتت وفعلت ما فعلت، فإن في غريزة المرأة ـ مهما سقطت ـ نزوعًا طبيعيًّا إلى التجمل للناس والظهور أمامهم في أكمل مظهر تستطيعه، حتى لا يزهد الناس فيها ـ على الأقل ـ إذا هي عالنت بحقيقتها.

فهل يكون من الجائز أن تجاهر بمثل هذا عائشة أم المؤمنين والمثل الأعلى للمؤمنات؟ أما كان لها مزدجر في قوله تعالى لها ولصواحبها من نساء النبي ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ

يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب] أفما كانت تخشى أن يحل بها غضب الله وعقابه، وأن تسقط عن هذه المنزلة التي رفعها الله إليها وكرمها بها؟.. أفما كانت تستحي أن تدنِّس طُهر هذا البيت الذي يتنزل فيه الوحي وتغشاه الملائكة، أو تحسب حسابًا لسمعة بيتها وكرامه أبويها؟

الحق أنها كانت فرية ساقطة، وكذبة لا يقرها عقل ولا دين ولا ذوق، ولا يقبلها منطق البيئة ولا ظروف المجتمع وإن أقاموا عليها ألف دليل ودليل، فكيف «وليس لها سند ولا شبهة إلا أن عائشة رضي الله عنها تأخرت في الطريق هنيهة حين تحرك العسكر على حين فجأة، في رحلة كانت كلها كثيرة المفاجآت في مواعيد النزول والرحيل؟ تلك شبهة لا تكفي للشك في امرأة من عامة المسلمين الخارجين للجهاد في حضرة نبي الإسلام ﷺ، إذ لو كانت كل امرأة تتأخر في الطريق تؤخذ بالتهمة في دينها وعرضها، لكانت التهم في الأعراض أهون شيء يخطر على بال». [**الصديقة بنت الصديق** رضي الله عنها **للعقاد ٧٨**].

القرآن يكذب الفرية ويجعلها محوراً للتشريع في صيانة الأعراض: من أجل هذا لم يكتف القرآن بتكذيب الفرية ونفي التهمة عن عائشة، بل عالج الموقف من جميع نواحيه علاج الحكمة البالغة، التي تصون للأعراض الطاهرة حرمتها، وتقطع على الألسنة الكاذبة طريقها، وتحفظ للمجتمع الإسلامي سمعته وكرامته.

الزنا جريمة دنسة لا يمكن أن يأتيها المؤمن: فقد بدأت آيات سورة النور بتحديد العقوبة الزاجرة لجريمة الزنا، وأمرت بإيقاعها على الزناة بلا شفقة ولا رحمة، وأن يكون ذلك بمشهد من الناس ليكون موعظة لهم، لأنها جريمة دنسة، بالغة الأثر في إفساد المجتمع وإهدار الكرامة، لا يمكن أن يأتيها إلا أهلها من الناس، ممن خبثت نفوسهم أو تلوثت عقيدتهم، أما المؤمنون فهم بحكم إيمانهم وتقواهم أبعد الناس عن هذه الجريمة الدنسة: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور].

الذين يتكلمون في أعراض الناس بغير علم يُعاقبون وتهدر كرامتهم:

ثم أعقبت ذلك بتحصين المجتمع الإسلامي من شر أولئك الفساق الذين يَلِغون في أعراض الناس بغير علم، ويهدرون كرامات البيوت بغير إثم، فألزمتهم بإقامة الدليل القاطع، والبرهان الذي لا يقبل

الشك على صدق ما يتقولون به على الناس، فإن لم يستطيعوا أن يقدموا هذا الدليل فلهم العقاب الرادع والهوان اللاذع والكرامة المهدرة، حتى يتوبوا عن الخوض في أعراض الناس.. حتى الأزواج أنفسهم لا بد لهم أن يقيموا هذا الدليل إذا رموا زوجاتهم بالفاحشة، فإن لم يستطيعوا كان عليهم أن يؤكدوا ذلك بالأيمان المغلظة، يُشهدون الله فيها على أنهم صادقون غير كاذبين، وللزوجة بعد ذلك أن تدرأ عن نفسها، وأن تُعارض هذه الأيمان بأيمان مثلها، وتُشهد الله على أن زوجها فيما رماها به كاذب غير صادق: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾ [النور].

على المؤمنين أن يحسنوا الظن بإخوانهم وألا يندفعوا وراء الأراجيف: وبعد ذلك عرضت الآيات حديث الإفك، فوصفته بأنه فريةُ عُصْبَة كاذبة أرادت به الشر للمسلمين وأراد الله به الخير لهم، وأن الله لابد آخذ هؤلاء الكذبة بذنوبهم: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور].

وهنا ألقت الآيات على المؤمنين درسًا بالغًا فيما كان ينبغي أن يتأدبوا به في مثل هذه الحادثة الخطيرة، فقد كان على المؤمنين أن يُحسنوا الظن بإخوانهم المؤمنين والمؤمنات، وألا يصدقوا هؤلاء الكاذبين حتى يقيموا الدليل القاطع على ما أرجفوا به من هذا الإفك، وألا يجاروا السفهاء فيما يشيعون من ذلك البهتان العظيم، وأن يعصموا ألسنتهم من الخوض فيه، ثم حذرتهم أن يعودوا لمثله أبدًا، وأن يعملوا على إشاعة الفاحشة في مجتمعهم، فإن ذلك من عمل الشيطان، وذكَّرتهم بما تفضل الله به عليهم من نعمة الإيمان التي تعصمهم من الزلل، وبما كان منه سبحانه من العفو عن أخطائهم، وطلبت إلى أولي الفضل منهم أن يغفروا لمن أساء إليهم في هذا السبيل، وألا يقطعوا عنهم بسبب هذه الإساءة ما تعودوا أن ينالوهم به من الفضل والإحسان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا

تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور].

قداسة الأعراض: ولما كانت الأعراض أعظم شيء ينبغي أن يُصان، وكان حديثها أشهى حديث إلى نفوس الفساق والمستهترين، وكان الخوض فيها يُعرض سمعة المجتمع وكرامات الناس للضياع... عادت الآيات إلى التحذير الشديد من الرجم في الأعراض بالغيب، ولعنت الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات في الدنيا والآخرة، وتوعدتهم بالعذاب العظيم يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور].

كلٌّ يعمل على شاكلته: ثم خُتم الموضوع كله بهذه القاعدة الاجتماعية العامة، التي تهدم التهمة من أساسها، والتي تصلح ميزانًا للحكم على كل فرد وعلى كل جماعة في كل زمان ومكان: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾ [النور].

وهكذا كلٌّ يعمل على شاكلته، وكل إناء بما فيه ينضح، فللخبائث أهل الخبائث وللطيبات أهل الطيبات، ولا ينضح الطيب إلا طيبًا ولا ينضح الخبيث إلا خبيثًا، و «**النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**».

[البخاري في الأنبياء (٣٣٨٣)، ومواضع أخرى، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٦٦١٥) ومواضع أخرى].

ليس للمؤمن إذن أن يُصدِّق أو يكذِّب ما يسمعه عن أخيه المؤمن، إلا بعد أن يدرس الظروف والملابسات، ويلاحظ الأسباب والنتائج، ويتعرف طبيعة الشخص ومعدنه، والبيئة التي نشأ فيها، والأصل الذي تفرَّع منه، والدوافع التي أحاطت به فدفعته إلى فِعل ما فعل أو ترك ما ترك.. أما أن ينساق مع الإشاعات وينقاد للأراجيف فليس هذا من الحكمة ولا من الإنصاف، وهذا ما أخذه الله سبحانه على بعض المؤمنين في حادث الإفك، وما حذرهم أن يعودوا إليه في قوله سبحانه: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور].

شدد القرآن في أمر هذه الفرية: هذه حادثة الإفك كما صورها القرآن الكريم، وفي ظروفه شرع الله ما شرع من الحدود؛ لحماية المجتمع الإسلامي من جريمة الزنا، ومن جريمة القذف في أعراض المؤمنات،

وشدَّد ما شدد في إثبات هذه الجريمة المنكرة، حتى لا يُؤخذ البرآء فيها بفرية مفتر أو إرجاف مرجف، وحتى لا تكون أعراض الناس هدفًا لكل رام، وعُرضة لكل أفَّاك أثيم.

وقد يقول قائل: وهل من الممكن أن يأتي المرء بأربعة شهداء لإثبات حالة الزنا على كل رجل وامرأة؟ وهل من الممكن أن يتأتى ذلك في كل حالة؟ وهل من المعقول ألا تثبت الجريمة إلا برؤية الشهود الأربعة، وإجماعهم على وقوعها وشهودها بأعينهم؟ أليس ذلك تكليفًا بما هو في حكم المستحيل، وتعجيزًا عن إثبات هذه الجريمة الشنعاء في حال من الأحوال؟.. بلى، قد يكون ذلك متعذرًا وقد يكون مستحيلًا، ولكن المشرِّع لاحظ في هذه الناحية أمورًا لها خطرها واعتبارها.. لاحظ أن هذا أمر يتصل بأعراض الناس وكراماتهم، وأن ناحية العرض ناحية حساسة، شديدة التأثر بكل ما يمسها من كلام الناس إن صدقًا وإن كذبًا، ولاحظ أن في طبيعة الناس سرعة التصديق لهذه الإشاعات وسرعة العمل على إذاعتها، وأنها أشهى الأحاديث إلى نفوسهم، وأكثرها جريانًا في مجالسهم، ولاحظ أنها تتصل اتصالًا وثيقًا بسمعة المجتمع الإسلامي، وهو المجتمع الذي ينبغي أن يكون مثالًا في طُهره ونظافته وسمعته الطيبة.

ومن أجل ذلك وضع المشرِّع هذه الحواجز القوية، وأقام هذه الحصون التي يتعذر اقتحامها؛ ليصون بها أعراض المؤمنين والمؤمنات، ويقطع بها ألسنة السفهاء والمفترين، ويحفظ بها للمجتمع الإسلامي سمعته وكرامته، وليضع بها للمسلين دستورًا قويًا، يدعوهم إلى التروي والاحتياط عند سماع هذه الأخبار، وإلى التبيُّن والتثبُّت من كل ما يُقال فيها، ويحول بينهم وبين ما جرى عليه سائر الناس من تصديق الإشاعات وترويج الأكاذيب بغير علم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [الحجرات]. [**صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ١٦٨-١٧٥**].

٤١ ـ أضخم معركة يخوضها الرسول ﷺ:

يقول صاحب الظلال: «وهكذا عاش رسول الله ﷺ وأهل بيته، وعاش أبو بكر رضي الله عنه وأهل بيته، وعاش صفوان بن المعطل رضي الله عنه، وعاش المسلمون جميعًا هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق، وفي ظل تلك الآلام الهائلة، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات.

وإن الإنسان ليقف متململًا أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول ﷺ، وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة رضي الله عنها زوجه المقربة، وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة، تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة.

فها هي ذي عائشة رضي الله عنها الطيبة الطاهرة، ها هي ذي في براءتها ووضاءة ضميرها، ونظافة تصوراتها، ها هي ذي تُرمى في أعز ما تعتز به، تُرمى في شرفها، وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرفيع،

وتُرمى في أمانتها، وهي زوج محمد بن عبد الله من ذروة بني هاشم، وتُرمى في وفائها، وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير، ثم تُرمى في إيمانها، وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة، وهي زوج رسول الله ﷺ.

ها هي ذي تُرمى، وهي بريئة غارة غافلة، لا تحتاط لشيء، ولا تتوقع شيئًا، فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو في جناب الله، وتترقب أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا، تبرئها مما رميت به، ولكن الوحي يتلبث ـ لحكمة يريدها الله ـ شهرًا كاملًا، وهي في مثل هذا العذاب.

ويا لله لها وهي تفاجأ بالنبأ من أم مسطح، وهي مهدودة من المرض، فتعاودها الحمى، وهي تقول لأمها في أسى: **سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟** وفي رواية أخرى تسأل: **وقد علم به أبي؟** فتجيب أمها: نعم! فتقول: **ورسول الله ﷺ؟** فتجيبها أمها كذلك: نعم!

ويا لله لها ورسول الله ﷺ نبيها الذي تؤمن به ورجلها الذي تحبه، يقول لها: «**يَا عَائِشَةُ! فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»، فتعلم أنه شاك فيها، لا يستيقن من طهارتها، ولا يقضي في تهمتها، وربه لم يخبره بعد، ولم يكشف له عن براءتها التي تعلمها ولكن لا تملك إثباتها، فتمسي وتصبح وهي متهمة في ذلك القلب الكبير الذي أحبها، وأحلها في سويدائه!

وها هو ذا أبو بكر الصديق ﷺ ـ في وقاره وحساسيته وطيب نفسه ـ يلذعه الألم، وهو يُرمى في عرضه، في ابنته زوج محمد ﷺ ـ صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل، لا يطلب دليلًا من خارجه ـ وإذا الألم يفيض على لسانه، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم، فيقول: **والله ما رمينا بهذا في جاهلية، أفنرضى به في الإسلام؟** وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل، حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة: **أجب عني رسول الله ﷺ**، قال في مرارة هامدة: **والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ!**

وأم رومان ـ زوج الصديق رضي الله عنها وهي تتماسك أمام ابنتها المفجوعة في كل شيء، المريضة التي تبكي حتى تظن أن البكاء فالق كبدها، فتقول لها: **يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها**، ولكن هذا التماسك يتزايل وعائشة تقول لها: أجيبي عني رسول الله ﷺ، فتقول كما قال زوجها من قبل: **والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ!**

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل ﷺ، وهو يُرمى بخيانة نبيه في زوجه، فيُرمى بذلك في إسلامه، وفي أمانته، وفي شرفه، وفي حميته، وفي كل ما يعتز به صحابي، وهو من

ذلك كله بريء، وهو يفاجأ بالاتهام الظالم وقلبه بريء من تصوره، فيقول: **سبحان الله! والله ما كشفت كنف أنثى قط**، ويعلم أن حسان بن ثابت يروج لهذا الإفك عنه، فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودي به، ودافعه إلى رفع سيفه على امرئ مسلم، وهو منهي عنه، إن الألم قد تجاوز طاقته، فلم يملك زمام نفسه الجريح!

ثم ها هو ذا رسول الله ﷺ وهو رسول الله، وهو في الذروة من بني هاشم.. ها هو ذا يُرمى في بيته، وفي من؟ في عائشة التي حلت من قلبه في مكان الابنة والزوجة والحبيبة، وها هو ذا يُرمى في طهارة فراشه، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة، وها هو ذا يُرمى في صيانة حرمته، وهو القائم على الحرمات في أمته، وها هو ذا يرمى في حياطة ربه له، وهو الرسول المعصوم من كل سوء.

ها هو ذا ﷺ يُرمى في كل شيء حين يرمى في عائشة ﵂ يرمى في فراشه وعرضه، وقلبه ورسالته، يُرمى في كل ما يعتز به عربي، وكل ما يعتز به نبي، ها هو ذا يُرمى في هذا كله، ويتحدث الناس به في المدينة شهرًا كاملًا، فلا يملك أن يضع لهذا كله حدًّا، والله يريد لحكمة يراها أن يدع هذا الأمر شهرًا كاملًا لا يبين فيه بيانًا، ومحمد الإنسان يعاني ما يعانيه الإنسان في هذا الموقف الأليم، يعاني من العار، ويعاني فجيعة القلب، ويعاني فوق ذلك الوحشة المؤرقة، الوحشة من نور الله الذي اعتاد أن ينير له الطريق، والشك يعمل في قلبه ـ مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله، ولكنه لا يطمئن نهائيًّا إلى هذه القرائن ـ والفرية تفوح في المدينة، وقلبه الإنساني المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك، فلا يملك أن يطرد الشك؛ لأنه في النهاية بشر، ينفعل في هذا انفعالات البشر، وزوج لا يطيق أن يمس فراشه، ورجل تتضخم بذرة الشك في قلبه متى استقرت، ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم.

وها هو ذا يثقل عليه العبء وحده، فيبعث إلى أسامة بن زيد ﵁ ـ حبه القريب إلى قلبه ـ ويبعث إلى علي بن أبي طالب ﵁ ـ ابن عمه وسنده ـ يستشيرهما في خاصة أمره، فأما علي فهو من عصب محمد ﷺ، وهو شديد الحساسية بالموقف لهذا السبب، ثم هو شديد الحساسية بالألم والقلق اللذين يعتصران قلب محمد ﷺ، ابن عمه وكافله، فهو يشير بأن الله لم يضيّق عليه، ويشير مع هذا بالتثبت من الجارية ليطمئن قلب رسول الله ﷺ ويستقر على قرار، وأما أسامة فيدرك ما بقلب رسول الله ﷺ من الود لأهله، والتعب لخاطر الفراق، فيشير بما يعلمه من طهارة أم المؤمنين، وكذب المفترين الأفاكين.

ورسول الله ﷺ في لهفة الإنسان، وفي قلق الإنسان، يستمد من حديث أسامة، ومن شهادة الجارية مددًا وقوة يواجه بهما القوم في المسجد، فيستعذر ممن نالوا عرضه، ورموا أهله، ورموا رجلًا من فضلاء المسلمين لا يعلم أحد عليه من سوء.. فيقع بين الأوس والخزرج ما يقع من تناور ـ وهم في مسجد

رسول الله ﷺ وفي حضرة رسول الله ﷺ ـ ويدل هذا على الجو الذي كان يظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة الغريبة، وقد خدشت قداسة القيادة، ويحز هذا في نفس الرسول ﷺ والنور الذي اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق! فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها يصارحها بما يقول الناس، ويطلب منها هي البيان الشافي المريح!

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم.

ولقد قالت عائشة رضي الله عنها عن هذا القرآن الذي تنزل: «**وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحيًا يتلى. ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها**».

ولكن الأمر ـ كما يبدو من ذلك الاستعراض ـ لم يكن أمر عائشة رضي الله عنها ولا قاصرًا على شخصها، فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته في الجماعة يومها، بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها، وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها؛ من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المبتدعة، ويرد المكيدة المدبرة، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله، وما يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١﴾.

فهم ليسوا فردًا ولا أفرادًا، إنما هم (عصبة) متجمعة ذات هدف واحد، ولم يكن عبد الله بن أُبي بن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك، إنما هو الذي تولى معظمه، وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين، الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة، فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة، ثم خدع فيها المسلمون فخاض منهم من خاض في حديث الإفك كحمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة، وعلى رأسها ابن سلول، الحَذِر الماكر، الذي لم يَظهر بشخصه في المعركة، ولم يقل علانية ما يؤخذ به، فيُقاد إلى الحد، إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم، ولا يشهدون عليه، وكان التدبير من المهارة والخبث بحيث أمكن أن ترجف به المدينة شهرًا كاملًا، وأن تتداوله الألسنة في أطهر بيئة وأتقاها!

وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث، وعمق جذوره، وما وراءه من عصبة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللئيم.

ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾.

خير، فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته، وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله، ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، فهي عندئذ لا تقف عند حد، إنما تمضي صعدًا إلى أشرف المقامات، وتتطاول إلى أعلى الهامات، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج وكل حياء.

وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة ـ بهذه المناسبة ـ عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم.

أما الآلام التي عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته، والجماعة المسلمة كلها، فهي ثمن التجربة، وضريبة الابتلاء، الواجبة الأداء!

أما الذين خاضوا في الإفك، فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ﴾ ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله، وبئس ما اكتسبوه، فهو إثم يعاقبون عليه في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم.

والذي تولى كبره، وقاد حملته، واضطلع منه بالنصيب الأوفى، كان هو عبد الله بن أُبي بن سلول، رأس النفاق، وحامل لواء الكيد، ولقد عرف كيف يختار مقتلًا، لولا أن الله كان من ورائه محيطًا، وكان لدينه حافظًا، ولرسوله عاصمًا، وللجماعة المسلمة راعيًا.

ولقد روي أنه لما مر صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين وابن سلول في ملأ من قومه قال: من هذه؟ فقالوا: عائشة ﵂، فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها!

وهي قولة خبيثة راح يذيعها ـ عن طريق عصبة النفاق ـ بوسائل ملتوية، بلغ من خبثها أن تموج المدينة بالفرية التي لا تُصدَّق، والتي تكذبها القرائن كلها، وأن تلوكها ألسنة المسلمين غير متحرجين، وأن تصبح موضوع أحاديثهم شهرًا كاملًا، وهي الفرية الجديرة بأن تُنفى وتُستبعد للوهلة الأولى.

وإن الإنسان ليدهش ـ حتى اليوم ـ كيف أمكن أن تروج فرية ساقطة كهذه في جو الجماعة المسلمة حينذاك، وأن تُحدث هذه الآثار الضخمة في جسم الجماعة، وتسبب هذه الآلام القاسية لأطهر النفوس وأكبرها على الإطلاق.

لقد كانت معركة خاضها رسول الله ﷺ وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك، وخاضها الإسلام، معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ وخرج منها منتصرًا كاظمًا لآلامه الكبار، محتفظًا بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره، فلم تُؤْثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله، والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته، والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه.

ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه، ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه، والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج في مواجهة الأمور، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

نعم كان هذا هو الأولى، أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الحمأة، وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم، فظنُّ الخير بهما أولى، فإن ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله ﷺ ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلا خيرًا، كذلك فعل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما كما روى الإمام محمد بن إسحاق: **أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟، قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك.**

ونقل الإمام محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره «الكشاف»: **أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءًا؟ قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خنت رسول الله ﷺ فعائشة خير مني، وصفوان خير منك.**

وكلتا الروايتين تدلان على أن بعض المسلمين رجع إلى نفسه واستفتى قلبه، فاستبعد أن يقع ما نُسب إلى عائشة، وما نُسب إلى رجل من المسلمين: من معصية لله وخيانة لرسوله، وارتكاس في حمأة الفاحشة، لمجرد شبهة لا تقف للمناقشة!

هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور، خطوة الدليل الباطني الوجداني، فأما الخطوة الثانية فهي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ وهذه الفِرية الضخمة التي تتناول أعلى المقامات، وأطهر الأعراض، ما كان ينبغي أن تمر هكذا سهلة هينة، وأن تشيع هكذا دون تثبت ولا بينة، وأن تتقاذفها الألسنة وتلوكها الأفواه دون شاهد ولا دليل: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ وهم لم يفعلوا فهم كاذبون إذن، كاذبون عند الله الذي لا يُبدل القول لديه، والذي لا يتغير حكمه، ولا يتبدل قراره، فهي الوصمة الثابتة الصادقة الدائمة التي لا براءة لهم منها، ولا نجاة لهم من عقباها.

هاتان الخطوتان: خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير، وخطوة التثبت بالبينة والدليل، غفل عنهما المؤمنون في حادث الإفك، وتركوا الخائضين يخوضون في عرض رسول الله ﷺ، وهو أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم، فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبدًا بعد هذا الدرس الأليم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

لقد احتسبها الله للجماعة المسلمة الناشئة درسًا قاسيًا، فأدركهم بفضله ورحمته ولم يمسسهم بعقابه وعذابه، فهي فعلة تستحق العذاب العظيم، العذاب الذي يتناسب مع العذاب الذي سببوه للرسول ﷺ وزوجه وصديقه وصاحبه الذي لا يعلم عليه إلا خيرًا، والعذاب الذي يتناسب مع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة وشاع، ومس كل المقدسات التي تقوم عليها حياة الجماعة، والعذاب الذي يناسب خبث الكيد الذي كادته عصبة المنافقين للعقيدة لتقتلعها من جذورها حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم ونبيهم وأنفسهم طوال شهر كامل، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقين! ولكن فضل الله تدارك الجماعة الناشئة، ورحمته شملت المخطئين، بعد الدرس الأليم.

والقرآن يرسم صورة لتلك الفترة التي أفلتَ فيها الزمام، واختلَّت فيها المقاييس، واضطربت فيها القيم، وضاعت فيها الأصول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ لسان يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب! ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾! بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم. إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه، قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ أن تقذفوا عرض رسول الله ﷺ، وأن تدعوا الألم يعصر قلبه وقلب زوجه وأهله، وأن تلوِّثوا بيت الصديق الذي لم يُرم في الجاهلية، وأن تتهموا صحابيًّا مجاهدًا في سبيل الله، وأن تمسوا عصمة رسول الله ﷺ وصلته بربه، ورعاية الله له.. ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي تزلزل له الرواسي، وتضج منه الأرض والسماء.

ولقد كان ينبغي أن تجفل القلوب من مجرد سماعه، وأن تتحرج من مجرد النطق به، وأن تُنكر أن يكون هذا موضوعًا للحديث، وأن تتوجه إلى الله تنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا، وأن تقذف بهذا الإفك بعيدًا عن ذلك الجو الطاهر الكريم: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

وعندما تصل هذه اللمسة إلى أعماق القلوب فتهزها هزًّا، وهي تطلعها على ضخامة ما جنت وبشاعة ما عملت، عندئذ يجيء التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ يَعِظُكُمُ ﴾ في أسلوب التربية المؤثر، في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار، مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ما كان: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع بتلك العظة: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ فالمؤمنون لا يمكن أن يُكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف، وأن يحذروا منه مثل هذا التحذير، ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ على مثال ما بين في حديث الإفك، وكشف عما وراءه من كيد، وما وقع فيه من خطايا وأخطاء: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف، ويعلم مداخل القلوب، ومسارب النفوس، وهو حكيم في علاجها، وتدبير أمرها، ووضع النظم والحدود التي تصلح بها».

[الظلال لقطب ٤/ ٢٤٩٨-٢٥٠٣].

٤٢ ـ معالجة بعض آثار حادث الإفك:

يقول صاحب الظلال: «ثم يمضي في التعقيب على حديث الإفك، وما تخلف عنه من آثار، مكررًا التحذير من مثله، مذكرًا بفضل الله ورحمته، متوعدًا من يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بعذاب الله في الآخرة، ذلك مع تنقية النفوس من آثار المعركة، وإطلاقها من ملابسات الأرض، وإعادة الصفاء إليها والإشراق.. كما تتمثل في موقف أبي بكر ﷺ من قريبه مسطح بن أثاثة الذي خاض في حديث الإفك مع من خاض: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

والذين يرمون المحصنات ـ وبخاصة أولئك الذين تجرأوا على رمي بيت النبوة الكريم ـ إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة، وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها.. بذلك تشيع الفاحشة في النفوس، لتشيع بعد ذلك في الواقع.

من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وذلك جانب من منهج التربية، وإجراء من إجراءات الوقاية، يقوم على خبرة بالنفس البشرية، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرها واتجاهاتها، ومن ثم يعقب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

ومن ذا الذي يعلم أمر هذه النفس إلا الذي خلقها؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذي برأها؟ ومن ذا الذي يرى الظاهر والباطن، ولا يخفى على علمه شيء إلا العليم الخبير؟

ومرة أخرى يذكِّر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

إن الحدث لعظيم، وإن الخطأ لجسيم، وإن الشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء، ولكن فضل الله ورحمته، ورأفته ورعايته.. ذلك ما وقاهم السوء، ومن ثم يذكِّرهم به المرة بعد المرة، وهو يربيهم بهذه التجربة الضخمة التي شملت حياة المسلمين.

فإذا تمثلوا أن ذلك الشر العظيم كان وشيكًا أن يصيبهم جميعًا، لولا فضل الله ورحمته، صور لهم عملهم بأنه اتباع لخطوات الشيطان، وما كان لهم أن يتبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم، وحذَّرهم ما يقودهم الشيطان إليه من مثل هذا الشر المستطير: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقًا غير طريقه المشؤوم! صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن، ويرتجف لها وجدانه، ويقشعر لها خياله! ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ ﴾.

وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذي قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه، وهو نموذج منفر شنيع.

وإن الإنسان لضعيف، معرض للنزعات، عرضة للتلوث، إلا أن يدركه فضل الله ورحمته، حين يتجه إلى الله، ويسير على نهجه.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ ﴾.

فنورُ الله الذي يشرق في القلب يطهره ويزكيه، ولولا فضل الله ورحمته لم يزك من أحد ولم يتطهر، والله يسمع ويعلم، فيزكي من يستحق التزكية، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

وعلى ذكر التزكية والطهارة تجيء الدعوة إلى الصفح والمغفرة بين بعض المؤمنين وبعض ـ كما يرجون غفران الله لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب ـ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

نزلت في أبي بكر ﷺ بعد نزول القرآن ببراءة الصديقة، وقد عرف أن مسطح بن أثاثة كان ممن خاضوا فيه، وهو قريبه، وهو من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر ﷺ ينفق عليه، فآلى على نفسه لا ينفع مسطحًا بنافعة أبدًا.

نزلت هذه الآية تذكِّر أبا بكر ﷺ، وتذكِّر المؤمنين، بأنهم هم يخطؤون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم، فليأخذوا أنفسهم ـ بعضهم مع بعض ـ بهذا الذي يحبونه، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقيه، إن كانوا قد أخطأوا وأساؤوا.

وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية، التي تطهرت بنور الله، أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق ﷺ، أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو، وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحي: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، ويرتفع على منطق البيئة، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، ويحلف: والله لا أنزعها منه أبدًا، ذلك في مقابل ما حلف: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا.

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير، ويغسله من أوضار المعركة، ليبقى أبدًا نظيفًا طاهرًا زكيًّا مشرقًا بالنور». [**الظلال لقطب ٤/ ٢٥٠٣-٢٥٠٥**].

٤٣ ـ وعيد من يقذفون المؤمنات الغافلات:

يقول صاحب الظلال: «ذلك الغفران الذي يُذكِّر الله المؤمنين به، إنما هو لمن تاب عن خطيئة رمي المحصنات وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فأما الذين يرمون المحصنات عن خبث وعن إصرار، كأمثال ابن أُبي فلا سماحة ولا عفو، ولو أفلتوا من الحد في الدنيا؛ لأن الشهود لم يشهدوا فإن عذاب الله ينتظرهم في الآخرة، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

ويجسم التعبير جريمة هؤلاء ويبشعها، وهو يصورها رميًا للمحصنات المؤمنات وهن غافلات غارات، غير آخذات حذرهن من الرمية، وهن بريئات الطوايا مطمئنات لا يحذرن شيئًا؛ لأنهن لم يأتين شيئًا يحذرنه! فهي جريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة، ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة، لعنة الله لهم، وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة، ثم يرسم ذلك المشهد الأخَّاذ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ

وَأَرۡجُلُهُم ﴾ فإذا بعضهم يتهم بعضًا بالحق، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك! وهي مقابلة في المشهد مؤثرة، على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني.

﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ ويجزيهم جزاءهم العدل، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾». [الظلال لقطب ٤/ ٢٥٠٥].

٤٤ ـ ألا يقابل الخطأ بخطأ:

يقول د/ الغضبان: «والمنهج الذي يجب أن يسود في هذا الصدد هو أن لا يقابل الافتراء بافتراء آخر ولا تقابل الإشاعة المؤتفكة بإشاعة أخرى، وأن يتمالك الأخ المفترَى عليه فلا يطلق لسانه في أعراض الآخرين ولو اعتدي عليه حتى تتم براءته وتبرئته، هو موقف أصيل ندعو إليه هذا الأخ في هذا المجال، ونلحظ موطن القدوة من العناصر الثلاثة الذين نيل من عرضهم في حديث الإفك.

أولهم: محمد رسول الله ﷺ، وهو سيد الأمة والبشرية، وهو الحاكم والقائد، وبيده السلطة، وبإشارة واحدة منه يمكنه أن ينهي حياة الوالغين في عرضة، ومع ذلك لم يملك في هذا الأمر بعد أن استشار كبار أصحابه إلا أن يخطب في المسلمين قائلًا على المنبر بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «**أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمتُ منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي**».

وعندما وقعت الأزمة بين الفريقين الأوس والخزرج لم يكن ليملك ﷺ إلا أن يكون حكمًا بينهما رغم أن أحد الفريقين يدافع عن الوالغين في عرض عائشة رضي الله عنها والآخر يهاجمهم، ومع ذلك فقد أرضى الفريقين ولم يتحيز لأحدهما لأنه لا يملك البينة ليرد بها على الفريق المتهم، وحتى عندما تجاوز صفوان رضي الله عنه في ثورته لنفسه وضرب حسان بن ثابت رضي الله عنه على اتهامه لم يسنده رسول الله ﷺ من الخلف ويشجعه على تجاوزه قبل صدور البينة مع أنه يبرئ أحب الناس إليه عائشة رضي الله عنها، وقد حضر حسان وصفوان عند رسول الله ﷺ ولنستمع إلى تلك المحاكمة الهادئة للجنديين المتجاوزين!

قَالَ ابْنُ المعَطَّلِ: يَا رَسُولَ الله، آذَانِي وَهَجَانِي، فَاحْتَمَلَنِي الْغَضَبُ فَضَرَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِحَسَّانَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ، أَتَشَوَّهْتَ عَلَى قَوْمِي أَنْ هَدَاهُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ فِي الَّذِي أَصَابَكَ**»، قَالَ: هِيَ لَك يَا رَسُولَ الله.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إبْرَاهِيمَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْطَاهُ عِوَضًا مِنْهَا بَيْرُحَاءَ، وَهِيَ قَصْرُ بَنِي حُدَيْلَةَ الْيَوْمَ بِالمدِينَةِ وَكَانَتْ مَالًا لِأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى آلِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَعْطَاهَا رَسُولُ الله ﷺ حَسَّانَ فِي ضَرْبَتِهِ وَأَعْطَاهُ سِيرِينَ، أَمَةً قِبْطِيَّةً، فَوَلَدَتْ له عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانَ.

وهكذا كلفت ضربة صفوان لحسان أرضًا وجارية وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت رضي الله عنه بعد عفوه عن صفوان بن المعطل رضي الله عنه، وكان هذا العطاء لمن ينشد الشعر في اتهام زوجته ويمضي في الإشاعة دون توقف.

وثانيهم: هو أبو بكر رضي الله عنه وزوجه أم رومان وقد نزل بهم من البلاء ما لم ينزل بمسلم وأقصى ما قالته أم عائشة التي تعرض عرضها للثلم والإهانة: **أي بنية خفضي عليك الشأن، فو الله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.**

ولم يتمالك أبو بكر رضي الله عنه أن يقول: (**ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر، والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية حيث لا نعبد الله، فيقال لنا في الإسلام!**).

وثالثهم: عائشة رضي الله عنها التي لم تنته عن البكاء حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدها.

وحين ووجهت بالأمر من رسول الله ﷺ يسألها عن الحديث فقالت: (**إني والله قد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث، فوقع في أنفسكم فصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أني منه بريئة لتصدقنني، وإني والله ما أجد لي مثلًا إلا أبا يوسف إذ يقول: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**).

إنها مواقف لا يحمل التاريخ لها مثيلًا من أطهر أهل الأرض يوصمون بشرفهم وعرضهم ومع ذلك فلم يخرج أحد منهم عن طوره، ولا أطلق لسانه في عِرض أحد، وضبط كل واحد منهم أعصابه، وأما الذي خرج عن طوره فهو صفوان بن المعطل رضي الله عنه، وضرب حسان رضي الله عنه بالسيف وكاد الأمر أن يستفحل لولا أن عالجه رسول الله ﷺ.

إنه أدب الإسلام العظيم مع الذين يرددون الإشاعة ويسيرون في الإفك قبل أن تعرف أنها إفك أو إشاعة». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ٥-١١].

٤٥ ـ أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من آيات الإفك:

يقول د/ آل عابد: «أخذ العلماء من الآيات التي نزلت في حديث الإفك أحكامًا وآدابًا من أهمها ما يأتي:

(١) تبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها من الإفك بقرآن يتلى إلى آخر الزمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور:١١].

(٢) أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بحديث الإفك خيرًا لهم، حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوة إيمانهم، قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

(٣) الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظن فيما بينهم، قال تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾﴾.

(٤) تكذيب القائلين بالإفك، قال تعالى: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

(٥) بيان فضل الله على المؤمنين ورأفته بهم، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

(٦) وجوب التثبت من الأقوال قبل نشرها، والتأكد من صحتها، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾﴾.

(٧) النهي عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه، قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

(٨) النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

(٩) بيان فضل الله سبحانه على عباده المؤمنين ورأفته بهم وكرر ذلك تأكيدًا له، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾﴾.

(١٠) النهي عن تتبع خطوات الشيطان التي تؤدي للهلاك، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾.

(١١) الحث على النفقة على الأقارب وإن أساؤوا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

(١٢) غيرة الله تعالى على عباده المؤمنين الصادقين، ودفاعه عنهم، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللعن في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

)١٣) بيان سنة من سُنن الله الجارية في الكون وهي أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب الطيبات، والطيبات يجعلهن من نصيب الطيبين، قال تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾.

(١٤) والناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا على أربعة أقسام:

قال فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ـ عند تعليقه على حديث يتعلق بقصة الإفك ـ: إن الناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسم: وهو أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا، ولم ينطقوا إلا بخير، ولم يصدقوا ولم يكذبوا.

وقسم: سارع إلى التكذيب، وهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب رضي الله عنهما، فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك وبرؤوا عائشة مما نُسب إليها في الحال.

أما القسم الثالث: فكانوا جملة من المسلمين لم يصدقوا ولم يكذبوا ولم ينفوه، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإفك، وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمر هين لا يُعرضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافر، وحاكي الإفك ليس بقاذف، ومن هؤلاء حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما القسم الرابع: فهم الذين جاؤوا بالإفك وعلى رأس هؤلاء عدو الله عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين لعنه الله وهو الذي تولى كبره.

وقد أشار الله عز وجل إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام، وأنه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف، فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

أما القسم الثالث: فقد أشار الله عز وجل إلى أنه ما كان ينبغي لهم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث حيث يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

وقد أثبت الله عز وجل لأهل هذا القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر أنه لن ينفق على مسطح، ولن يتصدق عليه وهو من ذوي قرابته، فقال عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

أما القسم الرابع: وهو جماعة عبد الله بن أبي الذين جاؤوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب، فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر، وأنه لن يقبل منهم توبة، وأنه أنزل عليهم لعنته في الدنيا والآخرة، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

[ينظر: فقه الإسلام، شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ٩/ ٥].

[حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ١/ ٣٨٤-٣٨٨].

المطلب الثالث
الدروس الفقهية

١ ـ مرتكب الكبيرة ليس بكافر:

يقول د/ الشرقاوي: «مذهب أهل السنة والجماعة أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر إلا إذا كان مستحلًّا لها، فإذا كان مستحلًّا لها فهو كافر، ولا يحبط العمل الصالح بارتكاب الكبيرة إلا إذا كان مستحلًّا لها فإذا كان لها مستحلًّا فهو كافر مرتد قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّمَر].

ومن الأدلة التي استدل بها أهل السنة على أن العمل الصالح لا يحبط بارتكاب الكبيرة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢].

فهذه الآية الكريمة نزلت في أعقاب حديث الإفك، وذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان قد حلف أن لا ينفق على مسطح رضي الله عنه بعد أن خاض مع الخائضين في الإفك، وكان مسطح رضي الله عنه قريبًا لأبي بكر رضي الله عنه وكان من المهاجرين البدريين (الذين شهدوا غزوة بدر)، وكان من المساكين ولو كان قذفه للسيدة عائشة محبطًا لعمله لما وصفه الله تعالى بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد أن وقع في القذف، فدل هذا على أن ثواب هجرته لم يحبط بوقوعه في تلك الكبيرة.

يقول الإمام الرازي: احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة، وقالوا إنه سبحانه وصف مسطح بكونه من المهاجرين بعد أن ارتكب كبيرة القذف، فدل هذا على أن ثواب كونه مهاجرًا لم يحبط بإقدامه على القذف» [مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/ ١٩١]. [المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ٢/ ٧٨٦-٧٨٧].

٢ ـ عظمة عقوبة إشاعة الفاحشة:

يقول د/ الزيد: «في حديث الإفك عظمة عقوبة الذين يحبون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، ولا شك أن الذين يشيعونها فعلًا أشد عقوبة، وأشد منهم عقوبة الذين يشيعونها زورًا وبهتانًا واختلاقًا». [فقه السيرة للزيد ٤٨٦].

٣ ـ الأمانة في الشهادة:

يقول د/ أبو فارس: «حين سأل النبي صلى الله عليه وسلم بريرة رضي الله عنها عن عائشة رضي الله عنها، وشدد عليها علي رضي الله عنه في السؤال أجابت بما تعلم، ولم تخف شيئًا من ذلك، لقد قالت: (ما رأيت عليها أمرًا من هذا) وكل الذي أخذته عليها أنها تنام عن عجينها لصغر سنها فتأتي الشياة والطيور فتأكله.

وتتجلى الأمانة في الشهادة أيضًا في موقف زينب بنت جحش زوج الرسول ﷺ، إذ تجاوزت الغيرة بين الضرائر، ووقفت عند أحكام دينها بورعها فقالت تجيب على سؤال الرسول ﷺ إياها عن عائشة: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي**(١)**، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا**». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٩**].

٤ ـ جواز إعطاء الصدقة والزكاة للعصاة:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من هذا أيضًا ـ أي من إعطاء مسطح الصدقة مع ولوغه في عرض عائشة ـ جواز إعطاء الصدقة والزكاة للعصاة، فإنها قد تمنعهم من كثير من الجرائم، وقد تُدني قلوب العصاة، فإن الجفوة تولد الجرائم، والعطاء يرطب النفوس فلا تجفو، وتحس بأن عيشها مؤتلفة مع الجماعة أدنى إلى الراحة». [**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٩٨٩ ط قطر**]. [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٣**].

٥ ـ توخي العدل بين الزوجات:

يقول د/ الزيد: «من فوائد هذه الغزوة مشروعية العدل بين الزوجات، ومن العدل إجراء القرعة بين الزوجات عند إرادة السفر ببعضهن كما فعل الرسول ﷺ في هذه الغزوة، حيث أصابت القرعة عائشة فخرج بها (٢)، مع أن القسم بين نسائه غير واجب عليه على الأرجح.

[**ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢١٤**]. [**فقه السيرة للزيد ٤٧٦**].

ويقول د/ أبو فارس: «إن حرص رسول الله ﷺ على أن يُجري القرعة بين نسائه دليل على تحريه العدل في معاملته مع أزواجه، فهو لا يفضل واحدة منهن على غيرها.

ومن المعلوم أن مصاحبة رسول الله ﷺ فضل وشرف، فينبغي أن لا يقصر هذا الشرف على زوج دون أخرى، وإن أسلم طريق لتوخي العدل الدقيق هو القرعة؛ لأن القرعة تكون نتيجتها بعيدة عن الميل القلبي وغير متأثرة بالهوى والرغبة؛ لأن نتيجتها كما هو معلوم ليست بيد أحد من البشر، وهي وسيلة ترضى بها النفوس، وتطمئن لها القلوب». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٥٩**].

---

(١) أحمي سمعي وبصري: أي أمنعهما من أن أنسب إليهما ما لم يدركاه، ومن العذاب لو كذبت عليهما. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ٤٤٨.

(٢) وتستخدم القرعة إذا تزاحم عدد على من يقدم ولا يمكن اجتماعهم فيه ولا مميز لأحدهما عن الآخر أقرع بينهم، فالقرعة تستخدم لتمييز المراتب المتساوية وكذلك تستخدم القرعة إذا علمنا أن الشيء لأحدهما وجهلناه مثل إذ طلق إحدى زوجاته أو أعتق أحد عبيده وجهل من وقع عليه الطلاق أو العتق أجريت القرعة فالقرعة حينئذ تستخدم لأمرين: ١ـ تمييز المراتب المتساوية ٢ـ إزالة جهالة سبقها علم والله أعلم، وينظر: السعدي، القواعد في الأصول الجامعة ص ٦٧، القاعدة الخامسة والعشرين.

٦ ـ مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تقدم أن النبي ﷺ أقرع بين أزواجه في غزوة بني المصطلق وكان سهم عائشة ﵂ الذي خرج، فأخذها معه، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقرع بين أزواجه في سائر غزواته».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٥٩].

ويقول د/ قريبي: «إن من عدالة الإسلام وسماحته ومراعاته للحقوق الإنسانية، أن المرء إذا كان لديه أكثر من زوجة فإنه يأمره ويطالبه العدل بينهن في المأكل والمشرب والملبس والمبيت لأن لكل واحدة منهن حقًّا، ومن ثم فإنه إذا أراد السفر ببعضهن أرشده الإسلام إلى القرعة بينهن ليكون ذلك أدعى إلى رضى الجميع وعدم وقوع بغضاء وشحناء بينهن؛ لأنه لو اختار واحدة منهن بدون قرعة لكان في ذلك شقاق ونزاع مع بقية الزوجات، لاستوائهن في هذا الحق، فكانت القرعة حاسمة لهذا كله.

ولما كانت غزوة بني المصطلق أقرع رسول الله ﷺ بين نسائه كعادته فأصابت القرعة عائشة فخرج بها ﷺ معه، ودلت الأحاديث الصحيحة أن عائشة ﵂ خرجت وحدها في هذه الغزوة ولم تخرج معه ﷺ امرأة سواها، وأما ما ورد من خروج أم سلمة في هذه الغزوة أيضًا فإنه لا يصح.

وعند ابْنِ إِسْحَاقَ: «حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبّادِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَائِشَةَ عَنْ نَفْسِهَا، حِينَ قَالَ فِيهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا، فَكُلٌّ قَدْ دَخَلَ فِي حَدِيثِهَا عَنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا يُحَدِّثُ بَعْضُهُمْ مَا لَمْ يُحَدِّثْ صَاحِبُهُ، وَكُلٌّ كَانَ عَنْهَا ثِقَةً فَكُلُّهُمْ حَدَّثَ عَنْهَا مَا سَمِعَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلَقِ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ، فَخَرَجَ سَهْمِي عَلَيْهِنَّ مَعَهُ، فَخَرَجَ بِي رَسُولُ الله ﷺ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٧، وينظر: مسند أبي يعلى٤/ ٤٥٠، ٥/ ٥٥٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَصَابَ عَائِشَةَ الْقُرْعَةَ فِي غَزْوَةَ بني الـمُصْطَلِقِ. [مجمع الزوائد ٤/ ٥٩٢ كتاب النكاح (٧٦٩٨)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى والطبراني باختصار، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات، و٩/ ٣٦٩-٣٧٠ كتاب المناقب باب حديث الإفك رقم ١٥٢٩٦، وقال الهيثمي: رواه البزار، وفيه: محمد بن عمرو، وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات].

ونسبه السيوطي للبزار وابن مردويه، وقال: بسند حسن. [الدرر المنثور ٥/ ٢٧].

وبوب البخاري بقوله: (بَابُ حَمْلِ اَلرَّجُلِ اِمْرَأَتَهُ فِي اَلْغَزْوِ دُونَ بَعْضِ نِسَائِهِ)، ثم ذكر طرفًا من حديث عائشة في قصة الإفك، وهو: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ يَخْرُجُ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ». [البخاري في الجهاد والسير (٢٨٧٩)].

قال ابن حجر: «قَوْلُهُ: (بَابُ حَمْلِ اَلرَّجُلِ اِمْرَأَتَهُ فِي اَلْغَزْوِ دُونَ بَعْضِ نِسَائِهِ) ذَكَرَ فِيهِ طَرَفًا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ فِي قِصَّة اَلْإِفْك وَهُوَ ظَاهِرٌ فِيمَا تَرْجَمَ لَهُ، وَسَيَأْتِي شَرْحُ حَدِيثِ اَلْإِفْك تَامًّا فِي اَلتَّفْسِيرِ، وَفِيهِ اَلتَّصْرِيحُ بِأَنَّ حَمْلَ عَائِشَةَ مَعَهُ كَانَ بَعْدَ اَلْقُرْعَةِ بَيْنَ نِسَائِهِ».

[فتح الباري ٦/ ٧٨، وقع في فتح الباري الطبعة السلفية «قبل أن ينزل الحجاب» وهو خطأ مطبعي لأن أحاديث الإفك صريحة في وقوع هذه الحادثة بعد نزول الحجاب. وهو كذلك في الفتح، النسخة الحلبية ٦/ ٤١٨].

قلت: ومعلوم أن قصة الإفك كانت في غزوة بني المصطلق، وبهذا التقرير يتضح أن عائشة كانت وحدها في غزوة بني المصطلق؛ لذا فقد قال ابن حجر: «قَوْله: (فَخَرَجَ سَهْمِي) هَذَا يُشْعِر بِأَنَّهَا كَانَتْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَة وَحْدَهَا، لَكِنْ عِنْدَ الْوَاقِدِيِّ مِنْ طَرِيق عَبَّاد بْن عَبْد الله عَنْهَا أَنَّهَا خَرَجَتْ مَعَهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَة أَيْضًا أُمُّ سَلَمَة [ينظر الحديث في: المغازي للواقدي ٢/ ٤٢٦]، وَكَذَا فِي حَدِيث اِبْن عُمَر، وَهُوَ ضَعِيفٌ [ينظر الحديث في مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٢٣٧، ونسبه للطبراني وقال: فيه إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي وهو كذاب]، وَلَمْ يَقَع لِأُمِّ سَلَمَة فِي تِلْكَ الْغَزْوَة ذِكْر، وَرِوَايَة اِبْن إِسْحَاق [ينظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٧] مِنْ رِوَايَة عَبَّاد ظَاهِرَة فِي تَفَرُّد عَائِشَة بِذَلِكَ وَلَفْظه «فَخَرَجَ سَهْمِي عَلَيْهِنَّ، فَخَرَجَ بِي مَعَهُ». [فتح الباري ٨/ ٤٥٨].

وأما حكم العمل بالقرعة، فالجمهور من العلماء على القول بذلك.

والمشهور عن الحنفية والمالكية عدم اعتبارها. [ينظر: شرح صحيح النووي على مسلم ٥/ ٦٢٩، ٦٤١، وزاد المعاد لابن القيم ١/ ٥٥، وفتح الباري ٥/ ٢٩٣- ٢٩٤، وسبل السلام للصنعاني ٣/ ١٦٥، ونيل الأوطار للشوكاني ٦/ ٢٤٥، وعون المعبود شرح سنن أبي داود ٦/ ١٧٦].

والأحاديث ترد عليهم فإنها صريحة في ذلك». [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي٤٣٨-٤٤١].

٧ ـ ثبوت إقامة الحد على القاذفين:

يقول د/ قريبي: «تقدم الحديث الوارد في ذلك عند أصحاب السنن وأحمد وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل القرآن ببراءة عائشة، أمر بحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، فضربوا حدهم.

والخلاف في عبد الله بن أُبي ابن سلول، فالأكثر على أنه لم يقم عليه حد، وقد تقدم تحقيق ذلك في مبحث إقامة الحد على القاذفين». [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٤٦].

٨ ـ مشروعية حد القذف:

يقول الشيخ أبو زهرة: «أحسب أن حد القذف قد شرع لهذه المناسبة التي شاعت فيها قالة السوء، وحديث الإفك؛ لأن الآيات جاءت متصلًا بعضها ببعض إذ أنه ذكر فيها نصاب الشهادة بالزنى، وهو أربعة شهداء وأنه إذا لم يكن الشهداء الأربعة، فإن الرامي بالزنا يكون كاذبًا، وهذا الحد هو جزاء الكذب،

وقد ذكر الله تعالى ذلك الحد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾[النور].

ونلاحظ أن الآية دلت على عقوبة أصلية مادية، وهي ضربهم ثمانين جلدة، وذكرت عقوبتين تابعتين معنويتين.

أحدهما: ألا تقبل لهم شهادة أبدًا؛ لأنهم كذبوا في مقام يجب الاحتراس فيه؛ ولأن الله تعالى وصفهم بأنهم الكاذبون، وحصرهم في وصف الكذب، فقال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾[النور]، وكيف تُقبل شهادة من حصر في الكذب بحكم الله تعالى؛ ولذلك منع قبول شهادتهم أبديًا، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً﴾[النور: ٤].

الثانية: من العقوبات التبعية وصفهم بالفسق، وهذا الوصف يستمر إذا لم يتوبوا، فالاستثناء بالتوبة إنما هو من وصف الفسق، فلا يكون التائب توبة نصوحًا فاسقًا، بل لا يكون مذنبًا؛ لأن التوبة تجب الذنوب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه].

ولقد طبَّق رسول الله ﷺ حد القذف على مسطح وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش التي منعها دينها من أن تخوض في حديث الإفك مع أنها الضرة التي كانت تناصي عائشة رضي الله عنها المنزلة عند رسول الله ﷺ وكان قد نزل حد القذف من قبل.

والقذف الرمي بالزنا، سواء أكان رميًا للرجل أو المرأة». [**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٣٨**].

ويقول د/ أبو فارس: «ثبتت مشروعية حد القذف بإقامته ﷺ على من ثبتت إدانته بتهمة القذف، فجَلد القذفة ثمانين جلدة، وفوق ذلك لا تُقبل شهادته أبدًا، وهو فاسق، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾[النور]».
[**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧١-٧٢**].

٩ ـ حد اللعان:

يقول الشيخ أبو زهرة: «واللعان نزل عقب بيان حد القذف وقبل حديث الإفك، وحد القذف سببه رمي الرجل أو المرأة بالزنا إذا لم يكن بينهما عقد زواج، أي يكون المقذوف ليس زوجًا للقاذف.

أما اللعان فإنه يكون عندما يرمي الزوج زوجته، واللعان أن يحلف الزوج الرامي أربع مرات أنه صادق فيما يرمي به زوجته من الزنا أو نفي الولد منه، والخامسة أن لعنة الله تعالى عليه إن كان من الكاذبين، فالحلف تضمن سلبًا وإيجابًا، والإيجاب كان بالحلف على وقوعه، والسلب كان بالحلف باستحقاق لعنة الله إن كان كاذبًا.

وقد ثبت بقوله تعالى بعد آية حد القذف: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [النور].

وكان اللعان إذا كانت الزوجية قائمة وقت الرمي بالزنا بأن تكون قائمة حقيقة، أو حكمًا بأن تكون في عدة الطلاق الرجعي.

واختص رمي الزوج لزوجته بألا تكون شهادة أربعة؛ لأنه لا سبيل لأن يحضر أربعة يشهدون واقعة زنى زوجته؛ ولأن الغيظ الذي يكون عليه الزوج لابد أن يطفأ ولو بالقول في حضرة الحاكم.

ولقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، إن الرجل يجد الرجل مع أهله، وإن قتله قتلتموه، وإن تكلم ضربتموه، وإن سكت، سكت على غيظ، اللهم بيِّن، فنزلت آية اللعان مبينة كاشفة.

وإنه إذا تم اللعان فرق بين الزوجين، فرقة أبدية عند جمهور الفقهاء، وأجاز أبو حنيفة العودة إليها بعقد جديد ومهر جديد إذا كذَّب نفسه.

وقد قال بعض الناس في أيامنا هذه: هل يطبق حد اللعان إذا رمت المرأة زوجها بالزنا، ولم يكن عندها شهداء أربعة؟

ونقول في الجواب عن ذلك: إن اللعان ورد بالنص في حال ما إذا رمى الزوج زوجته، وكان تفصيله في الحلف أربعة وهي إيجابية، وواحد سلبي، أما المرأة، فكان أربعة سلبية وواحد إيجابي.

ولا يمكن ثبوت الحدود إلا بالنص، إذ أنها تدرأ بالشبهات، فإن النبي ﷺ يقول: «**ادْرَؤُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَإِنَّ الإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ**». [الترمذي في الحدود (١٤٨٩)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

ولا يمكن أن نثبته بالقياس؛ لأن علة القياس غير ثابتة بقدر واحد في المقيس والمقيس عليه، إذ أن المرأة وعاء النسل للرجل، فمن حقه أن ينفي نسب الولد إذا كان من غيره؛ ولأن زنى المرأة أشد خطرًا على الأنساب من زنى الرجل، فليسا مشتركين في علة التخفيف من القذف إلى اللعان؛ ولأن المرأة في بيت الرجل، فالحكم منه بالزنا عليها قد يكون من غير حضور شهداء يشهدون.

أما الرجل فالزنا منه في أكثر الأحوال يكون خارج المنزل، فعلمها به، إما أن يكون من غير بينة، بل بالحدس والتخمين أو بإخبار الناس من غير تعيين المخبرين، وذلك هو الغالب، وإما أن يكون بمخبرين معينين، وفي هذه الحال تثبت الرمي بالزنا، ويكون حينئذ حد القذف، وما يترتب عليه من عقوبات مادية وتبعية، والله ﷻ هو العليم بذات الصدور». [**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٤٠-٨٤١**].

١٠ ـ حد الزنا:

يقول الشيخ أبو زهرة: «الآيات تُتلى وإليك آية حد الزنا، وآية حد القذف، وآيات الإفك، وهذا التوالي الكافي ينبئ عن أن يكون النزول في وقت واحد أو متقارب، ومناسبة واحدة.

ونشير في هذا المقام إلى أن الزنا وردت فيه آيات يبين بعضها بعضًا.

أولها: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾ [النساء].

فهاتان الآيتان تفيد أن ثمة عقوبة تخص المرأة، وأخرى تعم الرجل والمرأة، فأما التي تخص المرأة، فإمساكها في البيوت حتى تموت أو يجعل الله تعالى لها سبيلًا بالزواج، كما هو الظاهر الواضح.

وأما التي تعم الرجل والمرأة، فهو الإيذاء، وقد جاءت السنة بعقوبةٍ للرجل تقابل عقوبة المرأة التي تخصها، وهو التغريب سنة، وهذا يقابل الإمساك في البيوت.

والإيذاء لهما تبينته آية النور، ولم تكن ناسخة، كما جاء على أقلام كثيرين من الكتاب؛ لأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا تعذر التوفيق بين النصين، والجمع هنا ممكن، وهو واجب؛ لأن كل آية تتمم الأخرى أو تبينها، كما في الآيات الواردة في عقوبة الزنا.

والإيذاء المبين في سورة النور هو قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [النور].

وجاءت بعد ذلك آيات القذف، ثم آيات اللعان ثم حديث الإفك والبهتان الذي يصور جريمة الرمي بالزنا، وأنها تشيع الفاحشة في الدين، وتفسد الجماعة، وتجعلها تعيش في مجتمع معتم بالرذيلة، والاستهانة بها.

ويجب التنبيه هنا إلى أمرين:

أحدهما: أننا لا نقول جازمين أن هذه الآيات المتعلقة بهذه الحدود، قد نزلت كلها عقب غزوة بني المصطلق أو في أثنائها، أو عند حديث الإفك، والذي يغلب علينا أن حد القذف والزنا قد نزل قبلها بقليل أو بكثير كما أشرنا؛ ولذلك طبق حد القذف على الذين ارتكبوا ذلك الإثم، ولا يقال أنه قد طبقت عليهم عقوبة، لم تكن ثابتة وقت ارتكابهم ما حقت عليهم بسببها، وأن العقوبات تطبق على الحوادث اللاحقة ولا تطبق على الحوادث السابقة، كما يقرر علماء القانون الوضعي، وإن كان في ذلك القول نظر يوجب تمحيصه.

التنبيه الثاني: أن العقوبات في الإسلام تسير سيرًا ضروريًّا مع منازل المرتكبين، فتكبر العقوبة مع كبر المجرم، وتصغر مع صغره؛ لأن الجريمة مهانة، والمهانة تهون على الصغير؛ لأن نفسه مهينة في نظره، والمهانة من ذي المنزلة أمر كبير.

ولذلك جعل الإسلام العقوبة المقدرة على العبد نصفها إذا وقعت الجريمة من الحر، وقد قال تعالى في شأن الإماء: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ [النساء: ٢٥].

فإذا كانت الحرة إذا زنت تجلد مائة، فإنه إذا زنت الأمة تجلد خمسين.

وكذلك الأمر بالنسبة للعبد، وكذلك الأمر لكل الحدود، لا فرق بين حد وحد، وكل ذلك في العقوبات القابلة للتنصيف.

ولقد أجمع الفقهاء على أنه يجب تخفيف ما على العبد بعد تنصيفه، فيكون السوط الذي يجلد به العبد أخف من سوط الحر». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٤١-٨٤٢].

١١ ـ حكم من قذف عائشة ﵂ بما برَّأها الله منه:

يقول د/ قريبي: «قال ابن تيمية في الصارم المسلول تحت عنوان: حكم من سب عائشة ﵂: قال القاضي أبو يعلى: من قذف عائشة بما برأها الله منه كفر بلا خلاف. وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد. وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم.

ثم ذكر بعض الوقائع التي قُتل فيها من رماها ﵂ بعد نزول القرآن ببراءتها.

[الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ ص ٥٦٥-٥٦٧، ٥٧١].

وقال ابن القيم: اتفقت الأمة على كفر قاذفها. [زاد المعاد ١/ ٤١].

وقال ابن كثير ـ تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النور].

أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة ﵂ بعد هذا ورماها بما رماها بعد هذا الذي ذُكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن. [تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٦].

وقال بدر الدين الزركشي: من قذفها فقد كفر لتصريح القرآن الكريم ببراءتها.

[الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٥٢ طبع المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٣٩٠ هـ].

وقال السيوطي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ [النور: ١١] الآيات: قال: نزلت في براءة عائشة فيما قذفت به، فاستدل به الفقهاء على أن قاذفها يقتل لتكذيبه لنص القرآن، قال العلماء:

قذف عائشة كُفر لأن الله سبح نفسه عند ذكره (الضمير يعود على قصة الإفك)، فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝١٦﴾، كما سبح نفسه عند ذكر ما وصفه به المشركون من الزوجة والولد.

[الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٦٠، وينظر: المحلى لابن حزم ١٣/ ٥٠٤، والشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض ٢/ ٣٠٩، والروض الأنف للسهيلي ٦/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠، وكتاب محمد الخرشي على مختصر خليل ٥/ ٣١٦، والإقناع لشرف الدين الحجاوي الحنبلي ٤/ ٢٩٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع لمنصور بن يونس البهوتي الحنبلي ٦/ ١٧١، وأحكام المرتدين في الشريعة الإسلامية للدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي ص ١١١].

وقال النووي أثناء تعداد فوائد حديث الإفك: «الحادية والأربعون: براءة عائشة من الإفك، وهي براءة قطعية بنص القرآن العزيز، ولو تشكك فيها إنسان ـ والعياذ بالله ـ لصار كافرًا مرتدًّا بإجماع المسلمين.

قال ابن عباس وغيره: لم تزن امرأة نبي من الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وهذا إكرام من الله تعالى لهم». [شرح صحيح مسلم للنووي ٥/ ٦٤٣]. [مرويات غزوة بني المصطلق ٤٥٦-٤٥٨].

١٢ ـ كفر من قذف أمهات المؤمنين رضي الله عنهن:

يقول د/ الشرقاوي: «حاصل القول أن من قذف عائشة رضي الله عنها بعد نزول براءتها فهو كافر مرتد باتفاق أهل العلم، وفي بقية أمهات المؤمنين رضي الله عنهن قولان أصحهما أنهن كعائشة رضي الله عنهن.

قال الآلوسي: «وحكم رمي سائر أمهاتهم حكم رميها ـ أي عائشة ـ وكذا حكم رمي سائر أزواج الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وكذا أمهاتهم، وعندي أن حكم رمي بنات النبي ﷺ كذلك لا سيما بضعته الطاهرة الكريمة فاطمة الزهراء صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم». [روح المعاني للآلوسي ١٨/ ١٢٨].

وقال القاضي عياض: «ومن سب غير عائشة من أزواج النبي ﷺ ففيه قولان: أحدهما: يقتل لأنه سب النبي ﷺ بسب وقذف حليلته، والآخر أنهن كسائر الصحابة يجلد القاذف حد المفتري ـ القذف ـ والمختار هو القول الأول]. [شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا للقاضي عياض ٥/ ٥٣٤ مطبعة المدني د.ت].

وذكر ابن تيمية في كتابه الصارم المسلول أن قذف أم المؤمنين عائشة كفر بلا خلاف، وفي قذف غيرها من أمهات المؤمنين قولان أصحهما أنه كقذف أم المؤمنين عائشة يكفر فاعله» [يراجع: الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ ص٥٦٥- ٥٦٧ ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٨ هـ سنة ١٩٧٨م].

[المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ٢/ ٧٨٥-٧٨٦].

قال الإمام السهيلي: «فَإِنْ قَذَفَ قَاذِفٌ الْيَوْمَ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الـمُؤْمِنِينَ سِوَى عَائِشَةَ، فَيَتَوَجَّهُ فِيهِ لِلْفُقَهَاءِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ كَمَا يَقْتَضِيهِ عُمُومُ التَّنْزِيلِ، وَكَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ بِالَّذِينَ قَذَفُوا أَهْلَهُ قَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِبَرَاءَتِهَا، وَأَمَّا بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِبَرَاءَتِهَا فَيُقْتَلُ قَاذِفُهَا قَتْلَ كُفْرٍ وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ وَلَا يُورَثُ؛ لِأَنَّهُ كَذَّبَ اللهَ تَعَالَى.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: فِي قَاذِفِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ ـ أَنْ يُقْتَلَ أَيْضًا، وَبِهِ كَانَ يَأْخُذُ شَيْخُنَا ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ وَيَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب] الْآيَةُ، وَإِذَا قَذَفَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ سَبَّهُ، فَمِنْ أَعْظَمِ الْإِذَايَةِ أَنْ يُقَالَ عَنْ الرَّجُلِ قَرْنَانٌ (**القرنان**: هو الذي يشارَك في امرأته، كأنه يقرن به غيره، أو هو نعت سوء في الرجل الذي لا غيرة له، قال الأزهري: هذا من كلام الحاضرة، ولم أر البوادي لفظوا به ولا عرفوه)، وَإِذَا سُبَّ نَبِيٌّ بِمِثْلِ هَذَا فَهُوَ كُفْرٌ صُرَاحٌ، وَقَدْ قَالَ الـمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] أَيْ خَانَتَا فِي الطَّاعَةِ لَهُمَا، وَالْإِيمَانِ، وَمَا بَغَتْ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ، أَيْ مَا زَنَتْ».

[الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٤٤٩-٤٥٠، وينظر للتفصيل: حديث الإفك للمقدسي ص ٨٦-٩٧].

١٣ ـ جواز الغيبة عند أداء الشهادة:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من قول بريرة رضي الله عنها وشهادتها في عائشة رضي الله عنها جواز الغيبة عند أداء الشهادة، في مجلس القاضي أو أمام الحاكم». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس٦٩**].

١٤ ـ الحنث في اليمين لفعل الخير:

يقول د/ أبو فارس: «وتعتبر يمين أبي بكر رضي الله عنه منعقدة، ولا يجب الوفاء بها، بل يستحب الحنث فيها ومن ثم إخراج الكفَّارة، أخذًا بحديث رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِهَا وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ**». [**مسلم في الأيمان (١٦٥٠، ١٦٥١)، وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك في الموطأ، والدارمي وأحمد في المسند**].

ولقد التزم أبو بكر رضي الله عنه بهذا فأعاد النفقة على مسطح وكفر عن يمينه». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٣**].

١٥ ـ استئذان الزوج في خروج الزوجة:

يقول د/ أبو فارس: «المرأة لا تخرج من بيت زوجها إلا بإذنه، حتى ولو كانت تريد الخروج إلى بيت أبيها وأمها وزيارتها.

ويستفاد هذا من استئذان عائشة للنبي ﷺ إلى بيت أبيها، ولو كان الأمر مباحًا لما استأذنت فيه».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٣].

١٦ ـ فوائد مجملة ذكرها ابن حجر في الفتح:

قال الحافظ ابن حجر: «وَفِي هَذَا الْحَدِيث مِنْ الْفَوَائِد غَيْرُ مَا تَقَدَّمَ:

جَوَازُ الْحَدِيث عَنْ جَمَاعَة مُلَفَّقًا مُجْمَلًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْبَحْث فِيهِ.

وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّة الْقُرْعَة حَتَّى بَيْنَ النِّسَاء وَفِي الْمُسَافَرَة بِهِنَّ.

وَالسَّفَر بِالنِّسَاءِ حَتَّى فِي الْغَزْو.

وَجَوَاز حِكَايَة مَا وَقَعَ لِلْمَرْءِ مِنْ الْفَضْل وَلَوْ كَانَ فِيهِ مَدْح نَاسٍ وَذَمُّ نَاسٍ إِذَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ إِزَالَة تَوَهُّم النَّقْصِ عَنْ الْحَاكِي إِذَا كَانَ بَرِيئًا عِنْدَ قَصْد نُصْح مَنْ يَبْلُغُهُ ذَلِكَ لِئَلَّا يَقَعَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ سَبْقٍ، وَأَنَّ الِاعْتِنَاءَ بِالسَّلَامَةِ مِنْ وُقُوعِ الْغَيْرِ فِي الْإِثْم أَوْلَى مِنْ تَرْكِهِ يَقَعُ فِي الْإِثْمِ وَتَحْصِيلِ الْأَجْرِ لِلْمَوْقُوعِ فِيهِ.

وَفِيهِ اِسْتِعْمَالُ التَّوْطِئَةِ فِيمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ.

وَأَنَّ الْهَوْدَجَ يَقُومُ مَقَامَ الْبَيْتِ فِي حَجْبِ الْمَرْأَةِ.

وَجَوَازُ رُكُوبِ الْمَرْأَةِ الْهَوْدَجَ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَشُقُّ عَلَيْهِ حَيْثُ يَكُونُ مُطِيقًا لِذَلِكَ.

وَفِيهِ خِدْمَةُ الْأَجَانِبِ لِلْمَرْأَةِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ.

وَجَوَازُ تَسَتُّرِ الْمَرْأَةِ بِالشَّيْءِ الْمُنْفَصِلِ عَنْ الْبَدَنِ.

وَتَوَجُّه الْمَرْأَةِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهَا وَحْدَهَا وَبِغَيْرِ إِذْنٍ خَاصٍّ مِنْ زَوْجِهَا بَلْ اِعْتِمَادًا عَلَى الْإِذْنِ الْعَامِّ الْمُسْتَنِدِ إِلَى الْعُرْفِ الْعَامِّ.

وَجَوَازُ تَحَلِّي الْمَرْأَةِ فِي السَّفَرِ بِالْقِلَادَةِ وَنَحْوِهَا.

وَصِيَانَةُ الْمَالِ وَلَوْ قَلَّ لِلنَّهْيِ عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ، فَإِنَّ عِقْدَ عَائِشَةَ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَهَبٍ وَلَا جَوْهَرٍ.

وَفِيهِ شُؤْمُ الْحِرْص عَلَى الْمَالِ؛ لِأَنَّهَا لَوْ لَمْ تُطِلْ فِي التَّفْتِيش لَرَجَعَتْ بِسُرْعَةٍ، فَلَـمَّا زَادَ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ أَثَّرَ مَا جَرَى، وَقَرِيبٌ مِنْهُ قِصَّةُ الْمُتَخَاصِمَيْنِ حَيْثُ رُفِعَ عِلْمُ لَيْلَةِ الْقَدْر بِسَبَبِهِمَا؛ فَإِنَّهُمَا لَمْ يَقْتَصِرَا عَلَى مَا لَا بُدَّ مِنْهُ بَلْ زَادَا فِي الْخِصَام حَتَّى اِرْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهمَا فَأَثَّرَ ذَلِكَ بِالرَّفْعِ الْمَذْكُورِ.

وَتَوَقُّفُ رَحِيلِ الْعَسْكَرِ عَلَى إِذْنِ الْأَمِيرِ.

وَاسْتِعْمَالُ بَعْضِ الْجَيْشِ سَاقَةً يَكُونُ أَمِينًا؛ لِيَحْمِلَ الضَّعِيفَ، وَيَحْفَظَ مَا يَسْقُطُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ.

وَالِاسْتِرْجَاعُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ.

وَتَغْطِيَةُ الْمَرْأَةِ وَجْهَهَا عَنْ نَظَرِ الْأَجْنَبِيِّ.

وَإِطْلَاقُ الظَّنِّ عَلَى الْعِلْم، كَذَا قِيلَ، وَفِيهِ نَظَرٌ قَدَّمْتُهُ.

وَإِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ، وَعَوْنُ الْمُنْقَطِعِ، وَإِنْقَاذُ الضَّائِعِ، وَإِكْرَامُ ذَوِي الْقَدْر وَإِيثَارُهُمْ بِالرُّكُوبِ، وَتَجَشُّمُ الْمَشَقَّةِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

وَحُسْنُ الْأَدَبِ مَعَ الْأَجَانِبِ خُصُوصًا النِّسَاءَ لَا سِيَّمَا فِي الْخَلْوَةِ.

وَالْمَشْيُ أَمَامَ الْمَرْأَةِ لِيَسْتَقِرَّ خَاطِرَهَا وَتَأْمَنَ مِمَّا يُتَوَهَّم مِنْ نَظَرِهِ لِمَا عَسَاهُ يَنْكَشِفُ مِنْهَا فِي حَرَكَةِ الْمَشْيِ.

وَفِيهِ مُلَاطَفَةُ الزَّوْجَة وَحُسْنُ مُعَاشَرَتِهَا وَالتَّقْصِيرُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ إِشَاعَة مَا يَقْتَضِي النَّقْص وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ، وَفَائِدَةُ ذَلِكَ أَنْ تَتَفَطَّنَ لِتَغْيِيرِ الْحَالِ فَتَعْتَذِرُ أَوْ تَعْتَرِفُ.

وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الـمَرِيضِ أَنْ يُعْلِمُوهُ بِمَا يُؤْذِي بَاطِنَهُ لِئَلَّا يَزِيد ذَلِكَ فِي مَرَضِهِ.

وَفِيهِ السُّؤَالُ عَنْ الـمَرِيضِ.

وَإِشَارَةٌ إِلَى مَرَاتِبِ الْهِجْرَانِ بِالْكَلَامِ وَالْمُلَاطَفَةِ، فَإِذَا كَانَ السَّبَبُ مُحَقَّقًا فَيُتْرَكُ أَصْلًا، وَإِنْ كَانَ مَظْنُونًا فَيُخَفَّفُ، وَإِنْ كَانَ مَشْكُوكًا فِيهِ أَوْ مُحْتَمَلًا فَيَحْسُنُ التَّقْلِيلُ مِنْهُ لَا لِلْعَمَلِ بِمَا قِيلَ بَلْ لِئَلَّا يُظَنُّ بِصَاحِبِهِ عَدَمَ الْمُبَالَاةِ بِمَا قِيلَ فِي حَقِّهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَوَارِمِ الـمُرُوءَةِ.

وَفِيهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ لِحَاجَةٍ تَسْتَصْحِبُ مَنْ يُؤْنِسُهَا أَوْ يَخْدِمُهَا مِمَّنْ يُؤْمَن عَلَيْهَا.

وَفِيهِ ذَبُّ الـمُسْلِمِ عَنْ الـمُسْلِمِ خُصُوصًا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ، وَرَدْعُ مَنْ يُؤْذِيهِمْ وَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ بِسَبِيلٍ.

وَبَيَانُ مَزِيدِ فَضِيلَةِ أَهْلِ بَدْرٍ.

وَإِطْلَاقُ السَّبِّ عَلَى لَفْظ الدُّعَاء بِالسُّوءِ عَلَى الشَّخْص.

وَفِيهِ الْبَحْثُ عَنْ الْأَمْرِ الْقَبِيحِ إِذَا أُشِيعَ وَتُعْرَفُ صِحَّتَهَ وَفَسَادَهُ بِالتَّنْقِيبِ عَلَى مَنْ قِيلَ فِيهِ هَلْ وَقَعَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا يُشْبِهُهُ أَوْ يَقْرَبُ مِنْهُ، وَاسْتِصْحَابُ حَالِ مَنْ أُتُّهِمَ بِسُوءٍ إِذَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مَعْرُوفًا بِالْخَيْرِ إِذَا لَمْ يَظْهَر عَنْهُ بِالْبَحْثِ مَا يُخَالِف ذَلِكَ.

وَفِيهِ فَضِيلَةٌ قَوِيَّةٌ لِأُمِّ مِسْطَحٍ لِأَنَّهَا لَمْ تُحَابِ وَلَدَهَا فِي وُقُوعِهِ فِي حَقِّ عَائِشَةَ بَلْ تَعَمَّدَتْ سَبَّهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَفِيهِ تَقْوِيَةٌ لِأَحَدِ الِاحْتِمَالَيْنِ فِي قَوْله ﷺ عَنْ أَهْل بَدْر: «**إِنَّ اللهَ قَالَ لَهُمْ: اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، وَأَنَّ الرَّاجِحَ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ الذُّنُوبَ تَقَعُ مِنْهُمْ لَكِنَّهَا مَقْرُونَة بِالْمَغْفِرَةِ تَفْضِيلًا لَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ، وَمَرْجُوحِيَّةُ الْقَوْلِ الْآخَرِ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَصَمَهُمْ فَلَا يَقَعُ مِنْهُمْ ذَنْبٌ، نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّد بْنُ أَبِي جَمْرَةَ نَفَعَ اللهُ بِهِ.

وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ التَّسْبِيحِ عِنْدَ سَمَاعِ مَا يَعْتَقِدُ السَّامِعُ أَنَّهُ كَذِبٌ، وَتَوْجِيهُهُ هُنَا أَنَّهُ ﷻ يُنَزَّهُ أَنْ يَحْصُلَ لِقَرَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَدْنِيسٌ، فَيُشْرَعُ شُكْرُهُ بِالتَّنْزِيهِ فِي مِثْلِ هَذَا، نَبَّهَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْر بْنُ الْعَرَبِيُّ.

وَفِيهِ تَوَقُّفُ خُرُوجِ الْمَرْأَةِ مِنْ بَيْتِهَا عَلَى إِذْنِ زَوْجِهَا وَلَوْ كَانَتْ إِلَى بَيْتِ أَبَوَيْهَا.

وَفِيهِ الْبَحْثُ عَنِ الْأَمْرِ الْمَقُولِ مِمَّنْ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَقُولُ فِيهِ.

وَالتَّوَقُّفُ فِي خَبَرِ الْوَاحِدِ وَلَوْ كَانَ صَادِقًا، وَطَلَبُ الِارْتِقَاءِ مِنْ مَرْتَبَةِ الظَّنِّ إِلَى مَرْتَبَةِ الْيَقِينِ، وَأَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ إِذَا جَاءَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ أَفَادَ الْقَطْعَ لِقَوْلِ عَائِشَةَ ﵂: «لِأَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا»، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى عَدَدٍ مُعَيَّنٍ.

وَفِيهِ اِسْتِشَارَةُ الْمَرْءِ أَهْلَ بِطَانَتِهِ مِمَّنْ يَلُوذُ بِهِ بِقَرَابَةٍ وَغَيْرِهَا، وَتَخْصِيصُ مَنْ جُرِّبَتْ صِحَّةُ رَأْيِهِ مِنْهُمْ بِذَلِكَ وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ أَقْرَبَ.

وَالْبَحْثُ عَنْ حَالِ مَنْ اُتُّهِمَ بِشَيْءٍ، وَحِكَايَةُ ذَلِكَ لِلْكَشْفِ عَنْ أَمْرِهِ وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ غِيبَةً.

وَفِيهِ اِسْتِعْمَالُ: «لَا نَعْلَم إِلَّا خَيْرًا» فِي التَّزْكِيَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَافٍ فِي حَقِّ مَنْ سَبَقَتْ عَدَالَتُهُ مِمَّنْ يُطَّلَعُ عَلَى خَفِيِّ أَمْرِهِ.

وَفِيهِ التَّثَبُّتُ فِي الشَّهَادَةِ.

وَفِطْنَةُ الْإِمَامِ عِنْدَ الْحَادِثِ الْمُهِمِّ.

وَالِاسْتِنْصَارُ بِالْأَخِصَّاءِ عَلَى الْأَجَانِبِ.

وَتَوْطِئَةُ الْعُذْرِ لِمَنْ يُرَادُ إِيقَاعُ الْعِقَابِ بِهِ أَوْ الْعِتَابُ لَهُ.

وَاسْتِشَارَةُ الْأَعْلَى لِمَنْ هُوَ دُونَهُ.

وَاسْتِخْدَامُ مَنْ لَيْسَ فِي الرِّقِّ.

وَأَنَّ مَنِ اِسْتَفْسَرَ عَنْ حَالِ شَخْصٍ فَأَرَادَ بَيَانَ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ فَلْيُقَدِّمْ ذِكْرَ عُذْرِهِ فِي ذَلِكَ إِنْ كَانَ يَعْلَمُهُ كَمَا قَالَتْ بَرِيرَةُ فِي عَائِشَةَ حَيْثُ عَابَتْهَا بِالنَّوْمِ عَنِ الْعَجِينِ، فَقَدَّمَتْ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ.

وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ لَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ إِلَّا بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَجْزِمْ فِي الْقِصَّةِ بِشَيْءٍ قَبْلَ نُزُولِ الْوَحْيِ، نَبَّهَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي جَمْرَةَ نَفَعَ اللهُ بِهِ.

وَأَنَّ الْحَمِيَّةَ لله وَرَسُولِهِ لَا تُذَمُّ.

وَفِيهِ فَضَائِلُ جَمَّةٌ لِعَائِشَةَ وَلِأَبَوَيْهَا وَلِصَفْوَانَ وَلِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ وَسَعْدِ بْن مُعَاذَ وَأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ.

وَفِيهِ أَنَّ التَّعَصُّبَ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ يُخْرِجُ عَنْ اِسْمِ الصَّلَاحِ، وَجَوَازُ سَبِّ مَنْ يَتَعَرَّض لِلْبَاطِلِ وَنِسْبَتُهُ إِلَى مَا يَسُوءُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ فِيهِ، لَكِنْ إِذَا وَقَعَ مِنْهُ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ جَازَ إِطْلَاقُ ذَلِكَ عَلَيْهِ تَغْلِيظًا لَهُ، وَإِطْلَاقُ الْكَذِبِ عَلَى الْخَطَأِ، وَالْقَسَمِ بِلَفْظِ لَعَمْرُ اللهِ.

وَفِيهِ النَّدْبُ إِلَى قَطْعِ الْخُصُومَةِ، وَتَسْكِينِ ثَائِرَةِ الْفِتْنَةِ، وَسَدِّ ذَرِيعَةَ ذَلِكَ، وَاحْتِمَالِ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ بِزَوَالِ أَغْلَظِهِمَا، وَفَضْلُ اِحْتِمَالِ الْأَذَى.

وَفِيهِ مُبَاعَدَةُ مَنْ خَالَفَ الرَّسُولَ ﷺ وَلَوْ كَانَ قَرِيبًا حَمِيمًا.

وَفِيهِ أَنَّ مَنْ آذَى النَّبِيَّ ﷺ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يُقْتَلُ؛ لِأَنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ أَطْلَقَ ذَلِكَ، وَلَمْ يُنْكِرهُ النَّبِيُّ ﷺ.

وَفِيهِ مُسَاعَدَةُ مَنْ نَزَلَتْ فِيهِ بَلِيَّة بِالتَّوَجُّعِ وَالْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ.

وَفِيهِ تَثَبُّتُ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق ﷺ فِي الْأُمُور لِأَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ـ مَعَ تَمَادِي الْحَال فِيهَا شَهْرًا ـ كَلِمَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا مَا وَرَدَ عَنْهُ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالله مَا قِيلَ لَنَا هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ بَعْدَ أَنْ أَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ**» وَقَعَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ اِبْنِ عُمَرَ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ.

وَفِيهِ اِبْتِدَاءُ الْكَلَامِ فِي الْأَمْرِ الْمُهِمِّ بِالتَّشَهُّدِ وَالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ وَقَوْلِ أَمَّا بَعْدُ.

وَتَوْقِيفُ مَنْ نُقِلَ عَنْهُ ذَنْبٌ عَلَى مَا قِيلَ فِيهِ بَعْدَ الْبَحْثِ عَنْهُ.

وَأَنَّ قَوْلَ: كَذَا وَكَذَا يُكَنَّى بِهَا عَنْ الْأَحْوَالِ، كَمَا يُكَنَّى بِهَا عَنِ الْأَعْدَادِ، وَلَا تَخْتَصُّ بِالْأَعْدَادِ.

وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ التَّوْبَةِ، وَأَنَّهَا تُقْبَلُ مِنَ الـمُعْتَرِفِ الـمُقْلِعِ الـمُخْلِصِ، وَأَنَّ مُجَرَّدَ الِاعْتِرَافِ لَا يُجْزِئ فِيهَا، وَأَنَّ الِاعْتِرَافَ بِمَا لَمْ يَقَعْ لَا يَجُوزُ وَلَوْ عُرِفَ أَنَّهُ يَصْدُقُ فِي ذَلِكَ، وَلَا يُؤَاخَذُ عَلَى مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى اِعْتِرَافِهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ أَوْ يَسْكُتَ، وَأَنَّ الصَّبْرَ تُحْمَدُ عَاقِبَتُهُ وَيُغْبَطُ صَاحِبُهُ.

وَفِيهِ تَقْدِيمُ الْكَبِيرِ فِي الْكَلَامِ وَتَوَقُّفُ مَنْ اِشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي الْكَلَامِ.

وَفِيهِ تَبْشِيرُ مَنْ تَجَدَّدَتْ لَهُ نِعْمَةٌ أَوْ اِنْدَفَعَتْ عَنْهُ نِقْمَةٌ.

وَفِيهِ الضَّحِكُ وَالْفَرَحُ وَالِاسْتِبْشَارُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَمَعْذِرَةُ مَنِ اِنْزَعَجَ عِنْدَ وُقُوعِ الشِّدَّةِ لِصِغَرِ سِنٍّ وَنَحْوِهِ.

وَإِدْلَالُ الْمَرْأَةِ عَلَى زَوْجِهَا وَأَبَوَيْهَا.

وَتَدْرِيجُ مَنْ وَقَعَ فِي مُصِيبَةٍ فَزَالَتْ عَنْهُ لِئَلَّا يَهْجُمُ عَلَى قَلْبِهِ الْفَرَحُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ فَيُهْلِكُهُ، يُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ اِبْتِدَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ بِبَرَاءَةِ عَائِشَةَ بِالضَّحِكِ، ثُمَّ تَبْشِيرُهَا، ثُمَّ إِعْلَامُهَا بِبَرَاءَتِهَا مُجْمَلَةً، ثُمَّ تِلَاوَتُهُ الْآيَاتِ عَلَى وَجْهِهَا.

وَقَدْ نَصَّ الْحُكَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ اِشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ لَا يُمَكَّنُ مِنْ الْمُبَالَغَةِ فِي الرِّيِّ فِي الْمَاءِ؛ لِئَلَّا يُفْضِي بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْهَلَكَةِ، بَلْ يُجَرَّعُ قَلِيلًا قَلِيلًا.

وَفِيهِ أَنَّ الشِّدَّةَ إِذَا اِشْتَدَّتْ أَعْقَبَهَا الْفَرَجُ.

وَفُضِّلَ مَنْ يُفَوِّضُ الْأَمْرَ لِرَبِّهِ، وَأَنَّ مَنْ قَوِيَ عَلَى ذَلِكَ خَفَّ عَنْهُ الْهَمُّ وَالْغَمُّ، كَمَا وَقَعَ فِي حَالَتَيْ عَائِشَةَ قَبْلَ اِسْتِفْسَارِهَا عَنْ حَالِهَا وَبَعْدَ جَوَابِهَا بِقَوْلِهَا: وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ خُصُوصًا فِي صِلَةِ الرَّحِمِ.

وَوُقُوعُ الْمَغْفِرَةِ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ أَوْ صَفَحَ عَنْهُ.

وَأَنَّ مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ الْخَيْرِ اُسْتُحِبَّ لَهُ الْحِنْثُ.

وَجَوَازُ الِاسْتِشْهَادِ بِآيِ الْقُرْآنِ فِي النَّوَازِلِ.

وَالتَّأَسِّي بِمَا وَقَعَ لِلْأَكَابِرِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

وَفِيهِ التَّسْبِيحُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ وَاسْتِعْظَامِ الْأَمْرِ.

وَذَمُّ الْغِيبَةِ وَذَمُّ سَمَاعِهَا وَزَجْرُ مَنْ يَتَعَاطَاهَا لَا سِيَّمَا إِنْ تَضَمَّنَتْ تُهْمَةُ الْمُؤْمِنِ بِمَا لَمْ يَقَعْ مِنْهُ.

وَذَمُّ إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ.

وَتَحْرِيمُ الشَّكِّ فِي بَرَاءَةِ عَائِشَةَ ﵂.

وَفِيهِ تَأْخِيرُ الْحَدِّ عَمَّنْ يُخْشَى مِنْ إِيقَاعِهِ بِهِ الْفِتْنَةَ، نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ اِبْنُ بَطَّالٍ مُسْتَنِدًا إِلَى أَنَّ عَبْد الله بْن أُبَيٍّ كَانَ مِمَّنْ قَذَفَ عَائِشَة، وَلَمْ يَقَعْ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مِمَّنْ حُدَّ، وَتَعَقَّبَهُ عِيَاض بِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ قَذَفَ، بَلْ الَّذِي ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَخْرِجُهُ وَيَسْتَوْشِيه.

قُلْتُ: وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ قَذَفَ صَرِيحًا، وَوَقَعَ ذَلِكَ فِي مُرْسَلِ سَعِيدِ بْن جُبَيْر عِنْدَ اِبْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرِهِ وَفِي مُرْسَلِ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي «الْإِكْلِيلِ» بِلَفْظِ: «فَرَمَاهَا عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ» وَفِي حَدِيثِ اِبْنِ عُمَرَ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ بِلَفْظٍ أَشْنَع مِنْ ذَلِك، وَوَرَدَ أَيْضًا أَنَّهُ مِمَّنْ جُلِدَ الْحَدَّ، وَقَعَ ذَلِكَ فِي رِوَايَةِ أَبِي أُوَيْسٍ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدٍ وَعَبْدِ الله بْن أَبِي بَكْر بْن حَزْمٍ وَغَيْرِهِمَا مُرْسَلًا، أَخْرَجَهُ الْحَاكِمِ فِي «الْإِكْلِيل»، فَإِنْ ثَبَتَا سَقَطَ السُّؤَالُ، وَإِنْ لَمْ يَثْبُتَا فَالْقَوْلُ مَا قَالَ عِيَاضُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ خَبَرٌ بِأَنَّهُ قَذَفَ صَرِيحًا ثُمَّ لَمْ يُحَدَّ، وَقَدْ حَكَى الْمَاوَرْدِيُّ إِنْكَارَ وُقُوعِ الْحَدِّ بِالَّذِينَ قَذَفُوا عَائِشَة أَصْلًا كَمَا تَقَدَّمَ، وَاعْتَلَّ قَائِلُهُ بِأَنَّ حَدَّ الْقَذْفِ لَا يَجِبُ إِلَّا بِقِيَامِ بَيِّنَةٍ أَوْ إِقْرَارٍ، وَزَادَ غَيْرُهُ «أَوْ بِطَلَبِ الـمَقْذُوفِ» قَالَ: وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ. كَذَا قَالَ، وَفِيهِ نَظَر يَأْتِي إِيضَاحُهُ فِي كِتَابِ الْحُدُودِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَاسْتَدَلَّ بِهِ أَبُو عَلِيٍّ الْكَرَابِيسِيُّ صَاحِبُ الشَّافِعِيِّ فِي «كِتَابِ الْقَضَاءِ» عَلَى مَنْعِ الْحُكْمِ حَالَةَ الْغَضَبِ لِمَا بَدَا مِنْ سَعْدِ بْن مُعَاذٍ وَأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ حَالَةَ الْغَضَبِ، حَتَّى كَادُوا يَقْتَتِلُونَ، قَالَ: فَإِنَّ الْغَضَبَ يُخْرِجُ الْحَلِيمَ الْمُتَّقِي إِلَى مَا لَا يَلِيق بِهِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْغَضَبُ قَوْمًا مِنْ خِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِحَضْرَةِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى مَا لَا يَشُكُّ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَة أَنَّهَا مِنْهُمْ زَلَّةٌ... إِلَى آخر كَلَامِهِ فِي ذَلِكَ.

وَهَذِهِ مَسْأَلَة نَقَلَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِيهَا رِوَايَةً عَنْ أَحْمَدَ، وَلَمْ تَثْبُت. وَسَيَأْتِي الْقَوْلُ فِيهَا فِي كِتَابِ الطَّلَاقِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَيُؤْخَذُ مِنْ سِيَاقِ عَائِشَةَ ﵂ جَمِيعَ قِصَّتِهَا الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى بَرَاءَتِها ـ بَيَانُ مَا أُجْمِلَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِسِيَاقِ أَسْبَابِ ذَلِكَ، وَتَسْمِيَةُ مَنْ يُعْرَفُ مِنْ أَصْحَابِ الْقَصَصِ لِمَا فِي ضِمْنِ ذَلِكَ مِنْ الْفَوَائِدِ الْأَحْكَامِيَّةِ وَالْآدَابِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ يُعْرَفُ قُصُورُ مَنْ قَالَ: بَرَاءَةُ عَائِشَةَ ثَابِتَةٌ بِصَرِيحِ الْقُرْآنِ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ لِسِيَاقِ قِصَّتِهَا؟». [فتح الباري ٨/ ٣٣٧-٣٣٩ كتاب التفسير (٤٧٥٠)].

المطلب الرابع
الدروس الاجتماعية

١ ـ مكانة المرأة في الإسلام:

«في حديث الإفك بيان لمكانة المرأة وعظم شأنها في الإسلام، فقد نزلت هذه الآيات التي تتلى في كتاب الله إلى يوم القيامة في شأن تبرئة امرأة». [فقه السيرة للزيد ٤٨٥].

٢ ـ حماية الإسلام الأعراض:

يقول د/ الصلابي: «كان المجتمع الإسلامي يتربى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى ﷻ أن يشرع بعض الأحكام التي تساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين، ولذلك نزلت سورة النور، التي تحدثت عن حكم الزاني والزانية وعن قبح فاحشة الزنا، وعما يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزوجين صاحبه، وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام.

إن الإسلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله، فقد حرم أيضًا كل الأسباب المسببة له، وكل الطرق الموصلة إليه، ومنها إشاعة الفاحشة والقذف بها لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة والحديث عنها؛ لأن كثرة الحديث عن فاحشة الزنا وسهولة قولها في كل وقت يهون أمرها لدى سامعيها، ويجرئ ضعفاء النفوس على ارتكابها، لهذا حرمت الشريعة الإسلامية القذف بالزنا، وأوجبت على من قذف عفيفًا أو عفيفة، طاهرًا أو طاهرة، بريئًا أو بريئة من الزنا حد القذف وهو الجلد ثمانين جلدة وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحًا».

[ينظر: آثار تطبيق الشريعة ـ د/ محمد الزاحم ص١١٧]. [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٥٢-٢٥٣].

ويقول د/ الشرقاوي: «الإسلام دين الطهر والعفاف والعدالة والإنصاف والمودة والرحمة، والعزة والكرامة.

ولقد جاء هذا الدين الحنيف بتشريعات حكيمة وآداب قويمة تهدف إلى حماية الأعراض وصيانة الحرمات.

فلقد حرم الإسلام الزنا وجرَّمه لما يترتب عليه من أضرار جسيمة وأخطار عظيمة وعواقب وخيمة أليمة على الفرد والمجتمع، في الدنيا والآخرة، منها هتك الأعراض وتدنيس الحرمات واختلاط الأنساب، وإشاعة روح العداوة، وبث بذور الفتنة في المجتمع، إلى غير ذلك من الرذائل والبلايا المترتبة على الزنا، من أجل ذلك حرمه الإسلام وجرمه(حكم الله تعالى على الزاني المحصن (المتزوج) بالرجم حتى الموت وعلى الزاني غير المحصن مائة جلدة)، وحرم كل ما يوصل إليه ويرغب فيه من دواعي وأسباب ومقدمات (من

ضمن هذه الأسباب والمقدامات النظرة المحرمة والدخول على النساء (الأجنبيات) والخلوة بهن والاختلاط والتبرج وغير ذلك من الدواعي والأسباب الموصلة إلى الزنا من قول أو فعل)، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[الإسراء].

وقال سبحانه: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[النور].

كما حرم الإسلام القذف لما يترتب عليه من تدنيس للشرف وهتك للعرض وافتراء على الأبرياء قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[النور].

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[النور].

وقال ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ**». **[البخاري في الوصايا (٢٧٦٨)، وفي الحدود (٦٨٥٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٧١). والمحصنات هن الطاهرات العفيفات، والغافلات، أي الغافلات عن الفواحش لا تخطر ببالهن، والغافلات عما قذفن به والحكم يشمل النساء والرجال، وإنما عبر عنه بصيغة جمع المؤنث السالم على سبيل التغليب؛ لأن أغلب من يقذف من النساء؛ ولأن هتك أعراض النساء وتدنيس شرفهن أعظم بلية وأشد خطرًا من هتك أعراض الرجال وتدنيس شرفهم].**

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه (الحجاب) عن حكمة تحريم القذف: «إن قذف المحصنة من النساء لا يجر عليها وحدها سوء المقالة والشهرة بل يشيع الفاحشة في المجتمع ويفسد العلائق وينشر العداوة بين الأُسر، ويدخل الريبة في الأنساب، ويدفع به شخص واحد عشرات من النفوس إلى الشدائد والمحن عددًا من السنين بمجرد ما يتفوه به من كلمة بهتان».

[الحجاب لأبي الأعلى المودودي ص١٣٧ ط دار التراث العربي بدون تاريخ].

والعرض أغلى ما يمتلكه الإنسان فإذا فقده فقده بلا رجعة، وفي سبيل المحافظة عليه تُزهق الأرواح وتُراق الدماء ويجود الكرام بأنفسهم، فإذا مات المسلم وهو يذود عن حوضه ويدافع عن عرضه فهو شهيد، وفي ذلك يقول ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**».

[أبو داود في السنة (٤٧٧٢)، والترمذي في الديات (١٤٢١)، وقَالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٩٤، ٤٠٩٥)، وصححه الألباني، وأحمد ٣/ ١٩٠ عن سعيد بن زيد ﷺ (١٦٥٢)].

ولقد أكد الإسلام وشدد على حرمة الأعراض وقرنها بحرمة الدماء كما ورد في خطبة الوداع التي ألقاها رسول الله ﷺ في الجموع الغفيرة من الصحابة الكرام وفيها قال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا...**».

[البخاري في العلم (٦٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)].

وقال ﷺ أيضًا: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا**». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**». [مسلم في البر والآداب (٢٥٦٤)، وأحمد ١٣/ ١٥٩ عن أبي هريرة ﷺ (٧٧٢٧)].

ومن هدي الإسلام في حماية الأعراض أمره بالدقة والتحري في النقل والتثبت من الأخبار، وتحريمه للسخرية بالآخرين والاستهزاء بهم وتحقير شأنهم، وتحريمه للظن السيئ في غير ريبة وتحريمه للتجسس وتتبع العورات، وتحريمه للغيبة، وحثه على الستر على المسلمين والزود عن أعراضهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحُجُرات].

والتبين هو التحري والدقة والاستيثاق والاستيضاح والتثبت والتحوط والتحري والدقة في النقل، وفي الآيات التي نزلت في أعقاب حديث الإفك يقول ﷻ: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحُجُرات].

حرم الإسلام السخرية بالآخرين وتحقير شأنهم؛ لأن ذلك يتنافى مع حقوق الأخوة الإسلامية، كما حرم اللمز وهو العيب، يُقال: لمزه أي عابه، ورجل لـمّاز ولُـمزة أي عياب وطعان.

وحرم الإسلام أيضًا التنابز بالألقاب أي التلقب بالألقاب القبيحة التي توغر الصدور وتحقر من الآخرين، كما حرم الإسلام سوء الظن بالمسلمين في غير ريبة وتتبع عوراتهم والتجسس عليهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحُجُرات: ١٢].

وفي الآيات التي نزلت في حديث الإفك يقول ﷻ: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣﴾ [النور].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَنَافَسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا**».

[مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٣). والتحسس والتجسس قيل هما بمعنى واحد وهو تتبع العورات وطلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال الخفية، وقيل: التحسس بالحاء الاستماع لحديث القوم وبالجيم البحث عن العورات، وقيل: بالجيم التفتيش عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر، وقيل: بالجيم أن تطلبه لغيرك وبالحاء أن تطلبه لنفسك.. والله تعالى أعلم ـ المرجع السابق ١٦/ ١١٩ بتصرف. والتنافس هنا الرغبة في الشيء وحب التفرد به فهي من الأنانية والأثرة، والتنافس على الدنيا: التكالب عليها والتناحر على عَرَضِها الزائل].

وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ! لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ**». [أبو داود في الأدب (٤٨٨٠)، وقال الألباني: حسن صحيح، وأحمد في مسنده ٣٣/ ٢٠ رقم ١٩٧٧٦ وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٩٤ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات].

وعَنْ مُعَاوِيَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ**». [أبو داود في الأدب (٤٨٨٨)، وقال الألباني: صحيح].

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: أُتِيَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ فَقِيلَ: هَذَا فُلاَنٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا، فَقَالَ عَبْدُ الله ﷺ: **إِنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ، وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذْ بِهِ.**

[أبو داود في الأدب (٤٨٩٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد].

وعلى المسلم أن لا يضع نفسه في مواضع الشبهات، ولا يزج بها في مواطن التهمة والريبة قال زيد بن ثابت ﷺ: **إني لأكره أن أُرى في مكان يُساء بي الظن.**

وقال الربيع بن أنس [(١)]: **مكتوب في الحكمة: من يصحب السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم، ومن لا يملك لسانه يندم.**

وحسبنا في هذا المقام ما ورد في الصحيحين عن عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ﷺ أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكُمَا! إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**»، فَقَالَا: سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ**

(١) هو الربيع بن أنس البكري الخراساني روي عن أبي العالية رفيع بن مهران، صدوق له أوهام توفى سنة ١٤٠ هـ تنظر ترجمته في: تقريب التهذيب لابن حجر ص ٢٠٥.

الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا».

[البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)].

كما حرم الإسلام الغيبة لما فيها من هتك للأعراض وإساءة للآخرين قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ». [مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٩)، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٤)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٣)، وأحمد ١٤/ ٥٣٧ رقم ٨٩٨٥].

كما دعا الإسلام إلى الزود عن أعراض الناس ورد غيبتهم، فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

[الترمذي في البر والصلة (١٩٣١)، وقال: حديث حسن. ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن أبي الدرداء ولفظه: نال رجال من رجل عند النبي ﷺ فرد عنه رجل فقال رسول الله ﷺ: «من رد عن عرض أخيه كان له حجابًا من النار» يراجع: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للهيثمي ٢/ ٨٣٦ حديث ٨٨١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

[مسلم في البر والآداب (٢٥٩٠)].

فعلى كل مسلم أن يصون لسانه، وأن يصون سمعه، وأن يعلم أن اللسان والأذن أمانة، وأنه سيحاسب عليهما يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء].

وقال ﷻ في سياق الحديث عن صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

ويقول ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور].

وقال ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ».

[الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)، وصححه الشيخ الألباني].

وفي حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ حين قَالَ له ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ «قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ الله، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، فَقُلْتُ: يَا

نَبِيَّ الله! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

[الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

[البخاري في الرقاق (٦٤٧٨)].

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ». [البخاري في الرقاب (٦٤٧٤)].

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ». [الترمذي (٢٤٠٦)، وقال: حديث حسن حديث، وأخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٢٩. وأخرجه ابن المبارك في الزهد حديث ١٣٤، والحديث بشواهده في رتبة الصحيح لغيره، ولقد صححه الألباني].

ومن شعر الإمام الشافعي:

أَمْسِكْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ ... لا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ
كَمْ فِي المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ ... كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

[ديوان الإمام الشافعي ص٨٢ ط ـ مكتبة المعرفة ـ حمص ـ سوريا].

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الأَذَى ... وَحَظُّكَ مَوْفُورُ وَعِرْضُكَ صَيِّنُ
لِسَانَكَ لا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ... فَكُلُّكَ عَوَرَاتُ وَللنَّاسِ أَلْسُنُ
وَعَيْنَكَ إِنْ أَبْدَتْ إِلَيْكَ مَعَايِبَ ... فَصُنْهَا وَقُلْ يَا عَيْنُ للنَّاسِ أَعْيُنُ
وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِحْ مَنِ اعْتَدَى ... وَفَارِقْ وَلَكِنْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

[ديوان الإمام الشافعي ص٨٥].

عِفّوا تَعُفَّ نِساؤكُمْ فِي المَحْرَمِ ... وَتَجَنَّبُوا مَا لا يَلِيقُ بِمُسْلِمِ
مَنْ يَزْنِ فِي بَيْتٍ بِأَلْفَيْ دِرْهَمٍ ... يُزْنَ فِي بَيْتِهِ بِغَيْرِ الدِّرْهَمِ
مَنْ يَزْنِ يُزْنَ بِهِ وَلَوْ بِجِدَارِهِ ... إِنْ كُنْتَ يَا هَذَا لَبِيبًا فَافْهَمِ
إِنَّ الزنا دَيْنٌ فَإِنْ أَقْرَضْتَهُ ... كَانَ الوَفَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمِ
يَا هَاتِكًا سِتْرَ الرِّجَالِ وَقَاطِعًا ... سُبُلُ المَوَدَّةِ عِشْتَ غَيْرَ مُكَرَّمِ
لَوْ كُنْتَ حُرًّا مِنْ سُلالَةِ طَاهِرٍ ... مَا كُنْتُ هَتَّاكًا لِحُرْمَةِ مُسْلِمِ

[المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ٢/ ٧٨٧-٧٩٤].

٣ ـ عظمة العِرض:

«في حديث الإفك بيان لعظمة العِرْض، فلا يصح التهاون فيه، إذ موضوع الآيات التي نزلت في تبرئة عائشة رضي الله عنها في عرضها». [فقه السيرة للزيد ٤٨٥، وينظر للتفصيل: صيانة الإسلام للعرض والنسب (ماجستير) ـ د/ شريف بن علي الشريف ـ إشراف د/ محمد خليل هراس ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الملك عبد العزيز (أم القرى) ـ مكة المكرمة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م ـ ٤١٨ ص].

٤ ـ التعامل مع الإشاعة:

يقول د/ الزيد: «في قصة الإفك درس في التعامل مع الإشاعة، فالله تعالى يقول: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور].

فالمسلم يظن بأخيه الظن الحسن، ولا يقبل أي خبر جارح إلا بالبينة الكافية وإلا فهو عند الله من الكاذبين، كما رأينا في قصة أبي أيوب وأم أيوب رضي الله عنهما». [فقه السيرة للزيد ٤٨٦].

٥ ـ أثر الإشاعة وخطرها:

يقول د/ أبو فارس: «إن الذي يقرأ حديث الإفك، ويتدبر أحداثه، يشعر بأثر الإشاعة الكاذبة وخطرها على وحدة الصف المسلم.

لقد كان لهذه الإشاعة آثار عامة محزنة شملت المسلمين بصورة عامة، وشملت عائشة رضي الله عنها ووالديها وزوجها رسول الله ﷺ.

فالمسلمون قد تعطلت أنشطتهم، وتوقفت سراياهم وغزواتهم، وانشغلوا جميعًا بهذه الإشاعة، لا يقر لهم قرار، ولا هم في استقرارهم، فهم بين قليل مصدق لها لعب المنافقون بعقله فشارك في الإفك وتكلم فيه، وبين كثير مكذب لها يرفضها، ولا يسمح لنفسه بأن تحدثه بشيء منها، وبين ساكت قد جمدت الكلمات على لسانه.

ولم يقف الأمر عند هذا بل امتد الأمر إلى فتنة كادت تعصف بوحدة المسلمين، وتدمر بنيانهم، وتزلزل كيانهم، وتمزق شملهم، تلك المشاتمة التي حدثت بين زعيمي الأوس والخزرج وانتقلت إلى القبيلتين.

إن حكمة النبي ﷺ هي التي تداركت المسلمين فأخمدت نار الفتنة، إذ هب النبي ﷺ فورًا بالإصلاح بين الناس، وتسكين القلوب، فهدأ الناس وسكنوا.

أما عائشة رضي الله عنها فلقد حزنت حزنًا شديدًا، وبكت بكاء مرًّا، حتى كاد ينفلق قلبها كما وصفت، وخرت مغشيًا عليها حين سمعت بالإشاعة التي تشاع من حولها، وأصابتها حمى شديدة هزت أوصالها، وارتعدت منها فرائصها، وبلغ الحزن منها مبلغًا دفعها إلى التفكير بالانتحار.

قال ابن حجر: «وَعِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ بِإِسْنَادٍ صَحِيح عَنْ أَيُّوب عَنْ اِبْن أَبِي مُلَيْكَة عَنْ عَائِشَة قَالَتْ: «**لَمَّا بَلَغَنِي مَا تَكَلَّمُوا بِهِ هَمَمْتُ أَنْ آتِيَ قَلِيبًا فَأَطْرَحَ نَفْسِي فِيهِ** «وَأَخْرَجَهُ أَبُو عَوَانَة أَيْضًا».

[مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٣-٣٨٤ كتاب المناقب (١٥٣٠١)، وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط [١/ ١٨٤]، [والكبير ٢٣/ ١٢١]، ورجالهما ثقات]. [فتح الباري ١٠/ ٨٠].

وأما والداها فتأمل حالهما وهما يسمعان الإشاعة التي تسيء إلى عفة ابنتهما، وتأمل حالهما وهما يريانها لا ينقطع بكاؤها، ولا تكتحل عيناها بالنوم، وتأمل حالهما والنبي ﷺ يسأل عائشة رضي الله عنها عن حقيقة ما يشيعه الناس من أخبار حولها، وأن تستغفر إن اقترفت شيئًا مما ينسب إليها، فتقول لهما: أجيبا رسول الله ﷺ، فيقولا: والله لا ندري ما نقول لرسول الله ﷺ.

وتأمل حال النبي ﷺ يشكو من عبد الله بن أبي بن سلول على المنبر فيقول: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**».

هذا ولقد أثرت هذه الشائعة على نفس النبي ﷺ فغيرت من رقة معاملته ﷺ لعائشة رضي الله عنها، خاصة في أيام مرضها، وقد ألفت منه المودة والحنو والرحمة تجاهها.

إن الموقف السليم من هذه الإشاعة هو قتلها في مهدها بعدم الحديث فيها، وعدم نقلها للآخرين ولو على سبيل الإخبار؛ لأن إشاعتها تخدم أغراض مروجيها من تشكيك بالحرائر العفيفات، لابد أن يبادر كل من يسمعها على الفور بتكذيبها؛ لأنها إشاعة حول زوجة الرسول ﷺ، فالرسول لا ينكح إلا المرأة الطيبة العفيفة، والشرير ينكح شريرة مثله في الغالب، فالطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، والخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور].

ورضي الله عن أبي أيوب الأنصاري حين سألته زوجه رضي الله عنها: «يَا أَبَا أَيُّوبَ، أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ الْكَذِبُ، أَكُنْتِ يَا أُمَّ أَيُّوبَ فَاعِلَةً؟ قَالَتْ: لَا وَاللهِ، مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَهُ، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْكِ».

إن على المسلمين إلا يخدموا أعداءهم بتكرار إشاعاتهم وترديدها على ألسنتهم، فإن في لوكها بالألسنة وجريانها عليها خدمة لأهداف أعدائهم، وتحقيقًا لأغراضهم الخبيثة، وهي شيوع الفاحشة في الذين آمنوا». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦١-٦٤، وينظر للتفصيل: حديث الإفك للمقدسي ص ٨٢-٨٤].

٦ ـ الإعلام القرآني وإعادة الثقة إلى المجتمع الإسلامي:

يقول د/ رشوان: «لقد اشتملت آيات حديث الإفك ـ من الآية رقم ١١ إلى ٢٦ من سورة النور ـ على كل الحقائق التي توضح أبعاد حديث الإفك، وما اكتنفه من وقائع ومشاهد، وما كشف عنه من دوافع وسلوكيات لمروجي شائعة الإفك، من المنافقين، ومعاونيهم من ضعيفي الإيمان، وما عرض من أدلة وبراهين، على براءة ساحة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وصفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه، إلى غير ذلك من حقائق ومعلومات.

ونظرًا لما ترتب على هذه المعلومات وتلك الحقائق، من كشف للغموض وفضح للافتراءات، وجلاء الموقف بالبراءة، فإن الأمر يتطلب تصحيح المسار الإعلامي، وذلك بنشر هذه الحقائق، وإعادة التوازن إلى الرأي العام الإسلامي؛ ولذلك فقد رأينا أن نشير إلى نشر الحقائق من خلال تأكيد الإعلام القرآني لزيف الإفك، وتكريم المتهمين، الذين اتهموا زورًا وبهتانًا، ثم إعادة التوازن إلى الرأي العام الإسلامي، وذلك وفقًا للعرض التالي:

(١) **تأكيد الإعلام القرآني لزيف شائعة الإفك، وتكريم المتهمين زورًا:** إنه على الرغم من علم الرسول صلى الله عليه وسلم باستقامة زوجه وعفتها، إلا أنه كان ينتظر الدليل القاطع بوحي إلهي.

[لمحات نفسية في القرآن الكريم ـ د/ عبد الحميد محمد الهاشمي ـ سلسلة دعوة الحق العدد ١١ ـ الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة ـ السنة الثانية صفر ١٤٠٢ هـ، ص ١٧٠].

وأن نزول القرآن بتبرئة عائشة رضي الله عنها، لا يُعد إعلانًا تأكيديًّا لتبرئتها من قِبل الله عز وجل، الذي يعلم السر وأخفى فحسب، بل هو إعلان تأكيدي أيضًا لزيف الشائعة المغرضة، التي أُطلقت للنَّيْل من عِرض الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإنه إلى جانب ذلك يعتبر إعلانًا تأكيديًا لتكريم الله سبحانه وتعالى لعائشة رضي الله عنها، أن ينزل في حقها قرآنًا يُتلى، يبرئ ساحتها، ويُعلي من منزلتها ومكانتها في الإسلام، ويثبت لها الأجر الجزيل في الفرية عليها، وموعظة للمؤمنين، والانتقام من المفترين.

[صفوة التفاسير ـ د/ محمد علي الصابوني ـ دار القرآن الكريم ـ بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، ٢/ ٣٢٨].

إن آيات حديث الإفك ـ من الآية رقم ١١ إلى الآية رقم ٢٦ من سورة النور ـ وما تضمنته من تفنيد لشائعة الإفك، وإعلان البراءة للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، والصحابي صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه، تبعًا لذلك، قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بمطلع سورة النور في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾، وهذا إعلان قوي حاسم عن تقرير هذه السورة، وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، ومن آداب وأخلاق، إن هذا الإعلان يدل على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة عامة، وتنظيم المجتمع الإسلامي في إطار هذا العنصر خاصة. [**في ظلال القرآن لقطب ٤/ ٢٤٨٥-٢٤٨٧**].

إن هذا الارتباط والتكامل بين مطلع هذه السورة وهذه الآيات البينات من سورة النور، دليل على تأكيد الإعلام القرآني لزيف شائعة الإفك، وخاصة أن مطلع هذه السورة هو المطلع الوحيد الفريد في القرآن كله، وخاصة أنه يتضمن كلمة جديدة ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾، وهذا تأكيد الأخذ بكل ما في السورة ـ سورة النور ـ على درجة سواء، ففرضية الآداب والأخلاق فيها، كفرضية الحدود والعقوبات لمثل هذه التهم الباطلة، والشائعات المزيفة غير المحققة، التي تفتقد الدليل القاطع، والبرهان الساطع، للتحقيق والإثبات، لأمر حسبوه هينًا وهو عند الله عظيم.

(٢) **إعادة التوازن إلى الرأي العام الإسلامي:** لقد اهتز الرأي العام الإسلامي بما أحدثته شائعة الإفك، من بلبلة في الأفكار، وتخلخل في الصفوف، وتوتر في العلاقات، وانقسام في الرأي حول صحة هذه الشائعة، إلى غير ذلك من تأثيرات لهذه الشائعة المدمرة.

ونظرًا لما ترتب على ذلك من توتر العلاقات بين مفردات المجتمع الإسلامي بشكل عام، وتوتر العلاقة بين أبي بكر الصديق ﷺ ومسطح بن أثاثة، والمشايعين له بشكل خاص؛ لذلك نود أن نشير على إعادة التوازن في هذه العلاقات على النحو التالي:

(أ) **إعادة توازن العلاقات بين مفردات المجتمع الإسلامي بشكل عام:** فعلى الرغم من أن أحداث ووقائع حديث الإفك، لم تستمر أكثر من شهر، فإن تأثيرها كان يفوق مئات السنين؛ نظرًا لما أحدثه هذا الحديث من ضجة وتصدع في العلاقات بين مفردات المجتمع الإسلامي، وما تركه من إحساس بالظلم لدى عائشة ﵂، وصفوان بن المعطل السلمي ﵁، وإحساس بالنصر والزهو لدى المنافقين والمشايعين لهم.

ومع انكشاف أمر هؤلاء المروجين للشائعة، وفضح مكيدتهم، ومع تفجر نور الحق بالبراءة بعد ذلك، بآيات من عند الله، استعاد الرأي العام الإسلامي توازنه، والتف المؤمنون حول الرسول ﷺ، في ثقة واعتزاز، مؤيدين ومجددين العهد، على الحفاظ على دينهم، وتماسك وحدتهم، وتوحيد صفوفهم وكلمتهم.

أما أبو بكر الصديق ﵁ فقد استسلم فور سماعه قول الحق: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، أي ولا يحلف الصالحون وذو اليسار منكم ـ يقصد أبا بكر ﵁ ـ على أن يمنعوا إحسانهم ممن يستحقونه من الأقارب والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ـ يقصد مسطح بن أثاثة ـ وغيرهم، لسبب من الأسباب الشخصية، كإساءتهم إليه، ولكن عليهم أن يسامحوهم ويُعرضوا عن مجازاتهم، وإذا كنتم تحبون أن يعفو

الله عن سيئاتكم، فافعلوا مع المسيء إليكم، مثل ما تحبون أن يفعل بكم ربكم، وتأدبوا بأدبه، فهو واسع المغفرة والرحمة. [المنتخب من تفسير القرآن الكريم ـ لجنة القرآن والسنة ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ـ الطبعة العاشرة ـ رمضان ١٤٠٤هـ/ يونيه ١٩٨٤م، ص ٥٢٠].

(ب) **إعادة توازن العلاقة بين أبي بكر ومسطح بن أثاثة** رضي الله عنهما: إن حديث الإفك وما تخلله من تورط مسطح بن أثاثة في ترويج هذه الشائعة البغيضة، قد أثار حفيظة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كوالد لعائشة رضي الله عنها، وكصدِيق وفي للرسول ﷺ، الأمر الذي حمله على الحلف بألا ينفق على مسطح بن أثاثة ـ حيث كان ينفق عليه لقرابته وضعف حاله كما سبق أن قدمنا ـ الأمر الذي أغضب مسطح بن أثاثة، وأغاظ المشايعين له، مما كوَّن معه رأيًا عامًّا مضادًّا لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ولقد تصاعدت حدة التوتر في العلاقة بين أبي بكر رضي الله عنه ومسطح بن أثاثة، مع تفاقم أحداث ووقائع حديث الإفك، وتزايد تأثير هذه الشائعة الخبيثة بين مفردات المجتمع الإسلامي، واستمر هذا التصاعد، وهذا التوتر، إلى أن نزلت آيات البراءة في حديث الإفك، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، الأمر الذي أحدث معه تحولًا تامًّا، في موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تحوُّل بالاستسلام لقول الحق تبارك وتعالى، ونزولًا لحكمه سبحانه.

لقد استسلم أبو بكر رضي الله عنه لهذا التوجيه الرباني، مسارعًا بقوله: «**بل نحب، بل نحب أن يغفر الله لنا**»، وفي الحال أعاد أبو بكر رضي الله عنه الإنفاق على مسطح بن أثاثة، وعاد الحب بينه وبين مسطح والذين عاونوه، إلى أن أصبح التآلف والمودة بينهم من أهم السمات المميزة للعلاقات بين مفردات المجتمع الإسلامي.

وهكذا استرد الرأي العام الإسلامي استقراره وتوازنه، والثقة في الرسول ﷺ، وأهل بيته الكرام».
[حديث الإفك من المنظور الإعلامي لرشوان ١٠٧-١١٢].

المطلب الخامس

الدروس السياسية

١ ـ تدبيرات المنافقين السياسية:

يقول أ/ باشميل: «وأثناء عودة الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق هذه، قال المنافقون في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تلك المقالة الخبيثة من الإفك، الذي به نالوا عرض رسول الله ﷺ حتى آذوه أشد الإيذاء وجعلوه عرضة لأعنف الآلام النفسية وأشدها.

كان رأس النفاق، ممثل عصبة اليهود والمنافقين، عبد الله ابن أُبي بن سلول، موجودًا ضمن الجيش الإسلامي الذي غزا بني المصطلق، وكان هذا المنافق المجرم، لا يجد فرصة يكيد فيها للإسلام ويحط من شأن رسالته إلا اغتنمها.

وبينما هذا المنافق الأكبر موجودًا في المعسكر بين قومه الخزرج، إذا بالصحابي الجليل صفوان بن المعطل يمر بهودج أم المؤمنين عائشة ﵂، فيقول هذا المنافق ابن أُبي: من هذه؟ فيقولون: عائشة ﵂، فيقول المنافق الأكبر: والله ما نجت منه ولا نجا منها، ثم يعقب على ذلك بقول: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها.

هذه القولة الخبيثة المنكرة، هي الشرارة الأولى التي أشعلت حديث الإفك، فكانت بسببها معركة كبرى من الآلام خاضها النبي ﷺ طيلة شهر كامل.

لقد كان حديث الإفك من تدبيرات المنافقين القاتلة، وهو أحد الأسلحة السياسية الكبيرة الفتاكة التي تلجأ إليها عصابة النفاق للكيد للإسلام وتفريق كلمة المسلمين وتفتيت وحدتهم.

ولقد نظم المنافق الأكبر وحزبه حملات واسعة أشاع بها هذا الحديث المفترى، وروَّج له بدقة وإحكام حتى انخدع به كثير من المسلمين، فخاض فيه منهم من خاض، حتى وصل البعض منهم في الخوض في هذا الحديث المفترى، إلى الدرجة التي بها أُقيم عليه الحد، كحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، ومسطح بن أثاثة، وقد تضخم حديث الإفك حتى صار شغل أهل المدينة الشاغل.

ولقد آتت مساعي عصبة الإفك والنفاق ثمارها إلى حد بعيد، فقد فعلت حملات الإفك الظالمة فعلها المخيف في نفوس المجتمع الإسلامي.

وحتى ذلك القلب الكبير النقي الطاهر، قلب النبي محمد ﷺ صار عرضة لنزوع الشك والحيرة والقلق، فقد أثرت تلك الإشاعات الكاذبة في نفسه فأعرض عن زوجته الطيبة الطاهرة الحنون، مما اضطرها إلى الانتقال إلى بيت أبيها الصديق ﵁ مشكوكًا فيها من زوجها العظيم، وظلت هناك حتى نزلت براءتها من السماء قرآنًا يُتلى أبد الآبدين.

وكانت محنة، بل أعظم محنة نفسية شاقة مضنية تعرض لها النبي محمد ﷺ في حياته، وهل هناك أعظم وأشد إيلامًا من أن يُطعن الإنسان في عِرضه، وخاصة من هو على مستوى النبوة والقيادة للأمة كلها؟

ولقد استمرت المحنة ـ التي تكلف فيها صاحب أطهر نفس في تاريخ الإنسانية من الآلام ما تنهد له الجبال ـ شهرًا كاملًا انقطع خلاله اتصال السماء بالأرض، وظل فيه ذلك القلب الكبير النقي معلقًا بحبال الشك تعتصره الآلام التي أخف منها آلام طعن الرماح ووقع السيوف.

أما آل الصديق، أما بنت الصديق، أما زوج الصديق، أما الصديق نفسه، ذو الوقار المتناهي والحساسية المرهفة والطيبة الكاملة، فقد كانت مصيبتهم أعظم من أن توصف، ويا لها من مصيبة، وهل هناك أعظم من أن يُصاب بيت كريم رفيع العماد بالطعن في عرض ابنته.. وزوجة من؟؟.. زوجة محمد بن عبد الله ﷺ، حبيب أبيها ورفيقه في النضال والجهاد منذ بزغت شمس الإسلام على هذه الأرض.

ولقد عقد هول الفاجعة ألسنة أهل ذلك البيت الطاهر بيت الصديق الأكبر، فكانوا أمام تلك الإشاعات الظالمة الكاذبة المدبرة المغرضة التي أغرقت المدينة، لا يحيرون جوابًا، وماذا عساهم أن يقولوا، والشك في ابنتهم قد تسرب إلى قلب زوجها النبي ﷺ نفسه، ولقد انطوى أهل البيت الطيب الوادع الكريم على أنفسهم، يهد منهم الألم بعنف وضراوة وهم لا يدرون ما يصنعون أو يقولون، أمام هذه النازلة التي امتحنهم الله بها، ولقد فاض الألم المدمر على لسان ذلك الرجل الوقور الصابر المؤمن، الذي استفزته ضراوة ألم تلك الإشاعات القاتلة مرة فقال: **والله ما رُمينا بهذا في جاهلية، أفنرضى به في الإسلام؟**

وعندما قالت له ابنته البريئة المعذبة المظلومة (والألم يطحن قلبها الأبيض الطاهر): أجب عني رسول الله ﷺ قال ـ في ألم وإشفاق: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

حقًّا لقد كان حادث الإفك معركة آلام عنيفة طاحنة خاضها البيت النبوي الكريم، وأضنت جروحها الثخينة قلوبًا كبيرة طاهرة نقية، وكادت تودي بنفوس بريئة كمدًا وغمًّا».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٩٧-٩٩].

٢ ـ دسيسة الإفك خِسَّة وفجور نفاقي لئيم كفور وخبث يهودي حقود:

يقول الشيخ عرجون: «وفي هذه الغزوة الممحصة للإيمان وقعت أخطر حادثة أدخلت على كل مسلم ومسلمة من البلاء ما لم يدخل عليه مثله في محن الشدائد والأزمات التي ابتلي بها المسلمون، فقابلوها بصبر لم يتجرعوا مرارته في كارثة من كوارث الحياة، ولكنهم تجلدوا لها، واحتملوا لهيب نيرانها وهي تشوي قلوبهم وأكبادهم، وتحرق أفئدتهم؛ لأنهم فوجؤوا بها، فلم يعرفوا لها مدخلًا ولا مخرجًا؛ لأن المقادير الإلهية أرادتها لتكون أبلغ درس في التربية الاجتماعية للمجتمع المسلم، تلك هي حادثة أسوأ مكر، وأخبث فجور كاد به المنافقون هذا المجتمع القائم في تركيبه الإيماني والاجتماعي على الطهارة والتطهر من دنس الأرجاس الحسية والمعنوية.

كان المجتمع المسلم قد أنهى معركة بني المصطلق بنصره المؤزر على جموعهم، ونادى منادي رسول الله ﷺ بالرحيل من ديار العدو، وأخذ المجاهدون في الترحيل بعد أن صفوا هذا الجيب المتواري من جيوب التربص بالمجتمع المسلم ممثلًا في قبيلة بني المصطلق وهي واقفة تؤرجحها الحيرة فلا تتقدم ولا تتأخر، يملكها الرعب فتنزوي في جحورها، ويعبث بها الفزع والهلع يقيمانها بين الحرب والسلم.

وكانت انتصارات رسول الله ﷺ تفعم قلوب المنافقين غيظًا وحنقًا، تعترض في حلاقيمهم غصة تكتم أنفاسهم، فلا يتنفسون إلا من وراء أستار الظلام؛ لأنهم جبناء رعاديد، ليس لديهم من الشجاعة ما يجعلهم يُظهرون ما يُبطنون، ولا يستطيعون أن يقفوا في ميادين القتال هنا أو هناك، فهم كفار فجرة

إذا خلوا إلى شياطينهم من خبثاء اليهود، وهم مسلمون إذا رأوا راية الإسلام تخفق بالنصر، ولكنهم كما وصفهم الله تعالى في قوله عز شأنه: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧﴾ [التوبة].

تلك هي حادثة التقول بالكذب والباطل، والافتراء المختلق في مصانع النفاق والفجور على أطهر الطاهرات المطهرات، الصدِّيقة بنت الصديق ﵄، حبيبة سيد الخلق محمد ﷺ أم المؤمنين السيدة العظيمة عائشة رضوان الله عليها». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٠-٢٢١**].

٣ ـ سهم (الإفك) الذي كاد يقوض دعائم تبليغ الرسالة:

يقول الشيخ عرجون: «تلك هي فتنة (الإفك) التي أشعل ثقابها وأورى نارها زعيم المنافقين ورأس النفاق عبد الله بن أُبي بعد أن خاب سعيه في إشعال نيران الفتنة الجاهلية، فخبَّ فيها وأوضع خلال صفوف المجتمع المسلم يبغيه الفتنة، وفي المجتمع المسلم سماعون له ولأضرابه من أحلاس النفاق وغثاء المنافقين، ومرضى القلوب الذي كانت رواسب الوثنية الجاهلية والعصبية القومية تحتل من أنفسهم مكانًا فسيحًا.

وفي هذه الفتنة الخرساء قاء ابن أُبي كل ما في قلبه من عصارة النفاق الكفور، وتبذلت جراح حقده عن صديد الكفر المنافق والفجور الخبيث.

وبهذه الروح الفاجرة الخبيثة تولى ابن أُبي كِبْر هذه الفتنة المرذولة السمجة، والبهتان المفترى، والإفك المختلق، وانضوى تحت جناحه من كان على شاكلته في النفاق من الذين أحرقت عصبية الجاهلية أفئدتهم في صدورهم، وأذابت أكبادهم بين ضلوعهم، فنفثوا دخان الغيظ الخانق والحنق المغيظ، وتقولوا بالباطل على أطهر الطاهرات، الصدِّيقة بنت الصدِّيق ﵄، حتى أبطله الله تعالى بما لم يبطل به فرية وبهتانًا قط، وحتى غدا شر هذا الإفك الكذوب خيرًا لكل من ناله منه رشاش، وباء المبطلون الأفاكون بالعار والشنار، ولُطِّخت وجوههم بالخزي والخذلان، وطحنهم كلكل الخطاب الإلهي المحفوف بكل سمات التبجيل والتعظيم للسيدة الطاهرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦﴾[النور] تنويهًا بعظمة سيد المرسلين ﷺ، وبيانًا لعلو مكانته عند ربه، وإعلاء لمقام حرماته، وتطهيرًا لساحته ـ طحنًا أذاب منهم كل ذرة من ذرات الإنسانية في هذه الحياة ن ولعذاب الآخرة أخزى وأعظم.

وكان هذا النصر المؤزر في هذه الحروب النفسية أجل وأعظم أثرًا من النصر المؤيد في جولات القتال في ميادين الحروب». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٨**].

٤ ـ القضاء على الفتنة:

يقول أ/ باشميل: «وبذلك انتهى حديث الإفك وبطل مفعوله المدمر فقضى على تلك الفتنة الاجتماعية التي كادت تذهب بوحدة المسلمين، بل وتثير بينهم حربًا أهلية طاحنة، فتزلزل بنيان هذا الدين الوليد.

ووالله ما قصدت عصبة النفاق من تضخيم حديث الإفك والتنظيم لإشاعته إلا تفريق كلمة المسلمين بإثارة النزعات بينهم؛ لأن هذه العصبة الخبيثة تعلم أن إشاعة مثل هذا الحديث الخطير سيكون مثار جدل واختلاف بين المسلمين، يصل بهم إلى درجة التلاحي وإثارة النعرات القديمة مما قد يكون سببًا في إثارة حرب قبلية بين الخصمين القديمين العنيدين (الأوس والخزرج) ولقد كاد يحدث ذلك فعلًا، وذلك هو الغاية الكبيرة التي يهدف إلى تحقيقها حزب النفاق الذي حمل لواء حديث الإفك وقام (بطرق مدروسة ملتوية) بإشاعته، فباعث الحديث هذا (في حد ذاته) هو باعث سياسي خبيث ذو مرامي بعيدة، ويكفي لتأكيد ما نقول أن مطلق شرارة فتنة حديث الإفك، هو رأس النفاق عبد الله بن أُبي، الذي منذ وطئت قدما الرسول الأعظم ﷺ تراب المدينة المنورة، وهو يحيك الدسائس وينظم المؤامرات ضد هذا النبي الكريم ﷺ والدين القويم الذي جاء به». [**غزوة الأحزاب لباشميل ١٠٩**].

٥ ـ خسة نفوس المنافقين في حربهم لرسول الله ﷺ:

يقول الشيخ الغزالي: «عندما كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد كانت مخاصمته تتخذ طريق الجهرة والتهجم دون مبالاة، فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة، سلكت عداوته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة، فأمسى الكيد له يقوم على المكر والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعالن بها الأقوياء، وائتمار الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام، بل إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجِهة.

وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التي تصيب العدو، وإن كان بعضها يستحيي من استخدامه الرجل الشريف!

وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي ﷺ ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد، ويغلب عليها الضعف، أسلوب اللمز والتعريض حينًا، والإفك حينًا آخر.

وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضغنًا عليهم وتربصًا بهم، وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنهم الرسول ﷺ بالجلاء، فلما لم يُقف مدَّ الإسلام شيء، ولم تهدَّه هزيمة، وأخذت القبائل العادية تختفي واحدة تلو أخرى، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم

تنكشف نياتهم السوء إلا على فلتات الألسنة ومزالق الطباع، فكانت سيرتهم تلك مثار فتن شداد تأذى منها رسول الله ﷺ والمؤمنون شيئًا غير قليل.

وظهر ذلك جليًّا في «غزوة بني المصطلق»، فقد نصر الله نبيه ﷺ والمسلمين، على أن هذا النصر الميسر شابه من أعمال المنافقين ما عكر صفوه وأنسى المسلمين حلاوته، بما رأينا من إبراز زعيم النفاق العصبية القبلية مرة أخرى فيما حدث بين الغلامين المهاجري والأنصاري.

وقضى النبي ﷺ على هذه الفتنة، وأنزل الله ﷻ سورة المنافقين في بيان شنائع هؤلاء المنافقين.

ولم يدُر بخاطر أحد أن هذه الأوبة المتعجلة سوف تتمخض عن أكذوبة دنيئة يحيك أطرافها «عبد الله بن أُبي» ثم يرمي بها بين الناس، فتسير مسير الوباء الفاتك.

إن هذا الرجل حلف كاذبًا بعد أن أنكر مقالته الثابتة، ولو أن الجبان ذهب يطلب النجاة من عقباها لكان ذلك أجدى عليه، لكنه لم يزدد ـ على السماح الذي قوبل به ـ إلا خسة وخصامًا، والبون بعيد بين أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله، لقد كان «أبو جهل» خصمًا لدودًا لكل من دخل هذا الدين، وكان طاغية عنيدًا لا تنتهي لجاجته، إلا أنه كان كالضبع المفترس لا يحسن الالتواء والوقيعة، حمل السيف في وضح النهار، وما زال يقاتل به حتى صُرع.

أما عبد الله بن أُبي فقد اختفى كالعقرب الخائنة، ثم شرع يلسع الغافلين.

قَبَعَ هذا المنافق في جنح الظلام، وبدأ ينفث الإشاعات المريبة.

وتدلى ـ في غوايته ـ إلى حضيض بعيد، فلم يبال أن يتهجم على الأعراض المصونة، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات.

في عودة الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق إلى المدينة، نبت حديث الإفك وشاع، واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شرره في كل مكان قاصدين ـ من وراء هذا الأسلوب الجديد في حرب الإسلام ـ أن يدمروا على الرسول ﷺ بيته، وأن يسقطوا مكانة أقرب الرجال لديه، وأن يدعوا جمهور المسلمين ـ بعد ذلك ـ يضطرب في عماية من الأسى والغم!

وللوصول إلى هذه الغاية استباح ابن أُبي لنفسه أن يرمي بالفحشاء سيدة لما تجاوز مرحلة الطفولة البريئة، لا تعرف الشر، ولا تهم بمنكر، ولا تحسن الحياة إلا في فلك النبوة العالي، وهي التي تربت في حجر صدِّيق، وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة. وتلقف العامة هذا الحديث الغريب، وهم في غمرة الدهشة لا يدرون مبلغ الخطر الكامن في قبوله ونقله». [فقه السيرة للغزالي ٢٩٥، ٢٩٨].

ويقول د/ قلعجي: «حديث الإفك هو حلقة في سلسلة الحرب النفسية السياسية التي خطط لها اليهود وأذنابهم من المنافقين ضد الدولة الإسلامية، وإذا ما علمنا ما للعِرْض من أثر في الحياة العربية، علمنا حجم الأثر الذي ستتركه هذه الإشاعة، وقد استطاع المنافقون التغرير بأفراد من المسلمين، فخاضوا معهم فيما خاضوا فيه من الإفك.

لقد أشاع المنافقون الإفك حتى ترددت أصداؤه في أنحاء الدولة الإسلامية، وهم يعلمون أن الحديث ليس له أصل، وإنما أطلقوه لأنهم يعلمون أن رسول الله ﷺ لن يقيم حد الزنا على زوجته السيدة عائشة ولا على المتهم صفوان بن المعطل، لا لأن عائشة زوجته، ولكن لعدم توفر الدليل المادي على ذلك، وعندها يرجف المرجفون ـ عبد الله بن أُبي بن سلول وجماعة من المنافقين واليهود ـ أن محمدًا قد تستر على جريمة من أكبر الجرائم ـ وهي جريمة الزنا ـ لأن المتهم بها زوجته، وهذا يقدح في رسول الله ﷺ كنبي، وكرئيس دولة.

أما أن يقدح به كنبي: إذ أنه لو كان نبيًّا حقًّا لما جاز له أن يرضى إيواء زانية في بيته، فضلًا عن اتخاذها زوجة له.

وأما أنه يقدح به كرئيس دولة: فإن العدالة التي ينادي بها محمد، والمساواة بين الناس أمام الشرع سرعان ما تصبح أثرًا بعد عين إذا ما مست مصالحه الشخصية، وبذلك يكون حامي الشرع هو أول المنتهكين له، وهذا لا يليق بمسؤول بسيط، فكيف برئيس دولة». [قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ٢٠٨-٢٠٩].

٦ ـ مدى تأثير الحرب النفسية على الرأي العام:

يقول د/ رشوان: «إذا كان حديث الإفك، بكل أحداثه ووقائعه ومشاهده، كان محوره شائعة مغرضة، أطلقها مروجون من المنافقين، ومعاونيهم من ضعيفي الإيمان، فإن الهدف من هذه الشائعة، هو محاربة الإسلام والمسلمين بشكل عام، والنَّيْل من شخص الرسول ﷺ بشكل خاص، مستخدمين في ذلك الحرب الدعائية تارة، والحرب النفسية تارة أخرى، الأمر الذي كان له تأثير خطير في الرأي العام الإسلامي، واهتزاز كيانه وتبلبل أفكاره، إلى غير ذلك من تأثيرات.

ولتوضيح خطورة هذين الحربين؛ لذلك فقد رأينا أن نشير إلى بيان دوافع إطلاق شائعة الإفك، ثم بيان مدى خطورة الحرب الدعائية في حديث الإفك، وبعد ذلك نشير إلى مدى ضرورة التيقظ لأساليب الطابور الخامس (المنافقين)، ومدى تأثير الحرب النفسية في عقيدة المؤمنين، إلى غير ذلك من أساليب وتأثيرات لهذه الحرب النفسية.

(١) **بيان دوافع إطلاق شائعة الإفك:** لقد كشف حديث الإفك عن الدوافع والأسباب، التي كانت وراء إطلاق الشائعات المغرضة، كما أظهرت العوامل التي ساعدت على ترويجها، فالعداء للإسلام

والمسلمين من جانب الكفار والمشركين والمنافقين، والعداء الأكثر للرسول ﷺ، باعتباره النبع الأول للإسلام، والحقد والحسد والغيرة، إلى غير ذلك من دوافع وأسباب.

كما يُضاف إلى ما تقدم استعداد ضعيفي الإيمان للسماع لتلك الشائعات المغرضة؛ لانخداعهم بكلام المنافقين، كل ذلك وغيره يعد جوًّا ومناخًا ملائمًا لإطلاق مثل هذه الشائعات الخبيثة، ويساعد على سرعة ترويجها وانتشارها.

لذلك نود أن نلقي بعض الضوء على هذه الدوافع وتلك الأسباب، من خلال التعرف على مدى عداء الإعلام المضاد لرسالة الإسلام، ومدى الحقد على انتصار المسلمين، ومدى اعتبار الغيرة والحسد دافعًا لترويج هذه الشائعة الباطلة، وذلك وفقًا للعرض التالي:

(أ) **مدى عداء الإعلام المضاد لرسالة الإسلام:** قيم الإسلام ومبادئه، تعد حربًا ضد معتقدات الكفار والمشركين والمنافقين، كما تعد من القيود التي تحد من حرياتهم وملذاتهم؛ ولذلك يقفون بالرفض والعداء لهذه القيم وتلك المبادئ، كما يقفون بالمرصاد لمن ينادي بقيم الإسلام، ويقصدون الرسول ﷺ، بل ويكيدون له كيدًا، بكل أساليب الدس والحرب الدعائية المغرضة، لهدم هذه القيم وتلك المبادئ السامية للإسلام.

فإحساس المنافقين بسرعة انتشار الإسلام بقيمه ومبادئه هذه، جعل زعيمهم عبد الله بن أُبي بن سلول يحنق على الإسلام والمسلمين، وخاصة على الرسول ﷺ صاحب رسالة الإسلام، فكان حنق زعيم المنافقين هذا، على رسول الله ﷺ حنقًا شديدًا؛ لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته وكانوا ينظمون له الخرز ليتوجوه، فلما دخل فيهم الإسلام، صرفهم عن عبد الله بن أُبي بن سلول؛ ولذلك فكان يرى أن الرسول ﷺ، هو الذي استلبه ملكه، وأطاح بكرسي زعامته، وهناك مواقف كثيرة من هذا القبيل، تؤكد مدى حنق عبد الله بن أُبي بن سلول، وحقده وكيده للرسول ﷺ.

(ب) **مدى الحقد على انتصار المسلمين:** إن انتصار المسلمين في المعارك والغزوات المختلفة، ومنها غزوة بني المصطلق، التي نحن بصددها، ملأ قلوب المنافقين غيظًا وحقدًا، وخاصة بعد أن شاهدوا النصر الكامل للمسلمين في هذه الغزوة ـ والتي اشترك فيها عدد كبير من المنافقين ـ وأن يروا سرعة انتشار الإسلام في بني المصطلق وخزاعة، وقد أصبحوا صهرًا للرسول ﷺ.

(ج) **مدى اعتبار الغيرة والحسد كدافع لترويج شائعة الإفك:** أما وأن تكون الغيرة والحسد سببًا ودافعًا لترويج شائعة، والمساعدة على نشرها، فإن هذا قد وقع في حديث الإفك، فعلى سبيل المثال: تورطت حمنة بنت جحش ـ وهي أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين، زوج الرسول ﷺ، وهي بنت

عمته في نفس الوقت -حيث تسرعت وانخدعت بكلام المنافقين، هي وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، فحمنة بنت جحش، أخذت تذيع ما يتهامس به الناس، عن عائشة ﵂ ومجيئها مع صفوان بن المعطل السلمي ﵁ حسدًا لها، لما كانت تجده -بحسب ظنها- من إيثار الرسول ﷺ لعائشة ﵂، على أختها زينب ﵂، التي هي ضرة لعائشة ﵂.

ولعل ما يؤكد أيضًا دافع الغيرة والحسد؛ لترويج مثل هذه الشائعات الخبيثة، ما قالته أم عائشة ﵂، وهي تحاول أن تخفف من جراحات الأزمة، حيث قالت الأم: «يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا».

كما أن حسان بن ثابت كان عونًا لحمنة بنت جحش في ترويج هذه الشائعة الكاذبة، ومن ناحية أخرى كان مسطح بن أثاثة يبسط لسانه بالسوء، وكاد الحديث عن عائشة ﵂ يؤدي إلى فتنة، إلى غير ذلك من أمثلة ومواقف.

(٢) بيان مدى خطورة الحرب الدعائية في حديث الإفك:

إن أهم أسلحة الحرب الدعائية، التي شنها المنافقون، سلاح الشائعات المغرضة، وهو ما يُعرف بحديث الإفك، والتي يمكن أن تُسمى بشائعة الإفك، والتي استهدفت إحداث شك وارتياب وبلبلة الرأي العام الإسلامي، والنَّيل من سمعة الأبرياء، والإساءة إلى الرسول ﷺ، وبث بذور الفتنة والفُرقة، وإثارة الارتباك والفوضى في صفوف المسلمين، بأساليب الدس والغدر والخداع والتضليل، إلى غير ذلك من أساليب خبيثة؛ لتمزيق الأمة الإسلامية وتعويق مسيرتها.

(٣) مدى ضرورة التيقظ لأساليب الطابور الخامس:

إذا كان حديث الإفك قد أظهر خطورة الحرب الدعائية، وما تستخدمه من شائعات مغرضة، وبعد أن تحددت معالم هذه الشائعات، فإنه قد أصبح من الواجب اتخاذ أساليب مضادة لمخططات ومناورات ومؤامرات الطابور الخامس (المنافقين) الذين يمارسون سياسة فَرِّق تَسُدْ، والصيد في ماء عكر، وكذلك الجواسيس... إلخ، وكشف زيف افتراءاتهم وأباطيلهم، والرد على شائعاتهم المغرضة، بعد تحليل مضمونها، وكشف دوافعها والعمل على تبديدها ودحضها بكل الحقائق الثابتة والبراهين والأدلة القاطعة، كما سبق أن أوضحنا، والاستمرار في حالة التنبه والتيقظ؛ لرصد هذه الأساليب، والاستعداد لها في وقت مبكر، بل واتخاذ كل السبل الوقائية لمنع تكرارها.

مدى تأثير الحرب النفسية في عقيدة المؤمنين: إن حديث الإفك ليس مجرد حديث، ولكن كان اختبارًا لمدى قوة إيمان المؤمنين، وثباتهم على عقيدتهم، وثقتهم بالرسول ﷺ، وكشفًا للمنافقين وفضح

أهدافهم، وأساليبهم الخبيثة، ومناوراتهم الدنيئة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾[النور].

فهذا الحديث خير للمؤمنين، بأن ازدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ولما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة عائشة رضي الله عنها، وهذا غاية الشرف والفضل، ومن ناحية أخرى، فإن هذا الحديث شر للمنافقين، والذين خاضوا معهم، وما يلحقهم من عذاب في الدنيا والآخرة بأشكال وصنوف مختلفة العذاب».

[حديث الإفك من المنظور الإعلامي لرشوان ٧٩-٨٤].

ويقول د/ السيد: «ذكرنا فيما مضى أن المنافقين أرادوا من وراء هذه الشائعة أن يطعنوا رسول الله ﷺ في عرضه، وأن يلوثوا شرف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكان مرادهم من وراء ذلك أن يصوروا النبي ﷺ في صورة الماجن العابث الذي جعل تحته العاهرات من النساء لينتقلوا من ذلك إلى أن محمدًا هذا ليس أهلًا للرسالة ولا للفضيلة، وأن يشككوا فيه القوم ويفرقوهم عنه، لقد كان لهذا الخبر المكذوب أثره البين في بيت النبوة حتى كان ما كان من النبي ﷺ في موقفه من عائشة ليس طعنًا فيها، وإنما هو موقف بَشَر مضى أملًا في أن تأتي البراءة من السماء، وقد كانت، كما تأثر بيت أبي بكر رضي الله عنه جميعه، فبكت عائشة حتى تقلص الدمع في عينيها، وكان مما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «**والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام**»، وكان من قول أم رومان أم عائشة ما ذكرته الرواية السابقة، وقد أشارت الرواية أيضًا إلى موقف علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد.

وهكذا كانت الشائعة وهكذا كانت الحرب النفسية ضد رسول الله ﷺ، ولكن كان نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ مكذبًا لكل هذه الادعاءات الكاذبة، وظل بيت النبوة بعيدًا كما هو شأنه عن أي سوء، وظلت عائشة كما هو حالها في أجلى مظاهر النقاء والطهر.

ونزل القرآن الكريم في تصويره وإعجازه، يبين لنا الصدق في أجل معانيه.

حقًّا إنها الحرب النفسية الباغية من العدو المتمثل في المنافقين وعلى رأسهم المنافق الأكبر عبد الله بن أُبي بن سلول، ولا يقول إلا ما هو في صالحه، ولا يفعل إلا ما هو ضد الإسلام ونبي الإسلام، ومن مصلحته ألا تتماسك الهمم والعزائم، ولا يجوز للنبي ﷺ وأصحابه شرعًا وعقلًا ومنطقًا أن يحقق للعدو غرضه الذي يريد، ومن هنا وجدنا الإسلام ونبي الإسلام يقود الرعيل الأول الذي تربى على مائدة الإسلام، وفي المدرسة المحمدية يقودهم إلى سحق محاولات الحرب النفسية الباغية أيًّا كان نوعها، سواء أكانت كلمة تُقال، أو شائعة تنشر أو ادعاءات كاذبة أو مجادلات رديئة أو ما إلى ذلك من أساليب الحرب النفسية التي يريدونها ويقصدون إليها.

فقد وقف المسلمون موقفًا بطوليًا من الحرب النفسية وقاوموها مقاومة عنيفة بشتى الأسلحة بالصبر حينًا، وبأسلوب الدعاية الحقيقية التي لا مراء فيها ولا التواء أحيانًا أخرى، نعم تلك الدعاية لهذا الدين الجديد بواسطة الحجة والإقناع والدعوة بالتي هي أحسن وضرب أروع الأمثلة وأسماها من خلال التصرفات السلوكية». [دور الحرب النفسية للسيد ٣٤-٤٢].

٧ ـ بذل النصح للقيادة:

يقول د/ أبو فارس: «وحين أشار علي ـ كرم الله وجهه ـ على رسول الله ﷺ بأن يتزوج غير عائشة، لا شك أن هذا آلم عائشة ﭬ، ولكن عليًّا ﭬ أراد تحقيق مصلحة أهم من مصلحة عائشة يحدثنا عنها ابن حجر ﭬ بقوله: «وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي قَالَهُ عَلِيٌّ ﭬ حَمَلَهُ عَلَيْهِ تَرْجِيحُ جَانِبِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لـمَا رَأَى عِنْدَهُ مِنْ الْقَلَقِ وَالْغَمِّ بِسَبَبِ الْقَوْلِ الَّذِي قِيلَ، وَكَانَ ﷺ شَدِيدَ الْغَيْرَةِ، فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّهُ إِذَا فَارَقَهَا سَكَنَ مَا عِنْدَهُ مِنْ الْقَلَقِ بِسَبَبِهَا إِلَى أَنْ يَتَحَقَّقَ بَرَاءَتُهَا فَيُمْكِنُ رَجْعَتُهَا، وَيُسْتَفَاد مِنْهُ اِرْتِكَابُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ لِذَهَابِ أَشَدِّهِمَا.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ ﭬ في شرحه على صحيح مسلم: «رَأَى عَلِيٌّ ﭬ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَصْلَحَةُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ اِنْزِعَاجِهِ، فَبَذَلَ جَهْدَهُ فِي النَّصِيحَةِ لِإِرَادَةِ رَاحَةِ خَاطِرِهِ ﷺ».

[شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٠٨].

وَقَالَ الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد بْن أَبِي جَمْرَة: لَمْ يَجْزِمْ عَلِيٌّ ﭬ بِالْإِشَارَةِ بِفِرَاقِهَا لِأَنَّهُ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**وَسَلِ الْجَارِيَة تَصْدُقْكَ**» فَفَوَّضَ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ إِلَى نَظَر النَّبِيِّ ﷺ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَرَدْتَ تَعْجِيلَ الرَّاحَةِ فَفَارِقْهَا، وَإِنْ أَرَدْتَ خِلَافَ ذَلِكَ فَابْحَثْ عَنْ حَقِيقَة الْأَمْر إِلَى أَنْ تَطَّلِعَ عَلَى بَرَاءَتها؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّق أَنَّ بَرِيرَةَ لَا تُخْبِرُهُ إِلَّا بِمَا عَلِمَتْهُ، وَهِيَ لَمْ تَعْلَم مِنْ عَائِشَةَ إِلَّا الْبَرَاءَةَ الْمَحْضَةَ».

[فتح الباري ١٠/ ٨٣]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٨-٦٩].

المطلب السادس

الدروس العسكرية

ـ أهمية تفقد المعسكر بعد رحيل الجند:

يقول د/ الحميدي: «ومن المواقف التي ينبغي الإشارة بها في هذا الخبر ما كان يقوم به صفوان بن المعطل السلمي ﭬ من التأخر وراء الجيش والقيام بالتقاط ما قد يسقط من المسلمين من متاع ثم إيصاله إلى أصحابه، وهذه مهمة فدائية؛ لأن انفراد رجل واحد عن الجيش قد يعرضه للمداهمة من الأعداء.

ولقد قدر الله ـ تعالى ـ أن يكون ما يستدركه هذه المرة أغلى من كل ما يملكه المسلمون ومن جميع كنوز الأرض، أو ليس الله تعالى قد أنقذ به عالمة الإسلام الأولى التي حفظت لهذه الأمة نصف العلم الديني، فكم هو الخير الذي قدمه هذه الفدائي النبيل لأمة الإسلام». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٤].

ويقول د/ أبو فارس: «يلاحظ القارئ الكريم أن الرسول ﷺ قد أبقى صفوان بن المعطل رضي الله عنه وراء الجيش يتفقد المعسكر بعد الرحيل، فإن وجد متاعًا قد تُرك أو سلاحًا قد نُسي، التقطه وحفظه من الضياع، وإن وجد جريحًا أو ضالًّا أو ضعيفًا حمله وألحقه بالجيش، وهكذا فعل صفوان بن المعطل رضي الله عنه لما أدرك عائشة رضي الله عنها.

والجيوش الحديثة تجعل منها سرية تتفقد المعسكر بعد الرحيل حتى لا يبقى شيء من السلاح أو سر يستفيد منه العدو.

ورسولنا محمد ﷺ هو الرائد في هذا، وعلى العسكريين أن يدرسوا سيرته وأن يقتفوا أثره، ويستفيدوا من خططه في قتال عدوه». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٠].

المطلب السابع

الدروس الدعوية

١ ـ ابتلاء الدعاة إلى الله عز وجل:

ولقد أراد الله أن يختبر نبيه ﷺ بحديث الإفك ليظل قمة القمم في الصبر، ومثلًا أعلى للمؤمنين في الاحتساب، فلم يكن هناك لون من الابتلاء يصعب على النفس البشرية تحمُّله إلا والنبي ﷺ ذاقه وصبر عليه واحتسب أجره عند الله.

لقد فقد أحب الناس إليه فصبر، وأوذي في جسده فصبر، وأوذي في عرضه فصبر واحتسب، كان الإفك محنة فصار منحة، كان بلاء فصار وسامًا، ونزلت تبرئه الزوجة العفيفة في قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته أبد الدهر، فهل هناك تكريم لعائشة أكثر من هذا؟ ولقد صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور].

يقول الشيخ عرجون: «وقد لبث ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابرًا صبرًا لم يُعرف في تاريخ النوازل والبلايا لأحد من قبله، ولا لأحد من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد قدومهم المدينة بسبع وثلاثين ليلة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، تحدث به أهل النفاق ومرضى القلوب، ولاكته ألسنتهم بين أشداقهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وكذلك كان حال آل أبي بكر، فإنهم منذ بلغهم (الإفك) وما تحدث به المنافقون ومرضى القلوب وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون، ولكنهم

استسلموا لقضاء الله منتظرين حكمه ـ وهم يتجرعون مرارة الصبر في حيرة وذهول ـ بكشف هذه الغمة التي أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمر رسول الله ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصف عائشة رضي الله عنها لحالها وحال أبويها في أحرج لحظات البلاء:

تقول عائشة رضي الله عنها تصف حال أبويها وحال أهل بيتها، وما بلغت منهم المحنة من شدة عصفت بكيانهم، وزلزلت أقدامهم، وأذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية، فسكتوا سكوت المطلع إلى الغيب، يتسمع حكمه على حياته ـ: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

ثم تقول عائشة رضي الله عنها تصف حالها من الثقة واليقين الإيماني ببراءتها، وتصف حال أبويها وشدة ما نزل بهما حين نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وتغشاه ما كان يتغشاه: «فَأَمَّا أَنَا حِينَ رَأَيْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ، فَوَالله مَا فَزِعْتُ وَلَا بَالَيْتُ، قَدْ عَرَفْت أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ ﷻ غَيْرُ ظَالِمِي، وَأَمَّا أَبَوَايَ فَوَالَّذِي نَفْسُ عَائِشَةَ بِيَدِهِ مَا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَخْرُجَنَّ أَنْفُسُهُمَا، فَرَقًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ الله تَحْقِيقُ مَا قَالَ النَّاسُ». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٨-٢٢٩].

٢ ـ ضوابط الوقاية من تلفيقات أعداء الدعوة:

يقول د/ زيدان: «الضابط الأول: الظن الحسن فيما يسمعه عن إخوانه المؤمنين الدعاة، وأن يتذكر قوله تعالى في تحذيره للمؤمنين: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور].

الضابط الثاني: لا يكفي الظن الحسن في القلب بالنسبة لما يسمعه عن إخوانه الدعاة من أقوال السوء، وإنما عليه أن ينفيه بلسانه ويصرح بهذا النفي؛ لأن المنكر الظاهر يُدفع بشيء ظاهر.

الضابط الثالث: ولا يكفي الظن الحسن والتصريح بنفي وإنكار مقالة السوء، بل على الداعي أن لا يسمح بتسرب شيء إلى نفسه مما يخالف الظن الحسن، وإذا حصل شيء من ذلك في نفسه فلا يجوز أن يتكلم بهذا، بل يردد بلسانه حتى يسمع نفسه وغيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور].

الضابط الرابع: أن يبعد الداعي عن نفسه أي ميل أو محبة أو رغبة في إشاعة الفاحشة، ونهش الأعراض، واتهام الغافلين المؤمنين، يعرف من نفسه حصول شيء مما ذكرنا فيها، إذا شعر بلذة في سماع أقوال السوء، أو رغبة في ترديدها، أو في قوله سمعت كذا وكذا من مقالة السوء، وليتذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور]». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣١٩].

٣ ـ على الدعاة أن يروا في تلفيقات الأعداء خيراً لهم:

يقول د/ زيدان: «ولا يجوز أن تُثَبِّط تلفيقاتُ أعداء الدعوة همم الدعاة، ولا تضعف عزائمهم، وأن لا يحدقوا وينظروا فقط إلى ما في هذه التلفيقات من أذى لهم وضرر عليهم، بل عليهم أن يبصروا من خلالها جانب الخير والمصلحة لهم المتمثلة بالأجر العميم، وبنصرة الله لهم وبتوعد أعداء الدعوة، وليتذكر الدعاة قول الله لرسوله وللمؤمنين الذين تأذوا بحديث الإفك: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النور: ١١]». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣١٩].

٤ ـ المؤمن قد يقع في الخطيئة:

يقول د/ زيدان: «وعلى الدعاة أن يعلموا أن المؤمن قد يقع في الخطيئة، كما وقع بعض المؤمنين في جريمة الإفك المتعلقة بأم المؤمنين عائشة ﵂، مع علو مقامها ومنزلتها من رسول الله ﷺ، فليحذر الدعاة من الوقوع بمثل ما وقع فيه أصحاب الإفك، كما لو صدقوا أهل النفاق في طعنهم بعرض أو بسيرة أمير جماعتهم متعلقين بالشبهات التي يثيرها خصوم الدعوة كاتهام أميرهم بالعمالة للأجنبي؛ لكونه رؤي يتكلم مع بعض أعداء الدعوة أو يختلي به، أو يزوره في سفارة بلاده، وما إلى ذلك».
[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣١٨].

٥ ـ الحذر من المنافقين:

يقول د/ زيدان: «على الدعاة وجماعتهم المسلمة الحذر من المنافقين، الذين يُعرفون من خلال صفاتهم وأقوالهم؛ لما فيها من تشكيك بوعد الله أو تثبيط همم المؤمنين، أو غير ذلك.

قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد ﷺ: ٣٠] أي في فحواه ومعناه وإن لم يصرح به. [تفسير القرطبي ١٦/ ٢٥٢].

أي يُعرف المنافقون فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم؛ لأن المتكلم يعرف من أي الحزبين هو: أمن حزب المؤمنين أم من حزب المنافقين، يعرف ذلك منه بمعاني كلامه وفحواه، كما قال عثمان بن عفان ﵁: **ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه**. [تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٠].

ووجه الحذر منهم التفطن لما يريده المنافق من إشاعة الفُرقة والتهم بين المؤمنين، وإيقاع الشر فيما بينهم، واتهام الأخيار والقادة فيهم، وتأثر بعض المؤمنين بمقالة المنافق، ونشرها ونقلها وإشاعتها كما حصل في حديث الإفك.

وليعلم الدعاة وجماعتهم أن تجمعهم الإيماني لا يجعلهم في نجوة وصيانة من التأثر بمقالات أهل النفاق وقيام بعضهم بنقلها، إن كانوا ليسوا منافقين، كما فعل بعض المؤمنين الذين تأثروا بمقالة أهل

الإفك، ففي مجتمع الصحابة الكرام وهو المجتمع الإيماني وجد فيه من يسمع للمنافقين ويتأثر بأقوالهم، قال تعالى عن المنافقين: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة]، وقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ أي فيكم أيها المؤمنون نمامون يسمعون حديثكم، فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون المنافقين ويطيعونهم. [تفسير الزمخشري ٢/ ٢٧٧].

فعلى الدعاة الكشف عن مكائد المنافقين، وتحذير إخوانهم وأنصارهم من هذه المكائد».
[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣١٧-٣١٨].

٦ ـ الظن الحسن بالمؤمنين وخاصة الدعاة:

يقول د/ زيدان: «من ضوابط الأخوة الإيمانية الظن الحسن فيما بين المؤمنين، فلا يجوز حمل ما يصدر عن المؤمن محملًا سيئًا مع إمكان حمله على المحمل الحسن، وإذا كان هذا الضابط مطلوبًا شرعيًّا بين عموم المؤمنين، فهو مطلوب طلبًا آكد وأشد بين الدعاة أعضاء الجماعة المسلمة، فلا يجوز تأويل تصرفات الداعي من قبل إخوانه الدعاة تأويلًا سيئًا لا يليق به، ولا يتفق وكونه داعية إلى الإسلام.

إن خصوم الدعوة يسعون إلي إشاعة سوء الظن فيما بين أعضاء الجماعة المسلمة من الدعاة وأنصارهم بما يلفقونه من اتهامات، ويزعمونه من أحداث ينسبونها إلى هذا أو ذاك من الدعاة.

فعلى الدعاة أن يحصنوا أنفسهم ضد هذا الأسلوب بالضوابط التي أشار إليها القرآن في حديثه عن أهل الإفك». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣١٨].

٧ ـ المؤمن يري ذنوبه كالجبال:

يقول د/ زيدان: «وعلى الدعاة أن ينظروا إلى ذنوبهم مهما صغرت كأنها جبال توشك أن تقع عليهم، وأن لا يستهينوا ولا يستصغروا أي ذنب، وأن يعلموا بأن الأقوال كباقي الذنوب، وأن خطورتها عظيمة جدًّا لسهولة النطق بها، فليحذر الدعاة من زلات اللسان ومن النطق بما يسخط الله، أو يؤذي المؤمنين والمؤمنات، فرب كلمة لا يلقي قائلها لها بالًا تهوي به في جهنم، وهل أهلك أهل الإفك إلا كلامهم الباطل واتهامهم الآثم لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وليتذكر الدعاة خطر الكلمة تقال في سخط الله، حتى لا يتكلموا إلا بخير. فقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ**». [البخاري في الرقاق (٦٤٧٧)، ومسلم في الزهد والرقائق(٢٩٨٨)].

وقوله: «**مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا**»: أي ما يتفكر هل هي خير أو شر.

وروى هذا الحديث الترمذي وابن ماجه إلا أنهما قالا في روايتهما: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لاَ يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِى بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ**». [الترمذي في الزهد (٢٣١٤)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح]».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣٢٠-٣٢١].

٨ ـ منهج مواجهة الشائعات:

يقول الشيخ المدري: «قد رسم القرآن الكريم لنا منهجًا في مواجهة الشائعات، وما أكثرها في زماننا هذا!!:

فأولى الخطوات: عرض الأمر على القلب، واستفتاء الضمير، فالمؤمن لا ينبغي أن يكون أذنًا يمر الكلام عليه بلا ترو ولا تفهم، إنما بنقد واعتبار، فيتوقف حتى يتبين ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات].

قال تعالى مبينًا للمؤمنين أهمية هذه الخطوة في قصة الإفك: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢].

نعم، كان هذا هو الأولى: أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في هذه الحمأة، وكذلك فعل أبو أيوب الأنصاري ﵁ حينما قالت له امرأته أم أيوب: **أما تسمع ما يقول الناس في عائشة** ﵂ **؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك.**

وهكذا إذا سمع المسلم شائعة أو تهمة ملفقة رمي بها أحد عباد الله الصالحين أو الدعاة المخلصين؛ عليه أن يظن بأخيه خيرًا، ويعلم أبعاد حرب الحق والباطل، وليعلم أن رسول الله ﷺ قبله رُمي في عرضه، لكن الله يدافع عن الذين آمنوا، وليعلم أن هذا هو دأب المنافقين والمأجورين والحاقدين مع عباد الله المؤمنين، الذين يدعون إلى صراط الله المستقيم، وأن هذا هو دأب الجبناء الذين يعملون من خلف الأستار بتلفيق أخس التهم الباطلة، ولكن إن ربك لبالمرصاد.

والخطوة الثانية من منهج مقابلة الشائعات: طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي:

قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٣﴾ [النور]، فعند طلب البينة تتضح الحقيقة، ولن يجد المبطل الأفاك بينة.

ويبين سبحانه وتعالى خطورة الغفلة عن هاتين الخطوتين: قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٤﴾ [النور].

فلقد احتسبها الله للجماعة المسلمة درسًا قاسيًا، فأدركهم بفضله ورحمته، ولم يمسهم بعقابه أو عذابه». [غزوة بني المصطلق للمدري ٤٦-٤٨].

٩ ـ إشاعة العفو والصفح بين الدعاة:

يقول د/ زيدان: «وعلى الدعاة وجميع أعضاء الجماعة المسلمة إشاعة حب العفو والصفح فيما بينهم، فيصفح بعضهم عن بعض إذا صدرت منه الإساءة أو التقصير، فإن الشأن بالأخ الصفح والعفو عن أخيه، وليتذكروا بأن الجزاء من جنس العمل، فإذا عفوا عن المسيء إليهم، جازاهم الله بالعفو عن زلاتهم وذنوبهم، وليتذكروا قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[النور: ٢٢]».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣٢٠].

١٠ ـ تعلم الدعاة تنوع أساليب الإقناع:

يقول د/ رشوان: «تناولت آيات حديث الإفك ـ من الآية ١١ إلى الآية ٢٦ من سورة النور ـ عدة أساليب إقناعية لإثبات البراءة، ومن أهم هذه الأساليب: أسلوب التكرار بالمماثلة اللفظية، وأسلوب القاعدة القرآنية: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة]، وأسلوب الإثبات الصريح بآيات بينات، إلى غير ذلك من أساليب، والتي نود أن نوضح مدى تأثيرها كأساليب إقناعية؛ لحمل المتلقي على الاقتناع بها؛ لإثبات البراءة، على النحو التالي:

١ ـ **أسلوب التكرار بالمماثلة اللفظية**: تضمنت الآية ٢٦ من سورة النور، في قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ تضمنت تكرارًا بمماثلة لفظية، وهي ما تُعرف بالمشاكلة أو المشابهة اللفظية عند أهل البديع، حيث يُذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته».

[المعجم الوسيط ١/ ٤٩١].

وجاء التكرار بهذه المماثلة اللفظية في هذه الآية بأربعة طرق، وهي:

أ ـ ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾. ب ـ ﴿وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾.

ج ـ ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾. د ـ ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

والملاحظ أن هذا التكرار، بتلك المماثلة اللفظية، يمثل تغايرًا في شكل الألفاظ، وإثبات المعاني بطرق مختلفة، بالسلب مرة وبالإيجاب تارة أخرى، مما أعطى المعنى الإجمالي، بصور متباينة في النظم، ومن ثَمَّ برز المعنى، بشكل أكثر جلاءً وبيانًا. **[روائع الإعجاز في القصص القرآني ـ د/ محمود السيد حسن ـ المكتب الجامعي الحديث ـ الإسكندرية ١٩٨٢م، ص ١٤٢].**

إن المتأمل في هذه التكرارات، في هذه الآية، يجد أنها جاءت كوسيلة إقناعية مؤثرة؛ لتحقيق عدة أهداف، منها:

أ ـ جذب الانتباه، ولفت النظر إلى خطورة الموضوع الذي تتناوله هذه الآية، وحمل المرء على اليقظة وتركيز الانتباه، حتى يمكن استيعاب المعاني بشكل أكبر، وفهم المراد بطريقة أيسر.

ب ـ تأكيد معنى الدقة والصدق، عند عرض المعلومات القرآنية في هذه الآية.

ج ـ الاستجابة لما تتطلع إليه النفس من انجذاب وتشويق، وذلك من خلال التنقل في الألفاظ المتجددة والاستلذاذ بها. [روائع الإعجاز في القصص القرآني ـ د/ محمود السيد حسن ص ١٤٢].

د ـ المساعدة على ترسيخ المعلومات القرآنية وتثبيتها، وتسهيل حفظها وتذكرها، إذ أن من بين العوامل التي تساعد على حفظ القرآن، تكرار قراءته، وخاصة إذا كثرت المماثلات اللفظية، كما في هذه الآية التي نحن بصددها.

هـ ـ أن التكرار في هذه الآية يعمل على إبراز جانب مهم في كل مرة، وذلك بتركيز الأضواء على كل جانب، وعندما تتجمع هذه الجزئيات الموزعة، فإنها تساعد على استعراض الموقف بصورة متكاملة واضحة.

و ـ عرض المعنى المطلوب وتأكيده بمعنى عكسي له، بمفهوم المخالفة، وذلك من خلال التكرار والتكرار العكسي.

وفي ضوء ما تقدم، يمكن القول بأن التكرار بالمماثلة اللفظية سالفة الذكر، بأهدافه المختلفة، يُعد من أعظم الوسائل الإقناعية المؤثرة في المتلقين، وإثبات البراءة أمامهم بجلاء ووضوح.

٢ ـ أسلوب قاعدة ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة]: إن الثقة والاطمئنان والإيمان الكامل، بسلامة الموقف، وبراءة المدعى عليه، تجعل من السهولة بمكان اتباع سياسة التحدي وتعجيز مروِّج الشائعة، وذلك بأن يطلب منه تقديم الأدلة والبراهين، إن كان من الصادقين، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة].

هذا ويلاحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ ولم يقل (إذا كنتم صادقين)، حيث إن (إذا) للتوقع، و(إن) للشك أو للاحتمال أو للندرة أو للاستحالة... إلخ، والمعنى أن يكون هناك استحالة لصدقهم.

وهذه القاعدة القرآنية، من أقوى أساليب الإقناع؛ لاعتمادها على أدلة قاطعة وحجج دامغة، يصعب أو يستحيل إنكارها؛ ولذلك وجَّه القرآن ـ بأسلوبه المعجز ـ تطبيق هذه القاعدة، فطلب من مروجي شائعة الإفك، تقديم الدليل على صدقهم، وذلك بأن يقوموا بتقديم شهادة أربعة، على صدق ادعائهم، فإذا عجزوا عن الوفاء بهذا المطلب، فقد أثبتوا على أنفسهم الكذب البين والفرية الباطلة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾[النور].

والملاحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ قال: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾، ولم يقل: (فإن لم يأتوا بالشهداء)؛ لأن (إذ) للتوقع، و(إن) للشك أو للاحتمال أو للندرة أو للاستحالة... إلخ، كما سبق أن قدمنا، وبذلك يكون المعنى التوقع بعدم إيتائهم بالشهداء، والتوقع أيضًا بكذبهم وافترائهم تبعًا لذلك.

وعلى الرغم من أن هذه الآية، قد حددت الشهداء من حيث عددهم، ولم تحدد أو تقيد صفاتهم، كأن يكونوا ممن يرضى عنه المدعى عليه، أو من ذوي العدل، كما جاء في مواضع أخرى من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾[الطلاق: ٢]، إلى غير ذلك من آيات؛ وذلك لتوبيخ هؤلاء الأفاكين والتهكم عليهم والسخرية منهم، والاستهزاء بهم، وتحديهم... إلخ. [تفسير سورة النور ـ لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ـ مراجعة د/ عبد العلي عبد الحميد حامد ـ الدار السلفية ـ بومباي ـ الهند ١٩٨٧م، ص ١١٣].

وهنا صُدم هؤلاء المجرمون، وأُصيبوا بخيبة أمل؛ لعجزهم عن تحقيق هذا المطلب، وفضحهم على الملأ، بأنهم مختلقون كاذبون، بأعلى مستوى من الكذب والافتراء.

٣ ـ أسلوب الإثبات الصريح بآيات بينات: حددت الآية رقم ١١ من سورة النور، مروجي شائعة الإفك تحديدًا جليًّا قاطعًا، وفضحت عظم كذبهم وجرم افترائهم، بدليل أنها حددت الشائعة بكلمة إفك، وهو أشد حالات الكذب افتراءً وفحشًا.

ومن ناحية أخرى، تضمنت الآيات من رقم ١٢ إلى رقم ٢٥ من هذه السورة، تضمنت تحديدًا أكثر، لما يستحقه مروجي الشائعة، من تأنيب وتوبيخ وزجر وتوعد وإنذار؛ لعدم العودة إلى مثل هذه الفعلة الشنعاء، إلى غير ذلك من تحديدات صريحة لجُرم هؤلاء الأفاكين.

فإذا أضفنا إلى ما تقدم ما تضمنته الآية رقم ٢٦ من هذه السورة، من نص صريح على هذه البراءة، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، لَتبين أن هذه الآيات جميعها تؤكد بعد هذه التحديدات أنه لا وجود أصلًا لموضوع شائعة، تثبت بطلانها وزيفها، ومن ثم يتفجر نور الحق ببراءة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وصفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه من هذه التهمة، براءة تامة قاطعة، كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب عليه السلام، في قصة يوسف عليه السلام، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ [يوسف: ١٨]». [حديث الإفك من المنظور الإعلامي لرشوان ١٠٣-١٠٧].

١١ ـ حديث الإفك وخطورته على الصف المسلم:

يقول د/ الغضبان: «اخترت هذا العنوان (حديث الإفك) على طبيعته، لأَصِلَ بهذا المصطلح الخاص إلى النص العام الذي لا بد أن يشعر به أبناء الصف المسلم وخطورة أخذهم بالإشاعة دون تثبت وكيف أن الإشاعة كفيلة بتحطيم هذا الصف كله.

إنه وإن تجسد باتهام الصديقة بنت الصديق عائشة ، لكنه صورة قد تتكرر في كل جيل وتضع النَّيْل من القيادة هدفًا رئيسًا لابد من تحطيمه، وحين تعجز القوة المادية عن النَّيْل من القيادة فليس أمام العدو إلا الحرب المعنوية على هذه القيادة وتحطيمها من خلال هذه الحرب؛ ولذلك لن نتناول حديث الإفك كحدث تاريخي بتفصيلاته ودروسه، ولكننا سنتناوله من خلال حرب الإشاعة التي يبثها العدو المنبث في الصف ضد القيادة.

وأهم ما في هذا الحدث هو أن مصدر الفرية ـ على ما يبدو ـ هم المنافقون تحت راية زعيمهم عبد الله ابن أُبي، وحين يتحصن الصف من الفِرية، وتبقى في صفوف المنافقين فلا خطر منهم ولا هَمَّ، لكن عندما تنتقل إلى داخل الصف المسلم فتسري فيه سريان النار في الهشيم عندئذ يبدو خطرهم الكبير.

والنص القرآني حين تحدث عن هذه الحادثة، كان يخاطب الصف المسلم أكثر مما يخاطب صف المنافقين، ويحمل على المؤمنين الصادقين الذين تأثروا بهذه الفرية، واستجابوا للحديث في الظنة دون بينة، والنقاط المحددة التي نعرض لها في هذا الحديث المؤتفك هي ما يلي:

أولاً: البعد عن مظان التهمة واجب أساسي على الصف المسلم، وعليه أن يعلم ـ وخاصة القيادة ـ أنه هدف لأنظار العدو والصديق، فيتجنب ما استطاع البعد عن موطن الريبة.

ثانيًا: عدم الأخذ بالإشاعة كما يقول القرآن الكريم: ﴿ **لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾** ﴾ [النور].

وأي خبر غير موثق بالنسبة للفرد المسلم هو مرفوض عنده، وليعلم هذا الأخ أن رواية الإشاعة، وتناقل الخبر غير الموثق تحيله إلى أخ كاذب. وهذا حكم القرآن في أمثال هؤلاء، هم الكاذبون عند الله، ولو لم يفتر الكذب، لو كان نقله صدقًا محصنًا عمن سمع منه فهو عند الله تعالى من الكاذبين.

ثالثًا: ليبق الميزان الحساس في الحكم على الإشاعة هو الميزان الذاتي، فلابد من ثقة الأخ بإخوانه ثقته بنفسه، وقد أقر القرآن الكريم هذا الميزان وأثنى عليه وذلك بمناسبة الحديث الذي جرى بين أبي أيوب الأنصاري وزوجه أم أيوب إذ قالت لزوجها: «**يَا أَبَا أَيُّوبَ! أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ الْكَذِبُ، أَكُنْتِ يَا أُمَّ أَيُّوبَ فَاعِلَةً؟ قَالَتْ: لَا وَاللهِ، مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَهُ، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْكِ**».

ونتمنى لكل أخ وهو يثير الإشاعة بحق أخيه أو قيادته أن يحسب على أقل تقدير أن أخاه أو مسؤوله ليس أقل حرصًا على دينه منه، وليس أقل دينًا وورعًا منه، ولو نفذ هذا الميزان الذاتي، لانهارت الإشاعة وانهار الإفك من جذوره.

رابعًا: أن لا يتدخل الهوى إطلاقًا في قضية النقل للإشاعة والمساهمة فيها وصورتان متنافرتان لاتباع الهوى في الإفك، وللتبرؤ منه، والصورتان هما لأختين مسلمتين شقيقتين الأولى: هي زينب بنت جحش ﵂، والثانية: لأختها حمنة بنت جحش، فقد أورد المقريزي عن زينب هذا الحوار بينها وبين رسول الله ﷺ: قالت: (**حاشى سمعي وبصري، ما علمت عليها إلا خيرًا، والله ما أكلمها وإني لمهاجرتها وما كنت أقول إلا الحق**). [إمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ٢٠٨].

وأن تستطيع ضُرَّة أن تكتم هواها فلا تمضي في الإشاعة يدل على المستوى العظيم الذي بلغته هذه المرأة المسلمة والأفق العالي الذي ارتقت عليه، وهذا ما دعا عائشة ﵂ أن تبرئ ساحة زينب ﵂ من ولوغها في هذه الفرية.

تقول ﵂: (**ما كان أحد يساميني عند رسول الله ﷺ إلا زينب بنت جحش**)، فقد وضعتها في موقعها الصحيح من طبيعة المنافسة مع عائشة ﵂، لكنها مع ذلك لم تجد حرجًا من الثناء عليها في هذا الموقف فقالت: (**أما زينب فقد عصمها الله بدينها فلم تقل شيئًا**).

أما الموقف الثاني، فهو موقف أختها حمنة، التي انطلقت في الإشاعة تنقلها من بيت إلى بيت، ولا شيء يقف في وجهها، وذلك ثأرًا لأختها زينب.

تقول عائشة ﵂: (**أما أختها حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادني لأختها فهلكت**).

ولا نتمالك من الإعجاب العظيم بعائشة ﵂، إذ استطاعت أن تفصل بين الموقفين للأختين الشقيقتين، ولم تُحَمِّل زينب شيئًا من وزر أختها حمنة.

خامسًا: موقف المفترَى عليه، هو أثقل الأدوار وأضخمها في حديث الإفك.

والمنهج الذي يجب أن يسود في هذا الصدد هو أن لا يقابل الافتراء بافتراء آخر ولا تقابل الإشاعة المؤتفكة بإشاعة أخرى، وأن يتمالك الأخ المفترَى عليه فلا يطلق لسانه في أعراض الآخرين ولو اعتدي عليه حتى تتم براءته وتبرئته، هو موقف أصيل ندعو إليه هذا الأخ في هذا المجال، ونلحظ موطن القدوة من العناصر الثلاثة الذين نيل من عرضهم في حديث الإفك.

أولهم: محمد رسول الله ﷺ، وهو سيد الأمة والبشرية، وهو الحاكم والقائد، وبيده السلطة، وبإشارة واحدة منه يمكنه أن ينهي حياة الوالغين في عرضة، ومع ذلك لم يملك في هذا الأمر بعد أن استشار كبار أصحابه إلا أن يخطب في المسلمين قائلًا على المنبر بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «**أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمتُ منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي**».

وعندما وقعت الأزمة بين الفريقين الأوس والخزرج لم يكن ليملك ﷺ إلا أن يكون حكمًا بينهما رغم أن أحد الفريقين يدافع عن الوالغين في عرض عائشة ﵂ والآخر يهاجمهم، ومع ذلك فقد أرضى الفريقين ولم يتحيز لأحدهما لأنه لا يملك البينة ليرد بها على الفريق المتهم، وحتى عندما تجاوز صفوان ﵁ في ثورته لنفسه وضرب حسان بن ثابت ﵁ على اتهامه لم يسنده رسول الله ﷺ من الخلف ويشجعه على تجاوزه قبل صدور البينة مع أنه يبرئ أحب الناس إليه عائشة ﵂، وقد حضر حسان وصفوان عند رسول الله ﷺ ولنستمع إلى تلك المحاكمة الهادئة للجنديين المتجاوزين!

قَالَ ابْنُ المعَطَّلِ: يَا رَسُولَ الله! آذَانِي وَهَجَانِي، فَاحْتَمَلَنِي الْغَضَبُ فَضَرَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِحَسَّانَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ، أَتَشَوَّهْتَ عَلَى قَوْمِي أَنْ هَدَاهُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ فِي الَّذِي أَصَابَكَ**»، قَالَ: هِيَ لَكَ يَا رَسُولَ الله.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْطَاهُ عِوَضًا مِنْهَا بَيْرُحَاءَ، وَهِيَ قَصْرُ بَنِي حُدَيْلَةَ الْيَوْمَ بِالمدِينَةِ وَكَانَتْ مَالًا لِأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى آلِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَعْطَاهَا رَسُولُ الله ﷺ حَسَّانَ فِي ضَرْبَتِهِ وَأَعْطَاهُ سِيرِينَ، أَمَةً قِبْطِيَّةً، فَوَلَدَتْ له عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانَ.

وهكذا كلفت ضربة صفوان لحسان ﵄ أرضًا وجارية وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت ﵁ بعد عفوه عن صفوان بن المعطل ﵁، وكان هذا العطاء لمن ينشد الشعر في اتهام زوجته ويمضي في الإشاعة دون توقف.

وثانيهم: هو أبو بكر ﵁ وزوجه أم رومان وقد نزل بهم من البلاء ما لم ينزل بمسلم وأقصى ما قالته أم عائشة التي تعرض عرضها للثلم والإهانة: **أي بنية خفضي عليك الشأن، فو الله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.**

ولم يتمالك أبو بكر ﵁ أن يقول: (**ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر، والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية حيث لا نعبد الله، فيقال لنا في الإسلام!**).

وثالثهم: عائشة ﵂ التي لم تنته عن البكاء حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدها.

وحين ووجهت بالأمر من رسول الله ﷺ يسألها عن الحديث فقالت: (**إني والله قد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث، فوقع في أنفسكم فصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أني منه بريئة لتصدقنني، وإني والله ما أجد لي مثلًا إلا أبا يوسف إذ يقول: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**).

إنها مواقف لا يحمل التاريخ لها مثيلًا من أطهر أهل الأرض يوصمون بشرفهم وعرضهم ومع ذلك فلم يخرج أحد منهم عن طوره، ولا أطلق لسانه في عِرض أحد، وضبط كل واحد منهم أعصابه، وأما

الذي خرج عن طوره فهو صفوان بن المعطل ﷺ، وضرب حسان ﷺ بالسيف وكاد الأمر أن يستفحل لولا أن عالجه رسول الله ﷺ.

إنه أدب الإسلام العظيم مع الذين يرددون الإشاعة ويسيرون في الإفك قبل أن تعرف أنها إفك أو إشاعة.

سادسًا: والموقف الأخير الذي نستخلصه من حديث الإفك هو عقوبة المغترين اللاغطين المثيرين للفتنة، فلا يكفي أن تثبت براءة المتهم، ولا يكفي أن تدفع القيادة عنها قالة السوء وانتهى الأمر.

بل لابد في الصف المسلم من العقوبة الصارمة مع من يثير الإشاعة ويسعى في نشرها بعد التثبت منها، وما تعانيه الحركة الإسلامية اليوم هو إهمال ملاحقة مثير الإشاعة وناقل الإفك، وبذلك لا تنتهي الجماعة من فتنة إلا وتقع في أخرى، ويكفي أن نعلم أن حُكم الإسلام كان في هؤلاء الثلاثة الذين ساروا في الإفك، مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، أن أقيم عليهم حد القذف ثمانين جلدة، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أن هذا الحد طُبق فيما بعد ولم ينفذ عليهم لأنهم خاضوا في التهمة قبل نزول الحدود.

والحديث عن هذه السمة يأتي في هذه المرحلة لأن تاريخ الدعوة لم يشهد مثيلًا لها من قبل وفي الصف المسلم بالذات، وطبيعة المرحلة إذن هي أن الإشاعة تسري حين يضعف البناء الداخلي ويستجيب لها، لكن عندما تنشغل الأمة بالجهاد والمواجهة، فقلَّما تستطيع الإشاعة أن تفعل فعلها في النفوس».

[**المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ٧-١١**].

١٢ ـ تشويه صورة رسول الله ﷺ والدرس الدائم:

يقول م/ أبو راس: «عفا النبي ﷺ عن عبد الله بن أُبي في مقولته الآثمة التي تنصل منها وأثبتها القرآن الكريم عليه، إلا أن هذا العفو لم يؤثر في النفوس المريضة، ولم يزدها الإحسان إلا جحودًا ونكرانًا، فعبد الله بن أُبي اختفى كالعقرب ثم شرع يلسع الغافلين، وانحط غاية الانحطاط وهو يتهجم على الأعراض المصونة بما نسجه من مفتريات يندى لها الجبين، قاصدًا بذلك أن يدمر على الرسول ﷺ بيته، وأن يسقط مكانته، وأن يدفع المجتمع المسلم إلى حضيض الهاوية وهو يرى رمزه يُطعن في أعز ما عنده.

لقد استباح عبد الله بن أُبي لنفسه أن يرمي بالفحشاء سيدة لم تتجاوز مرحلة الطفولة البريئة بعد، سيدة تربت في حجر الصديق ﷺ، وأُعدت لصحبة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة.

لقد فشل المنافقون فشلًا ذريعًا في تفريق الصف المسلم، وذلك بما حاولوا إثارته بين المهاجرين والأنصار، فحاولوا تشويه صورة رسول الله ﷺ في عيون العامة من الناس الذين تلقفوا الخبر دون تريث أو تفكير، ذلك أن اهتزاز صورة القائد اهتزاز للدعوة التي يدعو إليها.

وهذه الوسائل الخبيثة لم تتوقف حتى يومنا هذا، فأعداء الله، وأعداء الدعوة إلى الله ﷺ أخزى وأحقر من أن يحاربوا الإسلام وتعاليم الإسلام في وضح النهار هكذا وجهًا لوجه، وهم علاوة على ذلك لا يستطيعون مجابهة حقائق القرآن الدامغة بأباطيل وترهات لا يصدقونها هم أنفسهم فضلًا عن القدرة على إقناع الآخرين بها!

لذا فهم يعمدون دائمًا وأبدًا إلى تشويه صورة القائمين على الدعوة إلى الله ﷺ، علهم بذلك يعزلون عامة المسلمين عنهم ويحيدوهم ـ على أقل تقدير ـ إن لم يستطيعوا جلبهم إليهم.

وشعوبنا الإسلامية للأسف الشديد ليست شعوبًا (وثائقية)، تتابع الخبر ومصادر الخبر لتقف على الحقيقة، ولكنها تسمع أو تقرأ بالخط العريض في صحيفة من الصحف أن فلانًا من الدعاة عميل لأميركا، أو عميل لروسيا! فلا تطالب الكاتب إثبات ما يقوله بالحجة والدليل الواضح، ولكنها تصدق هذا فقط لأنه كُتب في الصحافة! ولا تتوقف عند التصديق ولكنها تطير في الخبر لتنقله إلى حيث تستطيع!

إن على شعوبنا الإسلامية أن تعلم حقيقة الصراع بين الحق والباطل، هذا الصراع الذي لن ينتهي ما دامت السماوات والأرض، وعليها أن تعلم أنها ـ أي الشعوب الإسلامية ـ في ساحة المعركة، ففي الحين الذي يحاول الدعاة إلى الله ﷺ النهوض بأممهم وشعوبهم؛ ليكونوا على مستوى الإسلام وحاجات الإسلام، وعلى مستوى العصر وحاجات العصر، وفي الحين الذي يحاول فيه الدعاة جمع المسلمين على الإسلام وتثقيفهم به، وتربيتهم عليه أفرادًا وجماعة، وتأهيلهم لحمله، وتنظيم جهودهم في العمل له والجهاد من أجله، في هذا الحين يحاول الآخرون لفت أنظار الشعوب عن الحقيقة الدامغة وعن الطريق المستقيم المستقل المتميز الذي يوصل إلى خيري الدنيا والآخرة، وذلك عن طريق ما يطلقونه من «بالونات ساخنة مضللة» وتُهمٍ عارية عن الصحة في أوساط الشعوب الإسلامية.

فهل تكون شعوبنا على المستوى المطلوب منها؟! وهل يترفع الدعاة عن الشبهات التى سيحاول الاعداء استغلالها وتضخيمها لا للنيل من أشخاصهم فقط ولكن أيضًا للنيل من الإسلام والدعوة إلى الإسلام؟!». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٣٣، ٢٣٧-٢٣٨].

١٣ ـ خطورة إشاعة الفواحش والمنكرات الإعلامية:

يقول د/ رشوان: «يجد بعض الناس متعة في إشاعة الفواحش، ولذة في نشر الفضائح والمثيرات، وإذا كان هؤلاء الناس يتورطون في ممارسة هذا اللون من القبائح، فإن بعض وسائل الإعلام يتورط في نشر الفضائح، وإثارة الفتن، وغيرها من المثيرات، التي تحرك الغرائز، وتثير الشهوات.

وهذه القبائح، وتلك المثيرات، من المنكرات، التي ينكرها الشرع، وتُغضب الله ﷻ، وتنفر منها النفوس الصحيحة، إلى غير ذلك من سلبيات.

صور من المنكرات الإعلامية: ونظرًا لتعدد وكثرة ما تنشره وتبثه وسائل الإعلام من منكرات ومثيرات؛ لذلك رأينا أن نعطي نماذج، على سبيل المثال، منها ما يتعلق بإفساد الجماهير، ومنها ما يتعلق بتضليلهم، وأخرى تهتم بتجهيلهم، ورابعة تتعلق بإفشاء الفضائح والأسرار، إلى غير ذلك من صور ونماذج، والتي نقدمها على النحو التالي:

١ ـ إفساد الجماهير: تتورط بعض وسائل الإعلام في تحريك الشهوات وإثارة الغرائز الجنسية، من خلال ما تنشره من أخبار الجنس، وحوادث الاغتصاب، ونشر الصور الفاضحة، والحوادث المثيرة، مثل عرض تفاصيل شبكات الدعارة... إلخ.

كما تفسد أخلاق الجماهير الشابة، من خلال ما تنشره من إعلانات عن أفلام الجنس والمغامرات العاطفية، وما تستغله من نجوم إعلانية وفتيات الإعلان التي تظهر بملابس تبرز مفاتنها ومواطن الإغراء فيها، وقيامها بحركات مثيرة كلها ميوعة وخلاعة، وبالرقص تارة، وبتلعيب العيون والحواجب تارة أخرى، وبهز الوسط والأرداف تارة ثالثة، إلى غير ذلك من إثارات شهوانية وحركات استفزازية للشباب، إنها إعلانات تتآمر على تشويه صورة المرأة وجعلها مثالًا صارخًا للإثارة الجنسية والعلاقات الشاذة، والإباحية، إلى غير ذلك من تشويهات، واعتداءات على شخصية المرأة، والنَّيل من مكانتها الاجتماعية وكرامتها الإنسانية.

إن مثل هذه الوسائل تتعمد نشر موادها بصراحة داعية إلى الانحراف ومحرضة على تحطيم القيود والقيم الاجتماعية، وذلك من خلال ما ينشر من أخبار العنف والإرهاب بأسلوب إغرائي، يحث على الانحلال وارتكاب مثل هذه الجرائم، أو محاكاتها، وتقليدها، وكذلك من خلال ما يعرض من فنون هابطة، ودعوة إلى تدني الذوق العام، والعمل على تدهور مستوى السلوك والأخلاق، كما تبث هذه الوسائل سمومها لتلويث المفاهيم، وتعطيل العقول، وذلك من خلال ما تنشره من مسلسلات حافلة بتجارة المخدرات وتعاطيها، وما تعرضه من حيل النصابين والغشاشين، والأفاكين... إلخ، بطريقة مثيرة للإعجاب والاستحسان، إلى غير ذلك من مجالاتٍ لإفساد الجماهير وتحريك مشاعرهم نحو المتع الزائفة، والسلبيات الهدامة وغيرها من مجالات الانحطاط الخلقي والفساد الاجتماعي.

٢ ـ تضليل الجماهير: هناك صور لا حصر لها من صور تضليل الجماهير وخداعهم، نذكر منها: ما ينشر من إعلانات إغرائية، مثل الإعلان عن السجائر، بإخراج إعلاني رائع، ثم يختتم الإعلام بذيل يحمل عبارة (التدخين ضار جدًّا بالصحة) بحروف صغيرة تكاد لا يلتفت إليها المُعْلَن إليهم، وهنا يكون التناقض والتضليل والاستخفاف بعقول الجماهير، ومن الصور التضليلية أيضًا تلك الإعلانات التي

تنشر عن سلع وشرح خصائص مُبالغ فيها إلى حد الكذب والتغرير بالمستهلك، وكذلك الإعلانات التي توقع المستهلكين في حبال الإغراءات البيعية والإعلانية لإثارة العواطف ومداعبتها، وبُعدها عن الإقناع العقلاني والإثبات المنطقي، فتدفع المستهلكين إلى الإسراف والترف والتبذير بدون مبرر، وما يترتب على ذلك من إرهاق لميزانياتهم، بل وقد تصل إلى حد توريطهم ودفعهم للاقتراض، وإيقاعهم في أزمات مالية خانقة، متعارضين في ذلك مع قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء].

٣ ـ **تجهيل الجماهير**: هناك سلبيات متعددة تمارسها بعض وسائل الإعلام، سواء عن قصد وعمد أم عن جهل وتجهيل، منها ما تنشره من تفاهات وسطحيات؛ استخفافًا بعقول الجماهير، وعدم احترام تطلعاتهم، ومن أمثلة التجهيل أيضًا استخدام ألفاظ ومفردات بذيئة وعبارات فجة منفرة، أصبحت تجري على ألسنة الناس التي تأثرت بما تردده بعض وسائل الإعلام، وكذلك ما تنشره من معاني هابطة، ومفاهيم متدنية.

ومن بين الصور التجهيلية تلك التي تغري البعض على الانتماء والولاء لبعض المصطلحات والمفردات الغربية، والتعامل بالمسميات الأجنبية بدعوى التحضر ومسايرة ركب التقدم كمحاولة للتخلص والتبرؤ من لغتنا العربية لغة القرآن، بل هي محاولة للانغماس في تقاليد الغرب، والاستجابة للغزو الفكري والثقافي المغرض، ويتم تجهيل الجماهير أيضًا من خلال ما ينشر عن أزياء آخر صيحة المستوردة من الغرب، وما تحمله من كلمات وعبارات قبيحة، وما تأخذه من أشكال شاذة غريبة، وما تتميز به من ألوان منفرة، بدعوى مسايرة (الموضة MODE) ومواكبة التمدين، ومحاولة إغراق الجماهير في عادات وتقاليد أجنبية بعيدة كل البعد عما يتفق مع قيمنا الإسلامية وضوابطنا الشرعية.

ومن السلبيات التجهيلية للجماهير تلك التي تمس رجال علوم الدين ومعلمي اللغة العربية، فتارة تتعمد بعض وسائل الإعلام الهجوم على هؤلاء العلماء، واتهامهم بالتخلف والرجعية والجمود الفكري، وتارة تستهزئ بهم وبالمواد الدينية، وإذا سمحت بنشر هذه المواد، فإن نصيبها مجرد مساحات قليلة في الصفحات الأكثر إهمالًا والأقل أهمية، في الصحافة المقروءة، أو إذاعتها في أوقات غير مناسبة في الصحافة المسموعة والمرئية.

بل ومحاولة الاستهزاء بمدرسي المواد الدينية والشرعية، وتشويه صورة المأذون الشرعي والسخرية منه، إلى غير ذلك من صور الاستهزاء والتحقير، بطريقة لا تخدم إلا الغزو الفكري، وتحقيق تمنيات أعداء الإسلام، لتجهيل الجماهير المسلمة.

٤ ـ **إفشاء الفضائح وكشف الأسرار:** لنا أن نسأل كم صحيفة من صحف الإثارة (Sensational Journalism) والصحافة الصفراء (Yellow Press) تتورط في إفشاء أسرار العائلات، والخوض في أعراض الناس، وتتعمد إفشاء الفضائح والقبائح، وغيرها من المثيرات؟ وكم من صحيفة ترتكب من الجرائم، مثل: جرائم القذف والسب العلني، والسخرية والاستهزاء، والتشهير؟

وكم من عدسات سينمائية أو تلفزيونية أو فيديوية... إلخ، تتفنن في عرض هذه المنكرات الإعلامية؟ وكم منها يرتكب على خشبات المسارح، ومن خلال المصورات (الكاميرات) الخفية، وخاصة المقربة (التليسكوبية) منها، التي تتجسس عن بعد؛ لتكشف عن كل ما يحرك الغرائز ويثير الشهوات؟

وكم أجهزة التنصت (وليس التصنت) تتلصص عن بُعد؛ لتكشف عن أدق خصوصيات الناس، وتفضح أسرارهم، إلى غير ذلك من منكرات ومحرمات.

إشاعة الفواحش والمنكرات الإعلامية وحرية الرأي: قد يقول قائل: إن النقد الإعلامي للفواحش والمنكرات الإعلامية، يتعارض مع حرية الرأي والاختيار، ورفضها أو على الأقل تحجيم مساحتها، إلى درجة كبيرة كما يشيع أعداء الإسلام.

ويرد على ذلك أن الإسلام كرَّم الإنسان، وحفظ حقوقه الشخصية، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

ومن ناحية أخرى، فإن حرية الرأي والفكر، وحرية الاختيار، قد أتاحها الإسلام، ولم يصادرها كما يدعي البعض، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس].

فالحرية هنا متاحة، والاختيار متوافر، دون ضغط أو إكراه أو خوف... إلخ.

كما أن هناك دليل آخر ن يؤكده القرآن لحرية الرأي وحرية التعبير، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة]، فقد فتحت هذه المجادلة التحاور والمناقشة وإبداء الرأي، إذ جرى هذا الحوار بين امرأة ـ زوج أوس بن ثابت ـ تعبر عن رأيها، وتناقش الرسول ﷺ، في مسألة ظهار زوجها لها، وينزل القرآن يقر هذا التحاور وتلك المناقشة، ويجعله قرآنًا يُتلى.

وهنا يثور سؤال، وهو: إلى أي حد تُطلق هذه الحرية؟ هل تُطلق الحرية لنشر الفواحش والمنكرات الإعلامية ـ كالنماذج التي ذكرناها ـ بشكل مطلق وبدون حدود؟ أو بمعنى آخر: هل يجوز اتخاذ مبدأ

حرية الرأي، كمبرر لإفشاء هذه الفواحش وتلك المنكرات الإعلامية بغير ضوابط؟ فالحق والحرية تنتهي عندما تبدأ حقوق الآخرين كما يقولون [ملحق جريدة الأهرام ١٠/ ١٢/ ١٩٩٣م ص ١١]، ومن ثم فإن إفشاء هذه الفواحش وتلك المنكرات الإعلامية، يُعد اعتداء صارخًا على حقوق هؤلاء.

وإذا كان هذا الاعتداء، هو اعتداء على الآخرين، وعلى المجتمع بشكل عام، فإن الاعتداء الأكبر، هو المساس بحرمة الدين، وما يحكمه من عقيدة وشريعة وعبادة، ولا يقصد بالدين أن يكون سجنًا وقيدًا، بقدر ما هو ضوابط وقائية لحماية الفرد والمجتمع معًا، ويضمن سعادة الدنيا والآخرة، فالدين يحارب الفساد والمفسدين؛ لما يؤدي ذلك من إفساد للأخلاق، واعتداء على الفضيلة والآداب العامة، إلى جانب إثارة الفتن، وما تحدثه من اضطرابات في المجتمع، وتفرق مفرداته، وتشتيت اتجاهات الرأي العام، والإخلال بانسجام تكويناته ووحدة أهدافه، والعبث بقيمه وأخلاقياته.

والسؤال الآن: هل تُمارَس حرية الرأي بالطريقة التي تشيع معها الفواحش والمنكرات الإعلامية بلا حدود، على حساب هذه الأهداف النبيلة؟ أم تُطلق حرية الرأي هذه، بحيث تضبط ولا تتعدى الإطار الشرعي، الذي يحافظ على هذه الأهداف.

عتاب وتوجيه إلى وسائل الإعلام المنحرفة: إن هذا النقد الإعلامي، وما يثار عن تقويم الممارسات الخاطئة للإعلام، أثبت أن بعض المسؤولين عن الإعلام في عالم آخر، بدليل أن المنكرات الإعلامية التي تنشر، لا تزال تشغل حيزًا كبيرًا من صفحاتها وبرامجها.

إن وسائل الإعلام لا تعد مسؤولة عن نشر هذه المنكرات فحسب، بل هي في المقام الأول مسؤولة عن تغيير المنكر، إذ أن هذه الوسائل الإعلامية، هي المقصودة في المرتبة الثانية ـ مع غيرها من المسؤولين ـ من تغيير المنكر، التي أوجبها الرسول ﷺ، وهو التغيير باللسان، حيث إن التغيير باليد من سلطات الحكام، مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**».

[مسلم في الإيمان (٧٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٣)، ومسند أحمد ١٧/ ١٢٧ رقم ١١٠٧٣١].

إن بعض المسؤولين عن الإعلام في عالم آخر حقًّا، عالم يختلف عن هذه النداءات، إننا نتساءل: ولماذا هذا الإصرار؟ وما هي دوافعه؟ لذلك نود أن نلقي بعض الضوء على هذه الدوافع، ثم نعطي مثالًا للإصرار على هذه المنكرات، ومثالين آخرين على التخلي عن أنواع من الإصرار، مارسته للأسف جهات غير إسلامية، مما يدل على تحول بعض الجهات غير الإسلامية لتصحيح مسارها الإعلامي، لتغيير هذه المنكرات، وعدم اتخاذ خطوة مماثلة، من جانب المسؤولين عن الإعلام في الدول الإسلامية، وبعد ذلك ننهي حديثنا بتوجيه كلمة ختامية لهذه الوسائل، وذلك على النحو التالي:

(١) **دوافع الإصرار على المنكرات الإعلامية:** وهنا نسأل وسائل الإعلام: ما الذي يغري بعضكم على إشاعة الفواحش والمنكرات الإعلامية، ولماذا الإصرار على تلك الممارسات الضالة المضلة؟ هل هو إصرار تحت تأثير حب إشاعة الفاحشة، وتأثير النشوة واللذة التي تحسونها، وأنتم تنشرون هذه المنكرات؟ إنها لضلالة واستمتاع بها إلى حين، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

هل هو إصرار على ما ترونه حسنًا، ومن ثم ينطبق عليكم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف]، ثم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

ونسأل مرة أخرى: هل هو إصرار على ما يستحسنه البعض، فيرى القبيح حسنًا، اتباعًا لهوى نفسه، وما يسوله له شيطانه، ثم ترك الحُسن الحقيقي، المبني على الثبات واليقين والتأييد [**تفسير القرآن الكريم ـ أ/ محمود محمد حمزة وآخرون ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٢م، ٢٦/ ٣٦-٣٩**]، المدعم بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة؟ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد]، أيستوي الفريقان في الجزاء؟! أفمن كان منهما على معرفة بينة بخالقه ومربيه فأطاعه، كمن زين له سوء عمله، وانهمكوا في الضلال حتى عبدوا الهوى. [**صفوة التفاسير للصابوني ٣/ ٢٠٨-٢٠٩**].

إن من يتبع هوى نفسه، ولا يتدبر في البرهان، ولا يفكر في البيان، فيكون في غاية البُعد عن السلوك القويم، والمسار الصحيح. [**تفسير الفخر الرازي ـ دار الفكر ـ بيروت ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م، ١٤/ ٥٣**].

ولا نملك هنا إلا ترديد قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك].

(٢) **مثال للإصرار على إشاعة المنكرات الإعلامية:** هناك عدد كبير لا يقع تحت الحصر للممارسات الخاطئة، التي تمارسها بعض وسائل الإعلام؛ ولذلك نكتفي بتقديم مثال لإصرار تلك الوسائل، على إشاعة المنكرات الإعلامية، بل وتحدي مشاعر المسلمين، واستفزاز شبابهم، وفيما يلي هذا المثال: «نشرت إحدى الصحف تعليقًا لأحد كُتابها [**جريدة الأهرام في ١٢/ ٩/ ١٩٩٢م، ص ٢**] بقوله: «للمرة الثالثة تعرض القناة الثانية ـ في إحدى الدول العربية ـ مسلسل عائلة كولبي، الذي يتناول سيرة عائلة أمريكية شديدة الانحلال والانحطاط، إلى حد أن جميع رجال ونساء تلك الأسرة تقريبًا يمارسون الجنس مع المحارم، ببساطة مذهلة واستجابة تامة، وهو ما يؤدي في جيل تال، إلى أن يزاول الأخوة الحرام... والبشاعة مع بعضهم وأبنائهم!

إن هذا المسلسل يثير عجب الكثيرين وسخطهم، ويدفعهم إلى التساؤل عن الدافع لعرض هذا المسلسل مرة ثانية، ثم ثالثة! خاصة أن تلك الأخيرة تحدث في فترة ما قبل المغرب خلال أجازة الصيف، مما يتم مشاهدتها أمام الشباب بمختلف فئاتهم وطبقاتهم الاجتماعية وأعمارهم، وبينهم طلبة وطالبات في سن المراهقة، فضلًا عن مشاهدتها أيضًا، ممن قد لا يفكرون كثيرًا في معقولية ما يشاهدونه، ولا يتصورون أن المسألة ليست أكثر من خيال وتأليف وإخراج، لا يهدف إلا إلى إثارة الخيال لدى الكبار الطاعنين في السن.

نعم إن تلك النوعية الشاذة من المسلسلات الأجنبية، لا يرحب عموم أبناء البلاد التي أنجبتها، حتى ولو كانوا أوربيين بمشاهدتها؛ وذلك لأن تلك النوعية تنتجها بعض محطات التلفزيون أو الشركات خصيصًا للعرض صباحًا وظهرًا للطاعنين في السن المقيمين في البيوت ودور الضيافة الخاصة بهم؛ ولذلك لا يعرضونها غالبًا على الشاشة الصغيرة، في الفترات المسائية؛ لأنهم يعتبرونها شبيهة بالأفلام السينمائية الفاضحة التي تعرض في دور خاصة بها، سواء في أوربا أم أمريكا، وتلك الدور أيضًا لا يدخلها غالبًا إلا الطاعنون في السن من الرجال والنساء، والمرضى بالعجز وعدم الثقة والمشوهون».

انتهى التعليق، ولا تعليق إلا أن نقول: إنه مثال لإشاعة المنكرات الإعلامية، عن عمد وسبق إصرار ليست مرة ولكن ثانية وثالثة!

(٣) **مثالان لرفض المنكرات الإعلامية**: نقدم فيما يلي مثالين لرفض المنكرات الإعلامية في دول غير إسلامية، مما يعد خطوة لتصحيح بعض المسارات الإعلامية، في وقت وقفت فيه بعض وسائل الإعلام الإسلامية بإصرار، على إشاعة هذه المنكرات، وفيما يلي المثال الأول عن رفض الغزو الفكري، والآخر عن التخلي عن الإصرار على عينة من المنكرات الإعلامية، وفيما يلي عرض سريع لكل منهما:

(أ) **رفض الغزو الفكري**: أصدرت الحكومة الصينية قرارًا بمنع احتفالات (الكريسماس) وعيد الحب، وكذبة إبريل في المدارس والجامعات؛ لأنها احتفالات غربية، ولا علاقة لها بالتقاليد الصينية، وكانت الجامعات والمدارس الصينية، قد بدأت مؤخرًا تنظيم الاحتفالات الراقصة، خلال المناسبات، التي تحتفل بها الدول الغربية، مما أثار حفيظة عدد كبير من المسؤولين.

[جريدة الأهرام في ١٠/ ١٢/ ١٩٩٣م، ص ٤].

(ب) **التخلي عن الإصرار على المنكرات الإعلامية**: نود أن نعطي مثالًا آخرَ عن رفض المنكرات الإعلامية، وذلك بالتخلي عن الإصرار على ممارسة نشر هذه المنكرات، والسؤال: من الذي تخلى عن الإصرار ورفض المنكر؟ لقد رفض في بلد غير مسلم، رفض في فرنسا، بلد الحرية والثورة الدائمة على القيود والسماح بالحريات الفردية.

وهذا المثال هو خلاصة ما نشرته الصحف الفرنسية [جريدة الأهرام في ٣٠/ ٦/ ١٩٩٢م، ص ٩]، دون انتظار قرار أصدرته رئيسة بلدية (هيرببيه) السيدة جان بriاند بمنع عرض فيلم اسمه (غريزة منحطة)، وكان من الأفلام اللافتة في مهرجان (كان) السينمائي، خلال شهر مايو ١٩٩٢م، ونتيجة لهذا القرار ظلت دور السينما، التي تعاقدت على عرض هذا الفيلم مقفلة الأبواب وشباك التذاكر خال، وأعلنت رئيسة البلدية أن سبب قرارها الاستثنائي المغاير لموافقة الدولة على عرض الفيلم في فرنسا، أنها اكتشفت أن الفيلم يروج للجريمة والعنف، إلى حد التمجيد، ولا ينقص الأجيال الجديدة مزيدًا من الترويج للجرائم والعنف، كما أن الطريقة التي تتم بها جريمة الاغتصاب في الفيلم، تجعل من يشاهدها من الشبان مستعدًا للاغتصاب.

(٤) **كلمة ختامية ناصحة**: نقول لوسائل الإعلام المنحرفة، ألا تؤكد الأمثلة السابقة أنكم في عالم آخر، أين أنتم من نداءات القرآن وتعاليم السنة النبوية، وما هو موقفكم من ميثاق الشرف الإعلامي، الذي أصبح مجرد شعارات جوفاء، ليس لها من الاحترام نصيب؟ نقول لكم: ألم تعلموا أن الله يرى؟ ألا تظنون أنكم مبعوثون ليوم عظيم؟ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار].

نقول لكم: هداكم الله لما يحبه ويرضاه، ونذكركم بقول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة]، فالمصير معروف في الدنيا والآخرة، لمن يحبون أن تشيع الفاحشة، ونشر هذه المنكرات، ففي الدنيا خزي وعذاب، وفي الآخرة عذاب شديد، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور]». [**حديث الإفك من المنظور الإعلامي لرشوان ١١٢، ١٢٠-١٢٤، ١٣٤-١٤٦**].

مصادر ومراجع غزوة أُحُد

(١) **ابن ماجد الملاح** ـ د/ أنور عبد العليم ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧م.

(٢) **الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما** ـ الإمام ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (٦٤٣هـ) ـ دراسة وتحقيق د/ عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ـ ط٣ دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠ م.

(٣) **أُحُد : الآثار، المعركة، التحقيقات** ـ د/ سعود بن عبد المحيي الصاعدي، ود/ يوسف بن مطر المحمدي ـ دار المجتمع للنشر والتوزيع ـ جدة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٤) **الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة بني المصطلق** (ماجستير) ـ د/ محمد بن سليمان مراد ميرك ـ إشراف د/ عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم ـ المعهد العالي للقضاء ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٥) **الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة: دراسة فقهية مقارنة** (دكتوراه) ـ د/ محمد عبده محمد بربر ـ كلية الدراسات العليا ـ جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ـ السودان ٢٠١٥م.

(٦) **أحكام القرآن** ـ الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله، المعروف بابن العربي (٥٤٣هـ) ـ راجع أصوله وخرَّج أحاديثه وعلق عليه أ/ محمد عبد القادر عطا ـ ط٢ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م.

(٧) **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار** ـ الإمام أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي (٢٥٠هـ) ـ دراسة وتحقيق د/ عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ـ مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٨) **أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية** ـ د/ جعفر عبد السلام ـ رابطة الجامعات الإسلامية ـ القاهرة ٢٠٠٨م.

(٩) **الإدارة العسكرية في حروب الرسول محمد ﷺ** ـ العميد الركن د/ محمد ضاهر وتر ـ مطبعة الرشيد ـ حلب ـ سوريا ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

(١٠) **الأدب المفرد** ـ الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (٢٥٦هـ) ـ حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري ـ مستفيدًا من تخريجات وتعليقات العلامة الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨ م.

(١١) **الأساس في السنة وفقهها: السيرة النبوية** ـ أ/ سعيد حوى ـ دار السلام ـ القاهرة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(١٢) **الاستخبارات العسكرية في الإسلام** ـ د/ عبد الله علي السلامة المحمد مناصرة ـ ط٢ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩١ م.

(١٣) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** رضي الله عنهم ـ الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي (٤٦٣هـ) ـ تح أ/ علي محمد البجاوي ـ دار الجيل ـ بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢ م.

(١٤) **أصحاب الرسول** ﷺ ـ أ/ محمود المصري ـ دار التقوى ـ القاهرة ٢٠٠٠م.

(١٥) **الأطلس التاريخي لسيرة الرسول** ﷺ ـ أ/ سامي بن عبد الله المغلوث ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ م.

(١٦) **أطلس الحديث النبوي من الكتب الصحاح الستة: أماكن وأقوام** ـ د/ شوقي أبو خليل ـ دار الفكر ـ دمشق ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(١٧) **أطلس السيرة النبوية** ـ د/ شوقي أبو خليل ـ دار الفكر ـ دمشق ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(١٨) **أطلس القرآن** ـ د/ شوقي أبو خليل ـ دار الفكر ـ دمشق ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(١٩) **أطلس تاريخ الإسلام** ـ د/ حسين مؤنس ـ الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة ١٩٨٨م.

(٢٠) **أطلس تاريخ العرب والإسلام** ـ د/ سيف الدين الكاتب ـ ط٦ دار الشرق العربي ـ بيروت ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

(٢١) **الاكتفاء في مغازي رسول الله** ﷺ **والثلاثة الخلفاء** ـ الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي ـ (٦٣٤هـ) تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.

(٢٢) **إمتاع الأسماع بما للنبي** ﷺ **من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع** ـ الإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (٨٤٥ هـ) ـ تحقيق وتعليق أ/ محمد عبد الحميد النميسي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٢٣) **إنارة الدجى في مغازي خير الورى** ﷺ ـ شرح العلامة المحدِّث الأصولي الفقيه القاضي حسن بن محمد المشاط ـ قدَّم له د/ عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان ـ ط٢ دار المنهاج ـ بيروت وجدة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

(٢٤) **أوائل المؤمنين وأكابر المجرمين** ـ أ/ عبد الفتاح شاهين ـ شركة البوارق ـ عَمان ـ الأردن ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(٢٥) **آيات غزوتي بدر وأحد في القرآن الكريم ودلالاتها البيانية التشريعية** (دكتوراه) ـ د/ خولة حسين أحمد أبو منشار ـ د/ شحادة العمري ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة اليرموك ـ إربد ـ الأردن ٢٠٠٨م.

(٢٦) **البداية والنهاية** ـ الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ) ـ تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ دار هجر ـ القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٢٧) **البلاء الإلهي لماذا ينزل بالمسلمين؟: تطبيق عملي على غزوة أحد** ـ أ/ محمود النجيري ـ دار الصفا ـ القاهرة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٢٨) **بنو إسرائيل في القرآن والسنة** ـ د/ محمد سيد طنطاوي ـ دار الشروق ـ القاهرة ١٩٩٧م.

(٢٩) **البيان والتبيين** ـ الإمام أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) ـ تحقيق وشرح أ/ عبد السلام محمد هارون ـ ط٧ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(٣٠) **تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام** ـ الإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ) ـ تح د/ عمر عبد السلام التدمري ـ ط٢ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٣١) **التاريخ الإسلامي** ـ أ/ محمود شاكر ـ ط٤ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٣٢) **التاريخ الإسلامي مواقف وعبر** ـ د/ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ـ دار الأندلس الخضراء ـ جدة، ودار الدعوة ـ الإسكندرية ١٤٢٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٣٣) **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)** ـ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ) ـ تح أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط٤ دار المعارف بمصر ١٩٧٧م ـ ١٩٧٩م.

(٣٤) **تاريخ المدينة المنورة** ـ الإمام ابن شبَّه أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري (٢٦٢هـ) ـ تح الشيخ/ فهيم محمد شلتوت ـ مصورة عن النسخة المطبوعة على نفقة أ/ حبيب محمود أحمد ـ جدة ١٣٩٩هـ.

(٣٥) **تاريخ مدينة دمشق** ـ الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (٥٧١هـ) ـ دراسة وتحقيق أ/ محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري ـ دار الفكر ـ بيروت ١٤١٥/ ١٩٩٥م.

(٣٦) **تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ** ـ م/ يوسف أبو راس ـ دار الفرقان ـ عمان ـ الأردن ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٣٧) **تأملات في السيرة النبوية** ـ د/ محمود محمد عمارة ـ ط٣ مكتبة الإيمان ـ المنصورة ـ مصر ١٩٩٨م.

(٣٨) **تأملات في سيرة الرسول ﷺ** ـ د/ محمد السيد الوكيل ـ ط٣ دار المجتمع ـ جدة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(٣٩) **التحالف السياسي في الإسلام** ـ د/ منير محمد الغضبان ـ دار السلام ـ القاهرة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(٤٠) **تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار** ـ الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٣٢١هـ) ـ تحقيق وترتيب أ/ أبي الحسين خالد محمود الرباط ـ دار بلنسية ـ الرياض ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٤١) **التربية القيادية ـ (المنهج التربوي للسيرة النبوية)** ـ د/ منير محمد الغضبان ـ ط٤ دار الوفاء ـ المنصورة ـ مصر ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٤٢) **التربية بالأحداث والوقائع في القرآن الكريم من خلال غزوة أحد في سورة آل عمران** (دكتوراه) ـ د/ محمد حسين حسين مفتاح ـ كلية أصول الدين ـ جامعة أم درمان الإسلامية ـ السودان ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

(٤٣) **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه** ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ دار با وزير للنشر والتوزيع ـ جدة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م.

(٤٤) **تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)** ـ الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، ثم الدمشقي (٧٧٤هـ) ـ تح أ/ سامي بن محمد سلامة ـ ط٢ دار طيبة ـ الرياض ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٤٥) **تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ـ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ) ـ تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ دار هجر ـ القاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٤٦) **تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل** ـ الإمام علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي (١٩١٤م) ـ وقف على طبعه وتصحيحه، ورقم وخرج آياته وأحاديثه، وعلق عليه الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) ـ القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

(٤٧) **التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية** ـ اللواء محمد مختار باشا ـ تح د/ محمد عمارة ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٩٩م.

(٤٨) **جامع الأصول التسعة من السنة المطهرة** ـ أ/ صالح أحمد الشامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

(٤٩) **جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ** ـ الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، ابن الأثير الجَزَري (٦٠٦هـ) ـ حقق نصوصه، وخرَّج أحاديثه، وعلق عليه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ مكتبة الحلواني ـ دمشق ١٣٨٩هـ ـ ١٣٩٢هـ/ ١٩٦٩- ١٩٧٢م.

(٥٠) **الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين** ـ الشيخ أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي ـ دار الحرمين ـ القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(٥١) **جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد** ـ الإمام محمد بن محمد بن سليمان المغربي (١٠٩٤هـ) ـ تح أ/ سليمان بن دريع العازمي ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٥٢) **الجهاد** ـ الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (١٨١هـ) ـ حققه وقدم له وعلق عليه د/ نزيه حماد ـ الدار التونسية ـ تونس ١٩٧٢م.

(٥٣) **الجهاد والقتال في السياسة الشرعية** ـ د/ محمد خير هيكل ـ ط٢ دار البيارق ـ بيروت، توزيع دار ابن حزم ـ بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٥٤) **حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المصطفين الأخيار** ـ العالم الفقيه القاضي علامة اليمن محمد عمر بَحْرَقْ الحضرمي الشافعي (٩٣٠هـ) ـ اعتنى به أ/ محمد غسان نصوح عزقول ـ ط٢ دار المنهاج ـ بيروت، جدة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٥٥) **حديث الإفك** ـ الإمام أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي (٦٠٠هـ) ـ حقق نصوصه ووثقها وخرج أحاديثه وآثاره وعلق عليه الشيخ أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي، ومعه : **الذيل على حديث الإفك، نظم حديث الإفك** ـ غراس للنشر والتوزيع ـ الكويت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م ـ ٣١٥ ص.

(٥٦) **حديث الإفك من المنظور الإعلامي** ـ د/ علي محمود رشوان ـ طبعة المؤلف ـ القاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(٥٧) **حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ (بدر وأحد والحديبية وفتح مكة وحنين وتبوك)** (ماجستير ثم دكتوراه) ـ د/ محمد بن بكر بن إبراهيم آل عابد ـ ط دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ د.ت.

(٥٨) **الحرب النفسية: أضواء إسلامية** ـ د/ فهمي النجار ـ مكتبة دار الفضيلة ـ الرياض ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٥٩) **الحركات العسكرية للرسول الأعظم ﷺ في كفتي ميزان** ـ السيد الركن سيف الدين سعيد آل يحيى ـ الدار العربية للموسوعات ـ بيروت ١٩٨٣م.

(٦٠) **حكم الاستعانة بغير المسلمين في الجهاد الإسلامي** ــ د/ محمد عثمان شبير ـ دار النفائس ـ الأردن ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٦١) **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** ـ الإمام أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (٤٣٠هـ) ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ودار الفكر ـ بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٦٢) **حياة محمد** ﷺ ـ د/ محمد حسين هيكل ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ مصر ٢٠٠١م.

(٦٣) **خاتم الأنبياء محمد** ﷺ (قصص الأنبياء والتاريخ ٧) ـ د/ رشدي البدراوي ـ ط المؤلف ـ القاهرة ٢٠٠٤م.

(٦٤) **خاتم النبيين** ﷺ ـ الإمام الشيخ محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة د.ت.

(٦٥) **خطب مختارة** ـ الإدارة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ الرياض ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٦٦) **دراسة في السيرة** ــ د/ عماد الدين خليل ـ ط١٥ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٦٧) **دروس من غزوات الرسول** ﷺ ـ الشيخ محمد محمد أبو خوات ـ الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية ـ دار المعارف ١٩٦٨م.

(٦٨) **دروس من غزوة أحد** ـ د/ عبد العزيز كامل ـ ط٤ دار المعارف ـ مصر ١٩٨٣م.

(٦٩) **دلائل النبوة** ـ الإمام أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (٤٣٠ هـ) ـ تح د/ محمد رواس قلعه جي وأ/ عبد البر عباس ـ ط ٤ دار النفائس ـ بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(٧٠) **دلائل النبوة** ـ الإمام إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (٥٣٥هـ) ـ تحقيق أ/ محمد محمد الحداد ـ دار طيبة ـ الرياض ١٤٠٩هـ.

(٧١) **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** ـ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ) ـ توثيق وتخريج وتعليق د/ عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت، ودار الريان ـ القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٧٢) **دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب في ضوء القرآن الكريم** (ماجستير) ـ د/ زين علي حسن السيد ـ إشراف د/ عبد الله عبد الحي محمد ود/ هاشم عبد الظاهر ـ كلية أصول الدين والدعوة ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

(٧٣) **دولة الرسول** ﷺ **في المدينة: من التكوين إلى التمكين** ـ د/ كامل سلامة الدقس ـ دار عمار ـ عمان ـ الأردن ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(٧٤) **رجال حول الرسول ﷺ** ـ أ/ خالد محمد خالد ـ دار ثابت ـ القاهرة ١٩٩٤م.

(٧٥) **رجال مبشرون بالجنة** ـ أ/ أحمد خليل جمعة ـ ط٥ دار ابن كثير ـ دمشق، ودار طيبة الخضراء ـ مكة المكرمة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٧٦) **الرحيق المختوم** ـ الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ـ ط٢٠ دار الوفاء ـ المنصورة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

(٧٧) **رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود** ـ د/ طه الدسوقي حبيشي ـ ـ مكتبة رشوان ـ القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٧٨) **الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقية المنصفة** ـ أ/ محمد شريف الشيباني ـ موقع صيد الفوائد على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

(٧٩) **الرسول ﷺ والحرب النفسية** ـ الشيخ منصور محمد محمد عويس ـ مكتبة النجاح ـ طرابلس ـ ليبيا ١٩٧٥م.

(٨٠) **الرسول ﷺ واليهود وجهًا لوجه: دراسة تحليلية عبر التاريخ في ضوء الكتاب والسنة** ـ د/ سعد المرصفي ـ ط٢ مكتبة ابن كثير ـ الكويت، ومؤسسة الريان ـ بيروت ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٨١) **الرسول القائد ﷺ** ـ ل.ر/ محمود شيت خطاب ـ ط٦ دار الفكر ـ بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

(٨٢) **الروض الأُنُفُ في شرح السيرة النبوية لابن هشام** ـ الإمام المحدث أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن السهيلي (٥٨١ هـ) ـ تحقيق وتعليق وشرح الشيخ عبد الرحمن الوكيل (ومعه السيرة النبوية لابن هشام) ـ مكتبة ابن تيمية ـ الجيزة ـ مصر ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٨٣) **زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ** ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، ابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) ـ حقق نصوصه، وخرَّج أحاديثه، وعلق عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ ط ٢٧ مؤسسة الرسالة ـ بيروت، مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(٨٤) **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ﷺ (السيرة الشامية)** ـ الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (٩٤٢هـ) ـ تح د/ مصطفى عبد الواحد وآخرين ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٤ – ٢٠٠٧م.

(٨٥) **السرايا الحربية في العهد النبوي** ـ د/ محمد سيد طنطاوي ـ مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧١م.

(٨٦) **السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة: دراسة نقدية تحليلية** (ماجستير) ـ د/ بريك بن محمد بريك أبو مايلة ـ إشراف د/ أكرم ضياء العمري ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤١٢هـ ـ ط دار ابن الجوزي ـ الدمام السعودية ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م.

(٨٧) **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه: **السبَّاق للإسلام المبشر بالجنة والقائد المجاهد** ـ د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي ـ دار القلم ـ دمشق ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٨٨) **سلسلة الأحاديث الصحيحة** ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ١٩٩٥م.

(٨٩) **سلسلة الأحاديث الضعيفة** ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ١٩٩٢م.

(٩٠) **السنة** ـ الإمام أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (٢٨٧هـ) ـ ومعه **ظلال الجنة في تخريج السنة** ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٩١) **السنن** ـ الإمام الحافظ سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني المكي (٢٢٧هـ) ـ حققه وعلق عليه الأستاذ المحدث الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ـ الدار السلفية ـ الهند ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

(٩٢) **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية** ـ د/ عبد الكريم زيدان ـ ط٣ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٩٣) **سنن الدارمي (مسند الدارمي)** ـ الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (٢٥٥هـ) ـ تحقيق أ/ حسين سليم أسد الداراني ـ دار المغني ـ الرياض ١٤٢٠ هـ.

(٩٤) **السنن الكبرى** ـ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨هـ) ـ تح أ/ محمد عبد القادر عطا ـ ط٣ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، وط تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ مركز هجر ـ القاهرة ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

(٩٥) **السنن الكبرى** ـ الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ) ـ قدم له د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ أشرف عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط ـ حققه وخرَّج أحاديثه الشيخ حسن عبد المنعم شلبي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(٩٦) **سير أعلام النبلاء** ـ الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، الدمشقي (٧٤٨ هـ) ـ أشرف على تحقيق الكتاب وخرَّج أحاديثه الشيخين شعيب الأرناؤوط وحسين أسد وزملائهما ـ ط٩ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، وقسم (السيرة النبوية) ـ حققه، وضبط نصه، وعلق عليه د/ بشار عواد معروف ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٩٧) **السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** ﷺ ـ الإمام علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (١٠٤٤هـ) دار المعرفة بيروت ـ توزيع مكتبة الإيمان ـ المنصورة ـ مصر د.ت.

(٩٨) **السيرة النبوية** ـ الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري الحميري (٢١٨ هـ) ـ تح أ/ مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ـ ط٢ مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

(٩٩) **السيرة النبوية الصحيحة** ـ د/ أكرم ضياء العمري ـ ط٥ مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(١٠٠) **السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة** ـ أ/ محمد إبراهيم شقرة ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(١٠١) **السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة** ـ د/ محمد بن محمد أبو شهبة ـ ط٧ دار القلم ـ دمشق ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(١٠٢) **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية** ـ د/ مهدي رزق الله أحمد ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ـ الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(١٠٣) **السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة: قراءة جديدة** ـ أ/ محمد بن حمد الصوياني ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤ م.

(١٠٤) **السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث** ـ د/ علي محمد الصلابي ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ القاهرة ٢٠٠١م.

(١٠٥) **سيف الله خالد بن الوليد** رضي الله عنه: **دراسة عسكرية تاريخية عن معاركه وحياته** ـ الجنرال أ.أكرم ـ ترجمة العميد الركن صبحي الجابي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(١٠٦) **شرح السيرة النبوية** ـ رواية ابن هشام ـ الإمام أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشني (٦٠٤هـ) ـ تصحيح أ/ بولس برونله ـ المطبعة الهندية بالموسكي ـ القاهرة ١٣٢٩هـ.

(١٠٧) **شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للعلامة القسطلاني (٩٢٣هـ)** ـ الشيخ محمد الزرقاني بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن علوان المصري ـ ضبطه وصححه أ/ محمد عبد العزيز الخالدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(١٠٨) **شرح معاني الآثار** ـ الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٣٢١هـ) ـ تح أ/ محمد زهري النجار ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٣٩٩هـ.

(١٠٩) **شعب الإيمان** ـ الإمام أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (٤٥٨هـ) ـ تحقيق د/ عبد العلي عبد الحميد حامد ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(١١٠) **الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ** ـ الإمام القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٥٤٤هـ) ـ تح أ/ علي محمد البجاوي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(١١١) **شهداء الصحابة ﭫ في صدر الإسلام** ـ أ/ محمد فهمي عبد الوهاب ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ١٩٨٠م.

(١١٢) **صحيح ابن حبان** ـ الإمام محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي أبو حاتم البستي (٣٥٤هـ) ـ تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(١١٣) **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)** ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ ط ٣ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(١١٤) **صحيح السيرة النبوية** ـ الشيخ إبراهيم العلي ـ تقديم د/ عمر سليمان الأشقر ـ راجعه د/ همام سعيد ـ دار النفائس ـ عمان ـ الأردن ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(١١٥) **صحيح السيرة النبوية المسماة بالسيرة الذهبية** ـ الشيخ محمد بن رزق بن طرهوني ـ دار ابن تيمية ـ القاهرة ١٤١٠هـ.

(١١٦) **الصحيح من أحاديث السيرة النبوية** ـ أ/ محمد الصوياني ـ مدار الوطن للنشر ـ الرياض ١٤٣٤هـ/ ٢٠١١م.

(١١٧) **الصراع مع اليهود** ـ د/ محمد عبد القادر أبو فارس ـ دار الفرقان ـ عمان ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(١١٨) **صليبية إلى الأبد** ـ أ/ عبد الفتاح عبد المقصود ـ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥م.

(١١٩) **صور من جهاد الصحابة ﭫ : عمليات جهادية خاصة تنفذها مجموعات خاصة من الصحابة ﭫ** ـ د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي ـ ط٣ دار القلم ـ دمشق ـ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(١٢٠) **صور من حياة الرسول ﷺ** ـ أ/ أمين دويدار ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٧٢م.

(١٢١) **صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة** ـ د/ محمد فوزي فيض الله ـ دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(١٢٢) **صيانة الإسلام للعرض والنسب** (ماجستير) ـ د/ شريف بن علي الشريف ـ إشراف د/ محمد خليل هراس ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الملك عبد العزيز ـ مكة المكرمة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

(١٢٣) **ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)** ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ ط٢ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(١٢٤) **ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية** ـ د/ محمد سعيد رمضان البوطي ـ ط٥ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٩٠م.

(١٢٥) **الطبقات الكبرى (الكبير)** ـ الإمام محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (٢٣٠هـ) ـ تحقيق د/ علي محمد عمر ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ٢٠٠٢م.

(١٢٦) **العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ** ـ العميد/ محمد فرج ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٧م.

(١٢٧) **عشرون محاولة لاغتيال الرسول ﷺ** ـ د/ صفوت يوسف زيد ـ مطبعة أولاد عبد العال ـ القاهرة ١٩٨٥م.

(١٢٨) **علاقة القبائل العربية المقيمة حول المدينة بالدولة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ** (١-١١هـ/ ٦٢٢-٦٣٢م) (دكتوراه) ـ د/ محمد بن صالح بن محمد العسكر ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض ١٤١٩هـ، ط مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ـ الرياض ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(١٢٩) **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** ـ الإمام الحافظ أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري (٧٣٤هـ) ـ حقق نصوصه وخرَّج أحاديث وعلق عليه د/ محمد العيد الخطراوي ود/ محيي الدين مستو ـ مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة، ودار ابن كثير بدمشق وبيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٤م.

(١٣٠) **الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب** ـ العميد الركن إبراهيم إسماعيل كاخيا ـ دار حسان للطباعة والنشر ـ دمشق ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(١٣١) **غزوات النبي ﷺ** ـ أ/ محمد علي قطب ـ ط٤ دار الدعوة ـ الإسكندرية ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

(١٣٢) **غزوات مع اليهود «الغزوات في ظلال القرآن»** ـ أ/ سيد قطب ـ إعداد أ/ جمال ماضي ـ دار الدعوة ـ الإسكندرية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(١٣٣) **غزوة أُحُد** ـ أ/ عبد السلام محمود الشافعي ـ المكتب العربي للطباعة ـ القاهرة ـ د.ت.

(١٣٤) **غزوة أُحُد** ـ الشيخ محمد أحمد باشميل ـ ط ٥ المكتبة السلفية ومطبعتها ـ القاهرة ١٤٠٦هـ.

(١٣٥) **غزوة أُحُد** ـ د/ محمد عبد القادر أبو فارس ـ ط٢ دار الفرقان ـ عمان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

(١٣٦) **غزوة أحد: دراسة تحليلية من خلال السيرة النبوية** (ماجستير) ـ د/ حمود على ناصر السعيدي ـ إشراف د/ الشريف المدثر القطبي ـ كلية الدراسات العليا ـ جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ـ أم درمان ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١٣٧) **غزوة أحد: دروس وعبر** ـ الشيخ أمير بن محمد المدري ـ سلسلة غزوات النبي المصطفى ﷺ دروس وعبر (٢) ـ مكتبة خالد بن الوليد، عالم الكتب اليمنية ـ صنعاء ـ اليمن د.ت.

(١٣٨) **غزوة أُحُد: وصفها وبيان بطولات الصحابة فيها وتقديم أنفسهم فداء لرسول الله ﷺ ودفاعهم عنه** ـ أ/ سليمان بن شتيوي المهدوي العوفي ـ ط المؤلف ـ المدينة المنورة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م.

(١٣٩) **غزوة أُحُد «الغزوات في ظلال القرآن»** ـ أ/ سيد قطب ـ إعداد أ/ جمال ماضي ـ دار الدعوة ـ الإسكندرية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(١٤٠) **غزوة أُحُد: حلقة من حلقات الصراع بين أعظم قوة إنسانية عرفها البشر وبين العوامل المدمرة البشرية** ـ أ/ أحمد عز الدين عبد الله خلف الله ـ المكتبة الإسلامية التجارية ـ القاهرة ١٩٥٩م.

(١٤١) **غزوة أُحُد: دراسة دعوية** ـ د/ محمد بن عيظة بن سعيد بامدحج ـ دار إشبيليا ـ الرياض ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١٤٢) **غزوة أُحُد: عاقبة المخالفة** (غزوات الرسول الأعظم ﷺ) ـ د/ شوقي أبو خليل ـ دار الفكر ـ دمشق ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(١٤٣) **غزوة أُحُد: فلسفة البلاء في ضوء الكتاب والسنة** ـ د/ الحسيني محمد إسماعيل أبو فرحة ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، وأصله رسالة ماجستير بعنوان: **غزوة أُحُد في الكتاب والسنة** ـ إشراف د/ محمد علي أبو الروس ـ كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة ١٩٦٨م.

(١٤٤) **غزوة الأحزاب** ـ أ/ عبد السلام محمود الشافعي ـ المكتب العربي للطباعة ـ القاهرة د.ت.

(١٤٥) **غزوة الأحزاب** ـ الشيخ محمد أحمد باشميل ـ ط ٦ المكتبة السلفية ومطبعتها ـ القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(١٤٦) **غزوة الأحزاب** ـ د/ محمد عبد القادر أبو فارس ـ دار الفرقان ـ عمان الأردن ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(١٤٧) **غزوة الخندق: غزوة الأحزاب** ـ د/ شوقي أبو خليل ـ دار الفكر ـ دمشق، ودار الفكر المعاصر ـ بيروت ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(١٤٨) **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** ـ الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ـ تـح أ/ محمـد فؤاد عبد الباقي وأ/ محب الدين الخطيب ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(١٤٩) **الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني** ـ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنـا ـ دار الشهاب ـ القاهرة ـ د.ت.

(١٥٠) **فرسان النهار من الصحابة الأخيار** رضي الله عنهم ـ د/ سيد حسين العفاني ـ ط٢ دار ماجد عسيري ـ السعودية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

(١٥١) **فرسان من عصر النبوة** ـ أ/ أحمد خليل جمعة ـ اليمامة ـ دمشق ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١٥٢) **الفقه الإسلامي وأدلته** ـ د/ وهبة الزحيلي ـ ط٢ دار الفكر ـ دمشق ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(١٥٣) **فقه السرايا** ـ د/ محمود خلف جَراد العيساوي ـ دار عمار ـ الأردن ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(١٥٤) **فقه السيرة** ـ الشيخ محمد الغزالي ـ خرج أحاديثه الشـيخ محمـد نـاصر الـدين الألبـاني ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة ١٩٨٧م، وط دار القلم ـ دمشق ١٤٢٧ هـ.

(١٥٥) **فقه السيرة** ـ د/ زيد بن عبد الكريم الزيد ـ دار العاصمة ـ الرياض ١٤٢٤هـ.

(١٥٦) **فقه السيرة** ـ د/ محمد سعيد رمضان البوطي ـ ط ٦دار السلام ـ القاهرة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(١٥٧) **فقه الغزوات** ـ د/ محمود خلف جَراد العيساوي ـ دار عمار ـ الأردن ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(١٥٨) **الفن الحربي في صدر الإسلام** ـ ل/ عبد الرؤوف عون ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٦م.

(١٥٩) **في رحاب التفسير** ـ الشيخ عبد الحميد كشك ـ المكتب المصري الحديث ـ القاهرة ١٩٨٨م.

(١٦٠) **في رحاب خاتم رسل الله** ﷺ ـ بروفيسور محمد صالح محيي الدين محمد ـ دار الوفـاء ـ المنصـورة ـ مصر ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

(١٦١) **في ظلال القرآن** ـ أ/ سيد قطب ـ ط٢٢ دار الشروق ـ القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(١٦٢) **في منزل الوحي** ـ د/ محمد حسين هيكل ـ ط٨ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٦م.

(١٦٣) **قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام وأبيدوا أهله** ـ أ/ جلال العـالم ـ دار السـلام ـ القـاهرة ١٩٨٦م.

(١٦٤) **قادة النبي** ﷺ ـ اللواء محمود شيت خطاب ـ ط٢ دار القلم ـ دمشق ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١٦٥) **القاموس المحيط** ـ الإمام مجد الدين محمـد بـن يعقـوب بـن إبـراهيم بـن عمـر الشـيرازي الفيروزآبادي (٨١٦هـ) ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

(١٦٦) **قـراءة سياسـية للسـيرة النبويـة** ـ د/ محمـد رواس قلعجـي ـ ط٢ دار النفـائس ـ بـيروت ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(١٦٧) **القصيدة الوضاحية في مدح السيدة عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها ـ الإمام أبو عمران الفليشي موسى بن محمد بن عبد الله الكفيف المَرِّيِّ الأندلسي، المعروف بابن بهيج (ت بعد ٤٩٦ هـ) ـ اعتنى به أ/ نظام محمد صالح يعقوبي ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢ م.

(١٦٨) **قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية** ـ أ/ أحمد راتب عرموش ـ دار النفائس ـ بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٨٩م.

(١٦٩) **القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ** ـ د/ عبد الله بن محمد بن عبد الله الرشيد ـ دار القلم ـ دمشق ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(١٧٠) **القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات** ـ أ/ حسن فتح الباب ـ مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

(١٧١) **كبرى المعارك والفتوحات الإسلامية الكبرى** ـ أ/ محمد سعيد مرسي ـ مؤسسة اقرأ ـ القاهرة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(١٧٢) **الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه** ـ اعتنى به أ/ رائد بن صبري بن أبي علفة ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(١٧٣) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** ـ الإمام جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ) ـ تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(١٧٤) **كشف الأستار عن زوائد البزار** ـ الإمام الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي (٨٠٧هـ) ـ تح الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(١٧٥) **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال** ـ الإمام علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين بن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، الشهير بالمتقي الهندي (٩٧٥هـ) ـ ضبطه وفسر غريبه الشيخ بكري حيَّاني، وصححه ووضع فهارسه ومفتاحه أ/ بكري حياني، وأ/ صفوة السقا ـ ط٥ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(١٧٦) **لسان العرب** ـ الإمام جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأفريقي المصري (٧١١هـ) ـ تح أ/ عبد الله علي الكبير، وأحمد حسب الله، وهاشم الشاذلي ـ دار المعارف ـ مصر د.ت.

(١٧٧) **مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ** (دكتوراه) ـ د/ محمد لقمان الأعظمي الندوي ـ تقديم الشيخ أبي الحسن الندوي ود/ يوسف خليف ـ دار المعالم الثقافية ـ الإحساء ـ السعودية ١٩٨٩م.

(١٧٨) **مجمع البحرين في زوائد المعجمين: المعجم الأوسط والمعجم الصغير للطبراني** ـ الإمام الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي (٨٠٧ هـ) ـ تحقيق ودراسة أ/ عبد القدوس بن محمد نذير ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(١٧٩) **مجمع الزوائد = بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ـ الإمام الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي (٨٠٧ هـ) ـ تحقيق أ/ عبد الله محمد الدرويش ـ دار الفكر ـ بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(١٨٠) **مجموع فيه عشرة أجزاء حديثية** ـ تحقيق أ/ جرار نبيل سعد الدين جرار ـ مكتبة البشائر الإسلامية ـ بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(١٨١) **مجموعة الفتاوى** ـ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني (٧٢٨هـ) ـ اعتنى بها وخرج أحاديثها أ/ عامر النجار، د/ أنور الباز ـ ط٢ دار الوفاء بالمنصورة ـ مصر ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(١٨٢) **محمد ﷺ القائد الأعظم في الحرب والسلام** ـ أ/ محمد عبد المنعم رضوان ـ دار المأمون ـ القاهرة ١٩٨٤م.

(١٨٣) **محمد ﷺ واليهود: نظرة جديدة** ـ د/ بركات أحمد ـ ترجمة أ/ محمود علي مراد ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٨م.

(١٨٤) **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة** ـ بحث وتحقيق ـ الشيخ محمد الصادق عرجون ـ دار القلم ـ دمشق ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(١٨٥) **مختار الصحاح** ـ الإمام زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (٦٦٦هـ) ـ تحقيق أ/ يوسف الشيخ محمد ـ ط٥ المكتبة العصرية ـ بيروت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١٨٦) **المدرسة النبوية العسكرية** ـ د/ محمد عبد القادر أبو فارس ـ دار الفرقان ـ عمان ـ الأردن ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

(١٨٧) **المدينة المنورة عاصمة الإسلام** ـ د/ محمد السيد الوكيل ـ دار المجتمع ـ جدة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(١٨٨) **المرأة في القصص القرآني** ـ د/ أحمد محمد الشرقاوي ـ دار السلام ـ القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(١٨٩) **مرويات الإمام الزهري في المغازي: جمعًا ودراسة** (دكتوراه) ـ د/ محمد بن محمد بن علي العواجي ـ إشراف د/ أكرم ضياء العمري ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤١٨هـ، ط الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(١٩٠) **مرويات السرايا والبعوث النبوية: دراسة حديثية تحليلية** (ماجستير) ـ د/ محمد عبد الستار إبراهيم القرشي ـ إشراف د/ علام محمدين علام، ود/ أحمد مصطفى الخضراوي ـ كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية ـ جامعة المنوفية ـ مصر ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

(١٩١) **مرويات غزوة الحديبية: جمع وتخريج ودراسة** (ماجستير) ـ د/ حافظ بن محمد بن عبد الله الحكمي ـ إشراف د/ أكرم ضياء العمري ـ قسم السنة النبوية ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة، ط منشورات المجلس العلمي ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٠٦ هـ، وط٢ ـ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٤م.

(١٩٢) **مرويَّات غزوة الخندق** (ماجستير) ـ جمع ودراسة د/ إبراهيم بن محمد عمير مدخلي ـ إشراف د/ عبد المحسن بن حمد العباد ـ كلية الحديث الشريف ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، ط الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

(١٩٣) **مرويَّات غزوة بني المصطلق، وهي غزوة المريسيع: جمع وتحقيق ودراسة** (ماجستير) ـ د/ إبراهيم بن إبراهيم قريبي ـ إشراف د/ أكرم ضياء العمري ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ـ ط مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣م ، وط٢ الجامعة الإسلامية ـ إحياء التراث الإسلامي (٥) ـ المدينة المنورة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(١٩٤) **المستدرك على الصحيحين** ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري، المعروف بابن البيع (٤٠٥ هـ) ـ تح أ/ مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، وط بتحقيق الشيخ مقبل بن هادي الوادعي ـ دار الحرمين ـ القاهرة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(١٩٥) **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة** ـ د/ عبد الكريم زيدان ـ ط٢ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(١٩٦) **المستوطنات اليهودية على عهد الرسول** ﷺ ـ د/ أحمد علي المجدوب ـ ط٢ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(١٩٧) **المسند** ـ الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (٢٤١هـ) ـ حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط وآخرون ـ ط٢ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١٩٨) **مسند الإمام ابن الجعد** ـ الإمام علي بن الجَعْد بن عبيد الجوهري البغدادي (٢٣٠هـ) ـ تحقيق أ/ عامر أحمد حيدر ـ مؤسسة نادر ـ بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(١٩٩) **مسند الإمام أبي داود الطيالسي** ـ الإمام أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي ـ البصري (٢٠٤هـ) ـ تح د/ محمد بن عبد المحسن التركي ـ دار هجر ـ القاهرة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(٢٠٠) **مسند الإمام أبي يعلى الموصلي** ـ الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى أبي يعلى الموصلي التميمي (٣٠٧هـ) ـ حققه وخرج أحاديثه الشيخ حسين سليم أسد ـ دار المأمون للتراث ـ دمشق ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢٠١) **مسند الإمام البزار** ـ الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي، المعروف بالبزار (٢٩٢هـ) ـ تح د/ محفوظ الرحمن زين الله ود/ عادل سعد ود/ صبري عبد الخالق ـ مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ١٩٨٨م.

(٢٠٢) **مسند الشاميين** ـ الإمام سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبو القاسم الطبراني (٣٦٠هـ) ـ تح الشيخ حمدي عبد المجيد السلفي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

(٢٠٣) **المصنف** ـ الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (٢٣٥هـ) ـ حققه وقوَّم نصوصه وخرَّج أحاديثه الشيخ محمد عوَّامة ـ دار القبلة بجدة، ومؤسسة علوم القرآن بدمشق ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

(٢٠٤) **المصنَّف** ـ الإمام الحافظ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ) ـ عني بتحقيق نصوصه، وتخريج أحاديثه، والتعليق عليه الشيخ المحدث حبيب الرحمن الأعظمي ـ المجلس العلمي بالهند ـ توزيع المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٢٠٥) **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية** ـ الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ـ ج١٧ تح د/ خالد بن عبد الرحمن بن سالم البكر ـ تنسيق د/ سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشَّثري ـ دار العاصمة ودار الغيث ـ الرياض ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٢٠٦) **المعجم الأوسط** ـ الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠ هـ) ـ تح أ/ طارق بن عوض الله بن محمد وأ/ عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ـ دار الحرمين ـ القاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(٢٠٧) **معجم البلدان** ـ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (٦٢٦هـ) ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٢٠٨) **المعجم الصغير** = **الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني** ـ الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠ هـ) ـ تح أ/ محمد شكور محمود الحاج أمرير ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٢٠٩) **المعجم الكبير** ـ الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) ـ حققه وخرَّج أحاديثه أ/ حمدي عبد المجيد السلفي ـ ط٢ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة د.ت.

(٢١٠) **المعجم المختصر للوقائع: التاريخية، العسكرية، الاجتماعية، الدينية، من بدء الهجرة حتى عام ١٩٥٠م** ـ أ/ سالم سليمان العيس ـ دار النمير ـ دمشق ١٩٩٨م.
(٢١١) **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية** ـ المقدم/ عاتق بن غيث البلادي ـ دار مكة للنشر والتوزيع ـ مكة المكرمة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
(٢١٢) **المعجم الوسيط** ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ دار الدعوة ـ الإسكندرية د.ت.
(٢١٣) **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع** ـ الوزير الفقيه أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (٤٨٧ هـ) ـ حققه وضبطه أ/ مصطفى السقا ـ ط٣ عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
(٢١٤) **معجم معالم الحجاز** ـ د/ عاتق بن غيث البلادي ـ ط٢ دار مكة ـ مكة المكرمة، ومؤسسة الريان ـ بيروت ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
(٢١٥) **معركة أُحُد** ـ الفريق الركن سالم حسين العلي ـ مركز البحوث والمعلومات ـ بغداد ـ ط دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
(٢١٦) **معركة النبوة مع أهل الكتاب** ـ أ/ محمد عزة دروزة ـ البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية (الدوحة ١٤٠٠هـ) ٦/ ٥٤٦ ـ ٥٤٩ ـ عني بطبعة ومراجعته أ/ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
(٢١٧) **المغازي** ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد، المعروف بالواقدي (٢٠٧هـ) ـ تحقيق د/ مارسدن جونس ـ طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ د.ت.
(٢١٨) **مفاهيم تربوية** ـ الشيخ محمد عبد الله الخطيب ـ ط٢ دار المنار الحديثة ـ القاهرة ١٩٩٠م.
(٢١٩) **مفاهيم تربوية من غزوة أُحُد** ـ أ/ عكاشة محمود عبَّاد ـ تقديم أ/ وجدي غنيم ـ طبعة المؤلف ـ القاهرة ١٩٩٩م.
(٢٢٠) **مقاطعة اليهود والأمريكان من صفات عباد الرحمن** ـ م/ صالح عبد الحميد البنا ـ ط شركة زهرة المدائن بالمنصورة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
(٢٢١) **مقاطعة بضائع الأعداء فريضة وضرورة** ـ الشيخ محمد السيد الشناوي ـ أُحد للدعاية والكمبيوتر ـ القاهرة ٢٠٠٤م.
(٢٢٢) **من معين السيرة** ـ أ/ صالح أحمد الشامي ـ ط٣ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
(٢٢٣) **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج** ـ الإمام أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) ـ ط٢ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧١م.

(٢٢٤) **المنهج الحركي للسيرة النبوية** ـ د/ منير محمد الغضبان ـ ط٦ مكتبة المنار ـ الأردن ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(٢٢٥) **المنهج القرآني في علاج أخطاء المؤمنين في العهد النبوي: دراسة موضوعية** (ماجستير) ـ د/ هيام عبد القادر جبر فرحات ـ إشراف د/ عبد الكريم حمدي خليل الدهشان ـ الجامعة الإسلامية ـ كلية أصول الدين ـ غزة ـ فلسطين ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

(٢٢٦) **موارد الظمآن لدروس الزمان** ـ الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ـ طُبع على نفقة جماعة من المحبين للخير ـ ط ٣٠ ـ السعودية ١٤٢٤ هـ.

(٢٢٧) **موسوعة الفداء في الإسلام** ـ د/ أحمد الشرباصي ـ دار الجيل ـ بيروت١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(٢٢٨) **موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر** ـ د/ عبد الحليم عويس ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ مصر ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢٢٩) **النهاية في غريب الحديث والأثر** ـ الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (٦٠٦هـ) ـ تح د/ طاهر أحمد الزاوي، ود/ محمود محمد الطناحي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٢٣٠) **النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية** ـ أ/ محمد فتح الله كولن ـ ترجمة أ/ أورخان محمد علي ـ دار النيل ومؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٢٣١) **هدي السيرة: في رحاب السيرة العطرة** ـ الشيخ عبد الحفيظ فرغلي القرني ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٨٣م.

(٢٣٢) **والله يعصمك من الناس: عرض تاريخي أدبي لمحاولات اغتيال الرسول ﷺ** ـ د/ أحمد الجدع ـ دار الضياء ـ الأردن ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٢٣٣) **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ** ـ الإمام نور الدين علي بن عبد الله بن أحمد الحسيني الشافعي السمهودي (٩١١هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٢٣٤) **وقفات تربوية مع السيرة النبوية** ـ أ/ أحمد فريد ـ دار العقيدة ـ الإسكندرية ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

[١] فهرس الموضوعات التفصيلي للجزء الثاني من غزوة أُحد

[٢] فهرس الموضوعات الإجمالي للجزء الثاني من غزوة أُحد